مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الثامِنَ عَشَرَ

سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14

موسوعة التفسير البلاغي

حكومة الشارقة Government of Sharjah
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

المُجَلَّدُ الثَّامِنَ عَشَرَ

سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشَّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2024

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 18 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-15-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 18 : المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-15-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0758707 بتاريخ 2024/01/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزءُ العَاشِرُ

سُورَةُ التَّوبَةِ

﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٨٧﴾ [التّوبة: 87]

كشفُ دواخِلِ المُتَخلِّفينَ عن الجِهادِ، وربطه بعدم الفقه، والطّبع على القلوب

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذكرت الآيات السّابقة حال المُخلّفين عن الجهاد مع رسول اللّه ﷺ وفرحَهم بمِقعدهم خِلَاف رسول اللّه، واستئذانَ أولي الطَّول منهم رسولَ اللّه ﷺ بأنْ يكونُوا مع القاعدين عن الجهاد، فجاءت هذه الآية لتَصِف دواخل نفوسهم؛ بأنّهم قد رضوا هذا الحال بأنْ يكونوا مع الخوالف، فأدّى ذلك إلى الطَّبع على قلوبهم المريضةِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَضُواْ﴾: جذر الكلمة هو (رضي)؛ رضيتُ الشّيءَ ورضيتُ به رِضًا: اخترتُه وارتضيتُه[1]؛ والرِّضَا خلافُ السَّخَط[2]. قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة: 119 والتّوبة: 100]، ورضا العبد عن اللّه أن لا يَكره ما يجري به قضاؤه، ورضا اللّه عن العبد أن يراه مؤتمِرًا لأمره، ومنتهيًا عن نهيه[3]. وقوله تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ هو الارتياح النّفسيُّ والاطمئنان للقعود عن الجهاد، واختيار معيّة الخوالف على معيّة الرّسول ﷺ.

2) ﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾: جذر الكلمة هو (خلف)؛ الخَلْفُ: ضدُّ قُدّام[4]. وخَلَفَ فلانٌ بعقب فلانٍ إذا خالَفَه إلى أهله[5]. قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ [الأعراف: 169]. ويُقال: هؤلاء خَلْفُ سوءٍ، وهذا خَلْفُ سوءٍ[6].

(1) الفيوميّ، المصبَاحُ المُنير، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (رضي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيوميّ، المصباح المنير: (رضي).
(3) الرّاغب، المُفردات: (رضي).
(4) الأزهريّ، تهذيبُ اللّغة: (خلف).
(5) الخليل، العين: (خلف).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خلف).

وَفُلَانٌ خالِفةٌ من الْخَوَالِف إذا كَانَ لَا خير عِنْده[1].قال مجاهد وقتادة: الخَوالِفُ: النِّسَاء، وقال غيرهما: الخَوالِفُ: أخسَّاءُ بعضِ النَّاس وأردياؤهم، ووَجَدْتُّ الحيَّ خُلُوفًا أي: تخَلّفت نساؤهم عن رجالهم[2].

3) ﴿وَطُبِعَ﴾: الطبعُ؛ أي: الختمُ، ومنه قولهم: ضَعْ عليه طابعًا؛ أي: خاتمًا[3]. الطَّبَعُ: الوسَخُ الشّديدُ على السَّيف. والرّجُلُ إذا لم يكن له نفاذٌ في مكارِمِ الأُمور، كما يَطْبَعُ السَّيفُ إذا كَثُرَ عليه الصّدأ[4]. والطَّبْعُ: الختم على الشّيء. وطُبِعَ على القلوب: خُتِمَ عليها[5]. والمعنى في الآية: أنَّ السُّوء قد أصبح مقبولًا عندهم، مَرْضيًّا في نفوسهم، وكأنّه طَبْعٌ من طبائعهم.

4) ﴿يَفْقَهُونَ﴾: جذر الكلمة هو (فقه)؛ والفِقْهُ: العِلْم في الدّين. يُقالُ: فَقُهَ الرَّجلُ يَفْقُهُ فِقْهًا فهو فَقيهٌ. وفَقِهَ إذا فَهِمَ. وأفقهْتُه: بَيَّنْتُ له[6]. وفقِه الشَّيءَ: عَلِمَه[7]. الفقه: فَهْمُ الشَّيء، قال ابن فارس: وكلُّ عِلْم لشيءٍ فهو فِقْهٌ[8]. واشتقاق الفقه من الشَقِّ والفَتح للنَّفاذ إلى باطن الشَّيء[9]، والمعنى المحوريُّ للفقه: وصولٌ إلى حقيقةِ باطن الشَّيء[10]، والفِقهُ يكونُ نتيجة التّدبّر والتّفكُّر في الشَّيء.

المَعْنى الإجْماليُّ:

رضاء المُنافقين بالدّنايا من القول والعمل، أفضى إلى الطّبع على قلوبهم المريضة

رضي المنافقون؛ الّذين إذا قيل لهم: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ﴾، بالتّخلّف عن رسول الله، وعن الجهاد معه، فأتى أهل الغِنَى

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (خلف).
(2) الرّاغب، المفردات: (خلف).
(3) مُعمَّر بن المُثنَّى، مجاز القرآن: (طبع).
(4) الخليل، العين: (طبع).
(5) الخليل، العين، وابن سِيده، المُحكم، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (طبع).
(6) الخليل، العين: (فقه).
(7) ابن سِيده، المُحكم: (فقه).
(8) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (فقه).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (فقه)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فقه).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فقه).

منهم يستأذنون الرّسول في التَّخلّف عن الغزو والخروج معه لقتال أعداء اللّه من المشركين، واختاروا أن يبقَوا في منازلهم مع الخَوالف من النّساء والوِلْدَانِ، وفرحُوا بما نالُوه من الرَّاحة؛ ظانّين أنَّه سبيلُ النّجاة، فكشفت الآية عن خبايا نفوسهم ودواخلهم، وبيّن سبحانه ما أحدثه هذا الاختيار في قلوبهم من الطَّبعِ عليها، وهو الختمُ وعدمُ التَّوفيق للإيمان، فصارَ النِّفاق طبعًا من طِباعهم، وفقدوا القُدرة على التّفكّر الّذي يؤدّي إلى الإنابة والتّوبةِ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف بـ: ﴿رَضُواْ﴾:

الرّضا بدناءة النّفس، والمُقام مع الخوالف، من السّفه والطّيش

وبيان ذلك أنَّ قوله: ﴿رَضُواْ﴾ موقعُه استئنافٌ، كأنَّه قيل: ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء؟ فقيل: رضوا بالضَّعة والانتظام في جملة الخوالف[2]. فهو استئنافٌ قُصِدَ منه التَّعجيب من دناءة نفوسهم وقلّة رجولتهم؛ إذْ رضوا لأنفسهم أنْ يكونوا تبعًا للنّساء[3]، أو في معيّتهم، دون عذرٍ يمنعهم من الخروج للقتال والدّفاع.

سرُّ العدول إلى الإخبار برضاهم، أنْ يكونوا مع الخوالف:

تخلُّفهم بسببِ رضاهم بالقعودِ مع الخالفين

عَدَلَ النَّظم الكريم عن الإخبار بالتَّخلُّف، إلى الإخبار بالرّضا، لبيان أنَّ تخلّف هؤلاء كان رضًا واختيارًا منهم، وهو يعكس دناءة أنفسهم، ورضاهم واختيارهم أن يفعلوا أفعال النّساء، أو أن يُوصفوا بأوصافهم، وأن يتخلّفوا عن أفعال الرّجال، من الجهاد والدّفاع والمَنَعَة، وهو من أقبح ما يكون.

إيثارُ التَّعبير بلفظ ﴿رَضُواْ﴾:

الفرق بين الرّضا والقبول: أنّ الرِّضا إنَّما يكون رغبة قلبيّة، وأمّا

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/412، والنّسفيّ: مدارك التّنزيل: 1/702.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/286.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/289.

القبول فقد يكون موافقةً دون تلك الرَّغبةِ القلبيّةِ، فقد يكون القبول موافقةً على مضَضٍ، ولذلك فقد أُوثر التّعبير بالرّضا دون القبول.

"وفي اختيار فعل ﴿رَضُواْ﴾ إشعارٌ بأنّ ما تلبَّسُوا به من الحال من شأنه أن يتردّد العاقل في قبوله كما تقدّم في قوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [التّوبة: 38]، وقوله: ﴿إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [التّوبة: 83]"(1).

ما رضُوه لأنفسهم، يتردَّد العاقل في قبوله

دلالة تكرار وصف المنافقين، باللّفظ ﴿رَضُواْ﴾:

سورة التّوبة هي سورة البراءة من المنافقين

تضمّنت سورة التّوبة براءةً من المنافقين؛ واستحقاق البراءة منهم بيانٌ لما ارتضته أنفسُهم من الدّناءة، وما ارتاحت إليه دواخلهم؛ إذْ فضحت السّورةُ تلك السّرائر بألفاظٍ لم تَرِدْ في سور القرآن الكريم الأخرى، فذكر هنا ﴿رَضُواْ﴾ لبيان قناعة نفوسهم بعدم الإيمان واختيار سبيل الشَّيطان، وذلك هو الطّبعُ على القُلوب، فاستحقّوا البَراءَة من الله؛ ومنه سُمِّيت سورة التّوبة بسورة براءة. ولمَّا كان حالُهم كحال الكافرين بالآخرة ذُكر الفعل ﴿وَرَضُواْ﴾ أيضًا في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ [يونس: 7].

دلالة (الباء) ومعناها: ﴿بِأَن﴾:

تأكيد رضاهم بالقرار الفاسد الّذي اتّخذوه

يتعدَّى الفعل (رضي) بالباء، فيُقال: رضي به، كما يتعدّى بنفسه، فيُقال: رضِيَه، ولم تُفرِّق المعاجم بينهما، كما جاء في المصباح المنير: رَضِيتُ: الشيءَ ورَضِيتُ به رِضًا: اخترته(2).

ولكنَّ دخول الباء على المصدر المؤوَّل هنا ﴿بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ يدلُّ على قَبولهم الدُّونيّة، واختيارهم ما يُحيط بكونهم من الخوالف؛ فهي تعكس إصرارهم على القَرارِ الذي اتّخذوه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/289.

(2) الفيوميّ، المصباح المنير: (رضي).

بالرّضا، والنّاشئ عن الاعتقاد الفاسد بعدم الجدوى من الخُروجِ مع النّبيّ ﷺ والجهاد معه.

فائدة التَّعبير بقوله: ﴿بِأَن يَكُونُواْ﴾:

الكَينُونةُ هنا، اختيارٌ اعتقاديّ محضٌ

فائدة التّعبير بقوله: ﴿بِأَن يَكُونُواْ﴾ هو لدلالة استحسان القُعود، واستحسان القُعود آتٍ من قناعتهم بعدم صدق الرّسالة والرّسول، فاختاروا عدم الخروج للقتال والدّفاع لِما رأوه واعتقدوه: بأنّ عدوّ الرّسول ليس عدوّهم، وقضيّة الإيمان والتّوحيد ليست قضيّتهم، فاختاروا ما يُحقّقُ لهم الرّضا النّفسيَّ والاعتقاديَّ، وانحازوا بعيدًا عن معيّته ﷺ إلى معيّة الخوالف، وهكذا فإنّ (الكينونة) في الآية اختيار اعتقاديّ محض.

إيثار التَّعبير بالظَّرف ﴿مَعَ﴾:

تـرك مـعـيَّة الرَّسُول الأكرم، والتّشبّث بمعيَّةِ الخَوالِف، تؤكّد عدم فقههم

أفاد التَّعبير بـ ﴿مَعَ﴾ بشاعة ما اقترفَته نفوسهم من تركٍ لمعيّة الرّسول ﷺ والانحياز إلى معيّة الخوالف، فهم ليسوا في الأصل من الخوالف، فالخوالف هم النّساء اللّاتي جلسن في بيوتهن تاركاتٍ رجالهنَّ مع رسول الله ﷺ ليُقاتِلوا معه، فهؤلاء ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾؛ لأنّهم انضمّوا إلى الخوالف من النّساء بكلِّ رضًا وراحة نفسٍ، ورضوا بالقعود دون عذرٍ؛ واختاروا لأنفسهم أن يكونوا مع مَنْ شرّع لهم الله عُذر القعود لضعفهن وطبيعة خَلْقهن؛ وهنّ النّساء. ولذلك سبقها بـ ﴿مَعَ﴾ دون (من)، ولأنَّهم هم المُخلّفون عن القتال دون عذرٍ أو حُجَّةٍ، على خلاف الخوالف، فهم ليسوا منهم بل هم معهم.

سرّ اصطفاء صيغة الجمع في ﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾:

الخَوالف هنَّ النِّساء أو الأطفال، ممّن لا قدرة لهم على القتال

لفظة ﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾ أمكَنُ من (المُتخلِّفين)؛ إذْ هم مفعولٌ بهم ذلك، فخرج من ذلك الثَّلاثةُ وأصحابُ العُذْر[1]. فلا يكون أصحاب

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/474.

الأعذار من الرّجال كالمرضى والفقراء منهم، فـ ﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾ هم الذين أرغمتهم طبيعة خِلَقَتِهم على القعود وعدم الخروج للقتال مع رسول اللّه ﷺ وهنّ النّساء، فلا يدخل جنس الرّجال معهم.

دلالة (الْ) على التّعريف، في ﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾ وفائدتها:

الخوالف هم الّذين لا يملكون، طاقة القتال في أصل خلقتهم

الخوالف هنَّ النّساء اللّاتي لا يملكن سوى القعود في البيوت ومداراة الأولاد، قال تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾، و(اللّام) في قوله: ﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾ للتّعريف، فالمعرفة لما هو محدّد معلوم أنّ الخوالف هنَّ النّساء اللّاتي يخلُفْنَ أزواجَهنَّ الّذين يذهبون إلى القتال. وفائدة التّعريف أنّ هؤلاء الخوالف معروفون في المجتمع فهذا هو شأنهم وهذه هي طاقتهم، فما بال الّذين يقدِرون على القتال أن يرضوا بأن يكونوا معهم، تاركين معيَّةَ الرّسول ﷺ والمجاهدين في سبيل اللّه من المؤمنين الصَّادقين. فقوله: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ تقريعٌ وإظهارُ شُنْعَةٍ، كما يُقال على وجه التَّعْيير: رضيتَ يا فلانُ كذا؟!(1).

غرض التَّعبير بالكناية عن النّساء، ﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾:

وصف النّساء بلفظ (الخَوالِف)، لا يُنقص من قدرهنَّ شيئًا

في قوله تعالى: ﴿مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾؛ فـ (الْخَوَالِف) جمع خالفة، وهي المرأة، وليس في ذلك ذمًّا للمرأة في شيء؛ بل قد تكون في موضع مدحٍ لهنّ لما قدّمْنَ من عمل صالح وحفظٍ للرِّجَال في بيوتهم وأولادهم وأعراضهم، ولكنْ إذا وُصف الرِّجال بالخوالف فذلك تشنيعٌ بهم وتعييرٌ لهم. وقد يُقال للرّجل: خالِف وخالِفة، ولا يُجمع المُذكَّر على خوالف(2). فـ ﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾ كنايةٌ عن النّساء(3)، اللّواتي يتخلّفْنَ عن المجاهدين، وهي كناية عن موصوف؛ إذْ ذكر صِفَتهم. وقوله تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ فيه وجهان:

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/68.
(2) العُكبُريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 2/654.
(3) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 3/77.

الأوَّل: قال الفرّاء: الخوالف: النّساء اللّاتي تخلَّفنَ في البيت فلا يَبرحن، والمعنى: رضوا بأن يكونوا في تخلُّفهم عن الجهاد كالنِّساء"[1].

والثّاني: قال أبو جعفر النّحّاس: يُقال للرّجل الّذي لا خير فيه: خالفة، فهذا جمعه بحسب اللّفظ؛ والمراد: أخِسّةُ النّاس وأخَالفُهم، ﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾: مَن لا خير فيه[2]. قال الرّازيّ: "المقصود منه التّنبيه على ذمِّهم وإلحاقهم بالنّساء والصّبيان والعاجزين الّذين شأنهم القعود في البيوت، وهم القاعدون"[3]. ولم يأتِ فاعلٌ صيغةُ جمعه فواعل، إلا حرفان: فارسٌ وفوارس، وهالكٌ وهوالك"[4]. وهذا القول هو الأَوْلى، لأنَّه أدلُّ على القلّة والذّلّة. وكان يصعب على المنافقين تشبيههم بالخوالف[5].

ليس جميع النّساء من الخوالف، إذ منهنّ من كان لها دور في المعارك

نكتة عدم التّصريح بلفظ (النّساء):

لم يُصرِّح بالنّساء، ولكن كَنّى عنهن بالخوالف؛ لأنَّ بعض النّساء كُنّ يشاركن في القتال مع المجاهدين في تطبيب الجَرحى، وتأمين الطَّعام والأقواتِ لهم، أمّا الخوالف فهنّ اللّواتي يبقين في ديارهنَّ لمُدَارَاة الأطفال ورعاية شؤون المنزل؛ وحفظ بيوت أزواجهنّ في غيابهم.

الطّبعُ على القلوب، دلالة الإصرار على الضّلال

الغرض من التَّعبير بالاستعارة في ﴿وَطُبِعَ﴾:

قوله: ﴿وَطُبِعَ﴾ في هذه الآية مستعارٌ، فلمّا كان (الطَّبع) على الصَّوَّان والكِتاب مانعًا منه، وحافظًا عليه، لا يُصيبه تغيير، فشبَّه القَلب الّذي قد غشيه الكُفر والضَّلال حتّى منع الإيمان والهُدى منه بالصَّوَّان المطبوع عليه، ومن هذا استعارة القُفل والكِنان للقلب[6]. استعارة مكنيّة أفادت ثبات قلوبهم على حالة الضّلال، فلا يُحتمل

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/119.
(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/77.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/62.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/119.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/119.
(6) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/77.

أن تأتيها الهداية، وذلك لِمَا اختاروه لأنفسهم من الكُفر والضّلال ومجانبة الحقّ وأهله "قال الحسن: الطَّبع عبارةٌ عن بلوغ القلب في الميل في الكفر إلى الحدِّ الّذي كأنَّه مات عن الإيمان"[1]. "و(الطَّبع) تمثيلٌ لحال قلوبهم في عدم قبول الهُدى بالكتاب المختوم، والطَّبع مرادفُ الخَتْم"[2].

دلالة الواو العاطفة: ﴿وَطُبِعَ﴾:

عطف الجملتين مع تكامل المعنى، يجعل الجملتين كالسَّبب والنَّتيجة

قوله: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾، الواو للعطف، وفائدة الوَصْل بينهما أنّ الأولى بيّنت ما هم فيه من الرّضا، بأخسّ ما يمكن أن يقع فيه الرّجال من الهوان والاطمئنان والرّكون إلى ذلك الحال، فبيّنت حالة النّفس ودواخلها؛ قال تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾، والجملة الأخرى قوله تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾؛ بيّنت حالات القلوب التي نتجت عن ذلك الرّضا والهوان النّفسيِّ الّذي تحوّل إلى طبعٍ على القلوب وخَتْمٍ عليها، فلا يميزون بين حقٍّ وباطلٍ. فكانت الآيتان كالسَّبب والنَّتيجة. ويمكن أن تكون الواو للتفريع فيكون قد فرَّع على الطَّبع انعدام علمهم بالأمور الّتي يختصّ بعلمها أهل الأَفْهام، وهو العلم المُعبّر عنه بالفقه؛ أي: إدراك الأشياء الخفيّة؛ وذلك ممّا يُكرِمُ اللّه به عباده المؤمنين من أنوار القلوب؛ فقد آثر هؤلاء الدَّعَةَ على سُمعةِ الشّجاعة، والرّاحة على ثواب الجهاد؛ لأنّهم لا يفقهون ما يمكن أن يُصيبهم من الفضل بجهادهم مع رسول اللّه ﷺ؛ إذ لم يُدركوا إلاّ المحسوسات، فلم يكونوا فاقهين، وذلك أصل جميع المَضارِّ في الدَّارَيْن[3].

دلالة التَّعبير بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾:

الخَتْم مُهيمنٌ على قلوبهم، وطامسٌ لبصائرهم

فائدة حرف الجرّ في قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ أنّه يجرُّ معاني

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/119.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/289 - 290.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/289 - 290.

الأفعال إلى الأسماء؛ أي: توصِّلها إليها[1]، فهو يُوصل معنى الخَتْم إلى القُلوب، فيكونُ الخَتْمُ مُهيمنًا على قلوبهم، وحرف الجرّ (على) للاستعلاء حقيقيًّا كان أم مجازيًّا، ولفظها يدلّ على ذلك؛ فهو من العُلوّ، وفي ذلك الاستعلاء معنى القوّة في الختم، ما يستدعي ثبات الخَتْمِ على تلك القلوب.

دلالة (الفَاء) في: ﴿فَهُمۡ﴾:

الطّبع المنحرف، يُنتِجُ عدم الفقه، وقلّة الفهم

تسبَّب الخَتْم على القلوب في حرمانهم، وحجز قلوبهم عن فقه الأمور على حقيقتها؛ فكأنّ القُلوب قد أُقفلت؛ قال تعالى: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾؛ فلا يكون منها الفقه، ولا يكون منها الرّجوع ولا الإنابة.

الغرض من التَّعبير بالجملة الاسميَّة ﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾:

الرّبطُ بين الطَّبع على القلب، وعدم الفقه

قوله: ﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾، تذييلٌ لما سبق من الكلام، فاختُصر الطّبع بعدم الفقه، واختُصرت أفعالهم ممّا اقترفوه من الدَّناءة في حُبِّ القُعود مع الخَوالِف وتَرۡكِهِم معيّة الرّسول والخروج للجهاد بقوله: ﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ فحِيل بين قلوبهم وبين الفقه، والفهم والوعي، وخسروا ما خسروه من الخير في دنياهم وآخرتهم، والغرض من التّعبير بالجملة الاسميّة وصفهم بعدم الفقه على الدّوام والاستمرار، وفيه تيئيسٌ من الطَّمع في هدايتهم.

سرُّ التَّعبير بلفظ ﴿لَا يَفۡقَهُونَ﴾:

الفقه علمٌ ناتجٌ عن جهد يبذله الفرد، به تعرف الحقائق، ويدرك السّبيل

الفقه هو العلم النّاتج عن التّفكّر والتّدبّر في الأمور والأحداث على خلاف العلم، ولذلك فإنّ العلم من صفات اللّه، والتّفكّر ليس من صفاته سبحانه؛ بل هو من صفات العُقلاء من خلقه، فلمّا جاء الطَّبع بحسب البناء على ما لم يُسمّ فاعله ناسَبَ أنۡ يُذكر الفقه دون العلم، وهذا على خلاف ما سيأتي من ذِكر العلم مع تسمية الفاعل وهو اللّه تعالى في الآية (93).

(1) الرّضيّ، حاشية الرّضيّ: 2/354.

دلالة تقديم المُسنَد إليه ﴿فَهُمۡ﴾، على خبره الفعليّ ﴿لَا يَفۡقَهُونَ﴾:

القلوب المطبوعُ عليها، لا تفقه المكارمَ ولا تعي القِيَم

قُدِّمَ المسنَد إليه على خبره الفعليِّ و"جيء في إسناد نفي الفقاهة عنهم بالمُسنَد الفعليِّ للدّلالة على تقوّي الخبر وتحقيق نسبته إلى المُخبَر عنهم وتمكّنه منهم"[1]. وجاءت تقوية الخبر من الإسناد مرتين: مرةً لخبر المبتدأ، ومرةً لإسناد الفعل إلى الضَّمير العائد على المُسْنَد إليه، والفعل المُضارع المنفيُّ لدلالة نفي احتمال فقهِهم في الاستقبال، فَوَقَع الطَّبْعُ على قلوبهم؛ فلا يتجدّد شيءٌ في قُلوبهم يُحدثُ الفقه وصحَّة النّظر.

الغرض من حذف مفعول ﴿يَفۡقَهُونَ﴾:

الطّبع على القلب، ينفي الإيمان، والمَيل إليه

وقوله: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾؛ أي: لا يفقهون ما في الجهاد وموافقة الرَّسول من السَّعادة، وما في التّخلُّف عنه من الشَّقاوة[2]. فحُذف مفعول ﴿يَفۡقَهُونَ﴾، وهذا إيجازٌ بالحذف، وفائدته العموم، بانتفاء فِقههم كلّ نافعٍ يؤدّي إلى الإيمان والإنابة إلى اللّٰه تعالى.

بلاغة التَّعريض:

الإعراض عن معيّة الرّسول الأكرم، إعراضٌ عن الإيمان باللّه وبرسالته

في الآية تعريضٌ بأنَّ القوم ليسوا من الإيمان باللّٰه تعالى في شيء، وإن لم يُعرضوا عنه صريحًا، فهم قد أعرضوا عن الإيمان، بإعراضهم عن الجهاد واستئذانهم في القعود[3].

توجيه المتشابه اللّفظيّ:

تنوّعُ أسباب الطّبع على القلوب ومظاهره

قوله تعالى في هذا الموضع من سورة التّوبة في قوله: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ [التّوبة: 87]، وبين ﴿وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [الأعراف: 100]، ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/290.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/92.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/344.

[المنافقون: 3]. ففي سورة الأعراف قال تعالى: ﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ لأنّها سبقت بالإصابة بالذّنوب، قال: ﴿أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾؛ أي: إنّ ذنوبهم كثُرت وطغت على أعمال مُقترفيها، حتّى أصبحوا وكأنّ في آذانهم وقرًا، فلا يستمعون لقول الحقّ، وهذا وجهٌ من أوجه الطّبع على القلب، ومَظهرٌ من مظاهره. ومن دواعي الطّبع على القلب الكُفر بعد الإيمان، كما جاء في سورة المُنافقون، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ [المنافقون: 3]. فالكُفر بعد الإيمان هو سبب الطّبع على القلوب.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرِّضَا والقَبولُ:

الرِّضا قبولُ العقل، مشفوع بقبول النّفس وراحتها

الرّضا فوق القبول، وهو مرحلة عاليةٌ عليه، فالرِّضا قَبول العقل مشفوعٌ بقَبول النّفس، وراحة داخليّة، أمَّا القبول فهو الإيجاب والموافقة من جهة العقل، وقد تكون النّفس راضية أو كارهة.

الطَّبعُ والختْمُ:

الطَّبع أثبَتُ وألزَمُ من الخَتْم

الطَّبعُ أثرٌ يَثبت في المطبوع ويلزمه؛ فهو يفيد معنى الثّبات واللّزوم ما لا يُفيده الخَتْم، ولهذا يُقال: طَبَعَ الدّرهم طَبْعًا. وهو الأثر الّذي يتركه فيه فلا يزول عنه، كذلك أيضًا قيل: طَبْع الإنسان لأنّه ثابت غير زائل، وقيل: طُبع فلانٌ على هذا الخُلُق إذا كان لا يزول عنه، والطَّبع علامةٌ تدلُّ على كُنْه الشَّيء، وطَبْعُ الإنسان لدلالته على حقيقة مزاجه من الحرارة والبرودة، وطَبْعُ الدّرهم علامة جوازه[1]. أمّا الخَتْم فيُنبئ عن إتمام الشَّيء وقطع فعله وعمله؛ تقول: ختمتُ القرآن؛ أي: أتممتُ حفظه، وقرأْتُه[2]. قال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 336.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 212.

قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: 7]، إشارة إلى ما أجرى اللّه به العادة؛ أنّ الإنسان إذا تناهى في اعتقاد باطل أو ارتكاب محظور - ولا يكون منه تلفّت بوجه إلى الحقّ - يُورثه ذلك هيئة تُمَرِّنه على استحسان المعاصي، وكأنّما يختم بذلك على قلبه[1].

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 160.

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨٨﴾ [التّوبة: 88]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مناسبة ذِكْر المنافقين وحالهم البئيس، ثمّ ذِكْر جهاد النّبيّ والّذين آمنوا، للبشارة والتّأنيس

قال الفخر الرّازيّ: "لما شرح حال المنافقين في الفرار عن الجهاد بيّن أنَّ حال الرَّسول والّذين آمنوا معه بالضّدّ منه، حيث بذلوا المال والنَّفس في طلب رضوان اللّه والتَّقرُّب إليه"[1] وقال البقاعيّ: "ولَمَّا افتتح القصّة بمدح المتَّقين لمسابقتهم إلى الجهاد من دون استئذان ختمها بذلك وذَكَر ما أُعدّ لهم، فقال مُعْلِمًا بالغِنَى عنهم بمَنْ هو الخير المحضُ تبكيتًا لهم وتقريعًا"[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿جَٰهَدُواْ﴾: جذر الكلمة هو (جهد): "الجَهْدُ: ما جَهَدَ الإنسانَ من مَرَضٍ، أو أمرٍ شاقٍّ فهو مَجهودٌ، والجَهْدُ: بلوغُكَ غايةَ الأمرِ الّذي لا تألو عن الجهد فيه. تقول: جَهَدْتُّ جَهْدي، واجتهدتُ رأيي ونفسي حتّى بلغتُ مجهودي. وجَهَدْتُ فلانًا: بلغتُ مشقَّته. وجاهدتُّ العدوَّ مُجاهدةً، وهو قتالُك إيّاه"[3] والجُهْد: الطّاقة[4]، وبلغ جُهْدَه ومجهوده؛ أي: طاقتَه، وجُهَادَاك أنْ تفعل كذا؛ أي: جُهْدُك وغايتُك[5].

2) ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾: جذر الكلمة هو (خير)؛ الخير: ضدُّ الشَّر، وجمعه: خُيور[6]. وفي التَّنزيل ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾ [القصص: 68]، والخَيْرُ

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 16/119.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/570.
(3) الخليل، العين: (جهد).
(4) ابن سِيدَه، المُحكَم: (جهد).
(5) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (جهد).
(6) ابن سِيدَه، المُحكَم: (خير).

ضدُّ الشَّرِّ وبابه: باع، قال تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾ [التّوبة: 88]، جمع خَيْرَة وهي الفاضلة من كلِّ شيءٍ، وقال: ﴿فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ﴾ [الرحمن: 70][1].

3) ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾: جذر الكلمة هو (فلح)؛ فلح: الفَلاحُ والفَلَحُ لغة: البقاء في الخَير[2]، وفَلاحُ الدَّهْر: بَقاؤه. وحَيَّ على الفَلاح؛ أي: هَلُمَّ على بقاء الخير"[3]. الفلح والفلاح: البقاء في النَّعيم والخير. وفي التّنزيل: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [المؤمنون: 1]؛ أي: نالوا البقاء الدَّائم في الخير، وفلاح الدَّهر بقاؤه، يُقال: لا أفعل ذلك فلاح الدَّهر. والفَلاح: الفَوز بما يُغتبط به وفيه صلاح الحال. وأفلح الرَّجُل: ظفر. ويُقال لكلِّ مَنْ أصاب خيرًا: مُفْلِح[4]. وهذا هو المعنى المراد في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [التّوبة: 88]؛ أي: أولئك الّذين أصابوا الخير.

المَعْنى الإجْماليُّ:

وصفٌ لأرقى حالات الإيمان والالتزام، لدى النّبيّ الهمام، والمؤمنين الكرام

استدرك هنا بقوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ بوصف الجماعة المؤمنة وهي تَلْتَفُّ حول قائدِها رسول الله ﷺ فيصوّر المشهد أرقى حالات الجهاد والتّماسك واليقين بالله تعالى، ويُقدّم أسمى صور الجهاد بالأموال والأنفُس، مُقبلين أصحابها غير مُدبرين، فيكون جزاؤهم الخيرات والجنّات؛ فلمَّا وصفهم بالمُسارعةِ إلى الجهادِ، ذَكَرَ ما حصل لهم من الفوائدِ، وهي أنواع، أوَّلها: قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾ والخيراتُ: المُسْتَحْسَنُ من كُلِّ شيءٍ[5]. ثم أشار إليهم بأنّهم هم المفلحون في الدنيا والآخرة لما حقّقوه من صدقٍ مع الله ورسوله.

(1) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (خير).
(2) الخليل، العين، وابن سِيدَه، المُحكَم، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (فلح).
(3) الخليل، العين: (فلح).
(4) ابن سِيدَه، المُحكَم: (فلح).
(5) ابن عادل، اللُّباب: 10/167.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة حرف الاستدراك، وعلاقته بما قبله:

الرَّسول والمؤمنون معه، هم حصن هذا الدِّين، ونقلة هديه المبين

(لكن) حرف استدراك[1]. وفيه إشارةٌ إلى الاستغناء عن نُصرة المنافقين بنُصرة المؤمنين لرسول اللّه ﷺ[2]. فقوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ﴾ استدراك لما فُهِمَ من الكلام، والمعنى: إنْ تخلّف هؤلاء ولم يُجاهدوا فلا ضَيْر؛ لأنَّه قد نهض على أتمّ وجهٍ مَنْ هو خير منهم، فهو على حدِّ قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: 89]"[3].كما أنَّ افتتاح الكلام بحرف الاستدراك يُؤذن بأنّ مضمون هذا الكلام نقيض مضمون الكلام الّذي قبله أصلًا وتفريعًا. فلمّا كان قعود المنافقين عن الجهاد مسبّبًا على كفرهم بالرّسول ﷺ كان المؤمنون على الضِّدِّ من ذلك. فقوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ مقابل قوله: ﴿ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ﴾ [التّوبة: 86]. وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾ مقابل قوله: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [التّوبة: 87] كما تقدّم[4]. وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ مقابل قوله: ﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾.

نكتة التّعريض، بانتفاء الإيمان عن المُخلّفين:

الإيمان هو الدّافع للحرص على معيّة الرّسول ﷺ

وفي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ تعريض بأنّ الذين لم يجاهدوا دون عذرٍ ليسوا بمؤمنين[5] فلو كانوا مؤمنين حقًّا لالتحقوا بالمُجاهدين من المؤمنين، والتحقوا بالرّسول ﷺ وحازوا الفوز بمعيَّته، ولم يُراود قلوبهم محاولات التّعذّر؛ إذ لا مُبرّر للتّعذّر بانتفاء الأعذار

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/415.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/290.
(3) ابن عادل، اللُّباب: 10/167، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/344.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/290.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/290.

الحقيقيّة، هذا وقد أنزل في أهل الأعذار قرآنًا فقال تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ﴾ [النّور: 61]؛ فلم يكن ثمَّةَ حرج على ذَوي الأعذار.

دلالة (الْ) في لفظ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾، وأثرها في السّياق:

المكانة الرّفيعة للمؤمنين، بمعيّة الرّسول ﷺ

(اللام) هنا في قوله: ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ للعهد، وفيها معنى التّفخيم والتّعظيم؛ إذْ أفادت تعظيم ما آل إليه المؤمنون من الكرامة؛ فقد حازوا مكانة سيغبطهم عليها عموم المؤمنين على مدى الدّهر؛ ألا وهي معيّة الرّسول والجهاد معه، وسيكونون بتلك المعيّة؛ فهم الرّعيل الأوّل، والأنموذج المتَصدّر لكل مَكرُمة تُحقِّقها أو تطمح إليها الأجيال المؤمنة إلى قيام السّاعة.

الغرض من تقديم (الرّسول)، في هذا الاستدراك، وبلاغته:

الرّسول ومعيّته هما محور الإيمان، وملمح العبادة بإيقان

"ابتدأ وصف أحوالهم بوصف حال الرَّسول ﷺ لأنّ تعلّقهم به واتّباعهم إيّاه هو أصل كمالِهم وخيرِهم"[1]. فقال: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ﴾ فذكر الرّسول ﷺ لفائدة التّعريض بالذين أتَوا الرّسول ﷺ ليعتذروا منه عن الجهاد؛ فجعل ذِكْر الرّسول ﷺ أوّلًا ومعيّته محورًا لرسوخ الإيمان، فقدّم ذِكْره ليُعلم أن لا سبيل غير سبيل الرّسول ﷺ.

دلالة استخدام ﴿ٱلرَّسُولُ﴾:

الرَّسُول هو الّذي خصّه الله بالرّسالة، والنّبيّ ليس كذلك

جاء لفظ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ دون (النّبيّ) لما يقتضيه المقام؛ ذلك بأنّ لفظ الرّسول يقتضي رسالة؛ لأنّ كلّ رسول يكون صاحب رسالة، وذلك على خلاف النّبي، فكلُّ رسولٍ نبيّ وليس العكس.

والجهاد - وهو أمر من اللّه تعالى - نصرٌ للرّسالة السّماويّة التي ارتضاها اللّه لعباده، فمَنْ أعرض عن هذه المُناصرة فقد أعرض عن الإيمان باللّه ورسوله ورسالته، ولذلك جاء لفظ (الرّسول).

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/290.

سرُّ إيثار التَّعبير بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

تعظيم شأن المؤمنين، لإبراز أهميّة الإيمان، ودوره في رفع الشّان

معلوم أنّ الاسم الموصول ناقص الدّلالة لا يتّضح معناه إلا إذا وُصل بالصّلة، وفائدة التَّعريف هنا بالاسم الموصول في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هو التّعظيم والتّفخيم، فذكر المؤمنين بالصِّلة المُعظّمة، ولتُعلم فخامة مكانتهم عند الله، وهذا لا يكون مع استعمال الصّفة دون الاسم الموصول.

دلالة عطف قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ على ﴿ٱلرَّسُولُ﴾:

تكامل المشهد وعناصر الإيمان والعمل، في هذا السّياق البليغ

فائدة عطف قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ على ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ هو جمع منظومة الإيمان، فالرّسول ﷺ هو المحور ومورد الشّريعة ومصدر القوّة والعطاء، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ هم ميدان الحَرَاك، والتَّفعيل، والنَّشاط، ومجتمع الشّريعة والإيمان، فيكتمل بذلك مشهد الحياة المؤمنة الفاعلة؛ باكتمال عناصر الإيمان.

توجيه المتشابه اللَّفظيّ بين آية التّوبة، وآيات في سور أخر:

معيّة الرّسول الأكرم، وسام عظيم اختصّ به الصّحابة رضي الله عنهم

جاء في عدَّة مواضع: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [البقرة: 214]، ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [التّوبة: 88]، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [التحريم: 8]، وبين موضع: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ [الفتح: 29].

فآية البقرة جاءت في بيان عظيم شأن المعيّة مع الرّسول وما يُصيبهم من عظيم الاختبار والابتلاء، فمنزلة المعيّة عظيمة ومقتضاها عظيم، وفي سورة الفتح تندرج في تعداد أوصاف مَنْ هُم في معيّة الرّسول ﷺ؛ فمَنْ أراد أن يكون في معيّة رسول الله ﷺ فعليه أن يتّصف بهذه الصّفات، فلم يذكر الإيمان، وإنّما ذكر المعيّة لبيان أوصافهم، وأمّا سورة التّحريم فالسِّياق في بيان جزاء المعيّة يوم القيامة وحفاوة الله بهم، فذَكَر الإيمان وذَكَر المعيّة معًا، ثمَّ بيَّن جزاء ذلك. ولعلَّ مجموع ما ذُكر أنّ المعيَّة مع رسول الله ﷺ هي وسامٌ ومكانة عالية لم تكن حقيقة إلا للجيل الأوَّل الّذي هو خير الأجيال

والقرون، ونأمل ألَّا يُحَرَم معية الرّسول ﷺ في الجنَّة مَن أطاع اللّه والرَّسول مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: 69 - 70].

سرُّ التَّقييد بالجارّ والمجرور ﴿مَعَهُۥ﴾:

خيرات المؤمنين هي من خيرات الرّسول، ومقامهم من مقامه ﷺ

"و﴿مَعَهُۥ﴾ في موضع الحال من ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ لتدلّ على أنّهم أتباعٌ له في كلّ حالٍ وفي كلّ أمر، فإيمانهم معه؛ لأنّهم آمنوا به عند دعوته إيّاهم، وجهادهم بأموالهم وأنفسهم معه، وفيه إشارةٌ إلى أنّ الخيرات المبثوثة لهم في الدُّنيا والآخرة تابعة لخيراته ومقاماته"[1].

والمعيّة فائدتها كُبرى لبيان عموم حياة المؤمنين مع رسول اللّه ﷺ وأنّهم في جميع أحوالهم وحياتهم، مُنسجِمون مع ما يُريد اللّه منهم؛ فكانت تلك المعيّة في أمور حياتهم كلّها سببَ ثباتِهم في ساعات الشّدّة، وسبب النّعيم الكبير في أوقات الرّخاء.

الغرض من التّعبير بالمُسنَد جملة فعليّة:

الرّسول والصّحابة معه، بذلوا الأموال والأنفس في سبيل الله

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ﴾ ابتداءٌ، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ عطفٌ عليه، و﴿جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ﴾ في موضع الخبر، و﴿جَٰهَدُواْ﴾ فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على الضَّمّ، والواو فاعلٌ، وجملة ﴿جَٰهَدُواْ﴾ في محل رفع خبر المبتدأ[2]. والغرض من التَّعبير بالمُسْنَد جملة فعلية ﴿جَٰهَدُواْ﴾ بيان ما فعله الرّسول ﷺ والّذين آمنوا معه؛ إذ لم يُوقفهم الّذين كذّبوا اللّه ورسوله ممّن رضي بالقعود عن الجهاد، فالرّسول وصحابته هم أهل رسالة سماويّة، فقد أدّوا ما عليهم من الجهاد بالأموال والأنفس، كما يُفيد التّعبير بالجملة الفعليّة التأكيد على مجاهدتهم للإسناد مرتين: إسناد الخبر إلى المبتدأ، وإسناد الفعل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/291.
(2) الدّعّاس، إعراب القرآن، ص: 474.

(جاهدوا) إلى الضمير العائد على الرسول ﷺ والذين آمنوا، وهذا التَّأكيد لا يتأتَّى إلا بالتّعبير بالمُسْنَد جملة فعليّة.

الغرض من تقديم الأموال على الأنفس، في السّياق:

المال يُبذل في حالات النّاس جميعها، والأنفُس تُبذل في الجهاد

قدَّم الأموال على الأنفس لِما في ذكر الأموال من دلالة قوّة الجهاد بالمال في عموم الحياة، وأنّهم بذلوا المال وهم في معيّة رسول الله ﷺ في حياتهم اليوميّة، في ساعات الرّخاء، فلمّا جاء الجهاد في ساعات الشّدّة بذلوا الأنفس مع الأموال؛ ومَن لا يقدر على بذل المال، فإنّه لا يقدر على بذل النّفس؛ فكان بذل الأموال تربيةً دائمة لبذل النَّفس والجهاد بها.

العدول عن ذكر القَيْد: (فِي سَبِيلِ الله):

بيان أنّ معيّة الرّسول الأكرم، هي دلالة سبيل الله

في الآية اكتفاءٌ، إذ اكتفى بقوله: ﴿مَعَهُۥ﴾، دون أن يقول: (في سَبِيلِ اللّه)، فعندما أتى بقوله: ﴿مَعَهُۥ﴾؛ أي: مع رسول اللّه ﷺ؛ فلم يكن من الضّرورة بمكان بيان نوع الجهاد؛ إذ معلومٌ أنّ جهاد الرّسول هو في سبيل اللّه، فمَنْ جاهد معه ﷺ، فهو في أعلى حالات الجهاد ودرجاته؛ مُتَربِّعًا على سَنامها.

دلالة الوصل في ﴿جَٰهَدُواْ﴾:

تنوُّعُ الأوصاف، وتنوُّعُ الخيرات، دليل على أنّ العمل الصّالح يرفع عند الله

فقد "عُطفت جملة: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾ على جملة ﴿جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ﴾، ولم تُفصل، مع جواز الفصل؛ ليُدَلّ بالعطف على أنّها خبر عن الّذين آمنوا؛ أي: على أنّها من أوصافهم وأحوالهم؛ لأنّ تلك أدلّ على تمكّن مضمونها فيهم من أن يُؤتى بها مستأنفةً؛ كأنّها إخبارٌ مستأنف"[1]. وعُطفت كذلك جملة: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ على جملة: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾ للدّلالة على تنوّع ما هم فيه من الخيرات والفلاح، وتغاير الخيرات عن الفلاح فيصيبهم من الخير كلّه، ومن الفلاح أحسنه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/291.

الغرض من التّعبير باسم الإشارة ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

الصّحابة الكرام، من التّعظيم بأعلى مقام

الإتيان باسم الإشارة لإفادة أنّ استحقاقهم الخيرات والفلاح كان لأجل جهادهم"[1]. واسم الإشارة للبعيد ليعلم ما فعلوه في سالف حياتهم وأيّامهم في معيّة الرّسول ﷺ. ويُعلم أنّ أولئك القوم الَّذين حازوا معيّة الرّسول ﷺ وجاهدوا معه هم قومٌ لا يتكرّر مثالهم. وعطف جملَتَي (أولئك): ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ و﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾ مع جواز الفصل كما أشرنا آنفًا لبيان ما استحقّه (أولئك) وما جُمع لهم من الخيرات والفلاح معًا، ففي التَّعبير باسم الإشارة تمييزٌ لبيان مكانهم من التَّعظيم.

غرض تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾:

إبراز شأن المُكرَّمين بالخيرات، ومقامهم عند ربّ البريّات

قدّم ﴿لَهُمُ﴾ على ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾ لفائدة تخصيصهم بتلك الخيرات، وإبراز شأنهم فيها، وكأنّما قد أوجدت تلك الخيرات من النّعيم والجِنان من أجلهم، فهي لهم ولِمَنْ سار على نهجهم. وليُعلم أنّ أولئك القوم الّذين حازوا معيّة الرّسول ﷺ وجاهدوا معه قومٌ لا يتكرّر مثالهم في القرون الأخرى، وفيه تعريضٌ بأولئك الّذين استأذنوا رسول الله ﷺ بعدم الخروج معه لخُسرانِهم أعظم مكانة يمكن أنْ يحوزها إنسانٌ أو يُحقّقها في هذه الحياة.

دلالة الجمع في لفظ ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾:

تعدُّد الخيرات وتنوُّعها، مسفرة عن إنعام الله اللّامحدود

تتعدّد دلالة صيغة الجمع في العربيّة، ويبقى السّياق هو الحاكم في هذا الأمر، فـ "الخيرات: جمع خَيْر على غير قياس، فهو ممّا جاء عَلى صيغة جمع التَّأنيث مع عدم التّأنيث؛ مثل: سرادقات وحمّامات. وجَعَلَهُ كثير من اللّغويين جمع (خَيْرَة) بتخفيف الياء مُخفّف (خَيِّرَة) المُشدّد الياء التّي هي أنثى (خَيِّر)، أو هي مُؤنّث

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/291.

(خَيّر) المخفّف الياء الّذي هو بمعنى (أخَير). وإنّما أنّثوا وصف المرأة منه لأنّهم لم يُريدوا به التّفضيل، وعلى هذا كلّه يكون (خيرات) هنا مؤوّلًا بالخصال الخيّرة"[1]، والظّاهر أنّ المُراد منافع الدُّنيا والآخرة. فجمع الخيرات لفائدة التّعدّد والتّكثير على خلاف المفرد الّذي يدلّ على القلّة إذا ما قُورنَ بالجمع.

بيان استحقاق المؤمنين من الخيرات والفلاح، ما يكرمهم به الله

فائدة تكرار اسم الإشارة ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ كرَّرَ اسم الإشارة تنويهًا بشأنهم[2]. وتوكيدًا لما استحقّوه من الخيرات والفلاح.

الاختصاص بالفلاح، وديمومة المعيّة مع الرّسول الأواه، نجاحٌ ورباح

سرُّ التّعبير بالجملة الاسميّة ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾:

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ رفع بالابتداء، ﴿هُمُ﴾ ابتداء ثانٍ، ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ خبر الثّاني والثّاني وخبره خبر الأوّل، ويجوز أن يكون ﴿هُمُ﴾ زيادة، يُسمِّيها البصريُّون فاصلة[3]، ويُسمِّيها الكوفيُّون عمادًا[4]، و﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ خبر ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾[5] وَالتَّعْرِيفُ فِي ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ لِلْجِنْسِ وَهُوَ الْأَظْهَرُ إِذْ لَا مَعْهُودَ هُنَا بِحَسَبِ ظَاهِرِ الحالِ، بَلِ الْمَقْصُودُ إِفَادَةُ أَنَّ هَؤُلَاءِ مُفْلِحُونَ، وَتَعْرِيفُ الْمُسْنَدِ بِلَامِ الْجِنْسِ إِذَا حُمِلَ عَلَى مُسْنَدٍ إِلَيْهِ مُعَرَّفٍ أَفَادَ الِاخْتِصَاصَ فَيَكُونُ ضَمِيرُ الْفَصْلِ لِمُجَرَّدِ تَأْكِيدِ النِّسْبَةِ، أَيْ تَأْكِيدًا لِلِاخْتِصَاصِ. فَأَمَّا إِذَا كَانَ التَّعْرِيفُ لِلْجِنْسِ وَهُوَ الظَّاهِرُ فَتَعْرِيفُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ مَعَ الْمُسْنَدِ مِنْ شَأْنِهِ إِفَادَةُ الِاخْتِصَاصِ غَالِبًا لَكِنَّهُ هُنَا مُجَرَّدٌ عَنْ إِفَادَةِ الِاخْتِصَاصِ الْحَقِيقِيِّ، وَمُفِيدٌ شَيْئًا مِنَ الِاهْتِمَامِ بِالْخَبَرِ، فَلِذَلِكَ جُلِبَ لَهُ التَّعْرِيفُ دُونَ التَّنْكِيرِ[6].ودلّت الجملة الاسميّة هنا على الثّبات؛ فهذا الحكم ثابتٌ دائمٌ إلى يوم القيامة.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/291.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/344.
(3) المُبرِّد، المُقتَضَب: 4/103.
(4) ثعلب، مجالس ثعلب، ص: 53.
(5) النَّحّاس، إعراب القرآن: 1/27.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/246.

دلالة التَّعبير بضمير الفصل ﴿هُمُ﴾:

ضمير الفصل ﴿هُمُ﴾ أفاد حصر الفلاح بـ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الّذين لهم الخيرات، و﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الّذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في معيّة رسول اللّه ﷺ. فلا يستحقّها أحدٌ غيرهم، وهي من أعظم ما يُحقّقه بَشرٌ من الخير على وجه الأرض، وهي أعظم الخيرات على الإطلاق.

الإشارة إلى أنّ هؤلاء (هم) الّذين حقّقوا معيّة الرّسول الأعظم

سرُّ التَّعبير باسم ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، دون الفعل:

قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، والمرادُ منه: التَّخلُّصُ من العقاب[1]. فمَن نجا من عقاب اللّه فقد أفلح، والتّعبير عن الفلاح بالاسم دون الفعل لدلالة الثّبات، وديمومة الفلاح واستقراره وأنّه لا يتغيّر ولا يذهب فلاحُهُم، وأنّه وعْدُ اللّه لهم، ولِمَن سار على نهجهم وهُداهم؛ فهو فلاحٌ مستقرٌّ في الآخرة، وقد خُتمت الآية بكلمة ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ تناسبًا مع ديمومة الفلاح في الآخرة، فآخر ما ذُكِر في الآية هو الفلاح وهو يُناسب فلاح الآخرة الدّائم.

فلاح المؤمنين في الآخرة، إكرام لوجوههم النّاضرة

توجيه المتشابه اللّفظيّ في: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾:

قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ وردت في ستّة مواضع؛ هي: البقرة، آل عمران، التّوبة، النّور، الرّوم، ولقمان؛ لتدلّ على كمال الخير عند المؤمنين وأسباب فلاحهم. فقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: 5]؛ والآية نفسها تكرّرت في سورة [لقمان: 5] بيّن أنّ الهداية من عند اللّه وهي هداية الرّسالات السّماويّة، هي سبب الفلاح. وبيّن قوله تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104]؛ أنّ الدّعوة إلى الخير والصّلاح

تكرار العبارة في القرآن، منفسح لمعانٍ متنوّعة خصبة

---

(1) ابن عادل، اللُّباب: 10/168.

والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، هو صلاح الأمّة والمجتمع والفرد، لذلك فهو سبب الفلاح. وبيّن قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [التّوبة: 88] أنّ المعيّة مع الرّسول وصُحبته والجهاد معه هو سبب الفلاح. وبيّن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [النور: 51]؛ أنّ الاحتكام إلى شرع اللّه يعني صحّة الإيمان والتّسليم بما أمر اللّه به وذلك سبب الفلاح، وأخيرًا بيّن قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الروم: 38] أنّ إيتاء حقوق النّاس والعناية بالمساكين وأبناء السّبيل هو من أسباب الفلاح.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(المفلحون)، و(الفائزون):

الفوز خلاصٌ من مكروهٍ، ووصولٌ إلى محبوب، والفلاح هو أعلى درجةً من الفوز

الفلاح نيل الخير والنَّفع الباقي أثره، وسُمّي الشَّيءُ باقي الأثر فلاحًا، ويُقال للأكّار (فلّاح) لأنّه يشقُّ الأرض شقًّا باقيًا، ويُقال لكلّ مَن عقل وحزم وتكاملت فيه خلال الخير قد أفلح، ولا يُقال صَلحَ إلا إذا تغيَّر إلى استقامة الحال، والفَلاح لا يفيد التَّغيير، ويجوز أن يُقال الصَّلاح: وضع الشَّيء على صفةٍ ينتفع به سواء انتفع أو لا[1]. أمّا الفوز فهُوَ الْخَلَاص من الْمَكْرُوه مَعَ الْوُصُول إلى المحبوب؛ وَلِهَذَا سمَّى اللّه تَعَالَى الْمُؤمنِينَ فائزين لنجاتهم من النَّار ونَيْلِهم الْجنَّة[2].

فالفرْقُ بين الفلاح والفوز؛ أنّ الفوز خلاصٌ من مكروهٍ، مع

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 211.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 210.

وصولٍ إلى محبوب وهو الجنَّة أو الخيرات، في حين أنّ الفلاح هو أعلى درجةً من الفوز؛ إذ لم يكن بهم ما يُخاف عليهم منه، فلا مكروه يُصيبهم؛ لأنّهم حقّقوا المعيّة مع رسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: 18]، وفوق ذلك فإنّ لهم الخيرات.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ٨٩﴾ [التّوبة: 89]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين إنعام الله على المؤمنين، ومآلهم إلى جنّات وتكريم، بنيل الفوز العظيم

بعد أنْ ذكر في الآية السّابقة ما للمؤمنين من الخيرات، وأنّهم أهل الفلاح، بيّن هنا طبيعة تلك الخيرات، وحقيقة ذلك الفلاح فقال: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾؛ فجاءت الآية بيانًا لما قبلها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَعَدَّ﴾: جذر الكلمة هو (عدد)؛ والإعداد من العَدِّ، فإذا قيل أعددتُّ هذا لك؛ أي: جعلتُه بحيثُ تَعُدُّه وتتناوله بحسب حاجتك إليه، قال تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ [التّوبة: 100][1]. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: 84]؛ يعني أنّ الأنفاسَ تُحْصَى إحصاءً، ولها عَددٌ مَعْلُوم[2].

المَعْنَى الإجْماليُّ:

بيان ما أعدّه الله للمؤمنين في الآخرة، حيث الفوز بالجنّة العامرة الآسرة

بيّنت الآية الكريمة ما أُعِدَّ للمؤمنين المجاهدين؛ إذ أعدَّ الله لرسوله محمد ﷺ وللّذين آمنوا معه ﴿جَنَّٰتٍ﴾، وهي البساتين التي وصفها بأنّها تجري من تحت أشجارها الأنهار، لابِثِينَ فيها، لا يموتون فيها، ولا يَظْعَنون عنها، وذلك هو النَّجاء العظيم، والحظّ الجزيل[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بيانُ عظيم شأن الخيرات التّي وُعِد بها المؤمنون المجزيّون

الغَرَضُ من كمال الاتّصال في الجملة ﴿أَعَدَّ﴾ من السّياق:

قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ استئنافٌ لبيان كونهم مفلحين[4]. ويُحتمل

(1) الرّاغب، المُفردات: (عد).
(2) الخليل، العين: (عد).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/415.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/91، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/344.

أن يكون استئنافًا لجواب سؤالٍ ينشأ عن الإخبار في الآية السّابقة بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾[1]. فتكون هذه الجنّات كالتَّفسير للخيراتِ والفلاحِ[2]. ويكون بيانًا لِما لهم من المنافع الأخروية، ويخصُّ ما قبل بمنافع الدُّنيا بقرينة المقابلة[3]. "فتحمل الجنَّات على ثواب الآخرة، والفلاح على منافع الدُّنيا، كالغزو، والثَّروة، والقدرةِ، والغَلَبَةِ"[4] فالجملة بمنزلة البَدَل مما قبلها، وهي بيانٌ لمعنى الفلاح.

توجيه المتشابه اللّفظيّ في آيتي التّوبة:

أعلى منازل الآخرة، هي منازل الأنبياء عليهم السلام

قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ في الآية 89 فقد سبقها قوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، فقد أُعِدَّت هذه الجنّات الّتي تجري من تحتها الأنهار للرّسول ﷺ ومَنْ معه، وهكذا هذه الصّيغة في القرآن الكريم كلّه، جاءت مع الرّسل والأنبياء، أمّا صيغة: ﴿تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ وهي الوحيدة في القرآن؛ وسبقها قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾ [التّوبة: 100]، وهؤلاء لم يُذكر معهم الرّسول ولم يُذكر معهم أَحَد من الأنبياء. وقوله ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا﴾: منزلة عالية؛ إذ تكون الجنّات جارية من تحتهم، وحرف الجرِّ ﴿مِن﴾ لابتداء الغاية؛ إذ إنّ نبع الأنهار يكون من تحتها، في حين قوله: ﴿تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ لا يشترط أن يكون نبع الأنهار من تحتها لكنّ جريان الأنهار يكون تحتها.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/291.
(2) ابن عادل، اللُّباب: 10/168.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/344.
(4) ابن عادل، اللُّباب: 10/168.

وعليه فـ (من) في الآيات الأخرى لزيادة التَّأكيد؛ "إذ ليس لحرف (من) مع أسماء الظُّروف إلا التَّأكيد"[1]، وعدم ذِكْرها في سورة التَّوبة لحصول ما يُغني عنها من أدوات التَّوكيد، وذِكرُها في قراءة ابن كثير[2] يفيد زيادة التَّوكيد.

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿أَعَدَّ﴾:

الإعداد تهيئة وعناية وتمكين

عبّر بـ ﴿أَعَدَّ﴾ لأنَّ الإعداد هو التّهيئة للشَّيء مصحوبًا بالعناية به، مع إمكان تناوله عند الحاجة إليه[3]؛ أي: التّمكين منه وقت ما يحتاج إليه، وفي لفظ الإعداد بيانٌ للاهتمام والتّشويق بلقائهم وإكرامهم، والعناية والاهتمام بشأنهم. وهذا لا يكون في غيرها من مرادفاتها.

والفعل من الماضي المُطلَق؛ فهو يصلح لجميع ما تقدّمك من الأزمنة[4]؛ إذ يدلّ الماضي ﴿أَعَدَّ﴾ على أنّ الأمر قد تمّ وانتهى؛ وعلى الالتزام الذي لا يتخلّف، وأنّ اللّه تعالى قد حكم في هذا الأمر، وأنّه قد أعدّ للمؤمنين في معيّة الرّسول ﷺ عظيم الأجر والثّواب، فيدلّ ذلك على ثبات المكافأة لهم.

الغَرَض من إسناد الإعداد، إلى الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾:

ثبات وعد الله للمؤمنين، مسألة معلومة بيقين

في الإسناد إلى الاسم الجليل إشعارٌ بالمهابة وتحقيقٌ للوعد، وقد وقع كذلك في الآيتين، ليدلّ على العناية وثبات وعْدِ اللّه لهم، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النّساء: 122].

الغرضُ من تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾:

اختصاص المؤمنين بالجنّات، أرقى ما يَصِلون إليه من مقامات

فائدة تقديم الجارِّ والمجرور الاختصاص، وكأنّ هذه الجنّات قد وُسمت بأسمائهم، فهُم الَّذين اختصّهم اللّه تعالى بهذه المكرُمة العالية التّي لا تنبغي إلّا لهم؛ فخصّهم بذلك.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/19.
(2) ابن مجاهد، السَّبعة، ص: 317، وابن الجزريّ، النَّشر: 2/280.
(3) الرّاغب، المُفردات: (عد).
(4) ابن يعيش، شرح ابن يعيش: 8/110.

نكتة جمع لفظ ﴿جَنَّٰتٍ﴾:

الجمع للتَّكثير والتّعظيم، فهؤلاء المؤمنون قد اختصّهم اللّه بأعظم أجرٍ وأخْيَر ثواب؛ فأفاد جمع (جنّات) ذلك المعنى العظيم.

الثّواب العظيم للمؤمنين، عطاء مغدق من ربّ العالمين

سرُّ تقييد الجنَّات بالوصف، بجريان الأنهار من تحتها الجنّات:

قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، وصف الجنَّات بكونها تجري من تحتها الأنهار، إشارة إلى أنَّ المُراد بالجنَّة أشجارها وثمارها وغروسها، وأنَّ الماء يجري تحت هذه المذكورات[1]. وَمَعْنَى ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ مِنْ أَسْفَلِهَا وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى الْجَنَّاتِ بِاعْتِبَارِ مَجْمُوعِهَا الْمُشْتَمِلِ عَلَى الْأَشْجَارِ وَالْأَرْضِ النَّابِتَةِ فِيهَا، وَيَجُوزُ عَوْدُ الضَّمِيرِ إِلَى الْجَنَّاتِ بِاعْتِبَارِ الْأَشْجَارِ لِأَنَّهَا أَهَمُّ مَا فِي الْجَنَّاتِ، وَهَذَا الْقَيْدُ لِمُجَرَّدِ الْكَشْفِ فَإِنَّ الْأَنْهَارَ لَا تَكُونُ إِلَّا كَذَلِكَ وَيُفِيدُ هَذَا الْقَيْدُ تَصْوِيرَ حَالِ الْأَنْهَارِ لِزِيَادَةِ تَحْسِينِ وَصْفِ الْجَنَّاتِ[2].

معهود في الدّنيا، أنَّ الماء هو شريان الحياة

الغرض من التَّعبير بالمجاز العقليّ، في إسناد الجري إلى ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

وقع المجاز العقليّ في إسناد الجريان إلى الأنهار؛ فالأنهار لا تجري، وإنّما الماء فيها هو الّذي يجري، وعلاقته المحلّيّة، وفائدة هذا المجاز بيان عظمة ما هم فيه من نعيم مقيم في صبغة الجمال الفريد، فجريان الماء في الأنهار لا ينقطع، وكأنّ الأنهار نفسها هي التي تجري من تحتهم، أو تتحرّك من تحت أرجلهم، لما استحقّوه من الكرامة.

جمال حركة الماء في الأنهار، ممّا يسلب القلوب، ويأخذ بالأبصار

الغرض من تقديم ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ على الفاعل:

تقديم ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ على الفاعل لبيان تفرّد ما فيه تلك الجنّات من الجمال؛ وما تمتلكه تلك الجنّات من خصوصيّة وتفرّد، يُميّزها عن جمال جِنان الدُّنيا المعهودة لدى المُتلقّين؛ جذبًا للاهتمام،

تفرُّد جنّات الآخرة بجمال أخّاذ

(1) ابن بدران، جواهر الأفكار ومعادن الأسرار المُستخرجة من كلام العزيز الجبّار، ص: 121، 122.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/354.

وتشويقًا للسَّامعين، ورغبة في ورود تلك الجنّات وتملُّكها؛ فيرجعون إلى أسباب تملُّكها، فيكون منهم أهل همّة في تحصيلها ببلوغ الطّاعات، وتحقّق الإيمان، والصِّدق والمثابرة في طاعة اللّه تعالى.

سرُّ التَّقييد بالحال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾:

الخلود يكون بعد دخول الجِنان

فائدة قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ هو التّلبّس بحال الخلود، وهي حالٌ مقدَّرة، وهي المستقبليَّة، الّتي يكون وقوعها بعد زمن عامِلها؛ فالخلود في الجِنان حالة مستقبليّة؛ لأنّه سيكون بعد دخول الجِنان[1]. وكذلك كلّ وعدٍ بالجِنان في القرآن، وكلّ وعيدٍ بالنّار كقوله: ﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ [التّوبة: 68] هو من قبيل الحال المُقدَّرة، وكأنَّ الخلود نعيمٌ يُضاف إلى النَّعيم السَّابق، والتَّعبير بالحال مناسبٌ للحديث عن التّنعُّم بطول الوقت غير المنقطع.

سِرُّ عدم ذِكر لفظ (أبَدًا):

خلود أهل المعيّة مع الرّسول الكريم، في نعيم الجِنان المقيم

حيث يذكر الفوز فهو مُغنٍ عن ذِكر التَّأبيد، إلَّا أن يُقصد الإطناب، ولذلك لم يقع ذِكر التَّأبيد في آية النِّساء[2] والأُولى من براءة[3] وسورة الحديد[4] والمجادلة[5]؛ إذ الفلاح فوز، فذِكْرُ الفوز أو الفلاح مُغنٍ عن ذكر التّأبيد، فلم يجمع بينهما، ولمَّا لم يَذكر في آية الطّلاق الفوزَ ولا ما يُرادفه لم يكن بدٌّ من ذِكر التَّأبيد، ولم يَذكر التّأبيد في آية المجادلة مع ما فيها من إطناب؛ لأنّه عَدَل إلى أوصاف حصل منها خصوص وإطناب، فوقع الاكتفاء بها[6].

---

(1) الصّبَّان، حاشية الصّبّان: 2/194.

(2) قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [النساء: 13].

(3) قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: 89].

(4) قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۖ بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢﴾ [الحديد: 12].

(5) قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾ [المجادلة: 22].

(6) الغرناطيّ، مِلاك التَّأويل: 1/102.

وهنا في آية التَّوبة ذِكْر معيّة الرّسول والإيمان به وبرسالته والجهاد معه، وهذا كافٍ في ورودهم هذه الجِنان، وتملُّكها والخلود فيها، فلم يكن ثمَّة داعٍ إلى ذكر الخلود الأبديّ، فما دام أنَّ أحدًا سيخلد في تلك الجنان خلودًا أبديًّا؛ فمن باب أولى أن يكون أهل المعيّة والجهاد مع الرّسول هم أهل ذلك الخلود الأبدي، فهم السّابقون الأوّلون، قال تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ١٤﴾ [الواقعة: 13 - 14].

الغرض من كمال الاتّصال ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾:

بيان شأن الفوز بالجِنان، بما يغمر النّاس من جزاء الرّحمن

قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، وقعت هذه الجملة من سابقتها موقع التّأكيد المعنويِّ مما قبلها للتّأكيد أنَّ هذا الفوز هو الفوز الّذي ليس بعده فوزٌ، ولاتّصال المعنى هذا الاتصال الوثيق استُغني عن الواو وغيرها من الروابط كشفًا عن وَثاقةِ ترابط المعنى.

الغرض من التَّعبير باسم الإشارة، الدّالّ على البُعد ﴿ذَٰلِكَ﴾:

عظيم شأن المُشار إليه، وهو الفوز في الآخرة

الأصل في أسماء الإشارة أن يُشار بها إلى الأشياء المحسوسة، واستعماله في غير ما يُدركه الحسّ مجازٌ، لتنزيله منزلة المحسوس المُشاهَد[1]، ومنه وصف جِنان الآخرة في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٧٢﴾ [الزّخرف: 72]، وقوله هنا: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الّذي هو فوز غير مُشاهد أو محسوس، واسم الاشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ للبعيد تعظيمًا لشأن ذلك الفوز وبيانَ كماله؛ وأنّ مَن ناله رفيع الشّأن، وعظيم الدّرجة عند الله سبحانه، كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ١٥٧﴾ [البقرة: 157].

الفائزون بمعيّة الرّسول الأكرم، هم الفائزون بأعظم أجرٍ عند الله

سرُّ تقييد الفوز بالوصف بـ ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾:

من تناسُب المَعاني إتباعُ الفَوز بالعَظيم؛ لبيان أنّه ليس فوزًا عاديًّا

(1) الرّضيّ، الرّضيّ على الكافية: 2/30 و33.

كالّذي يحقّقُه النّاس في الدّنيا، وإنّما هو فوز لائق بالّذين حققوا المعيّة مع رسول اللّه ﷺ أو مَن سار على نهجهم من المؤمنين واتّبعوا سبيلهم.

توجيه المتشابه اللّفظيّ بين ايات السورة المختومة بالفوز:

خطاب عموم المؤمنين، يختلف عن خطاب خاصّتهم، من الصّحابة الأكرمين

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التّوبة: 72]، ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التّوبة: 100]، ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التّوبة: 111]، تكرّرت الإشارة بجملة الفوز العظيم في سورة التّوبة، واختلفت في صياغتها، فمن المتشابه اللّفظيّ في الآية [72] والآية [111]، ذِكر المؤمنين دون تخصيص بجيل من الأجيال، أو فترة زمنيّة محدّدة، فهُم المؤمنون مطلقًا؛ ففي الآية [72] ذِكر وعد اللّه لعموم المؤمنين بالجنّات والفوز، وفي الآية [111] وصفهم بأنّهم يُضحّون بأموالِهم وأنفُسِهم في سبيل اللّه، فأكّد في الآيتين بذِكر ضمير الفَصل ﴿هُوَ﴾ ليُعلم أنّ كلّ المؤمنين في كلّ وقت وعصر ممّن تحقَّقت فيهم هذه الصّفات، يكونون مشمولين بهذا الكرم والعطاء، فأكّد لزيادة همّة مَنْ يَسْمَع ومَنْ يقرأ ومَنْ تَصِلُه أخبارهم، فقال في الموضعين: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾، أمّا في هذه الآية فقد سبقها تحديد جيل الصّحابة المحظوظ بمعيّة رسول اللّه ﷺ فلم يحتجْ أن يؤكّد في السّياق بضمير الفصل (هو)؛ فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾؛ فلا أحدَ يَصِلُ إلى ما قد وصل إليه أولئك القوم وهم أهل الصُّحبة والمَعيّة.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

أَعَدَّ وجَهَّزَ:

الإعداد هو التّهيئة مع الانتفاع، والتّجهيز إعدادٌ قد لا يتبعه انتفاعٌ

سبق أن أشرنا إلى أنّ الإعداد هو التَّهيئة مع إمكان الانتفاع، أمّا التّجهيز فهو إعداد قد لا يتبعه انتفاع لعدم الاحتياج، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ﴾ [يوسف: 70] فإخوة يوسف، وإن جُهّزوا بجهازهم لكنّهم لم ينتفعوا به، ﴿قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ﴾ [يوسف: 59] والجهاز ما يُعدّ من متاعٍ وغيره، والتَّجهيز حَمْلُ ذلك أو بَعْثُه(1).

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 115.

العظيمُ والكبيرُ:

العظيم مُستعار لكلّ كبير، محسوسًا كان أو معقولًا

إنَّ الَعظِيم قد يكون من جِهَة الكَثْرَة وَمن غير جِهَة الكَثْرَة وَلذَلك جَازَ أَن يُوصف اللّه تَعَالَى بِأَنَّهُ عَظِيم وَإِن لم يُوصف بِأَنَّهُ كثير، وَقد يعظم الشَّيْء من جِهَة الْجِنْس وَمن جِهَة التَّضاعُف[1]. وعَظُم الشَّيءُ: أصلُه كَبُرَ عَظْمُه، ثمَّ استُعير لكلّ كبير، فأُجري مجراه محسوسًا كان أو معقولًا، عينًا كان أو معنىً. قال: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الزمر: 13]، ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾ [ص: 67]. والْكَبِيرُ والصّغير من الأسماء المُتضايفة التي تُقال عند اعتبار بعضها ببعض، فالشَّيء قد يكون صغيرًا في جنب شيءٍ، وكبيرًا في جنب غيرِه، ويُستعملان في الأجسام، وذلك كالكثير والقليل، وفي العدد، والأصل أن يُستعمل في الأعيان، ثمَّ اسْتُعِيْرَ للمَعَاني نحو قوله: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: 49]، وقوله: ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ﴾ [سبأ: 3]، وقوله: ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [التوبة: 3]؛ إنَّما وصَفَه بالأكبر تنبيهًا على أنّ العُمرة هي الحجّة الصّغرى، ومنه ما اعْتُبِرَ فيه المنزلة والرّفعة نحو: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةًۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ﴾ [الأنعام: 19]، ونحو: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: 9][2].

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 183 و361.

(2) الرّاغب، المفردات، ص: 696.

﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٩٠﴾

[التّوبة: 90]

العلاقة بين المؤمنين الباذلين أنفسهم في سبيل الله، ومآل المنافقين من المخلّفين من الأعراب

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا شرح أحوال المنافقين الّذين كانُوا في المدينة، بيّن في هذه الآية أحوال المنافقين من الأعراب. فقال تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ الآية، فبان أنّ موقفهم على غرار ما فعله منافقو المدينة. ثم إنّه بعد أن قابل بين حال المنافقين وحال الرّسول ﷺ والمؤمنين في الآيات السَّابقة؛ بيّن هنا ما فعله المُعذِّرون من الأعراب، وهم يطلبون الإذن من رسول الله لينصرفوا عن صحبته؛ ظانّين أنّ هذا هو الفلاح، وما ذاك إلا كفرًا منهم وانتفاءً للوعي والفقه عن قلوبهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾: العُذْرُ: تحرِّي الإنسان ما يمحو به ذنوبه، والمُعَذِرُ: مَن يرى أنّ له عُذْرًا ولا عُذْرَ له[1]. والمُعذِّرون: من (عُذر في الأمر): إذا قصّر فيه، وتوانى ولم يَجِد، وحقيقته أنْ يُوهم أنَّ له عذرًا فيما يفعل ولا عذر له، ويُحتمل أن يكون من (اعتذر)، والأصل المعتذِرون، وقرأ يعقوب ﴿ٱلۡمُعۡذِرُونَ﴾ بالتَّخفيف[2]، ورُوي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما فهو من: (أعذر) إذا كان له عُذر. و﴿ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾ بالتَّشديد من (تعذَّر) بمعنى: اعتذر[3].

2) ﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾: الأعراب هم سكان البوادي خاصَّة، والنّسبة

(1) الرّاغب، المفردات: (عذر).
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/280.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/344.

إليهم (أعرابي) فهو اسم جنس[1]، والعَرَبِيُّ: المُفصِح[2]. ورجل أعرابيٌّ بالألف إذا كان بدويًّا صاحب نُجْعَةٍ وارْتِيادٍ لِلكَلَأ، وتتبُّعٍ لمساقط الغيث، وسواء كان من العَرب أو من مواليهم، والأعرابيُّ إذا قيل له: يا عربيّ؛ فرح بذلك وهشّ له، والعربيُّ إذا قيل له: يا أعرابيّ؛ غضب له[3].

3) ﴿لِيُؤۡذَنَ﴾: جذر الكلمة هو (أذن)؛ "ويُستَعار لِمَن كَثُرَ استماعه وقولُه لما يُسمَعُ، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ﴾ [التّوبة: 61]؛ أي: استماعه لما يعود بخيرٍ لكم"[4]. "وأذِن له في الشَّيءِ بالكسر إذْنًا، وأذِنَ بمعنى: عَلِمَ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ [البقرة: 279]، وأَذِنَ له: استمع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾ [الانشقاق: 2]؛ وفي الحديث: «ما أذن الله لشيء كأَذَنِه لِنبيٍّ يتغنَّى بالقرآن يجهر به»[5]"[6].

4) ﴿وَقَعَدَ﴾: قَعَد خلاف قام[7]، والقَعْدَةُ: المَرَّةُ الواحدة. والقَعَد: القَوْمُ الّذين لا ديوان لهم. والمُقْعَدُ والمُقْعَدَةُ اللّذان لا يطيقانِ المَشْيَ[8]. ومعنى (قعد) هنا: كلّ ما يُوصف به الفَردُ والقومُ من السّلب والتّخلّف؛ وفي الآية معنى الإعراض عن الجهاد مع الرّسول ﷺ واختياره والإصرار عليه.

5) ﴿كَذَبُواْ﴾: جذر الكلمة هو (كذب)؛ تقول: كَذَبَك[9]كَذِبًا، أي: لم يَصْدُقْكَ، وقوله تعالى: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا﴾ [النّبأ: 35]"[10]. والتَّكاذُبُ ضدُّ التَّصادُق[11].

6) ﴿سَيُصِيبُ﴾: جذر الكلمة هو (صوب)؛ الإصابة: مصدر أصاب، بمعنى: لم يخطئ، تقول: أصاب السَّهمُ الرَّميّة: لم يُخطئها، وصوَّبَ السَّهم: وجَّهه وسدَّده، وتأتي

(1) الزّبيديّ، تاج العروس، والرّاغب، المفردات: (عرب).
(2) الرّاغب، المفردات: (عرب).
(3) ابن منظور، لسان العرب: 4/2468.
(4) الرّاغب، المفردات: (أذن).
(5) الخليل، العين، والرّازيّ، مختار الصِّحاح: (أذن).
(6) أحمد، مسند الإمام أحمد، باب مسند أبي هريرة، الحديث رقم: (9805)، 15/500.
(7) ابن سِيدَه، المُحكَم: (قعد).
(8) الخليل، العين: (قعد).
(9) الثّابت في المعاجم أنّ الفعل: (كذب) من باب: (ضرب)، فهو مفتوح العين في الماضي.
(10) الخليل، العين: (كذب).
(11) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (كذب).

(أصاب) بمعنى: أخذ، تقول: أصاب من المال[1]. والصَّواب: ضدُّ الخطأ، والمُصابُ: مفعول مَن أصابَتْهُ مصيبة[2].

۞ المَعنى الإجْماليّ:

صورة أخرى من صور التّخاذُل والتّخلّف، وما يؤول إليه أصحابها من البوار والخسار

وجاء المُعذّرون من الأعراب إلى رسولِ اللّه ﷺ ليُؤذن لهم في التّخلُّف عن الجهاد والقعود مع الخوالف، كما فعل المنافقون من أهل المدينة، ورضوا بالقعود عن المجيء إلى رسول اللّه ﷺ والجهاد معه، فوصفهم تعالى بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ [التّوبة: 90]، فقد قالوا الكذب واعتذروا، وتعذّروا بلا عذرٍ. فهؤلاء سيُصيب الّذين كفروا منهم عذابٌ أليم؛ إذْ جحدوا توحيد اللّه ونبوَّة نبيه محمد ﷺ، [3]. أو إنّ المُعذرين هنا طائفة من المؤمنين من أصحاب الأعذار، وليسوا منافقي الأعراب.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة (الواو): ﴿وَجَآءَ﴾، وأثرها في المعنى:

يبرز حرف الوصل، معنيَيْن متناقضيْن، كلاهما واردٌ

قوله: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ﴾ شروع في بيان أحوال منافقي الأعراب إثر بيان أحوال منافقي أهل المدينة[4]. و"عُطِفت جملة: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾ على جملة ﴿ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ﴾ [التّوبة: 86]، وما بينهما اعتراض، فالمراد بالمُعذّرين: فريق من المؤمنين الصّادقين من الأعراب، كما تدلّ عليه المقابلة بقوله: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾؛ فتحقَّق عنصر الاتّصال وعنصر المغايرة، وعلى هذا المعنى فسَّر ابن عبّاس، ومجاهد، وكثيرٌ

---

(1) عبد المنعم، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، ص: 197.
(2) الرّازيّ، مختار الصّحاح، ص: 375.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/416.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/344.

وخالفهم قتادة"[1] فجعلهم المُعتذرين كذبًا، على أنّهم قومٌ آخرون غير الّذين قال فيهم: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾، فهم صنفٌ آخر من الكاذبين المُتخاذلين عن نصرة رسول الله ﷺ، فيتحقّق أيضًا بذلك عنصرا الاتِّصال والمُغايرة.

سرّ اختيار لفظ ﴿ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾:

من لطائف القرآن قبول لفظ (المعذِّرون)، معنيَيْن مُتناقضيْن

الاعتذار افتعال من باب ما استُعمل فيه مادة الافتعال للتكلّف في الفعل والتصرّف مثل الاكتساب والاختلاق. والعُذْر البيّنة والحالة الّتي يتصّل المُحتجُّ بها من تَبعة أو مَلام عند مَن يعتذر إليه. وصيغة ﴿ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾ من لطائف القرآن؛ إذْ شملت الَّذين صدقوا في العُذر والّذين كذبوا فيه. فإنْ كانوا المُحقّين في العُذر فتقدير ﴿ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾: أنّ أصله المعتذِرون، مِن اعتَذَرَ؛ أدغمت التّاء في الدّال لتقارُب المخرجَيْن لقصد التّخفيف، وإن كانوا الكاذبين في عذرهم فتقديرُ ﴿ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾: أنّه اسم فاعل مِن عَذَّر بمعنى: تكلّف العُذر. قال الأزهريُّ: ذهب إلى أنّهم الّذين يعتذرون بلا عُذر فـ(المُعَذِّر) بالتّشديد هو المُظهِر للعُذر اعتلالًا، وهو لا عُذر له[2].

توجيه قراءة (المُعذِرون):

المُعَذِّرُون هم الّذين جاءوا بعذرٍ ولم يُقصِّروا

في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾، قرأ يعقوب: (المُعْذِرُونَ) بسكون العين وكسر الذّال مخففةً[3] من (أعْذَر، يُعذِر) كـ (أكْرَم، يُكْرِم)، وهم المبالِغون في العُذْر[4]. فـ (المُعْذِرُونَ) بالتَّخفيف هم الّذين أعذَروا، أي: جاءوا بعُذرٍ، يُقال: أعذَرَ الرّجل، إذا جاء بعُذرٍ ولم يُقصِّر[5]، وهم الكاذبون في العُذر[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/292.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/292.
(3) ابن الجزري، النّشر: 2/280.
(4) ابن عادل، اللُّباب: 10/168.
(5) الكرمانيّ، مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني، ص: 199.
(6) ابن عادل، اللُّباب: 10/169.

ومَنْ قَرَأَ ﴿ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾ بتشديد الذّال فله وجهان: أحدهما: المتعذِّرون، أُدْغِمَتِ التَّاء في الذَّال، كأنَّهم يَعتَذرون، كأنَّ لهم عذرًا ولم يكن. وجائز أن يكون ﴿ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾ الّذين توَهَّمُوا أنَّ لهم عُذرًا ولا عُذرَ لهم. والعربُ تقول للمُقَصِّر: مُعَذِّر[1]، وهي تحتمل وجهين: أن يكون وزنه (فعَّل) مضعّفًا، ومعنى التَّضعيف فيه التّكليف، والمعنى: أنّه توهَّم أنَّ لهُ عُذرًا، ولا عذر لهُ.

والثاني: أن يكون وزنه (افْتَعَل)، والأصلُ: (اعتذرَ)، فأدغمت التّاءُ في الذّال بأنْ قُلبت تاءُ الافتعال ذالًا، ونُقِلت حركتها إلى السَّاكن قبلها، وهو العين، ويدلُّ على هذا قراءةُ سعيد بن جُبير (المُعْتَذِرُونَ) على الأصل، وإليه ذهب الأخفشُ، والفرَّاءُ وأبو عُبيد، وأبو حاتم، والزَّجَّاجُ، وابن الأنباري، والاعتذار قد يكُون بالكذبِ، كما في قوله: ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ [التّوبة: 94]، وكان ذلك الاعتذارُ فاسدًا، لقوله: (لا تَعْتَذِرُوا)، وقد يكون بالصِّدقِ. فقراءة ﴿ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾ بتشديد الذّال، من (تعذَّرَ) بمعنى اعْتذرَ[2]، فمحتملة؛ لأنْ يكونُوا صادقين، وأن يكُونُوا كاذبينَ، قال ابنُ عبَّاسٍ: هم الَّذِين تخلَّفُوا بعذرٍ بإذن رسُول اللّه ﷺ وهو قول بعض المفسِّرين أيضًا، قال: ﴿ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾، كانوا صادقين؛ لأنَّه تعالى لمَّا ذكرهم قال بعدهم: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾، فلمَّا ميَّزهم عن الكاذبين دلَّ على أنَّهم لَيْسُوا كاذبينَ[3].

معنى حرف الجرّ ﴿مِنَ﴾، ودلالته في سياق الجملة:

المعاني العديدة المُستفادة من حرف الجرِّ (مِن)، من مرامي البيان

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾، وفيه حرف الجرّ ﴿مِنَ﴾ هنا للتَّبعيض؛ لأنّ بعض المُعذّرين كانوا من الأعراب. أو هي

(1) الكرمانيّ، مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني، ص: 199.
(2) ابن عادل، اللُّباب: 10/168.
(3) ابن عادل، اللُّباب: 10/169.

لبيان الجنس؛ أي: جاء المُعذّرون من جنس الأعراب. وذكر الرَّضيُّ في شرحه على الكافية لبيان (من) الجنسيّة، قوله: نحو (أخذتُ عشرين من الدَّراهم)، فإذا أشرتَ بالدّراهم إلى دراهم معيّنة أكثر من عشرين فـ (من) مُبعّضة؛ لأنّ العشرين بعضها، وإذا كانت الدّراهم عشرين فهي مُبيّنة، لأنّك قصدت بالدّراهم الجنس[1]. وهذا المعنى يمكن رجعه إلى الابتداء أيضًا، كما يمكن رجعه إلى التّبعيض كما ذكر سيبويه[2].

إيثار لفظ ﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾:

ما يغلب على حال الأعراب، الغلظة والنّفاق، وشدّة الأخلاق

تُطلقُ الأعراب على أهل البوادي، على خلاف العرب التي هي لأهل الحَضَرِ من المدن والقرى. وقد ورد ذكرُهم في أكثر من موضع في القرآن الكريم، من ذلك قوله: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات: 14]. ولعلّ آية الحُجُرات تأتي مفسِّرة لذكر الأعراب دون العرب في آية التّوبة، فالأعرابُ هم الّذين لمّا يدخل الإيمان في قلوبهم؛ وهذا هو الدّاعي لأنْ يكونوا من المُعذِّرين، فهم يأتون إلى رسول الله ﷺ يُقدِّمون الأعذار بأنواعها وأشكالها طلبًا للقعود عن الجهاد؛ خشيةَ القتل، وذلك دليلُ انتفاء الإيمان في القلوب.

دلالة اللّام: ﴿لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ﴾، وأثرها في المعنى:

غاية الأعراب، كانت التّخلّف عن القتال، فنالوا بذلك سوء المآل

اللّام في قوله: ﴿لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ﴾ لام تعليل، والمعنى في الآية: جاء المعذّرون لكي يُؤذنَ لهم، فقد جاءوا لطلب الإذن فكانت هذه غايتهم، وأنّهم لا يريدون احتمالًا آخر، وهذا على خلاف الّذين سيأتي ذكرهم؛ إذ جاءوا رسول الله ﷺ ليحملهم ولكن لم يجدوا الحُملانَ عند رسول الله ﷺ.

(1) الرّضي، شرح الرّضي على الكافية: 2/357.
(2) السّامرائيّ، معاني النّحو: 3/68.

دلالة بناء الفعل للمفعول ﴿لِيُؤۡذَنَ﴾ في السّياق:

تنزيه الرَّسول عن موافقة المُعذّرين

لَمَّا لم يسمّ فاعله في قبول الأعذار، والفاعل المقصود هو رسول اللّه ﷺ فحُذف لتعظيمه ﷺ وتنزيهه عن أن يعطيَ موافقته للمخلّفين أو المُعذّرين، الّذين يطلبون القعود بلا عذرٍ مشروع.

سرُّ التَّعبير بالجملة الخبريَّة: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾ في السّياق:

إظهار ما وصلت إليه نفوس المنافقين، من سفاهة وضلالة

فائدة الجملة الخبريّة هنا: إثبات مجيء هؤلاء الأعراب ليأذنَ لهم الرّسول بالقعود والتّخلّف عن الجهاد معه، ليتحقَّقَ من هذا الخبر لازم الفائدة؛ إذ قال: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾، ثمّ أتبعها بقوله: ﴿لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ﴾، فما داموا مُعذّرين فإنّهم سيطلبون الإذن والعُذر عن عدم مصاحبة النّبيّ في الجهاد، فيكون المُخاطب عالماً بمضمون الخبر؛ وهو طلب الإذن، أمّا الفائدة البلاغيّة في هذا الخبر؛ فهي إظهار دنوّ ما وصلت إليه نفوسُهم المريضة، طالبين الاعتذار عن معيّة الرّسول ﷺ ولا يفعل ذلك الفعل إلا مَن تجرَّد قلبه عن الإيمان. هذا إن كان المقصود بهم الكاذبين، أمّا إن أُريد بهم أصحابُ الأعذار الحقيقيّة؛ الّذين استحقّوا إعذارهم في عدم الخروج للجهاد؛ لوجود عذر شرعيّ حقيقيّ، وذلك الأمر يحصل مثيله في الأفعال الجماعيّة.

دلالة (الواو) في: ﴿وَقَعَدَ﴾:

بيانُ فريقٍ آخر قعدوا دون إعلام، النّبيّ ﷺ

جملة: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ عُطفت على جملة: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ وهذا فريق آخر من الأعراب هم خليط؛ فمنهم المسلمون ومنهم المنافقون، قال: ﴿كَذَبُواْ﴾؛ "قرأ الجمهور ﴿كَذَبُواْ﴾ بالتّخفيف، أي: كذبُوا في أيمانهم. وقرأ الحسنُ في المشهور عنه وأبيٌّ، وإسماعيل: (كذَّبُوا) بالتّشديد؛ أي: لَمۡ يُصدِّقُوا ما جاء به الرَّسولُ عن ربِّه ولا امتثلوا أمره"[1]. والمراد أنّهم كذبوا في الإيمان

(1) ابن عادل، اللُّباب: 10/169.

الّذي أظهروه من قبلُ، ويحتمل أنّهم كذبوا في وعدهم النّصر، ثم قعدوا دون اعتذار؛ لم يكن تخلّفهم مترقّبًا؛ الّذين اعتذروا قد علم النّبيّ ﷺ أنّهم غير خارجين معه بخلاف الآخرين فكانوا محسوبين في جملة الجيش، فكان تخلّفُهم أشدّ إضرارًا[1].

سرُّ التَّعبير بالفعل ﴿وَقَعَدَ﴾:

القعود لفظٌ محوريّ مشتركٌ، جَمَعَ أصناف المخلّفين

في قوله: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ شمول فئتين بينهما خصوص وعموم، أو بينهما تفصيل بعد إجمال، ومحور ذلك كلّه (القعود) فيكون المعنى: وجاء المُعذّرون يقصدون القعود عن الجهاد، فمجيء المُعذّرين عامٌّ قد يشتمل على مَن يكذب بعذره أو يَصْدُق؛ ولكنّه لمّا قال: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ فقد أوضح خطورة هذا الصّنف منهم وخصّهم بكذبهم على الله والرّسول. أو هو إيضاحٌ بعدَ إبهام، ولو قال: (وتخلّف الّذين كذبوا) لحصل توهمُ التّخلُّف عن المجيء مع المُعذّرين، وكذلك لو قال: (امتنع)، فأفاد لفظ (القعود) ذلك المعنى دون غيره.

وإيثار لفظ القعود لأنّه من الرُّسوخ واللصوق بالأرض دلالة على التّثاقل عن القتال والتخلّف عنه: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ [التوبة: 90]، ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: 95]، ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 81][2].

الغرض من التَّعبير بلفظ ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ﴾:

بيان شناعة ما وقع فيه المنافقون، من الكذب والإثم

الاسم الموصول يتّضح معناه إذا وُصِلَ بالصّلة، وفائدة التَّعريف هنا بالاسم الموصول في قوله: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ﴾ هو التَّعريض،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/293.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (قعد).

ومثاله أيضًا سبق ذكره في سورة التّوبة قوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ﴾ [التّوبة: 49]، فذكر المنافقين بالصِّلة تعريضًا بشناعة أفعالهم، وليُعلم انحدار شأنهم عند اللّه. وهذا لا يكون بقولنا: (وقعد الكاذبون)؛ أي: مع استعمال الصّفة دون الاسم الموصول.

دلالة تعدّي الفعل ﴿كَذَبُواْ﴾ بنفسه، وليس بحرف الجرّ:

يُقال: كذب فلانٌ فلانًا؛ أي: أخبره بشيء بخلاف ما هو عليه، وكذب عليه، أي: أخبر عنه بما لم يكن فيه، ففائدة تعدّي الفعل في قوله: ﴿كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ بلا حرف جرّ دلالة على عظيم اجترائهم؛ إذ إنّهم أخبروا رسول اللّه بخلاف ما هم عليه، ويعلمون أنّه رسول اللّه والوحي يتنزّل عليه.

يكذبون على الله، وهو أعلم بما تُكنُّه صدورهم

سِرُّ التّصريح بمعمولِ الفعل ﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾:

صرّح بمعمول فعل التّكذيب فقال: ﴿كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ لبيان خطورة ما قد أقدموا عليه من شناعة القرار والاختيار، فلا أعظم ولا أشنع ممّا يفعل هؤلاء، من إثم الكذب على اللّه سبحانه، وعلى رسوله ﷺ، فصرّح بالمعمول ليُفتضح الأمر ويُعلم كذبهم صريحًا على اللّه وعلى رسوله، فيحقّ عليهم القول، ويحقّ عليهم العذاب. فقال: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

بيان شناعة الإقدام على الكذب، على الله وعلى رسوله

دلالة الجملة الخبريّة ﴿وَقَعَدَ﴾ في السّياق:

الجملة الخبريّة ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ فائدتها إثبات قعود الّذين كذبوا اللّه ورسوله، وبيان صفةٍ من صفاتهم، لا تحتمل الخطأ، فقد صَدَقَ عليهم وصفُ الكذب على اللّه ورسوله بقعودهم دون حجّة أو سبب شرعيّ. وذلك من أعظم الآثام الّتي تُورد أصحابها المهالك. وليعلم هؤلاء أنَّ اللّه قد أحاط بما أكنّوا في أنفسهم وأنَّ رسوله ﷺ قد أخبر بالوحي، فيتحقّق ما يُعرف بلازم الفائدة. وفي هذه العبارة الخبريّة ما فيها من التّقريع بأولئك القوم.

بيان علم الله وعلم رسوله، بخبايا صدورهم

المقابلة بين الجملتيْن الخبريّتيْن:

﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ﴾ إذا كان المُراد بالمعذّرين فريق من المؤمنين الصّادقين من الأعراب، ثمّ ذُكر فريقٌ آخر وهم القاعدون دون عذر شرعيّ يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾؛ فيكون بين الآيتين مقابلة. وهذه المقابلة بين هذين الفريقيْن تعكس ما حصل من إرباكٍ في نفوس بعض النّاس؛ منهم مَن كان يرغب بالجهاد مع رسول اللّه ﷺ، منعتهم أعذارهم، وقوم آخرون غرّتهم الحياة الدّنيا وكرهوا أن يُجاهدوا معه ﷺ.

الآية تعرض فريقيْن مختلفيْن من المُخلّفين

دلالة الاستئناف في: ﴿سَيُصِيبُ﴾:

جملة: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مستأنفة لابتداءِ وعيد[1] وفُصلت عن سابقتها، ففي الجملة الأولى ذكر اللّه قعود الذين كذبوا اللّه ورسوله في ذلك الموقف الدُّنيويّ، بينما قال في الجملة الثّانية: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾؛ فصار الحديث عن الآخرة والعذاب الّذي استحقّه الكافرون.

بيان استحقاق الكافرين، عذاب الله الأليم

دلالة السّين في قوله: ﴿سَيُصِيبُ﴾:

السِّين وسوف يختصّان بالفعل المضارع، وهما حرفا استقبال، وتدلّ (سوف) على أنّ ما بعدها ليس بحاضر[2]، والاستقبال بـ(سوف) فيه بُعدٌ وتراخٍ، وهو أكثر تنفيسًا من السّين[3]، فيكون (السّين) للقريب، و(سوف) للتّنفيس البعيد، فأفاد (السّين) في قوله: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ زيادة الوعيد بقُرب العذاب الّذي سيُصيب الّذين كفروا من هؤلاء.

الوعيد بالعذاب القريب، تخويف للمعذّرين وترهيب

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/293.

(2) ابن قيّم الجوزيّة، بدائع الفوائد: 11/91 - 92.

(3) الرّضيّ، شرح الرّضيّ على الكافية: 2/248.

سرّ التّعبير بالإصابة، دون غيره من المرادفات:

دلالـة الإصابة علـى التّسـديد والأخذ

معنى (يصيب) أي: لم يخطئ، تقول: أصاب السّهم الرّميّة: لم يُخطئها، وصوَّب السّهم: وجهه وسدَّده[1]. فالتّعبير بالإصابة له دلالته الدّقيقة لِما سيأتي على الكافرين من العذاب. وأنّه واقع بهم لا محالة، فشبّه ما سيأتيهم من العذاب بتصويب السَّهم من الرّميّة. وتأتي (أصاب) بمعنى: أخذ، تقول: أصاب من المال، وهذا المعنى يدلّ على أنَّ العذاب سيأخذ الكافرين لشدّته وإحاطته بهم.

الغرض من التّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

تحقير المتّصفين بـالـكـفـر، والتّهـوين من شأنهم

فائدة التَّعريف بالاسم الموصول في قوله: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هو تحقير هؤلاء المتَّصفين بالكُفر، فذكر الكافرين بالصِّلة لشناعة ما هم عليه من مقام الكُفر، وتحقيرًا لهم وبيانًا لسوء عاقبتهم، وما سيصيبهم من العذاب الأليم. وهذا لا يكون بقولنا: (سيصيب الكافرين)؛ أي: مع استعمال الصّفة دون الاسم الموصول. أو المُراد بالموصول المُصرّون على الكُفر[2].

الغرض من تقديم المفعول به: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

اخـتـصـاص الكافرين بعذاب أليم

تقديم المفعول به: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لفائدة اختصاص الكافرين بهذا العذاب الأليم؛ وكأنّه قد خُلق هذا العذاب لهم خاصّة، فأفاد ذلك تقوية المعنى وتوكيده.

سرُّ التَّعبير بالجارِّ والمجرور ﴿مِنۡهُمۡ﴾:

إصابـة الّذيـن كفروا بالعذاب لِكُفرهم

"وضمير ﴿مِنۡهُمۡ﴾ يعود إلى المذكورين فهو شامل للّذين كذبوا اللّه ورسوله، ولِمن كان عذره ناشئًا عن نفاق وكذب"[3] قال ابن عادل: "وإنَّما قال ﴿مِنۡهُمۡ﴾؛ لأنَّه تعالى كان عالمًا بأنَّ بعضهم

---

(1) عبد المنعم، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، ص: 197.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/345.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/293.

سيؤمن، فذكر بلفظة (مِنْ) الدَّالّة على التَّبعيض"[1] وذكر الآلوسيّ قوله: أنّ ﴿مِنۡهُمۡ﴾؛ أي: من الأعراب مطلقًا؛ وهم المنافقون منهم، أو من المعتذِرين، ووجه التَّبعيض أنَّ منهم مَن اعتذر لكسله لا لكفره؛ أي: سيُصيب المعتذرين لكُفرهم عَذابٌ أَلِيمٌ؛ وهو عذاب النَّار في الآخرة، ولا يُنافي استحقاق مَن تخلَّف لكسل[2].

دلالة تقديم المجرور ﴿مِنۡهُمۡ﴾، على الفاعل ﴿عَذَابٌ﴾:

الـغـرض مـن المجاز العقليّ، فـي إسـنـاد الإصـابـة إلى العذاب

في قوله تعالى: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ إسناد الإصابة إلى العذاب، وذلك من قبيل إسناد الفعل إلى غير فاعله، وهذا من المجاز العقليّ بعلاقة المُسبّبيّة، فبسبب كفرهم سيأتيهم العذاب؛ ولأنَّ اللّه تعالى هو الذي سيُصيبهم بالعذاب، فأسند الفعل إلى العذاب لفائدة قرب العذاب منهم، وشدَّة الإصابة عليهم، وفي ذلك مبالغةٌ في المعنى زيادةً في التّرهيب.

توجيه المتشابه اللّفظيّ، بين آيتي التّوبة، والمائدة:

آيـات المـائـدة حـجـاجـيّـةٌ إقناعيّةٌ، وآيات التّوبة مظهرة منطق البراءة من الكفر

الآية في سورة المائدة ورد قبلها قوله: ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ٧٢ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾ ثم أتبعها بقوله: ﴿وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ثم أتبعها بقوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فمن سياق الآيات يظهر أنّ الآية تناولت بيانًا لقضية الكفر عند النّصارى؛ إذ إنّهم قد كفروا لقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾، ثم جاء تبيين خطئهم في ذلك، وهو قول المسيح نفسه وبراءته من هذا الكفر، وتوعَّدَ مَن أصرَّ على هذا الكفر بالنّار، ثم بيّن وجهًا آخر

(1) ابن عادل، اللُّباب: 10/169.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/345.

من كفرهم فقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾، ثم ردَّ كُفرهم بقوله سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، فالآيات الكريمة موضع حجاج ونقاش وإقناع واستدلال، فقال بعدها: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فذكر المسّ دون الإصابة ترغيبًا لهم في الرّجوع إلى الإيمان والتّوبة عن أقوال الكفر، فقال بعدها: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فبيّن أنّ توبتهم مُرَحَّبٌ بها إنْ عادوا عن الكفر واستغفروا اللّه، فكان مناسبًا لهذا الحديث أن يذكر المسَّ دون الإصابة؛ لأنّ المسَّ يدلُّ على القِلَّة. أمَّا الإصابة في آية التّوبة قوله: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التّوبة: 90]، فقد عُلمت أحوال كفرهم وردّتهم عن نصرة الدّين، وترك الخروج مع رسول اللّه ﷺ والجهاد معه، ورضاهم بالقعود مع الخوالف، فناسب هنا الإصابة، لشدّة الموقف؛ إذ لا مقام للمحاجة والحوار والنّقاش حول قضيّة الإيمان والكفر، فهؤلاء قد أَخْفَوا الكفر وأظهروا الإيمان، ثمّ افتُضحوا في قضيّة الجهاد مع رسول اللّه ﷺ، فناسب ذكر الإصابة دون المَسِّ.

الغرض من تنكير لفظ ﴿عَذَابٌ﴾:

تهويل العذاب، فلا أعظمَ ولا أفظع، من عذاب جهنّم

وتنكير ﴿عَذَابٌ﴾ للتّهويل والمراد به عذاب جهنّم[1]. فلا أعظم من عذاب اللّه يوم القيامة للمنافقين الّذين أظهروا الإيمان، وفي ساعة العُسرة افتضح أمرهم؛ فتخلّفوا وقعدوا عن الجهاد مع رسول اللّه ﷺ.

سرُّ وصف العذاب بالألم:

العذاب الأليم مناسب لتركهم القتال، مع رسول الله ﷺ

قال: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ دون (عظيم) أو (مهين)؛ وذلك لأنّ المقام يقتضي ذلك؛ لجُبنهم عن أن يصيبهم ضرر الجهاد؛ فكان وصف

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/293.

العذاب بالألم مناسبًا لما يتصوّرونه من الخلاص من آلام القتال؛ قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ﴾ [النّساء: 104]. فإصابة العذاب هي كإصابة السّهم أو الرّمح أو السَّيف في المعركة، وألم العذاب هو كألم تلك الإصابات في المعركة، فناسب ذكر الأليم مع ما يصيب الجرحى في المعارك من آلام.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المجيءُ والإتيانُ:

المـجـيء يكـون إتيانا من مكان، وقـد استعمل أحـدهـمـا، في موضع الآخر

الفرق بين (جاء فلان) و(أتى فلان): أنّ معنى (جاء فلان)، كلام تامٌّ لا يحتاج إلى صلة، ومعنى (أتى فلان) يقتضي مجيئه بشيء، ولهذا يُقال: جاء فلان نفسُهُ، ولا يُقال: أتى فلان نفسُهُ، ثمَّ كثر ذلك حتّى استعمل أحد اللّفظين في موضع الآخر[1].

و"الإتيان مجيء بسهولة"[2]، وأصل المجيء انحدار، ومن هنا يتّضح مأتى استعمال: (أجاءه إلى كذا)؛ بمعنى: ألجأه واضطره، كأنّه أحْدره أو دفعه، إلى المجيء[3]. وعليه فإنّ اختيار لفظ المجيء مناسب لحال هؤلاء المعذّرين من تقديم خطوة وتأخير أخرى، وما في صدورهم من صراع وخوف وقلاقل.

القعودُ، والمكُثُ:

القُعودُ للعجز، والمـكـوثُ للانـتـظـار، من أشقّ الأمور على النّفس

استعمل القعود لاشتراكه مع كلمة القواعد بالجذر نفسه، والقواعدُ هنَّ النّساء اللّاتي قَعَدْنَ عن التّزوّج، قال تعالى: ﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا﴾ [النّور: 60]؛ وفائدة ذلك مناسبته لما ذكره في الآية السّابقة قوله: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾؛ أي: النّساء. والمُقْعَدُ: مَن قَعَدَ عن الدّيوان ولن يعجز عن

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 152.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 60.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: 1/264.

النهوض لزَمَانَة، والمُقْعَد: كناية عن اللئيم المتقاعِد عن المكارم[1].

أمّا (مكث) فالمُكْثُ: الانتظار. والماكِثُ: المنتظِر[2]. فالمُكْث لم يكن مُرادًا في الآية الكريمة.

الاصابة للقوّة، والمسّ للتّحسُّس والتّأنّي

الإصابةُ والمسُّ:

الإصابة فيها دلالة على القوّة، وفيه معنى الصّواب وتحقيق الهدف، وأصاب السّهمُ إذا وصل إلى المرمَى بالصَّواب[3]. أمّا المَسُّ فهو كاللّمس، لكنّ اللَّمسَ قد يُقال لطلب الشَّيءِ، أمّا المَسّ فيُقال فيما يكون معه إدراكٌ بحاسّة اللّمس[4].

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 21.

(2) الخليل، العين: 5/353.

(3) الرّاغب، المفردات: (صوب).

(4) الرّاغب، المفردات: (صوب).

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾ [التّوبة: 91]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين حال المعذّرين من الأعراب، وبين حال أصحاب الأعذار الصّادقين

بعد أن ذكر قعود المُخَلَّفين عن الجهاد مع رسول اللّه ﷺ وتوعدهم بالعذاب الأليم؛ استدرك هنا أنّ يبيّن أنَّ بعضًا من المخلَّفين مؤمنون راغبون في القتال مع رسول اللّه، ولكن أقعَدَهم العُذر، فهؤلاء لا حَرَجَ عليهم في ذلك، ولا سبيل عليهم، فاللّه سيغفر لهم قعودهم؛ فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ [التّوبة: 91]. قال الرّازيّ: "لما بيّن الوعيد في حقِّ مَن يُوهم العذر، مع أنَّه لا عُذر له، ذكر أصحاب الأعذار الحقيقيَّة، وبيَّن أنَّ تكليف اللّه تعالى بالغزو والجهاد عنهم ساقط"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلضُّعَفَآءِ﴾: جذر الكلمة هو (ضعف)؛ والضُّعْفُ: خلاف القوّة[2]. ويُقال: الضَّعْفُ في العقل والرّأي، والضُّعْفُ في الجسد[3]. والضّعفاء: جمع ضعيف، وهو الذي به وَهْنُ القوّة البدنيّة من غير مرض.

2) ﴿ٱلْمَرْضَىٰ﴾: جمع مريض، وهو الذي به مرضٌ، ويُقْصَدُ به المرض العُضويّ؛ وهو ما يطرأ على العضو من جسد الإنسان من تغييرات في نظامه وأدائه، أو ما يطرأ من عجز على الإنسان، ومن المرض المزمنِ كالعَمى والزّمانة[4]، أو كَبَتْرِ أحد الأطراف مِمَّا يحول بينه وبين قتال العدوّ، والخروج للجهاد.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/121.
(2) الخليل، العين، والزّبيديّ، تاج العروس: (ضعف).
(3) الخليل، العين: (ضعف).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/294.

3) ﴿حَرَجٌ﴾: الحرَج: الإثم أو المَأْثم. والحارِجُ: الآثِم[1]، ورجُلٌ حَرِج وحَرَج في معنى الضَيِّق الصَّدْر[2]. وقوله: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾. وقد حَرِجَ صدرهُ: أيْ: ضاق ولا ينشَرحُ لخَير، ورجلٌ مُتَحَرِّج: كافٌّ عن الإثم، ومن المَجاز: وقعَ في الحرج وهو ضِيقُ المأثم[3]. وحدِّث عن بني إسرائيل ولا حَرَج، وأحرجني فلان: أوقعني في الحرج[4].

4) ﴿نَصَحُواْ﴾: النّصح: نقيض الغِشّ، ورجلٌ ناصِحُ الجَيْب: نقيُّ الصَّدر، لا غشَّ فيه[5]. والنُّصح: العمل النّافع للمَنصوح، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: 79]، والنُّصح: إخلاص العملِ من الغِشّ[6]. وأُطلق هنا على الإيمان والسّعي في مرضاةِ اللّه ورسوله والامتثال والسّعي في ما ينفع المسلمين، فإنّ ذلك يُشبه فعل المُوالي النّاصح لمنصوحه[7]. قال ﷺ: «"الدِّينُ النَّصيحَةُ" ثلاثًا. قالوا: لمَنْ؟ قال: "للّهِ ولكتابِهِ ولرسُوله ولأئمَّةِ المسلمينَ وعامَّتهمْ"»[8].

5) ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: جذر الكلمة هو (حسن)؛ الحُسْنُ ضدُّ القُبْح، والحَسَنُ ضدُّ القَبِيح[9]. قال تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: 83]. وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ﴾ [العنكبوت: 8]؛ أي: يفعل بهما ما يَحْسُنُ حسنًا[10]. والحُسنُ كلُّ مبهجٍ مرغوبٍ فيه، والفرق بين (الحسن) و(الحُسنى)؛ أنّ (الحَسَنَ) يُقال في الأعيان والأحداث، و(الحُسْنَى) لا يقال إلّا في الأحداث دون الأعيان[11].

6) ﴿سَبِيلٍۚ﴾: جذر الكلمة هو (سبل)؛ السَّبيل: الطَّريق الذي فيه سُهولة وجمْعُه سُبُل، قال تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا﴾ [النّحل: 15]، وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [الزّخرف: 10]؛ أي:

---

(1) الخليل، العين، وابن سِيدَه، المُحكَم: (حرج).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/294.
(3) الخليل، العين، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (حرج).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (حرج).
(5) ابن سِيدَه، المُحكم: (نصح).
(6) ابن عادل، اللُّباب: 10/170.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/294.
(8) متّفق عليه. وهذه رواية مسلم، إسناده صحيح على شرط مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان أن الدين النصيحة، الحديث رقم: (55).
(9) ابن دُرَيد، جمهرة اللّغة: (حسن).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حسن).
(11) الرّاغب، المفردات: (حسن).

طُرُقًا سالكة، وقوله: ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الزّخرف: 37] يعني: طريق الحقِّ. وقوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ [التّوبة: 91]؛ أي: مؤاخذة لهم، فليس على المحسنين من طريق لمؤاخذتهم. وابن السَّبِيلِ: المسافر البعيد عن منزله، نُسب إلى السّبيل لممارسته إيّاه، ويُستعمل (السَّبِيلُ) لكلّ ما يتوصّل به إلى شيءٍ خيرًا كان أو شرًّا، قال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: 125]، و﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ [يوسف: 108]، وكلاهما واحد لكن أضاف الأوّل إلى المبلّغ، والثّاني إلى السّالك بهم، وقوله تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: 55][1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا حَرَج على أهل الأعذار، إذا ما خلّتهم الأقدار، بشرط إخلاص النّية والمحبّة

ذكر في هذه الآية أهل الأعذار الّذين منعتهم أعذارُهم من الخروج مع رسول الله ﷺ؛ فقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾؛ يعني: الشيوخ والعَجَزَة، وأهل العَمَى، والعَرَج، والزّمَانَة ومَن كان موصُوفًا بمرضٍ يمنعه من التّمكّن من المحاربة، وكذلك الفقراء؛ لأنَّ حضورَهُم يكون عِبئًا على المجاهدين، فلا يكون حرج في تخلّفهم عن الجهاد مع رسول الله ﷺ، ولا إثم عليهم. وقوله: ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾؛ بمعنى أن يكون مخلصًا في نفسه لدين الله، ونُصرة رسوله، والتّصديق بنُبُوَّتِهِ، والتزام طاعته في أمره ونهيه، وتعظيم سنَّته[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف، في مطلع الآية الكريمة:

استيفاء أقسام المُخلّفين بعذرٍ، في بيان بليغ

قوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾، استئناف بيانيٌّ لجواب سؤالٍ مقدّرٍ ينشأ عن تهويل القعود عن الجهاد مع رسول الله

(1) الرّاغب، المفردات: (سبل).
(2) ابن عادل، اللُّباب: 10/170.

ﷺ وما توجّه إلى المخلّفين من الوعيد، استيفاءً لأقسام المخلّفين من مَلُوم ومعذورٍ من الأعراب أو من غيرهم[1]. فإنّ فريقًا من المؤمنين قد حالت أعذارُهم بينهم وبين الخروج مع رسول الله ﷺ فاقتضى ذلك ذِكرَهم في الآية الكريمة.

وإنَّما وقع الاستئناف لأنّ الّذي قبلها كان حديثًا عن المُعَذّرين والأعراب الطّالبين للإذن دون عذرٍ مشروع، وتحدّث عن قعود الكاذبين، ثم أنهى الكلام عنهم بما توعّدهم به الله من العذاب. وفي هذه الآية بدأ موضوعًا جديدًا بالحديث عن أولي الأعذار الصّادقة فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾؛ فاقتضى الفصل لعدم تعلّق الآية بما قبلها، ولو وصل فقال: (وليس على الضّعفاء) لأشكل أنّه بيانٌ لِما قبلها أو استثناءٌ منها.

دلالة النَّفي بـ ﴿لَّيْسَ﴾:

نفي الحرج عن بعض المؤمنين، محدود مُقنّن، بحكمة ودقّة

النّفي بـ (ليس) يختلف عن النّفي بـ (ما)؛ فقد استعملت العرب (ليس) استعمال الأفعال، وعلى هذا فالجملة المبدوءة بها فعليّة، مقابل ذلك أنّ الجملة المنفيّة بـ (ما) اسميّة، والاسميّة أثبتُ من الفعليّة. فالجملة التي تنفي الحَرَج عن طائفةٍ مخصوصة من المؤمنين، إنّما يكون نفيُها محدودًا مؤقّتًا، قد ينتهي حُكمُه على شريحةٍ منهم مع انتفاء الموانع، لكيلا يُتوسّع في اختراع الأعذار وتقديرها في غير موضعها ومحلّها.

تعميم تشريع عدم مؤاخذة أصحاب الأعذار، وأهميّته في خدمة المستضعفين

الغرض من الجملة الخبريّة:

وأفادت الجملة الخبريّة ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ إثباتَ أنّ لا مؤاخذة لأصحاب الأعذار المشروعة في كلّ حال؛ وأصبح ذلك

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/294.

تشريعًا عامًّا في أمور المسلمين كلِّها؛ سواءً أكان ذلك في أمور الجهاد أم العبادات، فلا يكون حرجٌ في أمورهم، ولا يُكلّف اللّه نفسًا إلا وُسعها.

سرُّ اصطفاء صيغة الجمع: ﴿ٱلضُّعَفَآءِ﴾:

الضّعفاء هم أهل الضّعف البدنيّ أو المعنويّ

قوله: ﴿ٱلضُّعَفَآءِ﴾ يشمل الضّعاف ضعفًا معنويًّا وبدنيًّا ومادّيًّا، ومن ذلك مَنْ قد ألمَّ به مرضٌ نفسيٌّ يُقعده عن الجهاد. ووردت هذه اللفظة في قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ [البقرة: 266]، "وقرِئ (ضِعَافٌ) وكلاهما جَمعُ: ضعيف كظَريف وظُرَفاء وظِراف، والمعنى ذريّة صِبيةٌ صغارٌ، ويحتمل أن يُراد بضعفاء: محاويج"(1).

والضّعاف تأتي في الأمور المعنويّة، والضُّعفاء في الماديّة والمعنويّة معًا، وقد ورد الضّعاف في القرآن الكريم مرّةً واحدةً فقط هي قوله تعالى: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلًا سَدِيدًا﴾ [النّساء: 9]، الضعاف هنا الّذين لم يبلغوا سنّ الرّشد(2). أمّا (ضعفاء) فقد وردت في القرآن الكريم أربع مرّات؛ منها قوله: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ﴾، والضّعفاء هنا الشّيوخ ومَن كان بدنه ضعيفًا لا يقوى على الخروج للقتال.

علّة تكرار ﴿وَلَا﴾ في العطف، وتكرار ﴿عَلَى﴾ في الجرِّ:

كلّ حالة تقدّر بقدرها، ولا تُكلّف نفسٌ إلّا وسعها

في قوله: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ تكرار للنّفي (لا)، ولحرف الجر (على)، لبيان أنّ كلّ حالة من هذه الحالات لها حكمها الخاصُّ، أو أحكامها الخاصّة بها، فيؤخذ كلُّ فريق من هؤلاء بحسب حاله؛ وكلّ حالة تُقدّر بقدرها، وذلك لبيان عظيم شأن ما يُقدِم عليه هؤلاء من طلب

(1) عُضيمة، دراساتٌ في أسلوب القرآن: 7/486.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 3/120.

الإعذار، والتّخلّف عن الجهاد أوّلًا، ثمّ التّخلّف عن أداء العبادات على وجهتها في عموم حياتهم، ثمّ بيان عظيم شأن الشّرع وعالميّته؛ إذ لا حرج على المؤمنين ما داموا لا يقدرون على الأداء، ولا يُكلّف اللّه نفسًا إلا ما آتاها من اللّياقة والقُدرة. وذكر ابن عاشور حول إعادة حرف النّفي في عطف الضعفاء والمرضى أنّه لتوكيد نفي المؤاخذة عن كلّ فريق بخصوصه[1].

نكتةُ ترتيب المعطوفاتِ في ﴿ٱلضُّعَفَآءِ﴾، وما يعطف عليها:

التّسلسل المنطقيّ في ذِكر أصحاب الأعذار، من فصيح البيان

في ذكر الضّعفاء، والمَرْضى، والّذين لا يجدون ما يُنفقون بهذا التّسلسل ترقٍّ. ففي ذكر أصحاب الأعذار ترقٌّ من الأضعف وهم النّساء والعجائز الّذين يكون عجزُهم دائمًا، فهم غير مُكلّفين مع مرور الزّمن لأنَّ عجزهم دائم على مدى الحياة، ثمَّ المرضى الذين يُرْتَجى شفاؤهم؛ ولو شُفوا من أمراضهم فإنّهم لا عُذر لهم، والشّفاء من الأمراض قد يحتاج لزمن طويل، ومعالجة كلٍّ بحسب حالته ومرضه. ثمَّ الّذين لا يجدون ما يُنفقون، فلو أنّهم وجدوا ما يُعينهم على الجهاد لوجب عليهم، وانتفت الحُجّة والعُذْر.

نوع (اللّام) في ﴿ٱلضُّعَفَآءِ﴾، ﴿ٱلْمَرْضَىٰ﴾ ودلالته:

جنس الضُّعفاء والمرضى معذورون

نوع (ال) في ﴿ٱلضُّعَفَآءِ﴾، و﴿ٱلْمَرْضَىٰ﴾ هي (ال الجنسيّة)، وهي لفائدة ذكر جنس الضعفاء، وجنس المرضى، فلم يُحدّد نوعٌ من أنواع الضّعف أو المرض. ويبيّن ذلك كلّه قوله: ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ أي: أن تكون دواخلهم ميّالة إلى المشاركة والحضور في المواطن الّتي يُحبُّها اللّه ورسوله، ويأمر بها الشّرع، ويُشارك فيها ويَحضُرها المؤمنون، ولكن منعتهم أمراضهم وضعفهم.

فائدةٌ في كلمة ﴿ٱلضُّعَفَآءِ﴾:

دلّت كلمة ﴿ٱلضُّعَفَآءِ﴾ في سورة التّوبة من قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/294.

﴿عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ﴾ الدلالة على الضّعف البدنيّ والصِّحّي الّذي قد يمنع صاحبه من أداء الأعمال الثَّقيلة كالجهاد في سبيل الله، وهؤلاء لا سبيل عليهم ولا عتاب. أمّا ﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ التي وردت في سورتي إبراهيم وغافر؛ فهم الّذين ضَعُفَتْ حجّتهم أمام الله يوم القيامة لاتّباعهم الّذين استكبروا، قال تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ٢١﴾ [إبراهيم: 21]. وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ٤٧﴾ [غافر: 47]. وفي سورة التّوبة إشارة إلى الضّعفاء في الدّنيا، وفي سورتي إبراهيم وغافر فهم الضّعفاء في الآخرة، فالضّعفاء في الدّنيا قد يكونون على الحَقِّ، فحجّتهم ضعفُهم الّذي أقعدهم عن بعض الأعمال. أمّا الضّعفاء في الآخرة فهم الّذين حقّت عليهم كلمةُ العذاب فلا حجّة لهم تُنقذهم من عذاب الله تعالى، ولأنّهم استعانوا واستقوَوا في الدّنيا بالمُستكبرين.

التّمييز بين (الضُّعَفاء) في الدّنيا، و(الضُّعَفاء) في الآخرة

نكتة العدول إلى الاسم الموصول:

جاء في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ﴾ العدول عن ذكر الاسم الصّريح (الفقراء) إلى اسم الموصول ليُفيد إعطاء حكم للحالات الخاصّة؛ فقد تختلف أحوال النّاس من وقت لآخر، وقد لا يكون الإنسان فقيرًا في عموم حياته؛ لكنّه في وقتٍ من الأوقات لم يجد ما يُعينه على الجهاد أو أداء ما كُتب عليه، ثم إنّ في التّعبير اختصارًا عن ذكر أسماء الّذين جاؤوا يطلبون من الرّسول ما يحملهم عليه، أو يمكن أن يُفيد الموصول دلالة العموم، إذ تتكرّر مثل هذه الحالات في كثير من مواقف الحياة.

في اختلاف أحوال النّاس من وقتٍ لآخر، حكمة لله في خلقه

بيان حال الصّادقين في البحث والمثابرة، استجابةً لأمر الله ورسوله

سِرُّ التعبير بالفعل المضارع: ﴿لَا يَجِدُونَ﴾:

عبّر بالإيجاد في قوله: ﴿لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾؛ لأنّه يُعبّر عن الغِنى بالوجدان والجِدَّة، فناسب أن يختار لفظ ﴿يَجِدُونَ﴾ دون غيره من الألفاظ لتناسبها مع الغِنى، ويُعبّر عن الضّالّة بالوجود. قال تعالى: ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ [الطّلاق: 6]؛ أي: تمكّنكم[1]. ويُفيد التّعبير بالمضارع المنفيِّ أنّه يدلّ على الحال[2]؛ أي: حالهم لا يجدون ما ينفقون، أو: حالهم حال الفقير، كما يدلّ المضارع على أنّ هؤلاء الفقراء الّذين لا يجدون ما ينفقون مستمرّون في البحث عمّا يُعينهم، فهو يفيد التّجدّد الزَّمنيَّ للفعل؛ فهم يحاولون بحثًا ومثابرة منهم بغية إيجاد ما يُؤهّلهم لأداء هذا العمل، لكنّهم مع تلك المحاولة لا يَحصلون على مُبتغاهم، فهم حريصون على البحث والإيجاد مع الزّمن؛ لكنّهم لا يجدون. وهذه فائدة استعمال الجملة ﴿لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ بدلًا مِن (الفقراء)، فلو قال: ولا على الفقراء لاختُزلت تلك المعاني في معنى الفقر فحسب.

الّذين لا يجدون نفقة يومهم، هم الفقراء المعوزون، لقلّة ذات اليد

دلالة ﴿مَا﴾، وأثرها في المعنى:

في قوله: ﴿مَا يُنفِقُونَ﴾؛ ﴿مَا﴾ اسم موصول بمعنى (الّذي)؛ أي: الّذي ينفقون، لكنّها أفادت هنا الموصوليّة الاسميّة[3]؛ أي: بنفقتهم، فيحتمل المعنى لا يجدون نفقتهم في حياتهم اليوميّة، ولا يجدون الّذي ينفقون لغرض الجهاد والخروج مع رسول الله ﷺ.

دلالة المضارع على الاستقبال، مفصحة عن المراد

دلالة التّعبير بالفعل المضارع المُثبت ﴿يُنفِقُونَ﴾:

دلالة الفعل المضارع على الحال والاستقبال[4]. ويُفيد المضارع دلالة التّجدُّد مع الزّمن، فهم يبذلون وُسعهم في إيجاد ما يُنفقون بُغية الخروج للجهاد.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 584.
(2) الرّضيّ، شرح الرّضي على الكافية: 2/256.
(3) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/121.
(4) ابن يعيش، المُفصّل: 2/137، والمُبرِّد، المُقتَضَب: 2/2.

سِرُّ اصطفاء لفظ ﴿حَرَجٌ﴾:

شمول الدّلالة ضيق النّفس، وضيق اليد

لعلّ فائدة اللفظة وفضلها على غيرها في هذا السّياق، ما دلّت عليه من ضيق الظّاهر والباطن، فهي تدلُّ على ضيق الصّدر كما دلّت على ضيق اليَد والقدرة على الإنفاق أو أداء الأعمال التّكليفيّة من جهادٍ وغيره، وقد نُفي في الآية أن يجعل اللّه حرجًا على ذوي الأعذار، وليس لأحدٍ أن يجعل عليهم حرجًا في ذلك.

الغرض من تنكير لفظ ﴿حَرَجٌ﴾ في السّياق:

الدّلالة على أقلّ الحرج، تفيد أهميّة ذلك في التّوسعة بالبديل

دلَّت على العموم لأنّها في دائرة النّفي، فالأرجح المراد أنّه تعالى لم يجعل شيئًا من جنس الحرج. وجاء في التّصريح أنّ النّكرة في سياق النّفي تعمّ[1]، ويكون فيها دلالة على الوحدة والجنسيّة[2]. وعلى العموم فإنّ التّنكير في قوله تعالى: ﴿حَرَجٌ﴾ للدّلالة على أقلّ الحرج.

الغرض من التّأخير والتّقديم، بين اسم ﴿لَّيۡسَ﴾ وخبرها:

نَفْيُ التّكليف عن الضّعفاء، رحمةٌ من ربّ الأرض والسّماء

ليس على الضّعفاء حرجٌ؛ إذْ أفاد تقديم الخبر وهو الجارُّ والمجرور ﴿عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ تخصيص الضّعفاء بنفي التّكليف عنهم، ويُلحق بذلك المعطوفان ﴿ٱلۡمَرۡضَىٰ﴾ و﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾.

دلالة التّعبير بالظّرف المتضمّن معنى الشّرط، في ﴿إِذَا﴾:

النّصح بالنّيّات والأفعال، منهج في البلاغ مفيد

(إذا) تكون ظرفًا لما يُستقبل من الزّمان، مضمّنة معنى الشّرط، وتختصُّ بالدّخول على الجملة الفعليّة[3]. ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾[4]. وفائدة هذا الأسلوب إحاطة الضّعفاء بشرط النّصح للّه ورسوله، يراقبون أنفسهم، فلا يخرجون عن هذا الحيّز الإيمانيّ العمليّ العظيم.

---

(1) السّيوطيّ، الإتقان، ص: 190.
(2) العلويّ، الطّراز: 2/12.
(3) ابن هشام، مُغني اللّبيب: 1/92 - 93.
(4) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/70.

إيثار التّعبير بلفظ النّصيحة: ﴿إِذَا نَصَحُواْ﴾:

النّصيحة لا تصحّ إلّا بنيّة صادقة

ليس على أهل الأعذار الصّحيحة من ضعف أبدانٍ أو مرضٍ أو زَمَانَةٍ أو عدم نفقةٍ إثمٌ، وقوله: ﴿إِذَا نَصَحُواْ﴾ يريد: بنِيّاتهم وأقوالهم سرًّا وجهرًا[1]. واختار النّصيحة، لأنّها لا تصحّ إلا بنيّة صادقة، فيتوافق فيها الظّاهر والباطن.

معنى اللّام ودلالتها ﴿نَصَحُواْ لِلَّهِ﴾:

النّصيحة لله ورسوله، واجبٌ مستحقٌّ على المؤمنين

اللّام حرف جرٍّ للاختصاص، إمّا بالملكيّة أو بغيرها[2]، وذَكَر سيبويه أنّ معناها الملك والاستحقاق[3]. فيكون المعنى أنّ تلك النّصيحة هي استحقاقٌ لله ولرسوله ولدينه على المؤمنين جميعًا، ولكنّه خَصّ منهم هؤلاء الضّعفاء؛ لأنَّ عليهم أن يخدموا دين الله بالصّدق الّذي في قلوبهم، ثم ما يقدرون على فعله أو تقديمه. وقُرأت: ﴿نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ بغير لامٍ وبنصب الهاء المكتوبة[4].

دلالة النّصح، ونكتة عطف ﴿وَرَسُولِهِۦۚ﴾:

النُّصح لله هو بذل الجُهْد لنُصْرة دينه

النّصح لله والرّسول هو إخلاص النّيّة لنُصرة دين الله والعمل على ذلك بما أوتي الفرد من استطاعة، فلا يُكلّف الله نفسًا إلا ما آتاها، وعطف الرّسول على اسم الجلالة مع إمكان الاكتفاء باسم الجلالة؛ لأنّ المقام هو التّخلّي عن رسول الله، وعن معيّته ﷺ في الجهاد، فاقتضى ذكره لبيان أنّ النّصح للرّسول ﷺ إنَّما هو نصح لله تعالى.

دلالة تأخُّر جملة الشَّرط ﴿إِذَا نَصَحُواْ﴾:

النّصح لله ورسوله، من مُسلَّمات الإيمان

قال: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ ويمكن أن يكون القول: (ليس على الضّعفاء... إذا نصحوا حرج). وفائدة

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/70.
(2) الرّضيّ، شرح الرّضيّ: 2/364.
(3) سيبويه، الكتاب: 2/304.
(4) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/70.

تأخير جملة الشّرط أن يُختم بالشّرط، فيكون محلّه التّأخير ليبقى معناه عالقًا في أذهان المُخاطبين، وكذلك باعتبار أنّ النُّصح للّه ورسوله ودين الإسلام هو من مُسلّمات الإيمان، فجعله هنا مؤخّرًا، لأنّه أمرٌ معروفٌ مُسَلّم به.

الاستعارة في سيّاق النّصح لله ورسوله:

الإيمان الصّادق كالنُّصح، لا يكون منه إلّا الصّدق والخير

"﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ بالإيمان والطّاعة ظاهرًا وباطنًا كما يفعل المُوالي النّاصح، فالنُّصح مستعار لذلك"[1]. فإيمان الرّجل وطاعته للّه ولرسوله هو النّصح، فهي استعارة تصريحيّة لأنّ الإيمان كالنّصح بعلاقة المشابهة، فالمؤمن لا يكون منه إلا الخير الّذي ينفع المسلمين، فحذف المُشبَّه وأبقى المُشبَّه به.

موقع جملة: ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، ودلالته:

ليس على المحسنين مؤاخذة، تخفيف من الله ولطف

وجملة: ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ واقعة موقع التّعليل لنفي الحَرَج عنهم، وهذه الجملة نُظِمت نَظْم الأمثال[2] فالجملة استئناف مقرِّرٌ لمضمون ما سبق على أبلغ وجه، وألطف سَبْك، ولذلك فقد فُصِلَت الجملة عن سابقتها، ومعناه: لا سبيل لعاتب عليهم؛ أي: لا يمرُّ بهم العاتب، ولا يجوز في أرضهم، فما أبعد العتاب عنهم، ويحتمل أن يكون تعليلًا لنفي الحرج عنهم[3]؛ إذ لا سبيل عليهم، وهم قد نصحوا للّه ورسوله.

الغرض من إيجاز الحذف:

المحسنون جديرون بالنَّفع التّام

قوله: ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ دليل على علّة محذوفة؛ والمعنى ليس على الضُّعفاء، ولا على مَنْ عُطف عليهم، حرج إذا نصحوا للّه ورسوله؛ لأنّهم محسنون غير مُسيئين، وما على المحسنين من سبيل، فيكون في العبارة إيجاز حذف، والمعنى العامُّ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/345 - 346.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/346.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/346.

هو المؤاخذة أو المعاقبة، والمحسنون الّذين فَعلوا الإحسان وهو ما فيه النّفع التامّ[1].

بلاغة أسلوب التّلميح في سياق الآية الفصيح:

وجوه الإحسان كثيرة في الحياة، وكلّها نفع وأجر عند الله

قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾، في هذه العبارة نوعٌ من البديع، يُسمَّى التَّلميع أو التَّلميح، وهو أن يُشارَ إلى قصّةٍ مشهورةٍ، أو مثل سائرٍ، أو شعرٍ نادرٍ، في فحوى كلامك من غير ذكره[2]. فكأنّ قوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ اشتُهر ما هو بمعناه بين النَّاس؛ فوجوه الإحسان كثيرةٌ في الحياة، فأشار إليه من غير ذِكر لفظه. ولا بُدَّ منه لأنَّه إذا ذكره بلفظه كان اقتباسًا وتضمينًا[3].

سِرُّ اصطفاء لفظ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في السّياق:

الإحسان أعلى مرتبةً من الإيمان

وقوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ على عمومه؛ أي: ليس عليهم حرج؛ لأنّه ما على جنس المحسنين سبيلٌ وهم من جُملتهم[4]، ولأنَّهم نصحوا للّه ورسوله، وقد استدلّ الفقهاءُ من عموم هذا النّصِّ على أحكامٍ شرعيّةٍ أخرى؛ باعتبار أنّ الإحسان يكون في أغلب أمور الحياة. وقوله ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ دون المؤمنين، لما في كلمة الإحسان من معنى عميقٍ نابعٍ من الإيمان، وقد ورد في الحديث سؤال جبريل عليه السلام لرسول اللّه ﷺ عن الإحسان بعد أن سأله عن الإسلام وعن الإيمان؛ فقال: «الإحسان أن تعبد اللّه كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك»[5]، فقد جاءت درجة الإحسان فوق مرتَبَتَي الإسلام والإيمان.

الغرض من وضع المظْهر ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، موضع المُضْمَر:

شمول العبارة أنواع الإحسان في الحياة، توسعة على المحسنين

قوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾؛ أي: ما عليهم سبيل؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/294.
(2) ابن عادل، اللُّباب: 10/171.
(3) ابن عادل، اللُّباب: 10/171.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/346.
(5) حديثٌ متّفقٌ عليه.

فالإحسان: النّصح للّه تعالى ورسوله ﷺ، ووضع الظّاهر موضع ضميرهم اعتناءً بشأنهم، فلم يقل: (ما عليهم من سبيل)، بل قدّم وصفًا لهم بهذا العنوان الجليل، فوضع الظّاهر موضع المُضمر في قوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾[1]. فشملت العبارة أنواع الإحسان وجميع المحسنين المؤمنين.

دلالة (من) وفائدة دخول حرف الجرّ على النّكرة:

تأكيد النّفي ليشمل كلّ سبيل، فيعمّ النّفع والإحسان

قوله تعالى: ﴿مِن سَبِيلٍۚ﴾ فاعلٌ بالجارِّ قبله لاعتماده على النَّفْي، ويجوز أن يكون مبتدأ، والجارُّ قبله خبره. وعلى كِلَا القولين فـ ﴿مِن﴾ مزيدةٌ فيه للتأكيد؛ أي: ما على المحسنين سبيلٌ، والمعنى: أنَّهُ لا إثم عليه بسبب القعود عن الجهاد[2]، وهي مؤكِّدة أفادت شمول النّفي لكلِّ سبيل[3].

نكتة إيثار لفظ ﴿سَبِيلٍۚ﴾، والغرض من تنكيره:

من الإحسان النُّصحُ لله ورسوله، وهو أعلى النّصح وأرقاه

فائدة التّنكير للتّقليل والتّضييق على النّاس أن يُؤاخذ أحدهم هؤلاء؛ ثمّ بيّن علّة ذلك المنع؛ إذ لا يحقّ لآخرين أنْ يؤاخذوا المُحسنين بأيَّة طريقةٍ كانت، أو بأيّ أسلوب كان. والسَّبيل: أصله الطريق، ويُطلق على وسائل وأسباب المؤاخذة باللّوم والعقاب على سبيل الاستعارة؛ لأنّ تلك الوسائل تُشبه الطّريق الَّذي يصل منه طالب الحقّ إلى مكان المحقوق، ولمراعاة هذا الإطلاق جُعل حرف الاستعلاء في الخبر عن السَّبيل دون حرف الغاية، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾ [النّساء: 34]، وقوله: ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النّساء: 90]؛ فدخل في المحسنين هؤلاء الّذين نصحوا لله ورسوله[4].

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/346.
(2) ابن عادل، اللّباب: 10/171.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/346، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/295.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/295.

غرض تقديم الجارِّ والمجرور ﴿عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، على ﴿مِن سَبِيلٍۚ﴾:

الرّعاية واجبٌ مجتمعيّ، يناط بأرباب المبرّة والإحسان

لم يقل: (ما مِن سبيلٍ على المحسنين)؛ بل قدّم المحسنين وذلك لاختصاصهم برعاية اللّه ووصيّته أن لا يؤاخذهم أحدٌ لأنّهم محسنون. فوصيّة اللّه برعاية المحسنين في المجتمع؛ لِما للإحسان من أثرٍ كبيرٍ في بناء المجتمع وإقامة العلاقات الصّادقة.

دلالة عبارة نفي المؤاخذة على المحسنين، بين العموم والخصوص:

دليل الإحسان إلى عموم المسلمين، في السّياق المبين

اختُلِفَ في قوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ في إفادتها للعموم؛ لأنَّ اللَّفظ مقصورٌ على أقوام مُعَيَّنينَ نزلت الآية فيهم، لكن لا مانع من إرادة العموم؛ لأنَّ العبرةَ بعموم اللَّفظِ لا بخصوصِ السَّببِ، والمُحسن هو الآتي بالإحسان، ورأس الإحسان لا إله إلّا اللّه، فكلُّ مَنْ قالها واعتقدها، كان من المسلمين، فاقتضت نَفيَ جميع المسلمين؛ فدلَّ هذا اللَّفظ بعمومه على أنَّ الأصلَ حُرمة القتلِ، وحُرمة أخذ المالِ وأن لا يتوجَّه عليه شيءٌ من التَّكاليفِ، إلا بدليلٍ مُنفصلٍ، فصارت هذه الآية بهذا الطَّريق أصلًا مُعتبرًا في الشَّريعة، في تقرير أنَّ الأصل براءة الذِّمة، إلى أن يَرِد نصٌّ خاصٌّ[1].

دلالة تذييل الآية، بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

كلُّ عاجزٍ محتاجٌ إلى المغفرة والرَّحمة، لا محالة

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تذييل مؤيّد لمضمون ما ذكر، وفيه إشارة إلى أنّ كلّ أحدٍ عاجزٌ محتاجٌ إلى المغفرة والرّحمة؛ إذ الإنسان لا يخلو من تفريطٍ ما.

السِّرُّ وراء خلوِّ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، من المؤكِّدات:

لا يُنكر أحدٌ مغفرة اللّه ورحمته بالمحسنين، في كلّ ظرف وحين

قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ جاءت خاليةً من المؤكِّدات باعتبار أنَّهُ خبرٌ ابتدائيٌّ؛ يكون المُتلقّي له خالي الذِّهن عن محتواه، وقد ناسب الخبر الابتدائيّ هنا؛ لأنَّ الحديث عن المحسنين، فمعلوم أنّ اللّه

(1) ابن عادل، اللُّباب: 10/172.

غفور للمحسنين رحيمٌ بهم، فلم يحتج للمؤكِّدات، ولم يكن ثمَّةَ إنكار لمغفرة اللّه ورحمته.

فائدة حذف متعلّق صفَتَي المغفرة والرَّحمة:

الله شديد المغفرة بالمحسنين، وعمّت رحمته الخلق جميعًا

الواو اعتراضيّة في جملة ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾؛ أي: شديد المغفرة، ومن مغفرته أن لم يؤاخذ أهل الأعذار بالقعود عن الجهاد، وهو شديد الرّحمة بالنَّاس؛ ومن رحمته أن لم يكلّف أهل الأعذار ما يَشق عليهم[1]. فأفاد حذف المتعلّق بصفتي المغفرة والرّحمة تعميم المقصود بهما.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحَرَجُ والمشقّةُ والإثْمُ:

الحرج متضمِّنٌ لمعنى الإثم، والضِّيق، والمشقّة، والإثم الفعل المبطئ عن الثَّواب

الحَرَجُ: المَأْثم، والحارِجُ: الآثِم[2]، والحرج ضِيق لا مَنفذَ فيه، مأخوذ من الحرجة، وهي الشَّجر الملتفُّ حتى لا يمكن الدُّخول فيه، ولا الخروج منه، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ [الحج: 78]؛ أنَّه أراد ضيقًا لا مخرج منه، وذلك أنَّه يتخلَّص من الذَّنب بالتّوبة[3].

والمشقَّة والشِّقاق: المُعاداة والمغالظة، وشاققته مشاقَّةً وشقاقًا[4]. قال تعالى: ﴿لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ [النحل: 7] بمشقَّتها ومجهودِها. ووقع في شقٍّ من هذا الأمرِ ومشقَّةٍ ومَشاقٍّ. وشقَّ عليه ذلك. فالمشقَّة لا تحمل معنى الإثم، ويمكن أنْ تُستعمل المشقَّةُ في الأمور كلِّها خيرِها وشرِّهَا، على خلاف الحرج الّذي يتضمن معنى الإثم والتَّقصير في الأمر. والإثم والآثام اسمٌ للأفعال المبطئة عن الثَّواب،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/295.
(2) الخليل، العين: (حرج).
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 181.
(4) ابن دُرَيد، جمهرة اللُّغة: (شقق).

وجَمعُهُ: آثام، ولتضمُّنه معنى البُطء. قال تعالى: ﴿قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: 219]؛ أي: في تناولهما إبطاءٌ عن الخيرات(1).

النُّصحُ والإخلاصُ:

النُّصحُ تحرِّي فعلٍ أو قولٍ فيه صلاحُ صاحبِه. قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: 79]، ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ﴾ [هود: 34] وهو من قولهم: نَصَحْتُ له الوُدَّ. أي: أَخْلَصْتُهُ، ونَاصِحُ العَسَلِ: خَالِصُهُ(2). فيكون النُّصح لفائدة الآخر خاصَّة قوْلًا أو فعلًا. أمَّا الإخلاص؛ فالخالص كالصَّافي إلا أنّ الخالِصَ هو ما زال عنه شَوبُه، بعد أن كان فيه، والصَّافي قد يُقال لِمَا لا شَوبَ فيه، ويُقال: خَلَّصْته فَخَلَصَ. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: 24]، فإخلاص المسلمين أنّهم قد تبرّؤوا ممّا يدّعيه اليهود من التَّشبيه، والنَّصارى من التّثليث، قال تعالى: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ﴾ [الأعراف: 29](3). فيكون الإخلاص عملًا ذاتيًّا فيه تنقية للنَّوايا والأعمال. وعادةً يكون من الأدنى إلى الأعلى؛ فيكون الإخلاص لله وللرّسول خاصّةً.

النُّصح تحرّي ما فيه الصَّلاح للآخر، والإخلاص تنقية للنّوايا، والأعمال الذَّاتيَّة

الإحسانُ والعدلُ:

"قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: 90]، فالإحسان فوق العدل، وذاك أنّ العدل هو أن يُعطي ما عليه، ويأخذ ما له، والإحسان أن يُعطي أكثر ممّا عليه، ويأخذ أقلّ ممّا له. فالإحسان زائدٌ على العدل، فتحرِّي العدل واجبٌ، وتحرّي الإحسان نَدْبٌ وتطوّعٌ، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ [النساء: 125]، وقوله ﷻ: ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾

الإحسان أن يُعطي المحسن أكثر ممّا عليه، ويأخذ أقلّ ممّا له

(1) الرّاغب، المفردات: (أثم).
(2) الرّاغب، المفردات: (نصح).
(3) الرّاغب، المفردات: (نصح).

[البقرة: 178]، ولذلك عظّم الله تعالى ثواب المحسنين، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة: 195]، وقال تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ﴾ [التّوبة: 91]، ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ﴾ [النحل: 30]"[1].

السَّبيلُ والطَّريقُ:

السّبيل أعمّ من الطّريق، وهي أغلب وقوعًا في الخير

الفرق بين الصِّراط والطَّريق والسَّبيل: أنَّ الصّراط هو الطّريق السّهل، والطّريق لا يقتضي السّهولة، والسّبيل اسم يقع على ما يقع عليه الطّريق، وعلى ما لا يقع عليه الطَّريق؛ تقول: سبيل الله، وطريق الله، وتقول: سبيلك أن تفعل كذا، ولا تقول: طريقك أن تفعل، والطَّريق كالإرادة. وقد يفرق بينهما بأنّ السّبيل أغلب وقوعًا في الخير، ولا يكاد اسم الطَّريق يراد به الخير إلّا مقترنًا بوصف أو إضافة تخلِّصه لذلك. كقوله تعالى: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[2].

(1) الرّاغب، المفردات: (حسن).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 313.

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ٩٢﴾ [التّوبة: 92]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تكملة بيان صنف آخر، من مجموعة أصحاب الأعذار، الّذين لا يجدون ما ينفقون

بعد أن بيّن بقوله: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾، أضاف هنا صِنفًا جديدًا؛ وهم الَّذين أتوا رسول اللّه ﷺ يطلبون منه أن يحملهم للقتال معه، فلم يجد ما يحملهم عليه، تولّوا وأعينُهُم تفيض من الدّمع حَزَنًا، فهؤلاء جميعًا واقعون في دائرة المحسنين إذا نصحوا للّه ورسوله.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾: "الحَمْل يُطلقُ على إعطاء ما يُحمل عليه؛ أي: إذا أتوك لتعطيهم الحُمولة؛ أي: ما يركبونه ويحملون عليه سلاحهم ومُؤَنهم من الإبل"[1]. ويكون الحُمْلان أجرًا لما يُحمَل. والحُمْلان: ما يُحمَلُ عليه من الدَّوابِّ في الهِبَة خاصَّةً[2]. وفي الآية أرادوا الدّابّة أو الخِفاف باعتبار أنّ مَن يلبس الخِفاف كمن يُحمل على الدّابّة؛ وهي أقلُّ ما يُقصد بالحَمل عَليه.

2) ﴿تَوَلَّواْ﴾: تولَّى عنه، أعرض، وَوَلَّى هاربًا، أدبر[3]، والتّولّي بمعنى الانصراف، قال تعالى: ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ﴾ [التّوبة: 92]، ومثله قوله تعالى ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ [القصص: 24] أي: انصرف[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/295.
(2) الخليل، العين: (حمل).
(3) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (ولي).
(4) ابن عادل، اللُّباب: 10/172.

3) ﴿تَفِيضُ﴾: جذر الكلمة هو (فيض)؛ فيض: فاضَ الماءُ والدَّمْعُ والمَطَرُ والخَيْرُ، يفيض فَيْضًا؛ أي: كَثُرَ[1]. وفاضَتْ عينُه، تفيض فَيْضًا؛ أي: سالت. وأفاضَ دمعَه يُفيضُه إفاضةً. وأفاضَ إناءَه حتى كادَ ينصَبُّ. ويُقال: ماؤها فَيْضٌ وغَيْضٌ. الفَيْضُ: الكثير[2]. أرض ذات فيوض: فيها مياه تفيض، وأرض ماؤها فيضٌ وغيضٌ، وحوض فائض: يفيض من جوانبه لامتلائه، وهذا مفيض الماء[3]. وفي الآية: ﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ﴾؛ فهي كالحوض الفائض؛ أو هي كمفيض الماء.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

إضافة عنصرٍ آخر إلى أصحاب الأعذار، ممّن يذرفون الدّموع، لفقد القدرة على المشاركة

الآية نزلت في نفرٍ من المسلمين لُقّبوا بالبكّائين؛ لأنّهم بكَوا حزنًا لمَّا لم يجدوا عند رسول الله ﷺ ما يحملهم عليه؛ ليجاهدوا مع رسول الله ﷺ. فقد أضافت الآية مجموعةً أخرى من أهل العذر، وهم من الفقراء الَّذين لا يجدون ركوبًا، وقيل: إنّهم لم يسألوا رسول الله ﷺ إلَّا الحُمْلان على النّعال، فقالوا: احملنا على الخِفاف المرقوعة والنّعال المخصوفة نغزو معك؛ مبالغةً في القناعة، ومحبة للذّهاب معه، فقال رسول الله ﷺ ما قال[4].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتة انفراد هذا الصّنف من المتخلّفين عن الأصناف الثّلاثة السَّابقة:

بيان حال من أتوا الرّسول الأكرم، ليَخرجوا معه، ولا يملكون القدرة المادّيّة لذلك

وقد أخّر هذا الصّنف وأفرد عن مجموعة أصحاب الأعذار باعتبارهم أضعف أصحاب الأعذار حجَّةً، فقد ورد ذكرهم مُسلسلًا من الذين هم أقوى حجة إلى أقلّهم حجة وعذرًا، وأنّ عذر هؤلاء قد ينتفي في أي وقت مع توافر ما يُحملون عليه، فأخّره لذلك على

(1) الخليل، العين، وابن سِيدَه، المُحكَم: (فيض).
(2) الخليل، العين: (فيض).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (فيض).
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/346.

طريقة ما يعرف بالتّدلّي. ثمّ إنّ أصحاب الأعذار السّابقين طلبوا القعود عن القتال بسبب أعذارهم، لكنّ هؤلاء طلبوا الخروج مع رسول الله ﷺ لأنَّهم أتوه ليحملهم لا ليقعدوا مع الخالفين، وأنّ هؤلاء حزنوا، وفاضت أعينهم من الدّمع لعدم تمكُّنهم من الخروج؛ وهذا على خلاف السّابقين.

الصِّنفُ الرَّابع هم أخصُّ من الأصناف السَّابقة، لوجود العذر المقبول لهم

دلالة عطف قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ﴾، على ما قَبْلَه:

قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ﴾. فيه وجهان: أحدها: أن يكون معطوفًا على ﴿ٱلضُّعَفَآءِ﴾؛ أي: ليس على الضُّعفاءِ، ولا على الّذين إذا ما أتوكَ، فيكونون داخلين في خبر ﴿لَّيۡسَ﴾ مُخْبَرًا بمتعلّقهم عن اسمها، وهو ﴿حَرَجٌ﴾[1]. وإعادة حرف النَّفي بعد العاطف للنُّكتَةِ المتقدّمة هنالك[2]. الثَّاني: أنْ يكون معطوفًا على ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ فيكونون داخلين فيما أخبر به من قوله: ﴿مِن سَبِيلٖ﴾[3] وهو من قبيل عطف الخاصّ على العامّ اعتناءً بشأنهم، وجعلهم كأنَّهم لتميّزهم جنس آخر[4].

الاستغراق في نفي الحرج عن هذا الصِّنف المستثنى من العقاب

دلالة تصدير الجملة الخبريّة بالنّفي:

فائدة تصدير الجملة الخبريّة قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ﴾ نفيُ الحرج عنهم؛ أي: ولا حَرَجَ على الّذين إذا ما أتوك لتحملهم، و﴿وَلَا﴾ هنا نافية للجنس؛ أي: التي تفيد التّنصيص على نفي الجنس نصًّا، لا على سبيل الاحتمال، واستغراق النّفي كلّه؛ فدلّت هنا على نفي الخبر عن الجنس الواقع بعدها على سبيل الاستغراق. ونفي الجنس يستلزم نفيه عن أفراده جميعًا. فأفاد ذلك أنَّ كلَّ هؤلاء الّذين إذا ما أتوك طلبًا للخروج معك، ولا تجدُ ما تُعينهم فيه على الخروج، لا حَرَجَ عليهم.

---

(1) ابن عادل، اللُّباب: 10/172.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/295.

(3) ابن عادل، اللُّباب: 10/172.

(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/346.

الغرض من التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

عموم هذا الجنس لا حرج عليهم، لأنّ الله أورد عذرهم وقبله

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ﴾، الاسم الموصول فيه، يُوصَل بكلام بعده، هو من تمام معناه، وذلك أنّ الاسم الموصول ناقص الدّلالة، لا يتّضح معناه إلّا إذا وصل بالصّلة، "فالموصول لا يتمّ بنفسه، ويفتقر إلى كلام بعده"(1). ومن فوائده إرادة العموم، ففي الآية هنا قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ﴾؛ أراد عموم مَن أتى رسول الله ﷺ طلبًا للخروج معه، وهم يحتاجون إلى ما يحملون عليه.

دلالة التَّعبير بجملة الصِّلة ﴿إِذَا مَآ أَتَوْكَ﴾:

فحوى الصِّلة معهودة معلومة، عند رسول الله ﷺ

فائدة صلة الموصول إيضاحه وبيانه، والتَّعبير عنهم بهذا الأسلوب المحقّق إتيانهم بالتّعبير بـ (إذا) ومدخولها الماضي فيه تأكيد على صدقهم وإخلاصهم، والصِّلَةُ معهودة للمُخاطَبِ معلومة عنده ﷺ، قال ابن يعيش: وينبغي أن تكون الجملة الّتي تقعُ صِلَةً معلومة عند المُخاطب، لأنّ الغرض بها تعريف المذكور بما يعلمه المُخاطب من حاله ليصحَّ الإخبار عنه بعد ذلك(2).

دلالة ﴿مَآ﴾ ومعناها:

توكيد نيّاتهم الصّادقة في الخُروج مع رسول الله ﷺ

﴿مَآ﴾ في قوله: ﴿إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾ بعد الشَّرط هنا زائدة(3) للتَّوكيد، والتَّوكيد يكشف عن النّيّات الّتي أتوا بها، فإنّ هؤلاء جاءوا رسول الله ظانّين أنّهم سيُهيّأ لهم رَكُوبٌ للقتال معه ﷺ، ولم يخطر ببالهم أنّهم سيتخلّفون عن معيّة الرّسول بسبب الرَّكُوب، فقال لهم رسول الله: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾؛ ولذلك: تولّوا وأعيُنهم تفيض من الدّمع حزنًا. فجاء التّوكيد واصفًا إتيانهم بنيّاتهم الصّادقة.

---

(1) ابن يعيش، شرح ابن يعيش: 3/150.

(2) ابن يعيش، شرح ابن يعيش: 3/154.

(3) معنى زيادة: (ما)، أي: في الصّناعة النحويّة والإعراب، وليس في القرآن حرف زائد، بل كلٌّ له معنى، لا يمكن الاستغناء عنه.

إيثار التَّعبير بالإتيان هنا، وبالمجيء هناك:

اختلاف النيّات، هو الفاصل بين الفريقين في الجزاء والمقامات

عبّر بالمجيء مع الأعراب قال: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ﴾ وعبّر هنا بالإتيان فقال: ﴿إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾ والفرق كبير بين الحالين، فالتَّعبير الأوّل ذكر الّذين جاءوا رسولَ الله ﷺ لا يُريدون الخُروج معه؛ بل يُريدون التّخلُّف عن جيشه ومعيّته، فاستعمل لفظ ﴿وَجَآءَ﴾ الّذي يدلُّ على المجيء بشخصه دون شيء معه، أمَّا السِّياق الثّاني وهو سياق الإتيان فقال: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾ والإتيان هو المجيء بشيءٍ، وفائدته الدّلالة على أنَّهم أتوا رسول الله بشيءٍ مهم على خلاف المُخلّفين، وهو رغبتهم في الخروج مع الرّسول ﷺ فكانت هنا النّوايا هي الفاصل بين الفريقين، فأوثر الإتيان هُنا على المجيء.

دلالة اللّام: ﴿لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾:

طلب الحَمْل على الخِفَافِ، وهو لا يجد ما يحملهم عليه

فائدة اللّام التَّعليليّة، وهو تعليل حقيقيٌّ، إذ إنّهم أتوا رسول الله ﷺ ليحملهم على الدّوابّ المخصَّصة لذلك فعلًا؛ أو يحملهم على الخفاف، ويوحي استعمال لام التّعليل بكشف ما كان في قناعاتهم من أنَّ مطلبهم سيكون محقَّقًا عند رسول الله ﷺ، لكنّ رسول الله ﷺ قال لهم ما قال.

بلاغة التَّعبير بالمصدر المؤول: ﴿لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾:

تصوير القناعة الدّاخليّة لديهم، من بيان السّياق

فائدة المصدر المؤول في قوله: ﴿لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾؛ الدّلالة على الزّمن فيحتمل المُضِيَّ والحال والاستقبال[1]. ففي المصدر المؤوّل إيجازٌ، فإنَّ ما اعتادوه من رسول الله ﷺ أنّه يتولَّى التّكفّل بأمور الفقراء الّذين لا يجدون ما يُنفقون، فأفاد المصدر المؤوّل امتلاء صدور هؤلاء بالأمل أنّ رسول الله ﷺ سيحملهم حتمًا.

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 3/127.

دلالة قوله ﴿لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾، ومعناه في السّياق:

يتنوّع الحمل بحسب أحوال النّاس، وظروفهم المتيحة أو المانعة

في المراد بالحمل ثلاثة أقوال: أحدها: أنَّهُ الدَّوابّ، قاله ابن عباس. والثَّاني: الزّاد، قاله أنس بن مالك. والثّالث: النِّعال، قاله الحسن[1]. وقال الحسن: نزلتْ في أبي موسى الأشعريّ وأصحابه، أتوا رسول اللّه ﷺ يستحملونه، ووافق ذلك منه غضبًا، فقال ﷺ: (واللّه ما أحملكم ولا أجد ما أحملكم عليه)؛ فتولوا وهم يبكون[2]. ومن المؤكَّد أنّ الحمل يتنوّع بتنوّع أحوال النّاس، فأفاد لفظ (الحمل) الإيجاز في تنوّع المطلوب منه.

موقع جملة ﴿قُلۡتَ﴾ ودلالتها:

اختلاف المعاني بتغيّر الإعراب، من اتّساع العربيّة ودقّتها

"قوله: ﴿قُلۡتَ﴾ فيه أربعة أوجهٍ، أحدها: أنَّهُ جواب ﴿إِذَا﴾ الشَّرطيَّة، و﴿إِذَا﴾ وجوابها في موضع الصِّلةِ، وقعت الصِّلةُ جملة شرطيّة، وعلى هذا؛ فيكونُ قوله: ﴿تَوَلَّواْ﴾ جوابًا لسؤال مُقدّر كأنَّ قائلًا قال: ما كان حالهم إذا أُجيبوا بهذا الجواب؟ فأُجيب بقوله: ﴿تَوَلَّواْ﴾[3]، أفاد ذلك معنى التّأثّر المباشر لهؤلاء بما وجدوه من جواب الرّسول، إذ لم يكن ذلك في حُسبانهم. الثّاني: أنَّه في موضع نصْب على الحال، من ﴿أَتَوۡكَ﴾، أي: إذَا أتوكَ، وأنت قائلٌ: لا أجدُ ما أحملكم عليه، و(قَدْ) مُقدَّرة، عند مَن يشترطُ ذلك في الماضي الواقع حالًا[4]. الثّالث: أن يكون معطوفًا على الشَّرط؛ فيكون في محلِّ جرٍّ بإضافة الظَّرف إليه بطريق النَّسق وحذف حرف العطف، والتَّقدير: وقلتُ. ويمكن أن يقدَّر العاطف فاءً؛ أي: فقلت[5]. الرّابع: أن يكون مستأنفًا[6]. ويجُوزُ أن يكون قوله: ﴿قُلۡتَ لَآ أَجِدُ﴾ استئنافًا؛

(1) ابن الجوزيّ، زاد المَسير: 2/288.

(2) الرّازيّ، مفاتح الغيب: 16/122.

(3) ابن عادل، اللّباب: 10/172، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المَصون: 6/99.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/299، والسّمين الحلبيّ، الدُّرّ المَصون: 6/99.

(5) ابن عادل، اللّباب: 10/172.

(6) ابن عادل، اللّباب: 10/172.

يعني مثل: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ [التّوبة: 93]، كأنَّه قيل: إذا ما أتوك لتحملهم تولَّوا، فقيل: ما لهُم تولَّوا باكينَ؟ قلتَ لا أجدُ ما أحملهم عليه، إلاَّ أنَّه وسطٌ بين الشَّرط والجزاء، كالاعتراض[1].

وهذا المعنى يدلُّ على خفاء ما جرى من الكلام بينهم وبين رسول اللّه ﷺ حتى إنّه لم يُعْلَمْ للآخرين سببٌ لتوليهم وأعينُهم تفيضُ من الدَّمع حزنًا.

دلالة التّعبير بضمير الخطاب: ﴿قُلۡتَ﴾:

عادة الصَّادقين التَّصديق، بقول الرّسول المصدوق ﷺ

المخاطَب هو رسول اللّه ﷺ والمعنى: إذا أتوك لتحملهم لم يكن عندك ما تحملهم عليه، فعبَّر عن هذا بقوله: ﴿قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ لنكتة بديعة، وهي الإشارة إلى تصديقهم له، وأنَّهم اكتفوا من علمهم بعدم الإمكان بمجرد إخباره لهم بقوله: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ بخلاف ما لو قيل: لم يجدوا عندك ما تحملهم عليه؛ فإنّه يكون تَبْيين حُزنهم خارجًا عن إخباره، وكذلك لو قيل: لم تجد ما تحملهم عليه لم يؤدِّ هذا المعنى[2].

والكلمة التي قالها لأولئك الذين أتوا يطلبون الحُمْلان ليجاهدوا معه؛ كاشفة عن أنّه ﷺ عايشَ حالةً من العُسْرَةِ لا يقدِر معها على تجهيز مَن أتى يطلب الخروج معه بأبسط متطلّبات الخروج للقتال، وهي الخِفاف.

إيثار (لا) على (ما)، في قوله: ﴿لَآ أَجِدُ﴾:

بيان أنّ الحال عدم وجود سعة لحمل المقاتلين

دخول (لا) على الفعل المضارع هنا في قوله: ﴿لَآ أَجِدُ﴾ يدلّ على الحال، وأمّا إيثار (لا) على (ما) في قوله: ﴿لَآ أَجِدُ﴾، فيبيّن ذلك قول سيبويه: "وإذا قال: (هو يفعل)؛ أي: هو في حال فعل؛ فإنّ نفيه (ما يفعل)، وإذا قال: (هو يفعل) ولم يكن الفعل واقعًا فنفيه لا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/299.

(2) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/21.

يفعل"[1]. فرسول الله ﷺ لم يكن الإيجاد منه حاصلًا، ولهذا فقد صار النّفي بـ (لا) والمعنى: لا أجد الآن ما أحملُكم عليه. فالعبارة وصفت واقع الحال وما هو عليه من شِدَّةٍ.

كما أنَّ التّعبير بالمضارع في قوله: ﴿لَآ أَجِدُ﴾، يدلُّ على الحال تنصيصًا، وذلك لنفيه مع الإطلاق. فرسول الله ﷺ لم يجد حينها مطلق ركوب، يركبونه ليحملَهم عليه في الجهاد معه.

وفي إيثار ﴿لَآ أَجِدُ﴾ على (ليس) من تلطيف الكلام، وتطييب قول السّائلين ما لا يَخفى؛ وكأنَّ رسول الله ﷺ يطلب ما يسألونَهُ على الاستمرار فلا يجد، وذلك هو اللّائق بمن هو بالمؤمنين رؤوف رحيم ﷺ.

دلالة ﴿مَآ﴾: وفائدتها:

عموم فقد المحمول عليه، دلالة على شِدَّةِ العُسْرَةِ

عبَّر بـ ﴿مَآ﴾ الموصولة في قوله ﴿مَآ أَحۡمِلُكُمۡ﴾ للدّلالة على انتفاء المحمول عليه على العموم، إذْ هي أعمُّ الموصولات وأدخلها في الإبهام، وهو الملائم لحال العُسْرَةِ الشَّديد، فمنهم مَن قال: بأنَّه الرّكوب من البهائم، ومنهم مَن قال: بأنَّها الخِفاف أو النِّعال.

إيثار لفظ ﴿تَوَلَّواْ﴾:

الانصراف المصاحَب بالحزن، دليل على الإيمان والخشية

اصطفى النَّظم الكريم التَّعبير بالتَّولي لأنّ التّولّي هنا انصرافٌ مصحوبٌ برجاءٍ وأملٍ. ومنه قوله تعالى: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ﴾ [البقرة: 142]. فجميع هذه المواضع فيها دلالة على الانصراف مع مصاحبة مشاعر داخليّة وعاطفة جيّاشة تتمنَّى النّفس معها شيئًا جليلًا أو عظيمًا أو مهمًّا كانت تتُوق إلى تحقيقه، وهذا على خلاف المرادفات الأخرى كالإنصاف مثلًا.

دلالة الجملة الاستئنافيّة: ﴿تَوَلَّواْ﴾:

قوله سبحانه: ﴿تَوَلَّواْ﴾ مستأنفٌ استئنافًا بيانيًا، أو: هو الجواب،

---

(1) سيبويه، الكتاب: 1/460.

و(قُلْتَ) مستأنف، وأفاد الاستئناف تلاشي الظَّنِّ الّذي كانت في أذهانهم أنّ رسول الله ﷺ سيحملهم، مما يُتيح لهم فرصة الجهاد معه، فلمّا قال: لهم الرّسول ما قال تغيَّر حالهُم، فتولّوا وأعينُهم تفيض من الدّمع حَزنًا.

يأس الفقراء المعوزين من المشاركة، مع الرّسول الأمين

دلالة (الواو): ﴿وَّأَعۡيُنُهُمۡ﴾، وأثرها في المعنى:

الواو حاليّة في قوله: ﴿وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ﴾؛ أي: تولّوا وحالهُم؛ بلغ الغاية في الحُزن، والجملة في موضع الحال من ضمير ﴿تَوَلَّواْ﴾(1). ومثله قوله: ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ [المائدة: 83]، ويُجسّد واقع حالهم؛ رغبتهم وصدقهم في الخروج مع رسول الله ﷺ، ومدى الحسرات الّتي غمرتهم.

بيان وصف حزن المحرومين الظّاهر، عند التّأخّر بالمانع القاهر

الغرض من التّعبير بالاستعارة، في الفعل ﴿تَفِيضُ﴾:

"الفيض والفيضان: خروج الماء ونحوه من قراره ووعائه، ويُسند إلى المائع حقيقة. وكثيرًا ما يُسند إلى وعاء المائع، فيُقال: فاض الوادي، وفاض الإناء. ومنه: فاضت العين دمعًا، وهو أبلغ من: فاض دمعها، لأنّ العين جُعِلَتْ كأنّها كلّها دمع فائض، فقوله: ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ جرى على هذا الأسلوب"(2). ثمّ مشهد آخر هو في قوله: ﴿تَفِيضُ﴾ من الاستعارة حيث شبَّه العينَ بالنّهر الجاري، ثم حَذَفَ المشبَّه به ورَمَزَ له بشيءٍ من لوازمه وهو الفيضان، وفيه بيانٌ عن غزارة دمع العين دلالةً على شِدَّة الحزن النَّاتج عن انقطاع الأمل.

جُعلت العينُ كلّها كأنها دمع فائض، لبيان المراد، وتجلية الصّورة

دلالة ﴿مِنَ﴾ ومعناها، في شبه الجملة: ﴿مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾:

و﴿مِنَ﴾ للأجَلِ والسَّبَب، وقيل: إنَّها للبَيَان، كقولك: أفديك من رجل(3). وقوله: ﴿وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾؛ وجعله تمييزًا، سلوكًا لطريق الإيضاح بعد الإبهام، ولأنّ العين جعلت كأنّها دمع فائض، ثمّ

غاية الأسى والألم، فيضان العين دمعًا

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/484، وابن عادل، اللُّباب: 10/172.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/296.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/484، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/347.

﴿وَأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ أبلغ ممّا قبله بواسطة ﴿مِنَ﴾، فإنَّه جعل أعينهم فائضة، ثمَّ جرَّد الأعين الفائضة من الدَّمع باعتبار الفيض. وأنَّ ﴿مِنَ﴾ هنا للبيان لما قد أبهم ممّا قد يُبيَّن بمجرد التّمييز؛ لأنَّ معنى تفيض العين؛ أي: يفيض شيء من أشياء العين، كما أنَّ معنى قولك: (طاب زيد)؛ أي: طاب شيء من أشياء زيد، وهذا مجاز تكون علاقته الكُليّة لأنّه ذَكَرَ الكُلَّ وأراد الجزء، والتَّمييز رفع إبهام ذلك الشيء فكذا من الدمع فهو في محل نصب على التَّمييز[1]. وورد أيضًا من نظائر الآية قوله تعالى: ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾ [المائدة: 83]. ويمكن أن يكون معنى (من) الابتداء، وهو معنى معروفٌ من معانيها، وعليه يكون التَّشبيه مقلوبًا، لأنَّه جعل العينَ تفيضُ من الدَّمع، والأصل أنَّ الدمع يفيضُ من العين! وهو مثلُ قولِ الشاعر:

بان الصَّباحُ كأَنَّ غُرَّتَهُ *** وجهُ الخليفةِ حينَ يُمْتَدَحُ

والأصل تشبيه وجه الخليفة بالصُّبح وليس العكس.

موقع كلمة ﴿حَزَنًا﴾، ودلالته:

الجملة تعكس عظيم الحزن الّذي ألَمَّ بهؤلاء المحرومين

أحدها: أنَّهُ مفعولٌ من أجله، والعاملُ فيه ﴿تَفِيضُ﴾، فإنَّ (الفيض) مُسنَد للأعين، و(الحزنَ) صادرٌ من أصحاب الأعين، وإذا اختلف الفاعل وجب جرُّه بالحرف؛ لأنَّا نقول: إنَّ الحزنَ يُسندُ للأعين أيضًا مجازًا، يُقال: عين حزينةٌ وسخينةٌ، وعينٌ مسرورةٌ وقريرةٌ في ضدِّ ذلك. وفائدة ذلك التّشخيص وإبراز دور الأعين في التّعبير عن دواخل النّفوس، وما أصابها من الحزن، لما أحدثه ذلك الموقف من أثر كبير في دواخلهم، الثّاني: أنَّهُ في محلِّ نصبٍ على الحال، أي: تولَّوا حزينين، أو: تفيض أعينهم حزينةً، على ما تقدَّم

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/347.

من المجاز. فكما أنّهم حزينون - وهذا واقع حالهم - فإنّ أعينهم قد جسّدت ذلك الحزن في الأعين وكأنّها هي الحزينة، وهذا على المجاز، الثّالث: أنه مصدر ناصبُه مقدّرٌ من لفظه، أي: يحزنون حزنًا"(1). وهذا يعكس شدّة الحزن الّذي ألمّ بهم.

الغرض من التّعبير، بقوله: ﴿أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾:

بيان أنّهم حزينون لأنّهم لا يجدون ما يُنفقون، للخروج مع الرّسول الأكرم

قوله: ﴿أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ مجرورٌ بلام جرٍّ محذوف؛ أي: حَزَنوا لأنّهم لا يجدون ما يُنفقون(2)، فهو تعليل لما سبق ﴿وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا﴾؛ وفيه تأكيد على صدق نيّاتهم في الخروج مع رسول الله ﷺ وفيه في الوقت ذاته تشنيعٌ على أدعياء العذر.

دلالة التّعبير بالمضارع:

فقدان معيّة الرّسول، لأمرٍ غير مُتوقَّعٍ لديهم، ممّا يعظم عليهم

قوله: ﴿أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾، المضارع هنا يُفيد دلالة التّجدّد والاستمرار؛ ودلالة بحثهم عن شيء يُعينهم على الخُروج وهم مستمرّون في ذلك فلا يجدون، فتعكس مدى حرصهم على إيجاد ما يُنفقونه من أجل الخروج مع رسول الله ﷺ، ثم إنّها تُفيد تجدّد الحسرة لديهم؛ إذ إنّهم سيفقدون معيّة الرّسول لمجرّد أنّهم لا يجدون ما يُنفقون، إذ لم يكن ذلك مُتخيّلًا لديهم.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإِتْيانُ والمجيءُ:

الإتيان يكون عادة بشيء، والمجيء يكون بلا شيء

الإتيان بمعنى أن تأتي ومعك شيءٌ، والمجيء هو أن تجيء دون شيء، وقد تناولنا الفَرْق بين اللفظتين مفصّلًا في تفسير الآية.

(لا أجد)، و(لا أملك):

الوَجدُ لا يدلُّ على التّملّك، وهو بخلاف المِلك

قوله: ﴿لَآ أَجِدُ﴾؛ وجد مطلوبه يجِده، ووَجَدَ ضَالّته وِجْدَانًا، وأَوْجَدَهُ الله مطلوبَه؛ أي: أظفَرَه به، وأَوْجَده: أَغناه(3)، أمّا (لا أملِكُ)؛

(1) ابن عادل، اللّباب: 10/174، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/347.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/296.
(3) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (وجد).

المُلكُ لله، ومَلَكُوت الله: سلطانُه. والمَلَكُ: ما ملكت اليد من مالٍ وخَوَل[1]. ودلالة (لا أملك) هو عدم ملك المتكلّم الشّيءَ، ولكنّه قد يُوجد عنده أو من حوله، أي: عند غيره، أمّا قوله: ﴿لَآ أَجِدُ﴾ فدلالتها عدم وجدان الشَّيء في المكان والزّمان الّذي قيلت عنده الكلمة.

التّوَلِّي والإعراضُ:

التّولّي انصرافٌ مصحوب برجاء وأمل، والإعراض رفضٌ وعدم رضًا

التّولّي هو الرّجوع عن الشّيءِ، قد يكون مصحوبًا بالرّضا، وفيه دلالة على عامل نفسيّ، أو قضيّة كبرى تطمح النّفس إلى تحقيقها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ﴾ [البقرة: 150]؛ على خلاف الإعراض فهو الرّفض وعدم الرّضا، وترك المسألة، كقوله تعالى: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199]، أو قوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ﴾ [النّساء: 63].

الدَّمعُ، والبُكاءُ:

الدّمع عَرَضٌ من أعراض البكاء، والبكاء ذرف الدّموع، وقد يكون بإرادة أو بدونها

الدَّمع هو عَرَضٌ من أعراض البُكاء ونتيجة من نتائجه. والبكاء هو عارض من أعراض الحزن والألم وتأثّر النّفس؛ فالبُكاء فعل قد يصدر عن الفرد دون إرادته، والدّمع عَرَضٌ من أعراضه يدلّ عليه غالبًا.

(1) الخليل، العين: (ملك).

الجُزءُ الحَادِي عَشَرَ

﴿۞إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٩٣﴾ [التّوبة: 93]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين ذكر حال الفقراء المعذورين، وحال الأغنياء الّذين رضوا بالتّخلُّف

لَمّا قال تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ﴾، قال في هذه الآية: ﴿۞إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ﴾ في التَّخلُّف: ﴿وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ﴾[1]. ولمّا نفت الآيتان السّابقتان أن يكون سبيلٌ ومؤاخذة على المؤمنين الضُّعفاء، والمرضى، والّذين لا يجدون ما يُنفقون، والّذين لم يجدوا حمولة، حصرت هذه الآية المؤاخذة على الّذين يستأذنون في التَّخلّف وهم أغنياء[2]. فهؤلاء قد أصابوا من الإثم والخُسران لجهلهم شناعة ما اقترفوه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾: جذر الكلمة (خلف)؛ خَلَفَه: جاء بعده خلافة، وخَلَفَه على أهله فأحسن الخلافة. وخَلَفَه بخير أو شرّ: ذَكَرَه به من غير حضرته. وهو خَلَفُ صدق من أبيه وخَلْفُ سوء. وجلست خِلَافَ فلان وخَلْفه أي: بعده[3]. وخَلَفَ خَلَافَةً بفتح الخاء: فَسَدَ، فهو خالِفٌ، أي: رديءٌ أحمق، ويُعبّر عن الرَّديء بخَلْفٍ نحو: ﴿۞فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [مريم: 59]، ويُقال لمن خَلَفَ آخر فسدَّ مسدَّه: خَلَف، والخِلْفَةُ يُقال في أن يخلف كلُّ واحدٍ الآخر، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ﴾ [الفرقان: 62]، وقيل: أمرُهم خِلْفَةٌ، أي: يأتي بعضه خلف بعض[4].

(1) ابن عادل، اللُّباب: 10/175.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/296.
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (خلف).
(4) الرّاغب، المفردات: (خلف).

2) ﴿وَطَبَعَ﴾: جذر الكلمة هو (طبع)؛ الطَّبْعُ: أن تصوِّر الشَّيء بصورة مّا، كطَبْعِ السِّكَّة، وطَبْعِ الدّراهم، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [يونس: 74][1]. والطَّبْعُ: الوسَخُ الشّديد على السَّيف. والرّجُلُ إذا لم يكن له نفاذٌ في مكارِمِ الأُمور، كما يَطْبَعُ السَّيف إذا كَثُرَ عليه الصّدأ[2]، والطّبيعة الاسم بمنزلة السّجيّة والخليقة ونحوه. والطَّبْعُ: الخَتْم على الشَّيء. والطّابَعُ: الخاتَمُ. وطَبَعَ اللّه الخَلْقَ: خَلَقَهُم. وطُبِعَ على القلوب: خُتِمَ عليها[3].

المَعْنى الإجماليُّ:

التّشنيع على مَنْ تقصّد عدم الخروج مع الرّسول الأكرم، من غير عذر ملزم

بيَّنت الآية مَن عليهم السَّبيل في مؤاخذتهم وإيقاعهم في الحَرَج؛ فقال تعالى: ﴿۞إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾؛ أي: يقع الإثمُ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ﴾ في التّخلُّف ﴿وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ﴾؛ أي: لهم سعة للخروج. ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾، يعني: خَتَمَ، بحسب سُنَّة اللّه في أنَّ النُّفوس إذا أُشبعت بالأخلاق الرَّذيلة تفقد الاستعداد للأخلاق الفاضلة والإيمان الصَّحيح، ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ شيئًا من ذلك، ولا يُدركون كُنهَ حالهم، ولا سوء مآلهم، ولا ما هو سبب ذلك من أعمالهم[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الغرض من التَّعبير بأسلوب القصر، في السّياق الحكيم:

الإثم على الأصحّاء الأغنياء الّذين لا يعوقهم شيء

جملة القصر انتقال بالتّخلُّص إلى العودة إلى أحوال المنافقين كما دلَّ عليه قولُه بعد ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ [التّوبة: 94]، فالقصر إضافيٌّ بالنسبة للأصناف الّذين نُفي أن يكون عليهم

(1) الرّاغب، المفردات: (طبع).
(2) الخليل، العين: (طبع).
(3) الخليل، العين: (طبع).
(4) الموصليّ، أولى ما قيل: 4/120.

سبيل[1]. وأفاد حصر الإثم والمؤاخذة على مَن اختار عدم الخروج مع رسول اللّه واختار القعود مع الخوالف، والقصر بمعونة السِّياق يؤكِّد سماحة الإسلام في الأمور المِفصليّة الكبرى بمَنْ لا يملكون الزّاد والرّاحلة وحصر الإثم على الأصحَّاء الأغنياء الّذين لا يعوقهم شيء عن الخروج مع رسول اللّه ﷺ. وفي هذا القصر تأكيدٌ للنَّفي السَّابق؛ أي: لا سبيل عقابٍ إلا على الّذين يستأذنونك وهم أغنياء. والمراد بهم المنافقون بالمدينة الّذين يكرهون الجهاد؛ إذ لا يؤمنون بما وعد اللّه عليه من الخيرات، وهم أولو الطَّول المذكورون في قوله: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ [التّوبة: 86]"[2]. أولئك الذين اختاروا لأنفسهم وأصغت أفئدتهم إلى دعوى القعود عن معيّة الرّسول في جهاده، فخرجوا عن دائرة الإيمان ودخلوا حيّز الكفر والنّفاق.

سرُّ اختيار (إنّما)، طريقًا لأسلوب القَصْر في السّياق:

عدم قبول عذر الأصحَّاء الأغنياء، من الأمور البَدَهيّة

اصطفى النَّظم الكريم (إنَّما) طريقًا للقصر لبيان أنَّ الأغنياء الأصحاء غير مأذون لهم في الاعتذار عن عدم الخروج للجهاد، وأنَّ هذا مما لا يجهله المخاطب ولا يُنكره، لذا جاء بأداة القصر الّتي تُستخدم فيما لا يجهله المخاطَب ولا يُنكره.

دلالة (الْ) على العهد، في لفظ ﴿ٱلسَّبِيلُ﴾:

السّبيل هو المؤاخذة والعقوبة، للمتخلّفين بلا عذر شرعيّ

"التعريف باللّام في قوله: ﴿۞إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ تعريف العهد، والمعهود هو السَّبيل المنفيُّ في قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ﴾ على قاعدة النّكرة إذا أُعيدت مُعرَّفة؛ أي: إنّما السّبيل المنفيّ عن المحسنين مثبتٌ للّذين يستأذنونك وهم أغنياء. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الشّورى: 42]؛ فدلَّ ذلك على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/296.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/296.

أنَّ المراد بالسَّبيلِ: العذابُ"(1). وهو هنا المؤاخذة واستحقاق العقوبة، وإخراجهم من دائرة الإيمان.

نكتة التَّعبير بالاستعارة، في لفظ ﴿ٱلسَّبِيلُ﴾:

سلطان الله وعقابه، واقع على المنافقين لا محالة

"قوله: ﴿۞إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾، مستعار لمعنى السّلطان والمؤاخذة بالتّبعة، شبّه السّلطان والمؤاخذة بالطّريق لأنّ السّلطة يَتوصّل بها مَنْ هي له إلى تنفيذ المؤاخذة في الآخر(2). والسَّبيل الّذي نفاه عن المحسنين، هو الّذي أثبته في هؤلاء المنافقين، وهو الّذي يختصُّ بالجهاد، والمعنى: أنَّ هؤلاء الأغنياء الّذين يستأذنونك في التّخلّف سبيل الله عليهم لازمٌ، وتكليفُه عليهم بالذّهاب إلى الغزو متوجّه، ولا عذر لهم ألبتةَ في التَّخَلُّفِ(3).

غرض استخدام حرف الجرِّ ﴿عَلَى﴾، استعارة في السّياق:

الاستعلاء المجازيّ في الحديث عن المنافقين، من بليغ البيان

عبّر النَّظْم الكريم هنا بـ ﴿عَلَى﴾، وإن كان قد يصلُ بـ (إلَى)؛ لأنَّ ﴿عَلَى﴾ تدلُّ على الاستعلاء، وقلة مَنَعَة مَنْ تدخل عليه، نحو: لي سبيل عليك، بخلاف (إلى) فإذا قلت: لا سبيل عليك، فهو مُغايرٌ لقولك: لا سبيل إليك(4). فـ "عُدّي بحرف (على) المفيد لمعنى الاستعلاء وهو استعلاء مجازيٌّ بمعنى التّمكُّن من التَّصرُّف في مدخول (على). فكان هذا التَّركيب استعارةً مكنيَّةً رُمز إليها بما هو من مُلائمات المشبَّه به وهو حرف (على). وفيه استعارةٌ تبعيَّةٌ"(5).

سِرُّ التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في السّياق:

التّعريض باستئذان النّبيّ في التّأخّر عن الجهاد، بلا عذر شرعيّ مقنع

فائدة اسم الموصول هنا التّعريض بذِكْر الصّلة، مثل قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ [التّوبة: 49]، كما أنّ في قوله هنا:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/296 - 297.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/296.
(3) الرّازي، مفاتح الغيب: 16/123.
(4) ابن عادل، اللُّباب: 10/176.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/296.

﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ﴾ تحقير فعلهم مثل قوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ﴾ [البقرة: 113].

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ﴾ في السّياق:

المنافقون حسموا أمر القعود، ولم يعبؤوا بالعواقب

دلّ الفعل المضارع هنا في قوله: ﴿يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ﴾ على الحال والاستقبال، وفائدة المُضارع التّجدُّد مع الزّمن، وما يدلّ ذلك على الإصرار والاستمرار على الاستئذان؛ لأنَّهم قد اتّخذوا قرارهم في عدم الخروج مع الرّسول، وارتاحت نفوسهم له، وأصغت أفئدتهم إلى دعوى التّخلّف عن رسول الله ﷺ.

سِرُّ التّقييد بالجملة الحاليّة ﴿وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ﴾، وأثرها في المعنى:

القُبح كلُّه في الاستئذان للقعود، مع القدرة على النّهوض

قوله: ﴿وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ﴾ الواو للحال، و﴿وَهُمۡ﴾ مبتدأ، وأغنياء خبر، والجملة حالية[1]، أفاد هنا اختصاصهم بالغِنى فلا شكّ في غِناهم، وقد يَبِينُ ذلك من حالهم ومظهرهم، ولا شكّ في قدرتهم وتمكّنهم من الخروج معه ﷺ، لكنّهم اختاروا التّخلّف والقعود، ورضوا به، فالجملةُ الحالية تؤكّد كذبهم في الاعتذار، وتُبيِّن قُبْح حالهم.

سِرُّ التّغاير في اللّفظ بين ٱلۡأَغۡنِيَآءِ هنا، وأُولي الطّول في الآية (86):

تنوُّعُ حالات النّفاق، دليل على سريان هذا المرض في النّفوس

ذُكِر الأغنياء هنا؛ لأنَّ المقام مقام ذِكْر الفقراء الّذين لا سبيل عليهم، ولا حُجّة لمؤاخذتهم لفقرهم، فقابَل هؤلاء بأولئك الّذين أتوا يُريدون عدم الخروج وهم أغنياء؛ فلا حُجَّةَ لهم في الاعتذار. فلمّا ذكر (أولي الطَّوْل) وسياق الآيات فيها يبيّن التّجاوزات التي فضحت المنافقين وجرأتهم جاءت الآية تصف حال الَّذين قال فيهم: ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾ [التّوبة: 81]، وما يَليها من صفات المنافقين الّذين وصفهم القرآن بأنّهُم (أولوا الطَّول).

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/156.

دلالة الاستئناف في: ﴿رَضُواْ﴾:

الكشف عن السّبب الحقيقيّ فضح للمنافقين، وتعرية لمقاصدهم المخبوءة

وقعت الجملة استئنافًا تعليليًّا غرضه فضح المنافقين بالكشف عن حقيقة اعتذارهم بما هو مستكنٌّ في صدورهم؛ فالجملة "استئناف بيانيٌّ جواب لاستفهام مَن قال: لم استأذنوا؟ أو لم استحقوا ما استحقوا؟.. فأُجيب بأنهم ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾[1]. والسؤال " نشأ عن علَّة استئذانهم في التخلُّف وهم أغنياء؛ أي: بعثهم على ذلك رضاهم بأن يكونوا مع الخوالف من النِّساء"[2].

الغرض من التَّعبير بالكناية، في سياق الآية:

الخسَّة والدَّناءة، من صفات المنافقين المغروسة في أعماقهم

جملة ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾، وفيها، عبَّر عن خسَّة المنافقين ودناءتهم بأسلوب الكناية لما في طبيعة هذا الأسلوب من إثبات المعنى بالدَّليل، وهو أقوى من التّصريح بالصِّفة لأنَّ الّذي يعتذر مع القدرة أخسُّ وأدنأ وأقبحُ مقامًا؛ لذا عبّر عنهم بالرِّضا بالكون بمعيَّة النِّساء المُعبّر عنهم بصيغة الجمع الخاصَّة بهنَّ.

نكتة التّعبير بالفعل ﴿يَكُونُواْ﴾:

حصول شيء مستَغرَب، هو سبب معيَّتهم مع الخوالف

(كان) فعل ماضٍ ناقص؛ ليس فيه عنصر الحدث وإنّما تجرّدت للزَّمن فقط[3]. ففي قوله: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ يدلّ على شدَّة تَبكِيتِهم على رضاهم بأن يكونوا في معية الخوالف.

فالفائدة في إيراد مُطلق الحصول أولًا ثمَّ تخصيصه، مع فائدةٍ أخرى وهي دلالته على تعيين زمان ذلك الحصول المقيّد، ولو قلنا: (رضوا بالتّخلّف) لم تحصل هاتان الفائدتان معًا.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/4.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/296.
(3) ابن يعيش، شرح ابن يعيش: 7/89 - 90.

بلغ المنافقون في اختيارهم أدنى ما يُمكن أن يُتصوّر

سرُّ التّكرار في عبارة ﴿مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾:

فائدة تكرار الجملة: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ لتوكيد ما هم فيه من دناءة الاختيار، وما أحاط بأنفسهم من عزلةٍ فلا يستشعرون الخير، وما أصاب أعينهم من الغشاوة فهم لا يُبصرون الحقّ، وما أصاب عقولهم وفكرهم من الضِّيق والانحسار، وذلك كلّه بسبب ما أصابهم من الطّبع على القلوب، فكرّر لتوكيد ذلك.

الطَّبْع على القلب، فعلٌ لا يقدِر عليه إلّا خالق القلوب ومقلّبها

سرُّ بناء الفعل للمفعول ﴿وَطُبِعَ﴾، وللفاعل ﴿وَطَبَعَ﴾:

أسند الطَّبع إلى المفعول؛ إمّا للعلم بفاعله وهو اللّه، وإمّا للإشارة إلى أنّهم خُلِقُوا كذلك وجُبِلُوا عليه[1]. وذكر الكرمانيّ: قَوْله: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ ثمَّ قَالَ بعده ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ﴾؛ لِأَنَّ قَوْله ﴿وَطُبِعَ﴾ مَحْمُول على رَأس المِئَة وهو قَوْله: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ﴾ مَبْنِيّ للمفعول. فناسب ما تقدّمه ليُناسب بالختام المَطْلَع. وَالثَّاني: مَحْمُول على مَا تقدّم من ذِكْر اللّه تَعَالَى مَرَّات فَكَانَ اللَّائِق ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ﴾[2]. وقوله فيما بعدها: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فإنّه لم يقع قبلها ما يقتضي البناء فجاءت على الأصل[3].

الطَّبْع على قلوب المنافقين، ترسيخ لاختيارهم المهين

سرّ التَّعبير باسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ مُسنَدًا إليه:

وأُسند الطَّبعُ على قلوبهم إلى الاسم الجليل للإشارة إلى أنَّه طبعٌ غير الطَّبع الذي جُبلوا عليه؛ بل هو طبْعٌ على طبعٍ أنشأه اللّه في قلوبهم لغضبه عليهم؛ فحرَمَهم النّجاة من الطَّبعِ الأَصليِّ، وزادهم عَمَايَةً[4]. فالطَّبعُ على قلوب المُنافقين ترسيخٌ لما اختاروهُ ورضوا به، واستقرّت أفئدتهم عليه، ويؤكده اصطفاء التَّعبير بصيغة الماضي تحقيقًا لحصول ذلك.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/289 - 290.

(2) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 137.

(3) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 3/145.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/296.

سِرُّ استعمال (الفقه) مع المَبنيِّ للمجهول، و(العِلمُ) مع المبنيِّ للمعلوم:

الفـقـه يقتضي التَّفكُّر والتَّأمُّل، وهُوَ لبُّ الوعي، وعنوانُ الإدراك

العلم من صفات اللّه، والفقه ليس من صفاته سبحانه؛ لأنّ الفقه يُستحصل بالتّفكّر والتّأمُّل والتّدبُّر، وهذا ليس من شأن اللّه، وإنّما هو من صفات خَلْقه من المُكلّفين، ولذلك فقد جاء ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ مع ذكر اسم اللّه، وجاء ﴿يَفۡقَهُونَ﴾ مع البناء للمفعول، وعدم ذكر اسم اللّه تعالى. ثمَّ ختم كلَّ آيَة بِمَا يَليق بهَا فَقَالَ في الأولى: ﴿لَّا يَفۡقَهُونَ﴾، وَفي الثَّانيَة: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ لِأَن العلم فَوق الفِقْه وَالفِعْل المُسْنَد إِلَى اللّه فَوق المُسْنَد إِلَى المَجْهُول"[1].

دلالة (الفاء)، في: ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

جهلُهم للقيمة العـليـا لمعيّة الرّسول الأكرم، أنـهـى عِـلْـمَـهـم بكلِّ خير

ولأجل هذا المعنى فرَّع عليه ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ لنَفْي أصل العلم عنهم[2]؛ فالفاء للتَّفريع، فمهما يسمعوا ويروا من دلالات العلم وحقائقه فإنّهم لا يُدركون قيمة ما هم فيه من خير المعيّة، وفرصة الجهاد معه ﷺ، فانتفى بذلك علمُهم عن كلِّ خير.

دلالة تقديم المُسنَد إليه ﴿فَهُمۡ﴾، على خبره الفعليّ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

تأكيد انتفاء العِلم عن المنافقين، إذْ من جهل شيئًا عاداه

قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، وفيه اصطفى النَّظم الكريم تقديم المُسند إليه (هم) وتقديمه على الخبر الّذي هو جملة فعليّة ﴿لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ لتقوية نفي العِلم عنهم وتأكيده، وإنَّما حصل التَّأكيد من إسناد نفي العلم عنهم مرتين: الأولى بجملة الخبر، والثّانية: بإسناد الضَّمير العائد على المُسنَد إليه للفعل المنفيِّ عنهم، فكأنَّه قيل: لا يعلم المنافقون لا يعلم المنافقون.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

العلمُ منتَفٍ عن المنافقين، حالًا واستقبالًا

دلَّ التّعبير بالفعل المضارع على استمرار جهل المنافقين وعدم علمهم على الدّوام حالًا واستقبالًا، وهذا من أشنع ما يكون من الصِّفات، كأنَّ الجهلَ جِبِلَّتهم.

---

(1) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 137.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/296.

دلالة حذف المفعول به من الفعل ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

نَفْيُ العلم عن المنافقين، نَفْيٌ عن كلّ معلوم

حُذف المفعول به للعموم، ولقصد توفير العناية على نَفْي الفعل نفسه بغضِّ النَّظر عن المعلوم، فلا تتحقّق مقبوليّة العلم في قلوبهم وعقولهم؛ لأنَّهم قد عُزلوا بالطَّبع على قلوبهم عن حقائق ما أنزل اللّه في رسالته ووَحْيِهِ على نبيّه ﷺ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العِلمُ والفقهُ:

الفقه يكون لمَنْ له قدرة، على التّفكير والتّأمّل من المخلوقين

الفقه هو العِلم بمقتضى الكلام على تأمُّله، ولهذا لا يُقال: إنَّ اللّه يفقه؛ لأنَّه لا يُوصف بالتّأمُّل، وتقول لمن تُخاطبه: تفقَّه ما أقوله؛ أي: تأمَّله لتعرفَهُ، ولا يُستعمل إلا على معنى الكلام، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا﴾ [الكهف: 93]، وسُمِّي عِلمُ الشّرع فِقْهًا؛ لأنّه مبنيٌّ على معرفة كلام اللّه تعالى، وكلام رسول اللّه ﷺ[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 412.

﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٤﴾ [التّوبة: 94]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين حال المخلّفين الفقراء، وزيف معاذير أصحاب الغنى، الّذين ينبّئهم الله بما كانوا يعملون

تحدَّثتِ الآيةُ السَّابقةُ عن استئذانِ المنافقينَ وتخلُّفِهم عن الجهادِ مع قدرتهِم على الخروجِ؛ وجاءتْ هذه الآيةُ لتخبرَ عن حال المنافقينَ في تقديم الأعذارِ لرسولِ اللّهِ ﷺ عن عدمِ خروجهم، وبيَّنت عدمَ قبولِ اعتذارهِم لعدم صدقهِم فيما يقولونَ، وهو سبحانه عالمُ الغيبِ والشَّهادةِ، فلا يغيبُ عن علمهِ شيءٌ، وفي ذلك تحذيرٌ لهم من كذبهم؛ لأنَّهم سيرَدُّون إلى عالمِ الغيبِ والشَّهادةِ، فيخبرُهم بما عملوا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَعۡتَذِرُونَ﴾: الاعْتِذارُ مَصْدَرُ اعْتَذَرَ، وأَصْلُهُ مِنَ العُذْرِ، وهو: الحُجَّةُ التي يُعْتَذَرُ بها، وكُلُّ ما يَرْفَعُ اللَّوْمَ؛ فهو عُذْرٌ، يُقال: عَذَرْتُهُ عُذْرًا، أيْ: رَفَعْتُ عَنْهُ اللَّوْمَ، "وذلكَ على ثلاثةِ أضرُبٍ: إما أن يقولَ: لم أفعلْ، أو يقولَ: فعلتُ لأجلِ كذا، فيذكرُ ما يُخرجهُ عن كونه مُذنبًا، أو يقولَ: فعلتُ، ولا أعود، ونحو ذلكَ من المقالِ، وهذا الثّالثُ هو التَّوبةُ، فكلُّ توبةٍ عذرٌ، وليس كلُّ عذرٍ توبةً". واعْتَذَرَ من ذَنْبِه، وتَعَذَّرَ: إذا تَنَصَّلَ منه، واحْتَجَّ لِنَفْسِه، قال تعالى: ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ﴾، واعْتَذَرَ أيضًا بمعنى: أَعْذَرَ، أيْ: صارَ ذا عُذْرٍ، ويُقال: اعْتَذَرَ إلى فُلانٍ، فَعَذَرَهُ، أيْ: أزالَ ما كان في نَفْسِه عليه في الحَقيقَةِ أو في الظّاهِرِ[1].

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عذر)، والجرجانيّ، التّعريفات، ص: 30، والكفويّ، الكليّات، ص: 308.

2) ﴿تُرَدُّونَ﴾: الرَّدُّ: صَرْفُ الشَّيْءِ بذاتهِ أو بحالةٍ من أحوالهِ، ومن الرَّدِّ بالذّاتِ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: 28] ومن الرَّدِّ إلى حالة كان عليها، قوله تعالى: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: 149]، ويأتي بمعنى: المَنْعِ والرَّفْضِ، وشَيْءٌ مَرْدُودٌ، أيْ: مَرْفوضٌ، ورَدَّ فُلانًا: خَطَّأَهُ، أيْ: لَمْ يَقْبَلْهُ، وَمِن مَعانيه أيضًا: الإعادَةُ والإرْجاعُ، فالرَّدُّ كالرَّجع[1]، تَقول: رَدَّهُ إلى مَنْزِلِه، أيْ: أعادَهُ، ورَدَّ إِلَيْهِ جوابًا، أيْ: أَرْجَعَهُ وأَرْسَلَهُ[2].

3) ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: الغيبُ: مصدرُ غابَ الشَّيءُ؛ إذا استترَ عن العينِ، واستُعمل في كلِّ غائبٍ عن الحاسَّةِ، وعمّا يغيب عن علمِ الإنسانِ بمعنى الغائبِ، ويقالُ للشَّيءِ: غيبٌ وغائبٌ باعتبارهِ بالنّاسِ لا باللهِ تعالى؛ لأنَّهُ لا يغيب عنهُ شيءٌ[3]، والمرادُ بالغيبِ ما لا يُدركُ بالحواسِّ ممَّا أَخبَرَ الرَّسولُ ﷺ صَريحًا بأنَّهُ واقعٌ، أو سَيَقَعُ مِثْلَ وجُودِ اللهِ، وصِفاته، ووُجُودِ الملائكةِ، والشَّياطِين، وأَشْراطِ السّاعةِ، وما اسْتأثرَ اللهُ بعلْمِه، والشَّهادةُ: ضِدُّ الغَيبِ، وهيَ الأُمورُ الَّتي يُشاهدها النّاسُ، ويتوصَّلون إلى علمها، يُقالُ: شَهِدَ، بِمَعْنَى: حَضَرَ، وضِدُّهُ غابَ، ولا تَخْرُجُ الموجُوداتُ عن الاتِّصافِ بِهذَيْنِ الوَصْفَيْنِ، فَكأنَّهُ قِيلَ: العالِمُ بِأَحْوالِ جَميعِ المَوْجُوداتِ[4].

المَعنى الإجْماليُّ:

الوحيُ يفضحُ كلَّ منافقٍ كذوبٍ، ويوم الدّين ينبّئ الله المعتذرين، عمّا كانوا يخفون

يُخاطِبُ اللهُ تعالى المؤمنينَ قائلًا لهم: إنَّ المُنافِقينَ المُتخلِّفينَ عن الجهادِ بلا عُذرٍ، سيعتذِرونَ إليكم؛ إذا رَجَعتُم إليهم مِن سفرِكم

(1) الرّاغب، المفردات: (ردد).

(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (ردد)، والكفويّ، الكليّات، ص: 476، والجرجانيّ، التعريفات، ص: 147.

(3) الرّاغب، المفردات: (غيب).

(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (غيب، وشهد)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/229، و7/309.

وجهادِكم، فقلْ لهم يا محمَّد ﷺ: لا تعتَذِروا، لن نُصَدِّقَكم، قد أعلَمَنا اللّهُ بأسرارِكم، وعَرَفْنا كذِبَكم في اعتذارِكم، وسيرى اللّهُ عمَلَكم ورسولُهُ، ثمَّ تُرجَعونَ بعد مَوتِكم إلى عالِمِ كُلِّ سِرٍّ وعلانيةٍ، وظاهرٍ وباطنٍ، فيُخبِرُكم بما كُنتم تَعمَلونَهُ في الدُّنيا، ويُجازيكم عليه.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفصلِ في: ﴿يَعۡتَذِرُونَ﴾:

الاعــتــذاراتُ الـكـاذبـةُ دأبُ المنافقينَ، والله لا تـخـفـى عنه خافية

فُصلتِ الآيةُ الكريمةُ عن سابقتِها؛ لأنَّها استئنافيَّةٌ ابتدائيَّةٌ، ولأنَّ هذا الاعتذارَ ليس قاصرًا على الَّذين يستأذنونَ في التَّخلُّف، إنَّما هو من شِيَمِ المنافقين عمومًا، وإن وقع الاعتذارُ من بعضِهم فلمناسبةِ استئذانِ الَّذين قَعدوا عن الجهادِ؛ فإنَّ الإذنَ لهم يُغنيهم عن التَّبرُّؤ بالحلْف الكاذبِ[1] في زعمهم.

وفيه إشارةٌ إلى إخبارِه ﷺ والمؤمنين بما سيكونُ من هؤلاءِ المنافقينَ من تقديمِ الأعذارِ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿يَعۡتَذِرُونَ﴾:

بعضُ الاعترافِ، لا يمحو - رغم أهميّته - دنسَ الاقترافِ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالاعتذارِ في قولِه: ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ﴾ دون (يتوبون)؛ لأنَّ الاعتذارَ أعمُّ من التَّوبةِ، فالعُذْرُ: الحُجَّةُ الَّتي يُعْتَذَرُ بها، وكُلُّ ما يَرْفَعُ اللَّوْمَ؛ فهو عُذْرٌ، "وذلك على ثلاثة أضربٍ: إمّا أن يقولَ: لم أفعل، أو يقول: فعلتُ لأجلِ كذا، فيذكرُ ما يخرجُهُ عن كونِهِ مُذنبًا، أو يقول: فعلتُ، ولا أعودُ، ونحو ذلك من المقالِ، وهذا الثّالثُ هو التَّوبةُ، فكلُّ توبةٍ عُذْرٌ، وليس كلُّ عُذْرٍ توبةً"[2]، والمُلاحظ أنَّهم يندرجونَ تحتَ النَّوعِ (فعلتُ لأجل كذا) لغرضِ رفعِ الملامةِ عنهم، وليس من بابِ التَّوبةِ، ولذلك لا يندرجونَ تحتَ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/6.

(2) الرّاغب، المفردات: (عذر).

النَّوع الثّالثِ؛ لأنَّ اعتذارَهم دلَّلَ على اعترافِهم بالخطأ، وذلك لقوَّة المسلمين، وهذا يدلُّ على ضعف المنافقين.

وفيه إشارةٌ إلى أنَّهم لم يعتذروا إيمانًا ولا تصديقًا، بل ليُحسن المسلمون معاملتَهم فقط، أمّا التَّوبةُ؛ فتفيدُ النَّدم على ما صدرَ من المعاصي، وهم لم يفعلوا ذلكَ، ولأنَّهم يطلبون محو الذَّنب فقط؛ لأنَّ لفظَ الاعتذارِ من معانيه محوُ أثرِ الذَّنب، وأصله: إن تعذَّرت المنازل، أي: درست، وانمحت آثارها، ومن معاني العذرِ: القطعُ، يقولون: اعتذرتِ المياهُ، أي: انقطعتْ، فكأنَّ المعتذرَ يحاولُ قطعَ الذَّمِّ عنه، وهذا ما يهدف إليه المنافقون من هذا الاعتذارِ[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَعۡتَذِرُونَ﴾:

الاعـتـذارُ سمةٌ مـتـجـدِّدَةٌ مـن المنـافـقـيَن الفجّار، لخداع المؤمنين الأبرار

عَبَّرَ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَعۡتَذِرُونَ﴾ دلالةً على استمرارِ الاعتذارِ منهم وديمومتهِ وتكرارِ صفتهِ وتجدُّدِ حدوثهِ؛ لإزالةِ الجُرمِ واللَّوم عنهم، وممَّا يؤكِّد ذلك ما سبق ذكرُه من محاولة اعتذارهم عند استهزائِهم بآياتِ اللّهِ ورسوله، وردَّ القرآنُ عليهم بقوله: ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ﴾ [التوبة: 66]، فإنَّ دأبَ هؤلاءِ الاعتذارُ عمومًا، ويحسبون أنَّ ذلك أمرٌ مقبولٌ يقبله النَّبيُّ ﷺ والمؤمنون، ولذلك أكثروا من الاعتذارِ، ولاسيِّما في أمرِ الجهاد، يصوِّر ذلك التُّعبيرُ بالفعل المضارع.

نكتةُ إسنادِ الفعلِ للضَّميرِ، في لفظ: ﴿يَعۡتَذِرُونَ﴾:

تحقيرُ المنافقيَن والاشمئزازُ من ذكـرِهـم، ردعٌ لهم

أسندَ الفعل بالضَّميرِ في قوله: ﴿يَعۡتَذِرُونَ﴾ عن فريقٍ من المنافقينَ اعتذروا بعدَ رجوعِ النَّبيِّ والمؤمنين معه من غزوة تبوكَ، وهم الذين سبقَ ذكرُهم في قوله: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ [التّوبة: 90].

وذلك من بابِ تحقيرِهم والاشمئزازِ من ذكرِهم، وهذا الإضمارُ

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/138.

أيضًا يبرزُ طبعَهم في عدمِ الظُّهورِ بفعلتِهم، وهذا دأبُ المنافقين وسُلوكُهم مع المؤمنينَ، فهم يعتذرون في كلِّ مرَّةٍ عن تخلُّفِهم، ولا يعلنون عن أنفسهم إلّا في حالةِ ضعفِ المسلمين.

دلالةُ كافِ الخطابِ في: ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾:

بيان حال قيادة الرَّسولِ ﷺ للمؤمنين في الحرب والسِّلمِ

والخطابُ في ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾ إلى الرَّسولِ ﷺ والجمعُ للتَّعظيم؛ لأنَّ الاعتذارَ للرَّسولِ ﷺ هو اعتذارٌ لجميع المؤمنين؛ لأنَّهُ القائدُ والإمام الَّذي يؤتمُّ به، وقيل: له ﷺ ولأصحابه، وهذا هو الأَولَى؛ لأنَّهم كانوا يعتذرون للجميع، أي: يعتذرون إليكم في التَّخلُّف؛ إذا رَجَعۡتُمۡ من الغزو منتهين إِلَيۡهِمۡ[1]؛ لأنَّ المنافقين يقصدون بأعذارِهم النَّبيَّ ﷺ ويعيدونها مع جماعات المسلمين[2]، ويدلُّ أيضًا على أنَّ الاعتذارَ كان مشافهةً، وفي مواجهةِ المسلمين، فلم يرسلوا اعتذارًا، ولا أنابوا أحدًا عنهم، بل كانوا في موضع المهزوم الَّذي ينتظرُ عفوَ المنتصرِ عنهم.

دلالةُ تعدِّي الفعلِ ﴿يَعۡتَذِرُونَ﴾، بحرفِ الجرِّ (إلى):

الحرصُ على إعلانِ الاعتذارِ بأيِّ وسيلةٍ، لإقناع الرّسول والمؤمنين

قوله: ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ﴾، آثرَ تعدِّي الفعل ﴿يَعۡتَذِرُونَ﴾ بحرف الجرِّ (إلى) دون اللّامِ؛ لأنَّ (إلى) معناها انتهاءُ الغاية، فهم يبحثونَ عن قبولِ اعتذارهم بأيِّ وسيلةٍ ومن أيِّ جهةٍ من الجهاتِ سواءٌ كان ذلك بإعلانِ اعتذارهم أو بالحلفِ عليه، بخلاف اللّامِ الَّتي تفيدُ الاختصاصَ أو الاستحقاقَ، والمنافقونَ لا يقرُّون بذلك في حقيقة أنفسِهم للمؤمنين، فهدفُهم فقط هو تقديمُ الاعتذارِ للحفاظ على مصالحِهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِذَا﴾:

الشَّرطُ مشعرٌ بتحقيقِ الوقوعِ، ويقين حصوله

قولِه: ﴿إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾، آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿إِذَا﴾ دون (إن)؛ لأنَّ إذا في كلامِ العربِ تُستعملُ للمقطوعِ بحصولِه، فقولُهُ: ﴿إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ﴾

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/4، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/374، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/6 - 7.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/7.

يدلُّ على تحقُّقِ اعتذارِ المنافقين من المؤمنينَ حالَ رجوعِهم من غزوتِهم، ولم يُعبِّر بـ (إن) الَّتي تفيدُ الشَّكَّ في الوقوعِ أو نُدرتَهُ؛ لأنَّها غيرُ مناسبةٍ في هذا الموقفِ الَّذي يحرصُ المنافقونَ فيهِ على الاعتذارِ، وفيه إخبارٌ بغيبٍ لم يقعْ بعدُ؛ لأنَّ السُّورةَ نزلتْ بعدَ القفولِ من غزوةِ تبوكَ، وجعْلِ الرُّجوعِ إلى المنافقين حاصلًا؛ لأنَّه المقصودُ من الخبر عند الرُّجوع[1] وفيه تنبيهُ المنافقينَ إلى تغييرِ موقفِهم منَ الرَّسولِ ﷺ من عدم الإيمانِ بهِ إلى تصديقِهِ واتِّباعِهِ والإيمان بالقرآنِ الَّذي فضحَ سرائرَهُم وكشفَ نيّاتِهم.

دلالةُ تعدِّي الفعلِ ﴿رَجَعۡتُمۡ﴾ بالحرف (إلى):

إبـرازُ الفلاحِ والفوزِ للمؤمنينَ

تعدَّى الفعلُ ﴿رَجَعۡتُمۡ﴾ بـ (إلى) الَّتي تدلُّ على انتهاءِ الغاية، للإشارةِ إلى الغايةِ الَّتي هي مرادُ اللّه لرسوله والمؤمنين بعودتهم سالمين، لا كما كانوا يظنُّونَ من قتلِ الرُّوم وتغلُّبِهم على المسلمين، ويكونُ المعنى: ﴿رَجَعۡتُمۡ﴾ من الغزو منتهين ﴿إِلَيۡهِمۡۚ﴾[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿رَجَعۡتُمۡ﴾:

البشارةُ بتحقُّقِ الرُّجوعِ إلى المدينةِ، ملمح من واقع المشهد

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالماضي الَّذي يدلُّ على تحقُّقِ رجوعِهم إلى المدينةِ المنوَّرةِ سالمينَ غانمينَ؛ لأنَّ المنافقينَ ما كانوا يتوقَّعونَ أن يعودَ الرَّسولُ ﷺ وأصحابُهُ منتصرين، بل كانوا يتوقَّعونَ أنَّ الرُّومَ سيقضونَ عليهم، ولا تقومُ لهم قائمةٌ بعد ذلكَ، فخيَّبَ اللّهُ ظنَّهم بأنِ امتنَّ على الرَّسولِ ﷺ وأصحابِهِ بالرُّجوعِ المظفَّرِ إلى المدينة.

سرُّ التَّعبيرِ بالضَّميرِ ﴿إِلَيۡهِمۡۚ﴾:

تسابقُ المنافقينَ إلى الاعتذارِ، دليل على قوّةِ الإسلام وهيبته

جاء التَّعبيرُ بقوله: ﴿رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ ولم يقلْ إلى المدينةِ؛ إيذانًا بأنَّ مدارَ الاعتذارِ هو الرُّجوعُ إليهم لا الرُّجوعُ إلى المدينة، فلعلَّ منهم مَنْ بادرَ إلى الاعتذارِ قبلَ الرُّجوعِ إليها[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/7.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/93.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/93.

وفيه إشارةٌ إلى تسابقِ المنافقينَ للاعتذارِ لدرجةِ أنَّهم خرجوا من المدينةِ؛ ليستقبلوا المسلمينَ بهذا الاعتذارِ، ولم ينتظروا وصولَهُم إليها، وفي هذا إعلانٌ لقوَّةِ المسلمين وخيبةِ المنافقينَ وإبراز جبنِهم في مواجهةِ المسلمين.

الغرضُ مِنَ التَّعبيرِ بالأمرِ بلفظ ﴿قُل﴾:

إعـلانُ إمامتـهِ وقـيـادتـهِ ﷺ، للأمّة

جاءَ الخطابُ بقولِه: ﴿قُل﴾ لرسولِ اللهِ؛ لأنَّهُ ﷺ رأسُهم والمتولِّي لما يرد عليهم من جهةِ الآخرين[1] وإن كان الاعتذارُ منهم كائنًا إلى جميعِ المؤمنينَ، وفيهِ تأييدٌ لنبوَّتِه ﷺ ورسالتِهِ بإبلاغِ قولِ اللهِ لهم، وفيهِ إشارةٌ إلى أمرِ اللهِ للمؤمنينَ بأن يفضحوا المنافقينَ على رؤوسِ الأشهادِ قائلينَ لهم: لا تعتذروا.

الغرضُ من أسلوبِ النَّهي في قولِه: ﴿لَّا تَعۡتَذِرُواْ﴾:

تأييسُ المنافقينَ مـن تـصـديـقِ المؤمنينَ لهم

نهى اللهُ المنافقينَ عن الاعتذارِ؛ لأنَّهُ كذبٌ، والتَّمادي في الاعتذارِ الكاذبِ تمادٍ في الكذبِ، والتَّمادي في الكذبِ فجورٌ، وهو غير مقبول[2].

وعلَّل الرَّازيُّ ذلك، فقالَ: إنَّ قوله تعالى: ﴿لَّا تَعۡتَذِرُواْ﴾ عِلَّةٌ للمنعِ من الاعتذارِ؛ لأنَّ غرضَ المعتذرِ أن يصيرَ عذرهُ مقبولًا، فإذا عُلِم بأنَّ القومَ يكذِّبونه فيه؛ وجبَ عليهِ تركُهُ.

ويدلُّ النَّهي أيضًا على رفضِ سماعِ الاعتذارِ لا قبولِه، فهناك فرقٌ بين إنسانٍ يعتذرُ إليك وتسمعُ عذرَهُ، ثمَّ بعد ذلك تقبلُهُ، أو ترفضُهُ، أمّا الَّذي معنا هنا، فهو رفضُ السَّماعِ، وهو أبلغُ في التَّيئيسِ ممَّا لو قيلَ: لا تقبلوا عذرَهُم.

"ليسَ النَّهيُ على أصلِه؛ لأنَّهُ وقعَ، وإنَّما نهوا عن ذلك؛ لأنَّ ما

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/93، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/4، والقنوجيّ، فتح البيان: 5/374.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3416.

يزعمونَهُ معلومُ الكذبِ بيِّنُ البُطلان، فالآلوسيُّ - رحمه اللّه - يلمِّحُ بكلامِهِ هذا إلى أنَّ النَّهيَ أفادَ التَّيئيس[1].فالنَّهيُ لتأييسِ المنافقين من تصديق المؤمنينَ لهم؛ لِما جلّاه اللّه تعالى لهم من أخبارٍ، وفضْحِهِ سيِّئَ سرائرِهم.

دلالةُ الفصل في: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾:

عِلَّةُ النَّهي عن الاعتذارِ، فلا معنى لعذرٍ لا يصدّق

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾ لِمَا بينهما من كمالِ الانقطاعِ، فالأولى إنشائيَّةٌ والثانيةُ خبريَّةٌ؛ فالثَّانية استئنافٌ تعليليٌّ لبيانِ موجبِ النَّهي في قوله: ﴿لَّا تَعۡتَذِرُواْ﴾، فهو مبنيٌّ على سؤالٍ نشأَ من قِبَلِهم، مُتَفَرِّعٍ على ادِّعاءِ الصِّدقِ في الاعتِذار، كأنَّهم قالوا: لِمَ لا نَعتَذِرُ؟ فقيل: لأنَّا لا نُصدِّقُكم أبدًا، فالجُملةُ عِلَّةٌ للنَّهي عَنِ الاعتِذارِ؛ لأنَّ غرَضَ المعتَذِرِ أن يُصدَّقَ فيما يَعتَذِرُ بِهِ، فإذا عَلِمَ أنَّه لا يُصدَّقُ؛ ترَكَ الاعتذارَ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿لَن﴾ دون (لا) في السّياق:

بيان المبالغة في نفي الإيمانِ عن المنافقينَ

قوله: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ﴾، وفيه عبَّر بـ ﴿لَن﴾ دون (لا)؛ لأنَّ ﴿لَن﴾ تفيدُ تأكيدَ النَّفيِ، بخلافِ (لا)؛ لذلكَ عبَّر بـ ﴿لَن﴾ الَّتي تفيدُ المبالغةَ في تأكيدِ نفيِ الإيمانِ عن هؤلاءِ المنافقينَ في الحالِ والاستقبالِ، وذلك لما فيها من دلالةٍ على زمنِ الاستقبالِ، وللإشارةِ إلى قطعِ الأملِ في قلوبِ المنافقينَ عن رواجِ الاعتذارِ عندَ المؤمنينَ، فلن يصدِّقوهم اليومَ، ولا بعدَ اليوم، مهما أجهدوا أنفسَهم، وبذلوا وُسعَ طاقتِهم في محاولةِ إقناعِ المؤمنينَ بقبولِ أعذارِهم.

بلاغةُ التَّضمينِ في سياق نفي الإيمان لهم مستقبلا:

المرادُ في هذهِ الآيةِ، تأكيد امتناعهم عن التّصديق، بما يقدّمون من معاذير كاذبة

قولُه: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾: في الجملةِ الكريمةِ تضمينٌ؛ إذ ضمَّنَ الإيمانَ معنى الرِّضا والتَّسليمِ والإذعان، فعُدِّيَ باللَّام[2]؛ لأنَّ الفعلَ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/320، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/7.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/302، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/489، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/449، والبقاعي، نظم الدّرر: 4/93.

(آمن) يدورُ معناهُ حولَ عدَّةِ معانٍ، تقول: (آمن) أي: اعتقدَ وصدَّقَ، مثل قولنا: (آمن باللّه)، ويقال: آمنَ بالشَّيء: صدَّقه، وآمن بكذا، أي: صدَّق ما قيل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: 17]، أي: لن تصدِّقَنا، والفعل (آمن) إذا تعدَّى بالباءِ؛ فمعناهُ الاعتقادُ، وإن تعدَّى باللّام؛ فمعناهُ التَّصديقُ، وهو المرادُ في هذهِ الآيةِ، وإن تعدَّى بغيرِهما؛ فمعناهُ إعطاءُ الأمانِ، وآياتُ القرآنِ على هذهِ المَعاني واضحةٌ[1] فالمعنى: لن نأمنَ لكم، ولولا التَّعدِّي باللَّام لما تحقَّق هذا المعنى.

دلالةُ ضميرِ الجمعِ في: ﴿نُّؤۡمِنَ﴾:

استعمالُ ضميرِ المتكلِّمِ للمُبالغةِ

جمعَ ضميرَ المتكلِّمِ في ﴿نُّؤۡمِنَ﴾ من قولِه: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾؛ للمُبالَغةِ في حَسْمِ أطماعِهم مِن التَّصديقِ رأسًا، ببَيانِ عدَمِ رَواجِ اعتِذارِهم عندَ أحَدٍ مِن المؤمنين أصلًا[2]، فإنَّ تصديقَ بعضِهم لهم ربَّما يطمعُهم في تصديقِ الرَّسولِ ﷺ أيضًا بواسطة المصدِّقين، وللإيذانِ بافتضاحِهم بينَ المؤمنينَ.

وهذا المعنى ينطبقُ على سرِّ التَّعبيرِ بنونِ الجمعِ في قولِه تعالى: ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾ دفعاً للتَّكرارِ في هذا الموضعِ[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالإيمانِ: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾:

مجابهةُ المعتقدِ تكونُ إيمانًا أو كفرًا

آثرَ التَّعبيرَ بالإيمانِ دونَ التَّصديقِ لوجودِ فرقٍ بينهما، فالإيمانُ أخصُّ من التَّصديقِ؛ لأنَّهُ يُسْتَعْمَلُ على نحوٍ مخصوصٍ بخلاف التَّصديقِ، فهو أعمُّ؛ لأنَّ كلَّ مُخبِرٍ عن مشاهدةٍ أو غيبٍ، يقالُ له لغةً: صدقْتَ، ويقالُ له: كذبْتَ، ولذلك يقالُ للشُّهودِ: صدَّقناهُم، ولا يقالُ آمنّا لهم، وأيضًا أنَّ الإيمانَ يقابلُهُ الكفرُ، والتَّصديقُ يقابله

(1) الشّعروايّ، تفسير الشّعراويّ، ص: 5421.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/93.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/93.

التَّكذيبُ، وعلى ذلك آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالإيمانِ هنا دون التَّصديقِ، وإن وجد بينهما تقاربٌ في المعنى العامِّ، إلّا أنَّ القرآنَ يريد أن ينفي عنهم الإيمانَ، وهذا يلزمُ منه في المقابلِ الوصفُ لهم بالكفرِ، وأيضًا.

تقريعُهم وتوبيخُهم بأنَّهم ليسوا أهلًا للصِّدق؛ لأنَّهم لو كانوا صادقينَ حقيقةً؛ لصدقوا اللّهَ ورسولَهُ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿نَبَّأَنَا﴾:

التَّشهيرُ بالمنافقينَ، وسيلةٌ مشروعةٌ لفضحِ سلوكِهم، والتَّحذيرِ منهم

قال: ﴿نَبَّأَنَا﴾، ولم يقل: (نبَّأني) إيماءً إلى أنَّ اللّه أمَرَ رسوله ﷺ أن يبلِّغ المؤمنين بأحوالِ هؤلاءِ المنافقين حتَّى يكونوا على بيِّنة من أمرِهم[1]، ولم يكن هذا النَّبأ خاصًّا بالنَّبيِّ ﷺ لأنَّ اعتذارَهم لجميع المؤمنينَ معَ الرَّسولِ ﷺ يقتضي أن يكونوا كلُّهم عالمين بما فضحَهم اللّهُ به، وإن كانَ المُبَلِّغُ لهم هو الرَّسول ﷺ بما له من الرِّياسةِ، وما لخبره من الثِّقةِ الَّتي لا يشكُّ فيها أحدٌ؛ لأنَّ نبأ الرَّسولِ عن ربِّهِ معصومٌ من كلِّ خطأٍ، وفي هذا من التَّشهيرِ بهم، والخزي لهم ما لا خفاءَ فيه[2].

الموقعُ البيانيُّ لقولِهِ: ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا﴾:

اعتذارُ المنافقينَ لا فائدةَ منه؛ لفضحِ اللهِ كذبَهُم

الجملةُ تعليلٌ لنفي تَصديقِهم، أي: قد نبَّأنا اللّهُ مِن أخبارِكم بما يَقْتَضي تَكذيبَكم، وهذه الجُملةُ عِلَّةٌ لانتِفاءِ تَصديقِهم؛ لأنَّ اللّهَ ﷻ إذا أوحَى إلى رسولِه الإعلامَ بأخبارِهم، وما في ضَمائرِهم مِن الشَّرِّ والفسادِ؛ لم يَستَقِمْ معَ ذلك تَصديقُهم في مَعاذيرِهم[3].

دلالةُ ﴿قَدۡ﴾ في دخولِها على الماضي:

المنافقون ليسوا أهلًا للتَّصديق في كلامهم، ولا في قبول معاذيرهم

دخلتْ (قد) على الفعلِ الماضي ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا﴾، فدلَّت على فِعليَّته،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/302، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/123، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/489، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/7، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/383.

(2) عبد الفتّاح لاشين، لغة المنافقين في القرآن الكريم، ص: 189.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/302.

وأفادتِ التَّحقيق، أي: إنَّ ما أنبأنا اللّهُ به ثابتٌ ويقينٌ ومُتحقِّقٌ، وفي هذا تعريضٌ بالمنافقين، وأنَّهم ليسوا أهلًا للتَّصديق في قبولِ أعذارِهم.

بلاغةُ الإيجازِ بحذفِ المفعولِ بِهِ الثَّالثِ في: ﴿نَبَّأَنَا﴾:

الحذف ملمح من ملامح البلاغة، تؤدّى به المعاني، في أوجز الألفاظ

نَبَّأَ في الجملةِ تعدَّت إلى مفعولين كَعَرَّفَ، نحو قولِه: ﴿مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ﴾ [التّحريم: 3]؟ والثّاني هو ﴿مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾ أي: جُمۡلَةً مِنۡ أَخۡبارِكُم، وقيل: (نَبَّأَ) بمعنى: أعلم المتعدِّية إلى ثلاثة، والثّالث محذوفٌ اختصارًا؛ لدلالةِ الكلامِ عليه، أي: من أخبارِكم كذبًا أو نحوه[1].

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

لفظ الجلالة منبّه لإحاطة الله بعلم كلّ شيء، لزجر المنافقين عن غيّهم

قوله تعالى: ﴿نَبَّأَنَا ٱللَّهُ﴾، آثرَ التَّعبير فيه بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ الَّذي يجمعُ كلَّ صفاتِ الجمالِ والجلالِ والكمالِ؛ لأنَّ كلَّ ما يصدرُ عن الإنسانِ من قولٍ أو فعلٍ أو حركة؛ اللّهُ يعلمُها، ويخبرُ بها رسولَهُ والمؤمنين ليزدادوا إيمانًا مع إيمانِهم، وليوبِّخَ المنافقين على فعلتِهم وكذبِهم، فهوَ لا تخفى عَليهِ خافيةٌ، فليحذروا عقابَ اللّهِ في الدُّنيا والآخرة، ففي التَّعبيرِ بِهِ إدخالٌ للمهابةِ على النُّفوسِ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿مِنۡ﴾:

تعدُّدُ معاني الحروف، ثراءٌ للمعنى، وبيان للدّلالة

جاء التَّعبيرُ بـ ﴿مِنۡ﴾ في قولِه: ﴿مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾؛ وهي إمَّا أن تكونَ للتَّبعيضِ، أي: قد نبَّأنا اللّهُ تعالى ببعض أخبارِكم، وهو ما يتَّصلُ بنيّاتكم وبقلوبِكم، وبالأفعالِ الَّتي تقصدونَ بها إفسادَ عزائم المؤمنين، وتخذيلِهم عن المجاهدينَ، وحقيقة ما تقصدونَ باعتذاراتِكم الكاذبةِ، وإمَّا أن تكونَ لبيان الجنسِ، ولا مانعَ أن يجتمعَ للحرفِ ﴿مِنۡ﴾ معنى التَّبعيض وبيان الجنس؛ لأنَّ (مِنۡ) البيانيَّة هي من ضروب (من) التَّبعيضيَّة، قال أبو حيَّان: ﴿مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾ أي: جملةً من أخبارِكم[2].

---

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/330، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/489.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/489.

من أسرّ سريرة ألبسه الله رداءها، ولا شيء يخفى على الله

سرُّ التَّعبيرِ بالجمعِ ﴿أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾:

آثَرَ التَّعبيرَ بالجمعِ ﴿أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾ دونَ المفردِ للإشارةِ إلى علمهِ ﷻ بكلِّ أخبارِ المنافقينَ عمومًا، وما يتعلَّقُ بأخبارِهم في أمرِ الجهادِ خصوصًا، وفي هذا إشارةٌ إلى مراقبتهِ ﷻ لكلِّ ما يصدرُ عنهم في الظَّاهرِ والباطنِ، من الأقوالِ والأفعالِ الَّتي يقصدون بها تثبيطَ عزائمِ المؤمنينَ، عن الجهادِ في سبيلِ اللّهِ.

بيان أن لا فائدة في الاعتذار، وأنّه إنْ تُبتم فسيرى الله أعمالكم على حقيقتها

دلالةُ العطفِ بالواوِ في: ﴿وَسَيَرَى﴾:

أفادَ عطفُ جملة: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾ بالواوِ على جملةِ لا تعتذروا، مطلقَ الجمعِ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه في معنًى واحدٍ، تقديرُهُ: لا فائدةَ في اعتذارِكم، فإن خشيتُم المؤاخذةَ فاعملوا الخيرَ للمُستقبلِ، فسيرى اللّهُ عملَكم ورسولُهُ إن أحسنتُم[1].

وفي اختيارِ العطف بالواو دونَ الفاءِ مثلًا إشارةٌ إلى إعطاء مهلةٍ للمنافقينَ للخروج ممّا هم فيه، وذلك بالانضمامِ إلى المؤمنينَ والخروج معهم للجهادِ.

تحذيرُ المنافقين وترهيبُهم، ليدركوا أنّ الله لا يخفى عليه أمرهم

بلاغةُ الكنايةِ في جملة ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾؛ عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بالرُّؤيةِ لأنَّهم كانوا يظهرونَ من أنفسِهم عند ذكرِ المعاذيرِ حبًّا للرَّسولِ ﷺ والمؤمنين وشفقة عليهم ورغبة في نصرتِهم؛ فكانَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾ من بابِ تحذيرِهم إذا تركوا هذهِ الحالةَ الَّتي يظهرونها من الصِّدقِ وادِّعاءِ المحبَّةِ.

وفيه إشارةٌ إلى دعوتهم إلى ترك النِّفاقِ بأن يتوبوا ممّا هم فيه؛ لأنَّ اللّهَ مطلِّعٌ على نيّاتهم، فإن تابوا، وأنابوا؛ فاللّهُ يقبلُ توبتهم[2]، وفي ذلك إشارةٌ إلى ترغيبِهم في العملِ الصّالح، وترهيبِهم من الدَّوام على حالِ النِّفاق.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/7.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/366.

سرُّ إظهارِ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في موضعِ الإضمار:

غرض ورود اسم الله الأعظم، إدخالُ المهابةِ في قلوبِ المنافقين

إنَّ مقتضى ظاهرِ السِّياقِ يستدعي أن يُقالَ: (وَسَيَرَى عَمَلَكُمْ)، لكن وضعَ الاسمَ المظهرَ وهو لفظُ الجلالةِ (اللّه) موضعَ الضَّميرِ؛ لإدخالِ الرَّوعةِ والمهابة في نفوسِ المنافقينَ، ويضاف إلى ذلك أنَّ لفظَ الجلالةِ يجمعُ كلَّ صفاتِ كمالِ اللّه ﷻ، باعتباره اسمًا علمًا للذّات العليَّة.

سرُّ التَّعبيرِ بالسِّين في: ﴿وَسَيَرَى﴾:

عرضُ أعمالِ العبادِ على اللهِ ورسولِهِ، ملمح لانكشاف السّرائر عنده

(السِّين) لتأكيدِ وقوعِ الفعلِ في المستقبلِ القريبِ، فأتى بالسِّين لقربِ الجزاءِ والثَّواب، أي: إنَّهُ ليس لكم أن تتكلَّموا في الماضي، فاللّهُ تعالى قد عَلِمه من قبلُ، ونبَّأنا به، وإنَّما الأمرُ الحاضر. (وَسَيَرَى) أي: سيشاهدُ، أو سيعلم عِلم المشاهدةِ أو الواقع اللّه ورسوله[1].

إضافةً إلى ذلك أنَّ (قد) في قوله: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا﴾ دخلت على الفعل الماضي، فقرَّبت زمنه إلى الحال، فلو وضعنا (سوف) بدلًا من السِّين في هذا النَّصِّ، فسيُحدث اضطرابًا دلاليًّا لبعد الشُّقَّة بين الحالِ وزمن الاستقبالِ البعيد، فالسِّين لقربها الزَّمني من الحالِ صحَّ العطفُ فيها على فعلٍ ماضٍ قريبٍ زمنُهُ من زمنِ الحالِ.

دلالةُ الفصلِ بين ﴿ٱللَّهُ﴾ و﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ بقولِهِ: ﴿عَمَلَكُمْ﴾:

رؤيةُ اللهِ تعالى أعمالَ بني آدَمَ ليستْ كرؤيةِ رَسولِ اللهِ ﷺ

فُصِلَ بينَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه؛ للدَّلالةِ على اختلافِ حالِ الرُّؤيتينِ، فالرُّؤيةُ صفةٌ ذاتيَّةٌ ثابتةٌ للّه ﷻ، وليست رؤيةُ اللّهِ تعالى أعمالَ بني آدَمَ كرؤيةِ رَسولِ اللّهِ ﷺ وإن كان اسمُ الرُّؤيةِ يقعُ على الجميعِ[2]، وللإشعارِ بأنَّ وراءَ الوعيدِ هو عِلمهُ ﷻ بأعمالهم[3]؛ لأنَّ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/5، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/345، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3416.
(2) ابن تيميّة، جامع المسائل: 3/168، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/124، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/324، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/7، والسّقاف، صفات الله ﷻ الواردة في الكتاب والسّنة، ص: 184، و185.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/93، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/5.

الرُّؤيةَ المُعدّاةَ إلى مفعولٍ واحدٍ، هي الإبصارُ، والمُعدّاةَ إلى مفعولينِ هي العِلمُ.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿عَمَلَكُمۡ﴾:

عمل المنافقين مكرّس في تثبيط المؤمنين، وزرع الوهن في صفوفهم

قولهِ: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾، وفيه آثرَ التَّعبيرَ بلفظِ العمل دونَ الفعل؛ لأنَّ العملَ أخصُّ من الفعل، باعتبار أنَّهُ لا يصدرُ إلّا عن قصد؛ بخلافِ الفعلِ، فيكونُ بقصدٍ أو بغيرِ قصدٍ، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ ما يفعله المنافقون من تثبيطِ المسلمين عن الخروجِ للجهادِ فضلًا عن عدمِ خروجِهم هم، هو عملٌ مقصودٌ يقصدونَ من ورائهِ إضعافَ المسلمينَ مادِّيًّا ومعنويًّا.

سرُّ التَّعبيرِ بالمفردِ بـ ﴿عَمَلَكُمۡ﴾:

أعمال المنافقين متشابهة، وإن تعدّدت الأساليب والوسائل

آثرَ التَّعبيرَ بالمفردِ ﴿عَمَلَكُمۡ﴾ دونَ الجمعِ (أعمالكم)، مع أنَّ السِّياقَ موافقٌ للجمعِ، حيثُ سبق قولُهُ: ﴿مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾ بصيغةِ الجمعِ؛ لكنَّهُ آثرَ المفردَ؛ لأنَّهُ مصدرٌ، والمصدرُ يدلُّ على القليلِ والكثيرِ، وأيضًا للإشارةِ إلى أنَّ أعمالهم العدائيَّة تجاهَ رسولِ اللّٰهِ والمؤمنينَ واحدةٌ في الهدفِ، وإن تعدَّدت في الأسلوبِ.

سرُّ اختيارِ التَّعبيرِ بـ ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾:

البلاغ مرتبط بالرّسالة، وما على الرّسول إلّا البلاغ المبين

آثرَ التَّعبيرَ بالرِّسالة دونَ النُّبوَّة؛ لأنَّ المقامَ هنا مقامُ إبلاغٍ من اللّٰهِ للمنافقينَ على لسانِ رسولهِ ﷺ بقولِه: ﴿قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ﴾، فيناسبُ البلاغُ الرِّسالةَ، قالَ تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿ثُمَّ﴾:

تذكير المنافقين بأنّ ردّهم إلى اللّه، مرتبط بحسابهم على جرائرهم

في قولهِ: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾، آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿ثُمَّ﴾؛ لأنَّها للتَّرتيبِ والتَّراخي، والتَّراخي هنا في موضعه؛ لأنَّ فيه الانتقالَ من الدّارِ الفانيةِ إلى الدّارِ الباقيةِ، وفيهِ الانتقال من دارِ العملِ إلى دارِ الجزاءِ[1].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3417.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾:

تـخـويـف المعتذرينَ من أهلِ النِّفاقِ وتهديدُهم

آثرَ التَّعبيرَ بقولهِ تعالى: ﴿تُرَدُّونَ﴾؛ لأنَّهُ يدلُّ على أمرين: أحدهما: أنَّهم يذهبونَ إلى هذهِ الدّارِ غيرِ مختارين، بل يردُّون إليها مدفوعينَ. ثانيهما: في التَّعبير بلفظِ ﴿تُرَدُّونَ﴾ما يفيدُ معنى الرُّجوع إليها بعد هذهِ الحياةِ، وكأنَّهم في الدُّنيا في سفرٍ يعودُ بعدَها المسافرُ إلى حيثُ إقامتُهُ وموطنه، فالإنسانُ ما خُلق عبثًا، إنَّما خُلقَ لأجلِ البقاءِ في الآخرةِ، فهيَ وطنهُ الأصليُّ إمّا نعيمًا مقيمًا، وإمّا عذابًا أليمًا[1].

دلالةُ تعدِّي الفعلِ ﴿تُرَدُّونَ﴾ بالحرف ﴿إِلَىٰ﴾:

تهويلُ الأمرِ، وتَرْبيَةُ المهابةِ، من مقاصد السّياق

تعدَّى الفعلُ بحرفِ الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، ومعناهُ انتهاءُ الغايةِ، وعلى ذلك فالجارُّ والمجرورُ متعلّقان بالفعل ﴿تُرَدُّونَ﴾، ومعنى الانتهاءِ في الآيةِ واضحٌ؛ إذ إنَّ مردَّنا جميعًا منتهٍ إليه سبحانه بعدَ مماتِنا، فهو سبحانه الَّذي يعلمُ السِّرَّ وأخفى، لا يخفى عليهِ بواطنُ الأمورِ وظواهرُها، قال البقاعيُّ: ثم تردُّون برادٍّ قاهرٍ لا تقدرونَ على دفاعهِ بعدَ استيفاءِ آجالِكم بالموتِ، وإن طالت ثمَّ البعثُ[2].

بلاغةُ وضعِ المظهرِ موضعَ المضمرِ:

السّياق ترغيبٌ للمُطيعين، وترهيبٌ للمُذنبينَ

قولُه: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، في الجملةِ الكريمةِ وَضَعَ المُظهَرَ ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ مَوضِعَ المُضمَرِ - حيثُ لم يَقُلْ: (إليه) - لِتَشديدِ الوَعيدِ؛ فإنَّ عِلمَهُ ﷻ بجَميعِ أعمالِهم الظّاهرةِ والباطنةِ، وإحاطتَه بأحوالِهم البارزةِ والكامنةِ ممّا يوجبُ الزَّجرَ العَظيمَ، ففي الإظهارِ تنبيهٌ على أنَّه لا يَعزُبُ عنه شيءٌ من أعمالِهم، زيادةً في التَّرغيبِ والتَّرهيبِ؛ ليعلَموا أنَّه لا يخفى على اللهِ شَيءٌ[3].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3417.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/2.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/124، والطِّيبيّ، فتوح الغيب: 7/331، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/93، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/8.

أسماءُ اللهِ وصفاتُهُ عظيمةٌ، وقد استعملت دلالاتها ببلاغة وبيان

سرُّ التَّعبيرِ بلفظي ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾:

في وضع الوصفِ ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ عوضًا عن لفظ الجلالة، حيثُ لم يَقُلْ: (ثم ستُرَدُّون إلى الله، أو إليه)؛ لتَهويلِ الأمرِ، وتَرْبيَةِ المهابةِ، ولتشديدِ الوعيدِ، ففي هذا ما يدلُّ على كونهِ مُطَّلعًا على بواطنِهم الخبيثةِ، وفي ذلك تخويفٌ شديدٌ، وزجرٌ عظيمٌ.

علمُ اللهِ ﷻ أزليٌّ، محيطٌ بكلِّ شيءٍ

دلالةُ تقديم لفظ ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾، على لفظ ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾:

سرُّ تقديم لفظ ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ على ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ لتحقيقِ أنَّ نسبةَ عِلمِ اللهِ تعالى المحيطِ بكلِّ الأشياءِ في السِّرِّ والعَلن واحدٌ على أبلغِ وجهٍ وآكدِه، كيف لا وعلمُهُ تعالى بمعلوماتِهِ منزَّهٌ عن أن يكونَ بطريقِ حصولِ الصُّورة بل وجودُ كلِّ شيءٍ وتحقُّقُهُ في نفسِهِ علمٌ بالنِّسبةِ إليه؛ وفي هذا المعنى لا يختلفُ الحالُ بين الأمورِ البارزةِ والكامنةِ[1].

علمُ اللهِ يطال كلّ واقع ومتوقّع، لا يعزب عنه شيء

دلالةُ التَّعريفِ بـ(الْ)، في لفظ ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ و﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾:

دلالةُ (أل) في قولِه: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الاستغراقُ، أي: كلُّ غيبٍ وكلُّ شهادةٍ[2]، فلا يخرجُ عن علمهِ شيءٌ سواءٌ كان ذلك معلومًا أو غيرَ معلومٍ، موجودًا أو غيرَ موجودٍ، وكلُّ هذهِ المعلوماتِ تدورُ بين عالمِ الغيبِ وعالمِ الشَّهادةِ.

لا مندوحة من الرّجوع إلى الله، والخضوع للحساب بين يديه

سرُّ التَّعبيرِ بالفاءِ في: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بـ (الفاء) دونَ غيرِها؛ لأنَّ معناها التَّرتيبُ والتَّعقيبُ، إذ إنَّ الإنباءَ يكونُ عقبَ الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالى؛ وذلكَ دليلٌ على تأكُّدِ وقوعِ ما وعدَ بهِ وتحقُّقِه، وأنَّه لا مفرَّ من قيامِ القيامةِ، ونزولِ ما وعدَ اللهُ تعالى بهِ[3].

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/6.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/11.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3417.

بلاغة الكنايةِ في: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾:

قوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، يرادُ بها الكنايةُ عن المجازاةِ عن أعمالِهم الَّتي عملوها في الدُّنيا، أي: تجدونها أمامَكم، والجملةُ الكريمةُ فيها إيماءٌ لهم بأنَّ بابَ التَّوبة لا يزال مفتوحًا لتداركِ الأمر، والرُّجوعِ إلى اللّٰهِ تعالى، والتَّرغيبِ لهم بعمل الصّالحات، والتَّرهيبِ من بقائِهم على حالهم[1] وهذه الجملةُ تفيدُ أمورًا ثلاثة: أوَّلها: أنَّه لا يصحُّ أن تشغلوا أنفسَكم بما استدبرۡتُم من أمورٍ، بل اشغلوها بما تستقبلونَ من أمورِكم، ثانيها: التَّهديدُ بأنَّ اللّٰهَ تعالى ورسوله يعلمانِ أمورَكم في المستقبل علمًا مؤكَّدًا، لا مناصَ من أن تتخلَّصوا من تبعاتِهِ، وإنَّ اللّٰه تعالى سيحبطُ أعمالَكم، ثالثها: إذا أردۡتُم أن يدخلَ الخيرَ في قلوبِكم؛ فتوبوا عمَّا أنتم عليهِ".

تهديد المنافقين بسوء المصير، أمام العليم القدير

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾، على سبيل المجاز:

عبَّرَ بالمضارعِ؛ لأنَّ الإنباءَ في هذهِ الحالِ، ليسَ بالأقوالِ، ولكن بالرُّؤيةِ والأفعالِ، فهوَ على سبيلِ المجازِ، يرونَ أعمالَهم في نطقِ أيديهم وأرجلِهم بما كانوا يفعلونَ، وتشهدُ عليهم ألسنتُهم وجوارحُهم على ما يعملونَ؛ لذا عبَّر عن ذلكَ بالفعلِ المضارعِ الَّذي يفيدُ تجدُّدَ الإنباءِ بأعمالهِم، ويدلُّ هذا التَّعبيرُ على أنَّ النَّاسَ يعلمونَ ما فعلوا، ويرون جزاءَ ما عملوا حاضرًا مهيَّأً يستقبلُهم، ويستقبلونَهُ[2].

سيرى النَّاسُ في الآخرة، جزاء ما عملوا حاضرًا، بِقَضِّه وقَضِيضِه

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (الباء):

آثرَ التَّعبيرَ بالباءِ في قولِهِ: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ لأنَّها تدلُّ على أكثرَ من معنًى: الأوَّلُ: الإلصاقُ، والمرادُ بالتَّنبئةِ المبالغةُ في كونِ السُّورةِ مُشتملةً على أسرارِهم، كأنَّها تعلم من أحوالِهِم الباطنةِ

حرف الإلصاقِ في السِّياقِ، دليل على أهميّة حروف المعاني

(1) الدّيلميّ، الأساليب البلاغيّة في سورتي الأنفال والتّوبة، ص: 212.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3417 - 3418.

ما لا يعلمونهُ، فتُنبِّئُهم بها، وتنعى عليهم قبائحَهم[1]. الثّاني: أنَّ (الباء) بمعنى (عن)، والرّاجحُ بقاؤها على أصلِها، فهو أَولَى من القولِ بالتّناوبِ، كما أنَّ بقاءها على الأصلِ يُشعرُ بأنَّ هذا الإخبارَ، وهذه الفضيحةَ ستتعدَّى ما كان صادرًا عنهم مِن نفاقٍ، لتصلَ إلى ما دقَّ في قلوبِهم من كُفرٍ وعداوةٍ أخفوها هي أعظمُ من الَّتي ظهرت منهم، وفي ذلك مزيدُ تخويفٍ لهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ(ما) في: ﴿بِمَا﴾:

من استمر على الضّلالة في الأعمال، انتهى إلى سوء المآل

(ما) في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ موصولةٌ، أي: بما تعملونَهُ على الاستمرارِ في الدُّنيا من الأعمالِ السَّيِّئةِ السّابقةِ واللّاحقةِ، أو بعملِكم المستمرِّ؛ على أنَّ (ما) مصدريَّة[2].

نكتةُ ورود ﴿كُنتُمۡ﴾، دالة على الزّمن الماضي:

دلالةُ اللّفظ على الماضي، لا يمنعُ دلالتَه على الحاضرِ والمستقبلِ

(كان) هنا تدلُّ على اقترانِ مضمونِ الجملةِ بالزَّمنِ الماضي، والمنافقون متَّصفونَ بهذا الوصفِ ماضيًا وحالًا ومستقبلًا، وتقييدُ الفعلِ بالزَّمنِ لا يدلُّ على نفيهِ عن غيرِ ذلك الزَّمنِ.

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ، في ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

تجدُّدُ أعمالِ المنافقين، دليل على وجود ظاهرة النّفاق، في كلّ زمان

دلَّ التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ (تعملون) على تجدُّدِ أعمالِهم المنافقةِ من الزَّمنِ الماضي، فهي تجري فيهم مجرى العادةِ؛ ولذلك أمرَ اللهُ تعالى بعدمِ قَبولِ اعتذارِهم وتوبتِهم.

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيّ، بين آيتي سورة التّوبة:

ورود وجوه الاختلاف بين الآيتين، دليل على دقة السّياق القرآنيّ في التّصوير

عند تأمّلِ قوله تعالى: ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/79.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/94، والبروسويّ، روح البيان: 3/487، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/5.

﴿تَعۡمَلُونَ﴾ [التّوبة: 94]. مع قولهِ تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [التوبة: 105]، النّاظرُ في هاتينِ الآيتينِ يجدُ بينهما تشابهًا في بعضِ المواطنِ واختلافًا في البعضِ الآخرِ، فمن ذلك أنَّ الآيةَ الأولى جاء فيها قولُهُ: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾ بواو العطفِ، ولم يرد فيها ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾، وقالَ فيها: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾.

أمّا الآيةُ الثّانيةُ؛ فجاءَ قولهُ: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾ بالفاء، وجاءَ فيها ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾، وقولهُ: ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾، وبذلكَ اختلفتِ الآيتانِ، فما سرُّ هذا الاختلافِ؟

النّاظرُ في سياقِ الآيتينِ يجد جوابًا على ذلكَ، فالآيةُ الأولى في المنافقين، وهم الَّذين يُبطنون الكفرَ، ويُظهرونَ الإيمانَ، والآيةُ الثّانيةُ في المؤمنينَ وطاعاتِهم.

وأمّا عن سببِ عدمِ ذكرِ ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾ في الآيةِ الأولى، وذكرِها في الثّانية؛ لأنَّ الآيةَ الأولى تتعلَّقُ بأحوالِ المنافقينَ، والمؤمنونَ لا يعلمون بأحوالهم إلّا بإعلامِ رسولِ اللّه ﷺ لهم، يؤكِّد هذا ما ذكرهُ الكرمانيُّ في الآيتينِ، فقالَ: إنَّ "الآيةَ الأُولى في المنافقين ولا يطَّلع على ما في ضمائرِهم إلّا اللّهُ تعالى، ثمَّ رسولُهُ بإطّلاعِ اللّهِ إيّاهُ عليها؛ لقولهِ: ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾ [التوبة: 94]"(1).

وممّا يُذكرُ في هذا المقامِ أنَّ اللّهَ ﷻ لم يذكر ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾ ليعطي مساحةً للمنافقين في العودةِ إلى صفوفِ المسلمينَ، وذلك بقصرِ معرفةِ الإنباءِ على اللّهِ وعلى رسولهِ حتَّى لا يصابَ المجتمعُ بالعداوةِ والبغضاءِ؛ إذا ما انكشفَ أمرُهم للمؤمنينَ مباشرةً. والثانية: في المؤمنينَ وطاعاتِ المؤمنين، وعاداتُهم ظاهرةٌ للّهِ ولرسولهِ وللمؤمنين، يؤكِّدُ ذلك ما جاءَ في درَّةِ التَّنزيلِ أنَّ الآيةَ الثّانية: "فيمن أمرَ اللّهُ تعالى نبيَّه ﷺ وهم الَّذين أَوجَب عليهم الصَّدقاتِ بأن يقولَ لهم: اعملوا ما أمرَكُم اللّهُ بِهِ من الطّاعات كالصَّلوات والصَّدقات فإنَّ اللّهَ ورسولَهُ والمؤمنين يرون ذلك، وهذه الأعمالُ ممّا تُرى بالعَين خِلافَ أعمالِ المنافقين الَّتي تقتضي لهم النِّفاق لإضمارهِم خلافَ إظهارِهم، وهو ممّا لا يُرى بالعَين،

(1) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 138.

وإنَّما يعلمه عالمُ الغيبِ؛ فلذلك لم يُذكر ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ في الأولى، وذُكروا في الثّانية"(1).

سرّ استعمال ﴿ثُمَّ﴾ في الآيةِ الأولى، بخلافِ الثّانيةِ:

وأمّا عن ورودِ ﴿ثُمَّ﴾ في الآيةِ الأولى، بخلافِ الآيةِ الثّانيةِ في قوله: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [التّوبة: 105]، ؛ فجاءَ بالواوِ في قولِه: ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾، وذلكَ لأنَّ الآيةَ الأولى في شأنِ المنافقين الَّذين يبطنونَ خلافَ ما يظهرونَ، فكانَ حرفُ ﴿ثُمَّ﴾ الَّذي يفيدُ معنى التَّراخي هو المناسبُ لهذا السِّياقِ، ولم تكنِ الواو لتعطيَ هذا المعنى في هذا السِّياقِ؛ لأنَّ الآيةَ الثّانية في سياقِ الحديث عن المؤمنينَ، فهو من بابِ الوعدِ، لذلك أتى بالواوِ والسِّين المُؤْذنَيْنِ بقُربِ الجزاءِ والثَّوابِ وبُعدِ العقابِ، أمّا المنافقون؛ فيؤخَّرُ جزاؤهم إلى موتِهم، فناسبَ ﴿ثُمَّ﴾ المؤذنة بالتَّراخي.

سرّ استعمال (الواو) في لفظ ﴿وَسَيَرَى﴾:

وأمّا عن ذكرِ الواو في قولِه: ﴿وَسَيَرَى﴾ بخلافِ الآية الثّانية، فجاءتْ بالفاءِ؛ لأنَّ الآيةَ الأولى في سياقِ التَّهديدِ للمنافقين حيثُ جاءت بعد قولِه: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْۚ﴾ أي: أطلعنا اللّهُ على نفاقِكم وسوءِ سرائرِكم، ثمَّ قال: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾، فهذا تهديدٌ عُطِفَ على مثْلِه، وقُصِدَ تعريفُهم بالمجموعِ ممّا استوجبوا به المقتَ، فلم يعطفْ بالفاءِ؛ إذ ليس ما تعطيهِ من المعنى مقصودًا هنا(2).

❁ الفروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرَّدُّ والرّجوعُ:

الرَّدُّ؛ الإعادة، مع كراهةٍ للمعاد، والرَّجعُ الإعادة مطلقًا بدون قيدٍ

الرَّجعُ في اللُّغةِ: ردُّ الشَّيءِ إلى أوَّلِ حالِه، والرَّدُّ: صرفُ الشَّيءِ عن وجهِه، ولمّا كانا كذلك تضمَّن الرَّجعُ الإعادةَ مطلقًا بدون قيدٍ،

(1) الاسكافيّ، دُرَّة التّنزيل: 2/726.

(2) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/234.

أمّا الرَّدُّ؛ فقد تضمَّن الإعادة، لكن على كراهةٍ له، لما فيه من معنى الصَّرف والتَّغيير، ويجوز لك أن ترجعَ الشَّيءَ من غير كراهةٍ له، قال تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ﴾ [التّوبة: 83]، ولذلك سمِّي الرجوعُ عن الإسلامِ إلى الكفرِ ردَّةً وارتدادًا لما فيه من الكراهةِ، فضلًا عن التَّحريم، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [البقرة: 217]، ومن الملاحظِ أنَّك لا تجدُ موضعًا في القرآنِ يُذكرُ فيه الرَّدُّ في الغالب إلّا مقترنًا بمكروهٍ، كالرَّدِّ إلى أشدِّ العذابِ، أو الرَّدِّ إلى الحساب، والآياتُ في ذلك ظاهرةٌ[1].

وقد آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالرُّجوعِ دونَ الرَّدِّ في قوله: ﴿إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾؛ لوجودِ فرقٍ بينهما في الاستعمالِ، فالرُّجوعُ: العودُ إلى ما كانَ منهُ البدءُ مكانًا كان أو فعلًا أو قولًا، أمّا الرَّدُّ: فهو صرفُ الشَّيءِ بذاتِهِ أو بحالةٍ من أحوالِهِ، وعلى هذا، فالرُّجوعُ هو المناسبُ هنا لسياقِ الآية؛ لأنَّهُ يشير إلى العودِ إلى المكانِ الَّذي خرجوا منهُ، وهو المدينةُ المنوَّرةُ، وهم فرحونَ بعودتهم سالمين، بخلافِ الرَّدِّ؛ فيفترقُ عن الرُّجوعِ بأنَّهُ وإن اشتركَ معهُ في العودِ، إلّا أنَّ الرَّدَّ يكونُ فيهِ كراهةٌ وشدَّةٌ، يؤكِّدُ ذلك استعمالُ القرآنِ الكريم لِلَّفظِ (الرد) في هذا السِّياقِ، قالَ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ﴾ [البقرة: 85].

وممَّا يؤكِّد الفرقَ بين الرَّدِّ والرُّجوع استعمالُ اللَّفظين في قصَّة موسى عليه السلام ففي سورة طه، قالَ تعالى: ﴿فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ﴾ [طه: 40]، وفي سورةِ القصصِ، قال تعالى: ﴿فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ﴾ [القصص: 13]، فالملاحظُ أنَّ القرآنَ استعملَ الرُّجوع في سورةِ طه؛ لأنَّ السِّياقَ في السُّورةِ ثناءٌ على نبيِّ اللّهِ موسى بدليلِ قولِه تعالى: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي﴾ [طه: 39]، بخلافِ سورةِ القصصِ، فالسِّياقُ فيها يتحدَّث عن الخوفِ على نبيِّ اللّه موسى من بطشِ فرعونَ، فكانَ التَّعبيرُ بلفظ ﴿فَرَدَدۡنَٰهُ﴾ [القصص: 13] مشعرًا بحالةِ القلقِ والخوفِ الَّذي تعيشهُ أمُّ موسى، فناسبَ ذلك التَّعبير بلفظ الرَّدِّ دونَ الرُّجوعِ.

العملُ والفعلُ:

النَّاظرُ في بعضِ كتبِ اللُّغةِ يجدُ فرقًا بينَ الفعلِ والعملِ: فالفعلُ: هو التَّأثيرُ في الشَّيءِ

(1) الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ، ص: 169.

من جهة مؤثِّرٍ، وأمَّا العملُ إيجادُ الأثرِ في الشَّيء، يُقالُ: فلانٌ يعملُ الطِّينَ خزفًا، ولا يُقالُ: يفعلُ ذلك؛ لأنَّ فِعْلَ ذلك الشَّيءِ هو إيجادُهُ على ما ذكرْنا، أي: إنَّ الفعلَ عِبارةٌ عمّا وجد في حالٍ كانَ قبلَها مقدورًا سواءٌ كان عن سببٍ أو لا[1].

العملُ إيجادُ الأثرِ في الشَّيء، والفعلُ هو التَّأثيرُ في الشَّيءِ من جهة مؤثِّرٍ

أمَّا في آياتِ القرآنِ الكريمِ؛ فالأمرُ ظاهرٌ وجليٌّ، فلفظُ الفعلِ إذا وردَ في سياقِ الحديثِ عن القدرةِ الإلهيَّة؛ دلَّ على الوعيد الشَّديد، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر: 6]، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل: 1]، فالملاحظُ استعمالُ الفعلِ في الإهلاك لقوم عادٍ ولأصحابِ الفيل من غير بطءٍ، هذا في جانبِ المولى ﷻ، أمّا إذا وردَ في جانب البشرِ؛ فمعناهُ يختلف؛ لأنَّه يصدرُ في الغالب من غيرِ قصدٍ، أمّا العملُ؛ فإنَّه يكون بقصدٍ، يؤكِّد ذلك ما وردَ في آياتِ القرآنِ الكريم من ارتباطِ التَّكليفِ بالعمل، قال تعالى: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 25].

وممَّا يذكرُ في الفرقِ بينهما: أنَّ دلالةَ العملِ تأتي لما فيه امتدادٌ من الزَّمن وإبطاء، قال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ [سبأ: 13][2].

وقد آثرَ التَّعبيرَ بالفعلِ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ لما يحملُهُ من إثباتِ القصدِ للمنافقينَ في زعزعةِ صفوف المسلمينَ وتثبيطِ هممهم فضلًا عن ذلك، ففي الآيةِ ردُّ العجزِ على الصَّدرِ، حيثُ وافقت كلمة (تعملون)، وهي آخرُ كلمةٍ من الكلام، كلمة (عملكم) في صدرهِ؛ للتَّأكيدِ على أنَّ اللّهَ تعالى مطَّلعٌ على أعمالِهم وما تخفي صدورُهُم.

النَّبأُ والخبرُ:

النَّبأُ الخبرُ الَّذي له شأنٌ عظيمٌ، ولم يعرف من قبل، والخبر لا يشترط فيه ذلك

النَّبأُ: الخبرُ الَّذي له شأنٌ عظيمٌ، ومنه اشتقاقُ النُّبوَّةِ؛ لأنَّ النَّبيَّ مخبرٌ عنِ اللّهِ تعالى، ويدلُّ عليه قولهُ تعالى: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ

(1) أبو هلال العسكريّ، الفروق، ص: 134.
(2) الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ، ص: 167.

﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ﴾ [القصص: 2]. وقال الرّاغب: النَّبأ خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يحصلُ به علمٌ أو غلبةُ ظنٍّ، ولا يُقال للخبرِ: نبأٌ؛ حتَّى يتضمَّن هذه الأشياء، وحقُّ الخبرِ الّذي يقال فيه: نَبأٌ؛ أن يتعرَّى عن الكذب، كالتَّواتر، وخبرِ اللّه تعالى، وخبرِ النَّبيِّ ﷺ ولتضمُّن النَّبَأ معنى الخبر، يقال: أَنۡبَأۡتُه بكذا، كقولك: أخبرتُهُ بكذا، ولتضمُّنِهِ معنى العلم قيلَ: أَنۡبَأۡتُهُ كذا، كقولكَ: أعلمتُهُ كذا، قال اللّه تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ٦٧ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ﴾ [ص: 67 - 68](1).

ومن خلالِ ما سبقَ ذكرهُ يظهر وجودُ فرقٍ بين النَّبأِ والخبرِ، وأنَّه لا ترادفَ بينهما، ويؤكِّد ذلك أنَّ القرآن الكريم عند ما يذكرُ أحوالَ الأمم الماضية، يأتي بلفظ النَّبأ دونَ لفظِ الخبر، قال تعالى: ﴿۞وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ﴾ [يونس: 71]، ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الشعراء: 69] إلى غير ذلك من الآيات.

وممّا يؤكِّد الفرقَ بين النَّبأ والخبرِ: حديثُ القرآن عن يوم القيامة، والجزاء والحساب، وهذا أمرٌ لا يعلمه إلّا اللّهُ وله عظمتهُ وأهميَّته، قال تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: 105] إلى غيرِ ذلك من الآيات.

وممَّا يؤكِّد الفرقَ أيضًا أنَّ القرآنَ خالفَ بين اللَّفظين في آيةٍ واحدةٍ، قال تعالى: ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾.

وآثرَ النَّظمُ الكريمُ ﴿نَبَّأَنَا﴾ على (أخبرَنا) لوجودِ فرقٍ بينهما، فالنَّبأ يطلق على خبرٍ ذي فائدةٍ عظيمةٍ، يحصل به علمٌ أو غلبة ظنٍّ، ولا يقال للخبرِ في الأصلِ: نبأٌ؛ حتَّى يتضمَّن هذه الأشياءَ الثَّلاثة(2). وعلى هذا يكونُ اصطفاءُ التَّعبيرِ هنا بالنَّبأِ، في قوله: ﴿نَبَّأَنَا﴾ يحمل فائدةً عظيمةً للمؤمنين بإخبارِهم بما في قلوب المنافقينَ.

وممّا يؤكِّدُ الفرقَ بينَ النَّبأ والخبرِ ورودُهما في هذه الآيةِ الَّتي معنا ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾ حيثُ وصفَ إعلامَ اللّهِ تعالى لعبادهِ بالإنباءِ الدَّالِّ على أهمِّيَّة النَّبأِ وعدم اطِّلاع المؤمنينَ عليهِ قبلَ ذلك، بينما وصفَ أحوالَ المنافقينَ بالأخبارِ؛ لأنَّها انكشفتْ،

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 529، والرّاغب، المفردات، ص: 789.
(2) الرّاغب، المفردات: (نبأ).

وصارت معلومةً للرَّسول ﷺ وللمؤمنين، فاعتذارهم لم يكنْ مفاجأةً، بل كان معروفًا؛ لذلك كان لفظُ الخبرِ في قوله: ﴿مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾ هو الأوفقُ في هذا السِّياقِ.

وقد آثرَ التعبيرَ بقولهِ: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ دونَ يخبركُم؛ لأنَّ الإنباءَ لا يكونُ إلّا للإخبار بما لا يعلمه المُخْبَر، بخلاف الخبرِ؛ فقد يكونُ بما يعلمُهُ وما لا يعلمُهُ، وهذا المعنى يتوافقُ مع سياقِ آياتِ القرآنِ الكريم، ولا سيَّما في معرضِ الحديثِ عن يوم القيامة، وما يقعُ فيه من جزاءٍ وحسابٍ، يؤكِّد ذلك قولهُ تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: 13] والآياتُ في هذا السِّياق كثيرةٌ.

وأيضًا لأنَّ الإنباءَ معناهُ: الإخبارُ والإعلامُ عن الشَّيءِ قبل وقتِ ظهورهِ، والمرادُ بالتَّنبئةِ بذلك المجازاةُ، وإيثارُها عليها لمراعاةِ المجانسةِ ممّا سبقَ من قولِه تعالى: ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾، فإنَّ المنبَّأَ بهِ الأخبارُ المتعلِّقةُ بأعمالهم، وللإيذانِ بأنَّهم ما كانوا عالمينَ في الدُّنيا بحقيقةِ أعمالِهم، وإنَّما يعلمونها يومئذٍ.

﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٥ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٩٦﴾ [التّوبة: 95 - 96]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِمَا قَبْلَهما:

الرّبط بين أحوال المعتذرين، الّذين يحلفون، تطلّبا لرضا العباد، رغم سخط الخالق

لَمَّا حكى اللّهُ تعالى حالَ المنافقينَ في الآيةِ الأولى أنَّهم يعتَذِرون؛ ذكَرَ في هذه الآيةِ أنَّهم كانوا يؤكِّدونَ تلك الأعذارَ بالأيمانِ الكاذبةِ، فقال تعالى: ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ﴾.

ومن المناسبةِ أيضًا بين الآيتينِ أنَّه لَمّا بيَّنَ اللّهُ تعالى في الآيةِ السّابقةِ أنَّهم يحلِفونَ باللّه؛ لِيُعرِضَ المسلِمونَ عن إيذائِهم؛ بَيَّنَ هنا أنَّهم يحلِفونَ لِيَرضى المسلِمونَ عنهم، ثمَّ إنَّه تعالى نهى المُسلِمينَ عن أن يَرضَوا عنهم، فقال: ﴿يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَيَحۡلِفُونَ﴾: الحَلِفُ، ويُقال: الحَلْفُ، والحِلْفُ: العهدُ بين القومِ، والمحالفةُ: المعاهدة، والحَلِفُ: أصلهُ اليمينُ الَّذي يأخذُ بعضُهم من بعضٍ بها العهدَ، ثمَّ عُبِّرَ بِهِ عن كلِّ يمينٍ، وأصلُه: المُلازَمَةُ، وذلك أنَّ الإنسانَ يَلْزَمُهُ الثَّباتُ على اليَمينِ، والحَلفُ أيضًا من قولِكَ: سَيْفٌ حَلِيفٌ، أيْ: قاطِعٌ ماضٍ، فإذا قُلْتَ: حَلِفَ باللّه، فكأنَّك قُلْتَ: قَطَعَ المُخاصَمَةَ باللّه تعالى، وقيل: أَصْلُهُ: العَقْدُ بالعَزْمِ والنِّيَّةِ، وسُمِّيَ الحَلفُ يَمينًا؛ لأنَّهم كانوا إذا تَحالَفوا؛ ضَرَبَ كلُّ واحدٍ منهم يَمِينَهُ على يَمينِ صاحبِهِ[2].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/124.
(2) الرّاغب، المفردات، وابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر، والزَّبيديّ، تاج العروس: (رجس).

2) ﴿ٱنقَلَبۡتُمۡ﴾: من الانقلاب: وهو الرُّجوعُ لا إلى ما كانَ عليه من قبلُ، ولكن لحالةٍ مُختلفة لا تُشابهُ الحالةَ الأُولى، أيْ: ما قبلَ الحدَثِ[1].

3) ﴿رِجۡسٌۖ﴾: الرِّجْسُ: الشَّيءُ القَذِرُ، "والرِّجس يكونُ على أربعةِ أوجهٍ: إمّا من حيثُ الطَّبعُ وإمَّا من جهةِ العقلِ، وإمّا من جهةِ الشَّرعِ، وإمّا من كلِّ ذلك، كالميتةِ، فإنَّها تُعافُ طبعًا وعقلًا وشرعًا"[2]. وَقَدْ يُعَبَّرُ بِهِ عَنِ الْحَرامِ والفعلِ الْقَبِيحِ، والْعَذابِ، واللَّعنة، والْكُفْرِ والشرك، ويعني هنا: النَّجاسةَ المعنويَّةَ، أو هم نجسٌ، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: 28][3].

4) ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ﴾: المأوى: مصدرُ أوى، يأوي أويًا، ومأوًى، تقول: أوى إلى كذا: انضمَّ إليه، وهو اسمٌ للمكانِ الَّذي يأوي إليه؛ لذلك يطلقُ على المُستَقَرِّ المريحِ والآمن الَّذي يصلُ إليه بعد جهدٍ وسعي.

5) ﴿لِتَرۡضَوۡاْ﴾: الرِّضا: القَبُولُ والمُوافَقَةُ، يُقال: رَضِيَ بالبَيْعِ، يَرْضَى، رِضًا ورِضْوانًا، أيْ: قَبِلَ ووافَقَ، ويأتي بمعنى الاِخْتيارِ والاِنْتِقاءِ، يُقال: رَضِيَ بهذا الطَّريقِ، أي: اخْتارَهُ، ومِن مَعانيه: سُرورُ القَلْبِ وطِيبُ النَّفْسِ، وخِلافُه: السُّخْطُ والكَراهِيَةُ[4].

6) ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾: الفِسْقُ: العِصيانُ والخُرُوجُ عن الطَّاعَةِ، يُقال: فَسَقَ الرَّجُلُ، يَفْسُقُ، فِسْقًا، أيْ: عَصى وأذْنَبَ، وأَصْلُ الفِسْقِ: خُرُوجُ الشَّيْءِ مِن الشَّيْءِ على وَجْهِ الفَسادِ، ومنه قَوْلُهُم: فَسَقَ الرُّطَبُ، أيْ: خَرَجَ عن قِشْرِهِ، والفَواسِقُ: الحَيَواناتُ التي مِن طَبْعِها الإفْسادُ[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيَّنتِ الآياتِ أنَّ المنافقينَ كذَّابون - كما هو معلومٌ - لذلك تراهُم يؤكِّدون اعتذارَهم بالأيمانِ للمؤمنين، فأخبرَهم اللّهُ تعالى بأنَّهم سيَحلِفونَ لكم باللّهِ؛ إذا رجَعْتُم إليهم من غزوةِ تَبوكَ: إنَّهم لم يستَطيعوا الخروجَ معكم؛ لكي تُعرِضوا عنهم، فلا توبِّخوهم

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 113، وابن جرير، جامع البيان: 11/629، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).
(2) وأمثلةُ ذلك مذكورةٌ في المفرداتِ للرّاغب لمن أراد المزيدَ: (رجس).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (حلف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهري، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (رضي).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (فسق).

على قعودِهم ولا تعاتبوهم، فأعْرِضوا عنهم؛ احتقارًا وإهانةً لهم، لا إعراضَ صفحٍ وإعذارٍ؛ لأنَّهم نَجَسٌ وقَذَرٌ، ومَصيرُهم في الآخرةِ نارُ جهنَّمَ؛ بسببِ ما كسَبوا. وفي الآيةِ الثانيةِ بيَّنَ أنَّهم لجهلهم بحقيقةِ أنفسِهم وما عملوا، ولعدمِ إدراكِهم الأمورَ على وجهِها الصَّحيحِ؛ لم يقنعوا بالإعراضِ عنهم، بل يحلفون لكم أغلظَ الأيمانِ لترضوا عنهم، وتعاملوهم كما كنتُم أوَّلًا، وهؤلاء لا يبحثونَ عن رضا اللهِ ورسولِه، بل عن مصلحتِهم ومنافعِهم، وإذا كان هذا شأنَهم[1]، فإن تَرضَوا عنهم، فلا ينفعُهم رضاكم، ولا ينبغي أن يكونَ منكم رضًا عنهم؛ لأنَّ اللّهَ لا يَرضى عن القومِ الفاسقينَ.

مهما حلف المنافقون لإرضاء العباد، فإنّ الله يعلم حقيقتهم، ولا يرضى عنهم

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

بيانُ دلالةِ الفصلِ في: ﴿سَيَحۡلِفُونَ﴾:

فُصلَ قولُه: ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية؛ لأنَّها جُملةٌ مُستأنَفةٌ ابتدائيَّةٌ، لتَعْدادِ قبائِحهم ومثالبِهم الَّتي سبق ذكرُ بعضِها في الآيةِ السَّابقة، فجاءت هذه الآيةُ لاستكمالِ هذه المثالب والقبائح، ومَعناها ناشئٌ عن مضمونِ جُملةِ ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾؛ تنبيهًا على أنَّهم لا يَرْعَوُون عَن الكذبِ، ومُخادَعةِ المسلِمين[2].

تعدادُ بعضِ قبائحِ المنافقين، للتّنبيه إلى خطورتهم ومفاسدهم

دلالةُ السِّين، في قولِه: ﴿سَيَحۡلِفُونَ﴾:

فدخولُ السِّينِ على الفعلِ المضارعِ (يحلفون) الغرضُ منه تحقُّقُ الفعلِ في المستقبلِ القريبِ، وهو لمجرَّدِ التَّأكيد، إذ إنَّ الحديثَ إخبارٌ من اللهِ بما سيحدُثُ في المستقبلِ، فقد سبقَ عِلْمُهُ تعالى بما سيقولُهُ المنافقون؛ ليتعلَّلوا به عن تخلُّفِهم عن غزوة تبوك، فَهُم سيحلفونَ لتستديمَ معاملتُهم بظاهرِ إسلامِهم، وبذلك يخرجونَ من ضيقِ نفاقِهم إلى سعةِ رضا المؤمنين؛ لأنَّ السِّينَ حرفُ تنفيسٍ

تحقّق الفعل عند الحلف بصيغة المستقبل، من الإعجاز الغيبيّ في السّياق

(1) حجازي، التّفسير الواضح: 2/5.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/7.

وتوسيعٍ، وذلك أنَّها تنقلُ المضارعَ من زمنِ الضِّيق - وهو الحالُ - إلى الزَّمن الواسعِ وهو الاستقبالُ، فهي لتخليصِ المضارعِ من الحالِ إلى الاستقبالِ.

سرُّ اختيارِهم للحلفِ في: ﴿سَيَحۡلِفُونَ﴾:

آثروا الحلفَ على غيرِه في قولِه تعالى: ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ الهدفَ عندَهم عدمُ فقدانِ الثِّقة في أنفسِهم وفي بضاعتهم الَّتي يروِّجونَ لها، وأيضًا لكي يُعرِضَ النَّبيُّ ﷺ والمؤمنون عنهم.

أهلُ النِّفاقِ يحرصونَ على الحلفِ، لتبرئةِ ساحتِهم، لاستخفافهم بالعقاب

سرُّ تقييدِ حلفِهم بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾:

قوله: ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾، محاولةُ إقناعِ المؤمنينَ بصدقِهم فيما يقولونَ، ولرفعِ صفة الكذبِ عنهم، وليس لرفعِ ما خاطبهم النَّبيُّ ﷺ به من قوله: ﴿لَّا تَعۡتَذِرُواْ﴾، بل هو أمرٌ مبتدأٌ لتحسين صورتِهم أمامَ المؤمنين.

الخداعُ بالحلفِ بالاسمِ الأعظمِ (الله)، لا يرفعُ الكذبَ

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في: ﴿سَيَحۡلِفُونَ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بالفعل المضارعِ في قولِه: ﴿سَيَحۡلِفُونَ﴾؛ لإبراز الحالةِ النَّفسيَّةِ عند المنافقين من جبنِهم وضعفِهم، كلَّما وجِّهت إليهم تهمةٌ؛ لا يجدون وسيلةً لدفعها عنهم إلَّا بالحلفِ الكاذبِ، ومن المعلوم أنَّ المواقفَ الَّتي دارت بين المسلمين والمنافقين كثيرةٌ، فكلَّما وجِّهت لهم تهمةٌ؛ جدَّدوا الحلفَ لتبرئةِ ساحتِهم.

أهلُ النِّفاقِ كثيرو الحلفِ بالكذبِ، لعدمِ علمِهم بمغبّةِ ذلك، وسوءِ عقباه

سرُّ حذفِ المحلوفِ عليه:

حُذِفَ المحلوفُ عليه في قولِه: ﴿سَيَحۡلِفُونَ﴾؛ لتقدُّمِ نظيرِه في قوله: ﴿وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ﴾ [التوبة: 42] إلَّا أنَّ ما تقدَّم في حلفِهم قبل الخروجِ، وكذلك لكون الكلامِ يدلُّ عليه، وهو ما اعتذروا بهِ من الأكاذيبِ الباطلةِ، والمرادُ يحلفونَ باللّهِ لكم

حُذِفَ المحلوفُ عليه، لتقدُّمِ مثيلِه، وهو من بليغ البيان

أنَّهم ما قدروا على الخروج، أو ما أشبهَ هذا[1]، والجملةُ بدلٌ من ﴿يَعۡتَذِرُونَ﴾ أو بيانٌ له[2] وإنَّما إلماعٌ إلى أنَّهُ عذرٌ لم يكن لهُ في الواقعِ أدنى نصيبٍ، فلم يكن جديرًا بذكرِهِ دلالةً على انتفائِهِ من الواقع.

دلالةُ الباءِ، في قولِه: ﴿بِٱللَّهِ﴾:

القسَمُ من المؤكِّدات الَّتي تمكِّن الشَّيءَ في النَّفسِ وتقوِّيه

آثرَ التَّعبيرَ بـ (الباء) دونَ غيرِها؛ لأنَّها للقسَم، وهي أصلُ حروفِهِ، ومردُّها للإلصاقِ، وذلك من بابِ إلصاقِ القسَمِ بالمقسَم به، قال الرّازيُّ: وأمّا باء القسَم، وهو قولُهُ: (باللّه) فهو من جنس باءِ الإلصاقِ، وقالَ الزَّمخشريُّ: (باللهِ) مُتعلِّقٌ بـ (سيحلفون) أو من جملةِ كلامِهم، والقولُ مرادٌ في الوجهين، أي: سيحلفون عند رجوعِكَ معتذرين، أو سيحلفونَ باللّهِ، ويقولون: لو استطعنا[3].

دلالةُ التَّعبيرِ باللّامِ في: ﴿لَكُمۡ﴾:

المنافقُ لا يقصدُ غيرَ المصلحةِ العاجلةِ من البشرِ

آثرَ التَّعبيرَ باللَّامِ في قولِه: ﴿لَكُمۡ﴾؛ لأنَّها تفيدُ الاختصاصَ، وهو أصلُ معانيها، وقد تصحبهُ معانٍ أخرى، والمعنى: أنَّ المنافقينَ سيحلفونَ لرسولِ اللّه وصحابته الكرام باللّهِ تعالى دونَ غيرِهم كذبًا وبهتانًا لتسويغِ نفاقِهم، وفي هذا الاختصاصِ تنبيهٌ وتحذيرٌ للمؤمنين من كذبِهم وحيلِهم.

كما أنَّ فيهِ كشفًا لغرضِهم من الحلفِ فمقصودُهم المصلحةُ وهو رضا المسلمين عنهم أو إعراضهم عنهم لتمضي مصالحهم على ما كانت عليهِ من قبلُ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِذَا﴾:

الإشارة إلى تحقُّقِ رجوعِ الرَّسولِ الأكرمِ والمؤمنينَ إلى المدينةِ

قولِه: ﴿إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ﴾، وفيه آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿إِذَا﴾ دونَ (إن)؛ لأنَّ الأصلَ في (إذا) أن تستعملَ في الأمرِ المقطوعِ بحصولِه، وللكثيرِ

---

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 11/7، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/375، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/9.

(2) الآلوسيّ، روح المَعاني: 5/6.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/273، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 1/96.

الوقوع، بخلافِ (إن) الَّتي تفيدُ قلَّةَ الوقوعِ أو نُدْرَتَه، والمقامُ هنا يناسبهُ التَّعبيرُ بـ ﴿إِذَا﴾ الَّتي تفيدُ تحقُّقَ عودةِ الرَّسول ﷺ والمؤمنين إلى المدينة سالمين غانمين، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ حَلِفَ المنافقين للمؤمنين أمرٌ مقطوعٌ بحصولهِ ومتحقِّقٌ لا محالة، وقد حلفوا.

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي: ﴿ٱنقَلَبْتُمْ﴾:

بشارةُ المؤمنين بالعودةِ سالمين غانمين

عبَّرَ بالفعلِ الماضي ﴿ٱنقَلَبْتُمْ﴾ الَّذي يدلِّل على تحقُّق الوقوعِ للبشارةِ للمؤمنين بأنَّهم سيعودون إلى المدينةِ المنوَّرةِ، ويستقرُّون فيها سالمين.

دلالةُ تعدِّي الفعلِ ﴿ٱنقَلَبْتُمْ﴾ بحرفِ الجرِّ (إلى):

رجوعُ المسلمين سالمين غانمين، غيظٌ للمنافقين وحسرة

قولهِ: ﴿ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾، عُدِّي الفعلُ بحرفِ الجرِّ (إلى)؛ لأنَّها تفيدُ انتهاءَ الغايةِ؛ لأنَّ عودةَ الرَّسولِ ﷺ والمسلمين إلى المنافقين غايةٌ في ذاتِها، وفيه إشارةٌ إلى غيظِ المنافقينَ بعودةِ الرَّسول ﷺ والمؤمنين؛ لأنَّهم ما كانوا يحبُّون عودتَهم، بل يتمنَّون أن يقتلَهم الرُّوم، ويستأصلوا شأفَتَهم، فكانَ التَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ (إلى) يعطي معنى: عدْنا إليكم لنكسرَ شوكتَكم، ونضعفَ قوَّتَكم.

سرُّ التَّعبيرِ بالضَّمير ﴿إِلَيْهِمْ﴾:

التَّعبيرُ بالضَّميرِ، تهوينٌ لشأنِ المُعَبَّرِ عنهمْ بِهِ

عبَّرَ بالضَّمير (هم) في قولهِ: ﴿إِلَيْهِمْ﴾ عن المنافقينَ، فلم يقلْ: إذا انقلبتُم إلى المنافقينَ؛ للتَّهوين من شأنهم وإضعافِ الرُّوح المعنويَّةِ عندهم، فانطفأتْ وجاهتُهم، وضعفت قوَّتهم، فلم يعد لهم ظهورٌ بعد هذهِ الغزوةِ. وفيه تلطُّفٌ في التَّعامل معهم، حيثُ لم يلصق بهم وصفُ النِّفاق، لعلَّ بعضَهُم يخرجُ من نفاقهِ، ويعودُ إلى صفوفِ المسلمينَ.

دلالةُ اللَّامِ في قولهِ: ﴿لِتُعْرِضُواْ﴾:

هدفُ المنافقين استدامةُ معاملتِهم بظاهرِ إسلامِهم

اللَّامُ في قولهِ: ﴿لِتُعْرِضُواْ﴾ لامُ التَّعليلِ، والمعنى: أيْ: لتتركوهُم، ولا تعاتبوهم، ولا تؤنِّبوهم، أو توبِّخوهم على ما فعلوا، وفي هذا

إشارةٌ إلى أنَّ الغرضَ من الحلفِ إعراضُ المسلمينَ عنهم، وليس حبًّا في المسلمينَ، فهم لم يقصدوا تطييبَ خواطرِ المسلمينَ، ولكن أرادوا التَّملُّص من مسبَّةِ العتابِ ولذعه، ولذلك قال في الآيتين الأُخريين: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ﴾ [التوبة: 62] ﴿يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ﴾ [التوبة: 96]؛ لأنَّ ذلكَ كانَ قبل الخروج إلى الغزو، فلمّا فاتَ الأمرُ، وعَلِموا أنَّ حلفَهم لم يصدِّقْهُ المسلمونَ؛ صاروا يحلِفون لقصد أن يعرضَ المسلمونَ عنهم[1].

بلاغةُ الجناسِ في ﴿لِتُعۡرِضُواْ﴾ ﴿فَأَعۡرِضُواْ﴾:

إعراضٌ بينَ المسامحةِ والمغاضبةِ، في سياق الآية الكريمة

في الآيةِ الكريمة جناسُ اشتقاقٍ بين ﴿لِتُعۡرِضُواْ﴾ و﴿فَأَعۡرِضُواْ﴾، ففِعْلُ الإعراضِ وردَ مرَّتينِ والمعنى: في كلٍّ منهما مختلفٌ، فيكونُ ذلك من بابِ اتِّفاق اللَّفظ واختلاف المعنى، فالإعراضُ المقصودُ بالفعلِ المضارعِ مسامحةٌ وغفرانٌ، ولكنَّ الإعراضَ الَّذي قُصِدَ بفعلِ الأمرِ مغاضبةٌ وتركٌ وإهمالٌ، أي: إنَّ هؤلاءِ سيحلفون طلبًا للغفران، ولكنَّ اللّهَ يأمرُ المسلمينَ بالإعراضِ عنهم إعراضَ اجتنابٍ ومقتٍ.

سِرُّ تعديةِ الإعراضِ بالحرف (عن)، المتَّصلةِ بضمير (هم):

الإعراضُ ضربٌ من التَّقريع للمنافقين في الآية الكريمة

قوله: ﴿لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ﴾، وفيه عُدِّيَ فعلُ الإعراض بحرف الجرِّ (عن) في الموضعين؛ لأنَّهُ يُفيدُ معنى المجاوزةِ، فقوله: ﴿عَنۡهُمۡۖ﴾ مُتعلِّقٌ بفعلِ الإعراض، ومعنى المجاوزةِ في الآيةِ واضحٌ، وذلك مِن خلال تعديةِ فعل الإعراضِ بحرفِ المجاوزةِ والتَّرك، قال السَّمرقنديُّ: ﴿لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ﴾ يعني: تتجاوزوا، وتصفحوا عنهم[2] وفقَ هواهُم ورغبتهم، يؤكِّد ذلك ما قالَهُ ابنُ عاشور: "أدخل حرفَ (عن) على ضميرِ المنافقين بتقديرِ مضافٍ يدلُّ عليهِ السِّياقُ لظهورِ أنَّهم يريدونَ الإعراضَ عن لومِهم، ففي حذفِ المضافِ تهيئةٌ لتفريع

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/9.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/82.

التَّقريع الواقع بعده بقولِه: فأعرضوا عنهم، أي: فإذا كانوا يرومونَ الإعراضَ عنهم؛ فأعرضوا عنهم تمامًا.

وهذا ضربٌ من التَّقريعِ فيه إطماعٌ للمغضوب عليه الطالبِ؛ بأنَّه أُجيبتْ طُلبتُهُ، حتَّى إذا تأمَّلَ وجدَ ما طمعَ فيهِ قد انقلبَ عكسَ المطلوبِ، فصار يأسًا؛ لأنَّهم أرادوا الإعراضَ عن المعاتبةِ بالإمساكِ عنها واستدامةِ معاملتِهم معاملةَ المسلمين، فإذا بهم يواجَهونَ بالإعراضِ عن مكالمتِهم ومخالطتِهم، وذلك أشدُّ ممّا حلفوا للتَّفادي عنه، فهم من تأكيدِ الشَّيءِ بما يشبهُ ضدَّهُ أو من القولِ بالموجبِ"[1].

دلالةُ (الفاءِ) في: ﴿فَأَعۡرِضُواْ﴾:

الـتَّرتـيـبُ والاسـتـجـابـةُ المـبـاشـرةُ، من بيان الجملة

عبَّر القرآنُ الكريمُ بالفاءِ في قولِه: ﴿فَأَعۡرِضُواْ﴾ دونَ غيرِها؛ لأنَّها تفيدُ التَّرتيبَ والتَّعقيبَ، وهذا هو المناسبُ لطلبِ المنافقينَ في غرضِهم، فكانَ الأمرُ من اللهِ مباشرةً دونَ تأخيرٍ؛ لأنَّهم رجسٌ.

الغرضُ مِنَ الأمرِ في الفعل ﴿فَأَعۡرِضُواْ﴾:

الإعـراضُ عن المـنـافـقـينَ، إعـراضُ تحقيرٍ وإهانةٍ

لـمَّا ذكرَ حَلِفَهُم لأجلِ الإعراضِ، جاء الأمرُ بالإعراضِ نصًّا؛ لأنَّ الإعراضَ من الأمورِ الَّتي تظهرُ للنَّاس، فأعرضوا عنهم إعراضَ الإهانةِ والتَّحقير، لا إعراضَ الصَّفحِ وقبولِ العُذرِ، وفي هذا التَّعبيرِ ما يُسمَّى بـ (القول الموجب) وهو قبولُ ما يبغونَ من الإعراضِ عنهم، ولكن على غير الوجهِ الَّذي يرجونَه منهُ، بل ضدَّهُ[2].

دلالةُ فصلِ جملةِ ﴿إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ﴾:

المنافقونَ سيِّئو النِّيَّاتِ، خبيثُو الطَّوايا

فُصلت هذهِ الجملةُ عمَّا قبلَها للاستئنافِ التَّعليليِّ؛ لأنَّها تعليلٌ للأمرِ بالإعراضِ، ووُقوعُ (إنَّ) للتَّوكيد في أوَّلِ الآيةِ مُؤْذِنٌ بمَعنى التَّعليلِ، فالجُملةُ تَعليلٌ لِتَرْكِ مُعاتبَتِهم، يَعْني: أنَّ المُعاتَبةَ لا تَنفَعُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/9.

(2) الواحديّ، التفسير الوسيط، ص: 118، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/491، ومحمد رشيد رضا، تفسير المنار: 11/5.

فيهم، ولا تُصلحُهم، إنَّما يُعاتَبُ الأديمُ ذو البَشَرةِ[1]، والفرقُ بين المؤمنِ والمنافقِ أنَّ المؤمنَ يُعاتَبُ على زَلَّةٍ تَفرُطُ منه؛ ليُطهِّرَهُ العتابُ بالحملِ على التَّوبةِ والاستغفارِ، وأمّا هؤلاءِ؛ فأرجاسٌ لا سبيلَ إلى تَطهيرِهم[2].

احتقارُ المنافقينَ وازدراؤُهُم لنجاسةِ بواطِنِهم

دلالةُ تتابعِ المؤكِّداتِ في: ﴿إِنَّهُمۡ رِجۡسٌۖ﴾:

تتابعُ المؤكِّدات في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ رِجۡسٌۖ﴾، حيثُ جاءتِ الجملةُ مؤكَّدةً بـ (إنَّ) المؤذنةِ بمعنى التَّعليل، وبالاسميَّةِ لتحقيق تمامِ التَّهكُّمِ بهم، حيثُ إنَّهم صورةٌ مجسَّمة من الرِّجس.

التَّعليلُ لوجوبِ الإعراضِ عن المنافقينَ

نكتةُ التَّعبيرِ بالتَّشبيهِ البليغِ في: ﴿إِنَّهُمۡ رِجۡسٌۖ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ رِجۡسٌۖ﴾ تشبيهٌ بليغٌ، حيثُ جعلَ اللّٰه تعالى المنافقينَ هم عينُ النَّجاسةِ والخبَث؛ لما انطوت عليهِ قلوبُهم مِن النِّفاقِ والكفرِ بعد سطوعِ الآياتِ الدّالَّة على صِدقِ النَّبي ﷺ والغرضُ من التَّشبيهِ هو المبالغةُ في تصويرِ ما هم عليه، والتَّشنيعِ بحالهم، حتَّى كأنَّ العينَ ترى خَبَثَهم، والأنفَ يشتمُّ قَذَرَهُم، وفي هذا مِن التَّحذيرِ ممّا هم عليه شيئًا لا يُقادَرُ قدره[3].

المبالغةُ في نجاسةِ أعمالِ المنافقينَ، وقبحِ بواطِنِهم

نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿رِجۡسٌۖ﴾:

الغرضُ من تنكيرِ كلمةِ ﴿رِجۡسٌۖ﴾ إهانتُهُم وتحقيرُهم والتَّشنيعُ بهم، فهم القذارة والنَّجاسةُ عينها، وهذه مبالغةٌ في ذمِّهم وخسَّة أعمالهم، وقبح بواطنهم، وفي هذا التَّصويرِ ما يدعو إلى التَّقزُّز منهم، والاشمئزاز.وفيه إشارةٌ إلى أنَّ القليلَ من هذه النجاسةِ يكفي لذمِّهم وخسَّةِ أعمالهم، فكيفَ والتَّنكير يشيرُ إلى تحقُّقِ النَّجاسة فيهم في الظّاهرِ والباطنِ.

---

(1) أي: إنَّما يُعاتب من فيه رَجاءٌ ومُستعتَبٌ، ويُراجَع من تصلُحُ مُراجعَتُه، والمعاتبةُ: المعاودةُ، وبَشَرةُ الأديم: ظاهرُه الَّذي عليه الشَّعَر، أي أنَّ ما يُعادُ إلى الدِّباغِ مِن الأديمِ ما سلِمت بشرتُه. يُنظر: العسكري، جمهرة الأمثال: 1/69، والميدانيّ، مجمع الأمثال: 1/40.

(2) الزّمخشريّ، الكشاف: 2/302، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/9.

(3) القنوجي، فتح البيان: 5/375، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/10.

سرُّ التَّعبيرِ بالمصدرِ ﴿رِجۡسٞۖ﴾:

وصف المنافقين بأنّهم رجس، يعبّر بدقّة عن قلوبهم وأفعالهم

قوله: ﴿إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ﴾، آثرَ التَّعبيرَ بالمفرد ﴿رِجۡسٞۖ﴾؛ لأنَّهُ مصدرٌ، والمصدرُ يطلقُ على القليلِ والكثيرِ، والمرادُ هنا الكثيرُ لكونهِ خبرًا عن ضميرِ الجمعِ[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالواوِ ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ﴾، دونَ الفاءِ:

أهلُ الرِّجسِ مسكنُهُم جهنَّمُ، وساءت مصيرًا

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالواو دون الفاءِ في قوله: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ لعدَّةِ دلالاتٍ ذكرَها أبُو البقاءِ بقولهِ: إن قيل: كيف حسنتِ الواوُ هنا، والفاءُ أشبهُ بهذا الموضعِ؟ ففيه ثلاثةُ أوجهٍ:

أحدها: أنَّ الواوَ واو الحالِ، والتقدير: افعلْ ذلك في حال استحقاقِهم جهنَّمَ، وتلك الحالُ حالُ كفرهِم ونفاقِهم.

والثّاني: أنَّ الواوَ جيءَ بها تنبيهًا على إرادةِ فعلٍ محذوفٍ، تقديرهُ: واعلمْ أنَّ مأواهُم جهنَّمُ.

والثّالثُ: أنَّ الكلامَ حُمِلَ على المعنى، والمعنى: أنَّه قد اجتمعَ لهم عذابُ الدُّنيا بالجهاد والغلظةِ، وعذابُ الآخرة بجعلِ جهنَّمَ مأواهُم[2].

فائدةُ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ، في ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾:

استمرارُ التَّهكُّم بهِم، وتحقيقُهُ في واقع التّعامل معهم

أفادَ التَّعبيرُ بالاسميَّةِ تحقيقَ تمامِ التَّهكُّمِ عليهم؛ لأنَّ المأوى مكانُ الاطمئنانِ والرّاحةِ، وإنَّ المنافقين يسعونَ إلى طلبِ رضا النَّبيِّ والمؤمنين، فيحلفونَ لهم بما يقربُ قلوبهم خوفًا من الجزاءِ المعدِّ لهم في جهنَّمَ وساءتْ مصيرًا. وممّا يذكرُ أيضًا في سرِّ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ: أنَّ استقرارَهُم في جهنَّمَ من دواعي الاجتنابِ عنهم، ومن موجباتِ تركِ استصلاحِهم باللَّوم والعِتابِ، وعلى هذا تكونُ الجملةُ من تمامِ التَّعليلِ أو تكونُ تعليلًا مُستقلًّا، أي:

---

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/314.

(2) العكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 2/651، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/86، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/147.

وكَفَتْهم النَّارُ عتابًا - على حدٍّ: عتابُهُ السَّيفُ ووعظُه الصَّفعُ - فلا تتكلَّفوا أنتم بذلكَ[1].

سرُّ اختيارِ وصفِ جهنَّمَ، دونَ غيرِها مِنَ الأوصافِ:

تجهُّمُ المنافقينَ في وجهِ المؤمنينَ، يجعلُ جزاءَهم من جنسِ عملِهم (جَهَنَّمُ)

آثرَ التَّعبيرَ بوصفِ جهنَّمَ دونَ غيرِها مِنَ الأوصافِ؛ لأنَّ هذا الوصفَ يشيرُ إلى تجهُّمِ هؤلاءِ المنافقين في وجوهِ المؤمنينَ، فعاقبَهم اللّهُ بجنسِ ما فعلوا، وجعلَ لهم جهنَّمَ في الآخرةِ جزاءً وفاقًا.

دلالةُ الباءِ في قولِهِ: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾:

الجزاءُ هو الأجرُ العادلُ للفعلِ

الباءُ في قولِهِ: ﴿بِمَا﴾ لها أثرٌ واضحٌ في دلالةِ المعنى، وهو أنَّ استقرارَهم في جهنَّمَ بما كسبوه في الدُّنيا من آثامٍ في أقوالِهم وبثِّهم الشَّرَّ والفسادَ بين المؤمنينَ، وعليه فالباءُ في الآيةِ الكريمةِ معناها السَّببيَّةُ.

بلاغةُ فاصلةِ الآيةِ: ﴿يَكۡسِبُونَ﴾:

جزاءُ الآخرةِ ثمرةٌ لعملِ الدُّنيا

خُتِمَتِ الآيةُ بهذا الختامِ جوابًا على سؤالٍ كأنَّه قيلَ: لماذا جُعِلَ جزاؤهم جهنَّمَ؟ فكان الجوابُ بكسبِهم في الدُّنيا من أذى النَّبيِّ والمسلمينَ، فكانتْ هذهِ الجملةُ بِمَنْزِلَةِ التَّعليلِ للعقابِ الَّذي ينتظرهم.

سرُّ الجمعِ بين صيغتي الماضي ﴿كَانُواْ﴾، والمضارعِ ﴿يَكۡسِبُونَ﴾:

مَن اتَّصفَ بالنِّفاقِ المشؤومِ، لم يصدر منه إلّا ما هو مذمومٌ

قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، جَمَعَ فيهِ بين صيغتي الماضي والمضارعِ للدَّلالةِ على الاستمرارِ المتكرِّرِ في كسبِ السَّيِّئاتِ في الدُّنيا، في ماضيهم وحاضرهم، فكأنَّهُ لا يصدر عنهم في أيِّ زمنٍ إلّا الكسبُ المذمومُ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿يَكۡسِبُونَ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بالكسبِ في قولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ مع أنَّ السِّياقَ يقتضي التَّعبيرَ بالاكتسابِ أنَّهُ في مقامِ العقابِ، وذلك للدِّلالةِ على

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/5، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/375، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3419.

أنَّهم تمكَّنوا في فعل السَّيِّئات لدرجة أنَّ كسبَ السَّيِّئات صار من طبيعتِهم، فلا يتكلَّفُ في أمرِها شيئًا من العنتِ والمشقَّةِ، وهذا خروج على مقتضى الفطرةِ والشَّرعِ؛ لأنَّ اللُّغةَ العربيَّةَ فرَّقت بين الكسبِ والاكتساب، وهذا أيضًا ظاهرٌ في لغةِ القرآنِ، قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ [البقرة: 286]، فالملاحظُ التَّفريق بين الكسبِ والاكتسابِ، فأصلُ الكسبِ يأتي في الخيرِ والاكتسابِ في الشَّرِّ. وعلى ذلك إذا استعملَ الكسبَ في الشَّرِّ، فيكونُ ذلك من بابِ المبالغةِ في كسبهِم للسَّيِّئات وإلفهم لها، فما عادَتْ تحتاجُ إلى جهدٍ؛ لأنَّهم تعوَّدوا عليها، وهذا هو المناسبُ لسياقِ المنافقين.

كسب السّيّئات مبالغة في تحوّل الشرّ لديهم، إلى ملكة مغروزة في الطّبع

دلالةُ الفصلِ: ﴿سَيَحۡلِفُونَ﴾:

فُصِلَت هذه الجملةُ عمَّا قبلَها؛ لأنَّها بدلُ اشتمالٍ من جملة ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ﴾؛ لأنَّهم إذا حلفوا لأجلِ أن يعرضَ عنهم المسلمون، فلا يلومونهم فإنَّ ذلك يتضمَّن طلبهم رضا المسلمينَ[1].

حلفُ المنافقينَ، لأجلِ رضا المؤمنين عنهم

سرُّ حذفِ المحلوفِ به، معَ ذكرِه في الآيةِ السَّابقةِ:

حُذِفَ المحلوفُ بِه لظهورِه، أي: يحلفونَ باللّٰهِ تعالى، حيثُ سبقَ ذكرُهُ في قولِه: ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ﴾.

لا معنى للحلف إلّا بالله، فبه تصحّ اليمين وتنعقد

غرضُ تكرارِ الحلفِ في: ﴿يَحۡلِفُونَ﴾، بعد: ﴿سَيَحۡلِفُونَ﴾:

اختلفَ الغرضُ من الحلفِ في الآيتينِ: فالآيةُ الأولى كان حَلْفُهم لأجلِ الإعراضِ فقط، وفي الآية الثَّانيةِ من أجل الرِّضا؛ لذلكَ جاءَ الأمرُ بالإعراض نصًّا؛ لأنَّ الإعراضَ مِنَ الأمورِ الَّتي تظهرُ للنَّاسِ، أمَّا الرِّضا؛ فهو من الأمورِ القلبيَّةِ الَّتي تخفى[2]؛ لذلك أبرزَ النَّهيَ عن الرِّضا في صورةٍ شرطيَّةٍ.

اختلافُ الغرض من الحَلْف في الآيتين (الإعراض) و(الرِّضا)

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/10.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/491، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/376، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/10.

والنَّاظرُ في هاتينِ الآيتينِ يجدُ أنَّ الحَلْفَ تكرَّرَ من المنافقين، قال تعالى: ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ﴾، ثم قال: ﴿يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ﴾، وهذا التَّكرارُ يحتملُ وجهين: الوجهُ الأوَّلُ: في الغرضِ من الحَلْفِ، فيحلفونَ أوَّلًا طلبًا للإعراضِ، وثانيًا طلبًا للرِّضا. الوجهُ الثَّاني: اختلافُ الحالفين، فيَحْتَمِل أن يكونَ الحلفُ الأوَّلُ من أتباعِهم؛ لأنَّهم في منزلةِ من يخافُ العقوبةَ، فيحلفونَ قصدًا للإعراضِ وطلبًا للمُسالمةِ فقط، والثَّاني مِن رُؤسائِهم؛ لأنَّهم في منزلةِ من لا يخاف العُقوبةَ، فيحلف قصدًا لرضاءِ المؤمنينَ عنه[1].

أو أنَّ قولهُ تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ﴾ بدلٌ من قولِه تعالى: ﴿سَيَحۡلِفُونَ﴾، حيثُ جاءت موضِّحةً لغرضِ ذلك الحَلْفِ أنَّه لنيلِ رضاكم عنهم، فجاءت أدلَّ على الغرضِ الَّذي تحملهُ من الآيةِ المبدلةِ منها، فلا مغايرةَ بينهما؛ لذلك فصِلَتا.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ في ﴿يَحۡلِفُونَ﴾:

الحلفُ والإكثارُ منه، هو ديدن المنافقيَن

تكرارُ لفظةِ (يحلفون) في السُّورةِ بصيغِ المضارعِ المتنوِّعِ؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والحدوث، وهي تشيرُ إلى أنَّ الحلفَ والإكثارَ منه هو لباسُ المنافقين ووشاحهم السّاتر، ونديمهم الملازم، حيثُ كان هدفُهم من الحَلْفِ أن يُرضوا المؤمنين، ولا يفعلون ذلك لوجهِ اللّهِ ولا لِلْبِرِّ، فكثرةُ الحَلْفِ ديدنُ أهلِ النِّفاق، ولا يستبعدُ منهم ذلك؛ لأنَّ بطانةَ المنافقين تنطوي على الكذبِ والمراوغةِ.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ في: ﴿لَكُمۡ﴾:

المنافقونَ مصلحتُهم منافعُ الدُّنيا الغرور، وما فيها من متاع وسرور

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَكُمۡ﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ أخذًا من اللَّامِ؛ لأنَّ معناها الاختصاصُ، وهو أصلُ معانيها، وعلى هذا؛ فالمعنى: أنَّ المنافقينَ سيحلفونَ للمؤمنينَ كذبًا لتسويغِ نفاقِهم، وفي تخصيصِه بالمؤمنينَ تنبيهٌ وتحذيرٌ لهم من خداعِهم ومكرِهم.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/324.

سرُّ التَّعبيرِ بالضَّميرِ، عن القومِ الفاسقينَ:

غضبُ اللهِ تعالى، يتعلَّقُ بما يضمرُ المنافقُ في صدرِهِ

قولِه: ﴿يَحۡلِفُونَ﴾، وفيه بدأتِ الآيةُ الكريمةُ بالتَّعبيرِ عن هؤلاءِ المنافقينَ بضميرِ الغَيْبةِ، ثمَّ عدلتْ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ في نهايتِها بقولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، وهو عدولٌ يفيدُ بأنَّ غضبَ اللهِ تعالى وعدمَ رضائِهِ لا يتعلَّق بهؤلاءِ، بل بسببِ ما يضمرونَهُ من نفاقٍ في صدورِهم، وليعمَّ الحكمُ كلَّ من كانَ على شاكلتِهم.

دلالةُ اللَّامِ ومعناها، في قولِه: ﴿لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ﴾:

تحديدُ أغراضِ القلوبِ، فضحٌ للمنافقينَ

اللَّامُ: لامُ التَّعليلِ، أي: علَّةُ الحَلِفِ بالأيمانِ الكاذبةِ: هي أن ترضوا عنهم، أي: تقبَّلوا ما فعلوهُ من التَّخلُّف، ولا تؤاخذوهم، ولا تعاتِبوهُم، بل تسديمون ما كنتُم تفعلونَ بهم.

سرُّ التَّعبيرِ بـ(عن) في: ﴿عَنۡهُمۡۖ﴾:

جرائمُ النّفاقِ لا تسقطُ بالتّقادمِ، بل بالتّوبةِ النّصوحِ

آثَرَ التَّعبيرَ بـ (عن) الَّتي تفيدُ المجاوزةَ، وكأنَّ المنافقين يطلبونَ من المؤمنينَ التَّجاوزَ عمّا صدرَ منهم من التَّخلُّف عن الجهادِ، ومن الأعذار الكاذبة الَّتي أبدوها لرسولِ اللّه ﷺ وللمؤمنينَ، ويكونُ ذلك في حكمِ الماضي المنسيِّ، فلا يلامونَ عَليهِ، ولا يوبَّخونَ بِهِ.

دلالةُ الفاءِ ومعناها في ﴿فَإِن﴾:

التَّعجيلُ بالجزاءِ تهديدٌ، وإرضاءُ الخلقِ لا يغني عن رضا اللهِ

الفاءُ في قولِه: ﴿فَإِن تَرۡضَوۡاْ﴾ للجزاءِ أو للسَّببيَّة، والمعنى: فإنَّ رضاكم لا يستلزمُ رضا اللّهِ، ورضاكم وحدَهُ لا ينفعُهم؛ إذا كانوا في سخطِ اللّه؛ لأنَّ مقصودَهُم من رضا المسلمينَ عنهم، التَّحصُّنُ بحوزةِ الإسلامِ وصيانة أنفسِهم عن الذلِّ والهوانِ[1].

علَّةُ التَّعبيرِ بـ(إن) الشرطيةِ:

آثَرَ التَّعبيرَ بإن الشَّرطيَّةِ الَّتي تفيدُ الاحتمالَ والشَّكَّ، أي: إن ﴿تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ﴾ على سبيلِ الافتراضِ، وتنسوا ما فعلوهُ من التَّخلُّف،

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/315.

وتصفحوا عنهم؛ فليس لرضاكم فائدةٌ، ولا يهُمُّ؛ لأنَّ رضا اللّهِ سبحانه هو وحدَهُ المهمُّ، والمقبولُ، وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ المؤمنينَ لن يقعَ منهم رضًا على هؤلاءِ المنافقينَ، فكأنَّ التَّعبيرَ بـ (إن) يحمل معنى النَّفي، وعلى ذلك فإيرادُ كلمةِ الشَّكِّ ﴿فَإِن﴾ كان هو المناسبُ لمنعِ وقوعِ الرِّضا على العمومِ، وفي نفسِ الأمر الَّذي طلبوهُ مع قطعِ النَّظرِ عن قائلهِ[1].

الصَّحابةُ الكرامُ أعلى قدرًا من الرّكون إلى ترضيةِ منافقٍ

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الشَّرطيَّةِ في: ﴿فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ﴾:

التَّعبيرُ بالجملةِ الشَّرطيَّةِ ﴿فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ﴾إلى آخرِ الآيةِ، يتضمَّنُ النَّهيَ عن الرِّضا عنهم، ويدلُّ أيضًا على أنَّ حكمَ هذه الآيةِ يستمرُّ في كلِّ مغموصٍ عليه ببدعةٍ ونحوها، فإنَّ المؤمنَ ينبغي أن يبغضَهُ، ولا يرضا عنه لسببٍ من أسبابِ الدُّنيا[2].

كلُّ رضًا دونَ رضا اللهِ، لا فائدةَ منهُ، ولاجدوى فيه

بلاغةُ حذفِ جوابِ الشَّرطِ:

جوابُ الشَّرطِ في قولهِ: ﴿فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ﴾ محذوفٌ، والتَّقديرُ: فإن ترضوا عنهم على سبيلِ الفرضِ، فإنَّ رضاكم عنهم لن ينفعَهم؛ لأنَّ اللّهَ تعالى لا يرضى عن القومِ الَّذين خرجوا عن طاعتهِ[3]، فلا يتوهَّمُ مُتوهِّمٌ أَنَّ رضا المؤمنين عنهم يقتضي أن يرضى اللّه تعالى عنهم، فأفادَ اليأسَ من تحقُّقِ الرِّضا لهم، فالجوابُ محذوفٌ، أي: إن ترضوا عنهم، فلا ينفعُهم رضاكم[4]. وفي حذفِ جوابِ الشَّرطِ تلطُّفٌ بالمؤمنينَ، ليقدِّرَ كلُّ واحدٍ منهم الجوابَ بما يمنعهُ من الرِّضا مهما حلفَ المنافقون.

تقدير الجواب المحذوف، قدحٌ للذّهن، وإثراءٌ للمعنى

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/316.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/73.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/73، والواحديّ، التّفسير البسيط: 11/10، طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/385.

(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/161.

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿تَرۡضَوۡاْ﴾، على سبيل الكناية:

رضا المسلمين عن الآخرين، مرتبط برضا ربّ العالمين

قولِه تعالى: ﴿فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ﴾، وفيه التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ للدَّلالةِ على الحالِ والاستقبالِ والدّيمومةِ، فقولهُ: ﴿فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ﴾ توجيهٌ "وتحذيرٌ للمسلمين من الرِّضا عن المنافقينَ بطريقِ الكنايةِ؛ إذ قد علمَ المسلمونَ أنَّ ما لا يُرضي اللّهَ لا يكون للمُسلمين أن يرضوا بِهِ"(1).

سرُّ التَّعبيرِ بالجارِّ والمجرورِ في: ﴿عَنۡهُمۡ﴾:

من اعتدى على حرمة الدّين، فلا ودّ له عند المسلمين

عبَّرَ بالجارِّ والمجرورِ، لتحذيرِ المسلمينَ من تجاوزِ ما فعلَهُ المنافقونَ، في صفوفِ المسلمينَ من إضعافِهم ومحاولةِ توهينِ قوَّتِهم.

دلالة الفاءِ الفصيحة في: ﴿فَإِنَّ﴾:

لا ولاء لمنافق، بالقلب، ولا بالمعاملة

الفاءُ الفصيحةُ، أفصحتْ عن شرطٍ مقدَّرٍ، والمعنى: فإن ترضوا عنهم؛ فإنَّ اللّهَ لا يرضى عن القومِ الفاسقين، وإنَّما حذفَ الشَّرطَ إلماعًا إلى أنَّه لا ينبغي لمؤمنٍ أن يكونَ منه أيُّ رضًا عن منافقٍ، وأن يغيِّبَهُ من واقعِهِ كما غابَ عن النَّصِّ.

دلالةُ تعدُّدِ المؤكّداتِ في الآية المصدّرة بـ ﴿إِنَّ﴾:

الرّضا عمّن لم يرض الله عنه، لا يفعله المؤمن

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، وفيه تعدَّدَتِ المؤكِّداتُ بـ ﴿إِنَّ﴾، والاسميَّةِ، وتوسُّطِ النَّفي بين المسندِ إليه والمسندِ، والمقصودُ من ذلك إخبارُ اللّهِ سبحانه بعدم رضاهُ عن القومِ الفاسقينَ، وأكَّدَ هذا الحكمَ بهذه المؤكِّداتِ، والغرضُ هو نهيُ المؤمنينَ عن ذلك؛ لأنَّ الرِّضا عمَّن لا يرضى اللّهُ عنه ممَّا لا يفعلُهُ مؤمنٌ.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾:

إدخالُ المهابةِ في قلوبِ المؤمنينَ، يدفعُهم لسرعةِ الامتثالِ

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، وفيه عبَّرَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/10.

بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ لإدخالِ المهابةِ في قلوبِ المؤمنينَ حتَّى لا يميلوا مع ضغوطِ المنافقينَ عليهم، ويحذروا مخالفةَ أمرِ اللّهِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ في: ﴿لَا يَرۡضَىٰ﴾:

الرِّضا ضدُّهُ السُّخط، وقد أتى بالفعلِ المضارعِ المنفيِّ للدَّلالةِ على سخطِ اللّهِ الدّائمِ المستمرِّ على الفاسقين، وكذلك لئلّا يَتوهَّمَ متوهِّمٌ أنَّ رضا المؤمنين من دواعي رضا اللّهِ تعالى[1].

رسوخُ الضَّلالِ في نفوسِ الفاسقينَ، هو مسلك النّفاق المهين

سرُّ اختيارِ ﴿لَا﴾ في: ﴿لَا يَرۡضَىٰ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿لَا﴾ في قولِه: ﴿لَا يَرۡضَىٰ﴾ دونَ (لن) الَّتي تفيدُ النَّفي، فهيَ وإن اشتركت مع (لا) في النَّفي، إلّا أن (لن) تفيدُ النَّفي مع التَّأبيدِ، واللّهُ يريدُ أن يفتحَ بابَ التَّوبةِ للمنافقين، فكانَ التَّعبيرُ بـ ﴿لَا﴾ هو المناسبَ لهذا الفضلِ.

بابُ التّوبةِ مفتوحٌ على مصراعيه، لكلّ تائب

سرُّ اختيارِ التَّعبيرِ بالفاسقينَ:

آثرَ التَّعبيرَ بالفاسقينَ دونَ المنافقينَ، أوالكافرينَ، أو الظّالمين...؛ للإشعارِ بتجاوزِهم وخروجِهم عمّا رَضِيَه اللّهُ لهم مِنَ الإيمانِ والطّاعةِ؛ لأنَّ الفسقَ هو الخروجُ عن الطّاعةِ، من قولِهم: فسقتِ النَّواةُ عن الرُّطبةِ؛ إذا خرجَتْ، فالخروجُ أعمُّ يندرجُ تحتَهُ كلُّ هذهِ الأوصافِ.

اختيارُ اللّفظِ المناسبِ للدّلالةِ، من بيانِ السّياق

بلاغةُ وضعِ الظّاهرِ موضعَ الضَّميرِ:

في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ وضْعُ المُظهَرِ ﴿ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ مَوضِعَ ضَميرِهم (عَنۡهُم)؛ حيثُ عَدَلَ عن الإتيانِ بالضَّميرِ (هم) إلى التَّعبيرِ بصِفتِهم؛ للتَّسجيل عليهم بالخُروجِ عن الطّاعةِ، المُستوجِبِ لما حلَّ بهم مِن السُّخطِ، وللإيذانِ بشُمولِ الحُكمِ لِمَن شارَكهم في ذلكَ الفسقِ؛ ففيهِ دَلالةٌ على ذَمِّهم، وتَعليلِ عَدمِ الرِّضا عنهم.

عدلُ اللهِ تعالى في ثوابِهِ وعقابِهِ، ميزانٌ للكون، وأمانٌ للموجودات

---

(1) أبو السّعود: إرشاد العقل السّليم: 4/95.

وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ بابَ التَّوبةِ مَفتوحٌ، وأنَّهم مهما ارتكبوا من المعاصي هم أو غيرُهم، فإنَّ اللّه يتوبُ عليهم، ويرضا عنهم؛ إذا عادوا إلى ربِّهم، وصدَّقوا برسولِه، وأمّا ما داموا فاسِقينَ، فإنَّ اللّهَ لا يرضا عليهم، لوجودِ المانِعِ مِن رضاه، وهو خروجُهم عمّا رَضِيَه اللّهُ تعالى(1).

تأكيدُ عدمِ الرِّضا عن الفاسقين، تحفيزٌ لعدمِ الرِّضا عن المنافقين

نكتةُ تقديمِ المسندِ إليهِ، على خبرِهِ الفعليِّ:

قدَّمَ المسندَ إليهِ ﴿ٱللَّهَ﴾ على خبرِهِ الفعلي ﴿لَا يَرۡضَىٰ﴾ للتَّأكيد على عدمِ رضاه سبحانه عن المنافقين، وإنَّما جاءَ التَّأكيدُ من إسنادِ عدمِ الرِّضا مرَّتين الأولى: إسنادُ الخبرِ ﴿لَا يَرۡضَىٰ﴾ إلى لفظِ الجلالةِ، ثمَّ إسنادُ عدمِ الرِّضا إلى الضَّمير العائدِ على لفظِ الجلالة، فجاء التَّأكيدُ من تكرارِ الإسنادِ.

الذِّكرُ والحذفُ في الآيتين، ملمحٌ للبيان، ومدخلٌ للدّلالة البليغة

المتشابهُ اللَّفظيُّ بين آيتي سورة التَّوبة:

تشابَهَ قولُهُ تعالى: ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ مع قولِهِ تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

النَّاظرُ في الآيتينِ - مع أنَّهما في ذمِّ المنافقين المتخلِّفين عن رسولِ اللّهِ ﷺ في غزوة تبوك، حيثُ لجؤوا إلى الحَلْفِ بأيمانٍ فاجرةٍ اعتذارًا وخداعًا للمؤمنين - يجدُ اختلافًا بينَ الآيتينِ في التَّعبيرِ بـ ﴿سَيَحۡلِفُونَ﴾ في الأولى، وفي الثّانية بـ ﴿يَحۡلِفُونَ﴾ دون السِّين، ويجدُ في الآيةِ الأولى ذكرَ المُقسم بهِ ﴿بِٱللَّهِ﴾ وعدمَ ذكرِهِ في الثّانية.

بلاغةُ ذكرِ السِّينِ في ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ﴾ الآية.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/94، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 348، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/10، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3420.

ذُكِرَتِ السِّينُ في قولِهِ: ﴿سَيَحۡلِفُونَ﴾؛ لأنَّها حرفٌ يفيدُ تخليصَ المضارعِ للاستقبالِ[1]، وهو المناسبُ لما كانَ يضمرهُ المنافقونَ من كذبٍ في اعتذارِهِم؛ إذ هو أمرٌ خفيٌّ، يمكِّنُهم من التَّلبيس على المؤمنين، وذلك إذا اقترنَ الاعتذارُ بيمينٍ مؤكِّدَةٍ؛ لذا أوحى اللّٰهُ إلى نبيِّهِ ﷺ قبلَ قفولِهِ من غزوةِ تبوكَ بما سيكونُ من أمرِ المنافقين؛ إبطالًا لمكرِهِم وتكذيبًا لاعتذارِهِم، وفيهِ إشارةٌ إلى وجهٍ إعجازيٍّ في القرآنِ، حيثُ أخبرَ بما لم يقع بعد؛ حيثُ نزلتِ الآياتُ قبلَ رجوعِ النَّبيِّ ﷺ والمؤمنين، وهو من جملة المعجزاتِ[2]، أمّا قولُه تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ﴾ مجرَّدًا من السِّين، فإنَّها في بيانِ حالِ المنافقين وتسجيلِ قبائِحِهم، وهي مُتجدِّدَةٌ في نفوسِهم وملازمةٌ لهم في سائرِ الأحوالِ، ولو اقترنتْ بالسِّين؛ لفاتتْ دلالتُها على هذا المعنى.

وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ الآيةَ المقترنة بالسِّين مخصوصةٌ بمجموعة من المنافقين، والَّتي خلت من السِّين في طائفةٍ أخرى[3]، وإن كانَ الرّاجحُ أنَّ الآيتين في طائفةٍ واحدةٍ، فالأولى تحدَّثت عن حلفٍ أنشأهُ المنافقون اعتذارًا عن الخروجِ إلى الغزوةِ؛ لأنَّهُ كما زعموا فوقَ طاقتهم، والثّانيةُ بعد تحقُّق التَّخلُّف، فرغبوا أن يُعرِضَ المسلمون عنهم؛ فلا يؤاخذوهم[4].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الحَلْفُ)، و(القَسَمُ):

الحَلْفُ يردُ غالبًا فيما يكون كذبًا، بخلاف القَسَم، فإنَّه مبنيٌّ على الصِّدقِ

فرَّقَ العسكريُّ بين القسم والحلفِ واليمينِ، بأنَّ القسمَ أبلغُ من الحلفِ؛ لأنَّ معنى قولنا: أُقسِمُ باللّٰهِ أنَّهُ صارَ ذا قسَمٍ باللّٰهِ، والمرادُ

(1) المراديّ، الجنى الدّاني في حروف المعاني، ص: 59.
(2) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 3/259.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/73، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/124، والنّيسابوريّ، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 3/519.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/184، 185، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 348.

أنَّ الَّذي أقسمَ عليهِ من المالِ وغيره قد أحرزَهُ، ودفعَ عنه الخصمَ باللّٰهِ. والحَلْفُ مِن قولِكَ: سيفٌ حليفٌ، أي: قاطعٌ ماضٍ، فإذا قُلتَ: حلفَ باللّٰهِ، فكأنَّكَ قلتَ: قطعَ المخاصمةَ باللّٰهِ، فالأوَّلُ أبلغُ؛ لأنَّه يتضمَّنُ معنى الآخر مع دفعِ الخصمِ، ففيهِ معنيان، وقولنا: حلفَ يفيدُ معنى واحدًا وهو قطعُ المخاصمةِ فقط، وذلك أنَّ مَن أحرزَ الشَّيءَ باستحقاقٍ في الظّاهرِ، فلا خُصومةَ بينه وبين أحدٍ فيه، وليس كلُّ من دفعَ الخصومةَ في الشَّيءِ، فقد أحرزَهُ. والحَلْفُ أكثرُ استخدامًا فيما يكون كذبًا، ويكونُ صاحبهُ عالمًا بذلك، والقسمُ أكثرُ استخدامًا فيما يكونُ صدقًا.

وقدْ آثرَ التَّعبيرَ بالحلفِ دونَ القسمِ لوجودِ فرقٍ بينهما، فالحَلْفُ يدورُ في العربيَّة على احتمال الحِنْثِ غالبًا؛ لأنَّه مبنيٌّ على الظَّنِّ، وفي البيان القرآنيِّ يتَّضحُ بجلاءٍ أنَّ اليمينَ في الحلفِ معقودةٌ غالبًا على الحنثِ أصلًا، حيث يحلفُ المنافقون على خلافِ الحقيقة التماسًا للعذر، دون مبرَّةٍ في الحلفِ أو صدقٍ في اليمين. يؤكِّدُ ذلك أنَّ لفظَ الحلفِ في القرآن الكريم وردَ غالبًا في حقِّ المنافقينَ، وسورةُ التَّوبةِ شاهدةٌ على ذلك، فقد تكرَّرَ فيها لفظُ الحلف في سياقِ حديثِ القرآنِ عنهم، بخلاف القَسَمَ فإنَّه مبنيٌّ على الصِّدقِ، ولذلك يردُ القسمُ في القرآنِ في جانبِ المولى ﷻ، قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة: 38 - 39] ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: 40] إلى غير ذلك من الآيات الَّتي ورد فيها لفظُ القسمِ. وعلى ذلك فالحلفُ ليس كالقسمِ؛ لأنَّ القَسَمَ يكونُ على الشَّيءِ الواضحِ والحقِّ البيِّنِ، والأَيمان الصّادقة؛ ولهذا جاء القَسَم في القرآنِ في الأيمانِ الصّادقة، وجاء موصوفًا بالعظمةِ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: 76]، بخلافِ الحلفِ؛ فهو في جانبِ المنافقينَ كما سبقَ ذكرُ ذلك.

المأوى والمثوى:

المثوى: (مَفْعَلٌ) من ثوى إذا أقامَ، وهو المستقرُّ والمآلُ الَّذي يَبلُغُهُ المرءُ بعد عَناءٍ ومُكابدةٍ، ويصِلُ إليهِ بدون تَخطيطٍ ولا سَعيٍ ولا تَدبيرٍ مُسبقٍ، وقد يكونُ مَثوى سُوْءٍ أو مَثوى راحةٍ وكرامة، فالمفردةُ ليست للدَّلالةِ على الخيرِ المحضِ أو الشَّرِّ المحضِ، بل محايدة تصفُ الحال سواء كان مآلَ خيرٍ أو مآلَ شرٍّ، ويُسمَّى قَبْرُ الرَّجلِ (مثواه)؛ لأنَّه استقرَّ فيهِ بعد عناءِ الحياةِ ولم يكن يسعى له، ويحتملُ أن يكونَ مثواهُ حسنًا أو سيِّئًا.

المأوى كلّ مكانٍ يرجعُ إليه الإنسان، بخلاف المثوى؛ فهو المكانُ الَّذي يقامُ فيه

أمَّا المأوى: فـ(مَفْعَلٌ) من أوى إلى كذا، إذا ذهبَ إليه، وهو المستقَرُّ والمآلُ المكِينُ الَّذي يَبْلُغُه مَنْ يَسعى، ويجهدُ في الوصُول إليه، يقول تعالى: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً﴾ [الكهف: 10]. فإنَّ ﴿ٱلۡفِتۡيَةُ﴾ سعوا، وجهدوا، ودبَّروا أمرهم للوصولِ للكهف؛ بحثًا عن الأمنِ والاحتماءِ من عدوِّهم، فكانَ الكهفُ مأوًى لهم.

وقد آثرَ التَّعبيرَ بالمأوى دونَ المثوى لوجودِ فرقٍ بينهما: فالمأوى يطلقُ على المسكنِ والمقرِّ الَّذي لا براحَ منه، وهو اسمُ مكانٍ من أويتُ إلى المكانِ؛ إذا دخلْتَهُ، وسكنْتَ فيه، ودلالتُه اللُّغويَّة تدلُّ على الضَّمِّ والتَّجمُّع.

أمَّا المثوى؛ فهو اسمُ مكانٍ من ثوى، والثَّواءُ هو طولُ المقامِ، والثَّوي: يقال للبيت المهيَّأ للضيف، ويقالُ للغريبِ؛ إذا أقام ببلدةٍ: ثاوٍ، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ [القصص: 45]، وعلى هذا؛ فالمأوى يختلفُ عن المثوى، وذلك أنَّ المأوى يطلقُ على كلِّ مكانٍ يرجعُ إليه الإنسان أو غيره ليلًا أو نهارًا، بخلاف المثوى؛ فهو المكانُ الَّذي يقامُ فيه، وبذلك يكون المأوى أعمَّ من المثوى؛ لأنَّهُ لا يلزمُ من الإيواءِ الثَّواءُ، بخلاف الثَّواءِ، فيلزمُ منه الإيواءُ، وأيضًا أنَّ المأوى يكونُ في الجنَّة والنّارِ، والآياتُ في هذا كثيرةٌ، بخلاف المثوى؛ فهو في الغالب في العقاب والعذاب، قال تعالى: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزّمر: 60]، وقال أيضًا: ﴿وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: 151] إلى غيرِ ذلك من الآياتِ الَّتي ذُكر فيها المثوى في مقامِ العقابِ والعذاب(1).

الانقلابُ والرُّجوعُ:

التَّعبيرُ بالانقلابِ يفيدُ العودةَ مختارًا، ولا يشترط ذلك في الرّجوع

عبَّرَ عن الرُّجوعِ بالانقلابِ؛ لأنَّ المجاهدَ سائرٌ في طريقهِ إلى الأمامِ، فإذا أرادَ العودةَ انقلبَ من السَّيرِ إلى الأمامِ إلى العودةِ إلى الوراء، والتَّعبيرُ بالانقلابِ يفيدُ العودةَ مختارًا غيرَ مقهورٍ ولا

(1) الحمداني، الفروق اللُّغوية في القرآن الكريم، ص: 167 - 170.

مهزوم ولا متراجع[1].وممّا يذكرُ أنَّ الانقلابَ: رجوعٌ وانصرافٌ مع زيادةِ معنى الوصول والاستيلاء[2].

الإعراضُ والصَّفْحُ:

مرادُ المنافقينَ التَّرْكُ لا ابتداءُ حياةٍ صحيحةٍ، وصفحةٍ جديدةٍ، مع المسلمينَ

آثرَ التَّعبيرَ بالإعراضِ دونَ الصَّفحِ لوجودِ فرقٍ بينهما، فقولُك: صفحتُ عن فلانٍ يفيدُ أنَّك أعرضتَ عن صفحةِ ماضيه، وأقبلتَ إليهِ بصفحةٍ جديدةٍ، فاستعملَ الصَّفحَ على هذا بمعنى البدءِ بصفحةٍ جديدةٍ، قالَ تعالى: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ﴾ [البقرة: 109]، وقالَ تعالى: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ﴾ [النور: 22]، ومعلومٌ من سببِ نزولِ هذه الآيةِ أنَّ القصدَ منها الإعراضُ عن صفحةِ ماضي الصحابيِّ (مِسْطَحِ بنِ أُثاثَةَ) والبدءُ معه بصفحةٍ جديدةٍ. أمّا الإعراضُ؛ فهو بمعنى التَّرك، قال تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ﴾ [النساء: 63]، وقوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الأحزاب: 48] إلى غيرِ ذلك من الآياتِ، وأغلبُها في شأنِ المنافقين، والمرادُ: التَّركُ لهم بالكليَّةِ دونَ معاتبةٍ أو مؤاخذةٍ؛ لأنَّهم ليسوا أهلًا لها؛ لذلك آثرَ التَّعبيرَ بالإعراضِ هنا لمناسبتِه لسياقِ الآيةِ في حالةِ هؤلاءِ المنافقينَ[3].

(الرِّجْسُ) و(الرِّجْزُ):

الرِّجسُ؛ كلُّ شيءٍ يُستقذرُ، والرِّجزُ العذابُ، أو الوسوسة، أو عبادة الأوثانِ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالرِّجس دونَ الرِّجزِ لوجود فرقٍ بينهما، فمادَّةُ الرِّجزِ تدلُّ على الاضطرابِ، وهو داءٌ يصيبُ الإبلَ في أعجازِها، فإذا ثارت النّاقةُ ارتعشت فخذاها، ومن هذا اشتقاقُ الرَّجَزِ من الشِّعر؛ لأنَّهُ مقطوعٌ مضطربٌ، ويطلقُ الرِّجزُ على العذابِ، وكلُّ عذابٍ أُنزل على قومٍ، فهو رجزٌ، ووسواسُ الشَّيطانِ رجزٌ، وعبادةُ الأوثانِ رجزٌ، قال تعالى: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ [المدّثّر: 5] -على قراءة الجمهور- أي: اهجرْ ما يؤدّي إلى الرِّجز.

أمّا الرِّجسُ؛ فيطلقُ على كلِّ شيءٍ يستقذرُ، كالخنزيرِ، وكلُّ قذرٍ

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/5، والتّحرير والتّنوير: 4/313، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3418.
(2) الآلوسيّ، روح المَعاني: 6/5.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 236.

رجسٌ، ويطلقُ الرِّجس على النَّتْنِ، قال تعالى: ﴿أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ [الأنعام: 145] وذلك من حيثُ الشَّرعُ، وعلى هذا فالرِّجسُ يختلف عن الرِّجزِ، وإن وجدَ بينهما اشتراكٌ في المعنى إلّا أنَّ القرآنَ آثرَ التَّعبيرَ عنهم بالرِّجس لكي يُنَفِّرَ المؤمنين من مجالستِهم ومؤاكلتِهم والتَّعامل معهم؛ لأنَّ رائحتَهم منتنةٌ، وفي هذا توبيخٌ وتقريعٌ للمنافقينَ(1).

(الجزاءُ) و(الأجرُ):

الجزاءُ مقابلةُ الخير بالثَّواب، والشَّرِّ والأجرُ ما يعود من ثواب العمل

آثرَ التَّعبيرَ بالجزاءِ دونَ غيرِهِ لوجود فرقٍ بينهما: فالجزاءُ هو المقابلةُ على الخير بالثَّواب وعلى الشَّرِّ بالعقاب، وأصلهُ الغَنَايةُ والكفايةُ، قالَ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [البقرة: 48]، والجزاءُ يكونُ مماثلًا مساويًا للمُجزى عنه؛ لأنَّ أصلَ الجزاءِ في كلامِ العربِ القضاءُ والتَّعويضُ، يقالُ: جَزَيْتُه قَرْضَهُ ودَيْنَهُ أَجْزِيهِ جَزاءً؛ بمعنى: قضيتُ دينَهُ، ولا يتأتَّى في هذا المقام إلّا الجزاءُ، فلا يردُ الأجرُ أو الثَّواب في هذا المقامِ؛ لأنَّ الأجرَ لا يقال إلّا في النَّفعِ غالبًا، والثَّواب في الجزاءِ بالخير على العملِ الصّالح، والمقامُ هنا هو مقامُ عقابِ المنافقين(2).

الرِّضا والمحبةُ:

الرِّضا اطمئنانُ القلبِ إلى أمرٍ فيه نفعٌ، والمحبَّةُ: إرادةُ ما تراهُ خيرًا

آثرَ التَّعبيرَ بالرِّضا دونَ المحبَّةِ؛ لوجود فرقٍ بينهما: فالرِّضا هو اطمئنانُ القلبِ إلى أمرٍ فيه نفعٌ، وهو خلافُ السُّخطِ، وأمّا المحبَّةُ؛ فهي إرادةُ ما تراهُ أو تظنُّه خيرًا، وضدُّها البُغضُ.

وعلى هذا فالمناسبُ التَّعبيرُ بالرِّضا؛ لأنَّ المنافقينَ يرونَ لأنفسِهم وجودًا في المجتمعِ، ويريدونَ من المسلمينَ أن يطمئنوهُم على مصالحِهم ومنافعِهم، والرِّضا أمرٌ يجمعُ بين الظّاهر والباطن، بخلافِ الحبِّ فهو أمرٌ باطنيٌّ قد لا تظهرُ آثارهُ عليهم في المجتمعِ.

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 548.

(2) الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة، ص: 148.

﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٩٧﴾ [التّوبة: 97]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين حال منافقي المدينة، وحال أعراب الباديّة الغلاظ الشّداد

لمّا ذكرَ اللّهُ ﷻ في الآياتِ السّابقةِ بعضَ أحوالِ المنافقينَ بالمدينةِ المنوَّرةِ الَّذين استأذنوا في عدمِ الخروجِ مع الرَّسولِ ﷺ لقتالِ الرُّوم، جاءت هذه الآياتُ لِتذكُرَ من كانَ خارجًا منها ونائيًا عنها، من الأعرابِ الَّذين يسكنونَ الباديةَ، بقوله: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا﴾.

وممَّا يذكرُ أيضًا في المناسبةِ؛ لَمّا رتَّبَ اللّهُ سبحانه الاستئذانَ في القُعودِ، والرِّضا بما فيه من الدَّناءةِ، على عدَمِ الفِقهِ تارةً، والعِلمِ أُخرَى، وختَمَ بصِنفِ الأعرابِ؛ بيَّنَ أنَّ الأعرابَ أَوْلَى بذلك؛ لِكَونِهم أعرَقَ في هذا الوصفِ، وأجرأَ على الفِسقِ؛ لبُعدِهم عن مَعدِنِ العِلمِ، وصَرفِهم أفكارَهم في غير ذلك مِن أنواعِ المَخازي لتحصيلِ المالِ الذي كلَّما داروا عليه؛ طارَ عنهم، فأبعَدَ، فهم لا يزالونَ في همِّه، قد شغَلَهم ذلك عن كُلِّ هَمٍّ، وهم يحسَبونَ أنَّهم يُحسِنونَ صُنعًا(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ﴾: سُكّانُ البادِيَةِ مِن العَرَبِ الَّذين يَتَنَقَّلونَ فيها بَحْثًا عَنِ الماءِ والعُشْبِ، ولا يُقيمونَ في الأَمْصارِ والمُدُنِ، ولا يَدْخُلونَها إلَّا لِحاجَةٍ، وقيلَ: الأَعْرابُ هم البَدْو، ولو كانوا عجمًا، وجَمْعُ الأَعْرابِ: أَعاريبُ، والتَّعرُّبُ: الإقامةُ في الباديةِ مع الأَعرابِ، وأصلُ التَّعَرُّبِ:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/4.

التَّشَبُّهُ بالعَرَبِ، يُقالُ: تعرَّبَ؛ إذا تَشَبَّهَ بالعَرَبِ، ومُفردُ الأَعْرابِ: أَعْرابِيٌّ، وَقِيلَ: لاَ مُفْرَدَ لها، وأمَّا الأَعْرابيُّ؛ فَهِيَ النِّسْبَةُ إلى الأَعْرابِ، كقَولِك: فُلاَنٌ أَعْرابِيٌّ، أي: مِنَ الأَعْرابِ، وليس الأَعْرابُ جَمْعًا لِعَرَبٍ[1].

2) ﴿أَشَدُّ﴾: الشِّدَّةُ: الصَّلابةُ، وتأتي بمعنى الإِحْكام، وكلُّ شَيْءٍ أُحكِمَ؛ فقد شُدَّ، وأصلُها: القُوَّةُ في الشَّيْءِ، يُقال: شَدَدْتُ العَقْدَ شَدًّا، أي: قَوَّيْتُهُ، والشَّدُّ: الرَّبْطُ والعَقْدُ، ومِن معاني الشِّدَّة: الارْتِفاعُ، والصُّعُوبَةُ، والعُسْرُ، والجَلادَةُ، والثَّباتُ، والنَّجْدَةُ[2].

3) ﴿وَأَجْدَرُ﴾: أصلُ الجَدْرِ مِن الجِدارِ، وهو الحائطُ، وجَمعُهُ جُدُرٌ وَجُدْرانٌ، وَفي الحَديث: «اسْقِ - يا زُبَيْرُ - وَدَعِ المَاءَ يَرْجِعُ إِلَى الْجَدْرِ»[3]، وقيل: أصلُ (الجدْر) هو أَصْلُ الشَّجَرَةِ، فَكَأَنَّهُ ثابتٌ كثبوت الجدْرِ[4]، وَمِنْ هَذا الْبابِ قَوْلُهُمْ: هُوَ جَدِيرٌ بِكَذا، أَيْ: حَرِيٌّ بِهِ، وَهُوَ مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُثْبِتَ أَمْرَهُ، وَيَبْنِيَهِ عَلَيْهِ[5]، والجديرُ أيضًا: الْمُنْتَهى، لانْتِهاءِ الأَمْرِ إِلَيْهِ، انْتِهاءَ الشَّيْءِ إِلَى الْجِدارِ[6]، والمقصودُ بـ ﴿وَأَجْدَرُ﴾ في الآية: أَحَقُّ وأَخْلَقُ[7].

4) ﴿حُدُودَ﴾: الْحُدُودُ: الْمَقاديرُ والْفَواصِلُ بَيْنَ الأَشْياءِ، والْمَعْنَى: أَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ فَواصِلَ الأَحْكامِ وَضَوابِطَ تَمْيِيزِ مُتَشابِهِها، وحدُّ الشَّيْءِ: مُنتهاهُ، ويأتي بمعنى: المَنْعِ، ومِنْهُ سُمِّيَ البَوَّابُ: حَدَّادًا؛ لأنَّه يَمنعُ غيرهُ مِنَ الدُّخولِ، وسُمِّيَتْ عُقوبةُ الزِّنى وغيره: حَدًّا؛ لأنَّها تمنعُ مِن مُعاودته، ويَمنعُ أيضًا غيرهُ عن إتيان الجِناياتِ[8].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ الأعرابَ أشَدُّ كُفرًا باللهِ، وأشَدُّ نِفاقًا من الكُفّارِ، ومُنافقي أهلِ الحضَرِ؛ لأنَّهم أغلظُ طبعًا وأقسى قلبًا، وهم بذلك أجدرُ وأحقُّ ألَّا يَعلَموا الحلالَ والحَرامَ،

---

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (عرب).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، وابن الأثير، النّهاية، والزَّبيديّ، تاج العروس: (شدد).

(3) رواه أحمد في مسنده، عن عبد الله بن الزّبير ﷺ: 26/40، رقم الحديث: (16116).

(4) الكفويّ، الكليّات، ص: 51.

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جدر).

(6) الرّاغب، المفردات: (جدر).

(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/12، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/386.

(8) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (حدد)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/12.

ذكر كفر الأعراب وشدّتهم، لجهلهم بأحكام الشّرع، وآداب المعاملة

والشَّرائعَ التي أنزَلَها اللّهُ على رَسولِه مُحمَّدٍ ﷺ إذ لم يجلسوا في مجالسِ علمِ الرَّسولِ ﷺ ولم يتعلَّموا على يدِ صحابتِه، واللّهُ عليمٌ بما في قلوبهِم ونيّاتهم، حَكيمٌ في حكمِه عليهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

بيانُ طبيعةِ الأعرابِ في المدينةِ وغيرِها

فُصِلت هذهِ الجملةُ ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا﴾ عمّا قبلَها؛ لأنَّها استئنافٌ ابتدائيٌّ رجع به الكلامُ إلى أحوالِ المعذَّرين من الأعراب، والَّذين كَذَبوا اللّهَ ورسولَهُ منهم، وما بين ذلك استطرادٌ دعا إليه اقترانُ الَّذين كذبوا اللّه ورسولَهُ في الذِّكر مع الأعراب، فلمّا انقضى الكلامُ على أولئك تخلَّصَ إلى بقيَّةِ أحوالِ الأعراب[1].

فائدةُ تقديمِ المسندِ إليه على المسندِ الشّبيهِ بالفعليّ:

تنبيهُ المسلمينَ لأحوالِ الأعرابِ، لمعرفةِ كيفيّةِ التّعامل معهم

قُدِّمَ المسندُ إليهِ ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ﴾؛ للتَّنبيهِ على اتِّصالِ الحديث بالمنافقين، وذلك للاهتمام به من هذه الجهة، وأيضًا لتنبيهِ المسلمينَ لأحوالِ الأعراب؛ لأنَّهم لبُعدِهم عن الاحتكاكِ بهِم والمخالطةِ معهم قد تخفى عليهم أحوالُهم، ويظنُّونَ بجميعِهم خيرًا[2].

سرُّ العدولِ عن(أهلِ البدوِ)، بوصفِ (الأعرابِ):

الأعرابُ لفظٌ مختصٌّ بأهل البادية، وهم أشدّاء في البأس والتّعامل

قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا﴾، وفيه عدلَ عن التَّعبيرِ عن أهلِ البدوِ إلى الوصفِ بالأعراب؛ لأنَّه يعطي وصفًا ثابتًا متعلِّقًا بالبدو وبالبداوةِ، وللتَّفريق بين الأعرابِ والعربِ: فالأعرابُ لفظٌ مختصٌّ بأهل البادية، وأمّا العربُ: فمن سكنَ بالمدينة وقربها، ولهذا إذا قيلَ للأعرابيِّ: يا عربيُّ، فَرِحَ، وإذا قيل للعربيِّ: يا أعرابيُّ، غَضِبَ[3]، وممّا يؤكِّد ذلك، ما قاله أبو السُّعود: "الأعرابُ:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/10 - 11، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/386، وعبد الفتاح لاشين، لغة المنافقين في القرآن الكريم، ص: 191.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/11.

(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/316.

هي صيغةُ جمعٍ، وليست بجمعٍ للعرب، قاله سيبويه؛ لأنَّه لا يلزم كونُ الجمع أخصَّ من الواحد، فإنَّ العربَ: هو هذا الجيل الخاصُّ سواءٌ سكن البوادي أو القرى، وأمّا الأعرابُ؛ فلا يطلقُ إلّا على من يسكن البوادي"[1].

دلالةُ (الْ) على الجنس، في لفظ ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ﴾:

الحكمُ على الجنسِ حكمٌ على المجموعِ لا على الجميعِ

اللَّام في ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ﴾ للجنسِ، أي: جنسُهم لا كلُّ واحدٍ منهم، فالأعرابُ لفظةٌ عامَّةٌ، ومَعْناها الخُصوصُ، وهم جَمعٌ مُعيَّنٌ مِن مُنافِقي الأعرابِ، كانوا يُوالون مُنافِقي المدينةِ، فانصرَف هذا اللَّفظُ إليهم، وهذا مَعلومٌ بالوُجودِ، وكيف كان الأمرُ، وهو مِن باب وصْفِ الجِنْسِ بأحَدِ أفرادِه أو بَعضِهم، كما في قولِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورٗا﴾ [الإسراء: 67]؛ إذ ليس كلُّهم[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا﴾:

الوصفُ بالشِّدَّةِ، آيةٌ على بلوغِ الغايةِ في الكفرِ والنِّفاقِ

عبَّرَ بوصفِهم بشدَّةِ الكفرِ والنِّفاق دونَ الاكتفاءِ بوصفِ الكفرِ والنِّفاق؛ لبيانِ أنَّهم بلغوا الغايةَ القصوى في الكفرِ، وفي النِّفاقِ، فكفرُهم يلتقي فيه الجحودُ والنُّكرانُ والجهلُ الشَّديدُ والغلظةُ الكافيةُ مع عدمِ الإيمان باللّٰهِ ورسولِه، وفي نفاقِهم بلغوا فيه الغايةَ لعدمِ الإيمان الحقيقيِّ، وتظاهروا بالإسلامِ والاستسلامِ[3]. وممَّا يذكرُ في علَّةِ وصفِهم بالأشدِّ في الكفرِ: أنَّ الكفرَ متعلَّقُهُ القلبُ فقط، فإذا دخلت فيه أعمالُ الجوارحِ؛ تحقَّقت فيه الشِّدَّة[4]وقد حكمَ عليهم القرآنُ بشدَّةِ الكفرِ والنِّفاقِ؛ لأنَّهم ما كانوا تحتَ سياسةِ سائسٍ ولا تأديب مؤدِّبٍ ولا ضبط ضابطٍ، فنشؤوا كما

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/95.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/73، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/125، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/377.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3422.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/491.

شاؤوا، بخلاف من شاهدَ مواعظَ رسولِ اللّهِ ﷺ وبياناتِه الشّافيةَ وتأديباتِه الكاملةَ، فكيفَ يكونُ مساويًا لمن لم يشاهد هذا الخير(1).

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿أَشَدُّ كُفۡرٗا﴾:

الكثرةُ لا تحملُ معنى الشِّدَّةِ، ولهذا آثرها السّياق القرآنيّ

آثرَ التَّعبيرَ بلفظِ ﴿أَشَدُّ﴾ في قولِه: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا﴾ دونَ أكثرَ؛ لأنَّه هو المناسبُ لحالة الأعرابِ؛ فمادَّة الشَّدِّ تدور حول القوَّة، يقالُ: شددْتُ الشَّيءَ: قويَّتُ عقدهُ، قال تعالى: ﴿وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ﴾ [الإنسان: 28]، والشِّدَّة تستعملُ في العقدِ وفي البدن وفي قوى النَّفس وفي العذابِ، قال تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ﴾ [فاطر: 44]؛ بخلاف الكثرة، فلا تحملُ معنى الشِّدَّة، فالأشدُّ يقابله الأضعفُ، والأكثرُ يقابله الأقلُّ، والمراد هنا الحديثُ عن الشِّدَّة البدنيَّةِ والمعنويَّةِ في طبيعة الأعرابِ؛ لقسوةِ طباعهِم وغلظةِ قلوبِهم، فكانَ التَّعبيرُ بالأشدِّ هو الأوفقُ للسِّياقِ(2).

دلالةُ حذفِ المفضَّلِ عليهِ، في صيغتي: ﴿أَشَدُّ﴾ وَ ﴿وَأَجۡدَرُ﴾:

حذفُ المفضولِ عليهِ، دالٌّ على التَّمكُّنِ من نفوسِهم

حُذِفَ المفضَّلُ عليهِ على رأيِ من جعلَ أفعلَ التَّفضيل على بابهِ ﴿أَشَدُّ﴾ و﴿وَأَجۡدَرُ﴾ فيكون المفضَّلُ عليه أهلَ الحضرِ، أي: كُفّارَ ومنافقي المدينة، وهذا هو الَّذي تواطأ عليه جميع المفسِّرين(3)، وعلى رأي من يرى أنَّ أفعلَ التَّفضيل على غيرِ بابه، فالمعنى في ﴿أَشَدُّ﴾ و﴿وَأَجۡدَرُ﴾ مستعملٌ لقوَّة الوصفَيْنِ في الموصوفِين بهما، "فالمعنى: أنَّ كفرَهم شديدُ التَّمكُّن من نفوسِهم، ونفاقَهم كذلك؛ من غيرِ إرادةِ أنَّهم أشدُّ كفرًا ونفاقًا من كفّار أهل المدينة ومنافقيها"(4)؛ لأنَّ الشَّأنَ في البدوِ أن يكونوا أشدَّ كفرًا ونفاقًا.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/125.

(2) الرّاغب، المفردات: (شدَّ).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/11.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/11، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3422.

دلالةُ التَّمييزِ في قولِه: ﴿كُفۡرٗا﴾ و﴿وَنِفَاقٗا﴾:

قوله: ﴿كُفۡرٗا﴾ وَ﴿وَنِفَاقٗا﴾ منصوبان على التَّمييزِ، لبيانِ الإبهامِ الَّذي في وصف ﴿أَشَدُّ﴾؛ لذلكَ سلَكَ مسلكَ الإجمالِ، ثمَّ التَّفصيلِ ليتمكَّنَ المعنى أكملَ تمكُّنٍ[1].

إزالةُ الإبهامِ في وصفِ (أشدّ)، للإبانة عن المراد

دلالةُ الجمعِ بينَ الكفرِ والنِّفاقِ، في قوله: ﴿كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا﴾:

جمعَ بين الكفرِ والنِّفاقِ لبيان واقعِ الأعرابِ؛ لأنَّهم بعدَ وفاةِ رسولِ اللّهِ ﷺ منهم من كفرَ، وارتدَّ عن الإسلام، ومنهم من نافقَ لّما قويت شوكةُ المسلمين بعد قتالِ أبي بكر رضي الله عنه لهم، فأخذوا يخفونَ كفرَهم، ويظهرونَ إسلامَهم.

خبثُ طبيعةِ بعضِ الأعرابِ، لتمكُّنِ الكفرِ والنِّفاقِ فيها

سرُّ تقديمِ (الكفرِ) على (النِّفاق)، في السّياق:

في قولِه: ﴿كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا﴾ قُدِّمَ الكفرُ؛ لأنَّهُ الأصلُ في الجحودِ والنُّكرانِ للّهِ ولرسولِه، أمّا النِّفاقُ؛ فيأتي كمرحلةٍ ثانية عند ما يصعب على الكافرينَ المجاهرةُ بكفرِهم، فيلجؤونَ إلى النِّفاق لمداراةِ ما يريدونَ.

الكفرُ أصلُ كلِّ سوءٍ، ومعقد كلّ مفسدة

نكتةُ تنكيرِ ﴿كُفۡرٗا﴾ و﴿وَنِفَاقٗا﴾:

التَّنكيرُ في ﴿كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا﴾ يدلُّ على شيوعِ الكفرِ والنِّفاقِ فيهم وتمكُّنِهما منهم، كأنَّهما صارا طبيعةً لهم، ولذلك يوصفُ كفرُهم ونفاقُهم بأنَّهُ غليظٌ كثيفٌ، لا تُرى عليهم وضاءةٌ من حقٍّ ولا نورٌ من هُدًى، وذلك لبعدِهم عن مواقع الهُدى والنُّورِ من رسولِ اللّهِ ﷺ والمؤمنين معه، يؤكِّد ذلك ما ذكرهُ الماورديُّ في علَّةِ التَّنكيرِ بقولِه: "له وجهانِ: أحدها: أن يكونَ الكفرُ والنِّفاقُ فيهم أكثرَ منه في غيرِهم لقلَّةِ تلاوتِهم القرآنَ وسماعِهم السُّنَنَ، والآخر: أنَّ الكفرَ والنِّفاقَ فيهم أشدُّ وأغلظُ منه في غيرِهم؛ لأنَّهم أجفى طباعًا وأغلظُ قلوبًا"[2].

شيوعُ الكفرِ والنِّفاقِ في الأعرابِ، أكثرُ من غيرِهم

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/11.

(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/393.

طبائعُ البشرِ انعكاسٌ لبيئاتِهم، وتعبيرٌ عن نفسيّاتِهم

دلالةُ العطفِ في جملة ﴿وَأَجۡدَرُ﴾:

دلَّتِ الواوُ على عطفِ قولِه تعالى: ﴿وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ﴾، على ما قبلَها لتعديدِ صفاتِهم الذَّميمةِ الَّتي سبقَ بعضُها، ومنها عدمُ معرفتِهم حدودَ ما أنزل اللّهُ تعالى على رسولِه.

الجدارة بعدم العلم والفهم، مناسبة للأعراب، الّذين اكتسبوها من البيئة الخشنة

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿وَأَجۡدَرُ﴾:

قولِه تعالى: ﴿وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ﴾، وفيه آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿وَأَجۡدَرُ﴾ دونَ (أحرى) لوجودِ فرقٍ بينهما، فالحريُّ هو الَّذي رجا أمرًا، وطلبَه، يقال له: تحرّاهُ، كأنَّهُ طلبَ مستقرَّهُ ومأواهُ، وأمّا قولُهم: جديرٌ به، معناهُ: أنَّ ذلك يرتفعُ من جهتِه، ويظهرُ من قولِهم: جُدِّرَ الجِدارُ؛ إذا بُني، وارتفع، والجديرُ: المنتهى، لانتهاءِ الأمرِ إليه انتهاءَ الشَّيءِ إلى الجدارِ؛ لأنَّ اشتقاقَهُ من الجدرِ، وهو أصلُ الشَّجرةِ، فكأنَّهُ ثابتٌ كثبوتِ الجدرِ، إذًا مادَّةُ (جدر) تدلُّ على ثبوتِ الشَّيءِ وارتفاعِه[1].

وبناءً على هذا، آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بقوله: ﴿وَأَجۡدَرُ﴾ لمناسبتِه لسياقِ الحديثِ عن الأعرابِ في شدَّةِ كفرِهم ونفاقِهم وعدمِ علمِهم لحدودِ ما أنزلَ اللّهُ على رسولِه، فهذهِ الصِّفاتُ السّابقُ ذكرُها، ولا سيِّما عدمُ علمِهم بحدودِ اللّهِ، ليس أمرًا طارئًا، بل هو متجذِّرٌ فيهم، ثابتٌ ثبوتَ الجدارِ ناشِئٌ من ظروفِ حياتِهم، وما في طباعِهم من جفوةٍ، وبُعدٍ عن المعرفة[2].

والجدارةُ بالشَّيء قد تكونُ طبيعيَّةً وقد تكونُ بأسبابٍ كَسْبيَّةٍ من فنيَّةٍ وشرعيَّةٍ وأدبيَّةٍ، وقد تكونُ بأسبابٍ سَلبيَّةٍ اقتضتها حالةُ المعيشةِ والبيئةِ، وهذا النَّوعُ الأخيرُ هو المناسبُ لحالةِ الأعرابِ.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (جدر).

(2) عبد الفتاح لاشين، لغة المنافقين في القرآن الكريم، ص: 191.

نكتةُ حذفِ الباءِ من المصدرِ المؤوَّلِ ﴿أَلَّا يَعۡلَمُواْ﴾:

الأعرابُ المنافقونَ، يوصفون بعدمِ العلمِ بما أنزلَ اللهُ على رسولِهِ

"حُذِفَتِ الباءُ الَّتي يتعدَّى بها فِعلُ الجدارةِ على طريقةِ حذفِ حرفِ الجرِّ مع (أن) المصدريَّة"(1) وربَّما يدلُّ حذفُ حرفِ الجرِّ، على أنَّهم لا يمكنُ أن يصلوا إلى العلمِ بما أنزلَ اللّهُ على رسولِهِ لانعدامِ الواسطةِ الَّتي دلَّ عليها حذفُ حرفِ التَّعديةِ، فهم لا يقدرونَ على الوصولِ إلى عدمٍ، فكيف يصلون إلى العلم؟

سرُّ اختيارِ العلمِ، في قولِهِ: ﴿أَلَّا يَعۡلَمُواْ﴾، دونَ المعرفةِ:

نفيُ القدرةِ على العلمِ تحقيرٌ لهؤلاءِ الموصوفين في السّياق

آثرَ التَّعبيرَ بالعلمِ دونَ المعرفةِ؛ لأنَّ العلمَ أدقُّ من المعرفةِ، فيحتاجُ إلى إقامةِ الدَّليلِ نظريًّا كان أو عقليًّا بخلافِ المعرفةِ، فلا تحتاجُ لذلكَ، فالمعرفةُ أعمُّ من العلمِ؛ لذلك نفى عنهم العلمَ دونَ المعرفةِ، وفيهِ إشارةٌ للرَّدِّ على من يقولُ: كيفَ يُحتجُّ بألفاظِ الأعرابِ وأشعارِهم على كتابِ اللّهِ تعالى مع وصفِهم بالجهلِ؟ فكانَ التَّعبيرُ بنفيِ العلمِ هو خيرُ دليلٍ على ذلكَ؛ لأنَّ المرادَ الجهلُ بأحكامِ القرآنِ، وليسَ بألفاظِهِ، وإلّا فهم كانوا مضربَ الأمثالِ في قوَّةِ الجَنانِ لَوْذَعيَّةِ الأذهانِ وذرابةِ اللِّسانِ، وسعةِ بيداءِ البيانِ، وعنهم أخذَ رواةُ العربيَّةِ أكثرَ المفرداتِ(2).

سرُّ اختيارِلفظ ﴿حُدُودَ﴾:

الحدودُ والضَّوابطُ أدقُّ العلومِ، وأكثرُها نجاعةً وضبطًا

قوله تعالى: ﴿وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ﴾، اختارَ التَّعبيرَ بالحدودِ عن الشَّرائعِ والأحكامِ؛ لأنَّ تجاوزَها يخرجُ صاحبَها من الحلِّ إلى المنعِ، وفي الحديثِ: «وحدَّ حدودًا، فلا تعتدُّوها»(3)؛ لأنَّ أصلَ الحدِّ في اللُّغةِ المنعُ، ومنهُ الحديدُ؛ لأنَّه يحتمى بهِ من الأعادي، ومنه حدُّ الدّارِ؛ لأنَّهُ يمنعُ الآخرينَ من دخولها(4)؛

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/12.

(2) محمد رضا، تفسير المنار: 11/8.

(3) الطّبراني، المعجم الكبير، الحديث رقم: (589).

(4) الرّاغب، المفردات: (حدّ).

ولذلك أطلقت الحدود على الشَّرائع؛ لأنَّها تمنعُ من تجاوزِها والتَّعدِّي عليها، والمرادُ هنا أحكامُ الشَّريعةِ والفرائضِ، وأحكامُ الجرائم وعقوباتُها، والمحرَّماتُ من النِّساء والمواريث، وغير ذلك من أحكام الشَّريعةِ التَّفصيليَّة، فالأعرابُ لبعدِهم عن المدينةِ في الجلوسِ في مجالسِ العلمِ كانوا جديرينَ بالبعدِ عن العلمِ بحدودِ اللّهِ(1).

وممَّا يذكرُ في سرِّ اختيارِ التَّعبيرِ بالحدودِ أنَّ الأعرابَ في الباديةِ يعرفونَ مصطلحَ الحدودِ الفاصلةِ بين منطقةِ الرَّعي لكلِّ قبيلةٍ، فلا ينبغي لأحدٍ أن يتعدَّى على الآخرِ، فعبَّر بهِ لمعرفتِهم بمعناهُ ولإلفِ نطقِهم لمبناهُ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿مَآ﴾:

الجهلُ بالعامِّ، دليلٌ على انتفاءِ العلمِ بالخاصِّ

عبَّرَ في قولِه: ﴿أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ﴾ بـ ﴿مَآ﴾ الَّتي تفيدُ العمومَ لكلِّ ما أنزلَهُ اللّهُ من الوحي المتلوِّ وغير المتلوِّ ليشملَ كلَّ أفرادِ الشَّريعةِ في فرائِضِها ونوافِلِها.

سرُّ التَّعبيرِ بالإنزالِ في قولِه: ﴿أَنزَلَ﴾:

الإعلامُ بعلوِّ الوحي، تذكير بأنّه من الله

عَبَّرَ بالإنزالِ الَّذي يدلُّ على جهةِ العلوِّ ليشيرَ إلى تعظيم الحدودِ، وأنَّها ليست من مكوِّنات المجتمعِ وطبائِعِهِ؛ لأنَّ من طبيعةِ الأعرابِ وجودَ حدودٍ بينهم في المراعي وفي السَّكنِ، فأرادَ القرآنُ أن يفرِّقَ بينَ ما كانَ من طبيعةِ الأعرابِ، وبين ما هو من شرعِ اللّهِ، وذلك بوصفهِ بالإنزالِ.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

المهابةُ تُعلي من شأنِ المطلوبِ علمُهُ

عبَّرَ بلفظِ الجلالةِ دونَ لفظِ الرُّبوبيَّةِ لتربيةِ المهابةِ في قلوبِ الأعرابِ خصوصًا، وفي غيرهم عمومًا؛ لأنَّ طبيعةَ البداوةِ، أوجدتْ فيهم جرأةً على التَّعدِّي على حدودِ اللّهِ لجهلهم وقساوةِ قلوبِهم.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3422.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿عَلَىٰ﴾ دونَ (إلى):

شـرفُ المنـزلِ علـوٌّ، وتعظيمٌ لمنزلته ومقامه

قولِه: ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، عبَّر فيه بالحرف ﴿عَلَىٰ﴾ الَّتي تفيدُ الاستعلاءَ، دونَ (إلى) الَّتي تفيدُ انتهاءَ الغايةِ؛ لأنَّ المقامَ هنا مقامُ تعظيمٍ وتشريفٍ للرَّسولِ ﷺ أمامَ هؤلاءِ الأعرابِ الَّذين يظنُّون أنَّهُ بشرٌ مثلهم، فكيفَ تكونُ له السُّلطةُ عليهم، فكانَ التَّعبيرُ بـ ﴿عَلَىٰ﴾ الَّذي يدلُّ على علوِّ مكانته ﷺ.

سرُّ التَّعبيرِ برسولِهِ دونَ نبيِّه، في قولِه: ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾:

مقامُ التَّشريعِ للرِّسالةِ لا للنُّبوَّةِ

آثرَ التَّعبيرَ بالرِّسالةِ في قولِه: ﴿رَسُولِهِۦ﴾ دونَ النُّبوَّة؛ لأنَّ المقامَ هنا مقامُ تشريعاتٍ وتكليفاتٍ، عبَّر عنها بقولِه: ﴿حُدُودَ﴾، وهذا هو المناسبُ لهذا السِّياق، وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ إقامة الحدودِ تُبنى على التَّمهُّل من قولِك: على رسلِكَ، أي: تمهَّلْ في تطبيقِ الحدودِ، فلا تقامُ على الشُّكوكِ إنَّما تُقامُ على اليقينِ.

سرُّ تذييلِ الآيةِ، بقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

الإفصاحُ عن دخيلةِ الأعرابِ وأخلاقِهم

جاءتِ الفاصلةُ باسْمَي (العليم والحكيم)، لتعلُّقِ الأمرِ بالنِّفاق القلبي، وخبايا النُّفوس، وبيان أنَّ وجودَ مثل هذهِ الأصنافِ في المجتمعات، إنَّما هو لحكمةٍ يريدُها اللّٰهُ تعالى في تمحيصِ صفِّ المؤمنين، فالفاصلةُ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تذييلٌ لهذا الإفصاحِ عن دخيلةِ الأعرابِ وخُلُقِهم وقسوةِ قلوبِهم، وبُعدِهم عن العِلم والعُلماء، فهو سبحانه عليمٌ بهم وبغيرِهم، حكيمٌ في تمييزِ مراتبِهم بمقتضى الحكمةِ[1]، وفي هذا الختام دعوةٌ لهؤلاءِ الأعرابِ أن ينزعوا عن أنفسِهم حياةَ البداوةِ، وأن يخرجوا إلى حياةِ الحضرِ، ويقتربوا من مواطنِ العلمِ والمعرفةِ، ويخالطوا العلماءَ، فيأخذوا عنهم؛ لأنَّ اللّٰهَ سبحانه عليمٌ حكيمٌ، ولا يُعرف الطَّريقُ إلى اللّٰهِ إلّا عن طريقِ أهلِ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/387، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/378، وعبد الفتّاح لاشين، لغة المنافقين في القرآن الكريم، ص: 192.

العلمِ والحكمةِ، وفي ختامِ الآية بهذين الوصفينِ دعوةٌ إلى العمرانِ وتركِ العزلةِ والوحشةِ ما استطاعوا لذلك سبيلًا[1].

نكتةُ التَّقديمِ لـ ﴿عَلِيمٌ﴾، على لفظ ﴿حَكِيمٌ﴾:

تقديمُ الأخصّ بالسِّياقِ، على أثرِهِ وناتجِهِ

قَدَّمَ العليمَ على الحكيمِ من بابِ إتباعِ الصِّفةِ بما هو أخصُّ منها، فمفهومُ الحكمةِ يزيدُ على مفهوم العلم؛ إذ الحكمةُ ناشئةٌ عن العلمِ وأثرٌ له، فالحكمةُ كمالٌ في العلم[2].وممّا يذكرُ في علَّةِ التَّقديم الإشارةُ إلى أنَّهُ يعلم حالَ كلِّ أحدٍ بالتعلُّقِ القديم قبلَ الوقوعِ، أي: يعلمُ أنَّهُ سيوجدُ على حالةِ كذا وكذا، وبالتَّعلُّقِ الحادثِ عند الوقوعِ، وهذا العلمُ يترتَّب عليهِ الجزاءُ خيرًا أو شرًّا، وفي هذا جوابٌ على سؤالٍ يردُ في الخاطرِ: كيف حُكِمَ على الأعرابِ بأنَّهم أشدُّ كفرًا ونفاقًا؟ فكانَ الجوابُ: بأنَّهُ عليمٌ يعلمُ حالَ كلِّ أحدٍ من أهلِ الوبرِ والمدرِ بما يفعلونَ[3]، وفيه تحذيرٌ لأهلِ البدوِ خصوصًا ولغيرهم عمومًا بأنَّ اللّهَ تعالى يعاملُ النّاس بما يعلمُ من نيّاتِهم، وأنَّه حكيمٌ لا يأمرُ إلّا بما فيهِ تحقيقُ الحكمةِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

صِفاتُ اللهِ ثابتةٌ، لا تنفكُّ عن كمالِ ذاتهِ تعالى

هذا التَّذييلُ - كما هو ظاهرٌ - جاءَ في جملةٍ اسميَّةٍ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ وذلك لإفادةِ الثُّبوت واللُّزوم، فهاتان الصِّفتان (العِلم والحِكمة) من الصِّفات الثّابتةِ للّهِ تعالى الَّتي لا تنفكُّ عن ذاته ﷻ فهو لم يزَل ولا يزالُ عليمًا حكيمًا، فهو ﴿عَلِيمٌ﴾: بأحوالِ مخلوقاتهِ على العمومِ وهؤلاءِ منهم، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يجازيهم به من خيرٍ وشرٍّ.

---

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني: 6/876.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرُّ المصون: 1/267.

(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/317.

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٩٨﴾ [التّوبة: 98]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين نوع شديد من الأعراب، ونوع آخر يرى الزّكاة مغرما، ويتربّص بالمسلمين

لَمّا ذكرَ اللّهُ ﷻ في الآيةِ السّابقةِ أنَّ الأعرابَ أشدُّ النّاس كفرًا، ونفاقًا، وهم أبعدُ النّاس عن فهمِ كتابِ اللّهِ وتطبيقِ أحكامهِ؛ جاءت هذهِ الآيةُ لتبيِّن أنَّهم ليسوا على نمطٍ واحدٍ، فمنهم من ظهرت عليهِ علاماتُ الشَّرِّ لخبثِ بواطنِهم، فيرونَ ما يدفعونَهُ من زكاةٍ على أنَّه مغرمٌ وجبَ عليهم أداؤهُ، قال تعالى في حقِّهم: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ الآية. وممّا يذكرُ في المناسبةِ أيضًا أنّه لمّا أثبتَ هذا الوصفَ لهذا الصِّنفِ بيَّن أنَّ أفرادَهُ انقسموا إلى مَن ثبت على ما هو الأليقُ بحالِهم، وقِسْمٌ نزعَ إلى ما هو الأليقُ بأهلِ المدَرِ، كما انقسَم أهلُ المدَرِ إلى مثلِ ذلك، وبدأَ بالخبيثِ؛ لأنَّهُ الأصلُ فيهم، فقالَ: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَغْرَمًا﴾: الغُرْمُ: الخسارَةُ والنَّقْصُ، يُقال: غرِمَ، يَغْرَمُ، غُرْمًا ومَغْرَمًا، أيْ: خَسِرَ ونَقَصَ مالُهُ، وضِدُّه: الغُنْمُ والرِّبْحُ، ويأتي الغُرْمُ، بِمعنى: الدَّيْن، والغَريمُ: المَدِينُ، وهو الشَّخْصُ الَّذي عليهِ دَيْنٌ، وأصلُ الغُرْمِ: المُلازمةُ، والغَرامةُ: ما يَلزمُ أداؤُهُ، ومنه سُمِّيَ الغَرِيمُ: غَرِيمًا؛ لأنَّهُ يُلازِمُ خَصْمَهُ، ويُدِيمُ مُطالبتَهُ بحقِّهِ حتَّى يَقبضَه، ومِنْ معاني الغُرْمِ أيضًا: الضَّمانُ[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/4 - 5.

(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (غرم).

2) ﴿وَيَتَرَبَّصُ﴾: التَّربُّصُ: الانتظارُ بالشَّيءِ، سلعةً كانت يقصد بها غلاءً، أو رخصًا، أو أمرًا ينتظر زواله أو حصوله، يقال: تربَّصتُ لكذا، ولي رُبْصَةٌ بكذا، وتَرَبُّصٌ[1].

3) ﴿ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾: الدّائرةُ اسمُ فاعلٍ، مِنْ دارَ؛ إذا عَكَسَ سَيْرَهُ، فالدّائرةُ تغيُّرُ الحالِ، وغلَبَ إطلاقُها على تغيُّرِ الحالِ مِنْ خَيْرٍ إلى شرٍّ، ودوائرُ الدَّهْرِ: نُوَبُهُ ودُوَلُهُ، قال تعالَى: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾، أي: تَبَدُّلَ حالكُم مِنْ نَصْرٍ إلى هَزِيمةٍ[2]، وأصلُ (دور): يدلُّ على إحداقِ الشَّيءِ بالشَّيءِ مِن حواليه.

4) ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾: أي: يحيط بهم السُّوءُ إحاطةَ الدّائرةِ بمن فيها، فلا سبيلَ لهم إلى الانفكاكِ منهُ بوجه[3].

5) ﴿سَمِيعٌ﴾: السَّميعُ هُوَ فعيل في معنى فاعل، واللّه تَعالَى سامع وَسميع، وَيَجِيء على قِياس قَول قطرب، أَن يَقُول في سميع: إِنَّه الَّذي يسمع السِّرَّ وسامع في كل شَيْء، وَيَجِيء في كَلامهم سمع بِمَعْنى: أجاب، من ذَلِك ما يَقُوله الْمُصَلِّي عِنْد رَفْعِهِ من الرُّكُوع: سمعَ اللّهُ لمن حَمده، فُسِّر على أَنَّه بِمَعْنى: اسْتَجاب[4].

6) ﴿عَلِيمٌ﴾: العَليمُ والعالم صِفتان مُشتقَّتان مِن العِلْم، فالعالم: اسم الفاعل من عَلِم يَعلَم، فهو عالم، والعَلِيم: مِن أبنية المبالغةِ في الوصفِ بالعلم، وهو بمنزلةِ قديرٍ مِن القادر[5].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

احتسابُ الزَّكاةِ غُرمًا، والتَّربُّص بالإسلام وأهله، من أقبح مظاهرِ النِّفاقِ

يُخبِرُ اللّهُ تعالى في هذهِ الآيةِ أنَّ مِن الأعرابِ مَن يحتَسِبُ ما

(1) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (ربص).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (دور)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/233.
(3) الرّاغب، المفردات: (دار).
(4) الزّجّاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 42.
(5) أبو القاسم الزّجّاجيّ، اشتقاق أسماء الله، ص: 50.

يُنفِقُه في الخيرِ غُرمًا وخَسارةً، فيُنفِقُ وهو كارهٌ، لا يرجو ثوابًا عندَ اللّه تعالى، بل ينفقُ للرِّياءِ والسُّمعةِ وطمعًا في التَّقرُّب من المسلمين واتِّقاءِ شرِّهم، ويتربَّصُ بالمُسلِمينَ المصائِبَ، وينتظرونَ بهم حوادثَ الأيّامِ واختلالَ الأمورِ، وغَلَبَةَ الأعداءِ عليهم، جعَلَ اللّهُ عليهم وَحْدَهم المصائِبَ الَّتي تَسوؤُهم، وتُفسِدُ أمورَهم، واللّهُ سَميعٌ عَليمٌ.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾:

شروعٌ في ذكرِ صنفٍ آخرَ مِنَ الأعرابِ، لهم صفاتٌ من الفساد أخرى

دلَّتِ الواوُ على عطفِ هذهِ الآيةِ الكريمةِ على ما سبقَ؛ لأنَّها شرحٌ لبعضِ مثالبِ هؤلاءِ المتفرِّعةِ على الكفرِ والنِّفاقِ من المنافقينَ الَّذينَ يعتبرونَ ما ينفقونَهُ في سبيلِ اللّهِ غرامةً وخسارةً عليهم؛ لأنَّهم لا ينفقونَ ما ينفقونَهُ طمعًا في ثوابٍ، أو خوفًا من عقابٍ، وإنَّما ينفقونَهُ تقيَّةً ورياءً ومُداراةً للمُسلمين، لا مساعدةً للغزاة والمجاهدين، ولا حبًّا في انتصارِ المؤمنين.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مِنَ﴾ في: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾:

ذكرُ بعضِ مثالبِ الأعرابِ، الَّتي أسهبَ السِّياقُ في تفصيلِها

آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿وَمِنَ﴾ دونَ بعضٍ؛ لأنَّ ﴿وَمِنَ﴾ تتعدَّدُ معانيها، فهذا تبعيضٌ على سبيلِ التَّصنيفِ، فصلحت لهُ (من)، ولم تكن بعضٌ لتقومَ بالمعنى وحدَها، وهذا التَّعدُّد يثري معنى الآية بخلافِ بعضٍ؛ فإنَّها لا تدلُّ إلّا على معنى الجزئيَّةِ، وهذا قد لا يكونُ الأوفقَ في هذا السِّياقِ؛ لأنَّ الكلامَ عن صفات جنسِ الأعرابِ، وليس عن بعضِ الأعرابِ، وعلى هذا فمعنى ﴿وَمِنَ﴾ البيانُ، يؤكِّدُ ذلك ما قالهُ الآلوسيُّ بقولِه: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾، أي: من جنسِهم الَّذي نُعِتَ بنعتِ بعضِ أفرادِه، وقيلَ: من الفريقِ المذكورِ، وهؤلاءِ وإن كانوا من جملةِ مُنافقي الأعرابِ، فتخصيصُهم بالتَّقسيم هنا منظورٌ فيه إلى ما اختُصُّوا به من أحوالِ النِّفاقِ؛ لأنَّ التَّقاسيمَ في المقاماتِ الخِطابيَّةِ والمجادلاتِ، تعتمِدُ اختلافًا ما في أحوالِ المُقسَّم، ولا يُعبأُ

فيها بدخولِ القسم في قَسيمِه، فقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ هو في التَّقسيمِ[1] كقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

دلالةُ (الْ) في لفظ ﴿ٱلْأَعْرَابِ﴾، وأثرها في المعنى:

بيانُ طبيعةِ جنسِ الأعرابِ، الموصوفين بأشنع الصّفات

دلَّتِ اللَّامُ في قوله: ﴿ٱلْأَعْرَابِ﴾ على بيانِ حقيقةِ الجنسِ وماهيَّته وطبيعتِه، بقطع النَّظر عمّا يصدقُ عليه مِن أفرادِه، فليسوا جميعًا بهذهِ المثابةِ مِن شدَّةِ الكفرِ والنِّفاقِ والنُّبوِّ عن استماع الكلامِ الطَّيِّبِ[2].

نكتةُ وضعِ المظهرِ موضعَ المضمرِ:

زيادةُ التَّعيينِ طريقُها الإظهارُ، وذلك من بليغ الاستعمال

آثرَ التَّعبيرَ بالإظهارِ ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ دونَ الإضمارِ للدَّلالةِ على تحديدِهم وتعيينِهم، فلا ينصرفُ الوصفُ إلى غيرهم من المنافقين؛ لأنَّهُ لو قيلَ: (ومنهم) لذهبَ بعضُهم إلى ربطِهِ بهذا التَّعبيرِ في حديثِ القرآنِ عن المنافقين الَّذين تعدَّد ذكرُهم في هذه السُّورةِ في مواضعَ عديدةٍ، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، ﴿۞وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾، ونحو ذلك من الآياتِ، وفيه إشارةٌ إلى تحذيرِ المؤمنين من طبيعةِ الأعرابِ في التَّعاملِ معهم.

بلاغةُ تقديمِ المسند ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾، على المسندِ إليه:

الغرضُ تفصيلُ أنواعِ المنافقينَ، والتّقديمُ تلبيةٌ للغرضِ

الغايةُ من تقديمِ المسندِ هنا العنايةُ بالمتقدِّم لأهميَّتهِ من جهةٍ، ولبيانِ مكانتهِ بين أنواعِ جنسهِ من جهةٍ أُخرى؛ إذ إنَّ تقديمهُ يُعدُّ شروعًا في تشعيبِ جنسِ الأعرابِ إلى فريقين، وعدمِ انحصارِهم في الفريقِ المذكورِ، فتقديمُ النَّوعِ هو مقصودُ السِّيَاقِ لعنايةِ السِّياقِ ببيانِ الأنواعِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مَن﴾:

قولهِ: ﴿مَن يَتَّخِذُ﴾، وفيه عَبَّرَ بـ(مَنْ) دونَ (الَّذي)؛ لأنَّها تفيدُ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/6، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/13.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/163.

العمومَ، فتشملُ هذا الصِّنفَ مِنَ الأعرابِ، وتشملُ غيرَهم، فكلُّ من يعدُّ إنفاقَ الزَّكاةِ أو الصَّدقةِ مغرمًا يستحقُّ غضبَ اللّهِ وعقوبتَهُ، بخلاف التَّعبيرِ بـ (الَّذي) فإنَّها تصدقُ على مجموعةٍ بعينها، فلا يتحقَّق فيها معنى العموم.

الـصِّـفـاتُ العامَّةُ، كافيةٌ في الكشفِ عن النَّوعِ المقصود

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿يَتَّخِذُ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ﴾، وفيه آثَرَ التَّعبيرَ بالاتِّخاذِ دونَ الجَعْلِ؛ لأنَّ الجعلَ يُطلقُ بمعنى التَّغييرِ من حالةٍ إلى حالةٍ، نحو: جعلتُ الشَّقَّةَ بَرْدًا، ويُطلقُ بمعنى العَدِّ والحُسبان، نحو: ﴿وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ﴾ [النَّحل: 91]، وهذا المعنى غير مرادٍ هنا؛ لذلكَ اختارَ التَّعبيرَ بالاتِّخاذ، لما تحملهُ صيغتُهُ من معنى الاختيارِ والانتفاعِ بما يتَّخذُ باعتبارِ غرضِ المنفقِ من الرِّياءِ والتُّقيَّةِ، لا باعتبارِ ذات النَّفقةِ الَّتي يعدُّها غرامةً[1]، وفيهِ إشارةٌ إلى تقبيحِ فعلهِم لتنفيرِ أهلِ الإيمانِ من سلوكِهِم.

اختيارُ المفردةِ، يكون عادةً تابعًا للغرضِ المقصودِ

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مَا﴾ في: ﴿مَا يُنفِقُ﴾:

آثَرَ التَّعبيرَ بـ ﴿مَا﴾ الَّتي تفيدُ العمومَ؛ فتشملُ القليلَ والكثيرَ والجليلَ والحقيرَ من النَّفقات وذلك ملائمٌ لبيانِ حالةِ الأعرابِ النَّفسيَّةِ عند كلِّ نفقةٍ ينفقونها سواءٌ كانت النّفقةُ فرضًا أو نفلًا يعدُّون كلَّ وجوهِ الإنفاق مغرمًا وخسارة، ساعد على ذلك التَّعبيرُ بلفظِ ﴿مَا﴾ الَّذي يصدقُ على جميعِ وجوهِ الإنفاقِ.

من عدَّ الإنفاق مَغْرمًا وخسارة، لم ينل أَجْرًا، ولا حاز جدارة

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يُنفِقُ﴾:

آثَرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ استعمالَ صيغةِ المضارعِ (ينفق) لإثباتِ سلوكِ المنافقين المتجدِّدِ في إنفاقِهِم، إذ يعدُّونَ كلَّ ما ينفقونَهُ غرامةً وخسارةً عليهِم، فهو واقعٌ منهم، وسيبقى مُستمرًّا معهم.

حسرةُ المنافقِ متجدِّدةٌ مع كلِّ نفقةٍ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/95، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/13.

نِيّاتُ المنافقين خبيثةٌ، وتفسيرُهم العمليّ كاشفٌ سوءَها لا محالة

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿مَغۡرَمٗا﴾:

آثَرَ التَّعبيرَ بقولِه: ﴿مَغۡرَمٗا﴾؛ لأنَّ الغرامةَ هي المالُ الَّذي يدفع في غيرِ مقابلٍ، وأصلُ الغرام: الشَّيءُ الملازِمُ، وأطلق على المَدين (الغارم)؛ لأنَّهُ ملازِمٌ دائمًا من الدّائنِ، وهؤلاءِ الأعرابُ يعدُّون ما ينفقونَهُ من زكاةٍ مفروضةٍ (غرامة)، وينتظرونَ أن ينخلعوا من هذا المالِ المفروضِ عليهم؛ لأنَّهم لا يؤمنونَ بوجوبِه؛ لأنَّهم لا إيمانَ عندهم يلزِمُهم بها(1).

التَّقليل من شأنِ نفقةِ المنافقينَ، لعروِّها من النّيّة الصّالحة، والفقه السّديد

نكتةُ تنكيرِ ﴿مَغۡرَمٗا﴾:

أفادَ تنكيرُ ﴿مَغۡرَمٗا﴾ في الآيةِ معنى العُمومِ ليشملَ كلَّ ما أنفقوهُ، وفيه إشارةٌ إلى التَّقليلِ من شأنِ نفقاتِهم؛ لأنَّهم لا ينفقونها احتسابًا ورجاءً لثوابِ اللهِ تعالى ليكونَ لهم مغنمًا، وإنَّما ينفقونها رياءً وتقيَّةً، فهي غرامةٌ محضةٌ(2).

تربُّصُ المنافقين بالمؤمنين، في الظّاهرِ والباطنِ، من أخطرِ الكيدِ والتّآمر

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَيَتَرَبَّصُ﴾:

آثَرَ التَّعبيرَ بالواوِ دونَ غيرِها في قولِه: ﴿وَيَتَرَبَّصُ﴾ لاحتمالِها أكثرَ من معنًى، فتكونُ للحالِ، فهي تصوِّرُ حالَ تربُّصِ الأعرابِ المنافقين بالمؤمنينَ للإيقاعِ والغدرِ بهم، حالهُم في هذا كحالِ الوحوشِ المفترسةِ الَّتي تتربَّص بفريستها لتقضي عليها، ويجوزُ أن تكون الواوُ عاطفةً، فيكون الفعلُ ﴿وَيَتَرَبَّصُ﴾ داخلًا في حكم الصِّلةِ، فيجمعُ لهم اعتبارَ الزكاةِ مغرمًا والتَّربُّصَ بالمؤمنين؛ لذلك جازَ العطفُ للاشتراكِ بينهما في صفةِ السُّوءِ.

سلوكُ المنافقين انعكاسٌ لواقعِهم

دلالةُ الباءِ، في قولِهِ: ﴿بِكُمُ﴾:

الباءُ للسَّببيَّةِ، كقولِهِ تعالى: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ [الطّور: 30]، وجعلَ المجرورَ بالباءِ ضميرَ المخاطبينَ على تقديرِ مُضافٍ،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3423.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/95.

والتَّقديرُ: ويتربَّص بسببِ حالتِكم الدَّوائرَ عليكم، لظهورِ أنَّ الدَّوائر لا تكونُ سببًا لانتظار الانقلابِ، بل حالهم هي سببُ تربُّصِهم أن تنقلبَ عليهم الحالُ؛ لأنَّ حالَتهم الحاضرةَ شديدةٌ عليهم(1).

علَّةُ تقديمِ شبهِ الجملة ﴿بِكُمُ﴾:

الاهتمامُ بالمؤمنين، وتحذيرُهم من خطرِ المنافقين

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿بِكُمُ﴾ للتَّخصيصِ والاهتمام، فالاهتمامُ منصبٌّ على المؤمنين دونَ غيرِهم؛ لأنَّهم المقصودونَ بالخطابِ خاصَّة، ولو لم يكنْ كذلك لقدَّم المفعولَ به ﴿ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾ عليها، كما أنَّ في دلالة هذا التَّقديم تحذيرًا وبيانًا من خطرِ المنافقين على المؤمنين.

علَّةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾:

دقَّةُ التَّصويرِ في استعمالِ المفردةِ القرآنيَّةِ الفصيحة

آثرَ التَّعبيرَ بالدَّوائرِ دونَ المصائبِ؛ لأنَّ الدَّوائرَ في معناها أحكمُ وأبلغُ، حيثُ تعبِّر عن إتيان جميعِ المصائبِ من كلِّ جانبٍ، كأنَّها تدورُ معهم أينما ذهبوا، وتتعاقبُ عليهم؛ لأنَّ الدائرةَ اسمٌ للمُصيبةِ، وهي في الأصل مصدرٌ كالعاقبةِ، أو اسم فاعل من (دار)، فهم ينتظرونَ المصائبَ الَّتي تحيطُ بالمسلمين كما تحيطُ الدّائرة، وذلك من باب التَّجسيمِ المعنويِّ على الاستعارةِ، وهو ممّا يعمِّقُ المعنى في النَّفس(2).

نكتةُ التَّعبيرِ بالجمعِ ﴿ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾:

ترقُّبُ هزيمةِ المؤمنين من أحلامِ المنافقين

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالجمعِ (دوائر)؛ للمبالغةِ في ترقُّبِ المنافقينَ لهزيمةِ المؤمنين من أيِّ جهةٍ سواءٌ بموتِ رسولِ اللّٰه ﷺ أو بهزيمتهم في معركةٍ من المعارك أو بنوائبِ الدَّهر ودوائرِه لتذهبَ غلبةُ المسلمين، فيتحلَّلون من تلكَ النَّفقاتِ المفروضةِ عليهم، وبالفعل انتظروا حتى توفِّي رسولُ اللّٰه ﷺ فحسبوها فرصةً، فارتدُّوا، ولكنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/14.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/14، وعبد الفتاح لاشين، لغة المنافقين في القرآن الكريم، ص: 192.

اللّهَ كبتَ كيدَهم، وقاتلهم أبو بكرٍ رضي الله عنه ودفعوا الزَّكاة صاغرينَ أمامَ سيفِ اللّه خالد بن الوليد[1].

سرُّ المغايرةِ بالتَّعبيرِ بـ ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾، مقابل ﴿ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾:

المنافقون يهلكون بدائرة السّوء، وذلك لضعفهم أمام قدرة الله

المتأمِّلُ لأسلوب القرآنِ الكريمِ، في تصويرِ ما امتلأَتْ بهِ نفوسُ المنافقين من أحلامِ التَّرقُّبِ لهزيمة المؤمنين، ومن كثرةِ أمانيهم في ذهابِ دولةِ الإسلامِ، عبَّرَ القرآنُ عن ذلك بكلمةٍ جامعةٍ ﴿ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾، وهي تنبِئُ عن كلِّ ما سبقَ منهم، وتشيرُ إلى ضعف إمكاناتِهم مهما بلغت أمامَ قوَّةِ اللّهِ؛ لذلكَ جاءَ ردُّ اللّهِ تعالى عليهم بالإفرادِ مبالغةً في شدَّةِ الإهلاك، حيثُ يكونُ هلاكُهم بدائرةٍ واحدة، وهي دائرةُ السَّوءِ الَّتي لا نجاةَ معها، فاجتمعَ في الآيةِ من التَّناسبِ الدَّقيقِ في المقابلةِ، ممّا يشهدُ بإعجازِ النَّظمِ الحكيم.

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾:

الإحاطةُ والشُّمولُ، من ميزات السّياق في هذه الآية الكريمة

في قولهِ تعالى: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾ استعارةٌ تبعيَّةٌ؛ حيثُ شبَّهَ النَّوائبَ والمصائبَ الَّتي تُصيب الإنسانَ بالدّائرةِ الَّتي تكونُ حولَ الشَّيء؛ لأنَّ الدّائرةَ تُستعمل حقيقةً في الإحاطة بالأشياء، لكنَّها استعملت هنا في نوائبِ الدَّهرِ ومصائبِهِ الَّتي تُحيط بالإنسان من كلِّ الجوانب؛ كإحاطة الدّائرة بالشَّيء، أو هي تَغَيُّر الحال من الاستقامة إلى الاختلالِ، والجامع بينهما هو الإحاطة والشُّمول، فحصلت المبالغةُ في إدخال المُشبَّه في الأذهان، مختصر العبارة[2].

الدَّوائر: جمعُ دائرةٍ، وهو ما يحيطُ بالإنسان من مصائبَ ونكباتٍ، كما تحيط الدَّائرةُ بالشَّيء الَّذي بداخلها.

الغرضُ من أسلوبِ الاعتراضِ ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾، في السّياق:

قولُه: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾، هذه الجملةُ معترضةٌ بين جمل

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3423.

(2) الشّريف الرّضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص: 62 - 63.

التَّعجيلُ بالدُّعاءِ عليهم، إيذانٌ بمعيَّةِ اللهِ للمؤمنينَ وتأييدِه لهم

حديث القرآنِ عن الأعرابِ؛ لأنَّها دعاءٌ عليهم، ولذلك فُصِلت عمَّا قبلَها، فهي اعتراضيَّةٌ دعائيَّةٌ خبريَّةٌ لفظًا إنشائيَّةٌ معنًى من بابِ قولِه تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [المائدة: 64]؛ لأنَّ اللّهَ لا يدعو على مخلوقاتهِ؛ لأنَّها في قبضتهِ أو أنَّها من بابِ دعاءِ المسلمين، أي: قولوا: عليهم دائرةُ السَّوءِ، ومن الممكن أن تكون اعتراضيَّةً خبريَّةً على بابِها

فتكونُ بيانًا بحقيقةِ حالهم، أي: عليهم تدورُ المصائبُ والحروبُ الَّتي يتوقَّعونها للمسلمينَ، وهذا إخبارٌ للمسلمين بما سيؤولُ إليهِ أمرُ الأعرابِ المنافقين ومآلُ الاحتمالين واحدٌ؛ لأنَّ الخبرَ في كلامهِ تعالى حقٌّ، ومضمونه كمضمونِ الدُّعاء واقعٌ لا محالةَ(1).

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (على) في قوله: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾:

بيان استعلاء العذابِ، وتمكُّنُه من الأعرابِ المنافقينَ

عبَّر بـ (على) في قوله: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾؛ لأنَّها تفيدُ الاستعلاءَ، وفيها معنى قوَّة العذابِ وتمكُّنه منهم، فلا يستطيعونَ الفرارَ منه، وما قصدتموهُ - أيُّها المنافقونَ من الأعرابِ - من التَّربُّصِ بالمؤمنين، وانتظارِ وقوعِ الشَّرِّ بهم، سينعكسُ عليكم، وسيقعُ بكم، ويتمكَّنُ منكم.

غرضُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

حصرُ دائرة السَّوءِ عليهم، في السّياق

تقديمُ (الخبر) شبهِ الجملةِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ أفادَ الحصرَ والتَّخصيصَ، أي: إنَّ اللّهَ تعالى جعلَ دائرةَ السَّوءِ عليهم وحدهم دونَ المؤمنين؛ لأنَّ الاستعلاءَ أجدرُ بالإحاطةِ والإحكام، فهو أقوى من كونهم محصورين في دائرةٍ مطبقةٍ عليهم لا ينفكُّون منها، وفي هذا تحقيرٌ لهم وتهوينٌ من شأنِهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/14، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5440، وعبد الفتّاح لاشين، لغة المنافقين في القرآن الكريم، ص: 193.

دائرةُ الدّهرِ لا تُستعملُ إلّا في المكروهِ

نكتةُ إضافةِ الدّائرةِ للسَّوءِ:

وأُضيفَتِ الدّائرةُ إلى السَّوءِ الّتي هي في الأصلِ مصدرٌ أو اسمُ فاعلٍ، مِن دارَ يَدورُ، وسُمِّي به عاقبةُ الزّمانِ (أي: حادثته) للمُبالَغةِ، مِثلُ: رَجُلُ صِدْقٍ، وقيلَ: معنى الدّائرةِ يَقتَضي مَعنى السَّوْءِ، وإنّما هي إضافةُ بيانٍ وتأكيدٍ، كما قالوا: شَمسُ النَّهارِ، قال أبو علي الفارسي: لو لم تُضَفِ الدّائرةُ إلى السَّوءِ لعُرِفَ منها معنى السَّوءِ؛ لأنَّ دائرةَ الدَّهرِ لا تُستعملُ إلّا في المكروه[1].

تنوُّعُ القراءاتِ ثراءٌ للمعنى، وتوسيعٌ للدّلالة

دلالةُ القراءاتِ المتواترةِ في لفظ: ﴿ٱلسَّوۡءِۗ﴾:

في لفظِ ﴿ٱلسَّوۡءِۗ﴾ قراءتان متواترتانِ: إحداهما بضمِّ السِّينِ، وهي المصدرُ بمعنى ما يسوؤهم، فالدّائرةُ نازلةٌ ومقبلةٌ، ولكنَّها ليست على المؤمنين، بل على المنافقينَ من الأعراب، ولذلك هزمَهم الصِّدِّيق رضي الله عنه وخَضَدَ شوكتَهم. ثانيهما: بفتحِ السِّين، والمرادُ بالسَّوء: الضَّررُ والفسادُ، ولا تعارضَ بينهما، فمعنى القراءتين أن يصيبَ الأعرابَ نكبةٌ تفجعُهم، وتسوؤهم، وعاقبة ذلك مضرَّةٌ شديدةٌ عليهم بتشريدِ جمعهم وتفريق أمرهم[2].

الجزاءُ من جنسِ العملِ، وكما يدين الفتى يدان

بلاغةُ المشاكلةِ في سياقِ الآيةِ الكريمة:

قوله تعالى: في جملتَيْ: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾ و﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾؛ وفيه أنّ المشاكلةَ بين الجملتينِ من حيثُ اللَّفظُ لا من حيث المعنى، على أنَّ استعمالَ هذا اللَّفظِ في الشَّرِّ أكثرُ، لا سيَّما من أعداءِ اللّهِ، فإذًا لا يكون مُطلقًا؛ لأنَّ قوله: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾ لا دعاءَ فيه، بل هو إخبارٌ، اللهم إلّا أن يُقال: إنَّ مَن تربَّص بغيره السُّوءِ لا يخلو من الدُّعاءِ عليه[3].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/95، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/74، والقنّوجيّ، فتح البيان: 13/91، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/14.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3424.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/334.

سرُّ عدمِ ذكرِ لَفظِ السُّوءِ مع الدَّوائِرِ، وذكرِه في ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾:

العنايةُ بالمؤمنين بحذفِ ما يسوؤُهُم، وينغّص عليهم

قوله تعالى: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾، وقولِه تعالى: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾، نجد أنّ النّاظِر في تركيبِ الجملتينِ على هذه الشّاكلةِ يجدُ عدمَ ذكرِ لفظِ السُّوءِ، في قوله: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾؛ لأنَّها خطابٌ للمؤمنينَ، وفي هذا بشارةٌ للمُخاطَبِ المخصوصِ بالعناية والتَّكريم، فيكونُ العُدولُ عن التَّصريح باللَّفظ المنفِّر دفعًا له عن المؤمنينَ، وصَرفًا لمعنى التَّنفير إلى التَّبشير، بخلافِ كلمةِ ﴿دَآئِرَةُ﴾ المفردةِ في موضعِ المنافقين، فصرَّحَ بلفظِ السُّوءِ ليلحقَ بالمنافقين خاصَّةً.

دلالةُ تصديرِ ختامِ الآيةِ، بلفظِ الجلالةِ ﴿وَٱللَّهُ﴾:

تصديرُ الكلامِ بلفظِ الجلالةِ، يملأُ القلبَ مهابةً وخضوعًا له تعالى

صُدِّرتِ الجملةُ ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بلفظِ الجلالةِ؛ لتربيةِ المهابةِ في نفوسِ القارئين والمستمعين، وملءِ القلوبِ بمرقابةِ اللّه تعالى.

نكتةُ التَّذييلِ بالاسميْنِ الجليليْنِ ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

التَّهديدُ والوعيدُ بما يترتَّبُ على معنى الاسمين الجليلين

خُتِمَتِ الآيةُ بصفتي السَّمعِ والعِلم؛ لأنَّ المقامَ يقتضي قولًا منهم بما يتناجونَ بِه، وما يدبِّرونه من التَّرصُّدِ، وهذا مُتعلَّقُه السَّمعُ، فيسمعُ ما تتحدَّثُ به نفوسُهم، وما تهمسُ به أفئدتُهم، وعليمٌ بما يكتمونَهُ، ومحلُّه القلبُ، وهو ما يبطنونَهُ، ويقصدونَ إخفاءَهُ، ومتعلَّقهُ العِلمُ؛ لأنَّ ما في القلبِ لا يُسمَع، ولا يُرَى، وإنَّما يُعلَمُ علمًا، ولذلك فهو سبحانَهُ سميعٌ لما يقولون، وعليمٌ بما يكتمونَ في قلوبهم من الحقدِ والكيدِ[1].

نكتةُ التَّقديمِ لـ ﴿سَمِيعٌ﴾، في سياقِ الآيةِ الكريمة:

تقديم الأسماء والصّفات، تتناسب مع الدّلالات في السّياقات

قَدَّمَ وصفَ ﴿سَمِيعٌ﴾ على ﴿عَلِيمٌ﴾ لتقدُّمِ مُتَعَلِّقِهِ، وهو ما يتناجونَ بِه، وما يدبِّرونَهُ من التَّرصُّد.

نكتةُ تنكيرِ الأسماءِ الجليلةِ، في الفواصلِ الجميلة:

الحديثُ هنا عن الأعرابِ، وهم سكَّانُ الباديةِ، وقد خُتِمَتِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/14، وعبد الفتّاح لاشين، لغة المنافقين في القرآن الكريم، ص: 193.

الفواصلُ القرآنيَّةُ، هي معجزةٌ في معانيها الدّلاليّة

الآياتُ باسمين، أوَّلهما: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، ثم: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وأخرى: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وكلُّ هذه الأسماءِ جاءت مجرَّدةً من (أل)، ويُفهم من ذلك أنَّه إذا عُرفت الجهةُ المتحدَّثُ عنها، وكانت لها ما لها من مواقفَ مع المسلمين، فلا بدَّ أن يأتي الاسمان في الفاصلةِ القرآنيَّةِ على هيئةِ التَّنكيرِ، وذلك من وجوهٍ:

أوَّلُها: عدمُ مماثلةِ الفئةِ المتحدَّثِ عنها، وهي: (الأعراب) مع المسلمينَ، فليسوا جميعًا سواءً، فمنهم المؤمنُ، ومنهم الكافرُ والمنافق، فتنكيرُ الأسماءِ جاءَ مناسبًا مع حالهم.

وثانيها: أفعالهم، أي: (الأعراب) فلقد جاءتِ الأسماءُ المؤيدةُ لمعنى الفعل، أعني: النكرة؛ لأنَّ الآياتِ الَّتي سبقتها كانت في معرضِ استنكارِ فعلِ (الحلف)، قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، واللّهُ سميعٌ لحلفهِم الكاذبِ، وعليمٌ بسرائرِ نفوسِهم.

ثالثها: عليهم دائرةُ السَّوءِ، وتلك صفةٌ ملازمةٌ، كأنَّها أحاطتْ بهم، فلا خلاصَ منها، وهي صفةٌ غالبةٌ، فيها من التَّأكيد ما فيها، ولقد جاءتِ الأسماءُ على هيئةِ التَّنكيرِ تأكيدًا لصفاتهِم الَّتي أحاطتْ بِهم كالدّائرةِ.

بلاغةُ التَّرصيعِ في الفاصلةِ:

القرآنُ الكريمُ أسلوبٌ بديعٌ، وإيقاعٌ فريدٌ

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فاصلةٌ مُرصَّعةٌ، حيث اتَّفقتِ الفقرتانِ في الوزنِ والحرفِ الأخيرِ، وهذا الأسلوبُ البديعُ يُخرج الآياتِ عن رتابتها، ويزيدُها حسنًا مع حسنها، فتكونُ أكثرَ تأثيرًا، وأشدَّ جذبًا للقارئِ والسّامعِ، فيُصغي لها، ويتدبَّرُ معانيها، وهو مقصودُ التِّلاوةِ الأكبرُ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّربُّصُ والانتظارُ:

التَّربُّص انتظارٌ طــويــل، مع ترقُّب وملاحظة، والانتظار يطلقُ على زمنٍ قصيرٍ أو طويلِ

فرَّق العسكريُّ بين التَّربُّصِ والانتظار بأنَّ التَّربُّصَ طولُ الانتظارِ، يُضاف إلى ذلك أنَّ التَّربُّص انتظارٌ مع ترقُّب وملاحظة[1]، وقد آثرَ النَّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالتَّربُّصِ دونَ الانتظارِ لوجودِ فرقٍ بينهما، فالتَّربُّصُ هو طولُ الانتظارِ، ومن ثَمَّ يسمَّى المتربِّص بالطَّعامِ وغيره: متربِّصًا؛ لأنَّهُ يطيلُ الانتظارَ لزيادةِ الرِّبحِ؛ بخلافِ الانتظارِ، فيطلقُ على الزَّمنِ القصيرِ والطَّويلِ.

وفيهِ إشارةٌ إلى كشفِ موقفِ الأعرابِ المنافقين منَ المؤمنينَ، فهم يقفونَ موقفَ المتربِّص المنتظرِ حلولَ المصائبِ بهم، وفيه إشارةٌ أيضًا إلى طولِ زمنِ التَّربُّص من المنافقينَ بالمؤمنينَ بأن تحيقَ بِهم دوائرُ السُّوء، فطولُ انتظارِ المنافقين ناسبَهُ التَّعبيرُ بالتَّربُّص الَّذي يفيدُ طولَ الانتظارِ من المنافقينَ من أجلِ الشَّماتةِ بالمؤمنينَ.

(1) العسكري، معجم الفروق اللّغوية، ص: 112.

﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٩﴾ [التوبة: 99]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مقابلةُ الصِّنفِ القبيحِ من الأعراب، بالصِّنفِ الحسن منهم، إنصافٌ للفريقين

لَمَّا ذَكر تعالى في الآية السّابقةِ بعضَ الأعرابِ الَّذين يعدُّونَ دفعَ الزَّكاة مغرمًا في قوله تعالى: ﴿مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا﴾ ذَكر مقابلَهُ، وهو من يتَّخذُ ما ينفقُ مغنمًا في قولهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قُرُبَٰتٍ﴾: جمعُ قُرْبَةٍ بسكونِ الرّاءِ، وهي تُطلقُ بمعنى المصدر، أي: القُرْبُ، وهو المرادُ هنا، أي: يتَّخذونَ ما ينفقون تقرُّبًا عند اللّهِ، وجمع قُربات باعتبار تعدُّدِ الإنفاق، فكلُّ إنفاقٍ هو قُربةٌ عند اللّه؛ لأنَّه يُوجبُ زيادة القُرْب[1].

2) ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾ أي: دعاؤُه، واستغفاره له، فهو يعدُّها شيئًا يقرِّبُهُ إلى اللّهِ، وكذلك تجعل الرَّسول يدعو له حين تصله زكاتُه، أي: طمعًا في دعوات الرَّسول، واستغفاره.

المَعنى الإجْماليُّ:

الأعرابُ ليسوا سواءً، فإنّ منهم مؤمنين محتسبين، سوف ينالون جنّة الله ورضوانه

بَيَّنَ اللّهُ تعالى في هذه الآيةِ أنَّ الأعرابَ ليسوا جميعًا على ذاك النَّمطِ من السُّوء، فمنهم مَن يؤمِنُ باللّهِ تعالى وبيوم القيامةِ، ويحتَسِبُ ما يُنفِقُه في الخيرِ عند اللّهِ، يرجو به القُرْبَ منه ﷻ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/15.

ويبتغي دعاءَ الرَّسولِ ﷺ عند أخْذِ الصَّدَقةِ منه، لأنَّ دُعاءَ الرَّسولِ قُربةٌ عَظيمةٌ لهم، فيدخلونَ في رَحمتِه ورضوانِه، إنَّه غَفورٌ رَحيمٌ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ في جملة: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ على سابقتها:

الذَّمُّ بسببِ الأوصافِ والأعمالِ، لا بسببِ الوطنِ ولا العصبيّة

لَمّا ذكرَ حالَ الأعرابِ المنافقين؛ عطفَ عليهِ بيانَ حالِ المؤمنينَ الصّادقينَ منهم، فقالَ: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ إيمانًا صادقًا إذعانيًّا تصدر عنه آثارهُ من العمل الصّالح[1] وفيه دليلٌ على أنَّ الذَّمَّ للأعرابِ في الآياتِ السّابقةِ ليس لأنَّهم أعرابٌ، بل ذمَّهم بسببِ ترك أوامرِ اللهِ تعالى، وأنَّهم في مَظِنَّةِ ذلك لبعدِهم عن مجالسِ العلمِ والخيرِ.

سرُّ تأخيرِ الحديثِ عن هذا الصِّنفِ المؤمنِ إلى هنا:

الختمُ بالحسنِ؛ لأنَّهُ آخرُ ما يعلقُ بالأذهانِ

أخِّرَ الحديثُ عن هذا الصِّنفِ المؤمنِ مِنَ الأعرابِ من بابِ التَّحليةِ بعد التَّخليةِ، حيثُ سبقَ الحديثُ عن الكافرين والمنافقين وأصحابِ السُّوءِ في الآياتِ السّابقةِ، ثمَّ جاء الحديثُ هنا عن الصِّنفِ الإيمانيِّ حتى تتَّضحَ التَّحليةُ بعد التَّخليةِ، فالنّاظرُ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾يجدُ مناسبةً حسَنةً؛ لأنَّه لَمّا ذكر في الآيةِ السّابقةِ قولَهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا﴾، ذَكَر مُقابِلَه، وهو مَن يتَّخذُ ما يُنفِقُ مَغنَمًا في قولِه: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وذَكَر هنا الأصلَ الَّذي يترتَّبُ عليه إنفاقُ المالِ في القُرُباتِ، وهو الإيمانُ باللهِ واليومِ الآخِرِ؛ إذ جزاءُ ما يُنفِقُ إنَّما يَظهَرُ ثوابُهُ الدّائمُ في الآخِرَةِ، وهذا هو عينُ التَّحليةِ.

---

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 11/10.

دلالةُ ﴿وَمِنَ﴾ في قولِه: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾:

إنصافُ القرآنِ للأعرابِ، بحسب الأخلاق والأفعال

﴿وَمِنَ﴾ في قولِه: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ مُبيِّنةٌ للجنسِ، وقد سبقَ تفصيلُ ذلك، والمرادُ هنا أنَّها بَيَّنت فريقًا خاصًّا من الأعرابِ غير الَّذي سبق ذِكرُهم وهم من خالطت بشاشةُ الإيمانِ قلوبَهم، فباعثُ الإنفاقِ عندهم الإيمانُ باللّهِ لا الخوفُ من النّاس، ولا التَّملُّق للغالبين؛ ولذلك فإنَّ إنفاقَهم قُربةٌ مقبولةٌ من اللّهِ تعالى ورسوله ﷺ ولهم حُسنُ العاقبةِ في الآخرة[1].

دلالةُ (الْ) في لفظ ﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ في السّياق:

الوصفُ العامُّ للمجموعِ لا للجميعِ

اللّامُ فيها للجنسِ، أي: جنسُهم لا كلَّ واحدٍ منهم بدليلِ أنَّ اللّهَ تعالى مَدَح مَن يستحقُّ منهم، وذمَّ من يستحقُّ، والشَّأنُ في البدو أن يكونوا أشدَّ كفرًا ونفاقًا[2].

دلالةُ وصفِ الأعرابِ بالإيمانِ، في السّياق الكريم:

ذِكْرُ الوصفِ العامِّ، يتضمَّنُ الوصفَ الخاصَّ

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ﴾، وفيه تعرَّضتِ الآيةُ لوصفِ فريقٍ من الأعرابِ بالإيمانِ باللّه واليوم الآخرِ - مع أنَّ مساقَ الآيةِ لبيان الفرقِ بين الفريقينِ في شأنِ الإنفاق حالًا ومآلًا - وذلك لبيانِ كمالِ العنايةِ بإيمانِهم، وبيان اتِّصافهم به، وزيادةٍ في الاعتناء بتحقيقِ الفرقِ بين الفريقينِ من أوَّل الأمرِ.

سرُّ تعدِّي الفعلِ ﴿يُؤۡمِنُ﴾ بالباءِ في السّياق:

من حسنت نيّته، وطاب فعله من الأعراب، كان من الفائزين

قولهِ: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾، وفيه عُدِّي الفعلُ ﴿يُؤۡمِنُ﴾ بحرفِ الباءِ؛ لأنَّ الإيمانَ في اللُّغةِ بمعنى التَّصديقِ، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ إيمانَهم ضمَّن معنى التّصديقِ الَّذي يحملُ معنى الطُّمأنينةِ والثَّباتِ.

---

(1) عبد الفتاح لاشين، لغة المنافقين في القرآن الكريم، ص: 193.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/159، وعبد الفتاح لاشين، المنافقون في القرآن الكريم، ص: 191.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يُؤۡمِنُ﴾:

الإيمانُ يتجدَّدُ باستمرارٍ

عبَّرَ بصيغةِ المضارعِ ﴿يُؤۡمِنُ﴾ ليدلَّ على الحدثِ بلفظِهِ وعلى الزَّمانِ بصيغتِه، ليفيدَ معنى الاستمراريَّةِ والتَّجدُّدِ والديمومةِ، فهو إيمانٌ ثابتٌ يتجدَّد مع كلِّ تكليفٍ وتشريعٍ ينزِّله اللّٰه على رسوله ليعملوا بهِ، فالإيمانُ وقرَ في قلوبِهم، وفاضتْ ثمراتُهُ على جوارِحِهم.

فائدةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾:

مـن حـاز فخار الإيمان، أعطي الـخـصـوصـيّـة والجزاء الأوفى

تقديمُ شبهِ الجملةِ جاءَ للتَّنبيه على اتِّصالِ الحديثِ بالمؤمنينَ، وأيضًا للاهتمامِ بِهم من قبلِ المؤمنينَ في التَّعامُلِ معهم.

سرُّ عطفِ الإيمانِ باليومِ الآخرِ، على الإيمانِ باللهِ:

الإيمـانُ باليوم الآخـــرِ، مـركـزُ الإيمانِ

السِّرُّ في ذِكرِ الإيمانِ باليومِ الآخرِ مقرونًا بالإيمانِ باللّٰه: أنَّ الإنسانَ الَّذي لا يؤمنُ باليومِ الآخرِ لا يكون مؤمنًا باللّٰهِ ﷻ، والإنسانُ إذا لم يؤمنْ باليومِ الآخرِ، فلا معنى لكونهِ مؤمنًا باللّٰهِ في هذهِ الحياةِ الدُّنيا؛ لأنَّ العملَ في الحياةِ الدُّنيا يرتبطُ أساسًا بالإيمانِ بالآخرةِ، كما أنَّ اللّٰهَ تعالى غَيبٌ، وكذلك اليومُ الآخرُ من أمورِ الغيبِ، ومن علامةِ المُؤمنين أنَّهم يؤمنونَ بالغيبِ، وممّا يذكرُ في هذا المقامِ أنَّ الإيمانَ باللّٰهِ تعالى وباليومِ الآخرِ وما فيه من مشاهدَ من أعظمِ مقاصدِ الدِّين، ولأنَّ الإيمانَ باللّٰهِ واليوم الآخر يستلزمُ الإيمانَ ببقيَّةِ الأركانِ من الكتبِ والرُّسل ونحو ذلك، ولأنَّ الإيمانَ باللّٰهِ وباليومِ الآخر إيمانٌ بالمبدأ والمعاد.

نكتةُ وصفِ اليومِ بـ ﴿ٱلۡأٓخِرِ﴾:

اليومُ الآخرُ اسمٌ يطلقُ على يومِ القيامةِ

في وصفهِ بالآخرِ تذكيرٌ بأهوالهِ وتنبيهٌ على الاستعدادِ لَهُ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الزَّمنَ على قسمين: القسمُ الأوَّلُ: سمّاه اللّٰهُ الدُّنيا، وهو من بدءِ الخلقِ إلى قيامِ السّاعةِ، والقسمُ الثاني: وهو من قيام السّاعةِ إلى ما لا نهاية وسمّاه اللّٰهُ باليومِ الآخرِ.

سرُّ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿وَيَتَّخِذُ﴾، دونَ (يحتسب):

الاتِّخاذُ أخذٌ عن اختبارٍ واختيارٍ

آثرَ التَّعبيرَ بالاتِّخاذِ هنا دونَ يحتسبُ؛ لأنَّ الاتِّخاذَ أعمُّ؛ لأنَّ معناهُ: أخذٌ عن اختبارٍ واختيارٍ، أي: يفعلُها قاصدًا أن تكونَ قرباتٍ، لا كالذين فعلوها على أنَّها مغرمٌ من المغارمِ يغرمونَها. فاتِّخاذُ الصَّدقاتِ هنا ضدُّ اتِّخاذ المنافقينَ إيّاها مغرمًا في الآيةِ السّابقة[1]؛ لذلكَ ناسبَ التَّعبيرُ بالاتِّخاذِ ردًّا على الصِّنف السّابقِ مِنَ الأعرابِ.

وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ الاتِّخاذَ مبنيٌّ على القطعِ واليقينِ، بخلافِ الحسبانِ؛ فهو مبنيٌّ على الظَّنِّ، وهذا غيرُ مناسبٍ ليقينِ الإيمانِ عندَهُم.

الغرضُ من التَّعبيرِ بالمجازِ المرسلِ (القربات):

ذِكْـرُ المقاصدِ، يـحـقِّـقُ إتـقـانَ الأسبابِ

في قوله: ﴿قُرُبَٰتٍ﴾ مجازٌ مرسلٌ، حيثُ أطلقَ المسبَّبَ - وهو القرباتُ - وأرادَ السَّبب، أي: سببًا لحصول القرباتِ عندَ اللّهِ، وسببًا لصلواتِ الرَّسولِ ﷺ فالآيةُ تصوِّر مدى حرصِ القوم على طلبِ القُرْبِ من اللّهِ ﷻ ودعاءِ الرَّسولِ ﷺ وعلوِّ هممهم في ذلك، وقد آثرَ التَّعبيرَ بالقرباتِ عن الطّاعاتِ؛ لأنَّ الهدفَ من الطّاعاتِ هو التقرُّبُ إلى اللّهِ ورسوله، فعبَّرَ بالمُسَبَّبِ عن السَّببِ؛ لأنَّهُ المقصدُ الَّذي يُبحثُ عنهُ، ومن المَعاني الَّتي تذكرُ في سرِّ تسميةِ الطّاعاتِ بالقُرباتِ أنَّها مستعملةٌ مجازًا في رضا اللّه تعالى ورفعِ الدَّرجاتِ في الجنَّة، ولأنَّ الجنَّة تُشبَّهُ بدارِ الكرامة عندِ اللّه تعالى.

سرُّ التَّعبيرِ بالجمعِ ﴿قُرُبَٰتٍ﴾، دونَ(قُربةٍ) بالإفراد:

دلالـة السّـياق عــلـى تـكـثـير الأعـمال، ورفع الدّرجات

قولِه: ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ﴾، وفيه جُمعَ ﴿قُرُبَٰتٍ﴾ باعتبارِ أنواعِ القُرباتِ أو أفرادِها، فكُلُّ إنفاقٍ هو قُربةٌ عند اللّهِ؛ لأنَّه يُوجِبُ زيادةَ القُرْبِ، وجمعها أيضًا لتعدُّدِ وجوهِ الخيرِ في الإنفاقِ، فكلُّ نفقة تنفق في الجهادِ أو على الفقراءِ، فهي قربةٌ للّه، فضلًا عن كونها

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 11/10، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/13.

طاعةً، وفيها وقايةٌ للنَّفسِ من شُحِّها، وفيها معاونةٌ اجتماعيَّةٌ؛ لأنَّها علاجٌ لأدواءِ المجتمع الإسلاميّ بإعطاء السّائل والمحروم حقَّهما إلى غيرِ ذلك من أنواعِ القُرَبِ الَّتي تجتمع في وجوهِ الإنفاقِ، وكلُّ ذلك يطلقُ عليهِ وصفُ القرباتِ[1] ففي التَّعبيرِ بالجمعِ تكثيرٌ لأعمالِهم وإيذانٌ برفعِ درجاتِهم عند اللّهِ.

نكتةُ تنكيرِ ﴿قُرُبَٰتٍ﴾، في سياق الآية الكريمة:

التَّكثيرُ والتَّعظيمُ، مؤذنٌ بعلوِّ القدْرِ، ورفعةِ المقامِ

دلَّ التَّنكيرُ في قولهِ: ﴿قُرُبَٰتٍ﴾ على عظمِها، وأنَّها مهما كانت صغيرةً أو قليلةً، فهي عندَ اللّهِ تعالى عظيمةٌ وكثيرةٌ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿عِندَ﴾، في قولهِ: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾:

أهلُ القرباتِ أهلُ العنايةِ والكرامةِ عندَ اللهِ

عبَّرَ بـ ﴿عِندَ﴾ في قولهِ: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ للدَّلالةِ على العنايةِ والتَّكريم بما ينفقهُ هؤلاءِ الأعرابِ من الصَّدقاتِ، فهيَ في مكانةٍ عاليةٍ، دلَّلَ على ذلك استعمالُ ﴿عِندَ﴾ في التَّشريف والعنايةِ[2] على سبيلِ المجازِ؛ لأنَّ ﴿عِندَ﴾ في الأصلِ تدلُّ على المكانِ المختصِّ بالَّذي أضيفَ إليه لفظُها.

دلالةُ إضافةِ العنديَّةِ للّهِ ﷻ:

القريبُ مِنَ اللهِ تعالى، قريبٌ من عفوه ولطفه وجنّته

أُضيفَ لفظُ ﴿عِندَ﴾ إلى لفظِ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّها تفيدُ القربَ منهُ تعالى، وتفيدُ أيضًا تشريفَهم ومكانتهم عنده، فإنَّ الجنَّةَ تُشَبَّهُ بدارِ الكرامةِ عند اللّهِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾ [القَمَر: 54، 55][3].

بلاغةُ العطفِ، في قولِه: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾:

التماسُ دعواتِ الرَّسولِ ﷺ واستغفارِه، أعظمُ القرباتِ

يجوزُ عطفُ صلواتِ في قولِه: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾ على ما في قولِه: ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾، والمعنى: ويتَّخذ بالأعمالِ الصّالحةِ وصلوات

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3425.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/15.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/15.

الرَّسولِ قربةً، أي: أنَّه يتقرَّبُ بصدقتِهِ ودعاءِ الرَّسولِ إلى اللّهِ، ويجوزُ عطفها على (القُربات)، كأنَّه يتَّخذُ إنفاقَهُ قُربةً، ويلتمسُ بهِ صلواتِ الرَّسولِ، ودعاءه كما يلتمسُ القُرباتِ[1].

سرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾، دونَ (دعواتِ الرّسول):

في اصطفاءِ الصَّلواتِ، على الدَّعواتِ تمجيدٌ

آثرَ التَّعبيرَ بالصَّلواتِ دونَ الدَّعواتِ في قوله: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾؛ لوجودِ فرقٍ بينهما فالصَّلاةُ عندَ أهلِ اللُّغةِ: هي الدُّعاءُ، والتَّبريكُ والتَّمجيدُ، يقالُ: صَلَّيْتُ عليهِ، أي: دعوتُ له، وزكَّيت، وعند أهلِ الشَّرعِ مُستعملةٌ في ذات الأركان؛ لأنَّها دعاءٌ بالألسنةِ الثَّلاثة: الحال والفعل والمقال، وسُمِّي الدّاعي مُصلِّيًا تشبيهًا له في تخشُّعِهِ بالرّاكع السّاجدِ، وقيل: كلُّ صلاةٍ في القرآن؛ فهي عبادةٌ ورحمة إلّا قولَهُ تعالى: ﴿وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ﴾ [الحج: 40]، فإنَّه يريد بيوتَ عبادتِهم، والصَّلاة تعني: الاستغفارَ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ [التوبة: 103]، أي: استغفر لهم، و﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾ يعني: استغفارَكَ.

أمّا الدُّعاءُ؛ فهو النِّداءُ، تقولُ: دَعَوْتُ فُلانًا، أيَ: ناديتُهُ، ويأتي الدُّعاءُ بمعنى الطَّلَبِ والسُّؤالِ، والدُّعاء أيضًا التَّقرُّبُ إلى اللّهِ تعالى بطاعتهِ أو بِسؤالِهِ رَغبةً في فَضْلِهِ ورَهْبةً مِن عِقابِهِ[2]، وعلى ذلكَ فالصَّلواتُ أعمُّ من الدُّعاءِ في إطلاقاتِها؛ لذلكَ آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بها في هذا المقام.

بلاغةُ المجازِ، في قوله: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾:

الرّسول للأمّة أمان، ودعاؤه لها ضمان

تظهرُ بلاغةُ المجازِ، في قوله: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾، في حذفِ المضافِ وإبقاءِ المضافِ إليه للمبالغة؛ لأنَّهم كانوا يجعلونَ الإنفاقَ سببًا لدعاءِ الرَّسولِ ﷺ لأنَّهُ كان يدعو للمتصدِّقين، قال تعالى:

---

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 11/21، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/493، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/15.

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صلا، ودعا)، والآلوسيّ، روح المعاني: 1/119.

﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾، ويؤيِّدُ ذلك فعله ﷺ بالدُّعاءِ لآلِ أبي أوفى، بقولِه: «اللهمَّ صلِّ على آلِ أبي أوفى»[1].

نكتةُ الجمعِ لـ ﴿وَصَلَوَٰتِ﴾، في قولِه: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾:

حُبُّ النَّبيِّ ﷺ لأُمَّتِهِ عظيمٌ، لا حدود له

جُمِعَت كلمةُ ﴿وَصَلَوَٰتِ﴾؛ لأنَّ كلَّ إنفاقٍ يقدِّمونَه إلى الرَّسولِ ﷺ يدعو لهم بسبَبِهِ دعوةً، فبتكَرُّرِ الإنفاقِ تتكرَّرُ الصَّلاةُ[2]، وجُمِعَتْ أيضًا لكثرةِ ما يترتَّبُ عليها من أنواعِ الخيراتِ في الدُّنيا والآخرةِ.

فائدةُ إضافةِ الصَّلواتِ للرَّسولِ الأكرمِ:

بيانُ عظمِ الصَّلواتِ، وأنّ شرفَ المضافِ، مكتسبٌ من المضافِ إليه

في إضافةِ الصَّلواتِ إلى الرَّسولِ بيانٌ لمنزلتِهِ ﷺ ولدعائه للمؤمنين عندَ اللهِ تعالى، فهي صدقاتٌ إلى صدقاتِهم، يضيفُها الرَّسولِ إليهم لتزيدَ في قربِهم إلى اللهِ، فلقد كان الرَّسولُ ﷺ يُصلِّي على المتصدِّق، أي: يدعو لهُ، بالخيرِ والبركةِ، وذلك امتثالًا لقولِه تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾ [التوبة: 103][3] وأيضًا للحديثِ الَّذي سبقَ ذكرُه.

الغرضُ مِنَ استئنافِ ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ﴾ في السّياقِ:

بشارتُهم بالقبولِ، معنًى تأسيسيٌّ لقوَّتِهِ

فُصلت هذه الجملةُ عمّا قبلَها؛ لأنَّها استئنافيَّةٌ، كأنَّه قيلَ: هل تكونُ صدقتُهم قربةً كما اعتقدوا؟ فكان قولُه: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ﴾ جوابًا لهم على سؤالهم[4] والغرض من الاستئناف بشارتهم بقبول أعمالهم.

وفي استِئْنافِ هذه الجُملةِ، وتَصديرِها بحَرفَيِ التَّنبيهِ والتَّحقيقِ (ألا، إنَّ)، المُؤْذنَينِ بثَباتِ الأمرِ وتمكُّنِه: شهادةٌ من اللهِ بصِحَّةِ ما اعتَقَدوهُ من إنفاقِهم، فهي مَسوقةٌ مَساقَ البِشارةِ لهم بقَبولِ ما رَجَوه[5].

(1) البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (1497)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (1078)، (176).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/15.

(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/879.

(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/321.

(5) الزّمخشريّ، تفسير الكشّاف: 2/304، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/493، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/109، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/16.

التَّأكيدُ على بشارةِ اللهِ تعالى للمؤمنينَ المنفقينَ بالجنَّةِ

بلاغةُ تتابعِ المؤكِّداتِ، في سياقِ الآيةِ الكريمة:

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾، أُكِّدَ هذا الخبرُ بافتتاحِهِ بأداةِ التَّنبيهِ الدّالَّةِ على الاهتمامِ بما بعدَها وتحقُّقه، وبـ (إنَّ) الدّالَّةِ على تحقُّقِ مضمونِ الجملة، وبالجملةِ الاسميَّةِ ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ﴾، وبإدخالِ (السِّين) على الجملةِ الثّانية، وهذه السِّين يُقصدُ بها التَّأكيدُ في الإثباتِ على معنى أفعل كذا، وإن أبطأَ الأمرِ، أي: لا بدَّ من فِعله، ثمَّ بأنْ جعلَ الرَّحمةَ محيطةً بهم، شاملةً لهم، وهم مغمورون فيها، وهذا أبلغُ من إثباتِها في قولِه تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ﴾ [التوبة: 21]، وهذه الضُّروبُ من التَّوكيداتِ تدلُّ على علوِّ مكانةِ هؤلاءِ الأعرابِ[1].

الإنفاقُ وصلواتُ الرَّسولِ الأكرمِ، سببُ القربِ مِنَ اللهِ ﷻ

دلالةُ تعدُّدِ مرجعِ عودِ الضَّميرِ في ﴿إِنَّهَا﴾:

ذهبَ بعضُ العُلماءِ إلى عودِ الهاءِ في قوله: ﴿إِنَّهَا﴾ على ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾[2]، أي: إنَّ الجُملةَ بيانٌ وتأكيدٌ لنفعِ صلواتِ الرَّسولِ لهم، وذهبَ أكثرُهم إلى عودِهِ على النَّفقةِ[3] في قولِه تعالى: ﴿مَا يُنفِقُ﴾، فتكونُ الجملةُ تأكيدًا لحصولِ القبولِ والرِّضا من اللهِ تعالى، ولا مانعَ من الجمعِ بينهما؛ لأنَّ الإنفاقَ وصلواتِ الرَّسولِ يؤدِّيان إلى القربِ مِنَ اللهِ تعالى، فالنَّفقةُ حقَّقت الوصالَ عندَ اللهِ تعالى، وحقَّقت رجاءَهُم في نيلِ دعاءِ الرَّسولِ ﷺ واستغفارِهِ لهم والصَّلاةِ عليهم، وكذا صلواتُ الرَّسولِ ﷺ حقَّقت لهم الوصالَ عندِ اللهِ ﷻ.

القربةُ دنوٌّ وإخلاصٌ

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿قُرۡبَةٞ﴾:

عبَّرَ بالقربةِ، ومعناها في اللُّغةِ: الدُّنوُّ من الشَّيءِ مُطلقًا، والمرادُ بالقربةِ في العمل: هو الإخلاصُ وابتغاءُ مرضاةِ اللهِ ورحمتِهِ ومثوبته.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/127، ولاشين، لغة المنافقين في القرآن الكريم، ص: 194.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/434، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 349.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/304، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/493، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/96، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/16، ومحمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 11/11.

سرُّ إفرادِ القربةِ، في قولهِ: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ﴾:

قربة الله كمال وعطاء بلا حدود، ولا قيود

عبَّرَ بالمفردِ دونَ الجمعِ، كما سبق في قوله: ﴿قُرُبَٰتٍ﴾؛ لأنَّها هناك من جانبِ البشرِ، وهنا من ربِّ البشرِ، فالقربةُ عندَهُ هي كمالُ العطاءِ وغايةُ النَّعيم، فلا حدَّ فيها لمننه وفضلهِ.

دلالةُ اللّامِ في قولهِ: ﴿لَّهُمۡۚ﴾:

التَّخصيصُ بالعطاءِ تكريمٌ، من الله العليّ العظيم

دلَّتِ اللَّامُ على الاختصاصِ، أي: هي قُربةٌ لهم عندَ اللّهِ تعالى، وعندَ صلواتِ الرَّسولِ ﷺ فهو اختصاصٌ اختصَّ اللّهُ بهِ الأعرابَ المؤمنينَ لتكريمِهم وعلوِّ قدرِهم.[1]

الغرضُ من أسلوبِ كمالِ الاتِّصالِ:

بيانُ أجرِ العملِ، تعظيمٌ لقدرِه

فُصِلَتْ جملةُ: ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ عمّا سبقَها؛ لأنَّها واقعةٌ موقعَ البيانِ لجُملَةِ ﴿إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ﴾؛ لأنَّ القُربةَ عِندَ اللّهِ هي الدَّرَجاتُ العُلا ورِضوانُه، وذلك مِن الرَّحمةِ.

وهي الجزاءُ الَّذي سيجزيهِ اللّهُ هؤلاءِ الذين أنفقوا في سبيلِ اللّه[2].

دلالةُ دخولِ السِّينِ، في قولهِ: ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ﴾:

تأكيدُ قُربِ حصولِ البشارة إعلاءٌ لقدرِها

دخلتِ السِّينُ على قولهِ: ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ﴾؛ أنَّها حرفُ استقبالٍ مفيدٌ للتَّأكيدِ وتحقيقِ الوقوعِ، والغرضُ منه تحقُّقُ دخولِهم في رحمةِ اللّه تعالى، فهو وعدٌ منه، ولن يخلفَ تعالى وعدَهُ.

الغرضُ من التَّعبيرِ بالمجازِ المرسلِ:

العبرةُ في السَّعادةِ بما في الجنّة من أنعمٍ وهناءة، لا بالمكانِ في ذاتِهِ

قولهِ: ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓ﴾، في قولهِ تعالى: ﴿فِي رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ مجازٌ مرسل، من إطلاقِ الحالِ، وهو الرَّحمة، وإرادة المحلِّ، وهو الجنَّة، فهُم في الجنَّة، تكتنفُهم الرَّحمةُ، ويحيطُ بهم النَّعيمُ من كلِّ جانبٍ. وفي الآيةِ مَدْحُ القوم والتَّرغيبُ في التَّشبُّهِ بحالهم، والتَّنبيهُ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/16.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 11/16، وعبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/880، 11/16.

على عُلُوِّ منزلتهم، ورفعة قَدْرهم، فقد عبَّرَ برحمتِهِ عن الجنّةِ؛ لأنَّها هي الرَّحمةُ الحقيقيَّةُ، وأيَّةُ رحمةٍ بعدها؛ إذا لم يدخلْها الإنسانُ؟[1]. وفي المجاز تأكيدٌ على ما يكونُ في المكان، فليست الأماكنُ جالبةً السعادة والخير والراحة بذاتها، وإنما قدرها في السَّعادةِ والنَّعيم على قدرِ ما فيها، فالجنَّةُ كلُّها رحمةٌ حتى كأنَّها هي الرَّحمةُ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ (يدخلهم) في السّياق:

وعْدُ اللهِ للمؤمنينَ، حقٌّ لا ريب فيه، والله لا يخلف الميعاد

أوثرَ فعلُ الإدخالِ بصيغتهِ المضارعةِ ليفيدَ التَّأكيدَ في تحقيقِ الوعدِ للمؤمنين ووقوعه لا محالةَ؛ ولأنَّ فعلَ الإدخالِ مناسبٌ للكونِ في الجنَّةِ؛ إذ كثيرًا ما يُقال: دخلَ الجنَّةَ، قال تعالى: ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: 30][2] وكأنَّ مجرَّدَ الدُّخولِ نعيمٌ، فإن كان كذلك فتجدُّدُهُ واستمرارُهُ تجدُّدٌ للنَّعيم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالظَّرفيَّةِ، في قولِهِ: ﴿فِي رَحۡمَتِهِۦٓ﴾:

شمولُ الرَّحمةِ أهلَ الجنَّةِ، احتواؤُها لهم أعظمُ النَّعيمِ

عبَّرَ بحرفِ الجرِّ (في) الَّتي تفيدُ الظَّرفيَّةَ والاحتواء والاستيعاب، وعليه يكون معنَى إدخالِهم في رحمتِهِ تعالى أن يكونوا مَغْمورين فيها، وتكونَ هي محيطةً بهم، شاملةً لهم.

دلالةُ إضافةِ الرَّحمةِ، إلى ضميرِ الذَّات العليَّة ﴿رَحۡمَتِهِۦٓ﴾:

شرفُ المضافِ من شرفِ المضافِ إليهِ

دلَّتِ الإضافةُ على التَّشريفِ والتَّعظيمِ للجنَّةِ، ولمن يدخلونها؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ يضافُ إلى اللهِ ﷻ يكتسبُ تعظيمًا وتشريفًا، وهذا ظاهرٌ في أشياءَ كثيرةٍ، كإضافةِ البيت الحرام إليه سبحانه والكتب والرُّسل وبعض المعجزات كناقة صالحٍ، قال عنها: ناقةُ اللهِ.

دلالةُ فصلِ جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ عمّا قبلَها:

اللهُ تعالى واسعُ المغفرةِ، كثيرُ الرَّحمةِ

فُصِلَت هذهِ الجملةُ عمّا قبلَها؛ لأنَّها في موضعِ الاستئنافِ البيانيِّ التَّعليليِّ، فكأنَّ سائلًا سألَ: إذا كان اللهُ سيُدخِلُ الأعرابَ

---

(1) الدُّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 4/221.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/16.

المؤمنينَ الجنَّةَ مع وجودِ تقصيرٍ منهم؟ فكان الجوابُ على ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فاتِّصافُهُ سبحانه بصفتي المغفرةِ والرَّحمةِ تذييلٌ مناسبٌ لما رجوهُ وما استجيبَ لهم.

بلاغة التّذييل ودلالته على التَّأكيدِ، في سياق الآية الكريمة:

التَّأكيدُ تقويةٌ للعلَّةِ، وبيان للمقصود من الآية الكريمة

قولهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وفيه أُكِّدَتِ الجملةُ بحرف ﴿إِنَّ﴾؛ لأنَّها تقوِّي مضمونَ الجملة الاسميَّةِ؛ لأنَّ مجيء التَّذييل جملةً اسميَّةً يدلُّ على التَّأكيدِ، والغرضُ من ذلك الاهتمامُ بهذا الخبرِ، أي: غفورٌ لما مضى من كفرهِم، رحيمٌ بهم يفيضُ النِّعم عليهم[1]، واجتماعُ التَّأكيد بـ ﴿إِنَّ﴾ والجملةِ الاسميَّة يؤكِّد اتِّصافَهُ سبحانه بالمغفرة والرَّحمة، وفي هذا وعدٌ للمؤمنين يستوجبُ منهم المداومةَ على طلبِ الاستغفارِ والرَّحمةِ.

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ المبالغةِ في قولِهِ: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

المغفرةُ والرَّحمةُ من الصِّفاتِ الثَّابتةِ للهِ تعالى الَّتي لا تنفكُّ عن ذاتِهِ

جاءَ وصفُ المغفرةِ والرَّحمةِ بصيغةِ المبالغةِ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وذلك لإفادةِ الثُّبوت واللُّزوم، فهاتانِ الصِّفتان (المغفرة والرحمة) من الصِّفات الثّابتةِ للّهِ تعالى الَّتي لا تنفكُّ عن ذاتهِ ﷻ، فهو لم يزَل، ولا يزالُ غفورًا رحيمًا بعباده، أي: إنَّ اللّهَ تعالى غفور لما مضى، فيغفرُ للمقصِّرين في أعمالهِم وللمخلصين فيما يشوبُ أعمالهم من ذنبٍ وتقصيرٍ، ورحيم يرحمُ الصّادقين في إيمانِهم، فيهديهم إلى أحسنِ العملِ وخيرِ المصير، وبما يفيضُ عليهم من النِّعمِ[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالإظهارِ، في موضعِ الإضمارِ:

لفظُ الجلالةِ (الله)، يجمعُ صفاتِ الجمالِ والجلالِ، ولا أحد يساميه بحال

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ آثرَ التَّعبيرَ بالإظهارِ في موضعِ الإضمارِ، لقربِ ذكرِهِ سبحانه في قوله: ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ﴾، للإشعارِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/16.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/16، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 6/389.

بتربيةِ المهابةِ في قلوبِ الأعرابِ المؤمنينَ خصوصًا، والمؤمنين عمومًا؛ لأنَّ لفظَ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ يجمعُ صفاتِ الجمالِ والجلالِ والكمالِ.

سرُّ التَّقديمِ للفظ ﴿غَفُورٌ﴾، على لفظ ﴿رَّحِيمٌ﴾:

السَّلامةُ مقدَّمةٌ على الغنيمةِ، ولا بدّ قبل التّحلية من تخلية

في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قُدِّمت صفةُ الغفورِ على صفةِ الرَّحيم؛ لأنَّ المغفرةَ سلامةٌ، والرَّحمة غنيمةٌ، والسَّلامة تُطلَب قبل الغنيمةِ، وفي الحديثِ أنَّ النَّبي ﷺ قال لعمرو بن العاص رضي الله عنه: «أَبْعَثُكَ وَجهًا يُسَلِّمُكَ اللهُ فِيهِ، وَيُغَنِّمُكَ، وَأَزْعَبُ لَكَ زَعْبَةً مِنَ المالِ»[1]، فهذا من التَّرتيبِ البديعِ بدأَ بالسَّلامةِ قبلَ الغنيمةِ وبالغنيمةِ قبلَ الكسْبِ[2].

وممّا يُذكرُ في سرِّ تقديمِ الغفورِ على الرَّحيم أنَّه من بابِ تقديمِ السَّبب على المُسبِّب؛ فإنَّ المغفرةَ سببٌ في الرَّحمة، وأيضًا؛ لأنَّ تقديمَ المغفرةِ على الرَّحمةِ من بابِ تقديم التَّخليةِ على التَّحليةِ، فالمغفرةُ زوالُ المرهوبِ، والرَّحمةُ تحصيلُ المطلوبِ.

نكتةُ تنكيرِ الاسمينِ الجليليْنِ: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

سعةُ مغفرةِ اللهِ ورحمتهِ على عبادهِ، تطال النّاس قاطبة

أتى الاسمانِ الجليلانِ ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ نكرةً للدَّلالةِ على العمومِ، ليشملَ عمومَ ما يقعُ منهم من أخطاء تزول بدوامِ المغفرةِ منهُ تعالى، ويفيض عليهم برحمتِهِ تعالى نعمًا لا حصرَ لها، ولا يعجِّل لهم العذابَ، لعلَّهم يتوبون، فيغفر لهم.

(1) الطّحاويّ، شرح مشكل الآثار: 15/327، رقم: (6056).
(2) ابن قيم الجوزيّة، بدائع الفوائد: 1/112.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾ [التوبة: 100]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

السَّابقون إلى الإسلام هم أصحاب المنازل البهيَّة، والرُّتب العليَّة

لَمَّا ذَكر اللّه تعالى القِسم الصَّالح من الأعرابِ، وهم الذين يَتَّخِذونَ ما ينفقون قُرباتٍ عند اللّه وصلواتِ الرَّسول، وما أعدَّ لهم من الثَّواب؛ بَيَّنَ أنَّ فوق منزلتهم منازلَ أعلى وأعظم منها، وهي مَنازِلُ السَّابِقين الأَوَّلِين من المهاجرين والأنصار، والذين سلكوا سبيلهم، وساروا على نهجهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾: السَّبْق: التَّقدُّم في الجري وفي كلِّ شيء، يقال: سَبَقَه يَسْبِقه سَبْقًا، أي: تقدَّمه[2]. ومعناه المحوريُّ يدور حول تقدُّم الشَّيء على غيره من بين من حوله[3]. ويقال: لفلان سابقةٌ في هذا الأمر: إذا سبق النَّاسَ إليه[4]. والسابقون في الآية: "المتقدِّمون إلى ثواب اللّه وجنَّته بالأعمال الصالحة"، وهم "المحرِزون قصبَ السبق في الفضل"[5].

2) ﴿ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾: الهجر: ضدُّ الوصل، وهو "مفارقة الإنسان

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/127، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/494، وابن عادل، اللباب: 10/185.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، اللسان: (سبق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سبق).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (سبق).
(5) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سبق).

غيرَهُ إمّا بالبدن أو باللِّسان أو بالقلب"[1]. وأصله يدلُّ على القطيعة والقطع[2]، ومنه كذلك التَّهاجر بمعنى التَّقاطع[3].

ومنه أيضًا الهجرة والمهاجرة، وهي الخروج من أرض إلى أخرى، "وأصلُ المهاجرة عند العرب: خروج البدوي من باديته إلى المدن". ويقال: هاجر الرَّجلُ؛ إذا فعل ذلك، وكذلك كلُّ من ترك مسكنه، وانتقل إلى قوم آخرين؛ فقد هاجرَ قومَهُ، والمهاجرون هم الذين ذهبوا مع النَّبيِّ ﷺ من مكَّة إلى المدينة، وسمُّوا بذلك؛ لأنَّهم خرجوا من ديار الكفر إلى ديار الإسلام، وفي هذا تركٌ لديارهم ومساكنهم التي نشؤُوا بها، ولُحُوقٌ بدار أخرى ليس لهم بها أهلٌ ولا مال[4].

3) ﴿وَٱلۡأَنصَارِ﴾: النَّصر: إعانة المظلوم، والمَنَعَة له من الظّالم[5]. وأصله من الإمداد بما فيه زيادةٌ وقوَّة وإتيانُ الخير وإيتاؤهُ للآخرين[6]. "وفي الحديث: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»[7]، وتفسيره: أن يمنعه من الظُّلم؛ إن وجده ظالمًا، وإن كان مظلومًا؛ أعانه على ظالمه"[8].

ونصرةُ الله للعبد: إعانته، ونصرةُ العبد لله: هو إعانته لعباده وأنبيائه، والقيام بحفظ دينه وحدوده[9]. "والأنصار: جماعةُ النّاصر، وأنصار النبي ﷺ: أعوانُه"[10].

والمراد بهم في الآية: أهلُ المدينة الذين هاجر إليهم النبيُّ ﷺ، فنصروه على أعدائه، وهم ينتمون إلى قبائل الأوس والخزرج، وفيهم يقول ﷺ: «الأنصارُ شِعارٌ، والنّاسُ دِثارٌ، ولولا الهجرةُ؛ لكنتُ امْرَأً مِنَ الأنصارِ»[11].

---

(1) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (هجر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هجر).
(3) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (هجر).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصّحاح، وابن فارس، المجمل، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (هجر).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، المجمل، والرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (نصر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (نصر).
(7) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المظالم، باب: أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا، برقم: (2443): 3/128.
(8) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (نصر).
(9) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نصر).
(10) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (نصر).
(11) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (1061)، واللفظ له، والبخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (4330).

4) ﴿بِإِحۡسَٰنٖ﴾: الحَسَن: ضدُّ القبيح، وهو الجمال، وهو الشَّيء المرغوب فيه، المبهج لكلِّ من ينظر إليه، تقول: حَسُن الشيءُ، يحسُن حُسْنًا، فهو حَسَنٌ[1]. وأصله: نقاء الشَّيء بخروج ما يشوبه منه[2].

والإحسان: ضدُّ الإساءة، وفسَّره النَّبيُّ ﷺ حين سأله جبريل عن الإحسان، بأنَّه: «أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه؛ فإنَّهُ يراك»[3]، وأراد بالإحسان هنا الإخلاصَ الذي هو شرط للإيمان والإسلام معًا، وكذلك مراقبةُ الله، وحسن طاعته[4]، "وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾، أي: باستقامةٍ وسلوك الطَّريق الذي درج عليه السَّابقون"[5].

5) ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾: الفوز: الظَّفَر بالأمنيَّة والخير، والنَّجاة من الشَّرِّ[6]. وأصله: عبور مسافة على سبيل النَّجاة[7]. ومنه كذلك المفازُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾. أي: فوزًا[8]. والمفازة في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾. أي: بمنجاة من العذاب[9].

المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

والسَّابقون الأوَّلون من الرَّعيل الأوَّل إلى الإيمان بالله ورسوله من: المهاجرين من مكَّة إلى المدينة نصرةً للإسلام والمسلمين، ومن الأنصار أهلِ المدينة الذين هاجرَ إليهم النبيُّ ﷺ، فنصروه على أعدائه، وآووا إخوانهم من المهاجرين إليهم، وآزروهم، ومن التَّابعين لهم بإحسان في الإيمان بالله ورسوله، والهجرةُ من دار الحرب إلى دار الإسلام، هؤلاء جميعًا قد ﷺ بقَبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم، ورضوا عنه سبحانه لِما أجزلَ

(1) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، والرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حسن).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حسن).
(3) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (50)، واللفظ له، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (9).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حسن).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (حسن).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، وابن منظور، لسان العرب: (فوز).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فوز).
(8) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (فوز).
(9) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (فوز).

الثناءُ على ثلاثِ طوائفَ من المسلمين، ولأهل السَّبْق في الإسلام المكانةُ العُظمى، والثَّواب الأجزل

لهم من الثَّواب على طاعتِهم وإيمانهم، وبما نالوه من نِعَمِهِ الدِّينية والدُّنيويَّة، وقد أعدَّ لهم سبحانه بساتين تجري، وتسيل تحت أشجارها وغرفها الأنهار، وهم ماكثون في تلك البساتين والجنّات زمنًا لا نهاية له ولا انقضاء، وذلك هو الفوز والظَّفر الجسيم الذي لا فوز وراءه[1].

وترشدُ الآية الكريمةُ إلى تزكيةِ الصحابة رضي الله عنهم وتعديلِهم، والثناءِ عليهم؛ ولهذا فإنَّ توقيرَهم من أصول الإيمان، وإلى فضلِ التابعين لأصحابِ رسول الله ﷺ إن أحسَنوا المتابعة.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ عطفِ الآية على الآية السابقة:

بيانُ القدوة الصّالحة والمثَل الكامل في اليقين يهوِّن الطَّريق على السّالكين

عطفتِ الواو جملةَ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ على جملة: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ من باب عطفِ الخبر على الخبر، فبعد أن بيَّن الله تعالى صفاتِ الأعراب، وقسَّمهم إلى كافرين ومنافقين ومتربِّصين ومؤمنين؛ ذكر سبحانه السّابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار والذين اتَّبعوهم بإحسان، وقد حسُن الوصلُ لما بين الجملتين الكريمتين من الاتفاق في الخبريَّة، والمناسبة المعنويَّة.

وتظهر بلاغة هذا الوصل في أنَّه عقَّب ذِكْرَ الفِرَقِ المتلبِّسة بالنَّقائص على تفاوتٍ بينها في ذلك بذِكر القدوة الصّالحة والمثَل الكامل في الإيمان والفضائل والنُّصرة في سبيل الله؛ ليحتذيَ متطلِّبُ الصّلاح حذوَهم، ولئلّا يخلوَ تقسيم القبائل السّاكنة بالمدينة وحوالَيها وبواديها عن ذكر أفضل الأقسام تنويهًا به، وبهذا تمَّ استقراء الفِرَقِ وأحوالها[2].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/637، والبغوي، معالم التنزيل: 4/88، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/177، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/95، والزحيلي، التفسير المنير: 11/21، والهرري، حدائق الروح والريحان: 12/19 - 20.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/17.

وجُوِّز أن تكون الآية معطوفةً على قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ﴾ [التوبة: 99]، أي: ومنهم السَّابقون، وعليه يكون قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ عطْفَ جملةٍ على جملة، ويختصُّ الرِّضوان بالسّابقين والتّابعين.

وعلى الجملة يحصل من النَّظْم مراتبُ الصَّحابة على خمس طبقات؛ لأنَّ السَّابقين: إمّا مِن المهاجرين، وإمّا مِن الأنصار، والتَّابعين: إمّا منهما، وإمّا مِن غيرهما[1].

معنى (أل) في: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾:

السَّبقُ إلى أعظم بذْلٍ وتضحية يرفع صاحبَهُ إلى مراتب الأسوة السّامية

(أل) في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ للعهد الذِّهني؛ إذ المخاطَبون بذلك يعرفون السّابقين الأوَّلين إلى الإسلام والهجرة والنُّصرة، وهذه المعرفة الثَّابتة في الأذهان قد دلَّت على مزيَّة وفضيلة لهؤلاء الأجلّاء الذين صاروا - بسبْقِهم غيرَهم إلى الدِّين وبتضحياتهم وبَذْلهم - معروفين مشهورين اشتهارَ الأسوةِ بين الخلائق.

وهذا التَّعريف أفاد التَّعظيم، ولا سيَّما أنَّه ورد في سياق المدح، فضلًا عن أنَّ "السَّبق في الهجرة وصفٌ مناسب للتَّعظيم"[2]، "وإنَّما مدح السَّابقين؛ لأنَّ السّابق إمامٌ للتّالي، والفضلُ للمتقدِّم"[3].

دلالة وصفهم بـ ﴿ٱلْأَوَّلُونَ﴾:

أوَّليَّةُ السَّبق إلى نصرة الدِّين ونيل المعالي منقبةٌ لا تُبَزُّ ولا تُسامى

الوصفُ بالأوَّليَّة يفيد أنَّهم تقدَّموا غيرهم لنيل هذا الفضل، وأنَّ مَن جاء بعدهم صار تبعًا لهم ومؤتمًّا بهم، فهم سابقون في الإيمان، مبادرون إلى التَّصديق وقبول الأحكام، وهم الأوَّلون الأقدمون بمتابعة الرَّسول ﷺ[4]، فهم أوَّلون بالنِّسبة إلى سائر المسلمين[5].

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 7/339.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/129.
(3) إسماعيل حقي، روح البيان: 3/491.
(4) النخجواني، الفواتح الإلهية: 1/317.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/9.

وهنا تبرز دلالة إضافة هذا الوصف لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾؛ إذ إنَّ الأوَّليَّة - بحدِّ ذاتها - قد تخلو من المنافسة والاستباق؛ كأوَّليَّة الجَدِّ على الأب، وأوَّليَّة الأب على الولد.. وهكذا. أمّا قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾؛ فقد دلَّ على التَّنافس والبذل والتَّضحية؛ فهؤلاء الأكابرُ قد دُعُوا إلى هذا الدّين، كما دُعِي غيرُهم، فأسرعوا هم، وأبطأ غيرهم، فسبقوا، وكانوا بذلك الأوَّلين، وكفى بها منقبةً!.

والحاصل أنَّه لـمّا دلَّ على سَبْقهم بالعلوِّ في مراتبه؛ دَلَّ على قديم دخولهم فيه، فقال: ﴿ٱلۡأَوَّلُونَ﴾، أي: إلى هذا الدّين القيِّم[1].

معنى ﴿مِنَ﴾ في: ﴿مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾:

سبْقُ الفاضل الشَّريف شرفٌ وفضل ومكرُمة

يختلف معنى ﴿مِنَ﴾ بحسب الاختلاف الوارد في تعيين المرادِ بقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ هل هم جميع الصَّحابة رضوان اللّه عليهم، أو هم السّابقون بالهجرة، والسّابقون بالنُّصرة دون اللّاحقين منهم؟ فلو قيل: إنَّ المراد بهم جميعُ المهاجرين والأنصار مِمَّن أسلم من قبل الفتح، وقاتَل، ومَن أسلم من بعد الفتح، فإنَّ ﴿مِنَ﴾ بيانيَّةٌ؛ لتقدُّم جنس الصَّحابَة على مَن عداهم من التّابعين وتابِعيهم، حيث أدركوا رسول اللّه ﷺ، وحصل لهم السَّبق بإدراكه وصحبته ﷺ، فالمدح الحاصلُ في هذه الآية يتناول جميع الصَّحابة؛ لأنَّ جملة الصَّحابة موصوفون بكونهم سابقين أوَّلين بالنِّسبة إلى سائر المسلمين، أي: والسّابقون الأوَّلون الموصوفون بوصفِ كونِهم مهاجرين وأنصارًا.

ولو قيل: إنَّ المراد بهم بعضُ الصَّحابة، كأهل بدر، وأُحُد، والعقبة، والسَّمُرَة، حيث سبق بعضهم بعضًا بما نالوا من الكرامة التي لم تحصل لغيرهم، فإنَّ ﴿مِنَ﴾ تبعيضيَّةٌ، وعلى هذا فإنَّ المدح

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/7.

الوارد في الآية لا يتناول إلَّا قدماء الصَّحابة، وقد اختار كثيرون هذا الثاني(1).

معنى (أل) في: ﴿ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾:

الهجرةُ بالدّين والسَّبق إلى نصرته أشرفُ الألقاب، وأعزُّ الأنساب

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ لبيان الجنس، فهي تشمَل جنسَ المهاجرين: وهم الذين هاجروا من مكَّةَ إلى المدينة، وجنسَ الأنصارِ: وهم أهل المدينة الذين آووا النبي ﷺ، ونصروه.

"والأنصار: اسمٌ إسلامي"(2)، "غَلَب على الأوس والخزرج الذين آمنوا بالنبيِّ ﷺ في حياته أو بعد وفاته، وعلى أبنائهم إلى آخر الزمان"(3). وخصَّت الآية من الفريقين: السَّابقين الأوَّلين.

دلالة العطف في: ﴿وَٱلۡأَنصَارِ﴾:

المعطوفُ على العظيم عظيمٌ

العطفُ بالواو يقتضي اشتراكَ المعطوف مع المعطوف عليه في الإعراب والمعنى، حتى يكون الثّاني داخلًا فيما دخل الأوَّل فيه من المعنى المذكور للأوَّل في الجمع والتَّفريق(4)، "والواو الجامعة تُصيِّر ما قبلَها وما بعدَها بمنزلة شيءٍ واحد"(5).

وهذه هي دلالة العطفِ هنا، حيث جعلت الآيةُ السَّبقَ إلى الإيمان بالدّين، وبذل الغالي والنَّفيس في سبيل نُصرته وتأييده وتبليغه؛ فضيلةً عظيمة اشترك في الظَّفَر بها السّابقون الأوَّلون من المهاجرين والأنصار.

دلالةُ تقديم المهاجرين على الأنصار:

ظاهرُ تقديم المهاجرين على الأنصار في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/129، والطيبي، فتوح الغيب: 7/337، والقاسمي، محاسن التأويل: 5/486.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/236.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/18.
(4) السيرافي، شرح كتاب سيبويه: 2/330.
(5) أبو حيان، التذييل والتكميل: 9/233.

﴿ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ مُشعِرٌ بأنَّهم أفضل منهم، وهو الذي تدلُّ عليه قصَّة السَّقيفة، أمّا الأنصار؛ فقد جاء في فضلهم ما لا يحصى من الأخبار[1].

توجيهُ القراءات القرآنيَّة المتواترة في: ﴿وَٱلۡأَنصَارِ﴾:

نصرة الدّين لا تتأخَّر بصاحبها عن فضيلة، ولا عن منقبة جليلة

يجوز في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَنصَارِ﴾ وجهان: الجرُّ، والرَّفع، فالجرُّ عطفٌ على ﴿ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾، والرَّفع عطفٌ على ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾، وبالوجهين قُرِئ في المتواتر، فالجرُّ قراءة الجمهور، والمعنى: والسَّابقون الأوَّلون من المهاجرين ومن الأنصارِ.

وعلى هذه القراءة يكون الأنصارُ قسمين: سابقًا أوَّلًا، ولاحقًا غيرَ أوَّل، ويكون المخبرُ عنهم بالرضا سابقيهم.

وأمّا قراءة الرَّفع؛ فهي قراءة يعقوب، والمعنى: والسّابقون الأوَّلون من المهاجرين، والأنصارُ، فيكون الأنصارُ جميعُهم مندرجين في هذا اللفظ[2].

بلاغةُ العطفِ في: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾:

اللُّحوق بموكب الأجلّاء يسِمَ صاحبه بشِيَم النُّبلاء

العطف يقتضي مغايرةً يحصل بها فائدة[3]، والعطفُ بالواو يفيد الجمع والتَّشريك، حيث تشرك بين ما قبلَها وما بعدَها في اللفظ والمعنى[4].

ومن هنا تظهر بلاغة عطف قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ على ما قبله؛ فإنَّ هذا دلَّ على إلحاق هؤلاء التَّابعين بإحسان بمَن قبلهم من السّابقين في الفوز برضا الله تعالى، وبالجنّات التي تجري تحتها الأنهار، وهذه فضيلةٌ عظيمة ومنقبة جسيمة.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/10.
(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/466، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/495، وابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/280.
(3) السبكي، عروس الأفراح: 1/400، والأزهري، شرح التصريح: 1/232.
(4) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 463، والمالقي، رصف المباني، ص: 473.

إضافة إلى أنَّ هذا العطف - باقتضائه المغايرةَ - قد دلَّ على أنَّ التّابعين بإحسان غير المهاجرين والأنصار[1].

وقد رُوي أنَّ عمر بن الخطّاب ﷺ كان يقرأ هذه الآيةَ بإسقاط الواو، هكذا: (والأنصارُ الذين اتَّبعوهم)، فيجعل ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم﴾ نعتًا للأنصار، على معنى أنَّ المهاجرين قد سبقوا أوَّلًا، وأنَّ الأنصار قد اتَّبعوهم بإحسان، حتّى ردَّه أُبيُّ بن كعب ﷺ إلى القراءة الصَّحيحة. وكان عمر ﷺ يقول: "لقد كنتُ أُرانا رُفعنا رفعةً لا يبلغها أحدٌ بعدنا"[2].

فالحاصل أنَّ الله ﷻ ذكر في هذه الآية ثلاثَ طبقاتٍ من الأمَّة هي خيرها: السَّابقون الأوَّلون من المهاجرين، والسَّابقون الأوَّلون من الأنصار، والذين اتَّبعوا هؤلاء السّابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار في الهجرة والنُّصرة، حال كونهم محسنين في أفعالهم وأقوالهم[3].

وهذا التَّقسيم لم يكن ليحصل بدون العطف، فضلًا عن أنَّه فتح الباب واسعًا ليدخل في زمرة التَّابعين كلُّ مَن سار على خُطا الصَّحابةِ رضوان الله عليهم في الإيمان والتَّسليم والتَّضحية والعمل الصّالح إلى يوم القيامة.

نكتةُ التَّعبير بالاسم الموصول وصلته:

اتِّصاف الموصول بما تضمَّنته الصِّلة من وصفٍ عظيم يدلُّ على أنَّه عظيم

يفيد التَّعبير باسم الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم﴾ قصْرَ مدلول الصِّلة عليه؛ كما أنَّ افتقاره إليها، وطلبَهُ إيّاها، جعله مرتبطًا بها ارتباطًا وثيقًا، بل لا يحصل له معنى أصلًا إذا جُرِّد عنها، علاوةً على أنَّ الصِّلة لا بدَّ أن تكون أمرًا معروفًا[4]، فهذا التَّعبير بالاسم الموصول - إذًا - ضربٌ من ضروب التَّوكيد.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/642.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 11/640.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 12/20.
(4) أبو موسى، خصائص التراكيب، ص: 305.

فضلًا عن أنَّ الاسم الموصول من المعارف، والتَّعريف في سياق المدح يفيد التَّعظيمَ، كما أنَّه قد يُتَّخذ اسمُ الموصول مع صلته ذريعةً لتعظيم الموصوف به؛ إذ اتِّصافه بما تضمَّنته صلة الموصول من وصفٍ عظيمٍ أمرٌ يدلُّ على أنَّه عظيم(1).

ويضاف إلى ذلك أنَّ التَّعبير باسم الموصول وصلته أفاد الإشارةَ إلى أنَّ الوصف الذي دلَّت عليه صلة الموصول: هو علَّة بناء الحكم في الجملة، أي: هذا الجزاءُ الكريم لهم إنَّما هو بسبب اتِّصافهم باتِّباع السّابقين الأوَّلين بإحسان(2).

ردِاءُ الإحسان يزيد لابسَه بهاءً سابغًا، وجمالًا بالغًا

معنى الباء في: ﴿بِإِحۡسَٰنٖ﴾:

"الباء للملابسة"(3)، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾، أي: متلبِّسين بإحسان في الاعتقادِ والأفعال والأقوال؛ اقتداءً منهم بالسّابقين الأوَّلين، والمراد به كلُّ خَصْلة حسنة(4).

وفي هذا إشارةٌ لطيفة، وهي أنَّ هذه الباء جعلت الإحسانَ كالحُلَّة السّابغة التي تزيد لابسها جمالًا وبهاء، وهذا تعظيم لشأن الإحسان والمحسنين.

التَّنكير في سياق المدح يفيد التَّعظيم

نكتة تنكير ﴿بِإِحۡسَٰنٖ﴾:

جاءت كلمة ﴿بِإِحۡسَٰنٖ﴾ نكرةً لتفيد شيئين: أحدهما: العمومُ، فهي تعمُّ كلَّ ما يصحُّ أن يطلق عليه إحسان، "والمراد به كلُّ خَصْلة حسنة"(5).

والآخر: هو التعظيم، أي: تعظيمُ هذا الإحسان؛ إذ السّياق سياقُ مدح وثناء.

(1) حسن، بلاغة اللغة: 1/433.
(2) حسن، بلاغة اللغة: 1/433.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/18.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/97، والشوكاني، فتح القدير: 2/453.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/94.

ليس كلُّ اتِّباع محمودًا، بل بإحسان التّابع وصلاح المتبوع

فائدة القيْد ﴿بِإِحۡسَٰنٍ﴾:

"يُلاحَظ أنَّ الاتِّباع المطلوب هو الاتِّباع بإحسان، أي: إحسانُ الأعمال والنّيّات والظَّواهر والبواطن، أمّا الاكتفاء بظاهر الإسلام؛ فلا يحقِّق شرط الإحسان"(1).

"وإنما قيَّد هذا الفريق خاصَّة؛ لأنَّ السّابقين الأوَّلين ما بعثهم على الإيمان إلا الإخلاص، فهم محسنون، وأمّا الذين اتَّبعوهم؛ فمِن بينهم مَن آمن اعتزازًا بالمسلمين حين صاروا أكثر أهل المدينة، فمنهم مَن آمن، وفي إيمانه ضعفٌ وتردُّد، مثل المؤلَّفة قلوبهم، فربَّما نزل بهم إلى النِّفاق، وربَّما ارتقى بهم إلى الإيمان الكامل، وهم المذكورون مع المنافقين في قوله تعالى: ﴿۞لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الأحزاب: 60]، فإذا بلغوا رتبةَ الإحسانِ؛ دخلوا في وعد الرِّضا من الله وإعداد الجنّات"(2).

الموقعُ النَّحويُّ والبيانيُّ:

عمومُ رضا المنّان عن أهل السَّبْق بالإيمان، وعن تابعيهم بإحسان

قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ في موقع الخبر لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾، وهذا أظهرُ ما قيل فيه(3).

وإذا كان ذلك كذلك؛ فإنَّ هذا الخبر يصدق على المبتدأ، وعلى ما عُطِف على المبتدأ، وعليه فإنَّ "قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ يعمُّ الكُلَّ"(4): الصَّحابةَ سابقيهم ولاحقيهم، ومَن تبعهم بإحسان، ويدخل في ذلك التابعون ومَن بَعدهم إلى يوم القيامة بشرطِ الإحسان، "ومعنى هذه الآية الحكمُ بالرِّضا عنهم بإدخالهم الجنَّةَ وغفرِ ذنوبهم، والحكمُ برضاهم عنه في شكرهم وحمْدِهم على نعمه وإيمانهم به وطاعتهم له"(5)؛ "فيا ويلَ مَن أبغضهم (الصحابة)،

(1) الزحيلي، التفسير المنير: 11/21.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/18.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/495، والسمين، الدر المصون: 6/109، وابن عادل، اللباب: 10/184.
(4) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/292.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/75.

أو سبَّهم، أو أبغض، أو سبَّ بعضَهم! ولا سيَّما سيدُ الصحابةِ بعد الرسول وخيرُهم وأفضلُهم، أعني الصديقَ الأكبرَ والخليفةَ الأعظم أبا بكر ابن أبي قُحافة، رضي الله عنه"[1].

بلاغةُ تقديم المسند إليه على المسند:

تثبيت قلب المؤمن يزيده إيمانًا، وفضحُ المنافقِ يزيده خِذْلانًا

في تقديم المسند إليه ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ على المسند ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ وهو خبره الفعليّ لقصد التقوّي والتَّأكيدِ[2]. والمقام الدّاعي إلى تقوية الحكم هاهنا هو الردُّ على المنافقين الذين يلمِزون المطَّوِّعين من المنفقين في سبيل الله، فجاء الحكم مؤكَّدًا مقرَّرًا لمواجهة الشَّكِّ في نفوس المنافقين، وردِّ الدَّعوى التي يدَّعونها. أمّا بالنِّسبة للمؤمنين؛ فقد جاء التَّوكيد لإثبات الحكم في قلوبهم قويًّا مقرَّرًا[3].

دلالةُ رضا الله عنهم بين الحقيقة والمجاز:

الإحساسُ برضا الله تعالى أعلى درجات الجزاء

"معنى رضاه سبحانه عنهم: أنَّه قَبِل طاعاتهم، وتجاوز عنهم، ولم يسخط عليهم، ورضوا عنه بما أعطاهم من فضله، ومع رضاهُ عنهم؛ فقد أعدَّ لهم جنّاتٍ تجري تحتها الأنهار في الدّار الآخرة"[4].

"ورضوان الله تعالى أكبرُ جزاءٍ على الطّاعات، فقد ذكر الله تعالى الجزاءَ مِن جنّات ونعيم مقيم، ثمَّ قال: ﴿وَرِضۡوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التَّوبة: 72]، وقد قدَّمه تعالى على كلِّ جزاء من بعده، فالإحساسُ برضا الله أعلى درجات الجزاء، ووصفهم الله بأنَّهم رضوا عنه، رضوا بتكليفاته، وتقبَّلوها بقَبولٍ حسنٍ، وقاموا بحقِّ طاعته، وأحبُّوا الله لا خوفًا من ناره، ولا طمعًا في جنَّته، بل لكمال محبَّته، وتلك هي المنزلة العليا في العباد"[5].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/203.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/18.
(3) أبو موسى، خصائص التراكيب، ص: 220.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 2/453.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3429.

بلاغة العطف في: ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾:

مِن تمام النِّعمة امتلاءُ مَن دثَّرته النِّعمة رضًا بها واكتفاء

عُطف قوله تعالى: ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ على قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾؛ لبيان عظيم جزاء هؤلاء الأجلّاء المذكورين في الآية، فعدَّد جزاءهم ومثوبتهم.

ويضاف إلى ذلك أنَّ الذي حسَّن العطف هنا هو المشاكلة بين الجملتين الكريمتين، واتِّفاقهما في الفعليَّة، وفي أنَّ فعلَيْهما ماضيان، وأنَّه أُريد للثّانية مشاركة الأُولى في الحكم[1]، وأنَّ ترْكَ العطف سيوهِمُ أنَّ الأُولى منهما نعتٌ لكلمة ﴿بِإِحۡسَٰنٖ﴾، وأنَّ الثّانية منهما هي الخبر، وهذا خلاف المراد، فضلًا عن مناكدته للصِّحَّة والفصاحة.

نكتةُ تقديم رضاه عنهم قبل رضاهُم عنه:

إذا رضي الله عن العبد؛ أرضاه، فما جزاء الإحسان إلّا الإحسانُ؟

تقدَّم رضوان اللّه تعالى على رضاهم عنه سبحانه لنكتة بلاغية تظهر من وجهين:

أحدهما: أنَّ "رضوان اللّه تعالى أكبرُ جزاء على الطاعات، فقد ذكر اللّه تعالى الجزاء من جنات ونعيم مقيم، ثم قال: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التَّوبة: 72] وقد قدَّمه تعالى على كلِّ جزاء من بعده، فالإحساسُ برضا اللّه أعلى درجات الجزاء"[2].

والآخر: أنَّ رضاهم عن اللّه تعالى تابعٌ لرضا اللّه سبحانه عنهم؛ فقد رضوا بما أعدَّه اللّه ﷻ لهم من الكرامة والمثوبة التي هيَّأها لهم لرضاه تعالى عنهم، فكان ارتباطهما معًا ارتباط النَّتيجة بالسَّبب، فمن ثمَّ قُدِّم السَّبب على نتيجته المترتِّبة عليه، فإنَّ "رضاهم عن اللّه قضيَّةُ رضاء اللّه عنهم، فلولا أنَّه رضي عنهم في آزاله ... فمتى وصلوا إلى رضاهم عنه"[3].

---

(1) عبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص: 171، والجناجي، البلاغة الصافية، ص: 233.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3429.

(3) القشيري، لطائف الإشارات: 2/58.

بلاغةُ المشاكلة بين رضا الله عنهم ورضاهم عنه:

الجزاء من جنس العمل

المقصود برضا اللّه عنهم: تقبُّلُ صالح أعمالهم، ومغفرة ذنوبهم، وإدخالهُم الجنَّةَ، والمقصود برضاهم عنه سبحانه: شكرُهم إيّاه وحمْدُهم على نعمه، وإيمانهم به، وطاعتهم له[1]. فمعنى رضا اللّه سبحانه عنهم مختَلِفٌ عن معنى رضاهم عنه ﷻ، وإنَّما سوَّغ هذا الإطلاقَ داعي المشاكلةِ التي أفادت معنى أنَّ الجزاء من جنس العمل، وأنَّ جزاء الإحسان لا يكون إلَّا الإحسانَ.

بلاغةُ العطف في: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾:

من شأن الإكرام تعديدُ مظاهر الإنعام

أفاد هذا العطف تعديدَ جوانب الثَّواب، وتكثيرَ صور العطاء، فمع هذه المرتبة العليا من المكانة - التي لا تعلوها مكانةٌ، ولا ينهض إلى مثلها جزاءٌ، وهي رضا اللّه تعالى عنهم - مع هذا فقد أعدَّ اللّه لهم ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾[2].

معنى اللّام في: ﴿لَهُمۡ﴾:

مَن لم يجعل لله شريكًا في العبادة؛ لم يجعلِ الله له شريكًا في تملُّك الثَّواب

أفادت هذه اللّامُ معنى الاختصاصِ والمِلْك، فهي جنّاتٌ ومنازلُ خاصَّةٌ بهم، قد أُعِدَّت خصوصًا لهم، وأُورِثوها جزاءً بما كانوا يعملون.

وفي هذا ما فيه من الكرامة أن يعلمَ المؤمنُ أنَّ اللّه جلَّ في علاه قد رضي عنه، ورضي عمله، وشكر سعيه، وأعطاه أجرًا وثوابًا لا يشاركه فيه أحد، ولا ينازعه في التَّلذُّذ بنعمائه مشارك.

نكتةُ تقديم شبه الجملة ﴿لَهُمۡ﴾ على المفعول:

تأكيد البُشرى يزيد تعلُّق النَّفس بها

أفاد تقديم الجار والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ على المفعول ﴿جَنَّٰتٖ﴾ معنى الاختصاص، فكأنَّ هذه الجنّاتِ لم تُعَدَّ إلّا لهم هُم، ويضاف إلى هذا الاختصاص تعجيلُ ما يسرُّهم.

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/75.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3629.

فائدةُ تنكير ﴿جَنَّٰتٍ﴾:

أفاد تنكير كلمة ﴿جَنَّٰتٍ﴾ شيئين: أحدهما: التَّعظيم؛ لأنَّها وردت في سياق المدح وذكر الثَّواب على العمل المرضيِّ عنه من ربِّ العالمين؛ فنُكِّرت للتَّفخيم والتَّعظيم إشارةً إلى أنَّها قد بلغت من خطورة الشَّأن حدًّا لا يُدرَك كُنهُه أو مداه.

التَّنكيرُ في سياق التَّبشير يفيد التَّعظيمَ والتَّكثير

الآخر: التَّكثير، فهي جنّات كثيرة، لا تحصى خيراتُها، ولا تنتهي ملذّاتها.

الموقعُ النَّحويُّ والبيانيُّ لـ: ﴿تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

وقعت هذه الجملةُ موقعَ الصِّفة لكلمة ﴿جَنَّٰتٍ﴾[1]، وقد أزالت هذه الصِّفة الإبهامَ الموجود في النَّكرة، كما أفادت تعظيمَ شأن هذه الجنّاتِ؛ ذلك أنَّ تخيُّر هذا الوصف تحديدًا ممّا يسوق إلى الذِّهن لوازمَه مِن وجود الماء الذي هو أساس في الحياة، ومِن ديمومة وجود الثِّمار والأشجار لاستمرار جري الأنهار، ومِن أنَّ الماء لا يُحمَل إلى هذه الجنّات، فيُخشَى من فواته أو نضوبه، بل هو يجري تحتها.

وصفُ المنعوت الحسَن بما يزيده حسنًا ممَّا يزيد تعلُّق النَّفس به

نكتةُ التَّعبير بالمضارع في: ﴿تَجۡرِي﴾:

جيء بالمضارع ﴿تَجۡرِي﴾ مسندًا إلى فاعله ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ لإفادة تجدُّد هذا الجريان واستمرارِه وعدم انقطاعه، وهذا ممّا يجعل الصُّورة حيَّةً ذات حركة دائمة تناسب النَّعيمَ الدّائم لأهل الجنَّة.

تجدُّد النَّعيم وتنوُّعُه يدفع عن النَّفس توهُّمَ السَّآمَة باعتياده

ولو قيل: جَرَت تحتها الأنهار؛ لربَّما تُوُهِّم أنَّها جَرَت في السّابق، ثم جفَّت، ولو قيل: جارية تحتها الأنهار، لتُصُوِّر ثبات الجري واستقراره، وهذا جيِّد، لكنَّه لا يضاهي في الجودة أن يُعبَّر عن الأنهار باستمرار الجري وتجدُّده، فلا يُعتاد، ولا يُمَلُّ، فضلًا عن أنَّ التَّعبير بالفعل المضارع يفيد استحضار الصُّورة.

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 12/37.

فائدة تقديم الظرف ﴿تَحۡتَهَا﴾ على الفاعل:

أفاد تقديم الظَّرف ﴿تَحۡتَهَا﴾ بحيث فصل بين الفعل ﴿تَجۡرِي﴾، وفاعله ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ - إلى جانب الاختصاص - الدِّلالةَ على عُلوِّ هذه الجنّات المعدَّة للسّابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار والذين اتَّبعوهم بإحسان، فمن علوِّها جرت الأنهار تحتَها.

السَّبقُ في إعلاء شأن الدّين يُعلي مكانةَ صاحبه ومكانَه في جنّات النَّعيم

فلو قيل: (تجري الأنهارُ)، لجاز أن يكون موقع جريانها في أيِّ مكان من الجنَّة، ولكن لما قُدِّم الظَّرف ﴿تَحۡتَهَا﴾ بحيث يجيء قبلَ تمام الفائدة بذكر بقيَّة أركان الجملة؛ كان هذا قيدًا لموقع الجريان، وتخصيصًا له، فالأنهارُ تجري تحتَ الجنَّة، وهذا من كمال النَّعيم!

معنى (أل) في: ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

أنهارُ الجنَّة هي الأنهار الكاملة

اللّامُ هنا للعهد الذِّهني، فلم يسبق ذِكْرُ الأنهار في الآية أو السّياق، لكن سبق العلمُ بها، فقد ذُكِرَت في آيات كثيرة، وقد ورد ذكرها مفصَّلةً في سورة محمَّد ﷺ: ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ﴾ [آية: 15].

كما أنَّ هذا التَّعريف أفاد الإشارةَ إلى عظمة المعرَّف به، فهي أنهار عظيمةٌ، قد بلغت حدَّ الكمال في الحُسن والرِّيِّ، وأنَّ كلَّ كمال وجمال في الأنهار الواقعة في الخارج، أو المتخيَّلة في الذِّهن قد استوعبتهُ هذه الأنهار، وزادت عليه، فكأنَّها هي الأنهارُ الحقيقيَّة الكاملة لا غيرها.

معنى الجمع في ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

عطاء الكريم كريمٌ، وفضلهُ كثيرٌ عميم

عُبِّر عن أنهار الجنَّة بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ للدِّلالة على كثرة هذه الأنهار بما لا يحصيه إلّا اللّه تعالى، وأيضًا لتناسب الجمع المذكور في قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتٖ﴾، ففي كلِّ جنَّة منها أنهار جاريةٌ وعطايا غيرُ متناهية.

بلاغةُ القراءات القرآنيَّةِ المتواترة:

استيعابُ الإنعام وكماله بذكر تنوُّع صور النَّعيم وتعدُّد أحواله

وذلك في قوله: ﴿تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ حيث "خالفت هذه الآية عند معظم القُرّاء أخواتها؛ فلم تُذكر فيها (مِن) مع ﴿تَحۡتَهَا﴾ في غالب المصاحف وفي رواية جمهور القُرّاء، فتكون خالية من التأكيد؛ إذ ليس لحرف (من) معنًى مع أسماء الظُّروف إلّا التَّأكيدُ، ويكون خلوُّ الجملة من التَّأكيد لحصول ما يغني عنه من إفادة التقوّي بتقديم المسند إليه على الخبر الفعليِّ، ومِن فعل (أَعَدَّ) المؤذن بكمال العناية، فلا يكون المُعَدُّ إلا أكمل نوعه. وثبتت (مِن) في مصحف مكَّة، وهي قراءة ابن كثير المكّيِّ، فتكون مشتملة على زيادة مؤكِّدين"[1].

"والفرق بينهما أنَّ قوله: ﴿تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، أي: معناه تجري من تحتِ الأشجارِ، وقوله: ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾، أي: ينبع الماءُ من تحتِ الأشجار"[2].

وعليه فإنَّ معنى (مِن) هنا لابتداء الغاية، فمعنى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا﴾، أي: ابتداء نبوعِ الأنهار من تحت هذه الجنّات[3]، وفي هذا مزيد من التكريم لأهل الجنّات.

أمّا ﴿تَجۡرِي تَحۡتَهَا﴾؛ فمعناه أنَّ نبع الماء من مكان بعيد عنها، من جهة لا يعلمها أهل الجنَّة، ثمَّ هو يمرُّ من تحتها، ولكنَّه يأتي دون نقص، فلا يقلُّ الماء في تلك الأنهار أبدًا، ولكنَّه ليس كمن تنبع من تحتها الأنهار.

فالحاصلُ أنَّ الفارق بين القراءتين هو استيعابُ الكماليَّة في النَّص، فهاتان صورتان لجريان الماء في الجنَّة، وفيهما تفنُّن في

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/19.
(2) الثعلبي، الكشف والبيان: 14/24.
(3) ابن الأثير، الشافي: 1/211.

النَّعيم، فعلى كلتا القراءتَيْن نعلم أنَّ أهل الجنَّة مُكرمون أينما حلُّوا فيها، لا تفاوت بينهم في تكريم الله تعالى لهم بجريان الأنهار تحتهم، وفيه زيادةٌ لاطمئنان المؤمنين أن نعيم الجنَّة باقٍ وخالدٌ[1].

الموقعُ النَّحْويُّ والبيانيُّ لـ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ﴾:

وقعت جملة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ﴾ موقعَ الحال من ضمير ﴿لَهُمۡ﴾[2]؛ لأنَّه لمّا كان أعظم مخاوف المتنعِّمين أنْ ينقطِع عنهم هذا النَّعيم، أو تفنى هذه اللَّذَّة؛ نفاه سبحانه بقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾[3]، فالخلودُ حالٌ ملازمةٌ لأهل هذه الجنّات؛ وذلك "لتخليدهم هذا الدّين بإقامة دلائله، وتأسيس قواعده إلى يوم القيامة، والعملِ بمقتضاه، واختيار الباقي على الفاني"[4]، فالجزاءُ من جنس العمل.

مَن خلَّد الدّين بإقامة بيّناته؛ خلَّده الله في جنّاته

عودُ الضَّميرِ في: ﴿فِيهَآ﴾:

الضَّمير في قوله تعالى: ﴿فِيهَآ﴾ يعود على الجنّات المذكورة قبله في السّياق في قوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾، ولا يجوز أن يعودَ على الأنهار؛ إذ الأنهار وردت في سياق وصفِ هذه الجنّات، فضلًا عن أنَّ الخلود يكون في الجنّات لا في الأنهار، وهذا ظاهر من السّياق.

دلالةُ التَّعبير بالحرف (في):

دلَّ التَّعبير بحرف الجرِّ (في) في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ على الظَّرفيَّة، وهي ظرفيَّةٌ تضمُّنٍ واحتواء[5]، فدلَّت على أنَّ أهل هذه الجنّات منغمسون في نعيمها انغماسًا تامًّا.

أهلُ الجنَّة مسربلون بالنَّعيم، مُدَثَّرون بالرِّضا، متوَّجون بالكرامة

نكتةُ تقديم شبه الجملة ﴿فِيهَآ﴾:

قُدِّم شبه الجملة ﴿فِيهَآ﴾ على الظَّرف ﴿أَبَدًاۚ﴾؛ لإفادة

---

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 1/208، 12/7367، والبقاعي، نظم الدرر: 9/8.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 12/21.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/8.

(4) القاسمي، محاسن التأويل: 5/486.

(5) السامرائي، معاني النحو: 3/93.

التَّخصيص والتَّوكيد، وأيضًا لتعجيل المسرَّة، حيث بيَّنت الآيةُ أن خلود المعنيّين بهذا الثَّواب العظيم من الجنّات التي تجري تحتها الأنهار إنَّما سيكون في هذه الجنّات التي أُعِدَّت لهم هم، فقدَّم الجار والمجرور ﴿فِيهَآ﴾ ليَليَ الحال ﴿خَٰلِدِينَ﴾ دون أن يفصل بينهما فاصلٌ، ولو كان هذا الفاصل هو الظَّرف الدّال على التَّأبيد، وذلك لتعجيل المسرَّة والبُشرى، وهذه مبالغةٌ في الإكرام.

مِن شأنِ الإكرام تعجيلُ المسرَّة والبشرى بالإنعام

فائدة الظَّرفِ ﴿أَبَدًاۚ﴾ بعد التَّعبير بالخلود:

الأصل أنَّ الخلود موضوعٌ للتَّعبير عن الثَّبات والملازمة والمكث في الموضع أمدًا طويلًا، وأنَّ الأبد موضوع للبقاء الدّائم أو الإقامة الدّائمة بلا حدٍّ[1].

مِن المبالغة في الإنعام طمأنةُ المكرَم بخلوده فيه على الدَّوام

ومن هنا تظهر فائدة ذكر الظَّرف ﴿أَبَدًاۚ﴾ بعد التَّعبير بالخلود؛ إذ قد أفاد الخلودُ معنى الثَّبات والمكث، وأفاد الأبد معنى الدَّوام بلا حدٍّ، وفي هذا مبالغةٌ في طمأنة المؤمنين بأنَّهم لن يخرجوا من هذا النَّعيم، وفيه دفْعٌ لتوهُّم أنْ يأتي التَّعبير بالخلود دالًّا على طول البقاء لا دوامِه، فجاءت الآية دافعةً هذه الشُّبهة.

ويضاف إلى ذلك أنَّ التَّعبير بالأبد أفاد أنَّه قد قُدِّر خلودُهم في تلك الجنات أبدًا من غير انتهاء، فهو لاستغراق المستقبل[2]، وهذا تأكيدٌ للمراد من الخلود[3].

الموقع النَّحويُّ والبيانيُّ لجملة التذييل:

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ﴾: مبتدأٌ وخبر، و﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾: صفة له، والجملة مستأنَفة[4]. وأوثر هذا الاستئناف دون الوصلِ لنكتة بلاغيَّة، وهي: تنبيه المخاطَب لأمر عظيم، فإن ما قَبْلَ هذه الجملة

الجنَّة هي كبرى الجوائز وأجلُّها، ولا يُعدُّ فائزًا إلّا مَن فاز بها ونالها

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أبد - خلد).
(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 3/492.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/8.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 12/37.

الكريمة قد أوثر فيه العطفُ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾، ﴿ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم﴾، ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾. فحسُنَ أن يُقطع تسلسل المعطوفات لإثارة الذِّهن ولفت الانتباه إلى أنَّ هذا الذي تقدَّم ذكره هو الفوز العظيم بحقٍّ، أي: هو الذي ينبغي أن تُعَدَّ له عدَّته لنيله والظَّفر به.

نكتةُ التَّعبير باسم الإشارة للبعيد:

بَعُدَ السَّابقون الأوّلون في بلوغ الـذُّرى كما بعُد البدر عن ملامسة الثَّرى

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الأمر العالي المكانة خاصَّة[1]. والسِّرُّ في إيثاره دون اسم الإشارة القريب هو "إرادةُ تكريم المتحدَّث عنه، والتَّعبير عن ارتفاع منزلتِهِ، باستعمال اسم الإشارة الذي يشار به إلى البعيد"[2].

وقد أفاد التَّعبيرُ به في هذا السِّياق بيانَ بُعد منزلة السَّابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار، والذين اتَّبعوهم بإحسان في مراتب الفضل، وعظِم الدَّرجة من مؤمني الأعراب[3].

معنى (أل) في: ﴿ٱلْفَوْزُ﴾:

الفوزُ بالجنَّة هو الفوز بحقٍّ، فلا فوز وراءَهُ، ولا يُوازَن به غيرُه

اللّام في قوله تعالى: ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ لاستغراق صفات جنس الفوز، أي: ذلك الفوزُ المذكور هو الذي اجتمعت فيه كلُّ صفات الفوز على الحقيقة، ففيه دلالةٌ على أنَّه هو البالغ النِّهايةَ في الكمال، والغايةَ في العظمة، فهو الفوزُ بحقٍّ الذي لا فوز وراءه.

دلالةُ تعريف طرفِي الإسناد:

دلَّ تعريف طرفي الإسناد: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ﴾ على القصر، قصر المبتدأ على الخبر، وهذا القصر أفاد تخصيصَ الفوز بالخلود في الجنّات، وهذا للمبالغة في تأكيد المعنى وتقويته.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/8.
(2) حسن، بلاغة اللغة: 1/423.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/97.

فائدةُ وصف الفوز بالعِظَم:

أفاد وصفُ الفوز بالعظيم الإشارةَ إلى أنَّ هذا الجزاء العظيمَ - من رضوان اللّه تعالى عن المؤمنين، والخلودِ في جنّات النَّعيم متعدِّدةِ الثِّمار مختلفة الألوان والأنواع - هو الفوز العظيم حقًّا، فلا فوز يقابله أو يناهده، ومن ناله؛ فقد نال خير الدُّنيا والآخرة[1].

كان الجزاءُ على قدر المجازي لا على قدر العمل، فلمثله فلْيَنْصَب

إضافة إلى أنَّه بلغ النِّهاية في العظمة؛ لأنَّه قد خلص من الكُدْرات التي تنقص حلاوة النِّعمة، أو تنغِّص اللَّذة على المتنعِّم بها، فضلًا عن أن يُوازَن بفوز الدُّنيا الذي هو - مهما بلغ ما بلغ - قليلٌ حقير زائل[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأوَّلُ والسّابقُ:

الأوَّل لا يُسبَق، والسّابق قد يُسبَق

الفرق بين السّابق والأوَّل: أنَّ السّابق في أصل اللغة يقتضي مسبوقًا، والأوَّل لا يقتضي ثانيًا، ألا ترى أنَّك تقول: هذا أوَّل مولود وُلِد لفلان، وإن لم يُولَد له غيره، وتقول: أوَّل عبد يملكه حرٌّ، وإن لم يملك غيره، ولا يخرج الابنُ والعبد من معنى الابتداء، وبهذا يبطل قولُ الملحدين: إنَّ الأوَّل لا يسمّى أوَّلًا إلّا بالإضافة إلى ثانٍ، وأمّا تسمية اللّه تعالى بأنَّه سابق؛ فيفيدُ أنَّه موجود قبل كلِّ موجود، وقال بعضهم: لا يطلق ذلك في اللّه تعالى إلّا مع البيان؛ لأنَّه يوهم أنَّ معه أشياءَ موجودة قد سبقها؛ ولذلك لا يقال: إنَّ اللّه تعالى أسبق من غيره؛ لأنَّه يقتضي الزّيادة في السَّبق، وزيادة أحد الموصوفين على الآخر في الصِّفة يوجب اشتراكهما فيها من وجهٍ أو من وجوه[3].

والسابق قد يكون مسبوقًا، وقد لا يُسبَق، أمَّا الأوَّل؛ فلا سابق

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3430.

(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1138، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/94.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 270، وابن تيمية، مجموع الفتاوى: 5/26.

له، فكون ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ موصوفين بـ ﴿ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ يدلُّ على أنَّهم قد سَبقوا إلى هذا الفضل دون أن يسبقَهم إليه غيرُهم.

الخلودُ والأبد والدَّوامُ والسَّرمد:

الخلودُ هو معنى بقاء المنعَّم، والأبد هو معنى بقاء النَّعيم

الخاء واللام والدّال أصل واحد يدلُّ على الثَّبات والملازمة(1). والخلود: بقاءُ الشيء مدَّةً طويلة على حال واحدة، لا يطرأ عليه فيها تغييرٌ ولا فناء(2). والخلود في الجنَّة: بقاء الأشياء على الحالة التي عليها من غير اعتراض الفساد عليها(3). أمّا الأبد؛ فهو الزَّمن الممتدُّ الذي لا انقضاء لآخره(4)، ويدور معناه المحوريُّ حول البقاء الدّائم أو الإقامة الدّائمة بلا حدٍّ(5).

والفرق بين الدَّوام والخلود: أنَّ الدَّوام هو استمرارُ البقاء في جميع الأوقاتِ، ولا يقتضي أن يكون في وقت دون وقت، ولذلك يقال: إنَّ الله لم يزل دائمًا، ولا يزال دائمًا، والخلود هو استمرار البقاء من وقت مبتدأ، ولهذا لم يصحَّ أن يُوصفَ الله ﷻ بالخلود، كما وُصِفَ بالدَّوام(6).

وأمّا السَّرمدُ: فهو دوام الزَّمان واتِّصالُهُ من ليل أو نار، وقيل: السَّرمد: الدّائم الذي لا ينقطع(7). ومعناه المحوريُّ: الدّوام الزمنيُّ، ورأى ابن فارس أنَّ الميم زائدة، فأعادها إلى السَّرْد، أي: إنَّ فيه معنى الامتداد والتَّوالي، وهذا امتداد وتوالٍ زمنيٌّ(8).

وأهل الجَنَّة لا يصيبهم فسادٌ ولا فناء، وهم مقيمون في الجنَّة إقامةً دائمة بلا حدٍّ؛ لذا أُوثِر لفظا الخلود والأبديَّة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلد).
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 7/53.
(3) الرّاغب الأصفهاني، المفردات: (خلد).
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 7/53، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أبد).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أبد).
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 239، والرّاغب الأصفهاني، تفسير الرّاغب: 5/507.
(7) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، وابن منظور، اللسان، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سرمد).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سرمد).

الفوزُ والفلاحُ:

الفرق بينهما: أنَّ الفوز يدور معناه المحوريُّ حول عبور مسافة قفر جافَّة بالغة الامتداد[1].

أمَّا الفلاح؛ فيدور معناه المحوريُّ حول الشَّقِّ والنَّفاذ[2].

الفوز يكون بعبور وتجاوز، والفلاح يكون بشَقٍّ ونفاذ

فممّا سبق يتبيَّن أنَّ الملحظ في الفوز هو العبور والتَّجاوز، أمّا الملحظ في الفلاح؛ فهو الشَّقُّ والنَّفاذ؛ لذلك يقال لـمَن وصل أوَّلًا إلى نهاية المسابَقة: فاز بالمسابَقة، ولا يقال: أفلح بها؛ لِما في الفوز من معنى العبور.

ولَـمّا ذُكِر في الآية كلمات مثل: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾، ﴿ٱلۡأَوَّلُونَ﴾، ﴿ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾، ﴿ٱتَّبَعُوهُم﴾، وهي كلمات تدلُّ على السَّبق المتضمِّن عبورَ مسافة وعرة، وصِعاب خطرة لـمّا كان ذلك كذلك؛ أُوثِر ذِكرُ الفوز دون الفلاح؛ فالقوم قد سبقوا إلى الإيمان باللّه ﷻ، وبرسوله ﷺ وباليوم الآخر، وعبَروا طريق الهجرة، وتسابقوا إلى نصرة النَّبيِّ ﷺ، واجتازوا وِهاد الكفر، وقِفار الشِّرك، ومفاوز الإلحاد، إلى حياض الإيمان، ورياض الجنان، ففازوا بالنَّعيم والرِّضوان.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (فوز).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (فلح).

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة: 101 - 102]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِمَا قَبْلَهما:

النِّفاق خارجيٌّ وداخليٌّ، والثاني أشدُّ خطرًا على المجتمع الإسلاميّ

لَمَّا بيَّن الله تعالى أحوال منافقي المدينة، وأحوال منافقي الأعراب، ثم بيَّن أنَّ في الأعراب من هو مخلص صالح، ثم أخبر عن رؤساء المؤمنين من السابقين ومن تَبِع هديهم؛ شرع في بيان حال منافقي أهل المدينة ومَن حولها، والذين لا يعرفهم رسول الله ﷺ، ثم أتبع سبحانه ذكر هذا الجمع المنافقِ الجافي بذكر الجمع التائبِ الصافي؛ وهم الذين اعترفوا بذنوبهم، وندموا على فِعالهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْمَدِينَةِ﴾: المدينة: كلُّ أرضٍ يُبنى في وسطها حِصْن[2]، وكذلك البلدة التي كثر سُكَّانها[3]. ومعناها المحوريُّ: المِصرُ الجامع المحصَّن. وتعريف المدينة بالحصن يذكِّرنا باتِّخاذ القدماء قلاعًا ونحوها مبالغةً في الامتناع والتحصُّن من الأعداء، وفيه الفرق بينها وبين القرية التي هي تجمُّعٌ لبيوتٍ لم يلحظ فيه التحصُّن"[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/130، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 5/495، والبقاعي، نظم الدرر: 9/10، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/21.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (مدن).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مدن).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (مدن).

ومَدَن بالمكان: أقام به، ومنه سُمّيت المدينةُ على وزن فَعِيلَة، وجمعها: مدائن.

والمدينة في الآية: اسمٌ لمدينة رسول اللّه ﷺ خاصَّة، والنِّسبة إليها: مدَنيٌّ[1].

2) ﴿مَرَدُواْ﴾: مَرَد يمرُد مُرُودًا: عتا، وعصى، وطغى، وتكبَّر، ومَرَد على الشَّيء، فهو مارِدٌ ومَريد: هو العاتي والطّاغي[2]. وأصله من تجريد الشَّيء من قِشره، أو ما يعلوه من شَعَرِه[3]. ومنه قيل: مردَ فلانٌ عن المحاسن وعن الطَّاعة، أي: تجرَّد منها. ومنه الشَّيطان المريد، والمارد والمريد من شياطين الجنِّ والإنس: هو الخارج عن الحقِّ المتجرِّد من الخير العاري منه[4].

وقوله تعالى: ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾، أي: ارتكسوا عن الخير، وهم على النِّفاق[5].

3) ﴿مَّرَّتَيۡنِ﴾: المرَّة: الفعلةُ الواحدة، والمرَّتان الفعلتان، وجمعها: المَرُّ والمِرار[6]. وأصله من مُضيِّ الشَّيء، تقول: لقيتُه مرَّةً ومرَّتين، وإنَّما هو عبارةٌ عن زمان قد مرَّ[7]. فالمرَّة والمرَّتان: المدَّة من الزَّمان، وتطلق على كلِّ جزء من الزَّمان[8].

والمراد بالمرَّتين في الآية: مرَّةً في الدنيا بانكشاف نفاقهم وقتْلِهم وأسْرِهم، ومرَّةً بعذاب القبر بعد الموت.

4) ﴿ٱعۡتَرَفُواْ﴾: اعترف بذنبه: أقرَّ به، والاعتراف: الإقرارُ، وهو إظهار معرفة الذَّنب، والرِّضا به[9]. وأصله من سكون النَّفس وطمأنينتها[10]. ومنه المعرفة والعِرفان: ضدُّ الإنكار؛ لأنَّ النَّفس إذا أنكرت شيئًا؛ استوحشت منه، وإذا عرفته؛ سكنت له، واطمأنَّت، يقال: عرَف الشَّيء يعرِفه معرفة وعِرفانًا، واعترفه: عَلِمه[11].

---

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب الزبيدي، تاج العروس: (مدن).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، المجمل، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (مرد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مرد).
(4) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مرد).
(5) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مرد).
(6) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (مرر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مرر).
(8) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مرر).
(9) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عرف).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرف).
(11) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، وابن منظور، لسان العرب: (عرف).

وعَرَف بذنبه عُرْفًا، واعترف به: أقرَّ به، أي: أظهر معرفتَهُ به؛ لأنَّه إذا أقرَّ به؛ فقد عرَفه وعَلِمه بالضرورة[1].

5) ﴿بِذُنُوبِهِمۡ﴾: الذُّنُوب: جمع ذَنْب، وهو الجُرْم والإثم والمعصية[2]. وأصله من التَّأخُّر والتَّخلُّف وهبوط الرُّتبة والسُّفول[3]. فكأنَّه أخذ بذَنَب الشَّيء الذي هو مؤخَّره وذيله، ويُستعَمل في كلِّ فعل لا تُحمد عُقباه، اعتبارًا بذَنَب الشَّيء، ولهذا يُسمَّى الذَّنْب: تَبِعَةً وعقوبة؛ اعتبارًا لما يحصل من عاقبته[4].

6) ﴿خَلَطُواْ﴾: خلط: خَلَط الشَّيء بالشَّيء يَخلِطه خَلْطًا: مَزَجَه، وهو أعمُّ من أن يكون في المائعات، أو الجمادات، أو المائعات والجمادات[5]. وأصله من تداخل أجزاء الشَّيء بعضها في بعض، وهو خلاف تنقيةِ الشَّيء من الشَّيء وتخليصهِ[6]. ومعنى قوله تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾. أي: "يتعاطون هذا مرَّةً، وذاك مرَّةً"[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

لا يخلو صفٌّ مؤمنٌ من منافقين مجافين، ومن تائبين مصافين

يفضح المولى ﷻ - في هاتين الآيتين الكريمتين - هؤلاءِ المنافقين من الأعراب الذين تقعُ منازلهم حول المدينة، والذين هم من أهل المدينة ممَّن أقاموا، وثبتوا على النِّفاق، وارتكسُوا عن الخير، لا تعرفهم أنت - أيُّها النَّبيُّ الكريم - بأعيانهم، ولا تعلمُهم، فاللّه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والسمين، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (عرف).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، وابن منظور، لسان العرب: (ذنب).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ذنب).
(4) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ذنب).
(5) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (خلط).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خلط).
(7) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خلط).

وحده سبحانه مَنْ يَخْتَصُّ بمعرفتهم وفضْحِهم، وتوعَّدِهم بالعذاب مرَّتين في الدنيا بانكشافِ نفاقِهم وقتلِهم وأسرهم وبالمصائب والأمراض أوَّلًا، ثُمَّ بآلام الموت وعذاب القبر ثانيًا، ثم يُرجعون إلى العذاب الأَشدِّ، وهو عذابُ النّار وبئس المصير، وهناك فريقٌ آخر مِمَّنْ هم حول المدينة، ومَنْ فيها اعترفوا، وأقرُّوا بمعاصيهم؛ كونهم جمعوا عملًا صالحًا، وهو إيمانهم وجهادهم بآخر سيِّئ، وهو التَّخَلُّفُ عن غزوة تبوك بغير عُذْر، ولم يأتوا بأعذارٍ كاذبة، فأعلمهم اللّه سبحانه بقبول توبتِهِ عليهم ومغفرته لهم؛ لأنَّه سبحانه ذو عفوٍ وصفحٍ ومغفرةٍ لمن تاب عن ذنوبه وأناب(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة العطف في الآية:

المنافقون يستترون في أحضان مجتمع الإيمان، والله معذِّبهم على خِداعهم

العطف في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ يمكن تقسيمه كما يلي:

أولًا: العطف في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾: فقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾ وتحديدًا على (مَن) المجرورة بمن؛ والعطف هنا شروعٌ في بيان منافقي أهل المدينة ومَن حولها من الأعراب، بعد بيانِ حال أهل البادية منهم، أي: وممَّن حول بلدكم مُنافِقُونَ(2)، والآية معطوفةٌ على الآية السّابقة لها.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/643 - 650، والبغوي، معالم التنزيل: 4/89 - 90، وابن جزي، التسهيل: 1/346، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/178 - 180، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/96، والزحيلي، التفسير المنير: 11/21 - 22، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 6/393 - 395، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 350، والهرري، حدائق الروح والريحان: 12/23 - 24، والجزائري، أيسر التفاسير: 2/420، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر: 1/203.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/10.

ثانيًا: العطف في قوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾، فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ وهو من باب عطف الجمل، وقد أفاد بيانًا لاختلاف العذابين وتفاوتهما، وأنَّ عذاب الآخرة عذابٌ شديد عظيم؛ إذا قيس بعذاب الدنيا.

معنى (مِن) في: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾:

ميزانُ الإيمان يرفع المؤمنين، ويخفض المنافقين

(مِنْ) في قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ للتَّبعيضِ[1]. وعبَّر بـ(من) التَّبعيضيَّة؛ لأنَّ فيهم مؤمنين صادقين، دعا لهم النبيُّ ﷺ ومدحهم[2]. وفي إبهامهم وعدم تعيين هذا البعض للمسلمين تحذيرٌ للمجتمع المسلم، وترهيبٌ للمؤمنين من أن يكونوا مثلَ هؤلاءِ؛ فيكون مَدعاةً لمزيد إخلاص.

وهو إيذانٌ للمنافقين بأنَّ الله يعلمهم، وإنْ لم يعيِّنْهم للنبي ﷺ، فيكون ذلك إمهالًا لهم ليتوبوا قبل أن يُفتَضحَ أمرُهم.

معنى (مَن) ودلالتها:

المنافقون يعيشون بين المؤمنين وحولهم

(مَن) في قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ هي (من) الموصولة للعاقل، وفيها إبهامٌ؛ فعدمُ التصريح بهؤلاء المنافقين لقصد الدلالة على معانٍ تتضمَّنها صلة الموصول ﴿حَوْلَكُم﴾، ففيه تنبيهٌ من الله ﷻ للمؤمنين كي يكونوا في يقظة دائمةٍ مع هؤلاء المجهولين من الناس، فهم يعيشون بينهم، ويخفون أمرهم.

والمراد بالموصول (مَن) قبائلُ: جهينة، ومزينة، وأشجع، وأسلم، وغفار، وكانت منازلُهم حول المدينة[3].

واستُشْكِل ذلك بأنَّ النبيَّ ﷺ مدح هذه القبائل، ودعا لبعضها؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/19.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 12/22.

(3) يقول الآلوسي: "وإلى هذا ذهب جماعة من المفسرين كالبغوي، والواحدي، وابن الجوزي، وغيرهم". ينظر: الآلوسي، روح المعاني: 6/10.

فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرةَ عنه رضي الله عنه أنَّه قال: «قريش، والأنصار، وجهينة، ومزينة، وأسلم، وأشجع، وغفار موالِيَّ، ليس لهم مولًى دون الله ورسوله»[1]، وأُجيب بأنَّ ذلك باعتبار الأغلب منهم[2]، وقد بادَروا إلى الإسْلامِ والإيمانِ، فهم خَيرٌ عند الله من أولئك الَّذين ظَلُّوا على العناد والكفر في أوَّلِ الأمر، مثل أسَدٍ، وطيِّئٍ، وغَطَفانَ.

معنى ﴿حَوْلَكُم﴾ وموقعُها النَّحويُّ:

المؤمنون محاطون بأصنافٍ من المنافقين

و﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ خبر مقدَّم، و﴿مُنَٰفِقُونَۖ﴾ هو المبتدأ[3]. و﴿حَوْلَكُم﴾ ظرفٌ ومضاف إليه، و﴿حَوْلَكُم﴾ صلة (مَن) الموصولة، ومعنى ﴿حَوْلَكُم﴾: حول بلدتِكم، وهي المدينة، والذين كانوا حولَ المدينة: جُهَينةُ، وأسلَمُ، وأشجَعُ، وغِفارٌ، ومُزَينَة، وعُصَيَّة، ولَحْيانُ، وغيرهم ممَّن جاورَ المدينة[4]. كأنَّ اللّه سبحانه وتعالى يقول لعباده المؤمنين: انتبهوا فأنتم في مجتمعٍ محاطٍ بالمنافقين[5].

فائدة تقديم شبه الجملة على المسند إليه:

ينبغي أن يحذر المؤمنون؛ فإنَّ أعداءهم بهم متربِّصون

تقديمُ الجار والمجرور ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ للتَّنبيهِ على أنَّه خبرٌ مقدَّم، لا نعتٌ[6]. وفيه اهتمامٌ بذِكر معنى الإحاطة أولًا؛ تنبيهًا للمؤمنين بأنْ يُديموا يقظتهم، ولا يطمئنّوا للأعراب جميعًا، فهؤلاء المنافقون المعنيُّون في الآية: أعرابٌ يعيشون حولهم.

معنى ﴿مِّنَ﴾ في: ﴿مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾:

﴿مِّنَ﴾في قوله: ﴿مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ لبيانِ (مَن) الموصولة[7]، فهي

(1) البخاري، الصحيح: حديث رقم: (3504)، ومسلم، الصحيح: حديث رقم: (2520).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/10 - 11.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 2/453.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/495.
(5) الشعراوي، الخواطر: 9/149.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/19.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/19.

تبيِّن جنسَ هذا القسم من المنافقين، وتؤكِّد أنَّهم أعرابٌ، وهم الذين يسكنون الباديةَ من العرب، ولا يُقيمون في الأمصار، ولا يدخلونها إلا لحاجةٍ، وهم ليسوا من الحضر.

معنى (أل) في: ﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾:

يفضح اللهُ سرائر المنافقين، وإن انطلت خدعتُهم على المؤمنين

(أل) هنا هي العهدية التي عُهد مصحوبها بتقدُّم ذكره[1]؛ فالإخبارُ هنا عن أنَّ المنافقين من أعرابٍ معروفين، ذكَرهم اللّه في آية سابقة، يعرف المؤمنون أشخاصَهم، لكن لا يَعْلم نفاقَهم إلّا عالمُ الغيب والشهادة؛ لأنَّهم من حُذّاق المنافقين الذين مَهَروا في النِّفاق، فخفِيَ أمرُهم، فلم يعلمه أحد إلّا اللّه تعالى.

نكتةُ العطف في: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ﴾:

نبتَ النِّفاقُ أيضًا بأرض الإيمان في المدينة

﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ عطفٌ على ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم﴾؛ فيكون كالمعطوف عليه خبرًا عن (المنافقون)؛ كأنَّه قيل: المنافقون من قومٍ حولكم ومن أهل المدينة، وهو من عطْف مفردٍ على مفرد[2].

فصار المعنى: إنَّكم أيُّها المؤمنون محاصرون، لا ببعض المنافقين الذين حولكم فقط، بل أيضًا ببعضٍ من الموجودين بينكم في المدينة، ممَّن تدرَّبوا على النِّفاق حتى صارت لهم به أُلْفةٌ.

معنى ﴿وَمِنۡ﴾ في: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ﴾:

التَّحذيرُ من المنافقين الذين قد يصلون إلى مسجدكم المدنيِّ

﴿وَمِنۡ﴾ في قوله: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ تبعيضيَّة مؤذِنة بمُبعِّضٍ محذوف، تقديره: (ومن أهل المدينة جماعةٌ مرَدوا)، كما في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النِّسَاءِ: 46][3]. وفي قوله: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ دلالةٌ على التَّحذير من المنافقين الذين قد يصلون إلى جواركم في مسجدكم، وفيه امتنانٌ منه

(1) المرادي، الجنى الداني، ص: 194.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/11.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/20.

سبحانه على المؤمنين بأن أخلص قلوبهم له، وطهَّرها، وعصمَهم من النِّفاق.

فائدة مجيء ﴿أَهْلِ﴾ مع المدينة:

أَهْل الرَّجُل عشيرتُه وذَوُو قُرباه[1]. والمراد به في الآية ساكنو المدينةِ من المهاجرين والأنصار وغيرهم من الأعراب، أي: كلُّ مَن سكن المدينة، واقترب من المؤمنين اقترابَ ذوي الرَّجل وأقربائه.

النِّفاقُ الخاصُّ نابعٌ من بينكم، ومنافقوه من ذوي الصِّلة بكم

وتفيد ﴿أَهْلِ﴾ هنا دلالةً على أنَّ هذا النِّفاق الخاصَّ نابعٌ من بينكم، ومنافقيه من ذوي الصِّلة بكم، أو هم من أقربائكم وذويكم.

معنى (أل) في: ﴿ٱلْمَدِينَةِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلْمَدِينَةِ﴾ عهديةٌ، وعهدُها ذهنيٌّ؛ لأنَّها صارت عَلَمًا؛ فقَدْ أصبحت يثربُ - بعدَ هجرة النبيِّ ﷺ إليها - مدينةً مسلِمة؛ إذ بنى فيه مسجدَه الشريف، وألَّفَ فيها النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار؛ فالمدينةُ هنا، أي: البلدُ الذي آوى الإسلام، كما ورد في الحديث: «إنَّ الإيمانَ يأرِزُ إلى المدينَة، كما تَأرِزُ الحيَّةُ إلى جُحرِها»[2]، وكذلك منه انتشر، وتشعَّب في الأمصار والبلدان، كما بشَّر بذلك الصَّادقُ المَصدوق ﷺ بقوله: «أُمِرْتُ بقريةٍ تَأكلُ القُرى، يقولونَ: يَثْرِبُ، وهي المدينةُ، تنفي النّاسَ كما يَنفي الكيرُ خَبَثَ الحديدِ»[3]، ومعنى تَأكلُ القُرى، أي: تَغلِبُهم، وكنّى ﷺ بالأكلِ عن الغَلَبةِ؛ لأنَّ الآكِلَ غالبٌ على المأكولِ، فقد انطلقت جيوش الفتح الإسلاميِّ منها، فغلب أهلها على سائرِ البلادِ، ونصر اللّهُ دِينَه بهم، وفتح القُرى عليهم.

ينجم النِّفاق حيث يقوى أهل الإيمان، ويكثر في مركز قوَّتهم

بلاغةُ حذف المسند إليه في: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ﴾:

تقدير الجملة: (ومن أهل المدينة قومٌ أو منافقون مردوا على

(1) ابن منظور، لسان العرب: (أهل).

(2) ابن حزم، المحلى: (7/282)، وهو حديث صحيح، أصله في صحيح مسلم بلفظ آخر.

(3) البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (1871).

المنافقون يعيشون بين المؤمنين في المدينة

النِّفاق)، وحذْفُ المسند إليه فيها إشارةٌ إلى أنَّ الخبرَ لا يُتوهَّم أنَّ يكون لغير المحذوف.

ويجوز أيضًا أن يكونَ الحذف لبيان حال المنافقين وطريقتهم؛ فهم أناس تمرَّنوا على النِّفاق، وبلغوا فيه الغايةَ، ووصلوا فيه إلى حيث لا يُعلم نفاقُهم، فلا يعلم نفاقَهم إلَّا مَن علَّمه علّامُ الغيوب ﷻ؛ فناسب هذا التخفّي والتستُّر عدم التصريح بذكر لفظهم.

موقع قوله: ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾:

منافقو أهل المدينة بلغوا الغاية في النفاق

﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ لا محلَّ لها من الإعراب، وهي مسوقةٌ لبيان غلوِّ منافقي المدينة في النِّفاق إثرَ بيان اتِّصافهم به.

ويجوز أن تكون ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ خبرًا مقدَّمًا، والمبتدأ بعده محذوفٌ قامت صفتُه مقامَه، والتقدير: (ومن أهل المدينة قومٌ مرَدوا)، وحذْفُ الموصوف وإقامةُ صفته مقامَه - إذا كان بعد اسم مجرور بـ(مِن) أو (في) مقدَّم عليه - مقيسٌ شائع، نحو: منَّا أقامَ، ومنَّا ظَعَن، ومنه قول سُحَيم:

أَنا ابنُ جَلا وَطَلّاعُ الثَّنايا *** مَتى أَضَعِ العِمامَةَ تَعرِفوني[1]

على أحدِ التأويلات فيه[2]، وتقديرُه: أنا ابنُ رجُلٍ جلا، أي: كشَفَ الأمورَ[3].

وعلى هذا يكون هذا النَّوع من النفاق مُختَصًّا بأهل المدينة، والمعنى: صاروا في حِرْفة النفاق مهرةً حاذقين، وبلغوا إلى حيث لا تعلم أنت نفاقهم مع قوَّة خاطرك وصفاء حَدْسك ونفسك[4].

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿مَرَدُواْ﴾ مادَّةً وصيغة:

بلغوا غايةَ النِّفاق - مع عيشهم في مجتمع المدينةِ - بتدرُّبهم عليه

تدور معاني المرود حول تجريد شيء من قِشره أو ما يعلوه من

(1) البيت للشاعر: سحيم بن وثيل الرياحي. يُنظر: السيوطي، شرح شواهد المغني: 1/459.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/11.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/496.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/131.

شَعَره[1]، أو ملاسة ظاهر الشيء المتدِّ تجرُّدًا ممّا ينبتُ أو يتشعَّب منه عادة[2]. ويقال: مَرَد على الشيء، أي: مَرَن عليه، واستمرَّ[3]، و(مَرَدَ على الأمرِ) معناه: مَرنَ عليه، ودَرِبَ به، ومنه الشَّيطانُ المارِدُ، أي: في الشَّيطَنة[4]. وفُسِّر المرود هنا بالاعتياد والتدرُّب في الأمر إلى المهارة فيه.

والمرود خاصٌّ بمنافقي أهلِ المدينة، لاقترابهم الشديد من المجتمع الإيماني، واقتضاء هذا الاقتراب مهارةً ودربةً في النفاق، وعبَّر بصيغة الماضي لتأكيد تحقُّق هذا المعنى في منافقي المدينة.

عودُ الضَّمير في: ﴿مَرَدُوا۟﴾:

منافقو المدينة من عُتاة المنافقين

واو الجماعة ضميرٌ يعود على منافقي ﴿أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ النَّبويَّة، وهذا يدلُّ على أنَّ نفاق المدينة كان صعبًا؛ إذ هو نفاق لا يمارسُه أيُّ شخص، فهو يتطلَّب تمرُّنًا واعتيادًا وحيلةً وإخفاءَ مشاعرَ ومكرًا؛ لأنَّ هذا المنافق الذي يعيش بين أحضان المؤمنين يعاملهم ليلَ نهار، ومن العسير عليه أن يتخفَّى بينهم إلّا إن بلغ الغايةَ في المكر والذُّروةَ في النفاق.

الموقع النَّحويُّ والبيانيُّ في: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾:

أمرُ المنافقين خفيٌّ على رسول الله ﷺ

جملة ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ - المشتملة على (لا) النافية والفعل والفاعل المستتر وضمير المفعول - جملةٌ مُستَأنَفةٌ.

وسببُ إيثار الفصل على الوصل في قوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ استئنافُ كلام جديدٍ، هو التَّنبيهُ على أنَّ هذا الفَلَّ الباقي من المنافقين قد أراد الله الاستئثارَ بعلمه، ولم يُطلع عليهم رسولَه ﷺ، كما أطلعه على كثيرٍ من المنافقين من قبلُ، وإنَّما أعلَمَه

(1) ابن فارس، المقاييس: (مرد).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (مرد).
(3) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز: (مرد).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/20.

بوجودهم على الإجمال لئَلَّا يغترَّ بهم المسلمون[1]، ويمكن أن تكون استئنافًا بيانيًّا جوابًا عن سؤالٍ مقدَّر: هل يعلمهم النَّبيُّ؟

الموقع النَّحويُّ والبيانيُّ لـ: ﴿نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾:

لا يخفى أمرُ هؤلاءِ المنافقين على علّام الغيوب سبحانه

جملة ﴿نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ مُستأنَفةٌ أيضًا، ويمكن حملُها على الاستئناف النَّحويِّ أو البيانيِّ كسابقتها، وأوثر الفصلُ على الوصل لاستئناف كلامٍ جديد، وهو الإخبارُ المُستعمَل في الوعيد، فهو من مثل قوله تعالى: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التَّوبة: 94]، وإلَّا فإنَّ الحُكمَ معلومٌ للمُخاطَب، فلا يَحتاجُ إلى الإخبار به.

وفيه إشارةٌ إلى عدم الفائدة للرَّسول ﷺ في علمه بهم؛ فإنَّ عِلم اللّه بهم كَافٍ، وفيه أيضًا تمهيدٌ لقوله بعدَهُ: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾[2].

والجملة تقريرٌ لِما سبَقَ من مهارتهم في النِّفاق، أي: لا يقفُ على سرائرهم المركوزة فيهم إلّا مَن لا تخفى عليه خافية؛ لِمَا هم عليه مِن شدَّة الاهتمام بإبطال الكفر وإظهار الإخلاص[3].

بلاغةُ المؤكِّدات في التَّعبير بالاسميَّة، وذكر المسند إليه مرَّتيْن في الجملة: ﴿نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾:

علمُ اللهِ بحالهم تهديدٌ لهم ووعيد

هذا الحشد من المؤكِّدات: التَّعبير بالاسميَّة، وذكر المسند إليه مرَّتيْن (بالضمير البارز والمستتر)؛ ناسَبَ حالَ المنافقين الذين يثقون بحالهم الخفية، وأنَّه لا يعلم أحدٌ عن حالهم شيئًا، حيث يؤكِّد اللّه ﷻ لهؤلاء المنافقين أنَّه عليم بحالهم كلِّه، وفي ذلك الإخبار وعيدٌ لهم؛ فإحاطةُ علم اللّه بحالهم إشارةٌ إلى أنَّهم لن يستطيعوا أن يُفلتوا من عقابه.

وقد قُدِّم في قوله: ﴿لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ المسند إليه ﴿نَحۡنُ﴾

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/20.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/20.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/11 - 12.

على المسند ﴿نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾؛ لإفادة قَصرِ العِلم بهم على اللّه، وظاهرٌ أنَّ القَصْر هنا هو من قبيل القصر الإضافي، إذ قد تعلمهم الملائكة أيضًا، ولكن جاء القَصْرُ في مقابلة نفي العلم بهم عن الرسول، ولعلَّ ذلك قد كان قبل أن يُعلِمَه اللّه بهم، أو أنَّ بعض المنافقين لم يُعلِم اللّهُ رسولَه بهم[1].

فائدةُ العدول من الفعليَّة إلى الاسميَّة في: ﴿لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾:

إن يكنِ النِّفاق خفيًّا على النبيِّ ﷺ؛ فعِلمُ الله محيط بجوانبه كلِّها

يفيدُ نفي المضارع في الجملة الفعلية ﴿لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ﴾ نفيَ العِلم في الحال والاستقبال، فعلم النبي ﷺ بهم لا فائدةَ منه؛ وذلك لأنَّ علمَ اللّه بهم كافٍ[2].

وقد عبَّر بالاسمية بعدها ﴿نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾؛ لبيان ثبوتِ علم اللّه على الإحاطة بهم، وعُبِّر في الخبر بصيغة المضارع ﴿نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ إشارةً إلى أنَّ حالهم مهما تغيَّر فهو معلومٌ من قِبَل اللّه سبحانه وتعالى.

وهذه الآياتُ ونحوها أقوى دليلٍ للرَّدِّ على مَن يزعم الكشفَ والاطِّلاع على المغيبات بمجرَّد صفاء القلب وتجرُّدِ النَّفس عن الشَّواغل، وبعضهم يتساهلون في هذا الباب جدًّا[3].

بلاغةُ المشاكلة بين: ﴿تَعۡلَمُهُمۡۖ﴾ و﴿نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾:

تستوي عند الله الخفيَّات والظَّواهر؛ فقد أحاط بكلِّ شيء علمًا

ذكر معنى العلم في ﴿نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ بلفظ الفعل، مثل: ﴿تَعۡلَمُهُمۡۖ﴾ وصيغته؛ لوقوعه في صحبته، فشاكل ﴿نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ لفظَ ﴿تَعۡلَمُهُمۡۖ﴾، ويبدو للوهلة الأولى أنَّ حدثَ العلم ومعناه واحد في الفعلين، لكن يتَّضح لِمَن يمعن النظر أنَّ علم اللّه محيطٌ بكلِّ صغيرة وكبيرة، وأنَّه سبحانه عليم بماضي المنافقين وحاضرهم ومستقبلهم.

(1) حسن، بلاغة اللغة: 1/540.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/20.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/12.

علم الله سبحانه مطلقٌ، لا يتقيَّد بزمان

نكتةُ التَّعبير بالمضارعيَّةِ في: ﴿تَعۡلَمُهُمۡۖ﴾ و﴿نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾:

أفاد نفي المضارع في ﴿لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ﴾ نفيَ علمِ النَّبيِّ ﷺ بحال المنافقين في الحال والاستقبال.

أمَّا صيغة المضارع ﴿نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾؛ فهي إشارة إلى أنَّ حالَهم مهما تغيَّر؛ فاللّٰه ﷻ يعلمه، أي: يعلم حالهم ومستقبلَهم.

جزاء النِّفاق عذابٌ شديدٌ مكرَّرٌ عليهم

الموقع النَّحويُّ والبيانيُّ لـ: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾:

جملةُ: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ للجواب عن سؤالٍ يُثيره قولُه: ﴿نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾، وهو أنْ يسألَ سائلٌ عن أثَرِ كونِ اللّٰه تعالى يعلمُهم، فأُعْلِم أنَّه سيُعذِّبهم على نفاقهم، ولا يُفلتهم منه عدمُ عِلم الرَّسولِ ﷺ بهم.

وقد اختار عددٌ من علماء التفسير أنَّ المراد بـ ﴿مَّرَّتَيۡنِ﴾: العذابُ في الدُّنيا، والعذابُ في القبر، وممَّن ذهَب من السَّلفِ إلى أنَّ العذابَ الأوَّل في الدُّنيا، والثاني في القبرِ: ابنُ عبَّاس ومجاهدٌ ومقاتلُ بنُ سليمانَ، مع اختلافِهم في صورةِ عذابِ الدُّنيا، فقال ابنُ عبّاسٍ: هو فضيحتُهم بالنِّفاقِ، وفي روايةٍ: إقامةُ الحدودِ عليهم، وقال مجاهدٌ: الجوعُ، وقال مقاتلٌ: عندَ الموتِ، تضربُ الملائكةُ وجوهَهم وأدبارَهم[1]. قال أبو زيدٍ الثَّعالبي: "وأكثرُ النّاسِ أنَّ العذابَ المتوسِّطَ هو عذابُ القبرِ"[2].

ويحتَملُ أنَّ العذاب الموصوف بمرَّتَين عذابٌ مخصوصٌ في الدُّنيا: وهو تكثيرُ تَعذيبِهم وتكرُّرُه في الدُّنيا مرَّةً بعد مرَّةٍ؛ لقوله بعدَهُ: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ﴾[3].

(1) ابنُ جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن: 11/644، 649، وابن الجوزي، زاد المسير: 2/292، وابنُ كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/205.

(2) الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن: 3/209.

(3) الشوكاني، فتح القدير: 2/454، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/20.

دلالةُ دخول سين التَّسويف على العذاب:

المنافقون في ترقُّب دائم للعذاب، وما ارتدعوا

تدلُّ (السِّين) في قوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم﴾ على الاستقبال، وفيه هنا دلالةٌ على أنَّ المنافقين دائمًا في ترقُّب للعذاب، حتى إن عذَّبهم الله مرَّات - في الدنيا - بالقلق تارةً وبالحسرة أخرى، أو بالخوف أو المرض أو بغير ذلك من بلاء الدُّنيا، وهذا الوعيد مستمرٌّ معهم طَوال حياتهم؛ إذا لم يتوبوا؛ فما أشدَّ قلقَهم بهذا التوعُّد؛ كلَّما سمعوا هذه الآية!

بلاغة إضافةِ العذابِ إلى ضمير العظمة:

عذابُ العظيم شديدٌ أليم

إضافة العذاب إلى ضمير العظمة الرّاجع إلى الله سبحانه في قوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم﴾ فيه دلالةٌ على عِظم هذا العذاب وشدَّتِه؛ فعذاب العظيم عظيمٌ.

وفيه أيضًا دلالةٌ على تأكُّد وقوع هذا العذاب الشَّديد بالمنافقين، وأنَّهم لن يقدروا على الإفلات منه، فمَن يعذِّبهم ليس أيَّ أحد، وإنَّما هو العليم القدير.

وتغييرُ الأسلوب على ما قيل بإسناد عذابهم السابقِ إلى نون العظمة ﴿سَنُعَذِّبُهُم﴾ حسب إسناد ما قبله مِن العلم، وإسنادُ ردِّهم إلى العذاب اللّاحق إلى أنفسهم ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ﴾ إيذانٌ باختلافهما حالًا، وأنَّ الأوَّل خاصٌّ بهم وقوعًا وزمانًا يتولّاه اللّه سبحانه، والثّاني شامل لعامَّة الكفرة وقوعًا وزمانًا وإن اختلفت طبقات عذابهم[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع في فعل العذاب:

النِّفاقُ مستنزَلُ العذاب، ومستجمَعُ العقاب

في استعمال المضارع هنا في قوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم﴾ دلالةٌ على الاستمرار؛ للدِّلالة على أنَّ عذاب المنافقين مستمرٌّ طَوال حياتهم، كما أنَّهم في هذه الدُّنيا ليسوا بمعزلٍ عن عذاب إلى أن يموتوا، فيعذِّبَهم اللّه عذابًا عظيمًا في الآخرة.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/12.

عـذابُ المنافقين شديدٌ مُضاعَف

فائدةُ وصفِ العذاب بـ ﴿مَّرَّتَيۡنِ﴾:

الظّاهر من قوله: ﴿مَّرَّتَيۡنِ﴾ إرادة التَّثنية، ويحتمل أن يكون غيرُ مُراد بها شفْعَ الواحدِ، بل يكون المعنى على التَّكثير[1].

والعددُ يُستعمل لمجرَّد قصدِ التَّكرير المفيدِ للتَّأكيد؛ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ [الملك: 4]، أيْ: تأمَّلْ تأمُّلًا متكرِّرًا، ومنه قول العرب: لبَّيك وسعدَيك؛ فاسم التَّثنية نائبٌ منابَ إعادةِ اللَّفظ.

والمعنى: سنعذِّبهم عذابًا شديدًا متكرِّرًا مضاعَفًا، كقوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ [الأحزاب: 30].

وهذا التَّكرُّر تختلف أعدادُه باختلاف أحوال المنافقين واختلاف أزمان عذابهم[2].

وإذا كانت التَّثنية مُرادةً في قوله: ﴿مَّرَّتَيۡنِ﴾؛ فأكثرُ النَّاس على أنَّ العذاب الثّاني هو عذاب القبر، وأمّا المرَّة الأولى؛ فقال ابن عباس في الأشهر عنه: هو فضيحتُهم، ووصْمُهم بالنِّفاق[3].

معنى ﴿ثُمَّ﴾ في: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ﴾:

استخدامُ ﴿ثُمَّ﴾ يفيد التَّرتيبَ مع التَّراخي؛ فعذاب الدُّنيا مرحلةٌ أولى، ينتقل المنافقون منها إلى مرحلة تالية شديدةِ العذابِ بعد موتهم، وهي مرحلة لا قِبَل لهم بعذابها.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿يُرَدُّونَ﴾ من حيث المادَّة والصيغة:

خـداعُ المنافقين للـمؤمنين جـعَـلَـهـم لأشدِّ العذاب مستحقِّين

تدور مادَّةُ الرَّدِّ حول معاني الصَّرف والرَّجع[4]. ولا يخفى أنَّ المنافقين يُصرفون من عذاب إلى عذاب، ولمَّا كان عذاب الآخرة مختلفًا عن نوع العذاب في الدُّنيا؛ عُبِّر بـ ﴿يُرَدُّونَ﴾، أي: كأنَّهم

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/497.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/20.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/497.
(4) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ردد).

بالموت يُصرفون عن عذاب الدُّنيا، ويحولون إلى عذاب الآخرة، وهو عذاب لا عهدَ لهم بشدَّته.

وفي بناء ﴿يُرَدُّونَ﴾ لما لم يُسمَّ فاعله من التَّعظيم ما فيه؛ حيث إنَّ فاعل الحدث غير مذكور للتهويل؛ فهم حال موتهم تستقبلهم ملائكة يضربون وجوهَهم وأدبارهم، ثم بعد ذلك يسوقهم ملائكةٌ غلاظٌ شداد إلى جهنَّمَ، فجاء التعبير بهذه الصيغة مناسبًا للعذاب العظيم في ختام الآية، لذا غيَّر السَّبك إليه[1].

نكتة تنكير ﴿عَذَابٍ﴾:

تنكير العذاب هنا للتَّهويل، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه نوعٌ مبهم من العذاب، عذابٌ شديد لم يجرِّبه المنافقون، ولم يعاينوه من ذي قبلُ.

أبهم المنافقون حالَهم، فأُبهِمَ لهم العذابُ جزاءً وِفاقًا

فائدة وصف العذاب بأنَّه عظيم:

وُصِفَ العذابُ بأنَّه ﴿عَظِيمٍ﴾؛ لدفع الإيهام بقلَّته أو خفَّته؛ فعذاب الآخرة بمسبِّب، والمعذَّب في الآخرة واحدٌ وقوَّته لا نهاية لها، وإنْ قِيس عذاب الآخرة بالعذاب في الدُّنيا؛ فمن المؤكَّد أنَّ عذاب الآخرة عذابٌ عَظيم.

عَظُمَ جُرمُ المنافقين فعظُمَ عذابُهم

ولا شكَّ في أنَّ عذاب المنافقين (العظيمُ): هو عذابُ جهنَّمَ[2]؛ فقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: 145]. ولا يخفى أنَّه إذا فُسِّر العذابُ العظيم بعذاب (الدَّرك الأسفل من النار)؛ لم يكُن شاملًا لعامَّة الكفرة، نعم، هو شامل لعامَّة المنافقين فقط[3].

بلاغةُ العطف في: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾:

اللـه سبحانه رحيمٌ لا يعاجِلُ بالعقاب، ويقبل مَن تاب إليه وأناب

﴿وَءَاخَرُونَ﴾ عطف على ﴿مُنَٰفِقُونَۖ﴾، وجملة ﴿ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/12.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/20.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/12.

صفتُهُ[1]، والمعنى: ومن أهل المدينة منافقون، وآخرون أذنبوا بالتَّخلُّف، فاعترفوا بالتَّقصير في أمر اللّه لهم بالجهادِ، وهو من كبائر الذُّنوب.

وعطف ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ بَيانٌ لحال طائفةٍ من المسلمين ضعيفةِ الهِمَم في أمر الدِّين لم يكونوا منافقين على الصَّحيح، فقوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ يدلُّ على أنَّهم لم يكونوا منافقين؛ لأنَّ التَّعبير بالذُّنوب بصيغة الجمع يقتضي أنَّها أعمال سيِّئة في حالة الإيمان، وكذلك التَّعبير عن ارتكاب الذُّنوب بخلط العمل الصالح بالسَّيِّئ[2]، فهم قوم مؤمنون أذنبوا، ثم وفَّقهم ربُّهم للتَّوبة[3].

الموقعُ النَّحويُّ والبيانيُّ لـ: ﴿ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾:

جملة ﴿ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ وقعت صفةً لـ (آخرون)، وفي ذلك إيجازٌ؛ لأنَّه يدلُّ على أنَّهم أذنبوا، واعترفوا بذنوبهم، ولم يكونوا منافقين؛ لأنَّ التَّعبير بالذُّنوب بصيغة الجمع يقتضي أنَّها أعمال سيِّئة في حالة الإيمان، وكذلك التَّعبير عن ارتكاب الذُّنوب بخلط العمل الصَّالح بالسَّيِّئ[4].

مَـن تـاب؛ تاب الله عليه، ومَن مشى إلى الله؛ هرولَ الله إليه

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱعۡتَرَفُواْ﴾ من حيثُ مادَّتُها وصيغتُها:

قوله: ﴿ٱعۡتَرَفُواْ﴾ أي: أقرُّوا عن معرفةٍ[5]. والاعتراف: افتعالٌ من (عَرَف)، وهو للمبالغة في المعرفة، ولذلك صار بمعنى الإقرارِ بالشَّيء وترك إنكاره، فالاعترافُ بالذَّنب كنايةٌ عن التَّوبة منه؛ لأنَّ الإقرارَ بالذَّنب الفائت إنَّما يكون عند النَّدم والعزم على عدم العود

مَن عرف جِرمَه عـرف جُـرمَـه، واستعظم إثمَه

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/167.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/21.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/132.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/21.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/12.

إليه، ولا يُتصوَّر فيه الإقلاعُ الذي هو من أركان التَّوبة؛ لأنَّه ذنبٌ مضى، ولكن يُشترط فيه العزمُ على ألَّا يعود[1].

وفي صيغة الماضي في قوله: ﴿ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ ذلك الاعترافَ حصَلَ في الماضي، وذلك يدلُّ على أنَّ ذلك الاعترافَ ما كان نفسَ التَّوبة، بل كان مُقدِّمةً للتَّوبة، وأنَّ التَّوبة إنَّما تَحصُل بعده[2].

معنى الباء في: ﴿بِذُنُوبِهِمۡ﴾:

لا يسأل التَّطهير إلّا مَـن آلَمَـهُ الدَّنس، وآذاه القذر

والباء هنا على أصل معناها (الإلصاق، والملابسة)؛ فهم لم يعتذروا عن تخلُّفهم بأعذار باطلة كغيرهم، وإنَّما اعترفوا على أنفُسهم بذنوبهم التي تلاصق أنفسهم التي هي تخلُّفهم عن الغزو، وإيثار الدَّعة عليه، والرِّضا بسوء جوار المنافقين، لم يعتذروا بالمعاذير الكاذبة المؤكَّدة بالأيمان الفاجرة[3]، وأظهروا النَّدامة، وذمُّوا أنفُسَهم على ذلك التَّخلُّفِ، ويمكن أن تكون الباء للتعدية.

ومجَرَّدُ الاعتراف بالذَّنب لا يكون توبةً، أمّا إذا اقترن به الإقلاعُ عن المعصيةِ، والنَّدمُ على الماضي، والعزمُ على تركه في المستقبل، وكان هذا النَّدمُ والتَّوبةُ لأجْلِ كونه منهيًّا عنه من قِبَل الله تعالى؛ كان هذا المجموعُ توبةً، إلّا أنَّه دلَّ الدَّليلُ على أنَّ هؤلاءِ قد تابوا بدليل قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، و(عسى) من الله يدلُّ على الوجوب[4].

غَرَضُ إضافة (الذُّنوب) إلى ضميرهم:

ذنـوبٌ وقعـوا فيها عن جهالة، ثـم استبصروا عَمايتها

في إضافة الضَّمير إلى الذُّنوب دلالةٌ على ندمهم الشَّديد، واعترافهم الصَّادق بأنَّهم هم وحدهم المسؤولون عمَّا اقترفوا،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/21.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/133.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/12.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/132.

وهي ذنوب وقعوا فيها عن جهالة، ثم استبصروا عَمايتها، ولا ذنب لأحد سواهم.

الموقع النَّحويُّ والبيانيُّ لـ: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾:

من بركة الأعمال الصَّالحة أنَّها تشفع لصاحبها وإن خُلِطَت بغيرها

جاءت جملة ﴿خَلَطُواْ﴾ خبرًا لـ ﴿وَءَاخَرُونَ﴾، وجُعل في قوله: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ كلٌّ من العملين مخلوطًا، فما المخلوط به؟ إنَّ كلَّ واحد مخلوطٌ ومخلوط به؛ لأنَّ المعنى: خلْطُ كلِّ واحدٍ منهما بالآخر، نحو: خلطتُ الماء واللَّبن، أي: خلطتُ كلَّ واحد منهما بصاحبه، وفيه ما ليس في: خلطتُ الماء باللَّبن؛ لأنَّ الماء جُعل مخلوطًا واللَّبن مخلوطًا به، وإذا قيل: بالواو؛ جُعل الماء واللَّبن مخلوطَيْن ومخلوطًا بهما، كأنَّه قيل: خُلط الماءُ باللَّبن، واللَّبنُ بالماء[1].

عودُ الضَّمائرِ في الجملة السابقة:

دوحــةُ التَّـوبة وارفـةٌ ظلالُها لا تردُّ مستظِلًّا

الضَّمائر في الجملة السَّابقة (اعترفوا، خلطوا) تعود إلى ﴿وَءَاخَرُونَ﴾، وفي معناه قولان:

الأوَّل: أنَّهم قومٌ من المنافقين تابوا عن النِّفاق.

الثَّاني: أنَّهم قوم من المسلمين تخلَّفوا عن غزوة تبوك، لا للكفر والنِّفاق، لكن للكسل، ثمَّ ندموا على ما فعلوا، ثمَّ تابوا.

واحتجَّ القائلون بالقول الأوَّل بأنَّ قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾ والعطف يُوهم التَّشريك إلَّا أنَّه تعالى وفَّقهم حتى تابوا، فلمَّا ذكر الفريقَ الأوَّل بالمرودِ على النِّفاق والمبالغة فيه؛ وصَفَ هذه الفرقةَ بالتَّوبة والإقلاع عن النِّفاق.

وروي أنَّهم كانوا ثلاثةً: أبو لبابة مروان بن عبد المنذر، وأوس بن ثعلبةَ، ووديعةُ بن حزام، وقيل: كانوا عشرة.

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/170.

فسبعةٌ منهم أَوثقوا أنفسهم لمّا بلغهم ما نزل في المتخلِّفين، فأيقنوا بالهلاك، وأوثقوا أنفسَهم على سواري المسجد، فقدِمَ رسول الله ﷺ، فدخل المسجد، فصلّى ركعتَين، وكانت هذه عادته، فلمّا قدم من سفرِه، ورآهم موثَّقين؛ سأل عنهم، فذُكر له أنّهم أقسموا ألّا يحلُّوا أنفسهم حتى يكونَ رسولُ الله ﷺ هو الذي يحلُّهم، فقال: وأنا أُقسم أنّي لا أحلُّهم حتى أومر فيهم، فنزلت هذه الآية؛ فأطلقهم، وعذَرَهم[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿خَلَطُواْ﴾ مادّةً وصيغة:

مَن ذا الـذي ما ساء قطُّ ومَن له الحسنى فقط

المعنى المحوريُّ للخلط: هو دخول شيءٍ في أثناء أو خَلَلِ شيءٍ آخرَ ممتزجَيْن؛ فيغلظُ، أو يحتدُّ، أو يكثر[2].

ومعنى خلطِهم العملَ الصّالحَ والسَّيِّئَ: خَلْطُهم حسناتِ أعمالهم بسيِّئات التَّخلُّف عن الغزو، وعدم الإنفاق على الجيش[3]، وفيه استعارة مَكْنيَّةٌ حيث شبَّه الأعمال الحسنة والأعمال السيِّئة بشيء ماديٍّ يُخلط، ويُمتزج بغيره.

نكتةُ التنكير والإفراد: ﴿عَمَلٗا﴾ و﴿صَٰلِحٗا﴾ وتقديمهما:

عـمـومُ حالهم الـسَّـيرُ في العمل الصالح ورغبتهم فيه

جاءت ﴿عَمَلٗا﴾ نكرةً لعدم إرادة التَّعيين، فأفادت تعميمًا، ثم وصفت بـ ﴿صَٰلِحٗا﴾ التي جاءت نكرةً أيضًا، فأضافت لهذا العموم تخصيصًا، والمعنى: الحسنُ من الأعمال.

والإفراد الذي في ﴿عَمَلٗا﴾ وفي ﴿صَٰلِحٗا﴾ يُشير إلى أنَّهم يعملون العمل الصالحَ، ثم لا يلبثون أن يعملوا السيِّئَ، فهم غير المؤمنين المحافظين على أعمالهم المستقيمةِ، وأفاد تقديمُ ذكرِ العمل الصالح على السيِّئَ أنَّ نفوسَ هؤلاء القوم ترغبُ في الخير، وتستشرفُه، وتفضِّله على سيِّئات الأعمال.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/132.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (خلط).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/21.

فائدةُ العطف في: ﴿وَءَاخَرَ﴾:

من رحمة الله مضاعفةُ الحسنات، ومغفرةُ السَّيِّئات

في قوله: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ جاء ذِكر الشَّيئين المختلطَيْن بالعطف بالواو على اعتبار استوائهما في وقوع فعلِ الخلط عليهما، ويقال: خلطَ كذا بكذا على اعتبار أحدِ الشَّيئين المختلطَيْن متلابسين بالخلط.

والتَّركيبان متساويان في المعنى، ولكنَّ العطفَ بالواو أوضحُ وأحسن؛ فهو أفصح[1]، حيث إنَّ العدول عن (الباء) لتضمين الخلْطِ معنى العمل، كأنَّه قيل: (عملوا عملًا صالحًا وآخرَ سيئًا)، ثمَّ انضاف إلى العمل معنى الخلط، فعُبِّر عنهما معًا به[2].

وجهُ العدول من: ﴿عَمَلًا﴾ إلى ﴿وَءَاخَرَ﴾:

إهمالُ ذكرِ العمل السيِّئ وتحقيرُهُ

قال الله سبحانه: ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾، ولم يقُل: (وعملًا سيئًا)، فترك لفظ (عملًا) في مقام ارتكاب السيِّئاتِ؛ إهمالًا لذكر أعمالهم السَّيِّئة، وفيه إشارةٌ إلى تحقيرها وقُبْحِ ذكرها.

بلاغةُ الطباق بين: ﴿صَٰلِحًا﴾ و﴿سَيِّئًا﴾:

وصْفُ العملِ بالسُّوء يقتضي نِفارَ النَّفسِ منه

بين هذين المعنيين ﴿صَٰلِحًا﴾، و﴿سَيِّئًا﴾ محسِّنٌ بديع، وهو الطِّباق، ويؤتَى به للجمعِ بين لفظين متضادَّين في الكلام، وهذا لتوضيح أنَّ هؤلاء المخلَّفين قد جمعوا بتخلُّفهم عن رسول الله ﷺ بين عملَين متضادَّين متقابلين، وهما: إيمانهم وأعمالهم الحسنة، وترك الجهاد مع النبي ﷺ والتخلُّف عن الجيش.

الموقع النَّحْويُّ والبيانيُّ لـ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾:

الله الرَّحيم لا يردُّ تائبًا، ولا يعيّر مذنبًا

﴿عَسَى﴾ من أفعال المقاربة وتفيد الرَّجاءَ، ولفظ الجلال ﴿ٱللَّهُ﴾ اسمُها، و﴿أَن﴾ وما في حيّزها خبر[3]. و﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/21.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/170.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/167 - 168.

﴿يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ جملة استئنافيَّةٌ لا محلَّ لها من الإعراب، ويمكن أن تكون استئنافًا بيانيًّا.

وما دام قد اختلط الخير بالشَّرِّ، وكان التَّرجّي؛ فإنَّه يُرجى قبولُ التَّوبة؛ لأنَّ الحسنات يُذهبن السَّيِّئات، ولأنَّ الخير الغالبَ برحمة اللّه يذهب بالشَّرِّ المغلوب، وإنَّ غفران اللّه ورحمته يطلبان قبول التَّوبة حيث كان لها مسوِّغ؛ لأنَّ اللّه تعالى يقبل التَّوبة من عباده، ولأنَّه غافر الذَّنب قابلُ التَّوبة شديد العقاب[1].

بلاغةُ التَّعبير بـ ﴿عَسَى﴾ على الأمر المحقَّق:

دأبُ الملوك إيجابُ الوعد تفضُّلًا وإحسانًا

و﴿عَسَى﴾ فعلُ رجاء، وذِكْرُ فعلِ الرَّجاء يستتبع معنى اختيار المتكلِّم في وقوع الشَّيء وعدم وقوعه، ولمّا كانت ﴿عَسَى﴾ من كلام اللّه تعالى المخاطَبِ به النَّبيُّ ﷺ؛ كانت كنايةً عن وقوع المرجوِّ، وأنَّ اللّه قد تاب عليهم[2]. فـ ﴿عَسَى﴾ منه سبحانه وتعالى واجبةٌ؛ لأنَّ هذا دأْبُ المُلوك، ولعلَّ التَّعبير بها يفيد - مع الإيذان بأنَّه لا يجب عليه لأحد شيءٌ، وأنَّ كلَّ إحسانٍ يفعله؛ فإنَّما هو على سبيل الفضل - إشارةً إلى أنَّهم صاروا كغيرهم من خُلَّص المؤمنين غيرِ المعصومين في مُواقَعَة التَّقصير، وتوقُّع الرَّحمة من اللّه بالرُّجوع بهم إلى المراقبة، فكما أنَّ أولئك معدودون في حزب اللّه مع هذا التَّقصير المرجوِّ له العفو، فكذلك هؤلاء[3].

الموقع النَّحْويُّ لـ ﴿أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾:

الإطماعُ من اللّه سبحانه إيجابٌ فهو أكرم الأكرمين

﴿أَن﴾ المصدريَّة وما في حيِّزها خبرٌ لـ ﴿عَسَى﴾[4]، والمعنى: عسى اللّه أنْ يقبلَ توبتَهم[5]. و﴿عَسَى﴾ تفيد الرَّجاء، وهو في كلام اللّه

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3433.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/22.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/11.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/167 - 168.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/22.

سبحانه يُفيد تحقُّق الوقوع؛ لأنَّ الإطماع من اللّه سبحانه إيجابٌ لكونه أكرمَ الأكرمين[1].

ما دامت روحُ الإنسان فيه؛ فإنَّ التَّوبة مفتوحةٌ أبوابُها تناديه

غرضُ التَّعبير بالمضارع في: ﴿يَتُوبَ﴾:

يدلُّ المضارع هنا على استمرار قَبول اللّه توبةَ مَن يعترف بذنبه، ويندم على اقترافه إلى قيام السّاعة.

ويفيد المضارع أيضًا الاستقبال، فقوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ يقتضي أنَّ هذه التَّوبة إنَّما تَحصُل في المستقبَل، وأن الاعترافَ ما كان نفسَ التَّوبة، بل كان مُقدِّمةً للتَّوبة، وأنَّ التَّوبة إنَّما تَحصُل بعدها[2].

الموقعُ النَّحويُّ والبيانيُّ لـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾:

اللّه يتجاوز عن عباده بقَبول التَّوبة، ويتفضَّل عليهم بالرَّحمة

جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾: مستأنفةٌ، وآثر الفصلَ دون الوصل؛ لأنَّ الجملةَ مسوقةٌ لتعليل ما قبلها، وهو وجوبُ قبولِ التَّوبة؛ فاللّه تعالى كثيرُ المغفرة والرَّحمة، يتجاوز عن التّائب، ويتفضَّل عليه[3].

بلاغةُ التَّذييل بهذين الاسمَيْن الجليلَيْن:

مغفرةُ اللّه تعالى عامَّةٌ ومستمرَّةٌ إلى يوم القيامة

جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ تذييلٌ مناسب للمقام[4]، فلمّا كان ﴿عَسَى﴾ من اللّه واجبًا، وقبول التوبة واقعًا؛ خُتم بما يدلُّ على قبول التَّوبة، وذلك صفة الغفران والرَّحمة.

وهذه الآية وإن نزلت في ناسٍ مخصوصين، فهي عامَّةٌ في الأُمَّة إلى يوم القيامة[5]؛ لأنَّ العبرةَ بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب.

لطيفةُ تتابعِ المؤكِّدات في فاصلة الآية:

يؤكِّد اللّه تعالى لعباده قَبولَه التَّوبة؛ لئلّا يقنِّطهم الشَّيطان منها

اجتمع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ عددٌ من المؤكِّدات،

(1) الشوكاني، فتح القدير: 2/454.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/133.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/14.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/22.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/499.

وهي: حرف التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾، واسْميَّة الجملةِ، وفيها دلالةٌ على ثبوت المعنى، وفيها أيضًا تقريرٌ لمضمون الجملةِ التي قبلها توكيدًا لمعنى (قبول التَّوبة)، ومجيء المسند إليه لفظ الجلال ﴿ٱللَّهَ﴾، وفي التَّعبير به توكيدٌ لكلِّ ما يُسنَد إليه من صفات الكمال.

وكذلك التَّعبير بصيغتي المبالغة ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الدّالَّتين على تكرار المغفرة من اللّه واستمراريَّتها، وثبوت صفة الرَّحمة.

ووقوع الجملةِ معطوفةً على قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ الموجبةِ لقبول التَّوبة، وعطفُ المؤكَّد على مثله مبالغةٌ في التَّوكيد.

وقد توالت هذه المؤكِّدات؛ لدفع أيِّ شكٍّ في حصول قبول التَّوبة ترغيبًا للمذنبين فيها، وتطمينًا لهم بأنَّ اللّه يقبل التَّوبة عن عباده، وأنَّه غفور رحيم.

نكتةُ تقديم: ﴿غَفُورٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾:

مِن كمال رحمةِ اللهِ مغفرتُهُ للمذنبين وتوبتُه على العصاة

قُدِّم لفظ ﴿غَفُورٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾ لنكتةٍ لطيفة، فمغفرةُ اللّه سبحانه ذنوبَ عباده التّائبين من رحمته بهم، وأنَّه سبحانه هو الذي يغفر الذُّنوب جميعًا؛ لأنَّه رحيم.

فتقديم ﴿غَفُورٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾ جاء في غاية المناسبة، فهو من باب تقديم المسبَّبِ على السبب: فغفرانُ اللّه ذنوبَ التائبين مسبَّبٌ عن رحمته ﷻ، أو لأنَّ المغفرة تقتضي مطلق السَّتر والتَّغطية، وأمّا الرَّحمةُ؛ فهي مزيد تفضُّل.

سرُّ تنكير الاسمَيْن الجليلَيْن:

لا تضيقُ رحمةُ اللهِ بعاصٍ، ولا يتعاظمُ على التَّوبةِ ذنبُ مذنب

جاء هذان الاسمان الجليلان ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ نكرتَين لإفادة التَّعميم، والمعنى: أنَّه ﷻ غفورٌ لكلِّ ذنب، وهو سبحانه رحيمٌ يلطف بكلِّ عبد تائبٍ.

وممَّا يدلُّ على أنَّ غرض التَّنكير هنا هو التَّعميمُ ورود الاسمين

الجليلين بصيغة المبالغة العاملة عمل فعلها؛ فهي بمنزلةِ فعلِها الذي حُذِف معمولُه توسُّعًا لإرادة التَّعميم؛ فإنَّ صفاتِ اللّه ﷻ صفاتُ عموم وشمول تامٍّ فيما هي له[1].

كما أنَّ وضع الاسم الظَّاهر موضع الضَّمير فيه إشارة إلى استقلال الجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وبهذه الاستقلاليَّة تكون الجملة بمنزلةِ قضيَّةٍ كليَّةٍ لها صفة العموم[2].

غرض صيغ المبالغة فيهما:

لا يملُّ اللّه من مغفرة، ولا تضيق رحمته عن منيب

عُبِّر بصيغتي المبالغة ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ للدلالة على كمال صفتَي المغفرة والرحمة؛ إذ أُطلِقت على مستحقٍّ للكمال أو الكثرة فيهما، وهو إطلاق على وجه الحقيقة لا على سبيل المبالغة، فما يسمّى بصيغ المبالغة إذا أُطلقت على اللّه ﷻ؛ فهي مطلقةٌ بحسب أصلِ وضعها اللُّغوي، ولا مبالغة فيها[3]. والمعنى: هو تكرُّرُ المغفرة من اللّه لعباده التّائبين واستمراريَّتُها، فالغفورُ الذي يستر ذنوبَ عبادِه، ويتجاوزُ عنها، ويقيهم آثامَها بالعفوِ عنها، وصيغةُ (فَعول) تُنبِئُ عن جَودةِ الفعل، وكمالِه، وشمولِه، فهو بمعنى تامِّ المغفرة، لذا ورد عن عبد اللّه بن عمر رضي الله عنهما قال سمعتُ رسول اللّه ﷺ يقول: «إنَّ اللّه يُدني المؤمنَ، فيضعُ عليه كَنَفه، ويستره، فيقول: أتعرفُ ذنبَ كذا، أتعرفُ ذنبَ كذا، فيقول: نعم، أيْ ربِّ. حتى إذا قَرَّرَهُ بذنوبه، ورأى في نفسه أنَّه هلك، قال: سترتُها عليك في الدُّنيا، وأنا أغفرُها لك اليوم»[4]. والرحيمُ مفيدٌ ثبوتَ صفة الرَّحمة، فاللّهُ ذو الرحمة الواسعة للمؤمنين يوم القيامة.

(1) حسن، بلاغة اللغة: 1/409.
(2) حسن، بلاغة اللغة: 2/104.
(3) حسن، بلاغة اللغة: 2/456 - 457.
(4) البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (2441)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2768) باختلاف يسير.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المدينةُ ويثربُ في الاستعمال القرآنيّ:

المـنـافـقـون يـخالـفون اللـه ورسـولـه ﷺ بتسمية المدينة باسمها الجاهليّ

يثرب: اسمٌ قديم لمدينة رسول اللّه ﷺ، ومأخوذٌ إمّا من التَّثريب الذي هو اللَّوم والتَّعيير، وإمَّا من الثَّرْب الذي هو فسادٌ في كلام العرب[1]. وكان بعضُ المنافقين يسمّونها بهذا الاسم، ولمّا أخبر اللّه ﷻ عن قولهم؛ قال: ﴿وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ﴾ [الأحزاب: 13]؛ فعَدَلوا عن الاسم الذي ذكره اللّه في كتابه عَلَمًا عليها في أربعةِ مواضع منه، كقوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ [التوبة: 120]، وعن الاسم الذي وسَمَها به النبيُّ ﷺ من المدينة وطيبة مع حُسْنه، إلى الاسم الذي كانت تُدعى به قديمًا في الجاهلية مع ظهور قُبحِهِ باشتقاقه من الثَّرب أو التَّثريب للعدول عن الإسلام[2]، ولتذكير بعضهم بالاسم الَّذي كانت تُعرف فيه المدينة قبل وصول النَّبيِّ ﷺ إليها؛ من أجل إشعال جذوةِ الفتنة والعصبيَّة في المدينة.

(مرَّتيْن) و(كَرَّتيْن):

المرَّة مع الوقوع والـكـرَّة مع الرجوع

الفرق بينهما: أنَّ الكَرَّة مشتقَّةٌ من الكَرِّ، وهو العَودُ؛ لأنَّها عَودٌ إلى شيء بعد الانفصال عنه، ككَرَّةِ المقاتل يحمل على العدوِّ بعد أن يفرَّ فرارًا مصنوعًا[3]، أمَّا المرَّةُ، فمعناها: وقوعٌ للحدث أو الأمر[4].

ولذلك ذُكِر لفظ ﴿كَرَّتَيۡنِ﴾ في سياق تكرار رَجْع البصرِ حيث قال اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ [الملك: 4]؛ أي: رَجعةً بعد

(1) ابن منظور، اللسان: (ثرب).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/306.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/19.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (مرر).

رَجعةٍ وإنْ كثُرت[1]، وذُكِر لفظ ﴿مَّرَّتَيۡنِ﴾ في سياق تكثير وقوع العذاب عليهم[2].

العذابُ العظيمُ أقسى أنواع العذاب وأعمُّه

العذابُ العظيمُ والأليمُ والمُهينُ والشديدُ والمقيمُ:

العذاب العظيم أشدُّ أنواع العذاب على الإطلاق شدَّةً وزمنًا وألمًا وإهانة، ويشمل كلَّ أنواع العذاب من حيث الكمُّ والكيف والدَّوام، ويشمل الأليمَ والمهينَ والشَّديدَ والمقيم[3]، وهو غاية العذاب القصوى من الضَّرر[4].

الألم: الوجع الشديد. والإيلام: الإيجاعُ. والعذاب الأليم: هو العذابُ المؤلِمُ الموجِع، الذي يبلغ إيجاعُه غايةَ البلوغ[5].

والعذاب المُهين مشتمل على المذلَّة والهوان والافتضاح، فهو وصفٌ يدلُّ على الإهانة والإذلال مع العذاب[6]. والإهانة عقوبةٌ لمن طلب العزَّة والكرامة بعيدًا عن منهج الله ﷻ[7].

والشين والدّال أصل واحد يدلُّ على قوَّة في الشَّيء، والشَّد: العقد القويُّ. يقال: شددْتُ الشيء: قوَّيت عقده[8]. والملاحظُ من النّاحية المعجميَّة في استعمال (شدَّ) في سياقاته المختلفة: أنَّ معنى القوَّة موجودٌ وظاهر، والشِّدَّة في العذاب تدلُّ على قوَّته وسطوته على المعذَّب[9]، والعذاب الشَّديد تتضاعف آلامه وقوَّته[10].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 9/4.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/497، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/98.
(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 11/15، 18/132، 25/219.
(4) عبد الرحمن فودة، في رحاب النص، ص: 22.
(5) الأزهري، التهذيب، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب الأصفهاني، المفردات، وابن منظور، اللسان: (ألم).
(6) الزحيلي، التفسير الوسيط: 3/2395.
(7) عبد الرحمن فودة، في رحاب النص، ص: 26.
(8) الرّاغب الأصفهاني، المفردات: (شدد).
(9) عبد الرحمن فودة، في رحاب النص، ص: 17.
(10) البقاعي، نظم الدرر: 10، 373.

والعذاب المقيم عذابٌ دائمٌ ثابتٌ لا يزول، ولا يبيد، ولا يَحول، ولا ينقطع أبدًا[1]. ومعنى هذا الوصف أنَّ عذاب المعذَّبين غيرُ منفكٍّ عنهم، مثل مَن يقيم بمكان إقامة دائمة، فيجعل هؤلاء المعذَّبين يائسين من التفكير في الخروج من هذا العذاب والعودة منه إلى الدُّنيا[2].

والذين يسارعون إلى المعاصي والجحود لهم عذاب عظيم؛ لأنَّ المسارعة تكون لأمر هائل، وهذا من العذاب المستحقِّ للكافرين والمنافقين، وهم أشدُّ المعذَّبين بصنوف العذاب المختلفة لمسارعتهم في الكفر ونفاقهم وجحودهم[3].

الخلطُ واللَّبسُ والمزجُ:

الخلط أعمُّ من اللَّبس والمزج

الفرق بين الخلْطِ واللَّبس: أنَّ أصلَ الخلط الجمعُ بين الشيئين فأكثر[4]، وتداخلُ أجزاء الأشياء بعضها في بعض[5]، وأصل اللَّبس: التَّغطيةُ وستر الشيء[6]. وقد قيل في معنى قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ [البقرة: 42]، أي: لا تُغَطُّوا[7].

واللَّبْسُ يستعمل في الأعراض مثل الحقِّ والباطل وما يجري مجراها، وتقول: في الكلام لَبْسٌ، والخلطُ يستعمل في العَرَض والجسم، فتقول: خلطتُ الأمرين، ولبستهما، وخلطت النَّوعين من المتاع، ولا يقال: لَبَسْتُهما، وحدُّ اللَّبْس منعُ النَّفْس من إدراك المعنى بما هو كالسَّتر له؛ ذلك بأنَّ أصل الكلمة: السَّترُ[8].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 10/293، 14/340، 21/554، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/159.
(2) عبد الرحمن فودة، في رحاب النص، ص: 29.
(3) عبد الرحمن فودة، في رحاب النص، ص: 22.
(4) الرّاغب الأصفهاني، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خلط).
(5) الفيومي، المصباح المنير: (خلط).
(6) الرّاغب الأصفهاني، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خلط).
(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/341.
(8) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 302.

والفرق بين الخلط والمزج: أنَّ الخلط أعمُّ من المزج؛ فإنَّ الخلْطَ - كما سبق - جمْعٌ بين شيئين فأكثر، سواء كانا مائعين أو جامدين، أو أحدُهما جامدٌ والآخر مائع، أمَّا المزج؛ فإنَّه يختصُّ بالمائعات[1]، فتقول: خلطتُ بين القمح والشَّعير، ولا تقول: مزجتُ بينهما.

(1) الرّاغب الأصفهاني، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خلط).

﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤﴾ [التوبة: 103 - 104]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِمَا قَبْلَهما:

من أخلصَ وصدقَ في طلبِ التَّوبة؛ أعانَهُ الله عليها، ووفَّقَه إليها

لَمّا أخبرَ اللّه سبحانه أنَّ رحمتَه واسعةٌ، وأنَّه غفّار لمن تاب من المتخلِّفين عن رسولِه ﷺ، المعترفين بما اقترفوا، أمرَ سبحانه رسولَه الكريم ﷺ أن يقبل مِن أولئك التائبين النّادمين ما يقدِّمونه من صدقات، وأن يُطمْئِنَ قلوبهم بالدُّعاء لهم؛ لتذهبَ بذلك شوائب ذنوبهم، ولتتأكَّد توبتهم[1]، وكذلكَ لَمّا كان مِن شَرطِ التَّوبةِ تَدارُكُ ما يمكِنُ تَدارُكُه ممّا فات، وكان التخلُّفُ عن الغَزوِ مُشتَمِلًا على أمرينِ، هما: عدمُ المُشاركةِ في الجهادِ، وعَدَمُ إنفاقِ المالِ في الجهادِ؛ جاء في هذه الآيةِ إرشادٌ لِطَريقِ تَدارُكِهم ما يمكِنُ تَدارُكُه ممَّا فات، وهو: نفعُ المُسلمينَ بالمالِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾: المال: ما ملكته من متاع الحياة الدنيا، وصحَّ الانتفاع به، ويطلق في الغالب على النُّقود، وجمعه: أموال[3]. ومعناه المحوريُّ يدور حول: "مادَّة الأثمان والنَّفقة التي تتيح الشِّراء،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/159، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/134، والآلوسي، روح المعاني: 6/15.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/22.

(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (مول).

وتتحصَّل من البيع أو الإرث أو أجر العمل"[1]. وسُمِّي المال بذلك؛ لأنه مائلٌ أبدًا، وزائلٌ كذلك، ولذلك سُمّي: عَرَضًا؛ لأنَّه أمْرٌ يعرِض ويزول[2].

2) ﴿صَدَقَةً﴾: الصَّدقة: ما يُخرِجه الإنسان من ماله على وجه القُربة، يدفعه للفقراء والمساكين[3]. والغالبُ أن تكون الصَّدقةُ لِما كان إنفاقًا للفقراء والمساكين تطوُّعًا، والزَّكاة لِما كان إنفاقًا واجبًا[4]. ومعناها المحوريُّ: يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيء، سواءٌ كان قولًا أو غيرَهُ، والصَّدقة التي تُعطى للفقير من القوَّة والصَّلابة؛ لأنَّه بها يتقوّى، ويَصلُب، ولأنَّها برهانٌ على صدقِ إيمان المتصدِّق وقوَّته[5].

3) ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾: الطُّهر: نقيضُ النَّجاسة والدَّنس، والتَّطهُّر: التَّنزُّه والتَّنظُّف من النَّجاسة والدَّنَس، وقوم يتطهَّرون: يتنزَّهون من الأدناس[6]، وأصله يدلُّ على نقاء من الدَّنَس وزواله[7].

"والطَّهارة ضربان: طهارة جسمٍ، وطهارة نفسٍ"[8]. والطَّهُور: ما يُتَطَهَّر به، أمَّا الطُّهُور: فهو فعل التَّطَهُّر[9].

والتَّطَهُّر كما يكون تَنَزُّهًا عن النَّجاسة والدَّنَس - وهو فعل الطَّهارة في جسم - يكون تَنَزُّهًا عن الآثام، وكفًّا عمّا لا يَجمُل، ولا يُحمَد، ومنه قوله تعالى حاكيًا قولَ قوم لوط: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾. أي: يَتَنَزَّهون عن إتيان الذُّكران الذي هو من الإثم والدَّنَس، وما لا يجمُل لمخالفته الفطرة.

ورجل طاهرُ الثَّوب، أي: مُنَزَّهٌ عن الآثام، وليس بذي دَنَس في خُلُقه[10]. ومنه قوله

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (مول).
(2) الرّاغب، المفردات: (ميل).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (صدق).
(4) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (صدق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (صدق).
(6) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مجمل اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (طهر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (طهر).
(8) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (طهر).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (طهر).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (طهر).

تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾. " معناه خذ يا محمَّد مِن أموالهم صدقةً، فإنَّك تُطَهِّرهم بأخذها مِن دَنَس الآثام"[1].

4) ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾: الزَّكاة: النَّماء والبركة والزِّيادة، وكذلك التَّطهير[2].

وأصله يدلُّ على النَّماء والزّيادة، وترجع معانيه كلُّها إلى النَّماء والطَّهارة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[3]. وكذلك زكاة المال: ما تخرجه من مالِك لِتُطَهِّره به[4].

5) ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ﴾: الصَّلاة: الدُّعاء والثَّناء والاستغفار[5]. وأصل معانيها يرجع إلى الدُّعاء[6]، والصَّلاة من اللّه: رحمة، ومن الملائكة والنّاس: دعاءٌ واستغفار[7].

وصلاةُ اللّه على رسوله محمَّد ﷺ: حُسْنُ الثَّناء عليه من اللّه في الملأ الأعلى، والتَّعظيم والتَّكريم له[8].

وقوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ﴾. أي: "واعطف عليهم بالدُّعاء والاستغفار لهم"[9].

6) ﴿سَكَنٞ﴾: السُّكون: ضدُّ الحركة، وسَكَن الشَّيء سُكُونًا: استقرَّ وثبت، وكلُّ ما هدأ، فقد سكن، كالرّيح والحرِّ والبرد والغضب[10]. وأصله يرجع إلى الاستقرار، وخلاف الاضطراب والحركة، من هدوء أو ثباتٍ[11]، ومنه سكن دارَهُ، بمعنى: أقام بها، ويستعمل بمعنى الاستيطان كذلك، والمَسكَن: المَنزِلُ والدّار والبيت، وجمعه: مساكنُ[12].

والسَّكَن: أهل البيت والدّار، وكذلك العيال، والسَّكن: كلُّ ما يُسكَن إليه، ويُطمأنُّ به من أهل وغيره، ومن هذا المعنى الأخير قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾[13].

---

(1) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: (طهر).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، المجمل، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (زكو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (زكو).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (زكو).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، والرّاغب، المفردات: (صلو).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (صلو).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (صلو).
(8) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (صلو).
(9) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/96.
(10) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (سكن).
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سكن).
(12) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سكن).
(13) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (سكن).

الصَّدقةُ رِفعةٌ للدَّرجات وتزكية، وطُهرة من الذُّنوب والخطيئات

المَعنى الإجْماليُّ:

يأمر المولى ﷻ نبيَّه الكريمَ ﷺ أَنْ يأخذَ مِن هؤلاء المعترفين بذنوبهم، ومِن غيرهم صدقةً بمقدار معيَّن كالزَّكاة المفروضة، أو بمقدار غير معيَّن كصدقة التَّطَوُّع؛ وذلك لتكون طُهْرةً لهم من دَنَسِ ذنوبهم ونماءً ورفعةً لهم مِن منازل المنافقين إلى منازل المخلصين، كما يأمره سبحانه أَنْ يدعُوَ لهم بالمغفرة لذنوبهم، وأن يستغفرَ لهم منها؛ فدعاؤه ﷺ رَحمةٌ وطُمأْنينةٌ لقلوبهم، وَاللّه سَمِيعٌ باعترافهم عَلِيمٌ بندامتهم، وفي الآية التالية يخبر سبحانه بصيغة الاستفهام المفيدِ للتَّقرير لهؤلاء التّائبين الَّذين تخلَّفوا عن الغزو، ولغيرهم من المذنبين، أنَّ اللّهَ سبحانه وحدَه هو الذي يقْبَلُ التَّوبَةَ الصَّحيحَةَ الصّادِقَةَ مِن عباده المخلصين، ويقْبلُ كذلك الصَّدقاتِ الطَّيّبةَ، ويثيب عليها، وهو تعالى غنيٌّ عنها، وهو مع ذلك كثيرُ التَّوبةِ واسعُ الرَّحْمةِ والمغفرةِ لِمَنْ تاب إليه وأناب[1].

وترشد الآيةُ إلى أنَّ الصدقةَ تكفِّر الذُّنوبَ، وتطهِّر الأرواحَ من رذيلة الشُّحِّ والبخل، وإلى استحبابِ الدُّعاءِ من الإمام أو نائبِه لمن أدَّى زكاتَه بالبركة، وأن ذلك ينبغي أن يكون جَهرًا؛ بحيث يسمعُه المتصدِّقُ، فيسكنُ له، وأنَّه ينبغي إدخالُ السُّرورِ على المؤمن بالكلام اللَّيِّن، والدُّعاءِ له، ونحوِ ذلك ممّا يكون فيه طمأنينةٌ، وسكونٌ لقلبه، وأنه ينبغي تنشيطُ من أنفقَ نفقةً وعملَ عملًا صالحًا بالدُّعاء له والثَّناء عليه، ونحو ذلك[2].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/659 - 664، والبغوي، معالم التنزيل: 4/91 - 92، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/96، وابن جزي، التسهيل: 1/347، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/181 - 182، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 350 - 351، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 6/397 - 398، والزحيلي، التفسير المنير: 11/29 - 30، والهرري، حدائق الروح والريحان: 12/26 - 27، والجزائري، أيسر التفاسير: 2/422، والمجلس الأعلى، المنتخب في تفسير القرآن، ص: 278، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 203.

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 350، والجزائري، أيسر التفاسير: 2/422.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ فصل الآية عن سابقاتها:

مــن شــأن الرِّضوان قَبولُ القربان

هذه الآية منفصلةٌ عن الآيات السّابقة للاستئناف النَّحويِّ عند بعضهم؛ فهي كلامٌ مبتدأ، والمقصود منها إيجاب أخذ الزَّكاة من الأغنياء(1)، ففصلها لكمال انقطاعها عن سابقتها.

ويمكن أن تكون واقعةً موقعَ الاستئناف البياني؛ ذلك أنَّه لمّا قال اللّه ﷻ في الآية السّابقة: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [التَّوبة: 102] نشأ سؤالٌ عن كيفيَّة هذه التَّوبة، وعمَّا تتحقَّق به؛ فجاءت هذه الآية بإجابة هذا السُّؤال، وهي أنَّ توبتَهم حاصلةٌ بدفعهم أموالَ زكاتهم، ففُصِل بين الآيتين لشِبه كمال الاتِّصال بينهما(2).

وعلَّة ترتيب حصول التَّوبة على دفع أموال الزَّكاة تظهر بمعرفة سببِ نزول هذه الآية الكريمة؛ وذلك أنَّ المتخلِّفين عن الجهاد مع رسول اللّه ﷺ في غزوة تبوك لمّا أظهروا التَّوبة والنَّدامة، عن تخلُّفهم عن الغزوة، وقد أقرُّوا بأنَّ السَّبب الموجب لذلك التخلُّف هو حبُّهم للأموال وشدَّة حرصهم على صونها عن الإنفاق، فكأنَّه قيل لهم: إنَّما يظهر صحَّة قولكم في ادِّعاء هذه التَّوبة والنَّدامة لو أخرجتم الزَّكاة الواجبة، ولم تبخلوا بها، أو تتقاعسوا عنها كما تقاعستم عن الغزو؛ لأنَّ الدَّعوى لا تتقرَّر إلا بالمعنى، وعند الامتحان يُكرَم الرَّجُل، أو يُهان، فإنْ أدَّوا تلك الزَّكوات عن طيب نفس منهم، فقد ظهر كونُهم صادقين في تلك التَّوبة والإنابة، وإلّا فهُم كاذبون مزوِّرون بهذا الطريق(3).

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/134.

(2) عبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص: 164.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/134.

فدلالةُ الخطاب ظاهرةٌ على وجوب أخْذِ الزَّكاة من سائر المسلمين؛ لاستواء الجميع في أحكام الدِّين إلا ما خصَّه الدَّليل؛ وذلك لأنَّ كلَّ حكم حكمَ به اللّه تعالى ورسوله ﷺ في شخص أو على شخص من عباده أو غيرها، فذلك الحكم لازمٌ في سائر الأشخاص إلّا إذا قام دليلُ التَّخصيص فيه(1).

والفائدة المعنويَّة والبلاغيَّة الحاصلة من فصلِ هذه الآية عن سابقاتها، وحمّلِ لفظها على العموم - عمومُ الأمر بأخذ الزَّكاة من الأغنياء - تظهر في توجيه القرآن للمجتمع الإسلاميِّ بألّا ينشغل بالمال عن عبادة ربِّ المال، وألّا يُقعده طلبُ تحصيله وتكثيره وصيانته عن اقتحام لُجَجِ المعالي في عبادة الغنيِّ المتعالي، وأنَّ الصَّدقة تطهِّر المالَ وصاحبه، وأنَّ مَن لم يستطع الجهادَ ببدنه؛ فليجاهد بماله وليُجهِّز الغُزاة.

دلالةُ الأمر ﴿خُذۡ﴾:

الأمر في قوله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ ظاهرُه الوجوب، فدلَّ هذا النَّص على أنَّ أخْذَ الزَّكاة واجب(2). وفيه أيضًا دليل على أنَّ الإمام أو من يُنيبُه هو الذي يتولّى أخْذَ الصَّدقات، وينظرُ فيها(3).

معنى ﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾:

كلمة ﴿مِنۡ﴾ تفيدُ التَّبعيضَ، وقوله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ يدلُّ على أنَّ القَدْر المأخوذ هو بعضُ تلك الأموال، لا كلُّها؛ إذ مقدار ذلك البعض غيرُ مذكورٍ هاهنا بصريح اللَّفظ، لكنَّ المعلوم أنَّ تلك الصَّدقة ليست إلّا صدقاتِ أصول الأموال التي تجب فيها الزَّكاة، التي وصفها رسول اللّه ﷺ، وبيَّن كيفيَّتها(4).

اللّـهُ العليم الحكيم يهدي عـبـاده لأقـوم أمـورهـم، ويـأمـرُهـم بما يصلح شؤونهم

اللّـه الرَّحـيـم يـقـبـلُ صدقة الـتّـائـبـين المخلصين، وهو سبحانه غنيٌّ عن العالمين

(1) الجصاص، أحكام القرآن: 4/355.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/134، والنيسابوري، غرائب القرآن: 3/526.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/499.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/134.

وفائدة كون ﴿مِنۡ﴾ تبعيضيَّةً في هذه الآية، هو بيانُ كمال رحمة الله سبحانه مع عدْلِه؛ ذلك أنَّ المتخلِّفين عن غزوة تبوك أرادوا التَّصدُّق بجميع مالهم، فأمر الله تعالى رسولَه ﷺ أن يأخذ بعضَها لتوبتهم؛ لأنَّ الزَّكاة لم تُقبل من بعض المنافقين، فترتبط الآيةُ بما قبلَها، وقيل: ليست هذه الصَّدَقَةَ المفروضة، بل هم لمّا تابوا وبذلوا جميع مالهم كفّارةً للذَّنب الصّادر منهم، فأمر الله تعالى رسولَه ﷺ بأخْذِ بعضها وهو الثُّلُث(1).

نكتةُ تقديم شبه الجملة: ﴿مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾:

الحفاوة بالتّائبين من شأنها تعجيلُ بشراهم بقبول نفقاتهم

قُدِّم شبه الجملة ﴿مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ على المفعول به ﴿صَدَقَةٗ﴾ للاهتمام والتَّخصيص، ذلك أنَّ سياقَ الآية سياقُ تحضيض على التَّوبة، وتبشيرٍ بقبولها ممَّن تابوا، وأنابوا، وتمييز المقبولين من التّائبين عن المنافقين المنبوذين.

ويمكن أن يكون تقديمُ شبه الجملة من باب تعجيل المسرَّة بسَوْق البشرى، فكأنَّه قيل لهم: إنَّ أموالكم التي جئتم بها إلى النَّبيِّ ﷺ ليكون إنفاقكم إيّاها كاملة كفّارة لكم عن ذنب تخلُّفكم عن الغزوة - هذه الأموال - قد قبلها الله تعالى بخلاف أموال المنافقين التي لم تُقبل، وأموالكم هذه لن تؤخذ كاملة، بل سيؤخذ بعضها فقط، ويُردُّ لكم سائرها.

وهذا بخلاف لو كان نظم الآية: (خذ صدقةً من أموالهم)؛ لأنَّ الاهتمام حينئذٍ سيكون منصبًّا على المأخوذ وهو الصَّدقة، لا المأخوذ منه، وهو المال الذي قَبِلَ الله تعالى إنفاق التّائبين إيّاه للتَّكفير عن ذنوبهم.

من كمال إكرامِ الله تعالى لخلقِه أن أغناهم من فضله

غرضُ إضافةِ الأموال إلى الضَّمير، ومعنى الجمع فيها:

قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ يقتضي أن يكون المالُ مالًا لهم، ومتى

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 5/493.

كان الأمر كذلك؛ لم يكن الفقير شريكًا للمالك في النِّصاب، وحينئذٍ يلزم أن تكون الزَّكاة متعلِّقة بالذِّمَّة[1].

والضَّمير الذي في قوله تعالى: ﴿أَمْوَٰلِهِمْ﴾ عمومٌ يُراد به خصوصٌ؛ إذ يخرج منه العبيد وسواهم[2].

"ومعنى الجمع في الأموال يقتضي أنَّه يأخذ بعضَ كلِّ صِنفٍ من المال: الثِّمار والمواشي والنُّقود"[3]، وهو من العموم الذي يُراد به الخصوص؛ إذ يخرج عنه الأموال التي لا زكاة فيها كالرِّباع والثّياب[4].

ويضاف إلى ما سبق أنَّ إضافة الأموال إلى الضَّمير - سواء حُمِل على التّائبين أصحاب واقعة النُّزول أم على عموم الأغنياء - فيها تذكير بنعمة اللّه عليهم؛ إذ أغناهم من فضله، وجعل لهم مالًا يمتلكونه، ويتصرَّفون فيه، فلا يجوز لهم الامتناع بالبخل عن إنفاقه على المحتاجين ممَّن حُرموا، ولا سيَّما أنَّ أجر هذا الإنفاق يعود عليهم هم، فهم المنتفعون به في الدُّنيا والآخرة، واللّه تعالى غنيٌّ ورسوله ﷺ غنيٌّ عن هذا المال.

نكتة تنكير: ﴿صَدَقَةً﴾:

الصَّدقة معلومةٌ ببيان السُّنَّة الخالد

ليس المراد من التَّنكير العمومَ حتى يكفي أخذُ أيِّ جزء كان، وإن كان في غاية القِلَّة، مثل الحبَّة الواحدة من الحنطة، أو الجزء الحقير من الذَّهب، فوجب أن يكون المرادُ منه صدقةً معلومة الصِّفة والكيفيَّة والكمّية عند المخاطَبين، حتى يكون قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ أمرًا بأخذ تلك الصَّدقة المعلومة، فحينئذٍ يزول الإجمالُ، ويكون التَّنكير للنوعيَّة.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/135.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/78.
(3) الواحدي، البسيط: 11/33.
(4) البحر المحيط، أبو حيان: 5/499.

ومعلوم أنَّ تلك الصَّدقة ليست إلا الصَّدقات التي وصفها رسولُ الله ﷺ، وبيَّن كيفيَّتها، فبذلك كان قوله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ أمرًا بأن يأخذ تلك الأشياء المخصوصة، والأعيان المخصوصة[1].

فكان الإجمال في لفظ الصَّدقة دون لفظ الأموال؛ لأنَّ الأموال اسمُ عمومٍ في مسمَّياته، إلا أنَّه قد ثبت أنَّ المراد خاصٌّ في بعض الأموال دون جميعها، والوجوب في وقتٍ من الزَّمان دون سائره[2]، ويمكن أن يكون تنكير ﴿صَدَقَةٗ﴾ للتَّعظيم من شأنها مع قلَّة حجمها.

دلالة التَّعبير بالصَّدقة:

لكلِّ قولٍ حقيقةٌ، فمَن صدق إيمانه؛ فالصَّدقة برهانه

قوله تعالى: ﴿صَدَقَةٗ﴾ "مأخوذ من الصِّدق؛ إذ هي دليلٌ على صحَّة إيمانه، وصِدق باطنه مع ظاهره، وأنَّه ليس من المنافقين الذين يلمزون المطَّوِّعين من المؤمنين في الصَّدقات"[3].

فلمَّا كان النِّفاق من أفدح الكذب وأقبحه؛ كانت الصَّدقة دليلًا على صدِقِ المؤمن وإخلاصه، فبضِدِّها تتميَّز الأشياء، وممَّا يؤكِّد ذلك قول النَّبيِّ ﷺ: «والصَّدقة برهان»[4].

الموقع النَّحويُّ والبيانيُّ لـ ﴿تُطَهِّرُهُمۡ﴾:

تقديمُ الدَّليلِ على صدق الإيمان يعودُ على صاحبه بالتَّطهير والغفران

يصلح أن يكون قولُه تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمۡ﴾ نعتًا للصَّدقة، كأنَّه قال: خذ من أموالهم صدقةً مطهِّرةً، والأجود أن يكون عودُ الضمير في ﴿تُطَهِّرُهُمۡ﴾ للنَّبيِّ ﷺ، والمعنى: خذ من أموالهم صدقةً، فإنَّك تطهِّرهم بها، وقُرئ شاذًّا (تُطَهِّرْهُمْ) بالجزم على جواب الأمر، والمعنى: إنْ تأخذ من أموالهم صدقةً تطهِّرْهم، وتزكِهم، ولا يجوز في القراءة إلا إثباتُ الياء في ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ اتِّباعًا للمصحف[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/134.
(2) الجصاص، أحكام القرآن: 4/356.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/249.
(4) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الطَّهارة، باب: فضل الوضوء، حديث رقم: (223): 1/140.
(5) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/467.

الصَّدقة مَغسلةٌ للإثم، مَطْهرةٌ من الذَّنب، مَقْربةٌ إلى الربِّ

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ من حيثُ المادَّةُ والصيغة:

تدور معاني الطُّهر حول النَّقاء، وزوال الدَّنس، وانقطاع القذى، ثُمَّ عُمِّم في التَّنزُّه عن القبائح المادّية والمعنويَّة، ومنه: التَّطهُّر: التَّنزُّه عن الذَّمِّ وكلِّ قبيح، وتطهَّر من الإثم: تنزَّه منه[1].

"وقوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾، يعني: إزالة نجس الذُّنوب بما يعطي من الصَّدقة؛ وذلك لأنَّه لمَّا أطلق اسم النَّجس على الكفر تشبيهًا له بنجاسة الأعيان؛ أُطلق في مقابلته وإزالته اسم: التَّطهير، كتطهير نجاسة الأعيان بإزالتها، وكذلك حكمُ الذُّنوب في إطلاق اسم النَّجس عليها، وأطلق اسم التَّطهير على إزالتها بفعل ما يُوجب تكفيرها"[2].

"وإنَّما حسُن جعلُ الصَّدقةِ مطهِّرةً؛ لما جاء أنَّ الصَّدقة أوساخ النَّاس[3]، فإذا أُخذتِ الصَّدقةُ؛ فقد اندفعت تلك الأوساخ، فكان اندفاعها جاريًا مجرى التَّطهير"[4].

وفي الآية الكريمة نصٌّ على أنَّ الصَّدقة تطهِّر مَن ندموا على تخلُّفهم عن الغزو مع النَّبيِّ ﷺ، وتابوا منه، وجاؤوا بأموالهم متصدِّقين، فهي "تطهِّرهم؛ لأنَّ الذَّنب الذي فعلوه، واعترفوا به؛ تسبَّب في تقذير أنفسهم بالمعصية، وما داموا قد قذَّروا أنفسَهم بالمعصية؛ فهُم في حاجة أنْ يطَّهَّروا بالمال الذي كان سببًا في عدم ذهابهم إلى الغزوة"[5].

نكتةُ عود التاء في: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾:

مَن كثُر دنسُهُ؛ طهَّرته توبته، ومَن كبَّله ذنبه؛ أطلقته قُربتُه

قوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ يجوز فيه أن تكون التاء خطابًا للنَّبيِّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفِيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (طهر).
(2) الجصاص، أحكام القرآن: 4/355.
(3) من قوله ﷺ: «إنَّ هذِه الصَّدَقاتِ إنَّما هي أوساخُ النّاسِ، وإنَّها لا تَحِلُّ لِمُحَمَّدٍ، ولا لِآلِ مُحَمَّدٍ». رواه مسلم، صحيح مسلم: الحديث رقم: (1072).
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/135.
(5) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 9/5470.

ﷺ، وأن تكون للغَيبة، والفاعل ضمير الصَّدقة، فعلى الأوَّل تكون الجملةُ في محل نصبٍ على الحال من فاعل ﴿خُذۡ﴾. ويجوز أيضًا أن تكون صفة لـ ﴿صَدَقَةٗ﴾، ولا بدَّ حينئذٍ مِن حذف عائدٍ تقديرُه: تطهِّرهم بها. وحُذف (بها) لدلالة ما بعده عليه، وعلى الثَّاني تكون الجملة صفة لـ ﴿صَدَقَةٗ﴾ ليس إلَّا[1].

ويُستفاد من هذين التَّوجيهين كون النَّبيِّ ﷺ مطهِّرًا لهم بما أخذ من صدقاتهم التي تابوا بها، وكون الصَّدقة نفسها مطهِّرة لهم بما يترتَّب عليها مِن الثَّواب، ومغفرة الذُّنوب الموجبة للعقاب.

بلاغة العطف لـ ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾:

مَـن اعتصـم بالله؛ وقاه، ومَن أناب إليه؛ طهَّره الله، وزكَّاه

قوله تعالى: ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمۡ﴾، ولمّا كانت التَّزكية معطوفةً على التَّطهير؛ وَجَبَ حصول المغايرة بينهما؛ إذ المعطوفان متغايران لا محالة، ومِن هنا قيل: التَّزكية مبالغة في التَّطهير.

وهي أيضًا بمعنى: الإنماء، والمعنى: أنَّ الله تعالى يجعل النُّقصان الحاصل بسبب إخراج قدْرِ الزَّكاة سببًا للإنماء، وقيل: الصَّدقة تطهِّرهم عن نجاسة الذَّنب والمعصية، والرَّسول ﷺ يزكّيهم ويعظِّم شأنهم، ويثني عليهم عند إخراجها إلى الفقراء[2].

وقد أفاد العطف بقوله تعالى: ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ معنًى فوق الإنماء والمبالغة في التَّطهير، وهو الرِّفعة، أي: رفعتُهم عن خسيس منازلِ أهلِ النِّفاق إلى منازل أهل الإخلاص بعد نزول توبتهم، وقَبول نفقتهم[3].

فضلًا عمَّا أدَّاه هذا العطف البديع من تكامل المعنى، فإنْ كان التَّطهير من طلب الأعواض عليها؛ فإنَّ التَّزكية عن ملاحظتهم

(1) السمين، الدر المصون: 6/115 - 116.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/136، والنيسابوري، غرائب القرآن: 3/526.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 11/659.

إيّاها، وإنْ كان التَّطهير بها عن شُحِّ نفوسهم؛ فإنَّ التَّزكية بها بألّا يتكاثروا بأموالهم، فيروا عظيم منَّة الله عليهم بوجدان التجرُّد منها(1).

دلالةُ التَّعبيرِ في: ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ مادَّةً وصيغةً:

التَّزكية طُهرةٌ ونماء، ورفعة عن قذر أهل النِّفاق والأهواء

تدور معاني التَّزكية حول النُّموِّ والبركة والزّيادة مع جودة النَّوع، وتدلُّ أيضًا على الطَّهارة(2).

والتَّزكية هنا مبالغةٌ في التَّطهُّر وزيادة فيه، أو بمعنى الإنماء والبركة في المال(3).

والمعنى: وتزكّي أنفسَهم بتلك الصدقة التي ستأخذها منهم، أي: تنمّيها، وترفعها بالخيرات والبركات الخُلُقيَّة والعمليَّة حتى يكونوا بها أهلًا للسَّعادة الدُّنيويَّة والأُخرويَّة(4).

بلاغة التَّرتيب في تقديم التَّطهير على التَّزكية والصلاة في الذكر:

التَّخلية مقدَّمة على التَّحلية

"معنى التَّطهير: إذهاب ما يتعلَّق بهم من أثر الذُّنوب، ومعنى التَّزكية: المبالغةُ في التَّطهير"(5).

والتَّزكية أيضًا: جعلُ الشَّيء زكيًّا، أي: كثير الخيرات، فقوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ إشارة إلى مقام التَّخلية عن السَّيّئات، وقوله سبحانه: ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ إشارة إلى مقام التَّحلية بالفضائل والحسنات، ولا جرم أن التَّخلية مقدَّمة على التَّحلية، فالمعنى: أنَّ هذه الصَّدقة كفَّارةٌ لذنوبهم، ومُجلِبةٌ للثَّواب العظيم(6).

---

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 2/60.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والفِيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (زكو).
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/499.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/20.
(5) القنوجي، فتح البيان: 5/389.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/23.

معنى الباء في: ﴿بِهَا﴾:

للطّاعات أثرٌ في الدُّنيا بحصول البركات، وفي الآخرة بدخول الجنّات

الباء في قوله: ﴿بِهَا﴾ للسَّببيَّة، والمعنى: تنمّيهم، وتزيدهم بسبب أخذها خيرًا[1]، وقد حسُن جعلُ الباء للسَّببيَّة؛ لأنَّ نظم الآية جعل حصول التَّزكية مسبَّبًا عن قبول الصَّدقة، فهي كالنَّتيجة المترتِّبة عليه، وفيه دلالةٌ على أثر الطّاعة العاجل في الدُّنيا مِن حصول الطُّهر والبركة والرِّفعة لصاحبها، فضلًا عمّا ينتظره من الثّواب الآجل يوم القيامة.

دلالةُ العطف في: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ﴾:

يُحتَفى بالتّائب ويتألَّف، ويلان له الكلام، ولا يُعيَّر بما أسلف

قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾[2]، ومعناه: اعطف عليهم بالدُّعاء والاستغفار لهم[3].

ويُؤخذ من المعنى: أنَّه ينبغي إدخال السُّرور على المؤمن بالكلام اللَّيّن، والدُّعاء له، ونحو ذلك مما يكون فيه طمأنينة، وسكون لقلبه، وأنَّه ينبغي تنشيط من أنفق نفقةً، وعمل عملًا صالحًا بالدُّعاء له، والثَّناء عليه، ونحو ذلك[4].

وفي دعاء النبي ﷺ واستغفاره لهم دليلٌ على قبول توبتهم، وأنَّ اللّه سبحانه قد رحمهم، وغفر ذنوبهم، ورفع درجتهم، وأمرَ رسوله ﷺ بالدُّعاء لهم؛ لتطمئنَّ نفوسُهم، وتقرَّ أعينُهم برؤية الدَّليل على قَبول اللّه تعالى توبتَهم.

وفيه تعريضٌ أيضًا بباقي المنافقين الذين استكبروا عن التوبة، وأصرُّوا على معصية اللّه ﷻ ورسوله ﷺ، فكأنَّه قال لهم: قد استحققْتم أشدَّ ألوان العذاب؛ لأنَّكم عصيتم وتربَّصتم وتقاعستم،

---

(1) الصاوي، حاشية على الجلالين: 2/166.

(2) محمود صافي، الجدول: 6/27.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/96.

(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 351.

ولو أنَّكم تبتم؛ لَتِيبَ عليكم، كما تِيب على مَن تلطَّخوا بأقذاركم، فلم يلبثوا أن طهَّروا أنفسَهم منها بالتَّوبة والإنابة، فارتفعوا عن دنس أوحالِكم إلى علياء الإخلاص.

سرُّ تعدية الفعل ﴿وَصَلِّ﴾ بـ(على):

دعاءُ النَّبيِّ المختار كالغيث المدرار يحيي الموات والقِفار

عُدِّي الفعل ﴿وَصَلِّ﴾ بـ(على) لما فيه من معنى العطف، وإرادة المعنى اللُّغوي هنا - وهو الدُّعاء - هو المتبادر[1].

وهي إشارة أيضًا إلى أنَّ هذه الدَّعواتِ المباركات من النَّبيِّ ﷺ سابقةٌ لهم، فائضة بالخير عليهم، نازلة بالبركات عليهم[2].

ففي (على) معنى الاستعلاء والفوقيَّة، فقد صوَّر هذا الحرف بدلالته صورة هؤلاء التّائبين بمَن أصابه القذر والقذى والدَّنس، فأراد أن يتطهَّر من كلِّ ذلك، فوقف تحت ماء طهورٍ مبارك يَفيض عليه من أعلى، وهذا الماء الطَّهور هو دعاء أكملِ الرُّسل ﷺ لهم، واستغفاره لذنوبهم.

معنى الأمر في: ﴿وَصَلِّ﴾:

الله يرشد عباده لكلِّ خير وفلاح، ومنه مقابلةُ الإحسانِ بالشُّكر والثناء

الأمر هنا للإرشاد، حيث يرشد اللّهُ تعالى رسولَه ﷺ - والأُمَّة من بعده - إلى أنْ يدعوَ للمتصدِّقين، ويستغفرَ لهم، ومن هنا اختُلف في دلالته الشَّرعية بين الوجوب والاستحباب، وإن كان ظاهر قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ أنه يجبُ على الإمام أو نائبِه إذا أخذ الزكاة؛ أن يدعوَ للمتصدِّق بالبركة، وهذا رأيُ الظاهرية، وأمّا سائر الأئمَّة؛ فحملوا الأمرَ على النَّدب والاستحباب؛ لأنَّ النبي ﷺ قال لمعاذ - حين بعثه لليمن -: «أعلِمْهم أنَّ عليهم صدقةً تؤخذُ من أغنيائهم، وتردُّ في فقرائهم»[3]، ولم يأمره بالدعاء لهم، ولأنَّ الفقراء إذا أخذوا الزكاةَ؛ لا يلزمهم الدُّعاء للمعطي.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/15.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3435.
(3) أخرجه البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (1496) واللفظ له، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (19).

وممَّا يؤكِّد استحبابَ الدُّعاء ما رُوي عن عبد اللّه بن أبي أوفى قال: كان رسول اللّه ﷺ إذا أتاه قومٌ بصدقتهم؛ قال: «اللهمَّ صلِّ عليه»، فأتاه ابنُ أبي أوفى بصدقته، فقال: «اللهمَّ صلِّ على آل أبي أوفى»(1)، والصلاة هنا: الرحمة(2).

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ لـ: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمۡۗ﴾:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمۡۗ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئ عن سؤال عن علَّة الأمر في قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ﴾، فجاءت الإجابةُ: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمۡۗ﴾.

قلوبُ التّائبين مصدوعةٌ بالنَّدم، ولا يطبِّبها إلا دعاء سيِّد البشر

فهذه الجملة الكريمة إذًا واقعةٌ موقع التَّعليل للأمر بالصَّلاة عليهم بأنَّ دعاءه ﷺ سكنٌ لهم، أي: سببُ سكن لهم، أي: خير(3).

فائدةُ المؤكِّدات في: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمۡۗ﴾:

حسُن أنْ تؤكَّد هذه الجملة الكريمة بـ ﴿إِنَّ﴾والجملة الاسميّة؛ لأنَّها سيقت في مقام الخبر الطَّلبي الذي يوجَّه إلى مخاطَب يتردَّد في تصديقه، والمراد به هنا هو القوم المعنيُّون الذين نزلت في حقِّهم هذه الآية؛ "لأنَّهم كانوا شاعرين بِعظَم جُرْمهم، فيتوهَّمون بفرط إحساسهم وإيمانهم بأنَّ ذنبهم غيرُ مغتفَر"(4)، فجاء التَّوكيدُ ليزيل ما في نفوسهم مِن التَّردُّد، وليؤكِّد أنَّ سَكَنَ نفوسهم، وطمأنينة قلوبهم متعلِّقان بدعاء النَّبيِّ ﷺ لهم، فسوف يذهب همُّهُم وكربُهم بدعاء النَّبيِّ ﷺ لهم، "ويثقون بأنَّه سبحانه قبل توبتهم"(5).

سكنُ القلوب وزوال الكروب وذهاب الهموم متعلِّقة بدعاء النَّبيِّ المعصوم

نكتةُ إضافةِ الصلاة إلى الضمير العائد إليه ﷺ:

أُضيف إلى الصَّلاة - التي هي بمعنى: الدُّعاء - الضَّميرُ العائد

الإضافةُ إلى العظيم تفيد التَّشريفَ والتَّعظيم

(1) أخرجه البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (6332)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (1078).

(2) الزحيلي، التفسير المنير: 11/34.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/23.

(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3435.

(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/99.

إلى النَّبيِّ ﷺ؛ للدِّلالة على أنَّ دعاء النَّبيِّ ﷺ لهم هو ﴿سَكَنٌ لَّهُمْۗ﴾، أي: تطمئنُّ بها قلوبهم بعد قلق الخوف من عاقبة الذَّنب؛ لِما يعلمون من أنَّ القَبول لا يكون إلا ممَّن حصل له الرِّضا عنهم، ومِن أنَّ الله ﷻ سمع قول نبيِّه ﷺ، ودعاءه لهم سماعَ إجابة، ويعلم صدقه في صلاحهم[1].

وفي تخصيص الضَّمير نكتةٌ بلاغية ومعنويَّة عند الإمام الرّازيِّ، ذلك أنَّ رُوح النَّبيِّ ﷺ كانت رُوحًا قويَّة مشرقة صافية باهرة، فإذا دعا النَّبيُّ ﷺ لهم، وذكَرَهم بالخير؛ فاضت آثارٌ من قوَّته الرُّوحانيَّة على أرواحهم، فأشرقت بهذا السَّبب أرواحُهم، وصَفَت أسرارهم، وانتقلوا من الظُّلمة إلى النُّور، ومن الجسمانيَّة إلى الرُّوحانيَّة[2]، فكانت معاشرتُه ﷺ إيَّاهم بهمَّته معهم أثمنَ لهم من استقلالهم بأموالهم[3]، ويضاف إلى ما سبق ما تفيده الإضافة من تعظيم المضاف إليه[4].

لدعاء خير البريّة خصوصيّةٌ في إصلاح قلوب الرَّعيَّة

بلاغةُ القراءات القرآنيَّةِ المتواترة في إفرادِ الصَّلاة وجمْعِها:

قرأ حمزةُ والكسائي وخلف وحفصٌ بالإفراد وفتحِ التاء: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾، وقرأ الباقون بالجمع وكسرِ التاء: (إِنَّ صَلَوَاتِكَ)[5]، فقراءة الإفراد روعي فيها الجنسُ، أي: جنسُ صلاة النَّبيِّ ﷺ، وقراءة الجمع روعي فيها تعدُّدُ المدعوِّ لهم[6].

وعلى ذلك فالقراءتان سواء؛ لأنَّ المقصود منهما جنسُ صلاته ﷺ، فمَن قرأ بالجمع؛ أفاد جميعَ أفراد الجنس بالمطابقة؛ لأنَّ الجمع المعرَّف بالإضافة يعمُّ، ومَن قرأ بالإفراد؛ فُهِمت أفراد الجنس بالالتزام[7].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/12.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/139.
(3) القشيري، لطائف الإشارات: 2/60.
(4) حسن، بلاغة اللغة: 1/449.
(5) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/281.
(6) القاسمي، محاسن التأويل: 5/493.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/24.

نكتةُ تنكير: ﴿سَكَنٌ﴾:

التَّنكير في سياق الإطـراء إجـلالٌ وثناء

جاءت كلمة ﴿سَكَنٌ﴾ في الآية نكرةً لإفادة نكتة التَّعظيم، أي: سكنٌ عظيمٌ جليل؛ إذ مِن دواعي التَّنكير: إرادةُ التَّعظيم إذا دلَّت عليه قرائن السِّياق(1)، وممَّا دلَّ على إرادة التَّعظيم هاهنا هو قرينة مدح دعاء النَّبيِّ ﷺ واستغفاره للتَّائبين، وما يُفيضُه من طمأنينة وراحة للمُثقَلة كواهلُهم والآنَّةِ أرواحُهم من وطأة الذُّنوب.

كما أكَّد هذا التَّعظيم بأنْ جعل السَّكن مصدرًا مخبرًا به عن صلاة النَّبيِّ ﷺ، وهي دعاؤه واستغفاره للتّائبين، أي: إنَّ هذه الصَّلاة، هي السَّكَنُ نفسُه(2).

فائدةُ المجازِ في إطلاق السَّكن على الدُّعاء:

دعـاء الـنَّـبـيِّ راحة وطمأنينة لـلـمـثـقـلـة كـواهـلـهـم مِـنَ الذُّنوب

أُطلق السَّكن على الدُّعاء من باب المجاز؛ إذ إنَّ السَّكَن: ما يُسكَن إليه، أي: يُطمَأَنُّ إليه، ويُرتاح به، وهو مشتقٌّ من السُّكون بالمعنى المجازيِّ، وهو سكون النَّفْس، أي: سلامتها من الخوف ونحوه؛ لأنَّ الخوف يوجب كثرةَ الحذر واضطراب الرَّأي، فتكون النَّفْس كأنَّها غير مستقرَّة؛ ولذلك سُمِّي ذلك قلقًا؛ لأنَّ القلق كثرة التَّحرُّك، وأيضًا فإنَّ دعاءه ﷺ لهم يزيد نفوسهم صلاحًا وسكونًا إلى الصَّالحات؛ لأنَّ المعصية تردُّدٌ واضطراب، كما قال تعالى: ﴿فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: 45]، والطَّاعة اطمئنانٌ ويقين، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28].

فالحاصل أنَّ دعاءَ النَّبيِّ ﷺ ﴿سَكَنٌ لَّهُمۡۗ﴾، أي: سببُ سكونهم، أي: خير تامٌّ لهم، فإطلاق السَّكن على هذا الدعاء مجاز مرسلٌ علاقته السَّببيَّة والمسبَّبيَّة.

(1) حسن، بلاغة اللغة: 1/405.

(2) حسن إسماعيل، البلاغة الصافية، ص: 145.

دعاء النَّبيِّ دوحةٌ يستظلُّ بها المستجيرون من رمضاء الخطايا

براعةُ التشبيه البليغ في: ﴿صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْۗ﴾ تشبيهٌ بليغ، وأصله: (صلاتك كالسَّكَن)، فحُذفت أداةُ التَّشبيه ووجهُ الشَّبه، فصار بليغًا[1].

وسرُّ جماله هنا أنَّه جعل الصَّلاة نفسَ السَّكنِ والاطمئنانِ مبالغةً؛ ذلك أنَّ ذكر الطَّرفين فقط يوهم اتِّحادَهما، وعدمَ تفاضلهما، فيعلو المشبَّه إلى مستوى المشبَّه به، وهذه هي المبالغة في قوَّة هذا التَّشبيه[2].

وقد أفاد تشبيه الصَّلاة بالسَّكن مدحَ الصَّلاة وتحسين حالها؛ ترغيبًا فيها، وتعظيمًا لها، وذلك بتصويرها بصورةٍ تهيِّج في النَّفس قوى الاستحسان، عن طريق ذكرِ المشبَّه به المعجَبِ (السَّكَن)، الذي قد استقرَّ في النَّفس حسنُه وحبُّه، فصُوِّر المشبَّهُ بصورته[3].

معنى اللّام في: ﴿لَّهُمْۗ﴾:

السَّكنُ كالدَّواء يقدَّر على قدر الدَّاء بلا كثرة قاتلة ولا قلَّة مؤلِمةٍ

اللام في قوله تعالى: ﴿لَّهُمْۗ﴾ للاختصاص، أي: سَكَنٌ مختصٌّ بهم، وفائدةُ هذا الاختصاص أنَّه جعلَ دعاء النَّبيِّ ﷺ يحقِّق لكلِّ منيبٍ تائبٍ باذلٍ صدقتَه سكنًا خاصًّا به، فإنَّ ما يقلق النَّفس البشريَّة - وإنْ أمكن حصرُه - فإنَّ درجته ويزيدها تعقيدا يختلف من إنسان إلى آخر، فمن ثمَّ لم يكن السَّكنُ على درجة واحدة للجميع، بل كان بحسب حالة كلِّ إنسان بمفردهِ؛ إذ هذا السَّكن كالدَّواء: ينبغي أن يكون على قدرِ الدَّاء فلا يزيد، ولا يقلَّ.

معنى الواو ودلالاتها في: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

ما أرحمَ الله بعباده! يعلمُ السَّريرة، ويغفر الجريرة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ استئنافيةٌ، والجملة بعدها مبتدأ وخبران[4].

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 12/45.

(2) الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 238.

(3) الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 239.

(4) بهجت صالح، الإعراب المفصَّل: 4/379.

ويمكن أن تكون الواو حاليَّةً على معنى: إنَّ صلاتك سكنٌ لهم، والحالُ أنَّ الله سميعٌ عليمٌ، يسمع صلاتَك، ويعلم حالَهم.

سرُّ التَّعبير بالألوهيَّة دون الربوبيَّة:

أوثر التَّعبيرُ بالألوهيَّة دون الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لوجوه:

اللهُ هو الغنيُّ، لا تنفعه طاعةٌ، ولا تضرُّه معصيةٌ، فهو الإله الحقُّ

أوَّلها: ما في الألوهيَّة من معاني العلوِّ والغِنى والقَهر والكمال، وهذه الدِّلالات تقتضي وجوبَ إخلاص العبادة والعمل والدُّعاء للمتَّصف بها، وهو الله سبحانه وحده، أمَّا الرُّبوبيَّة؛ فمعانيها دائرة حول الخلق والرِّزق والملك والتَّدبير والرِّعاية، فالألوهيَّة مقامُ العمل وإخلاص العبادة، والرُّبوبيَّة مقام الاعتقاد والعلم.

الثَّاني: أنَّه لَمَّا قال في أوَّل الآية: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ أراد أن يزيل التَّوهُّم الذي قد ينشأ عند المنافقين والكُفَّار من أنَّ الله تعالى - حاشاه - يسألهم أموالَهم، فلذلك عُبِّر باسم الجلالة ﴿وَٱللَّهُ﴾، أي: المألوه، وهو المعبود بحقٍّ، الغنيُّ عن الخلق.

الثَّالث: أنَّ الأمر الموجَّه إلى النَّبيِّ ﷺ بالصَّلاة عليهم إنَّما قُصِد به القومُ؛ إذ هم المنتفعون بصلاته ﷺ، ثمَّ هو عامٌّ بعد ذلك لكلِّ أئمَّة المسلمين؛ فلذلك ناسب التَّعبير بالألوهيَّة، أي: إنَّ إلهكم الذي تتوجَّهون إليه بالتَّوبة والدُّعاء والرَّجاء، وتقصدون وجهه بصدقاتكم، وتطمعون في ثوابه بنفقاتكم إلهٌ سميع: وسع سمْعُه الأصوات، عليم قد أحاط بكلِّ شيء علمًا.

الرَّابع: أنَّ التَّعبير باسم الجلالة الدَّالِّ على الألوهيَّة جيء به في هذا السِّياق ليكون التَّذييل مستقلًّا بنفسه؛ لأنَّه ممَّا يجري مجرى المثل.

بلاغةُ التَّذييل بهذيْن الاسمَيْن الجليلَيْن:

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ تذييلٌ مناسب للأمر بالدُّعاء لهم، والمراد بالسَّميع هنا المجيبُ للدُّعاء[1]، ففيه إشعارٌ بقبول الدُّعاء وقبول الطّاعات والجزاء عليها[2]، والجملة حينئذٍ تذييلٌ للتَّعليل مقرِّرٌ لمضمونه[3].

الله يعلم حاجة كلِّ سائل وإن لم يسعفه منطقُه في التكلُّم بها

فالحاصل أنَّ اللّه ﷻ لمّا كان سميعًا للنِّداء، مجيبًا للدُّعاء، عليمًا بالسَّرائر، خبيرًا بما في الضَّمائر؛ حسُن أن يأمر عباده بدعائه واستغفاره والمبادرة بالتَّوبة إليه، فلا واسطة بينهم وبينه سبحانه وبحمده، وزاد هذا الإرشادَ بهاءً وجمالًا خَتْمُ الآية باسمين كريمين له تعالى يتناسبان مع مضمون المعنى.

نكتةُ تقديم ﴿سَمِيعٌ﴾ على ﴿عَلِيمٌ﴾:

الله ﷻ يسمع المناجاة، ويجيب دعاء عبادِهِ إيّاه وهو بهم أعلم

قُدِّم الاسم الجليل ﴿سَمِيعٌ﴾؛ للإشارة إلى قبول دعاء النَّبيِّ ﷺ، ففيه إيماءٌ إلى التَّنويه بدعائه، ثُمَّ ذكر (العليم) إيماءً إلى أنَّه ما أمره بالدُّعاء لهم إلّا لأنَّ في دعائه ﷺ لهم خيرًا عظيمًا وصلاحًا في الأمور[4].

فالحاصلُ أنَّه لمّا تقدَّم الأمر بالدُّعاء؛ ناسب أنْ يعقبه ما يدلُّ على أنَّ هذا الدُّعاء مسموع ومجاب، فلذلك قُدِّم قوله تعالى: ﴿سَمِيعٌ﴾ على ﴿عَلِيمٌ﴾.

لطيفةُ تنكير الاسمَيْن الجليلَيْن:

وسع سمعُ الله كلَّ الأصوات، وأحاط علمًا بكلِّ الموجودات

جاء هذان الاسمان الجليلان نكرتين لغرض إفادة التَّعظيم من خلال التَّعميم بالتَّنكير؛ لأنَّ النَّكرة قد وردت في سياق المدحِ والثَّناء، والمعنى: أنَّه سبحانه سميعٌ لكلِّ صوت، فقد وسع سمعه

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/23.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/21.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/99، والآلوسي، روح المعاني: 6/15.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/23.

سبحانه الأصوات، ويستوي عنده ﷻ همسُها وخفيضُها وجهوريُّها، وهو ﷻ عليم بكلِّ شيء، فقد أحاط ﷻ بكلِّ شيء علمًا، فلم تغب عنه غائبةٌ، ولم تخفَ عليه خافية، ولم يعزب عنه من شيء في الأرض ولا في السَّماء.

وممَّا يدلُّ على أنَّ غرض التَّنكير هنا هو التَّعميم ورودُ الاسمين الجليلين بصيغةِ المبالغة العاملة عمل فعلها، فهي بمنزلة فعلِها الذي حُذف معمولُه توسُّعًا لإرادة التعميم، أي: يسمع كلَّ شيء، ويعلم كلَّ شيء، وهذه قرينة لفظيَّة، أمَّا القرينة الفكريَّة؛ فقد دلَّت على التَّعميم من حيث إنَّ صفاتِ اللّه ﷻ صفاتُ عموم وشمول تامٍّ فيما هي له، وقد دلَّ على ذلك نصوصُ الشَّرعِ والعقلُ[1].

غرضُ صيغ المبالغة فيهما:

الله سميع لكلِّ ما يُعَدُّ قولًا، عليم بكلِّ ما يُعدُّ فعلًا

عُبِّر عن سمع اللّه سبحانه وعن علمه بصيغة المبالغة على وزن (فَعِيل)؛ للدَّلالة على قوَّة هاتين الصِّفتين، وتعلُّقهما بكلِّ مسموع ومعلوم، فهو سبحانه سميع لكلِّ ما يُعَدُّ قولًا، عليم بكلِّ ما يُعَدُّ فعلًا[2].

نكتةُ فصل الآية ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ﴾ عن سابقتها:

الله العظيم يحضُّ عباده على التَّوبة ويبشِّرهم بقبولها وهو الغنيُّ عنهم

الفصل هنا لكمال الانقطاع للتَّغاير بين الجملة الخبريَّة والإنشائيَّة؛ إذ لا يجوز عطفُ الجملة الإنشائيَّة على الخبريَّة والعكس إلّا إذا آلت إحداهُما إلى معنى الأخرى، فالجملة هنا إنشائيَّةٌ؛ لأنَّها جاءت استفهامًا إنكاريًّا.

ويمكن أن تكون جملة: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾ مستأنَفَةً استئنافًا ابتدائيًّا على طريقة الاستطراد لترغيب أمثال أولئك في التَّوبة ممَّن تأخَّروا عنها، وكان ضمير ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾ عائدًا إلى ما هو معلوم مِن مقام

(1) حسن، بلاغة اللغة: 1/409.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 9/5474.

التَّنزيل، وهو الكلام على أحوال الأُمَّة، وكان الاستفهام إنكاريًّا، ونُزِّل جميعُهم منزلةَ مَن لا يعلم قبول التَّوبة؛ لأنَّ حالهم حالُ من لا يعلم ذلك، سواءٌ في ذلك مَن يعلم قبولَها أم من لا يعلم حقيقةً، وكان الكلام أيضًا مسوقًا للتَّحضيض[1].

بلاغةُ الاستفهام ودلالته في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾:

مِن شأن الإقرار طمأنةُ القلب المضطرب المحتار، وحملُ المنكِرِ وأدَ الإنكار

الهَمْزةُ في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾ للاستفهام الإنكاري الذي هو بمعنى النَّفي، و(لم) أيضًا للنَّفي، ونفي النَّفي إثباتٌ، فيكون المعنى: تأكيدُ علمهم بأنَّ الله تعالى يقبل التَّوبة عن عباده، فالتَّقريرُ هنا لتطمئنَّ نفس التّائب، فهو تقرير لقبول التَّوبة، واطمئنان العاصي إلى أنَّ التَّوبة جَلَت ذنبَه[2].

فالمقصود من هذا الاستفهامِ هو تقرير المعنى في النَّفس، وإزالة الشَّكِّ عن المخاطَبين من التّائبين الذين بشَّرهم اللّٰه تعالى بقبول توبتهم وصدقاتهم[3]، فكأنَّه قال: اعلموا أنَّ اللّٰه هو يقبل التَّوبةَ عن عباده[4]. وهذا تأكيدٌ لقبول اللّٰه سبحانه التَّوبةَ حتى لا يُسرفَ العصاةُ - ولو كانوا منافقين - على أنفسهم، أو يظنُّوا أنَّه لا رجعة إلى اللّٰه وإلى الحق، فإنَّ اليأس يولِّد النَّفرة، والنَّفرة تولِّد الكفر، والرَّجاء في اللّٰه يكون معه الرُّجوع إليه، والرُّجوع إليه يكون معه الإيمان[5].

وقد جُوِّزَ عودُ الضَّمير لغيرهم من المنافقين، فالاستفهام على هذا توبيخٌ وتقريعٌ لهم على عدم التَّوبة، وترغيبٌ فيها، وإزالةٌ لما يظنُّون من عدم قبولها[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/24.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3436.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/139.
(4) السمعاني، تفسير القرآن: 2/346.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3436.
(6) القاسمي، محاسن التأويل: 5/496.

نكتةُ التَّعبير بالعِلم مادَّةً وصيغةً وبيان مفعوليها:

تدور معاني العلم حول الأثر الذي يكون في شيءٍ ما، يميِّزه مِن غيره، فيكون هذا الأثر دليلًا عليه، وهاديًا إليه، فيترتَّب على ذلك إدراكٌ يقع في النَّفس ومعرفة[1].

لآيات الله المتلوَّة والمرئيَّة أبلغُ الأثر في معرفة عظيم صفاته وجليل أسمائه

ومن هنا تظهر نكتةُ التَّعبير بالعلم دون غيره في سياق التَّقريرِ لقضيَّة قَبول اللّه تعالى توبةَ عباده وصدقاتهم إذا أنفقوها من كسب حلال طيِّبةً بها نفوسُهم، وسياقِ الإنكارِ على مَن تأخَّرت توبتهم، وكأنَّهم في شكٍّ مِن قبول اللّه إيّاها.

فلمّا كان في العلم معنى الأثر الحاصل بالقرائن الدّالَّة على ألوهيَّة اللّه وربوبيَّته وكمال رحمته وعظمته: من إنزال القرآن، وتشريع الأحكام، وإمهال أصحابِ المعاصي والآثام، ومن خلق السَّماوات الأرض، وتدبير الأمر، وبسط الرِّزق... إلخ لَمّا كان ذلك كذلك؛ حسُنَ استنكارُ عدم حدوث الأثر بكلِّ هذه المؤثِّرات التي من شأنها ملءُ القلب يقينًا بأنَّ اللّه هو التوّاب الرَّحيم.

فكأنَّه قيل: كيف لهم ألّا تغرس كلُّ هذه القرائنِ أثرًا في نفوسهم يثمر اليقين برحمة ربِّ العالمين؟

وممّا زاد هذا التَّعبيرَ جمالًا فوق جماله إيثارُ التَّعبير بالمضارع الذي يفيد معنى تجدُّد الحدوث واستمراريَّته، فهي إشارة إذًا لتكرُّر عدم تأثُّرهم بآيات اللّه المتلوَّة والمرئيَّة السَّابغة عليهم، والمحيطة بهم، وقد ترتَّب على عدم تأثُّرهم هذا جهلُهم بصفات اللّه التَّواب الرَّحيم.

وفي هذا إشارة ضمنيَّةٌ لتجدُّد دواعي التَّأثير من نزول القرآن مرَّةً بعد مرَّة، وتعاقبِ المَلَوان كرَّةً بعد كرَّةٍ، ونزولِ الغيث كثرةً ووفرة، ومع هذا التَّكرار للآيات التي مِن شأنها أن تذيب القلبَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والفِيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (علم).

خضوعًا لعظمة ربِّ العالمين، وحبًّا لله أرحم الرّاحمين - مع ذلك كلِّه لم تتأثّر قلوبهم، فلم يتوبوا، أو تابوا، ولكنَّهم شكّوا، أو استبعدوا قبول الله تعالى توبتهم، فلذلك أُنكر عليهم بـ ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ﴾ مصدرٌ مؤوَّلٌ في محل نصبٍ سدَّ مسدَّ مفعولَي ﴿يَعۡلَمُوٓاْ﴾، والمصدر المؤوَّل الثاني: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ في محل نصب معطوفٌ على المصدر المؤوَّل الأوَّل، ومؤكِّدٌ لمعناه[1].

سرُّ العدول عن المصدر الصَّريح إلى المصدر المؤوَّل:

من كمال رحمة الله إمهالُ المذنبين والعصاة كي يعودوا إلى طريق النَّجاة

في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ﴾ عدولٌ عن المصدر الصَّريح (قبول) إلى المصدر المؤوَّل المؤلَّف من ﴿أَنَّ﴾، واسمها الاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾، وخبرها الفعليِّ ﴿يَقۡبَلُ﴾ بصيغة المضارع مسبوقًا بالضَّمير المؤكِّد ﴿هُوَ﴾.

وفي هذا العدول ما لا يخفى من تأكيد المعنى في النَّفس المصفَّدة بإسارِ الإثم؛ لِما في الجملة الاسميَّة المُصدَّرة بحرف التَّوكيد ﴿أَنَّ﴾ والمخبَر عن اسمها بالخبر الفعليِّ من تتابع المؤكِّدات، وهذا كلُّه سيفوتُ لو عُبِّر بالمصدر الصَّريح.

فضلًا عن أنَّ العدولَ عن المصدر الصَّريح إلى المصدر المؤوَّل هو عدولٌ عن الاختصار والإيجاز إلى التَّطويل والإطناب، ولهذا نكتةٌ لطيفة، وهي أنَّ هذا التَّطويلَ يناسبُ إمهال الله تعالى المذنبين والعصاةَ حتى يتوبوا، فيَمُنَّ عليهم بقبول توبتهم، ولم يشأ أن يعاجلَهم بالعقوبة، فكأنَّ بسط الجملة السّامية جاء مناسبًا لبسط زرابيِّ الإنابة لمن دخل أبواب التَّوبة الطّاهرة، فحقٌّ على المزور أن يكرم زائرَه.

(1) صافي، الجدول: 6/28.

بلاغةُ تتابع المؤكِّدات في: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ﴾:

أُكِّد قولُه تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ﴾ بعدد من المؤكِّدات، وهي: الجملة الاسميَّة الدَّالة على الثُّبوت، ووقوعها في حيِّز النَّصب حيث سدَّت مسدَّ مفعولي الفعل ﴿يَعۡلَمُوٓاْ﴾ وهو من الأفعال الدّالَّة على اليقين، واليقين هو الغرض مِن التَّأكيد.

وسعت رحمةُ الله كلَّ شيء، وعمَّت مغفرته كلَّ ذنب، فأنَّى يقنَطُ القانطُ

وحرف النَّصب والتَّوكيد ﴿أَنَّ﴾، والضَّمير المؤكِّد ﴿هُوَ﴾، ومجيء المسند إليه بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ في سياق المدح والتَّعظيم، فكلُّ ما يُسنَد إليه من صفات الكمال حقيقةٌ لا شكَّ فيها.

وتقديم هذا المسند إليه (لفظ الجلالة) ﴿ٱللَّهَ﴾ على المسند الفعلي ﴿يَقۡبَلُ﴾ المتضمِّن ضميرًا يعود على المسند إليه، فتكرار الإسناد توكيدٌ، والتَّعبير بالمضارع ﴿يَقۡبَلُ﴾ الدَّال على تأكيد الفعل عن طريق الدِّلالة على تكرُّره.

وحسُن توالي هذه المؤكِّدات لأسبابٍ:

الأوَّل: غرسُ اليقين في نفوس العباد جميعًا بأنَّ ربَّهم العظيم توّابٌ ورحيم، يقبل التَّوبة، ويأخذُ الصَّدقات الخالصة له سبحانه؛ وذلك كي لا ييأس أحد - كائنًا مَن كان - من رَوح اللّه ورحمته، ولا يتقاعسَ عن التَّوبة مَن يستعظم ذنبَه، ويرى أنَّ رحمة اللّه لا تسعه؛ فإنَّ رحمة اللّه سبحانه قد وسعت كلَّ شيء، ومغفرته تعالى قد عمَّت الذُّنوب جميعًا.

الثَّاني: توجيهُ الخطاب للمتشكِّكين أو المنكرين قبولَ اللّهِ تعالى توبةَ التّائبين وصدقاتهم، حيث يحسُن تأكيد الكلام - والحالة هذه - بأكثر من مؤكِّد.

الثَّالث: أنَّ هذا الخطاب قد يشمل المؤمنين مع غيرهم من المتشكِّكين والمنكرين، وعليه يكون قد "نُزِّل جميعُهم منزلة مَن لا

يعلم قبول التَّوبة؛ لأنَّ حالهم حالُ من لا يعلم ذلك، سواءٌ في ذلك مَن يعلم قبولها، ومَن لا يعلم حقيقةً"[1]، وفائدة هذا التَّنزيل تحضيضُ الجميع على التَّوبة والإنابة.

سرُّ التَّعبير بلفظ الجلالة في: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ﴾:

اللهُ غنيٌّ عن طاعة عباده، وهم لن يبلغوا نفعه سبحانه، فهُم الفقراء إليه

سمَّى الله تعالى نفسه العليَّة هاهنا باسم الله، ثمَّ قال عَقيبه: ﴿هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ﴾، وفيه تنبيهٌ على أنَّ كونه سبحانه إلهًا يدلُّ عليه قبول التَّوبة، وذلك لأنَّ الإلهَ هو الذي يمتنع تطرُّق الزِّيادة والنُّقصان إليه، ويمتنع أنْ يزداد حاله بطاعة المطيعين، وأنْ ينتقص حالُه بمعصية المذنبين، ويمتنع أيضًا أنْ يكون له شهوةٌ إلى الطَّاعة، ونفرة عن المعصية، حتى يقال: إنَّ نفرته وغضبه يحمله على الانتقام، بل المقصود من النَّهي عن المعصية والتَّرغيب في الطّاعة، هو أنَّ كلَّ ما دعا القلبَ إلى عالم الآخرة ومنازل السُّعداء، ونهاه عن الاشتغال بالجسمانيَّات الباطلة، فهو العبادة والعمل الحقُّ والطَّريق الصّالح، وكلُّ ما كان بالضِّدِّ منه؛ فهو المعصية والعمل الباطل، فالمذنب لا يضرُّ إلّا نفسه، والمطيع لا ينفع إلّا نفسه. كما قال تعالى: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ [الإسراء: 7]، فإنْ كان الإله رحيمًا حكيمًا كريمًا، ولم يكن غضبُه على المذنب لأجل أنَّه تضرَّر بمعصيته، فإذا انتقل العبدُ من المعصية إلى الطَّاعة؛ كان كرمه سبحانه سببًا لقبول توبة التّائب إليه، فثبت أنَّ الإلهيَّة لمّا كانت عبارة عن الاستغناء المطلق، وكان الاستغناء المطلق ممتنعَ الحصول لغيره؛ كان قبول التَّوبة من الآخرين كالممتنع إلّا لسبب آخر منفصل، أو لمعارض، أو لمباين[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/24.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/140.

فائدةُ القصر بضمير الفصل ﴿هُوَ﴾:

جيء بضمير الفصل لإفادة التَّخصيص والتَّأكيد، وللدِّلالة على أنَّ اللّه تعالى من شأنه قبول توبة التّائبين.

مِن شأن الإله قَبول التَّوبة؛ إذا مُحضت، ولا يشاركه في قَبولها أحدٌ

أمَّا التَّخصيص؛ فيفيد انفرادَ اللّه ﷻ بهذه الأمور: قبول التَّوبة وقبول الصَّدقة، والإثابة عليها، وتحقيق ذلك أنَّه لو قال: إنَّ اللّه يقبل التَّوبة؛ لاحتمل أن يكون قبول رسولِه ﷺ قبولًا منه، فبيَّنت الآية أنَّ ذلك ممّا لا يصل إليه نبيٌّ ولا ملَك، فليس ذلك راجعًا إلى رسول اللّه ﷺ، إنَّما اللّه سبحانه هو الذي يقبل التَّوبة، ويردُّها، فاقصدوه بها، ووجِّهوها إليه(1).

وأمّا التَّأكيد؛ فلأنَّ الضَّمير المنفصل ﴿هُوَ﴾ يفيد الفصل والتَّأكيد، ثمَّ في قوله تعالى: ﴿يَقۡبَلُ﴾ ضمير يرجع إلى المسند إليه، فيزيد الحكمَ به تأكيدًا(2).

وفائدة هذه المؤكِّدات إزالةُ الشَّكِّ الذي قد يتسرَّب إلى نفوس العاصين، فيُقعدهم عن التَّوبَة، ويقنِّطهم من الرَّحمة.

نكتةُ التَّعبير بالمضارع في: ﴿يَقۡبَلُ﴾:

لم يزل التَّوّاب يقبل توبة عباده، وإن تكرَّرت ذنوبُهم، فإنَّ الله تعالى لا يَمَلُّ

عُبِّر بالفعل المضارع ﴿يَقۡبَلُ﴾ للدِّلالة على تكرُّر توبةِ اللّه تعالى على عباده بتكرُّر توبتهم إليه سبحانه، فمهما تجدَّد وقوع الذَّنب من صاحبه؛ فإنَّ توبةَ اللّه عليه تتكرَّر متى تاب المذنبُ، وأناب إلى ربِّه التوّاب، وهذا ضربٌ من ضروب التَّوكيد دلَّ عليه وقوعُ الفعل بكثرة واستمرار.

معنى (أل) في: ﴿ٱلتَّوۡبَةَ﴾:

لا يقبل اللهُ مِن التَّوبة إلّا ما كان صحيحًا خالصًا

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلتَّوۡبَةَ﴾ للعهد الذِّهني، أي: التَّوبة التي يعلمها المخاطَبون بقرائن التَّنزيل، فهي إذًا التَّوبة "الصَّحيحة الخالصة"(3).

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/308، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/250.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 7/353.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/100.

فكأنَّه قيل: إنَّ اللّه تعالى يقبل التَّوبة التي أعلمكم قبل ذلك شرائطَها وأركانها، فمتى استوفت هذه الشَّرائطَ والأركان؛ فهي مقبولةٌ بفضله وكرمه سبحانه.

ولا يجوز تفسير (أل) بالجنس، أي: قبول جنس التَّوبة؛ لأنَّ من التَّوبة ما لا يكون خالصًا، ومنها ما لم يستوفِ أركانه وشروطه، ومنها ما كان تقيَّةً، وإن سُمِّي الجميع: توبةً.

بلاغةُ تضمين ﴿يَقۡبَلُ﴾ الفعل (يتجاوز) وتعديتها بـ ﴿عَنۡ﴾:

التَّـوبة قُـربان العائدين إلى ربِّ العـالمين، يقبل قليلَهُ، ويتجاوز عن قصوره

في قوله تعالى: ﴿يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ ضُمِّن الفعل ﴿يَقۡبَلُ﴾ معنى (يتجاوز)، و(يعفو) بدليل تعديته بـ ﴿عَنۡ﴾، أي: يقبل ذلك متجاوزًا عن ذنوبهم التي تابوا عنها[1]، فيقبل اللّهُ بفضله وكرمه التوبة متجاوزًا عن سيِّئات عبادِه، شأن القادر العليم الحكيم الذي هو فوق عباده، وفوق الوجود كلِّه[2].

وبلاغةُ هذا التَّضمين تظهر في كون الفعل المضمَّن معنى فعلٍ آخرَ يؤدِّي المعنيَيْن في وقت واحد، أحدهما أصالةً، والآخر تضمينًا، فيكون أبلغَ في تأدية المعنى المراد؛ لأنَّ الفعلَ ﴿يَقۡبَلُ﴾ قد ضُمِّن معنى (يعفو ويتجاوز) عند تعديته بـ ﴿عَنۡ﴾، ولم يكن فيه ذلك المعنى من ذي قبلُ، فقد أخذ - بهذا التَّضمين - معنى جديدًا مع بقاء المعنى الأصليِّ للفعل، فهو قد جمع بين معنيين معنًى أصليٍّ، ومعنًى تضمنيٍّ[3].

ويضاف إلى ذلك أنَّ هذا التَّضمين قد صوَّر التَّوبة بصورة قُربانٍ يُقدَّم للّه تعالى؛ ليُنال به رضاه سبحانه، وهو تعالى الغنيُّ المتعالي، ففيه دلالةٌ على سَعة كرم اللّه تعالى وعفوه وصفحه، وقد زاد من

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/15، والقاسمي، محاسن التأويل: 5/496.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3437.
(3) البعيمي، المنصوب على نزع الخافض في القرآن الكريم: 1/288.

حسن ذلك عَطفُ أخذِ الصَّدقات عليها: ﴿يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ﴾ ﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، ففيه إلماحٌ لمشاكلة المعنى.

سرُّ تعدية ﴿يَقۡبَلُ﴾ بـ ﴿عَنۡ﴾:

اللّه يتجاوز عن المذنبين، وإليه يصعد الكلم الطَّيِّب

إنَّ كلمة (عن) وكلمة (من) متقاربتان، إلَّا أنَّ كلمة (عن) تفيد البعد، فإذا قيل: جلس فلان عن يمين الأمير؛ أفاد أنَّه جلس في ذلك الجانب لكن مع ضربٍ من البُعد، فقول اللّه تعالى: ﴿يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ يفيدُ أنَّ التّائب يجب أن يعتقد في نفسه أنَّه صار مبعَدًا عن قبول اللّه تعالى له بسبب ذلك الذَّنب، ويحصل له انكسار العَبد الذي طرده مولاه، وبعَّده عن حضرة نفسه، فلفظة ﴿عَنۡ﴾ في السّياق الكريم كالتَّنبيه على أنَّه لا بدَّ من حصول هذا المعنى للتّائب[1].

ويضاف إلى ذلك أنَّ (عن) حرفٌ موضوع للمجاوزة، فإن قلت: أخذتُ العلم عن زيد، فمعناه: أنَّه جاوز إليك، وإذا قلت: مِن زيد؛ دلَّ على ابتداء الغاية، وأنَّه ابتداءُ أخذِك إيّاه من زيد، و(عن) أبلغ لظهور الانتقال معه، ولا يظهر مع (مِن)، وكأنَّهم لمّا جاوزت توبتُهم عنهم إلى اللّه، اتَّصف هو تعالى بالتَّوبة عليهم[2].

فالحاصل أنَّ معنى التوبة يقتضي أنَّ ذنبًا قد حدث، واستوجبَ المذنبُ العقوبة، فإذا قبِل اللّه التَّوبة؛ فقد تجاوز اللّه ﷻ عن العقوبة؛ ولذلك جيء بـ ﴿عَنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾، أي: متجاوزًا عن العقوبة بقبول التوبة[3]، فـ ﴿عَنۡ﴾ في هذا الموضع أبلغُ؛ لأنَّ فيه تبشيرًا بقبول التَّوبة مع تسهيل سبيلها[4].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/140.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/501.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 9/5479.
(4) الخازن، لباب التأويل: 2/404.

الإضافةُ إلى الله العظيم لا يعادلها فضلٌ ولا شرف ولا تكريم

فائدةُ الإضافة في: ﴿عِبَادِهِۦ﴾:

أُضيف العبادُ إلى الضَّمير العائد على لفظ الجلالة؛ لإفادة التَّشريف والتَّكريم، فلمّا كان السِّياقُ سياقَ تأكيد لقضيَّة قبول الله تعالى توبة التّائبين، وتعريضٍ بغيرهم ممَّن ضنُّوا على إنجاء أنفسِهم بالتَّوبة من المهلكات؛ كانت الإضافةُ البليغةُ الكريمة مؤدِّية لهذين المعنيين، فأمَّا للتّائبين؛ فلتبشيرهم بقبول التَّوبة، وإعلامهم بانتقالهم من معسكر الظّالمين إلى دوحة عبادِ الله المخلَصين، فهُم عباده ﷻ، فما أعظمَه من شرف؛ إذ انتسبوا إلى الجليل العليِّ سبحانه!

وأمّا لغيرهم؛ فلتحذيرهم من مغبَّة ابتعادهم عن مظلَّة العبوديَّة وارفةِ الأفياء، مشرقةِ الأضواء، ولتخويفهم عقوبةَ البخل والإسراف في المعاصي والأقذار، والعَبِّ من الخطايا والأوزار، ولتحبيب التَّوبة إليهم؛ لينالوا بها شرفَ الانتساب إلى ربِّ العالمين.

أعلى منازل البريَّة دوام إخلاصُ العبوديَّة وتجديد التوبة غدوة وعشية

نكتةُ وضع المُظهَر مكان المضمَر في: ﴿عِبَادِهِۦ﴾:

وضَع المظهَرَ في موضع المضمَرِ في قوله تعالى: ﴿عِبَادِهِۦ﴾، فلم يقل: (يقبل التَّوبة عنهم)؛ وذلك للإشعار بعلوِّ منزلة العبادة وجلال قدرها[1]، فمَن حقَّق شرائطَ العبادة نازعته نفسه إلى التَّوبة؛ إذ لا راحة لها، ولا سكن؛ ما دامت مُبعدَةً عن رحمة الله تعالى بالإصرار على الذَّنب، والتَّقاعس عن التَّوبة، فهي كالحيِّ يموت؛ إن لم يجد الماء، فلا يدَّخر جهدًا في طلبه.

تعديدُ صفات الرَّحمة من شأنه قطعُ قنوط مَن أيأسه الشَّيطان منها

فائدةُ العطف في: ﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾:

عُطف قوله تعالى: ﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ على قوله تعالى: ﴿يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ﴾؛ لأنَّ بين الجملتين الكريمتين اتِّفاقًا في الخبريَّة، ومناسبة تامَّة، وليس ثمَّ سببٌ يقتضي الفصلَ بينهما، فهو من باب التَّوسُّط بين

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/100.

الكمالَيْن، وفائدة هذا العطف تعديدُ الصِّفات الجليلة لربِّ العالمين، فهو سبحانه يقبل توبة التّائبين، وهو ﷻ يتجاوز عن المذنبين، وهو تعالى يثيب المتصدِّقين، وهو ﷻ يرحم عباده المخلصين.

وتعديد هذه الصِّفات من شأنه قطع قنوط مَن يئس من الرَّحمة، أو تشكَّك في المغفرة، أو تساءل عن مصير توبته وثواب صدقته، فرحمة الله وسعت كلَّ شيء.

بلاغةُ الاستعارة في أخْذِ الصدقات:

إنَّ الكريم إذا أخذ شيئًا؛ عوَّض عنه بأضعاف مضاعفة

الأخذ في قوله تعالى: ﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ استعارةٌ تصريحيَّة للقبول والإثابة، أي: يتقبَّلها منهم ويثيبهم عليها، فيكون من تشبيه القبول بالأخذ بجامع الرِّضا؛ لأنَّ الكريم والكبير إذا قبل شيئًا؛ عوَّض عنه، وقد يجعل الإسناد إلى الله مجازًا مرسلًا، وفي نسبة الأخذ إلى الرَّسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ ثمَّ إلى ذاته تعالى في قوله: ﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ أَخْذ الرَّسول ﷺ، قائمٌ مقام أَخْذِ الله؛ تعظيمًا لشأن نبيِّه ﷺ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: 10][1].

ويضاف إلى ذلك أنَّ في إسناد الأخذ إليه سبحانه بعد أمره لرسوله ﷺ بأخذها تشريفًا عظيمًا لهذه الطّاعة، وتشريفًا لِمَن يعطيها؛ لأنَّ الذي يأخذها هو ربُّ العباد، وكأنَّما العبد يعطيه هو ﷻ، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾ [البقرة: 245]، فهذا النَّصُّ السّامي فيه حثٌّ على الإكثار من الصَّدقات، وفي ذكر لفظ الأخذ ترغيبٌ في بذل الصَّدقة وإعطائها الفقراء[2].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/141، والآلوسي، روح المعاني: 6/16، والقاسمي، محاسن التأويل: 5/496.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/141، والخازن، لباب التأويل: 2/404، والشوكاني، فتح القدير: 2/455، والقنوجي، فتح البيان: 5/391، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3437.

معنى (أل) في: ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾:

الكريمُ يرزق عباده، ويقبلُ صدقاتِهم النّافعةَ لهم ثوابًا للغنيِّ وغِنًى للفقير

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ يحتمل أن تكون عوضًا عن المضاف إليه، أي: يقبل صدقاتهم، حملًا على أنَّ الضَّمير في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُوٓاْ﴾ عائدٌ على التّائبين عن تخلُّفهم عن غزوة تبوك، الذين جاؤوا بصدقاتهم إلى النَّبيِّ ﷺ منيبين مستغفرين، ويحتمل أن تكون (أل) للجنس، أي: جنسُ الصَّدقات المندرجُ تحته صدقاتُ هؤلاء المذكورين اندراجًا أوَّليًّا، أي: هو الذي يتولَّى قبول التَّوبة وأَخْذَ الصَّدقات، وما يتعلَّق بها من التَّطهير والتَّزكية[1].

فائدةُ العطف:

تأكيدُ معنى قبول التَّوبة، وغسل الحوبة، وهذا عين الرَّحمة

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ معطوفٌ على قوله سبحانه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ تنبيهًا على أنَّه كما يجب العلم بأنَّ الله يفعل ذلك؛ يجبُ العلم بأنَّ من صفاته العُلا أنَّه سبحانه التَّوّاب الرَّحيم، ففائدة العطف: تأكيدُ ما اشتمل عليه المعطوف عليه، وزيادةُ تقريرٍ لما يقرِّره مع زيادة معنى ليس فيه، أي: ألم يعلموا أنَّه سبحانه المختصُّ المستأثر ببلوغ الغاية القصوى من قبول التَّوبة والرَّحمة، وأنَّ ذلك سُنَّة مستمرَّة له تعالى، وشأنٌ دائم من شؤونه سبحانه؟[2].

نكتةُ العدول إلى الجملة الاسميَّة في: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

يقبل الله التَّوبةَ؛ لأنَّه هو التَّوّاب الرَّحيم

عُدِل عن الخطاب بالجملة الفعليَّة في قوله تعالى: ﴿يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ إلى الخطاب بالجملة الاسميَّة: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ - وقد كان السّياق يقتضي التَّعبير بالفعليَّة - لضربٍ من التَّأكيد والمبالغة، فقد جيء بالجملة الاسميَّة بعد الفعليَّة هنا تنويهًا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/100، والآلوسي، روح المعاني: 6/16.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/100، والشوكاني، فتح القدير: 2/455، والآلوسي، روح المعاني: 6/16، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/25.

بثبوت صفتَي التَّوبة والرَّحمة لله ﷻ على أكمل الأوجه وأليقها به سبحانه وبحمده.

فالحاصلُ أنَّه قد تعاوَر التَّعبير عن هذا المعنى أسلوبان، أحدهما: فعليٌّ، وهو للدِّلالة على تجدُّد التَّوبة بتجدُّد الذَّنب، فمهما تكرَّر وقوع الذَّنب من صاحبه؛ فإنَّ توبة الله عليه تتكرَّر متى تاب المذنب إليه سبحانه.

والأسلوب الثَّاني: اسميٌّ، وهو للدَّلالة على ثبوت صفة التَّوبة ودوامها، فهذا الثّاني لتعلُّقها بالله سبحانه، والأوَّل لتكرُّر وقوعها لعباده.

وقد حسُن أن يخْتِمَ بالاسميَّة دون الفعليَّة لهذه النُّكتة، فإنَّ موقعَ الاسميَّة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ من الفعليَّة ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ موقعُ العلَّة من المعلول، فإنَّ الله تعالى يقبل التَّوبة؛ لأنَّ الله تعالى هو التَّوّاب الرَّحيم.

بلاغةُ تتابع المؤكِّدات في فاصلة الآية:

يقدِّم السّياق أعظمَ البشرى للتّائبين، وأبلغَ التَّرغيب في التَّوبة للمذنبين

أُكِّد قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بعددٍ من المؤكِّدات، وهي: الجملة الاسميَّة الدَّالَّة على الثُّبوت، ووقوعها معطوفة على قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾، وهي جملة اسميَّة مترعة بالمؤكِّدات، فعطفُ المؤكَّد على مثله مبالغةٌ في التَّوكيد، وحرف النَّصب والتَّوكيد ﴿أَنَّ﴾، وضميرُ الفصل المؤكِّد الدَّالُّ على الحصر ﴿هُوَ﴾، والقَصْر بتعريف طرفي الإسناد.

ومجيءُ المسند إليه بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ في سياق المدح والتَّعظيم، فكلُّ ما يُسنَد إليه من صفات الكمال حقيقةٌ لا شكَّ فيها.

والتَّعبير بصيغتَي المبالغة ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الدّالَّتين على تكرار وقوع فعل التَّوبة واستمراريَّته، ورسوخ صفة الرَّحمة.

وقد حسُن توالي هذه المؤكِّدات لِما في السّياق من تقديم أعظم

البشرى للتّائبين، وأبلغ التَّرغيب في التَّوبة للمذنبين، بما لا يخفى على المتدبِّرين[1].

بلاغةُ القصر في تعريف طرفِي الإسناد وفي ضمير الفصل:

دلَّ تعريف طرفي الإسناد ﴿ٱللَّهَ﴾ و﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ على قصْرِ هاتين الصِّفتين الجليلتين على اللّه سبحانه، وهو قصر حقيقيٌّ؛ إذ ليس ثمَّ مَن يقبل التَّوبة ويغفر الزَّلّات، ويتجاوز عن السَّيِّئات، ويثيب على الصَّدقات، ويرحم عباده، ويلطف بهم إلّا اللّه ربُّ الأرض والسَّماوات.

لا يغفر الزَّلّات، ويتجاوز عن السَّيِّئات سوى ربِّ الأرض والسَّماوات

وقد زاد هذا القصرَ تأكيدًا توسُّطُ ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ بين المسند والمسند إليه، فضلًا عن أنَّ صيغتَي المبالغة المعرَّفتين عاملتان عملَ فعلِهما المضارع، وفاعلُهما ضمير مستتر تقديره (هو) يعود على لفظ الجلال، ومن المتقرِّر أنَّ تكرار الإسناد يؤكِّد المعنى ويقوّيه.

معنى (أل) في الاسمَيْن الجليلَيْن:

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ لاستغراق صفات الجنس مبالغةً، فقوله تعالى:

لله تعالى المثل الأعلى، والوصف الأجلُّ، والفضل الأكمل

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، يعني: أنَّه سبحانه المتَّصفُ بصفة التَّوبة الكاملة والرَّحمة الكاملة، ومَن اتَّصف بشيء مِن هاتين الصِّفتين مِن دونه تعالى؛ فإنَّما ذلك فيضٌ من لطف اللّه سبحانه، وقبس من نور عليائه، وهذا التَّعريف مسوقٌ للتَّعظيم.

نكتةُ تذييل الآية بهذين الاسمين الجليلين:

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تذييلٌ قُصِد به تقريرُ ما قبله وتأكيده[2]، لأنَّه لمَّا تقدَّم تبشير التّائبين بقبول التَّوبة، وحثِّ المذنبين على المسارعة بالإنابة؛ ناسب أن يُعقَّب ذلك بما يؤكِّده ويزيل شكَّ مَن يتشكَّك فيه، فلا جرم أنَّ اللّه تعالى يقبل التَّوبة،

تطويق الآيةِ بالبشرى يقطع خوفَ المنيب، ويرغِّب الآثِمَ ليتوبَ مِن قريب

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/27.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 6/398.

ويغسل الحَوْبة، ويتجاوز عن العقوبة رحمةً منه بعباده؛ لأنَّه سبحانه هو التَّوّاب الرَّحيم.

وخُصَّ وصف الرَّحمة إشارةً إلى أنَّه لا ينتفع بالصَّدقة بوجه، وإنَّ أَخْذَه لها ليس حقيقة؛ بل هو على سبيل الرَّحمة بعباده في رجوع منفعتها إليهم، وحفظ ثوابها عليهم، فهو سبحانه الغنيُّ الذي قد رزقهم ما تصدَّقوا ببعضه[1].

وجهُ تقديم اسم ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾:

تقديمُ السَّبب علـى مسبِّبِه من شأنه تقريرُ المعنى في النَّفس وتأكيده

قُدِّم لفظ ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ على لفظ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ لنكتة لطيفة، فإنَّ قبول التَّوبة من الرَّحمة، فهو سبحانه الذي يكثر قبول التَّوبة؛ لأنَّه الرَّحيم ﷻ، فتعقيب ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ بـ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ في غاية المناسبة[2]، فهو إذًا من باب تقديم السَّبب على المسبِّب، فإنَّ صفة التَّوبة مسبَّبة عن صفة الرَّحمة، فلمّا كان سبحانه رحيمًا؛ لا جرم كان توّابًا[3].

غرضُ صيغِ المبالغة فيهما:

التَّوبة والرَّحمة سنَّتانِ مستمرَّتان لله تعالى وشأنٌ دائم

أفاد التَّعبيرُ بصيغتي المبالغة ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ معنى الكثرة من التَّوبة والرَّحمة وتكرُّرَهما من اللّه ﷻ، أي: هو سبحانه الذي يقبل التَّوبة إثر التَّوبة من المذنبين الذين ينيبون إلى ربِّهم، فهو التائبُ على التائبين بتوفيقهم للتوبة، والإقبال عليها، وهو التائبُ على التائبين بعد توبتهم قَبولًا لها، وعفوًا عن خطاياهم، فهذا شأنٌ دائم له سبحانه، فلا يَقنَط العصاةُ، ولا ييأس المذنبون.

وهو سبحانه واسع الرَّحمة، ودائم إفاضتها على التّائبين من عباده يثيبهم على ما قدَّموا من عمل، ويمنعهم الخوف أن يصرُّوا على ذنب، فهذه سُنَّة مستمرَّةٌ له تعالى، وشأن دائم[4].

(1) ابن عرفة، التفسير: 2/326.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/25، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3437.

(3) عبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص: 144.

(4) القاسمي، محاسن التأويل: 5/496، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/27، والهرري، حدائق الروح والريحان: 12/28.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

التّطهيرُ والتّزكيةُ:

التزكيةُ تطهيرٌ وتنمية

الطّاء والهاء والرّاء أصلٌ واحد صحيح يدلُّ على نقاءٍ وزوالِ دنسٍ[1]. والزّاء والكاف والحرف المعتلّ أصلٌ يدلُّ على نماء وزيادة[2].

والتَّطهير: تنزيهٌ عن القبائح المادّية والمعنويَّة[3]، أمّا التَّزكية؛ فإنَّها تكون بمعنى التنمية بالخيرات والبركات[4]، وتكون أيضًا مبالغةً في التطهير وزيادة فيه[5].

والتَّزكية تكون بمعنى التطهير المعنويِّ كتطهير النَّفْس؛ فإذا أردت أنَّك أزلتَ عن ثوبك نجاسةً كالبول والغائط أو دنسًا؛ قلتَ: طهَّرتُ ثوبي، ولم تقل: زكَّيتُه، والله أعلم.

الصَّلاةُ والدُّعاءُ:

الصَّلاة في اللغة تكون بمعنى الدُّعاء أو الحنوِّ

لا تكون الصَّلاة بمعنى الدُّعاء على الإطلاق؛ فلا تقول صلَّيت على العدوّ، أي: دعوت عليه. إنَّما يُقال: صلَّيت عليه في معنى الحنوِّ والرَّحمة والعطف؛ لأنَّها في الأصل انعطاف، ومِن أجْلِ ذلك عُدِّيَت في اللفظ بـ(على)، فتقول: صلَّيت عليه، أي: حنوتُ عليه، ولا تقول في الدُّعاء إلّا: دعوت له، فتُعَدِّي الفعلَ باللام، إلّا أن تريد الشَّرَّ والدُّعاء على العدوِّ، فهذا فرق ما بين الصَّلاة والدُّعاء[6].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طهر).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زكى).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (طهر).

(4) الزبيدي، تاج العروس: (زكو).

(5) الزمخشري، الكشاف: 2/307.

(6) أبو القاسم السهيلي، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام: 3/7، والشهاب، عِناية القاضي وكِفايةُ الراضي على تفسيرِ البيضاوي: 1/223.

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٠٥﴾ [التوبة: 105]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العملُ الصّالح بعد التَّوبة من دلائل صدقها، ومن شروط كمالها

لَمَّا أخبر ربُّ العزَّة سبحانه أنَّه يقبل توبة التائبين، وأرشدَ إلى طرق التنقية والتطهير، فأمر رسوله بقبول صدقاتهم، ودعاه إلى تثبيت قلوبهم؛ بيَّن سبحانه مرغِّبًا للمُطيعين، ومرهِّبًا للمُذنبين أنّه يتوجَّب على الرّاغب في الكمال بعد التَّوبة أن يزيد من الأعمال الصّالحة؛ ليجبرَ ما فاته من الأوقات التي كانت حقيقةً بأن يعمرَها بالحسنات، فعمرَها بالسَّيِّئات، وأن يخلص أعماله للّه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾: الرَّدُّ: صرْفُ الشَّيء ورَجْعُه[2]. وأصله يعود إلى معنى رَجْعِ الشَّيء[3]. والرَّدُّ: يكون صرفًا للشَّيء بذاته أو بحالة من أحواله عمّا هو عليه[4]. ومن النَّوع الثّاني - الذي هو صرفٌ للشَّيء بحالة من أحواله عمّا هو عليه - قولُه تعالى: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ لأنَّ هذا الرَّدَّ يكون بالموت والبعث، وهو صرْفٌ للشَّيء بحالة من أحواله عمّا هو عليه - في حالة الحياة - إلى حالة أخرى بالموت والبعث[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/141، وابن عادل، اللّباب: 10/193، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/25.

(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ردد).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ردد).

(4) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ردد).

(5) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/97.

2) ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: شَهِد فلان يشهَد شهادة وشُهُودًا: أخبر خبرًا قاطعًا بأمرٍ عَلِمه وحَضَره[1]. وأصل معناه الذي يدور حوله: الحضور والعلم والإعلام[2]. و"الشَّهادة: الحضورُ مع المشاهدة إمّا بالبصر أو بالبصيرة، وقد يقال للحضور منفردًا، قال اللّه تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾"[3]. "والشَّهادة: ضدُّ الغيب، وهي الأمور التي يشاهدها النّاس، ويتوصَّلون إلى عِلْمِها، يقال: شَهِد، بمعنى حضر، وضدُّه: غاب، ولا تخرج الموجودات عن الاتِّصاف بهذين الوصفين، فكأنَّه قيل: العالِم بأحوال جميع الموجودات"[4].

3) ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾: النَّبأ: الخبر، تقول نَبَأ ونبَّأ: أخبر[5]. ومعناه المحوريُّ: الإتيان من مكان إلى مكان، والنَّبأ بمعنى: الخبر، لا يخرج عن هذا القياس؛ لأنَّ الخبر يأتي من مكان إلى مكان[6]. و"النَّبأ: خبر ذو فائدة عظيمةٍ يحصل به علمٌ أو غلبةُ ظنٍّ، ولا يقال للخبر في الأصل: نبأٌ حتى يتضمَّن هذه الأشياء الثَّلاثة"[7]. وقوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. أي: فيخبركم بما كنتم تعملون.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

التزوُّدُ من العمل الصالح، والحذرُ من الوقوع في العمل السيِّئ

وقُل أيُّها الرَّسولُ الكريمُ لهؤلاء التّائبين الَّذين تخلَّفوا عن الغزو والجهاد: اعملوا للّه بعد توبتكم وإنابتكم كُلَّ ما يرضيه سبحانه مِنَ الطّاعة والعبادة وأداء الفرائض والتقرُّب إليه سبحانه بكُلِّ صُوَرِ

(1) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (شهد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(3) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شهد).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/309.
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، وابن منظور، لسان العرب: (نبأ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نبأ).
(7) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نبأ).

العبادة وأشكالها؛ لأنَّه سيرى ذلك والرَّسولُ والمؤمنون، كما أنَّكم سترجعون بعد موتكم إلى مَن يعلم سِرَّكُم وعلانيتكم؛ ليجازيَكم بما كنتم تعملون، إن خيرًا؛ فخيرٌ، وإن شرًّا؛ فشرٌّ[1].

وترشد الآيةُ إلى الوعيد والتَّهديد لِمَن استمرَّ على باطله وطغيانه، وإلى أنَّه ينبغي للتائبِ من الذَّنب الكبيرِ أن يكثرَ بعده من الصالحاتِ، كالصدقات والصلواتِ ونحوها.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطف في: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ﴾:

التَّوبة ترفع المؤاخذةَ فيما مضى، والعمل يعوِّض نقص ما انقضى

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ﴾ معطوفٌ على قوله سبحانه: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ﴾ الذي هو في قوَّة إخبارهم بأنَّ اللّه يقبل التَّوبة، فإنَّ التَّوبة إنَّما ترفع المؤاخذة بما مضى، فوجب على المؤمن الرّاغب في الكمال بعد توبته أن يزيد من الأعمال الصّالحة؛ ليجبر ما فاته من الأوقات التي كانت حقيقةً بأن يعمرَها بالحسنات؛ فعمَرَها بالسَّيِّئات! فإذا وردت عليها التوبة؛ زالت السَّيِّئات، وأصبحت تلك المدَّة فارغة من العمل الصّالح، فلذلك أُمروا بالعمل عقب الإعلام بقبول توبتهم؛ لأنَّهم لمّا قُبلت توبتُهم؛ كان حقًّا عليهم أن يَدلُّوا على صدق توبتهم وفرط رغبتهم في الارتقاء إلى مراتب الكمال حتى يلحقوا بالذين سبقوهم، فهذا هو المقصود[2]، وسوَّغ العطف بين الآيتين أنَّهما إنشائيَّتان.

فالحاصل أنَّ عطف آية ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ﴾ على سابقتها فيه زيادةُ ترغيب في العمل الصّالح للتّائبين عن كبيرة التَّخلف عن الغزو،

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/667، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/97، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 6/399، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، المنتخب في تفسير القرآن، ص: 278، والزحيلي، التفسير المنير: 11/30، والهرري، حدائق الروح والريحان: 12/28، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 203.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/25.

وللأوَّلين في الثَّبات على ما هم عليه، فالمعنى: قل لهم بعد ما بان لهم شأن التَّوبة: ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾[1]، أي: بعد طهارتكم[2].

دلالةُ فعل الأمر ﴿وَقُلِ﴾ صيغةً ومبنًى:

ما على الرَّسول إلّا البلاغُ المبين

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ﴾ فعل أمر مبنيٌّ على السُّكون، وحُذفت واوُه لالتقاء السّاكنَيْن، وحُرِّكت لامُه بالكسر للعلَّة نفسها، والفاعل ضمير مستتر فيه وجوبًا، تقديره: أنتَ، والمقصود به النَّبيُّ ﷺ[3].

وقد جاء الأمر بصيغة فعل الأمر المباشر ﴿وَقُلِ﴾ دالًّا على الوجوب؛ إذ لا قرينة تصرفُهُ عن أصل هذا المعنى.

وجاء الأمر بالقول دون غيره؛ لأنَّ القول موضوعٌ للإعلام باللِّسان، أو ما ينوب عنه من الكتابة أو الإشارة، ولمّا كانت وظيفةُ الرَّسول ﷺ هي البلاغ عن اللّه تعالى، استُخدمت وسيلةُ هذا البلاغ - وهي الخطاب الموجَّه لَمن أُمِر الرَّسولُ ﷺ بتوجيهه إليهم - في التَّعبير عنه، ويأتي فعل الأمر هذا في القرآن الكريم في قضايا وأحكامٍ لها عناية خاصَّةٌ استوجبت أن يبلِّغَها النَّبيُّ ﷺ بنفسه، ويتابعها.

وقد بقي في التِّلاوة فعلُ الأمر ﴿وَقُلِ﴾ للإشارة إلى أنَّ هذا القرآن متعبَّد بتلاوته لفظًا ومعنًى.

غرضُ الأمر: ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾:

لا تخفى على اللهِ خافيةٌ، والسِّرُّ عنده علانيةٌ فلْيُخلِصِ العاملون

قوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾ صيغة أمر مضمَّنةٌ معنى الوعيد[4]، فظاهره ترخيصٌ وتخيير، وباطنه ترغيب وترهيب[5].

ففيه تخويفٌ وتهديد للمذنبين، أي: إنَّ عملكم لا يخفى على اللّه تعالى ولا على رسوله ﷺ ولا على المؤمنين، فسارعوا إلى أعمال

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/100.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/13.
(3) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 4/381.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/80.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/100.

الخير، أو أخلصوا أعمالكم لله ﷻ، وفيه أيضًا ترغيبٌ وتنشيط للمطيعين، فإنَّ مَن علم أنَّ عمله لا يخفى سواء كان خيرًا أو شرًّا؛ رغب إلى أعمال الخير، وتجنَّب أعمال الشَّرِّ[1].

نكتةُ حذف مفعول ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾:

حـذفُ متعلَّقِ العمل يدلُّ على العموم

في قوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾ أمْرٌ بالعمل موجَّه إلى مخاطَبين، وهم التَّائبون أصحابُ وقعة النُّزول، حيث أُمِروا بالعمل عقب الإعلام بقبول توبتهم ليدلِّلوا على صدق توبتهم؛ ولذلك كان حذف مفعول ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾ لأجل التَّعويل على القرينة، ولأنَّ الأمر من الله لا يكون بعملٍ غير صالح[2].

والمعنى: اعملوا جميع ما تؤمرون به ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾[3]، واحذروا التَّهاون أو التَّخلُّف فإنَّكم مجزيُّون بما عملتم.

ونكتةُ حذف متعلق العمل هي الدَّلالة على العموم، فإنَّما العبرة بالعمل، لا بالاعتذار عن التَّقصير، ولا بدعوى الجِدِّ والتَّشمير، وخير الدنيا والآخرة منوطانِ بالعمل[4].

معنى الفاء في: ﴿فَسَيَرَى﴾:

عـلـمُ الـعـامـل بـرؤيـة الـلـه له مـمّـا يـسـتحثُّه عـلـى الـجـدِّ فيه والإخلاص

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَسَيَرَى﴾ فاء جواب، وكأنَّه قد قيل تأنيسًا لهم: اعملوا، فلن يضيع عملكم[5]، فهو بمعنى التَّعليل لما قبله والتَّأكيد للتَّرغيب والتَّرهيب[6]، وفيه زيادة في التَّحضيض، وتحذيرٌ من التَّقصير أو من ارتكاب المعاصي؛ لأنَّ كون عملهم بمرأى من الله تعالى ممّا يبعث على جعله يُرضي الله تعالى، وذلك تذكيرٌ لهم باطِّلاع الله تعالى بعلمه على جميع الكائنات[7].

---

(1) القنوجي، فتح البيان: 5/391.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/25.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 5/497.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/27.
(5) الغرناطي، ملاك التأويل: 1/234.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/100، والآلوسي، روح المعاني: 6/16.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/25.

دلالة حرف التَّسويف:

السِّين في قوله تعالى: ﴿فَسَيَرَى﴾ حرفُ استقبال مفيد للتَّأكيد وتحقُّق الوقوع[1]، أي: فسيرى اللّه ﷻ أعمالَكم المستقبلة، ويعلمها خيرًا كانت أو شرًّا، كما يرى أعمالَكم الماضية، ويعلمها، وسيجازيكم عليها[2]. فالاستقبالُ فيه إنَّما هو بالنَّظر للمجازاة، لا للعلم؛ فإنَّ علم اللّه تعالى حاصل بالفعل، غير متقيِّد بزمان، أي: فسيجازيكم على عملكم، والمجازاةُ من اللّه معلومة، وأمَّا من رسوله ﷺ ومن المؤمنين؛ فهي بمعنى: الثَّناء عليهم، والدُّعاء لهم[3].

علـمُ الـلـه لا يتقيَّد بزمان، وسيجازي كلَّ عامل بما قدَّم

دلالةُ التَّعبير بالرؤية مادَّةً وصيغةً:

أصل معنى الرُّؤية يدلُّ على نظرٍ وإبصارٍ بعيْنٍ أو بَصيرة، وهي تعني: إدراك المَرئيِّ، إمّا بالحاسَّة، أو بالعقل، أو بالتَّفكُّر، أو بالوهم والتَّخييل، والرُّؤية بالعين تتعدّى إلى مفعول واحد، وبمعنى العلم تتعدّى إلى مفعولين[4].

التَّعبير بالرُّؤية في سياق الأمر بالعمل فيه ترغيبٌ وترهيب

وفي قوله تعالى: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾ دليلٌ على كون اللّه ﷻ رائيًا للمرئيّات؛ لأنَّ الرُّؤية هاهنا معدَّاةٌ إلى مفعول واحد، فتكون بمعنى الإبصار، وذلك يدلُّ على كونه ﷻ مبصرًا للأشياء[5]، وذلك على النَّحو اللائق به ﷻ، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

ولا شكَّ أنَّ رؤية اللّه تعالى شاملةٌ لأفعال القلوب والجوارح جميعًا، أمَّا رؤية الرَّسول ﷺ والمؤمنين؛ فلا تشمل أفعال القلوب إلّا بإرادة اللّه تعالى وإطلاعه وإفشائه[6].

---

(1) الدرة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 4/228.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 12/28.

(3) القنوجي، فتح البيان: 5/392، ومحيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/172.

(4) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (رأى).

(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/142.

(6) النيسابوري، غرائب القرآن: 3/527.

وفي التَّعبير بالرُّؤية في سياق الأمر بالعمل ترغيبٌ وترهيب، فكأنَّه قال: اجتهدوا في العمل في المستقبل، فإنَّ اللّه تعالى يرى أعمالكم، ويجازيكم عليها[1]، فيُقبل المحبُّون، ويُحسِّنون العمل، ويُخوَّف المذنبون، فإنَّ جرائمهم مُحصيَّةٌ عليهم.

وقد جيء بالفعل مضارعًا لمشاكلة العملِ الذي من شأنه أن يقع مرَّةً بعد مرَّة، وتتعاوره الحالاتُ والأزمان، فمهما يُعمَل من عمل؛ فإنَّ اللّه ﷻ يراه، ويعلمه، ويحصيه، ويحاسِب عليه، ويجازي به.

سرُّ التَّعبير بالألوهيَّة في: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾:

لا ينتفع الإلهُ بصلاح عباده، بل هو الكامل الغنيُّ، وهم المفتقرون إليه

لمّا كانت الآية الكريمة مبدوءةً بالأمر بالعمل؛ ناسَب أن يُعبَّر معها بعنوان الألوهيَّة؛ ذلك أنَّ الإله الحقَّ هو الذي له العلوُّ الكامل، والعِلم الكامل، والإحاطة الكاملة، والغِنَى الكامل، فلم يأمر عباده بالعمل؛ لأنَّه ينتظر من ورائه نفعًا - حاشاه - ولا لأنَّ ترْك هذا العملِ يعود عليه بضرٍّ - سبحانه وبحمده - فإنَّ ثواب هذا العمل إنَّما يعود على العامل نفسِه، واللّه غنيٌّ عنه، كما أنَّ ترْكَ العمل إنَّما يعود ضرُّه على صاحبه، واللّه عليٌّ قويٌّ عزيز.

ومصداقُ هذا ما ورد في الحديث القدسيِّ: «يا عِبادي، إنَّكُم لن تَبْلُغوا ضَرّي، فتَضُرّوني، ولن تَبْلُغوا نَفْعي، فَتنْفَعوني... إنَّما هي أعمالكم أُحْصيها لكم، ثمَّ أُوَفّيكم إيّاها، فمَنْ وجد خيرًا؛ فلْيَحْمَدِ اللّه، ومن وجد غير ذلك؛ فلا يَلُومَنَّ إلّا نَفْسَهُ»[2].

ويضاف إلى ما تقدَّم أنَّ الاسم الجليل (اللّه) علَمٌ على المعبود بحقٍّ جلَّت قدرته، ولمّا كانت العبادة تقتضي فعلَ ما أمرَ به الإله، واجتنابَ ما نهى عنه ابتغاءَ مرضاته، وكان الإيمان قولًا وعملًا،

(1) الخازن، لباب التأويل: 2/405.
(2) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: البرُّ والصِّلة والآداب، باب: تحريم الظُّلم، حديث رقم: (2577): 8/16.

وكانت الآية مصدَّرةً بفعلي أمر هما: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ﴾؛ لمّا كان ذلك كذلك؛ ناسَب التَّعبير بعنوان الألوهيَّة؛ فالإلهُ معبود، والعبادةُ اعتقاد، وقول وعمل، وقد أمرت الآية بالأخيرين في ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾ تغليبًا، وبالأوَّل في ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾.

فائدةُ توالي الجمل الفعلية في: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾:

من شأن العمل أن يقع متكرِّرًا متجدِّدًا مِن عامله، وكلُّ ذلك معلوم لله

في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾ توالت ثلاثُ جمل فعليَّة، وهي:

جملة: ﴿وَقُلِ﴾، وجملة: ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾، وجملة: ﴿فَسَيَرَى﴾.

ولمّا كان السّياق سياقَ أمرٍ بالعمل، وكان المأمورون به جماعة، وكان من شأن العمل أن يقع متكرِّرًا متجدِّدًا حادثًا بعد أن لم يكن؛ لمّا كان ذلك كذلك؛ ناسَب التَّعبيرُ بالجملة الفعليَّة التي "تدلُّ بأصل وضعها على التَّجدُّد في زمن معيَّن مع الاختصار"[1].

فائدة عطف ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾:

خُصَّ الرَّسول ﷺ بالذِّكر؛ لأنَّه مَن يعبأ المخاطَبون برؤيته

عُطِف قوله تعالى: ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ على اسم الجلالة؛ لأنَّه ﷺ هو المبلِّغ عن الله ﷻ، وهو الذي يتولَّى معاملتهم على حسب أعمالهم[2].

فلمّا خوَّفهم الله ﷻ برؤيته سبحانه لأعمالهم، وعلم أنَّ فيهم مَن تتقاصر حالته عن الاحتشام لاطِّلاع الحقِّ، قال: ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾[3].

وتخصيصه ﷺ والمؤمنين بالذِّكر؛ لأنَّهم هم الذين يعبأ المخاطَبون باطِّلاعهم[4].

نكتة تأخير ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾:

التَّشريك في الرُّؤية لا يعني تماثلها ممَّن نُسِبت إليه

عُطِف قوله تعالى: ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ على الاسم الجليل، وأُخِّر

(1) المراغي، علوم البلاغة، ص: 56.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/25.
(3) القشيري، لطائف الإشارات: 2/61.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/16.

عن المفعول؛ للإشعار بما بين الرُّؤيتين من التَّفاوت[1]، فالتَّشريك في الرُّؤية لا يعني تماثلها ممَّن نُسبَت إليه، فإنَّ رؤية اللّٰه تعالى يلزم منها تعلُّق العلم بالواقعات، سواء كانت ذواتٍ مبصَرات، أم كانت أحداثًا مسموعات ومعانيَ مدرَكات[2]، أمَّا نسبتُها للرَّسول ﷺ والمؤمنين؛ فباعتبار أنَّ اللّٰه تعالى لا يُخفي ذلك عنهم، بل قد يطلعهم عليه إن شاء، إمَّا بالوحي أو بغيره[3].

غرضُ حذْفِ الرؤية من السّياق:

الـرَّسـول ﷺ مؤيَّدٌ بوحي من ربِّـه عـالـمٌ بما أطلعه الله عليه

في قوله سبحانه: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾ حذْفٌ مفهوم من السِّياق، وتقديره: (وَ) يراه ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ ﷺ؛ بإطلاع اللّٰه إيّاه على أعمالكم، كما أطلعه على أعمالكم الماضية بفضيحتكم عليها، (وَ) يراه ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾ بما قذف اللّٰه تعالى في قلوبهم مِن محبَّة الصّالحين وبُغض المذنبين[4].

فالملاحَظ أنَّ فعل الرُّؤية ذُكر مرَّة واحدة مع اختلاف معناها بحسب ما أُسنِدَت إليه، غير أنَّها أُخرِجَت مخرجَ الرُّؤية الواحدة، فتتوالى المعطوفاتُ في نسق واحد دون أن يفصلَ بينها فاصل؛ تشريفًا وتعظيمًا للرَّسول ﷺ، وتخصيصًا للمؤمنين الذين أخلصوا الاعتقاد، وأحسنوا العمل، فرفع اللّٰه تعالى مكانتهم، وأناط الأمر برؤيتهم.

غرضُ إضافة الرَّسول إلى الضمير العائد على لفظ الجلالة:

الإضـافـةُ إلى العظيم تقتضي الـتَّـشـريـف والتَّعظيم

في قوله تعالى: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾ أُضيف لفظ الرَّسول إلى الضَّمير العائد على الاسم الجليل، وهذه الإضافةُ أفادت التَّعظيم والتَّشريف والتَّبجيل لرسول اللّٰه ﷺ؛ فإنَّ ما أُضيف إلى العظيم عظيمٌ، والإضافة إلى اللّٰه للمضاف عظيمةٌ[5].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/100.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/26.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/16.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 12/29.
(5) حسن، بلاغة اللغة: 1/449.

المؤمنون شهداء الله في الأرض، وهم ثقاتٌ عُدول

نكتة عطف ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾ عُطِف المؤمنون على الرَّسول ﷺ؛ لتشريفهم، أو لتعليق الأحكام الشَّرعية بهم بعد وفاة رسول الله ﷺ[1]، وأيضًا لأنَّهم شهداءُ الله في أرضه، ولأنَّ هؤلاء الذين تخلَّفوا عن الغزو لمّا تابوا؛ رجعوا إلى حظيرة جماعة الصَّحابة، فإنْ عملوا مثلهم؛ كانوا بمحلِّ الكرامة منهم، وإلَّا كانوا ملحوظين منهم بعين الغضب والإنكار، وذلك ممّا يحذره كلُّ أحد هو مِن قوم يرمقونه شزرًا، ويرونه قد جاء نُكرًا[2].

ولمّا كان المؤمنون شهداء الله يوم القيامة، وكانت الشَّهادة لا تصحُّ إلّا بعد الرُّؤية؛ ذكر تعالى أنَّ الرَّسول ﷺ والمؤمنين يرون أعمالهم، والمقصود: التَّنبيهُ على أنَّهم يشهدون يوم القيامة، عند حضور الأوَّلين والآخِرين بأنَّهم أهل الصِّدق والسَّداد والعفاف والرَّشاد[3]، فالتزموا بهذا المنهجِ حتى يشهدَ لكم المؤمنون بما يرون من أعمالكم[4].

والآيةُ تهدينا إلى أنَّ مرضاة جماعة المؤمنين القائمين بحقوق الإيمان، المقرَّرة صفاتهم في القرآن تلي مرضاة الله تعالى ورسوله ﷺ، وأنَّهم لا يجتمعون على ضلالة[5].

في الإيمان صدقُ الاعتقاد مع إخلاص العمل، وهو نقيض النِّفاق

نكتةُ التَّعبير بالإيمان دون الإسلام:

لمّا كانت الآية خطابًا للنّاس جميعًا يندرج تحته اندراجًا أوَّليًّا التّائبون من تخلُّفهم عن غزوة تبوك مع النَّبيِّ ﷺ، وهم الذين جاؤوا بأموالهم متصدِّقين منيبين، وقد قبل الله تعالى توبتهم وزكّاهم،

(1) الجرجاني، درج الدرر: 2/918.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/26.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 5/479.
(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 9/5481.
(5) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/28، والهرري، حدائق الروح والريحان: 12/29.

فرفعهم من دنس النِّفاق إلى طُهْر الإيمان، لمَّا كان ذلك كذلك؛ ناسب أن يُعَبَّر بالإيمان الذي هو نقيض النِّفاق، وليكون هذا تعريضًا بالمنافقين الذين قعدوا عن الجهاد، وتقاعسوا عن التَّوبة والإنابة، وضنُّوا بأموالهم وأنفسهم، فكأنَّه قد قيل لهم: اقعدوا متضمِّخين بنجس النِّفاق، فلن تنالوا خيرًا في الدُّنيا ولا في الآخرة، أمَّا مَن كانوا معكم بالأمس، وتابوا اليوم توبة صادقةً؛ فقد نجوا بأنفسهم، وفارقوا جُحركم الخَرب، وأصبحوا مع المؤمنين إخوانًا متحابِّين.

ويضاف إلى ذلك أنَّ في التَّعبير بالإيمان إشارةً إلى صدق الاعتقاد مع إخلاص العمل، ولن يدرِك صدقَ عملِ التّائب وإخلاصه إلّا مَن ذاق حلاوة ثمرة الإخلاص، وهو المؤمنُ، فمِن ثَمَّ عُبِّر بالإيمان دون الإسلام، وفيه مِن التَّشريف والتَّعظيم لمقام الإيمان في مقابل الحطِّ من شأن النِّفاق ما لا يخفى.

بلاغةُ العطف في: ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾:

مَن علم أنَّه مجزيٌّ بعمله قريبًا أخلص في عمله وأحسنه

قوله تعالى: ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾، وهنا تظهر بلاغةُ العطف في ترتيب الجزاء على العمل، فبعد أنْ أرشدهم الله تعالى إلى ما يقتضي الإحسان في الأعمال مِن مراقبته سبحانه وتحرّي مرضاته، ومرضاة رسوله ﷺ، وجماعة المؤمنين - ذكَّرهم بما يقتضي ذلك من جزاء الآخرة عليها[1].

فائدة دخول حرف التسويف:

لا شكَّ في الموت أو البعث، فهما واقعان لا محالة

(السِّين) في قوله تعالى: ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾ تدلُّ على قرب الرَّدِّ، أي: الرُّجوع إلى الله، أي: قرب الجزاء والثواب، أي: تثابون على العمل الصّالح في الدُّنيا والآخرة، من دون تأجيل[2].

فحرف التَّسويف لتأكيد وقوع ما بعده في المستقبل، أي: ستعودون

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/29.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 4/519 - 520.

إليه سبحانه، وتُعرَض عليه أعمالُكم لا تخفى منها خافية، وهذه الجملة السّامية فيها تبشير وإنذار، تبشير للمؤمنين، وإنذار للمشركين الذين عصَوا أمرَ ربِّهم، واستمرُّوا في عصيانهم وضلالهم(1).

وهو إيذانٌ بقربِ الجزاءِ والثّوابِ(2)، ففيهِ حضٌّ على مواصلةِ العمل، تطميناً لنفوسِ المؤمنين المخبتين، بينما الآيةُ السّابقةُ جاءتْ من غيرِ السِّين: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [التوبة: 94]، خطابٌ للمنافقينَ، ففيهِ تهديدٌ ووعيدٌ قاطعٌ لأطماعِ المنافقينَ في العفوِ(3).

دلالةُ التَّعبير بـ(تُردّون) مادَّةً وصيغةً:

النَّفْس مملوكةٌ لباريها، خلقها للعبادة ورزقها ما يعينها عليها، وهو سائلها

الرَّدُّ: الإرجاع، والمراد به هنا: مصير النُّفوس إلى عالَم الخُلد الذي لا تصرُّف فيه لغير اللّه سبحانه، ولو في ظاهر الأمر، ولمّا كانت النُّفوس من خلق اللّه، وقد أنزلها إلى عالم الفناء الدُّنيويِّ، فاستقلّت بأعمالها مدَّة العمر، كان مصيرها بعد الموت أو عند البعث إلى تصرُّف اللّه فيها، شبيهًا بردِّ شيء إلى مقرِّه أو إرجاعه إلى مالكه(4).

وقد اختير لها أن تُبنى لما لم يُسَمَّ فاعلُه، للعلم به؛ إذ لا يقدر على إحياء الموتى إلّا اللّهُ تعالى، فالاهتمام هنا بقضيَّة البعث، وما يترتَّب عليها من حساب وجزاء.

ويضاف إلى ذلك ما في بناء الصّيغة من معنى الإجبار، وتأكيد استحالة الفرار.

سرُّ العدول عن الظّاهر للمضمر في: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾:

مَن علم أنَّ مردَّه إلى مَن لا تخفى عليه خافية؛ هاب أن يقع في معصية

في قوله تعالى: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ إظهارٌ في موضع الإضمار؛ لأنَّه ﷺ قال: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3438.
(2) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 117.
(3) ابن الزّبير الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/599.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/8.

ولم يقل - ولكلامه المثل الأعلى - (وستردُّون إليه)؛ وذلك للإشارة إلى أنَّ الأمر سيرجع إلى مَن لا تخفى عليه خافيةٌ في السَّماء والأرض[1]، ولا يعزب عنه شيء من أعمال الخلائق، وهذه زيادةٌ في التَّرغيب والتَّرهيب؛ ليعلموا أنَّه لا يخفى على اللّه سبحانه شيء[2]، وفي ذلك مِن تهويل الأمر وتربية المهابة ما لا يخفى[3].

سرُّ العدول عن عنوان الألوهيَّة إلى الصِّفة: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾:

أحـصى اللـه أعـمالَ عباده إحصاءَ العالمِ بها، وسيجازي كلًّا بحسبه

في قوله تعالى: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ عُدِل عن التَّعبير بعنوان الألوهيَّة إلى الوصف بالعِلم المضاف إلى ﴿ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ لِما في الوصف بالعِلم من المناسبة لِما قبله من رؤية الأعمال، وإحصائها، والجزاء عليها، فإنَّه سبحانه أحصاها إحصاءَ العالم بها، حيث قد علِم نيَّةَ كلِّ فاعل وقصدَه، فميَّز المؤمنين مِنَ المنافقين، والمخلصين مِنَ المرائين.

معنى (أل) في: ﴿ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾:

عـلْمُ اللـهِ قد وسع كلَّ شيء، وأحـاط بـكلِّ شيء، فلا يخفى عليه شيءٌ

اللّام في قوله تعالى: ﴿ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ للاستغراق، أي: يعلم اللّه كلَّ غيب، وكلَّ شهادة[4]، وهذا لتأكيد إحاطة علم اللّه تعالى بكلِّ شيء، وفيه طمأنةٌ للمؤمنين بأنَّ أعمالهم الصّالحة لن تضيع هباءً، وفيه تحذيرٌ للمذنبين من كون كلِّ ما عملوه في الخفاء هو معلومٌ للّه سبحانه، ولم يخفَ عليه، بل قد أحصاه، وسيجازيهم به.

سِرُّ تخصيص الغيب والشَّهادَة، وفائدة الطِّباق فيهما:

يستوي عند الله السِّرُّ والعلَن، فما مِن مهرب منه ولا مفرَّ

معنى الغيب والشَّهادة: ما غاب، وما شوهد، فهما حالتان تعمّانِ كلَّ شيء[5]، فهُما قِسما الموجودات؛ ذلك أنَّ الأشياء إمَّا أن تكون

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3439.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/8.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/100.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/8.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/80.

خفيَّةً، وإمَّا ظاهرةً، وإمَّا حاضرة وإمَّا غائبة، وإمَّا مُدركَة بالحِسِّ، وإمَّا خارجة عن إدراك الحواسِّ للطفها أو لعِظَمها أو لكون الحواسِّ غير مهيَّأة في أصل خِلقتها لإدراكها، فهذا الطِّباق الذي جمعَ فيه بين الشيء وضدِّه في الكلام، والذي صيغت به الجملة الكريمة قد عمَّ تحت مظلَّته كلَّ موجود، فالمقصود من ذِكر الغيب والشَّهادة تعميمُ الموجودات جميعًا، فإليهما تنقسم موجودات الكونِ كلِّه.

نكتةُ تقديم الغيب على الشَّهادَة:

العِلمُ بالعلَّةِ علَّةٌ للعِلم بالمعلول

قُدِّم الغيبُ على الشَّهادة في قوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ لتحقيق أنَّ نسبة علمه المحيط بالسِّرِّ والعلن واحدة على أبلغ وجهٍ وآكده، لا لإيهام أنَّ علمَه سبحانه بما يُسِرُّونه أقدم منه بما يُعلنونه، فعلْمُه سبحانه بمعلوماته منزَّه عن أن يكون بطريق حصول الصُّورة، بل وجود كلِّ شيء وتحقُّقه في نفسه عِلم بالنِّسبة إليه تعالى، وفي هذا المعنى لا يختلف الحال بين الأمور البارزة والكامنة، وإمَّا للإيذان بأنَّ رتبة السِّرِّ متقدِّمة على رتبة العلن؛ إذ ما مِن شيء يُعلن إلّا وهو أو مباديه القريبة أو البعيدة مضمر قبل ذلك في القلب، فتعلُّق علمه تعالى به في حالته الأولى متقدِّم على تعلُّقه به في حالته الثّانية(1).

فضلًا عن أنَّ تقديم الغيب على الشَّهادة إشعارٌ بسَعة علمه ﷻ، وأنَّه لا يخفى عليه شيء، ويستوي عنده كلُّ معلوم(2).

معنى الفاء في: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾:

مَن علم أنَّه إلى مولاه راجعٌ؛ عَلِمَ أنَّه مسؤول عمّا قدَّم، فليُعِدَّ للسُّؤال جوابًا

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ للإفصاح عن شرط مقدَّر، أي: إذا كنتم ستُردُّون إليه سبحانه؛ فإنَّه ينبِّئكم، أي: يخبركم إخبارَ فعلٍ وجزاء بما كنتم تعملون، فترون أعمالكم عيانًا، تنطق بها جوارحكم، وكتابًا منشورًا قد سجَّل كلَّ ما عملتم، لا يدع

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/101.

(2) الشوكاني، فتح القدير: 2/455.

صغيرة ولا كبيرةً إلّا أحصاها، فتُجزى كلُّ نفس بما كسبت، وإنَّ هذا فيه تبشيرٌ للمؤمن، وإنذار للمشرك والمنافق، وأعمالهم كلُّها في كتابٍ[1].

وقيل: الفاء عاطفة[2]، تفيد التَّرتيب والتَّعقيب، حيث رتَّبت الإنباءَ والجزاء على الرَّدِّ الذي هو عبارة عن الأمر الممتدِّ إلى يوم القيامة ترتيبَ تعقيبٍ[3].

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ مادّةً وصيغةً:

ذِكْرُ المجازاةِ في مقام الجناية لازمٌ لإحاطة علمِ العليم به

الإنباءُ: الإخبار، واستُعمل قوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في لازم معناه، وهو المجازاة على كلِّ ما عملوه، أي: فتجدونه عالمًا بكلِّ ما عملتموه، وهو كنايةٌ؛ لأنَّ ذِكر المجازاة في مقام الإجرام والجناية لازمٌ لعموم عِلم مَلِك يوم الدّين بكلِّ ما عملوه[4]، ففي الآية وعدٌ ووعيد[5].

والمعنى: يعرِّفكم أحوالَ أعمالكم، ثم يجازيكم عليها؛ لأنَّ المجازاة من اللّه تعالى لا تحصل في الآخرة إلّا بعد التَّعريف، ليعرف كلُّ أحد أنَّ الذي وصل إليه عدلٌ لا ظلم، فإنْ كان من أهل الثَّواب؛ كان فرحُه وسعادته أكثرَ، وإنْ كان من أهل العقاب؛ كان غمُّه وخسرانه أكثرَ[6].

معنى الباء و(ما) في: ﴿بِمَا﴾:

يوم القيامة تُبلَى السَّرائر، ويظهر ما في الضَّمائر وتُجلّى حقائق الأعمال

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ للإلصاق، و(ما) يصلح أن تكون موصولة بمعنى الذي، أو مصدرية[7]، فبالحمل على

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3439.
(2) محيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/173، وبهجت صالح، الإعراب المفصل: 4/382.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/101.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/8.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/17.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/144.
(7) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 4/507.

الموصوليَّة، يكون المعنى: ينبِّئكم بالذي كنتم تعملونه، وبالحمل على المصدريَّة؛ يكون المعنى: ينبِّئكم بعملكم[1].

والفرق: أنَّ معنى الموصوليَّة قُصد فيه الدِّلالة على معانٍ تتضمَّنها صلةُ الموصول؛ إذ لمّا كان معناه: (الذي كنتم تعملون)، كانت دلالةُ ذلك إحاطة علم اللّه بعمل كلِّ عامل، فجميع أعمال العاملين متساويةٌ في العلم عند ربِّ العالمين، فلم يُفْلِت منه سبحانه أحدٌ.

ولأنَّ أعمال العباد متشعِّبةٌ، بل نيّاتهم في العمل الواحد مختلفةٌ، وفي هذا نوعُ إبهامٍ؛ كان التَّعبير باسم الموصول مناسبًا لذلك، فيوم القيامة يعرف كلُّ عامل حقيقةَ عمله الذي كان يعمله.

أمَّا معنى المصدريَّة؛ ففيه معنى إضافة العمل إلى عامله، أي: إنَّ كلَّ إنسانٍ سيُسأل عن عمله هو، ولن تزر وازرة وزر أخرى، ولا يظلم اللّه أحدًا.

نكتةُ دخول كان على العمل:

كلٌّ يعمل على شاكلتِهِ، وسيجازي الله كلًّا بما عمِل

سَبْقُ الفعلِ المضارع بـ(كان) يدلُّ على تكرُّر الحدث، ووقوعه أكثر من مرَّة في الماضي، واستمرار حدوثه بعد ذلك، فهذا يفيد الدَّلالة على الاستمرار أو الاعتياد[2].

أي: إنَّهم استمرُّوا على أعمالهم التي عملوها، وكلٌّ منهم كان يعمل على شاكلته، وقد علم اللّه ذلك كلَّه، وقدَّره، وأحصاه.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ مادَّةً وصيغة:

العمل يعمُّ الاعتقاداتِ والأقوالَ والأفعال، وكلُّ ذلك مكتوبٌ عند ذي الجلال

تدور معاني العملِ حول بذل جهد ماديٍّ يؤدِّي إلى إحداث شيء أو هيئة أو نقلة... إلخ، فهو عامٌّ في كلِّ فعل يُفعَل، ويغلب فيه جانب

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 12/33.

(2) السامرائي، معاني النحو: 3/319.

القصد والعمد، والعمل يعمُّ أعمال الجوارح والقلب، ويدخل فيه كذلك الأقوالُ؛ لأنَّها عمل اللِّسان، وهو مِن جملة الجوارح[1].

ومن هنا تظهر دلالةُ التَّعبير بالعمل دون غيره، ذلك أنَّه يعمُّ الاعتقاداتِ والنِّيّات، وأعمالَ الجوارح الظّاهرة، وأقوال اللِّسان؛ فإنَّ كلَّ ذلك في علم اللّه الشاملِ المحيطِ بكل شيء بما فيه أفعال العباد، ومكتوبٌ عند اللّه تعالى قبلَ خلقِ السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرةً إلَّا أحصاها، وقد خلقه ﷻ وقدَّره، وهو من إرادته التي شاءها ﷻ والتي لا يخرج عنها شيءٌ في هذا الكون.

فالمراد بالعمل: ما يشمل العمل النَّفساني من الاعتقاد والنِّيَّة، وممّا كان مشهودًا للنّاس منه، وما كان غائبًا عن علمهم منه، ينبِّئ اللّهُ تعالى به عند الحساب، وما يترتَّب عليه من الجزاء بحسن الثَّواب، أو سوء العذاب، فإطلاق العمل على ما يشمل ذلك تغليبٌ[2].

وهذا التَّسجيل الدَّقيق لعموم ما أضمره الإنسان، وأظهره، يدلُّ على حتميَّة الحساب المترتِّب عليه، والجزاء الذي يعقب الحسابَ.

وأوثر التَّعبير بالمضارع للدِّلالة على أنَّ عملهم لم يغب عن علم اللّه تعالى، ففي كلِّ حركة وسكنة، ونوم ويقظة، وهمس وجهر، وعلَنٍ وسرٍّ كان اللّه تعالى معهم، يسمع، ويرى، ويعلم، وملائكته الكرام الكاتبون يسجِّلون، ويكتبون.

سرُّ ذكر لفظ ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾ هنا وعدم حذْفِه:

أعمالُ المؤمنين ظاهرةٌ، وسرائرهم طاهرة

في الآية الأولى (الآية: 94) كان الكلام على المنافقين الذين يخالف ظاهرُهم المموَّه باطنَهم المشوَّه، فهؤلاء لا يطَّلع

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عمل).
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/29، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/25.

على ضمائرهم إلا اللّهُ تعالى، ثمَّ رسوله ﷺ؛ بإطلاع اللّه تعالى إيّاه عليها، كقوله: ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾؛ فلذلك لم يُذكر المؤمنون.

أمَّا الآية الثّانية؛ فهي في المؤمنين الذين خَلَطوا عملًا صالحًا، وآخر سيِّئًا، وطاعاتُ المؤمنين وعباداتهم؛ كالصَّلاة، والإنفاق (الصَّدقات)، والحجِّ، والعمرة، والصّيام ظاهرةٌ للّه ورسوله ﷺ والمؤمنين، فهي التي تشاهَدُ، ويشاهَد التَّفاوتُ فيها بين المحافظ والمقصِّر[1].

وجهُ حذف حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ هنا:

الكريمُ يعجِّل الوعد إكرامًا، ويُمهل العصاة لعلَّهم يتوبون، فيُرزَقوا سلامًا

جيءَ في الآية الأولى (الآية: 94) التي تتكلَّم على المنافقين بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ ممّا يدلُّ على التَّراخي في الزمن، والآية فيها وعيد، أي: من كَرَمِ اللّه عليهم أنَّه يؤخِّر العقاب عنهم في الدُّنيا؛ حتى يتوبوا، أو لعلَّهم يتوبون، ويغفر لهم[2].

أمّا الآيةُ التي تتحدَّث عن المؤمنين؛ فقد خُتِمت بقوله تعالى: ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾ بدون حرف العطف؛ لأنَّها متضمِّنةٌ وعدًا لهم، فبناه على قوله: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾، ولم يؤخِّره[3].

نكتةُ المشاكلة بين الآيتين:

لا يستوي المؤمنون المجاهدون والمنافقون القاعدون

لمّا كان الخطابُ في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ﴾ [التوبة: 105] للمعتذرين الخالطين التّائبين، فقد أُبرزوا بقوله: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾ إبرازَ المنافقين الذين قيل لهم: ﴿لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾ [التوبة: 94]؛ تنقيصًا من الحال التي كانوا عليها قبل التَّوبة، وتنفيرًا لهم ولغيرهم عمّا

(1) الكرماني، البرهان في متشابه القرآن، ص: 138، والغرناطي، ملاك التأويل: 1/235، والهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 4/520.

(2) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 4/520.

(3) الكرماني، البرهان في متشابه القرآن، ص: 138.

وقعوا فيه من التَّخلُّف عن رسول اللّه ﷺ، وتذكيرًا لهم بنعمة اللّه عليهم؛ إذ كانوا على شفا حفرةٍ من النّار، فأنقذهم منها، وتنبيهًا لهم على أنَّهم - وإنْ تابوا - ليسوا كالذين جاهدوا معه ﷺ بأموالهم وأنفسهم(1).

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرَّدُّ والرّجوعُ:

الــرَّدُّ بـالإكـراه والرجوع برغبة

الردُّ هو الإعادة بالجَبر أو الإكراه وبغير إرادة المردود، والرُّجوع عَوْدٌ برغبةٍ، ومن دون إكراه(2).

والفرق بين الرَّجع والردِّ: أنَّه يجوز أن ترجع شخصًا من غير كراهةٍ له، قال اللّه تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾ [التوبة: 83]، ولا يجوز أن تردَّه إلّا إذا كرهت حاله؛ ولهذا يسمّى البَهْرَجُ(3) ردًّا، ولم يُسَمَّ رجعًا، هذا في أصل الوضع، لكن ربَّما استعملت إحدى الكلمتين: موضع الأخرى لقرب معناهما(4).

الرّؤيةُ والنّظرُ والبصرُ:

البـصـرُ إدراكٌ بالعين، والنظر توجيهُ البصر إلى شيء لـرؤيـتـه، والـرؤيـةُ إدراك المرئيِّ

الفرق بينها: أنَّ النظر تقليبُ العين حيالَ مكان المرئيِّ، والإقبال بالبصر نحوه طلبًا لرؤيته؛ ولذلك قد يَنظر الإنسان إلى شيءٍ، ولا يراه، والرؤية: هي إدراك المرئيِّ(5).

وأمَّا البصرُ في حقِّ اللّه تعالى؛ فهو الصِّفةُ التي تفيدُ أنَّ اللّه له بصرٌ يليق به سُبۡحَانَهُ، يحيطُ بأقطار السماواتِ والأرض دقيقها، وجليلها، ظاهرها، وباطنها، وأنه - جلَّ في علاه - ذو البصيرةِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 5/501.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 20/45.
(3) هو الدِّرهم الذي فضَّته رديئة، وكلُّ رديء من الدَّراهم وغيرها. ينظر: ابن منظور، اللسان: (بهرج).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 249.
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 543، 544.

بالأشياء المطَّلعُ على بواطنها التي ينكشف بها كمالُ نُعوت المبصَرات، والله هو البصير الذي يرى الأشياء كلَّها، ولا يُحجَب شيءٌ عنه[1].

والبَصَر في الإنسان حِسُّ العين وحاسَّة الرؤية، ويُقال: للجارحة الناظرة[2].

والمعنى في الآية: رؤيةُ الله تعالى أعمالَ العباد كما يليقُ به سبحانه، وإعلامُه النَّبيَّ ﷺ بها وإطلاعه عليها، وإيقاع المحبَّة في قلوب المؤمنين لأهل الصَّلاح، والبغضةِ لأهل الفساد، وهذا الإعلامُ والإيقاع يؤدّيان إلى إدراك النَّبيِّ ﷺ والمؤمنين هذه الأعمالَ[3]؛ لذا أُوثِر ذِكرُ الرؤية لِما فيها من معنى الإدراك، ولما في الأعمال من الظُّهور.

الإنباءُ والإخبارُ:

الإنبـاءُ إخبـارٌ لما كان مجهولًا حاله

الفرق بينهما أنَّ الإنباء لا يكون إلا للإخبارِ بما لا يعلمه المخبَر، وينبغي أن يقيَّد بالخفيِّ، أي: الذي كان خفيًّا، أمّا الإخبار؛ فيجوز أن يكون بما يعلمه، وبما لا يعلمه؛ ولهذا يقال: تخبرني عن نفسي، ولا يقال: تنبِّئُني عن نفسي، وكذلك تقول: تخبرني عمّا عندي، ولا تقول: تنبِّئُني عمّا عندي[4].

وهناك ما ينبغي أن يُبيَّنَ وجهُه، كقوله ﷻ: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ﴾ [آل عمران: 49]، فالأصل أنَّ سيدنا عيسى عليه السلام لا يعلم هذا، والإنباء يُستعمل في ما الأصل فيه مجهولٌ لأحد الطرفين، وقوله ﷻ: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [التوبة: 105]، فلا شكَّ أنَّهم كانوا يعلمون ما يعملون، ولكن الله ﷻ، قال

(1) ابن منظور، اللسان، والزبيدي، تاج العروس: (بصر)، والسعدي، الحق الواضح المُبين، ص: 35 - 36.
(2) الجوهري، الصحاح، والرّاغب الأصفهاني، المفردات، وابن منظور اللسان: (بصر).
(3) البغوي، معالم التنزيل: 4/92، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/252.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 41، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (نبأ).

لهم: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: 22]، كما أنَّهم تصرَّفوا وهُم في الدُّنيا تصرُّفَ مَن لا يعرف حقيقة ما يعمل، فاستعمل لهم اللَّفظَ الذي يقتضيه حالهُم[1].

والإنباء عن الشيء أيضًا قد يكون بغير حمل النَّبأ عنه، تقول: هذا الأمر ينبِئُ بكذا، ولا تقول: يخبر بكذا؛ لأنَّ الإخبارَ لا يكون إلّا بحمل الخبر[2].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نبأ).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 41.

﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠٦﴾ [التوبة: 106]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تعجيلُ التَّوبة ضرورةٌ، وتأخيرها خطورةٌ

لَمّا بيَّن اللّه سبحانه حال نوعين من المتخلِّفين: الذين مَردوا على النِّفاق، وهم متوعَّدون بالعذاب، والذين أعلنوا توبتهم، واعترفوا بجريرتهم، فتاب عليهم؛ بيَّن سبحانه حالَ النوع الثالث من المتخلِّفين: وهم الذين لم يجدوا ما يعتذرون به لرسول اللّه ﷺ؛ فتأخَّروا عن التوبة؛ فأخَّر اللّه أمرهم بعلمٍ وحكمة يعلمها ﷻ(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُرۡجَوۡنَ﴾: الإرجاء: التَّأخير، يقال: أرجأتُ الشَّيء، وأرجَيْتُه أُرجِئه، وأُرْجِيه بهمز وبغير همز: أخَّرْتُه(2). ومعناه المحوريُّ: يدور حول معنى التَّأخير، والتَّأخُّر(3)، ومنه قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾. أي: مؤخَّرُون، ومنه قوله تعالى حاكيًا قولَ ملأِ فرعون: ﴿أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: 111]. أي: أَخِّرْه. وقُرئ: مُرجَؤونَ لأمر اللّه. وقُرئ: أرجِئه وأخاه(4).

❁ المَعنى الإجماليُّ:

تأخيرُ التوبة من الذنب ذنبٌ تجب له توبة

ومن هؤلاء المتخلِّفين عن الخروج معكم - أيُّها المؤمنون - في غزوة (تبوك) آخرون لم يكن لهم عذرٌ، موقوفون ومنتظِرون أمرَ اللّه وحكمه وقضاءه، وهم الذين نَدِموا على ما فَعلوا، وهم: مُرارة بن

(1) جامع البيان، الطبري: 11/668، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/141، وابن عادل، اللّباب: 10/201، والبقاعي، نظم الدرر: 9/14، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/26.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (رجأ).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (رجأ).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رجأ).

الرَّبيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أُميَّة، إمَّا يحجزُهم عن التَّوبة؛ فيعذِّبُهم بذنوبهم بمقتضى عدله سبحانه، وإمَّا يوفِّقُهم للتَّوبة؛ فيتوبون مِنْ ذنوبهم، فيغفرُ لهم برحمته وعفوه، واللّه عليمٌ بأحوالهم، حكيمٌ فيما يفعل بهم(1).

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى التَّخويفِ الشديدِ للمتخلِّفين عن الجهادِ الواجب، والحثِّ لهم على التوبة والندم على ما فرَّطوا، وإلى قَبول اللّهِ التوبةَ؛ إذا كانت توبةً صحيحة؛ لأنَّ اللّه أخبر بذلك في غير ما آية من كتابه العزيز.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ العطف في: ﴿وَءَاخَرُونَ﴾:

ليس المسارع إلى مرضاة الله والتَّوبة كالقاعد المتأخِّر عنها

﴿وَءَاخَرُونَ﴾ عطف على قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ﴾، أي: ومنهم قومٌ آخرون غير المعترفين المذكورين(2)، حيث قسَّمَ اللّه ﷻ المتخلِّفين عن الجهاد ثلاثةَ أقسام:

القسم الأوَّل: المنافقون الذين مَردوا على النِّفاق.

القسم الثَّاني: التَّائبون، وهم المُرادون بقوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ﴾، وبيَّن تعالى أنَّه قبِلَ توبتهم.

والقسم الثَّالث: الذين بقُوا موقوفين، وهم المذكورون في هذه الآية، والفرق بين القسم الثّاني وهذا الثّالث: أنَّ أولئك سارعوا إلى التَّوبة، وهؤلاء لم يسارعوا إليها(3).

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/672، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/97، والنخجواني، الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية: 1/318، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 6/400، والزحيلي، التفسير المنير: 11/36، والهرري، حدائق الروح والريحان: 12/30، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 203.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/15.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/144.

مَن أُوكِل إلى الله كفاهُ، ومَن أُخِّر لتوبتِهِ؛ تابَ عليهِ وهداه

فائدةُ التَّعبير بـ ﴿مُرۡجَوۡنَ﴾ مادَّةً وصيغة:

الإرجاء تأخير ما حَلَّ وقته أو تُوقِّع حلوله[1]، و﴿مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: مؤخَّرون وموقوفٌ أمرهم لأمر الله، أي: إلى أن يظهرَ أمْرُ الله تعالى في شأنهم[2].

و﴿مُرۡجَوۡنَ﴾ على صيغة (اسم مفعول) من (أرجاه) بالألف، وهو مخفَّف (أرْجَأَهُ) بالهمز؛ إذا أخَّره؛ فيقال في مضارعه المخفَّف: أرجيتُهُ بالياء، كقوله: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ﴾ [الأحزاب: 51]، فأصل ﴿مُرۡجَوۡنَ﴾: مرجيُّون[3].

وهذه الصّيغة (اسم المفعول) تصاغ من فعلٍ لم يسمَّ فاعله، وهي في هذا السّياق للعلم بالفاعل؛ فاللّه سبحانه هو مَن أخَّر أمرهم.

بلاغةُ القراءاتِ القرآنيّة المتواترة في قوله تعالى: ﴿مُرۡجَوۡنَ﴾:

خطابُ الله عامٌّ لجميع عباده، لا يخرج عنه إلّا ملعون رجيم

قرأ نافع وحمزةُ والكسائيُّ وحفص عن عاصم وأبو جعفر وخلف ﴿مُرۡجَوۡنَ﴾بسكون الواو بدون همزٍ، على أنه اسم مفعول من (أرجاه) بالألف، وهو مخفَّف أرجأه بالهمز؛ إذا أخَّره، فيقال في مضارعه المخفَّف: أرجيتُه بالياء، كقوله: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ﴾ [الأحزاب: 51] بالياء، فأصل ﴿مُرۡجَوۡنَ﴾ مُرْجَيُون؛ حيث استثقلتِ الضمَّةُ على الياء فحذفت، فالتقى ساكنان: الياء والواو، ثم حذفت الياءُ لالتقاء الساكنين، فصار: ﴿مُرۡجَوۡنَ﴾، ففيه إعلالٌ بالحذف لمناسبة الجمع.

وقرأ البقيَّة: ﴿مُرۡجَـُٔونَ﴾ بهمزة مضمومةٍ بعد الجيم على أصل الفعل، كما قرؤوا بالهمز كذلك: ﴿تُرۡجِئُ مَن تَشَآءُ﴾ [الأحزاب: 51][4].

فـ ﴿مُرۡجَوۡنَ﴾ بغيرِ همزٍ و﴿مُرۡجَـُٔونَ﴾ بِالهَمْزِ لغتان، يقال: أرجأته

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (رجأ).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/17.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/28.
(4) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 1/406، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/28.

وأرجيته كأعطيته، ويحتمل أن تكون الياء بدلًا من الهمزة، كقولهم: قرأتُ وقريتُ وتوضَّأتُ وتوضَّيت، وهو في كلامهم كثير.

وهذا التَّنويع فيه إشارةٌ إلى أنَّ هؤلاء المتخلِّفين عن الجهادِ من قبائلَ مختلفةٍ: من بني واقِفٍ من الأَوس، ومن بني سَلِمةَ من الخَزْرج، ومن من بني عَمْرو بن عَوفٍ من الأَوس، فناسبَ خطابَ كلِّ لسان بطريقته من حيث تحقيقُ الهمز أو تسهيلُه.

معنى اللّام في: ﴿لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾:

واللّام في قوله: ﴿لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ للتَّعليل، أي: مؤخَّرون لأجل أمر اللّه في شأنهم[1].

نكتةُ الحذف في: ﴿لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾:

أمْـرُ الـلـه كلُّه حكمة، وظاهره وباطنه رحمةٌ

في بدائعِ العربية ورشاقتها أن تُسقط من الألفاظ ما يدلُّ عليه غيره، أو ما يرشد إليه سياق الكلام أو دلالة الحال، وأصلُ بلاغتها في هذه الوجازة التي تعتمد على ذكاء القارئ والسّامع[2]. وفي قوله تعالى: ﴿لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ حذفُ مضافٍ، وتقديره: (لأجلِ انتظار أمر اللّه في شأنهم)؛ لأنَّ التَّأخير مشعرٌ بانتظار شيءٍ[3]، فكلُّ حكم من اللّه له ميعاد، ولكلِّ ميعاد حِكْمة؛ فهناك قومٌ عجَّل اللّه بالحكم فيهم، وقومٌ أخَّر اللّه الحكم فيهم؛ ليصفّي الموقف تصفيةَ تربيةٍ لهم في ذاتهم، ولِمَن يشهدونهم؛ لذلك أصدرَ الرسولُ ﷺ أمرًا في الثلاثة الذين نزلت فيهم الآيةُ بأن يُقاطعهم الناس، فلا يكلِّمهم أحدٌ، ولا يسأل عنهم، ولا يختلطُ بهم أحدٌ في السُّوق أو في المسجد، وكذلك عَزلهم عن زوجاتهم، وهو الأمر الذي يصعب التحكُّم فيه، وحذَّر ﷺ زوجاتِهم أن يقربوهم إلى أن يأتي اللّه بأمره، وقد استمرَّت

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/28.
(2) أبو موسى، خصائص التراكيب، ص: 111.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/28.

هذه المقاطعةُ أكثرَ من خمسين يومًا[1]؛ ليتأدَّبوا الأدبَ الذي يؤدِّبهم به المجتمع الإيمانيُّ، فلم يشأ الله لأن يبيِّن الحكمَ حتى يستوفيَ هذا التَّأديب، وإذا أدَّب هؤلاءِ؛ فإنَّ تأديبَهم سيكونُ على مرأى ومسمعٍ من جميع الناس، فيأخذون الأسوةَ من هذا التأديب[2].

وغرضُ الحذف هنا الاختصار أو الإيجاز، وصيانة الجملة من الثِّقل والترهُّل اللَّذين يحدُثان من ذِكر ما تدلُّ عليه القرينة، وإثارة الفكر والحسِّ بالتعويل على المتلقّي في إدراك المعنى[3].

فائدةُ إضافة الأمر إلى الله:

الإضـافـةُ إلى العـظـيـم تـفيدُ الإجـلال والتَّكريم

إضافةُ الأمر للفظ الجلال أفادت تعظيمًا لهذا الأمر، وفيها بيانٌ على أنه أمرٌ لا محالة محقَّق؛ فصاحب الأمر هو الله ﷻ.

الموقعُ البيانيُّ لـ: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾:

لا يحسن الظَّنَّ بالله إلّا مؤمنٌ، ولا يأمن مكرَه إلا فاسق خاسر

جاءت جملة ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ بيانًا لجملة: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ﴾[4]، وقد جاء قوله تعالى: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ في موضع الحال، أي: منهم هؤلاء إمَّا معذَّبين، وإمَّا متوبًا عليهم[5]. والمعنى: أنَّ الله تعالى أبهَمَ على المُخاطَبين أمرَهم[6].

معنى ﴿إِمَّا﴾، والغرض من استعمالها:

كلُّ شيء واقعٌ بمشيئة الله، فلا يجب عليه سبحانه شيء

(إمّا) حرفٌ يدلُّ على أحد شيئَين أو أشياء، ومعناها قريبٌ من معنى (أو) التي للتَّخيير، إلّا أنَّ (إمَّا) تدخُل على كلا الاسمين المخيَّر بين مدلولَيهما، وتحتاج إلى أن تُتلى بالواو، و(أو) لا تدخل إلّا على ثاني الاسمين، وكان التساوي بين الأمرين مع

(1) حديث توبة الله على الثلاثة المخلفين وأحداثه، مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2769).
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 9/5485.
(3) أبو موسى، خصائص التراكيب، ص: 118.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/28.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/17.
(6) القاسمي، محاسن التأويل: 5/499.

(إما) أظهرَ منه مع (أو)؛ لأنَّ (أو) تُشعِر بأنَّ الاسم المعطوف عليه مقصودٌ ابتداء[1]. و(إمّا) تدلُّ أيضًا على تنويعِ أمرهم؛ فهو دائرٌ بين هذين الأمرين.

والمعنى: ليكن أمرُهم عندكم بين الرَّجاء والخوف، والمقصود تفويضُ ذلك إلى إرادة الله تعالى ومشيئته؛ إذ لا يجب عليه سبحانه تعذيب العاصي ولا مغفرة التائب، وإنَّما شُدِّد عليهم مع إخلاصهم - والجهاد فرض كفاية - لما نُقل عن ابن بطَّال في الروض الآنف[2] وارتضاه أنَّ الجهادَ كان على الأنصار خاصَّةً فرضَ عين؛ لأنَّهم بايعوا النَّبيَّ ﷺ، ألا ترى قول راجزهم في الخندق:

نحن الذين بايعوا محمَّدا *** على الجهادِ ما بَقينا أبدا

وهؤلاء من أجلَّتهم؛ فكان تخلُّفهم كبيرةً؛ لأنَّها كالنَّكْث لبيعتهم[3].

غرضُ التَّعبير بالأفعال المضارعة في قوله تعالى: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ﴾:

لا يـــزالُ بـاب التَّوبة مفتوحًا ينادي النّادمين، والـنّـارُ تتربَّص بالمكابرين

عُبِّرَ بالمضارع الدَّالِّ على الاستقبال ترغيبًا وترهيبًا: ترغيبًا لهم في التَّوبة، فيثبتونَ عليها - حيث إنَّ قوله: ﴿يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ يدلُّ على أنَّهم تابوا[4] - وترهيبًا من معصيته والعودة إلى الذُّنوب؛ فقد يميتهم الله حينها دون توبةٍ منها، فيحاسبهم عليها بعذابه.

نكتةُ تقديم العذاب على التوبة:

يـخـوِّف الـلـه عـبـاده؛ لـئـلّا يـغـتـرُّوا، ويطمِّعهم في رحـمـتـه؛ لـئـلّا يقنطوا

التَّعذيب مفيدٌ عدمَ قبول توبتهم حينئذٍ؛ لأنَّ التَّعذيب لا يكون إلّا عن ذنبٍ كبير، وذنبهم هو التخلُّف عن النَّفير العام، وقبول التوبة عمّا مضى فضلٌ من الله[5].

وقدَّم قولَه: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ﴾ - إن أصرُّوا - تخويفًا لهم؛ حملًا على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/28.
(2) السُّهيلي، الروض الأنف: 7/369.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/17.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/28.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/28.

المبادرة إلى التوبة وتصفيتِها والإخلاصِ فيها، وحثًّا على أن يكونَ الخوف؛ ما دام الإنسان صحيحًا أغلب.

ثمَّ ثنَّى بقوله: ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ - أي: إنْ تابوا - ترجيةً لهم، وترقيقًا لقلوبهم بالتَّذكير بمنزل الأُنس الذي أَخرجوا أنفُسهم منه، ومنعوها من حلولِه، وطِيب مستقرِّه ومقيله، وحليِّ أوقاته، وعليِّ مقاماته، وشهيِّ أقواته[1].

تقدير (أن) المصدريَّة مع الفعلَيْن ﴿يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾:

اللهُ قريب من عباده التّائبين، سريعٌ في عقاب المعاندين المصرِّين

في قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُهُمۡ﴾، و﴿يَتُوبُ﴾ فِعلان في معنى المصدر، حُذِفت (أنْ) المصدرية منهما فارتفعا كارتفاع قولهم: (تَسْمَعُ بِالْمُعَيْدِيِّ خيرٌ مِن أنْ تراهُ) برفع المضارع، وهو (تَسْمَعُ)، بعد حذف (أنْ)، وقد جاءت هذه الروايةُ على الأصل في حذف الحرف المصدري مع زوال عَمَلِه؛ لأنَّ الفعلين في الآية الكريمة في موقع ما بعد (إمّا) للاسم، نحو: ﴿إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ [مريم: 75]، بكونه بدلًا، على حسَب حاجةِ العامل الذي قبله، وهو قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ [مريم: 75]، ونحو: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ٨٦﴾ [الكهف: 86][2].

معنى الواو في: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾:

اللهُ سبحانه عليمٌ بأحوال المتخلِّفين كلِّها، حكيمٌ فيما فعَلَ بهم من الإرجاء

الواو هي الواو العاطفة، والعطفُ هنا من باب عطف الجمل، ولفظُ الجلال (اللّه) مبتدأ، و﴿عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ خبراه[3]. وقد أضاف العطف هنا إشارةً إلى أنَّ في تأخيرهم حكمةً؛ فاللّه سبحانه عليم بأحوالهم كلِّها حكيمٌ فيما فعَلَ بهم من الإرجاء[4]، ويمكن أن تكون واوًا للحال على معنى: والحال أنَّ اللّه عليمٌ حكيمٌ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/14 - 15.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/28.
(3) محيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/173.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/18.

بلاغةُ التَّذييلِ بهذين الاسمين الجليلين:

جملة: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تذييلٌ مناسب لإبهام أمر المتخلِّفين على الناس، أي: والله عليم بما يليق بهم من الأمرين، مُحكِمٌ تقديرَه حين تتعلَّق به إرادته[1].

وقد ختمتِ الآيةُ بصفتَي العلم والحكمة؛ ليُعلم أيضًا أنَّ الترديد (إمَّا، وإمَّا) للتقسيم، وأنه إنْ كان شكٌّ؛ فهو بالنسبة للعباد، أمّا الله تعالى؛ فهو منزَّه عنه؛ فذكَّر السامع بالصفتين[2].

لا يُسأل العليمُ عمَّا يفعل، ولا يناقَش الحكيمُ فيما يقدِّر

نكتةُ تقديم ﴿عَلِيمٌ﴾ على ﴿حَكِيمٌ﴾:

قُدِّم لفظ ﴿عَلِيمٌ﴾ على ﴿حَكِيمٌ﴾ لنكتةٍ لطيفة؛ فحُكم اللهِ سبحانه بتأخير أمرهم لعلمه بحالهم، وأنَّه سبحانه هو الحكيم في شأنهم؛ لأنَّه عليم بجميع أحوالهم.

فتقديم ﴿عَلِيمٌ﴾ على ﴿حَكِيمٌ﴾ جاء في غاية المناسبة؛ فهو من باب تقديم السَّبب على المسبَّب: فعِلْمُ اللهِ بحال المخلَّفين سببٌ في حكمته ﷻ وحُكْمِه في أمرهم، والمعنى: ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في قلوب هؤلاء المؤمنين ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يحكم فيهم، ويقضي عليهم[3].

وفي التقديم ترتيبٌ، فالحكمة تكون بعد العلمِ، وهي مسبَّبة عنه، والله أعلم.

سبحانه قدَر؛ فعلِمَ، وغفر؛ فرَحِم، وعزَّ؛ فحكَم، فتبارك ربُّ العالمين

فائدةُ تنكيرِ الاسمين الجليلين:

التَّنكير لإرادة التَّعميم والتَّعظيم، أي: عليمٌ بكلِّ شيء، حكيمٌ في كل أحكامه، فهو سبحانه ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في قلوب هؤلاء المؤمنين، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يحكم فيهم، ويقضي عليهم[4].

لا يعزب شيءٌ عن علم الله، ولا يخرج شيء عن بديع حكمته

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/28.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/15.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/145.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/145.

كما أنَّ وضْعَ الاسم الظّاهر موضعَ الضَّمير فيه إِشارة إلى استقلال الجملة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وبهذهِ الاستقلاليَّةِ تكون الجملة بمنزلةِ قضيَّةٍ كليَّة لها صفة العموم[1]، فالله سبحانه عليم بكلِّ ما يقع في المستقبل ممّا غِيبَ عليكم، حكيمٌ يقدِّر الأمور في نطاق حكمته[2].

غرضُ صيغ المبالغة في: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

لله سبحانه مطلقُ الكمال، ومجمعُ صفات الجلال والجمال

صيغُ المبالغة هنا للدِّلالة على كمال الصِّفتين؛ إذ أُطلِقت على مستحقٍّ للكمال أو الكثرة فيهما، وهو إطلاق على وجه الحقيقة لا على سبيل المبالغةِ، فما يُسمّى بصيغ المبالغة؛ إذا أطلقت على الله ﷻ؛ فهي مطلقةٌ بحسب وضعها اللُّغوي، ولا مبالغة فيها[3].

فالله عليمٌ بما في قلوب هؤلاءِ المؤمنين، وحكيمٌ فيما يُنفِّذه من تنعيمِ مَن شاء، وتعذيبِ مَن شاء؛ لا ربَّ غيره ولا معبودَ سواه[4].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

آخَرُ وغيرُ:

(آخَر) مع المتفق في الجنس، و(غير) مع المغاير في الجنس أو في الصِّفة

الفرق بينهما: أنَّك لو قلت: جاء زيدٌ وآخر معه، أو مررْتُ بامرأة وأخرى معها، أو اشتريت فرسًا وآخر، وسابقت بين حمارٍ وآخرَ، لم يكن آخرُ ولا أخرى مؤنَّثُه، ولا تثنيته ولا جمعه إلا من جنس ما يكون قبلَهُ، ولو قلت: اشتريت ثوبًا وآخر، ويعني به: غيرَ ثوب، لم يجز؛ لأنَّ غيرًا تقع على المغاير في جنس أو في صفة، فتقول: اشتريت ثوبًا وغيرَهُ، فيحتمل أن يكون ثوبًا، ويحتمل أن يكونَ غيرَ ثوب[5].

---

(1) حسن، بلاغة اللغة: 2/104.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3441.
(3) حسن، بلاغة اللغة: 2/456 - 457.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/80.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 4/92، 93.

الإرجاءُ والإمهالُ والإنظارُ:

الإرجــاء تأخيرٌ مشعِرٌ بانتظار شيء محبوب غالبًا

الفرق بينها: أنَّ الإرجاء: تأخيرُ ما حَلَّ وقتهُ أو تُوُقِّع حلولُه[1]؛ فهو تأخيرٌ مُشعِرٌ بانتظار شيء[2]، مع ملاحظة أنَّ هذا الشَّيءَ محبوبٌ غالبًا، وقال المُبرِّد: "لا يقال: أرجيته بمعنى: أخَّرته، ولكن يكون من الرَّجاء"[3]، والإنظار: مقرونٌ بمقدار ما يقع فيه النَّظر، والإمهال مبهمٌ، وقيل: الإنظارُ تأخيرُ العبدِ لينظر في أمره، والإمهالُ تأخيرهُ ليسهل ما يتكلَّفه من عمله[4].

ولمّا كانوا منتظرين أمرَ اللّه في شأنهم، وكانوا على رجاء أن يغفرَ لهم، ويرحمَهم، ويتوبَ عليهم، وكان هذا أمرًا محبوبًا لهم مرغوبًا فيه؛ ناسب ذلك لفظُ الإرجاء دون الإمهال والإنظار.

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (رجأ).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/28.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/252.

(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 202.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨﴾ [التوبة: 107 - 108]

مُناسَبةُ الآيَتَينِ لِمَا قَبلَهُما:

مِنَ المنافقين جماعةٌ اتّخذوا مَسجدًا ضِرارًا وفتنةً وكُفرًا

لـمَّا ذكرَ اللّه ﷻ "أصنافَ المنافقين، وبَيَّنَ طرائقَهمُ المختلفة، عَطَف على ما سبقَ هذه الطّائفةَ منهم، وهمُ الّذين اتَّخذوا مسجدًا ضِرارًا"[1]؛ فبعدَ الحديثِ الطّويل المتنوِّعِ عنِ النّفاق والمنافقين، خَتمتِ السّورةُ الكريمةُ حديثَها عن مسجدِ الضِّرارِ الّذي بناه المنافقون ليكونَ مكانًا للإضرارِ بالإسلام والمسلمين[2].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿مَسۡجِدٗا﴾: (سجد) أصلٌ يَدلُّ على تَطامُنٍ وذُلٍّ، وكلُّ ما ذَلَّ فقد سَجَد، وجُعِلَ ذلك عبارةً عنِ التّذلُّل للّه وعبادَته، ومنه سُجودُ الصّلاةِ، وهو وضْعُ الجَبهةِ على الأرْضِ، والمَسْجِدُ: موضعُ الصّلاة الّذي يُسْجَدُ فيهِ اعتبارًا بالسّجودِ[3].

2) ﴿ضِرَارٗا﴾: (ضرر) أصلٌ يدلُّ على خِلافِ النَّفعِ، الضُّرُّ: سوءُ الحال، إمّا في نفسه لِقلَّةِ العلم والفضلِ والعفَّةِ، وإمّا في بَدَنِه لعدم جارحةٍ ونقصٍ، وإمّا في حالةٍ ظاهرةٍ من قلّة مالٍ وجاهٍ. والضِّرارُ

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 5/394، ويُنظر: الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/146.

(2) طنطاويّ، الوسيط: 6/401.

(3) الجوهريُّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سجد).

فِعالٌ مِنَ الضُّرِّ. والمُضارَّةُ، والمَضَرّة: خِلافُ المَنْفعة. وضَرَّهُ يَضُرُّه ضَرًّا، وضَرَّ بِه وأَضَرَّ به وضَرَّهُ مُضارَّةً وضِرارًا؛ بِمَعْنًى، وقوله تعالى: ﴿مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا﴾ [التّوبة: 107]، بمعنى المُضارَّةِ لمسجد قُباءٍ وللمؤمنين[1].

3) ﴿وَإِرۡصَادٗا﴾: (رصد) أصلٌ، وهو التَّهَيُّؤُ لِرِقْبَةِ شيءٍ على مَسلَكِه، الرَّصَدُ: الاستعدادُ للتَّرقُّب، الرّاصدُ للشّيء: المراقبُ له، والتَّرَصُّدُ: التَّرَقُّبُ[2]، قال ﷺ: ﴿وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ "والإرصادُ: الانتظارُ، فانتظَروا به مجيءَ أبي عامرٍ، وهو الّذي حارب اللّهَ ورسولَه من قبلِ بناءِ مسجدِ الضِّرار"[3].

4) ﴿حَارَبَ﴾: (حرب) أَصلٌ يَدلُّ على السَّلْب، والحَرْبُ: نَقيضُ السِّلم، فالسَّلْبُ من أهمّ أهدافِها، وَجَمْعُها حُرُوبٌ. يُقالُ: وقَعَتْ بينهمْ حَرْبٌ، ودارُ الحَرْبِ: بلادُ المُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا صُلْحَ بينهم وبين المسلمين. وَقَدْ حاربَه مُحارَبةً، والمفاعلةُ للمحاولةِ، أو لِتَبادُلِ السَّلَبِ بين الطّرفَيْن[4].

5) ﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ﴾: (حلف) أَصْلٌ يَدلُّ على المُلازَمَةِ، يُقالُ: حالَفَ فُلانٌ فُلانًا، إذا لازَمَهُ. ومِنَ البابِ: الحَلِفُ؛ يُقالُ: حَلَفَ يَحْلِفُ حَلِفًا؛ وذلك أنَّ الإِنْسانَ يَلزمُهُ الثَّباتُ عليها. الحَلْفُ والحَلِفُ: القسَمُ واليَمينُ، وأَصلُها: العقْدُ بالعَزْمِ وَالنِّيَّةِ، وحَلَفَ: أَقْسَم، يَحْلِفُ حَلْفًا وحَلِفًا[5].

6) ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾: (حسن): أَصْلٌ يَدلُّ على خِلافِ القُبْح، والحُسْنُ: كلّ مُبْهِجٍ مرغوبٍ فيه، وذلك ثلاثةُ أَضْرُبٍ: مُستحْسَنٌ من جهة العقلِ، ومُستحْسَنٌ من جهة الهوى، ومُستحْسَنٌ من جهة الحِسِّ. والحُسنى: ضدُّ السُّوأى، والحسنةُ: كلُّ ما يَسُرُّ من نعمةٍ تَنالُ الإنسانَ في نفسِه وبدنِه وأحوالِه. والفرقُ بينَ الحَسن والحسنةِ والحُسنى: أَنَّ (الحَسَنَ) يُقال في

(1) الجوهريُّ، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ضرر)، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/297، والخازن، لباب التّأويل: 2/406.

(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (رصد).

(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/297.

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (حرب).

(5) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حلف).

الأعيان والأحداثِ، وكذلك (الحَسَنَةُ) إذا كانت وصْفًا، وإذا كانتِ اسمًا فمُتعارَفٌ في الأحداثِ، و(الحُسْنَى) لا يُقال إلّا في الأحداثِ دون الأعيانِ[1].

7) ﴿لَا تَقُمۡ﴾: (قوم) أَصْل يَدُلُّ على انْتِصابٍ أو عَزْمٍ، القِيامُ: نَقِيضُ الْجُلُوسِ، قامَ يَقومُ قِيامًا، فهو قائِمٌ، والقِيامُ على أَضْرُبٍ: قيامٌ بالشّخصِ؛ إمّا بتسخيرٍ أوِ اختيارٍ، وقيامٌ للشَّيءِ هو المراعاةُ للشّيءِ والحفظُ له، وقيامٌ هو على العزم على الشّيء. ومِنَ القِيامِ الّذي هو العزمُ قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: 6]، وقولُه: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [المائدة: 55]، أي: يُديمون فِعْلَها ويحافظون عليها[2]، وقولُه تعالى: ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ﴾، أي: لا تُصَلِّ فيه أبدًا[3].

8) ﴿أُسِّسَ﴾: (أسّ) أصلٌ يدلُّ على الأصلِ والشَّيءِ الوَطيدِ الثَّابتِ، فالأُسُّ: أصلُ البناء، أي: قاعدتُه، والأساسُ: أصلُ الشَّيءِ الّذي يُبنَى عليه ذلك الشَّيءُ، وكُلُّ مُبتدأِ شيءٍ. ويُستعارُ ذلك في المعاني فيُقالُ: أَسَّسَ أمرَهُ على خيرٍ أو شرٍّ[4]. قال تعالى: ﴿أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ﴾، أي: "وَضَعَ أساسَ ما يَبْنِيه"[5].

9) ﴿يَتَطَهَّرُواْۚ﴾: (طهر) أَصْلٌ يَدُلُّ على نَقاءٍ وزَوالِ دَنَسٍ. ومن ذلك: الطُّهْرُ، خِلافُ الدَّنَسِ ونَقيضُ النَّجاسَةِ، والتَّطَهُّرُ: التَّنَزُّهُ عنِ الذَّمِّ وكُلِّ قبيحٍ. والطَّهارَةُ ضَرْبانِ: طَهارَةُ جسمٍ، وطَهارَةُ نَفْسٍ، قال تعالى: ﴿وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾، أي: التّاركين للذَّنْبِ، والعامِلين للصَّلاحِ[6]، وقال تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾، فإنّه يعني تَطْهيرَ النّفسِ، "أي: مِنَ الشِّركِ والنِّفاقِ والأَنْجاسِ"[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبرُ اللّه تعالى عن قصّةٍ أخرَى من قصصِ المنافقين، ومكيدةٍ من مكايدِ جماعةٍ منهم، وهمُ الّذين بنَوا مسجدًا مُضارَّةً للمؤمنين وكُفرًا باللّه، وتفريقًا بين المؤمنين؛

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (حسن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قوم).
(3) الواحديّ، البسيط: 11/48.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (أسّ، أسس).
(5) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/710.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (طهر).
(7) الواحديّ، البسيط: 11/51.

ليصلّيَ فيه بعضُهم ويترك مسجدَ (قباء)، فيختلفَ المسلمون ويتفرّقوا بسببِ ذلك، وانتظارًا لِمَنْ حاربَ اللّهَ ورسولَه، وهو أبو عامرٍ الرّاهبُ الفاسقُ، ليكونَ مكانًا للكَيْدِ، ولَيحلفُنَّ أنّهم ما أرادوا ببنائِه إلّا الخيرَ والرّفقَ بالمسلمين والتَّوسعةَ على الضّعفاء العاجِزين عنِ السّير إلى مسجدِ (قباء)، واللّه يشهدُ إنّهم كاذبون فيما يَحلفون عليه. ونَهى اللّه تعالى نبيَّه ﷺ عنِ الصّلاة في ذلك المسجدِ؛ فإنّ المسجدَ الّذي أُسِّسَ على التّقوى من أوّلِ يوم أولَى أن تقومَ فيه للصّلاة، إذ فيه رجالٌ يحبّون أن يَتطهّروا بالماء منَ النّجاسات والأقذارِ، كما يتطهّرون بالتّورّعِ والاستغفارِ منَ الذّنوب والمعاصي، واللّه يحبُّ المتطهِّرين[1].

بِنــاءُ مسجدِ الضِّرارِ بالمبادَرة الكائدةِ، يُنبئُ ببُطلانِ العملِ بالنّيّةِ الفاسدةِ

قِصّةُ مسجدِ الضِّرارِ:

ما كان بناؤه للضِّرارِ والتّفريقِ، لم يُغنِ عنه شِعارٌ ولا تزويقٌ

كان بالمدينة قبْلَ مَقْدَم رسولِ اللّه ﷺ إليها رجلٌ منَ الخزرجِ يُقال له: أبو عامرٍ الرّاهبُ، كان قد تنصّرَ وقرأ علْمَ أهلِ الكتاب، وكان له منزلةٌ كبيرةٌ فيهم، فلمّا قدِم رسولُ اللّه ﷺ إلى المدينة مهاجِرًا واجتمعَ عليه المسلمون، وعَلَتْ كلمةُ الإسلام، وأظهرَه اللّه على أهل الشّرك خرج فارًّا إلى مكّةَ، وألَّبَ المشركين على النّبيّ ﷺ في وقْعةِ أُحدٍ، وخاطب قومَه الأنصارَ؛ ليَستميلَهم إلى نصْرِه، فَسَبّوه وردّوه أقبحَ ردٍّ. ولمّا فرغَ النّاسُ منَ الموقعةِ، فرَّ إلى هِرَقْلَ ملكِ الرّوم يَستَنْصِرُه، فوعدَه وحباه، وكتَبَ أبو عامرٍ إلى جماعة من قومِه من أهلِ النّفاقِ أنّه سيَقْدُمُ بجيش يقاتلُ به محمّدًا ﷺ ويغلبُه، وأمرَهم أن يتّخذوا له مَعْقِلًا يأوي إليه، ويكونَ مرصدًا له إذا قَدِم عليهم بعد ذلك. فشَرعوا في بناء مسجدٍ مجاورٍ لمسجد قُباء، فبَنَوه وأحكموا بناءَه وفرَغوا منه قبل خروج رسولِ اللّه ﷺ إلى تبوكَ، وجاؤوا فسَألوه أن يصلّيَ فيه ليكونَ ذلك ذريعةً إلى تقريره لإثباتِه، وذكروا

(1) جماعة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 204.

أنّهم إنّما بَنَوه للضّعفاءِ منهم وأهلِ العِلّةِ في اللّيلةِ الشّاتيةِ، فعَصَمه اللّه منَ الصّلاةِ فيه، فقال: "إنّا على جَناح سفَرٍ، ولكنْ إذا رجعنا إن شاء اللّه"(1). ولمّا قفل ﷺ راجعًا إلى المدينة من تبوكَ ولم يبقَ بينه وبينها إلّا يومٌ أو بعضُ يوم؛ نزل عليه جبريلُ عليه السلام بخبر مسجدِ الضِّرارِ وما اعتمدَه بانوهُ منَ الكفرِ والتّفريقِ بين جماعةِ المؤمنين في مسجدِهم (مسجدِ قباء) الّذي أُسّس من أوّل يوم على التّقوى، فبعث رسولُ اللّه ﷺ إلى ذلك المسجد مَنْ يَهدِمُه قبل مَقدَمه المدينةَ، وأمرَ أن يُتّخذَ كُناسَةً تُلقَى فيها القُمامةُ إهانةً لأهله(2).

سببُ نزولِ الآياتِ:

ما بُنِيَ على باطلٍ فهو زاهقٌ، واللّه عاصمٌ رسولَه الأكرمَ من كلِّ منافقٍ

"عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا﴾ هم أناسٌ منَ الأنصار ابتَنوا مسجدًا، فقال لهم أبو عامرٍ: ابْنوا مسجدَكم، واستعِدُّوا بما استطعتُمْ من قوّة ومن سلاحٍ، فإنّي ذاهب إلى قيصرَ ملكِ الرّوم، فآتي بجندٍ منَ الرّوم، فأُخْرِجُ محمّدًا وأصحابَه، فلمّا فَرغوا من مسجدِهم، أتوا النّبيَّ ﷺ فقالوا: قد فرغْنا من بناء مسجدِنا، فنحبُّ أن تصلّيَ فيه، وتدعو لنا بالبركة، فأنزل اللّه تعالى فيه: ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾، إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾"(3).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغةُ توجيهِ القراءاتِ المتواترةِ بين الاستئنافِ أوِ العطفِ:

الاستئنافُ لبيانِ الاختلافِ، والعطفُ لبيانِ ما في النّفاقِ من أصنافٍ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا﴾ قُرِئَ بالعطف والاستئنافِ، فقد قرأ نافعٌ وابنُ عامر وأبو جعفر بحذف الواو، وقرأ

(1) الصّالحيّ، سبل الهدى والرّشاد: 5/471.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/210 - 211، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/25.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/470، والبيهقيّ، دلائل النّبوّة: 5/263، والواحديّ، أسباب النُّزول، ص: 259، وقال محقّقه: إسناده صحيح.

الباقون بإثبات الواو(1)؛ أمّا العطفُ فعلى قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّها مثلُها في ذِكْرِ فريقٍ آخرَ مثل مَنْ ذكر فيما قبْلَها، فعطفَ قصّةَ مسجدِ الضّرارِ الّذي أحدثَه المنافقون على سائر قصصِهم، أي: ومنهم الّذين اتّخذوا(2). أمّا الاستئنافُ فلِأنّها قصّةٌ مستقلّةٌ جديدةٌ، وفائدةُ الاستئنافِ التّنبيهُ على الاختلافِ بين حالِ المرادِ بها، وبين حالِ المرادِ بالجملةِ الّتي قبلَها وهمُ المُرْجَونَ لأمرِ اللّه(3).

نُكْتَةُ الابتِداءِ بالاسْمِ الموصولِ، وبيانُ خبرِه:

النّهيُ عنِ صلاةِ النّبيِّ المختارِ، في المسجدِ الّذي اتُّخذَ للضِّرارِ

ابتدأَ بالموصولِ في قولِه ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا﴾ ذمًّا لهم؛ لأنّهم قومٌ معروفون بنفاقِهم، وذكرَهمُ المفسّرون باسْمِهم، وهم "منافقو بني غَنْم بن عوف وبني سالم بن عوف"(4). وخبرُه يجوزُ أن يكون محذوفًا، أي: ومِمّن ذكرْنا الّذين(5)، ويجوزُ أن يكونَ الجملةَ: ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ﴾، والرّابطُ الضّميرُ في الجارِّ والمجرور ﴿فِيهِ﴾؛ لأنّه عائدٌ إلى المسجد المذكورِ في صلةِ الموصول، والتّقديرُ: لا تَقُمْ في مسجدٍ اتَّخذوه ضِرارًا، أو في مسجدِهم(6).

دَلالةُ التّعبيرِ بصيغة الافتعال في ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾:

إخراجُ المسجدِ عن غايتِه، جعلَه مَثابةً للكفرِ والكيْدِ من بدايتِه

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا﴾ عن جَعْلِهم المسجدَ الّذي بنَوْه للضّرر بالمؤمنين والكفرِ وغيرِه بالاتّخاذ؛ للدّلالةِ على أنّهم قصَدوا ذلك، وأصَرّوا عليه، وعقَدوا عليه العزمَ؛ لأنّ الاتّخاذَ على وزنِ (الافتعال) مِن (أخذَ)(7).

(1) ابن الجزري، النشر: 2/281.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/309، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/80.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/101، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/29.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/81.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/147.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/29.
(7) الرّاغب، المفردات: (أخذ).

والافتعالُ يدلُّ على التّكلّفِ والقصْدِ، كما يدلّ على أنّهم أَخرَجوا المسجدَ عن غايتِه المعروفةِ؛ فالأصلُ في المسجدِ أن يُبنى للعبادة، ولكنّهم بَنَوه ظاهرًا للعبادة ثمّ حوَّلوهُ وجعَلوه لتلك المآربِ الضّالّةِ.

الموقعُ النّحويُّ للمنصوباتِ في الآيةِ:

غـايـةُ الـكـيْـدِ الـعـــامـــدةُ، عصفتْ بمؤامرة النّفاقِ الفاسدةِ

ذهب جمهرةٌ من أئمّة التّفسير إلى أنّ المنصوباتِ في قوله تعالى: ﴿مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا﴾ إنّما نُصبت لبيانِ الغايةِ من ذلك المسجدِ، فهي مفعولٌ لأجلِه، أي: اتّخذوا المسجدَ للضِّرار والكفرِ والتّفريقِ والإرصادِ، فهو بيانٌ لعلَّةٍ[1]؛ فهو لإظهار قصْدِهم من بنائِهم ذلك المسجدَ.

وتركيبُ الجملة يَحْتَمِلُ أن تُعربَ هذه المنصوباتُ أكثرَ من إعرابٍ، فيجوزُ بالإضافة إلى كونِها مفعولًا لأجله أن تكون مفعولًا ثانيًا للفعل ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾، أو مفعولًا مطلقًا، أي: يُضارّون بذلك ضِرارًا، أو حالًا، أي: مُضارّينَ لإخوانهم، وكلُّ هذه الأوجهِ متساويةُ الرُّجْحانِ[2].

نُكْتَةُ التَّنكيرِ في الآيةِ:

كلُّ مسجدٍ بُني لـغـيـرِ رضـــوانِ الـلـه، يُلـحـقُّ بِمَسْجِدِ الضِّرارِ في العنوانِ

جاءت هذه الألفاظُ بالتّنكيرِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا﴾ لأغراضٍ متنوّعة؛ فقد يكونُ التّنكيرُ للتّعميم؛ ليشملَ أوّلًا: كلَّ المساجدِ الّتي تُتَّخذُ لذلك القصْدِ الضّالّ، فيكونُ الوصفُ عامًّا لا خاصًّا بهذا المسجدِ. وثانيًا: ليشملَ كلَّ أنواعِ الإضرارِ والكفرِ والتّفريقِ والإرصادِ، فجاء الكلامُ على مقصَدِ الشّمولِ، فكلُّ "مسجدٍ بُنِيَ مباهاةً أو رياءً وسمعةً أو لغرضٍ سوى ابتغاءِ وجهِ اللّه أو بمالٍ غيرِ طيّبٍ، فهو لاحِقٌ بمسجدِ الضِّرارِ"[3]، وقد يكونُ للتّحقيرِ تهوينًا من شأنها،

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/468، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 146، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/254.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/173.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/310.

ويمكنُ حملُها على التّعظيم على اعتبارِ أنّه ضررٌ وكفرٌ وتفريقٌ وإرصادٌ يتّصفُ بالعِظَم.

بَلاغةُ حذْفِ مُتعلّقاتِ: ﴿ضِرَارًا﴾ و﴿وَكُفۡرًا﴾:

الإطلاقُ والتّقييدُ، بسببِ أغراضِ الضِّرارِ، وأسبابِ الكُفرِ العتيدِ

في قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا﴾ حذَفَ متعلِّقَ الإضرارِ والكفرِ، فذكرَهما على وجه الإطلاقِ؛ وبيّن أنّ المرادَ الإضرارُ بالمؤمنين، سواءً قصدَ بهم أهلَ قباء خاصّةً أو عامّةَ المؤمنين، وبيّن أنّ المرادَ بالكفرِ كفرُهم باللّه تعالى ورسوله ﷺ[1].

فحذَفَ متعلّقاتِ الضّرارِ والكفرِ؛ فلم يقل مثلًا: ضرارًا للدّين وكفرًا بالإيمان، كما قال: ﴿وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ﴾؛ إيجازًا في التّعبير، وتعويلًا على وضوح معناها، كما أنّ فيه تعميمًا لكلّ ضررٍ منهم، وكُفرٍ يصدرُ عنهم.

أمّا قولُه تعالى: ﴿وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فقد خصَّ التّفريقَ بأنّه كائنٌ بين المؤمنين، وأنّ الإرصادَ خاصٌّ لِمَنْ حارب اللّه ورسولَه ﷺ، ولم يعمِّمْهما كما في الإضرارِ والكفرِ؛ لأنّ الإرصادَ والتّفريقَ لا يتعلّق بمعروفٍ ومحدَّدٍ، فلو حُذف ما فُهِم المرادُ.

نُكْتَةُ التّرتيبِ في العطف بين عِللِ اتّخاذِ المسجدِ:

ترتيبُ الأسبابِ مِنَ الأعمِّ إلى الأخصِّ، مُبينٌ عنِ المراد، مُسفِرٌ عنِ المعنى المُستفادِ

في قوله تعالى: ﴿ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا﴾ ذكر ﷻ أنّ بناءَهمُ المسجدَ كان له أربعةُ أهداف: "الأوّل: الضّرارُ وهو المُضارّةُ، والثّاني: الكفرُ بالنّبيّ ﷺ، وبالإسلام؛ وذلك أنّهم أرادوا تقويةَ أهلِ النّفاق، والثّالث: التّفريقُ بين المؤمنين؛ لأنّهم أرادوا أن لا يحضُروا مسجدَ قباء فتقِلَّ جماعتُهم، ولا سيّما إذا صلّى النّبيّ في مسجدِهم، فيُؤدّي ذلك إلى اختلاف الكلمةِ وبُطلانِ الأُلفة،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/16، والعليميّ، فتح الرَّحمن: 3/240.

والرّابع: قولُه: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾"[1]. وجاء التّرتيبُ في هذه الأسباب حيث بدأ منَ الأعمّ إلى الأخصّ؛ فالإضرارُ سببٌ عامّ يشملُ جميعَ ما ذُكر بعده، والكفرُ بتقويةِ أهل النّفاقِ وإضرارِ المؤمنين، والتّفريقُ أخصُّ منَ الإضرار والكفرِ، والإرصادُ لِمَنْ حارب اللّه ورسولَه أخصُّ المذكوراتِ.

معنى اللّام في: ﴿لِّمَنْ﴾، في السّياق:

الغـرَضُ من بناءِ المسجدِ، إرصادٌ خاصٌّ بمَنْ حاربَ الله ورسولَه

أدخل اللّامَ في قوله تعالى: ﴿لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ للدّلالةِ على العلّة، أي: إعدادًا لأجلِ هذا المنافقِ الّذي حاربَ اللّه ورسولَه ﷺ[2]، فكان المقصودُ بذلك الإرصادَ الّذي حاربَ الإسلامَ، فهو إرصادٌ مخصوصٌ.

معنى (مَن) في: ﴿لِّمَنْ حَارَبَ﴾:

جعَلوا المسجدَ مثابةً لكلّ عدوٍّ للإسلامِ، ليكونَ مُنطلَقَ غُروره وشُروره

عبّرَ عنِ الّذي حاربَ الإسلامَ بـ (مَن) في قوله جلّ شأنُه: ﴿لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ والمُراد به "أبو عامرٍ الرّاهبُ؛ لأنّه حاربَ رسولَ اللّه ﷺ مع الأحزاب، وحاربَه مع ثقيفٍ وهَوازنَ"[3]. وإنّما عبّرَ عنه بالموصول دون ذِكرِ الاسم تعميمًا للحُكم؛ فلا يختصُّ به وإن كان السّياقُ فيه فإنّ العبرةَ بعموم اللّفظ، أي أنّهم أرادوا الإرصادَ به لكلِّ مَنْ يحاربُ الإسلامَ، وليس لشخصٍ واحدٍ بعينه، كما أنّ فيه إغفالًا عن ذكرِه تحقيرًا له وتهوينًا من شأنِه.

دَلالةُ التّعبيرِ بصيغة فاعَلَ في: ﴿حَارَبَ﴾:

الحربُ مشاركةٌ بين طرفَيْن، ونِزال بين طائفتين

تقدّمَ أنّ الحربَ أَصلٌ يدلّ على السَّلْبِ، وعبّرَ بالفعل على وزن (فاعل) في قوله تعالى: ﴿لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، وهذه الصّيغةُ تدلُّ على المفاعلةِ، قال سيبَويْه: "اعلم أنّك إذا قلتَ: فاعلتُه، فقد

(1) النّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 3/528.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/310، والعليميّ، فتح الرّحمن: 3/241.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/30.

كان من غيرك إليك مثلُ ما كان منك إليه حين قلتَ: فاعلتُه. ومثل ذلك: ضاربتُه وفارقتُه"[1]. فتدلُّ على المشاركة، ولكنَّ البادئَ بالفعل مَنْ كان فاعلًا، ففي قولنا: ضاربَ زيدٌ عَمْرًا، يُنسبُ أصلُ الضّرب إلى زيدٍ صراحةً، ولكنّه يجيءُ من عمروٍ ضِمنًا، وانتصابُ عمروٍ على أنّه مشارِكٌ وليس على أنّه مضروبٌ[2]، وفي الآية يدلّ على أنّه أعلنَ حربَه على الإسلام، وأنّ المحاربةَ منَ اللّه تعالى ورسولِه له على المشاركة؛ لأنّ اللّه تعالى لا يبدأُ أحدًا بحربٍ ما لم يكن قد ولجَ هو إليها، وتدلُّ صيغةُ المفاعلة على المبالغة أيضًا؛ لأنّهم بفعلَتِهم هذه قد تمادَوْا في العِصيان.

بَلاغةُ المجازِ العقليّ في: ﴿حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾:

لا يَسَعُ أَحدًا مُحاربةُ اللّه تعالى، وإنّما حارَبوا دينَه العظيمَ، وهدْيَه القويمَ

في نسبة المحاربةِ إلى اللّه في قوله ﷻ: ﴿حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ مجازٌ عقليٌّ، أراد محاربةَ الدّين؛ إذ ليس في وُسْعِ أحدٍ محاربةُ اللّه تعالى، واللّه ﷻ لا يُحارَبُ، فالمرادُ بالمحاربةِ محاربةُ الدّين، والعلاقةُ السّببيّةُ، فسببُ الدِّين هو اللّه تعالى ونبيُّه ﷺ، فذكرَ المسبِّبَ وأراد المسبَّبَ، وهو الدّينُ، وعبّرَ بذلك تشنيعًا لهذه المحاربةِ بإظهار لفظِ الجلالةِ.

فائدةُ عطْفِ الرّسولِ ﷺ في: ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾:

مُحاربةُ النّبيّ ﷺ من مُحاربةِ اللّه تعالى

في قوله جلّ شأنُه: ﴿حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ عَطَفَ الرَّسولَ على اللّه تعالى، وكان المقصودُ بالمحاربة هو النّبيُّ بالدّرجةِ الأساسِ، وإنّما ذِكْرُ اللّه تعالى في هذا السّياق كان لغرضِ تعظيم محاربةِ النّبيّ ﷺ؛ فالّذين يحاربون النّبيَّ إنّما يحاربون اللّه، فذِكْرُ اللّه تعالى تمهيدٌ لتعظيم رسولِه ﷺ، وبيانٌ لشَناعةِ محاربتِه ﷺ"[3].

(1) سيبويه، الكتاب: 4/68.
(2) الرّضيّ، شرح الشّافية: 1/96.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/334، وابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/445.

نُكْتَةِ إضافةِ الرّسولِ إلى ضميرِ الذّاتِ العَليّةِ:

عظَّمَ الله شأنَه بإضافتِه إليه، تكريمًا وإبرازًا لمقامِه لديْه

آثر النّظمُ الكريمُ أن يأتي لفظُ الرّسول في قوله تعالى: ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ معرَّفًا بالإضافة دون التّعريف بالألف واللّام؛ تشريفًا لشأن النّبيِّ ﷺ؛ وذلك بإضافته إلى الضّمير المعبِّر عنِ الذّاتِ العَليَّة؛ إذِ المضافُ يكتسبُ منَ المضاف إليه التّعريفَ، أمّا إذا أضيفَ إلى الشّريفِ فإنّه يكتسبُ مع المعرفةِ التّشريفَ، وأَعْظِمْ به من تعريفٍ وتشريفٍ بإضافة المعرَّفِ إلى الخالقِ العظيم!

معنى ﴿مِن﴾ في: ﴿مِن قَبۡلُۚ﴾:

بيانُ أنّ ابتِداءَ محارَبتِهم الإسلامَ، كانت قبلَ اتّخاذِهم المسجدَ ضِرارًا

عبّرَ عن ابتداءِ زمانِ محاربتِهم في قوله تعالى: ﴿لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾؛ إذ إنّ (مِن) ابتدائيّةٌ، وهذا يدلّ على أنّ محاربتَهم كانت قبل اتّخاذِ هذا المسجدِ للضِّرار، كما أنّه يدلُّ على أنّهم اتّخذوا ذلك المسجدَ لذلك المقصَدِ قبل أن يُنافِقَ هؤلاء بالتّخلُّف[1].

فائدةُ التّعبيرِ بشِبْهِ الجملةِ: ﴿مِن قَبۡلُۚ﴾:

إفـادةُ أنّ وقتَ محارَبتِهم، كان قبلَ بناءِ المسجدِ بزمانٍ قريبٍ

دلَّ الظَّرفُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ أنّ بداية محاربتِهم لم تكن متوغِّلةً في القِدَم؛ إذ "لـمّا لم تكن محارَبتُهم مُستغرِقةً للزّمن الماضي، أدخل الجارَّ فقال: ﴿مِن قَبۡلُۚ﴾، أي: قبل اتّخاذِهم لهذا المسجدِ بزمنٍ قريبٍ"[2]. فليس الزّمانُ مطلَقًا، بلِ ابتدأ قبْلَ بناءِ المسجد الّذي يعرفون وقتَ بنائه، وإنّما عرفوه لكونه قريبَ عهْدٍ وما زال الحديثُ جاريًا فيه، فهو تعبيرٌ عن أحداثٍ متتاليةٍ متسارعةٍ، حارَبوا فبَنَوا مسجدًا مَثابَةً لهم.

معنى الواو في: ﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ﴾:

قولُه ﷻ: ﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ افتتحَ بالواو، ويَحتمِلُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/310، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/204، وابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/445.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/16 - 17.

معنى الواوِ بين العطْفِ أوِ الاستئنافِ؛ أوِ الحاليَّةِ، وأثرُ ذلك في السّياقِ

فيها أن تكونَ عاطفةً على ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾، أوِ استئنافيّةً، أو حاليّةً، وتكونَ الجملةُ معترِضةً، أو في موضع الحالِ[1]، وتقديرُ الحاليّةِ: اتّخَذوا المسجدَ في حالة يمينِهم أنّهم قصَدوا به الإحسان للمسلمين، أمّا الاعتراضُ فَللرَّدِّ على انْطلاءِ شُبَهِهم على النّاس؛ إذ لمّا أمرَ النّبيُّ ﷺ بهدمِ مسجدِهم فكان أن أَظْهَروا حُسْنَ نيَّتِهم وأقسَموا على ذلك، فكان ذلك مَظِنَّةَ أن ينخدعَ به النّاسُ، فعجَّلَ ببيان كَذِبهم في ذلك، فاعترَض بما يُبيّنُ كذِبَهم؛ حتّى لا يبقى لكذِبهم من أثرٍ على النّفوس من شيءٍ، وذلك قبلَ استيفاءِ الجملةِ خبرَها وهو الجملةُ ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ﴾ فجاء الاعتراضُ في موقعٍ حسنٍ.

معنى اللّام في ﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ﴾، ودَلالةُ المؤكّداتِ فيها:

اللّام مُوطِّئةٌ للقَسَم لغرَضِ تأكيدِ ذلك الاتّخاذِ، مُقترِنًا باليمينِ الكاذبِ

بيَّن النّظمُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ أنّهم أفصَحوا عن غرضِهم ونيّتِهم التي زعَموا بكلامٍ مؤكَّدٍ، فعبَّر اللهُ عن بالغِ كَذِبهم؛ بأن أكّدَ حَلِفَهم باللّام والنّون التّوكيديّة، فاللّام في جواب قسَمٍ محذوفٍ تقديرُه: واللهِ لَيحلِفُنَّ، وهم كاذبون في ذلك[2]، فأكّدَ مقولتَهم ليدلّ على فُحْش كذبِهم وشدّةِ ضلالِهم، فهم يَعرِضون الكذبَ في سياق التّأكيدِ على صحّتِه، تعميةً لنفاقِهم وسوءِ مقصدِهم بهذه المؤكّدات. وجاء التّأكيدُ إنكارًا وتهويلًا للتّعجيب من حالهم؛ إذ إنّهم أقسموا الأيمانَ المؤكَّدةَ على الكذب.

الموقعُ النّحويُّ لـ: ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾:

الدّأبُ على كذِبِ المنافقين، شأنُ كلِّ منافقٍ كذوبٍ

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ لا محلَّ لها منَ الإعراب؛ لأنّها جوابُ قسَمٍ لقوله: ﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ﴾[3]، والتّقدير: وَلَيَحْلِفُنَّ قائلين: واللهِ ما نريدُ إلّا الحسنى.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/30، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 6/31.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرُّ المصون: 6/120، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/395، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/709.

(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/204، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 6/32.

معنى ﴿إِنۡ﴾ في: ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ﴾:

افتتح قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ بحرف النّفي (إن) أي: "ليحلِفُنَّ ما أردنا ببنائِه إلَّا الفِعلةَ الحُسنى"[1]. ولم يأتِ النّفيُ بـ (ما)؛ لأنّ النّفيَ بـ (إن) أكثرُ تأكيدًا ومبالغةً، ولذا كانت في الاستعمالِ القرآنيِّ غالبًا ما تأتي مع (إلّا) والقصرُ فيه تأكيدٌ للمعنى، أمّا (ما) فتأتي مع الحصْرِ لكنْ ليس هو الغالبُ عليها، ويلاحظُ أنّ هناك انسجامًا صوتيًّا بين (إن) و(إلّا) بالافتتاحِ بالهمزة المكسورةِ، وهذا يُعطي إضافةً للقوّة في التّعبيرِ بهذيْن الحرفَيْن معًا؛ فلذا فإنّ قولَهم: ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ يدلّ على أنّهم ساقوا كلامَهم على وجه التّأكيدِ والقطعِ إيغالًا في خداعِهم وكذبِهم.

(إن) حرفُ نَفْي يـقـتـرنُ غـالـبًـا بـالاسـتـثـنـاءِ، وفيه دَلالةٌ على النّفْيِ المؤكَّدِ

نُكْتَة تلوينِ الخطابِ، مِنَ الغَيبةِ إلى التَّكَلُّم:

قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ﴾ انتقالٌ مِنَ الغَيْبَةِ إلى التّكلّم؛ حكايةً لقولِهم على وجهِ النّصِّ، وتلوينًا للخطابِ، فأَخبرَ بضمير الغَيبة عن حَلِفِهم، ثمّ أتى بنصِّ حَلِفهم ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ﴾، فلو قال: (إن أرادوا) لاحْتَمَلَ أنّ ذلك نُقل بالمعنى، فأُوثِر الانتقالُ مِنَ الإخبارِ عنهم إلى الانتقال إليهم؛ ليكونَ لسانُهم حجّةً عليهم، كما أنَّ فيه استحضارًا وتصويرًا لهم، وهم يَسْرُدون تلك الأيمانَ الغِلاظَ.

انتقلَ مِنَ الغَيبةِ إلى التّكلّم، لِيَحكيَ ما قالوه بنصِّه

بَلاغةُ القَصْرِ بالاستثناءِ بعد النّفْي:

في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ قصرٌ بالاستثناء، ودَلالةُ هذه الطّريقة في القصْرِ أنّها تُستعملُ "في حُكم مِن شأنه أن يَجهلَه المخاطَبُ ويُنكِره، ويُحتاجُ فيه إلى تأكيدٍ"[2]، فلمّا رأى المنافقون انفضاحَ أمرِهم وانكشافَه وإنكارَ المؤمنين عليهم؛ أقسَموا على صدْقِهم بطريقةٍ توحي للمخاطَبِ بأنّه يجهل صِدْقَهم، ولذا احتاجوا

القَصْرُ بالاستثناءِ، لِغَرَضِ تأكيدِ اقتصارِ إرادتِهم، على الخيْرِ والحُسْنِ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/146، والخازن، لباب التّأويل: 2/406.

(2) الجناجيُّ، البلاغة الصّافية، ص: 175.

إلى تأكيد جملةِ القسَمِ، فحصروا "إرادتَهم في إرادة ما هو حسنٌ في ذاته، وغايتِه"[1].

نوعُ القصْرِ من حيثُ الواقعُ والمخاطَبون:

القصرُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ قَصْرُ موصوفٍ على صفةٍ، وهو قصرٌ إضافيٌّ من حيث الواقعُ؛ فقَصَروا إرادتَهم على الحُسنى، والإرادةُ لا تنحصرُ بذلك ولكنّها بالنّظرِ إلى المسجد فإنّها مُنحصرةٌ بذلك، فجاء قصرُ الإرادةِ على ذلك بناءً على انكشاف سوءِ إرادتِهم وفسادِها، فنَفَوا أن تكون لغير الحُسنى، وهو قصرُ قلبٍ من حيث حالُ المخاطَبين؛ فالمخاطَبُ بهذا القصْرِ همُ المسلمون والنّبيّ ﷺ يعتقدُ عكسَ الحُكمِ الّذي يريد المتكلّمُ أن يُثبتَه.

قَصْرُ قلبٍ لعكسِ ما اعتقدَه المسلمون، وإضافيٌّ لحصْرِ الإرادةِ بشأنِ المسجدِ

معنى (أل) في: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ عرّف ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بالألف واللّامِ الدّالّةِ على الجنس، والمعنى: أنّهم عبّروا عن إرادتِهم جِنْسَ الخير، وفي ذلك مبالغةٌ في قولِهم على صدْقِهم، وحُسنِ نيّتِهم.

بالغوا بتزكيةِ أنفُسِهم، مُبرّرين ذلك بإرادتِهم كلَّ الصِّفاتِ الحسنةِ

فائدةُ الحذْفِ في التّعبيرِ بالمصدرِ: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾:

في قوله ﷻ: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ جاء ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ صفةً لموصوفٍ محذوفٍ، تقديرُه: إلّا الخصلةَ الحُسنى، أو إلّا الإرادةَ الحُسنى[2]، وصفوا إرادتَهُمُ الخيرَ بالمصدرِ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ للدّلالة على المبالغةِ في وَصْفِ إرادتِهمُ الخيرَ؛ لأنّ الوصْفَ بالمصدر يدلُّ على المبالغة، وحُذفَ الموصوفُ إيجازًا.

وَصْفُ إرادةِ الخيرِ بالمصدرِ، للمبالغةِ في تزكيةِ أنفُسِهم

معنى الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ﴾، وموقعُ الجملةِ بعدَها:

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ معطوفةٌ على قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾، وقد تكون

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3444.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرُّ المصون: 6/121، والخفاجيّ، عناية القاضي: 4/362.

الواو اعتراضيّة، فتكونُ جملةً معترِضةً[1] معطوفةً على الاعتراض قبلَها، فأراد أن يبيّنَ أنّهم كاذبون في يمينِهم هذا، ليتمَّ الإيضاحُ بالاعتراضِ، قبلَ أن يأتي بالمسنَدِ في قوله: ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ﴾. ويمكنُ أن تكون حاليّةً على معنى: يفعلون ما يفعلون والحالُ أنَّ اللّه يشهدُ على كَذِبهم.

عَطَفَ شهادتَه تعالى بكونِهم كاذبين، إكمالًا للاعتراضِ، وإيضاحًا للمرادِ

بَلاغةُ تتابُعِ المؤكِّداتِ، في فاصلةِ الآيةِ:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ جاء الاعتراضُ مؤكَّدًا لبيان أنّهم بالَغوا في إثبات صدۡقِهم وصلاحِ نيّتِهم ومقصدِهم، فلمّا عبّرَ عن تأكيدِ حَلِفهم كاذبين بَيَّن كذِبَهم على جهة التّأكيدِ بذكۡرِ المسنَدِ إليه والمسنَدِ الفعليِّ ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ﴾؛ حيث أفادَ تقويةَ الحُكم، وكذلك "بـ (إنّ) المؤكِّدةِ لما بعدَها، وبالجملةِ الاسميّةِ، وبلام التّوكيدِ"[2]، فجاء التّأكيدُ في الجُملتَين؛ ليتناسبَ تأكيدُه على كذبِهم مع تأكيدِهم بإثباتِ صدۡقِهم.

الرّدُّ على شدّةِ تكذيبِهم، وإغلاظِهم في اليمينِ الغموسِ، من مُتطلّباتِ الإبانةِ هنا

نُكۡتَةُ التّعبيرِ بـ ﴿يَشۡهَدُ﴾ مادّةً وصيغةً:

عبَّرَ عن تأكيد كذِبهم في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ بالشّهادةِ؛ لأنّ مادّتَها تدلُّ على مطابقة الكلامِ للواقعِ، ليدلَّ على أنّه "يشهدُ، أي: يعلم عِلۡمَ مَن عاينَ وشاهَدَ، إنّهم لكاذبون"[3]، فأكّدَ أنّهم كانوا كاذبين في حَلِفهم، وعبّرَ بالفعل المضارعِ للدّلالةِ على أنّ هذه الشّهادةَ حادثةٌ، تخصُّ هذه المقولة الّتي قالوها، ولو عبَّرَ بالاسم فقال: (واللّه شاهد إنّهم لكاذبون) لدلَّ على أنّ اللّه تعالى شاهدٌ عمومًا على جهة الثّبوتِ، وليس متعلّقًا بهذه الحادثة، فآثَرَ التّعبيرَ بالفعل المضارعِ؛ إيماءً إلى أنّها

اللّه تعالى يشهدُ على هذه الحادثةِ، وهو شاهدٌ على كلِّ شيءٍ، وفي كلّ زمانٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/30.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3445.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3445.

شهادةٌ خاصّةٌ بهذه الكِذبةِ الّتي جاؤوا بها، كما أنَّ فيها إشارةً إلى استدراجِهم، وعظيمِ حِلْم اللّه بهم؛ حيث إنَّه لم يعاجِلْهم بالعقوبة، مع كونِه شهيدًا على كَذِبهم واتّخاذِهم أيمانَهم جُنَّةً.

الموقعُ النّحْويُّ لـ: ﴿إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾:

شهادةُ الله تعالى واقعةٌ على كذِبِهم الصُّراحِ

الجملةُ في قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ في محلّ نصبٍ مفعولٍ به للفعل: ﴿يَشۡهَدُ﴾[1]، أي: إنّه يعلمُ إنّهم كاذبون في حَلِفِهم، فجاء التّعبيرُ بشهادة اللّه تعالى على كذبِهم بعد حَلِفِهم؛ إبطالًا لادّعائِهم ونَقْضًا لتوكيدِهم.

نُكْتَةُ فصلِ جملةِ ﴿لَا تَقُمۡ﴾، وموقعُها النّحويُّ والبيانيُّ:

تنوّعُ الجُملِ المتواليةِ بين الخبرِ والإنشاءِ، مُوضحٌ للغرضِ، ومفيدٌ في تصوُّرِ المعنى

الجملةُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ﴾، هي الخبرُ عن اسم الموصول، في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا﴾[2]، وفُصِلَت عن سابقِها لكمال الانقطاع؛ إذ هي جملةٌ إنشائيّةٌ وما قبلَها خبرٌ.

دَلالةُ النّهيِ في صدرِ الآية والمخاطَبِ فيه:

التّصريحُ بحُرمةِ الصّلاةِ في مسجدِ الضِّرار، لِما للمسجدِ من حُرمَةٍ قد تَنفي عنه الذَّمَّ

افتتح قوله تعالى: ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ﴾ بالنّهي، والمخاطَبُ به النّبيُّ ﷺ، والمرادُ من نهْيِه هو نهيُ أصحابِه والمؤمنين، فبعْدَ أن أكْذَبَهمُ اللّه تعالى في دعواهُم أنّه نهاهُ وأصحابَه عنِ الصّلاة في مسجدِهم[3]، وإنّما افتُتِحَتِ الآيةُ بالنّهي بعد بيان فسادِ مقصدِهم؛ للتّصريح بحرمةِ الصّلاةِ فيه نصًّا، إذ لو لم يأتِ النّهيُ لكان محتملًا أنّ المرادَ فَضْحُ مقصدِهم وغايتِهم دون ذمِّ مسجدِهم؛ لما للمسجدِ من حرمة لدى المسلمين.

بَلاغةُ المجازِ المرسَلِ في التّعبيرِ عنِ الصّلاة بالقيام:

عبّر في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ﴾ عنِ الصّلاة بالقيام،

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 6/32.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/30.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/504، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/395، وابن جُزي، التّسهيل: 1/348.

أي: "لا تقم فيه للصّلاة، وقد يُعبَّرُ عنِ الصّلاة بالقيام، يُقال: فلانٌ يقوم اللّيلَ، أي: يُصلّي"[1]، فجاء النّهيُ عن ركن من أركان الصّلاةِ مبالغةً في النّهي عن ذلك، فنهَى عنِ البعض وأراد الكلَّ على سبيل المجازِ المرسَل؛ فإنّ النّهيَ عنِ البعض دليلُ الحرمةِ الشّديدةِ عنِ الكلّ.

نهَى عنِ الجزءِ مبالغةً في النّهْي عـنِ الكلِّ؛ فالنّهيُ عنِ القيام أبلَغُ منه عنِ الصّلاةِ

نُكتةُ التَّأبيدِ في النّهي:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ﴾ قيَّدَ النّهيَ بالتّأبيدِ، و﴿أَبَدٗاۚ﴾ ظرفُ زمانٍ مبهَمٌ، ليس له حدٌّ ولا مقدارٌ، وهو "يستغرقُ الزّمنَ المستقبَلَ كلَّه؛ لاتّصاله بلا النّافيةِ، فيفيدُ العمومَ"[2]، كالحينِ والوقتِ والدّهرِ، فالظّرفُ المبهَمُ إذا اتّصلَ بلا النّافية اكتسبَ الدّلالةَ على العموم، فلو قال: ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ﴾ دونَ ذِكْرِ ﴿أَبَدٗاۚ﴾ لكفَى في بيان النّهيِ والانكفافِ عنِ القيام فيه، فلمّا قيّده بالأبد فكأنّه قال: لا تقم فيه في وقتٍ منَ الأوقات ولا في حينٍ منَ الأحيان[3]، وذلك لإفادة أنّ النّهيَ مؤكَّدٌ عامٌّ لكلّ زمان، مبالغةً في ذمّ هذا المسجدِ.

ما كان لله دامَ واتّصلَ، وما كان لغيرِ الله تعالى، انقطعَ وانفصلَ

عِلّةُ فصلِ جُملةِ تأسيسِ المسجدِ على التّقوى، عن سابقها:

فُصِلَ قولُه ﷻ: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ للاستئنافِ البيانيّ؛ حيث جاء علّةً للنّهيِ عنِ القيام والصّلاةِ في مسجدِهم[4]، فلمّا نهَى عنِ الصّلاة في هذا المسجدِ، ظهرَ لهم أنّ كوْنَ البناء مسجدًا لا يُعَدُّ دليلًا على صلاحِه وجوازِ العبادة فيه، فكأنّ سؤالًا نشأ يقول: فأيُّ المساجدِ يُقام فيها؟ فقيل: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾.

صَلاحُ النّيّةِ شرطٌ في إقامة المسجدِ والقيامِ فيه

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/258، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/395.

(2) الزُّحيليّ، التّفسير المنير: 11/44.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/258، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/395.

(4) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/206، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/396.

بَلاغةُ الاحْتراسِ:

في قوله تعالى: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ احتراسٌ، وفي بيانِه جاء في التّحرير والتّنوير: "احتراسٌ مما يستلزمُه النّهيُ عنِ الصّلاة فيه من إضاعةِ عبادةٍ في الوقت الّذي رغّبوه للصّلاة فيه، فأمرَه اللّه بأن يصلّيَ في ذلك الوقتِ الّذي دَعَوه فيه للصّلاة في مسجد الضّرارِ؛ أن يصلّيَ في مسجدِه، أو في مسجد قباء؛ لئلّا يكونَ لامتناعِه منَ الصّلاة من حظوظ الشّيطانِ أن يكونَ صرفُه عن صلاةٍ في وقت دُعيَ للصّلاة فيه، وهذا أدبٌ نفسانيٌّ عظيمٌ"[1].

إضاعةُ الصّلاةِ، وتأخيرُها عن وقتِها، من مَنهيّاتِ الشّرعِ، وكبائرِ الخطايا

معنى اللّامِ في: ﴿لَّمَسۡجِدٌ﴾، ونُكتةُ تنكيرِه:

افتُتِحَ النّظمُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ باللّام الدّالّةِ على الابتداءِ أوِ القسم، للدّلالة على تأكيد مضمونِ الجملةِ[2]. وجاء التّنكيرُ لتعميم الحُكْم على كلّ مسجدٍ أُسِّسَ على الصّفة المذكورة، كما أنّ فيه تعظيمًا لشأن هذا المسجدِ المذكورِ؛ إذِ المرادُ به مسجدُ قُباءٍ، أو مسجدُ النّبيّ ﷺ، فقوله جلّ شأنه: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ "هو كقول القائل: لَرجلٌ صالحٌ أحقُّ أن تجالسَه، فلا يكونُ ذلك مقصورًا على واحدٍ"[3].

كلُّ مسجدٍ أُنْشِئَ ابتغاءَ رضوانِ اللهِ، جديرٌ بأن يُصَلّى فيه

الموقعُ النّحويُّ لـ: ﴿أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ﴾:

الجملةُ في قوله ﷻ: ﴿أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾ في محل رفعٍ صفةٍ للمسجد[4]، فالمسجدُ الّذي أكّد أحقِّيَّتَه بأن يُقامَ فيه ويُتَّخذَ مصلًّى هو ما كان متَّصِفًا بهذه الصّفةِ، وهي كونُ بدايةِ تأسيسه مقترنةً بالتّقوَى وصلاحِ النّيّةِ.

شَرْطُ صَلاحِ المسجدِ أن يُقرنَ بناؤه، بنيّةِ التّقوَى، ومَقصدِ الصّلاحِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/31.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/82، والخفاجيّ، عناية القاضي: 4/363، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/396.

(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/148.

(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/709.

مَبدأُ التّقوَى، مُقترنٌ بمبدأِ التّأسيسِ

دَلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿أُسِّسَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ عبّر بالفعل ﴿أُسِّسَ﴾ عن بداية بنائِه، أي: بُني أصلُه، ووُضِع أساسُه[1]، وبناءُ الفعل لِما لم يُسَمَّ فاعلُه من باب الإيجاز للعلم بالفاعلِ، فالأوّليّةُ معتبَرةٌ بأوّليّة البناءِ وهو وضعُ الأساسِ وأصلُ البناء، كما أنّه عبّرَ بالأوّليّة الزّمانيّةِ في قوله: ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾؛ وذلك للتّأكيدِ على شرْطِ صلاحِ المسجد.

التّقوَى كالأرضِ الصُّلبةِ الّتي يَصلحُ عليها البناءُ، وتتحمّلُ ضخامَتَه

بَلاغةُ الاستعارةِ المَكْنيّة في: ﴿أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾:

قوله جلّ شأنُه: ﴿أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ مجازٌ؛ إذِ البناءُ لا يكونُ على التّقوَى، بل على الأرض، ولكنّه عبَّرَ عن صلاح المسجدِ بأنّه ليس البناءَ بالحجر، بلِ البناءُ على المعاني السّليمةِ والغاياتِ النّبيلةِ، "أي: على قاعدةٍ مُحكَمَة هي التّقوى مِنَ اللّه، وابتغاءُ مرضاتِه بالطّاعة"[2]. فيجبُ أن يتمكّن مِنَ التّقوى وأن يظهرَ أنّ المقصدَ منه الصّلاحُ والخيرُ، وأن لا يُضارَّ فيه أحدٌ، فهو استعارةٌ مكنيّةٌ؛ حيث شُبّهتِ التّقوى بأرضٍ صُلبةٍ يقوم عليها البناءُ، بجامع الثّباتِ، ثمّ حُذفَ المشبَّهُ به وهو الأرض، وأُشيرَ إلى شيءٍ من لوازمِه وهو التّأسيسُ[3].

اقترنتِ التّقوى ببنائِه من أوّلِ يومٍ، وذلك تشريفٌ له وتعظيمٌ لرمزيّته

معنى ﴿مِنْ﴾ في: ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾:

دخلت ﴿مِنْ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ للدّلالةِ على ابتداء الغايةِ الزّمانيّةِ، كما تدخلُ على (قبل) و(بعد)، فهي مثلُ (منذ)، والتّقديرُ: منذ أوّل يوم ابتُدئَ بنيانُه[4]، وأفاد التّعبيرُ عنِ الأوّليّة أنّ التّقوى حاضرةٌ في بداية الشّروعِ في بنائِه.

---

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/209.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/103.
(3) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 11/39.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/260، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/364، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/504.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾:

قولُه تعالى: ﴿أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾ عبَّرَ عن بدايةِ تأسيسِه بأوّل يوم، فأضاف الأوّلَ إلى اليوم، والمرادُ باليوم: اليومُ المتعلّقُ ببنائِه، أي: أوّلُ يومٍ من أيّام وجودِه، فالأوليّةُ "بالنّسبة إلى أيّام وجودِه، لا بالنّسبةِ إلى مطلقِ الأيّام، أي: إنّ تأسيسَه على التّقوى منذ بنائِه وتأليفه، لا حادثٌ بعدَه"[1].

إيجابُ أن تكونَ التّقوى حاضرةً، في أوّلِ يومٍ يُشرعُ فيه بالتّأسيسِ

الموقع النّحويّ لـ: ﴿أَحَقُّ﴾:

اسمُ التّفضيل في قوله ﷻ: ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ هو الخبرُ للمبتدأ في قوله تعالى: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ﴾[2]، فأخبر عنِ المسجد بأنّه جديرٌ وحقيقٌ بأن يُقام فيه.

الإخبار عن أحقِّيّة المسجد المؤسَّس على التّقوى بالقيام فيه

دَلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿أَحَقُّ﴾ لغةً، وعرفًا:

عبّر في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ عن أحقّيّةِ المسجد وجدارتِه بالصّلاة فيه باسْم التّفضيل ﴿أَحَقُّ﴾، ولكنّه مَسلوبُ المفاضلةِ، فهو هنا بمعنى: حقيقٌ وجديرٌ بأن تصلّيَ فيه[3]، لا بمعنى المفاضلة؛ إذ لا اشتراكَ بينهما في صفة الحقِّ، فاسمُ التّفضيلِ "لا يدخلُ إلّا بين شيئَيْن مُشتركَيْن لأحدهما مزيّةٌ في المعنى الّذي اشتركا فيه على الآخر، فمسجدُ الضِّرار وإن كان باطلاً لا حقَّ فيه، فقد اشتركا في الحقِّ من جهة اعتقادِ بانيه، أو من جهة اعتقادِ مَنْ كان يظُنُّ أنَّ القيامَ فيه جائزٌ للمسجديّةِ"[4]، ويفيدُ الإتيانُ باسْمِ التّفضيل التّهكُّمَ على المنافقين بالإيماء إلى أنّ مسجدَهم وإن كان جديرًا بصلاة النّبيِّ ﷺ فيه، ولكنّه عندما قيَّد الصّلاةَ

المسجدُ المؤسّسُ على التّقوَى، جديرٌ أن يُصَلَّى فيه، لحمْلِه معنى القداسةِ والطُّهرِ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/336، ويُنظر: الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/311، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/97.

(2) مجموعة من المؤلّفين، إعراب القرآن الكريم: 2/910.

(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/337، ويُنظر: أبو حيّان، البحر المحيط: 5/505.

(4) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/209، ويُنظر: القنّوجيّ، فتح البيان: 5/398.

بمسجد أُسِّس على التّقوى، فيُعرفُ من ذلك أنّ مسجدَهم أُسِّس على ضدِّها[1].

الموقعُ النّحويُّ لـ: ﴿أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾:

الأحقّيّةُ بقيام النّبيِّ ﷺ فيه؛ إظهارٌ لمكانتِه عند ربِّه

المصدرُ المؤوَّلُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ في محلّ جَرٍّ بحرف الجرِّ مقدّرٍ[2]، والتّقدير: أحقُّ بقيامك، وقيَّدَ الأحقّيّةَ بقيام النّبيِّ ﷺ فيه؛ إظهارًا لمكانته؛ إذ لمّا أثنى على المسجد بتأسيسِه على التَّقوى، وأثنى على المصلّين فيه؛ جَعل مِن هذا الثّناء علّةً وسببًا لنَيْلِ أحقّيّة قيامِ النّبيِّ ﷺ فيه، وفي هذا تشريفٌ أيُّ تشريفٍ له ﷺ.

سِرُّ التّعبيرِ بالمصدرِ المؤوّلِ في: ﴿أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾:

صَلاةُ النّبيِّ ﷺ في مسجدٍ ما، تَقتضي المباركةَ في المسجدِ

قوله جلّ شأنُه: ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ جاء التّعبيرُ بالمصدرِ المؤوّلِ؛ وذلك لأنّ "التَّعبيرَ بالقيامِ عنِ الصّلاة، يستدعي المداومةَ"[3]، وهذا يُشعرُ أنّه لو صلّى في مسجد الضّرار مرّةً واحدةً، لوجب المحافظةُ عليه بداعي دلالةِ الفعل على الاستمرارِ والتَّجدّدِ، فعَبَّر عن أحقِّيَّة القيامِ به على وجْهِ المداومةِ أن يكونَ مسجدًا بُنِيَ على التّقوى.

بَلاغةُ المجازِ المرسَلِ في: ﴿تَقُومَ فِيهِۚ﴾:

القيامُ جزءٌ مِنَ الصّلاة، فذَكَرَ الجُزءَ اهتمامًا به، وأرادَ الكُلَّ

في قوله تعالى: ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ مجازٌ لُغويٌّ؛ فذكرَ القيامَ وأراد الصّلاةَ، فعبَّرَ عنِ الصّلاة بالقيام، "أي: لا تقمْ فيه للصّلاة، وقد يُعبّرُ عنِ الصّلاة بالقيام، يُقال: فلانٌ يقومُ اللّيلَ؛ أي: يُصلّي"[4]؛ لأنّ القيامَ بعضُ أعمال الصّلاة، فذكرَ الجُزءَ وأرادَ الكلَّ، على سبيل المجازِ المرسَل. وقد يُعبَّرُ عنِ الصّلاة ببعض أركانِها، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ [الإسراء:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/31.
(2) الهرريُّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/78.
(3) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 7/361 - 362.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/258.

78]، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾ [الإنسان: 26]، وقوله: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: 43]، فأطلق كلًّا مِنَ القراءة والرّكوعِ والسُّجودِ على الصَّلاة، وهي أبعاضُها.

نُكْتَةُ الفَصل في: ﴿فِيهِ رِجَالٞ﴾:

الاستئنافُ لبيانِ علّةِ استحْقاقِ مسجدِ التّقوى أن يُقامَ فيه، لتأسيسِه عليها

الجملةُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾ مستأنَفةٌ بيانيًّا جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ لتعليل أحقِّيَّةِ القيامِ فيه، "أي: كما أنّ هذا المسجدَ أَوْلى من جهة المحلِّ، فهو أَوْلى من جهة الحالِّ فيه"(1)، ففيه إشارةٌ إلى أنّ صلاح جماعةٍ ما، مِن أسباب ترجيحِ الصّلاةِ في مسجدِهم(2).

غَرَضُ خبرِ محبّتِهم أن يتطهَّروا:

يَصلُحُ المسجدُ المؤسَّسُ على التّقوى، بصلاحِ مَن فيه، لا بجُدرانِه وسَواريه

الخبرُ في قوله ﷻ: ﴿فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾ مَسوقٌ لتكريم رُوّادِ هذا المسجدِ ومديحِهم(3)، فهو ثناءٌ على الجماعة الّذين يُصلّون في مسجد رسولِ اللّه ﷺ وفي مسجد قباء المؤسَّسَيْنِ على التّقوى، فلمَّا مَدَحَ المسجدَ أوّلًا، مدحَ أهلَه ثانيًا(4).

فائدةُ تقديمِ شِبْه الجملةِ: ﴿فِيهِ﴾:

مكانة المسجد المؤسَّس على التقوى تُكسب الحالّ فيه الثناء.

قدّم الجارَّ والمجرورَ في قوله جلّ شَأنُه: ﴿فِيهِ رِجَالٞ﴾ المتضمِّنِ الضّميرَ العائدَ على المسجد اهتمامًا بالمسجد؛ لأنّ الثّناء على الرّجال إنّما كان في سياقِ الثّناءِ على المسجدِ، فالسّياقُ في بيان أفضليّةِ المسجدِ بالأساس، فقدَّمَ ذِكْرَه لأنَّه هو مدارُ الحديث، فكما "أنّ هذا المسجدَ أَوْلى من جهة المحِلّ، فهو أَوْلى من جهة الحالِّ فيه"(5).

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 5/398، ويُنظر: أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/102.
(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/446.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/404.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/19، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/32.
(5) القنّوجيّ، فتح البيان: 5/398، ويُنظر: أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/102.

الرَّبطُ بين أحقيّةِ القيامِ في مسجدِ قُباءَ، والثَّناءِ على أهلِ المسجدِ

فَنُّ التّرديدِ في: ﴿فِيهِۚ فِيهِ﴾:

في قوله تعالى: ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ﴾ تعلَّقت ﴿فِيهِ﴾ الأولى بالفعل ﴿تَقُومَ﴾، وتعلّقت ﴿فِيهِ﴾ الأخرى بمحذوفٍ خبرٍ مُقدَّمٍ - وهو ما يُسمّى بالترديد -(1)، والغرَضُ من ذلك: الاستطرادُ بمدحِ أهل مسجدِ قُباءَ، بعد الثَّناء على المسجدِ ذاته، وأنّه أُسِّس على تقوى منَ اللّه ورضوانٍ، وفي تجاورِ اللَّفظين نُكْتَةٌ؛ وهي الإشارة إلى أحقِّيَّتهم بمجاورَتِك يا رسولَ اللّه، فكأنَّ مسجدَهم أَحقُّ بقيامِك، ورجالَهم أحقُّ بجوارِك.

تفخيمُ المصلّين، يَؤولُ إلى مَزيدِ الثّناءِ على المسجدِ

نُكْتَةُ تنكيرِ: ﴿رِجَالٌ﴾:

في قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾ جاء لفظُ الرّجال بصيغة التّنكيرِ تفخيمًا لهذه الصّفةِ وتعظيمًا(2)؛ إذ هي واردةٌ في سياق الثّناءِ على المسجدِ والثّناءِ عليهم، فكان الثّناءُ عليهم بتنكيرِ صفةِ الرّجوليّة، فقوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ﴾ "أي: لهم كمالُ الرُّجوليَّةِ"(3).

وَصْفُ الرِّجالِ بمحبَّةِ التَّطهُّرِ، تأكيدٌ على صلاحِهم، والْتزامِهم بالأحكامِ

الموقعُ النّحويُّ والبيانيُّ لـ: ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾:

الجملة في قوله جلّ شأنُه: ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾ صفةٌ للرّجال(4)، وَوَصَفَهُم بالجملةِ الفعليّةِ للدّلالة على تجدُّدِ هذه الصّفةِ فيهم واستمرارِها، وموضعُ هذه الجملةِ أنّها مدحٌ أتبعَ مدحًا؛ فلمّا ذكر الرّجالَ ثناءً عليهم، وهو في سياق الحديثِ عنِ الثّناء على المسجد، وعظَّم فيهم صفةَ الرّجوليّةِ أتبَعَ ذلك بصفةٍ أخرى من صفات الرّجالِ وهي دوامُ التّطهّر.

---

(1) وهو أن يعلِّق المتكلّم لفظةً مِنَ الكلام بمعنًى، ثمَّ يَردَّها بعينها ويعلّقها بمعنًى آخرَ، كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ [الروم: 6-7] فـ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ الأولى منفيّة، والثّانية مُثْبَتَة، ولكلٍّ مِنَ المعنيَيْن مناسبة اقتضت ذلك المعنى. ينظر: ابن سنان الخفاجيّ، سرّ الفصاحة، ص: 284، وابن الأثير، المثل السّائر، ص: 267، 268.

(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/446.

(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/19.

(4) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 10/209.

غرَضُ التّعبيرِ بالمضارعيّة، في: ﴿يُحِبُّونَ﴾ و﴿يَتَطَهَّرُواْۚ﴾:

دلّ التّعبيرُ بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾ على دوام طهارتِهم، وأنّ حبَّهم لهذا التّطهُّرِ دائمٌ متجدّدٌ؛ لما في الفعل المضارع من دَلالةٍ على التّجدّدِ والاستمرار، وفيه إشارةٌ إلى أنّهم في جهادٍ دائم مع أنفُسِهم في ذلك[1]، كما أنّ فيه إشارةً إلى أنّ ذلك عادةٌ ثابتةٌ فيهم، وأنّهم يَحرصون عليه كحرْصِ المُحبّ على ما يُحبُّ، فضلًا عن أنّ التّعبيرَ بالمضارعيّة فيه تصويرٌ لحالِهم وهم يفعلون هذه الأمورَ.

حبُّهمُ التَّطهُّرَ، في تجدُّدٍ واستمرارٍ، كما وردت بذلك الآثارُ

سِرُّ التعبير بـ: ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾:

عبّر في قوله جلّ شأنُه: ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾ عن حبِّ الفعلِ لا عنِ الفعل ذاتِه، فالثّناءُ عليهم بوصْفِهم أنّهم يُحبّون التّطهّرَ لا بأنّهم يَتطهّرون؛ إذ قد يفعلُ أحدٌ ما فِعْلًا ويُحسِنُ فعلَه ولكنّه لا يحبُّه، وهذا أقلُّ شأنًا ممّن يحبُّ ما يفعلُ، لأنّه دليلُ الجودة ودليلُ الرّغبةِ، فهم هنا لا يَتطهّرون وحسبُ بل إنّهم يُحسنون التّطهّرَ؛ لأنّهم يُحبّون ذلك بلا تثاقُلٍ ولا مَللٍ.

حبُّ الفعلِ أسمَى مِنَ الفعلِ ذاتِه، في تقديرِ الله وحُكمِه

سِرُّ اختيار: ﴿يَتَطَهَّرُواْۚ﴾:

عبّر في قوله جلّ شأنُه: ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾ عن تطهّرِهم بالمصدر المؤوّلِ الّذي يتضمّنُ الفعلَ دون المصدرِ الصّريحِ، فلم يقل: (يحبّون التّطهّر)، أو (يحبّون الطّهارة)؛ لأنّ التّعبيرَ بالفعلِ يَستجلِبُ صورةَ التّطهّرِ وحدوثَه، كما فيه دَلالةٌ على التّجدّدِ والاستمرارِ، ففيهِ مزيدٌ مِنَ التّأكيد عنِ التّعبير بالمصدرِ الصّريحِ الدّالِّ على المعنى المجرّدِ، فالتّعبيرُ بالمصدر المؤوّلِ يدلّ على المداومةِ، والمعنى أنّهم يَجتهدون في الطّهارة لا يَنقطعون عنها.

لَفْتُ الأنظارِ إلى دوامِ تَطهُّرِهم وتجدُّدِه، لارتباطِ ذلك بإيمانِهم بمَنْ أمرَ به

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/19.

معنى الواوِ في: ﴿وَٱللَّهُ﴾:

صُدِّر قولُه ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ بواو الاستئناف، والجملةُ مستأنَفةٌ[1]، وفائدةُ الاستئناف أنّه سيقَ لبيان وَجْهِ المدحِ بصفةِ التّطهُّرِ، فهو استئنافٌ تعليليٌّ، فلمّا أثنَى عليهم بكونِهم مُتطهّرين كان ذلك مَثارَ تساؤلٍ عن وجه المدحِ بهذه الصّفةِ، فأخبرَ أنّه يحبُّ مَنِ اعتنى بنظافة بدنِه، ونقاءِ روحه، ويمكنُ أن تكون الواوُ حاليّةً على معنى: والحالُ أنّ اللّه يحبُّ المطَّهِّرين.

لمّا كان اللّه تعالى يحبُّ المتطهّرين، أثنَى عليهم باتّصافِهم بالتّطهّرِ

فائدةُ التّعبيرِ بالمضارع: ﴿يُحِبُّ﴾ في السّياق:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ عبَّرَ عن محبَّتِه إيّاهم بالفعل المضارعِ للدّلالةِ على تجدّدِ هذه المحبّةِ واستمرارِها؛ لأنّهم يُجدِّدون محبَّتَهم فكان جزاؤهم محبّةً مُتجدّدةً كذلك، فلمّا كان تطهُّرُهم مُتجدّدًا وحبُّهم لذلك التّطهّرِ دائمًا لا ينقطعُ - وذلك دالٌّ على اجتهادِهم - قابَلَهُمُ اللّه تعالى بحبٍّ مُتجدِّدٍ لا ينقطعُ، يُكافئُ حبَّهم في التّجدّدِ.

حبُّ اللّه تعالى دائمٌ، لا ينقطعُ عنِ المتطهّرين؛ لأنّه تعالى يحبُّ ذلك

دَلالةُ المسنَدِ الفعليِّ على تقويةِ الحُكمِ:

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ اسميّةٌ تدلّ على ثبوت المعنى، وهو كونُ اللّه تعالى يحبُّهم، وجاء المسنَدُ فعلًا وهو قوله: ﴿يُحِبُّ﴾ وهو يدلّ على التّجدّدِ والاستمرارِ، وفيه ضميرٌ يعود على المسنَد إليه؛ ممّا يفيدُ تقويةَ الحُكم، فاجتمع في الجملة دلالتا الثّبوتِ والتّجدّد، فحُبُّ اللّهِ تعالى لهم ثابتٌ متجدّدٌ لا ينقطعُ، فأفادَ التّعبيرُ بالمسندِ الفعليِّ تقويةَ مضمون الجملةِ.

حبُّ اللهِ تعالى لهم، ثابتٌ مُتجدّدٌ مؤكّدٌ، لا ينقطعُ

نُكتةُ المشاكلةِ بين: ﴿يُحِبُّونَ﴾ و﴿يُحِبُّ﴾:

في قوله ﷻ: ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ أسندَ المحبّةَ إلى اللّه تعالى، ويُرادُ منه لازمُ المحبّة، وهو الرّضَى والقُربُ

الجزاءُ من جنْسِ العملِ، فلمّا أحبّوا ما يحبُّ اللّه، أحبَّهمُ اللّه تعالى

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 4/234.

والقَبولُ، فمحبّةُ الله تعالى إيّاهم أنّه يرضَى عنهم ويُحسنُ إليهم، ويُدْنيهم من جَنابِه تعالى كما يفعل المحبُّ بمحبوبِه؛ لأنّ الله تعالى منزَّهٌ عن مشابهةِ صفاتِنا، فحبُّه غيرُ حُبِّنا، وهو شيءٌ يليقُ بكماله تعالى[1]، وإنّما عبّرَ بالمحبّة للمشاكلةِ اللّفظيّةِ مع قوله: ﴿يُحِبُّونَ﴾، فلمّا عبّرَ عن كونِهم يحبّون التّطهّرَ جعلَ جزاءَهم محبّةً مقابِلةً لتلك المحبّةِ.

معنى (أل) في: ﴿ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾:

محبّتُه تعالى للمطّهّرين، في كلّ زمانٍ ومكانٍ، ولا تقتصرُ على عهدِ التّنزُّلِ

تدلّ لامُ التّعريف في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ على الجنس، فالله تعالى يحبُّ جنسَ المتطهّرين، فهو يحبُّ المتطهّرين المذكورين في الآية وغيرَهم[2].

نُكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾:

فعلُ التّطهّرِ يتطلّبُ القصْدَ، وبذلَ الجُهدِ مع ما فيه من كُلفةٍ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ بصيغة التّفعُّلِ للدّلالة على الاجتهادِ في الطّهارة، وإنّما أدغمَ التّاء في الطّاء تثقيلًا للَّفظِ للدّلالةِ على شِدَّة التّطهُّرِ، كما أنّ فيه دلالةً على قَصْدِ التّطهّرِ والتّكلّفِ فيه بمزاولتِه والمجاهدةِ فيه، والمرادُ: الطّهارةُ منَ المعاصي والخصالِ المذمومةِ طلبًا لمرضاة الله تعالى، كما أنّ فيه تعريضًا بأنّ أصحابَ الضِّرار على خلاف ذلك[3].

بَلاغةُ الجناسِ في ﴿يَتَطَهَّرُواْ﴾ و﴿ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾:

تكرارُ التّطهّرِ بصيغتَيْن مختلفتَيْن، يدلُّ على أهمّيتِه وعُلوّ مكانتِه

في قوله ﷻ: ﴿أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ جناسٌ اشتقاقيٌّ، فكرَّر لفظَيْن من جذرٍ واحدٍ وهو (طهر)؛ تنويهًا بمكانة هذا الفعلِ عند الله تعالى، فجعل جزاءَه محبَّتَه لهم، بالإضافة إلى الأثرِ الجماليِّ الّذي يَخلَعُه تَكرارُ لفظٍ ما بصيغتَيْن مختلفتَيْن.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/311، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 11/45 - 46.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/20.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/363.

نُكتةُ تتابُعِ المؤكّداتِ في الفاصلةِ:

محبّةُ الله تعالى للمُتطهّرين عظيمةٌ، ولذلك أمرَ بالتّطهُّرِ، وحثَّ عليه

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ تأكيداتٌ، فمنها: كونُها جملةً اسميّةً دالّةً على تأكيد مضمونِها، ومنها الافتتاحُ بلفظ الجلالة تعظيمًا لما يُذكرُ معه، ومنها جعلُ المسنَدِ فعلًا، وذلك يدلُّ على تجدّدِ المعنى الّذي يؤولُ إلى تقوية الدّلالةِ وتأكيدِها، ومنها تَكرارُ ذكْرِ المسنَدِ إليه تارةً بوصفه مبتدأً وتارةً بكونه فاعلًا للفعل، ومنها المبالغةُ بتثقيل الطّاءِ بإدغام التّاء فيه. ويَؤولُ ذلك كلُّه إلى تعظيم محبّتِه ﷻ لهؤلاء القوم الّذين نَفَوا عن أنفُسِهم أدرانَ الشّركِ والنّفاقِ وطَهُرتَ قلوبُهم منَ الشّكِّ والكُفرِ.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [التّوبة: 109 - 110]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

حالُ المنافقين والمؤمنين، وبنيانُ كلٍّ منهما، واختلافُ البُنيانَيْن ذاتًا ووَصْفًا وإضافةً

بعد أن بيّنتِ الآيتان السّابقتان حالَ أولئك المنافقين الّذين اتّخذوا مسجدَ الضِّرار لأهدافٍ واضحةٍ فَضَحَها القرآنُ وكَشف زَيْفَها، ونهَى المؤمنين عنِ الصّلاة فيه مبيِّنًا أنّ المسجدَ الأوّلَ الّذي أُسّسَ على التّقوى أحقُّ بالصّلاة فيه، بَيَّن هنا مآلَ هذا البناءِ وعاقبتَه في الدّنيا والآخرة، ناعيًا عليهم فعلَتَهمُ الشّنيعة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بُنْيَٰنَهُۥ﴾: (بني) أَصلٌ؛ وهو بِنَاءُ الشَّيءِ بِضمٍّ بعضِهِ إلى بَعْضٍ. تقول: بنيتُ البِناءَ أَبْنِيه، البَنْيُ: نقيضُ الهَدْم، بَناهُ يَبْنِيه بَنْيًا وبِناءً وبُنْيانًا. والبِناءُ: المَبْنِيُّ، والبُنيان واحدٌ لا جمع، وقد ورد في القرآن على أَوجهٍ: بمعنى الصَّرحِ، والقَصْرِ العالي: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ [النّحل: 26] أَي: صَرحَهم. وبمعنى المسجد: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ﴾، ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟﴾ أَي: مسجدُهم[1]، فقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ﴾ فالبنيانُ: مصدرٌ كالغُفرانِ، ويُراد به المَبنيُّ هاهنا[2].

2) ﴿شَفَا﴾: (شفي) الشِّينُ والفاءُ والحرفُ المُعْتَلُّ يدلُّ على

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفِيروزاباديّ، القاموس: (بني، بنى)، وبصائر ذوي التّمييز: 2/277.
(2) الواحديّ، البسيط: 11/52.

الإشْرافِ على الشَّيءِ؛ يقالُ: أَشْفَى على الشَّيْءِ إذا أَشْرفَ عليه. وشفا كلِّ شيءٍ: طَرَفُه وحَرْفُه. ومنه: أَشْفَى إذا سارَ في شفا القمرِ، وهو آخرُ اللَّيْلِ، وشفا البئر، وشفا النّهر: طرفُهُما[1]، ومنه قولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾، أي: على حرْف جُرُفٍ هَائِر[2].

3) ﴿جُرُفٍ﴾: (جرف) أَصْلٌ؛ وهو أَخْذُ الشَّيءِ كلِّهِ هَبْشًا. يُقال: جَرَفْتُ الشَّيءَ جَرْفًا، إذا ذَهَبْتَ بِهِ كُلِّهِ. والجرُفُ: المكانُ يأكُلُه السَّيْلُ. قال ﷻ: ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾[3]، "والجرفُ: ما ينجرفُ بالسّيولِ منَ الأوديةِ"[4].

4) ﴿هَارٍ﴾: (هور) أَصْلٌ يدلُّ على تَساقُطِ شَيءٍ. الهَوْرُ: مصدرُ هارَ الجرفُ يهورُ، إذا انصدعَ من خلفِه، وهو ثابتٌ بعدُ في مكانه، وهو جُرف هارٍ هائِرٌ، فإذا سقط فقد انهار وتَهوَّر. وهارَ البناءَ هَوْرًا: هَدَمَه. وهَارَ البناءُ والجُرْفُ وانهارَ؛ أي: انهدَمَ[5]. وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾؛ أي: ساقطٌ مُتَداعٍ، تَهوَّر البناءُ: إذا سقط وانهار[6]، وقوله: ﴿فَٱنْهَارَ﴾، أي: "طاح به الباطلُ في نار جهنّمَ"[7].

5) ﴿رِيبَةً﴾: (ريب) أَصْلٌ يدلُّ على شَكٍّ، والرَّيْبُ والرِّيبةُ: الشَّكُّ، والظِّنَّةُ، والتُّهَمَةُ. والرِّيبَةُ: اسمٌ منَ الرَّيْب، قال تعالى: ﴿بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾، أي: تدلّ على دَغَلٍ وقلّةِ يقينٍ[8]. وفي الرّيبةِ في الآية ثلاثةُ أقوال؛ أحدُها: شكًّا ونفاقًا، لأنّهم كانوا يحسبون أنّهم مُحسِنون في بنائه. والثّاني: حسرةً وندامةً، لأنَّهم ندموا على بنائه. والثّالثُ: أنّ المعنى: لا يزال هدمُ بنيانِهم حزازةً وغَيْظًا في قلوبِهم[9].

6) ﴿تَقَطَّعَ﴾: (قطع) أَصْلٌ يدلُّ على صَرْمٍ وَإِبانَةِ شَيءٍ مِنْ شَيءٍ، القطْعُ: فَصلُ الشّيءِ مُدْرَكًا بالبصر كالأجسام، أو مدركًا بالبصيرة كالأشياء المعقولةِ، فمن ذلك قَطْعُ الأعضاء نحوَ قوله تعالى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾، وقولِه: ﴿إِلَّآ

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (أسّ، أسس).
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 167.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (جرف).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 167.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفَّاظ: (هور).
(6) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 167.
(7) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/711.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ريب).
(9) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/301.

﴿أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ﴾، أي: إلّا أن يموتوا[1]، فتُقَطَّعَ قلوبُهم؛ "أي: تُجعلَ قلوبُهم قِطعًا، وتُفَرَّقَ أَجزاءً؛ إمّا بالسّيف وإمّا بالحزن والبكاءِ، فحينئذٍ تزولُ تلك الرّيبةُ"[2].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

التّقوى والرِّضوانُ أساسُ الأمانِ لقوّةِ البُنيانِ، ولن يَثبُتَ بُنيانٌ على شَفا جُرُفٍ هارٍ

لا يستوي مَن أسَّس بنيانَه على تقوى اللّه وطاعتِه ومَرضاتِه، ومَنْ أسَّس بنيانَه على طرفِ حُفرةٍ متداعيةٍ للسّقوط، واللّه لا يهدي القومَ الظّالمين المتجاوِزين حدودَه، ولا يزالُ بنيانُ المنافقين الّذي بنَوْه مُضارَّةً لمسجد (قُباء) شكًّا ونفاقًا ماكثًا في قلوبهم، إلى أن تتقطّع قلوبُهم بقتلِهم أو موتِهم، أو بندَمِهم غايةَ النّدم، وتوبتِهم إلى ربّهم، وخوفِهم منه غايةَ الخوف، واللّه عليمٌ بما عليه هؤلاء المنافقون منَ الشّكّ وما قصدوا في بنائِهم، حكيمٌ في تدبير أمورِ خلْقِه[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائدةُ الفصْل: ﴿أَفَمَنۡ أَسَّسَ﴾:

إنّما تَتفاضلُ المباني، بتفاضُلِ مَنْ بَنَوْها، نيّةً ومقامًا

الجملةُ في قوله ﷻ: ﴿أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ﴾ استئنافيَّةٌ، سيقَتْ لبيان خيريّةِ الرّجالِ إثرَ بيانِ خيّريةِ مسجدِ قُباء[4]. فالجملةُ "تفريعٌ على قوله تعالى: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ لزيادة بيانِ أحقّيّةِ المسجد المؤسَّسِ على التّقوى بالصّلاة فيه، وبيانِ أنّ تفضيلَ ذلك المسجدِ في أنّه حقيقٌ بالصّلاة فيه تفضيلٌ مسلوبُ المشاركةِ؛ لأنّ مسجدَ الضِّرار ليس حقيقًا بالصّلاة فيه بعْدَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (قطع).
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/149، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 147.
(3) جماعة من العلماء، التّفسير الميسّر: 1/204.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/337، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/400.

النّهي"(1)، وفُصلتِ الآيةُ عن سابقتِها لكمالِ الانقطاعِ لاختلاف الخبريّةِ والإنشائيّةِ.

بَلاغةُ الاستفهام وغرضُه، في سياق الآيةِ الكريمةِ:

تقريرُ خيريّةِ بناءِ الدّينِ، على صَلاحِ النّيّةِ، ورُسوخِ اليقين

الاستفهامُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ﴾ ليس حقيقيًّا، بل هو استفهامٌ مجازيٌّ جاء للتّقرير(2)؛ لأنّ مَن أُسّس بنيانُه على ذلك الوصفِ معلومٌ أنّه خيرٌ منَ المذكور بعدَه، فالاستفهامُ ليس للسّؤال بل للتّقرير والتّعجيب. وتقريرُ الخبرِ بأسلوب الاستفهامِ أبلَغُ منَ الإخبار الصّريح؛ لأنّه يسوقُه مساقَ حقيقةٍ لا شكّ فيها بين المختلفَيْن، إذ هي محلُّ اتّفاقٍ.

معنى الفاءِ، في عبارةِ الاستفهامِ ﴿أَفَمَنْ﴾:

الفاءُ عاطفةٌ على جملةٍ محذوفةٍ، تُكملُ الدّلالةَ، وتَبينُ عنِ المعنى

قدّم في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ﴾ حرفَ الاستفهام على حرف العطْفِ لأحقّيّةِ الاستفهام بالتّصدير(3) عند جمهورِ النَّحْويّين، ولوجودِ جملةٍ محذوفةٍ بين الفاء العاطفةِ وحرفِ الاستفهام عند المحقّقين منهم، وتقديرُه: "أَبَعْدَ ما عَلِم حالَهم فمَن أسّس ووَضَع بناءَه الّذي بناه؟"(4).

معنى (مَن) في: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ﴾:

اسمُ الموصولِ الدّالُّ على العمومِ؛ لتعميمِ تعلُّقِ الحُكمِ بكلِّ بانٍ على ذلك الوصْفِ

في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ﴾ عبّرَ عنِ المذكور باسم الموصولِ (مَن) تعميمًا للحُكم؛ فَساقَه مساقَ الحقيقةِ. والحُكمُ العامُّ لا يختصّ بأحدٍ، فهو ليس مختصًّا بقصّةِ مسجدِ الضِّرار، وليس المرادُ شخصَ واحدٍ بعينِه، بل كلُّ شخصٍ في كلّ زمانٍ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/33.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/84.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/34.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/57، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/103.

بَلاغةُ توجيهِ القراءاتِ المتواترةِ في: ﴿أَسَّسَ﴾:

التّقوى هي المعيارُ في الأفضليّةِ، لا أن يُبنَى المسجدُ بيدِ صاحبِه أو بأمْرِه

قُرِئَ قولُه ﷻ: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾ بالبناءِ للفاعلِ (أَسَّسَ) وهي قراءة الجمهورِ القُرّاء، وللمفعول (أُسِّس) وهي قراءة نافعٍ وابنِ عامر[1]، "فأمّا قراءةُ مَن قرأ: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾ فبنى الفعلَ للفاعل؛ فلأنّه الباني والمؤسِّسَ، فأسندَ الفعْلَ إليه، وبناه له كما أضاف البُنيانَ إليه في قوله: ﴿بُنْيَـٰنَهُۥ﴾، فكما أنّ المصدرَ مضافٌ إلى الفاعل، كذلك يكونُ الفعلُ مبنيًّا له. ومَنْ بنَى الفعْلَ للمفعول به لم يَبْعُد أن يكونَ في المعنى كالأوّل؛ لأنّه إذا أُسِّس بنيانُه فتولّى ذلك غيرُه بأمْرِه كان كبُنيانِه هو له"[2]، فالبناءُ للمفعول فيه إيجازُ حَذْفٍ للعلْم بالفاعل، وللدّعوةِ للانشغالِ بالفعلِ نفسِه عنه.

سرُّ التّعبيرِ وفائدتُه: ﴿بُنْيَـٰنَهُۥ﴾:

التّعبيرُ عنِ المفعولِ بالمصدرِ، منَ المجازِ المرسلِ البليغِ

عبّرَ عنِ البناء في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾؛ لأنّ البناء يكونُ بضَمِّ بعضِه إلى بعضٍ، وهذا يدلُّ على الجُهدِ المبذولِ فيه، وجاء بصيغةِ المصدر، فالبُنيانُ مصدرٌ كالغُفران والكُفران، والمرادُ به المفعولُ، أيِّ: المَبْنِيّ[3]، "وإطلاقُ لفظِ المصدرِ على المفعول مجازٌ مشهورٌ، يُقال: هذا ضَرْبُ الأمير، ونَسْجُ زيدٍ، والمرادُ: مضروبُه ومنسوجُه"[4].

نُكتةُ إضافةِ البُنيانِ، وعَوْدِ الضّميرِ:

حُكمُ البناءِ يتعلّقُ بصاحبِه، لا باليدِ الّتي تبنيه

في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾ أضافَ البُنيانَ إلى الضّميرِ العائدِ على الموصولِ للدّلالةِ على "صاحبِ البناءِ ومُستحقِّه، فإضافةُ البُنيانِ إلى ضميرِ (مَنْ) إضافةٌ على معنى اللّامِ"[5]، فلا

(1) آل نصر، طلائع البِشْر، ص: 204.
(2) الفارسيّ، الحجّة: 3/152.
(3) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/449، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/34.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/148.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/34.

فرقَ بين أن يبنيَ البناءَ بيده، أو يبنِيَه له الصّالحُ منَ الأعمالِ، فتدلُّ الإضافةُ على أنّ عاقبة الأمرِ عائدةٌ على هذا الباني إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ.

بَلاغةُ الاستعارةِ، في تأسيسِ البُنيانِ على التّقوى:

الدّينُ يُشبِهُ البناءَ، في احتياجِه لقواعدَ ومرافقَ تهيّئُه للانتفاعِ به

في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ﴾، شبّهَ الدّينَ الصّحيحَ ببناءٍ قويٍّ متينٍ على طريقة الاستعارة، أي: بنَى دينَه على قاعدةٍ وأساسٍ مُحْكَم وهو تقوَى اللّه تعالى وابتغاءُ مَرضاتِه[1]، فلمّا "كان من شأن الأساسِ أن تُطلبَ له صلابةُ الأرض لدوامِه؛ جُعلتِ التّقوَى في القصْدِ الّذي بُنِيَ له أحدُ المسجدَيْن، فَشُبِّهتِ التّقوى بما يَرتكزُ عليه الأساسُ على طريقةِ المكنيّةِ، ورُمِز إلى المشبَّه به المحذوفِ بشيءٍ من مُلائماتِه وهو حرفُ الاستعلاءِ"[2]. والمعنى: أفمن أَسّس دينَه على قاعدةٍ مُحْكَمةٍ بحُسْنِ النّيّةِ فيه وقصْدِ وجْهِ اللّه تعالى وإظهارِ شرعه، كما صُنِعَ بمسجدِ (قُباءٍ) ومسجدِ النّبيِّ ﷺ خيرٌ أم مَن أَسّس على قاعدةٍ هي أضعفُ القواعد وأقلُّها بقاءً، وهو الباطلُ؟[3].

نُكتةُ تنكيرِ لفظَيْ: ﴿تَقۡوَىٰ﴾ و﴿وَرِضۡوَٰنٍ﴾:

للتّقوى شأنٌ عظيمٌ، ومكانةٌ رفيعةٌ، عند الله العظيم

عبّرَ عنِ (التّقوى) في قوله ﷻ: ﴿عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ﴾ بصيغة التّنكيرِ تعظيمًا لشأنها؛ لأنّها سِيقت للمقابَلةِ مع الباطلِ للاستعارةِ، فلمّا "استعار الجُرُفَ الهائرَ لمقابل التّقوى منَ الباطل الّذي هو الفجورُ والنّفاقُ والضِّرارُ على أنّه شبَّهَ الحقَّ الّذي هو التّقوى بقاعدةٍ مُحكَمةٍ قويّةٍ على طريق الاستعارة بالكنايةِ؛ ولهذا نكّرَ التّقوى للتّعظيم"[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/103.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/34.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/85، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/312، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/149.

(4) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/448.

فائدةُ التّعبيرِ بالمصدرَيْن: ﴿تَقۡوَىٰ﴾ و﴿وَرِضۡوَٰنٍ﴾:

لا تكونُ طاعةٌ إلّا بالتّرغيبِ والتّشويقِ، للجزاءِ العاجلِ والآجلِ

في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ﴾ جمعَ بين التّقوى والرّضوانِ المصدَريْن لبيانِ علّةِ خيريّةِ البناءِ "يعني طلبَ ببنائه المسجدَ الّذي بناه تقوى اللّهِ ورِضاهُ"[1]، ولأنّ الطّاعةَ إنّما تكونُ للرّغبة والرّهبةِ؛ ولذلك عُطفَ الرّضوانُ على التّقوى، وجُعلا كأنّهما أمران مُتلازمانِ[2].

نُكتةُ تقديمِ (التّقوى) على (الرّضوان):

التّقوَى تَسبقُ الرّضوانَ، وهي أصلٌ وأساسٌ له

قدّمَ التّقوى في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ﴾ على الرّضوان؛ لأنّ التّقوى تسبقُ الرّضوانَ، وهي الطّريقُ إليه، والتّقوى هي السّببُ الّذي يستجلِبُ الرّضوانَ، فقدّمه تقديمَ السَّبَبِ على النّتيجةِ.

معنَى (مِن) في: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾:

تقوى اللهِ تعالى، تكونُ خوفًا منه لذاتِه، ورهبةً من عذابِه ومَغبّاتِه

عبّرَ عن سببِ التّقوى بقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ﴾ فـ(مِن) تعليليّةٌ سببيّةٌ، فالتّقوى كائنةٌ بسببِ اللّه تعالى؛ أي للخوفِ من عقاب اللّه[3]، والخوفِ منه ﷻ، وهذا يدلُّ على قوّة سلامةِ النّيّةِ والمقصدِ.

الموقعُ النّحويُّ والصّرفيُّ لـ ﴿خَيۡرٌ﴾:

لا اعتبارَ للمفاضلةِ في الخيريّةِ بين المسجدَيْن، إلّا باعتبارِ اعتقادِ المنافقين

في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ﴾، أسند الخيرَ إلى الاسمِ الموصولِ في قوله: ﴿أَفَمَنۡ أَسَّسَ﴾ فـ﴿خَيۡرٌ﴾ خبرٌ عنِ المبتدأ (مَن)[4]، وهو اسمُ تفضيلٍ محذوفُ الهمزة للتّخفيفِ، والمفاضلةُ منزوعةٌ في هذه الآيةِ، فهو في هذه الآية تفضيلٌ، ولا شركةَ بين الأمرَيْن في الخيريّةِ إلّا باعتبارِ مُعتقَدِهم[5].

(1) الخازن، لباب التّأويل: 2/408.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/148 - 149، وابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/448.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/148 - 149.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/78.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/85، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/212.

نُكتةُ تنكيرِ: ﴿خَيْرٌ﴾:

جاء المسنَدُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿خَيْرٌ﴾ نكرةً؛ لأنّه دلّ على المفاضلةِ بالخيريّةِ على أيّ قَدْرٍ ضئيلٍ منَ الخير، فإنّ المسجدَ الّذي بُنِيَ على أساسِ التّقوى والرّضوانِ هو الأفضلُ مهما كان مقدارُ الخيرِ الّذي وُضعَ أساسًا للمقارنة، سواءً أكان قليلًا أم كثيرًا.

ما أُسِّس على التّقوى، هو الأفضلُ مطلَقًا، في كلِّ الظّروفِ والصُّروفِ

معنى ﴿أَم﴾ و﴿مَّنۡ﴾:

قوله جلّ شأنُه: ﴿أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ﴾، عطفَ بـ (أم) المتّصلةِ، وَإِنَّمَا سُمّيت مُتَّصِلَةً؛ لِأَنّ ما قبلهَا وما بعْدها، لَا يُسْتَغْنَى بأحدِهما عنِ الآخر، وَتُسَمّى أَيْضًا معادلةً؛ لمعادلتِها للهمزة في إِفادَة التَّسْوِيَة، وهي لا تَسْتَحِقُّ جَوابًا؛ لِأَنّ المَعْنى معها لَيْسَ على الاسْتِفْهام، وأَنّ الكلامَ معها قابلٌ للتّصديق والتّكذيب لِأَنَّهُ خبرٌ"[1]. والمعطوف (مَنْ) عُطفَ على (مَن)، في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ﴾، وخبرُها محذوفٌ تقديرُه: خيرٌ[2]، ومعنى الكلام: أفمن أسّس بنيانَه على التّقوى خيرٌ، أم مَنْ أسّس بنيانَه على الضّلال خيرٌ؟!

الاستفهامُ بهمزةِ التّسويّةِ، لا يكونُ معناه على الاستفهامِ، بل على الإخبارِ

نُكتةُ الإظهارِ موضعَ الإضمارِ في: ﴿بُنۡيَٰنَهُۥ﴾:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ﴾ وَضَع الاسمَ الظّاهرَ موضعَ ضميره، فلم يَقُل: (أم مَنْ أَسّسه) "للإيذانِ باختلاف البُنيانَيْن ذاتًا مع اختلافهما وَصفًا وإضافةً"[3]، فلو أَضْمَر لاحْتَمَلَ أنّ المرادَ البناءُ ذاتُه، فلمّا كرَّر ذِكرَه بَيَّن أنّ ما اختَلَف الوصفُ فيه كان مختلفًا على الحقيقة، فأظهَر الاسمَ لكونه غيرَ الأوّلِ.

أَظهر الاسمَ إيماءً إلى اختلاف الذّاتِ، باختلافِ الصّفاتِ

بَلاغةُ التّشبيهِ المفرَّعِ عنِ الاستعارةِ المكنيّةِ في الآية:

في قوله تعالى: ﴿أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ﴾، تمثيلٌ مُفَرَّعٌ

---

(1) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 61.

(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/212، درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/174.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/103.

تشبيهُ مآلِ النّفاقِ إلى النّار، ببناءٍ مُشرِفٍ على السُّقوطِ

عنِ الاستعارةِ المكنيّةِ بتشبيهِ الدّين ببناءٍ على الأرض الصُّلبةِ، فشبَّه النّفاقَ ببناءٍ على طَرفِ جُرُفٍ آيلٍ للسّقوطِ، فهو "تمثيلُ حالةِ هدْمِه في الدّنيا وإفضائِه ببانيه إلى جهنّمَ في الآخرة؛ بانهيار البناءِ المؤَسَّسِ على شفا جُرفٍ هارٍ بساكنِه في هُوَّة، وجَعلَ الانهيارَ به إلى نار جهنّمَ إفضاءً إلى الغاية منَ التّشبيه، فالهيئة المشبَّهةُ مركَّبةٌ من محسوسٍ ومعقولٍ، وكذلك الهيئةُ المشبَّهُ بها"[1]، ومعنى تأسيس البناءِ على طرف جُرُفٍ هارٍ أنّه بُنِيَ بفسادِ نيّةٍ، وبقصْدِ التّفريقِ بين المؤمنين[2].

نُكتةُ تنكيرِ: ﴿جُرُفٍ﴾:

تنكيرُ الجُرُفِ لصلاحِ التّمثيلِ بكلِّ جُرُفٍ، آيلٍ للانهيارِ

آثَرَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ أن يُعبِّرَ عنِ الجرُفِ بالتّنكير؛ لأنّه أرادَ مُطلَقَ الجُرفِ، وهو يصحُّ في أيّ جُرُفٍ اتّصفَ بذلك، ولا مزيّةَ لكونِه جُرفًا معيَّنًا، فالتّمثيل عامٌّ لا يَقصدُ به مكانًا بعينه، ويمكنُ أن يكون التّنكيرُ للتَّحقيرِ والتّقليلِ من شأن هذا البناءِ.

بَلاغةُ المقابلةِ بين الحالَيْن: التقوى والرضوان، والسقوط في النيران:

التّقوى هي حصنُ النّجاةِ الحصينُ، والنّفاقُ سبيلُ الهلاكِ المهين

قوله جلّ شأنُه: ﴿أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ﴾ قابَلَه قولُه ﷻ: ﴿أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ﴾؛ فوَضَعَ الرّضوانَ والتّقوى مقابلَ البناءِ الّذي يَسقطُ في نار جهنّمَ، فيُفهَمُ منه أنّ تأسيسَ الّذي يقابلُه على أمرٍ يحفظُه عنِ النّار، يوصِلُه إلى الرّضوانِ وما يقتَضيه من دخول الجنّة[3]، "فَهُمْ لمّا بَنَوه لقصدِ التّقوى ورضَى اللّهِ تعالى، ولم يُذكرْ ما يقتضي خيبَتَهم فيه كما ذُكرَ في مقابله؛ عُلم أنّهم قدِ اتّقوا اللّهَ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/34، ويُنظر: الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/312، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/149.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/85.

(3) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/448، ويُنظر: أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/103.

بذلك وأرضَوْه، ففازوا بالجنّة، كما دلّت عليه المقابلةُ، وأنّ البُنيانَ الثّاني لم يحصلْ غرضُ بانيه وهو الضِّرارُ والتّفريقُ، فخابوا فيما قصَدوه فلم يثبتِ المقصدُ، وكان عدمُ ثباتِه مُفضيًا بهم إلى النّار كما يُفضي البناءُ المنهارُ بساكنِه إلى الهلاكِ"[1].

دَلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿هَارٍ﴾:

الدّينُ المؤسَّسُ على الرَّيبِ، وطلبِ السُّمعةِ، واهنٌ ضعيفٌ

قولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ﴾ يعبّرُ عن تخرّقِ الجرفِ بفعل السُّيولِ حتّى يشرفَ على السّقوطِ، وهو اسمُ فاعلٍ أصلُه (هائر)، مشتقّ من (هار البناء) إذا تصدّعَ[2]، فعبّر عن هذه الصّفةِ باسم الفاعلِ للدّلالةِ على حدوثِ هذه الصّفةِ فيه ودوامِها حتّى يؤولَ إلى السُّقوط، فهذه الصّفةُ مستمرّةٌ فيه تحدثُ حينًا بعد حين لا يمكنُ إصلاحُها، وفي ذلك مبالغةٌ في الدّلالة على إفضاء البناءِ إلى السّقوط على وجهِ التّأكيد، ويمكنُ أن يُرادَ منِ اسم الفاعلِ اسمُ المفعولِ على معنى جرفٍ مُنهارٍ.

معنى الفاءِ في ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ﴾:

ما أسرعَ ما أدّى بهم باطِلُهم إلى النّارِ، وبئسَ القرارُ

في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ عطفَ الانهيارَ على التّأسيس بالفاء[3]، للدّلالة على أنّ الانهيارَ لم يتأخّر، وهو تصويرٌ لسرعةِ إفضاءِ الباطلِ بصاحبِه إلى سوء المصيرِ[4]، ولو عطف بغير الفاء لفاتَ معنى التّعقيبِ والسّرعةِ.

نُكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿فَٱنْهَارَ﴾:

سقطَ بناؤهُم بلا تماسكٍ، سُقوطًا سريعًا، فلا عملَ صالحًا يُمسكُه

عبّرَ في قوله ﷻ: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ عن سقوطِهم في النّار بانهيار البناءِ بهم، لما في الانهيارِ من دلالةٍ على سقوطٍ لا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/35، ويُنظر: البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/98، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/365.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/20، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/35.

(3) درويش: إعراب القرآن وبيانه: 4/174.

(4) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/448.

تماسُكَ معه[1]، فكما دلَّ العطفُ بالفاء على سرعة الانهيارِ بعد التّأسيس؛ دلّت مادّةُ الفعل(هار) على سرعة السّقوطِ والانحلالِ، وكما دلّت على ذلك صيغةُ (الانفعال) بما فيها منَ المطاوَعةِ بلا مقاومةٍ، وكلُّ ذلك يشعرُ بسرعةِ الهُويِّ إلى مُنقلَبِهم البئيسِ.

بَلاغةُ الجناسِ: ﴿هَارٍ فَٱنْهَارَ﴾:

تَكرارُ اللّفظِ للإشعارِ بأنّ الثّاني كان معلومًا لهم، من أوّلِ البناءِ

في قوله تعالى: ﴿هَارٍ فَٱنْهَارَ﴾ جناسٌ اشتقاقيٌّ، حيث ورد لفظان من جذرٍ واحدٍ، فذكرَ (الانهيار) بعد (هارٍ) اهتمامًا به وتأكيدًا على تَحَقُّقِهِ، وفي صيغة المطاوعةِ دليلٌ وإشارةٌ إلى أنّ الانهيارَ كان معلومًا لهم، ولكن عَمِيَت عيونُهم عنه، مع ما يُحدِثُه ذلك اللّفظُ من جمالٍ لفظيٍّ بتَكرار اللّفظِ المتشابهِ، المُفضي إلى التّنبيهِ على المعنى المرادِ.

معنَى الباءِ: ﴿بِهِۦ﴾ وعوْدِ الضّميرِ:

فَداحةُ الخُسران، انهيارُ البُنيانِ بِصاحبِه الّذي يأوي إليه، فينهارُ كلُّ شيءٍ

تدلُّ الباءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ على المصاحَبَة، أي: انهارَ البناءُ "وهو فيه آمنٌ من سقوطه بِقلّة عقلِه وسفاهةِ رأيه"[2]، وقد جاء حرف الباءُ في غاية الحُسن؛ إذ ليس المرادُ انهيارَ البناء وحسبُ، بلِ انهيارُه ببانيه وهو مستقرٌّ آمنٌ، ويدلّ الاستقرارُ في البناء مع علمه أنّه بناه على جُرفٍ هارٍ آيلٍ للسّقوط على قلّة العقلِ وسوءِ التّقديرِ، وكلُّ ذلك ذمٌّ لمسلك المنافقين، وقد تكونُ الباء للسّببيّةِ، على معنى أنّه انهارَ بسبب كونه على شفا جرفٍ هارٍ.

فائدةُ الإضافةِ ﴿نَارِ جَهَنَّمَ﴾:

التّأكيدُ بالإضافةِ، سبيلٌ إلى وضوحِ الدّلالةِ، وقوّةِ المعنَى

في قوله عزّ ذِكْرُه: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾، أضاف النّارَ إلى جهنّم، ولو عبّرَ بأحدهما لكان المعنى مفهومًا، ولكنْ لن يكونَ على

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/20.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/20.

قوّة المعنى ذاتِها الّتي تدلّ عليها الإضافةُ، فإضافةُ النّارِ إلى جهنّم أفادتِ التّأكيدَ وقوّةَ المعنى؛ حيث ذكرَ النّارَ بِاسْمَيْن من أسمائِها، إيغالًا في بيان سوءِ مُنقلبِهم وفداحةِ خُسرانِهم.

معنَى (الواو) في جملةِ نفْيِ الهدايةِ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

بيانُ استئنافِ نفْيِ العَجَبِ، عن مصيرِ الفريقَيْن

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، يُمكن أن تكونَ استئنافيّةً افتُتِحت بواو الاستئنافِ[1]، وسيقتِ الجملةُ مساقَ التّعليل، فلمّا ذَكرَ مصيرَ أعمالِ الفريقَيْن، أُجيبَ بأنّه "لا عجبَ؛ لأنّ الأمرَ بيد اللّه، لا مفرَّ من قضائه، وهو قد هدى الأوّلَ إلى ما فيه صلاحُه، ولم يهدِ الثّاني لِما عَلِم فيه من عدم قابليّةِ الخيرِ"[2]، ويمكنُ أن تكونَ عاطفةً على قوله: ﴿فَٱنۡهَارَ﴾، من باب عطْفِ عقوباتِهم بعضِها على بعض، فضلًا عنِ احتمال كونِها حاليّةً، على معنى: فانهار بناؤهم، والحالُ أنّ اللّه لا يَهديهم لِظُلمِهم.

فائدةُ التّعبيرِ بلفظِ الجلالة ﴿وَٱللَّهُ﴾:

ثبتَ ضلالُهم بنفْيِ هدايةِ الله تعالى لهم، ومَنْ أضلَّه الله فما له من هادٍ

افتُتِحَ قوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، بلفظ الجلالةِ؛ تعظيمًا لمضمون الجملةِ؛ إذ إنّ لفظَ الجلالةِ يؤثّرُ بتعظيم ما يأتي في حيّز الجملةِ الّتي يردُ فيها، فالمعنى في الآية: أنّ اللّه تعالى الّذي له كمالُ العظمةِ، والّذي لا هدايةَ لأحدٍ سواه، سَلَب الهداية عنهم فلا هاديَ لهم غيرُه، فدلّ ذلك على كمال ضلالِهم وانقطاعِ الهداية عنهم على أبلغِ وصْفٍ؛ ولذا جاء الفعلُ مضارعًا دالًّا على تجدّد انتفاءِ الهدايةِ عنهم، وهذا التّجدّدُ والاستمرارُ يناسبُ تأكيدَ انقطاعِ الهدايةِ عنهم.

فائدةُ توسُّطِ النّفْيِ بين المسنَدِ إليه والمسنَدِ الفعليّ:

جاء النّفْيُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

(1) مجموعة من المؤلّفين، إعراب القرآن الكريم: 2/911.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/21.

بين المسنَدِ إليه والمسنَدِ الفعليِّ، تأكيدًا للحُكم، وإيراده على وجه الثّبوتِ، فإنّ صفةَ الظّلم مانعةٌ من تحقّقِ الهداية جريًا على ما تقتَضيه سنّتُه تعالى في ذلك، وجاء الإخبارُ بذلك في فاصلة الآيةِ ليكونَ أوقعَ في النّفس وأشبَهَ بالإيجاز لما وردَ في الآية الكريمة، وجعل المسندَ فعلًا للدّلالة على تجدّدِ النّفي واستمرارِه، فأفادَ جعلُ النّفي بين المسنَدِ إليه والمسنَدِ الفعليِّ تحقيقَ الدّلالتَيْن معًا.

انتفاءُ الهدايةِ عنِ الظّالمين مؤكّدٌ، فهو حُكمٌ ثابتٌ دائمٌ مُتجدّدٌ

فائدةُ التّعبيرِ بالمضارع: ﴿يَهۡدِى﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دخلَ النّفيُ على المضارع للدّلالة على استمرارِ النّفي وتجدّدِه، فانتفاءُ هداية الظّالمين مستمرّ متجدّد في كلّ زمانٍ، لأنّ نفيَ المضارع بـ (لا) يدلُّ على دوام النّفي، لا نفي الدّوام[1]، وأخرج ذلك مخرجَ السُّنّةِ الإلهيّةِ، "أي: مضتْ سنّتُه تعالى ألّا يكونَ الظّالمُ مُهتديًا في أعماله إلى الحقِّ والعدلِ، ولا إلى الرّحمةِ والفضلِ"[2].

انتفاءُ الهدايةِ دائمٌ متجدِّدٌ، لا ينقطعُ على الإطلاقِ

معنَى (أل) في لفظ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾:

عبّر النّظمُ الكريمُ عن جنس القوم الّذين يظلمون في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فالهدايةُ منفيّةٌ عن كلّ قوم ظالمين، وليس عن قومٍ بعينِهم، ويدخلُ تحته الّذين بنَوْا مسجدَ الضّرارِ، والمعنى: أنّ الله تعالى لا يَهدي كلَّ قوم إذا اتّصَفوا بالظلمِ.

حُكمُ انتفاءِ الهدايةِ عامٌّ، لكلّ قومٍ ظالمين، في كلِّ زمانٍ ومكانٍ

نُكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾:

آثَرَ النّظمُ الجليلُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ نفيَ الهدايةِ عنِ القوم الظّالمين، ولم يقل: (لا يهدي الظّالمين)؛ لأنّه أراد "الّذين لهم قوّةُ المحاولة لما يريدون"[3]، إشارةً إلى أنّ المذكورين لهم منَ القوّة ما يُمكّنُهم من فعْلِ ما يريدون؛ لأنّ لفظَ (القوم) يدلّ على

القومُ المتمكّنون في الظّلم، يُزاولونَه جماعةً، دون خوفٍ ولا خَشيةٍ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/342.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/29.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/21.

الجماعة الّذين يقومون قَومةً واحدةً عند فزعهم تعبيرًا عن قوّتِهم وتلاحمِهم، كما أنّ فيه إشارةً إلى أنّ القومَ زاولوا الظّلْمَ جماعةً.

عِلّةُ وصْفِهم بالظّلم ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

بنـاءُ المسجدِ لغيرِ رِضوانِ الله تعالى، انحرفَ بالمسجدِ عن غايتِه

في قوله عزّ ذِكْرُه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وصفَ القومَ بصفة الظّلم "إشارةً إلى تعدّيهم، ووضْعِ الشّيء في غير موضعِه؛ حيث بنَوا مسجدَ الضِّرار؛ إذِ المساجدُ بيوتُ اللّه يجبُ أن يُخلَصَ فيها القصدُ والنّيّةُ لوجهِ اللّه وعبادتِه"(1)، كما أنّ فيه دلالةً على علّة انتفاءِ الهدايةِ عنهم، فإنّها كائنةٌ بسببِ صفةِ الظّلمِ الثّابتِ فيهم، فالآية ذمٌّ و"طعنٌ على هؤلاء المنافقين، وإشارةٌ إليهم، والمعنى: لا يَهديهم من حيث همُ الظّالمون"(2).

معنى (ألْ) في: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

الهدايةُ منقطعةٌ عن كلّ ظالمٍ، في كلّ زمانٍ عبْرَ تاريخِ الأُمم

في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عرّف ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالألف واللّام الدّالّةِ على الجنسِ أوِ العهد، فعلى إرادةِ الجنسِ يكونُ المرادُ بالظّالمين جنْسَ الظّالمين "فيدخلُ الّذين اتّخذوا مسجدًا دخولًا أوّليًّا"(3)، ويَحتمِلُ إرادةَ العهد إشارةً إلى هؤلاء المنافقين، فيكونُ من "وضْعِ الظّاهر موضِعَ الضّميرِ للتّسجيل على ظُلْمِهم لأنفُسِهم، وللإشارة إلى علّةِ الحُكم"(4).

نُكتةُ حذْفِ متعلّقِ لفظِ (الظّلم):

بيانُ أنّ انتفاءَ الهدايةِ، متعلِّقٌ بثُبوتِ صفةِ الظّلمِ، بالدّلالةِ على عمومِها

جاء وصفُ الظّلم في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مطلقًا منَ القيدِ، ولم يجعلْه ظلمًا خاصًّا بنوعٍ ما؛ إذ لم يقل: (ظالمين لأنفسهم)، أو (يظلمون النّاس)، فجعلَه مطلقًا؛ تعميمًا للحُكم، وللدّلالةِ على أنّ انتفاءَ الهدايةِ متعلِّقٌ بثبوتِ صفةِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/507.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/86.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/342.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/342.

الظّلم، فهو "عامٌّ يشملُ هؤلاء الظّالمين الّذين بنَوا مسجدَ الضّرارِ وغيرَهم"(1).

نُكتة الفصْلِ: ﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ﴾:

استئنافٌ لبيانِ إيغالِهم بالرَّيبِ، بعد تبيُّنِ حُكمِ بِنائِهم

جاءتِ الجملةُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ مستأنَفةً لِذكْرِ سوءِ عواقبِه بعد أن ذكرَ سوءَ الباعثِ عليه(2)، "ولمّا كان ما تقدَّم غيرَ قاطعٍ في إخْرابِه لِما ثبتَ للمساجدِ منَ الحُرْمة، استأْنَف الإخبارَ عن أنّه لا يُعدُّ في عِداد المساجد بوجْهٍ، وإنّما هو في عِدادِ بيوتِ الأصنام فهو واجبُ الإعدام"(3). ويُضاف إلى ذلك أنّه يجوزُ أن يُرادَ به الاستئنافُ البيانيُّ، جوابًا عن سؤالٍ نشأ عن ذِكرِ مسجدِهم والنّهيِ عنِ القيام به، فكأنّه قيل: هلِ ارْعَوَوْا بعد العزوفِ عنِ الصّلاة في مسجدِهم وهدْمِه؟ فأُجيب: بأنّهم مُستمرّون على ضلالِهم.

نُكتةُ التّعبيرِ بالمضارعِ في: ﴿لَا يَزَالُ﴾ وبيانُ اسمِها وخبرِها:

عدمُ انفكاكِهم عنِ النّفاقِ، لاستمرارِ تعلُّقِ قلوبِهم بمسجدِهم المشؤومِ

عبَّرَ بالفعل المضارِعِ في قوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ للدّلالةِ على رسوخِ النّفاقِ في قلوبهم، فهم كانوا مُنافقين شاكّينَ في دينهم، ولكنّهم ازدادوا نفاقًا بعد هدْمِه، وازدادوا تصميمًا على الكفرِ ومَقْتًا للإسلام لِما أصابَهم منَ الغيظ بسبب هدْمِه(4)، وخبرُ الفعلِ (لا يزال) قولُه تعالى: ﴿رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾، أو أنّ الخبرَ مضافٌ محذوفٌ تقديرُه: سبَبَ ريبةٍ؛ والمعنى: "لا يزال هدْمُه سببَ شكٍّ ونفاقٍ زائدٍ على شكِّهم ونفاقِهم لا يزولُ وَسْمُه عن قلوبهم، رَسَخ ذلك في قلوبهم وازدادوا نفاقًا"(5).

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/35.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/35 - 36.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/21.

(4) القنّوجيّ، فتح البيان: 5/402.

(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/313، وابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/449.

نُكتةُ إضافةِ البُنيانِ: ﴿بُنۡيَٰنُهُمُ﴾:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ﴾ أضافَ البناءَ إلى الضّميرِ العائدِ على المنافقين الظّالمين، إشارةً إلى أنّه "نفسُ المبنَى، وهو المسجدُ"(1)، كما فيه تصريحٌ وتأكيدٌ على نزع صفةِ المسجدِ عنه بإضافته إليهم بعد أن بيَّن ضلالَهم ووَصَفَهم بالقوم الظّالمين، فهذا البناءُ هو بناءٌ لهؤلاء الظّالمين الضّالّين؛ فلا قدسيَّةَ له ولا مكانةَ معتبَرة.

أُشْـرِبـوا في قلوبِهمُ النّفاقَ، فجاءتِ الأفعالُ عاكسةً لِما في القلوبِ من ضلالٍ

فائدةُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصِلتِه ﴿ٱلَّذِي بَنَوۡاْ﴾:

وُصفَ البُنيانُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ﴾ بالاسمِ الموصولِ المتضمِّنةِ صِلتُه فِعلَ البناءِ؛ تأكيدًا وتصريحًا بأنّ المرادَ منَ البناءِ مسجدُهم، كما أنّ فيه احترازًا عن كونِ إضافةِ البُنيانِ إليهم في قوله ﴿بُنۡيَٰنُهُمُ﴾ قد تدلُّ على التّمكُّنِ منَ التّصرّفِ فيه(2)، وكذلك "للإيذانِ بكيفيّةِ بنائِهم له وتأسيسِه على أوهنِ قاعدةٍ وأوهَى أساسٍ، وللإشعارِ بعلَّةِ الحُكمِ، أي: لا يزال مسجدُهم ذلك مَبْنِيًّا ومَهْدومًا"(3).

وصْفُه بالموصولِ (الذي)، إشارةٌ إلى أنّه بُنيَ على أساسٍ واهنٍ

نُكتةُ الإخبارِ بالمصدرِ:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ جاء خبرُ الفعلِ النّاقصِ مصدرًا وهو قوله: ﴿رِيبَةٗ﴾ "مبالغةً كالوصفِ بالمصدرِ"(4)؛ إذِ الإخبارُ بالمصدرِ هنا دلَّ على أنّ بنيانَهم هو الرّيبةُ ذاتُها، فتجسَّدَ شكُّهم ونفاقُهم بهذا البنيانِ، وهذا مبالغةٌ ظاهرةٌ في شدّة نفاقِهم ورسوخِ النّفاقِ في قلوبِهم، "والمعنى: أنّ بناءَ ذلك البنيانِ صار سببًا لحصول الرّيبةِ في قلوبِهم، فجَعَلَ نفسَ ذلك البنيانِ ريبةً؛ لكونِه سببًا للرّيبةِ"(5).

تَجلّي الشّكِ والرّيبِ في بنيانِهم، تَشَخَّصَ به البنيانُ، وبرزَ ما فيه من هوانٍ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/22.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/86، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/342.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/104.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/36.

(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/149، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/104.

بَلاغةُ الجناس: ﴿بُنۡيَٰنُهُمُ﴾ ﴿بَنَوۡاْ﴾:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ﴾ جناسٌ اشتقاقيٌّ، وتَكرارُ اللّفظ الثّاني إشارةٌ إلى ما في اللّفظ الأوّلِ من متعلّقاتٍ، وهو البناءُ للضِّرارِ والكفرِ والإرصادِ والتّفريقِ، كما فيه تأكيدٌ على ذمِّهم بتَكرار سبب الذّمِّ، وما جرى لهم من فضيحةٍ به.

تَكرارُ البناءِ تأكيدٌ على سببِ ذمِّهم، وعلّةِ هوانِهم

نُكتةُ تنكيرِ: ﴿رِيبَةٗ﴾:

جاء لفظُ الرّيبةِ في قوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ﴾ نكرةً تعظيمًا وتهويلًا للشّكِّ الّذي كان يتردَّدُ في قلوبهم، ولو لم يكنْ بذلك الهَوْلِ لَما كان مستمرًّا؛ كما أشعرَ الفعلُ (لا يزال)، فهي ريبةٌ دائمةٌ مستمرّةٌ لا تنقطعُ؛ لشدَّتِها ورسوخِها في قلوبهم.

الشّكُّ الّذي ملأ قلوبَهم، شكٌّ عظيمٌ لا يزولُ مع الأيّامِ

معنَى ﴿فِي﴾: ﴿فِي قُلُوبِهِمۡ﴾:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ عبَّر عن تمكُّن الرّيبةِ والشّكِّ من قلوبهم بحرف الجرِّ (في) الدّالِّ على الظّرفيّةِ المجازيّةِ، ومعلومٌ أنّ الرّيبةَ تكونُ في القلب، فالتّصريحُ بكونِها مستقرّةً في القلب تأكيدٌ على هذه الكَيْنونةِ والاستقرارِ والتّغلغُلِ في القلب والتّمكُّنِ فيه.

الشّكُّ مستقرٌّ في قلوبهم لا يزولُ، مهما حاولَ الرّسولُ

نُكتةُ الاستثناءِ، المصدَّرِ بالأداةِ ﴿إِلَّآ﴾:

الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ﴾، جاء للاستثناء مِنَ الزّمن المتطاولِ المستمرِّ؛ لأنّ الفعلَ ﴿لَا يَزَالُ﴾، يدلُّ على الاستمرارِ، فاستَثْنَى من هذا الاستمرارِ وقتَ التّقطيع، فالاستثناءُ "من أعمّ الأزمنةِ، أي: وقتَ أنْ تَقَطّعَ، وهو في محلّ النّصب على الظّرف"[1]، أي أنّ المصدرَ المؤوَّلَ من ﴿أَن تَقَطَّعَ﴾ مضافٌ إليه والمضافُ محذوفٌ تقديرُه: وَقْتَ تقطُّعِ قلوبِهم. ويدلُّ ذلك على أنّ الرّيبةَ باقيةٌ في قلوبهم أبدًا، حتّى

دَلالةُ الاستثناءِ على التّهكُّم، من بابِ تأكيدِ الشّيءِ بما يُشبهُ ضدَّه

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/449.

إنّهم سيموتون على هذا النّفاق[1]، فيكونُ هذا الاستثناءُ دالًّا على التّهكُّم "وهو من قَبيل تأكيدِ الشّيءِ بما يُشبه ضدَّه كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: 40]، أي: يبقَى ريبةً أبدًا إلّا أن تَقَطَّعَ قلوبُهم منهم وما هي بمقطَّعةٍ"[2].

فائدةُ التّعبيرِ بالمصدَرِ المؤوّلِ: ﴿أَن تَقَطَّعَ﴾:

إنّما عبّر في قوله عزّ ذِكْرُه: ﴿أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ بالمصدرِ المؤوّلِ دون المصدرِ الصّريحِ، لِما في الفعل من دلالةٍ على الحدوث والتَّجَدُّدِ، كما أنّ التّصويرَ في الفعل المضارع مرادٌ في الآية؛ حيث يُصوّرُ شدّةَ تقطُّعِ قلوبهم إيماءً إلى قوّة ثُبوتِ الرّيبةِ في قلوبهم ورُسوخِهم في النّفاق.

تصويرُ تقطيعِ قلوبِهم بالفعل المضارعِ، والغرضُ بيانُ قوّةِ اعتقادِهم بالنّفاقِ

دَلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿تَقَطَّعَ﴾، من حيث المادّةُ والصّيغةُ:

قولُه تعالى: ﴿أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ عبَّر فيه، عن تقطيع قلوبهم بصيغة التّفعُّلِ للدّلالةِ على كثرة التّقطيعِ، ومعلومٌ أنّ الكثرةَ في تقطيع القلب المُؤدّي إلى الموت لا يحتاجُ إلى التّكثير؛ فإنّما عبّرَ عن ذلك بالتّكثير مبالغةً في التّقطيعِ تعبيرًا عن شدّة تعلُّقِ قلوبهم بالنّفاقِ والرّيبةِ، بحيث لا تنفكُّ عنه حتّى لو قُطِّعتْ تقطيعًا شديدًا، فعبّر بذلك للدّلالة "على استمرار هذه الرّيبةِ ودوامِها وهو قوله: ﴿أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ قِطعًا وتتفرّقَ أجزاءً إمّا بالموت أو بالسّيف، وقيل في القبور أو في النّار. والمقصودُ أنّ هذه الرّيبةَ دائمةٌ لهم ما داموا أحياءً، ويجوزُ أن يكون ذِكرُ التّقطّعِ تصويرًا لحال زوالِ الرّيبةِ، وقيل: معناه: إلّا أن يتوبوا توبةً تتقطّعُ بها قلوبُهم نَدمًا وأَسفًا على تفريطِهم"[3]، فإنْ أُريد معنَى التّوبة فيكونُ التّكثيرُ دالًّا على شدّة النّدمِ تعبيرًا عن صدْقِ التّوبة.

التّعبيرُ عن شدّةِ تعلُّقِ قلوبِهم بالنّفاقِ، الّذي لا تنفكُّ عنه حتّى لو قُطِّعت تقطيعًا

---

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/149.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/36.

(3) القنّوجيّ، فتح البيان: 5/402.

فائدةُ إظْهارِ القلوبِ، في موضعِ إضمارِها:

النّفاقُ راسخٌ في قلوبِهم، ثابتٌ لا يـزولُ، مهما تغيّرتِ الظّروفُ

في قوله جلّ شأنُه: ﴿رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ أَظهَر موضعَ الإضمار، فأَظهر القلوبَ وكرَّر ذِكرَها ولم يَقُل: (ريبة في قلوبهم إلّا أن تقطّع)؛ وذلك تصريحٌ بأنّ التّقطُّع المذكورَ يتعلَّقُ بالقلوب لا بشيءٍ آخرَ، فأظهرَ القلوبَ حتّى لا يقعَ لُبْسٌ بمرجع الضّمير، فقد يُفهمُ أنّ التّقديرَ: (تَقطُّعُ الرّيبةُ عن قلوبهم)، فأراد أن يبيّنَ أنّ التّقطّعَ المذكورَ يتعلّقُ بالقلوب لا بغيرِها، كما أنّ فيه اهتمامًا بتَكرار ذكْرِ القلوب، وهذا الاهتمامُ يُفضي إلى تأكيدِ ثبوتِ النّفاق في قلوبهم، بحيث أعاد ذِكْرَها في سياق التّقطيعِ.

بَلاغةُ الكنايةِ عن صفةٍ في تقطيع القلوبِ:

رُسوخُهم في النّفاقِ لا يزولُ إلّا بموتِهم

في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ عبّرَ بتقطيع القلوب عن رسوخ الرّيبةِ في قلوبهم، فهذا التّعبيرُ "كنايةٌ عن أنّ الرّيبةَ باقيةٌ متمكّنةٌ فيها غيرُ زائلةٍ، فلو صَوَّرَ أنّ قلوبَهم تَقطَّعُ وتفرَّقُ قِطعًا حتّى تخرج الرّيبةُ منها؛ لزالت، وأمّا ما دامت سالمةً متجمّعةً فالرّيبةُ باقيةٌ متمكّنةٌ فيها"[1]، فهي كنايةٌ عن صفة الرّسوخِ في النّفاق، والغرَضُ تصويرُ المعنى المجرّدِ بمعنًى محسوسٍ تأكيدًا للمعنى ومبالغةً فيه.

دَلالةُ الواوِ على الاستئنافِ في الجملةِ الاسميّة:

بيـانُ أنّ الاستئنافَ بما أخبرَ به، إنّما هو من علْمِه تعالى وحِكمتِه

افتتح قولَه ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بواو الاستئناف، والجملةُ مستأنَفةٌ[2]، لمّا أخبرهم بما لا طريقَ للعلم به إلّا منَ اللّه تعالى، وهو كونُ الرّيبةِ باقيةً في قلوبهم إلّا أن تتقطّع تلك القلوبُ؛ استأنفَ ليبيِّنَ أنّ ذلك إنّما هو من علْمِ اللّه تعالى الّذي يُحيط بعلْمِه بكلّ شيءٍ. وافتتحَ الجملةَ بلفظ الجلالةِ تعظيمًا لعلْمِه وحكمتِه، فما نُسب إلى اللّه تعالى كان منَ العظمةِ على أقصاها. ويمكنُ أن تكونَ الجملةُ

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/371.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 6/38.

حاليّةً على معنى: والحالُ فيما يصيبُهم أنّ اللّه عليمٌ بحالهم، حكيمٌ بجعْلِ هذه العقوباتِ عليهم.

فائدةُ تّذييلِ الآيةِ بالجملةِ الاسميّةِ:

بيانُ أن يكونَ بناءُ مسجدِ الضِّرارِ، سببَ حسْرةٍ عليهم في الدّنيا والآخرة

الجملة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، اسميّةٌ تفيدُ تأكيدَ مضمونِها، وهو الإخبارُ بعلم اللّه تعالى وحِكمتِه، وعقَّبَ بها على الإخبار عن دوامِهم بالرّيبةِ والشّكِّ والحسْرةِ على خراب بُنيانِهم، فهي "تذييلٌ مناسبٌ لهذا الجَعْل العجيبِ والإحكامِ الرّشيقِ؛ وهو أن يكون ذلك البناءُ سببَ حسْرةٍ عليهم في الدّنيا والآخرة"[1].

فائدةُ التّعبيرِ بلفظِ الجلالة:

لفظُ الجلالةِ يخلَعُ على مضمون جُملتِه التّعظيمَ

افتُتِحَ قولُه ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بلفظِ الجلالة تعظيمًا لعلمِه وحكمتِه، فما نُسبَ إلى اللّه تعالى كان منَ العظمة على أقصاها، وكونُ الجملة اسميّةً فإنّها تدلّ على تأكيد مضمونِها، ولفظُ الجلالة حيث وردَ فإنّه يؤثّرُ بالتّعظيم على ما يأتي في حيِّز الجملةِ، فقولُه: ﴿وَٱللَّهُ﴾ "أي: الّذي له الإحاطةُ بكل شيءٍ، ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بالغُ العلْمِ بكلِّ معلومٍ ﴿حَكِيمٌ﴾ فهو يُتقنُ ما يأمرُ به"[2].

سِرُّ تذْييلِ الآيةِ بهذيْن الاسميْن الجليلَيْن: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

ما أخبرَ اللّه تعالى عنه، فهو عن علْمٍ، وما حكمَ به فهو عن حكمةٍ

خُتم قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بالعلمِ والحكمةِ للدّلالة على أنّ ما أَخبر به إنّما هو عن علْمِه ﷻ فهو حتمٌ لا يُشَكُّ فيه، وأنّ ما حَكمَ به عليهم إنّما يصدرُ عن حكمةٍ بوضْع كلِّ شيءِ موضِعَه، فهو ﷻ "﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالِهم، ﴿حَكِيمٌ﴾ في الأحكام الّتي يحكمُ بها عليهم"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/36.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/22.

(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/215.

نُكتةُ تنكيرِ الاسمَيْن الجليلَيْن: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

في قوله ﷻ: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ جاء الخبرانِ عن صفاتِ اللّه تعالى بالتّنكير دونَ التّعريف، تعظيمًا لصفتيِ العلم والحكمة المتعلِّقتَيْن به ﷻ؛ فعلمُ اللّه تعالى علمٌ عظيمُ الشّأن، وكذلك حكمتُه.

علمُ الله تعالى وحكمتُه عظيمٌ شأنُهما، نافذٌ في الخلْقِ مرادُهُ بمُقتضاهُما

سرُّ تقديمِ (العلمِ) على (الحكمةِ):

في قوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ قدّمَ العلمَ على الحكمة؛ لأنَّ الأحكامَ الّتي نزلت في شأن مسجدِ الضِّرار إنّما نزلت لعلْمِ اللّه تعالى بسوءِ نواياهُم وخُبثِ مقاصدِهم، فلمّا حكمَ عليهم بما حكمَ، كانت تلك الأحكامُ لها غاياتٌ وأغراضٌ ساميةٌ لجماعة المؤمنين وللحقّ، فكانت مبنيّةً على العلمِ.

عَلِمَ الله سوءَ نواياهُم وخُبثَ مقاصدِهم، فحكمَ عليهم بما حكم

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحَلِفُ والقَسَمُ:

"القسَمُ أبلغُ من الحلف؛ لِأَنّ معنى قولنا: أُقسم بِاللّه، أَنّه صار ذا قسم بِاللّه، والقَسَمُ: النَّصِيبُ، والمرَادُ أَنَّ الَّذي أقسمَ عليه من المَال وغيرِه قد أحرزَه ودفع عنه الخصمَ بِاللّه. والحَلِف من قولك: سيف حَليف؛ أَي: قاطعٌ ماضٍ، فَإِذا قلتَ: حَلَفَ بِاللّه، فكأنّك قلتَ: قطعَ المُخَاصمَةَ بِاللّه. فالأوّل أبلَغُ؛ لأَنَّهُ يتَضَمَّن معنى الآخر مع دفع الخصم، ففيه مَعْنيانِ، وقولُنا: حلف، يُفِيدُ معنًى واحِدًا، وهو قطعُ المُخاصمَة فقط"[1]، فعبّر في قوله تعالى: ﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ بالحلف؛ تعبيرًا عن أنّهم أرادوا قطْعَ المخاصمة بإظهار أنفُسِهم بمظهرِ الصّادق.

القسَمُ أبلغُ منَ الحلِفِ، والحلِفُ أنسبُ في المخاصمةِ

(يشهدُ) و(يعلمُ):

الفرقُ بين الشّهادة والعلمِ "أَنّ الشَّهَادَة أخصُّ منَ العلم، وذلك

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 56.

الشّهادةُ العلمُ بما يُدرَكُ بالحواسِّ، وهي أخصُّ مِنَ العلمِ

أنَّها بوُجود الأشْيَاء لا من قبل غيرها، والشَّاهِد نقيضُ الغائِب في المعنَى؛ ولذا سُمّي ما يُدْرك بالحواس ويُعلمُ ضَرورَةً: شاهدًا، وسُمِّيَ ما يُعلم بِشَيْءٍ غيره وهو الدّلَالَةُ: غائِبًا؛ كالحياة والقُدْرَة، وسُمِّي القَديمُ شاهدًا لكلِّ نجوى لأنَّه يَعلمُ جَميع الموجودات بِذاتِهِ، فالشّهادةُ علمٌ يتناولُ المَوْجودَ، والعلمُ يتَناوَلُ المَوْجودَ والمعدومَ"(1).

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ عبّرَ بالشّهادة لأنّ كذِبَهم كان ظاهرًا مُدركًا بالحواسِّ وليس خفيًّا، فكانتِ الشّهادةُ أبلَغَ في التّعبير عنه.

(لا تَقُمْ فيه) و(ولا تُصَلِّ):

النّهيُ عنِ القيامِ فيه للمبالغةِ، والنّهيُ عنِ الصّلاةِ نهيٌ عنِ الدّعاءِ للمنافقين

قولُه تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ﴾، وفيه جاء النّهيُ عنِ الصّلاة في المسجد، بطريقة المجازِ المرسَلِ طلبًا للمبالغةِ في النّهي عنِ الصّلاة في مسجد الضِّرارِ، وإنّما جاء النّهيُ عنِ القيام الّذي يستلزمُ الصّلاةَ، دونَ التّصريح بالنّهي عنِ الصّلاة؛ مبالغةً في النّهي عنِ الصّلاة فيه، ولم يقل: (لا تصلِّ فيه)، إذ لو قال ذلك لَدلَّ على أنّ التّحريمَ لا على وجه المبالغةِ والتّأكيدِ، فبالَغَ في النّهيِ بذكرِ القيامِ الّذي يشملُ جميعَ أعمالِ الصّلاة. وكذلك فإنّه لو عبّرَ بالصّلاة لكان محتمِلًا المعنى اللّغويَّ، فيكونُ المعنى عندئذ: لا تدعُ لهم فيه وحسب.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓۖ﴾ [التّوبة: 84] نَهْيٌ عنِ الصّلاة على المنافقين ودفنهم، فنهاه ﷻ عن أن يصلّيَ على أحدٍ مات من هؤلاء المنافقين الّذين تخلّفوا عن الخروج معه، وبأن لا يتولّى دفنَه وتقبيرَه(2)، فالمرادُ منَ القيام ليس قيامَ الصّلاةِ؛ بل أعمالَ الدّفنِ والدّعاءِ للميّت والشّهادةِ له، وأمّا

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 95 - 96.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/405.

النّهْيُ عنِ الصّلاةِ على المنافقين فجاء مصرَّحًا فيه بلفظ الصّلاةِ ليشملَ الصّلاةَ المعروفةَ، كما يشملُ الدّعاءَ لهم، فنهاه عن كلِّ ذلك.

الرِّيبةُ والشَّكُّ والألفاظ المقاربة:

الرّيبُ أخصُّ منَ الشّكِّ، وأفصحُ في البـيـانِ، عمّا اعتلج في قلوبهم منَ القلقِ والحسْرة

الرّيبُ شكٌّ مع تُهَمَةٍ[1]، وأصلُ الرّيبِ: القلقُ واضطرابُ النّفس، ولمّا كان الشّكُّ يلزمُه اضطرابُ النّفس وقلقُها غَلَب عليه الرّيبُ فصار حقيقةً عُرفيّةً، يُقال: رابَه الشّيءُ إذا شكّكَه، أي: أوجبَ الشّكَّ في حاله[2]. وفي الآيةِ الكريمةِ: عبّرَ عن قلقِهم وحسرتِهم ونفاقِهم بالرّيبة فقال: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾، والمرادُ بالرّيبةِ في الآية: الشّكُّ والنّفاقُ، والحسْرةُ والنّدامةُ، والحزازةُ والغيظُ في قلوبهم[3]. وكلُّ هذه المعاني حاضرةٌ في قلوبِهم، ولو عبّرَ بالشّكِّ لكان المدلولُ الشّكَّ وحسبُ، والحالُ أنّهم كانوا مُرتابين قلِقين، أخذتهمُ الحسْرةُ والنّدامةُ على مسجدِهم وأصرّوا على ما هم فيه وامتلؤوا غيظًا، فالتّعبيرُ بالرّيبةِ في هذا الموضعِ من بلاغةِ القرآنِ الكريم.

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 99.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/222.
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/301.

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١﴾ [التّوبة: 111]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ترغيبُ المؤمنين في الجهادِ، إثرَ بَيانِ حالِ المتخلّفين عنه

لـمَّا ذكر ﷻ "فضائحَ المنافقين بسبب تخلُّفهم عن غزوة تبوكَ، وأصنافَ المقصّرين منَ المؤمنين، أردفَ ذلك بذِكْر حالِ المؤمنين الصّادقين في إيمانهم البالِغين فيه حدَّ الكمالِ، وبذا تمّ معرفةُ جميع أحوالِ المؤمنين"(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱشۡتَرَىٰ﴾: (شرى) أصلٌ يدلُّ على تعاوُضٍ مِنَ الاثْنَيْنِ في أمرَيْنِ أخْذًا وَإعْطاءً مُماثَلَةً، والشِّراءُ والبيعُ يتلازمان، فالمُشْتَرِي دافعُ الثّمن، وآخذُ المثمَّن، والبائعُ دافعُ المثمَّن، وآخذُ الثّمن. الشّراءُ يُمدُّ ويُقصرُ، يُقال منه: شرَيْتُ الشّيءَ أشريه شراءً، إذا بِعْتَه، وإذا اشتريتَه أيضًا، وهو منَ الأضداد، وتُجوّزَ بالشّراء والاشتراء في كلّ ما يحصل به شيءٌ، نحو: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فقد ذكرَ ما اشتُرِيَ به، وهو قوله: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ﴾(2).

2) ﴿أَوۡفَىٰ﴾: (وفى) أصلٌ يدُلّ على إكْمالٍ وإتْمام. منه الوَفاءُ: إتْمامُ العَهْدِ وإكْمالُ الشَّرْطِ الوافي: الّذي بلغ التّمامَ. يُقال: دِرهمٌ

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/30، ويُنظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/37.
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (شرى).

وافٍ، وكيلٌ وافٍ، وأَوْفَيْتُ الكيلَ والوزنَ. وفَى عهدَه يَفِي وَفاءً، وأَوْفَى: إذا تمّم العهد ولم ينقُض حِفظه، الوَفاءُ: ضدُّ الغدْرِ. يُقال: وفَى بعهده وأوْفى بمعنًى[1].

3) ﴿بِبَيۡعِكُمُ﴾: (بيع) أَصلٌ وهو بَيْعُ الشَّيْءِ، البيعُ: ضِدُّ الشِّراءِ، وهو: إعطاءُ المثمَّن وأخذُ الثّمن، والبَيْعَةُ: الصَّفْقةُ على إيجاب البيْع وعلى المُبايعةِ والطّاعة. وقد تبايَعوا على الأمر: كقولِكَ: أَصْفَقوا عليه. وبايَعه عليه مُبايَعةً: عاهَده، هو عِبارَةٌ عَنِ المُعاقَدةِ والمُعاهَدةِ، فكُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا باعَ ما عنده مِنْ صاحِبه وأعطاه خَالِصَةَ نَفْسِه وطاعَتَه ودَخِيلَةَ أَمره، وبايَعَ السّلطانَ: إذا تَضمَّن بَذْلَ الطّاعة له بما رَضخ له، وقوله ﷻ: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾ إشارة إلى بيعة الرّضوان[2].

4) ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾: (فوز) أصلٌ وهو النَّجَاة، فازَ يَفوزُ، إذَا نَجا، وهو فائِزٌ. وفازَ بالأَمْرِ، إذا ذَهَبَ بِهِ وَخَلَصَ. والفَوْزُ: الظَّفَر بالخير والنَّجاةُ مِنَ الشَّرِّ. وفي التَّنْزِيلِ العَزِيزِ: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾ [آل عمران: 188]؛ أي: بمنْجاةٍ مِنَ العَذابِ، وأَصلُ المَفازَة مَهْلَكَةٌ، فَتَفاءَلُوا بِالسَّلامَةِ والفَوْزِ[3].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الإخبارُ عنِ البيعةِ مع الله تعالى، وجزائِها الكريمِ، بالفوزِ العظيمِ

يُخبرُ اللّه تعالى عن ذاته الجليلةِ بأنّه اشترى مِنَ المؤمنين أنفُسَهم وأموالَهم بأنّ لهم في مُقابلِ ذلك الجنّةَ، وما أعدّ اللّه فيها مِنَ النّعيم لبذْلِهم نفوسَهم وأموالَهم في جهاد أعدائِه لإعلاء كلمته وإظهار دينِه، فيَقْتلون ويُقتلون، وهذا وعدٌ منزَّلٌ في التّوراة والإنجيل

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وفى، وفي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بيع).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (فوز).

والقرآن، ولا أحدَ أوفى بعهده منَ اللّه لِمَنْ وفَّى بما عاهدَ اللّهَ عليه، فأَظهِروا السّرورَ - أيّها المؤمنون - ببيعِكمُ الّذي بايعتُم اللّهَ به، وبما وعدَكم به منَ الجنّة والرِّضوان، وذلك البيعُ هو الفلاحُ العظيمُ(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغةُ فصْلِ الآياتِ عن سابقتِها:

شَتّانَ بين صفاتِ المنافقين المُراوِغين، وسلوكِ المؤمنين المتَّقين

فَصَلَ قولِه جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ عن سابقِه لكمالِ الانفصال بين مضمونِهما؛ فبعدَ ذِكرِ أحوالِ المنافقين استأنفَ "للتّنويه بأهلِ غزوةِ تبوكَ، وهم جيشُ العُسْرة، ليكونَ توطئةً وتمهيدًا لذِكرِ التّوبة على الّذين تخلّفوا عنِ الغزوة وكانوا صادقين في إيمانهم"(2).

نُكتةُ توالي المؤكّداتِ في: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ﴾:

الدّلالةُ على أهميّة الخبرِ، وعظمةِ المشتري، ونفاسةِ المُشترَى، ووثاقةِ العَقدِ

تضمّن قولُه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ وفرةً منَ المؤكّدات، فتوالَتْ أساليبُ التّأكيدِ فيها سوى التّأكيد بـ(إنّ) والجملةِ الاسميّة: "فأوّلُها: قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾، فيكونُ المشتري هو اللّه المقدّسُ عنِ الكذب والخيانةِ، وذلك من أدلِّ الدّلائلِ على تأكيد هذا العهدِ. والثّاني: أنّه عبَّرَ عن إيصال هذا الثّواب بالبيع والشّراء، وذلك حقٌّ مؤكَّدٌ. وثالثُها: قولُه: ﴿وَعۡدًا﴾ ووعدُ اللّه حقّ. ورابعُها: قولُه: ﴿عَلَيۡهِ﴾ وكلمةُ (على) للوجوب. وخامسُها: قولُه: ﴿حَقّٗا﴾ وهو التّأكيدُ للتّحقيق. وسادسُها: قولُه: ﴿فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ وذلك يجري مجرَى إشهادِ جميعِ الكتبِ الإلهيّة وجميعِ الأنبياء والرّسلِ على هذه المبايعة. وسابعُها: قولُه: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ وهو غايةٌ في التّأكيد. وثامنُها: قولُه: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ

(1) جماعة من العلماء، التَّفسير الميسَّر: 1/204.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/37.

﴿ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾ وهو أيضًا مبالغةٌ في التّأكيد. وتاسعُها: قولُه: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ﴾. وعاشرُها: قولُه: ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾. فثبت اشتمالُ هذه الآية على هذه الوجوهِ العشرةِ في التّأكيد والتّقريرِ والتّحقيقِ"(1). ودَلَّ هذا التّأكيدُ على الاهتمام بالخبر تقويةً لمضمونه؛ كونَه يتعلّقُ بأشدِّ ما يكونُ على النّفس وهو القتالُ حيث مَظِنَّةُ القَتل.

دَلالةُ التّعبير بـ ﴿ٱشۡتَرَىٰ﴾:

جَزاءُ البيعةِ أمرٌ ثابتٌ في الشّرائعِ، وسُنّةٌ راسخةٌ في العقائدِ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ﴾ عبَّرَ عن مبايعتِهم اللّهَ تعالى بالاشتراءِ في الزّمن الماضي للدّلالةِ على أنّه أمرٌ محقّقٌ مؤكّدٌ، وأنّه أمرٌ معهودٌ في الرّسالاتِ السّابقةِ كما يشيرُ إلى ذلك قولُه تعالى: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ "إشارةً إلى أنّ الوعدَ بذلك قديمٌ مُتكرِّرٌ معروفٌ في الكتبِ السّماويّةِ"(2).

بَلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ﴾:

لمّا قَبِلَ ما بَذلوه، عَبَّرَ عن حَتْميَّةِ جَزائِهم بالشّراءِ، لتثمينِ ذلك وتعْظيمِه

في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ استعارةٌ؛ إذ لا يجوزُ أن يُنسبَ الاشتراءُ إلى اللّه تعالى؛ لأنّ المشتريَ إنّما يشتري ما لا يملكُ، وبيانُ ذلك أنّ المؤمنَ يقاتِلُ في سبيل اللّه بماله ونفسِه، فإذا قُتِلَ أخَذَ منَ اللّه في الآخرة الجنّةَ جزاءً لِما فعلَ، فجعلَ هذا استبدالًا وشراءً، وإنّما عبّرَ بذلك تلطُّفًا في الدّعاء إلى العبادة، وللمبالغةِ في قَبوله تعالى لما بَذلوه، فإعطاؤهمُ العِوضَ على ما بذلوا دليلٌ على قَبوله منهم(3)، فهي استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ؛ حيث استعارَ الاشتراءَ لإثابتِهمُ الجنّةَ ببذلِهمُ الأموالَ والأنفسَ في سبيل اللّه تعالى، فشَبَّه بذْلَهمُ الأموالَ والأنفسَ، وإثابتَهم عليها بالجنّة، بالبيع والشّراءِ بجامع المعاوَضَة

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/152.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/37.

(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/150، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/302، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/105.

في كلٍّ من البيع والشّراء، وعِوَضُهُ المالُ وبذلِ الأنفسِ والأموالِ في سبيل اللّه، وعِوضُه الجنّةُ[1].

معنَى ﴿مِنَ﴾ في شِبْه الجملةِ: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

في قوله ﷻ: ﴿ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾، الجارُّ والمجرورُ ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، يتعلّقُ بالفعلِ ﴿ٱشْتَرَىٰ﴾، ومعنى الاشتراء: أخْذُ الشّيءِ من صاحبه بثمنِه[2]، وبهذا فإنّ (مِن) هنا ابتدائيّةٌ، تدلّ على ابتداء مكانِ الأخذِ.

معنى (أل) في لفظِ: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ عرَّف المؤمنين بالألف واللّام، وظاهرُهُ أنّها عامّةٌ في كلّ مؤمنٍ، فحكمُها "عامٌّ في كلّ مؤمنٍ مجاهدٍ في سبيل اللّه"[3]، أمّا كَوْنُ الخِطابِ مُخَصَّصًا بالمخاطَبين من هذه الأمّةِ في قولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ فلا يعارِضُ التّعميمَ؛ لأنّ الإخبارَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾، هو إخبارٌ عن حقيقةٍ ثابتةٍ في كلّ الشّرائع، كأنّها سُنَّةٌ من سُننِه تعالى في المؤمنين.

فائدةُ تقديم شِبْه الجملةِ ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، على المفاعيل:

قدَّمَ شِبهَ الجملةِ: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على المفعول به في قوله جلّ شأنُه: ﴿ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾، لئلّا يعودَ الضّميرُ على متأخِّرٍ، ولولا هذا التّقديمُ لكان التّركيبُ: (اشترى الأنفس والأموال من المؤمنين)، كما أنّ التّقديمَ يفيدُ تَكرارَ الضّميرِ العائدِ للمؤمنين، وفي ذلك تأكيدٌ على مكانتِهم في هذه المبايعة. وفيه أيضًا

حروفُ المعاني ذاتُ أثرٍ في السّياق، معنًى وإعرابًا

العهدُ والمبايعةُ لكلّ مؤمنٍ، في كلّ زمانٍ، لا تنقطعُ ولا تنفصمُ

قدَّمَ ذِكرَ المؤمنين، اهتمامًا بشأنِهم، في سياق الثّناءِ عليهم

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/313، وابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/451، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/92.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرى).

(3) ابن جُزيّ، التّسهيل: 1/348.

إظهارٌ لقوّةِ بذلِهم؛ حيث إنّ تأخيرَ (الأنفُس، والأموال) أوجَبَ إضافتَها للضّميرِ العائدِ للمؤمنين، فأشعرتِ الإضافةُ أنّهم مالِكونَ لهذه الأنفسِ والأموالِ، فيكونُ بذلُ النّفس والمالِ في سبيل الله تعالى دالًّا على جودِهم بكل ما يَملكون، وفي ذلك إظهارٌ لِمزيَّتِهم ومَنقبتِهم.

عِلّةُ تقديمِ (الأنفُس) على (الأموال):

قدَّم النّظمُ الكريمُ في قوله ﷻ: ﴿ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾ ذِكْرَ الأنفُسِ على الأموال في هذا الموضعِ فقط في القرآن الكريم؛ لأنّ النّفس أعزُّ على الإنسان من سائر الأشياء، والنّفسُ سابقةٌ على اكتساب المال[1]، فالآية هنا تختلفُ عن بقيّة الآياتِ الّتي تَقدَّم فيها ذِكْرُ المال على اعتبارِ أنّ تقديمَ المال أيسرُ من تقديم النّفس؛ لأنّ الآية تصفُ هذا الشّراءَ من المؤمنين في وسط القتال في سبيل الله ووقوعِ القتل بين الطرفيْن، فناسبَه تقديمُ النّفس.

النّفسُ أحقُّ بالتّقديمِ في المبايعةِ، مع المجازفةِ بهلاكِها في سبيل الله

معنى الباء: ﴿بِأَنَّ﴾:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ دخلت على العِوضِ في الشّراء وهو الثّمنُ، وتُسمّى: (باءَ العِوض)[2]، "ولما كان شأنُ الباء أن تدخلَ على الثّمن في صِيَغِ الاشتراء أُدخلت هنا في: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ لمشابهةِ هذا الوعدِ الثّمنَ"[3]، فكما يجبُ في الشّراء أن يَعرف المشتري ماذا يشتري؛ عرّفَ في الآية ماذا يشترون بالتّصريحِ به من خلال حرف الباء تعْيينًا للثّمن.

تَعيينُ الثّمنِ الّذي باعوا أنفُسَهم وأموالَهم به، تثمينًا للصّفقةِ الرّابحةِ

معنى اللّام: ﴿لَهُمُ﴾:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ عبَّرَ باللّام الدّالّةِ على الملكِ والاستحقاقِ، وذلك للدّلالةِ على أنّ الجنّةَ في حال الإيفاءِ بالثّمن فإنّها كائنةٌ لهم على جهة التّملّكِ والاستحقاق، وقد عُلِم أنّ الجنّةَ

اللّامُ للتّمليكِ، والغرَضُ المبالغةُ في إكرامِهم، بتمليكِهم جنّةَ الخُلْدِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/23.
(2) عُضيْمَة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 2/15.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/38.

محضُ امتنانٍ منَ اللّه تعالى، فإنّ التّعبيرَ بالاستحقاق في الآية إنّما هو مبالغةٌ في الإكرام منَ الجليل تعالى ذِكرُه.

نُكْتَةُ تقديمِ المسنَدِ ﴿لَهُمُ﴾، على المسنَدِ إليه:

الجنّةُ خُصَّتْ بهم للمبالغةِ في استحقاقِهم لها

قدَّم شِبهَ الجملة على المسنَد إليه في قوله جلّ شأنُه: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ مبالغةً في تخصيص الجنّةِ بهم، فهي خاصّةٌ مقصورةٌ عليهم[1]، وأفادَ هذا التّخصيصُ المبالغةَ "في تقرير وصولِ الثّمنِ إليهم واختصاصِه بهم، كأنّه قيل: بالجنّة الثّابتةِ لهم المختصّةِ بهم"[2].

معنَى (أل) في ﴿ٱلۡجَنَّةَۚ﴾:

أَدْخَلَهُمُ الجنّةَ بعد تعريفِها، فهي معهودةٌ حاضرةٌ في الأذهانِ

عرَّف الجنّةَ في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ بالألف واللّام للدّلالةِ على الجنّةِ المعهودةِ الّتي عَرّفها لهم، وهي جنّةٌ قد تاقَتْ أرواحُهم لها لجمال وصْفِها، فالتّعبيرُ عنِ الجنّة بالتّعريف العَهْدي، يُشيرُ إلى صفاتِها العظيمةِ الّتي سبقَ وأن عَلِموها استحضارًا لها، وفي ذلك تفخيمٌ لشأن هذه المبايعة.

الموقعُ النّحويُّ والبيانيُّ لـ: ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾:

بيانُ أنّ الاستئنافَ، لبيانِ مناقبِهم، وإبرازِ أشرفِ أحوالِهم

الجملةُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾ مستأنَفةٌ لذِكْرِ أعظَمِ أحوالِهم، والتّنبيهِ على أشرف مقاماتِهم[3]، والاستئنافُ بيانيٌّ سيقَ للإجابة عن سؤالٍ يثيرُه قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾، فكأنّه قيل: ما بالُهم يَستحقّون هذه المنقبةَ العظيمةَ؟ فأُجيبوا بذلك[4]، أو يُقال: "كيف يَبيعون أنفسَهم وأموالَهم بالجنّة؟!، فقيل: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهو بذلٌ منهم لأنفُسِهم وأموالِهم إلى جهة اللّه سُبحانه وتعريضٌ لهما للهلاك"[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/24.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/105.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/509.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/346.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/105، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/38.

بيانُ أنّ المؤمنين، لا يَنقطِعون عنِ القتال، ولا يَفتُرون عنِ الجهادِ

دَلالةُ التّعبيرِ بالأفعالِ المضارِعة:

عبّرَ في قوله ﷻ: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾ عنِ القتال بالفعل المضارِع للدّلالة على استمرارِهم في القتال بلا انقطاعٍ، دليلًا على حرصِهم وتمسُّكِهم بدعوتِهم، كما يشيرُ إلى صلابتِهم إذ هم لا يَفتُرون عن هذا الفعلِ الثّقيلِ على النّفس وفي ذلك زكاةٌ لهم، كما أنّ الاستمرارَ في كونِهم يُقتلون بالبناء للمفعول يدلُّ على شدّة شكيمتِهم وقوّةِ اعتقادِهم بِحُسْنِ الجزاء، إذ هم بالرّغم من رؤيتِهم إخوتَهم يَسقُطون قتلَى في ساحِ الوغى؛ فإنّهم لا يفتُرون ولا يَنقطعون عن خوض الجهادِ.

الثّناءُ عليهم باشتراكِهم في الجهاد، لا بالنّظرِ إلى قتْلِ أحدٍ ما

بَلاغةُ حذْفِ متعلِّقِ القتال:

قولُه تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾ عبَّرَ عنِ القتال بلا قيْدٍ، فجعلَه مطلقًا، ولم يقل: (يقاتلون أعداء اللّه، أوِ الكافرين)؛ اهتمامًا بشأن القتال ذاته، إذ إنّ الثّناءَ جاء على كونِهم يزاولون هذا القتالَ، لا على كونِهم يَقتلون به أحدًا دونَ غيره.

قتالُهم لدينِ اللهِ خالصٌ مِنَ الشّوائبِ، مُتجرِّدٌ لله دونَ سواه

فائدةُ القيْدِ بشِبْه الجملةِ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ومعنى ﴿فِي﴾:

قولُه ﷻ: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، عبّرَ النّظمُ الكريمُ عن قتالِهم بإخلاصٍ لرضوانِ اللّه وطاعتِه، بكونِه كائنًا في سبيل اللّه، للدّلالة على أنّه قتالٌ وقع بسببِ الدِّين، وعلى وَفْقِ تعاليمه، أي "قتالاً يكونُ الدّينُ محيطًا به وظَرْفًا، فلا يكونُ فيه شائبةٌ لغيره"[1]، والمرادُ: الإشارةُ إلى الإخلاص والآدابِ الّتي يجبُ أن يتّصفَ بها القتالُ، وفي ذلك إيجازٌ بليغٌ؛ حيث دلَّ بلفظٍ قليلٍ على جميع الشّروط والآدابِ الّتي يجبُ اتّباعُها أثناءَ القتال، و(في) هنا ظرفيّةٌ مجازيّةٌ وأفادت معنى السّببيّةِ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/24.

تفصيلُ أحوالِ المقاتلين في سبيلِ الله تعالى، وما حازوا من شرفٍ وفضلٍ

معنَى الفاءِ: ﴿فَيَقۡتُلُونَ﴾:

قوله جلّ شأنُه: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾، عبَّر بالفاء التّفصيليّةِ لتفصيل مقاتلتِهم، وبيانِ أنّهم أحرزوا فضيلتَي الجهاد - المشاركة فيه، والشّهادة -[1]، فقوله تعالى: ﴿فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾ "تفريعٌ على ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾؛ لأنّ حال المقاتلِ لا تَخلو من أحد هذيْن الأمرَيْن"[2].

الإعلامُ بأنّهم لا يُبالون بالموتِ، بل هو أحبُّ إليهم من السّلامةِ

بَلاغةُ توجيهِ القراءاتِ: ﴿فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾:

قُرئ قولُه ﷻ: ﴿فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾ برواية جمهورِ القُرّاء بتقديم صيغةِ البناءِ للفاعل، وقرأ حمزةُ والكسائيّ بتقديم صيغةِ البناء للمفعولِ، فتوجيهُ القراءة الأولى: أنّهم يَقتلون أوّلًا في سبيل اللّه، ويُقتلون. والقراءة الثّانية: يجوزُ أن يكون في المعنى مثلَ الّذي تقدّم؛ لأنّ المعطوف بالواو يجوزُ أن يُرادَ به التّقديمُ، فإنْ لم يُقدَّر فيه التّقديمُ، كان المعنى: أنّ مَنْ بقي منهم يُقتل بعد قَتْلِ مَن قُتِل. كما أنّ قوله سبحانه: ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 146]، ما وَهَنَ مَن بقي منهم لقتلِ مَن قُتِل مِنَ الرِّبِّيّين[3]. كما أنّ تقديمَ البناء للفاعل يشيرُ إلى عدم الفرقِ بينهما في كونِهما مِصداقًا لكون القتالِ بذْلًا للنّفس، وأنّ تقديمَ المبنيِّ للمفعول يشيرُ إلى عدم مبالاتِهم بالموت في سبيلِ اللّه، دليلًا على ثبات قلوبِهم فلم يَنكسِروا بقتل بعضِهم[4].

تَكرارُ القتلِ بصيغتَيْن متجاورتَيْن، يدلُّ على أهمّيّتِه، ويُشيرُ إلى صدقِ بيعتِهم

بَلاغةُ الجِناس في: ﴿فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾ جناسٌ محرَّفٌ، لاختلافهما في الشّكْل؛ سُمِّي محرَّفًا لانحراف إحدى الهيئتَيْن عن هيئة الآخَرِ[5]،

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/451.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/39.
(3) الفارسيُّ، الحُجّة: 3/158 - 159.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/105، وابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/451.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/91.

والجمعُ بين صيغتَي الفاعل والمفعول مُتجاورتَين، تنبيهٌ على مآل القتال، وتصريحٌ بأنّه عُرْضَةٌ للهلاك، ويؤولُ إلى الثّناء عليهم بإقدامِهم على ذلك مع علْمِهم بأنّهم قد يُقتلون، فأفاد الجناسُ التّعجيلَ ببيان عِظَمِ هذا البذْلِ الّذي استحقّوا به الجنّةَ.

نُكتةُ إسنادِ الفعلِ ﴿وَيُقۡتَلُونَۖ﴾ إلى ما لم يُسَمَّ فاعلُه:

لَـفْـتُ الانـتـبـاه إلى إخلاصِهم ورُسوخِ أَقدامِهم وعِظَمِ إقدامِهم

في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَيُقۡتَلُونَۖ﴾ جاء الفعلُ مبنيًّا للمفعول، ولم يُصرَّحْ بالفاعل؛ لأنّ الغرَضَ من سياق الكلامِ بيانُ فضيلةِ صبرِهم ودوامِ قتالِهم مع أنّ بعضَهم يُقتلُ، فليس المهمُّ حينئذٍ بيانَ مَن قَتَلهم، فالاهتمامُ بأنّهم ينالُهم القتلُ؛ إظهارًا لفضلِهم ومَنقبتِهم في الصّبرِ والثّباتِ على القتال.

الموقعُ النّحويُّ والبيانيُّ لـ: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ﴾:

تأكيدُ الوعْدِ بالجنّةِ بِنسبتِه إلى الله تعالى، وتَكرارِ نزولِه بالوحيِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ، جاء تأكيدًا للوعد المفهومِ من قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾؛ لأنّه في معنى الوعْدِ، فجاء قولُه: ﴿وَعۡدًا﴾ تأكيدًا له، أي: وعدَهمُ الجنّةَ وعْدًا عليه حَقًّا[1]، فبعد أن ذَكرَ بيعَ الأنفسِ والأموالِ بالجنّة، وفَصَّل أنّهم أنْجزوا ما بايعوا عليه؛ إذ إنّهم يَقتلون ويُقتلون، فأراد تأكيدَ إيصالِ الثّمن إليهم فقال: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾ فلا إقالةَ ولا استقالةَ مِن حضرة ربّ العزّةِ ﷻ[2].

نُكتةُ تنكيرِ: ﴿وَعۡدًا﴾ و﴿حَقّٗا﴾:

الوعـدُ مِنَ الله تعالى وعـدٌ عظيمٌ، واستحقاقُه واقِعٌ على اليقينِ

في قوله تعالى: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ جاء التّنكيرُ في المصدرَيْن للتّفخيم والتّعظيم، كما أنّ فيه إيجازًا، فلم يَقُل: (وإنّه وَعْدٌ عظيم من الله، أو: ذلك وعد عظيم)؛ إذ إنّ

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/471، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/87، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/151.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/373.

التّنكيرَ يتضمّنُ التّعظيمَ، فكان ذلك مُغْنيًا عنِ التّصريح بصفةِ العظَمةِ، فكان ذلك إيجازًا.

بَلاغةُ حذْفِ الأفعال للمفعولَيْن المطلَقَيْن: ﴿وَعۡدًا﴾ و﴿حَقّٗا﴾:

حُذِفَ العاملُ في المفعول المطلَقِ في قوله ﷻ: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾، والتّقديرُ: وَعَدَهم وعْدًا، وحقَّ حقًّا؛ وإنّما حُذِفَ الفعلان للإيجاز، وقد أدّى هذا الحذفُ إلى مجيءِ المصدرِ المؤكِّدِ في مُفتَتَح الجملة، وافتتاحُ الجملة بالمؤكِّدِ يَخْلَعُ على العبارة فخامةً وقوّةً؛ إذِ الحذفُ أَمْحَضَ العبارةَ للتّأكيد، فحَذَف ما يمكن حَذْفُه وأبقى التّأكيدَ.

الافتتاحُ بالمصدرِ المؤكِّدِ بعد فعْلِه، أوْقَعُ وأدلُّ على قوّةِ الإخبارِ

فائدةُ التّعبيرِ بحرف الاستعلاءِ ﴿عَلَيۡهِ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ عبَّرَ بلفظ الاستعلاءِ (على) للدّلالة على معنى الوُجوبِ[1]، وفي ذلك دلالةٌ على حتميّة الوعدِ، وأنّ ما يَعِدُ به الله تعالى فإنّه مؤكَّدُ التّحقُّقِ، والله تعالى لا يجبُ عليه شيءٌ، ولكنّه أَخبرَ بذلك جَرْيًا على طريقة إفهامِ عقولِ البشر، وهنا تمثّلَ ذلك بتأكيد وجوبِ الوعد وتمكُّنِه.

صرّحَ بوجوبِ الحقِّ على نفسِه، تأكيدًا للإنجاز، جَرْيًا على سُنّة البشرِ في التّأكيد

فائدةُ تقديمِ شبْهِ الجملةِ: ﴿عَلَيۡهِ﴾ على ﴿حَقّٗا﴾:

قَدَّم شبهَ الجملة في قوله تعالى: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾، فلم يَقُل: (وعدًا حقًّا عليه)؛ للاهتمام بالمعنى الدّالِّ عليه حرفُ الاستعلاء منَ الوجوبِ[2]، فقدَّم ما يُشعِرُ بحتميّة الحقِّ. وما وعد الله به عبادَه فإنّه أقوى الحقِّ وأصدقُه، فقدَّم ما يُشعِرُ بالوجوب على الله تعالى على ذِكرِ الحقِّ؛ لِما في ذلك من قوّةٍ في التّأكيد أشدَّ من لفظ الحقّ ذاتِه.

ما كتبَه الله على نفسِه، أوثقُ وأثبتُ من دلائلِ الحقِّ

الموقعُ النّحويُّ والبيانيُّ للكُتب الثّلاثةِ:

شِبْه الجملةِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ في محلِّ نصبِ حال، أي: في حال كوْنِ هذا الوعدِ مكتوبًا في التّوراة

الوعْدُ مشهورٌ، والكُتبُ المنزَّلَةُ شاهدةٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/39.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/39.

والإنجيل والقرآن[1]، فلمّا بيّنَ أنّ هذا الحقَّ واجبٌ للمؤمنين على الله تعالى؛ بيَّن أنَّ هذا الوعدَ مشهورٌ، قد أَعلَنَه الله تعالى وأنزلَه في كُتبِه الّتي بين أيديكُم، فكونُه قد ذُكِر في هذه الكتبِ الثّلاثةِ؛ دَلَّ على أنّه وعدٌ قد تكرَّر، وفي ذلك تأكيدٌ له، فقوله تعالى: ﴿فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ "يجري مجرَى الإشهاد لجميع الكتُبِ الإلهيّةِ وجميعِ الأنبياء والرُّسُلِ"[2].

معنى ﴿فِي﴾ المجازيّة:

عبَّرَ بحرف الجرِّ ﴿فِي﴾ الدّالِّ على الظّرفيَّةِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾، للدّلالةِ على أنّه وحيٌ ثابتٌ في الكتُبِ، قد أُوحِيَ به إلى أنبيائه عليهم السلام[3]، فالظّرفيّةُ هنا هي "ظرفيّةُ الكتاب للمكتوب، أي: مكتوبًا في التّوراة والإنجيل والقرآنِ"[4]، وفائدةُ الظّرفيّةِ المجازيّةِ أنّها تُشبِّه اشتمالَ هذه الكتُبِ على الوعْدِ بإحاطة الظَّرْفِ بالمظروفِ.

اشتمالُ هذه الكتُبِ على الوعْدِ المذكورِ، يُشبهُ إحاطةَ الظَّرفِ بالمظروفِ

بَلاغةُ التّرتيبِ بين الكتُبِ الثّلاثةِ:

في قوله عز وجل: ﴿فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ جاء التّرتيبُ في ذِكرِ الكتُبِ حسبَ الواقعِ التّاريخيِّ، فهو ترتيبٌ زمانيٌّ، كما أنّ تأخيرَ القرآن في التّرتيب لِما أنّ القرآنَ بين أيديهم يعرفونَه ويتلونَه، ولكنّهم يجهلون أنّ هذا الوعْدَ قد ذُكِرَ في الكتُبِ الّتي قبْلَ القرآن، فبدأ بما لا يعرفون تأكيدًا لعراقته وثبوتِه في الشّرائع منذ القِدم.

الذِّكْرُ للسّابقِ لا للفاضلِ، من بلاغةِ البيانِ القرآنيِّ

معنى الواو في: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ﴾:

الجملةُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ اعتراضيَّةٌ وقعت بين قولِه: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾

الوعْدُ بالجنّة محقَّقٌ، فلا أحدَ أَوْفى بوعْدِه منَ الله جل جلاله

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/39.
(2) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/535.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/314، وابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/452.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/39.

وقولِه: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾، فهي اعتراضٌ بين ذِكْرِ الوعدِ والاستبشارِ به، "مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبْلَه من حقّيّةِ الوعدِ على نهجِ المبالغةِ في كونِه سُبحانه أوفى بالعهدِ من كلِّ وافٍ"[1]، والواو في مُفْتَتَحِها اعتراضيّةٌ[2]، ويجوزُ أن تكون الواوُ حاليّةً، وتكونَ الجملةُ حاليّةً، وصاحبُ الحالِ الضّميرُ المجرورُ في قوله: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾ "أي: وعدًا حقًّا عليه، ولا أحدَ أوفى بعهدِه منه"[3]، والمعنى: أنّه وعدٌ ثابتٌ على اللّه تعالى، والحالُ أنّ وفاءَ اللّه تعالى بالوعد في أعلى الدّرجات، وليس ثَمَّ وفاءٌ بعدَه.

بَلاغةُ الاستفهامِ وغرضُه: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ﴾:

لا أحدَ أوفى بعهدِه منَ الله تعالى، الّذي لا يُخلفُ الميعادَ

(مَن) في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ اسمُ استفهامٍ جيءَ به للإنكار[4]، وجاء الاستفهامُ هنا في غاية البلاغةِ والفصاحةِ، وهو مجازٌ في النّفْيِ للإنكار؛ إذ لا أحدَ أوفى بوعْدِه منَ اللّه تعالى[5]، "فالاستفهامُ إنكاريٌّ بتنزيل السّامعِ منزلةَ مَنْ يجعلُ هذا الوعدَ محتمِلًا للوفاء وعَدَمِه، كغالب الوعودِ، فيُقال: ومَنْ أوفى بعهْدِه منَ اللّه؟! إنكارًا عليه"[6].

وإنّما آثَرَ أن يعبِّرَ عن ذلك بالاستفهام الإنكارِيِّ دونَ الإخبارِ بالنَّفيِ، فلم يَقل: (ولا أحدٌ أوفى من اللّه فاستبشروا)؛ لأنّ النّفيَ بالاستفهام يدعو الفكرَ إلى استفراغ الجُهدِ في البحث عن إيجادِ ما يَنقضُ به ما يقرِّرُ الاستفهامَ، ويتضمّنُ في ذات الوقت تلميحًا إلى انتفاء هذا النّاقض، فكان هذا في غاية البلاغةِ والمبالغةِ في إنجاز

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/105.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/81.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/39.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/81.
(5) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 16/152، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/25.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/39.

الوعدِ وتأكيدِ تحقيقِه، وقد أَلمح الطِّيبيُّ إلى ذلك، وتبعه ابنُ كمال باشا الّذي قال إنَّ العبارة: "مبالغةٌ في إنجاز الوعدِ، وتقريرٌ لكونِه حقًّا"[1].

دَلالة التّعبيرِ بـ ﴿أَوۡفَىٰ﴾ من حيث الصّيغةُ:

جلَّ الله عن أن يقاربَه أحدٌ، في وفائِه بالعهْدِ

في قوله ﷻ: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ جاء اسمُ التّفضيل ﴿أَوۡفَىٰ﴾ مسلوبَ المفاضلةِ، فإنّ "سَبْكَ التّركيبِ وإن كان على إنكار أن يكون أحدٌ أوفى بالعهدِ منه تعالى من غيرِ تعرُّضٍ لإنكار المساواةِ ونَفْيِها، لكنّ المقصودَ به قصْدًا مطَّرِدًا إنكارُ المساواةِ ونفيُها قطعًا؛ فإذا قيل: مَنْ أكرمُ من فلانٍ؟ أو: لا أفضلَ منه، فالمرادُ به حَتْمًا أنّه أكرمُ من كلّ كريم، وأفضَلُ من كلّ فاضلٍ"[2]، وإنّ تسليطَ النّفيِ على اسم التّفضيلِ يدلّ على انتفاء المفاضلةِ؛ إذ إنَّ اسمَ التّفضيل لم يَرِدْ بين متَّصِفَيْنِ بصفةٍ مشتركةٍ للمفاضلة بينهما، بل جاء منفيًّا، فلا يدلُّ على المفاضلةِ بل على انتفاء المُساوي والمُماثِلِ.

معنى ﴿مِنَ﴾ في: ﴿مِنَ ٱللَّهِۚ﴾:

أعلى درجاتِ الوفاءِ تبدأُ من عندِ الذّاتِ الجليلةِ

في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ جاء حرفُ الجرِّ (مِن) التّفضيليّةُ الّتي تأتي بعد اسم التّفضيل، تدلّ على الابتداء، وهو ابتداءٌ مجازيٌّ[3]، إذ لا يتعلّق ﷻ بالمكان، فالعهدُ البادئُ مِنَ الله تعالى والقادمُ منه ﷻ تنتفي عنه صفةُ المفاضلةِ مع عهدٍ آخرَ.

الإظهارُ موضِعَ الإضمارِ: ﴿ٱللَّهِۚ﴾:

تأكيدُ الوفاءِ بثمنِ البيعةِ، بإظهارِ لفظِ الجلالةِ (الله)

في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ أَظْهَر لفظَ الجلالة دونَ الإضمار، فلم يَقل: (ومن أوفى بعهده منه)؛ تعظيمًا لوفاء العهدِ المنسوبِ إلى الله تعالى، "وذُكِرَ اسمُ الجلالة عِوضًا عن ضميره؛ لإحضارِ المعنى الجامعِ لصفات الكمالِ"[4].

---

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/452، والطِّيبيّ، فتوح الغيب: 7/373.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/106.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/40.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/40.

معنى الفاءِ في الفعْلِ ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ﴾:

المَسرّةُ حقٌّ للمؤمنين بذلك الوعْدِ العظيمِ

افتتح قولَه جلّ شأنُه: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾ بالفاءِ للتّفريع؛ إذ "فرّعَ على كوْنِ الوعد حقًّا على اللّه، وعلى أنّ اللّه أوفى بعهدِه من كلّ واعدٍ، أنْ يستبشرَ المؤمنون ببيعِهم هذا"[1]؛ حيث ترتّبَ الاستبشارُ على الوعد المذكورِ، فإنّ احتياجَ اللّاحقِ للسّابقِ، وذِكْرَه عَقِبَه مترتِّبًا عليه هو من خصائصِ الفاءِ لِما لها من دلالةٍ على التّرتيب والسّببيّةِ، فهي هنا لترتيب الاستبشارِ على ما قبْلَه، لأنّه مسبَّبٌ عنِ الوعد[2].

فائدةُ الالتفاتِ منَ الغَيْبة إلى الخطابِ:

مخاطبةُ اللّه تعالى لأحدٍ بضميرِ الخطابِ، تشريفٌ له وتكريمٌ بليغٌ

في قوله ﷻ: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾ انتقلَ بالخطاب من الغَيْبة التي يقتضيها الاسمُ الظّاهرُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ﴾ إلى ضمير المخاطَبِ، فهو "التفاتٌ إلى الخطاب تشريفًا لهم على تشريفٍ، وزيادةً لسُرورِهم على سرورٍ"[3]؛ إذ إنّ ضميرَ المخاطَب يقتضي الحضورَ والمواجهةَ، ولمّا كان ذلك مُحالًا في حقِّ البشرِ مع اللّه تعالى؛ عُلِم أنّ المرادَ منه التّكريمُ والتّشريفُ بإنزالهم تلك المنزلةَ الرّفيعةَ.

دَلالةُ التّعبيرِ بالاستبشارِ، وفائدةُ الأمرِ:

إظهارُ المسرّةِ على الوعدِ المذكورِ

في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾ عبَّرَ عن إظهار البِشْر بصيغة الاستفعالِ، وهذه الصّيغةُ هنا لا تدلّ على الطّلبِ، بل جاء بمعنَى (أفعل)[4]، ومعناه: الأمرُ بإظهار البشارةِ والمسرّةِ على الوعدِ والبيعةِ المذكورةِ قبْلَه، أي: فأَوْجِدوا في نفوسكم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/40.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/106، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/25.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/106، وابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/452.

(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/87، وابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/452.

غايةَ البِشْر؛ فإنّكم تبيعون فانيًا بباقٍ[1]، والمعنى: "فإذا كان كذلك فَسُرّوا نهايةَ السّرورِ وافْرحوا غايةَ الفرحِ بما فُزتم به منَ الجنّة"[2].

معنَى الباءِ في: ﴿بِبَيۡعِكُمُ﴾:

المبايعةُ مع اللهِ تعالى، سببٌ للمسرّةِ والاستبشارِ

في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾ دلَّتِ الباء على السّببيّة، أي أنّ الاستبشارَ كائنٌ بسببِ هذا البيعِ، وأنّ هذه المبايعةَ جديرةٌ بإظهار أثرِ البشارةِ على بَشرةِ الوجهِ فرحًا وسُرورًا.

نُكتةُ إضافةِ البيعةِ إلى ضميرِهم ﴿بِبَيۡعِكُمُ﴾:

ما في البيعةِ من خيرٍ، فهو خالصٌ للمؤمنين، والله غنيٌّ عنِ العالمين

في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾ أَضافَ البيعَ إلى الضّمير العائدِ على المؤمنين، دونَ أن يقول: (استبشروا بالمبايعة)؛ إظهارًا لاغتباطِهم به[3]، وكأنّه بيعٌ خاصٌّ بهم لم يَسبق مثلُه، وأنّه مزيّةٌ لهم اختُصّوا بها.

وإضافةُ البيعةِ إلى أحد طرفَيِ المبايعةِ يشيرُ إلى أنّ الانتفاعَ متحقِّقٌ للطّرف المذكورِ وحسبُ، فإنّما لم يَقل: (فاستبشروا بالبيعة) بل جعلَها بيعتَهم، لأنّ كوْنَ اللّه تعالى في المبايعة يدلّ على أنّ الانتفاعَ خالصٌ للطّرف الآخر؛ لأنّه الغَنيُّ عن كلّ أحدٍ، فكانتِ البيعةُ خالصةً للمؤمنين فهي بيعتُهم، "لأنّ كِلا البدلَيْن له ﷻ"[4].

فائدةُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصِلتِه، مع ذكْرِه من قبْلُ:

التّأكيدُ وزيادةُ التّقريرِ، والإشارةُ إلى مغايرتِه سائرَ البُيوعِ

وصْفُ بيْعِهم في قوله تعالى: ﴿بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾ بالاسمِ الموصولِ مُتضمِّنًا في صلتِه فعْلَ البيعةِ، يدلّ على تأكيد معنى قولِه: ﴿بِبَيۡعِكُمُ﴾، فهو تأكيدٌ لفظيٌّ بلفظٍ آخرَ[5]، كما أنّه جيءَ به كذلك "لزيادة تقريرِ بيعِهم، وللإشعار بكونِه مغايرًا لسائرِ البِياعات؛

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/712، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/25.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/106.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/40.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/106.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/25، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/40.

فإنّه بيعٌ للفاني بالباقي"(1)، فيكونُ كقوله تعالى: ﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ﴾ [الشُّعراء: 19]، فضلًا عن إفادة الاسم الموصولِ هنا معانيَ التّعظيم لهذا البيعِ لِما في الاسم الموصولِ من إعلامٍ بعد إبهامٍ.

بَلاغةُ الجناسِ في: ﴿بِبَيۡعِكُمُ﴾ و﴿بَايَعۡتُم﴾:

في قوله تعالى: ﴿بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾ جناسٌ اشتقاقيٌّ، حيث كرّرَ لفظَيْن من جذرٍ واحدٍ وهو (بيع) في جملةٍ واحدةٍ؛ وفي ذلك تنويهٌ على مكانة هذه المبايعةِ للّه تعالى، مع ما في ذلك من أثرٍ جَماليٍّ بتَكرار اللّفظِ بصيغتَي الاسم والفعلِ في جملةٍ واحدةٍ.

تَكرارُ البيعِ تأكيدٌ على أهميّتِه، وإشارةٌ إلى سببِ استبْشارِهم

معنى الباءِ في ﴿بِهِۦۚ﴾، وعَوْدُ الضّميرِ:

في قوله ﷻ: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾، دخلتِ الباءُ على الضّمير العائدِ على ما وقعت به المبايعةُ، وهو الجنّةُ في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾، أي: وقعتِ المبايعةُ للّه ﴿بِهِۦۚ﴾، فالباء للمصاحبَة، وأفاد ذلك: النّصَّ على أنّ المرادَ بالبيع هذا البيعُ المذكورُ، وليس عمومَ البيع، أي: "لينصَّ لهم على هذا البيعِ بعينِه"(2).

بيْعُ الله أشرفُ بيْعٍ، ومَنْ عقدَ الصّفقةَ معه، نالَ الاستبشارَ، وحازَ الرّبحَ دونَ خسارٍ

معنَى الواو: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾:

افتتح المولى قولَه تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ بالواو الاستئنافيّةِ، والجملةُ مستأنَفةٌ جيءَ بها للثّناء على ذلك البيعِ وما سينالُه المؤمنون جزاءً عنه، فالاستئنافُ جاء تبيينًا لمكانة ذلك البيعِ، وما وُضِع ثمنًا له، فهو تعقيبٌ على الأمرِ بالاستبشار، فإنَّ ذلك البيعَ جديرٌ بإظهار المسرّةِ والبِشْرِ؛ لأنّه فوزٌ عظيمٌ، ويمكنُ أن تكونَ الواو للحال على معنى: والحالُ أنّ ذلك الفوزَ عظيمٌ.

حُقَّ للمُبايِعين الاستبشارُ؛ فإنّه فوزٌ عظيمٌ، ومقامٌ عند الله كريمٌ

بَلاغةُ التّذْييلِ التّعليليّ، في الإشارةِ إلى الفوزِ العظيمِ:

قولُه تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾، تذييلٌ تعليليٌّ، وهو

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/106.

(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/217، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/26.

تعليلُ ما نالوه، ببيْعِ أنفُسِهم وأموالِهم بالجنّةِ، تتويجٌ للأعمالِ، وثمرةٌ للإخلاصِ

"تذييلٌ جامعٌ، فإنّ اسمَ الإشارةِ الواقعَ في أوّله جامعٌ لصفاتِ ذلك البيعِ بعِوَضَيه، وأُكِّدَ بضمير الفصلِ، وبالجملةِ الاسميَّة، والوصفِ بـ ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ المفيدِ للأهمِّيَّة"[1]. فأكّدَ أنّ ذلك هو الفوزُ العظيمُ، تذييلًا تعليليًّا لبيع النّفسِ والمالِ بالقتال[2].

نُكتةُ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

الفوزُ الّذي نالوه عظيمُ الشّانِ عالي الرُّتبةِ عندَ الله الرّحمن

جاء اسمُ الإشارة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ بصيغة البُعْد؛ للدّلالةِ على "بُعْدِ منزلةِ المُشارِ إليه وسُموِّ رُتبتِه في الكمال"[3]، وذلك لتعظيم الفوزِ الّذي نالوا بمبايعتِهم اللّهَ تعالى على الوعْدِ المذكورِ.

بَلاغةُ القَصْرِ ونوعُه في تعريف طَرَفَيِ الإسنادِ وضميرِ الفصْلِ:

لا فوزَ إلّا الفوزُ بالجنّة، وما سواها فناءٌ وسَرابٌ

في قوله ﷻ: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ قَصْرٌ بتعريف طَرفَي الإسناد، وبضمير الفصْل، وهو قَصْرُ موصوفٍ على صفة، وهو قصرٌ إضافيٌّ بالنّسبة للواقع، وقصرُ قَلْبٍ بالنّسبة لحال المخاطَب؛ فأنزَلَهم منزلةَ المنكِرِ أن يكونَ القتلُ سببًا للظّفَر بالفوز، فجاء القَصْرُ ليَقْلِبَ ظنَّهم بنَفْي كلِّ فوزٍ غيرِه، فالفوزُ بالجنّة هو الفوزُ "الذي لا فوزَ أعظمُ منه"[4].

معنَى (أل) في لفظِ ﴿ٱلْفَوْزُ﴾:

الفوزُ بالجنّة جامعٌ لكلّ صفاتِ الغَلَبة، وتحصيلِ الجزاءِ الأمثلِ

في قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ عرّف الفوزَ بالألف واللّام الدّالّةِ على الجنس، للدّلالة على جنْسِ الفوزِ الجامع لكلّ صفات النّجاحِ والغَلَبة، فلا فَوْزَ بعدَه، ولو نكّره بأن يقول: (وذلك فوز عظيم) لكان فوزًا من أنواع، فيكونُ التّنكير دالًّا على التّهوين،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/40.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/26.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/106.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/106.

فلذا جاء به معرّفًا تعريفَ الجنس ليشملَ كلَّ الفوز، فيصحَّ القصرُ فينتفي كلُّ فوز غيره.

فائدةُ وصْفِ الفوزِ بالعظَمةِ:

الفوزُ بالجنّة أعظمُ من كلّ مبذولٍ قدّموه

وصَفَ اللّهُ تعالى الفوزَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ بأنّه عظيم تأكيدًا لأهمّيَّته وعُلوِّ مكانتِه لِما فيه من "الحصول على الحظِّ الأَغْبَطِ من حَطِّ الذّنوب، ودخولِ الجنّة بلا حسابٍ"(1)، وإنّما وُصف الفوزُ بكونِه عظيمًا؛ تأكيدًا لكونه غيرَ مكافئٍ للمبذول، فلو كان مكافئًا للمبذولِ لَما كان فوزًا، بل سيكونُ ثَمنًا، أمَا وقد أُطلق عليه الفوزُ فدلَّ ذلك على أنّه أعظمُ ممّا قدّموا في بيْعِهم، فوصفَه بالعظيم تأكيدًا للعظمةِ الّتي دلّ عليها الإخبارُ عنه بأنّه فوزٌ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(شرَى) و(اشترَى):

الاشــتراءُ أكـثرُ في الأخذِ بدلالةِ الصّيغةِ على التّكلفةِ، والشّراءُ أكثرُ في البيع

قال الرّاغب: "الشِّرَاءُ والبيع يتلازمان، فالمُشترِي دافعُ الثّمنِ، وآخذُ المثمَّنِ، والبائعُ دافعُ المثمَّن، وآخذُ الثّمنِ. هذا إذا كانت المبايعةُ والمُشاراةُ بناضٍّ وسِلعةٍ، فأمّا إذا كانت بيعَ سلعةٍ بسلعةٍ صحّ أن يُتصَوَّرَ كلُّ واحدٍ منهما مُشْتَرِيًا وبائعًا، ومن هذا الوجه صار لفظُ البيع والشِّراء يُستعمَلُ كلُّ واحدٍ منهما في موضع الآخَرِ. و(شَرَيْتُ) بمعنى: (بعتُ) أكثرُ، و(ابتعتُ) بمعنى: (اشْتَرَيْتُ) أكثرُ"(2). وإنّما استُعْمِلَ الاشتراءُ أكثرَ في دفع الثّمن، لِما فيه من تكلفةٍ أكثرَ على الإنسان بدفع ماله، أمّا البائعُ فهو رابحٌ، فكان الشّراءُ أكثرَ في الدّلالة عليه، وذلك بملاحظة الفرقِ بين البِنائَيْن: (الشّراء والاشتراء)، فالبِنيةُ اللّفظيَّةُ في الاشتراء فيها زيادة تُفسَّرُ بأنها زيادةٌ في المعنى، وتلك الزّيادةُ هي التّكلفةُ الّتي على

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/88.

(2) الرّاغب، المفردات: (شرى).

عاتق المشتري بدفعِ الثّمن. وفي قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: 90]. فمعنى "الاشتراء هنا: البيعُ. والاشتراء والشّراء والبيع كلُّه مِنَ الأضداد، ويُقال: اشتريتُه، أي: بعتُه، واشتريتُه، أي: ابتعتُه، وكذلك: شريتُه في المعنَيَيْن، وكذلك: بعتُه، قال اللّه تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾ [يوسف: 20]، أي: باعوه"(1). ويلاحظُ في الآية: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ۝٢٠ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ﴾ [يوسف: 20 - 21] أنّه عبّرَ عن بيعِهم بقوله: ﴿وَشَرَوْهُ﴾، وعبّرَ عنِ الاشتراء بقوله: ﴿ٱشْتَرَىٰهُ﴾، فالاشتراءُ استُعملَ للأخذ بدفْعِ الثّمن، وهو الاستعمالُ الأكثرُ فيه، و(شرى) استُعملَ للبيع كما هو الاستعمالُ الأكثرُ فيه.

العهدُ والوعدُ والبَيْعةُ والكلمات المقاربة:

العهدُ أخصُّ منَ الوعدِ، والبَيْعةُ أخصُّ منَ العهدِ، فهي عهدٌ مشروطٌ بالطّاعة

"العَهْد ما كانَ من الوَعْد مقْرُونًا بشَرْط، نَحْو قولك: إِن فعلتَ كذا فعلتُ كذا، وما دمتَ على ذلك فأنا عليه؛ قال اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ [طه: 115] أَي: أَعلمناهُ أَنَّك لا تخرج منَ الجنَّة ما لم تَأْكُلْ من هذه الشَّجَرةِ. والعهد يَقْتَضِي الوفاءَ، والوعْدُ يَقْتَضِي الإنجازَ، ويُقال: نَقَضَ العهدَ وأَخْلَفَ الوعدَ"(2).

أمّا الميثاقُ فهو: "توكيدُ العَهْد من قولك: أوثقتُ الشَّيْءَ إذا أحكمتَ شَدَّه، وقال بعضُهم: العهدُ يكونُ حالًا منَ المتعاهدَيْن، والميثاقُ يكونُ من أحدِهما"(3).

أمّا البيعةُ: فهي عهدٌ على الطّاعة، فيُصار إلى أنّ معنى البيعةِ هي وعدٌ اقترن بشرطِ الطّاعة، وبهذا فهي أخصُّ الثّلاثة، والوعدُ أعمُّها، وهي مأخوذةٌ منَ البيع بين طرفَيْن، فكُلُّ واحِدٍ منهما باعَ ما

(1) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 3/148.
(2) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 57 - 58.
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 57.

عنده مِنْ صاحبِه وأعطاه خالصَةَ نَفْسِه وطاعَتَه ودَخيلةَ أَمره، وبايَعَ السُّلطانَ: إذا تضمَّن بذلَ الطّاعة له بما رضخَ له[1].

وفي قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾ عبَّرَ بالبيعة لما فيها من معنى المعاوضةِ والعهدِ بالإيفاء بالطّاعةِ مقابلَ الثّمن وهو الجنّةُ، وهذه بيعةٌ وليست معاهدةً؛ لأنّ الشّرطَ فيها هو شرطُ الطّاعة.

---

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بيع).

﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَـٰبِدُونَ ٱلۡحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّـٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾ [التّوبة: 112]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيانُ صِفاتِ المؤمنين الّذين اشترى الله منهم أنفُسَهم وأموالَهم

لَمَّا ذكر اللّه تعالى في الآية السَّابقة أنَّه ﴿ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾، بَيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ أولئك المؤمنين همُ المَوْصُوفون بهذه الصِّفاتِ الجميلةِ والخِلالِ الجليلةِ، فقال تعالى: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾: جمعُ تائبٍ، يقال لباذلِ التّوبةِ ولقابلِ التّوبةِ، فالعبدُ تائبٌ إلى اللّه واللّهُ تائبٌ على عبده، والتّوّابُ: العبدُ كثيرُ التّوبةِ، وذلك لتَرْكِه كلَّ وقتٍ بعضَ الذّنوبِ على التّرتيبِ حتى يصيرَ تاركًا لجميعها، وقد يُقالُ ذلك للّه تعالى لكثرةِ قَبوله توبةَ العِبادِ حالاً بعدَ حالٍ، وقولُه تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا﴾ [الفرقان: 71] أي: التّوبةُ التّامّةُ، وهو الجمعُ بين ترْكِ القبيحِ وتحرِّي الجميلِ، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ [البقرة: 37][2].

2) ﴿ٱلۡعَـٰبِدُونَ﴾: جمعُ عابدٍ، ومادّتُه مِنْ (عبد)، يُقالُ: طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ، أَي: مَسْلُوكٌ مُذَلَّلٌ، والعابدُ: المُوحِّدُ[3]، "وعِبادَةُ اللّه تَعَالَى: الذِّلُّ لَهُ بالانقياد لمَا أَمَرَ، والانتهاءِ عَمَّا نهى[4]، وإلى ذلك يُشيرُ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/219، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/152.
(2) الرّاغب، المفردات: (توب).
(3) الزّبيديُّ، تاج العروس: (عبد).
(4) ابن الجوزيِّ، نزهة الأعين، ص: 431.

معنى قولِه في الآية، (العَابِدون) هم الّذين ذَلُّوا لِلّه وأطاعُوه، محبّةً له، واجتَهَدُوا في عبادَتِه وَحْدَه[1]، وعلى ذلك تكونُ العُبوديّةُ تَعبيرًا عنِ المَملوكيَّةِ للّه، بالإذعانِ والامتثالِ لكلِّ ما أمرَ ونَهى، في أمر دُنيا أو دِينٍ[2].

3) ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾: أي: الصَّائِمُونَ، وأصلُ السَّائِحِ: الذَّاهِبُ في الأرضِ[3]، مِن: ساحَ الماءُ يسيحُ: إذا جرَى وانبسطَ من غير نهايةٍ ولا حَدٍّ[4]، فيُقالُ: ماءٌ سَائِحٌ وسَيَّحٌ: إذا جرَى وذهبَ، والسَّائحُ في الأرض مُمْتَنِعٌ مِنَ الشَّهوات، فشُبِّه الصَّائمُ به لإمساكِه في صومِه عنِ المَطعم والمشرَبِ والنِّكاحِ[5]، فقيل للصَّائِم: سائحٌ، لأَنَّ الّذي يَسِيحُ مُتعبِّدًا يَسيحُ وَلَا زَادَ مَعَه، إنّما يَطْعَمُ إذا وَجدَ الزَّادَ، والصّائمُ لَا يَطْعَمُ أيضًا[6].

4) ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾: مِن عَرفَه يَعْرِفُه مَعْرِفةً وعِرْفانًا، فهو عارِفٌ وعَرِيفٌ: عَلِمَهُ[7]، وهو اسمٌ لكلّ فعلٍ يُعرفُ بالعقل أوِ الشَّرْعِ حُسنُه، وهو كُلُّ ما أمَرَ اللّهُ ورسولُه به، منَ الإيمانِ باللّهِ وطاعتِه وطاعةِ رَسولِه[8].

5) ﴿ٱلۡمُنكَرِ﴾: المُنكرُ منَ الأمر: خلافُ المَعْرُوف، وَالجمعُ: مَنَاكِيرُ[9]، وأصلُ المنكر يدلُّ على خلافِ المعرفة الّتي يَسْكُنُ إليها القلبُ، ونَكِرَ الشَّيءَ وأنكرَه: لم يقبلْه قلبُه ولم يعترفْ به لسانُه، وسببُ الإنكارِ باللِّسان الإنكارُ بالقلب، لكنْ ربّما يُنْكِرُ اللِّسانُ الشَيءَ وصورتُه في القَلْب حاضرةٌ، ويكونُ في ذلك كاذبًا، وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النّحل: 83]، والمُنكرُ: كلُّ فعْلٍ تَحْكُمُ العقولُ الصَّحيحةُ بقُبحِه، أَو تتوقّفُ في استقباحِه العقولُ فتحكمُ الشَّريعةُ بقُبْحِه[10]، وإلى ذلك قصدَ بقوله: ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/9، والزَّجّاج، معاني القرآن: 2/472، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/88.
(2) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عبد).
(3) ابن قُتيبة، غريب القرآن، ص: 193، وابن جرير، جامع البيان: 12/10، وابن الجوزيِّ، تذكرة الأريب، ص: 147.
(4) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيّ، عُمدة الحفَّاظ: (سيح).
(5) ابن سيده المرسي، المحكم، والزّبيديّ، تاج العروس: (سيح).
(6) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (سيح).
(7) الفِيروزاباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 4/57.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 12/15، 16، والزَّجّاج، معاني القرآن: 2/472.
(9) ابن سيده، المحكم: 6/804.
(10) الفِيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 5/120.

﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، والمعنى هُنا: كُلُّ ما نهى اللّهُ ورسولُه عنه، مثلِ الشِّركِ باللّهِ ومَعصِيَتِه ومَعصيةِ رَسولِه[1].

6) ﴿لِحُدُودِ﴾: جمعُ حدٍّ، وحَدُّ الشَّيْءِ: مُنْتَهَاهُ وَمُنْقَطَعُهُ، وأصلُ الحدِّ المنعُ، والحَدُّ: الحاجزُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ، وَفُلَانٌ مَحْدُودٌ، إِذَا كَانَ مَمْنُوعًا، [2]، والمُرادُ بِحُدُودِ اللّه: مُقَدَّرَاتُهُ بِمَقَادِيرَ مَخْصُوصَةٍ وَصِفاتٍ مَخْصُوصَةٍ[3]، وسُمِّيتِ الحُدودَ، لأنَّها تَحُدُّ، أي: تمنَعُ، وحُدودُ اللّه: أوامرُه ونواهِيه[4]، ومعنى الحُدودِ: ما مَنَعَ اللّه ﷻ من مُخالفتِها، وكلُّ مَن منعَ شيئًا فهو حدَّادٌ، وقولهم: أحَدَّتِ المرأةُ على زوجِها، معناه: قطعَتِ الزِّينَةَ، وامتنعتْ منها، والحديدُ إنَّما سُمّيَ حَديدًا، لأنَّه يُمْتَنَعُ به منَ الأعداءِ، وحَدُّ الدَّار: هُوَ مَا يمنعُ غيرَها أن تدخل فيها"[5]، والحُدودُ: الحواجزُ بين الإباحةِ والحَظْرِ"[6]، ومعنى حدودِ اللّه: أوامرُهُ ونواهِيه الّتي مَنَعَ المؤمنين من مُخالفَتِها[7].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ صفاتِ المؤمنين الّذين لهمُ البُشرَى في الدُّنيَا والآخرة

في هذه الآيةِ وصَفَ اللّه المؤمنين الّذين اشترَى منهم أنفسَهم وأموالَهم بأنّهمُ الرَّاجعون ممَّا كَرِهَهُ اللّه وسَخِطَهُ إلى ما يُحبُّه ويرضاهُ، الّذين أخلصُوا العبادةَ للّه وحدَه وجدُّوا في طاعتِه، الحامِدون الّذين يَحمدُون اللّه على كلِّ ما امتَحَنهمْ به من خيرٍ أو شرٍّ، الصَّائمُون، الرَّاكعُون في صلاتِهم، السَّاجدونَ فيها، الذين يُؤَدُّونها كاملةً في خشوعٍ، ويأمرون بكلِّ خيرٍ يوافقُ ما جاءَ به الشَّرعُ، ويَنهَوْن عن كلِّ شَرٍّ يأْبَاهُ الدِّينُ، ويلتزمُون بشريعةِ اللّه، وأَخْبِر -

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/15، 16، والزَّجّاج، معاني القرآن: 2/472.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حدَّ).
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/176.
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (حدد).
(5) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/257.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/259.
(7) القُرطبيُّ، تفسير القُرطبيِّ: 2/337.

أيُّها الرَّسول - المؤمنين المتَّصِفين بهذه الصِّفات بما يَسُرُّهمْ في الدُّنيا والآخرة[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ موقع الآية ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَـٰبِدُونَ﴾:

أهلُ الإيمانِ تجارتُهم معَ اللهِ رابحةٌ مع تَزايُدِ صِفاتِهم تزدادُ رِبْحًا

اختلفَ أهلُ التَّأويلِ في نُكتةِ فَصْلِ هذه الآيةِ عن سَابِقتِها، فقد ذهبَ بعضُهم إلى أنَّ هذه الآيةَ يَجمعُها معَ الآيةِ السّابقةِ كمالُ الاتّصالِ بينهما، لأنّها نعتٌ للمؤمنين في قولِه سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ﴾ [التّوبة: 111] واستدلّوا لذلك بقراءةٍ شاذّةٍ (التّائبين)، ويكونُ المعنَى على هذا: (إنّ اللّه اشترَى منَ المؤمنين التّائبين العابِدين أنفسَهم وأموَالَهم) لكنّهُ قُطعَ لأجْلِ المَدْحِ فجُعلَ مرفوعًا على أنّه خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ وجوبًا، وهذا الوجهُ يحصلُ به كمالُ الارتباطِ بين الآيتَيْن، وذلك بجَعْلِ هذه الصّفاتِ المذكورةِ في الآيةِ شرطًا في المجاهَدَة، وعلى هذا فلا يَدخلُ في المبايعةِ المذكورةِ في الآيةِ السّابقةِ إلّا المؤمنُونَ الّذين هُمْ على هذه الأوصافِ، وبناءً على هذا يكونُ إعرابُ ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾ خبرَ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: هُمُ التّائبونَ، وهذا من بابِ قَطْعِ النُّعوتِ، وذلك أنَّ هذه الأَوْصَافَ عند هؤلاء القائلِين من صفاتِ المؤمنين في قوله تعالى: ﴿ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التّوبة: 111].

وذهب البعضُ إلى أنّها لم تُعطفْ على سابقتِها لكمالِ الانقطاعِ بينهما، بمعنى أنَّ الآيةَ السّابقةَ مستقلّةٌ بنفسِها فلا يُشترطُ فيها شيءٌ سِوى الإيمانِ باللّه تعالى، ويَندرجُ فيها كلُّ مؤمنٍ قاتَلَ لتكونَ كلمةُ اللّه هيَ العُليا، وإنْ لم تكُنْ فيه هذه الصّفاتُ، لأنّ الشّهادةَ مَاحيةٌ لكُلِّ ذنْبٍ، حتى إنّه رُوِي أنّه تعالى يحملُ عنِ الشّهيدِ مظالمَ العبادِ ويُجازيهم عنه[2].

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 280، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 205، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 205.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/88.

وبناءً على هذا يكونُ إعرابُ ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾ فيه أوجُهٌ عديدةٌ منها أنها مُبتدأٌ وخبرُه (العابدون)، وما بعده أوصافٌ أو أخبارٌ متعدّدةٌ عند مَنْ يرَى ذلك، ومنها أنَّ الخبرَ للمبتدأ ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾ قولُه: ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ﴾، ومنها أنَّ خبرَها محذوفٌ تقديرُه: التّائبونَ الموصوفُونَ بهذه الأوصافِ من أهلِ الجنّة[1]، والرّأيُ الأوّلُ هو الأقربُ للسّياقِ والمعنَى.

دلالةُ التَّعبيرِ عن أوصَافِ المؤمِنين بأسماءِ الفاعلِين:

الـثُّـبـوتُ والاستمرارُ على هـذه الـصِّفاتِ طابعٌ مميّزٌ لهم

وجِيءَ في التَّعبيرِ عن هذه الأوصَافِ بصِيغةِ أسماءِ الفاعلِين، لأنَّ اسمَ الفاعلِ يدلُّ على تمكُّنِ الفعلِ من صاحبِه حتّى باتَ اسمًا له، للإشارةِ إلى أنّها صفاتٌ ثابتةٌ من صِفاتِهم، وكأنَّ التّوبةَ والعبادةَ والحمْدَ والرّكوعَ والسّجودَ طابعٌ مميِّزٌ لهم بين النَّاسِ[2].

صِفاتُ المؤمِنين بينَ الوصْفِيّةِ والخَبَرِيّةِ:

الـعِـنـايـةُ والاهـتـمـامُ بِصِفاتِ المؤمِنين

أوصَافُ المؤمِنين السّابقةُ كان الأصلُ أن تكون مجرورةً، لأنّها كانت وصفًا للمؤمِنين في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التَّوبة: 111]، ولكنّها قُطعتْ عنِ الوصْفِيَّةِ وجُعلتْ أخبارًا لمُبتدأ محذوفٍ هو ضميرُ الجمعِ اهتمامًا بهذه النُّعوتِ اهتمامًا أخرجَها عنِ الوصْفيَّةِ إلى الخَبريَّةِ، ويُسمّى هذا الاستعمالُ نعتًا مقطوعًا، وما هو بنعْتٍ اصطلاحيٍّ، ولكنَّه نعْتٌ في المعنى[3]، فهذه الأوصافُ هي من صِفاتِ المؤمنين الّذين ذَكرَ الله أنَّه اشترى منهم أنفُسَهم وأموالَهم، ومعنى الآيةِ، على ما تقتضِيه أقوالُ العلماء: أنّها أوصافُ الكَمَلَةِ من المؤمنين، ذَكرَها سبحانه، لِيَستبقَ إليها أهلُ التَّوحيدِ، حتى يكونُوا في أعلَى رُتبةٍ[4].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/103، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 6/129.
(2) طنطاويّ، الوسيط: 6/411.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/40.
(4) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 3/218.

دلالة (أل) في هذه الصفات ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾ وما بعدها:

(أل) الدّاخلةُ على هذه الأخبارِ أوِ الصّفاتِ هي الجنسيّةُ الاستغراقيّةُ والّتي تفيدُ استغراقَ جميعِ أفرادِ الجنسِ الدّاخلين في حُكمها، وتفيدُ أيضًا في دخولها على الخبر - كما هو مقرّرٌ في علم المعاني - القصرَ الحقيقيَّ أوِ الإضافيَّ بحسب المعاني المرادة، وتفيدُ أيضًا تحقيقَ الثّناءِ على أصحابها، والتّعريضَ من خلال دعوةِ غيرهم للتأسّي بهذه الصّفاتِ وتتبّعِ حالِ أصحابِها.

الدّعوةُ إلى التأسّي بالأنبياء والتّخلّقِ بأخلاقِهم

نكتةُ التّعبيرِ عن هذه الصِّفاتِ بضميرِ الجمْعِ:

جَمَعَ النّظمُ الكريمُ الكُلَّ بجمعِ المذكّرِ السَّالمِ المقتضِي للتَّعاضدِ والتَّناصرِ المُوجِبِ لدوامِ العبادةِ والنُّصرةِ[1].

وفيه إشارةٌ إلى حرْصِ الإسلامِ على توسيعِ المساحةِ الإيمانيّةِ وتعدُّدِ طبقاتها من خلالِ تعدُّدِ صفاتِها، ولا فرقَ هنا بين الذّكرِ والأنثى، لأنَّ التَّعبيرَ هنا جاء من بابِ التّغليب.

الإشارةُ إلى تعاضُدِ المجتمعِ في إبرازِ صُورِ العبادةِ والثّباتِ علَيْها

سِرُّ تَخصيصِ هذه الصّفاتِ بالذِّكْرِ دونَ غيرِها:

خُصّصتْ هذه الصّفاتُ بالذّكْرِ لبيانِ أنّ هذه الصّفاتِ من شُعبِ الإيمان، ولأنّها تُمثّلُ الصُّورةَ الكاملةَ الّتي ينبغي أن يكونَ عليها المؤمنُ ومجتمَعُه الّذي يعيشُ فيه حتى يحفظَ كلُّ منهما الآخرَ.

الصُّورَةُ الكامِلَةُ لمَا يجبُ أن يكونَ عليه المؤمنُ

سِرُّ تَرتيبِ هذه الصِّفاتِ:

ابتدأَ النَّظمُ الكريمُ ترتيبَ هذه الصِّفاتِ بالتَّوبةِ الّتي هي أساسُ العملِ الصَّالحِ، ثُمَّ ابتدأَ المؤسَّسُ بمطلقِ العبادةِ الشَّاملةِ لجميعِ أنواعِ الدِّين منَ العلمِ وغيرِه فقال: ﴿ٱلۡعَـٰبِدُونَ﴾[2]، مبتدئًا أوّلًا بما يخصُّ الإنسانَ مُرتَّبةً على ما سعى، ثُمَّ بما يَتعدَّى من هذه الأوصافِ من الإنسانِ لغيرِه وهو الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عنِ المنكرِ، ثُمَّ بما شَمِلَ ما

البدْءُ بما يَخُصُّ الإنسانَ في نفسِه ثُمَّ إلى ما يتعدَّاهُ إلى غيرِه

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/390.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/26.

يَخصُّه في نفسِه وما يتعدَّى إلى غيرِه وهو الحفظُ لحدودِ اللّه، فقدَّم الأوَّلَ، لأنَّ المُكَمِّلَ لا يكون مُكَمِّلًا حتَّى يكون كاملًا في نفسِه، فجاء هذا التّرتيبُ في غايةٍ منَ الحُسنِ[1].

سِرُّ ذكرِ: ﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ بعد: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾:

التَّخلِيةُ بعدَ التَّخْلِيَة

فذكَرَ اللّهُ تعالى في هذه الآية خِصالَ التَّائِبِ، فقال: ﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ فلا بُدَّ للتَّائبِ منَ العبادة والاشتغالِ بالعملِ للآخرةِ، وإلَّا فالنَّفسُ همَّامةٌ متحرّكةٌ، إن لم تَشْغَلْهَا بالحقِّ، شغلَتْكَ بالباطل، فلا بُدَّ للتَّائبِ من أن يُبَدِّلَ تلك الأوقاتِ الّتي مَرَّت له في المعاصِي بأوقاتِ الطَّاعاتِ، وأن يَتَدَاركَ ما فرَّط فيها، وأن يُبَدِّلَ تلك الخُطواتِ بخطواتٍ إلى الخيرِ، ويَحفظَ لحظاتِه وخطواتِه، ولفظاتِه وخطراتِه[2]، ولأنَّ لفظَ ﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ يعمُّ القيامَ بعبادةِ اللّه ﷻ والتزامِ شرْعِه ومُلازمةِ ذلك والمُثابرةِ عليه والدّوام.

وفيه بيانُ رحمةِ اللّه بعبدِه إذا أتى بأقلِّ عبادةٍ يُؤدِّيها المرءُ المسلمُ يقعُ عليه وصْفُ (عابدٍ)، وتزدادُ درجتُه بقدْرِ الزّيادةِ في عبادتِه.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلْحَٰمِدُونَ﴾:

الحمْدُ أعمُّ منَ الشُّكرِ

آثرَ التّعبيرَ بـ ﴿ٱلْحَٰمِدُونَ﴾ دون (الشاكرون)، لأنَّ الحمْدَ أعمُّ منَ الشُّكرِ في جهةٍ من جهاتِ الفُروق بينَهما، فالشُّكرُ يكونُ على النّعمِ الخاصّةِ بالشّاكرِ، بخلافِ الحمْدِ فهو على كلِّ حالٍ في السَّرّاءِ والضّرّاءِ، ولذلك قالُوا: الحامدُون معناهُ: الذّاكرَون للّه بأوصَافه الحُسنَى في كلِّ حالٍ وعلى كلِّ حالٍ، وفيه تأَسٍّ برسول اللّه ﷺ إذا أتاهُ الأمرُ يسُرُّه، قال: الحمدُ للّه الّذي بنعمتِه تتمُّ الصّالحاتُ، وإذا أتاهُ الأمرُ يكرَهُه، قال: الحمدُ للّه على كلِّ حالٍ[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/510.
(2) ابن كثير، البداية والنهاية: 9/185.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/31.

سِرُّ التّعبيرِ بـ: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾:

السِّياحةُ لفظٌ يدلُّ على معانٍ كثيرةٍ، وكلُّها يُحتملُ دخولُها في معنَى الآيةِ

آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ لأنّه يحملُ مَعاني عديدةً، فمنهم مَنْ قال: إنّه مشتقٌّ منَ السّياحةِ وهي السّيرُ في الأرض، والمرادُ به سيْرٌ خاصٌّ محمودٌ شرعًا، وهو السّفرُ الّذي فيه قُربةٌ للّه وامتثالٌ لأمرِه، مثلَ سفرِ الهجرةِ من دارِ الكُفرِ إلى دارِ الإسلام، أوِ السّفرِ للحجِّ أو للجهادِ، وحمْلُه هنا على السّفرِ للجهادِ أنْسبُ للمَقامِ وأشملُ للمؤمنين المأمورين بالجهادِ، ومنهم مَنْ قال: إنَّ المرادَ به الضّربُ في الأرضِ خاصّةً والّذي عبَّرَ عنه بالمُتنقلين لطلبِ العلْمِ، ويجوزُ أن يكونَ المرادُ به: السّيْرَ سياحةً من أجل اكتشافِ الآثارِ والوقوفِ على أخبارِ الأممِ البائدةِ ليكونَ ذلك مثالَ عِظةٍ واعتبارٍ[1]، وقال بعضُ العلماءِ: إنَّ المرادَ بـ ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾: الصّائمُون، واستدلُّوا على ذلك بما أسْندَه الطّبريُّ عن عائشةَ ﵂: «سياحةُ هذه الأمّةِ الصّيامُ»[2]، ولما رُويَ عن ابنِ عبّاس ﵄: "إنّ كلَّ ما ذكر اللّه في القرآن من السِّياحة، فهو الصِّيام".

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾:

شُبِّهَ الصّومُ بالسِّياحةِ لمنْعِه النّفسَ عنِ الشّهواتِ

استُعيرتِ السِّياحةُ للصّوم بطريق الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التّبعيَّةِ، لأنَّ الصّومَ يعوقُ عنِ الشّهواتِ، والسّائحُ في الأرضِ ممتنِعٌ منَ الشّهواتِ فشُبِّهَ الصّائمُ به لإمْساكِه في صومِه عنِ المطعمِ والمشربِ والنِّكاحِ[3]، أو لأنّه رياضةٌ نفسانيّةٌ يُتوصّلُ بها إلى الاطّلاعِ على خفايَا المُلكِ والملكوتِ، كما أنَّ السّياحةَ يُتوصّلُ بها إلى الاطِّلاعِ على الأماكنِ والبلادِ النّائيّةِ التي خَفيتْ على السّيّاحِين، ووجْهُ الشّبهِ فيهما الاطِّلاعُ على الأمورِ الخفيّةِ في كلٍّ منهما[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/41.
(2) الطبري، جامع البيان: 14/506.
(3) السّيروان، المعجم الجامع لغريب مفردات القرآن، ص: 213.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/348.

ولمَّا كانَ هذا اللّفْظُ يَحملُ هذه المعانيَ العديدةَ منَ السّياحةِ في الجهادِ والسّياحةِ في طلبِ العلمِ والسّياحةِ في نشْرِ الإسلامِ والتّفكّرِ في ملكوتِ اللّه، لكلِّ ذلك كانَ التّعبيرُ به هو الأَوْلَى في هذا المقامِ.

سِرُّ التَّعبيرِ عنِ الصَّلاةِ ببعضِ أجزائِها:

الرُّكوعُ والسُّجودُ أجلُّ مظاهرِ التَّواضُعِ والعُبوديَّةِ

جعل النَّظمُ الكريمُ ذِكْرَ الرُّكوعِ والسُّجود، كنايةً أو مجازًا مُرسلًا عنِ الصَّلاة، لأنَّ سائرَ أشكالِ المُصلّي موافقٌ للعادة، وهو قيامُه وقعودُه، والّذي يَخْرُجُ عنِ العادة في ذلك هو الرُّكوعُ والسُّجودُ، وبه يتبيَّنُ الفضلُ بين المُصلّي وغيرِه، ويمكنُ أن يُقالَ: القيامُ أوّلُ مراتبِ التَّواضُعِ للّه تعالى، والرُّكوعُ وسطُها، والسُّجودُ غايتُها، فخصَّ الرُّكوعَ والسُّجودَ بالذِّكر، لدلالتِهما على غايةِ التَّواضُعِ والعبوديَّةِ، تنبيهًا على أنَّ المقصودَ منَ الصَّلاة نهايةُ الخضوعِ والتَّعظيمِ[1]، والنّهيُ عنِ الفحشاءِ والمنكر، وللإشارةِ إلى أنَّ الّذين يُكثِرون منَ النَّوافلِ هم أدْخلُ في هذا الوصْفِ وأعرقُ في الاتّصافِ به.

سِرُّ اختيارِ ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾:

الدّلالة على كَثرةِ الرّكوعِ وتجدُّدِهِ والمبالغةِ فِيه

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بـ ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ دونَ المبالغةِ كما في قولِه تعالى: ﴿وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: 125]، وقولِه: ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحجّ: 26]، فجاء التّعبيرُ بـ(الرُّكّع) على صيغة (فُعَّل) وهي جمعُ تكسيرٍ وصيغتُه تدلُّ على المبالغةِ في الرّكوعِ والمداومةِ عليه، وفيه إشارةٌ إلى كثرةِ القيامِ بالرّكوعِ، بخلافِ لفظِ ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ﴾ و﴿ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ وهو جمعُ مذكّرٍ سالمٌ لمجرَّدِ الوصْفِ دونَ مبالغةٍ في الصّفةِ، وهو يدلُّ على التّجدُّدِ والحدُوثِ للدّلالةِ على الحركةِ الظّاهرةِ في أداءِ الصّلاةِ، وهو المعنى الّذي أرادَه السّياقُ هنا، أمّا لفظُ (السُّجَّدُ) فقد وردَ في

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/154، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/510.

القُرآن الكريمِ في مواضعَ عديدةٍ كلُّها تدلُّ على الحركةِ الظّاهرةِ، مثلَ قولِه تعالى: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ [الفتح: 29]، وقولِه: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾ [يوسف: 100]، وقولِه: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ [البقرة: 58] فالملاحَظُ أنّها كلَّها في موضعِ الحركةِ الظّاهرةِ ورُؤيَا العينِ[1].

بلاغةُ العُدولِ عنِ العطْفِ بين الصّفاتِ:

وحدةُ هذه الصّفاتِ في تحقُّقِها والالتزامِ بهَا

تظهرُ بلاغةُ الجمْعِ بين هذه الصّفاتِ دونَ أن يكونَ بينَها حرفُ عطْفٍ ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ إشارةً إلى أنّها جميعًا بمنزلةِ الصّفةِ الواحدةِ، وأنّه لا تتحقّقُ أيُّ صفةٍ فيهما إلّا إذا تحقّقتْ جميعًا، لأنَّ تحقيقَ صفةٍ منها يكونُ داعيًا لتحقيقِ كلِّ الصّفاتِ، فالتّائبُ مثلاً إذا صحّتْ توبتُه وحقّقَ مَضمونَها كان عابدًا حامدًا سائحًا راكعًا ساجدًا آمرًا بالمعروفِ ناهيًا عنِ المنكرِ حافظًا لحدودِ اللّه، وهكذا كلُّ صفةٍ بعدَها إذا تحلَّى المؤمنُ بواحدةٍ منها كانتِ الصّفاتُ الأُخرَى من حلْيَتِه[2]، كما أنّ الأصلَ في تعدّدِ الصّفاتِ لموصوفٍ واحدٍ أن لا نعطفَ بينها إلّا لغرضٍ بلاغيٍّ يقتضيهِ السّياقُ.

نكتة العطْفِ في: ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾:

الإيذَانُ بأنَّهمَا فريضةٌ واحدةٌ لتَلازُمِهما في الغالبِ

قولُه تعالى: ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ فيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث ذكَرَ حَرْفَ العطْفِ هنا دون ما قَبْلَه، لِتَبايُنِ ما بينَ الوَصْفَيْنِ، فالأمرُ مُبايِنٌ للنَّهي، إذِ الأمرُ طلَبُ فِعْلٍ، والنَّهيُ تركُ فعلٍ، والصِّفاتُ إذا تكرَّرتْ وكانت للمدْحِ أوِ الذَّمِّ أوِ التَّرحُّمِ جاز فيها الاتّباعُ للمنعوتِ والقطعُ في كلِّها أو بعضِها، وإذا تباين ما بين الوصْفَيْنِ جازَ العطْفُ[3].

(1) داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 480.

(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 4/902.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/511.

وقيل: إنّ عطْفَ النّهيِ عنِ المنكر على الأمرِ بالمعروف، للإيذانِ بأنّهما فريضةٌ واحدةٌ لتلازُمِهما في الغالب، والمعدودُ مجموعُهُما، كأنّه قيل: الجامعُون بين الوصْفَيْن[1].

والظَّاهرُ أنَّ العطْفَ في هذا الوصْفِ بخُصوصِه إنَّما كان من جهةِ أنَّ الأمرَ والنَّهيَ من حيثُ هُما أمرٌ ونهيٌ مُتقابلان بخلافِ بَقيّةِ الصِّفاتِ أو لأنَّ الآمرَ بالمعروفِ ناهٍ عنِ المنكرِ وهو تركُ المعروف، والنَّاهي عنِ المنكرِ آمرٌ بالمعروف، لأنّهما وجهانِ لأمرٍ واحدٍ، فأُشيرَ إلى الاعتدادِ بكلٍّ منَ الوصْفَيْن وأنّه لا يُكتَفى فيه بما يحصلُ في ضمْنِ الآخرِ[2].

وممّا يُذكرُ في سرِّ العطْفِ أنَّ بينَهما تلازُمًا في الذِّهنِ والخارجِ، لأنَّ الأوامرَ تتضمّنُ النَّواهيَ، ومنافاةً بحسبِ الظَّاهرِ، لأنَّ أحدَهما طلبُ فعْلٍ والآخرَ طلبُ ترْكٍ، فكانا بين كمالِ الاتّصالِ والانقطاعِ المقتضي للعطفِ بخلافِ ما قبْلَهما[3].

سِرُّ التأخير لهاتين الصفتين: ﴿ٱلْأَمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾:

تربيّةُ الأفرادِ وإصْلاحُهم طريقٌ إلى تربيةِ المجتَمعِ

من خَصائصِ المنهجِ القُرآنيِّ تربيّةُ الأفرادِ في الظّاهرِ والباطِنِ عن طريقِ تربيةِ القُلوبِ والجوارحِ، وهذا ما تكفّلَتْ به الأوصافُ السّابقةُ في العملِ على إيجادِ الفرْدِ الّذي يُراقبُ نفسَه ويُقوّمُها من خلالِ وجودِ نفْسٍ لوّامةٍ تلومُه على فعْلِ المعصيّةِ وتدعُوهُ إلى أن يُزيلَ دَنسَها من قلبِه ومن جوارحِه، وهذا ظاهرٌ في وصفِ ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾، ولم يقفِ الأمرُ عند ذلك بل تدعُوه إلى عبادةِ اللّه بإخلاصٍ حتى يَشعرَ العبدُ بأنّ اللّه يراهُ، وهذا ظاهرٌ من وصْفِ ﴿ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾، فكأنَّ وصْفَ التّوبةِ والعبادةِ يعملان على تخليةِ الفردِ منَ المعاصِي

(1) طنطاويّ، الوسيط:/411، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/510.
(2) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 476، والخفاجيّ، حاشية الشّهاب: 4/645.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/30.

وتحلِيتِه بالطّاعةِ، وتظهرُ هذه التّحليةُ في صيامِه وصلاتِه من قولِه: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾، فبعْدَ هذه التّربيةِ السُّلوكيّةِ للفردِ يهدفُ القرآنُ الكريمُ إلى تطهيرِ المجتمعِ منَ الرّذائلِ والدّعوةِ إلى نشْرِ الفضائلِ، وذلك من خلالِ قولِه تعالى: ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾، لأنَّ المجتمَعَ الفاضلَ هو ظلٌّ لكلِّ خُلُقٍ نبيلٍ تنمُو فيه الفضيلةُ وتقوَى غصونُها.

سِرُّ التَّعبيرِ بالاسْميّةِ دونَ الفعْليّةِ في الأمرِ بالمعروفِ والنّهيِ عنِ المنكرِ:

الأمرُ بالمعروفِ والنّهيُ عنِ المنكرِ خُلُقٌ ثابتٌ لأهلِ الإيمانِ

جاءَ التَّعبيرُ بالاسميّةِ الّتي تدلُّ على الثّبوتِ دونَ الفعليّةِ الّتي تدلُّ على تجدّدِ الأفعالِ وحُدوثِها، لأنَّ السّياقَ هنا جاءَ عنِ المؤمنين الّذين بذلُوا أنفسَهم وأموالَهم في سبيلِ اللّه في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾ [التّوبة: 111]، وهذا دليلٌ على أنّهم حقّقوا هذه الفضيلةَ في أنفسِهم قبل أن تَتعدَّى إلى غيرِهم، لذلك كان التَّعبيرُ بالاسميّةِ من بابِ الإعلامِ بالوصْفيّةِ الّتي تحقّقتْ وصارتْ عُنوانًا لهم، وفيه دلالةٌ على أنّهم نالُوا استِحقاقَ وصْفِ الإيمانِ والبِشارةِ بالجنّةِ بهذه الصِّفاتِ السّابقِ ذِكْرُها، ومنها الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عنِ المنكرِ، وفيه دلالةٌ على كمالِ القيامِ بفضيلةِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عنِ المنكرِ، لأنَّ الوصْفَ إذا جاء بالاسميّةِ يدلُّ على الكمالِ فيه.

سِرُّ البدْءِ بالأمرِ بالمعروفِ: ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾:

رسـالـةُ أهـلِ الإيـمـانِ في المجتمَعِ إيجابيّةٌ

النَّاظرُ في آياتِ القرآنِ الكريمِ في هذه القضيّةِ مع تعدُّدِ الأساليبِ واختلافِ الصِّيَغِ يجدُ أنّها متّفقةٌ على الأمرِ بالمعروفِ، ففي سورةِ آلِ عمرانَ يجدُ ذلك واضحًا في قولِه تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 110]، وفي سورةِ الأعرافِ في حديثِ القُرآنِ عن أوصافِ الرَّسولِ يجدُ قولَه تعالى: ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [الأعراف: 157] وكمَا هنا في

هذه الآيةِ من سورةِ التّوبةِ ونحوِ ذلك، لأنَّ الأمرَ بالمعروفِ هو الأصلُ ولعُموم معناهُ الّذي يقتضِي النَّهيَ عنِ المنكرِ، لأنَّ النّهيَ عنِ المنكرِ جزءٌ منَ الأمر بالمعروفِ، ولأنّه يأتي في مقامِ المدْحِ دائمًا، ففي جانبِ مدْحِ الأمّةِ بالخَيريّةِ بدأ بالأمرِ بالمعروف، وفي مقامِ رسولِ الله ﷺ بدأ بالأمرِ بالمعروف، وفي مَدْحِ المؤمنين الكامِلين أيضًا بدأ كذلك.

دلالةُ (أل) في: ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ و﴿ٱلۡمُنكَرِ﴾:

لحراسةِ المجتمعِ لا بدَّ منَ الوفاءِ بهذه الصّفةِ على الوجهِ الأكمَلِ

دلّتْ (أل) في لفظَي المعروفِ والمنكرِ على الاستغراقِ لجميعِ أنواعِ المعروفِ ولجميعِ أنواعِ المنكرِ، وفي هذا دلالةٌ على حرصِ المؤمنين على الأمرِ بكلِّ خيرٍ صغيرًا كان أو كبيرًا، والنّهي عن كلِّ منكرٍ صغيرًا كان أو كبيرًا، وذلك لحراسةِ المجتمعِ عنايةً ورعايةً.

بلاغةُ الطّباقِ في: ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾:

مسؤوليّةُ جميعِ المؤمنين في تحقيقِ هذه الصِّفَةِ

النَّاظرُ في هذه الجملةِ منَ الآيةِ يجدُ الطّباقَ فيها ظاهرًا بين الأمرِ والنّهي، والمعروفِ والمنكرِ، والغرضُ منه إفادةُ العُمومِ والشُّمولِ في أداءِ هذه الفَريضةِ.

دلالةُ حذفِ متعلّقِ ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ﴾ ﴿وَٱلنَّاهُونَ﴾:

الحذف للإيجاز والعموم

حُذفَ المتعلّقُ، لأنّه معلومٌ منَ السّياقِ، والقرينةُ عليه ظاهرةٌ، لأنَّ أصْلَ الكلامِ (الآمرون النّاسَ والنّاهون لهم)، فلو جاء التَّعبيرُ هكذا لم يكُنْ بهذه البلاغةِ الّتي عبّرَ بها القرآنُ، لأنّه يُفوّتُ قيمةَ الإيجازِ، وفيه إشارةٌ إلى قصْدِ العُمومِ.

سِرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بالأمرِ والنّهي:

الأمر والنّهي واجب على كلِّ مسلم، كلٌّ على حسب علمه وقدرته

آثرَ التّعبيرَ بصِيغتَي الأمرِ والنَّهي للدّلالةِ على حتميّةِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عنِ المنكرِ ليستقيمَ المجتمعُ للدّلالةِ على أهميّةِ هذه الفريضةِ في حياةِ الأمّةِ، لأنّها من عظائمِ الأمورِ الّتي لا يقومُ عليها إلّا العلماءُ الّذين يَعرفونَ حُدودَ الأوامرِ ومقتضَى النّواهي، لأنَّ مَنْ لا يعلَمُها يقعُ في حرجٍ ويُوقعُ المجتمعَ في خطرٍ.

سِرُّ ختامِ هذه الصّفاتِ بالحفْظِ لحُدودِ الله: ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾:

الجمعُ بين رعايةِ أعمالِ الجوارحِ وأحوالِ القلوبِ

خُتمتْ هذه الصّفاتُ بِصِفةِ الحفْظِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾، لأنّها تناولت كلَّ هذه الصّفاتِ على سبيلِ الشُّمولِ والإحاطةِ، لأنَّ التَّوبةَ والعبادةَ والاشتغالَ بتحميدِ اللّه، والسِّياحةَ لطلبِ الفضائلِ، والرُّكوعَ والسُّجودَ والأمرَ بالمعروف والنَّهيَ عن المنكر، أمورٌ لا ينفكُّ المكلَّفُ عنها في أغلبِ أوقاتِه، فلهذا ذَكَرَها اللّه تعالى أوّلاً على سبيلِ التَّفصيلِ، وأمّا أمرُ الحُدودِ الّذي يُطلقُ في عُرفِ الفقهاءِ على كلِّ عقوبةٍ ذكرَها اللّه تعالى للجرائمِ الّتي تُعدُّ اعتداءً على حقِّ اللّه تعالى أو حقِّ المجتمعِ، فلا يلزمُ المكلَّف التّعاملُ معها أو التّلبُّسُ بها مثلَ معرفةِ أحكامِ الجناياتِ[1]، وفيه إشارةٌ إلى التّفريقِ بين هذه الصّفاتِ، فالثَّمانيةُ الأُولى أعمالُ الجوارحِ، وأمّا الصِّفةُ التَّاسعةُ فهي رعايةُ أحوالِ القلوبِ، بلِ البحثُ عنها، والمبالغةُ في الكشْفِ عن حقائِقِها، لأنَّ أعمالَ الجوارحِ إنّما تُرادُ لأجْلِ تحصيلِ أعمالِ القلوبِ[2].

سِرُّ العطْفِ في: ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾:

الإجمالُ بعدَ التّفصيلِ

سِرُّ العطْفِ التَّنبيهُ على أنَّ ما قبْلَه مُفَصِّلُ الفضائلِ، وهذا مُجملُها، لأنَّه شاملٌ لما قبْلَه وغيرِه، ومثلُه يُؤْتَى به معطوفًا، نحو: زيدٌ وعمرو وسائرُ قبيلتِهما كُرَماء، فلِمُغايرتِه لما قبْلَه، بالإجمالِ والتّفصيلِ، والعمومِ، والخصوصِ، عُطفَ عليه، وقيل: بقوَّةِ الجامعِ بالتّلازمِ، لأنَّ مَنْ حَصَّلَ الأوصافَ السَّابقةَ، فقد حَفِظَ حُدودَ اللّه[3].

سِرُّ وصْفِهم بالحِفظِ لحُدودِ الله:

المبالغةُ في الوصْفِ بطاعةِ اللهِ والقيامِ بأوامرِه

اختارَ القرآنُ الكريمُ وصْفَهم بالحفْظِ في قولِه تعالى:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/152.
(2) الشّربينيّ، السّراج المنير: 1/743.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/30، والقاسميّ، تفسير القاسميّ: 5/510، ومحمد رضا، تفسير المنار: 11/51.

﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾، لأنَّ الحفظَ صِفةٌ جامعةٌ للعملِ بالتَّكاليفِ الشَّرعيّةِ عند توجُّهها ويَلزمُ منه الإتيانُ بالتَّكاليفِ على أتمِّ ما يكونُ منَ المبالغةِ في طاعةِ اللّه والقيامِ بأوامِرِه والانتهاءِ عن زواجِره، وذلك لأنَّ للّه تعالى حُدودًا في أوامرِه وزواجرِه وما ندبَ إليه ورَغَّبَ فيه أو أباحَهُ وما خيَّرَ فيه وما هو الأَولى في تحرِّي موافقةِ أمرِ اللّه، وكلُّ هذه حُدودُ اللّه، فوصَفَ تعالى هؤلاء القومَ بهذا الوصْفِ، ومَنْ كان كذلك فقد أدَّى جميعَ فرائضِه وقامَ بسائرِ ما أرادَه منه[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالحفْظِ بين الحقيقةِ والمجازِ: ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾:

الشَّأنُ في المؤمنِ أن يكونَ حافِظًا لحُدودِ الله غيرَ مُضيِّعٍ لها

يُستعملُ الحفْظُ على الحقيقةِ ويكونُ معناه: توخِّيَ بقاءِ الشَّيءِ في المكانِ الّذي يُرادُ كَوْنُه فيه رغبةُ صاحبِه في بقائِه ورعايتِه عن أنْ يَضيعَ، ويُطلقُ مجازًا شائعًا على مُلازمةِ العملِ بما يُؤمَرُ به على نحوِ ما أُمِرَ به وهو المرادُ هُنا، أي: والحافظُون لِمَا عَيَّنَ اللّه لهم، أي: غيْرَ مُضيِّعين لشيءٍ من حُدودِ اللّه[2].

سِرُّ خِتامِ صفاتِ المؤمنين بـ: ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾:

تجنُّبًا للتّكرار ولعُمومِ لفْظِ الحفْظِ

خَتمَ اللّه تعالى هذه الأوصافَ بهذه الصّفةِ ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ﴾ دون (القائمُون)، لأنّه سبقَ ذِكْرُ ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ وهم في واقعِ الأمرِ القائمُون على حُدودِ اللّه، فلَو عُبِّر بها لكان تكرارًا في المعنى ولم يُؤدِّ المرادَ منَ الحفظِ، وهو رِعايةُ الحُدودِ والعملُ على بقائِها بعيدًا عنِ التّحريفِ والتّبديلِ، ولأنّ المحافظةَ على الشَّيءِ يَلزمُ منها الإقامةُ عليه.

وفيه دلالةٌ على أنَّ الحفظَ لا يكونُ إلّا للشّيءِ النّفيسِ الغالي، وفي هذا إشارةٌ إلَى عظمةِ هذه الحدودِ وعُلوِّ قَدْرِها.

(1) الجصّاص، أحكام القرآن: 4/368.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/42.

والتَّعبيرُ بالمحافظةِ يدلُّ على المداومةِ والاستمرارِ بمغالبةِ النّفسِ دواعِيَ التّفريطِ في الحدودِ، ولذلك كان الغرَضُ من ختامِ الأوصافِ بها الدَّوامَ على تلك الحُدودِ بترْكِ جميعِ القيودِ الّتي تمنعُ الحِفاظَ عليهَا.

سِرُّ التَّعبيرِ عنِ التَّكاليفِ بالحُدودِ:

لفظُ الحُدودِ يعمُّ كلَّ أنواعِ العباداتِ والمعاملاتِ

عبّرتِ الآيةُ عنِ التّكاليفِ بالحُدودِ، لأنّها تشملُ العباداتِ والمعامَلاتِ كما في آياتِ سُورةِ البقرةِ، وأيضًا تشملُ أحكامَ المواريثِ كما في سُورةِ النِّساءِ في قولِه تعالى تعقيبًا على أحكامِ الميراثِ: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾، وكلُّ هذه الأحكامِ والتّكاليفِ حدَّ لها الشَّرعُ حدًّا فاصلًا بين الحلالِ والحرامِ، ومعنى حفْظِه: حمايتُه وصَونُه منَ التَّحريفِ والتَّغييرِ، ومَنْ وقعَ في ذلك مُتعمِّدًا عاقبَه الشَّرعُ، لأنّه اعتدَى على حقِّ اللّه تعالى وحقِّ المجتمعِ، لذلك سمَّاها ربُّنا حُدودًا، لأنَّ تَجاوُزَها يُخرجُ فاعلَها منَ الحِلِّ إلى المنعِ، لأنَّ أصْلَ الحدِّ في اللّغةِ المنْعُ، ومنه حَدُّ الدّارِ، لأنّه يمنعُ الغيْرَ من دخولِها، ولذلك سُمِّيت المعاصِي حُدودًا، لأنّه يُمنع تجاوُزُها، ولأنّها تمنعُ أصحابَها منَ العَودِ إلى أمثالِها"[1].

نُكتةُ إضافةِ الحُدودِ: ﴿لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾:

بيانُ تعظيمِ هذه الحُدودِ والمُبالغةِ في عَدَمِ التَّلَبُّسِ بها

إضافةُ الحُدودِ إلى اللّه تعالى في هذه الآية - وحيثُ ذُكرتْ - لتدلَّ على تعْظيمِها والمبالغةِ في عدمِ التّلبُّسِ بها، ولتعظيمِ هذه الحُدودِ أضافَها اللّه تعالى إليه.

سِرُّ حذْفِ مُتعلّقاتِ هذه الأوصَافِ:

كونُ المُتَعلَّقِ معلومًا منَ السِّياقِ، لأنَّ الصِّفاتِ صِفاتُ مَدْحٍ للمؤمنين

لم يَذْكُرْ سبحانه في الآية لهذه الأوصافِ مُتَعَلَّقًا، فلم يقُلِ: التَّائبون من كذا، لفهْمِ ذلك منَ المقامِ، لأنَّ المقامَ في مدْحِ المؤمنين الصَّادقين الّذين أخلَصُوا نفوسَهم للّه تعالى، فصارُوا مُلتزمين طاعتَه في كُلِّ أقوالِهم وأعمالِهم[2].

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/337.

(2) طنطاويّ، الوسيط: 6/411.

دلالة الواو: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

البشارةُ منَ الله تعالى لمَنْ أحسَنَ العمَلَ

الواوُ في قولِه سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عاطفةٌ، لأنّها عطفت هذه الجملةَ على قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التَّوبة: 111] عطف إنشاءٍ على خبرٍ، وممَّا حَسَّنَهُ أنَّ المقصودَ منَ الخبر المعطوفِ عليه هو الأمرُ بالعملِ به، والمقصودُ منَ الأمر بتبشيرِهم إبلاغُهم، فكان كِلْتا الجُملتيْن مُرادًا منها معنيان: خَبَرِيٌّ وإنشائيٌّ[1].

سِرُّ خِتامِ الآية بالبِشارةِ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مع سبْقِ ذكْرِها:

التّأكيدُ على البِشارةِ وأنّها لا تَشمَلُ إلَّا أصحابَ هذه الصّفاتِ

لَمَّا ذكرَ اللّه تعالى هذه الصِّفاتِ التِّسعةَ وقال بعدها: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، للدّلالة على أنهم هُمُ المقصودُون في قولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ [التّوبة: 111]، وفي هذا دلالةٌ على أنَّ البِشارةَ المذكورةَ في قولِه: ﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ﴾ [التّوبة: 111] لم تتناولْ إلا المؤمنين الموصُوفِين بهذه الصِّفاتِ[2].

دلالةُ الأمرِ: ﴿وَبَشِّرِ﴾:

بيانُ عمومِ البِشارةِ للمؤمنين مع تفاوُتِ درجاتِهم

قولُه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هو لفظٌ عامٌّ، أمرَ اللّه تعالى نَبيَّه ﷺ أن يُبَشِّر أمَّته جميعًا بالخيرِ منَ اللّه، فكأنَّه وعدَ الجنَّةَ جميعَ المؤمنين، مع تفاوُتِ درجاتِهم كقولِه: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النّساء: 95][3]، فالبِشارةُ مُتناوِلةٌ كلَّ مؤمن، وأمَّا مِقدارُها وصفتُها فإنَّها بحسبِ حالِ المؤمنين، وإيمانِهم، قُوَّةً وضَعفًا[4]، وقيل: بل هذه الألفاظُ خاصَّةٌ لِمَنْ لم يَغزُ، أي: لَمَّا تقدَّم في الآية وَعْدُ المجاهدين وفَضْلُهم، أُمرَ ﷺ أن يُبَشِّرَ سائرَ المؤمنين ممَّن لم يغزُ[5]، فإنَّ اللّه سبحانه ذكرَ أوصافَ هؤلاءِ الكُبراءِ من أهلِ المقاماتِ والدَّرجاتِ،

(1) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 3/88، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/43.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/152.
(3) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 10/218.
(4) السَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 402.
(5) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 3/218.

وما ذكرَ منَ البِشارة هُناك، كأنَّ ذلك يقتضِي حُزنَ المؤمنين الّذين هم في أدنى الدّرجات من درجاتِهم، فبشّرهم بهذه البِشارةِ تفضُّلًا كما أثابَ المجاهدين، وعاملَهم بالبيعِ والشّراءِ[1].

بلاغةُ حذْفِ مُتعلّقِ البُشْرَى:

بيانُ عِظَمِ المُبَشَّرِ به وعُمومِ نفْعِه لصاحبِه في الدّنيا والآخرة

لم يَذْكُر سبحانه المُبَشَّر به في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، للتَّعظيم وللإشارة إلى أنَّه أمرٌ جليلٌ لا يُحيط به الوصف، ولا تَحُدُّه العبارة[2]، فكأنَّه قيل: بَشِّرْهم بما لا تُدركه الأفهام ولا يُحيط الكلام ولم تسمع به الآذان[3]، فلم يذكر ما يُبَشِّر لهم به، ليعمَّ جميع ما رُتِّب على الإيمان، من ثواب الدُّنيا، والدِّين والآخرة[4].

سِرُّ الإظهارِ في موضعِ الإضمَارِ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

الاعتناءُ بشأنِ المؤمنين وبيانُ دافعِهم الإيمانيّ إلى العمَلِ

قولُه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فيه وضعُ المُؤمنين موضِعَ ضميرِ الموصوفينَ بتلك الفضائلِ، للتَّنبيهِ على أنَّ مِلاكَ الأمْرِ هو الإيمانُ، وأنَّ المؤمِنَ الكامِلَ مَن كان كذلك[5]، فأُظهِرَ في مقامِ الإضمارِ، اعتناءً بهم، وتشريفًا لِقَدْرِهم[6].

دلالةُ ذكْرِ البِشارةِ في الآيتيْنِ مع اختلافِ المبَشَّرِ فيهمَا:

إظهارُ مَزيّةِ أهْلِ الإيمان والاعتناءِ بشأنِهم

النّاظرُ في الآيتَيْنِ يجدُ ذِكْرَ البِشارةِ فيهما، تارةً منَ الخالقِ كما في قولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾ [التّوبة: 111]، وتارةً على لسان أكمَلِ الخلائقِ ﷺ في قولِه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وفي جَعْلِ الأُولَى مِنَ اللّهِ أعظمُ ترغيبٍ في الجهادِ، وأعلى حَثٍّ على خَوضِ غمَراتِ الجِلادِ[7]، وفي جعل الثّانيةِ على

---

(1) البقليّ، عرائس البيان: 2/48.

(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/510، طنطاويّ، الوسيط: 6/411.

(3) المظهريّ، التفسير المظهريّ: 4/305، والشّربينيّ، السّراج المنير: 1/654.

(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرحّمن، ص: 402.

(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/175، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/107.

(6) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ على الجلالين: 2/74.

(7) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/29.

لسانِ رسولِ اللّه أعظَمُ مَزيَّةٍ للمُؤمنينَ، والإشارةُ إلى أنَّ هذه المائدةَ الإيمانيّةَ لا يجلِسُ عليها إلا الرَّاسخُون في الإيمانِ الّذين تحقّقتْ فيهمُ الصّفاتُ السّابقةُ.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العبادةُ والطَّاعةُ:

الطَّاعَةُ مطلَقُ الامتثالِ، والعبادةُ حقُّ الله وحدَه

الطَّاعَةُ هِيَ الفِعْلُ الوَاقِعُ عَلى حَسَبِ مَا أَرَادَهُ المُرِيدُ مَتى كَانَ المُرِيدُ أَعلَى رُتبَةً مِمَّنْ يَفعَلُ ذَلك وَتَكُونُ لِلْخالِقِ والمَخْلوقِ[1]، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النّساء: 59]، والعِبَادَةُ هِيَ تَعْظِيمُ اللّهِ تَعالَى بأَمْرِه، بِشَرْطِ النِّيَّةِ ومَعْرِفَةِ المَعْبودِ ولا تكونُ إلَّا لِلْخالِقِ، قال تَعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذّاريات: 56]، فالعِبادَةُ حَقُّ اللّهِ وَحْدَهُ، أَمَّا الطَّاعَةُ فَهِيَ مُطْلَقُ امْتِثَالِ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ فالطَّاعَةُ أَمْرُها واسِعٌ[2].

الحِفْظُ والرِّعايَةُ:

الرِّعايةُ فِعْلُ أسبابِ الحِفْظ وهي سابقةٌ له

الحِفْظُ صَرْفُ المكارِه عنِ الشَّيءِ لِئلّا يَهْلَكَ، والرِّعايةُ فِعْلُ السَّببِ الّذي يَصرفُ المكارِهَ عنه، فالرِّعايةُ سابقةٌ للحفْظِ، ومن ثَمَّ يُقالُ: فلانٌ يرعَى العهودَ بينه وبين فلانٍ، أي: يحفظُ الأسبابَ الّتي تبقَى معها تلك العهودُ، ومنه: راعِي المواشِي؛ لتفقُّدِه أمُورَها ونفْيِ الأسبابِ الّتي يُخشَى عليها الضَّياعُ منها، فكلُّ حافظٍ راعٍ، فالحفْظُ أعمُّ والرِّعايةُ أسبقُ[3]، وقد يُطلقُ كلٌّ منهما على الآخر في حقِّ اللّه، فيُقالُ: في رعاية اللّه تعالى؛ أي: في حفْظِه[4].

---

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 221.
(2) زكريَّا الأنصاريّ، الحدود الأنيقة، ص: 77.
(3) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 205.
(4) الحميريُّ، شمس العلوم: 04/2547.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ١١٣﴾ [التَّوبة: 113]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيان وُجوب البراءة من أموات المُشركين مهما كانت قرابتُهُم

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى مِن أوَّلِ هذه السُّورةِ إلى هذا المَوضِع وُجوبَ إظهارِ البَراءةِ عن الكُفَّار والمُنافِقينَ مِن جَميعِ الوُجوهِ، بَيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّه تجِبُ البراءةُ عن أمواتِهم، وإن كانوا في غايةِ القُربِ مِنَ الإنسانِ كالأبِ والأمِّ، كما أوجبَتِ البراءةَ عن أحيائِهم، والمقصودُ منه بيانُ وجوبِ مُقاطَعتِهم على أقصى الغاياتِ، والمنعِ مِن مُواصَلتِهم بسببٍ مِنَ الأسبابِ[1].

وأيضًا لَمَّا كَثُرَت في هذه السُّورةِ الأوامِرُ بالبراءةِ مِن أحياءِ المُشركينَ، وجاء الأمرُ أيضًا بالبراءةِ من أمواتِ المُنافِقينَ بالنَّهْيِ عنِ الدُّعاءِ لهم، جاءت هذه الآيةُ مُشيرةً إلى البراءةِ مِن كُلِّ مُشرِكٍ، فوقَعَ التَّصريحُ بعدها بما أشارَتْ إليه[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قُرْبَىٰ﴾: أي: ولو كانُوا مِن أقارِبِهم[3]، وأصلُ قَرُبَ يَدُلُّ على خلافِ البُعْدِ، يُقالُ: قَرُبَ يَقْرُبُ قُرْبًا، وفلان ذو قَرابَتي، وهو مَنْ يَقْرُبُ منك رَحِمًا، وفلانٌ قريبي، وذو قرابتي كذلك، والقُرْبَةُ والقُرْبَى: القَرابَةُ[4].

2) ﴿ٱلْجَحِيمِ﴾: اسمٌ من أسماءِ النَّارِ، وأصلُ الجحيمِ الحرارةُ

(1) الفخر الرَّازي، مفاتيح الغيب: 16/157.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/29.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/19، ومحمد رضا، تفسير المنار: 11/46، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/45.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قرب).

وشدَّتُها، وجَحَمَتُ النَّارَ: أضرمْتُها، وزِدْتُ في توقُّدِها، والجاحِمُ: المكانُ الشَّديدُ الحرِّ[1]، والجحيمُ: شِدَّةُ تَوَقُّدِ النَّارِ وإضرَامِها[2]، ويُقالُ لكُلِّ نارٍ عظيمةٍ في مَهواةٍ حجيمًا[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

النَّهيُ عنِ الدُّعاءِ لـلـمُـشـركـين والاسـتـغـفـارِ لهم بعدَ ثُبوتِ مـوتِـهـم عـلَى الكُفْرِ

لا ينبغِي للنَّبيِّ ولا ينبغِي للمُؤمنين أن يدعُوا بالمغفرةِ للمشركين، ولو كانُوا أقربَ النَّاسِ إليهم مِن بعْدِ ما ماتُوا على شِرْكِهِمْ باللهِ وعبادةِ الأوثان، واتَّضحَ لهم أنَّهم من أصحابِ النَّار، لموتِهم على الشِّركِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النِّساء: 48].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتةُ الفصْلِ: ﴿مَا كَانَ﴾:

منعُ الاستغفارِ لـلـمُـشـركـين بعدَ اليَأْسِ من إيمَانِهم نسخًا للتَّخْييرِ السَّابقِ بالاستغفارِ لهم

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾، لأنّه استئنافٌ نُسِخَ به التَّخييرُ الواقعُ في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ [التَّوبة: 80]، لأنَّ الآيةَ تدلُّ علَى التّسويّةِ بين أن يَستغفرَ النَّبيُّ ﷺ لهم وبين أن لا يَستغفرَ، فأرادَ اللهُ نسْخَ ذلك بعد أن درَجَ في تلقِّيه على عادةِ التَّشريعِ في غالبِ الأحوالِ[4]، ويمكنُ أن لا يكونَ هناك نَسْخٌ، وتُحملُ كلُّ آيةٍ على معنى لا يتعارضُ مع أختِها، فالآيةُ هنا تنهَى عنِ الاستغفارِ لهم، وتلك تبيِّنُ أنّ استغفارَه لهم لو كانَ، فإنّه يتساوَى مع عدمِه، فالأمرُ في قولِه: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ [التَّوبة: 80] هو للتّسويّةِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالنّفي في الآيَة:

الاسْـتـبْـعـادُ المُقْتضِي للتَّأْنيبِ

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾،

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جحم).
(2) السَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحفّاظ: (جحم).
(3) جَبَل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (جحم).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/43.

وهذا التّركيبُ البلاغِيُّ يَدلُّ على استبعادِ أن يكونَ منَ النَّبيّ والمؤمنين استغفارٌ وترحّمٌ للمُشركين، ولو كانُوا من أهلِيهم وذوِي قرابتهم، إذا تبيّنَ لهم أنّهم من أهلِ الكُفرِ والضّلالِ، فالمشركون أعداءٌ للّه، والمؤمنون أولياءٌ للّه، ولن تجتمعَ الوَلايةُ للّه، والولايةُ لأعداءِ اللّه، واللّه ﷻ يقولُ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ﴾ [المجادلة: 22][1].

سِرُّ اختيارِ التّعبيرِ: ﴿مَا كَانَ﴾:

المبالغةُ في نفْيِ وقوعِ الاستغفارِ منَ النّبيّ للمُشركِين

آثَرَ التَّعبيرَ بقولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ﴾، لأنّه يأتي في القرآنِ على وجْهَيْنِ:

الأول: بمعنى النّفْيِ نحو: ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾ [النّمل: 60].

الثّاني: بمعنى النّهيِ، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: 53].

والمرادُ هنا المبالغةُ في نفْيِ وقوعِ الاستغفارِ منَ النّبيّ ﷺ والمؤمنين للمُشركين، وأصلُ هذا التّركيبِ في الكلامِ أنّه في نفْيِ الأفعال، فلمّا أُريدتِ المبالغةُ في النّفْيِ عُدلَ عن نفْيِ الفعْلِ إلى نفْيِ المصدرِ الدّالِّ على الجنْسِ وصارَ معناه: ما كان له أن يفعَلَ، ويقالُ أيضًا: ليس له أن يفعلَ[2].

وعلى هذا يكونُ هذا التَّعبيرُ أبلغَ من قولِهم: ما جازَ للنّبيِّ والّذين آمنوا أن يَستغفرُوا لكونِه نفيًا للشّأنِ الّذي هو أبلغُ من نفْيِ الفعْلِ، لأنّه نفْيٌ مُتعلّقٌ بالسّببِ المُقتضِي له، وفيه إشارةٌ إلى لُطفِ التَّعبيرِ في توجيهِ النّبيّ ﷺ والمؤمنين.

دلالةُ البدْءِ بالنَّهيِ للنّبيّ ﷺ:

النّهْيُ للنَّبيّ ﷺ عن فعْلِ شيءٍ هو نهيٌ لغيره ضمْنًا

بدأَ القُرآنُ الكريمُ في إيرادِ النّهْيِ للنّبيّ ﷺ بعدمِ الاستغفارِ

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 6/904.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/294 - 298.

للمشركين بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾، وإذا وُجِّه النَّهْيُ إلى النّبيِّ فيكونُ من بابٍ أَولَى للمؤمنين، لأنّه ليس لهم الحقُّ في ذلك، لأنّ اللّه لو أرادَ أن يُكرِمَ أحدَ الآباءِ ممّن أشركُوا لأجْلِ أحدٍ لأكرمَ آباءَ النّبيِّ ﷺ إن كانُوا غيرَ مؤمنين(1).

دلالةُ الواوِ في قولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

النّبوّةُ والإيمانُ مانِعانِ منَ الاستغفارِ للمُشركين

دلّتِ الواوُ على العلّةِ الجامعةِ لمنعِ الاستغفارِ للمُشركين الّذين ماتُوا على شِركهم(2) من ناحيتَيْن: الأُولَى: أنَّ النُّبوَّة والإيمانَ يمنعان منَ الاستغفارِ للمُشركين، وذلك من خلالِ الجمْعِ بينَهما بالواو في قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ والثَّانيّةُ: عدمُ الاستغفار على أنّ المعنى: ليس لهم أن يستغفرُوا، والأمرانِ مُتقاربانِ.

معنى: ﴿مَا﴾، ودلالةُ دُخولِها على: ﴿كَانَ﴾:

المبالغةُ في التّنزُّه عن هذا الاستغفارِ

جاءت صِيغةُ النَّهيِ بطريق نفْيِ الكون مع لام الجُحُود مبالغةً في التَّنزُّه عن هذا الاستغفار، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ [المائدة: 116](3)، وهذا التعبيرُ نفيٌ بمعنى النَّهيِ، ويُسمَّى (نفيَ الشَّأنِ)، وهو أبلغُ في نفْيِ الشَّيءِ نَفسِه، لأنَّه نَفيٌ مُعَلَّلٌ بالسَّبَب المُقتَضِي له(4).

نُكتةُ تقديمِ خبرِ ﴿كَانَ﴾ على اسمِها:

التّنبيهُ على أنّ النُّبوَّةَ والإيمان يمنعانِ منَ الاستغفارِ للمُشركين

قولُه تعالى: ﴿لِلنَّبِيِّ﴾ خبرُ ﴿كَانَ﴾ مقدَّمٌ، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ عَطْفٌ على النَّبيّ، و(أنْ) وما في حيّزِها اسمُ كان مُؤَخَّرٌ(5)، وقُدِّم ذِكْرُ النَّبيِّ والمؤمنين على ذِكرِ الاستغفار تقديمًا لِذكْرِ الذَّوات قبل الأفعالِ وتنبيهًا على أنَّ النُّبوَّةَ والإيمانَ يمنعان منَ الاستغفار للمُشركين(6)،

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ، ص: 5526.
(2) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 3/90.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/44.
(4) محمد رضا، تفسير المنار: 11/46.
(5) درويش، إعراب القرآن: 4/183.
(6) الفخر الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/157.

فنبّه على الوصفِ الشّريف منَ النّبوّةِ والإيمانِ، وأنّه مُنافٍ للاستغفار لِمَنْ مات على ضدّه وهو الشّركُ باللّه[1].

دلالةُ العطْفِ في: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

عُطِف قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ على ﴿لِلنَّبِيِّ﴾ لمنْعِ المؤمنين أن يَستغفرُوا للمشركين، لأنّ المؤمنين لمّا سمعُوا تخْيِيرَ النَّبيّ ﷺ في الاستغفارِ للمشركين في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ [التَّوۡبَة: 80] ذهبوا يَستغفرون لأهلِيهم وأصحابِهم منَ المشركين طمعًا في إيصالِ النَّفعِ إليهم في الآخرةِ، فأصبحَ ذلك ذريعةً إلى اعتقادِ مُساواةِ المشركين للمؤمنين في المغفرةِ فينتفِي التَّفاضلُ الباعثُ على الرَّغبةِ في الإيمان، فنهى اللّه النَّبيَّ ﷺ والمؤمنين معًا عنِ الاستغفار للمشركين بعد أن رخصَّهُ للنَّبيّ ﷺ خاصّةً[2]، وسببُ المنعِ ظاهرٌ من قولِه تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾[3].

النّهيُ عنِ الاستغفار للمشركين عامّ لجميع المؤمنين لا رُخصةَ فيه

سِرُّ التّعبيرِ بالنّبوّة: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بالنّبوّة دونَ الرّسالة، لأنَّ مادّةَ النّبوّةِ تدلُّ على الارتفاع للشّيءِ عن غيرِه، والنّبيُّ مرتفعٌ عنِ الخلْقِ باصطفاءِ اللّه له، فلفظةُ النّبيّ تدلُّ على شرفِه، لأنّه مُنبّأٌ منَ اللّه ومُنَبِّئٌ عنه، ولمَّا كان المقامُ فيه ملاطفةٌ للنّبيّ ﷺ باستغفاره للمشركين، رُفِعَ توهُّمُ وجودِ خاطرٍ في القلبِ منَ الانتقاص من حقِّه ﷺ، فكانت لفظةُ النّبيّ الّتي تُدلِّلُ على علُوّ قدرِه ﷺ.

مقامُ النّبوّةِ في رِفْعَةٍ وعُلُوٍّ ويأتي وصفُ النّبوّةِ في مقامِ الائتسَاءِ

سِرُّ التّعبيرِ باسمِ الموصول وصِلتِه ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

آثرَ التّعبيرَ باسم الموصولِ وصِلته، للإشارةِ إلى أنّ مضمونَ هذه الصّلةِ ممّا اشتهرَ بين النَّاس حتى صارت كأنّها عَلَمِيَّةٌ عليهم، وللدّلالةِ على رُسوخِ الإيمان في قلوبِهم، فما أن يدعُوهم ربُّهم إلى

الشّأنُ في المؤمنِ المسارعةُ إلى تنفيذِ ما أمرَ الله به

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/512.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 11/43.
(3) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 11/60.

أمرٍ إلا وسارعُوا بالإيمان والتّصديق والتّطبيق، ولمَّا كان المقامُ هنا في منْعِهم منَ الاستغفار للمشركين، كان التّعبيرُ بالموصول وصِلتِه هو الأوفقُ في سياق الآية.

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسم: ﴿لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ دون الفعل:

بيان رُسوخِهم في الشِّرك واسْتِمرارِهم عليه

آثَرَ التّعبيرَ بالاسم ﴿لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ دون الفعل (أَشرَكُوا)، للدّلالة على أنّهم راسخون في الإشراك في عبادة ربّهم[1] حتى ماتُوا عليه، بخلافِ الفعلِ (أَشْرَكوا) فيَحملُ معنى التّجدُّدِ في وقوعِ الشِّرك منهم، لكنّه لا يدلُّ على موتِهم عليه، بدليلِ أنَّ بعضَ المشركين بل كثيرًا منهم من أهلِ مكّةَ أسلمُوا ودخلُوا في دين اللّه أفواجًا.

وفيه إشارةٌ إلى إخراج الأحياء، فيجوزُ الدّعاءُ لهم بالهدايةِ، ويكونُ سياقُ الآية فيمَنْ ماتَ على الشِّركِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالاستغفارِ دونَ غيرِه: ﴿أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ﴾:

لفظ الاستغفار عامٌّ، فتدخل تحته ألفاظ كثيرة

آثَرَ التَّعبيرَ بالاستغفار دُون غيرِه، لتعدُّد معانيه، فالأصلُ أنّه يُستعملُ في طلبِ المغفرةِ منَ الشّركِ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ [هود: 90]، ويأتي بمعنى الدّعاءِ بقولِهم: (اللهم اغفر لهم)، ويُطلقُ على الصّلاةِ كما في قولِه تعالى: ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ [آل عمران: 17] يعني: المصلّينَ، ويأتي بمعنى الاستغفارِ على حقيقته من طلبِ المغفرةِ بالمقالِ والفعالِ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ﴾ [يوسف: 29]، وأغلبُ هذه المعاني مرادٌ في سياقِ الآية، لأنّهم كانوا يَستغفرون لمَنْ مات ويدعُون لهم بالمغفرة، ونُهُوا عن ذلك.

سِرُّ التَّعبيرِ بالمصدرِ المؤوَّلِ ﴿أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ﴾:

حرصُ المؤمنين على الاستغفار لأقاربهم منَ المشركين حتّى ورد النّهيُ عن ذلك

آثَرَ التَّعبيرَ بالمصدرِ المؤوّلِ المكوَّنِ من (أن) والفعْلِ ﴿أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ﴾ دونَ المصدرِ الصّريحِ (استغفار) للدّلالةِ على

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/30.

ملاحظةِ الزَّمنِ، فكأنّهم يحرصُون على هذا الاستغفارِ وأنّه يتجدّد وقوعُه منهم.

دلالةُ اللّامِ: ﴿لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾:

أثرُ الشّركِ وشُؤمُه على المشركين

دلّتِ اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ على اختصاصِهم بهذا النّهيِ الواردِ في قولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ﴾ لأجلِ المشركين، ويُفهمُ من ذلك أنَّ مانعَ الاستغفارِ للمشركين هو شِركُهُم.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ(المشركين):

لفظةُ الشِّركِ هيَ الأنسبُ لسياقِ الآياتِ

آثرَ التَّعبيرَ بـ(المشركين) دونَ (الكافرين)، لوجودِ فرْقٍ بينهما، فالكافرُ هو الَّذي يَجحدُ الوحدانيّةَ أوِ النّبوّةَ أوِ الشّريعةَ أو ثلاثتَها، ويُطلقُ وصفًا لمَنْ لا إيمانَ له، فإنْ أظهرَ الإيمانَ وأبطنَ الكفرَ فهو المنافقُ، وإنْ كفرَ بعْدَ إيمانٍ فهُو المرتدُّ، أمّا المشركُ فهو مَنْ أثبتَ شريكًا للّه في عبادتِه أو سوَّى بين الخالقِ والمخلوقِ أو مَنْ جعلَ للّه أندادًا، وعلى هذا فاختيارُ لفْظِ المشركين هو المناسبُ لسياقِ الآيةِ، لأنّها تتحدّثُ عن مُشركِي مكّةَ الّذين لهم قرابةٌ برسولِ اللّه ﷺ وببعضِ المؤمنين[1].

معنى الواوِ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾:

التّشديدُ في النّهيِ عنِ الاستغفارِ للمُشركين على أيِّ حالٍ كانُوا

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ﴾ حاليَّةٌ، والمعنى: ولو في حال كونِهم أُولي قُربى، وقولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ﴾ جملةٌ معطوفةٌ على حالٍ مقدَّرةٍ[2]، فَتَضَمَّنتِ الآيةُ النَّهيَ عنِ الاستغفارِ لهم على أيِّ حالٍ كانُوا[3].

فائدةُ الخبرِ: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾:

بَيَّن الخبرُ في هذه الآيةِ أنَّه تجبُ البراءةُ عن أمواتِهم، وإن كانُوا

(1) الرّاغب، المفردات: (كفر).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/107.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/512.

في غايةِ القُربِ منَ الإنسان كالأب والأمّ، والمقصودُ منه بيانُ وجوبِ البراءةِ منهم على أقصَى الغاياتِ[1].

المبالغةُ في البراءَةِ منَ المشركين على أقصَى الغايات

سِرُّ التَّعبيرِ بـ: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾ معَ دُخولِهم في لفظِ (المشركين):

جاء التّعبيرُ بقولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾ مع اندراجِهم في لفظ (المشركين) للمبالغةِ في إظهار البراءةِ منَ المشركين والكافرين والمنعِ منَ التّواصلِ معهم ولو كانُوا في غايةِ القُربِ، وفي هذا دليلٌ على أنَّ الآيةَ بيانٌ لاستقصاء أقربِ الأحوالِ إلى المعذرة، كما هو مُفادُ (لو)، أي: فأَولى إن لم يكونُوا أُولي قربى، وهذه المبالغةُ لقطعِ المعذرةِ عنِ المخالفِ، وتمهيدًا لتعليم مَنِ اغترَّ بما حكاه القرآنُ من استغفار إبراهيمَ عليه السلام لأبيه في نحو قولِه تعالى: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشُّعراء: 86]، ولذلك عقبَه بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾.

لا قيمةَ ولا اعتبارَ للقرابةِ المشركةِ بالله والمُعاديةِ لدينِه

معنى (لو) وفائِدتُها في الكلامِ:

(لو) تأتِي لاستقْصاءِ ما لولاهَا لم يكُنْ ليَدخُلَ فيما قبْلَها ما بعْدَها، ودَّلتْ هنا على المبالغةِ في إظهار البراءةِ عنِ المشركِينَ والمنافقِينَ والمنْعِ من مُواصلتِهم ولو كانُوا في غايةِ القُرْبِ[2].

المبالغةُ في إظهارِ البراءةِ عنِ المشركين والمنافقِين

فـ(لو) هذه تفيدُ الغايةَ لمعطوفٍ عليه يُحذَفُ حذفًا مُطّردًا للعلْمِ به، والمرادُ أنَّه ليس ممَّا تُبيحُه النُّبوَّةُ ولا الايمانُ ولا ممَّا يَصِحُّ وقوعُه من أهلِهما: الاستغفارُ للمُشركين في حالٍ منَ الأحوالِ[3].

فائدةُ دُخول (كان) في: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾:

شُمولُ المنْعِ منَ الاستغفارِ لجميعِ المشركين مهمَا كانتِ الصّلةُ بينَهم

لَمَّا كان أولُو القُربى لهم في الأصل حَقُّ البرِّ وصِلةِ الرَّحم، وكانت عاطفةُ القرابةِ تقتضِي الغيرةَ عليهم وحبَّ المغفرةِ لهم، ناسبَ ذِكْرُ

(1) الفخر الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/157.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/512.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 11/56.

هذا الكوْنِ لاستقصاءِ أحوالِ الموصُوفِين حتَّى لو كانوا أُولي قُربى، فإن لم يكونوا كذلك فعدمُ جوازِه أَوْلَى[1].

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ هذه القرابةَ مُتأصّلةٌ ومُتحقّقةٌ، لأنَّ لفظَ (كان) يدلُّ على تحقُّقِ الفعْلِ في الزّمن الماضِي ولتَمييزِها عن القراباتِ المجتمعيّةِ النّاتجةِ عن أسبابٍ فرعيّةٍ كقرابةِ المُصاهرةِ والتَّحالفِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿أُوْلِي﴾:

شدّة المصاحبةِ والاتّصالِ والتَّخصيص

آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿أُوْلِي﴾ دون (ذو) لوجودِ فرْقٍ بينَهما، فلفظُ ﴿أُوْلِي﴾ يدلّ على شِدَّةِ المُصاحَبةِ ولا تُستعملُ إلا في ما كان مُتعلّقُها مُتّصلًا جُزءًا أو عُضوًا أو صفةً أو حالةً أو عملًا لازمًا أو شأنًا من شُؤون الشَّخصِ أو مثلَها، وتُستعملُ في المعاني المحسوسةِ نحو ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي﴾ [ص: 45]، ﴿أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾، والمعاني المعقولةِ نحو: (أولي العلم) و(أولي النُّهَى)، أمّا كلمةُ (ذو) فتأتي على وجهيْن: أحدُهما يُتوصّلُ به إلى الوصْفِ بأسماءِ الأجناسِ والأنواعِ، ويُضافُ إلى الظّاهرِ دون المُضمَرِ ويُثنّى ويُجمعُ ولا يُستعملُ شيءٌ منها إلّا مُضافًا، قال تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 251]، ونحو: ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [البقرة: 83]، والثّاني في لفظِ (ذو) لغةُ لطَيِّئ يستعملونَه استعمالَ (الّذي)، ويُجعل في الرّفعِ والنّصبِ والجرِّ والجمعِ والتّأنيثِ على لفظٍ واحدٍ[2].

وبناءً على هذا المعنى اللّغويِّ لكلٍّ منهما نجدُ أنّ ﴿أُوْلِي﴾ تدلُّ على شدّةِ المصاحبةِ والاتّصالِ، بخلافِ كلمةِ (ذو) فإنّها أعمُّ استعمالاً، يُقالُ: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [غافر: 15]، ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ [الرّحمن: 12]، ﴿ذِى زَرْعٍ﴾ [إبراهيم: 37]، لذلك آثرَ القرآنُ استعمالَ لفظِ ﴿أُوْلِي﴾ في

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 11/56.
(2) الرّاغب، المفردات: (ذو).

قوله: ﴿أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾، لأنّها تدلُّ على مَنْ هم في المرتبةِ الكاملةِ الثّابتةِ مِنَ القرابةِ، ولا تعمُّ مطلقَ القرابةِ، بخلافِ (ذو) في قولِه تعالى: ﴿ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، فإنّها تدلُّ على عمومِ القرابةِ فهي أعمُّ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالضّميرِ عنِ المشركين:

لا قيمةَ للإنسان أن يُذْكَرَ ولا يُنْكَرَ إلّا بالإيمان

عبّرَ بالضّميرِ لِسَبْقِ ذكْرِ الاسم المُظهَرِ في قولِه تعالى: ﴿لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾، وفيه إشارةٌ للدّلالةِ على أنّهم ليسُوا أهلاً للذّكْرِ بسببِ شِركِهم، إذْ قيمةُ الإنسانِ في إيمانِه باللّه وعُبوديّتِه لخالقِه.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾:

بيانُ العِلَّةِ المانعةِ من هذا الاستغفارِ

دلَّ التَّعبيرُ بقولِه تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ على أنَّ النَّهيَ عنِ الاستغفار للمُشركين إنَّما هو من بعدِ التّحقّقِ أنَّهم ماتُوا على الشِّركِ، وأنَّهم أصبحُوا في أصحاب النَّارِ، وهؤلاءِ هم الّذين بلغتْهُمُ الدَّعوةُ[1]، أي أنَّ العلَّةَ المانعةَ من هذا الاستغفارِ هو تَبَيُّنُ كونِهم من أصحابِ النَّارِ، وهذه العِلّةُ لا تُفرِّقُ بين الأقاربِ والأباعدِ[2].

دلالةُ تقييدِ النَّهيِ بالتَّبيُّن: ﴿مِنۢ بَعۡدِمَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ﴾:

الإشارةُ إلى جوازِ الدُّعاءِ للحَيِّ ما لم يمُتْ على الشِّركِ

تقييدُ النَّهيِ بالتَّبيينِ يدلُّ على جوازِ الدُّعاءِ للحيِّ، فإنَّ القَصْدَ بالاستغفارِ الإقبالُ به إلى الإيمانِ المُوجِبِ للغُفرانِ[3]، لأنَّ ذلك صريحٌ في أنَّه بعدَ الموتِ[4]، وفيه دليلٌ على جوازِ الاستغفارِ لأحيائِهم، فإنَّه طَلَبُ توفيقِهم[5].

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿مَا﴾:

مَنْ ماتَ ولمْ يُؤمِنْ فقدْ تحقَّقَ موتُه علَى الشِّركِ

آثرَ التّعبيرَ بـ ﴿مَا﴾ المصدريَّة، للدّلالةِ على أنَّ أمْرَ البيانِ على موتِهم على الشّركِ ظاهرٌ وواضحٌ، والتّقديرُ: من بعدِ بيانٍ وظهورِ أنّهم ماتُوا على شِركِهم.

---

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 6/904.

(2) القنوجي، نيل المرام من تفسير آيات الأحكام، ص: 347، والزُّحيلي، التَّفسير المنير: 11/60.

(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرَر: 9/30.

(4) السُّيوطي، الإكليل في استنباط التَّنزيل، ص: 145.

(5) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 3/99.

سِرُّ التَّعبيرِ بالتبيّن: ﴿تَبَيَّنَ لَهُمۡ﴾:

آثر التّعبيرَ بالتّبيّن، لأنّ معناه العلمُ، يُقال تبيّنتُ الشّيءَ: علمْتُه، والتّبيّنُ يكونُ لما فيه إشكالٌ فيكونُ فيه تأمّلٌ ونظرٌ، وهذا هو المناسِبُ لسياقِ الآية، لأنّ أمرَ الاستغفارِ للمُشركين حدثَ فيه ما يُوجبُ التّبيينَ عن طريق الوحي، وذلك بإعلام الله رسولَه ﷺ بالنّهي عنِ الاستغفار، بخلافِ التّثبّتِ فإنّه يأتي في أمرِ الأحداثِ، فالعربُ تقول: تثبّتْ في أمرِكَ(1).

التبيّنُ يحتاجُ إلى تأمُّلٍ ونَظَرٍ، لأنّ المقام خطير

سِرُّ التّعبيرِ بالماضِي ﴿تَبَيَّنَ﴾:

عبّرَ بالماضِي للدّلالةِ على تحقُّقِ وجوهِ البيانِ، وذلك من خلالِ هذه الآيةِ الّتي بيّنتْ منعَ الاستغفارِ، ومن وصْفِه لهم بأنّهم أصحابُ الجحيم، وأيضًا من قولِه ﷺ قبل ذلك في سورة النّساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النّساء: 48].

تحقّقُ مصيرِ المشركين إلى النّارِ فلا عُذْرَ لِمَنْ يَستغفِرُ لهم

سِرُّ التَّعبيرِ بضميرِ الجمْعِ (هم): ﴿لَهُمۡ﴾:

عبَّر بضميرِ الجمْعِ في قولِه تعالى: ﴿لَهُمۡ﴾، للدّلالةِ على أنَّ المرادَ الرّسولُ ﷺ وأصحابُه الكرامُ في هذا النّهي بعدم الاستغفارِ للمشركين، لأنّه كما تروي كتبُ السّنّةِ أنّ الرّسولَ ﷺ قال لعمّه أبي طالب عندما حضره الموتُ وطلبَ منه إعلانَ الشّهادةِ ولم يقُلْها: (لأستغفرنّ لك ما لم أُنْهَ عنك)، وأيضًا أنَّ بعضَ المؤمنين كان يستغفرُ لأبوَيْه المشركَيْن وتعلَّل باستغفارِ إبراهيمَ لأبيه، فنزلتِ الآيةُ بالمنْعِ بعد ذلك(2).

خطابُ النّهيِ عنِ الاستغفارِ للمُشركين عامٌّ يشملُ النّبيَّ ﷺ وأمّتَه

سِرُّ حذْفِ متعلّقِ البيانِ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ﴾:

حُذفَ مُتعلّقُ البيان لتعدُّدِ صُوَرِه، إمّا أن يكونَ عن طريقِ الوحيِ بأن نَزَلَ قرآنٌ يُسَجِّلُ عليهم ذلك كإخبَارِه تعالى عن أُناسٍ

تظافرُ الأدّلةِ على مصيرِ المشركين إلى الجحيمِ

---

(1) الشيرازي، الموضح في وجوه القراءات وعللها
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/157.

منَ الجاحِدين المعانِدين من أصحابِ النَّارِ خالدِين فيها، أو أنَّهم طُبِعَ على قلوبِهم أو خُتِمَ عليها[1]، أو من خلالِ بيانِ حالِهم الّتي ماتُوا عليها باستصْحابِ حالةِ الكُفرِ إلى الموتِ، فالنَّهيُ حاصلٌ بسببِ موتِهم على الكُفرِ، وإصرارِهم عليه، وعدمِ اعترافِهم بدينِ الإسلامِ[2]، وظهورِ ذلك لدَى المؤمنين.

دلالةُ التَّأكيدِ: ﴿أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾:

استحقَّ المشركون نارَ جهنّمَ جزاءً بما قدّمتْ أيدِيهم

دلَّ التّأكيدُ على أنّ المشركين استحقُّوا هذا العذابَ لِما فعلُوا من إذايةٍ للمسلمين ومن عنادٍ للحقِّ ومقاومةٍ له حتى ماتُوا على ذلك وهمْ للحقِّ كارهُون.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾:

بيانُ شِدَّةِ الملازمةِ لها وعدمِ مُفارقتِهم إيَّاها

عبّرَ بالأصحابِ في قولِه تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ للدّلالةِ على أنّهم مُلازمُوهَا ومُلابسُوها بحيث لا يُفارقونَها حسبَ ملازمَتِهم في الدُّنيَا لما يَسْتَوْجِبُها منَ الأسبابِ[3]، فعبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن هذه المُلازمةِ بالصُّحبةِ بطريقِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، ومعنى الصُّحبةِ في الأصلِ: الاقترانُ بالشَّيءِ، والغالبُ في العُرْفِ أن تُطلقَ على الملازَمةِ، ففي الصُّحبةِ معنى الوصْلَةِ فسُمُّوا أصحابَها لاتِّصالِهم بها وبقائِهم فيها، فكأنّهم ملكُوها فصارُوا أصحابَها[4]، لأنّ هذا التَّعبيرَ يُشعرُ بأنّهم مقصُورون عليها ومقصُورةٌ عليهم، وتدلُّ بمفهومِ المخالَفةِ على أنّهم لا أهليَّةَ لهم للجنَّةِ[5].

سِرُّ اختيارِ الجحِيمِ دونَ غيرِها من أوصَافِ النّارِ:

وصفُ النّارِ بالجحيمِ يتناسبُ مع كِبرِ المشركين وجَبرُوتِهم

آثرَ التّعبيرَ بوصْفِ الجحيمِ دونَ غيرِه من أوصَافِ النّارِ، لأنّ

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 11/56.
(2) طنطاويّ، الوسيط: 6/414.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/94.
(4) إسماعيل حقّي، روح البيان: 1/116.
(5) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/30.

الجحيمَ نارٌ على نارٍ وجمرٌ على جمرٍ، ويُطلقُ وصْفًا لكلّ نارٍ شديدةِ التّأَجُّجِ بعضِها فوق بعض، وكان هذا الوصفُ هو المناسبُ لهؤلاء المشركينَ المعانِدين الّذين ماتُوا على شِركِهم، وكانُوا قبْلَ ذلك في الدّنيَا يُحاربون الله ورسولَه، ويُؤذُون رسولَ الله وأصحابَه، فناسبَ وصفُ الجحيمِ لِما كانُوا عليه منَ الكِبْر والطّغيانِ والجبَرُوتِ.

﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤﴾ [التَّوبة: 114]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

البـــراءةُ مـنَ المشركين شرعُ الله لكلِّ الأنبياءِ والمرسَلِين

لمَّا بيّنَ ﷻ في الآية السّابقة وجوبَ الانْقطاعِ عنِ المشركين الأحياءِ والأمواتِ، بيّنَ في هذه الآية أنّ هذا الحُكمَ غيرُ مختصٍّ بدينِ محمّد ﷺ، بل وجوبُ الانقطاع مشروعٌ أيضًا في دينِ إبراهيمَ ﵇، فتكونُ المبالغةُ في تقريرِ وجوبِ المقاطعةِ أكملَ وأقوى(1).

وقد جاءت هذه الآيةُ عَقِبَ الآيةِ السّابقةِ لشدّةِ التّعلّقِ بينَهما من ناحيةِ استغفارِ النّبيِّ ﷺ لعمّه أبي طالبٍ، ولعلّه وجدَ أُسوةً في ذلك في فعلِ إبراهيمَ ﵇ لأبيه، فأخبرَه اللّه تعالى أنَّ استغفارَ إبراهيمَ لأبيه كان وعْدًا قبلَ أن يتبَيّنَ الكُفرُ منه، فلمّا تبيّنَ له منه الكُفرُ تبرّأ منه(2).

مجيئُها كان لـدفْـعِ تـوهُّـمٍ قائمٍ في النّفوسِ

وكذلك جاءتِ الآيةُ لدفعِ توهُّمٍ يردُ في خاطرِ أصحابه ﵃ أنَّه تعالى منَعَ مُحمَّدًا ﷺ من بَعضِ ما أذِنَ لإبراهيمَ فيه(3)، فقد بيَّنَ تعالى أنَّ هذا الحُكمَ - وهو إيجابُ الانقطاعِ عن الكُفَّارِ أحيائِهم وأمواتِهم - غَيرُ مُختَصٍّ بدِينِ مُحمَّدٍ ﷺ، بل المبالغةُ في تقريرِ وُجوبِ الانقطاعِ كانت مشروعةً أيضًا في دِينِ إبراهيمَ ﵇، فتكونُ المبالغةُ في تقريرِ وُجوبِ المُقاطعةِ والمُباينةِ منَ الكفَّارِ أقوَى(4).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِأَبِيهِ﴾: الأَبُ: الوَالِدُ، والأُبُو: الغُذُو، والأَبَوَان: الأَبُ والأُمُّ، ويُطلق الأب أيضًا على الجدِّ والعمّ وعَلى صَاحب الشَّيْء وعَلى مَن

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/222.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/3114.
(3) الفخر الرَّازي، مفاتيح الغيب: 16/158.
(4) الفخر الرَّازي، مفاتيح الغيب: 16/158.

كَانَ سَببًا فِي إِيجَاد شَيْء أَو ظُهُوره أَو إِصْلَاحه[1]، وَفِي التَّنْزِيل العَزِيز: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾ [يوسف: 38][2]، وأصلُه: أَبَوٌ، حُذفت لامُه والمصدرُ: الأُبوّة، وهو أحدُ المصادرِ الّتي أُخذتْ منَ الأسماء، ومثلُها: النُّبوَّة، والفُتوَّة، والأُخوَّة[3].

2) ﴿مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ﴾: العِدَة والوَعْدُ[4]، يُقال: وعدتُّ زيدًا إذا كان الوعدُ منك خاصَّة، وواعدتُّ زيدًا إذا وعدَك ووعدتَّه، وأصلُ (وعدَ) يَدُلُّ على ترجيةٍ بقولٍ، يُقال: وعدتُّه أعدُه وعْدًا[5]، والمَوْعِدُ مصدرُ وعدْتُه، ويكونُ الموعدُ وقتًا لِلعِدَة، والميعادُ: لا يكونُ إلّا وقتًا أو موضعًا، وَالوعدُ: ما يُقطعُ من عهْدٍ في الخير والشَّرّ، وهو التزامٌ باحترام عهْدٍ والتَّقيُّد به بأمانةٍ[6]، والوعدُ هُنا هو استغفارُ إبراهيمَ لأبيهِ ما دامَ حيًّا، فلمَّا مات مُشركًا تَبَرَّأَ منه[7].

3) ﴿لَأَوَّٰهٌ﴾: أي: كثيرُ التَّوجُّعِ شَفقًا وفرَقًا[8]، وهو الّذي يُكثِرُ من قولِه: آه آه[9]، فهو كلُّ كلامٍ يظهرُ منه تحزّنٌ كثيرٌ وتضرُّعٌ ودعاءٌ لله، وكلُّ كلامٍ يدلُّ على حُزنٍ يُقالُ له: تَأَوُّهٌ[10]، فالمعنى هنا: كثيرُ التَّأوّهِ من خوفِ اللهِ[11]، ويُعبّرُ بالأوّاه عمّن يُظهرُ خَشيتَه لله تعالى.

4) ﴿حَلِيمٞ﴾: أي: بَطيءُ الغضَبِ، يَصبِرُ على الأذَى، والحِلمُ: ضبطُ النَّفْسِ والطَّبعِ عن هيجانِ الغضبِ، وجَمْعُهُ: أحلام، وهو خلافُ الطَّيْشِ، يُقال: حَلُمْتُ عنه أحلُمُ، فأنا حليمٌ، وأصلُ (حلُمَ): يدلُّ على تَرْكِ العَجَلةِ، وهو أيضًا الأناةُ والسُّكونُ مَعَ القُدرةِ والقُوَّةِ[12].

۞ المَعْنى الإجماليُّ:

بيّن الله تعالى في هذه الآية أنَّ طَلَبَ إبراهيمَ المغفرةَ لأبيه بقولِه: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ

(1) السَّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفَّاظ: (أبو).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (أبي).
(3) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (أبو).
(4) الحميريُّ، شمس العلوم: 11/7217، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (وعد).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وعد).
(6) ابن منظور، لسان العرب، ومُرتضى الزَّبيدي، تاج العروس: (وعد)، وابن القوطيَّة، كتاب الأفعال، ص: 156.
(7) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/274.
(8) سلمة الصُّحاريُّ، الإبانة في اللُّغة العربيَّة: 2/134.
(9) السَّمين، عمدة الحُفَّاظ: (أوه).
(10) الرّاغب، المفردات: (أوه)، وابن جرير، جامع البيان: 12/34، والسِّجستاني، غريب القرآن، ص: 62.
(11) النَّيسابوريُّ، إيجاز البيان: 1/418.
(12) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حلم)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 18، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/276، والكفويُّ، الكليَّات، ص: 404.

براءةُ إبراهيمَ ﵇ مِـنَ الاستغفار لأبيهِ بعد ثُبُوتِ مَوتِه علَى الشِّرك

﴿كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ بمعنى: وفِّقْه للإسلام؛ ما كان إلا بَسَبِبِ وَعْدِهِ إيَّاه كما في قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾ [مريم: 47]، فلمَّا اتَّضحَ لإبراهيمَ أنَّ أباه عدوٌّ للّه بإصرارِه على الشِّرك حتّى مات عليه، تَرَكَهُ وترك الاستغفارَ له، مع أنَّ إبراهيمَ ﵇ كثيرُ التَّضرّعِ إلى اللّه، كثيرُ الصَّفحِ والتَّجاوُزِ عمَّا يصدرُ مِن قومِه منَ الزَّلات[1]، ومع ذلك منعَه اللّه منَ الاستغفار لأبيه الكافرِ، فمنعُ غيرِه أولَى.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

دلالةُ الواو في: ﴿وَمَا كَانَ﴾:

بـيـانُ عُـذْرِ إبراهيمَ ﵇ في الاستغفارِ لأبيه

الواوُ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ استئنافيّةٌ مَسوقةٌ لتقريرِ ما سبقَ ودفْعِ ما يتراءَى بحسبِ الظّاهرِ منَ المخالفة، وذلك لأنَّ قولَه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ جملةٌ مُستأنفةٌ استئنافًا نحويًّا لبيان أنّ استغفارَ إبراهيمَ لأبيه كان له ظرفُه الخاصُّ، وإلّا فإنّه لا يجوزُ الاستغفارُ للمُشركين عُمومًا.

سِرُّ التّعبيرِ بالمصدرِ ﴿ٱسۡتِغۡفَارُ﴾:

بـيـانُ حـرْصِ إبـراهـيـمَ على الاستغفارِ لأبيه ورجائِه أن يموتَ على الإيمانِ

آثرَ التَّعبيرَ بالاستغفار بصِيغةِ المصدرِ، للدّلالةِ من ناحيةٍ على دوامِ استغفارِ إبراهيمَ لأبيهِ، وأنّه كان حريصًا على هدايته، بخلافِ التَّعبيرِ بالفعل (أستغفرُ) كما ورد في مواطنَ أخرى، فإنّه يدلُّ على تجدُّدِ دعوةِ إبراهيمَ لأبيه للتّوحيدِ، وكلّما رفضَ جدّدَ إبراهيمُ ﵇ الاستغفارَ لأبيه، أمّا هنا فهو ليس حديثًا عن تجدُّدِ الفعْلِ، بل هو وصفٌ للحالةِ الّتي كان عليها إبراهيمُ في علاقته بأبيه، ومن ناحيةٍ أخرَى فإنّ الإتيانَ بالمصدرِ في معرِضِ النّهي يدلُّ على شدّةِ تحريمِ الاستغفارِ للمشركين، وأنّه لا يجوزُ أن يكونَ جنسُ هذا الاستغفار واردًا بحقّهم.

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآن الكريم، ص: 280، ونُخبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير الْمُيَسَّر، ص: 205، وجماعةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 205.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ: ﴿لِأَبِيهِ﴾:

تَـعـدّدُ المعاني في لفظِ (الأبوّة) دونَ الوالد

تعدّدتْ أقوالُ العلماءِ في المرادِ منَ الأب، هل هو والدُ إبراهيمَ المباشرُ أمْ عمُّه، على قولَيْن مشهورَيْن لأهل العلم، ولكلٍّ دليلُه، فالأبُ يُطلقُ على الوالدِ المباشرِ ويُطلقُ على الجَدِّ أو العمِّ، وممّا يؤكّدُ ذلك أنّه أُطْلِقَ في القُرآن على الجدِّ وإن علا كقولِ يوسفَ عليه السلام: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾ [يوسف: 38]، فيعقوبُ هو الوالدُ، وإسحاقُ هو الجدُّ، وإبراهيمُ هو والدُ الجدِّ، بل قد يُطلقُ على الجدِّ البعيدِ، كقوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ [الحجّ: 78] ويُطلقُ أيضًا على العمِّ كقول أبناءِ يعقوبَ ليعقوبَ عليه السلام: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ [البقرة: 133]، ومعلومٌ أنّ إسماعيلَ عليه السلام هو عمُّ الأبِ المباشرُ ليعقوبَ عليه السلام، وهذا الاستعمالُ القرآنيُّ الشَّاملُ لمعاني التَّفسيرِ مُرتبطٌ باتّساعِ الأصلِ اللُّغويِّ لكلمة (أب) وشمولِها لكلِّ هذه المعاني، والظّاهرُ في استعمالِ كلمةِ (الأب) هنا أنّه يُرادُ به الأبُ المباشرُ إلّا إن قامت قرينةٌ على خلاف ذلك، ولا قرينةَ صارفةٌ هنا عن إرادةِ الأبِ الحقيقيِّ، بل إنّ هذا الدّوامَ على الاستغفارِ يدلُّ على شدّة قُربِه منه، لا سيّما أيضًا ورودُ هذا الحديثِ عنِ استغفار إبراهيمَ لأبيه في معرِض النّهيِ عنِ الاستغفارِ للمشركين مهما كانتِ الصّلةُ بهم.

دلالةُ الإضَافةِ: ﴿لِأَبِيهِ﴾:

احـترامُ الـقـرآن للأبـوّة ولـو كان الأب كافرًا

دلّتِ الإضافةُ في قولِه تعالى: ﴿لِأَبِيهِ﴾ مع أنّه كافرٌ على أنَّ الإسلامَ يحترمُ الأبوّةَ معَ اختلافِ الدِّين، فإبراهيمُ أبو الأنبياءِ كان حنيفًا مُسلمًا، وأبوه كافرٌ، وهذا يُدلّلُ على أنّ حقوقَ الأبوّةِ لا تسقطُ بالكُفرِ، يؤكّدُ ذلك ما ذكرَه القرآنُ الكريمُ في سُورةِ لقمانَ عنِ الإحسانِ إلى الوالدَيْن بقوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ [لقمان: 15]،

فأُمر الابنُ بصُحبةِ والدَيْه المشركَيْن بالمعروفِ، بل في هذا السّياقِ ظلَّ إبراهيمُ ﷺ يَستغفرُ لأبيه أملاً في هدايتِه، إلى أن تبيّنَ عداوته لله ربِّ العالمين.

بلاغةُ القصْرِ في الاستثناء بعد النّفْي وغرَضُه ونوْعُه:

﴿إِلَّا﴾ أداةُ حصْرٍ، و﴿عَن مَّوۡعِدَةٍ﴾ خبرُ كان، والاستثناءُ هُنا مُفرَّغ من أعمِّ العِلَلِ، فهو من قصْرِ الموصوفِ على الصِّفةِ، وهو قصرٌ إضافيٌّ، لأنّ لهذا الاستغفارِ مقاصدَ أخرى، ويمكنُ أن يكونَ قصْرَ قَلْبٍ بحسبِ ظنِّ المخاطَبين، أي: لم يكُنِ استغفارُ إبراهيمَ لأبيه ناشئًا عن شيءٍ منَ الأشياءِ إلَّا عن موعدةٍ وعدَها إيّاه، أي: لأجْلِها[1]، ولذلك استغفرَ له عمَّا سَلَفَ منه إذا هو آمنَ[2]، فلا حُجَّةَ أيّها المؤمنون في استغفارِ إبراهيمَ ﷺ، فإنّ ذلك لم يكنْ إلّا عن موعدةٍ[3].

لم يكُنِ استغفارُ إبراهيمَ لأبيه إلّا بسببِ ما سلفَ منَ الموعدة

سِرُّ التَّعبيرِ بالموعدةِ:

في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾: آثرَ التَّعبيرَ بالمَوْعِدةِ دونَ الوعْدِ لوجودِ فرقٍ بينَهما، فالوعدُ مصدرٌ دالٌّ على الحدثِ، بخلافِ المَوعِدة فإنّها تدلُّ على الحدَثِ المُتَلَبِّسِ بالذّاتِ في الغالبِ، وهذا ما يتناسبُ مع سياقِ الآيةِ في فِعْلةِ إبراهيمَ ﷺ مع أبيه، حيث تلبَّسَ بهذه الموعدَةِ إلى أن تبيَّنَ له أنّه عدوٌّ لله فتبرّأ منه.

الموعدةُ تدلُّ على الحدثِ المتَلَبِّسِ بالذّاتِ في الغالِبِ

دلالةُ التَّعبيرِ بالإضمَارِ: ﴿وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بقولِه تعالى: ﴿وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾، للدّلالةِ على احتمالِ تعدُّدِ محَلِّ صُدورِ هذا الوعد، وبناءً على هذا فقد ذهبَ العلماءُ في محلّ صُدورِ الموعدةِ مذهبَيْن: الأوّلُ: أن يكونَ الواعدُ أبا إبراهيم ﷺ، والمعنى: أنّ أباه وعدَه أن يُؤمنَ، فكان إبراهيمُ ﷺ يَستغفرُ له

الجملةُ تحتملُ صُدورَ الموعِدَةِ منَ الطَّرفَيْن

(1) درويش، إعراب القرآن: 4/183.
(2) ملا حويش، تفسير القرآن العظيم: 6/491.
(3) الثّعالبي، الجواهر الحسان: 3/222.

لأجلِ أن يحصلَ هذا المعنى، فلمّا تبيّن له أنّه لا يؤمنُ وأنّه عدوٌّ للّه تبرّأ منه، وتركَ ذلك الاستغفارَ. الثّاني: أن يكون الواعدُ إبراهيمَ عليه السلام، وذلك أنّه وعدَ أباه أن يستغفرَ له رجاءَ إسلامه، فلمّا تبيّن له أنّه عدوٌّ للّه تبرّأ منه، والدّليلُ على صحّةِ هذا التأويلِ قراءةُ الحسنِ: (وعدها أباه) بالباء[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفاءِ: ﴿فَلَمَّا﴾:

مُبادرةُ إبراهيمَ عليه السلام بـالـبَراءةِ من أبيه بمجرَّد التّبيُّن

آثرَ التَّعبيرَ بالفاء، لأنّها عطفتْ هذه الجملةَ على مقدَّرٍ يَستدعِيه الكلامُ وحُذفَ لظُهورِه، والمعنى: لم يزلْ إبراهيمُ يستغفرُ لأبيه حتَّى مات، فلمَّا مات وتبيَّن له أنَّه عدوٌّ للّه بادرَ بإعلان البراءةِ منه.

ويضافُ إلى ذلك الدّلالةُ على سُرعةِ الامتثالِ من إبراهيمَ عليه السلام في إظهارِ البراءةِ ممّن ماتَ على الشّركِ، ولو كان أبًا له كما تَقدّمَ في الآيةِ.

سِرُّ حذْفِ مُتعلّقِ التّبيّن: ﴿تَبَيَّنَ لَهُۥٓ﴾:

تـعـدُّدُ طُـرقِ التّبيُّنِ المُوجِبِ للبَراءَةِ

حُذف مُتعلّقُ التّبيّن للدّلالةِ على تعدُّد طرق التّبيّن، فقد قيل: تبيّنَ له ذلك بوحْيٍ منَ اللّه؛ فتبرَّأ منه ومن قرابتِه، وتركَ الاستغفارَ له، أو بإصرار أبيه على الشّركِ والموتِ عليه، أو بالإصرار وحدَه أو بمُقتضَى الإيمان كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ﴾ [المجادلة: 22][2]، وفيه تأكيدٌ لوجوبِ الاجتنابِ بعدَ التَّبيّنِ[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بالتّبيّن: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ﴾:

ليسَ بينَ المؤمنِ واتّـبـاعِ الـحَـقِّ إلا مَـعـرِفـتُـه والتَّحقّقُ منه

آثرَ التَّعبيرَ بالتّبيّنِ دونَ غيرِه، لأنّه يدلُّ بصيغتِه على تأكُّدِه من موقفِ أبيه وحسْمِ الأمرِ معَه بعدَ أن يقفَ علَى الدّليلِ، فلمّا تأكّدَ كفرُه وثبَتَ الأمرُ عندَه تبرّأ منه.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/159.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/159، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/37.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/515.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميّةِ:

دلَّ التَّعبيرُ بالجملةِ الاسميّةِ في قوله: ﴿أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ على رسوخ أبي إبراهيم في أمر العداوة لله تعالى، لأنّه عدوٌّ لله أصلاً، والمرادُ أنه مُستمرٌّ على عداوته لله تعالى وعدمِ الإيمان به حتى هلَكَ.

شدّةُ رسوخِ المشركين في العداوة وإصرارِهم عليها

دلالةُ التّأكيدِ: ﴿أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾:

دلَّ التّأكيدُ الواردُ في صدرِ الجملةِ ﴿أَنَّهُۥ﴾ على أنّ أبا إبراهيم كان مُصرًّا على الكُفر[1]، مطبوعًا على قلبه، مختومًا بختام الجهل والغفلةِ[2]، فضلًا عن أنّ التّأكيدَ بـ(أنّ) والجملةِ الاسميّةِ أفادَا أنّ إبراهيمَ عليه السلام وصلَ إلى هذه القناعةِ بعد قيامِ الأدلّةِ وثبوتِ البراهينِ لديه بعداوة أبيه لله تعالى.

إصْرارُ أهْلِ الشّركِ على عداوتِهم لله تعالى رُغمَ ظُهورِ الأدلّةِ والبيّنات

سِرُّ التّعبيرِ عنِ الشّركِ بالعداوةِ: ﴿أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بوصْفِ العداوةِ دونَ الشّرك، لأنّ أبَا إبراهيم عليه السلام كان يصنعُ الأصنامَ وكانَ مُتزعّمًا في قومِه لرفض دعوةِ إبراهيمَ، فلم يقفْ أمرُه عندَ الشّركِ أو الكُفرِ، بل تزعّمَ العداوةَ والمواجهةَ مع قومِه ضدَّ إبراهيمَ عليه السلام، وللتّأكيدِ على أنّ مَنْ يُشركُ باللّه فكأنّما أعلنَ حربًا على اللّه وأصبحَ عدُوًّا له.

أشدُّ المشركين كفرًا مَنْ يُناصِبُ اللهَ العداوةَ ويتزعّمُ الدّعوةَ إلى الشّركِ

غرض إسناد العداوة للفظ الجلالة:

أسند العداوةَ إلى لفظِ الجلالةِ في: ﴿عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ لتَبْشيعِها وتفْظِيعِها، وفي هذا بيانُ سببِ إعلانِ إبراهيمَ عليه السلام البراءةَ من أبيه، وفيه تحذيرٌ لكلّ مُشركٍ أو كافرٍ يبقَى على شِركه أو كُفره بعد توجيه الدّعوةِ إليه على لسانِ النّبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّه عدوٌّ لله.

أقبحُ العَداواتِ وأشنعُها أن تُعاديَ خالقَكَ ومَنْ أمرُكَ بيدِه في الدّنيَا والآخرة

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾:

آثرَ التّعبيرَ بالفعلِ ﴿تَبَرَّأَ﴾، لأنَّ التَّبرُّؤَ تَفعُّلٌ من بَرئَ من كذا:

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/33.

(2) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهيَّة: 1/320.

بيانُ المبالَغةِ في البَراءةِ

إذا تَنزَّه عنه، فالتَّبرُّؤُ مُبالغةٌ في البَراءةِ[1]، أي: فلمَّا تَبَيَّن لإبراهيمَ أنَّ أباه مُصِرٌّ على الكُفرِ ومُسْتَمِرٌّ عليه، تبرَّأ منه بالكليَّةِ فضلًا عنِ الاستغفارِ له.

وفيه دلالةٌ على أنَّ هذه الصِّيغةَ تُفيدُ أنّه أكْرَه نفسَه ﷺ على البَراءةِ من أبيه، ثمّ علّلَ اللّه تعالى ما دلَّت عليه هذه الصّيغةُ منَ المعالجةِ بقولِه: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾.

سِرُّ التّعبيرِ بالبَراءةِ عن قطْعِ الاستغفارِ:

وُجوبُ البَراءةِ الكاملةِ منَ المشركين

آثَرَ القرآنُ التَّعبيرَ بالبَراءةِ عن قطْعِ الاستغفارِ، لأنّها أعمُّ، فالبَراءةُ منَ الشّيءِ تَستلزمُ البَراءةَ من جميع أحوالِه، وبذلك يندرجُ قطعُ الاستغفارِ تحت البَراءةِ.

بلاغةُ الفصْلِ:

كمالُ أخلاقِ إبراهيمَ ﷺ وثناءُ اللّه عليه

فَصلَ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾، لأنّه اسْتِئْنَافٌ بيانيٌّ مسوقٌ لبيانِ الدَّاعِي الّذي دعا إبراهيمَ إلى الاستغفارِ لأبيه قبل التَّبيُّن، فكأنَّ سائلًا سأل: ما هو الدّاعِي إلى استغفارِ إبراهيمَ لأبيه والموعدةِ الّتي وعدَها إيّاه؟، فجاءَ الجوابُ: إنَّ إبراهيمَ لَكثيرُ التَّأوّهِ والتَّوجّعِ من خَشيةِ اللّه، وكثيرُ الحِلْمِ والصَّفحِ عمّن آذاه[2]، وفيه إشارةٌ إلى مدحِ اللّه سبحانه لإبراهيمَ ﷺ والثّناءِ عليه.

سِرُّ اختيارِ التّعبيرِ بالأوّاه:

خوفُ إبراهيمَ ﷺ من ربِّه وشفقتُه على خلْقِه

آثَرَ التَّعبيرَ بلفظِ ﴿لَأَوَّٰهٌ﴾ دون غيرِه، لأنّ لفظ (أوّاه) يُطلقُ على معانٍ متعدّدةٍ كلُّها تخدمُ سياقَ الآيةِ في موقفِ إبراهيمَ ﷺ منَ الاستغفارِ لأبيه، فيأتي بمعنَى الخائفِ الّذي يُكثِرُ التَّأوُّهَ من خوفِ اللّه ﷻ، والتَّأوُّهُ: التَّوجُّع الّذي يَكْثُرُ حتَّى ينطقَ الإنسانُ معه بـ(أوّه)[3]،

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/46.

(2) طنطاوي، الوسيط: 6/415.

(3) الثّعالبي، الجواهر الحِسان: 3/222.

ولفظُ ﴿لَأَوَّٰهٌ﴾ مثالُ مبالغةٍ: وفُسِّرَ بمعانٍ ترجعُ إلى الشَّفقةِ إمَّا على النَّفس فتفيدُ الضَّراعةَ إلى اللهِ والاستغفارِ، وإمَّا على النَّاس فتفيدُ الرَّحمةَ بهم والدُّعاءَ لهم، وهو اسمُ فعلٍ مضارعٍ بمعنى: أتوجَّع، لإنشاءِ التَّوجُّع(1)، ويُطلقُ بمعنى الدّعاءِ، والمُوقنِ، والفقيهِ، والمُسبّحِ الّذي يُسبّحُ اللهَ في الأرض المُوحشةِ، وكلُّ هذه المعاني مُتحقّقةٌ في إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهناك سببٌ نفسيٌّ في اختيارِ هذا اللّفظِ، وذلك أنَّ الإنسانَ عندما يصابُ بالحُزنِ يختنقُ الرّوحُ القَلبيُّ في داخل القلبِ ويشتدُّ حرقُه، فالإنسانُ يُخرج ذلك النَّفَسَ المحترقَ منَ القلبِ ليُخفِّفَ بعضَ ما بِه في نُطقه بهذا اللّفظِ (أَوَّه)(2).

فائدةُ صيغتَي المبالغةِ: ﴿لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾:

بيانُ شِدَّةِ رحمةِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ورأفتِه في نفسِه ومعَ غيرِه

دلَّ التّعبيرُ بصِيغِ المبالغةِ على شدّةِ رقّةِ القلْبِ عند إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وتضرُّعِه في دعائِه لربِّه، ودلَّ ذلك أيضًا على شدّةِ التَّحمّلِ والإغضاءِ عنِ المؤذِي له، هكذا خُلُقُه في حدِّ ذاته فكيف في حقِّ أبيه؟ ولو قال له: ﴿لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي﴾ [مريم: 46] وأضعافَ ذلك(3).

سِرُّ تقدِيمِ (الْأَوَّاه) على (الحَلِيم):

شِدّةُ التّأوّهِ بابُ الوُصولِ إلى الحِلْمِ

قدَّمَ صفةَ الأوّاهِ لما تحملُه من معانٍ تهيّئُه للصّبرِ ولتَحمّلِ المصاعبِ النّاتجةِ في موقفِه من أبيه، وأيضًا لأنَّ التّأوّهَ صفةُ القلبِ، والحلْمُ صفةُ العقل، والقلبُ هنا مُقدّمٌ على العقلِ، لأنّه محلُّ العقل، قال تعالى: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179].

سِرُّ ختمِ الآيةِ بهذَين الوصْفَيْن:

البراءةُ منَ المشركين لا يتنافَى تتنافَى معَ كمالِ رقّةِ القلْبِ والحلْمِ الواسِع

وصَفَ اللهُ تعالى إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذَيْنِ الوَصْفَيْنِ في هذا المقام، لأنَّه مَن كان كذلك، فإنَّه تعظُمُ رِقّتُه على أبيه وأولادِه، فبَيَّنَ تعالى

---

(1) الخفاجي، حاشية الشِّهاب: 4/648، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/46.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 8/409.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/31.

أنَّه مع هذا الخُلق تبرَّأ من أبيه، وغلُظَ قلبُه عليه، لَمَّا ظَهرَ له إصرارُه على الكُفرِ، فأنتم بهذا المعنى أَوْلى، كذلك وصفُه أيضًا بأنَّه حليمٌ، لأنَّ أحدَ أسبابِ الحِلمِ رِقَّةُ القلبِ، وشِدَّةُ العَطفِ، لأنَّ المرءَ إذا كان حالُه هكذا اشتَدَّ حِلمُه عند الغضَبِ[1].

وفي ختام الآية بهذيْن الوصْفَيْن دلالةٌ على تأكيدِ وُجوبِ الاجتِنابِ عنِ الاستغفارِ لأبيه بعدَ أن تبيّن له أنه عدوٌ للّه.

بلاغةُ المتشابِه اللّفظيّ بين آيتَي التّوبةِ وهودٍ:

كلُّ آيةٍ جاءت متناسبةً معَ السّياقِ الّذي جاءت فيه

اختلفَ الوصفُ بين السّورتَيْن من ناحيةِ التّقديمِ والتّأخيرِ، فذَكرَ في سورةِ التّوبة: ﴿لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾، وفي سورةِ هودٍ: ﴿لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ﴾ وفي سورة التّوبة اكتفَى بوصفَي الأواه الحليم، بينما في سورة هودٍ زادَ وصْفَ ﴿مُّنِيبٌ ٧٥﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ٧٥﴾ [هود: 75]، والسّببُ في ذلك اختلافُ السّياقِ في كلٍّ منهما، فسياقُ سورةِ التّوبةِ جاءَ في إعلانِ براءتِه وانقطاعِه عنِ الاستغفار لأبيه بعدَ أن تبيّن أنّه عدوٌّ للّه، فالموقفُ هناك بين الابن والأبِ يظهرُ فيه حِرصٌ منَ الابنِ على هداية أبيه مع شدّةِ قَسوةٍ تظهرُ في موقفِ أبيه منه في رفض دعوتِه، فكان التّأوّهُ والحِلْمُ هما المناسبانِ في هذا الموقفِ، أمّا في سورة هود فالأمرُ مختلفٌ، حيث يتعلّقُ بموقفِه منَ المجادلةِ في شأن قوم لوطٍ، لأنَّ فيهم لوطًا النّبيّ عليه السلام، وله به قرابةُ نسبٍ، فهو حريصٌ على نجاتِه شفقةً عليه، فعلّلَ القرآنُ الكريم هذا الموقفَ لإبراهيمَ عليه السلام بقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ٧٥﴾ [هود: 75]، فذكرَ صفةَ الحلْم وبدأَ بها، لأنّه لا يريدُ تعجيلَ العقوبةِ، بل يريدُ إعطاءَ فُرصةٍ للعاصِين من قومِ لوطٍ ليَنخلِعُوا من معاصِيهم، فهو يُؤثِرُ السّماحةَ على العقابِ.

(1) الفخر الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/160.

وسببُ ذلك أنّه مرهفُ الإحساس، كثيرُ التّأوّهِ من شعورِه بارتكابِهم لهذه الأخطاءِ، ولذلك وصفَه القرآنُ بأنّه منيبٌ في هذا المقامِ، فهو راجعٌ إلى ربِّه تائبٌ إليه، وهي صفاتٌ كلُّها جمالٌ وكمالٌ.

وممّا يُذكرُ أيضًا في موضعِ سورةِ هودٍ، أنَّ هذه الأوصافَ جاءت مُعترضةً بين حدَثَيْن: بِشارتِه بالولدِ ومُجادَلتِه في قومِ لوطٍ، وكلُّ حدثٍ منهما يتعلّقُ بهذه الصّفاتِ وما اشتمَلَ عليه من خُلُقٍ كريمٍ[1].

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الوالدُ والأبُ:

الوالدُ في اللُّغةِ هو الأبُ المُباشرُ الّذي أنجبَ، فالوالد لا يُطلقُ إلا على مَنْ أوْلدَك من غيرِ واسطةٍ[2]، لذلك حينما يقول ﷻ: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ [لقمان: 14] نعلمُ أنَّ كلمةَ (وَالِدَيْكَ) هُنا هُما: الأب والأمُّ[3]، أي: الأبوان المُباشران، أمَّا الأبُ فقد يكون الأبَ المُباشر، وقد يُطلق على العمِّ والجدِّ[4]، قال تعالى: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ [البقرة: 133]، بل قد يُطلقُ على الجدِّ البعيد، ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ [الحج: 78][5]، فيُطلق الأبُ على الجَدِّ وإن علا، فالوالد خاصٌّ، والأب عامٌّ، وهذا الاستعمالُ القرآنيُّ مُرتبطٌ باتّساعِ الأصلِ اللُّغويِّ لكلمة (أب) وشمولِها لكلِّ ما كان سببًا في وجودِ الشَّيءِ أو رعايتِه، أو إصلاحِه، أو ظُهورِه[6].

وممّا يُذكر في الفرقِ بينهما: أنّ الوالدَ لم يرِدْ مجموعًا في القُرآن الكريم، بخلافِ الأبِ، فقد وردَ مجمُوعًا كما في قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾ [البقرة: 133] الآية، وفي قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ [يوسف: 38]الآية، وفي هذا دليلٌ على أنّ لفظَ الوالدِ مقصورٌ على الأبِ المباشرِ في وجودِ الابن دون غيره.

---

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 4/1173، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3733.
(2) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 566.
(3) الجوهريُّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (ولد).
(4) الرّاغب، المفردات: (أبا)، والزّبيديّ، تاج العروس: (أبى).
(5) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 566.
(6) الرّاغب، المفردات: (أبا).

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ١١٥﴾ [التَّوبة: 115]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مِنْ تمامِ عدْلِ اللّه تعالى أنّه لا عُقوبةَ إلّا بعْدَ بيانِ حُكْمِ الله وإقامَةِ الحُجّةِ

لَمَّا منَعَ اللّهُ تعالى المُؤمِنينَ من أن يَستَغفِرُوا للمُشرِكينَ، وكان المُسلِمونَ قد استغفَروا للمُشرِكينَ قبلَ نُزولِ هذه الآيةِ، فلمَّا نزَلَت هذه الآيةُ خافُوا بسبَبِ ما صدَرَ عنهم قبْلَ ذلك منَ الاستغفارِ للمُشرِكينَ، فأزال اللّهُ تعالى ذلك الخَوفَ عنهم بهذه الآيةِ، وبيَّنَ أنَّه تعالى لا يؤاخِذُهم بعمَلٍ إلَّا بعدَ أن يُبيِّنَ لهم أنَّه يجِبُ عليهم أن يتَّقُوه ويَحترِزُوا عنه[1].

وممّا يُذكرُ في المناسبةِ أيضًا أنّه لَمّا بيَّنَ اللّه تعالى أنَّه لا يُستغفَرُ لِلمشركينَ ولو كانوا أُولي قُربَى، فمُنِعَ رسولُ اللّه ﷺ مِنَ الاستغفارِ لعَمِّه أبي طالِبٍ، ومُنِعَ إبراهيمُ مِنَ الاستغفارِ لأبيه، وكذلك مُنِعَ المسلمونَ مِنَ الاستغفارِ للمشركينَ أقرباءَ وغيرَ أقْرِباءَ، فكأنَّه قِيل: لا تَعْجَبْ لتبايُنِ هؤلاءِ، فإضلالُ هؤلاءِ لم يكُنْ إلَّا بعدَ أنْ أرشدَهم اللّه إلى طريقِ الحقِّ بما ركَّز فيهم مِن حُجَجِ العقولِ الَّتي أغْفَلوها، وتَبيينِ ما يتَّقُونَ بطريقِ الوحيِ، فتظافَرتْ عليهمُ الحُجَجُ العقليَّةُ والسّمعيَّةُ، ومعَ ذلك لم يُؤمِنوا ولم يَتَّبِعوا ما جاءَتْ به الرُّسلُ عن اللّه تعالَى، ولذلك خَتَمها بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾، فيُضلُّ مَن يشاءُ، ويختصُّ بالهدايةِ مَن يشاءُ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيُضِلَّ﴾: الضَّلال ضِدُّ الهُدى، يُقال: ضَلَّ فِي الأَمرِ يَضِلُّ

(1) الفخر الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/160.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/515 - 516.

ضلالًا إذا لم يهتدِ لَهُ[1]، يُقال: ضَلَّ عنِ الطَّريق: تاهَ وابتعدَ وعكسُه يَهْتَدي، وضللتُ بَعيري: إذا كان معْقُولاً فلمْ يهْتدِ لمكانِه، وأضْلَلْتُه إذا كان مُطلقًا فمرَّ ولمْ تَدْرِ أيْنَ أخذَ، وضَلَّ الشَّيْءُ: إذا ضاعَ، وضلَّ الرَّجل: إذا جارَ عنِ القَصْدِ[2]، ومنَ المجاز: ضَلَّ في الدِّين، وقدْ ضَلَّلْتُه: نَسَبْتُه إلى الضَّلال، وواقعٌ في أضاليلَ وأباطيلَ، وقد تمادَى في أضاليلِ الهوَى[3]، وأصلُ الضَّلالِ يدلُّ على ضياعِ الشَّيءِ وذهَابِه في غَيْرِ حَقِّهِ[4]، فالضَّلالُ إمَّا العُدولُ عنِ الطَّريق المستقيم، وإمَّا الغيبوبةُ والضَّياعُ، والأوَّلُ يُقابلُه الهدايةُ، والثَّاني يُقابلُه الوِجدَانُ، فهو يُقالُ لكلِّ عُدولٍ عنِ المنهجِ عمْدًا كان أو سهوًا، يسيرًا كان أو كَثيرًا[5]، والمعنى هُنا: لِيُضِلَّ قَوْمًا؛ أي: عن طريقِ الجنَّة، أو يحكُمَ عليهم بالضَّلال بعد أن وفَّقهم للهداية حتَّى يُبَيِّنَ لهم عن طريق الوحيِ ما يجبُ عليهم أن يَحترزُوا عنه[6].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

بيّنتْ هذه الآيةُ ما كانَ من سُنَنِ اللهِ ولُطفِه بعبادِه لِيَحْكُمَ على قوم بالضَّلال بعد أن وفَّقهم للهداية حتَّى يُبَيِّنَ لهم عن طريق الوحي إلى رسولِه ما يجبُ عليهم اجتنابُه، وما يحتاجُون إليه في أصولِ الدِّين وفُرُوعه، إنَّ اللهَ محيطٌ عِلْمُهُ بكلِّ شيءٍ، لا يخفَى عليه شيءٌ، وقد علَّمَكم ما لم تكونُوا تعلمون، وبيَّن لكم ما به تنتفعُون، وأقامَ الحُجَّةَ عليكم بإبلاغِكُم رِسالَتَهُ[7].

اللهُ لطيفٌ بعبادِه لا يحكُمُ عليهِم بالضَّلالِ حتَّى يُبَيِّنَ لهم طَريقَ الحقِّ

(1) ابن دُرَيد، جمهرة اللّغة: (ضلل).
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (ضل).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (ضلل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضل).
(5) الرّاغب، المفردات: (ضل)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ضلل).
(6) النيسابوري، غرائب القرآن: 3/539.
(7) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 280، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 205.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواوِ:

لا مُؤاخذةَ من غَيْرِ تكليفٍ وبيانٍ

في: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ﴾ الواوُ عاطفةٌ، عطفتْ هذه الآيةَ على ما قبْلَها، وما قبْلَها كان نهيًا عنِ الاستغفار للمشركين، وجاءتْ قصّةُ إبراهيمَ عليه السلام في استغفارِه لأبيه تتمّةً للاستغفارِ، فكانت هذه الآيةُ لبيانِ أنّه لا مؤاخذةَ من غيْرِ تكليفٍ، وخُصوصًا لَمِن اختارَ سبيلَ الهدايةِ[1].

وفي هذا العطْفِ أيضًا تأنيسٌ للمؤمنين، لأنَّ بعضَهم خاف على نفسه منِ الاستغفار للمشركين، فنزلتِ الآيةُ مُؤنِسةً، أي: ما كان اللّه بعد أن هدَى إلى الإسلام، وأنقذَ منَ النَّار ليُحْبِطَ ذلك، ويُضِلَّ أهلَه، لمواقعتِهم ذَنْبًا لم يتقدَّمْ منَ اللّه عنه نَهْيٌ، فأمَّا إذا بُيِّن لهم ما يتّقون منَ الأمور، ويتجنَّبون منَ الأشياء، فحينئذٍ مَنْ واقَعَ شيئًا من ذلك بعدَ النّهي، استوجبَ العقابَ[2].

دلالةُ التّعقيبِ هذه الآيةِ:

تأكيدٌ وتَذْييلٌ لما سَبقَ من مباينةِ المشركين، والبراءةِ منهم، وتركِ الاستغفارِ لهم

جاءت هذه الآيةُ عقبَ ما قبْلَها للدّلالةِ على أنَّ اللّه لا يُؤاخذُ النَّبيَّ ﷺ ولا إبراهيمَ عليه السلام ولا المسلمين باستغفارِهم لَمِن استغفرُوا له من قَبْلِ ورودِ النَّهْيِ وظُهورِ دليلِ اليأْسِ منَ المغفرةِ، لأنَّ اللّه لا يُؤاخِذُ قومًا هداهُم إلى الحقّ فيَكتبهم ضُلَّالاً بالمعاصِي حتَّى يُبَيِّن لهم أنَّ ما عملوُه معصيةٌ، فموقعُ هذه الآيةِ بعدَ جميعِ الكلامِ المُتَقَدِّمِ صَيَّرهَا كلامًا جامعًا تذييلًا[3].

دلالةُ النَّفْيِ في: ﴿وَمَا كَانَ﴾:

إقامةُ الحُجّةِ قبلَ الحُكمِ بالضّلالِ

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ بأسلوبِ النّفيِ الواردِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا﴾، للدّلالةِ على أنَّ النَّفيَ نَفْيٌ مُؤَكَّدٌ عن ذاتِ اللّه

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3462.
(2) الثَّعالبي، الجواهر الحسان: 3/222، وابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/92.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 48 47.

تعالى، أن يَحكُمَ بالضَّلالةِ والمؤاخذةِ عليها، قبلَ أن يُبيِّنَ سبحانه ما يُتَّقَى منَ الضَّلالةِ، فكما أنَّه سُبحانَه لا يُعذِّبُ إلّا بعْدَ رسولٍ مُبَيِّنٍ بمقتضَى قولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: 15]، فكذلك لا يُؤاخذُ سبحانَه بذنْبٍ ارتُكبَ إلَّا بعد بيانِ أنَّه ذنْبٌ، والطَّريقِ لاتّقائِه(1).

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿كَانَ﴾:

إقامةُ الحُجّةِ قبلَ المؤاخذةِ سُنّةٌ من سُننِ اللهِ الماضيةِ في جميعِ الأُمَمِ

دلَّ التّعبيرُ بالفعْلِ ﴿كَانَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ﴾ على أنَّ سُنّةَ اللّه تعالى في عدمِ المؤاخذةِ قبْلَ إقامةِ الحُجّةِ قديمةٌ أزليّةٌ، والمعنى: ليسَ من شأنِه ولا من سُنّتِه ﷻ أن يكتبَ الضَّلالَ لقومٍ بعد إذ هداهُم بإرسالِ الرُّسلِ إليهم وإرشادِهم إلى الحقِّ حتَّى يُبَيِّنَ لهم الأشياءَ الّتي يُريد منهم أن يَتَّقُوها.

بلاغةُ إسنادِ البيانِ إليه سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم﴾:

للهِ العلْمُ الشّاملُ بأحوالِ خلْقِه، ومنه وحدَه البيانُ لحُكمِه وشرعِه

أسندَ اللّه البيانَ إليه، لأنّه سبحانَه هو صاحبُ البيانِ، وهو الّذي يتصرّفُ في صُورِه كيف يشاءُ، وذلك بأن يُبَلِّغَ رُسلَهُ أنَّ أولئك من أهلِ الضَّلال حتَّى يَتْرُكوا طلبَ المغفرةِ لهم كما قال لنوحٍ عليه السلام لما قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ [هود: 45]يريد نجاتَه، فقال اللّه له ردًّا على مطلبه: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾ [هود: 46]، وكما سبَقَ في الآياتِ السّابقةِ من تَبْيين عدمِ الاستغفار للمشركين.

نُكتةُ إظهارِ الاسمِ الجليلِ:

بيانُ أنَّ الحُكمَ بالهدايةِ والضَّلالِ لا يكونُ إلّا من صاحبِ الجلالِ والكمالِ

في إظهارِ الاسمِ الجليلِ دليلٌ على أنَّ اللّه سبحانه وتعالى هو وحدَه الحاكمُ بهدايةِ النَّاسِ وضلالِهم، فإنْ وفّقهم للهداية فبِرحمتِه وفضْلِه، وإنْ أضلَّهم فبحِكمتِه وعدْلِه.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3462.

دلالةُ اللّامِ في: ﴿لِيُضِلَّ﴾:

الإضلالُ عقوبةٌ على الصدِّ عن دينِ الله وردِّ ما جاءت بِهِ رسلُه

قولُه تعالى: ﴿لِيُضِلَّ﴾ تعليلٌ لمضمونِ الجملةِ السَّابقةِ، وهو أنَّ اللّه لا يُضِلُّ قومًا بعد أن هداهُمْ حتَّى يُبَيِّنَ لهمُ الحقَّ[1]، فإذا بيّنَ لهم ما يتّقونَ، فلم يَنقادُوا له، عاقبَهم بالإضلالِ، جزاءً لهم، على رَدِّهم الحقَّ المُبينَ[2]، فلا يُضِلُّ إلّا مَنْ يَستحقُّ الضَّلالَ، كما أنَّه يهدِي مَنْ يَستحقُّ الهدايةَ[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بالضّلالِ في: ﴿لِيُضِلَّ﴾:

لفظُ الضَّلالِ يَعمُّ ألفاظًا كثيرةً، وقد جاء الأنسبُ هنا في مقابلةِ الهُدَى

آثَرَ التَّعبيرَ بالضَّلال دون غيرِه، لأنّه أعمُّ، ويندرجُ تحتَه كثيرٌ منَ الأمور، فكلُّ عُدولٍ عنِ المنهجِ الّذي أنزلَه اللّه على ألسنةِ رُسُلِه أو سلوكِ طريقٍ لا يُوصلُ إلى هذا المنهجِ، فهو ضلالٌ، وأيضًا لأنَّ الضّلالَ ضدُّ الهُدى، والهُدَى لفظٌ عامٌّ يندرجُ تحتَه كلُّ وجوهِ النّجاةِ والإرشادِ، لذلك كان اختيارُ لفظِ الضّلال ليكونَ في مقابلةِ لفظِ الهُدَى.

سِرُّ التَّعبيرِ بالقومِ: ﴿لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ﴾:

لفظةُ القومِ تعمُّ أصنافًا كثيرةً وهيَ الأليقُ بالسّياقِ هنا

آثَرَ التّعبيرَ بلفظِ القوم دونَ التّصريحِ بتَعْيِينهم من بابِ السَّترِ عليهم والتّلطّفِ بهم، لأنَّ قومًا منَ المسلمين قدِ استغفرُوا للمُشركين قبْلَ نُزولِ النّهيِ، فلمّا نزلَ خافُوا بسببِ ما صدرَ عنهم، أو أنَّ المرادَ أنَّ قومًا قدِمُوا على النّبيّ صلّى اللّه عليهم وسلّم وأسلَمُوا قبل تحريمِ الخمْرِ وتحويلِ القبلةِ إلى الكعبةِ، فرجعُوا إلى قومِهم ولا علْمَ لهم بذلك، فلمّا عادُوا إلى المدينةِ مرّةً ثانيةً، وجدُوا أنَّ الخمرَ قد حُرّمتْ وأنّ القبلةَ قد حُوّلتْ، فقالُوا يا رسولَ قد كنتَ على دين ونحن على غيرِه فنحنُ ضُلّالٌ، فأنزل اللّه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ﴾[4].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/48.

(2) السَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 403.

(3) الجزائري، أيسر التَّفاسير: 2/432.

(4) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 10/225.

والشّاهدُ هنا أنَّ التّعبيرَ بالقومِ هو المناسبُ لهذه الجماعةِ، فيدلُّ على أنَّ ذلك وقعَ منَ الكثيرِ وليس منَ القليل، لأنّ لفظَ القومِ يندرجُ تحتَه الفرقةُ ثمّ الطّائفةُ.

نُكتة تنكيرِ ﴿قَوۡمًا﴾:

إفـادةُ الشُّيوعِ والعُمومِ

تَنكيرُ كلمة ﴿قَوۡمًا﴾ لإفادةِ الشُّيوعِ والعُمومِ في كلِّ قومٍ منَ المتقدِّمين والمتأخِّرين منَ النَّاس في كُلِّ زمانٍ كانوا، وفي أيِّ مَحَلٍّ حَلُّوا.

فائدةُ التَّعبيرِ بالظَّرفيّةِ في: ﴿بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ﴾:

أعظمُ الخُسرانِ الضّلالُ بعدَ الهدايةِ والرّدّةُ بعدَ الإيمان

آثرَ التَّعبيرَ بقولِه تعالى: ﴿بَعۡدَ﴾ الّتى تدلُّ على التّباعدِ في الزّمنِ أوِ المكانِ، وفي هذا دلالةٌ على أنَّ أمرَ الهدايةِ لهم يعودُ إلى الماضِي البعيدِ المدلولِ عليه بأخْذِ الميثاقِ الأوّلِ، أوِ المرادُ بعدَ نزولِ أسبابِ الهدايةِ على ألسنةِ الرُّسلِ لأتباعهِم الّتي استقرّتْ في شرائعِهم، أوِ المرادُ بعدَ هدايةِ الإسلامِ، فدلّتْ هذه الظّرفيّةُ على شدّةِ المصيبةِ في الضّلالِ بعد تمكُّنِ الهدايةِ منَ النّفوس، وفي الرِّدّةِ بعدَ الإسلامِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالهدايةِ: ﴿بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ﴾:

هدايةُ الفِطرةِ وهدايةُ الدَّلالةِ

آثرَ التَّعبيرَ بالهدايةِ في قولِه تعالى: ﴿بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ﴾، لأنَّ الهدايةَ تتعدَّدُ معانِيها، فتأتي بمعنَى الدّلالةِ كما في قولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾ [فصّلت: 17]، فالهدايةُ هنا هي هدايةُ الدَّلالةِ، فإذا وافقُوا البيانَ هداهُم هدايةَ مُعونةٍ، وإذا لم يوافقُوا كانُوا ضالِّين، وقد حكمَ اللّه بضلالةِ أبي إبراهيمَ، وما حَكمَ اللّه بضلالتِه إلا بعدَ أن بيّنَ له منهجَ الهدايةِ[1].

وقد يكونُ المُرادُ بالهدايةِ هنا هدايةَ الفطرةِ، والمعنَى: ما كان اللّه تعالى ليأخُذَ قومًا سارُوا بمقتضَى الفطرةِ الإنسانيَّةِ، والميثاق الّذي أخذَه عليهِم وأشهدَهُم على أنفسِهم ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ﴾ [الأعراف:

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 9/5543.

172]، فهذه هي الهدايةُ الفطريَّةُ الّتي فطرَ النَّاسَ عليها، فهذا معنَى قولِه تعالى: ﴿إِذۡ هَدَىٰهُمۡ﴾ أي: وقتَ أنْ هداهُم في بَدءِ الخليقةِ(1).

سِرُّ التَّعبيرِ بالماضِي ﴿هَدَىٰهُمۡ﴾:

وُلِـدَ الـنّـاسُ في أوّلِ أمرِهم علَى الفطرةِ السّليمةِ

عبّرَ بالفعلِ الماضي ﴿هَدَىٰهُمۡ﴾، للدّلالةِ على تحقُّقِ أمرِ الهدايةِ الفطريّةِ والمتمثّلةِ في أخْذِ العهْدِ عليهِم في قولِه تعالى: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: 172]، فهذا معنَى قولِه تعالى: ﴿إِذۡ هَدَىٰهُمۡ﴾ أيْ: وقتَ أنْ هداهُم في بدْءِ الخليقة، ويكونُ قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ﴾ أي: حتَّى يُبَيِّنَ ما يؤيّدُ الفطرةَ ويدعَمُها، ويبيّنَ لها ما تتَّقيه بأن تجعلَ بينها وبينه وقايةً.

دلالةُ عدَمِ ذكْرِ الفاعلِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

الهدايةُ منَ اللهِ تـعـالى وبِـيَـدِه وحدَه سُبحانَه

لم يُذْكَرِ الفاعلُ ﴿ٱللَّهُ﴾ صراحةً في قولِه تعالى: ﴿هَدَىٰهُمۡ﴾ مع وجودِ ما يدلُّ عليه مُضمرًا، للعلْمِ باختصاصِه سُبحانَه بأمرِ الهدايةِ، فهو الّذي يهدي مَنْ يشاءُ من عبادِه، والآياتُ القرآنيّةُ في هذا السّياقِ كثيرةٌ، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 213]، وقولُه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ﴾ [يونس: 35]، فالحذْفُ هنا للإيجاز.

سِـرُّ التَّعبيرِ مع الضّـلالِ بالمضارِعِ: ﴿لِيُضِلَّ﴾، ومع الهدايـةِ بالماضِي: ﴿هَدَىٰهُمۡ﴾:

الـضّـلالُ فِـعْـلٌ مِـنَ المـشـركـيـن حادثٌ، والهدايةُ أمرٌ قديمٌ فُطِرَ عليه الإنسانُ

آثَرَ التَّعبيرَ بالمضارعِ معَ الضّلالِ، لأنَّ المرادَ هنا هو صرفُهُ عن طريقِ الجنّةِ ومنْعُه منَ التّوجّهِ إليه بما عَلِمَ اللّهُ فيه، وهذا عن طريقِ إبرازِ صُورةِ علْمِ اللّهِ الأزليّةِ إلى الواقعِ الظّاهرِ، ولذلك فسّرَ البعضُ ﴿لِيُضِلَّ﴾ أي: يُوقِعُ الضّلالةَ في قلوبِهم بعدَ الهُدى(2).

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3462.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 8/411.

أمّا الهدايةُ فهي الأصلُ الّذي فُطِرَ عليه الإنسانُ، لذلك عبّرَ بالماضي مُوافقةً على هدايةِ اللّه للإنسانِ في أصلِ فِطرتِه.

معنى ﴿حَتَّىٰ﴾ وموقِعُها:

﴿حَتَّىٰ﴾ حرفُ غايةٍ[1]، أي: حتَّى يتقدَّم إليكُمْ بالنَّهيِ، فإذا بيَّنَ ولم تأخذُوا به فعندَ ذلك تستحقّون الضَّلالَ[2].

بيانُ الغايةِ من عدمِ الحُكْمِ عليهم بالضَّلالِ

بلاغةُ التَّعبيرِ:

تَظهرُ بلاغةُ التَّعبيرِ في قوله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ﴾ في الجمعِ بين لُطفِ اللّه وكمالِ عدلِه، لأنَّ معناها: وما كانَ اللّه ليقضيَ عليكُمْ في استغفارِكم لموتاكُم المشركين بالضّلال بعد إذْ رزقَكُمُ الهدايةَ ووفّقكم للإيمان به وبرسولِه، حتى يُبيّنَ لكم ما تَنتهونَ عنه، ويكونَ ذلك في ما أمرَ ونهَى، لأنَّ الطَّاعةَ والمعصيّةَ إنَّما يكونانِ في الأوامرِ والنّواهِي، فأمَّا مَنْ لم يُؤمرْ ولم يُنْهَ فغيرُ مُؤاخَذٍ إلّا بعدَ صُدورِ البيان، وفي هذا ما يَكشفُ عن لُطْفِ اللّه ورحمتِه بعبادِه، وأنّه سُبحانَه لا يأخذُهُم بالعقابِ، ولا يُنزلُهُمْ منازلَ الضَّالين، إلّا بعدَ أن يُبيِّنَ لهمُ الطّريقَ الّذي يَسيرُون عليه، وما يأخذُون أو يدَعُون منَ الأمور، وفيه تسليةٌ للّذين استغفرُوا للمشركين قبلَ البيانِ.

بيانُ لطْفِ اللّه تعالى بعبادِه وكمالِ عدلِه معهم

فائدةُ ذِكرِ البيانِ بصِيغةِ المضارعِ:

عبّرَ بالمضارعِ، للدّلالةِ على استمرارِ البيان وتجدُّدِه بحسبِ حاجةِ النَّاسِ إلى الهدايةِ، فإنَّ حاجتَهُم إليها مُستمرَّةٌ دائمةٌ، وفي هذا دليلٌ على عنايةِ اللّه ورحمتِه بخلْقِه بأن يُبيّنَ لهم عن طريقِ الوحيِ ما يُشكلُ عليهم في أمرِ حياتِهم سواءً ما تعلّقَ بأُمُورِ معاشِهم أو أمورِ معادِهم.

استمرارُ البَيانِ وتجدُّدُه، لدوامِ حاجةِ النَّاسِ إليه

(1) الدرة، إعراب القرآن: 4/184.

(2) البغوي، معالم التَّنزيل: 2/396.

نُكتةُ تقديمِ شِبْهِ الجُملة ﴿لَهُم﴾:

بيانُ الاعتناءِ بالمقدَّمِ والتَّشويقِ إلى المؤَخَّرِ

قَدَّمَ شِبْهَ الجملةِ ﴿لَهُم﴾ هُنا لإفادةِ الاعتِنَاءِ وَالاهتِمَام بالمُقَدَّم وهمُ النَّاس، والتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ وهو الأمرُ والنَّهيُ الّذي تكونُ به التَّقوَى وتحصلُ بِهِ الهدايةُ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مَّا﴾:

احتماليّةُ الموصوليَّةِ والموصوفيَّةِ توسيعًا للمعنى

(ما): تحتملُ المَوصولةَ، والموصوفةَ، فهي مَبنيَّةٌ على السُّكونِ في محلِّ نصبِ مفعولٍ به، والجملةُ بعدَها صِلتُها، أو صِفتُها، والعائدُ، أو الرَّابطُ محذوفٌ، والتَّقديرُ: حتَّى يُبيِّنَ لهم الّذي أو شيئًا يَتَّقُونَه[1].

وممّا يُذكرُ أيضًا أنّها تُفيدُ العمومَ، أي: حتّى يُبيِّنَ لهم ما يتّقُونَ منَ الأقوالِ والأفعالِ بيانًا جليًّا واضحًا لا شُبهةَ فيه.

سِرُّ التَّعبيرِ بالتّقوَى: ﴿يَتَّقُونَۚ﴾:

التّقوى لفظٌ جَامِعٌ لكُلِّ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أو نَهَى عنْهُ

آثَرَ التَّعبيرَ بالتّقوَى دونَ غيرِها، لأنّها لفظٌ عامٌّ يندرجُ تحتَه كلُّ ما يقِي من عذابِ اللهِ، وكلُّ صُوَرِ العبادةِ وعلى رأسِها الإتيانُ بالأوامرِ وتركُ النّواهي، ومن ذلك النَّهيُ عنِ الاستغفارِ للمُشركين.

سِرُّ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿يَتَّقُونَۚ﴾:

عبادةُ اللهِ وطاعتُه أمرٌ مُتجدِّدٌ مُستمرٌّ في حيَاةِ المؤمنِ

آثَرَ التَّعبيرَ بالمضارعِ ﴿يَتَّقُونَۚ﴾ للدّلالةِ على أنَّ حِرْصَ أهْلِ الإيمانِ على طاعة اللّه والعمل بشرائعه واتّقاء غضبه وطلب رضوانه أمرٌ مُتجدِّدٌ ومُستمرٌّ، فكلّما بيّنَ اللّه حُكمًا شرعيًّا بادرُوا إلى الامتثال، أمرًا كان أو نهيًا.

بلاغةُ الفصلِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾:

عِلْمُ اللهِ بحاجةِ خلْقِهِ إلى البيَانِ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ عن الآية، لأنّه استئنافٌ بيانيٌّ، فالجملةُ تعليلٌ لِما سبقَ، أيْ أنَّ اللّه تعالى عليمٌ بجميعِ الأشياءِ الّتي من جُملتِها حاجتُهم إلى البيانِ فيُبيِّنُ لهم،

(1) الدُّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 4/247.

فكأنَّه ناتجٌ عن سؤالٍ يخطرُ ببالِ السَّامعِ: ما الحكمةُ في أنَّ اللّه لا يحكمُ بالضَّلالِ على النَّاسِ حتَّى يُبَيِّنَ لهم ما يتَّقون؟ فجاء الجوابُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾.

دلالةُ التّأكيدِ بـ ﴿إِنَّ﴾ والجملةِ الاسميّةِ:

علمُ الله شاملٌ للخلْقِ أجمعين في الدّنيا والآخرة

صُدِّر ختامُ الآيةِ بـ ﴿إِنَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾، للتّأكيدِ على تحذيرِ المؤمنين منَ الوقوعِ فيمَا نهَى اللّه عنه فيما سبَقَ منَ الاستغفار للمُشركين، لأنّه عليمٌ بكلِّ شيءٍ، ولا يخفى عليه شيءٌ من أقوالِ النَّاس وأفعالِهم، وسَيُحاسبُهم يومَ القيامةِ على ذلك، وسَيُجازَى الّذين أساؤُوا بما عملُوا[1].

دلالةُ إظهارِ لفْظِ الجلالةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾:

لفظُ الجلالةِ لتربيةِ المهابَةِ

آثرَ القرآنُ الكريمُ إظهارَ لفْظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ ولم يأتِ التَّعبيرُ به مُضمرًا بأنْ يقولَ: إنّه بكلّ شيءٍ عليمٌ، لتربيةِ المهابةِ في قلوبِ المؤمنين، وذلك بالعمَلِ على قطْعِ الوساوسِ الدّاخليّةِ الّتي تنتابُهم بحكم الصّلاة والقُربات في أمرِ استغفارِهم للمُشركين.

فائِدةُ تنكيرِ ﴿شَيۡءٍ﴾ وتوكيدِها:

علم الله محيطٌ بجميعِ الأشياءِ دقيقِها وجليلِها

جاءَ التَّعبيرُ القرآنيُّ بكلمةِ ﴿شَيۡءٍ﴾ مُنكَّرةً، لإفادةِ العُموم، فأصْلُ إطلاقِه أنّه يقعُ على الموجودِ والمعدوم، وعلى هذا كان التَّعبيرُ مُشيرًا إلى علْمِه سُبحانَه بجميعِ الأشياء[2]، الّتي من جُملتِها حاجتُهم إلى بيانِ ما لا يَستقِلُّ العقلُ بمعرفتِه[3]، لعجْزِه عن إدراكِ المُرادِ، فيأتي الشّرعُ لبيانِه.

دلالةُ الباءِ: ﴿بِكُلِّ﴾:

علمُ الله محيطٌ بكلِّ شيءٍ، فلا يخفَى عليه شيءٌ من أمرِ خَلْقِه

دلّتِ الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾ على المُلابَسةِ، فعِلْمُه

---

(1) طنطاوي، الوسيط: 6/416.

(2) مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية إلي بلوغ النهاية: 4/3176.

(3) إسماعيل حقي روح البيان: 3/523.

سُبحانَه مُتلبِّسٌ في كلِّ شيءٍ، صغيرًا كان أو كبيرًا، ظاهرًا كان أو باطنًا، موجودًا كان أو معدومًا، لو وُجِدَ كيف كانَ يكُونُ.

لا يَعزُبُ عن عِلمِ الله مِثقالُ ذرّةٍ في هذا الكونِ

دلالةُ التّعبيرِ بِ(كلّ) في: ﴿بِكُلِّ شَىۡءٍ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بلفظِ ﴿بِكُلِّ﴾ دون غيرِه، للدّلالةِ على أنّه يفيدُ الاستغراقَ الّذي يُحيطُ بالأشياءِ من كلِّ جانبٍ من بابِ إحاطةِ الإكليلِ، وسُمّي بذلك لإطاقتِه بالرّأسِ[1].

غرضُ تقديمِ شِبهِ الجُملةِ: ﴿بِكُلِّ شَىۡءٍ﴾:

بيانُ الاعتناءِ بالمقدَّمِ والتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ

قدَّم شِبْهَ الجملةِ ﴿بِكُلِّ شَىۡءٍ﴾ هُنا لإفادةِ الاعتِنَاءِ والاهتِمَامِ بالمُقَدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ وهو كمالُ علْمِ اللّه تعالى.

سِرُّ التَّعبيرِ بصِيغةِ المبالغةِ ﴿عَلِيمٌ﴾:

الجمعُ بين صِفةِ العلْمِ وتعدّدِ وجوهِهِ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بصِيغةِ المبالغةِ ﴿عَلِيمٌ﴾ دون غيرِها كـ(العلّام) مع اشتراكِهما في صِفةِ العلْمِ، إلّا أنّ صِيغةَ ﴿عَلِيمٌ﴾ هي المناسبةُ لهذا السّياقِ فيما يتعلّقُ بالنّهيِ عنِ الاستغفارِ، وهذا أمرٌ له تعلُّقٌ في الظّاهرِ والباطنِ يتناسَبُ معه وصفُ العليمِ، أمّا صِيغةُ المبالغةِ (علّام) فهي دالّةٌ على كثرةِ علْمِه وتعدُّدِ مناحيه وأنّه لا نهايةَ له، ولذلك تجدُ هذا الوصْفَ مُضافًا في القرآنِ إلى ﴿ٱلۡغُيُوبِ﴾ بصِيغةِ الجمْعِ، كما في قولِه سُبحانَه: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١٠٩﴾ [المائدة: 109]، فناسبَ هنا استعمالُ صِيغةِ ﴿عَلَّٰمُ﴾ الدّالّةِ على تعدُّدِ علْمِه مُناسبةً لتعَدُّدِ غُيوبِه.

دلالةُ التّنكيرِ في لفْظِ ﴿عَلِيمٌ﴾:

المبالغةُ في الوصْفِ بالعِلْمِ تأكيدًا لشمولِ عِلْمِهِ

جاءَ التّعبيرُ القرآنيُّ بصِفةِ العلْمِ ﴿عَلِيمٌ﴾ مُنكّرةً، للدّلالةِ على التّعظيمِ والتّعميمِ، فهو يُبَيِّنُ لكم جميعَ ما تأتُون وما تذرُونَ وما يتوقَّفُ عليه الهُدَى، وما تركَه فهو إنّما يتركُهُ رَحمةً لكم ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: 52] فلا تَبحثُوا عنه[2].

(1) الرّاغب، المفردات: (كل).

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/34.

بلاغةُ ختامِ الآية بصِفةِ العِلْمِ:

دفعُ تَوَهُّمِ تأخُّرِ البيانِ بعدَمِ حصولِ العِلْمِ

اختارَ صِفةَ العِلْمِ دون غيرِها، لاتِّساعِ دلالتِها لتَشملَ كلَّ ما هو معلومٌ بالأدلّةِ والبراهين، كالقرآنِ والدِّين والوحي، فقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: إنَّه تعالى عليمٌ بجميع الأشياء، ومن جُملتِها حاجةُ النَّاسِ إلى البيانِ، فهو يُبيّنُ لهم مُهمّاتِ الدِّين بالنَّصِّ القاطعِ، ومن أجلِ هذا لم يؤاخِذْ إبراهيمَ في استغفارِه لأبيه ولا النَّبيَّ والذّين آمنوا باستغفارِهم لوالدِيهم وأُولي القُربى منهم قبْلَ التَّبيين لهذا الحُكم[1].

وفيه إشارةٌ إلى دفْعِ توهُّمِ تأخيرِ البيانِ بكَوْنِ العلْمِ لم يكُنْ حاصلاً، فجاءَ الوصْفُ بقولِه: ﴿عَلِيمٌ﴾ ليُزيلَ هذا التّوهُّمَ ولِينزّهَ الله تعالى عن تأَخُّر هذا البيانِ.

وفيه إشارةٌ إلى أنّ العِلْمَ هو الأساسُ الذي ينبغِي أن تكونَ عليه تصرّفاتُ العبادِ وأن تَنضبطَ عليه أعمالُهم.

نُكتةُ توالِي المؤكِّدات في هذا التّذْييلِ:

تأكيدُ عُمومِ علمِه تعالى وإحَاطَتِهِ بكلِّ شيءٍ

النّاظرُ في ختامِ هذه الآيةِ يجدُ أنَّ المؤكِّداتِ توالَتْ على قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾، وذلك من وجوهٍ أربعةٍ:

أحدُها: تصديرُها بحرف التّوكيدِ (إنَّ) أُمِّ أدوات التَّوكيد.

ثانيها: اسميَّةُ الجملةِ الدَّالَّةُ على دوامِ العلمِ وثباتِه.

ثالثُها: ذِكْرُ الإحاطة التَّامَّة، وذلك في قولِه: ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾.

رابعُها: ختمُ الجملة باسم العليم، وهو على زِنَةٍ من أوزانِ المبالغَة.

والغرَضُ من ذلك تأكيدُ عُموم علْمِه، وأيضًا التّعريضُ بمَنْ خالفَ الأمرَ والنَّهيَ بعد بيانِه، لكونِه العليمَ بكلِّ شيءٍ فيقبُحُ مخالفةُ أمْرِه[2].

---

(1) المراغيّ، تفسير المراغي: 11/38.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/386.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الضَّلالُ والغوايةُ:

الضَّـلالُ عـامٌّ وهـو فـقـدان الطَّريق الموصِّل، والـغـوايـة هي الـعـدول عن الطَّريق القويم تَقَصُّدًا

الضَّلال: فقدانُ ما يُوصِلُ إلى المطلوب، وقيل: هو سلوكُ طريقٍ لا يُوصلُ إلى المطلوب(1)، وكلُّ عدُولٍ عَنِ النَّهج عمْدًا أَو سَهوًا، قَلِيلًا كَانَ أَو كثيرًا(2)، فهُو ضلالٌ، وفي باب الحقِّ والباطل يكونُ الضّلالُ عُدولًا عنِ الطَّريقِ المستقيم(3)، وقد يكونُ عن قَصْدٍ أو عن غيرِ قَصْدٍ، قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: 23]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: 104]، أمَّا الغواية فهي جهلٌ مِن اعتقادٍ فاسدٍ(4)، فلَا يكونُ للغاوِي مَقْصِدٌ إلى الطَّريق المُسْتَقِيم.

وعلى ذلك، فالضَّلال أعمُّ وهو ألا يَجِدَ السَّالكُ إلى مقصِدِه طريقًا أصلًا، والغِواية ألَّا يكون له إلى المَقْصِدِ طريقٌ مستقيمٌ(5).

---

(1) الجرجاني: التَّعريفات، ص: 138.
(2) الكفويُّ، الكليات، ص: 567.
(3) المناويُّ: التوقيف، ص: 223.
(4) الرّاغب، المفردات: (غوى).
(5) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 6/199، والتَّهانوي، كشَّاف اصطلاحات الفنون: 2/1119.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ١١٦﴾ [التَّوبة: 116]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْرُ تمامِ القُدرةِ بعد ذِكْرِ تمامِ العلْمِ

لَمَّا دعتِ الآياتُ السّابقةُ إلى قطْعِ علائقِ المودّةِ والموالاةِ بين المؤمنين ومَنْ لهُمْ بِهم صِلةٌ منَ المشركين، جاءتْ هذه الآيةُ لتأخُذَ بنواصي المؤمنين باللّه إليه وحْدَه، وتُقيمَ وجوهَهُم إليه لا إلى غيرِه، لأنّه يملكُ السّماواتِ والأرضَ ويُحيي ويُميتُ، فهو الوليُّ والنّاصرُ لهم[1].

وممّا يُذكرُ في المناسبةِ أنه لَمَّا ذكَرَ تعالى في ختامِ الآيةِ السّابقةِ عِلْمَهُ بكُلِّ شَيءٍ، فهو يعلَمُ ما يَصلُحُ لكُلِّ أحَدٍ، وما هُيِّئَ له في سابقِ الأزَلِ، ذكَرَ هنا ما يُدّلُّ على القُدرةِ الباهرةِ من أنَّه له ملكُ السَّمَاواتِ والأرضِ، فيتصَرَّفُ في عبادِه بما شاء، ثمَّ ذكَرَ من أعظمِ تَصرُّفاتِه الإحياءَ والإماتةَ، أي: الإيجادَ والإعدامَ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلِيّٖ﴾: الوليّ زنةُ (فَعِيل) صيغةُ مبالغةٍ، جذرُه اللُّغويُّ من (و ل ي)، وهو بياءَيْنِ (وليي) الأولَى ياءُ الوزنِ، والثّانيةُ ياءُ الأصلِ، ثمّ أُدغمَتا فصارَ (وليّ)، والأصلُ في معناهُ دلالتُه على القُربِ[3]، ومصدرُه الولاءُ من "واليتُ بَين الشّيئَيْنِ موالاةً وولاءً، والوليّ: خلافُ العدوِّ ويُطلَق على النّاصر والمُعين"[4]، وهو المرادُ في الآيةِ الكريمةِ.

2) ﴿نَصِيرٍ﴾: وصفٌ على صيغةِ (فَعِيل) بمعنَى فاعِلٍ (ناصِر)،

(1) الخطيب، التفسير القرآني: 4/908.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/516.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(4) ابن دُرَيد، جمهرة اللُّغة: (ولي).

وهو من (ن ص ر) فعلُه نصرَ ينصرُ نصرًا، ومعناهُ المجرَّدُ: "مجارِي الماءِ: (مَسايِلُه) إلى الأَوْدِيةِ، والنّاصرُ يجيءُ من مكانٍ بعيدٍ" والعلاقةُ أنّ "الإمدادَ بما فيهِ زيادةٌ مناسبةٌ وقوةٌ: كما تمدُّ النواصرُ الأوديةَ والتّلاعَ بالماءِ"[1]، ومن هذا الملحظِ جاءتِ النُّصرةُ بمعنًى: إعانةِ المظلوم، ومَن به حاجةٌ لذلكَ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

اللـه وحـدَه مالكُ السَّماواتِ والأرضِ وهـو وحـدَه النَّاصرُ لأَوْليائِه

بيّنتْ هذه الآيةُ أنَّ اللّه تعالى وحدَه له ملكُ السَّماواتِ والأرضِ وما فيهما، لا شريكَ له في الخلقِ والتَّدبيرِ والعبادةِ والتَّشريع، وهو المُتصرِّفُ فيهما بالإحياءِ والإماتةِ، يُحْيِي مَنْ شاء إحياءَه، ويُميت مَنْ شاء إماتتَه، وليس لكم سوى اللّه من وليٍّ يتولَّى أمرَكم، ولا نصيرٍ ينصرُكم ويُدافِعُ عنكم[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكتةُ فصلِ الآيةِ عن سابِقتِها:

ملكُ الله تعالى للسّماواتِ والأرضِ يَقتضِي علْمَه بكلِّ شيءٍ

فُصِلتْ هذه الآيةُ عن سابِقتِها، لأنّها تذييلٌ في قوّةِ التَّأكيدِ لقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾، ولذلك فصلَ بدون عطْفٍ لكمالِ الاتّصالِ بينهما، لأنَّ ثُبوتَ مُلكِ السَّماواتِ والأرضِ للّه تعالى يقتضِي أن يكونَ عليمًا بكلِّ شيءٍ، لأنَّ تَخَلُّفَ العلْمِ عنِ التَّعلّقِ ببعضِ المُتملَّكاتِ يُفضِي إلى إضاعةِ شُؤونِها[3].

بلاغةُ التَّأكيدِ:

إثبـاتُ صِفةِ العلْمِ وبيانُ سببِها

افتتاحُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ بـ ﴿إِنَّ﴾ مع عدمِ الشَّكِّ في مضمُونِ الخبرِ، يُعَيِّنُ أنَّ (إنَّ) لمجرّدِ الاهتمامِ

(1) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (نصر).
(2) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المُنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 281، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 205، وجماعةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 205.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/48.

فتكونُ مُفيدةً معنَى التَّفريعِ بالفاءِ والتَّعليلِ[1]، والآيةُ الكريمةُ تُؤكِّدُ علْمَ اللّه تعالى الّذي خُتمتْ به الآيةُ السَّابقةُ، فهذه الآيةُ السَّاميةُ الأخيرةُ، تُؤكّدُ علْمَ اللّه تعالى الشّاملَ، وتُبيِّنُ سببه بسُلطانِ اللّه تعالى المطلَقِ، الّذي يُدَبِّرُ كلَّ شيءٍ فيه على مُقتضَى علْمِه وحكمتِه، قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة: 117]، وبيّنَتْ أنَّ ملكَه لا يكونُ على الإنسانِ فقط، بل هو على السَّماواتِ بأبراجِها والأرضِ بطبقاتِها لا يخرجُ عن مُلكِه شيءٌ[2].

نُكتةُ إظهارِ الاسمِ الجليلِ:

بيانُ كمالِ التَّعظيمِ والجلالِ الدَّالِّ على كمَالِ المُلكِ

جاءَ التّعبيرُ القرآنيُّ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ مُظهرًا اسمَ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾، للدّلالةِ على أنّه المَلِكُ الأعظمُ المحيطُ بصفاتِ الكمالِ[3]، ولم يأتِ به مُضمَرًا من بابِ التّعظيمِ وتربيةِ المهابةِ في نفوسِ خلْقِه[4]، ولأنَّ لفظَ الجلالة (اللّه) هو الاسمُ العلَمُ الجامعُ لسَائرِ الصِّفاتِ، وهذا هو المناسبُ لسياقِ الآيةِ، فاللّه له كلُّ صفاتِ الجمالِ والكمالِ، فلا ينازعُه منازعٌ، ولا يتأتّى ذلك إلّا في لفْظِ الجلالةِ[5].

فائدةُ تقديمِ شِبْهِ الجُملة ﴿لَهُۥ﴾:

اختصاصُه سبحانه بالمُلكِ الكاملِ دونَ سواه

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ في قولِه تعالَى: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وهو تقديمٌ جائزٌ عربيَّةً، وأصلُ النَّظمِ: (مُلكُ السّماواتِ والأرضِ له) ولتقديمه فائدتان بلاغيّتان، أمَّا الأولَى: فهي الاختصاصُ، أي: اختصاصُه بالمُلكِ دونَ سواه لا يُشارِكُه في ذلك مُشارِكٌ، ولا يُنازِعُه مُنازِعٌ يتصرّفُ في مُلكِه بما يشاءُ منَ التَّصرّفاتِ[6].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/48.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3463.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/34.
(4) الثعلبي، الكشف والبيان: 5/104.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 1/354.
(6) القنوجي، فتح البيان: 3/189.

وأمَّا الثَّانيةُ فهيَ التَّشويقُ لما بعدَه، فإذا قرأَ القارئُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ﴾ تشوَّقَ السَّامعُ ليعرفَ ما لهُ[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ ﴿مُلۡكُ﴾:

من لوازمِ ثُبوتِ المُلكِ كمالُ التّصرّف فيه

وصَفَ ربُّنا ﷻ نفسَه بأنَّ ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ ليبيِّن جوازَ تَصرُّفاتِه في مملكتِه بما يشاءُ منَ الإضلالِ والهدايةِ والمغفرةِ والعذابِ وغيرِ ذلك[2]، فهو مالكُ المُلْكِ منَ العرش إلى الثَّرى، وفيه إعلامٌ بأنَّ التّصرّفَ المطلَقَ له في الضَّلالةِ والهدايةِ والحياةِ بالوَصْلَة، والموتِ بالفُرْقَة[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِه تعالى: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ﴾ بالضَّمّ:

مُلكُ اللهِ سلطانُه علَى الخلْقِ وتصرّفُه المطلَقُ في مخلوقاتِه

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بـ(المُلك) دون (المِلك)، لوجودِ فرقٍ بينهما، فالمُلك يرادُ به ملكُ السّلطانِ وسياسةُ الحُكم، أمّا (المِلك) فالمرادُ إثباتُ الملكيّةِ، من قولِك: ملَكَ فلانٌ هذا الشّيء فهو يَملكُه مِلكًا، وقد يكونُ الإنسانُ مِلكًا للشّيء ولا يملكُ التّصرّفَ فيه، أمّا المُلك فهو مالكٌ للتّصرّفِ فيه، لذلك لمّا كان المرادُ هنا إثباتَ سُلطانِه سُبحانه وتصريفَه لملكِه، جاء التَّعبيرُ بـ(المُلك) دون (المِلك).

سِرُّ التَّعبيرِ بالاسميّةِ في الملكِ: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ﴾ دونَ الفعليّةِ:

بيْنَ صِفةِ الذّاتِ وصِفةِ الفعْلِ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالاسميّةِ في (المُلك)، للدّلالةِ على ثُبوتِه واستمرارِه فهو ﷻ مالكُ المُلك، فلا ينفكُّ عنه، لأنّه صِفةُ ذاتٍ، بخلافِ الإحياءِ والإماتةِ حيث قال: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ﴾ فهو صِفةُ فعْلٍ، والفعلُ يُناسبُه التَّجدّدُ والحُدوثُ.

سِرُّ تخصيصِ السّماواتِ والأرضِ بالذِّكرِ دونَ غيرِهما:

السّماواتُ والأرضُ أعظمُ المخلوقاتِ المحسوسةِ بما فيها منَ الآياتِ والبراهينِ

النّاظرُ في هذه الآيةِ القرآنيّةِ يجدُ تخصيصَ ملكِه سُبحانه

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/34.

(2) الجرجاني، درج الدرر: 1/801.

(3) البقلي، عرائس البيان: 2/54.

بالسّماوات والأرض مع أنّه يملكُ الدّنيا والآخرةَ جميعًا، لكنّه آثرَ تخصيصَهما بالذّكْر هنا، لأنّهما أعظمُ المخلوقاتِ المحسوسةِ بما فيهما منَ الآياتِ والبراهينِ، وأيضًا، لأنّ المخلوقاتِ جميعًا بينَهما، فإمَّا أن تكونَ المخلوقاتُ في السّماوات أو تكونَ في الأرض، والملكيّةُ لهما ملكيّةٌ على ما فيهما.

بلاغةُ جَمْعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفرادِ ﴿وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

بيانُ كونِ السَّماواتِ أجناسًا مختلفةً والأرضِ جنسًا واحدًا

جَمعَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، لأنَّها أجناسٌ مُختلفة، كلُّ سماءٍ من جنْسِ غيرِ الأخرَى، وَوَحَّدَ ﴿وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، لأنَّها كُلَّها تُرابٌ[1]، ولأنَّ الأرضَ عالَمٌ واحدٌ، والمعنى: أنَّ في خلْقِ السَّماوات جمعًا مع إفراد الأرض آياتٍ تُدلّلُ على مُلكِه للسّماواتِ والأرضِ.

سِرُّ عطْفِ الأرضِ على السّماوات:

عُمومُ مُلك الله للسّماواتِ والأرضِ

جُعلتِ الأرضُ معطوفةً علَى السَّماواتِ في قولِه تعالى: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، ليَتسلَّطَ المُضاف عليهما، أي أنّ مُلكَ اللهِ شاملٌ لكلِّ المخلوقاتِ في الأرضِ وفي السّماوات كلِّها، فهو المَلكُ الّذي لا يَخرجُ عن مُلكِه سُبحانَه شيءٌ قَلَّ أو كثُرَ، جلَّ أو حقُرَ[2].

سِرُّ تقديمِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

مَكانَةُ السَّماواتِ وعظَمتُها

قُدِّمَ ذِكْرُ السَّماواتِ على الأرضِ جريًا على عادةِ القرآنِ الكريم، فإنّ القرآنَ قدَّمَ ذِكرَ السَّماواتِ على الأرضِ في أكثرِ آياته، ولم يتأخَّرْ ذِكرُها إلّا في القليلِ جدًا، وقُدِّمتْ أيضًا من باب تقديم الأعظم والأعلَى، فالشّأنُ أنْ يتقدَّمَ ذِكرُ الأعظم والأعلَى مكانًا على غيرِه، إلّا إنْ كانَ هناكَ ما يُوجبُ خلافَه، والتَّقديمُ للأهميّةِ والقداسةِ، فالسَّماء فيها العرشُ والكرسيُّ.

---

(1) النّيسابوريُّ، التّفسير البسيط: 3/453، والبغويُّ، معالم التّنزيل: 1/195.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/77.

سِرُّ الإتيانِ بصِفةِ الإحياءِ والإماتةِ بعد المُلك:

جاءَ التَّعبيرُ القرآنيُّ بصِفةِ الإحياءِ والإماتةِ بعد المُلك، للتّدليلِ على قُدرتِه وعِلْمِه بما يُشاهَدُ مُتكرِّرًا من فعْلِه في الحيوانِ والنَّباتِ وغيرِ ذلك فقال: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ﴾ أيْ: بكلِّ معنى فهو الّذي أحياكُم وأحيا غيرَكم الحياةَ الجسمانيَّةَ وخصّكُم أنتم بالحياةِ الإيمانيَّة[1]، فهو المُدبِّر لعبادِه بالإحياءِ والإماتةِ، وأنواعِ التَّدابيرِ الإلهيَّةِ.

الموتُ والحياةُ دلائلُ اللهِ على قُدرتِه وعلْمِه وكمالِ مُلكِه لكلِّ شيءٍ

نُكتةُ الفصْلِ: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾:

فُصِلَ قولُه سبحانه: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ﴾ عن قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، لأنّه أتَى بالأمرِ الّذى يظهرُ فيه أثرُ القدرةِ والمُلك، ولا يشاركُه فيه غيرُه، فقال: يُحْيِي وَيُمِيتُ[2]، فـ(يُحيي ويُميت) لتصويرِ معنَى المُلك في أتمِّ مظاهرِه المحسوسةِ للنَّاس المُسَلَّم بينَهم أنّ ذلك من تصرُّفِ اللّه تعالى لا يستطيعُ أحدٌ دفْعَ ذلك ولا تأخيرَه[3]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه يجبُ أيُّها المؤمنون ألّا تجزعُوا من عدوٍّ وإن كَثُر، ولا تهابُوا أحدًا، فإنَّ الموتَ المخوفَ والحياةَ المحبوبَة، هُما بيدِ اللّه ﷻ[4]. فالفصْلُ لكمال اتّصالها بما سبقَها، أو لأنّها وقعت استئنافًا بيانيًّا عن سؤالٍ مقدّرٍ: ما مظاهرُ مُلكِه للسّماوات والأرض؟

بيانُ آثارِ المُلْكِ ومَظاهرِه

دلالةُ حذْفِ مُتعلّقِ الإحياءِ والإماتةِ: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ﴾:

حُذفَ مُتعلّقُ الفعْلِ ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ﴾، لإفادة العموم، ليشمَلَ كلَّ ما من شأنِه أن يحيا ويموت، فالإحياءُ: يكونُ بالخلْقِ والإيجادِ الظّاهِرَيْن، ويكونُ الإحياءُ بالإيمان على سبيلِ الاستعارةِ التَّبعيّة، ومثلُه في الإماتةِ، ونظيرُه في هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا

كلُّ المخلوقاتِ حياتُها وموتُها بيدِ اللهِ، يَهبُها أو يَسلبُها

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/34.

(2) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 9/5543.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 11/48.

(4) الزُّحيلي، التَّفسير الوسيط: 1/924.

﴿فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾ [الأنعام: 122][1].

فيُحيي مَنْ شاء على الإيمان ويُميتُه عليه، ويُحيي مَنْ شاء على الكفر ويُميته عليه، لا اعتراض لأحدٍ عليه في حُكمِه وعبيدِه[2]، لأنّه هو الّذي يهبُ الحياةَ الحيوانيَّةَ والحياةَ المعنويَّةَ الرُّوحيَّةَ بمحْضِ قُدرتِه ومشيئتِه ومُقتضَى سُنَنِه في التَّكوينِ والهدايةِ الفعليَّةِ، ويميتُ ما شاء منَ الأبدان بانقضاء آجالِها المقدَّرةِ في علْمِه، ومنَ الأنفُسِ بنُكوبِها عن صراطِ هدايتِه[3].

نُكتةُ تقديمِ الإحياءِ على الإماتةِ: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾:

تجلّي المُلكِ والقُدرةِ في الإيجادِ والإحياءِ أكثرُ منه في الإماتةِ والإعدامِ

قدّمَ الإحياءَ على الإماتةِ في قولِه تعالى: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ مع أنّه في مواضعَ أُخرى كان يقدّمُ الموتَ على الحياةِ كقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ [الملك: 2]، لأنَّ السّياقَ هنا اقتضَى ذلك، فالحياةُ هي الصِّفةُ الّتي يكونُ الموصوفُ بها بحيث يَصِحُّ أن يَعْلَمَ ويَقْدِرَ، والموتُ عبارةٌ عن عدمِ هذه الصِّفةِ[4]، وبهذا الاعتبارِ قدَّمَ الإيجادَ على الإعدامِ، ولتجلِّي المُلك والقُدرة في الإحياءِ قُدِّم على الإماتة، لأنَّ المرءَ قد يَقْتُلُ غيرَه ويدّعي أنَّه أماتَه، ولكنْ أنَّى له أن يُحْيِيَه.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعْلِ المضارعِ ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾:

الدّلالةُ على التّجدّدِ الاستمراريِّ

جاءَ التَّعبيرُ بالفعْلِ المضارعِ في صِفةِ الإحياءِ والإماتة، للدَّلالةِ على تجدُّدِهما واستمْرارِهما في جنْسِ المخلوقاتِ الحيوانيِّة، بل وفي النّباتاتِ، وهذا أمرٌ مُشاهدٌ يُؤيّده الواقعُ، ففي كلِّ دقيقةٍ أو أقلّ يحدث ما لا يُحصَى من عملياتِ الإحياءِ والإماتةِ.

---

(1) الدّرة، تفسير القرآن الكريم: 4/247.
(2) الشِّربيني، السراج المنير: 1/746.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 11/63.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/579.

اللهُ مَولَى المؤمنين وناصِرُهم، والمشركُونَ لا مَولَى لهم ولا ناصِرٌ

دلالةُ الواوِ: ﴿وَمَا لَكُم﴾:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا لَكُم﴾ عاطفةٌ، عطفَتْ قولَه تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ على ما سبَق منَ الآية، والغرَضُ من ذلك تأييدُ المسلمين بأنَّهم منصورُون في سائِرِ الأحوال، لأنَّ اللّه وليُّهم فهو نصيرٌ لهم، ولإعلامِهم بأنَّهم لا يَخشَوْن الكفّار، لأنَّ الكافرينَ لا مولَى لهم، وذلك مُناسِبٌ لغرَضِ الكلامِ المتعلّقِ باستغفارِهم للمشركين بأنَّه لا يُفيدُهم[1]، وفيه إشارةٌ إلى تحريض اللّه تعالى لعبادِه المؤمنين على قتال المشركين والكافرين، وأن يثقُوا بنصْرِ اللّه مالِكِ السَّماوات والأرض ولا يرهبُوا من أعدائِه، فإنَّه لا وليَّ لهم من دون اللّه ولا نصيرَ لهم سِواه[2].

تَنبيهُ المؤمنين للوَلايةِ والنُّصرةِ الحَقَّةِ وأنَّها من الله تعالى

دَلالةُ كافِ الخطابِ في: ﴿لَكُم﴾:

الخطابُ للمؤمنين، ومعناه: وما لكم أيُّها المؤمنون من وليٍّ يُواليكم وتُحبُّونه إلَّا اللّه تعالى، ولا نصيرَ يَنصرُكم سواه، فلا تُؤْثِروا عليه قَرابةً أشركتْ باللّه وعصَتْ رسولَه الذي أرسلَه رحمةً للعالمين، فهو سُبحانه أَوْلى بخَلْقِه، يَهدِي مَنْ يشاءُ ويُضِلُّ مَنْ يشاءُ[3].

وفيه إشارةٌ إلى حقيقةٍ كونيّةٍ خالدةٍ، وهي مُلكُه سُبحانه للكونِ كلِّه وقَيوميّتُه عليه ونفيُ ذلك عن غيره.

بيانُ تحقيرِ رُتبةِ الأولياءِ والنَّاصِرين من غيرِ الله مهمَا كانتْ قرابتُهم

دلالةُ ﴿مِّن﴾ في: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

دلّتْ ﴿مِّن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ على تأكيدِ اختصاصِه سُبحانَه بوَلايةِ المؤمنين ونُصرتِهم دون سواه، لأنّه لَمَّا كان الدّعاءُ والاستغفارُ للمُشركين من ذوي القُربى يُفهمُ منه معنَى النُّصرة، نهَى المؤمنين عن ذلك، وفيه تهديدٌ لِمَنْ أَقْدمَ على فعْلِ ذلك مُلاينةً لأعداءِ اللّه، طلبًا لمُوالاتِهم، وهي لا تُغني منَ اللّه شيئًا[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/48.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/199.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3463.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/35.

لا تُطلبُ الولايةُ والنّصرةُ ممّن لا يملكُ لنفسه نفعًا ولا ضرًّا

مَعنى ﴿دُونِ﴾ وإضافتِها إلى لفْظِ الجلالةِ:

دلَّ التَّعبيرُ بقولِه تعالى: ﴿دُونِ﴾ مع إضافتِها إلى لفْظِ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾على أنَّ كلَّ الولاياتِ والنّصرةِ من غيرِ اللّه حقيرةٌ، لأنَّ ﴿دُونِ﴾ نقيضُ (فوقَ)، وهو ظرفٌ يَدُلُّ على التَّقصيرِ عنِ الغايةِ[1]، وَصفُوا بِهِ مَا لَيْسَ برفيعٍ[2]، فَقَالُوا رجلٌ دُونٌ وثوبٌ دُونٌ، وهَذَا دُونَك في التَّحْقيرِ، ويُقالُ: دُونَك زَيْدٌ في المَنْزلَةِ والقُرْبِ[3]، فالمادّةُ تدورُ حولَ الرّفعةِ وعدمِ الرّفعةِ، وفي هذا ذمٌّ لكلِّ وَلايةٍ ونُصرةٍ من دونِ اللّه.

بيانُ عجزِ كلِّ وليٍّ ونصيرٍ من دونِ اللهِ على العُمومِ

نُكتةُ تَنكيرِ ﴿وَلِيّ﴾ و﴿نَصِيرِ﴾:

في تنكيرِ ﴿وَلِيّ﴾ و﴿نَصِيرِ﴾ وتنوينِهما دليلٌ على العمومِ والتّحقيرِ، فكلُّ وَليٍّ ونصيرٍ جليلًا كان أو حقيرًا مهما كان وفي أيِّ زمانٍ كان اتُّخذِ من دونِ اللّه ﷻ لا تَكمُلُ وَلايتُه ونُصرَتُه لِمَنْ والاه ونصرَه.

قُربُ الوليِّ وسُهولةُ حالِه في الشّفاعةِ والقيامِ بالأمورِ

نُكتةُ تقديمِ الوليِّ على النَّصيرِ: ﴿وَلِيّ وَلَا نَصِيرِ﴾:

قُدِّمَ الوليُّ على النَّصيرِ لأمريْن اثنيْن:

الأوّلُ: القربُ، فالوليُّ أقربُ منَ النَّصيرِ، إذْ به تقومُ الأمورُ والأحوالُ، ثمّ يكونُ النَّصيرُ في أحوالِ النُّصرةِ والتَّأييدِ[4].

الثّاني: السُّهولةُ، "لأنَّ الرّكنَ الشَّديدَ الّذي يستندُ إليه، إمّا وليٌّ يَشفعُ أو ناصِرٌ يَدفعُ، والأوّلُ أسهلُ الطَّريقيْنِ، فلذلكَ قُدّمَ الوليُّ على النَّصيرِ[5].

التّأكيدُ على نفيِ أوهامِ الأفهامِ أن يكونَ هناك نصيرٌ من دونِ اللهِ

بلاغةُ العطْفِ وتَكرارِ النَّفْيِ مع ﴿نَصِيرِ﴾:

عُطفَ النَّصيرُ على الوليّ في قولِه: ﴿وَلِيّ وَلَا نَصِيرِ﴾، للاحتراسِ،

---

(1) الجوهري، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (دون).

(2) ابن سيده، المخصَّص: 4/234.

(3) الزبيدي، تاج العروس: (دون).

(4) ابن جرير، جامع البيان: 2/489.

(5) النيسابوري، غرائب القرآن: 5/380.

فالوليُّ "قد يضعُفُ عنِ النُصرةِ، والنَّصيرُ قد يكونُ أجْنبيًّا من المنصور"[1]، فلِحصولِ التَّكاملِ بينَ وَلايةِ الوليّ ونُصرةِ النَّصيرِ عطفَ الواحدَ على الآخرِ "لأنَّ نفيَ الوليّ لا يقتضِي نفيَ كلِّ نصيرٍ إذْ لا يكونُ لأحدٍ وليٌّ لكونِه دخيلًا في قبيلةٍ، ويكونُ أنصارُه من جيرتِه"[2]، فكَمنتْ بلاغةُ الاحتراسِ في اكتمالِ المعاني، ونفْيِ أيِّ ظنٍّ يرِدُ على الأذهانِ في نصرةِ أحدٍ من دونِ اللّهِ تعالى.

بلاغةُ توسُّطِ (لا) بين المعطوفَيْن: ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾:

لتأكيد نفي النّصرة، وإلهابِ المشاعر

وُسّطتْ (لا) بين المعطوفَيْن، لتأكيد النّفي، لأنّه لا يَستلزمُ نفيُ الوليّ نفيَ النّصير، وهذا من باب إلهاب المشاعر، لأنَّ الغرضَ من نفيِ الوَلاية هنا التَّعريضُ بمَنِ استغفرَ للمُشركين ولو كانوا أُولي قُربى.

دلالةُ الجمْع بين الوليِّ والنَّصير: ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾:

لا وَلاية ولا نُصرة إلا من عندِ الله وبإذنه

جمعَ القرآن الكريم الوَلايةَ والنُّصْرَةَ لقَطْع الأطماع في الانتفاع بالوَلايةِ والنُّصرةِ من غيرِ اللّه، لأنّه مَنْ علِمَ أنّه لا وليَّ له يَحميه، ولا نَصيرَ يدفعُ عنه إذا ارتكبَ شيئًا كان أبعدَ عن ارتكابِه.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الوليُّ) و(المولى) و(النَّصيرُ):

الـوَليُّ خـاصٌّ بـالـمؤمـنين، والمؤلى عامٌّ

المَوْلى: هُوَ السَّيِّدُ، والحليفُ، وَابْنُ العمِّ، وَالأَولَى بالشَّيْء، والصَّاحِبُ المعين.

والمعنَى في حق اللّه: المُعين الذي تركن إليه وتعتمدُ عليه وتَحتمي به عندَ الشّدّةِ والرَّخاءِ، وفي السّرّاءِ والضّرّاءِ[3].

والوَليُّ في أسماء اللّه تعالى خاصٌّ بالمؤمنين، فاللّه وليُّ المؤمنين؛ أيِ: مُعينُهم، وَالمُؤمن وليُّ اللّه؛ أيِ: المُعانُ بنصْرِ اللّه ﷻ[4] كقوله

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/235.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/695.
(3) ابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَب: (ولي).
(4) العسكري، الفروق اللّغوية، ص: 284.

تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: 257]، أمّا المَولَى فيُطلقُ على المعنَى الخاصِّ بالمؤمنين كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمّد ﷺ: 11]، ويُطلقُ أيضا بالمعنَى العامِّ مثل قولِه تعالى: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: 30].

ولا تعارُضَ بين الآيتَيْن الكريمتَيْن، إذ معنَى كونِه مولَى الكافرين أيّ: مالكُهم والمتصرِّفُ فيهم بما شاء، ومعنَى كونِه مولَى المؤمنين دونَ الكافرين: أيّ وَلايةَ محبَّةٍ وتوفيقٍ[1].

الـوَلايـةُ تـكـونُ بإخلاصِ المَودَّةِ، والنُّـصـرةُ تـكـونُ بالمعونة

أمَّا الفرقُ بين الوَليِّ والنَّصير، فإنَّ الوَلايةَ تكونُ بإخلاصِ المودَّةِ، والنُّصرةَ تكونُ بالمعونةِ والتَّقويةِ، وقد لا تُمكِنُ النُّصرةُ مع حصولِ الوَلايةِ[2].

ومنَ الفرْقِ بينَهما أيضًا أنّ الوليَّ قد يضعفُ عنِ النُّصرةِ، وأنَّ النّصيرَ قد يكونُ أجنبيًّا عنِ المنصور، وقد يكونُ من أقربائِه، فكلُّ وليٍّ نصيرٌ وليس كلُّ نَصيرٍ وليًّا، فبينهما عمومٌ وخُصوصٌ.

(1) الشِّنْقيطي، دَفْعُ إيهامِ الاِضْطِرابِ، ص: 89.
(2) العسكري، الفروق اللُّغوية، ص: 189.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧﴾ [التّوبة: 117]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أنّه لمّا ذكرَ في ختامِ الآيةِ السّابقةِ أنّه سُبحانُه هو وليُّهم وناصرُهم؛ ذكرَ في هذه الآيةِ الدّليلَ على ذلك بقولِه: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية، فاللّٰه الذي له الجلالُ والإكرامُ تزدادُ ولايتُه ونُصرتُه للرّسولِ ﷺ وللمؤمنين برفْعِ درجاتِهم، فما مِن مَقامٍ يرتقُون فيه إلّا ودلَّهُم عليه[1].

ومِنَ المناسبةِ أيضًا أنّه لَمَّا تقدَّمَ الكلامُ في أحوالِ المُنافِقينَ مِن تَخلُّفِهم عن غزوةِ تَبوكَ، واستطرَدَ إلى تقسيمِ المُنافِقينَ إلى أعرابٍ وغيرِهم، وذكَرَ ما فعلُوا مِن مَسجدِ الضِّرارِ، وذكَرَ مُبايعةَ المؤمنينَ اللّٰهَ في الجِهادِ وأثنَى عليهم، وأنَّه ينبغي أن يُبايِنُوا المُشرِكينَ، حتَّى الذين ماتُوا منهم بتَرْكِ الاستغفارِ لهم عادَ إلى ذِكْرِ ما بَقِيَ مِن أحوالِ غَزوةِ تَبوكَ[2]، فهذه الآياتُ تَتِمَّةٌ ما تقدَّمَ مِن موضوعِ تَوبةِ المتخلِّفينَ عن غزوةِ تَبُوكَ، أُخِّرَت على سُنَّةِ القرآنِ في تفريقِ الآياتِ في الموضوعِ الواحِدِ، لأنَّه أدْنى ألَّا يَسأَمَ التَّالي لها في الصَّلاةِ وغَيرِها، وأقوَى في تجديدِ الذِّكرى، والتّأثيرِ في النَّفسِ[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡعُسۡرَةِ﴾: العُسْرَةُ: قِلَّةُ ذاتِ اليَدِ، والعُسْرُ: نَقيضُ اليُسْرِ، وأَصْلُ (عُسْرٍ) يَدُلُّ عَلَى صُعُوبَةٍ وَشِدَّةٍ، والعُسْرَةُ: تَعَسُّرُ وُجودِ المالِ، والعُسْرَة والمَعْسَرَة: خِلافُ المَيْسَرَة، وأَعْسَرَ الرَّجُلُ إِعسارًا، إذا افْتَقَرَ[4]، والمعنى هنا: في ساعَةِ العُسْرَةِ، أي: وقتِها، وهي شدّةُ حالِهم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 3/396.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/516.

(3) محمد رضا، تفسير المنار: 11/52.

(4) الخليل، العَيْن: (ع س ر)، وابن دُريد، جمهرةُ اللُّغة: (رسع)، وابنُ فارس، مقاييسُ اللّغة، والزّبيديُّ، تاجُ العروس، والرّاغب: المُفرداتُ: (عسر).

في غزوة تبوك من عُسرةِ الظَّهرِ والزّادِ والماءِ حيث كان الرَّجلان يَقتسمان تمرةً، والعشرةُ يَعتقبون البعيرَ الواحدَ، واشتدَّ الحَرُّ حتَّى شَرِبُوا الفَرْثَ[1].

2) ﴿يَزِيغُ﴾: أي: تَعدِلُ وتَميلُ عنِ الحَقِّ، وأصلُ (زيغ): يدلُّ على مَيلِ الشَّيءِ عنِ الاستقامةِ[2]، يُقالُ: زَاغَ يزيغ زيغًا، والتَّزيُّغ: التَّمايُلُ، وقومٌ زاغةٌ، أي: زائغونَ، وزاغتِ الشَّمسُ، وذلك إذا مالتْ وفاءَ الفيءُ، والمَعْنَى هُنا: من بعد ما كادَ يميلُ قلوبُ بعضِهم عنِ الحقِّ، بالذي نالَه منَ المشقَّةِ والشِّدَّةِ في سفَرِه وغَزْوِه[3].

3) ﴿رَءُوفٌ﴾: أي: شديدُ الرَّحمةِ، أو ذو رحمةٍ واسعةٍ، ورءوف من صِيغِ المبالغة (فعولٌ) بمعنى فاعلٌ؛ أي: كثير الرّأفة، والرّأفةُ أشدُّ الرّحمةِ أو أرَقُّها[4]، وفعلُه رَؤُفَ به ورَأَفَ ورَئِفَ؛ أي ثلاثيّة الهمزة بضمّ الهمزة وفتحها وكسرها، وكلّه من كلام العرب[5]، وأصلُ (رأف): يدلُّ على رِقَّةٍ ورَحمةٍ[6].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

لُطْفُ الله تعالى بعبَادهِ وتَوفيقُه لهم

بيّنَتْ هذه الآيةُ توفيقَ اللهِ لنَبيِّه محمَّدٍ ﷺ إلى الإنابةِ إليه وطاعتِه، وتابَ اللهُ على المهاجرين الذين هجَرُوا ديارَهم وعشيرتَهم إلى دار الإسلام، وعلى الأنصارِ الذين لم يَتَخَلَّفُوا عنه، بلِ اتَّبعوه في غزوةِ تبوكَ مع شِدَّة الحرِّ وقِلَّةِ ذاتِ اليد وقوَّةِ الأعداءِ، لقد تاب اللهُ عليهم من بعدِ بعدَ ما كادَ يَميلُ قلوبُ بعضِهم عنِ الحقِّ، فيَميلُون

---

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/279، والغزنويُّ، باهر البرهان: 1/623، والصَّاوي، حاشية الصَّاوي على الجلالَيْن: 2/77.
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 193، وابن جرير، جامع البيان: 12/49، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (زيغ)، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 148، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 229.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/539.
(4) الفيروزآبادى، القاموس المحيط: (رأف).
(5) الشّيخليّ، بلاغة القرآن الكريم: 1/430.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 3/595، والسِّجستاني، غريب القرآن، ص: 235، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رأف)، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 114.

إلى الدَّعةِ والسُّكونِ، لِما هُمْ فيه منَ الشِّدَّةِ العظيمةِ، ثُمَّ غَفَرَ اللّٰه لهم هذا الهَمَّ الذي خَطَرَ بنفوسِهم ووفّقَهُم للثَّباتِ والخروجِ إلى الغزوِ، إنَّه سُبحانَه كثيرُ الرَّأفةِ بهم، عظيمُ الرَّحمةِ، ومن رحمتِه توفيقُهم للتَّوبةِ وقَبولُها منهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دَلالةُ فصْلِ هذه الآيةِ عمّا قبْلَها:

ثناءُ اللهِ على الذين دُعُوا للغزْوِ واقتحمُوا شدائِدَه

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾، لأنّها جملةٌ استئنافيّةٌ ابتدائيّةٌ الغرَضُ منها الانتقالُ منَ التَّحريضِ على الجهادِ والتَّحذيرِ منَ التَّقاعُسِ والتَّوبيخِ على التَّخلُّفِ عنه إلى بيانِ فضيلةِ الذين انتُدِبُوا للغزوِ واقتحمُوا شدائِدَه.

دلالةُ اللّامِ في: ﴿لَّقَد﴾:

توكيدُ التَّوبةِ، وتَحقُّقُ وقوعِها وقُوعًا تامًّا كاملًا

اللّامُ في ﴿لَّقَد﴾ هي اللّامُ الواقعةُ، في جواب قسَمٍ مُقدَّرٍ، وهذا القسَمُ لتوكيدِ التَّوبةِ، ووقوعِها وقُوعًا تامًّا كاملًا، لم يبقَ معها ذنْبٌ، أو معصيةٌ، فهي توبةٌ يخرجُ بعدَها مَنْ وقعتْ عليه مُعافًى من كلِّ سُوءٍ، مُبَرَّأً من كُلِّ مَأْخَذٍ[2].

نُكتةُ دخولِ (قد) علَى الفِعْلِ الماضِي:

تأكيدُ مضمونِ الجُملةِ المُؤْذِنِ ببِشارةِ النَّبيِّ والمؤمنين كُلٌّ بحسَبِ حالِه

افتتحَ النَّظمُ الكريمُ الكلامَ بحرفِ التَّحقيقِ تأكيدًا لمضمونِ الكلامِ الواردِ في هذه الآيةِ وهو توبةُ اللّٰه على رسولِه وصحْبِه الكرامِ منَ المهاجرين والأنصارِ، وفيه بِشارةٌ برضَى اللّٰه على رسولِه وعلى المؤمنين الذين كانوا معه في غزوة تبوك[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفِعْلِ الماضِي ﴿تَّابَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ﴾:

للدّلالةِ علَى تحقُّقِ وُقوعِ التَّوبَةِ

آثرَ التَّعبيرَ بالفِعلِ الماضِي ﴿تَّابَ﴾، للدّلالةِ على تحقُّقِ وقوعِ

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 281، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 205، وجماعةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 205.

(2) الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ: 6/909.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 11/49.

التَّوبةِ، وأنّها أمْرٌ أزليٌّ قدَّره اللّه لنَبيِّه ﷺ وللمهاجرِين والأنصارِ الذين اتَّبعُوه في ساعةِ العُسْرةِ، وفي هذا إعلاءٌ لمقامِهم بتوبةِ اللّه عليهم من غيرِ سابقةِ سُؤالٍ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالتَّوبةِ: ﴿لَّقَد تَّابَ﴾:

للتّوبةِ مُتعلّقاتٌ كثيرةٌ باعتبارِ مَن يتوبُ الله عليه

التَّوبةُ منَ اللّه رجوعُه بعبدِه من حالةٍ إلى أرفعَ منها، فقد تكونُ في الأكثرِ رجوعًا من حالةِ طاعةٍ إلى أكملَ منها، وهذه توبتُه في هذه الآيةِ على النَّبيِّ ﷺ، وهذا ظاهرٌ في حالِه ﷺ في هذه الغزوة قبل الخروجِ وبعدَها، لأنَّه رجعَ به من حالِه قبل تحصيلِ الغزوةِ وأَجْرِها وتَحَمُّلِ مشاقِّها إلى حالِه بعد ذلك كلِّه، وأمَّا توبتُه على (المهاجرين والأنصار) فحالُها مُعَرَّضةٌ لأنْ تكونَ من تقصيرٍ إلى طاعةٍ وَجِدٍّ في الغزوِ ونُصرةِ الدِّين، وأمَّا توبتُه على الفريق الذي كادَ أن يزيغَ فرجوعٌ من حالةٍ مَحْطُوطةٍ إلى حالِ غفرانٍ ورضا[1].

والمُلاحَظُ على ذلك أنَّ لفظَ التّوبةِ كان هو المناسبُ لتعدُّدِ مَنْ تابَ اللّه عليهم واختلافِ التّوبةِ في حقِّ كلٍّ منهم، ولذلك ذهبَ البعضُ إلى أنَّ المرادَ بالتّوبةِ هنا ليس بمعناها المتعارَفِ منَ النّدمِ على الذّنبِ إلى غيرِ ذلك، بل بمعنَى التّرقّي منَ الكاملِ إلى الأكملِ في حقِّ الخواصِّ، والتّرقّي منَ النّاقصِ إلى الكاملِ في حقِّ العوامِّ، والكاملُ والأكملُ والنّاقصُ أمرٌ إضافيٌّ يتبدّلُ بالنّسبةِ إلى ما فوقَها وتحتَها[2].

دلالةُ إظهارِ الاسمِ الجليلِ في: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ﴾:

تـعـظـيـمُ شـأنِ هــذه الـتَّـوبـةِ وإعلاءُ مكانتِها

أظهرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ الاسمَ الجليلَ في قولِه تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ﴾ تعظيمًا لشأنِ التَّوبةِ وتنويهًا بِقَدْرِها، فهي منَ اللّه الكريمِ ذي الفضلِ العظيمِ، ثمّ إنّ إظهارَ لَفْظِ الجلالةِ يُوَلِّدُ في النّفوسِ مهابةَ هذا العظيمِ ويُحفِّزُ على التّوبةِ إليه، فضلًا عن إنّ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/92.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/355.

إظهارَه مُشعرٌ بأنّه يَتولّى بنفسِه وبحضورِه هذه التّوبةَ وأنّه لا يغفلُ عنها ألبتّةَ.

فائدةُ ذكْرِ النَّبيِّ ﷺ مع المهاجِرين والأنصارِ:

شرفُ ذِكْرِ الصّحابةِ مع النّبيِّ ﷺ

ذُكِر النّبيّ ﷺ هُنا في معرض ذكْرِ التَّوبةِ وهو صلواتُ اللّه وسلامُه عليه لم يقعْ منه - وحاشاه - شيءٌ، وإنّما ذُكرَ هنا تكريمًا للمهاجرين والأنصار وتشريفًا لهم، بنظْمِهم مع هذا الكوكبِ الدُّرِّيِّ الوَضيءِ، في ساحةِ رضوانِ اللّه ومغفرته[1]، ولذلك قالوا: إنَّ ذِكْرَه هنا كما ذكرَه تعالى في قولِه: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: 41]، ويكونُ المرادُ بذكْرِ التّوبةِ على المهاجرينَ والأنصارِ[2].

نُكتةُ تقديمِ النَّبيِّ ﷺ في تَعلُّقِ فِعْلِ التَّوبَةِ:

التَّنويهُ بشأنِ هذه التَّوبَةِ في تَرقيةِ النّبيِّ ﷺ في سُلَّمِ الكمالاتِ

افتُتحتِ الآيةُ بتوبةِ اللّه على نبيِّه ﷺ، لأنَّه كان سببَ توبَتِهم، فذَكَرَهُ معهم ﷺ[3] في تَعلُّقِ فعْلِ التَّوبةِ بالغَزاةِ بالغُزاة، للتَّنويهِ بشأنِ هذه التَّوبةِ إذ قد عَلِمَ المسلمون كُلُّهم أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد غَفَرَ اللّه له ما تَقدَّم من ذنبِه وما تأخَّر[4]، فهو النَّبيُّ الذي لا يزالُ عندَه منَ اللّه خبرٌ عظيمٌ يُرشدُه إلى ما يُؤْذِنُ بتقويةِ حياتِه برفْعِ درجاتِه، فما من مقامٍ يرقِّيه إليه إلا رأى أنَّه لمزيد عُلُوِّه وتقرُّبه للمقام الذي كان دونَه، فهو في كلِّ لمحةٍ في ارتقاءٍ من كاملٍ إلى أكملَ[5].

سِرُّ تصديرِ التّوبةِ في الآيةِ بتوبَةِ الله على نبيّه ﷺ:

التّوبةُ من مقاماتِ التّوّابين والأوّابين والأنبياءِ والمرسلين

صُدِّرتِ الآيةُ بتَوبته سبحانه على نبيِّه ﷺ قبْلَ توبَتِه على المهاجرين والأنصار، جبرًا لقلوبِهم، وتنويهًا لشأنِهم بضمِّهِم مع المقطوعِ بالرِّضا عنه وبعثًا للمؤمنين على التّوبةِ، وأنّه ما من مؤمنٍ

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 6/909.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/39.

(3) البغوي، معالم التَّنزيل: 2/396.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/49.

(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/35.

إلا وهو مُحتاجٌ إلى التّوبةِ والاستغفارِ[1]، وفيه دلالةٌ على بيانِ منزلةِ التّوبةِ عندَ اللّه وأنّها صفةٌ للتّوّابين والأوّابينَ والأنْبياء.

دلالةُ الإتيان بأمرِ التّوبة في الحديث عن غزوة تبوك:

حَاجةُ المؤمن إلى التّوبةِ في كلِّ أحوالِه

قد يُقالُ إنَّ قبولَ التّوبةِ دليلُ سبْقِ الذّنْب، والنَّبيّ ﷺ معصومٌ، والمهاجرُون والأنصارُ الذين اتَّبعوه تَحمّلُوا أعباءَ ذلك السَّفرِ الطّويلِ فكانَ اللّائقُ بحالِهم أن يُثْنِيَ عليهم والجوابُ أنَّه ما مِن مؤمنٍ إلا وهو مُحتاجٌ إلى التّوبةِ والاستغفارِ، لأنَّه لا ينفكُّ عن هفوةٍ، إمَّا من بابِ الكبائرِ، وإمَّا من بابِ الصَّغائرِ، وإمَّا من باب ترْكِ الأَوْلَى والأفضلِ كما أُشيرَ إلى ذلك في حقِّ النَّبيِّ ﷺ بقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ [التّوبة: 43]، وبالنّسبةِ للمؤمنين فلَعلَّه قد وقعَ في قلوبِهم نوعُ نُفْرَةٍ من تلك السَّفْرةِ لمَّا عاينُوا المتاعبَ، ولا أقلَّ منَ الوساوسِ والهواجسِ، فأخبرَ اللّه سُبحانَه أنَّ تلك الشَّدائدَ صارت مُكَفِّرَةً لجميعِ الزّلّاتِ التي صدرتْ عنهم في ذلك السَّفرِ الطّويلِ، بل في مُدَّةِ عُمُرِهم كما وقعَ منهم في يومِ أُحدٍ ويومِ حُنَينٍ وصارتْ قائمةً مقامَ التَّوبةِ المقرونةِ بالإخلاصِ[2].

سِرُّ عدمِ ذِكرِ فِعْلِ التَّوبةِ مع المهاجرين والأنصارِ:

لا وَجْهَ للمُقارنةِ بـين تـوبـةِ الصَّحابةِ وتوبةِ النّبيِّ ﷺ

ذُكِرَ فعلُ التّوبةِ مع النّبيِّ ﷺ ولم يُذكرْ مع المهاجرين والأنصار، لاختلاف المرادِ بالتّوبة، فمع الرّسولِ ﷺ يكونُ الأمرُ من باب ترْكِ الأَوْلَى، وللإشارةِ إلى أنّه ﷺ إمامُ أمّتِه في أمرِ التّشريعِ لها، وأمّا توبتُه سُبحانه وتعالى على المهاجرين والأنصار، فهي معرَّضةٌ لأن تكونَ من تقصيرٍ إلى طاعةٍ وجدٍّ في الغزو ونُصرةِ الدِّين، وأمّا توبتُه على الفريقِ الذي كادَ يَزيغُ، فرُجوعٌ من حالةٍ محطوطةٍ إلى حالِ غُفرانٍ ورضًا.

(1) القاسمي، محاسن التَّأويل: 5 518.
(2) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/540.

وممّا يُذكرُ في سِرِّ ذلك أيضًا أنّ اللّه سُبحانَه ذكرَ توبةَ مَنْ لم يُذنِبْ لِئلَّا يَستوحشَ مَنْ أذنبَ، لأنَّه ذكرَ النّبيَّ ﷺ والمهاجرين والأنصارَ ولم يُذنبُوا[1].

فمعنَى التّوبةِ على النَّبيِّ والمهاجرين والأنصارِ الذين اتّبعوُه أنَّ اللّه لا يؤاخذُهم بما قد يَحْسَبُون أنَّه يُسبِّبُ مؤاخذةً[2].

التَّذكيرُ بالنّبوّة مُشْعِرٌ برفْعتِه ﷺ وعُلّوه بينهم

سِرُّ التَّعبيرِ بالنّبيِّ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بـ(النّبيّ) ﷺ دونَ (الرّسولِ)، لأنَّ المَقامَ هنا يتعلّقُ بشَخصِه ﷺ، فآثرَ ذِكرَ النّبوّة دونَ الرسالةِ، لأنّها متعلّقةٌ بأمْرِ التّشريعاتِ، فالتّذكيرُ بالنّبوّةِ مُشعِرٌ برفعتِه وعُلّوه بينهم، لأنّها مُشتقّةٌ من(نبو) الّذي يدلُّ على الرِّفعةِ والظّهور.

بيانُ كونِهم طليعةَ جيْشِ العُسرةِ إقدامًا وبذلًا للأنفُسِ والمالِ في سبيلِ الله

دلالةُ تخصيصِ المهاجرين والأنصار بالذِّكر والثَّناءِ:

المهاجرون والأنصار: هم مجموعُ أهلِ المدينة، وكان جيشُ العُسرةِ منهم ومن غيرِهم من القبائلِ التي حولَ المدينةِ ومكَّةَ، ولكنَّهم خُصُّوا بالثَّناءِ، لأنَّهم لم يتردّدُوا ولم يتثاقلُوا ولا شَحُّوا بأموالِهم، فكانُوا أُسوةً لِمَن اتَّسَى بهم من غيرِهم منَ القبائلِ[3].

بيانُ أفضليَّةِ المهاجرين وفضْلِ الهِجرة علَى النُّصرة

سِرُّ تقديمِ المهاجرين على الأنصارِ في الذِّكر:

ذَكَرَ رَبُّنا ﷻ المهاجرين بعد ذِكْرِ النَّبي ﷺ، لأنَّهم الذين كوّنُوا الخليَّةَ الأُولى للإسلام، ولأنّهم الذين أُخرجُوا من ديارِهم وأموالِهم ابتغاءَ نشْرِ الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ، واستمساكًا بدينِهم، وكان الأنصارُ الذين آوَوا ونصرُوا، وإذا كان المهاجرون آزرُوا النَّبيَّ صلّى اللّه تعالى عليه وسلّم، وأقامُوا معه الدِّعامةَ الأُولى لبناءِ الإسلام، فالأنصارُ همُ الذين عاونُوا النَّبيَّ ﷺ في إقامةِ الدَّولةِ الإسلاميَّةِ[4].

(1) الثعالبي، الجواهر الحسان: 3/223.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/49.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/50.

(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3466.

والمهاجرون أفضلُ منَ الأنصار كما تَدُلُّ عليه الآثارُ الكثيرةُ الواردةُ في هذا المضمارِ، والمرادُ منه إكرامُ الأنصارِ، فإنَّه لا رُتبةَ بعدَ الهجرةِ أعلَى من نُصرةِ الدِّين[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالاسميّةِ: ﴿وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾:

اختصاصُ المهاجرين والأنصارِ بهذَيْن الوصفَيْن إلى قيامِ السّاعةِ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالاسميّةِ في وصْفِ المهاجرين والأنصار دونَ الفعليّةِ للدّلالةِ على ثُبوتِ هذا الوصْفِ واستمرارِه على هذه الفئةِ المؤمنةِ التي هاجرتْ قبْلَ فتحِ مكّةَ، والأنصارِ الذين استقبلُوا رسولَ اللّه ﷺ والمؤمنين الذين هاجرُوا إلى المدينة، فهذا الوصفُ لا ينفكُّ عنهم ولو بعُدَ الزّمان، لأنّ هذه الآياتِ كانت في أعقابِ غزوةِ تَبوكَ، وهي في العامِ التّاسعِ منَ الهجرة، وكان الجيشُ مُؤلَّفاً مُؤلَّفًا من فئاتٍ كثيرةٍ، فأبقَى القرآنُ على هذا الوصفِ تمييزًا لهم عن غيرهم.

دلالةُ وصْفِ المهاجرين والأنصار بالاتِّبَاعِ:

الاتِّباعُ لرسولِ اللّه ﷺ سَبَبٌ في مغفرةِ الذُّنُوبِ

وَصَفَ النَّظمُ الكريمُ المهاجرين والأنصارَ بـ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾، للإيماءِ إلى أنَّ لِصلةِ الموصولِ تَسَبُّبًا في هذه المغفرة[2]، فهمُ الذين أطاعُوه ولم يتخلَّفُوا عنه[3]، وهذا يُبرزُ ما للاتِّبَاعِ والطَّاعةِ لرسولِ اللّه ﷺ منَ المزيَّةِ في كونِها سببًا لمغفرةِ الذُّنوبِ والثَّناءِ منَ اللّه علَّامِ الغُيوبِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالضّمير دونَ الإظهارِ في: ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾:

بيانُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ متبوعٌ وصحابتَه أتباعٌ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالضَّميرِ في: ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾بدلاً منَ الإظهارِ، للدّلالةِ على خصُوصيته ﷺ في الاتّباع، وأنّه لا مُنازِعَ له في ذلك، لأنّه معلومٌ فلا يحتاجُ إلى بيان، وفيه إيماءٌ بأنَّه ﷺ

(1) إسماعيل حقّيّ، روح البيان: 3/525.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/50.
(3) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 12/70.

متبوعٌ ونِعْمَ المتبوع ﷺ، فالشَّرفُ كُلُّ الشرف في اتِّباعه والاقتداءِ به واقتفاءِ آثاره.

سِرُّ اختيارِ التَّعبيرِ بالاتِّباعِ في: ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾:

شُمولُ اللّفظ لمعنَى الطّاعةِ والانقيادِ

آثرَ التَّعبيرَ بالاتِّباعِ دونَ غيرِه، لتعدُّدِ معانيه بين الحقيقةِ والمجازِ، فقوله: ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾ يجوزُ فيه وجهان: أحدُهما: أنَّه اتِّباعٌ حقيقيٌّ، ويكونُ ﷺ خرجَ أوَّلًا، وتبعَه أصحابُه رضوانُ اللّه تعالى عنهم، وأن يكونَ مجازًا، أي: اتّبعوا أَمْرَهُ ونهيَه[1]، فيكونُ من قَبيلِ مجازِ الحذْفِ، والاتِّبَاعُ مَجَازِيٌّ[2]، أو من بابِ الاستعارةِ التّصريحيّةِ حيث شبَّه إطاعتَه باتّباعِه بجامعِ الالتزامِ وعدمِ المفارَقة.

وأيضًا، لأنَّ الاتِّباعَ يعني الارتسامَ في القولِ والفعلِ، وهو بذلك أبلغُ منَ الطّاعة، لأنّها تندرجُ في الاتِّباعِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعْلِ الماضي: ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾ دونَ المضارع:

صِدقُ المهاجِرينَ والأنصَارِ في اتّباعِ النّبيّ ﷺ

آثرَ التَّعبيرَ بالفعْلِ الماضي ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾، للدّلالةِ على تحقُّقِ أمْرِ اتِّباعِهم للنّبيِّ ﷺ ورُسوخه في قلوبهم، وأنّ ما كان من بابِ الوساوسِ والخواطرِ للشّدّةِ التي مرّوا بها في هذه الغزوةِ لا يُؤَثِّرُ في تحقيقِ الاتِّباعِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالظَّرفيّة: ﴿فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾:

كمالُ اتّباعِ الصّحابةِ لرسولِ الله ﷺ رُغمَ الأهوالِ والمشَقّاتِ

دلَّ التَّعبيرُ بالظّرفيّةِ على أنّ اتّباعَهم للنبّيّ ﷺ شملَ كلَّ مراحلِ الغزوةِ مع شدّتِها وعُسرِها في الدّعوةِ إليها وما اكتنَفَها منَ التَّخويفِ من أمْرِ الرّومِ وفي المسيرِ إليها وما تبِعَهُ من عُسرٍ في الزّادِ والرّاحلة، وهذا يدلُّ على أنَّ الاتِّباعَ منَ المهاجرين والأنصارِ للرّسولِ ﷺ تمكّنَ منهم تمكُّنَ المظروفِ منَ الظّرْفِ.

(1) السَّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 3/509.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/516، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/50.

نُكتةُ إضافةِ السَّاعةِ إلى العُسْرَةِ:

عظيمُ ثناءِ الله على الصّحابةِ لِحُسْنِ اتِّباعِهم

دلّتِ الإضافةُ في قولِه تعالى: ﴿فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾ على أنّ الزّمنَ الذي وقعتْ فيه غزوةُ تبوك قد أصابَ المسلمين فيها مَشَقَّةٌ عظيمةٌ من شِدَّة الحَرِّ وقِلَّةِ المركَبِ حتَّى كان العَشَرَةُ يتعاقبُون على بعيرٍ واحدٍ، ومن قِلَّةِ الزَّادِ حتَّى قيلَ إنَّ الرَّجُلَيْنِ كانا يقتسمان تمرةً وربَّما مَصَّها الجماعةُ ليشربُوا عليها الماءَ المُتَغَيِّرَ، فكانت لهمُ العُسرةُ في أربعةِ أشياءَ: عُسْرَةُ النَّفقة، والرُّكوبِ، والحَرِّ، والخوفِ[1]، لذلك سُمِّيت (غزوةَ العُسْرة)، وسُمِّيَ مَن جاهد فيها بجيشِ العُسرةِ، وهذه صِفةُ مدحٍ لأصحابِ النَّبي ﷺ باتِّباعِهم إيَّاه في وقت الشِّدَّة، ومع ذلك فقد كانوا مُحتاجِين إلى التَّوبةِ، فما ظنُّك بغيرِهم ممَّن لم يُقَاسِ ما قاسَوْه[2].

سِرُّ التَّعبيرِ عنِ الزّمنِ بالسّاعة: ﴿سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾:

إبــرازُ أهـمـيّـةِ الـسَّـاعـةِ التي وقــعَ فـيـهـا عزمُهم لتَّحمُّلِ المشَقَّةِ

قولُه تعالى: ﴿فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾ يُريدُ: في وقتِ العُسْرَةِ، فأنزلَ السَّاعةَ مَنْزِلةَ المدَّةِ والوقتِ والزَّمن، وإن كان عُرْفُ السَّاعةِ في اللُّغة أنَّه لِما قَلَّ منَ الزَّمن كالقطعةِ منَ النَّهار، فهي هُنا بتَجَوُّزٍ، ويمكنُ أن يريدَ بقولِه في ﴿سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾السَّاعةَ التي وقع فيها عزمُهم وانقيادُهم لتَّحمّل المشقَّة، إذِ السَّفرةُ كُلُّها تبعٌ لِتلك السَّاعةِ وبها وفيها يقعُ الأجرُ على الله، وترتبطُ النِّيَّةُ، فمَنِ اعتزمَ على الغزو وهو مُعْسِرٌ فقد اتَّبعَ في ساعةِ العُسرةِ ولو اتَّفق أن يَطرأَ لهم غِنًى في سائرِ سفْرتِهم[3].

دلالةُ تَسميّةِ الزّمنِ بالسّاعة:

أزمنةُ الشّدائدِ لا تَطولُ، ولكنَّ الأجْـرَ عليهَا عَظِيمٌ

سمَّاها القرآنُ ساعةً تهوينًا لأوقاتِ الكُروب وتَشجيعًا على مواقعةِ المكاره، فإنَّ أمدَها يسيرٌ وأجرَها عظيمٌ، فكانت حالُهم باتِّباعه في

(1) السَّمرقندي، بحر العلوم: 2/93.
(2) إسماعيل حقِّي، روح البيان: 3/525.
(3) ابن عطيَّة، المُحرِّر الوجيز: 3/92.

هذه الغزوةِ أَكْمَلَ من حالِهم قبْلَها[1]، وللدّلالةِ على أنّ هذا الوقتَ مُدّةٌ قليلةٌ بالنّسبةِ إلى وقْتِ السَّعةِ في حياةِ المسلمين، وفيه إشارةٌ إلى توبيخِ هؤلاءِ المتخلِّفين عن هذه الغزوةِ.

سِرُّ إلْحاقِ التّاء بلفظِ ﴿ٱلۡعُسۡرَةِ﴾:

بيانُ المبالغةِ في الشِّدَّة

العُسْرَة: اسمُ العُسْرِ، زيدتْ فيه التّاءُ للمبالغةِ وهي الشِّدَّة[2].

سِرُّ التَّعبيرِ عن غزوةِ تَبوكَ بالعُسرة:

اجتمعَ في غزوةِ العُسرةِ أنواعٌ متعدّدة منَ العُسْرِ

آثرَ التَّعبيرَ بالعُسرةِ عن غزوة تَبوكَ، لأنّ العُسرةَ معناها: تعذُّرُ الأمرِ وصعوبتُه، وهذا ظاهرٌ في واقعِ الغزوةِ، حيث حصلتْ عُسرةُ الظّهرِ، فكان العشرةُ منَ المسلمين يتعاقَبُون على بعيرٍ واحدٍ، وعُسرةُ الزّادِ ظاهرةٌ في أنّ التَّمرةَ الواحدةَ يتناوبُ على مصّها الجماعةُ، وعُسرةُ الماء ظاهرةٌ، لأنَّ الغزوةَ كانت في حرٍّ شديدٍ حتّى إنَّ الرّجلَ لَينحرُ بعيرَه فيعصرُ فرثَه ويشربُه[3]، فالتّشبيهُ هنا ليوم تبوكَ بساعة العُسرةِ هو تشبيهٌ بليغٌ حُذفت فيه أداةُ التّشبيه ووجْهُ الشّبه.

فائدةُ ذِكْرِ حرفِ الجرّ ﴿مِنۢ﴾:

الإشارةُ إلى التّقارُبِ بين الهَمِّ بالزَّيغ والتّدارك بالتَّوبة

أشار بـ ﴿مِنۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ إلى تقارُبٍ كبيرٍ ما بَيْنَ كَيدودةِ الزَّيغ والتَّدارُكِ بالتَّوبة[4].

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿كَادَ﴾ وتحديدِ اسمِها وخبرِها:

عِظمُ الشّدّةِ والمشقّةِ التي واجهت المسلمين في غزوةِ العُسرة

قولُه تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِمَا كَادَ﴾ أي: قرُبَ قُرباً عظيمًا[5]، وهذا بيانٌ لتناهي الشِّدَّة، وبلوغِها الغايةَ القُصوى، أي: تاب سُبحانَه على الذين اتَّبعوا رسولَه منَ المهاجرين والأنصارِ، مِن بعْدِ أن أشرفَ

---

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/36.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/50.
(3) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 10/227.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/36.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 9/36.

فريقٌ منهم على المَيل عنِ التَّخلّفِ عنِ الخروج إلى غزوة تبوك، لما لابسَها وصاحَبَها من عُسْرٍ وشدَّةٍ وتعبٍ(1).

فهذا الزَّيغُ لم يقعْ ولكنّه قاربَ الوقوعَ، لأنَّ (كادَ) من أفعالِ المقارَبةِ تعملُ في اسمَيْن عمَلَ كان، واسمُها هنا ضميرُ شأنٍ مقدّرٌ، وخبرُها هو جملةُ الخبرِ عن ضميرِ الشّأنِ، وإنَّما جُعِلَ اسمُها هُنا ضميرَ شأْنٍ لتهويلِ شأنِهم حين أشرفُوا على الزَّيغ(2).

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿يَزِيغُ﴾ من حيثُ مادَّتُها وصِيغَتُها:

الدَّلالةُ على قُربِ مَيْلِ القلبِ فقط دونَ الضَّلالةِ والغوايةِ

آثرَ التَّعبيرَ بالزّيغِ، لأنَّ معناه المَيْلُ، والمرادُ: ميلُ القلبِ للتّخلُّفِ والانصرافِ عنِ الغزوة، وذلك للشّدّةِ العظيمةِ التى أصابتْهُم فيها، وذهبَ البعضُ إلى أنَّ المَيْلَ هنا حديثُ النّفسِ الذي هو مُقدّمةٌ للعزيمةِ، فلمّا نالتْهم الشّدّةُ وقع ذلك في قلوبِهم، ومع ذلك أدركُوا خطورةَ هذا الأمْرِ اليسيرِ خوفًا من أن يكونَ معصيةً(3).

أثرُ القراءاتِ في قولِه: ﴿يَزِيغُ﴾:

بيْنَ تذكِيرِ اللَّفْظِ وتَأْنِيثِ المَعْنَى

تعدَّدتِ القراءاتُ في الفعْلِ ﴿يَزِيغُ﴾ بين التّذكيرِ والتّأنيثِ، فبعضُ القُرّاءِ قرأَ بالتّذكيرِ ﴿يَزِيغُ﴾، وبعضُهم قرأَ بالتّأنيث (تزيغ)، فمَن قرأَ بالتَّذكيرِ حملَ على اللّفظِ، ومَنْ قرأَ بالتّأنيثِ فعلَى أنّ لفظَ القلوبِ مؤنّثٌ غيرُ حقيقيٍّ يجوزُ فيه التَّذكيرُ والتّأنيثُ(4).

دلالةُ إسنادِ الزَّيْغِ إلى القُلوبِ: ﴿يَزِيغُ قُلُوبُ﴾:

عِظَمُ الشِّدّةِ حتى كادَ أن يصلَ تأثيرُها إلى القلوبِ

أسنَدَ القُرآنُ الكريمُ الزّيْغَ إلى القلوبِ، للدّلالة على تناهِي الشّدّةِ وبُلوغِها الغايةَ القُصوَى في هذه الغزوةِ، بخلافِ غزوةِ الأحزابِ التي نُسبَ الزّيغُ فيها إلى الأبصارِ، فمع ما فيها من شدَّةٍ إلّا أنَّ الزَّيغَ فيها كان للأبصارِ حين تراءَى الفريقانِ في غزوةِ الأحزابِ،

(1) طنطاوي، الوسيط: 6/418.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/50.
(3) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 10/228.
(4) السمين الحلبيّ، الدر المصون: 6/133، والأمر فيه تفصيل لِمَنْ أراد المزيد.

وفي هذا إشارةٌ إلى الفرْقِ بين الغزوتَيْن، فزيغُ القلوبِ أشَدُّ من زَيغِ الأبصارِ، لأنّه ما زاغتِ الأبصارُ إلّا بعدَ زَيْغِ القلوبِ، فإسنادُ الزَّيغِ إلى القلوبِ قد يكونُ على الحقيقةِ، لأنّ القلبَ في الاستعمالِ القرآنيِّ هو مناطُ الأمْرِ ومَلكُ الأعضاءِ، وقد يكونُ إسنادُ الزّيغِ إلى القلوبِ منَ المجازِ العقليِّ لعلاقةِ المحلّيَّة.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفريقِ: ﴿قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾:

قــوّةُ إيمـانِ الـصّحـابـةِ وثـبـاتُـهـم في مواقعِ الجهادِ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفريقِ دونَ غيرِه، للإشارةِ إلى أنَّ مُعظمَ المهاجرين والأنصارِ مَضَوا معه ﷺ إلى تَبوكَ دون أن تُؤثّرَ هذه الشَّدائدُ في قُوّةِ إيمانِهم وصدْقِ يقينِهم، ومَضاءِ عزيمتِهم، وشِدَّةِ إخلاصِهم[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ثُمَّ﴾ في: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾:

بـيـانُ شُـمـولِ التَّوبةِ للفريقَيْنِ تَـكـريـرًا لِرفـعـةِ مَنْ ثَبَتَ وتَثْبيتًا لِمَنْ هَمَّ بالزَّيغِ

عبّرَ القرآنُ الكريمُ بحرفِ العطْفِ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، وذلك لعطْفِها على جملةِ ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ﴾، لأنّها حرفٌ يُفيدُ التّراخِيَ، ولمَّا أرادَ اللّه أن يُعْلِيَ قدْرَهم عَبَّر عن عظمتِه بـ (ثمَّ) تكريرًا للرّفعةِ، أو على مَنْ كاد يزيغُ بالثّباتِ على مباعدةِ الزّلّاتِ وبالتَّرقي في أعالي الدَّرجاتِ إلى المماتِ.

دلالةُ تَكرارِ فعْلِ التَّوبةِ: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾:

بيانُ توفيقِهم لـلـتَّـوبـةِ بـادئَ الأمرِ ثُمَّ قبولِها منهم بعْدَ ذلك

إن قيل: كيف أعادَ ذِكْرَ التَّوبةِ وقد قال في أوّلِ الآيةِ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾؟ فالجوابُ: أنّ اللّه تعالى تابَ عليهم أوَّلًا بتوفيقِهم للتَّوبةِ، فلمَّا تابُوا تاب عليهم ثانيًا بقَبولِها منهم، وهو الذي وفَّقَهم لفِعْلِها، وتفضَّل عليهم بقبولِها[2]، لأنَّ توبةَ العَبدِ إلى اللّهِ مَحفوفةٌ بتَوبةٍ مِنَ اللّهِ عليه قَبْلَها، وتوبةٍ منه بَعْدَها، فتَوبتُه بين تَوبتَيْنِ من رَبِّه، سابقةٍ ولاحقةٍ، فإنَّه تاب عليه أوَّلًا إذْنًا وتوفيقًا وإلهامًا، فتاب

(1) طنطاويّ، الوسيط: 6/418.
(2) ابن القيّم، زاد المعاد: 3/518.

العبدُ، فتاب اللّهُ عليه ثانيًا قَبولًا وإثابةً[1]، كما أنَّه ابتدأ بذِكْرِ التَّوبةِ قَبْلَ ذِكْرِ الذَّنْبِ، تَطييبًا لِقُلوبِهم، ثمَّ ذكَرَ الذَّنْبَ، ثمَّ أردَفَه مرَّةً أخرى بذِكْرِ التَّوبةِ، والمقصودُ منه تعظيمُ شأنِهم.

كما أنَّ هذا الترتيبَ يدلُّ على أنَّ المرادَ أنَّه تعالى تابَ عليهم مِنَ الوَساوِسِ التي كانت تقَعُ في قلوبِهم في ساعةِ العُسرةِ، ثُمَّ إنَّه تعالى زادَ عليه فقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِمَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ فهذه الزِّيادةُ أفادت حصولَ وَساوِسَ قَويَّةٍ، فلا جرَمَ أتبَعَها تعالى بذِكرِ التَّوبةِ مرَّةً أخرى، لئلَّا يبقَى في خاطِرِ أحَدِهم شَكٌّ في كَونِهم مُؤاخَذينَ بتلك الوساوِسِ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالإضمَارِ: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

شُمولُ توبةِ اللهِ لجميعِ المهاجرين والأنصارِ

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بالضَّميرِ في ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ دونَ الإظهارِ، لتعدُّدِ المرادِ به، إمَّا أن يعودَ إلى المهاجرين والأنصار، ويكونَ تأكيدًا لقَبول توبةِ اللّه لهم، وإمَّا أن يعودَ على الذين كادتْ تزيغُ قلوبُهم، وهذا هو الظَّاهرُ، ويكونَ المعنى أنَّ العُسرةَ كانت شديدةً لجُوجًا، حتَّى كادتْ تزيغُ قلوبُ فريقٍ من هؤلاء المهاجرين والأنصار ولكنَّ اللّه سَلَّم، وارتدّت أفئدتُهم فتابَ اللّه تعالى عليهم بسببِ تلك الخواطرِ التَّى جاشت، وكادتْ تُضلُّهم وإنَّ ذلك من رأفةِ اللّه تعالى بهم[3].

بلاغةُ الفصْلِ ﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾:

تعليلُ ما سبَقَ من ذكْرِ التَّوبة مع تأكيدِها

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾، لأنه استئنافٌ بيانيٌّ تعليليٌّ، لأنَّ صِفةَ الرَّأفةِ والرَّحمةِ من دواعي التَّوبةِ والعفوِ[4]، فعلَّلَ لُطفَه بهم بقولِه: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[5].

(1) ابن القيم، مدارج السَّالكين: 1/319.
(2) الفخر الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/163، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 5/518.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3466.
(4) الألوسي، روح المعاني: 6/38.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/38.

سَعةُ رحمةِ الله وعَفْوِه

سِرُّ الجمْعِ بين الرّأفةِ والرّحمةِ: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾:

جمعَ بينهما، للدّلالةِ على سَعةِ رحمةِ اللّه وعفْوِه بالمؤمنين، ويجوزُ أن يكونَ السّببُ في الجمْعِ أنَّ صفةَ الرّأفةِ عبارةٌ عن إزالةِ الضَّررِ، وأنَّ الرّحمةَ عبارةٌ عنْ إيصالِ المنفعةِ.

بيانُ أنَّ هذا العفْوَ قد بلغَ الغايةَ القُصوَى مِنَ القُدرةِ والكمالِ

فائدةُ تتابُعِ المؤكِّداتِ:

ذَكَرَ التَّوبةَ في أوَّلِ الآيةِ قبْلَ ذكْرِ الذَّنب، تطْييبًا لقلوبِهم وهو مَحْضُ الفضْلِ منَ اللّه ﷻ، فلمَّا ذَكَرَ الذَّنْبَ أعاد ذِكْرَ التَّوبةِ، والمُرادُ منه قَبولُها[1]، ففي هذا تكريرٌ للتَّوكيدِ كما يُقال: عفا السُّلطانُ عن فلانٍ ثُمَّ عفا عنه، ثمّ أكّدَ هذه المعانيَ بقولِه: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾، فيدلُّ ذلك على أنَّه عفْوٌ مُتأكِّدٌ بلغَ الغايةَ القُصوَى منَ القُدرة والكمالِ[2]، قال ابنُ عبّاس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾: يريدُ: ازدادَ عنهم رضًا[3].

بيانُ اختصاصِهم بالاهتمامِ والرِّعايةِ والإكرامِ مِنَ المَلِكِ العلَّامِ

نُكتةُ تقديمِ شِبْهِ الجُملةِ ﴿بِهِمۡ﴾:

قولُه تعالى: ﴿بِهِمۡ﴾ يدلُّ على الاهتمامِ بهم في اختصاصِهم بهذه التَّوبةِ العظيمةِ منَ اللّهِ الرَّؤوفِ الرَّحيم، أي: إنَّ ربَّهم بالذين خالطَ قلوبَهم ذلك لما نالَهم في سفرِهم منَ الشِّدّةِ والمشقّةِ، رَؤُوفٌ بهم، رَحيمٌ أن يُهلكَهم، فينزِعَ منهمُ الإيمانَ بعْدَ ما قد أبْلَوْا في اللّهِ ما أبْلَوْا مع رسولِه وصبروا على البأساءِ والضَّراءِ[4]، فخصَّهم بهذا الفضلِ، لأنَّهم من خُلَّصِ عبادِه، فرأَفَ بهم ورحِمَهم ودفعَ عنهم ما لا يُطيقون بكَرمِه وحَنانِه، ودفعَ عنهم ما عجزُوا عنه بمنِّه ولُطْفِه وتاب عليهم بفضْلِه وعطْفِه[5].

---

(1) البغوي، معالم التّنزيل: 2/396.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 11/41.
(3) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/540.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 11/39.
(5) ملا حويش، تفسير القرآن العظيم: 6/494.

نُكتةُ تَذْييلِ الآيةِ بهذيْنِ الاسْمَيْنِ الجليلَيْن:

المناسبةُ لمَن ثبتَ منهم ومن كادَ أن يزيغَ

الرَّأفةُ: عَطْفُ العاطفِ على مَنْ يجدُ عندَه مِنَّةً وَصلَةً، فهي رحمةُ ذي الصِّلةِ بالرَّاحم، والرَّحمة تَعُمُّ مَنْ لا صِلةَ له بالرَّاحم، فتكونُ الرَأفةُ حينئذٍ للثَّابِتين، والرَّحمةُ لمَنْ قاربَ الزَّيْغَ، فيصيرُ الثَّابتُ مَرحومًا مرَّتيْن، لأنَّه مَنظورٌ إليه بالصِّفتيْن(1).

نُكتةُ تقديمِ الرؤوفِ على الرّحيم:

تقديمُ الأبلَغِ والأخصِّ منَ الوصفَيْن

قدّمَ وصْفَ الرّؤوفِ، لأنَّ الرّأفةَ مُبالغةٌ في الرَّحمةِ الخاصّةِ، وهي رفعُ المكروهِ وإزالةُ الضّررِ، والرّحمةُ أعمُّ، وقدّمَ الرّأفةَ أيضًا للإشارةِ إلى المبالغةِ في رحمتِه لخواصِّ عبادِه، و(الرّحيمُ) إشارةٌ إلى العامّةِ.

وممّا يُذكرُ أيضًا أنّ الرَّأفةَ: شِدَّةُ الرَّحمةِ، فقدَّمَ الأبلغَ إذِ المعنَى أنَّه يرحمُهُم أعلَى الرَّحمةِ بإسباغِ جلائلِ النِّعمِ ودفعِ جلائلِ النِّقَمِ، ويرحمُهُم أيضًا بإسباغِ دقائقِ النِّعَمِ ودفْعِ دقائقِ النِّقَمِ(2).

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الزَّيْغُ والمَيْلُ:

الزَّيْغُ: اسْمٌ لِمَيْلٍ مَكروهٍ، ولا يَكُونُ إلَّا في المَيْلِ عَنِ الحَقِّ، يُقَالُ: فُلانٌ مِنْ أَهْلِ الزَّيْغِ، ويُقالُ: زاغَ عَنِ الحَقِّ، ولا يُقالُ: زاغَ عَنِ الباطِلِ، قال تَعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: 8] وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: 7]، أَمَّا المَيْلُ: فَهُوَ عَامٌّ في المَحْبوبِ والمَكْروهِ(3)، فَالمَيْلُ أَعَمُّ مِنَ الزَّيْغِ.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/38.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/38.
(3) العسكري، الفروق اللّغوية، ص: 269.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾ [التّوبة: 118]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا تابَ على مَن أوشكوا على الزَّيغِ؛ أتبعَهُ بالتَّوبةِ على مَن وقعَ منهُ الزَّيغُ

لمّا ذكرَ اللّه التَّوبةَ في الآية قبلَها على النَّبيِّ ﷺ وصحابتِه الَّذين كانوا معه في ساعةِ العُسْرةِ؛ أَتْبعها بذكر التَّوبةِ على مَن وقعَ منهم التَّخلُّفُ عن القتالِ، وقد خلَّفَ التَّوبةَ عليهم، فأخبرَ بالتَّوبةِ عنهم في هذهِ الآيةِ[1]، ومن المناسبةِ كذلك أنَّهُ لمّا "تقدَّم الكلامُ في أحوال المنافقين مِن تخلُّفهم عن غزوةِ تبوكَ، واستطردَ إلى تقسيم المنافقين إلى أعرابٍ وغيرِهم، وذِكرِ ما فعلوا من مسجد الضِّرارِ، وذكْرِ مبايعةِ المؤمنينَ اللّه في الجهادِ، وأثنى عليهم، وأنَّه ينبغي أنْ يُبايِنوا المشركين حتَّى الّذين ماتوا منهم بترك الاستغفارِ لهم؛ عادَ إلى ذكرِ ما بَقِيَ من أحوالِ غزوة تبوكَ، وهذه شنشنةُ كلامِ العربِ، يَشرعون في شيءٍ، ثمَّ يذكرون بعدَه أشياءَ مناسبةً، ويُطيلونَ فيها، ثمَّ يعودونَ إلى ذلك الشَّيءِ الَّذي كانوا شرعوا فيه"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خُلِّفُواْ﴾: (خلف) أصلٌ يدلُّ على مجيء شيءٍ بعد شيءٍ يقوم مقامَهُ[3]، وخلافُه قُدّام، وخَلَّفْتُهُ: تركتُهُ خلفي[4]. ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾، تُركوا، وأُخِّروا عن قبولِ التَّوبة[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/38.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/516.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلف).
(4) الرّاغب، المفردات، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز: (خلف).
(5) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 3/94.

2) ﴿ضَاقَتْ﴾: (ضيق) أصلٌ يدُلُّ على خلافِ السَّعَةِ[1]، يُستعمل في الفقرِ والبخلِ والغمِّ، وسوءِ الحالِ، قال تعالى: ﴿وَضَآيِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ [هود: 12]، ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ [التّوبة: 25]، ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ كلُّ ذلك عبارةٌ عن الحزنِ[2].

3) ﴿رَحُبَتۡ﴾: (رحب) أَصْلٌ يَدُلُّ على السَّعَةِ، الرُّحْبُ: سعةُ المكانِ[3]، الرَّحْبُ والرَّحيبُ: الشَّيءُ الواسعُ، وفصَّل الجوهريُّ بأنَّ: "الرُّحْبَ بالضَّمِّ: السَّعَةُ، تقولُ منه: فُلانٌ رُحْبُ الصَّدْرِ، والرَّحْبُ، بالفتحِ: الواسِعُ، تقول منهُ: بلدٌ رَحْبٌ وأرضٌ رَحْبَةٌ"[4]، و"الرَّحْبةُ بتسكينِ الْحاءِ وفتْحِها: الفجوةُ الواسعةُ بَين دورٍ وغيرِها"[5]، ورَحَبَةُ المساجدِ - بفتح الحاء وتسكينها -: ساحاتُها[6]، وتقول منه: بلد رَحْبٌ ، وأَرضٌ رَحْبةٌ [7].

4) ﴿مَلۡجَأً﴾: (لجأ) أصلٌ، وهو كَلِمَةٌ واحِدَةٌ: اللَّجَأُ والْمَلْجَأُ: الْمَكانُ يُلْتَجَأُ إِلَيْهِ[8]، قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ﴾ [الشّورى: 47] الملجأُ: المَعْقِلُ، وهو ما يُتَحصَّنُ بِهِ قلعةً ونحوها[9]، يُقالُ: لَجَأْتُ إلى فُلانٍ، والْتَجَأْتُ: استندْتُ إليه واعتضدْتُ بِهِ[10]، وقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ "الملجأ: المعتصمُ من اللهِ وعذابه"[11].

5) ﴿تَابَ﴾: (تاب) أصلٌ يدُلُّ على الرُّجوعِ، يُقالُ: تابَ مِنْ ذَنْبِه، أَيْ: رَجَعَ عَنْهُ، وهو تائِبٌ وتوّابٌ[12]، وتابَ اللّه عليه: وفَّقَه للتَّوبة، وقَبِل توبتَهُ، أو رجَعَ به من التَّشْديد إلى التَّخْفيفِ، أو رَجَعَ عليه بِفَضْلِه وقبوله، وهو توّابٌ على عبادِه، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ﴾، والتّائبُ يقال لباذل التَّوبةِ ولقابل التَّوبة، فالعبدُ تائبٌ إلى اللّه، واللّه تائبٌ على عبدِه، والتَّوّاب: العبدُ الكثيرُ التَّوبة، ويقال ذلك للّه تعالى لكثرة قبولِهِ توبةَ العبادِ حالًا بعد حالٍ[13].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ضيق).
(2) الرّاغب، المفردات، والجوهريّ، الصّحاح: (ضيق).
(3) ابن دريد، جمهرة اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (رحب).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (رحب).
(5) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (رحب).
(6) الخليل، العين: (رحب).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (رحب).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لجأ).
(9) السّمين، العمدة: (لجأ).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (لجأ).
(11) ابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 148.
(12) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (توب).
(13) الرّاغب، المفردات: (توب).

لا يردُّ الله تعالى مَن يلجأُ إليه بالتَّوبةِ الصّادقة

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

يُخبر الله تعالى أنَّه قد تفضَّل "بالعفو عن الرِّجالِ الثَّلاثةِ الذين تخلَّفوا عن الخروجِ في غزوةِ تبوك، لا عن نفاقٍ منهم، وكان أمرُهم مُرْجَأً إلى أنْ يُبَيِّنَ الله حُكمَهُ فيهم، فلمّا كانت توبتُهم خالصةً، وندمُهم شديدًا؛ حتَّى شعروا بأنَّ الأرضَ قد ضاقتْ عليهم على رحْبِها وسَعتِها، وضاقت عليهم نفوسُهم همًّا وحزنًا، وعلموا أنَّه لا مَلجأَ مِن غضبِ الله إلّا باستغفارِهِ والرُّجوعِ إليهِ، حينئذٍ هداهم الله إلى التَّوبة، وعفا عنهم، ليظلّوا عليها، إنَّ الله كثيرُ القبولِ لتوبة التّائبين، عظيمُ الرَّحمةِ بعبادِهِ"(1).

وسببُ نزولِ الآيةِ أنَّه ثبتَ في الصَّحيح ما يُبَيِّنُ حادثةَ الثَّلاثةِ الذين خُلِّفوا، فقد حكاها كعبُ ابن مالكٍ، وهو أحدُ الثَّلاثةِ، ومعه مرارةُ بن الرَّبيع، وهلالُ بنُ أميَّةَ الواقفيّ، في حديثٍ مُطوَّلٍ مُخرَّجٍ في الصَّحاح(2)، حين تخلَّفَ عن غزوةِ تبوكَ، وأنزل الله ﷻ على رسولهِ ﷺ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ [التوبة: 117]، إلى قوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ﴾:

تكريمُ الصّادقين بالنَّدمِ بتوبةِ الله عليهم

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ معطوفٌ على النَّبيِّ ﷺ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [التّوبة: 117]، أي: "لقد تقبَّلَ الله تعالى بفضلِهِ وإحسانه توبةَ النَّبيِّ والمهاجرين والأنصار، وتقبَّلَ كذلك توبةَ الثَّلاثةِ الَّذين تخلَّفوا عن هذهِ الغزوة كسلًا وحبًّا للرّاحة"(3)، وفي هذا العطفِ فائدةٌ تتمثَّلُ بتكريمِ المذكورين في

(1) مجموعة من المؤلّفين، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 281.

(2) البخاريّ، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (4418)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2769)، ويُنظر: المزينيّ، المحرّر في أسباب نزول القرآن: 1/615.

(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/421.

الجملة المعطوفة، فقد تبيَّن أنَّ "مَن ضُمَّ ذكرُ توبتِه إلى توبةِ النَّبيِّ ﷺ، كان ذلك دليلًا على تعظيمِه وإجلالِه، وهذا العطفُ يوجبُ أن يكونَ قبولُ توبةِ النَّبيِّ ﷺ، وتوبةِ المهاجرين والأنصارِ في حكمٍ واحدٍ، وذلك يوجِبُ إعلاءَ شأنِهم وكَوْنَهم مُسْتَحِقِّين لذلك"(1).

سرُّ إعادةِ حرفِ الجرِّ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ﴾:

لمّا بَعُد المعطوفُ عليه؛ كرَّرَ حرفَ الجرِّ تحقيقًا للبيانِ وتأكيدًا للاستحقاقِ

جاء العطفُ في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ بإعادةِ حرفِ الجرِّ، ولم يقل: (والثّلاثة)؛ لأنَّ المعطوفَ عليه - وهو لفظُ ﴿ٱلنَّبِيِّ﴾ [التّوبة: 117] - ذُكِرَ في صدرِ الآيةِ السّابقةِ، فلمّا طالَ الفاصلُ؛ أعادَ حرفَ الجرِّ مع حرفِ العطفِ(2)، كما أنَّ في إعادةِ حرفِ الجرِّ تأكيدًا على مشاركةِ المعطوفِ بحكمِ المعطوفِ عليهِ على التَّساوي، وأنَّ التَّوبةَ عليهم مُتَحَقِّقَةٌ، حتَّى لو لم يكنْ هناك معطوفٌ عليه لجدارتِهم بذلك واستحقاقِهم له.

معنى اللّامِ في: ﴿ٱلثَّلَٰثَةِ﴾:

إحالةُ الثّلاثةِ على معهودٍ عند النّاسِ

في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ عَرَّفَ ﴿ٱلثَّلَٰثَةِ﴾ تعريفَ "العهدِ؛ فإنَّهم كانوا معروفين بين النّاسِ، وهم: كعبُ بن مالك من بني سلمةَ، ومرارةُ بن الرَّبيع العمريُّ من بني عمرِو بن عوفٍ، وهلالُ بن أميَّةَ الواقفيُّ من بني واقفٍ، كلُّهم من الأنصارِ تخلَّفوا عن غزوةِ تبوكَ بدون عذرٍ"(3).

نكتةُ عدمِ التَّصريحِ بأسمائِهم:

من إكرامِ التّائبِ الإعراضُ عن التَّشهيرِ بِهِ

في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ لم يصرِّحِ النَّظمُ الكريمُ بأسماءِ الثَّلاثةِ، و"إنَّما لم يسمِّهمُ اللّه؛ لكونهم معلومين بين الصَّحابةِ"(4)، ويُزادُ على ذلك أنَّ الثَّلاثةَ المذكورين قد عَلِمَ اللّه

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/164.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/51.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/51.
(4) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ: 2/161.

تعالى صدقَهم، وأنَّهم من عبادهِ الصّالحين، فلم يذكر في كتابهِ عنهم ما مِن شأنهِ أنْ يُلحِقَ بهم الحزنَ؛ فلم يصرِّحْ بأسمائِهم لطفًا بهِم؛ إذ إنَّ الفعلَ السَّيِّئَ لا يسرُّ صاحبَه أنْ يُذكَّرَ به، فأعرضَ عن ذلك لطفًا بهم وإكرامًا لهم.

سرُّ الوصفِ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

عُيِّنوا بالذِّكر والوصفِ المعهودِ تأكيدًا للتَّوبةِ عليهم

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عنهم بالاسمِ الموصولِ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾؛ لأنَّهم نفرٌ معروفون معهودون، عُرِفوا، وشُهِروا بالصِّفة المعبَّرِ عنها في الصِّلةِ؛ تخصيصًا لهم دونَ غيرِهم، وإظهارًا لصفتِهم في الصِّلةِ ليبيِّنَ أنَّ حكمَ التَّوبةِ شاملٌ لهؤلاءِ الذين أُرجئَ الحكمُ عليهم، فعيَّنهُم بالذِّكر والوصفِ المعهودِ تأكيدًا للتَّوبةِ عليهم، وإشارةً إلى علَّةِ التَّخلُّف الذي بُني عليها محاسَبَتُهم.

علَّةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي المبني للمفعول:

ما وقعَ عليهم من الأذى بالإرجاءِ وتأخيرِ التَّوبةِ كان بالغَ الأذى لذاتِهِ لا بكونِهِ من مُعيَّنٍ

في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ جاء الفعلُ في صلة الموصول فعلًا ماضيًا مبنيًّا للمفعول ﴿خُلِّفُواْ﴾، ولم يقل: تخلَّفوا؛ لأنَّهُ وقعَ في وقتٍ قد مضى، وانقطع، وأنَّ إرجاءَهم كان واقعًا، "ولمّا كان الخلعُ للقلوب مُطلَقَ التَّخليف، بُني للمفعولِ قوله تعالى: ﴿خُلِّفُواْ﴾ أي: خَلَّفهم رسولُ اللهِ ﷺ بالهجرانِ، ونهى النّاسَ عن كلامِهم، وأخَّرَ الحكمَ فيهم؛ ليأتيَ أمرُ اللهِ في بيان أمرِهم"[1]، فالَّذي وقع بهم من الأذى بالإرجاءِ وتأخيرِ التَّوبةِ كان بالغَ الأذى لذاتهِ لا بكونِه من معيَّن، فبناؤُه للمفعولِ، كما أنَّ حذفَ الفاعلِ فيهِ إيجازٌ في التَّعبيرِ اعتمادًا على ظهورهِ والعلم به.

بناءُ الفعلِ للمفعولِ تجريدٌ، أو تخليفٌ مجازيٌّ

معنى ﴿خُلِّفُواْ﴾: خلَّفهم مُخَلِّفٌ، أي: تركهم وراءَه، وهم لم يُخَلِّفْهم أحدٌ، وإنَّما تخلَّفوا بفعلِ أنفسِهم، فيجوزُ أن يكون ﴿خُلِّفُواْ﴾ بمعنى: خلَّفوا أنفُسَهم على طريقةِ التَّجريدِ، ويجوزُ أنْ يكون

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/39.

تخليفُهم تخليفًا مجازيًّا أُستعيرَ لتأخيرِ البتِّ في شأنِهم، أي: الَّذين خُلِّفوا عن القضاءِ في شأنِهم، فلم يعذرْهم رسولُ اللّه ﷺ ولا آيسَهم من التَّوبةِ، كما آيسَ المنافقين، فالتَّخليفُ هنا بمعنى الإرجاءِ، وبهذا التَّفسيرِ فسَّرهُ كعبُ بن مالك في حديثِهِ المرويِّ في (الصحيح)، حيث قال: «وليس الَّذي ذكرَ اللّه ممّا خُلِّفْنا عن الغزوِ، وإنّما تَخْليفُهُ إيّانا، وإرْجاؤُهُ أمرَنا عمَّن حَلفَ لهُ، واعتذرَ إليهِ، فقُبِلَ منهُ»[1]، وفاعلُ التَّخليفِ يجوزُ أنْ يُرادَ بهِ النَّبيُّ ﷺ أو اللّه تعالى[2].

لم يكونوا عازمِينَ على التَّخلُّفِ ابتداءً، وإنَّما آلَ أمرُهم إليهِ

وعبَّر اللّه تعالى بالبناءِ للمجهولِ، ولم ينْسِب إليهم أنَّهم تخلَّفوا، بل لم يذكر مَنْ خَلَّفَهُم، وإنَّما الواقع أنَّهم ما أرادوا القُعودَ ابتداءً، مِن وصفِ حالهِم أنَّهم تباطؤوا، وأخذوا يؤجِّلون يومًا بعد يوم، حتَّى فاتهم الرَّكبُ، فهم خُلِّفوا، ولم يريدوا التَّخلُّفَ ابتداءً، ولكن آلَ أمرُهم إلى التَّخلُّف[3].

دلالةُ إسنادِ التَّخليفِ إلى الضَّمير:

يتعلَّقُ التَّخليفُ ببيانِ حكمِ توبتِهم

في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ أسندَ التَّخليفَ إلى الضَّميرِ العائدِ على ﴿ٱلثَّلَٰثَةِ﴾ "وتعليقُ التَّخليف بضميرِ الثَّلاثة من باب تعليقِ الحكم باسم الذّاتِ، والمرادُ: تعليقُهُ بحالٍ من أحوالِها يُعلمُ من السِّياق، مثل ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ [المائدة: 3]"[4]، أي: حرَّمَ أكلَها، كما أنَّ التَّخليفَ يتعلَّقُ ببيانِ حكمِ توبتِهم، وليس مُتَعَلِّقًا بذواتِهم.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾:

استمرَّ الإرجاءُ والتَّخليفُ حتَّى وقعَ الضِّيقُ

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن طولِ مدَّةِ الإرجاءِ والتَّخليفِ بـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾، فهو قد استمرَّ

(1) البخاري، الصَّحيح، الحديث رقم: (2606).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/52.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3469.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/52.

حتَّى وقع الضِّيقُ[1]، فقوله جلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ غايةٌ للتَّخليفِ، وهذا يدلُّ على أنَّ المرادَ من قوله تعالى: ﴿خُلِّفُواْ﴾ تأخيرُ أمرِهم بالتَّوبةِ لا تخلُّفهم عن القتالِ، أي: "خُلِّفوا، وأُخِّر أمرُهم إلى أن ضاقت عليهم الأرضُ"[2]. فضيقُ الأرضِ والنُّفوسِ هو غايةٌ لإرجاءِ أمرِهم، فالضِّيقُ لم يكن عن تخلُّفِهم عن الغزوِ، وإنَّما ضاقت عليهم الأرضُ بسببِ تَخْلِيفِهم عن قَبولِ العذرِ ومقاطعتِهم[3].

علَّةُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِذَا﴾:

خُلِّفوا إلى وقتِ الضِّيق ثمَّ تاب الله تعالى عليهم

في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ يجوزُ في ﴿إِذَا﴾ أن تكونَ شرطيَّةً، وأن تكونَ مجرَّدةً من الشَّرطِ دالَّةً على الوقتِ[4]، فإذا كانت شرطيَّةً؛ فإنَّ جوابَها محذوفٌ، تقديرُه: تابَ عليهم، وإذا جُعِلت مجرَّدةً من الشَّرطِ لمجيئِها مقترنةً بـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾، فإنَّها غيرُ لازمةٍ للجوابِ، وتكونُ غايةً للفعلِ الَّذي جاءَ قبلَها، وهو قوله: ﴿خُلِّفُواْ﴾، والمعنى: أنَّهم خُلِّفوا إلى هذا الوقتِ، ثمَّ تابَ اللّه تعالى عليهم[5].

سرُّ التَّعبيرِ بالمجازِ في: ﴿ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾:

بضيقِ الأرضِ مع سَعتِها ينتفي هناءُ العيشِ

في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ عبَّرَ عن سوءِ حالِهم بضيقِ الأرضِ، والأرضُ مستقرَّةٌ لا تضيقُ، وإنَّما هو تعبيرٌ مجازيٌّ عن انتفاءِ هناءِ العيشِ عنهم، فهو مثلٌ يبيِّنُ شدَّةَ الحيرةِ الَّتي كانوا فيها[6]؛ لأنَّ المكانَ الضَّيِّقَ لا يَسَعُ أن يكونَ مقرًّا لأحدٍ، فالمرادُ مجازًا أنَّهم لم يَقرّوا في الدُّنيا مع سَعتِها؛ لإعراضِ النّاسِ عنهم، وعدمِ مجالستِهم ومحادثتِهم ما سبَّبَ لهم من كربٍ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/39.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/109، وابن جزيّ، التّسهيل: 1/350.

(3) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/94.

(4) الشّهاب، عناية القاضي: 4/372، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/520.

(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/520.

(6) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/101.

وضيق[1]، "ففي الكلام مجازٌ خلاصتُه أنَّهم شعروا بضِيقِ النّاسِ بهم لا يُقرِئونَهم سلامًا، ولا يقولون: لهم كلامًا أيًّا كان الكلامُ، لومًا أو عتابًا، أو تقريعًا، أو أيَّ نوعٍ من الكلام يسمعونَ، فعبَّر عن هذا بأنَّ الأرضَ ضاقت بهم مع اتِّساعِها ورَحْبِها"[2].

يحتمل ضيقُ الأرضِ الاستعارةَ والكناية

يصِحُّ جعلُ (ضِيق الأرض) من باب الاستعارةِ، أي: حتَّى كانت الأرضُ كالضَّيِّقةِ عليهم، أي: عندَهُم، وذلك التَّشبيهُ كنايةٌ عن غمِّهم وعن استيحاشِهم، لتنكُّرِ المسلمين لهم، وإعراضِهم عنهم، ونَبْوَتِهم عن كلامِهم، فالمعنى: أنَّهم تخيَّلوا الأرضَ في أعينِهم كالضَّيِّقةِ، كما قال الطِّرِمّاح:

ملأتُ عليهِ الأرضَ حتَّى كأنَّها *** مِنَ الضِّيقِ في عَيْنَيْهِ كِفَّةُ حابِلِ[3].

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بـ ﴿عَلَيۡهِمُ﴾:

تمكُّنُ الضِّيقِ منهم حتَّى غَشِيَهم

آثرَ النَّظمُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ التَّعبيرَ بحرفِ الاستعلاءِ (على) دونَ (الباء) تعظيمًا للأمر[4]، فضِيقُ الأرضِ تَسَلَّطَ عليهم، وتمكُّنٌ منهم، وحرفُ الاستعلاءِ يدلُّ على الكُلْفَةِ والشِّدَّة، ولو قال: (بهم)؛ لكانَ المعنى: أنَّ الضِّيقَ وقعَ ملابِسًا لهم.

سرُّ تقديمِ المجرورِ على الفاعل:

تَقديمُ من وقع عليه الضِّيقُ اهتمامًا بشأنه

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ الجارَّ والمجرورَ على الفاعلِ في قوله تعالى: ﴿ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾، ولم يقل: (ضاقت الأرضُ عليهم)؛ اهتمامًا بشأنِ مَن وقعَ الضِّيقُ عليه أكثرَ من الاهتمامِ بما ضاقَ، وذلك للمبالغةِ في شأنِ الضِّيقِ الَّذي وقعَ عليهم.

---

(1) الشّهاب، عناية القاضي: 4/372.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3470.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/520، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/53، ويُنظر: ديوان الطّرمّاح، ص: 208.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/39.

الشُّعورُ بضيقِ كلِّ الأرضِ يزيدُ صعوبةَ الحالِ

معنى اللّامِ في ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ عرَّفَ ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾ بالألفِ واللّامِ الدّالَّةِ على العهدِ، فالمرادُ أنَّ الأرضَ كلَّها ضاقت عليهم(1)، وفي ذلك بيانٌ لشدَّةِ الضِّيقِ الَّذي كانوا فيه، فلم يكن لهم في هذهِ الأرضِ الواسعةِ ملجأٌ يفِرّونَ إليه، وفي ذلك إشارةٌ إلى قوَّةِ إيمانِهم وشدَّةِ ثباتِهم؛ إذ لم يشعروا أنَّ لهم في الأرض الواسعةِ مهرَبًا من اللّه تعالى.

اشتدَّ غمُّهم حتَّى إنَّ الأرضَ ضاقت، والحالُ أنَّها واسعةٌ رَحْبةٌ

موقعُ: ﴿بِمَا رَحُبَتۡ﴾ ودلالتُهُ:

قوله تعالى: ﴿بِمَا رَحُبَتۡ﴾ في موضعِ الحالِ من الأرضِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾، أي: تخيَّلوا الأرضَ ضيِّقةً، وهي الأرضُ الموصوفةُ بسَعتِها المعروفةِ(2)، فهي مع سَعتِها قد خَلَتْ من مكانٍ يفرّون إليه لشدَّةِ قلقِهم وجَزَعِهم ممّا هم فيه(3).

الأرضُ على رحابتِها ضاقت عليهم

دلالةُ الباءِ في: ﴿بِمَا﴾ ومعنى (ما):

لفظةُ (ما) في قوله تعالى: ﴿ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ مصدريَّةٌ لا موصولةٌ، أي: برحْبِها(4)، وعبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ (ما) المصدريَّةِ؛ للدَّلالةِ على سَعةِ الأرض، وتدلُّ الباءُ على الملابَسةِ(5)، فهي الأرضُ المُلابِسَةُ لِسِعَتِها المَعروفَةِ، فالأرضُ على ما هي في نفسِها رحْبةٌ واسعةٌ، ومع ذلك ضاقتْ عليهم(6).

عَطفُ ضِيقِ الأنفسِ على ضِيقِ الأرضِ يحيلُ على المجازِ دونَ الحقيقةِ

دلالةُ العطفِ في: ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾:

عُطِفَ قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ على قوله تعالى:

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/39.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/53.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/318، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/109.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 9/359.
(5) الشّهاب، عناية القاضي: 4/372.
(6) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/94، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/53.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾، فلمّا بيَّنَ ضِيقَ الأرضِ عليهِم لِما حلَّ بهم من الكربِ بالمقاطعة: بيَّن شدَّةَ ذلك الكربِ بأنَّ الضِّيقَ طغى عليهم؛ حتَّى تغلغلَ إلى قلوبِهم، كما أنَّه يبيِّنُ أنَّ المرادَ من ضِيقِ الأرضِ المجازُ دونَ الحقيقة[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ المجازيِّ في ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾:

استعارَ الغمَّ والحزَنَ لضِيقِ أنفسِهم

قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ استعارةٌ عن امتلاءِ النُّفوسِ والقلوبِ بالغمِّ والهمِّ[2]، وإنَّما حدثَ ذلك الضِّيقُ بسببِ الهمِّ والغمِّ لمقاطعةِ النّاسِ لهم، ومجانبةِ الأحبّاءِ، وما حدث لهم من الوحشةِ، ونظرِ النّاسِ لهم بعينِ الإهانةِ[3]، "ومعنى ضِيقها: شدَّةُ غمِّها وحزنِها، كأنَّها لا تسع السُّرورَ لضيقِها، فهو استعارةٌ في الضِّيق"[4]، فاستعارَ الضِّيقَ لشدَّةِ الهمِّ، فشبَّهَ امتلاءَ قلوبِهم غمًّا بالمكانِ الَّذي يمتلِئُ حتَّى يضيقَ بمن فيه، فلا يتَّسعُ لغيرِه، وحذفَ المشبَّهَ به، وأبقى قرينةَ الضِّيقِ، والجامعُ بينهما الامتلاءُ، فكذلك القلبُ يمتلِئُ بالغمِّ حتَّى لا يتَّسعَ للسُّرورِ، واستعارةُ الغمِّ والحزنِ لضيقِ أنفسِهم؛ لأنَّ الغمَّ يكونُ في النَّفس بمنزلةِ الضِّيق، ولذلك يُقالُ للمحزونِ: ضاقَ صدرُهُ، وللمسرور: شُرِحَ صدرُهُ[5]، ويحتمل الضِّيقَ فضلًا عن فرطِ الغمِّ، والاستعارةُ عن شدَّةِ الحيرة[6].

الآيةُ كنايةٌ عن تواترِ الغمِّ والهمِّ

ويحتملُ الكنايةَ عن تواترِ الهمِّ والغمِّ على قلوبِهم، حتَّى لم يكن فيها شيءٌ من الانشراحِ والاتِّساع[7].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/39.
(2) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/94.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/318، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/165.
(4) الشّهاب، عناية القاضي: 4/372.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/53.
(6) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 9/360.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/520.

سرُّ تقديمِ المجرورِ على الفاعل:

التَّقديمُ يُفصحُ عن شدَّةِ الضِّيقِ والكربِ الَّذي هم فيهِ

في قوله تعالى: ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ قدَّم النَّظمُ الجليلُ شبهَ الجملةِ من الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على الفاعل ﴿أَنفُسُهُمۡ﴾، ولم يقل: (ضاقت أنفسُهم عليهم)؛ اهتمامًا بكونِ ضِيقِ الأنفسِ وقعَ عليهم، تعجيلًا ببيانِ تعلُّقِ الضِّيقِ بهم، فتبيَّنَ أنَّ وقوعَ الضِّيقِ عليهم أهمُّ في السِّياق من بيان فاعل الضِّيقِ، وهذا يفصحُ عن شدَّةِ ذلك الضِّيقِ.

سرُّ التَّرقِّي في التَّعبيرِ من ضِيقِ الأرضِ إلى ضِيقِ الأنفس:

بِدايَةُ الضِّيقِ من المحلِّ، وانتهاؤه بالاستقرارِ في الأنفسِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ جمعَ بين ضِيقِ الأرضِ وضِيقِ الأنفسِ، "وفيهِ ترقٍّ من ضِيقِ الأرضِ إلى ضِيقِهم في أنفسِهم، وهو في غايةِ البلاغةِ"[1]، فابتدأَ بالضِّيقِ الأخفِّ، وأَتْبَعَهُ بالأشدِّ؛ لأنَّ "ضِيقَ المحلِّ قد لا يستلزمُ ضِيقَ الصَّدرِ"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾:

يعبِّرُ عن اليقينِ في الخوفِ والحيرةِ بالظَّنِّ

دلَّ فعلُ الظَّنِّ في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ على اليقينِ والعلم، أي: أيقنوا، وحصل علمٌ لهم[3]، و"عَبَّرَ بالظَّنِّ إيذانًا بأنَّهم لشدَّةِ الحيرةِ كانت قلوبُهم لا تستقرُّ على حالٍ، فكان يقينُهم لشدَّةِ الخواطرِ، كأنَّهُ ظنٌّ، أو يُقال - وهو حسن -: إنَّ التَّعبيرَ بهِ عن يقينِ المخلصين إشارةٌ إلى أنَّ أعلى اليقينِ في التَّوحيدِ لا يبلغُ الحقيقةَ على ما هي عليهِ ألّا يَقدرَ أحدٌ أن يُقدِّرَ للّه حقَّ قدرهِ"[4].

الظَّنُّ كافٍ في التَّوجُّهَ إلى الله تعالى

فُسِّرَ الظَّنُّ بالعلمِ؛ إذ حالُ المُسلمينَ العلمُ بذلكَ لا الظَّنُّ، وإنَّما

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/520، والشّهاب، عناية القاضي: 4/372.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/39.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/94.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/39 - 40.

عُبِّرَ بِهِ للإشعارِ بأنَّ الظَّنَّ كافٍ في التَّوجُّهِ إليهِ تعالى فما ظنُّكَ بالعلم اليقينيِّ[1]، أي: "يكفي في الخوفِ من جلالهِ للانقطاعِ إليهِ مجرَّدُ الظَّنِّ بأنَّهُ لا سببَ إليهِ إلّا منهُ؛ لأنَّهُ مُحيطٌ بكلِّ شيءٍ، لا يُعجِزهُ شيءٌ"[2].

الثَّناءُ مَظنَّةُ العلمِ

وحُمِلَ الظَّنُّ على العلمِ؛ لأنَّهُ تعالى ذكرَ هذا الوصفَ في معرضِ المدحِ والثَّناءِ، وذلك لا يكونُ إلّا مع علمِهم بذلكَ[3].

أمرُ التَّوبةِ موكولٌ إليهِ سبحانه وحدَهُ

واستعمالُ الظَّنِّ بمعنى اليقينِ والجزمِ - وهو من معانيهِ الحقيقيَّةِ - ليقينِهم أنَّ أمرَ التَّوبةِ عليهم موكولٌ إلى اللّه دونَ غيرهِ بما يوحي بهِ إلى رسولهِ ﷺ أي: التجِئوا إلى اللّه دونَ غيرهِ، ومنهُ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ٤٦﴾ [البقرة: 46]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦٦﴾ [الأعراف: 66][4].

بلاغةُ الكنايةِ في لفظِ (الظَّنِّ):

حملُ الظَّنِّ على اليقينِ أمارةُ توبتِهم

وإيكال المُخلّفين الثلاثةِ أمرَ العفوِ عنهم، والتَّوبةَ عليهم إلى اللّه سبحانه ويقينُهم بذلك، وجزمُهم به باللُّجوءِ إليهِ تعالى دونَ غيرهِ، كنايةٌ عن أنَّهم تابوا إلى اللّه، وترقَّبوا صفحَهُ، وانتظروا عفوَهُ[5].

سرُّ التَّعبيرِ بـ (لا) النّافيةِ للجنسِ:

ينتفي كلُّ ملجأٍ مِن دونِ الله

في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن انتفاءِ وجودِ الملجأِ من اللّه سبحانه بلا النّافيةِ للجنسِ؛ للدَّلالةِ على انتفاءِ جنسِ ما يُلجأُ إليهِ فِرارًا من اللّه تعالى مبالَغةً في النَّفي.

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 9/360.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/39 - 40.
(3) الخلوتيّ، روح البيان: 3/527.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/53.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/53.

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بـ ﴿مَلۡجَأَ﴾:

حين يَدْلَهِمُّ الخطرُ فالملجأ أحصنُ من الفرارِ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ في قوله جلَّ شأنهُ: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ أن يعبِّرَ بالملجأِ دونَ المفرِّ؛ لأنَّ الملجأَ أدلُّ على الحمايةِ من المفرِّ، فالملجأ هو "المُعتَصمُ من الله وعذابه"[1]، وهذا أنسبُ للسِّياق؛ لأنَّ الفرارَ لا يدلُّ على التَّحصُّن، فيتحقَّقُ الأمنُ بمجرَّدِ البُعد عن مَكْمَنِ الخطر، أمّا اللُّجوءُ؛ فإنَّه يكونُ إلى حصنٍ منيعٍ؛ لأنَّ الخطرَ أشدُّ، وهذا أنسبُ في التَّعبيرِ عن عظيمِ ما كانوا فيهِ من الكَرْبِ.

معنى التَّعبيرِ بالاسمِ الجليل ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾:

لا مفرَّ من العظيمِ الَّذي لهُ الإحاطةُ بكلِّ شيءٍ

في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ عبَّرَ عن يقينِهم بانتفاءِ وجودِ ملجأٍ من الله "الَّذي له الإحاطةُ الكاملةُ"[2]، إيماءً إلى انتفاءِ ذلك الملجأِ على وجهِ القطعِ؛ إذ لا مكانَ يخرجُ عن إحاطة الله تعالى ويشيرُ إلى أنَّهم قد استحضروا جلالَ الله تعالى وعظمتَهُ خوفًا منهُ ومعرفةً بهِ، أنَّهم قد بلغوا في ذلك مرحلةَ اليقينِ.

ما دلالةُ ﴿إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾؟

إنَّما يُلجأ إلى الله تعالى بالعملِ بما يُرضيهِ

في قوله جلَّ شأنُهُ: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ تعلَّقَ شبهُ الجملةِ ﴿إِلَيۡهِ﴾ باللُّجوءِ من الله تعالى وهذا يدلُّ على العملِ بما يُرضيه، ويأمرُ به[3]؛ إذ لا يُلجأ إلى الله تعالى كما يلجأُ أحدٌ إلى مكانٍ يُعتصَمُ بهِ، بل يُلجأ إليهِ تعالى بالتَّوبةِ إليهِ والاستغفارِ والعملِ الصّالحِ، فعلموا أن لا مفرَّ من الله تعالى إلّا بالرُّكون إلى شريعتهِ وتعاليمِهِ.

سرُّ التَّعبيرِ بأسلوبِ القصرِ بطريقِ النَّفي والاستثناءِ:

في القصرِ تأكيدٌ لمعنى علمِهم بأن لا ملجأَ لهم إلّا الله

يُستعمَلُ القصرُ بالنَّفي والاستثناءِ في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ في حُكْمٍ مِن شأنِهِ "أن يجهلَه المخاطبُ،

---

(1) ابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 148.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/40.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/40.

ويُنْكِرُهُ، ويحتاجُ فيهِ إلى تأكيدٍ، أو في حُكْمٍ مِن شأنِه ألّا يُجهلَ ولا يُنكرَ، ولكن نزل منزلةَ ما يُجهلُ، ويُنكرُ لنكتةٍ"[1]، فلمّا كان قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ هو الصِّفةُ الثّالثةُ الواقعةُ في حيِّزِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ﴾؛ فأشعرتِ الغايةُ في الآيةِ بأنَّهم حين ارتكبوا ذلك كانوا في حكم مَن يجهلُ انتفاءَ وجودِ ملجأٍ من اللّه تعالى وفي هذا القصرِ تأكيدٌ للمعنى، فقصرُ الصِّفةِ على الموصوف قصرٌ حقيقيٌّ؛ لأنَّ انتفاءَ وجودِ ملجأٍ يعصمُ من اللّه تعالى انتفاءٌ لا يُنتقضُ بوجودِ ملجأٍ إلى غيرهِ.

سرُّ ترتيبِ الجملِ في حيِّزِ ﴿إِذَا﴾:

بدأ بالشَّديدِ وأتبعَهُ بالأشَدِّ

في قوله تعالى: ﴿إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ انتظمتْ ثلاثُ جملٍ واقعةٍ في حيِّزِ ﴿إِذَا﴾، وقد جاءت "في غاية الحُسن والتَّرتيبِ، فذكرَ أوَّلًا ضيقَ الأرضِ عليهم، وهو كنايةٌ عن استيحاشِهم، ونَبْوَةِ النّاسِ عن كلامِهم، وثانيًا: وضاقت عليهم أنفسُهم، وهو كنايةٌ عن تواترِ الهمِّ والغمِّ على قلوبِهم، حتَّى لم يكن فيها شيءٌ من الانشراحِ والاتِّساع، فذكر أوَّلًا ضيقَ المحلِّ، ثمَّ ثانيًا ضيقَ الحالِّ فيه؛ لأنَّهُ قد يضيقُ المحلُّ، وتكونُ النَّفسُ منشرِحةً، فسَمُّ الخِياط مع المحبوب ميدانٌ، ثمَّ ثالثًا لمّا يَئِسوا من الخلقِ عَلَّقوا أمورَهم باللّه، وانقطعوا إليه، وعلموا أنَّهُ لا يُخلِّصُ من الشِّدَّةِ، ولا يُفرِّجُها إلّا هو تعالى"[2].

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿ثُمَّ﴾:

بعدَ التَّأديبِ الشَّديدِ قبِلَ تعالى توبتَهم

عُطفَ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾ على قوله: ﴿ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ لبيانِ أنَّ التَّوبةَ جاءت بعد أن مرّوا بتلكَ الكُرُباتِ، "أي: حتَّى وقع ذلك كلُّهُ، ثمَّ تاب عليهم بعدَهُ، وثُمَّ هنا للمُهلة والتَّراخي

---

(1) الجناجيّ، البلاغة الصّافية في المعاني والبيان والبديع، ص: 175.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/520.

الزَّمني، وليست للتَّراخي الرُّتبي؛ لأنَّ ما بعدها ليس أرفعَ درجةً ممّا قبلَها بقرينةِ السِّياق"[1]، ومقتضى هذا اللَّفظِ تأخيرُ قبولِ التَّوبةِ[2]؛ لأنَّه قد مضت عليهم خمسونَ ليلةٍ يحسّون بالقطيعةِ، وبعد الخمسين تابَ عليهم بأنْ أمرَ النَّبيَّ والمسلمين ألّا يجافوهم؛ لأنَّهم منهم[3]، فالمغفرةُ والتَّوبةُ لم تقع عَقِبَ ندمِهم وإعلانِهم أنَّهم قد تخلَّوا بلا عذرٍ، بل لبثوا مدَّةً حتَّى نالوا التَّوبةَ، ومن نفائسِ ما قال أئمَّةُ التَّفسيرِ في ذلك ما ذكرهُ البقاعيُّ في دُررِهِ؛ إذ قال: "ولمّا كان ما عملوهُ من التَّخلُّف عن أمر الرَّسول ﷺ عظيمًا بمجرَّدِ المخالفة، ثمَّ بتركِ المواساةِ، ثمَّ بالرَّغبةِ عنهُ ﷺ، ثمَّ بأمورٍ عظيمةٍ شديدةِ القبح وخيمةٍ، فكان يَبْعُدُ معه الزِّيادةُ عن رتبة التَّوبةِ، أعلمَ سبحانه أنَّه رقّاهم في رُتَبِ الكمالِ بأن جعل ذلك سببًا لتطهيرهِم من جميع الأدناسِ، وتنقيتِهم من سائرِ الأردانِ المُقْتَضِي لمزيدِ القربِ بالعروجِ في مصاعدِ المعارف، كما أشار إليه قوله ﷺ لكعب رضي الله عنه: «أَبْشِرْ بخيرِ يومٍ مرَّ عليك منذ ولدتكَ أمُّكَ»[4]، أَتْبَعَ ذلك سبحانه الإعلامَ به بقوله - مشيرًا إلى ما بعدَهُ لولا فضلُ اللّه - بأداةِ الاستبعادِ: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾"[5].

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿تَابَ عَلَيْهِمْ﴾:

رجَعوا إلى الصَّلاحِ فرجَعَ إلى الرِّضوانِ

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ تعبيرٌ عن قبولِه توبتَهم، بعد أن ذكر الصِّفاتِ الثَّلاثَ المتقدِّمة (ضيقَ الأرضِ، وضيقَ الأنفسِ، ويقينَهم بانتفاءِ الملجأِ من اللّه) فبَعد أن رجَعوا نادمين من زَيْغِهم إلى سابقِ عهدِهم من الصَّلاحِ والتَّقوى؛ بيَّن رجوعَهُ ﷻ إلى تقبُّلِهم في مَسْلَكِ الصّالحين.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/53.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/166.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3470.
(4) البخاري، الصحيح، حديث رقم: 2606.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/40.

دلالةُ اللامِ في ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾:

في توبتِهِ تعالى رحمةٌ وتربيةٌ وهدايةٌ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾ أَدْخَلَ اللّام الدّالَّة على التَّعليلِ؛ ليدلَّ على علَّةِ توبتِهِ عليهم، وهي أن يقلعوا عن الإثم، "أي: تابَ عليهم لأجلِ أن يكفّوا عن المخالفةِ، ويتنزَّهوا عن الذَّنبِ"[1]، فتوبةُ اللّه تعالى عليهم كما أنَّ فيها رحمةً ولطفًا، فكذلك فيها تربيةٌ وهدايةٌ لهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾:

قَبلَ توبتَهم ليديموا الرُّجوعَ إليهِ ولا يقنطوا

جعل النَّظمُ الكريمُ علَّةَ التَّوبةِ عليهم أن يأتوا بالتَّوبةِ، فقال تعالى: ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾، والمرادُ من ذلك أنَّهم يستمرّون بالتَّوبةِ مهما وقعوا بالذُّنوب، فهو ﷻ قد "رجعَ عليهم بالقبولِ والرَّحمةِ كرَّةً بعد أخرى، ليستقيموا على توبتِهم، ويثبُتوا، ولِيتوبوا أيضًا فيما يُستقبلُ إن فرَطَت منهم خطيئةٌ، عِلمًا منهم أنَّ اللّه توّابٌ على من تابَ، ولو عادَ في اليوم مئةَ مرَّةٍ"[2]، والتَّعبيرُ عن توبتِهم بالفعلِ المضارعِ الَّذي دخلت عليهِ اللّامُ التَّعليليَّةُ، يدلُّ على أنَّ تجديدَ توبتِهم هو علَّةُ توبةِ اللّه تعالى عليهم، فاللّه تعالى لطيفٌ بعبادِهِ، أرشدَهم إلى ألّا يتقاعسوا عن الرُّجوعِ إليهِ مهما عَظُمَت ذنوبُهم، واستمرَّت، والمعنى: "قَبِل توبتَهم ليتوبوا في المستقبلِ؛ إذا صدرت منهم هفوةٌ، ولا يقنطوا من كرمِهِ"[3]، و"ليدوموا على التَّوبةِ، ولا يراجعوا ما يبطلُها"[4]؛ ليكونوا من التَّوّابين الَّذين يرجعون إلى اللّه تعالى دائمًا[5]، وتصبح توبتُهم توبةَ رجوعٍ وعودةٍ إلى ما كانوا عليه قبلَ المعصيةِ[6].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/53.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/319.

(3) الشّهاب، عناية القاضي: 4/372 - 373، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/53.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/166.

(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3471.

(6) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5558.

سرُّ تقديم توبةِ الله تعالى على توبةِ العبادِ:

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾ قدَّمَ ذِكْرَ توبتِه تعالى على توبةِ عبادِه؛ لأنَّهُ في سياق المنِّ عليهم بالتَّوبةِ، فلمّا "كان هذا القولُ في تعديدِ نِعَمِهِ بدأ في ترتيبِهِ بالجهةِ الَّتي هي عنِ اللهِ ﷻ ليكونَ ذلك مُنبِّهًا على تلقِّي النِّعمةِ من عندِه لا ربَّ غيرُهُ، ولو كان القولُ في تعديدِ ذنبٍ؛ لكان الابتداءُ بالجهةِ الَّتي هي عن المُذْنِبِ، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصّف: 5]؛ ليكونَ هذا أشدَّ تقريرًا للذَّنب عليهم، وهذا من فصاحةِ القرآنِ وبديعِ نظمِه ومُعْجِزِ اتِّساقِهِ"[1].

في سياقِ الامتنانِ تُقدَّمُ توبتُه تعالى على عبادِهِ

دلالةُ التَّذييلِ بـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تذييلٌ تعليليٌّ؛ إذ "علَّلَ التَّوبةَ بأمرٍ يعُمُّ غيرَهم ترغيبًا"[2]، فيُفْهَمُ من هذا التَّذييلِ أنَّهُ تعالى إنَّما تابَ عليهم؛ لكونِه كثيرَ التَّوبةِ على عبادِه، ويقبلُ توبتَهم رحمةً بهم ولطفًا.

توبتُهُ تعالى كبيرةٌ، ورحمتُهُ عميمةٌ

سرُّ تأكيدِ التَّذييلِ بـ ﴿إِنَّ﴾ وضميرِ الفصلِ، وتعريفِ الطَّرفين:

أكَّدَ النَّظمُ الكريم جملةَ التَّذييلِ في قوله جلَّ شأنُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بالجملةِ الاسميَّةِ، وبتصديرِها بحرفِ التَّأكيدِ ﴿إِنَّ﴾ تأكيدًا لمضمونِ الجملةِ، وتقويةً للخبرِ بتوبتِه تعالى على عظيمِ ما قاموا به، وأدخلَ ضميرَ الفصلِ بين المسندِ والمسندِ إليهِ دلالةً على أنَّهُ وحدَهُ التَّوابُ[3]، وهو وحدَهُ تعالى القديرُ بأن يغفرَ لهم لاتِّصافِه بكثرةِ التَّوبةِ والرَّحمةِ للعبادِ، وأفادَ تعريفُ طرفي الإسنادِ القصرَ، وهو قصرُ صفةٍ على موصوفٍ قصرًا حقيقيًّا؛ لأنَّ اللهَ تعالى هو

اللهُ تعالى وحدَهُ الجديرُ بالمغفرةِ

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/94، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/166.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/41.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/41.

التَّوّابُ على وجهِ الحقيقةِ ولا توّابَ غيرُهُ، وأفاد ذلك تقويةَ التَّأكيدِ في الجملةِ، فجاءت على الوجهِ الأكملِ في تقويَةِ المعنى.

دلالةُ التَّصريح بلفظ الجلالةِ:

توبتُهُ تعالى على عبادِهِ من تمامِ كمالهِ وجلالهِ وغناهُ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وضعَ الظّاهرَ مَوْضِعَ المُضْمَرِ، فلم يقل: (إنَّه هو التَّوّاب)؛ تعظيمًا للتَّوبةِ المذكورةِ في سياقِ الامتنانِ بالتَّوبةِ عليهم مع عظيم ما جاؤوا بهِ، أي: إنَّ اللّه ذا الجلالِ والكمالِ هو من تابَ عليهم، فلا بأسَ عليهم بعد ذلك، فوضعَ الظّاهرَ موضعَ المُضْمَرِ مُظهِرًا لفظَ الجلالةِ تحقيقًا للمعنى المذكور.

سرُّ التَّرتيبِ في الاسمينِ الجليلينِ ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

يقبلُ الله تعالى تـوبـةَ الـعـبـادِ تفضُّلًا منهُ ولا مـوجِـبَ لـذلـك عليهِ

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ صفةَ التَّوبةِ على صفةِ الرَّحمةِ؛ لأنَّ ذكْرَ "الرَّحيم عقيبَ ذكرِ التَّوّاب، يدلُّ على أنَّ قبولَ التَّوبةِ لأجلِ مَحْضِ الرَّحمةِ والكرم، لا لأجلِ الوجوبِ"(1)، فبدأَ ببيانِ أنَّهُ إنَّما قَبِل توبتَهم؛ لأنَّه كثيرُ التَّوبةِ على عبادِه، وإنَّما كان كذلك؛ لأنَّه رحيمٌ، فقبولُ التَّوبةِ إنَّما هو تفضُّلٌ منه وامتنانٌ مَحْضٌ.

دلالةُ صيغةِ المبالغةِ في: ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

كثُرَت توبتُهُ على عبادِهِ وعَظُمت لعفوِهِ عن كبائرِ ذنوبهم

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ عبَّرَ بصيغةِ المبالغةِ في ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ للدَّلالة على كثرةِ توبتِه تعالى على عبادِه، فـ ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾، أي: المبالغُ في قَبول التَّوبة كمًّا وكيفًا على من تابَ، وإن عَظُمَ جُرْمُه، وكثُرت جناياتُه، وتكرَّرت توبتُهُ لِتَكَرُّرِ ذنوبِهِ(2)، كما أنَّ في التَّعبير بـ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الدِّلالةَ على صفةِ الرَّحمةِ العظيمةِ الواسعةِ الَّتي لا تزالُ تنزل على عبادِهِ في كلِّ وقتٍ وحينٍ، ما تُقوِّمُ به أمورُهم الدِّينيَّةُ والدُّنيويَّةُ(3).

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/166.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/41، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/109.

(3) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 354.

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الضِّيقُ والحرجُ:

ضِيقُ الأرضِ عليهم وضِيقُ أنفسِهم، زالا بالتَّوبةِ

الْحَرجُ أشدُّ الضِّيق، فهو ضِيقٌ لا منفذَ فِيهِ ولا مخرجَ مِنْهُ، مَأْخوذٌ من الحرجةِ، وهِي الشَّجرُ الملتفُّ حَتَّى لا يُمكن الدُّخولُ فِيهِ، ولا الْخُروج منه، ولِهَذا جاءَ بِمَعْنى الشَّكِّ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ [النساء: 65] أَي: شكًّا؛ لِأَنَّ الشّاكَّ في الْأَمر لا يَنْفَذُ فِيه، أمّا الضِّيقُ؛ فيمكنُ أَنْ يُتَخَلَّصَ منهُ، وتجدَ له منفذًا، كالتَّخلُّصِ من الذَّنب بِالتَّوْبَةِ[1]، ومن هنا كان اختيارُ الضِّيق أنسبَ لمقام ما مرَّ بِهِ الثلاثةُ؛ إذ هو ضِيقٌ ما لَبِثَ أن زالَ بالتَّوبةِ.

الظَّنُّ والحُسبانُ:

الظَّنُّ أدلُّ على اليقينِ والعلمِ من الحسبانِ

الظَّنُّ أدلُّ على اليقينِ والعلمِ من الحُسبانِ؛ لأنَّ "الظَّنَّ ضربٌ من الاعتقادِ، وقد يكون حُسبانًا ليس باعتقادٍ، ألا ترى أنَّك تقولُ: أَحْسَبُ أنَّ زيدًا قد مات، ولا يجوزُ أن تعتقدَ أنَّه مات مع علمك بأنَّه حيٌّ"[2]، والحُسْبانُ: أن يُحكمَ لأحدِ النَّقيضين من غيرِ أن يخطُرَ الآخرُ بباله، ويكونُ بِعَرْضِ أن يعتريهِ فيه شكٌّ، والظَّنُّ أن يُخْطِرَ النَّقيضَيْن بباله، فيُغَلِّبَ أحدَهما على الآخرِ[3]، ففي الظَّنِّ تغليبٌ، أمّا الحُسبانُ؛ ففيهِ شكٌّ، وتَحريرُ قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾، يُحِيلُ على انتفاءِ وجودِ ملجأٍ يعصِمُ من الله تعالى وأنَّ ذلكَ متيقَّنٌ لديهم، أي: إنَّهم اعتقدوا ذلكَ، وتيقَّنوهُ، فجيءَ بالظَّنِّ؛ لأنَّهُ في سياقِ العلمِ واليقينِ.

الملجأُ والمفرُّ:

الملجأُ أخصُّ من المفرِّ لِما فيهِ من التَّحصُّنِ

المَلْجَأُ: المَكانُ يُلْتَجَأُ إِلَيْه، قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ﴾ [الشّورى: 47]، وهو المَعْقِلُ، وما يُتَحصّنُ به، من قلعةٍ ونحوها، يُقالُ: لَجَأْتُ

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 305.
(2) العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 99.
(3) الرّاغب، المفردات: (حسب).

إلى فُلانٍ، والتَجَأْتُ: استندْتُ إليه، اعتضدْتُ بِهِ[1]، وقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾، أي: لا مَفرَّ، ولا مَهْرَبَ ومَفْزَعَ من غضب الله تعالى إلّا إليْه، بالتَّوبةِ إليه واستغفارِهِ[2]، أمّا المَفرُّ؛ فهو من (فرَّ)، وهو أصلٌ يدلُّ على الانكشافِ، وما يقاربُهُ من الكشفِ عن الشَّيءِ، وأصلُ الفَرِّ: الكشفُ عن سنِّ الدّابَّةِ، ويُقالُ: فرَّ عن الحرب فِرارًا، قال تعالى: ﴿فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ﴾ [الشعراء: 21]، والمَفَرُّ: المَوْضِعُ يُفَرُّ إليْه، ووقتُه، والفِرارُ نفسُه[3].

فالمَلْجَأُ مكانٌ أو معقِلٌ يتحصَّنُ بهِ كقلعةٍ، أمّا المفرُّ؛ فهو أعمُّ، فلا يدلُّ على التَّحصُّنِ، بل على مطلقِ الفِرارِ، وممكن أن يقالَ: إنَّ الفرارَ هو السَّعيُ للنَّجاة بالابتعادِ عن الخطر، أمّا المَلْجَأُ؛ فهو التَّحصُّنُ بمكانٍ يوفِّرُ الحمايةَ، ويضمنُ السَّلامةَ، ومن هنا فإنَّ التَّعبيرَ في الآية بالمَلْجَأِ أبلغُ في إظهار خَوْفِهم وقلقِهم؛ إذ إنَّ الخوفَ من الله تعالى شديدٌ، ويناسبه أن يعبِّرَ عن مكانِ الحمايةِ الأشدِّ في التَّحصُّنِ، وهو المَلْجَأُ دونَ الفِرارِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين، العمدة: (لجأ).

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/39، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/520.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (فرّ).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التّوبة: 119]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

إنَّما قَبِلَ توبتَهم لِما اتَّصفوا به من الصِّدقِ

لمّا ذكرَ اللّه تعالى التَّوبةَ على الثَّلاثةِ؛ بيَّن أنَّ باعثَهم على ذلك صدقُهم، وما اتَّصفوا بِهِ من التَّقوى؛ إذ كان للصِّدق والتَّقوى أثرٌ كبيرٌ في قبولِ اللّه تعالى توبتَهم، فأتبعَ ذكرَ التَّوبةِ عليهم بالأمرِ بالتَّقوى والصِّدقِ[1]، ومن المناسبةِ كذلك أنَّه تعالى "لمّا حكم بقبولِ توبةِ هؤلاء الثَّلاثة؛ ذكرَ ما يكونُ كالزّاجرِ عن فعلِ ما مضى، وهو التَّخلُّفُ عن رسولِ اللّه ﷺ في الجهاد، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في مخالفةِ أمرِ الرَّسول ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ يعني: مع الرَّسولِ وأصحابه في الغزَوات، ولا تكونوا مُتَخَلِّفين عنها، وجالِسين مع المنافقين في البيوتِ"[2].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾: (صدق) أَصلٌ يَدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيْءِ قَوْلًا وغَيْرَهُ، من ذلك الصِّدْقُ: خِلافُ الكَذِبِ، سُمِّيَ لِقوَّتِهِ في نَفْسِهِ، ولأنَّ الكَذِبَ لا قوَّةَ لهُ[3]، والصِّدْقُ والكذبُ أصلُهما في القول، وهو: مطابقةُ القولِ الضَّميرَ والمُخْبَرَ عنه معًا، وقد يُستعملانِ في كلِّ ما يحقُّ، ويحصُلُ في الاعتقاد، نحو: صدقَ ظنِّي، وكذبَ، وفي أفعالِ الجوارحِ، فيُقال: صَدَقَ في القتال؛ إذا وفَّى حقَّهُ، وفعلَ ما يجبُ، وكما يجبُ، وكذبَ في القتالِ؛ إذا كان بخلافِ ذلكَ، قال تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: 23]، أي: حققوا العهدَ بما أظهروهُ من أفعالهم[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/41، والحجازيّ، التّفسير الواضح: 2/27.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/166.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صدق).
(4) الرّاغب، المفردات: (صدق).

❁ المَعنى الإِجْماليُّ:

تأكيدُ وجوبِ التَّقوى والانتماءِ إلى أهلِ الصِّدقِ

يخاطبُ اللّه تعالى الذين آمنوا، وصدَّقوا باللّه تعالى وما أخبرهم بِهِ النَّبيُّ ﷺ بأن يطيعوا اللّه تعالى فيجتنبوا ما نهى، ويأتوا بما أمرَ، وأن يثبُتوا على التَّقوى والإيمانِ، ويكونوا مع أهلِ الصِّدقِ في الأقوالِ والأفعال[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدةُ جملةِ الاعتراضِ:

الاعتراضُ يبيِّنُ مكانةَ الصِّدقِ وعُلوِّ رتبتِهِ

قوله جلَّ شأنه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ اعترضَ بِهِ النَّظمُ الكريمِ بين ذكرِ توبتِهِ تعالى على مَن سبقَ ذكرُهم، وبين النَّهي عن التَّخَلُّف في قوله في الآيةِ اللّاحقة: ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ فالأمرُ بالتَّقوى والصِّدق كالخاتِمةِ للآية الَّتي قبلَها، فحسُن المجيءُ بِهِ "بعد قصَّةِ الثَّلاثةِ حين نفعَهم الصِّدقُ، وذهبَ بهم عن منازلِ المنافقين، فجاءَ هذا الأمرُ اعتراضًا في أثناءِ الكلام؛ إذ عَنَّ في القصَّةِ ما يجب التَّنبيهُ على امتثالِه"[2]، وهو اعتراضٌ يبيِّنُ مكانةَ الصِّدقِ وعُلوِّ رُتبَتِهِ[3]، وأنَّهُ سبيلٌ للنَّجاة، وهو بمنزلة الاعتراضِ التَّذييليِّ للقصَّةِ، "فإنَّ القصَّةَ مُشْتَمِلَةٌ على ذِكْرِ قومٍ اتَّقوا اللّه، فصدقوا في إيمانِهم وجهادهم، فرَضِيَ اللّه عنهم، وعلى ذِكْرِ قومٍ كَذَبوا في ذلك، واختلقوا المعاذيرَ، وحلفوا كَذِبًا، فغضِبَ اللّه عليهم، وقومٍ تخلَّفوا عن الجهادِ، وصَدَقوا في الاعترافِ بعدمِ العذرِ، فتابَ اللّه عليهم، فلمّا كان سببُ فوزِ الفائزين في هذهِ الأحوال كلِّها هو الصِّدقُ لا جَرَمَ أمرَ

(1) مجموعة من المؤلّفين، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 281.
(2) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/94 - 95.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/521.

اللّه المؤمنينَ بتقواهُ، وبأن يكونوا في زُمرةِ الصّادقين، مثلَ أولئك الصّادقين الذين تضمَّنتهم القصَّةُ"(1).

دلالةُ التَّعبيرِ بأسلوبِ النِّداءِ:

النِّداءُ يجذبُ انتباهَ السّامعِ لمضمونِ القولِ

في قوله عزَّ ذِكرهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ افتتحَ الخطابَ بالنِّداء تنبيهًا على الاهتمام بمضمون القولِ، وأنَّهُ بحيث يجبُ أن يُنْتَبَهَ لهُ، فاسمعوهُ، وخاطبَهم بصفةِ الإيمانِ تنبيهًا على أنَّ ما يأتي في الخطابِ هو من أعمالِ المؤمنين.

سرُّ العُدولِ عن خطابِ الثَّلاثةِ إلى خطابِ المؤمنين جميعًا:

إعمامُ الخطابِ حثٌّ للمقصِّرِ وتثبيتٌ لأهلِ الصِّدقِ

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ خطابٌ لكلِّ المؤمنين، وإن كان قد وردَ في سياقِ الحديثِ عن توبتِه تعالى عن الثَّلاثةِ، وللإمام البقاعيِّ كلامٌ نفيسٌ في بيان ذلك؛ إذ قال: "﴿مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، أي: في كلِّ أمرٍ يُطلبُ منهم، ولعلَّهُ أخرجَ الأمرَ مَخْرَجَ العمومِ؛ ليشملَ كلَّ مؤمنٍ، فمن كان مُقصِّرًا كانتْ آمرةً له باللَّحاقِ، ومن كان مُسابِقًا؛ كانت حاثَّةً له على حفظِ مقامِ الاستباقِ"(2).

نكتةُ وصفِ المُنادى بالاسمِ الموصولِ:

المؤمنُ الحقُّ مقبلٌ على خطابِ ربِّهِ

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ نادى أشخاصًا معهودينَ، والعُهدةُ الصِّفةُ المذكورةُ في صلةِ الموصولِ، وهي الإيمانُ، وذلك يتضمَّنُ التَّنبيهَ إلى أنَّ ما سيأتي بعدَه، فإنَّه ممّا يختَصُّ بالمؤمنين، وأنَّه من واجباتِ الإيمان، فيُقبِلون على مضمونِ الخطابِ بمزيدٍ من الانتباهِ لسماعهِ، بعدَ الانتباهِ المحقَّقِ بالنِّداءِ.

بيَّنَ الموصولُ علَّةَ إيمانِهم، وخصَّهم بالذِّكرِ مع العمومِ

ويشيرُ الاسمُ الموصولُ أيضًا إلى أنَّ علَّةَ أمرِهم بالتَّقوى، وأنْ يكونوا مع الصّادقين، هو إيمانُهم، فضلًا عن احتمالِ أنَّ الخطابَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/54.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/41 - 42، والشّهاب، عناية القاضي: 4/373.

مع كونِه عامًّا، فإنَّه يُلمَحُ فيه الخصوصُ، وهم الثَّلاثةُ، بـ"الإشارةِ إلى أنَّ هؤلاءِ الثَّلاثةَ حصلَ لهم بالصِّدقِ ما حصلَ من توبةِ اللّه، وظاهرُ الآيةِ الأمرُ للعباد على العمومِ"[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بجملةِ الصِّلة فعلًا ماضيًا:

نـودوا بـوصفِ الإيمانِ الرّاسخِ فيهم

في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خاطبَ المؤمنين بإدخالِ حرفِ النِّداءِ على الموصولِ الَّذي صلتُه فعلُ الإيمانِ، وجاء ذلك بصيغةِ الفعل الماضي؛ للدَّلالةِ على أنَّ إيمانَهم قد تحقَّقَ، وصارَ راسخًا مقطوعًا به بحيثُ إنَّهم يُنادَوْن بهذا الوصفِ تشريفًا، وعُلوَّ كعبٍ.

توجيهُ التَّعبيرِ بفعلِ الأمرِ ﴿ٱتَّقُواْ﴾:

الأمـرُ بالتَّقوى تذكيرٌ بخطورةِ التَّخلُّف

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ جاء اعتراضًا خلالَ الحديثِ عن حرمةِ التَّخلُّف عن رسولِ اللّه ﷺ، فالأمرُ بالتَّقوى في هذا السِّياق تأكيدُ شأنِ مصاحَبَتِه في سَيْرِه، والمعنى: يجبُ عليكم التَّقوى "في كلِّ ما تأتون، وما تَذَرون، فيدخُل فيه المعاملةُ مع رسولِ اللّه ﷺ في أمرِ المغازي دخولًا أوَّليًّا"[2]، فالأمرُ بالتَّقوى في سياقِ التَّحذيرِ من التَّخلُّف عن المغازي تذكيرٌ للمؤمنين بخطورةِ التَّخلُّفِ؛ لأنَّ ارتكابَهُ خروجٌ عن التَّقوى الواجبةِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالاسم الجليلِ منصوبًا على التَّعظيم:

المؤمنُ في غايةِ التَّقوى والخوفِ مِمَّن له كمالُ العظمةِ والجلالِ

في قوله عزَّ ذِكرُهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ فقد جعل النَّظمُ الكريمُ فعلَ التَّقوى المأمورَ بِه واقعًا على الاسم المُتَضَمَّنِ الجلالَ والكمالَ؛ تعظيمًا لوجوبِ هذه التَّقوى، "أي: خافوا سطوةَ مَن لهُ العظمةُ الكاملةُ؛ تصديقًا لدعواكم، فلا تفعلوا إلّا ما يُرْضيه"[3].

(1) الشوكانيّ، فتح القدير: 2/471.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/110.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/41.

نكتةُ الأمرِ بالفعلِ (كن):

الأمرُ بالكَينونةِ أبلغُ في إيجابِ التَّحلِّي بالصِّدق

جاء الأمرُ بفعلِ الكينونةِ في قوله تعالى: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ دونَ الفعلِ المباشرِ بأنْ يقولَ: (اصدقوا)؛ لأنَّهُ أرادَ المبالغةَ في أن يكونوا كذلك؛ لأنَّ "الأمرَ بـ (كونوا مع الصادقين) أبلغُ في التَّخلُّق بالصِّدقِ من نحو: اصدقوا"[1]، فالأمرُ بالفعلِ كان يقتضي أن يكونَ الوصفُ قدِ انطبعَ في السُّلوكِ حتَّى يكونَ سجيَّةً وطبعًا[2].

سرُّ تعقيبِ الأمرِ بالتَّقوى بالأمرِ بالصِّدقِ:

الكذبُ مبعثُ كلِّ رذيلةٍ، والصِّدقُ مجمعُ الرَّغائبِ

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أمرَهم بأن يكونوا مع الصّادقين بعد الأمرِ بالتَّقوى تنبيهًا على فُحْشِ نقيضِ الصِّدق، وهو الكذبُ، فقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ "أي: في جميع الرَّذائلِ بالاجتنابِ عنها، خاصَّةً رذيلة الكذبِ، وذلك معنى قوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، فإنَّ الكذبَ أسوأُ الرَّذائلِ وأقبحُها"[3].

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بـ ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

لا نفعَ في صدقٍ من دونِ الانضمامِ في زُمرةِ الصّادقين

آثرَ النَّظمُ الجليلُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أن يأمرَهم بالكَيْنونةِ بقيدِ المَعِيَّةِ، فيكونوا مع الصّادقينَ، ولم يأمرْهم بأن يكونوا صادقينَ مباشرةً، فلم يقل: (وكونوا صادقين) إشارةً إلى أنَّ الصِّدقَ وحدَهُ لا يكفي، بل لا بدَّ من الانضمامِ إلى جماعةِ الصّادقين، ومصاحبتِهم، فـ ﴿مَعَ﴾ "في هذه الآيةِ تقتضي الصُّحبةَ في الحالِ، والمشاركةَ في الوصفِ المقْتَضِي للمدحِ"[4]، فأوجبَ عليهم إقرانَ أنفسِهم مع أهلِ الصِّدق، فهو أمرٌ أبلغُ من الأمرِ بالصِّدقِ؛ إذ يقتضي أن يكونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/54.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/41.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/525.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/95.

المخاطَبُ صادقًا وزيادةً، وقد أَلمحَ الإمامُ البقاعيُّ إلى أنَّ التَّعبيرَ قد يدلُّ على ضرورةِ الاتِّصاف بالصِّدقِ بأيٍّ درجةٍ كان؛ فـ "لعلَّهُ عبَّرَ بـ ﴿مَعَ﴾؛ ليشملَ أدنى الدَّرجاتِ، وهو الكونُ بالجثثِ"[1]، فيجبُ على المؤمن أن يرافقَ الصّادقين، وإن لم يكنْ بدرجتِهم بأن يحضُرَ معهم حضورًا بنفسِهِ في مجتمَعِهم ومرافقتِهم؛ لأنَّ الصّاحبَ بالمصاحبِ مقتدٍ، فيتعوَّدُ منهم الصِّدقَ، كجليسِ نافخِ الطِّيبِ يصيبُه منه عبيرُهُ.

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بـ ﴿مَعَ﴾:

الأمرُ بالمعيَّةِ نصٌّ بالمصاحبةِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أمرَ اللّه تعالى المؤمنين أن يكونوا بمَعِيَّةِ الصّادقين، ولم يقل: (وكونوا من الصّادقين)؛ لأنَّ "(مِن) أعمُّ مِن (مع)؛ لأنَّ كلَّ مَن كان مِن قوم؛ فهو مَعهم في المعنى المأمورِ بهِ، ولا ينعكسُ ذلك"[2]، فالمأمورُ أنْ يكونوا معهم، وإن لم يكونوا قد صاروا منهم بالاتِّصافِ بوصفِهم، ويفيدُ ذلك أن يكونوا معهم، ولو كَوْنًا بمجرَّدِ الحضورِ والوجودِ معهم، فعبَّرَ "بـ ﴿مَعَ﴾ ليشملَ أدنى الدَّرجات، وهو الكَوْنُ بالجثثِ"[3].

نكتةُ إيثارِ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

أمرُهم بأن يكونوا مع الصّادقين حثٌّ لهم على تقويمِ مَسْلَكِهم

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ خصَّ الأمرَ بأن يكونوا مع الصّادقين، دونَ الأمرِ بأن يكونوا مع مَنِ اتَّصف بصفة أخرى؛ لأنَّ صفةَ الصِّدق هي الأنسبُ بعدَ قِصص المتخلِّفين والمُعَذَّرين، فأمرَهم بالكينونةِ مع الصّادقين حثًّا لهم على تقويم مَسْلَكِهم، وأن يكونوا صادقين "في دينِ اللّه نيَّةً

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/41 - 42.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/522.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/41 - 42.

وقولًا وعملًا، أو في كلِّ شأنٍ من الشُّؤونِ، فيدخلُ ما ذُكر أو في توبتِهم وإنابتِهم"[1]، ولأنَّ ما وقع من الثَّلاثةِ ومن المُعَذِّرين إنَّما صدرَ لِما في موافقةِ أقوالِهم لفعلِهم من وُهْنٍ، فكان الصِّدقُ هو الأنسبَ للسِّياقِ، فـ" الصِّدقُ نهايةُ الأحوالِ، وهو استواءُ السِّرِّ والعلانيةِ"[2]. وكفى بها فضلًا أنَّها ثانيةٌ لرتبةِ النُّبوَّةِ في قوله: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ ٦٩﴾ [النّساء: 69][3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/110.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/521.

(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/71.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٢٠﴾ [التّوبة: 120]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا نهى عن الخلفِ؛ أكّد النّهي عنهُ بوجوبِ متابعةِ النّبيّ ﷺ

لمّا أمرَ اللّه تعالى بالتّقوى والكينونةِ مع الصّادقين، و"موافقةِ الرّسول ﷺ في جميعِ غزواتِه؛ أتْبَعَهُ بتأكيدِ ذلك، فنهى في هذهِ الآيةِ عن التّخلُّف عنهُ، فقالَ: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾"(1).

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَخَلَّفُوا۟﴾: (خلف) أصلٌ يدلُّ على مجيءِ شيءٍ بعد شيءٍ يقومُ مقامَهُ(2)، وخَلَفَ ضدُّ تقدَّمَ وسلف، والمتأخّرُ لقصورِ منزلتهِ يقالُ له: خَلْفٌ، ولهذا قيل: الخلفُ الرَّديءُ، يقال: تَخَلَّفَ فلانٌ فلانًا؛ إذا تأخّر عنهُ(3).

2) ﴿يَرْغَبُوا۟﴾: أصلُ الرَّغْبَةِ: السَّعةُ في الشَّيء، يقال: رَغُبَ الشَّيءُ: اتَّسعَ، والرَّغْبَةُ: السَّعةُ في الإرادةِ قال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: 90]، فإذا قيل: رَغِبَ فيه وإليه، يقتضي الحرصَ عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ٥٩﴾ [التّوبة: 59]، وإذا قيل: رَغِبَ عنهُ؛ اقتضى صرفَ الرَّغبةِ عنه والزُّهدَ فيه، نحو قوله

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/169، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/522.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(3) الرّاغب، المفردات: (خلف).

تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ [البقرة: 130][1]، ورَغِبْتَ عن الشَّيءِ؛ إذا لم تُرِدْهُ، وزَهِدتَ فيه[2].

3) ﴿ظَمَأٞ﴾: (ظمأ) أَصْلٌ يَدُلُّ على ذُبولٍ وقِلَّة ماء، الظَّمَأُ، وهوَ الْعَطَشُ[3]، والظَّما، بلا هَمزٍ: ذُبولُ الشَّفَةِ مِنَ العَطَشِ[4]، والظِّمءُ: ما بينَ الشَّربتينِ، والظَّمَأُ: العطشُ الَّذي يعرِضُ من ذلك، قال تعالى: ﴿لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ١١٩﴾ [طه: 119][5].

4) ﴿نَصَبٞ﴾: (نصب) أَصْلٌ يَدُلُّ على إقامَةِ شَيْءٍ وإِهْدافٍ في اسْتِواءٍ، ومِنَ الْبابِ النَّصَبُ: الْعَناءُ، ومَعْناهُ: أَنَّ الْإِنْسانَ لا يَزالُ مُنْتَصِبًا حَتَّى يُعْيِيَ[6]، وهو: الإِعْياءُ مِنَ العَناءِ، والفعلُ نَصِبَ الرَّجلُ، بِالْكَسْرِ، نَصَبًا: أَعْيا وتَعِبَ[7].

5) ﴿مَخۡمَصَةٞ﴾: (خمص) أَصْلٌ يَدُلُّ على الضُّمرِ والتَّطامُنِ، والْمَخْمَصَةُ: المَجاعَةُ؛ لِأَنَّ الْجائِعَ ضامِرُ الْبَطْنِ[8]، وقوله تعالى: ﴿فِي مَخۡمَصَةٍ﴾ [المائدة: 3]، أي: مجاعةٍ تورِثُ خَمصَ البطنِ، أي: ضُمورَهُ، يقال: رجلٌ خامصٌ، أي: ضامرٌ، وأَخْمَصُ القدمِ: باطنُها، وذلك لضُمورِها[9]، والمَخْمَصَةُ: الْجوعُ، وهو خَلاءُ الْبَطْنِ مِنَ الطَّعامِ جوْعًا، والمَخْمَصة: المَجاعة، وهي مصدرٌ مثل المَغْضَبَةِ والمَعْتَبَةِ، وقد خَمَصَهُ الجوعُ خَمصًا ومَخْمَصةً[10].

6) ﴿يَطَـُٔونَ﴾: (وطأ) كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَمهيدِ شَيْءٍ وَتَسْهيلِه، ووَطِئْتُه بِرِجْلي أَطَؤُه، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا﴾ من وطأَ البلادَ برجله، ويقالُ: وطِئْتُ البلادَ أطؤها وطاءً[11].

7) ﴿يَغِيظُ﴾: (غيظ) أُصَلٌ يَدُلُّ عَلَى كَرْبٍ يَلْحَقُ الْإِنْسانَ مِنْ غَيْرِه[12]، والغَيْظُ: أشدُّ الغضبِ، وهو الحرارةُ الَّتي يجدُها الإنسانُ من فوَرانِ دمِ قلبِه، قال: ﴿قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ﴾

(1) الرّاغب، المفردات: (رغب).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (رغب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ظمأ).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ظما).
(5) الرّاغب، المفردات: (ظمأ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نصب).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (نصب).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خمص).
(9) الرّاغب، المفردات: (خمص).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (خمص).
(11) السّمين، العمدة: (وطأ).
(12) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غيظ).

[آل عمران: 119]، وقال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ﴾ [الفتح: 29]، وقد دعا اللّه النّاسَ إلى إمساكِ النَّفسِ عند اعتراءِ الغيظِ، قال: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: 134](1).

8. ﴿نَّيْلًا﴾: النَّيْلُ: ما ينالُه الإنسانُ بيدِه، نِلْتُه أَنالُه نَيْلًا، قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ﴾ [آل عمران: 92]، والنَّوْلُ: التَّناولُ(2)، وقوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا﴾ [الحج: 37] أي: لن يصلَ إليهِ ما يعدُ لكم ثوابَهُ من التَّقوى، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا﴾، أي: يُصيبون منهم مالًا أو عَرَضًا(3).

المَعْنى الإِجْماليُّ:

حُرْمَةُ التَّخلُّفِ عن رسولِ اللّه ﷺ

لَمّا كانَ الجهادُ في سبيلِ اللّه تعالى من أعلى شُعَبِ الإيمانِ، والتَّخلُّفُ عنه عظيمُ الخطرِ؛ نهى اللّه تعالى نهيًا بليغًا عن ذلك، فما يحلُّ "لأهلِ المدينةِ، ومَن يجاورونَهم من سكّانِ البوادي، أن يتخلَّفوا عن الغزوِ مع رسولِ اللّه ﷺ، ولا أن يَضِنّوا بأنفسِهم عمّا بَذَلَ الرَّسولُ فيه نفسَه؛ إذ إنَّهم لا يصيبُهم في سبيلِ اللّه ظمأٌ أو تعبٌ أو جوعٌ، ولا ينزلون مكانًا يثيرُ وجودُهم فيهِ غيظَ الكفّارِ، ولا ينالون من عدوٍّ غَرَضًا كالهزيمةِ أو الغنيمةِ إلّا حُسِبَ لهم بذلك عملٌ طيِّبٌ يُجزون عليه أحسنَ الجزاءِ، وإنَّ اللّه لا يضيعُ أجرَ الَّذين أحسنوا في أعمالِهم"(4).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في الآيةِ:

لا شُبهَةَ تأوُّلٍ لتسويغِ عدمِ الخروجِ إلى الغزوِ مع النَّبيِّ ﷺ

قال عزَّ ذِكرُهُ: ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾

(1) الرّاغب، المفردات: (غيظ).
(2) الرّاغب، المفردات: (نيل).
(3) السّمين، العمدة: (نول).
(4) مجموعة من المؤلّفين، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 282.

بعد أن وقعَ من بعض الأصحابِ التَّخلُّفُ عن مصاحبتهِ ﷺ وما لَحِقَهُ من التَّوبةِ عليهم، وخاطبَهم آمرًا إيّاهم بالتَّقوى، وأن يكونوا بصحبةِ الصّادقين، مستأنِفًا للتَّصريح بحرُمَةِ التَّخلُّف عن النَّبيِّ ﷺ، فالآيةُ "استئنافٌ ابتدائيٌّ لإيجاب الغزوِ على أهلِ المدينةِ، ومَن حولهم من أهلِ باديتِها الحافِّين بالمدينة؛ إذا خرج النَّبيُّ ﷺ للغزو، فهذا وجوبٌ عينيٌّ على هؤلاءِ شرَّفهم اللّه بأن جعلَهم جُنْدَ النَّبيِّ ﷺ وحرسَ ذاتِه"[1]، والغرضُ من التَّصريح بهذا الاستئنافِ ألّا تبقى شُبْهَةٌ يُمكِنُ تأويلُها لتسويغِ عدمِ الخروجِ إلى الغزوِ مع النَّبيِّ ﷺ.

بلاغةُ النَّهي بأسلوبِ الخبرِ:

النَّهيُ بالنَّفي أبلغُ في الزَّجرِ عن المنهيِّ عنهُ

قوله جلَّ شأنُه: ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ إنشاءٌ بصورةِ الخبرِ المنفيِّ، وذهبَ أئمَّةُ التَّفسيرِ إلى أنَّ المرادَ بهِ والغرضَ منه النَّهيُ، فحقيقةُ الخبرِ هنا "نهيٌ بليغٌ، مع تقبيح لأمرِهم وتوبيخٍ لهم عليه، وتهييجٍ لمتابعتهِ بأَنَفَةٍ وحَميَّة"[2]. وإنَّما آثرَ النَّظمُ الكريمُ أن يتَّخذَ من الإخبارِ المنفيِّ سبيلًا إلى النَّهي في الآيةِ، ولم يقلْ: (لا يتخلَّفنَّ أهلُ المدينة..) بصيغة النَّهي الإنشائيَّة؛ لأنَّه أبلغُ من النَّهي الصَّريحِ؛ لأنَّه يدلُّ على أنَّ هذا الفعلَ لا يصحُّ من الأصلِ، فهو منفيُّ الوقوعِ[3]، والغرضُ من ذلك المبالغةُ في النَّهي، فهذا الفعلُ ممّا لا يُتصوَّرُ أن يفعلَهُ المذكورون.

سرُّ نفي فعلِ الكونِ:

كينونةُ أهلِ المدينةِ في اتِّباعِ رسولِ اللهِ وعدمِ التَّخلُّفِ عنهُ

وقوله جلَّ شأنه: ﴿مَا كَانَ﴾ نفيٌ للشَّأن والكون، "أي: ما كانَ من شأنِ أهلِ المدينةِ من مهاجرينَ وأنصارٍ آوَوا، ونصروا، وهم أهلُ النَّجدة والإيواء، ومَن حولَهُم من الأعرابِ الَّذين أُشربوا الإيمانَ أن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/55.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/522.
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 4/373.

يتخلَّفوا عن رسولِ اللّه ﷺ ويؤثروا الدَّعَةَ والرّاحةَ، ويتركوهُ وحدَهُ يكابدُ المشاقَّ، ويتحمَّلُ المتاعبَ في سبيلِ عزِّهم ورفعِ دينِهم، وهم يرغبونَ في الدَّعَة، وطيبِ العيش الرَّغيدِ"[1].

نكتةُ التَّصريحِ بالأهل:

التَّصريحُ أبلغُ في سياقِ الثَّناءِ والتَّشريفِ

أظهرَ لفظَ الأهلِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾، ولم يستعملِ المجازَ بأن يقولَ: (وما كان للمدينة وما حولها)، كما قال: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ [الأعراف: 163]، وقوله: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: 82]، أي: أهلَها، فعبَّر بالحقيقة دونَ المجازِ لِما في التَّصريحِ بهم من التَّشريفِ، والغرضُ منه الثَّناءُ عليهم لذاتِهم، وليس المقصودُ من الثَّناءِ المدينةَ، ولا ما جاورَها من الأماكنِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾:

أشركَ تعالى السّاكنينَ في جميعِ نواحي المدينةِ الشَّريفةِ بالثَّناءِ الَّذي ذُكر لأهلِ المدينة

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بقوله عزَّ ذِكرُه: ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ للدَّلالةِ على المؤمنين السّاكنين في جميعِ نواحي المدينةِ الشَّريفةِ[2]، وفي ذلك إشراكٌ لهم بالثَّناءِ الذي ذُكر لأهلِ المدينةِ؛ إذ إنَّهم شاركوا في غزوةِ تبوكَ[3]، والأعرابُ الَّذين كانوا حولَ المدينةِ يتناول جميعَ من كان حولَ المدينةِ من سكّان البوادي ممَّن أسلمَ، فإنَّ (مَن) تدلُّ على العمومِ[4]، وشبهُ الجملة ﴿مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ في موضعِ الحال، و ﴿مِّنَ﴾ بيانيَّةٌ، فهو قيدٌ لبيان المرادِ بقوله: ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهُم﴾، فيتسلَّطُ النَّفيُ في قوله: ﴿مَا كَانَ﴾ على الذين هم حولَ المدينة في حالِ كونِهم من الأعرابِ، فهو تصريحٌ يبيِّنُ أنَّ المرادَ بهم سكّانُ البوادي حولَ المدينةِ، تقييدًا لعمومِ الظَّرفِ (حَوۡلَ)، ويُلاحظُ أنَّهُ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3478.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/43.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/55.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/43، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/169.

لم يقل: (ومَن حولها)، فالمقصودُ من الحديثِ تشريفُهم، وتوجيهُ النَّهي إلى شُخوصِهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ المؤوَّلِ: ﴿أَن يَتَخَلَّفُواْ﴾:

مقصودُ الكلامِ حدثُ التَّخلُّفِ، وعدمُ مناسبتِه لأهلِ المدينةِ

جاء المُسنَدُ إليهِ في قوله تعالى: ﴿أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ مصدرًا مؤوَّلًا، هو قوله: ﴿أَن يَتَخَلَّفُواْ﴾ فهو اسمُ ﴿كَانَ﴾ المؤخَّرُ، والتَّقديرُ: ما كان التَّخلُّفُ عن رسولِ اللهِ جائزًا لأهلِ المدينةِ، ومَن حولَهم، ولا لائقًا بهم[1]، وما كان من شأنِهم مهاجرين وأنصارًا[2]، فالتَّعبيرُ بالمصدرِ المؤوَّلِ خصَّصَ التَّعبيرَ في حدثِ التَّخلُّفِ فحسبُ، دون كيفيّاتِه، ومُلابساتِه.

سرُّ إيثارِ الرَّسولِ على النَّبيِّ ﷺ:

التَّعاليمُ مَظنَّةُ الاتِّباعِ، والالتزامِ

في قوله عزَّ ذِكرُه: ﴿أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ عبَّر بالرِّسالةِ دونَ النُّبوَّةِ تذكيرًا لهم بأنَّهُ يحمل رسالةَ تعاليمَ من اللهِ تعالى وأنَّ خروجَهُ للغزوِ إنَّما كان تَبَعًا لهذه الرِّسالة، فالتَّعبيرُ بالرَّسولِ يؤكِّدُ وجوبَ الخروجِ معَهُ.

وجهُ إضافةِ الرَّسولِ إلى لفظِ الجلالةِ:

في الإضافةِ تعظيمٌ للرَّسولِ ولشأنِ طاعتِهِ

إنَّ التَّعبيرَ بلفظِ الرَّسولِ يُتيحُ إضافتَهُ إلى لفظِ الجلالةِ، وهذهِ الإضافةُ تزيدُ تأكيدَ وجوبِ اتِّباعهِ والخروجِ معهُ، وتعظيمَ شأنِ طاعتِهِ لكَوْنهِ مُرْسَلًا من اللهِ تعالى فضلًا عمّا يحملُهُ التَّركيبُ من تشريفٍ لهُ ﷺ.

دلالةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾:

لا يُقدِّمَنَّ أحدٌ نفسَهُ على نفسِ رسولِ اللهِ ﷺ

قوله عزَّ ذِكرُهُ: ﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ معطوفٌ على قولِه: ﴿أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾، والتَّقديرُ: ولا الرَّغبةُ بأنفسِهم عن نفسِهِ[3]، فكما أنَّ التَّخلُّفَ ليس جائزًا لهم، فكذلك تفضيلُهم

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/114.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3478.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/114.

أنفسَهم على نفسهِ، فلا ينبغي أن يطلبوا لأنفسِهم الحفظَ والدَّعة، والنَّبيُّ ﷺ في الحرِّ والمشقَّة[1]، ومعنى الآيةِ: أنَّهم قد "أُمروا بأن يصحبوهُ على البأساءِ والضَّرّاء، وأن يكابِدوا معه الأهوالَ برغبةٍ ونشاطٍ واغتباطٍ، وأن يلقوا أنفسَهم من الشَّدائدِ ما تلقاهُ نفسُهُ، علمًا بأنَّها أعزُّ نفسٍ عندَ اللهِ وأكرمُها عليه، فإذا تعرَّضَتْ مع كرامتِها وعزَّتِها للخَوْضِ في شدَّةٍ وهَوْلٍ، وَجَبَ على سائرِ الأَنْفُسِ أن تَتَهافتَ فيما تعرَّضت لهُ، ولا يكترثَ لها أصحابُها، ولا يقيموا لها وزنًا، وتكونَ أخفَّ شيءٍ عليهم وأهونَهُ"[2].

علَّةُ تكرارِ النَّفي في قوله: ﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾:

إعـادةُ النَّـفي إيذانٌ باستقلالِ الفعلِ، وتأكيدِهِ

كرَّرَ النَّظمُ الكريمُ النَّفيَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾، فلم يقلْ: (ما كان لهم أن يتخلَّفوا، ويرغبوا بأنفسِهم) فالنَّفي في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ﴾ "لتأكيد النَّفي بـ (ما)، أي: ما كان لهم أن يتخلَّفوا عن رسولِ اللّه، ولا كان لهم أن يرغَبوا بأنفسِهم، فتِكرارُ النَّفي تأكيدٌ له"[3]، وللدَّلالةِ على استقلالِ كلِّ فعلٍ عن الآخرِ؛ لأنَّ إعادةَ حرفِ النَّفي تجعلُ كلَّ معطوفٍ، كالمستقلِّ بالذِّكرِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ﴾:

المؤمنُ الحقُّ لا يرغَبُ بمُهْجَتِهِ عن رسولِ الله ﷺ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ "استعارةٌ؛ والمرادُ بها أنَّهم لا ينبغي لهم أن يُكْرِموا أنفسَهم عمّا يبذُلُ النَّبيُّ ﷺ فيه نفسَه، ولا يحفظوا مُهَجَهم في المواطنِ الَّتي تحضُرُ فيها مُهْجَتُه، اقتداءً بهِ، واتِّباعًا لأثرِه، وهذه لفظةٌ يستعملُها أهلُ اللِّسان كثيرًا، فيقولون: رَغِبْتُ بنفسي عن الضَّيم، وأرغبُ بكَ - يا فلانُ - عن القتلِ، أي: أَضَنُّ بنفسي عن أن تُذَلَّ، وأَنْفَسُ بمثلك عن أن يُقْتَلَ"[4].

(1) ابن عادل، اللُّباب: 10/236.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/321.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3479.
(4) الشّريف الرضيّ، تلخيص البيان: 2/150.

بلاغةُ التَّضمُّنِ في نفي الرَّغبةِ:

تضمَّنتِ الرَّغْبَةُ عن نفسِ النَّبيِّ ﷺ الضِّنانَةَ

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ﴾ تضمينٌ؛ إذ إنَّ الرَّغبةَ عن نفسِ النَّبيِّ ﷺ تتضمَّن معنى الضِّنانةِ بأنفسِهم عنهُ، ودلالةُ إرداةِ الفِعْلَيْنِ مُجتَمِعَيْنِ أقوى من دلالةِ فعلٍ واحدٍ، والمعنى: فلا يرغبوا ضَنينينَ شَحيحينَ بأنفسِهم عن نفسِ رسولِ اللّه ﷺ(1).

معنى (الباء) في ﴿بِأَنفُسِهِمۡ﴾:

المؤمنُ الحقُّ يصاحِبُ النَّبيَّ على كلِّ حالٍ

جاء فعلُ الرَّغبةِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ متعدِّيًا بالباءِ، ومعنى رَغِبْتُ بنفسي عن هذا الأمرِ، أي: ترفَّعتُ عنه، وتركتُهُ، ورَغِبْتُ بفلانٍ عن هذا الأمرِ، أي: كَرِهْتُهُ له(2)، والمعنى: "ما صحَّ لهم، ولا استقام أن يترفَّعوا بأنفسِهم عن نفسِهِ بأن يكرهوا الشَّدائدَ لأنفسِهم، ولا يكرهوها لهُ، فإنَّهُ مُستَهْجَنٌ جدًّا، بل عليهم أن يعكسوا القضيَّة"(3)، ففي هذا التَّعبيرِ مبالغةٌ في إيجابِ متابعتِهِ، والباءُ في قوله: ﴿بِأَنفُسِهِمۡ﴾ "للتَّعديةِ، فقوله: رَغِبْتُ عنهُ، معناهُ: أعرضتُ عنهُ، والمعنى: ولا يجعلوا أنفسَهم راغبةً عن نفسِهِ، وعن نفسِهِ: حالٌ، أي: عليهم أن يصحبوهُ على كلِّ حالٍ"(4).

وجهُ التَّعبيرِ بلفظِ النَّفسِ:

نفيُ الرَّغبةِ يشملُ الظَّاهرَ والباطنَ

لفظُ (النَّفس) تدلُّ على الذَّاتِ المتشخِّصةِ، وما تَنْطوي عليه من روحٍ وضمائرَ، وعبَّرَ بها هَهنا للتَّلويحِ بأنَّ نفيَ الرَّغبةِ عن نفسِ رسولِ اللّه ﷺ يشملُ الأنفسَ ذاتًا ظاهرةً، وباطنةً، فالدَّواخلُ والسَّرائرُ، والضَّمائرُ أصلُ توجيهِ الأفعالِ، وتسييرِ الذَّواتِ.

براعةُ إيثارِ صيغةِ الجمعِ (أفعل):

المؤمنُ لا ترغبُ نفسُهُ عن نفسِ رسولِ اللّه ﷺ

صيغةُ (أفعل) جمعُ قلَّةٍ، وصيغةُ (فعول) جمعُ كثرةٍ، وإيثار

---

(1) الشّريف الرّضيّ، تلخيص البيان: 2/150.

(2) الواحديّ، البسيط: 11/88 - 89.

(3) الشّهاب، عناية القاضي: 4/373.

(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/193.

استعمالِ جمعِ القلَّةِ (أنفسهم) دونَ جمعِ الكثرةِ (نفوسهم) للتَّعبيرِ عن معنى أنَّ أنفسَهم، وإنْ كانت قليلةً، فلا يحقُّ لهم، ولا يُباحُ أنْ يرغبوا بها عن نفسِ رسولِ اللّه ﷺ، ويُعْرِضوا بها، ويميلوا عنهُ، وفيهِ أيضًا تلميحٌ بأنَّ مَن يفعلُ ذلك من المسلمين هم القلَّةُ.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿عَن﴾:

صَـرْفُ النَّـفسِ عن الأذى دونَ النَّبيِّ محرَّمٌ على المسلمِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ تعدَّى فعلُ الرَّغبةِ بحرفِ الجرِّ (عن) للدَّلالةِ على التَّجاوزِ، فقوله: ﴿عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ معناهُ: (متجاوزين نفسَه)[1]، أي: ليس لهم حقٌّ بأن يكرهوا لأنفسِهم شيئًا قد رَضِيَهُ الرَّسولُ ﷺ لنفسِهِ[2] الَّتي هيَ "أشرفُ النُّفوسِ مطلقًا بأن يصونوا نفوسَهم عمّا باشرهُ ﷺ، بل يُلقونها في المتالفِ دونَه وصيانةً لنفسِهِ الشَّريفةِ عن أدنى الأذى"[3].

دلالةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ: ﴿ذَٰلِكَ﴾:

التَّخلُّفُ بعيدُ الرُّتبةِ في السّوءِ، وتَرْكُهُ إنَّما هو رتبةٌ عظيمةٌ

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ﴾ عن المُسْنَدِ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةً "إلى ما تضمَّنَهُ انتفاءُ التَّخلُّفِ من وجوبِ الخروجِ معهُ، وبذلِ النَّفسِ دونَهُ، كأنَّهُ قيل: ذلكَ الوجوبُ للخروجِ وبذلِ النَّفسِ؛ هو بسببِ ما أعدَّ اللّه لهم من الثَّوابِ الجسيمِ على المشاقِّ الَّتي تنالُهم، وما يَتَسَنَّى على أيديهم من إيذاءِ أعداءِ الإسلامِ"[4].

وجاء اسمُ الإشارة دالًّا على البُعدِ؛ لتعظيمِ النَّهيِ عن التَّخلُّفِ الَّذي جاء بأسلوبِ نفيِ الكَوْنِ الدّالِّ على المبالغةِ[5]، فالتَّخلُّفُ عن النَّبيِّ ﷺ بعيدُ الرُّتبةِ في السّوءِ.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3479.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/169.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/44.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/523، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/321.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/44.

نهاهم عن التّخلّفِ لأنَّ في مصاحبتِه في الغزوِ أجرًا عظيمًا

دلالةُ الباءِ في قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ﴾ عبَّر بالباءِ الدّالَّة على السَّببيَّةِ تعليلًا لِما سبقَ، فهي "تعليلٌ لِما يجبُ من عدمِ التَّخلُّف"[1]، فلمّا نهاهم عن التَّخلُّف عن النَّبيِّ ﷺ؛ بيَّن علَّةَ ذلك، فكأنَّه قيل: "ذلك الوجوبُ للخروجِ وبذلِ النَّفسِ هو بسببِ ما أعدَّ اللّه لهم من الثَّوابِ الجسيمِ على المشاقِّ التي تَنالُهم، وما يتَسَنَّى على أَيْديهم من إيذاءِ أعداءِ الإسلامِ"[2].

الإصابةُ مظنَّةُ الشِّدَّةِ والأذى

نكتةُ إيثارِ لفظِ الإصابةِ:

خُصَّتِ المصيبةُ في اللُّغةِ بالحادثةِ الَّتي تَعْتَري الإنسانَ، فتغمُّهُ، والنّازلةِ الَّتي تسوؤُهُ، والشِّدَّةِ الَّتي تحزُنُه، ولذلك صاحبتِ السَّيِّئَةَ في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ﴾ [آل عمران: 120][3]. والظَّمأ، والنَّصَبُ، والمَخْمَصَةُ مواطنُ شدَّةٍ لا تَخْفى، ومواضعُ أذًى تُستَدعى.

مِنَنُ الله تعالى لا عدَّ يُحصيها، ولا كيْفَ

دلالةُ إسنادِ الإصابةِ إلى الظَّمأ:

في قوله عزَّ ذِكرُه: ﴿لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ﴾ بيانٌ لكرَمِه تعالى إذ إنَّه يُجازي العبادَ على ما ينالُهم بسببِ العملِ الصّالح، فإنَّه تعالى لا يجزيهم على العملِ الصّالحِ فحسبُ، فما نالهم من العطشِ بسببِ الخروجِ إلى طاعةِ اللّه تعالى فإنَّهُ يُكتب لهم في صحائِفهم مصداقًا لقوله تعالى: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ﴾ [آل عمران: 195]، وقوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ٤٧﴾ [الأنبياء: 47].

لا يضيعُ عندَ الجوادِ الكريمِ تعالى مثقالُ حبَّةٍ من خردلٍ

دلالةُ التَّنكيرِ في ﴿ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ﴾:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا

(1) ابن جزي، التّسهيل: 1/350.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/523.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/222، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3326.

نَصَبٌ وَلَا مَخۡمَصَةٌ﴾ التَّعبيرَ بصيغةِ التَّنكيرِ في: ﴿ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخۡمَصَةٌ﴾ للدَّلالةِ على التَّقليلِ وتصغيرِ الشَّأنِ، فإنَّه تعالى يكتبُ لهم أجرَ العطشِ اليسيرِ، وكلَّ تعبٍ مهما كان ضئيلًا[1]، وفي ذلك بيانٌ لسَعةِ رحمتهِ؛ إذ إنَّه لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلّا جازى عبادَهُ عليها.

نكتةُ ترتيبِ المذكورات:

رتَّبَ المذكوراتِ حسبَ الوجودِ وكثرةِ الوقوعِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخۡمَصَةٌ﴾ رتَّب النَّظمُ الكريمُ المذكوراتِ على وَفقِ الوجودِ، وكثرةِ الوقوعِ وقلَّتهِ؛ فلمّا "كان العطشُ أشقَّ الأشياءِ المُؤْذِيَةِ للمُسافرِ بكثرةِ الحركة وإزعاجِ النَّفسِ، وخصوصًا في شدَّةِ الحرِّ، كغزوةِ تبوكَ بُدِئ بهِ أوَّلًا، وثنَّى بالنَّصَبِ، وهو التَّعبُ؛ لأنَّه الكَلالُ الَّذي يَلْحَقُ المُسافرَ، والإعياءُ النّاشئُ عن العطشِ والسَّيرِ، وأتى ثالثًا بالجوعِ؛ لأنَّه حالةٌ يمكنُ الصَّبرُ عليها الأوقاتِ العديدةَ، بخلافِ العطشِ والنَّصَبِ المُفْضِيَيْنِ إلى الخلودِ والانقطاعِ عن السَّفرِ، فكانَ الإخبارُ بما يَعْرِضُ للمسافرِ أوَّلًا فثانيًا فثالثًا"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالقيدِ في قوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

شرطُ قبولِ الأعمالِ الإخلاصُ فيها

في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخۡمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جعلَ قيدَ تلكَ الأعمالِ الَّتي يُكتبُ لهم أجرُها أنَّها كائنةٌ في سبيلِ اللّه تعالى بيانًا لشرطِ القَبول، وهو أن تكونَ النِّيَّةُ سليمةً بأن يكونَ المرادُ من تلكَ الأعمالِ أن تكونَ للّه وفي سبيله وحدَهُ، "وطاعتِه والجهادِ لإعلاءِ كلمتِهِ"[3].

دلالةُ إضافةِ السَّبيلِ إلى الله تعالى:

خُلوصُ النِّيَّةِ شرطٌ لِقَبولِ العملِ

في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخۡمَصَةٌ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/111، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/527.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/523.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/97.

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أضافَ السَّبيلَ إلى لفظِ الجلالةِ تعظيمًا لشأنِ دينِه، والطَّريقِ إليهِ "أي: طرقُ دينِ الملكِ الأعظمِ المُتَوَصِّلَةِ بهِ إلى جهادِ أعدائِه"[1]، وفيهِ إيماءٌ إلى علَّةِ اعتبارِ ذلك الأجرِ لهم، فإنَّ أعمالَهم قد صاحبَها الإخلاصُ للّه، وخلَتْ من أغراضِ الدُّنيا، وأنَّها كانت لمَحْضِ طاعةِ اللّه تعالى وفي سبيلِ إعزازِ دينِه والذَّودِ عنهُ.

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

دينُ الله طريقُ النَّجاةِ

والسَّبيلُ: الطَّريقُ، وهو مستعارٌ في الآيةِ لدينِ اللّه تعالى[2] الدِّينِ الحقِّ الثّابتِ الَّذي يكونُ فيه العدلُ، والقسطُ، ولا يكونُ فيه بَغْيٌ ولا فحشاءُ ولا تَعَدٍّ، ولا أذًى، وفيه استجلابُ المصالحِ ودفعُ المفاسدِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿يَطَـُٔونَ﴾ بينَ الحقيقةِ والاستعارةِ:

حقيقةُ الوطءِ الدَّوس، ومجازهُ إذلالُ العدوِّ، والظَّفرُ بِهِ

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ تعبيرٌ عن أحدِ الأعمالِ الَّتي ينالون بها الأجرَ الجزيلَ في خروجهم للغزوِ في سبيلِ اللّه، وهو وطءُ الأرضِ، ويحتملُ أن يُرادَ به الحقيقةُ والمجازُ، فالمعنى الحقيقيُّ هو: "الدَّوسُ بالأرجلِ، والمَوْطِئُ: مصدرٌ ميميٌّ للوطءِ، والوطءُ في سبيلِ اللّه هو الدَّوسُ بحوافرِ الخيلِ وأخفافِ الإبلِ وأَرْجُلِ الغزاةِ في أرضِ العدوِّ، فإنَّهُ الذي يغيظُ العدوَّ، ويُغضِبُهُ؛ لأنَّهُ يَأْنَفُ من وطءِ أرضِه بالجيشِ، ويجوز أن يكون الوطءُ هنا مستعارًا لإذلالِ العدوِّ وغلبتِه وإبادتِه"[3]، وإرادةُ الحقيقةِ هي الأقربُ بقرينةِ أنَّ الوطءَ يُحقِّقُ الغيظَ، والسِّياقُ يريدُ بيانَ أنَّ اللّه تعالى يجازيهم على كلِّ جُهدٍ بذلوهُ مهما كان قليلًا، وهذا يتحقَّقُ بمجرَّدِ تحقيقِ الإغاظةِ بوطءِ أرضِهم، أمّا الإذلالُ والغَلَبَةُ والإبادةُ؛ فهي من الأعمالِ الكبيرةِ الَّتي لا يبقى بعدها غيظٌ؛ إذ قد أُبيدَ الكفّارُ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/44.
(2) عفيف، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/513.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/56.

دلالةُ وصفِ الموطِئِ بأنَّهُ ﴿يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ﴾:

إغاظةُ الكافرينَ ببلوغِ المؤمنين أرضًا ما؛ دليلٌ على قوَّةِ جُهدِهم

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ وصفَ النَّظمُ الجليلُ الموطِئَ بأنَّه ﴿يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ﴾، فهو قَيْدٌ بالوصفِ، فليس كلُّ وطءٍ لموطِئٍ مُعْتَبَرًا ما لم يحقِّقِ الإغاظةَ، كما أنَّه يدلُّ على أنَّ الموطِئَ لا يُشترط أن يكونَ أرضَ العدوِّ، بل الشَّرطُ أن يحقِّقَ غيظَهم، ويثيرَ مضجَعَهم، وإنَّما أُغيظوا؛ لأنَّ بلوغَ المسلمين ذلك الموطِئَ يدلُّ على توسُّعِ قوَّةِ المسلمين، وهذا يغيظُ أعداءَ اللّه، فاعتبرَ لهم أجرَ الوطءِ؛ إذا كان يصْحَبُهُ إغاظةٌ للكافرين، فليس كلُّ دَوْسٍ لأرضِ العدوِّ مُعْتَبَرًا ما لم يكن مُغيظًا للكافرين، وإنَّما اعْتَبر الأجرَ لهم في حالة تحقيقِ الغيظِ؛ لأنَّ ذلك دليلٌ على جَدْوى ما قامَ به المسلمون، وأنَّ فعلَهم قد أحدثَ أثرَهُ في تقويةِ الحقِّ ونُصرتهِ، بحيثُ قد ظهرت نتائجُهُ في قلوب الكافرين بأن أُغيظوا.

دلالةُ تتابعِ الجملِ المنفيَّةِ:

كلُّ فعلٍ منهم فضيلةٌ على حيالِها

جاءتِ الجملُ الفعليَّةُ المنفيَّةُ في سياقٍ واحدٍ، وهي: في: ﴿لَا يُصِيبُهُمۡ﴾، ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ﴾، ﴿وَلَا يَنَالُونَ﴾؛ لكونِها مشتركةً بالأحوالِ الَّتي سيقعُ الاستثناءُ منها، فالجمعُ بينها بالعطفِ يحقِّقُ الإيجازَ البليغَ، فلم يقل: (ولا يطئون موطئًا إلّا كُتِبَ لهم بِهِ عملٌ صالحٌ، ولا ينالون من عدوٍّ نيلًا إلّا كُتِبَ لهم بِهِ عملٌ صالح...) ففي تتابعِها إيجازٌ لكونِها مُشْتَرَكَةً في كونِها من الأحوالِ الَّتي منحَهم اللّه تعالى عليها الأجرَ.

وجيءَ بها على هذهِ الهيئةِ من العطفِ بـ ﴿وَلَا﴾؛ للتَّنبيهِ عَلَى استقلالِ كلِّ واحدٍ منها في سببيَّةِ الثَّواب المَذْكورِ، وفي كونِها فضيلةً عَلَى حِيالِها، والاعتدادِ بشأنِها[1].

(1) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 9/364.

المؤمنُ لا يعتدي، وإنَّما ينالُ من عدوِّهِ فحسبُ

دلالةُ تقديمِ المجرورِ في: ﴿مِنۡ عَدُوّٖ﴾:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا﴾ قدَّم ذكرَ شبهِ الجملةِ ﴿مِنۡ عَدُوّٖ﴾ تخصيصًا للنَّيلِ، فهم لا ينالون من كلِّ أحدٍ، بل من الأعداءِ، فليس كلُّ نيلٍ مَوْطِنَ ثناءٍ، فقدَّمَ هذا القيدَ اهتمامًا بهِ تزكيةً لهم، فهم لا ينالونَ من عمومِ النّاسِ، بل منَ الأعداءِ فحسبُ، ففي ذلكَ ثناءٌ عليهم، وتَزْكِيَةٌ لعملِهم من الظُّلم.

تنوُّعُ الإعرابِ سَعةٌ في المعنى توكيدًا، وإجزالًا للأجرِ

دلالةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ في: ﴿نَّيۡلًا﴾:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا﴾ عبَّرَ بالمصدرِ ﴿نَّيۡلًا﴾؛ " ليعمَّ القليلَ والكثيرَ ممّا يسوؤُهم قتلًا وأسرًا وغنيمةً وهزيمةً"[1]، ويحتملُ أن يكونَ مفعولًا مطلقًا، وأن يكون مفعولًا بهِ، فهو "يجوزُ أن يكونَ مصدرًا مؤكِّدًا، وأن يكونَ بمعنى المَنيلِ، ويقال: نال منه؛ إذا رَزَأَهُ، ونقصَهُ"[2]، فإذا اعتُبِرَ مفعولًا مطلقًا، فإنَّهُ يدلُّ على تأكيدِ نيلِهم من العدوِّ، والتَّأكيدُ يدلُّ على أنَّ نيلَهم من العدوِّ مؤكَّدُ الوقوعِ، وإذا كان مفعولًا بهِ؛ فإنَّهُ يدلُّ على أنَّ الأجرَ مُعْتَبَرٌ بتحقيقِ أيِّ خسرانٍ في العدوِّ، فالمأخوذُ من العدوِّ وضَعَ اللّه تعالى إزاءَه أجرًا للمؤمنين لِما فيهِ منَ النِّكايةِ بالكفرِ وإزالةِ الباطلِ وإضعافهِ.

لمّا ظهرَ المعنى حذفَ المفعولَ به للإيجازِ

بلاغةُ حذفِ المفعولِ بهِ في ﴿وَلَا يَنَالُونَ﴾:

في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا﴾ إذا جعلَ ﴿نَّيۡلًا﴾ مفعولًا مطلقًا؛ فإنَّ المفعولَ به يكونُ محذوفًا، وتقديرُهُ: لا ينالونَ شيئًا من عدوٍّ نيلًا[3]، وحُذِفَ المفعولُ بهِ للإيجازِ، اعتمادًا على ظهورِ المعنى، وحيثُما ظهرَ المعنى بلا ذكرٍ، فالإيجازُ أبلغُ من الذِّكرِ، ما لم يكنْ داعٍ يقتضيه.

الحذفُ مَظِنَّةُ الإعمامِ

وحَذْفُ المفعولِ يفيدُ الإعمامَ بانفتاحهِ على معانٍ شتَّى يحتملُها

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/523.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/321.
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 4/375.

النَّيلُ من العدوِّ: نصرًا، وقتلًا، وأسرًا، وغنيمةً، وغير ذلك ممّا يحتملُه الظَّفرُ بالعدوِّ.

دلالةُ ﴿مِنۡ﴾:

حصولُ أيِّ وجهٍ للنَّصرِ يُعدُّ نَيلًا

وحرفُ ﴿مِنۡ﴾ مستعملٌ في التَّبعيضِ المجازيِّ المتحقِّقِ في الرَّزيَّةِ، ورُزْءُ العدوِّ يكون من ذواتِ الأعداءِ بالأسرِ، والقتلِ، ويكونُ من متاعِهم وأموالِهم بالسَّبي والغُنْم[1]، فتبعيضيَّةُ ﴿مِنۡ﴾ توحي بأنَّ حصولَ أيٍّ من هذهِ الأشياءِ يُعدُّ نَيْلًا.

سرُّ تنكيرِ العدوِّ:

المؤمنُ الحقُّ لا يَأْبَهُ بأيِّ عدوٍّ

تنكيرُ العدوِّ دليلُ الاستهانةِ بهم، وتحقيرُ أمرِهم، وإعمامُ نوعِهم، ليشملَ أيَّ عدوٍّ مهما بلغَ شَأْوُهُ، وفيه تشريفٌ للمؤمنينَ، وإظهارٌ لبأسِهم، وشدَّتِهم.

بلاغةُ الاستثناءِ:

تحقُّقُ المشاقِّ مِظنَّةُ الأجرِ العظيمِ

الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ﴾ "استثناءٌ من عمومِ الأحوالِ، أي: لا تتحقَّقُ هذه الأمورُ من الظَّمأِ، والنَّصَبِ، وغيرِ ذلك في حالٍ من الأحوالِ إلّا حالَ كونِهم مُثابِين بالثَّواب العظيمِ والمأجورين بالأجرِ المُقيمِ"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿كُتِبَ﴾ مبنيًّا للمفعولِ:

الغايةُ إثباتُ أجرِهم لا كاتِبُهُ

في قوله عزَّ ذِكرُه آثرَ التَّعبيرَ بالفعل المبنيِّ للمفعول؛ لأنَّ الغرضَ بيانُ أنَّ ما عملوهُ قد كُتِبَ لهم، فـ"بُني للمفعول؛ لأنَّ القصدَ إثباتُه لا من مُعَيَّنٍ"[3]، فالاهتمامُ واقعٌ على بيانِ أنَّ أعمالَهم لا تضيعُ، وليس المرادُ بيانَ مَنْ كَتَبَ لهم ذلك الأجرَ، كما أنَّ فيه إيجازًا بالاستغناءِ بالمذكورِ، وحذْفِ ما هو معلومٌ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/57.
(2) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/364.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/45.

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿كُتِبَ﴾ دونَ المضارعِ:

ما كُتِبَ لهم من أجرٍ سيُجْزَوْنَهُ لا محالةَ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ﴾ آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعلِ الماضي دونَ المضارعِ، فلم يقلْ: (إلّا يُكتب لهم) باعتبارِ أنَّ أفعالَهم الَّتي تُكتبُ لهم جاءت بصيغةِ المضارع ﴿يُصِيبُهُمۡ﴾، ﴿يَطَـُٔونَ﴾، ﴿يَنَالُونَ﴾؛ لأنَّ الفعلَ الماضي يدلُّ على تحقُّقِ الوقوعِ، وأنّه فعلٌ قد نُجِزَ، وذلك لتأكيدِ كتابةِ الأجرِ لهم، فكأنَّهُ في حكمِ المكتوب لهم تنفيذًا، وتحقيقًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بكتابةِ العملِ الصّالحِ دونَ قبولِهِ في ﴿كُتِبَ لَهُم﴾:

التَّعبيرُ عن قبولِ الأعمالِ بالكتابةِ تأكيدٌ لثُبوتِها

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ﴾ عبَّرَ عن احتسابِ الأجرِ لهم بالفعلِ ﴿كُتِبَ﴾ الدّالِّ على الفرضِ والإيجابِ، ولا يجبُ على اللّه تعالى شيءٌ، ولكن لمّا وعدَ ﷻ بمقابلةِ أفعالِ العبادِ بأحسنِ الجزاءِ، وقبولِ الحسناتِ، والمعنى: أنّه قد ترَتَّبَ لهم على عملِهم أجرٌ جزيلٌ[1]، فأعمالُهم "مقبولةٌ مُسْتَوْجَبَةٌ بحكم الوعدِ الكريم للثَّوابِ الجميلِ ونَيْلِ الزُّلفى"[2]، فدلَّ الفعلُ ﴿كُتِبَ﴾ على تأكيدِ ثُبوتِ الأجرِ لهم، إيماءً إلى أنَّ اللّه تعالى لا يضيِّعُ عملًا من أعمالِ عبادِه.

بلاغةُ المجازِ في لفظِ ﴿كُتِبَ﴾:

في الحملِ على المجازِ حثٌّ على الجهادِ على وجهِ المبالغةِ

وحملَ العملَ عَلَى (الثَّواب) بعلاقةِ السَّببيَّةِ؛ لأنَّ المقصودَ من كتابةِ العملِ الْجَزاءُ والإحسانُ، وَأَيْضًا فإنَّ فائدَةَ الخبرِ في هذا الحملِ على المجازِ أظهرُ من إبقائه عَلَى الأصلِ، وفيهِ حثٌّ عَلَى الجهادِ، وتحريضٌ عَلَى وجه المُبالَغَةِ[3].

دلالةُ التَّقديمِ في قولِه: ﴿لَهُم﴾:

علَّقَ الكتابةَ بهم تعجيلًا وتشريفًا

قدَّمَ شبهَ الجملةِ ﴿لَهُم﴾: في قوله عزَّ ذِكرُهُ: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/45.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/111.
(3) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 9/364.

﴿عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ على نائبِ الفاعلِ الَّذي هو أولى بالتَّقديم؛ تعجيلًا بتعليقِ الجزاءِ بهم، ولبيان أنَّ قصدَ الكتابةِ لهم، وهذا تكريمٌ وتشريفٌ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالباءِ في ﴿بِهِۦ﴾:

لن تُنالَ الجنَّةُ بالتَّمني، وإنَّما بالبذلِ

الباءُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ تدلُّ على البَدَلِ والعِوَضِ، أي: عِوَضُ ما فعلوا يُكتَبُ لهم بهِ عملٌ صالحٌ، ويَجري ذلك مجرى الثَّناءِ عليهم؛ إذ التَّصريحُ بذلك يبيِّنُ أنَّ الأجرَ قد نالوهُ بحسنِ عملهم، وفي ذلك حثٌّ لهم على البذلِ والخروجِ مع النَّبيِّ ﷺ، فالجنَّةُ لن تُنالَ بالتَّمنِّي.

توجيهُ عودِ الضَّميرِ في ﴿بِهِۦ﴾، وعلَّةُ إفرادِهِ:

من رحمتهِ تعالى وفضْلهِ أنَّه جعلَ لكلِّ عملٍ ذي مشقَّةٍ ثوابًا بقصدٍ أو بغيرِ قصدٍ

وحَّدَ الضَّميرَ في ﴿بِهِۦ﴾ لعودهِ إلَى كلِّ واحدٍ منها عَلَى سبيلِ البَدَلِ، وذلك لتكرُّرِ (لا)، فصارَ كلُّ مفردٍ بالذِّكر مقصودًا بالوعد، ولذا قالَ الفقهاءُ: لو حَلَفَ لا يأكلُ خبزًا ولا لحمًا؛ حَنَثَ بواحدٍ منهما، ولو حَلَفَ لا يأكلُ خبزًا ولحمًا؛ لم يحنثْ إلّا بالجمعِ بَيْنَهُما[1].

فالضَّميرُ في ﴿بِهِۦ﴾ عائدٌ على ﴿ظَمَأٌ﴾ وما عُطِفَ عليه؛ لأنَّ إعادةَ حرفِ النَّفيِ جعلَتْ كلَّ معطوفٍ، كالمستقلِّ بالذِّكرِ، فأُعيدَ الضَّميرُ على كلِّ واحدٍ على البدلِ، كما يُعادُ الضَّميرُ مفردًا على المتعاطفاتِ بـ (أو)، باعتبارِ أنَّ ذلك المتعدِّدَ لا يكونُ في نفسِ الأمرِ إلّا واحدًا منه، ومعنى: كُتِبَ لهم بهِ عملٌ صالحٌ: أن يُكتَبَ لهم بكلِّ شيءٍ من أنواعِ تلك الأعمالِ عملٌ صالحٌ، أي: جعلَ اللّه كلَّ عملٍ من تلكَ الأعمالِ عملًا صالحًا، وإن لم يَقصدْ بهِ عاملوه تقرُّبًا إلى اللّه، فإن تلك الأعمالَ تصدُرُ عن أصحابِها، وهم ذاهِلونَ في غالبِ الأزمانِ أو جميعِها عن الغايةِ منها، فليست لهم نيّاتٌ بالتَّقرُّبِ بها إلى اللّه، ولكنّ اللّه تعالى بفضلهِ جعلَها لهم قرباتٍ باعتبارِ شرفِ

---

(1) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 9/364.

الغايةِ منها، وذلك بأن جعلَ لهم عليها ثوابًا، كما جعلَ للأعمالِ المقصودِ بها القربةُ، وكما وَرَدَ أنَّ نومَ الصّائمِ عبادةٌ(1).

دلالةُ تأخيرِ نائبِ الفاعلِ وتنكيرِه في ﴿عَمَلُ﴾:

حَرِيٌّ بالمكرَّمين تفخيمُ شأنِهم

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ﴾ آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عن العملِ الَّذي يُكتبُ لهم بصيغةِ التَّنكيرِ تفخيمًا لشأنِ المكتوبِ لهم(2)، فإنَّ الحسنةَ بعشرةِ أمثالِها، فهو أجرٌ عظيمٌ، فكانَ التَّعبيرُ عنه بالتَّنكيرِ أدلَّ على فخامتهِ وتعظيمه.

دلالةُ وصفِ نائبِ الفاعلِ بقوله: ﴿صَٰلِحٌۚ﴾:

العملُ الصّالحُ المرضِيُّ من الله تعالى

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ﴾ وصفَ النَّظمُ الكريمُ العملَ الَّذي يقبلهُ اللّه تعالى من عبادِهِ بأنَّهُ صالحٌ للدِّلالةِ على كونِهِ قد رَضِيَهُ تعالى وقبِلَهُ منهم، فالعملُ الصّالحُ، يعني: أنَّهُ حسنةٌ مقبولةٌ(3).

موقعُ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ممّا قبلَهُ:

علّةُ الكتابةِ صدقُ وعدِ الله تعالى

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ تعليلٌ لما سبقَ(4)، فلمّا أخبرَ تعالى أنَّه يُجازيهم على أفعالهم المذكورةِ، علَّلَ ذلك الجزاءَ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، فعِلَّةُ كتابةِ الأجرِ لهم أنَّ اللّه تعالى لا يضيعُ عندَهُ أجرُ المحسنينَ.

سرُّ الختمِ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

مَن يقومُ بالأعمالِ الحسنةِ محسنٌ

ختمَ النَّظمُ الجليلُ الآيةَ بقوله عزَّ ذِكرُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، وهذهِ الجملةُ تذييلٌ تعليليٌّ، يُنَبِّهُ على أنَّ تحمُّلَ المشاقِّ المذكورةِ والأفعالِ السّابقةِ من الإحسانِ(5)، فهذا التَّذييلُ يدلُّ على

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/57.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/111.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/111.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/45، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/57.
(5) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/528.

"أنَّهم كانوا بتلك الأعمالِ مُحْسِنين، فدخلوا في عمومِ قضيَّةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بوجهِ الإيجازِ"[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بتقديمِ المُسنَدِ إليهِ على خبرهِ الفعليِّ:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ قدَّمَ المُسْنَدَ إليهِ؛ لتكونَ الجملةُ اسميَّةً، والعُدولُ من الجملةِ الفعليَّةِ (لا يضيع اللّه أجرَ المحسنين) إلى الجملةِ الاسميَّةِ: ﴿ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ فيه تقويةٌ للمعنى، فإنَّ التَّعبيرَ عن المعنى بالجملةِ الاسميَّةِ يدلُّ على ثُبوتِ المعنى على وجهِ التَّأكيدِ، ولا يَفْقِدُ الدِّلالةَ على الاستمرارِ والتَّجديدِ؛ لأنَّ الخبرَ جاء فعلًا، وعليهِ فإنَّ جعْلَ المُسنَدِ إليهِ مبتدأً يوسِّعُ دلالةَ الجملةِ وفائدتَها، فتتضمَّنُ دلالةَ كلتا الجملتَيْنِ: الثُّبوتَ والتَّأكيدَ، والتَّجدُّدَ والاستمرارَ.

حفظُ الأجورِ ثابتٌ للمحسنين لا يضيعُ منهُ مثقالَ حبَّةٍ من خردلٍ

دلالةُ التَّعبيرِ بجملةِ الخبرِ فعلًا مضارعًا منفيًّا:

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بالجملةِ الاسميَّةِ، وجاء المُسنَدُ فيها فعلًا مضارعًا منفيًّا؛ وذلك للدَّلالةِ على تأكيدِ ثباتِ الأجرِ واستمرارِه، والنَّفيُ في المضارعِ يدلُّ على استمرارِ النَّفي، فانتفاءُ ضياعِ الأعمالِ منتفٍ على سبيلِ الثَّباتِ والتَّجدُّد، فالثَّباتُ مدلولُ الجملةِ الاسميَّةِ، واستمرارُ النَّفي مدلولُ الجملةِ الفعليَّةِ في ﴿لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

الأجرُ ثابتٌ منهُ تعالى مؤكَّدٌ

نوعُ (أل) في ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

معنى ﴿لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: أنَّهم استوجبوا الثَّوابَ؛ لأنَّهم محسنونَ، وكلُّ محسنٍ لا يضيِّعُ اللّه أجرَهُ، وعليه فإنَّ اللّامَ في ٱلۡمُحۡسِنِينَ للجنسِ لا للعهدِ، وإن احتملَ المقامُ إيّاهُ[2].

لا يضيعُ الله أجرَ كلِّ محسنٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/57.

(2) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/365.

تناسبُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

المؤمنُ لا يبذُلُ وُسْعَ جُهدِهِ ما لم يكن قد بلغَ رُتْبَةَ الإحسانِ

ختمَ النَّظمُ الكريمُ جملةَ التَّذييلِ بصفةِ الإحسانِ تنبيهًا على "أنَّهم حازوا رُتَبَ الإحسانِ الَّتي هي أعلى رُتَبِ المؤمنينَ"[1]، والإحسانُ هنا مناسبٌ لما سبقَ ذكرُه؛ إذ إنَّ المؤمنَ لا يبذلُ مذخورَ مجهودِهِ، ومبلغَ طاقتِهِ ما لم يكن قد بلغَ رتبةَ الإحسانِ، والتَّصريحُ بصفةِ الإحسانِ في الختامِ تنبيهٌ على ذلك، فلمّا "كانَ فاعلُ هذهِ الأشياءِ مقدَّمًا على المعاطِبِ في نفسهِ، ومُحَصِّلًا لغَرَضِ الجهادِ؛ أُشيرَ على وجهِ التَّأكيدِ في جملةٍ اسميَّةٍ إلى أنَّه محسنٌ، أمّا في حقِّ نفسهِ؛ فبإقامةِ الدَّليلِ بطاعتهِ على صدقِ إيمانهِ، وأمّا في غيرهِ من المؤمنينَ؛ فبِحمايَتِهم عن طمعِ الكافرين، وأمّا في حقِّ الكفّارِ؛ فبِحملِهم على الإيمانِ بغايةِ الإمكانِ"[2].

براعةُ ترتيبِ الأحداثِ في الآيةِ:

تدرُّجٌ في عرضِ أحوالِ النَّفسِ وِفاقَ الواقعِ

روعيَ في الآيةِ التَّرتيبُ الواقعُ في الأَحداثِ، وهو صالحٌ للتَّعميم في معظم الغزواتِ، فأوَّلُ ما أصابَهم الظَّمأُ بسببِ نفادِ الماءِ، وانعدام مصادِرِه في طريقِهم، وبعد ذلك أصابَهم النَّصَبُ، وهو التَّعبُ، فالرِّحلةُ في أرضٍ صحراءَ، وفي حرٍّ شديدٍ، وبعد ذلك انتهتْ أزوادُهم، فنزلَت بهم المَخْمَصَةُ، وبعد اقترابهم من تبوكَ وَطِئوا مَوْطِئًا يغيظُ الكفّارَ، وبعد ذلك نالوا من عدوِّهم عند تبوكَ نيلًا فرحَ به الغزاةُ الخارجونَ مع الرَّسولِ ﷺ من أهلِ الإيمانِ والصِّدقِ، فجاءَ التَّرتيبُ في الآيةِ على وفقِ التَّرتيبِ في الأحداثِ، ويلاحظُ في التَّرتيبِ تدرُّجُ أحوالِ النَّفسِ، وهذا من مراعاةِ التَّرتيبِ في الواقعِ، وهو من دقَّةِ الأداءِ البيانيِّ.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/524.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/45.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرَّغبةُ والإيثارُ:

الإيـثـارُ تفضُّلٌ وتفضيلٌ، أمّا الرَّغبةُ؛ فإرادةٌ وتـوسُّـعٌ في الإرادةِ

أصلُ الرَّغبةِ: طلبُ الشَّيءِ، والرَّغبةُ في الشَّيءِ: الإرادةُ لهُ، رَغِبْتُ في الشَّيءِ، فإذا لم تردْهُ؛ قلتَ: رَغِبْتُ عنهُ[1]، والرَّغْبَةُ: السَّعةُ في الإرادةِ قال تعالى: ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾ [الأنبياء: 90]، فإذا قيل: رَغِبَ فيهِ وإليه؛ يقتضي الحرصَ عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ٥٩﴾ [التّوبة: 59]، وإذا قيل: رَغِبَ عنهُ؛ اقتضى صرفَ الرَّغبةِ عنهُ والزُّهدَ فيه[2]، أمّا الإيثارُ؛ فهو من: أَثَرِ الشَّيءِ: حصولُ ما يدلُّ على وجودِه، والمآثرُ: ما يُروى من مكارمِ الإنسانِ[3]، "ويُستعارُ الأثَرُ للفَضلِ، والإيثارُ للتفضُّلِ إثارةً، قال تعالى: ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الحشر: 9]، أي: يُفضِّلون غيرَهُم على أنفسِهم، ومنهُ: له عليَّ أَثرةٌ، أي فضلٌ، ومنه الحديثُ: «إنَّكم سَتلقَونَ بعدي أَثَرَةً، فاصبِروا حتَّى تَلقَوني على الحوضِ»[4]، أي: يُستَأثَرُ عليكم، فيُفضَّلُ غيرُكم عليكم في الفَيءِ، فالأَثَرةُ: اسمٌ من آثَرَ يُؤْثِرُ إيثارًا، واسْتَأثَرَ فلانٌ بكذا، أي: تفرَّدَ بِه دونَ غيرِه"[5].

وفي الآيةِ الكريمةِ عبَّرَ عن فعلِهم بالرَّغبةِ؛ لأنَّهم أرادوا لأنفسِهم المُكْثَ في المدينةِ تكاسلًا، ولو قالَ: (يستأثرونَ بأنفسِهم عن نفسِهِ)؛ لدلَّ على أنَّهم يفضِّلون أنفسَهم على التَّفرُّد، وهم لم يكونوا كذلك، بل هم توسَّعوا في إرادةِ أنفسِهم، فالرَّغبةُ إرادةٌ، أمّا الإيثارُ؛ فتفضيلٌ، والثَّلاثةُ في الآيةِ إنَّما أرادوا طلبَ الرّاحةِ لأنفسِهم، ولم يكونوا مفضِّلين أنفسَهم على النَّبيِّ ﷺ.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رغب).
(2) الرّاغب، المفردات: (رغب).
(3) الرّاغب، المفردات: (أثر).
(4) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (3792).
(5) السّمين، العمدة: (أثر).

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التّوبة: 121]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بذلُ المالِ من الإحسانِ، كما أنَّ بذلَ الوسعِ في الجهادِ إحسانٌ

إنَّ اللّه تعالى لمّا ذكرَ أنَّه يقبلُ صالحَ أعمالِهم، وأنَّهُ لا يضيعُ عندهُ أجرُ المحسنينَ؛ أتبعَهُ بذكرِ وجهٍ آخرَ من وجوهِ الإحسانِ، وهو الإنفاقُ في سبيلِ اللّه تعالى فبعد أن ذكرَ الإحسانَ ببذلِ الجهدِ البدنيِّ بالسَّيرِ إلى العدوِّ، وما يلحَقُهم بهِ من العطشِ والتَّعبِ والجوعِ؛ أتبعَهُ بذكرِ بذلِ المالِ ليبيِّنَ أنَّه لا يضيعُ عندهُ وجهٌ من وجوهِ إحسانِهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَقْطَعُونَ﴾: (قطع) أصلٌ يدلُّ على صَرْمٍ وإبانةِ شيءٍ من شيءٍ[1]، القطعُ: فصلُ الشَّيءِ، وقَطْعُ الطَّريقِ يرادُ بهِ السَّيرُ والسُّلوكُ[2]، "ومن المجازِ: قَطَعَ المفازةَ قطعًا، وقَطَعَ النَّهرَ: عَبَرَهُ"[3].

2) ﴿وَادِيًا﴾: الوادي كُلُّ مَفرَجٍ بَيْنَ الجبالِ والتِّلالِ والإكامِ، سُمِّيَ بذَلِكَ لسَيَلانهِ، يَكونُ مَسْلَكًا لِلسَّيْلِ ومَنْفَذًا[4]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ [طه: 12] الوادي اسمُ فاعلٍ من: ودى، يدي، وديًا؛ إذا سالَ فهو وادٍ، ثمَّ أُطلِقَ على المكانِ الَّذي يجتمعُ فيه الماءُ، ويسيلُ، فالوادي هو الماءُ، وسمِّي مكانُهُ باسمِهِ مجازًا للمجاورةِ، وأُطلقَ على كلِّ ما يسيلُ فيهِ الماءُ، وإن لم يكن مفرَجًا بين الجبلَيْنِ اتِّساعًا[5].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قطع).
(2) الرّاغب، المفردات: (قطع).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (قطع).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ودي).
(5) السمين، العمدة: (ودي).

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

ثَبتُ الأجرِ لجميعِ أعمالِ المجاهدينَ وليس للقتالِ وحسبُ

يخبرُ اللّه تعالى أنَّ أعمالَ المؤمنين كلَّها محفوظةٌ لهم، فإنَّ المجاهدينَ لا يبذلون أيَّ مالٍ؛ صغيرًا أو كبيرًا، ولا يسافرونَ أيَّ سفرٍ في سبيلِ اللّه، ولا يقطعون أرضًا في سفرِهم، إلّا كتَبَهُ اللّه لهم في صحائفِ أعمالِهم الصّالحة، لينالوا بهِ أحسنَ ما يستحقُّه العاملونَ من جزاءٍ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوصلِ بالواوِ:

أمارةُ الإيمانِ توالي أعمالِ البرِّ، والإحسانِ

قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ معطوفٌ على الجملةِ في قوله تعالى: ﴿لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ﴾، لاشتراكِهما بكونِهما من الأعمالِ الَّتي ثَبَتَ لهم الأجرُ بها، "وهو انتقالٌ من عِدادِ الكُلَفِ الَّتي تصدُر عنهم بلا قَصْدٍ في سبيلِ اللّه إلى بعضِ الكُلَفِ الَّتي لا تخلو عنِ استشعارِ مَن تَحِلُّ بهم بأنَّهم لَقوها في سبيلِ اللّه، فالنَّفقةُ في سبيلِ اللّه لا تكونُ إلّا عن قصدٍ يتذكَّرُ به المنفقُ أنَّه يسعى إلى ما هو وسيلةٌ لنصرِ الدِّين"[2].

بلاغةُ الاعتراضِ بين جُملَتَي العطفِ:

بيَّنَ أجرَ المذكورين ترغيبًا، وحثًّا

ذكرَ ابنُ التَّمجيدِ أنَّ ﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ عَطفٌ عَلَى ﴿وَلَا يَنَالُونَ﴾، وما بَيْنَهُما اعتراضٌ، وجهُهُ التَّرغيبُ في هذهِ الأعمالِ، والحثُّ عليها، والمبادرةُ إليها ببيانِ أجرِ المَذْكورين، وإظهارِ أنَّ المَذْكورَ هنا نوعٌ مغايرٌ لما قبلَهُ؛ إذ الإنفاقُ جهادٌ بالأموالِ، وهذا باعْتبارِ الجزءِ الأوَّلِ، وذلك كافٍ في الاستقلالِ عمّا قبلَهُ[3].

(1) مجموعة من المؤلّفين، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 282.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/84 - 58.
(3) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 9/365.

سرُّ تأخيرِ الإنفاقِ عن الأعمالِ المذكورةِ:

رُتِّبتِ الأعمالُ بحسبِ مشقَّتِها على النَّفسِ

ذكرَ السِّياقُ القرآنيُّ الكريمُ الأعمالَ الَّتي كَتبَ للمؤمنين أجرَها، وفي قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أخَّر ذكرَ هذين العَمَلينِ، وتقدَّمتِ تلكَ الأعمالُ في الجملِ السّابقةِ؛ "لأنَّها أشقُّ على النَّفس، وأنكى في العدوِّ، وهاتان أهونُ؛ لأنَّهما في الأموالِ، وقَطْعِ الأرضِ إلى العدوِّ، سواءٌ حصلَ غيظُ الكفّارِ، والنَّيلُ من العدوِّ، أم لم يحصُلا، فهذا أعمُّ، وتلك أخصُّ"[1]، فالمشقَّةُ بالإنفاقِ أهونُ منها بتحمُّلِ مشاقِّ السَّفرِ والخروجِ إلى أرض العدوِّ وإغاظتهِ، فقدَّم الأشقَّ، وأخَّر الأهونَ.

سرُّ التَّنكيرِ في المفعولِ بهِ ﴿نَفَقَةً﴾:

لا يردُّ اللهُ تعالى نفقةَ عبدِهِ بالنَّظرِ إلى حجمِها، وإنَّما بصدقِ نيَّتِها

آثرَ النَّظمُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أن يعبِّرَ بصيغةِ التَّنكيرِ في لفظِ النَّفقةِ؛ وذلك تصغيرٌ لحدودِ النَّفقةِ الَّتي يقعُ عليها الأجرُ، فلا اعتبارَ في قبولِ النَّفقةِ بصِغَرِها أو كِبَرِها، فاللّه تعالى يقبلُ نفقةَ العبدِ مهما كانت، وقد تكونُ القليلةُ أسبقَ للكبيرةِ منها، وقد جاء في الحديثِ الصَّحيحِ، قوله ﷺ: «سبقَ دِرهمٌ مئةَ ألفِ درهمٍ، قالوا: وَكَيفَ؟ قالَ: كانَ لرجلٍ درهمانِ تصدَّقَ بأحدِهِما، وانطلقَ رجلٌ إلى عُرضِ مالِهِ، فأخذَ منهُ مئةَ ألفِ درهمٍ، فتصدَّقَ بها»[2].

سرُّ وصفِ المفعولِ بهِ بـ ﴿صَغِيرَةً﴾:

يقبَلُ تعالى النَّفقةَ مهما قلَّت

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ وصفَ النَّفقةَ بكونِها صغيرةً، وكان التَّقليلُ في النَّفقةِ معلومًا من مجيءِ النَّفقةِ بصيغةِ التَّنكيرِ، ولكن صرَّحَ بصِغَرِها تأكيدًا لقبولِها مهما قلَّت، وتعميمًا لكلِّ نفقةٍ.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/524، والشّهاب، عناية القاضي: 4/376.
(2) النّسائيّ: برقم: 2527.

سرُّ تقديمِ النَّفقةِ الصَّغيرةِ على الكبيرةِ:

النَّفقةُ الصَّغيرةُ أكثرُ شيوعًا

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ في قوله عزَّ ذِكرُه: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ ذِكْرَ النَّفقةِ الصَّغيرةِ على الكبيرةِ، إمّا باعتبارِ وجودها في الواقعِ بمعيارِ الكثرةِ والقلَّةِ، فأكثرُ الصَّدقاتِ ومعتادُها أنَّها صغيرةٌ، فقدَّمَ كثيرَ الوقوعِ على قليله[1]؛ لأنَّ وقوعَ النَّفقةِ الصَّغيرةِ كثيرٌ، يَقْدِرُ عليها الميسورُ حالُهُ وغيرُه، أمّا الكبيرةُ؛ فمقصورةٌ في الغالبِ على الأغنياءِ، والمقصودُ التَّعميمُ صراحةً؛ فلا يُغْني ذكرُ الصَّغيرةِ عن الكبيرةِ[2].

لا تحقرَنَّ من المعروفِ شيئًا

ويجوزُ أنْ يكونَ تقديمُ النَّفقةِ الصَّغيرةِ اهتمامًا بها، وعنايةً بشأنِها، ودفعًا لاحتمالِ احتقارِها، فقدَّمها ترغيبًا بها، وحثًّا عليها[3].

سرُّ عطفِ الكبيرةِ على الصَّغيرةِ:

الحُكْمُ يشملُ كلَّ النَّفقاتِ صغيرِها، وكبيرِها

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ عطفَ الكبيرةَ على الصَّغيرةِ للدَّلالةِ على شمولِ كلِّ النَّفقاتِ، أي: نفقةٌ صغيرةٌ فما فوقَها[4]، كما أنَّ هذا العطفَ فيه دفعٌ للتَّوهُّمِ؛ إذ لو قالَ: (ولا ينفقون نفقةً صغيرةً)، واكتفى بذلكَ؛ لأوهمَ ذلك أنَّ الصِّغَرَ قَيْدٌ، فعطفَ الكبيرةَ عليها إعلامًا بأنَّ الصِّغَرَ ليس قيدًا، وأنَّ الكبيرةَ مُعْتَدٌّ بها[5]، "وذَكَرَ الكبيرةَ بعد الصَّغيرةِ، وإن عُلِم من الثَّوابِ على الأولى الثَّوابُ على الثّانيةِ؛ لأنَّ المقصودَ التَّعميمُ، لا خصوصَ المذكورِ؛ إذِ المعنى: لا يُنقِصونَ شيئًا ما، فلا يُتوهَّم أنَّ الظّاهرَ العكسُ"[6].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/111.
(2) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/365.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/46.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/169.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/46.
(6) الشّهاب، عناية القاضي: 4/375.

بلاغةُ طباقِ الإيجابِ بين ﴿صَغِيرَةٗ﴾ ﴿كَبِيرَةٗ﴾:

الطِّباقُ بين الصَّغيرِ والكبيرِ تأكيدٌ على القبولِ بأسلوبٍ بديعٍ

في قوله تعالى: ﴿صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ﴾ طباقُ إيجابٍ؛ لجمع النَّظم بين لفظين متضادَّيْنِ مُثْبَتَيْنِ في جملةٍ واحدةٍ، والطِّباقُ ينبِّهُ على كلا الوصفيْن، فجمعَ بينَ الضِّدَّيْن لِما في ذلك من جمالٍ في المعنى، فاستحضارُ كلا الوصفيْن يدلُّ على الشُّمولِ والتَّعميم، فهو تأكيدٌ لقبولِ كلِّ الصَّدقات بطريقةِ الأسلوبِ البديعيِّ الجامعِ بينَ الصِّفات المتضادَّة.

سرُّ العطفِ في ﴿وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ﴾:

كلُّ عملٍ للمؤمنِ مستقصًى ويُجزاه الجزاءَ الأوفى

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ﴾ عُطِفَ قَطْعُ الوادي على الإنفاقِ في سبيلِ اللّه، استقصاءً للأعمالِ الَّتي كتبَ اللّه تعالى لهم أجرَها، فكما أنَّه كتبَ لهم أجرَ النَّفقةِ الصَّغيرةِ والكبيرةِ، فإنَّهُ كتبَ لهم أجرَ خُطواتِ مسيرِهم وقطْعِهم الوديانَ في طلبِ العدوِّ ونشْرِ الإسلام.

بلاغةُ التَّعبيرِ المجازيِّ في ﴿وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا﴾:

قطْعُ الوادي عُبورُهُ

قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا﴾ تعبيرٌ مجازيٌّ؛ إذ القَطْعُ: فصلُ الشَّيءِ، وقَطْعُ الطَّريقِ يرادُ بِه السَّيرُ والسُّلوك، فهو مجازٌ في العبورِ[1]، فقوله تعالى: ﴿وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا﴾ أي: بالسَّيرِ في الجهاد[2]، فلمّا كانت الأوديةُ والأراضي قِطَعًا منفصلةً متباينةً أطلق على العبورِ بينها لفظَ القَطعِ الدّالِّ على الفصلِ، فكأنَّهم يفصلون قِطعةَ أرضٍ عن أخرى بمسيرِهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿كُتِبَ﴾ مبنيًّا للمفعولِ بينَ الحقيقةِ والمجاز:

حُفِظَتْ أعمالُهم، وثَبَتَ لهم أجرُها

في قوله عزَّ ذِكرهُ: ﴿وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ﴾ يجوزُ حَملُ قوله تعالى: ﴿كُتِبَ﴾ على الدِّلالتين: الحقيقيَّةِ بمعنى: الكتابةِ في

(1) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قطع).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/46.

الصُّحف، أو اللَّوح المحفوظِ، والمجازيَّةِ بمعنى: الحفظِ والإثباتِ، إشارةً إلى قَبولِه أعمالَهم[1]، وقد آثرَ النَّظمُ الكريمُ أن يكونَ التَّعبيرُ عن ذلك بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ؛ لأنَّ المرادَ بيانُ أنَّ أعمالَهم محفوظةٌ لهم، وثَبَتَ لهم أجرُها، وهذا هو الأهمُّ في السِّياقِ، فبناهُ "للمفعولِ؛ لأنَّ القصدَ الحفظُ بالكتابةِ مطلقًا"[2]، أي: لا من حيثُ كونُه من مُعَيَّن؛ إذ التَّرغيبُ والتَّبشيرُ يقع ببيانِ إثباتِ الأجرِ، وإن كان هناك فرقٌ بين كونِ مُثْبِتِ الأجر هو اللّه تعالى أو الملائكةُ، فإنَّهُ إثباتٌ حاصلٌ لهم في كلِّ حالٍ.

بيانُ المتشابهِ اللَّفظيِّ في ذكرِ المكتوبِ وحذفِه:

الظَّمأُ وما عُطِفَ عليه ليست أعمالَهم الحقيقيَّةَ، والنَّفقاتُ والمسيرُ أعمالُهم الحقيقيَّةُ

قال تعالى في الآيةِ السّابقةِ: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ﴾، وقال تعالى هنا: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ﴾، ولم يذكرِ المكتوبَ؛ وذلكَ أنَّ الآيةَ الأولى فيها ما ليس عملًا لهم كالظَّمأ والنَّصبِ والمَخْمَصةِ، فهذهِ ليست من أعمالِهم غيرَ أنَّه تُكتَبُ لهم أعمالٌ صالحةٌ؛ لأنَّ اللّه سبحانه بفضلِه أجرى ذلك مجرى عملِهم في الثَّوابِ، أمّا الآيةُ الثّانيةُ؛ فما جاءَ فيها كلُّه من أعمالِهم، فإخراجُ النَّفقاتِ ما دقَّ أو جلَّ، وقطْعُ الوديانِ في المَسيرِ إلى الأعداءِ هي أعمالٌ لهم محفوظةٌ مكتوبةٌ عندَ اللّه تعالى ولذا لم يكن ثَمَّةَ داعٍ إلى القولِ: (كُتِبَ لهم به عملٌ صالحٌ)؛ لأنَّهُ عملٌ حقيقةً[3].

دلالةُ اللّامِ في ﴿لَهُمۡ﴾:

ما ينالوهُ من أجرٍ استحقاقٌ لهم

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ﴾ عبَّرَ عن استحقاقِهم الأجرَ بالكتابةِ، وأدخلَ لامَ الاستحقاقِ على ضميرِهم بيانًا لذلك، فشِبْهُ الجملةِ ﴿لَهُمۡ﴾ جاءت لبيانِ أنَّ كتابةَ الأجرِ كائنةٌ

(1) الشّهاب، عناية القاضي: 4/375.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/46.

(3) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/731 - 732، والكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 138.

لهم، ولو قالَ: (إلّا كُتِبَ به عملٌ صالح) بلا قيدِ شِبْهِ الجُملة؛ لفُهِم إثباتُ الأجرِ لهم، ولكنَّ التَّصريحَ باستقرارِهِ لهم، فيه تكريمٌ لهم بذكرِهم، وتنويهٌ بشأنِهم.

بلاغةُ الحذفِ في: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾:

المُقدَّرُ كتابةُ العملِ الصّالحِ، إنفاقًا وقطعًا

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ حَذْفٌ بليغٌ؛ إذ لم يقلْ كما قالَ: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾، والمحذوفُ ضميرٌ مقدَّرٌ، "يعودُ على المصدرِ المفهوم من ينفقون، ويقطعون، كأنَّه قيل: كَتَبَ لهم هو، أي: الإنفاقَ والقطعَ، ويجوز أن يعودَ على قوله: ﴿عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ المتقدِّمِ الذِّكرِ"(1).

دلالةُ اللّامِ في ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾:

كتابةُ الحسناتِ جزاءُ الأعمالِ الصّالحاتِ

جاءَ النَّظمُ الكريمُ باللّامِ في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ الدّالَّةِ على العِلّةِ ليبيِّنَ عِلَّةَ الكتابةِ، أي: كتبَ لهم الحسناتِ لأعمالِهم الصّالحةِ لغرضِ الجزاءِ(2)، فالغايةُ من إثباتِ أعمالِهم وحفظِها أن يجازيَهم عليها أحسنَ الجزاءِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿لِيَجْزِيَهُمُ﴾:

جزاءُ الله تعالى غيرُ منقطعٍ

في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ عبَّرَ بالفعلِ المضارعِ للدّلالةِ على أنَّ الجزاءَ غيرُ منقطعٍ، بل هو دائمٌ مستمرٌّ، وبيانُ أنَّ الجزاءَ كائنٌ في المُستقبلِ بقرينةِ نصبِ الفعلِ المضارعِ.

سرُّ تقديمِ المفعولِ بِهِ على الفاعلِ:

مُستَحِقُّ الجزاءِ عالي الشَّأنِ

قدَّمَ تعالى المفعولَ بِهِ في قوله عزَّ ذِكرُه: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، وهو الضَّميرُ العائدُ على الَّذين يخرجونَ في سبيلِ اللّه تعالى لأنَّ الجزاءَ لهم، فأوصلهُ بضميرِهم، وفي تقديمِهِ تعجيلٌ بذكرِ مستحِقِّ الجزاءِ تنويهًا بعلوِّ شأنِهم، كما أنَّ في تأخيرِ الفاعلِ تشويقًا لبيانِ المُجازاةِ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/524، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/528.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/58.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمُظْهَرِ في مقامِ المُضْمَرِ:

إظهارُ الاسمِ الأعظمِ في سياقِ المُجازاةِ تشريفٌ لهم، وتعظيمٌ للجزاءِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ وضعَ الظّاهرَ موضعَ المُضْمَرِ، ولم يقل: (ليجزيهم أحسن)؛ لأنَّهُ آثرَ إظهارَ لفظِ الجلالةِ في سياقِ مجازاتِهم، تعظيمًا للجزاءِ المُعَدِّ لهم، فاللّه تعالى بجلالهِ وكمالهِ هو من يجازيهم، وفي ذلك من الفخامةِ والتَّعظيمِ للأجر، والتَّشويقِ بما يحُثُّ النُّفوسَ على بذلِ غايةِ الوسعِ.

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ التَّفضيل ﴿أَحۡسَنَ﴾:

لا جزاءَ أحسنُ من جزاءِ مَنْ تسمَّى بالمُحسنِ

في قوله تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ جاء التَّعبيرُ بصيغةِ التَّفضيلِ لبيانِ حُسْنِ جزاءِ اللّه تعالى وقد تعدَّدَتْ آراءُ أئمَّةِ التَّفسيرِ في بيانِ المرادِ منها وموقعِها الإعرابيِّ، فذكروا أنَّ له وجهين: الأوَّل: أنَّ الأحسنَ وصفٌ لفعلِهم، فاللّه تعالى يجزيهم على أحسنِ أفعالِهم، وفي إعرابِ هذا الوجهِ قولان: إنَّه بدلُ اشتمالٍ من الضَّميرِ في ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ﴾، كأنَّه قيل: ليجزيَ اللّه أحسنَ أفعالِهم بالأحسنِ من الجزاءِ، أو أنَّهُ على حذفِ مضافٍ، وأقيمَ المضافُ إليهِ مقامَهُ، والتَّقديرُ: ليجزيَهم جزاءَ أحسنِ ما كانوا يعملون[1]. والثّاني من الوجوه: أنَّ "الأحسنَ صفةٌ للجزاءِ، أي: يجزيهم جزاءً هو أحسنُ من أعمالِهم وأجلُّ وأفضلُ، وهو الثَّوابُ"[2]، وهذا التَّنوُّعُ في بيانِ الموقعِ الإعرابيِّ للمفردةِ يُفْصِحُ عن سَعةِ المعنى، وأنَّ المعاني المحتملةَ كلَّها مُرادةٌ، وهذا من سَعةِ التَّعبيرِ في القرآنِ.

سرُّ حذفِ حرفِ الجرِّ في ﴿أَحۡسَنَ﴾:

في الحذفِ اتِّساعٌ بالمعنى

في قوله تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ جاء اسمُ التَّفضيلِ بلا حرفِ جرٍّ، فلم يقل: بأحسنَ، أو عن أحسنَ،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/170، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/524 - 525، والشّهاب، عناية القاضي: 4/376، الصّاويّ، حاشيته على تفسير الجلالين: 2/163.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/170.

فلو ذكرَ حرفَ الجرِّ (عن)، فقالَ: (عن أحسنِ ما كانوا يعملونَ)؛ لكانَ الجزاءُ لأحسنِ الأعمالِ فحسْبُ، وهذا المعنى خِلافُ ما يُرادُ في الآيةِ، فلم يأتِ مجرورًا بحرفٍ من حروفِ الجرِّ؛ لينتصبَ على المصدريَّةِ أو البدلِ اتِّساعًا في المعاني المذكورةِ آنفًا.

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ كانَ مع الفعلِ المضارعِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

حُسْنُ أفعالِهم سجاياهُم، وجميلُ خِصالِهم

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بفعلِ الكينونةِ ماضيًا مع جعْلِ خبرِهِ فعلًا مضارعًا؛ ليفيد أنَّ تلكَ الأفعالَ كانت ديدَنَهم[1]، فإنَّ اللّه تعالى يجازيهم جزاءَ العملِ الَّذي كانوا مواظبين عليه، فالفعلُ المضارعُ يدلُّ على التَّجدُّدِ والتَّكرارِ، والفعل الماضي (كان) يدلُّ على رسوخِ العملِ فيهم، فجمعَ بين الصِّيغتين للدَّلالةِ على استمرارِهم على هذهِ الأفعالِ منذُ الأزمنةِ الماضيةِ، وكأنَّها طبعٌ فيهم، وسجيَّةٌ.

بيانُ مُتَشابِهِ النَّظمِ في فاصلتي الآيتيْن:

التَّأكيدُ وزيادةُ الوصفِ مناسبٌ؛ إذ كانتِ المشقَّةُ أشدَّ

خَتَمَ تعالى الآيةَ السّابقةَ بقوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، وخَتَمَها تعالى هنا بقوله: ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، وعلَّةُ ذلك أنَّ الإخبارَ في الأولى كان عمَّن "أصابَهُ ظمأٌ ونصبٌ وجوعٌ، فقد أخبرَ عنهُ بفعلِ غيرِه، ولم يخبرْ عنه بفعلٍ فعلَه هو، إلّا أنَّه يُحسَبُ لهُ - بما وصلَ إليهِ من ألمِ العطشِ والجوعِ والتَّعبِ والنَّصبِ - الأجرُ؛ فلذلك عقَّبَهُ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: أجرَ مَن أحسنَ طاعةَ اللّه، وتعرَّضَ منها لما تلحَقُهُ فيهِ هذهِ الشَّدائدُ، وأمّا الآيةُ الثّانيةُ وتعقيبُها بقوله: ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ فلأنَّ جميعَ ما ذُكِرَ كان عملًا لهم، فوعدَهُم حُسْنَ الجزاءِ على عملِهم"[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/58.

(2) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/731 - 732، والكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابهِ القرآن، ص: 138.

وخلاصةُ علَّةِ الاختلافِ في التَّعبيرِ بين الآيتيْن: أنَّ الفاصلةَ في الآيةِ الأولى جاءت مؤكَّدةً بـ (إنَّ) والجملةِ الاسميَّة، ومُصَرَّحًا فيها بالعملِ الصّالح؛ لأنَّ المشقَّةَ هناك أشدُّ، فجاءَ التَّعبيرُ أقوى حيثُ كانت المشقَّةُ أعلى[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّفقةُ والصَّدقةُ والزَّكاةُ:

الصَّدقةُ أخصُّ والنَّفقةُ أعمُّ

الصَّدَقةُ: ما يُخرجهُ الإنسانُ من مالهِ على وجهِ القُرْبة؛ كالزَّكاةِ، لكنَّ الصَّدقةَ في العُرفِ تقالُ للمُتطوِّعِ بها، والزَّكاةُ للواجبِ، وقيل: سَمَّى الواجبَ صدقةً؛ إذا تحرَّى صاحبُهُ الصِّدقَ في فعلِه[2]. أمّا الإنفاقُ؛ فقد يكونُ في المالِ، وفي غَيْرِه، وقد يكونُ واجبًا وتطوُّعًا، قال تعالى: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ [البقرة: 254][3]، فالنَّفقةُ أعمُّ من الصَّدقة، فتُستعملُ في الإنفاقِ في الخيرِ وغيرِه، كما في الآيةِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةً﴾ [الأنفال: 36]، وتعدَّدَت استعمالاتُ الإنفاقِ في القرآنِ الكريمِ على وجوه، فوَرَدَتْ بمَعْنَى فَرْضِ الزَّكاةِ، وبمعنى التَّطوُّعِ بالصَّدقاتِ، وبمعنَى الإنْفاقِ في الجهادِ، وعلى الأهلِ، وبمعنى الإنْفاقِ في عِمارةِ الدُّنيا، وبمعنى رزْقِ الخَلْقِ[4]، فالإنفاقُ عامٌّ يكون في المالِ وغيرِه، وفي الواجبِ وغيرِه، والخيرِ ونقيضِه. والصَّدقةُ في القرآن: ما يخرجُهُ الإنسانُ من مالهِ تطوُّعًا، وقد يُستعمل في الواجبِ، وفي الآيةِ الكريمةِ عبَّرَ بالنَّفقة؛ لأنَّه في الإنفاقِ في الغزوِ، وهو أعمُّ من أن يكونَ في المالِ، فكلُّ شيءٍ يُقدَّمُ في سبيلِ اللّه تعالى مرادٌ في الآية.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/46.

(2) الرّاغب، المفردات: (صدق).

(3) الرّاغب، المفردات: (نفق).

(4) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز: (نفق).

﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ١٢٢﴾ [التّوبة: 122]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا شدَّدَ بمنع التَّخلُّفِ أوجبَ على بعضِهم المُكْثَ في المدينةِ للتَّفقُّهِ

إنَّ اللّه تعالى لمّا بيَّن النَّهيَ عن التَّخلُّفِ عن النَّبيِّ ﷺ، وزجرَ عنهُ، فإنَّ ذلك كان "مظنَّةَ ألّا يتخلَّفَ بعدَها أحدٌ عن رسولِ اللّه ﷺ، وعمَّن يقومُ مقامَه، فيتمكَّنُ حينئذٍ الأعداءُ من الأموالِ والذَّراري والعيالِ، فأتبعَ ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، أي: الَّذين حثَّهم على النَّفْرِ الرُّسوخُ في الإيمانِ ﴿لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ﴾"[1]، فبيَّن أنَّ من مصلحةِ الأمَّةِ ألّا تتركَ أحدَ السَّبيليْن: سبيلِ العلمِ، وسبيلِ القتالِ، فحثَّهم على التَّوازنِ، ووضْعِ كلِّ شيءٍ موضعَهُ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيَنفِرُواْ﴾: النَّفْرُ: الانْزِعاجُ عن الشَّيءِ وإلى الشَّيءِ، كالفَزَعِ إلى الشَّيءِ وعن الشَّيءِ، يقال: نَفَرَ عن الشَّيءِ نُفورًا، قال تعالى: ﴿مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ٤٢﴾ [فاطر: 42]، ونفَرَ إلى الحربِ يَنْفُرُ ويَنْفِرُ نَفْرًا، ومنه: يَوْمُ النَّفْرِ، قال تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾ [التّوبة: 41][2]، ونَفرَ القومُ في الأمرِ: مَضَوْا فيهِ، ونَفَرَ الحاجُّ من مِنًى نَفْرًا، والنَّفيرُ: الذين يَتقدَّمون في الأمرِ[3].

2) ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ﴾: الفِقْهُ: الفهمُ، ثمَّ خُصَّ بهِ عِلْمُ الشَّريعةِ، والعالِمُ به فَقيهٌ، وقد فَقُهَ بالضَّمِّ فَقاهَةً، وفَقَّهَهُ اللّه، وتَفَقَّهَ؛ إذا تعاطى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/47.
(2) الرّاغب، المفردات: (نفر).
(3) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز: (نفر).

ذلك[1]، والفِقْهُ: هو التَّوصُّلُ إلى علم غائبٍ بعلم شاهدٍ، فهو أخصُّ من العلمِ، قال تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ٧٨﴾ [النّساء: 78]، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ٧﴾ [المنافقون: 7]، إلى غيرِ ذلك من الآياتِ، والفِقْهُ: العلمُ بأحكام الشَّريعةِ، يقال: فَقُهَ الرَّجلُ فَقاهَةً؛ إذا صارَ فَقيهًا. وفَقِهَ، أي: فَهِمَ، فَقَهًا، وفَقِهَهُ، أي: فهِمَهُ، وتَفَقَّهَ؛ إذا طلبهُ، فتخصَّصَ به، قال تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾[2].

3) ﴿يَحۡذَرُونَ﴾: الحَذَر: احترازٌ من مُخيفٍ، يقال: حَذِرَ حَذَرًا، قال ﷻ: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [الزمر: 9][3]، وقولُه: ﴿حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾ [البقرة: 19]، أي: خوفَهُ، وأصلُهُ التَّحذُّرُ من الشَّيءِ المُخيفِ المُهْلِكِ، فهو أخصُّ من الخوفِ[4].

المَعنى الإجْمالِيُّ:

يُعلِّمُ اللّه تعالى الأمَّةَ ناهيًا إيّاهم عن التَّفريطِ بأحدِ السَّبيلينِ من العلمِ والغزوِ، فليس "للمؤمنين أن يخرجوا جميعًا إلى النَّبيِّ ﷺ إذا لم يقتضِ الأمرُ ذلك، فليكنِ الأمرُ أن تخرجَ إلى الرَّسولِ طائفةٌ؛ ليتفقَّهوا في دينهم، وليَدْعوا قومَهم بالإنذارِ والتَّبشيرِ حينما يَرجعونَ إليهم؛ ليثْبُتوا دائمًا على الحقِّ، وليحذَروا الباطلَ والضَّلالَ"[5].

لا إفراطَ ولا تفريطَ، ولكلٍّ عملٍ فضلٌ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطفِ بالواوِ:

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُهُ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ﴾ معطوفةٌ على التَّوبيخِ في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ﴾، فلمّا أرسلَ النَّبيُّ ﷺ سَرِيّةً بعد

توبيخُهم أدّى إلى نَفْرَتِهم في سبيلِ الله جميعًا

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (فقه).
(2) الرّاغب، المفردات: (فقه).
(3) الرّاغب، المفردات: (حذر).
(4) السّمين، العمدة: (حذر).
(5) مجموعة من المؤلّفين، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 282.

ذلك التَّوبيخِ نفروا جميعًا، فنزل ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗ﴾[1]، فهُما مشترِكان بالتَّعليم والتَّنبيه.

سرُّ المقابلةِ بين التَّحريضِ على الغزوِ والعلمِ:

من مصلحةِ الأمَّـةِ قرآنٌ يهدي وسيفٌ يحمي، ويناففُ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗ﴾ قابل بين التَّحريضِ على الغزوِ في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾؛ إذ جاء التَّحريضُ في الآيةِ الأولى "على الالتفافِ حولَ رسولِ اللّه ﷺ في الغزوِ لمصلحة نشرِ الإسلام؛ ناسبَ أن يُذْكَرَ عَقِبَها نَفْرُ فريقٍ من المؤمنين إلى رسولِ اللّه ﷺ للتَّفقُّهِ في الدِّين؛ ليكونوا مُرشِدينَ لأقوامِهم الَّذين دخلوا في الإسلام"[2]، وبين التَّحريضِ على النَّفْرةِ إلى طلبِ العلم، والتَّفقُّه، فكما "كان النَّفْرُ للغزوِ واجبًا؛ لأنَّ في تركِه إضاعةَ مصلحةِ الأمَّةِ، كذلك كان تركُه من طائفةٍ من المسلمين واجبًا؛ لأنَّ في تمحُّضِ جميعِ المسلمين للغزوِ إضاعةَ مصلحةٍ للأمَّةِ أيضًا، فأفادَ مجموعُ الكلامَيْن أنَّ النَّفْرَ للغزو واجبٌ على الكفايةِ، أي: على طائفةٍ كافيةٍ لتحصيلِ المقصدِ الشَّرعيِّ منه، وأنَّ تركَهُ مُتَعَيِّنٌ على طائفةٍ كافيةٍ منهم لتحصيلِ المقصَدِ الشَّرعيِّ ممّا أُمروا بالاشتغالِ بهِ من العلم في وقت اشتغالِ الطّائفةِ الأخرى بالغَزْوِ"[3].

براعةُ المقابلةِ بين المؤمنين وبين أهلِ المدينةِ ومن حولهم:

في المقابلةِ تزكيةٌ لهم وشهادةٌ بصدقِ إيمانهم

في قوله عزَّ ذِكرهُ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗ﴾ وقع التَّقابلُ بين الآيتَيْن في غايةِ الحسنِ، فإنَّ قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ في الآيةِ السّابقةِ كان عامًّا، فأتبعَهُ بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗ﴾، فعادَ عليهم بوصفِ الإيمان

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/195.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/59.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/60 - 61.

تصريحًا بإيمانِ المذكورين أوّلًا، وفيه تزكيةٌ لهم وشهادةٌ من اللّه تعالى لهم بأنَّ إيمانَهم معتبَرٌ مع ما وقعَ من زيغٍ من بعضِهم وتخلُّفٍ.

دلالةُ النَّفي بأسلوبِ الجحودِ:

الجهادُ في سوحِ العلمِ كالجهادِ في سوحِ الحربِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ﴾ جاء النَّفيُ مؤكَّدًا بلامِ الجحودِ الدّاخلةِ على خبرِ كان، والمعنى: "ما صحَّ، وما استقامَ لهم أن ينفِروا جميعًا لنحو غزْوٍ أو طلب علم، كما لا يستقيمُ لهم أن يتثبَّطوا جميعًا؛ فإنَّ ذلك مُخِلٌّ بأمرِ المعاشِ"[1]، فلا يصحُّ أن تَخْلوَ البلادُ من النّاس، وإن كان خروجُهم لغرضِ الغزوِ، وهذا النَّفيُ جاء لغرضِ النَّهي كما في الآيةِ الّتي سبقت، فهو "خبرٌ مُسْتَعْمَلٌ في النَّهي، فتأكيدُه يفيدُ تأكيدَ النَّهي، أي: كونُه نهيًا جازمًا يقتضي التَّحريمَ"[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿لِيَنفِرُواْ﴾ في سياقِ طلبِ العلمِ بالفقهِ:

النَّـفـرةُ حـثٌّ لـطـلـبِ الـعـلـمِ على كلِّ وجهٍ

في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ﴾ عبَّرَ عن السَّعي إلى التَّفقُّهِ بالنَّفيرِ، ولم يقل: (فلولا مكثت طائفة منهم ليتفقَّهوا) تشبيهًا بين المقامَيْن، فكما " كان النَّفْرُ للغَزْوِ واجبًا؛ لأنَّ في تركهِ إضاعةَ مصلحةِ الأمَّة؛ كذلك كان تركُه من طائفةٍ من المسلمين واجبًا"[3]، فمقامُ التَّفقُّهِ في الدِّين ليس أقلَّ مكانةً من مقامِ الغزوِ دفاعًا عن الدِّين ونشرًا له، وهذا يدلُّ على المنزلةِ الرَّفيعةِ للعلم في الإسلام أن جعلَ المكوثَ له بمنزلةِ النَّفيرِ للغَزْوِ، ويُلمَحُ في لفظِ النَّفرةِ الدَّعوةُ إلى السَّفرِ في طلبِ العلم، وشدِّ الرِّحال لتحصُّله، فلا يجتمع العلمُ والركونُ إلى الدَّعةِ، ودليلُ ذلك قولُه: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/112، والزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/322.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/60 - 61.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/60 - 61.

توجيهُ التَّعبيرِ بالحالِ ﴿كَآفَّةً﴾:

المنهيُّ عنه نَفْرَةُ كلِّ المؤمنين، لا بعضِهم

في قوله عزَّ ذِكرُه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ قيَّدَ النَّفيَ الدّالَّ على النَّهي بالحال ﴿كَآفَّةً﴾؛ للدَّلالة على أنَّ المنهيَّ هو الخروجُ جميعًا للغزْوِ، وإهمالُ المُكْثِ للتَّفقُّه، فالنَّفيُ يتَّجهُ للخروج في حالِ كونِهم جميعًا نافرين، فإذا نفرَ بعضُهم؛ فإنَّ النَّهيَ لا يتعلَّقُ بهم.

دلالةُ الفاءِ في ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾:

النَّفرةُ مخصوصةٌ بشرطِ التَّنويعِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ عبَّر بالفاءِ الفصيحةِ، "للإفصاحِ عن شرطٍ مقدَّرٍ، تقديرُه: إذا كان المؤمنون لا يَنْفِرون للحربِ كافَّةً، فإنَّ طائفةً تُخَصَّصُ للفقهِ؛ لينذروا قومَهم؛ إذا رجعوا"[1].

سرُّ التَّعبيرِ بأسلوبِ التَّحضيضِ بحرفِ (لولا):

التَّفقُّهُ وطلبُ العلمِ مَدْعاةُ الحثِّ، والحضِّ

عبَّر النَّظمُ الكريمُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ بأسلوبِ التَّحضيضِ لطلبِ العلم والتَّفقُّهِ في الدِّين[2]، فـ (لولا) هنا "تحضيضيَّةٌ، والمرادُ به الأمرُ؛ لأنَّ (لولا) إذا دخل على الفعلِ؛ كان بمعنى التَّحضيضِ مثل (هلّا)؛ لأنَّ (هلّا) كلمتان: (هل)، وهو استفهامٌ وعَرْضٌ؛ لأنَّك إذا قلت للرَّجُلِ: هل تأكلُ؟ فكأنَّك عرضتَ ذلك عليه، و (لا) وهو جَحْدٌ، فـ (هلّا) مركَّبٌ من أمرين: العَرْضُ، والجَحْدُ، فإذا قلت: هلّا فعلتَ كذا؟ فكأنَّك قلتَ: هل فعلتَ، ثمَّ قلت معهُ (لا)، أي: ما فعلتَ، ففيه تنبيهٌ على وجوبِ الفعل، وتنبيهٌ على أنَّهُ حصل الإخلالُ بهذا الواجبِ، وهكذا الكلامُ في (لولا)؛ لأنَّك إذا قلت: لولا دخلتَ عليَّ، ولولا أكلتَ عِنْدِي، فمعناهُ أيضًا، عرضٌ وإخبارٌ عن سرورِكَ به، لو فعلَ"[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3484.

(2) ابن جزي، التّسهيل: 1/350، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3484.

(3) ابن عادل، اللُّباب: 10/240، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/171.

سرُّ التَّعبيرِ بفرقةٍ ومن بعدِها طائفةٌ:

القـلـيـلُ من الفقهاءِ يكفي الكثيرَ من النّاسِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن تقسيمِ النّاسِ النّافرينَ إلى الغزو والنّافرين للتَّفقُّهِ، فذكرَ أنَّ مَن يَنْفِرُ للتَّفقُّهِ من كلِّ فرقةٍ من النّاسِ طائفةٌ منهم، "أي: من كلِّ جماعةٍ كثيرةٍ، جماعةٌ قليلةٌ منهم يكفونَهم النَّفيرَ"(1). فينفرُ مَن يحقِّقُ الكفايةَ في الإنذارِ؛ لأنَّ "الفرقةَ: الجماعةُ الكثيرةُ، والطّائفةَ: الجماعةُ القليلةُ"(2)، فالقليلُ يكفي الكثيرَ.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على الفاعلِ:

في الـتَّـقـديـمِ عنايةٌ بالنَّفرةِ من كلِّ فرقةٍ

في قوله تعالى: ﴿نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ﴾ قدَّم النَّظمُ الجليلُ شِبْهَ الجملةِ على الفاعلِ، ولم يقل: (نَفَرَ طائفةٌ من كلِّ فرقةٍ منهم) اهتمامًا بعموم مَن يُنفرُ منهم على مَن يَنفِر، إذ قصدَ الشّارعُ إيجابَ ذلك على العمومِ، فقدَّم القيدَ الدالَّ على العمومِ للدَّلالةِ على أهميَّتِهِ، ففي التَّقديم عنايةٌ بالنَّفرة من كلِّ فرقةٍ من فِرَقِ المؤمنين لا من فرقةٍ واحدةٍ، ليكونَ المُتفقِّهُ أقربَ إلى قومِه حين ينقلُ إليهم ما تعلَّمَهُ، فيكونُ أحظى بالقَبولِ من الغريبِ.

بلاغةُ تقييدِ النّافرين بأنَّهم من كلِّ فرقةٍ من المؤمنين:

النّـافرُ من كلِّ قـــومٍ أدعـى بالقبولِ من لدنِ قومِهِ

في قوله تعالى: ﴿نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ﴾ قيَّدَ أنَّ مَن ينفرون يجبُ أن يكونوا من كلِّ فرقةٍ، ولم يجعلْهُ عامًّا بأن يقولَ: (نفر منهم طائفة)، وهذا البيانُ من بدائعِ القرآنِ الكريمِ؛ إذ لم يوجِبْ سبحانه النَّفيرَ للتَّفقُّهِ فحسبُ، بل بناهُ على نظامِ تقسيمِ المجتمعِ، فكما أنَّ الرَّسولَ إنَّما يُرسَلُ من قومِهِ، وبلسانِهم؛ ليكونَ أدعى أن يقبلوا دعوتَهُ، فكذلك جعل مَن يتفقَّهُ أن يكونَ نافرًا من

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/528 - 529.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/122.

قومهِ؛ ليكونَ لهم نذيرًا، وقوله: ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ قيدٌ بكون الفرقةِ المعتَبرةِ أن تكونَ من المؤمنين، وليس من كلِّ فرقةٍ على العمومِ.

دلالةُ مِن في ﴿مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾:

(مِن) للابتداءِ أو لبيانِ جنس الفرقةِ

في قوله تعالى: ﴿نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ﴾ تكرَّرَ حرفُ الجرِّ (مِن) مرَّتين، ففي قوله: ﴿نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ﴾ دالَّةٌ على الابتداءِ، فالنَّفْرُ يكون بادئًا من كلِّ جماعاتِ المؤمنين وفِرَقِهم، والثّانيةِ في قوله: ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ بيانيَّةٌ، تُبيِّن جِنْسَ الفرقةِ بأنَّها كائنةٌ من جنسِ المؤمنين.

دلالةُ تنكيرِ ﴿طَآئِفَةٞ﴾:

التَّفقُّهُ في الدِّين يقعُ بالقليلِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ عبَّرَ عن الذين ينفرونَ للتَّفقُّه بكونِه طائفةً بصيغةِ التَّنكيرِ تقليلًا للنّافرين، وذلك مُؤْذِنٌ "بأنَّ النَّفَرَ للتَّفقُّهِ في الدِّين، وما يترتَّبُ عليهِ من الإنذارِ واجبٌ على الكفايةِ"(1)، كما أنَّ التَّنكيرَ يدلُّ على صلاحِ الجميعِ للتَّفقُّهِ، فليس هناك طائفةٌ معيَّنةٌ من القومِ مقصورةٌ على التَّفقُّه.

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ التَّفعُّلِ:

على طالبِ العلمِ تحمُّلُ مصاعبِهِ، والاصطبارُ على مشاقِّهِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن مُكْثِهِم لطلبِ الفقهِ بصيغةِ التَّفعُّل، للدَّلالةِ على تكلُّفِ تعلُّمِ الفقهِ وتجشُّمِ مشاقِّهِ(2)، ويشير بذلك أنَّ مسلكَ العلمِ فيهِ مقاساةُ الشِّدَّةِ أثناءَ طلبِهِ لصعوبته، وأنَّه يَحْصُلُ شيئًا فشيئًا بعد جدٍّ وجهد، فأشعرَهم بذلكَ بالتَّعبيرِ بهذهِ الصِّيغةِ(3)، "ولمّا كان مصيرُ الفقهِ سجيَّةً لا يَحْصُلُ إلّا بمزاولةِ ما يُبَلِّغُ إلى ذلكَ؛ كانت صيغةُ التَّفعُّلِ المُؤْذِنَةُ بالتَّكلُّف مُتَعَيِّنَةً لأنْ يكونَ المرادُ بها تكلُّفَ حصولِ الفقهِ، أي:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/61.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/112.
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 4/377، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/48.

الفهمَ في الدِّين، وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ فهمَ الدِّين أمرٌ دقيقُ المَسْلَكِ لا يَحْصُلُ بسهولةٍ"(1).

دلالةُ العطفِ: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ﴾:

التَّفقُّهُ هادٍ إلى الخيرِ؛ وهو المقصَدُ

عُطِفَ قولُه جلَّ شأنُه: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ على قوله تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ﴾، بيانًا لغَرضِ التَّفقُّهِ، وهو أنَّهُ يكون هاديًا للخيرِ، ففيهِ "إشارةٌ إلى أنَّه ينبغي لطالبِ العلم تحسينُ مَقْصَدِهِ بأن يقصِدَ بطلبهِ العلمَ تعليمَ غيرِهِ، واتِّعاظَهُ هو في نفسِه"(2).

دلالةُ الاقتصارِ على الإنذارِ، وتركِ البشارةِ:

التَّخْلِيَةُ تسبقُ التَّحْلِيَةَ

في قوله عزَّ ذِكرُه: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ اقتصرَ النَّظمُ الكريمُ على ذكر الإنذارِ دونَ التَّبشيرِ؛ لأنَّ الإنذارَ "أهمُّ؛ لأنَّ التَّخْلِيَةَ مقدَّمةٌ على التَّحْلِيَةِ، ولأنَّهُ ما من إرشادٍ إلى الخيرِ إلّا وهو يشتملُ على إنذارٍ من ضدِّهِ، ويدخلُ في معنى الإنذارِ تعليمُ النّاسِ ما يميِّزون بهِ بين الحقِّ والباطلِ، وبينَ الصَّوابِ والخطأِ، وذلك بأداءِ العالمِ بثَّ علومِ الدِّين للمتعلِّمين"(3)، فالإنذارُ عظيمُ الفوائدِ واسعُ العوائدِ، فاكتُفي بهِ تعويلًا على ظهورِ ضدِّهِ من لفظهِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمفعولِ بهِ مضافًا:

مُنذِرُ القومِ يجبُ أنْ يكونَ منهم

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ﴾ أضافَ القومَ إلى ضميرِ النّافرين للتَّفقُّهِ إشارةً إلى أنَّ مُنذِرَ القوم يجبُ أنْ يكونَ منهم، وكذا جَرَتْ عادةُ إرسالِ الرُّسلِ بأن يكونوا من قومِهم وبلسانِهم، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: 4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/62.
(2) الصّاوي، حاشية الصّاوي: 2/163.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/62.

دلالةُ تقييدِ الفعلِ ﴿وَلِيُنذِرُواْ﴾ بالظَّرفِ ﴿إِذَا رَجَعُوٓاْ﴾:

الإنذارُ ليس مُطلَقًا، وقُيِّدَ بحالِ الرُّجوعِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ﴾ قُيِّدَ الإنذارُ بوقتِ الرُّجوعِ إشارةً إلى وجوبِ الإنذارِ حالَ الرُّجوعِ، فلم يجعلْه إنذارًا مُطلَقًا، وفي ذلك إظهارٌ لمكانةِ التَّعليم، فإنَّه يكون عَقِبَ الرُّجوعِ، فيبادرُ مَن تفقَّهوا بإنذارِ قومِهم، ولا ينتظرون مهلةً من الزَّمانِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجارِّ والمجرورِ ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾:

الإنذارُ لا يقعُ وقتَ الرُّجوعِ مطلقًا، بل يبدأُ عند بلوغِهم منازلَ قومِهم

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾ عبَّر بشبهِ الجملةِ قيدًا لمكانِ الإنذارِ، أي: إنَّ الإنذارَ لا يقعُ وقتَ الرُّجوعِ مطلقًا، بل يبدأُ عند بلوغِهم منازلَ قومِهم، فكما أنَّه بَيَّنَ زمانَ الإنذارِ، بأنَّه كائنٌ وقتَ الرُّجوعِ؛ بَيَّنَ بقوله: ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ مكانَ الرُّجوعِ، وهو أن يبلغوا منازلَهم، ويصلوا إلى قومِهم، وهذا يدلُّ على أنَّ الإنذارَ يجبُ أن يكونَ في الزَّمانِ والمكانِ المناسِبَيْنِ وبلا تأخيرٍ، فيكونُ قولُه: ﴿إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾ قيدًا لمكانِ الإنذارِ ووقتِه ووجوبِ المبادرةِ به.

دلالةُ الختْمِ بأسلوبِ الإنشاءِ غيرِ الطَّلبيِّ:

العلمُ مُنافٍ للكِبْرِ، والتَّفاخرِ، والاستعلاءِ

ختمَ النَّظمُ الكريمُ الآيةَ الشَّريفةَ بصيغةِ التَّرجِّي الدَّالَّةِ على الإنشاءِ غيرِ الطَّلبي في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ للدَّلالةِ على التَّعليلِ، فبَيَّنَ بذلك "غايةَ العلمِ مشيرًا إلى أنَّ مَن جعلَ له غايةً غيرها من تَرَفُّعٍ أو افتخارٍ، فقد ضلَّ ضلالًا كبيرًا"[1]، والتَّرجِّي في الآيةِ ليسَ مِنَ اللّٰه تعالى بل هو من المنذِرين، فهو مُتعلِّقٌ بالإنذارِ في قوله: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾[2].

علَّةُ الاقتصارِ على الحذَرِ:

مقتضى الإنذارِ التَّحذيرُ

في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ اقتصرَ النَّظمُ على ذكرِ الحِذْرِ؛ لأنَّ التَّحذيرَ يكونُ من فِعلِ المحرَّماتِ وتركِ الواجباتِ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/48.
(2) الشّهاب، عناية القاضي: 4/377.

فاقتصرَ عليه؛ لأنَّ مقتضى الإنذارِ التَّحذيرُ[1]، فالغايةُ من الإنذارِ هي الحذَرُ؛ فلمّا صرَّح بالإنذارِ؛ أَعْقَبَهُ بما يُرادُ منهُ، وهو التَّحذيرُ الَّذي يَعُمُّ إحداثَ خللٍ بانتهاكِ المحرَّم، وإهمالِ الواجبِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملةِ ﴿يَحۡذَرُونَ﴾:

من يتفقَّهُ يعرفُ حدودَ حالِهِ خوفًا، وحذرًا، وطمعًا في رضا الله

في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ عبَّر عمّا يُرجى منهم من الإنذارِ أن يكونَ حالُهُم "حالَ أهلِ الخوفِ من اللّه بما حَصَّلوا من الفقهِ؛ لأنَّهُ أصلُ كلِّ خيرٍ، به تنْجَلي القلوبُ، فَتُقبِل على الخيرِ، وتُعرِض عن الشَّرِّ، فإنَّ الحَذَرَ تجنُّبُ الشَّيءِ لِما فيهِ من الضَّررِ"[2]، والمرادُ ليس الحَذَرَ لذاتهِ، بل ما يأتي بعدَهُ، وهو إصلاحُ الأعمالِ، فلا يكون حَذَرٌ من تَرْكِ الواجبِ وفعلِ المحرَّم إلّا بضدِّ ذلك، فدلَّ على أنَّ المرادَ أن يكونوا صالحين، أي: فيُصلحونَ أعمالَهم"[3].

دلالةُ حذفِ المفعولِ بهِ من الفعلِ ﴿يَحۡذَرُونَ﴾:

حذْفُ المفعولِ به إعمامٌ للمحذورِ منه تحوُّطًا

آثرَ النَّظمُ الكريمُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ أن يأتيَ بالحَذَرِ مطلقًا، فحذفَ المفعولَ بهِ، "للتَّعميم، أي: يحذرونَ ما يُحذَرُ، وهو فعلُ المحَرَّمات وتركُ الواجبات"[4]، فإذا تحلَّى المرءُ بالحَذَرِ؛ فإنَّهُ سَيَحْذَرُ ما بلَّغه المنذِرون، فيكونُ حَذِرًا من الإخلالِ بأيِّ شيءٍ، والعبثِ بأيِّ حُكمٍ ثَبَتَ في الشَّرعِ، وفي إعمامهِ مزيدُ تحوُّطٍ وخَشيةٍ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/62.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/48.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/529.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/62.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾ [التّوبة: 123]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

المناسبةُ بين نُهوضِ ثُلّةٍ للفقْهِ والبلاغِ، وبين مواجهةِ المُعتدِين بكلِّ حزمٍ وعزمٍ وقوّةٍ

لَمّا حضَّ تعالى على التَّفقُّهِ في الدِّين، وحرَّضَ على رِحلةِ طائفةٍ منَ المؤمنينَ فيه، أمرَ تعالى المؤمنين كافَّةً بالتَّصدّي لمن يَليهم منَ الكفّارِ، فجمعَ منَ الجهادِ جهادَ الحُجَّةِ للإقناع، وجهادَ المعركةِ للدّفاع[1]، وهذه المناسبةُ ظاهرةٌ على قولِ مَن يَقولُ في الآيةِ السّابقةِ، بأنَّها الفقهُ في الدِّين، وعلى القَوْلِ بأنَّ معنَى ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ أي: طلبُ الفقْهِ في مواضعِ المُجاهدةِ، باكتسابِ الإيمانِ وعملِ الصّالحاتِ ورُؤيةِ نصرِ اللّه تعالى، وتأْييدِه للمؤمنين في ساحاتِ الوغَى؛ فإنَّ المناسبةَ بين الآيتَين، هي بيانُ أنَّه ليس على المُؤمنين أن ينفِروا كافَّةً في سبيل اللّه تعالى، بل عليهم أن ينفِروا طوائفَ مُتناوبةً، فإذا نفروا كان عليهم قتالُ الكافرين الأقربَ فالأقربَ، وفي هذا بيانٌ لأهميّة التّصَدّي للخطرِ المُحدقِ، والانتباهِ إلى التّهديد القريبِ، من باب مُراعاة الأَوْلويّةِ، وتحصينِ الثّغورِ والأطرافِ، والامتناعِ عنِ الهجوم المُباغِتِ الّذي يَستأصلُ الشّأفةَ، ويجعلُ الدّيارَ بلاقعَ.

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿يَلُونَكُم﴾: ولي: الواوُ واللّامُ والياء: أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على قُرْب، من ذلك الوَلْيُ: القربُ، يُقال: تباعدَ بعد وَلْيٍ، أي: قُرْب، وجلسَ ممّا يَليني، أي: يُقاربُني[2]، والوَلاءُ والتَّوالي: أنْ يحصُلَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/527، والبقاعي، نظم الدُّرر: 9/49.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).

شيئانِ فصاعدًا حصولًا ليس بينَهما ما ليس منهما، ويُستعارُ ذلكَ للقُربِ من حيث المكانُ، ومن حيث النِّسبةُ، ومن حيث الدِّينُ، ومن حيثُ الصَّداقةُ والنُّصرةُ والاعْتقادُ، ويُقال: وَلِيَ الشَّيءُ الشَّيءَ، وأَوْلَيْتُ الشَّيءَ شيئًا آخر، أي: جعلتُه يَليه[1]، ومعنى قوله تعالى: ﴿يَلُونَكُم﴾ أي: منكم[2].

2) ﴿وَلۡيَجِدُواْ﴾: الواوُ والجيمُ والدّال، يدلُّ على أصلٍ واحدٍ، وهو الشَّيءُ يلْفيه[3]، ويأتي هذا الأصلُ على معانٍ، وقد فرَّقوا بينها بمصادرها، فقالوا: وَجَدَ زيدٌ، أي: صار غنيًّا، وُجدانًا وجِدَةً، وقد حُكِيَ فيه الوَجْدُ والوِجدُ والوُجدُ، ووَجَدَ الضالةَ وُجدانًا ووُجودًا، ووَجَد عليه السلطانُ، أي: غَضِب، وَجْدًا ومَوْجِدةً. ووَجَدتُ زيدًا عالمًا، أي: ظننتُه، أي: علمتُه وَجْدًا، ووَجَدَ فلانٌ بفلانةٍ وَجْدًا، أي: أحبَّها[4]، والمعنى المقصودُ في قوله تعالى: ﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾: ولْيروْا منكم مكابدةً[5]. وشِدَّةً.

3) ﴿غِلۡظَةٗۚ﴾: غَلُظَ: يَغلُظُ، وغَلَظَ: يَغلِظُ، كَكرُمَ وضَرَبَ، فهو غَليظٌ وغُلاظٌ، والغَلْظُ: الأرضُ الخَشِنَةُ[6]، والغِلْظَةُ: ضدُّ الرِّقَّة، ويُقالُ: غِلْظَةٌ وغُلْظَةٌ، وأصلُه أنْ يُستعملَ في الأجسام، كما في عِظَمِ الجِرْمِ وتجسُّمه مع صَلابة، ويلزمُه الشِّدَّةُ والقوَّةُ والحِدَّة، كغَلْظِ الأرض، والثَّوبِ الغليظ، لكن قد يُستعارُ للمعاني كالكبيرِ والكثير، كما في قولِه تعالى: ﴿عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ [لقمان: 24][7]، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾، أي: خُشونةً وشِدَّةً وصبرًا[8].

۞ المَعْنى الإجْماليّ:

أمرَ اللّه تعالى المؤمنينَ في هذه الآية أن يُقاتِلوا مَن قاتلَهم منَ الكُفّار، مَن قرُبَ دارًا، قبل مَن بعُدتْ ديارُه، وذلك لتنزيل فقهِ الأولويّات في فقهِ الحربِ، وأن يكونَ القتالُ قائمًا

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ولي).
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/222.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وجد).
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وجد).
(5) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/222، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/588.
(6) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (غلظ).
(7) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (غلظ).
(8) الواحديّ، الوسيط: 2/535، والبغويّ، معالم التَّنزيل: 4/114.

الدّعوةُ إلى مُجابهةِ حروبِ السّطْوِ والاحتلالِ، بقوّةٍ في النّزال، وتَقْوَى لذي الجلال

على فقهٍ ضامنٍ لمسيرِ العملِ، ضِمن فقهِ السُّنَنِ، والعملِ بتوجيهات الشَّرع وإرشاداتِه، وقد أرشدتِ الآيةُ أن يجدَ الكفّارُ منَ المؤمنين مُقابلَ العُدوان والغِلظة، غِلظَةً مُماثلةً في قتالِهم لهم وكما يَدين الفتَى يُدانُ وحزمًا مع من يتجاوزُ حدودَه، ويَعتَدي على الحُرمات، ويُريدُ أن يَدوسَ الكرامةَ، ويأخذَ مُقدّرات الأمّةِ بالمغالبةِ، لا بدّ من صَدِّه وردِّه مذمومًا مدحورًا، وعليه فإنَّ المؤمنَ الكاملَ هو الَّذي يكونُ رفيقًا بأخيهِ المؤمن، حازمًا مع عَدوِّه المُعتَدي، ممّا يدلّ عليه قولُه تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: 29]، وذلك لما تَجلبُه الرَّحمةُ مع الكافرِ المُعانِد، من مفاسدَ على الأمّةِ المُسلمةِ، واعْلموا أيُّها المؤمنون أنَّ اللهَ معكم إذا اتّقيتُموهُ وأَطَعتُموه[1]، فإنَّ التَّقوى هي ركنُ النَّصر وأصلُه الأصيلُ، وهي غايةُ العملِ وركنُه القويمُ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكتةُ النِّداءِ بأداةِ البعيد ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾:

تكريسُ السّياقِ لتحفيزِ أهلِ الإيمانِ، للذّبِّ عنِ الدّينِ والعِرضِ والكيانِ

جاءَ النِّداءُ للبعيدِ في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لِما للمؤمنِينَ من مكانةٍ عاليةٍ عند اللهِ، ولِما للنّهوضِ الواعي في سبيلِ اللهِ من مكانةٍ مَرْموقةٍ عند اللهِ ﷻ، وباعتبارِ هذينِ الأمرَيْنِ كانت هذه الآيةُ المُصدَّرةُ بالنِّداءِ، كالوصيَّةِ للمؤمنينَ بالاسْتمرارِ على غَزْوِ بلادِ الكفرِ، المجاورةِ لبلادِ الإسلام، لِمواجهةِ هَجَماتِهم المُتكرّرة، وتحفُّزِهمُ الدّائم لكسرِ شَوكةِ الإسلامِ، والقضاءِ المُبرمِ على الدّعوة إلى اللهِ، الّتي كان الرّسولُ ﷺ يقودُها، بكلّ حِكمةٍ وعدْلٍ وإنصافٍ، والنّداء في هذا المجال، أكثرُ الأساليبِ مُلاءَمةً لِلفتِ الانتباه، ودفْعِ الهِممِ لإدراكِ مدى أهميّةِ الاضطلاعِ بهذه المَهمّةِ الجليلةِ الّتي تُحقّقُ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/365.

مرادَ اللّه، وتَضمنُ تطبيقَ الأحكام المُنزّلةِ في القرآن، حمايةً لحمى البشرية والإنسانية والدّين.

بَلاغةُ الإبْهامِ والتَّنبيهِ: (أيُّها):

التّوطئةُ اللّفظيَّةُ لمضمونِ النِّداءِ بـعْـدَ الأداة، تنبيهٌ على أهميّةِ الخطابِ بعْدَها

استعملَ (أيّ) في قولِه تعالى: (أيُّها) وهي مبهمةٌ يُتوصَّلُ بها إلى نداء المعرفةِ، كما استُعملتِ الهاءُ فيها لتنبيهِ المنادَى، وهم الّذين آمنوا لِما سيُلْقَى إليهم من أمرٍ بالقتال؛ ليكونوا على كاملِ الاسْتعدادِ للالْتزام به وتنفيذِه، فهمُ المقصودون بالنِّداءِ، فمجيءُ (أيُّها) توطئةٌ لفظيَّةٌ لما بعدَها منَ النِّداءِ، قُصِد بها التَّنبيهُ على مضمونِ الخطابِ، وهو الأمرُ بالقتالِ المفروضِ على الأمّة، وهو في هذه الآية يُحدّدُ من يُناديهم ويُنبّههم إلى ضرورة اليَقظة، لكلّ مُريدِ حرْبٍ، أو موقدِ فتنةٍ، أو منذرٍ بخرابٍ، للتَّهيئةِ المُسبَقةِ، والمُبادرةِ العاجلةِ، والتّدخّلِ السّريعِ، لحمايةِ الدّار منَ النّار والدّمار، وذلك ما يتطلّبُه واقعُ المدافعة، بين الحقِّ والباطلِ، وبين الكفر والإيمانِ، على مدار الزّمانِ.

سِرُّ اسْتعمالِ الاسْمِ الموصولِ الجمعيِّ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

تعظيمُ شأنِ المُستحِقّين وصْفَ الإيمان، وإعلاءُ شأنِهم عند الله تعالى

قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ﴾: جاءَ اسْتعمالُ الاسْمِ الموصولِ الجمعيِّ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، في الآية الكريمة؛ للدّلالةِ على أنَّ المعنيَّ بالنِّداءِ الّذين استقرَّ الإيمانُ في قلوبِهم، وهم على استعدادٍ للتّضحيّةِ بأموالِهم وأنفسِهم في سبيل اللّه تعالى، وهذا السِّرُّ الّذي لأجْله لم يقلْ: (يا أيّها المؤمنون قاتلوا)، فإنَّ الإيمانَ هو ركنُ القتالِ، ويجبُ أن يكون إيمانُ صاحبِه راسخًا، ومعلومٌ أنّ المشاعرَ الإيمانيّةَ، تلعبُ دورًا كبيرًا في تحريك الهمم، وشحْذِ العزائم، وتحريكِ الكوامن، وإلهابِ المَشاعر، باعتبار النّهوضِ للدّفاع عنِ القيم العُليا، والمُنافحة عن كيان الأمّةِ، وحمايةِ وجودِها الحضاريِّ، من أيّ اكتساحٍ غاشم، أوِ اسْتئصالٍ ظالمٍ، فتنهضُ جموعُ المؤمنين، عند المُلمّة، وتجتمعُ

الجهودُ، لحماية الحمَى، ممّن رمى إذْ رمى، وبذلك يتحقّق النّصرُ، وتضمنُ الأمّةُ وقايتَها منَ العدوان، في كلّ عصرٍ وأوان.

وفيه التّنبيهُ إلى ضرورةِ إجابةِ الدّاعي، نظرًا لدخولِهم في عَقدِ الإيمانِ الّذي يدعوهم، ويوجِبُ عليهمُ الاسْتجابةَ، وجيء به جمعًا لبيانِ أنَّ التّعاونَ بين المؤمنين في شأنِ القتالِ واجبٌ، وأنَّه لا يجوزُ لمؤمنٍ أن يتركَ أخاه المؤمنَ في قتالِ الأعداءِ، وهو ناظرٌ إليه، والآخرُ مُنتظرٌ منه النُّصرةَ، وتظهرُ فائدةُ استعمال الاسْمِ الموصول في أمرين: الأوّل: أنَّ الخطابَ موَجَّهٌ إلى كُلِّ مَنْ تحقّق فيه وصْفُ الإيمان، فأصبح هذا الوصْفُ ملازمًا له. والثّاني: تفخيمُ شأن هؤلاء الّذين استحقّوا وصْفَ الإيمان، وإعلاءُ شأنِهم.

دَلالةُ الإتيانِ بوصْفِ (الإيمان):

إذا ضاعَ الإيمانُ، فلا تمكينَ ولا أمانَ

آثر النَّظْمُ وصْفَ الإيمانِ دونَ الإسلامِ في صدرِ هذه الآية؛ للدّلالةِ على أنَّ هذا النِّداءَ وما تضمَّنَه منَ الجهادِ في سبيلِ اللّه لا يَصلُحُ له إلّا مَنِ اتَّصفَ بهذه الصِّفةِ العظيمةِ، ولاسْتنهاضِ هِمَمِ هؤلاءِ المؤمنينَ للقيامِ بهذه الفريضةِ الرَّبّانيَّةِ، ولبيانِ أنَّ الإيمانَ هو المطلوبُ في قتالِ الكافرين، وما سوى ذلك من صفاتٍ يَستولي عليها القلبُ تجاهَ الأعداء، فإنَّ اللّه تعالى يريدُ من أوليائه القتالَ نصرةً للدِّين، لا للنَّفسِ، أوِ المال، أوِ الانتقام، بل لتكونَ كلمةُ اللّه تعالى هي العُليا، وقدِ استأصلَ الإسلامُ معانيَ الجاهليّة، وقضى على دعاوَى العَنجهيّةِ، وأذابَ العصبيّاتِ المقيتةَ، والثّاراتِ المُميتةَ، وجمعَ النّاسَ على كلمةٍ سواءَ، في بَوتقةٍ واحدةٍ، شعارُها كلمةُ التّوحيد، ودِثارُها توحيدُ الكلمة، فإذا كان الإيمانُ هو الدّافعُ للهبِّ إلى الدّفاع عنِ الدّين والوجودِ، وكان الإسلامُ هو الضّابطُ للمواجهاتِ الحربيّةِ مع المعتدين، كان المُنطلَقُ عقائديًّا، مسلكُه الشّهادةُ، ووسيلتُه التّضحيّةُ في سبيل اللّه، دونَ ظُلمٍ مُفسدٍ، ولا جورٍ مُفنّدٍ، وفي هذا المضمار

ذكرَ الإيمانَ؛ لاستيعابِه معانيَ المواجهةِ والتّضحيّةِ والعقيدةِ، ولم يذكُرِ الإسلامَ؛ لأنّه انعكاسٌ له، وتجسيدٌ عمليٌّ لفحواهُ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾:

تحقُّقُ الإيمانِ في قلوبِ المخاطَبين، مسلكٌ للقوّةِ والحصانةِ

وردَ التَّعبيرُ بالفعلِ الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾ للدّلالةِ على تحقُّقِ الإيمانِ في قلوبِهم، وتمكُّنِه من نفوسِهم وحياتِهم فأصبحوا أهلًا لمخاطبتِهم بالإيمانِ، وأَمرِهم بالجهادِ في سبيلِ اللّه، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ الإيمانَ يجبُ أن يستقرَّ في نفوسِ مَن يريدُ القتالَ في سبيلِ اللّه تعالى، فهذه فريضةٌ عظيمةٌ لا يستطيعُها إلّا الثّابتون في عقيدتِهم، الأصلابُ في إرادتِهم، الطّامعون في جنَّة النَّعيم عن بصرٍ وبصيرةٍ، وفقهٍ في الدِّين.

دَلالةُ توجيهِ الخطابِ بالأمرِ للَّذين آمنوا، دونَ ذكْرِ الرّسولِ الأكرمِ:

ردُّ عُدوانِ أعداءِ اللّه، مسؤوليَّةُ المؤمنين قاطبةً

وُجِّه الخطابُ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ للَّذين آمنوا دونَ النَّبيِّ ﷺ؛ ليكونَ عهدًا يَفي به كلُّ مؤمنٍ إلى يوم القيامة، وقد أُمِر ﷺ بجهادِهم، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣﴾ [التّوبة: 73]، وذلك أنَّ خطابَه ﷺ جاء مأمورًا بأن يُقاتلَ الكفّارَ والمنافقين، وهؤلاء هم أعداءُ الدّاخل، والأعداءُ المحيطون به ﷺ، أمّا الخطابُ في هذه الآية للمؤمنين، فهو باعتبارِ قتالِ الأعداءِ الأبعدِ، وهو وإن عبَّر عنهم بقوله: ﴿يَلُونَكُم﴾ إلّا أنَّ المرادَ أن يكونَ القتالُ مستمرًّا بحيث يصلُ الأبعدَ، لا أن يتوقَّف على الّذين يَلون المؤمنين، فهذا غيرُ مراد، وفيه إشارةٌ إلى أنّ الصّراعَ القدريَّ اللّامحدودَ، بين ثُلّة الإيمانِ، وعُصبة الكفرِ، هو صراعٌ ستشهدُه فلولُ المسلمين وأجيالُهم، عبرَ الزّمان والمكانِ، فلا يَخلو منه عصرٌ ولا مصرٌ، وقد كانتِ السّيرةُ النّبويّةُ في مرحلة التّأسيس، وتنزُّلِ الوحي، قد شهدتْ معالمَ للنّموذجِ الرّاقي للحرب النّبيلة،

والمواجهة الشّريفةِ، الّتي قادها النّبيُّ المُلهَمُ المعصومُ، والّتي رسمتِ الخُطوطَ الكبرى، وأرسَتِ القوانينَ الإنسانيّةَ السّامية، لفقْهِ الحرب، وضوابطِ القتال، وأحكام الأسْرَى، وقواعدِ النّصْر، وحيثيّاتِ الهزيمة، ممّا تزخرُ به كتبُ الفقه والتّفسير، ومصنّفاتُ العلماء في السّياسةِ الشّرعيّةِ والمقاصدِ والأصولِ. كما أنّ في مخاطبة المؤمنين دون الرّسول الأكرم ﷺ، تنبيهًا لجماعةِ المؤمنينَ على المسؤوليَّةِ المُلقاةِ على عاتقِهم، ابتداءً بعهدِ الإيمانِ الَّذي التزموهُ بقتالِ أعداءِ الإيمان، وفيه كذلك إيماءٌ إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يَغزو بعدَ ذلك، وأنَّ أجلَه الشَّريفَ ﷺ قد اقْتَرب[1].

دَلالةُ مَجيءِ فعلِ الأمرِ ﴿قَٰتِلُواْ﴾، بعدَ النِّداءِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾:

التَّهيئةُ بالنِّداءِ لفعل الأمرِ، ترسيخٌ للمطلوبِ، وتثبيتٌ للمرغوب

قولُه تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾، يغلبُ أن يأتيَ بعدَ النِّداءِ أمرٌ أو نَهي، فهو إمّا أمرٌ بخيرٍ أو نهيٌ عن شرٍّ، وهنا جاءَ الأمرُ بعدَ النِّداءِ، بقتالِ الكافرين، وهو أمرٌ جِدٌّ خطير؛ لما فيه من مصلحةٍ كبيرةٍ للأمَّة، فلا بدَّ منَ التزام القيام به، وهو إنشاءٌ بعد إنشاء، فقد نادى ابتداءً فوقعَ الانتباهُ، وتهيَّأتِ النُّفوسُ لسماعِ ما سيُلقَى، ثمَّ أتى الأمرُ ليقعَ الخطابُ في القلوبِ راسخًا مقبولًا، وهذا أقوى منَ الابتداءِ بالأمرِ مباشرةً، فالقرآن يُعلِّمنا تهْيئةَ نفوسِ المخاطَبين، لاسيَّما في الموضوعاتِ العظيمةِ.

سِرُّ اخْتيارِ الفعل ﴿قَٰتِلُواْ﴾:

القتالُ رمزٌ لمُقارَعةِ العدوِّ الصّائلِ، ودفعٌ لشرِّه المُتوقَّعِ والحاصلِ

قولُه تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾، كلمةُ الجهاد واسعةُ الدَّلالةِ، ويدخلُ فيها الجهادُ بالسَّيفِ والجهادُ بالنَّفس، واختيرَ لفظُ القتال، في قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾، دون أن يقول: (جاهدوا الذين يلونكم)؛ للنَّصِّ على أنَّ المرادَ هو القتالُ بأداةِ الحرب، وأنَّ اللّه ﷻ يُريدُ من عبادِه القتالَ المُفضي إلى إعلاءِ كلمتِه،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/63.

ولذلك قال: ﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾؛ كي لا تقبلَ الآيةُ احتمالًا لمتأوِّلٍ، وهذا القتالُ هو نوعٌ من أنواعِ الجهادِ في سبيلِ اللّه، وإنْ كانَ أكثرَ ما يُطلقُ الجهادُ عليه، هو القتالُ بالسّيف في المعارك، لكنّ مفهومَ هذا المُصطلحِ السّامي، لا يَعني التّحفّزَ للعُدوان، ولا الاعتداءَ الهمجيَّ على الإنسان، ولا استعراضَ القوّة من غير داعٍ ولا ضرورةٍ، ولكنّه صدٌّ للهجَماتِ الشّرسةِ، وإحباطٌ للمؤامراتِ الدّنسةِ، وتحصينٌ للحدود، ومنعٌ للفتن، ما ظهرَ منها وما بطنَ، وإظهارٌ لقوّة الإسلام، وهيبةِ الأمّة، في الإعدادِ والإمدادِ، والنّأيُ عنِ الظّلْمِ والعُدوان والفسادِ، ولا شكّ أنّ الحرب إذا شمّرتْ عن ساقٍ، وحميَ الوطيسُ، كان مُقتضى الحال، بحاجة إلى القتال، من أجل الدّفاعِ عنِ النّفس، والمحافظةِ على الدّين، وحمايةِ الوطن، والمُنافحةِ عنِ الهويَّة، وصوْنِ الإنِّيَّة والخُصوصيّةِ، وذلك هو مُفادُ التّعبير، في ظلّ فلسفةِ المواجهةِ، ومَقصديّةِ الجهاد الشّريفِ، والنّزال النّظيفِ، المَنوطِ بالأجرِ والمثوبةِ، والآيلِ إلى مقامات الرّضوانِ، في مرابعِ الجنانِ. وعليه فالجهادُ في سبيلِ اللّه يكونُ باليدِ وباللِّسانِ وبالقلب، والجهادُ بمفهومه الواسعِ، هو جهادُ النَّفْسِ بكَبْحِ جماحِها عنِ اتّباعِ الشّهواتِ والشُّبُهات، وكُلِّ ما يُقوِّضُ دعائمَ الإيمانِ في القلب، أو يُضعِفُها[1].

فائِدةُ استعمالِ الاسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾، وفيه جاءَ استْعمالُ الاسْم الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في الآية الكريمة؛ لتأكيدِ هذه الصِّفة وتحقُّقِها في قتالِ الكفّار، فيجبُ أنْ تكونَ صفتُهم أنّهم ممَّن يَلي المسلمين، الأَقْربَ فالأَقربَ لديارِ المسلمين، فكلّما استْقرَّ بلدٌ للإسلام، وكان تجاورُه بلادُ كُفرٍ، كانَ حقًّا على المسلمينَ غزوُ البلادِ

كلّما قرُبَ الكافرُ المحاربُ منَ الدّيارِ، كان صَدُّه يَقتضي اليقظةَ والبِدارَ

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/59.

المُجاوِرةِ، ولذلك ابْتدأ الخلفاءُ بفتحِ الشّام، ثمَّ العراقِ، ثمَّ فارسَ، ثمَّ انثنَوا إلى مصرَ، ثمَّ إلى إفريقيا، ثمَّ الأنْدَلُس(1)، فنُكتةُ الاسم الموصولِ، تأكيدُ أنَّهم همُ الّذين يَلون المؤمنين منَ الكفّار، وأنَّهم يَقِفون في وجه دَعوةِ الحقِّ ﷻ.

دَلالةُ اسْتعمالِ ﴿يَلُونَكُم﴾ دون مُرادِفاتِها:

قُــرْبُ الـكـفّـارِ المباشرُ المتّصلُ خـطـرٌ قـريـبٌ، وتهديدٌ مُريبٌ

كلمةُ ﴿يَلُونَكُم﴾ تعني الأَدْنَى فالأَدْنَى، أو الأَقربَ فالأقرب، فقد أمرَ الله تعالى المؤمنين أن يُقاتلَ كلُّ فريقٍ منهم الجنسَ الّذي يُصاقِبُه منَ الكَفرَة، وأمّا إذا مالَ العدوُّ إلى صُقعٍ من أصقاعِ المسلمينَ، فوجبَ على منِ اتَّصلَ به منَ المسلمينَ، كفايةُ عدوِّ ذلك الصُّقع، وإن بعُدَتِ الدّارُ، ونَأَتِ البلادُ فـ﴿يَلُونَكُم﴾ تدلُّ على القُربِ المكانيِّ الحقيقيِّ فحَسْب، ممّا لا يُسعِفُ به الفعلُ (يقربونَكم) أو غيرُه منَ المرادفات، فقد يكونُ الشَّيءُ قريبًا ولكنَّ قُربَه غيرُ لَصيقٍ؛ وقد يكونُ قربًا معنويًّا أو مجازيًّا(2)، فاختيارُ هذا اللَّفظِ لبيانِ أنَّ القُربَ المقصودَ هو قربٌ شديدٌ متّصلٌ بما بعدَه، ولهذا أُتي بمُفردةِ الوَلْي، أي: يلونكم وَلْيًا متَّصلًا لا انقطاعَ له، ويُؤخذُ منه أنَّ قتالَ الكافرين لا يتوقّفُ عند حدٍّ، بل هو مستمرٌّ ما دام الإيمانُ والكفرُ موجودَيْن، ولا يُفهمُ منه أنَّ القتالَ يكونُ للكافرين القريبين فحسب؛ ذلك أنّ الاعتداءَ على ديارِ المسلمين والكيدَ لهم، والتّآمرَ عليهم، قد يكونُ من الموالي للدّيار، وقد يكونُ منَ النّائي البعيدِ عنها، فالغايةُ صدُّ الخطرِ مهما كان، ومن أيّ جهةٍ استبانَ، بغضِّ النّظرِ عن البُعدِ والقُربِ، ولكنّه ذكرَ ﴿ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾، باعتبارِ أنَّ خطرَهم أقربُ، وأنّ تآمرَهم أظهرُ، وقد يُؤتمنُ القريبُ المُحاذي، وقد قيل في الأمثال: (مِن مأمنِه يُؤتَى الحَذِرُ).

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/527، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/63.

(2) الرّاغب، المفردات: (ولي)، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/97، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/618.

نُكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ: ﴿يَلُونَكُم﴾:

بيـانُ استـمرارِ الـصّـراعِ بين الحقّ والباطلِ، وبُروزِ الخطرِ من الأَدْنَى فالأَدْنَى

الفعلُ المضارعُ يُفيدُ التَّجدُّدَ والاسْتمرارَ، وفي قولِه تعالى: ﴿يَلُونَكُم﴾ تعبيرٌ عن هذا الاسْتمرار، وهذا هو الواجبُ في قتالِ الكافرينَ: أنْ يكونَ مُستمرًّا دون توقُّفٍ مع مَنْ يَلونَ المؤمنينَ في قُربهم فيحرِصُ المؤمنونَ على قتالِ الأَقْربِ لهم منَ الكفّارِ فالأَقْربِ، فيقاتلُ المسلمونَ مَنْ يُجاورونَهم في المكانِ لضمانِ اسْتمراريَّةِ نشْرِ الرِّسالةِ الإسلاميَّةِ ممَّن يَلي ديارَ الإسلام أوَّلًا بأوَّلٍ، ودَفْعِ غائلةِ اعْتداءِ الكفّارِ على تلكَ الدِّيار.

دَلالةُ الحرفِ ﴿مِّنَ﴾:

يُـراعَـى مع المحاربين، التزامُ أو عـدمُ الـتزامِ الـكـفّارِ بحُسنِ الجوارِ

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾، وفيه أنّ معنى ﴿مِّنَ﴾، في سياق الآية الكريمة، بيانيَّةٌ حاليَّةٌ، أي: حالَ كونِ الَّذين يَلونَكم كافرين[1].

سِرُّ إيْثارِ صيغةِ الجمعِ: ﴿ٱلۡكُفَّارِ﴾:

يغلبُ استعمالُ (الـكـفّـار) في سِياقِ القتالِ، واسـتـعـمـالُ (الكافرين) فيه وفي غيرِه

آثرَتِ الآيةُ اختيارَ صيغة ﴿ٱلۡكُفَّارِ﴾ بدلًا من (الكافرين)؛ لأنَّ المرادَ في السِّياق هو ذواتُ الكافرين، فالكُفّارُ جمعُ تكسيرٍ، والكافرون جمعُ مذكّرٍ سالمٌ، فالثّاني خاصٌّ بجمعِ الصِّفاتِ المتعلِّقةِ بالمذكَّرِ السّالم، وفي الغالبِ يُرادُ به الحَدَثُ، وجمعُ التَّكسير يُرادُ به الذَّواتُ، ولذلكَ كانَ الكُفّارُ بذواتِهم مُعجبينَ بالدُّنيا راكنين إليها، حيث ستروا حقَّ الله عليهم واستهانوا به، ولذلك كانت صيغةُ ﴿ٱلۡكُفَّارِ﴾ صيغةَ مبالغة، لأشخاصٍ اتَّصفوا بهذه الصِّفاتِ ومَرَدوا عليها، وليس الأمرُ بالقتال، تدخّلًا في خصوصيّاتِهم العقديّة، ولكنّه مراعاةٌ لواقعِ الصّراعِ السُّننيّ الكَونيِّ، مع الكفر، الّذي لا يهنأُ له بالٌ، حتّى يأتيَ على بُنيان الإسلام منَ القواعد، فلا غرْوَ أن

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/196.

ندافعَ عن حقّنا في الوجود والأمانِ، والتّعايُشِ مع غيرنا في احترام وسلامٍ، فإن آثروا غيرَ ذلك، دِنّاهم كما دانوا. وعليه فلفظُ الكُفّارِ يُستعمَلُ لذواتِ المقاتلينَ المُبايعينَ في الكفرِ، على صيغةِ (فُعّال)، والكافرون صفةٌ أقربُ للفعليَّة والحَدَث، والكفّارُ صيغةُ مبالغةٍ تدلُّ على كثرةِ القيامِ بالكفر، وتدلُّ على الذَّواتِ الَّذين هم يقاتلون، فهؤلاء جعلوا الكفرَ مِهنةً لمحاربةِ المسلمين[1].

دَلالةُ التَّقْييدِ في المكان، بقتالِ ذَوي الخطرِ المُحدِق:

البَداءةُ بقتالِ القَريبين من المُحاربين قبْلَ البَعيدين، مُراعاةً للمصلحةِ الشَّرعيَّةِ

في قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾، تَقْييدُ قتالِ الكفّارِ الَّذين يَلونَ المؤمنينَ في المكان، أي: الكفّارُ الأَقْربُ في مجاورتِهم لبلادِ الإسلام، ذلك أنّ الخطرَ بإشعال الحروب وإدارتِها، تجعلُ الدّارَ قاعًا صفْصفًا، وتَسحقُ معالمَ الحياة، فلا تُبْقي فيها ولا تَذرُ، فالبدءُ بالأقرب، وقايةٌ من هَجَماتِ الأبْعدِ وشراستِه، والمرادُ هنا أنْ لا يتجاوزَ المؤمنون في قتالِهم لبلادِ الكفرِ الأبعدَ، ويتركُوا الأَقْربَ؛ لأنَّهم عند ذلكَ لا يأمنونَ غائلةَ القريبينَ منَ الكفّارِ في تسلُّطِهم على ديارِ المؤمنين، ففي قتالِ الأَبْعدِ تعريضٌ لتدارُكِ المسلمين إلى الفتنةِ، فإنْ كانوا ضعفاءَ كانَ الاسْتيلاءُ عليهم أسهلَ، وإن كانوا أقوياءَ كانَ تعرُّضُهم لدارِ الإسلام أشدَّ، ولأنَّ المعرفةَ بمن يَلي آكدُ منها بمن بَعُدَ، للوقوفِ على كيفيَّةِ أحوالِهم وعَدَدِهم وعُدَدِهم، فترجَّحتِ البَداءةُ بقولِه تعالى: ﴿يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾، بقتالِ من يَلي على قتالِ من بَعُدَ[2]، ويتأكَّدُ ذلك ويَقوَى في قتالِ الّذين اعتدَوا على ديارِ الإسلام، واستباحوا بيْضتَهم، فقتالُهم أوجبُ، وإخراجُهم آكدُ، والتّقصيرُ في ذلك، دليلُ ضعفِ الإيمانِ، وهشاشةِ روحِ الجهادِ، وخَوَرِ العزيمة، وذهابِ الهِمَّة.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (كفر).

(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/221 - 222، وأبو حيّان، البحر المحيط: 527 - 528.

الجمعُ بين كيفيَّةِ التّصدّي للعدوّ، ووجوبِه على المؤمنين الملْزَمين بذلك

دَلالةُ اسْتعمال حرفِ الواوِ العاطفةِ ﴿وَلۡيَجِدُواْ﴾:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلۡيَجِدُواْ﴾ عاطفةٌ لجُملتِها الآمرةِ بالغِلظةِ على الكفّارِ، على الأمرِ السّابق في قولِه تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التّوبة: 73](1)، وهي تأكيدٌ لوجوبِ قتالِ الكُفّارِ، بالخشونةِ والبأسِ الشَّديد، فهي عطفُ إنشاءٍ على إنشاءٍ، دلَّ الأوَّلُ على جوهرِ الأمر بقتال الكفّار، ودلَّ الآخرُ على كيفيَّة القتالِ، فهي من عطفِ الكيفيَّة على أصلِ العملِ، فالقتالُ بهذه الكيفيَّة واجبٌ، لا مناصَ منه، وأخْذُ الأمرِ بالجِديّة القُصوى، والقوّةِ الضّاربةِ، والبأس الشّديدِ، من مُتطلّبات الحرب الضّروسِ، فلا يصمدُ فيها إلّا من كان ذا قوّةٍ وذا بأسٍ شديد، يُقارعُ الأقرانَ، ويغالبُ الزّمانَ، ويخوضُ غِمارَ الموتِ، ويَقتحِمُ الغيبَ بلا فوتٍ، ويدفعُ كلَّ ظلْمٍ مُريع، ويَزيحُ كلَّ باطلٍ فظيع.

تقويةُ المعنَى والمُبالغةُ في تحقيقِ الغِلْظةِ على من يَستحقُّها

سِرُّ إيثارِ صيغةِ الأمرِ باللّامِ والفعلِ المضارعِ ﴿وَلۡيَجِدُواْ﴾:

آثَرَ النَّظْمُ الكريم استعمالَ صيغةِ الأمرِ باللّام، والفعلِ المضارعِ، في قولِه تعالى: ﴿وَلۡيَجِدُواْ﴾، دونَ أنْ تكونَ على شاكلةِ ما عُطفتْ عليه في قولِه تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ﴾ فلم يقل: (واغلِظوا عليهم)، وذلك لأمرين: أحدُهما: لِما في ذلك من زيادةِ المعنى، فالقاعدةُ الأغلبيَّةُ، أنَّ زيادةَ المبنى تدُلُّ على زيادةِ المعنى، حيث قالَ تعالى: ﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾ ولم يختصرْ فيقول: واغلِظوا عليهم؛ ليجمعَ إلى الأمرِ بالغلظِة، أن تكون فيهم حاضرةً، في جميع ساحات القتالِ، لا مجرَّدَ فعْلٍ عابرٍ.

الآخرُ: أنَّ إيرادَ الأمرِ على هذه الصّورةِ الواردةِ في قولِه تعالى:

---

(1) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 3/97، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/173.

﴿وَلۡيَجِدُواْ﴾ لِحَملِ المؤمنين على المبالغةِ في تحقيقِه حتَّى يذوقَ الكفّارُ تلكَ الغِلْظَةَ وشدَّتَها على ذواتِهم، وتكونَ درسًا لغيرِهم ممّا يَليهم فيكفّوا عن إيذاءِ المؤمنينَ والتَّسلُّطِ على ديارِهم[1].

بَلاغةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿وَلۡيَجِدُواْ﴾:

مقابَلةُ غِلْظةِ الكافرينَ بغلظةٍ أشدَّ، إذْ لا يَفُلُّ الحديدَ إلّا الحديدُ

لَمّا كانَ الآمرُ في قولِه تعالى: ﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾، هو اللّه ﷻ دلَّ على أنَّه سبحانه وتعالى هو العليمُ بما عليه حالُ الكفّارِ الَّذين يَلونَ المؤمنينَ، من قوَّةِ شَكيمتِهم وتربُّصِهم بالمؤمنين، وانتهازِ الفُرصةِ تِلْوَ الفُرصةِ، لينقضّوا عليهم و يَبيدوهم ويَستولوا على أرضِهم، فأرادَ اللّه ﷻ أن يُنبِّهَ المؤمنينَ لضرورةِ الاسْتعدادِ لقتالِ أولئك الّذين علمَ اللّه حالَهم ذاك، فأمرَهُم بالغِلْظةِ في قتالِهم وإحكام قَبْضتِهم عليهم، فهو أَهْيبُ في صدورِهم، وأَكَفُّ عن فُجورِهم، وأَوْفَى في هلاكِهم، وذلك الوِجْدانُ لا يتحقَّقُ إلّا إذا كانتِ الشّدّةُ، بحيث تظهرُ وتنالُ العدوَّ فيَحُسُّ بها[2].

سِرّ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿فِيكُمۡ﴾، على قوله: ﴿غِلۡظَةٗۚ﴾:

الغِلْظةُ حمايةٌ للمؤمنين مِنَ الاعتداءِ والتّسلُّطِ على ديارِهم

مُقتضى ظاهرِ تركيبِ الجُملةِ: (ولْيجدوا غلظةً فيكم)، لكنَّ النَّظمَ القرآنيَّ جاءَ بتقديمِ الجارِّ والمجرورِ فقالَ تعالى: ﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾، حيث قدَّمَ ما حقُّه التَّأخيرُ، ونكتةُ التَّقديمِ المبالغةُ في الأمرِ بالشِّدَّة، ولتنبيهِ المؤمنينَ بضرورةِ تحقُّقِ نفوسِهم بهذه الغِلظةِ، وتَشرُّبِ قلوبِهم بها، لا تطلُّبًا للعُدوان، ولا جَوْرًا على بني الإنسان، ولكنّها دفاعٌ عنِ الكيانِ، وحمايةٌ للأوطانِ، ومقابلةٌ لما يَبدرُ مِنَ الأعداءِ، بقوّةٍ رادعةٍ شديدةِ المِراس، تكفُّهم عنِ الجَراءةِ على الحِمى، وتمنعُ أيديَهم عنِ العبثِ والأذَى، وعليه فإنَّها الأَجْدَرُ لمقارعةِ

---

(1) عبد القادر شيبة الحَمَد، تفسير آيات الأحكام، ص: 142.

(2) البقاعيّ، نظمُ الدُّرر: 9/49 - 50.

غِلظتِهم بغِلظةٍ أشدَّ منها، مُهلكةٍ لها، ومُنْفِذَةٍ لأمرِ اللّه فيهم[1]؛ فإنَّ من لم يغلُظ على أعداءِ اللّه تعالى، غَلُظوا هم عليه، وأراقوا دمَه، واستباحوا حُرمةَ أرضِه وعِرضِه، فالغِلظةُ مكانُها ساحاتُ القتال، لا الدَّعوةِ، وفي دار الحربِ، لا الأمانِ، ومع الكافرين لا المؤمنين.

بَلاغةُ الاسْتعارةِ التَّصريحيَّة، في لفظِ ﴿غِلۡظَةٗۚ﴾:

المناسبةُ بين اللّفظِ والسِّياقِ، مَرعيَّةٌ في إبرازِ الدّلالاتِ والمعاني

لفظُ الغِلظة مُستعارٌ للمعاملةِ الضّارَّة، على سبيلِ الاسْتعارة التَّصريحيَّة والأصليَّةِ، ورَشَّحَ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلۡيَجِدُواْ﴾ ليَشعرَ بها الكفّارُ أثَرًا معقولًا في نفوسِهم، ويجدوا أثرَها كذلكَ في ذواتِهم، ويتحقَّقَ المقصودُ منَ الأمرِ بها، وذلكَ يجمعُ الجُرأةَ والصَّبرَ على القتالِ والعُنفَ في القَتْلِ والأسْر، فالقتلُ إزهاقٌ للنَّفْس، والأَسْرُ إذْلالٌ لها[2]، والاستعارةُ أبلغُ منَ الحقيقةِ، إذ في هذا اللَّفظِ منَ التَّصريحِ بالمطلوبِ ما لا يُؤدِّيه لفظُ الحقيقةِ، مع مُناسبتِه لسياقِ الأمرِ بالقتالِ، وفي اختيارِ هذا اللَّفظِ ردٌّ على المُنهزمين، وتقويةٌ للضُّعفاءِ، وتشجيعٌ للجُبناءِ، فغلظةُ المؤمنين في القتالِ، هيبةٌ للأمَّة، وقوَّةٌ للمؤمنين، فهم وإن كانوا في الدَّعوةِ حكماءَ، لكنَّهم في القتالِ أشدّاءُ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿غِلۡظَةٗۚ﴾:

الغِلظةُ جُرأةٌ وشدَّةٌ وخُشونةٌ في البدنِ، والقسوةُ صلابةٌ وتحجُّرٌ وشدّةٌ في القلبِ

جاءَ التَّعبيرُ بلفظِ ﴿غِلۡظَةٗۚ﴾ دونَ غيرِه منَ المتقارباتِ والمترادفات؛ لأنَّ القصدَ منه إلقاءُ الرُّعبِ في قلوبِ الأعداءِ، حتَّى يَخشَوْا عاقبةَ التَّصدّي لقتالِ المسلمين، والمسلمُ ليس من طبعِه القسوةُ، بل هو يُعايشُ النّاسَ، حتّى وإنِ اختلفوا معه، بلينِ القول، وحسن المعاملة، ما كان الاحترامُ قائمًا، والسّلمُ موفورًا، فإذا قلبوا له ظهرَ المِجنّ، وأرادوا أن يَدوسوا كرامتَه، أو يحطِموا منظومةَ قِيَمِه، أو يَحتلّوا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/63.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/222، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/50، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/63.

أرضَه، أو يُلطّخوا عِرضَه، كشّرَ عن أنياب العزم، وأبان منَ القوّة ما يمنعُ شانِئيه، من ذلك الفعلِ السّفيه، ولذلك فلفظُ الغلظة هنا، يجمعُ الجراءةَ والصَّبرَ على القتالِ، وشدَّةَ البأس، ومرارةَ التّصدّي بالحزم، وإذاقةَ الغِلظة للعدوِّ حتّى يَحُسَّ بها[1]، فالغِلْظَةُ بكسرِ الغَيْن: الشِّدَّةُ الحسِّيَّةُ والخُشونةُ، والمقصودُ بالقتالِ هو الشِّدَّةُ، كما قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: 29]، إذِ المطلوبُ أن يرى الكفّارُ منَ المؤمنين شدَّةً، من شأنِها الإعانةُ على الانتصار، ولا معنى للقسْوةِ هنا، إذ يغلبُ عليها أن تُستعمل في قسْوة القلبِ.

معنَى العطفِ بالواو، في جملةِ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

الأمـرُ بالتَّقوى سِياجُ القتالِ الغليظِ، وفيه ربطٌ للفعل بمقصدِه

العطفُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، مُترتِّبٌ على ما سبقَه، أي: قتالُ الكُفّارِ والغِلظةُ عليهم كلاهما من بابِ التَّقوى والشَّهادةِ، بكوْنِهم من زُمرةِ المتَّقين[2]، فهذا هو الأمرُ الثّالثُ في الآية، فالأوَّل أمرٌ بقتالِ الكفّارِ، والثّاني أمرٌ بالإغلاظ عليهم، والثّالث أمرٌ بعلمِ أنَّ اللّه مع المتّقين، والأمرُ بالتَّقوى هو سياجُ القتالِ بالغِلظة، فمنِ اتَّقى اللّه استجابَ له في الرَّحمةِ والشّدَّةِ، والغِلظةِ والرِّقةِ، ومن وضعَ أحدَ المعنَيَين في مكانِ الآخر، فقد ظلم وجهِلَ المطلوبَ، وخرج عن تحقيق المقصودِ، والتّقوى خَشيةُ اللّه حيثما كان المُتّقي، وهي مَلمَحٌ يُستَصحبُ في السِّلم والحرب، والمَنشَطِ والمَكرَه، ومع الصّديق والعدوِّ، والبعيد والقريبِ، وهي أن يلبَسَ لكلّ حالةٍ لَبوسَها، وأن يُراعيَ أحكامَ اللّه في نَعماء الحياةِ وبُؤسِها، وهي سببٌ للنّصر المبينِ، ووقايةٌ منَ المصير المهينِ، وامتثالٌ لأمر اللّه الّذي يعلمُ ما يَصلحُ للإنسان، وما يكونُ به الأمانُ والاطمئنانُ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/50، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/63.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/618.

نُكتةُ تصديرِ الجملةِ بفعل الأمرِ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

الاهتمامُ بإيجاب اسْتحضار المؤمنين، نصرَ الله وتَمكينَه

غرَضُ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ وجوبُ معرفةِ أنَّ الله ناصرُ المتَّقين، فهو وعدٌ بالنَّصرِ والتَّمكينِ لجماعةِ المؤمنين، وفي ذلك تأييدٌ وتشجيعٌ ربانيٌّ للقيام بالأمرَيْن السّابقَيْن: قتالِ الكفّارِ والغِلْظةِ عليهم[1]، وقد صُدِّرتِ الجملةُ الكريمةُ بقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾، للاهْتمام بما يُرادُ العلمُ به، كما في قولِه تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ [الأنفال: 41][2].

نُكتةُ التَّوكيدِ بجُملةِ مؤكِّداتٍ، في ثنايا السّياق الحكيم:

تقْوَى الله تعالى باتّباع أمرِه، دافعٌ لقتالِ الكفّارِ، والغِلْظةِ عليهم

صُدِّرَت الجملةُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، بالأمرِ بقولِه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ الَّذي يُفيدُ اليقينَ مع مصاحبةِ ﴿أَنَّ﴾، الَّتي تفيدُ التَّوكيدَ، واسْم العلم لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾، والمَعيَّةِ الرَّبّانيَّةِ للفظِ ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ المعرَّفةِ بـ (أل)، وجميعُها مؤكِّداتٌ لتحقيقِ الوعدِ بمعيَّةِ اللّه الَّتي تفيدُ التَّأييدَ؛ بلِ المُبالغةَ في التَّأييدِ والوعدِ بالنَّصرِ والتَّمكينِ، وفي ذلك تنبيهٌ على أن يكونَ الحاملُ على القتالِ، ووجودِ الغِلظةِ، إنَّما هو تَقْوى اللّه ﷻ، لا يَقصِدُ بقتالِه الكفّارَ والغِلظةِ عليهم، الغنيمةَ ولا الفخرَ ولا إظهارَ البَسالةِ[3].

سر الختمِ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾:

المُعاملةُ المُستحقّةُ، للصّديقِ الودودِ، والعدوِّ اللّدودِ

قولُه تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، آثرَ النَّظمُ الكريمُ فيه، ذكْرَ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ لزرعِ المهابةِ والجلالةِ في نفوسِ المؤمنينَ، والمسارعةِ في تنفيذِ الأمرَيْنِ اللَّذينِ وردا في السِّياقِ خاصَّةً من قتالِ الكفّارِ والغِلظَةِ عليهم وجميعِ أوامرِ اللّه ﷻ، مع ما يُشعرُه ذكْرُ هذا اللَّفظِ الجليلِ في هذا السِّياقِ من تطمينِ قلوبِ المؤمنين وتثبيتِها خاصَّةً في مواقفِ القتالِ في سبيلِ اللّه، وتحفيزِ أصحابِها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/63.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/64.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/528.

لالْتزام التَّقْوى حتَّى تكلأهم مَعيَّةُ اللّه تعالى، وتُسبَلَ عليهم سكينتُه وحمايتُه، وفي ذلكَ كذلكَ تَنْصيصٌ على أنَّ الإيمانَ باللّه تعالى والقتالَ على الوجهِ المذكورِ من بابِ تقْوى اللّه والشَّهادةِ بكونِهم من زُمرةِ المتَّقين(1).

مَعيَّةُ اللّه للمتَّقين، نصرٌ متينٌ، وفتحٌ مبينٌ

بلاغةُ الكنايةِ، في ذكْرِ المعيَّةِ ﴿مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، اكْتفَتِ الجملةُ بذكرِ المعيَّة، دونَ التَّصريحِ بمُقتضياتِها، منَ النَّصرِ والتَّمكينِ في هذه الآيةِ الكريمةِ؛ لأنَّ معيَّةَ اللّه لا تعني مجرَّدَ النَّصرِ في قتالِ الكفّار؛ بل تعني ولايةَ اللّه الدّائمةَ، والتَّأييدَ المطلَقَ للمتَّقينَ، في جميعِ شؤونِ حياتِهم، ما أقاموا شرْعَ اللّه في نفوسِهم ودَعَوْا به غيرَهم؛ لتتحقَّقَ خلافةُ اللّه في أرضِه، بقولِه تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ [البقرة: 30] وقولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذّاريات: 56]، وكأنَّ الجملةَ تَنهى المؤمنين أن يخافوا أنْ يُؤدِّيَ شيءٌ من مُصاحبةِ مَعيَّةِ اللّه إلى وَهْنٍ؛ بل هي قوَّةٌ تَسنُدُ المؤمنين، ورحمةٌ تُظللهم، فإنَّ العِبرَةَ بمن كانَ اللّه معه(2)، فهي كنايةٌ عن نصرِ اللّه تعالى؛ لأنَّ من كان اللّه معه كان منصورًا، فشرطُ النَّصرِ التَّقوَى، والاستجابةُ لأمرِ اللّه بقتالِ الكفّار، والإغلاظِ عليهم.

المعيَّةُ الإلهيَّةُ تمدُّ المتَّقينَ، بالنَّصرِ والتَّمكينِ، في كلِّ حينٍ

بَلاغةُ الالْتفاتِ منَ الخطابِ إلى الغَيْبةِ في الآيةِ الكريمةِ:

قولُه تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، التفتتِ الجملةُ منَ الخطابِ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾، إلى الغيبة، ﴿مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، فلم يقلْ: (واعْلَموا أنَّ اللّه معكم)؛ بل أُدخِلَ في المتَّقين المخاطَبون، ولذلك وضعَ الظّاهرَ مَوْضعَ المُضمَرِ، للتَّنصيصِ على أنَّ الإيمانَ والقتالَ على الوجهِ المأمورِ به، من بابِ التَّقوى والشَّهادةِ بكوْنِهم من زُمرةِ المتَّقين،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/618.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/50، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/618.

وإمّا أنَّ المرادَ الجنسُ، وهم داخلونَ فيه دخولًا أوَّليًّا، وهم في كلا الحالَيْن، إنْ تحققَّوا بالتَّقوى، تحقَّقَ نصرُ اللّه لهم، وصاحبَهم ولم يتخلَّفْ عنهم[1]، ونكتةُ الالتفاتِ تكمنُ في كونِ المتَّقين زمرةَ خيرٍ، فإن أراد المخاطَبون أن يدخلوها، تحقَّق لهم النَّصرُ بالمعيَّة، وإن أبَوا فشأنُ المُتأبِّين عنِ التَّقوى الظَّفرُ بالهزيمةِ، ولو قال: (واعْلَموا أنَّ اللّه معكم)؛ لتضمَّنَ ذلك أنَّهم متَّقون، ولَفُهِم أنَّ المعيَّةَ لهم دونَ غيرِهم، وهو خلافُ المقصودِ؛ إذِ المرادُ بيانُ أنَّ اللّه مع عمومِ المتَّقين، في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

سِرُّ اخْتيارِ وصْفِ التَّقوى:

التَّقوى علَّةُ التَّوكُّلِ، وسبيلُ الخيرِ المُعجَّلِ والمُؤجَّلِ

قولُه تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، آثرَ فيه النَّظمُ اختيارَ وصْفِ التَّقوى دون التَّوكُّل؛ لأنَّ التَّقوى تكونُ بالتزامِ أوامرِ اللّه، ومنها: قتالُ الكفّارِ والغِلظةُ عليهم، ثمَّ بعدَ اسْتكمالِ هذه التَّقوى يأتي التَّوكُّلُ على اللّه، فلا توكُّلَ على اللّه حقًّا وصدقًا، لمَنْ لم يتَّقِ اللّه حقَّ التَّقوى، فالتَّقوى علَّةُ التَّوكُّلِ، فكلُّ تقيٍّ متوكِّلٌ.

الفروقُ المُعْجَميَّةُ:

القتالُ والجهادُ:

القتالُ المحاربةُ وتحرِّي القتلِ، بفعلِ المُتولِّي لذلك، فهو أخصُّ منَ الجهاد

القتْلُ: إزالةُ الرّوحِ عنِ الجسدِ كالموت، لكنْ إذا اعْتُبِرَ بفعلِ المُتولِّي لذلك، يُقالُ: قَتْلٌ، وإذا اعْتُبِرَ بفوْتِ الحياة، يُقالُ: مَوْتٌ، قالَ تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ﴾ [آل عمران: 144]، والمقاتلةُ: المحاربةُ وتحرِّي القَتلِ، قالَ تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٌ﴾ [البقرة: 193][2].

وأمّا الجهادُ: فهو اسْتفراغُ الوُسْعِ في مدافعةِ العَدوِّ، وهو ما كانَ الغَرَضُ فيه المحاربةَ لقهرِ العدوِّ، وإنِ اسْتلزمَ ذلك تحصيلَ الغنائمِ والفوائد. والجهادُ ثلاثةُ أَضْرُبٍ: مجاهدةُ العدوِّ الظّاهر،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/618.
(2) الرّاغب، المفردات: (قتل).

ومجاهدةُ الشَّيطانِ، ومجاهدةُ النَّفْسِ، وتدخُلُ ثلاثتُها في قولِه تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ [الحجّ: 78][1].

الوَلْيُ والقُرْبُ:

الــوَلْيُ التَّـوالي المُـبـاشـرُ دونَ قـطـعٍ، والقُـربُ تـقـاربٌ حِـسـيٌّ، مـع احـتـمـالِ وجودِ قاطعٍ

الوَلاءُ والتَّوالي: أنْ يحصُل شيئان فصاعدًا، حصولًا ليس بينهما ما ليس منهما، ويُستعارُ للقُربِ من حيثُ المكانُ وغيرُه كالنِّسبة، والدِّينِ، والنُّصرة، والصَّداقة، وهو في الأصلِ من وَلِيَ الشَّيءُ الشَّيءَ، وأوليْتُ الشَّيءَ شيئًا آخر، أي: جعلتُه يَليه[2].

والقُرْبُ عامٌّ في المسافةِ بين شَيئَيْن، أي: في المكانِ وفي غيرِه، يقولُ: قلوبُنا تتقاربُ، وهو قريبٌ بقلبِه فهو أمرٌ معنويٌّ لا حسِّيٌّ، وأكثرُ ما يُستعمَلُ في المكان، ولذلك يقالُ في الأصل: القُربُ في المكان[3]، وقد يكونُ بين متقاربين قاطعٌ حسِّيٌّ.

الغِلظةُ والقَسْوةُ:

الغِلظةُ الشّدَّةُ، وتُـسـتـعـمَـلُ لـلأجـسـام والمـعـاني، والقسوةُ جفافُ القلبِ من ماءِ الإيمان

الغِلظةُ: ضدُّ الرِّقَّة، وتُستعمَلُ في الأجسام، وتُستعارُ للمعاني، يُقالُ: غَلُظَ الشَّيءُ غِلَظًا، صارَ غَليظًا، وكذا استَغْلَظَ، ورَجُلٌ فيه غِلْظَةٌ بكسرِ الغَيْن وضمِّها وفتحِها وغِلاظةٌ بالكسرِ، أي: فَظاظَة[4]، ويقال: "أغلظ له في القول، وغلّظَ عليه الشّيَّ تغليظًا، ومنه الدّيةُ المُغلّظةُ: التّي تجبُ في شبْهِ العمدِ، واليمينُ المغلّظةُ"[5]، ورجلٌ غليظٌ: ذو غِلظةٍ وقساوةٍ وشدّةٍ، وفي التّنزيل: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: 159][6]. والقَسْوةُ: تُستعمَلُ فيما لا يَقبلُ العِلاجَ، ولهذا يوصَفُ بها القلبُ، وإن لم يكنْ صُلبًا، وقَسا قلبُه: غَلُظَ

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 385، والرّاغب، المفردات: (جهد).
(2) الرّاغب، الفروق اللغوية، ص: 886 - 887، وابن منظور، لسان العرب: (ولي).
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 234، 425.
(4) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصّحاح: (غلظ).
(5) الجوهريّ، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (غلظ).
(6) ابن سيده، المحكم: (الغَلظ).

واشْتدَّ، يَقْسو قَساءً وقَسْوةً وقَساوةً[1]، وقد قيل: القسوةُ: "غِلظُ القلب، وهي من قسوة الحجَر. قال اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ﴾ [البقرة: 74][2]، كما قيل: "والغُلظةُ بضم الغين لغةٌ في الغِلظةِ، كذا عند بعضهم، والصّحيحُ أنّ الفظاظةَ خُشونةُ القلب، والغِلظةُ قسوةُ القلب"[3].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 429، والرّازي، مختار الصِّحاح: (قسا).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسي).
(3) النّسفيّ، طلبة الطّلبة في الاصطلاحات: (فظظ).

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥﴾ [التوبة: 124 - 125]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبلَهُما:

المناسبةُ بين الذّبِّ عن الحياض، واستقبال القلوب للقرآن، في حالتَي الكفرِ والإيمان

لّما ذكرَتِ الآيةُ السّابقةُ الأمرَ بمجابهة أهلِ الكُفر، والغِلْظةِ عليهم، وكان لا يَحملُ على ذلكَ إلّا ما أشارَ إليه خَتْمُ الآيةِ، من التَّقْوى بتجديدِ الإيمانِ، كلَّما نزلَ شيءٌ منَ القرآن، وكان قد ذكرَ سبحانَه المخالفينَ لأمرِ الدّفاع عنِ الدّين، بالتَّخلُّفِ دون أمرِ الإيمانِ، حين قال: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٨٦﴾ [التّوبة: 86]، التفتَ في هذه الآيةِ إلى ذلكَ، ليذكُرَ القِسْمَ الآخَرَ، وهو القاعدُ عنِ الإيمانِ، فقال: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ﴾[1]، فالمناسبةُ بين الآيات، هو بيانُ حالِ المقاتلِ في سبيل اللّه تعالى، مع نزول القرآنِ، وأنَّ العلاقةَ بين نزول القرآنِ والاستجابةِ للقتالِ، علاقةٌ طَرديَّةٌ، وأنَّ من لم يستجبْ، هو ذاتُه مريضُ القلبِ، الّذي ازداد رِجسًا على رجسه، وضلالًا على ضلاله، عند نزول القرآنِ.

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿سُورَةٞ﴾: سور: السِّينُ والواوُ والرّاءُ أصلٌ واحدٌ يدلُّ على عُلوٍّ وارْتفاع. والسّوَرُ: جمعُ سورة، وهي كلُّ منزلةٍ منَ البناء[2]، والسّورة كذلك: المنزلةُ الرَّفيعة، وسورُ المدينة: حائطُها المشتمِلُ عليها،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/174، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/50.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سور).

وشُبِّهت سورةُ القرآنِ بسورِ المدينةِ بجامع الإحاطةِ والحمايةِ في كليْهما، أو لكونِها منزلةً لمنازلِ القمر، ومَنْ قال: سُؤْرةٌ، فمِن أَسْأَرْت، أي: أَبْقيتُ منها بقيَّةً، كأنَّها قطعةٌ مُفردةٌ من جملةِ القرآن[1].

ومعنى قولِه تعالى: ﴿وَإِذَآ مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ﴾ أي: قطعةٌ مِنَ القرآن، فإنَّ المرادَ بالسّورةِ معناها القرآنيُّ وهو القطعةُ القرآنيَّةُ النّازلةُ، أمّا السّورة بالمعنى الاصطلاحي فهذه لم تكن إلّا بعد اكتمال نزول القرآنِ كلِّه.

2) ﴿زَادَتۡهُ﴾: زود: زِدْتُه فازْداد، وزِدْتُه وزوَّدته فتزوَّد، والزِّيادةُ: أن ينضمَّ إلى ما عليه الشَّيءُ في نفسِه شيءٌ آخر، كقولِه تعالى: ﴿وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ﴾ [يوسف: 65]، يقالُ: ازْدَدْتُ فضلًا، أي: زادَ فَضْلي[2]. ومعنى قولِه تعالى: ﴿أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ﴾ أي: السّورةُ النّازلةُ، ضمَّت إلى إيمانِه إيمانًا[3]، فالزِّيادةُ الإيمانيَّةُ هي عبارةٌ عن تلاقي الإيمانِ الثّابتِ في القلبِ بمُقتضيات الإيمانِ النّازلِ من السَّماءِ، فكانتِ الزِّيادةُ بمعنى الارتفاعِ والنَّماءِ.

3) ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾: بشر وأبشرَ: أَبْشَرْتُ الرَّجُلَ وبَشَّرْتُهُ وبَشَرْتُهُ: أخبرتُه بسارٍّ، بَسَطَ بَشَرَةَ وَجْهِه، وبشَّرْتُه على التَّكثير، وبشَّرته عامّ، وأبْشَرْتُه نحو: أَحْمَدْتُه، وأَبْشَرَ يكونُ لازمًا ومُتعدِّيًا، يُقالُ: بَشَرْتُه فأَبْشَرَ، أي: اسْتَبْشَرَ، وأَبْشَرتُه. واسْتَبْشَرَ: إذا وجَدَ ما يُبشِّرُهُ منَ الفرَحِ، وهو المقصودُ في قولِه تعالى: ﴿فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾، ولذلكَ يقالُ للخَبَرِ السّارّ: البِشارةُ والبُشْرَى، قالَ تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [يونس: 64][4].

4) ﴿مَّرَضٌ﴾: مرض: الميمُ والرّاءُ والضّادُ أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على ما يخرُجُ به الإنسانُ عن حدِّ الصِّحةِ في أيِّ شيءٍ كان منه العلَّةُ، ومرِض يمرَضُ، وجمعُ المريضِ مَرْضى، وهذا الخروجُ عنِ الاعْتدالِ الخاصِّ بالإنسان، فيه ضَرْبان: الأوَّلُ: مَرَضٌ جِسْميٌّ، وهو المذكورُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ﴾ [النّور: 61]. والثّاني: عبارةٌ عَنِ الرَّذائل: كالجَهْلِ، والجُبْنِ، والبُخْلِ، والنِّفاق، وغيرِها منَ الرَّذائل الخُلُقيَّةِ، نحو قولِه تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم

(1) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (سور)، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (سور).
(2) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصّحاح: (زود).
(3) الشَّوكاني، فتح القدير: 2/589.
(4) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بشر).

مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ﴾ [البقرة: 10][1]، ومعنى قولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شَكٌّ ونفاق[2].

5) ﴿رِجۡسًا﴾: رجس: الرّاءُ والجيمُ والسِّينُ أصلٌ يدُلُّ على اخْتلاطٍ، ومنَ الباب الرِّجْسُ: القذَر؛ لأنَّه لَطْخٌ وخَلْطٌ، يُقالُ: رَجُلٌ رِجْسٌ، ورجالٌ أَرْجاسٌ، قالَ تعالى: ﴿رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ [المائدة: 90]، وجَعلَ الكافرين رِجسًا؛ من حيث إنَّ الشِّركَ بالعقلِ أَقْبحُ الأشياء[3]، ومعنى قوله تعالى: ﴿فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾، أي: كفرًا إلى كُفرِهم، وضلالًا إلى ضلالِهم، وشكًّا إلى شكِّهم، ونفاقًا إلى نفاقِهم، وإثمًا إلى إثمِهم[4].

المَعنى الإجْماليُّ:

أحوالُ المخاطَبين بالقرآن، ما بين مُزدادٍ به ومُزدانٍ، وبين غارقٍ في الرّجس والكُفران

تُبيِّنُ الآيتان حالَ النّاس الّذين يُظهرون الإيمانَ عند نزول آياتٍ منَ القرآن، فموقفُ المؤمنين هو الازديادُ منَ الإيمان، والازديانُ به، والاستبشارُ بما عند اللّه تعالى؛ فاتَّحدَ الإيمانُ الباطنُ مع الإيمانِ الظّاهرِ، وأمّا موقفُ المنافقين، فهو على النَّقيضِ من ذلك، إذ زادتْهم رجسًا إلى رجسِهم، وماتوا على الكفرِ؛ لِما أبطنوه من خلاف ما أظهروه، وقد أفادتِ الآيةُ أنَّ القائلين: أيُّكم زادتهُ هذه السّورةُ إيمانًا؟! قالوها على سبيلِ السُّخريةِ والاسْتهزاءِ بالمؤمنين، فهاتان الآيتان هما خلاصةُ حال النّاسِ عند نزولِ القرآنِ، منَ الإيمانِ الظّاهرِ والباطنِ، وهي تُترجمُ أنَّ المؤمن حقيقةً ظاهرًا وباطنًا، هو الّذي يستجيبُ لأمرِ اللّه تعالى، ولا يتردَّدُ في قَبولِ الحقِّ والعملِ به، وأنَّ أدعياءَ الإيمان، موقفُهم تابعٌ لمصالحِهم، وراكدٌ في مرابِضهم.

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (مرض).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 11/73، والزَّجّاج، معاني القرآن: 2/476.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (رجس).
(4) الماورديّ، النُّكت والعيون: 2/416، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/519، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/299.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الواو: ﴿وَإِذَا﴾:

ربْطُ المعاني في الآياتِ المُتلاحقةِ، يُبرزُ الدّلالاتِ ويُجلِّي مَراميَ الآياتِ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ﴾، إمّا أن تكونَ عاطفةً، عطفَتْ جُملتَها على ما سبقَ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ﴾ [التّوبة: 86]، وهذا عَوْدٌ إلى بيانِ أحوالِ المنافقينَ، وما بينَهما اعْتراضاتٌ[1]، وإمّا أن تكون استئنافيَّةً، عادت إلى بيانِ أحوال المنافقين، والقولُ بالعطفِ من حيث المعنى صحيحٌ، لكنْ يكونُ هناك تباعدٌ كبيرٌ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه، وجعْلُ ما بينَهما اعتراضاتٍ، يزيدُ الأمرَ بُعدًا من حيث الصَّنعةُ، فحملُها على الاستئنافِ هو الأَولى، وذلك لأنَّ الاستئنافَ في حقيقتِه، هو عَوْدٌ على ما ابتُدئَ به سابقًا، فيُؤدِّي معنى القولِ بالعطفِ، في عوْدِ الكلامِ على سابقٍ، لكن بطريق الاستئنافِ لا الإتْباعِ، وهو الأليقُ بالمقام؛ لطولِ الفصْلِ.

فائِدةُ استعمالِ ﴿وَإِذَا﴾:

المنافقون - على خلافِ المؤمنين - ناطِقون بالتّضليلِ، وخائِضون في الأقاويلِ والأباطيلِ

قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ﴾، ﴿وَإِذَا﴾ ظرفٌ مستقبَلٌ متضمِّنٌ معنَى الشَّرط، وهو يُستعمَلُ غالبًا في الأمورِ المؤكَّدِ وقوعُها أو الرّاجحِ وقوعُها، وأمّا استعمالُ (إنْ) - وهي حرفُ شرطٍ جازمٌ - فيكونُ في الأمورِ غيرِ المؤكَّدِ وقوعُها أو نُدْرةِ وقوعِها، وهو لا يتناسبُ البتّةَ مع سياقِ الآيةِ الكريمةِ، إذِ استُعملت ﴿وَإِذَا﴾ دون (إن)؛ لبيانِ تحقُّقِ القولِ منهم، وأنَّهم قائلوه يقينًا.

وهذا الفرقُ بين استعمالِ (إذا) و (إنْ)، يتبيَّنُ جَليًّا إذا اجْتمعتِ الأداتانِ في تعبيرٍ واحدٍ، كما في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ [الأعراف: 131]،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/64.

فهنا استعملَ النَّظمُ أداةَ ﴿فَإِذَا﴾ قبلَ قولِه تعالى: ﴿جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ﴾؛ لأنَّ جِنْسَ الحسنةِ وقوعُه كالواجبِ لكَثرتِه واتِّساعِه، فحصولُه مؤكَّدٌ ومرغوبٌ فيه، وأمّا ﴿وَإِن﴾ فجاءَتْ قبلَ قولِه: ﴿تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٌ﴾؛ لأنَّ السَّيئةَ لا تقعُ إلّا في النُّدْرة[1].

غرَضُ ذكْرِ ﴿مَا﴾ في: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ﴾:

تأكيدُ حالِ المنافقين من اسْتبْعادِهم زيادةَ الإيمانِ، عند إنزالِ سورةٍ منَ القرآن

لمّا كان إنزالُ سورةٍ أمرًا مستبعَدًا عند المنافقين، كان استهزاؤهم بأثرِ القرآن في زيادة الإيمانِ، وإنكارُهم ذلك معهودًا منهم، فذُكِرت ﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ﴾ عَقِبَ ﴿وَإِذَا﴾ بغرضِ التَّأكيدِ، وجاءت في صورة الزّيادةِ على التّركيب؛ لتشيرَ إلى ما في نفوس هؤلاء المنافقين من غرابةٍ واستبْعادٍ لمضمون الشّرطِ، أي أنَّ ما يَلي الشّرْطَ أمرٌ لا تسعُه قلوبُهم[2]، أي: لتأكيدِ معنَى ﴿وَإِذَا﴾ وهو الشَّرطُ؛ لأنَّ هذا الخبرَ لغرابتِه، كان خليقًا بالتَّأكيد، ولأنَّ المنافقين يُنكرونَ صدورَه منهم[3]، وكذلكَ فإنَّ هذا التَّأكيدَ بذكْرِ ﴿مَا﴾، تنبيهٌ على فَضْلِ الإيمانِ[4]، وفيها إشارةٌ إلى عُموم أوقاتِ النُّزولِ، أي: إذا ما أنزلت في أيِّ وقتٍ كان، وفي أيِّ حالٍ؛ فإنَّ قولَ المنافقين ثابتٌ لا يتغيَّرُ؛ إذ هم حربٌ على دينِ اللهِ تعالى، فلو كانتِ السّوَرُ النّازِلةُ تُعطيهم نوعَ مصلحةٍ؛ فإنَّهم قائلون ما قالوا.

نُكتةُ اخْتيارِ (أُنزِلَ)، وبنائِه للمفعولِ: ﴿أُنزِلَتۡ﴾:

عجَلةُ المنافقين في قولِهم هذا، مهما يكُ من إنزالِ السّورة في أوّلِها أو آخرِها

لَمّا كانَ قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ﴾ بيانًا لِمُطْلَقِ النُّزول، بُنِيَ الفعلُ ﴿أُنزِلَتۡ﴾ للمفعول، أي: أُنْزِلَتْ قِطعةٌ منَ القرآن، أي: في معنًى

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/106.

(2) وردت (ما) عقيب (إذا) في القرآن ثلاث مرّات، مرتان في سورة التوبة [124، 127]، والأخيرة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧﴾ [الشورى: 37]، فقد أكّدت (ما) الشرط، وفي الوقت نفسه أشارت إلى غرابة وقوع الغضب منهم، إذْ ظهر غضبهم بحقٍّ وكأنَّه زائد عن طبعهم.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/50.

(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/50.

منَ المعاني لا على الإطلاقِ دونَ تَعْيينٍ أو تقْييدٍ[1]، واخْتيرَ الإنزالُ لا التَّنزيلُ لبيانِ أنَّ هذه القطعةَ منَ القرآنِ نزلت مرَّةً واحدةً، وهم سمِعوها كاملةً، فقالوا قولَهم الذي قالوا، وفيها إيماءٌ إلى أنَّ قيلَ المنافقين يَصدرُ عنهم دون أدنى تردُّدٍ أو تباطُؤٍ، فعندَ الإنزالِ يأتي قولُ أهل الخِذلانِ، ولا فرق بين أوَّل السورة وآخرِها.

غرَضُ تنكيرِ لفظِ ﴿سُورَةٌ﴾:

أيُّ سورةٍ تنزلُ، فإنَّ موقفَ المُنكرين هو الازدراءُ بها، والتّطاوُلُ على مضامينِها

المرادُ بسورة في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ﴾ طائفةٌ منَ القرآن المُعجِز المحيطِ بجُملةٍ منَ الحُجج ورفعِ الشُّبَه[2]، أي: إذا أُنزِلَتْ سورةٌ ما منَ القرآن فإنَّ تنكيرَ ﴿سُورَةٌ﴾ يُفيدُ العُمومَ، وسوَرُ القرآنِ كلُّها لا تخْلو عن دعاءٍ إلى الإيمانِ والصّالحات، والإعجازِ ببلاغتِها وبيانِها[3]، والمرادُ بالعموم أنَّ أيَّ سورةٍ تنزلُ فإنَّ موقفَ المنافقين منها ثابتٌ في رفضِها والازدراءِ بمعانيها.

معنَى (الفاءِ)، و(مِنْ): ﴿فَمِنۡهُم﴾:

إذا جاء الحقُّ نـتَـقَ خبايا الباطلِ، وأبانَ عن خِسَّتِه

(الفاءُ) في قوله تعالى: ﴿فَمِنۡهُم﴾ رابطةٌ لجوابِ الشَّرطِ في ﴿وَإِذَا﴾[4]، وهي تفيدُ ترتُّبَ ما بعدَها على ما قبلَها، و(مِنْ) تبعيضيَّةٌ، أي: بعضُ المنافقين[5]، والمعنى إذا ما تحقَّق إنزالُ سورةٍ لدى المنافقين فيبادرُ بعضُهم لقولِ ما يُريد قولَه جميعُهم، فنيابةُ بعض المنافقين عن بعضِهم الآخرِ في القولِ، يدلُّ على اشتراكِ الجميعِ في مضمونِه.

تَعيينُ مرجعِ الضَّميرِ، من شِبْه الجملة ﴿فَمِنۡهُم﴾:

إضمارُ التَّصريحِ بالمنافقين، مُناسِبٌ لإضمارِهم حقائقَ أنفُسِهم

قولُه تعالى: ﴿فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ﴾، أي: بعضُ المنافقين للعِلم بالمَعادِ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/51.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/531.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/51، وابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 11/64.
(4) درويش، إعرابُ القرآن: 4/196.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/174.

منَ المَقام[1]، وسبق بيانُ احتمال الواو، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ﴾ للاستئنافِ أوِ العطفِ، وأنَّ المعنَيين يتَّفقان في كَونِ هذه الآيةِ مردودةً إلى آياتٍ سابقةٍ، في قيلِ المنافقين، ومثلُ هذه الأقوالِ لا تصدُرُ إلا عن قلوبٍ مُرتابةٍ، ونفوسٍ مُظلمةٍ؛ فكأنَّ الآيةَ تومئُ إليهم باعتبارِهم مَعهودين، ولسانُ الحالِ يقول: وهل سِواهم يقول هذا القولَ، فالإضمارُ أبلغُ منَ الإظهار، وأنسبُ بحال المنافقين، فهم أضمروا أنفسَهم، والنَّظمُ أضمرَ التَّصريحَ بهم.

معنَى ﴿مَّن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَّن يَقُولُ﴾:

المنافقون مُبهَمون في الشُّخوصِ والتصرُّفاتِ، وقلوبُهم مَلأى بالأسقامِ والآفاتِ

معنى الاسمِ الموصولِ ﴿مَّن﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ﴾ أي: الَّذين يقولون؛ لأنَّهم فريقٌ منَ المنافقين، وجيءَ بالاسْمِ الموصولِ ﴿مَّن﴾ دونَ الاسمِ الموصولِ الصَّريحِ لتغشيةِ معنى العمومِ والإبهامِ عليه، فإنَّ العمومَ والإبهامَ مُرادان في هذا السِّياقِ، و﴿مَّن﴾ أعمُّ وأبهَمُ من (الّذي)؛ ومنَ المناسبِ اختيارُ ما يُناسبُ حالَ المنافقين منَ العمومِ والإبهامِ.

سِرُّ العُدولِ عنِ الجمعِ إلى الإفرادِ، في الفعلِ ﴿يَقُولُ﴾:

ما صدَرَ عن بعضِ المنافقين، يُمثِّلُ مَجموعَهم بيقينٍ

عدَلَ النَّظمُ في قولِه تعالى: ﴿فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ﴾، عن إسنادِ فعلِ القول (يقولون) لواو الجمع إلى المفرد؛ لتنزيلِ المنافقين القائلين، منزلةَ الرَّجلِ الواحدِ، فكأنَّهم شخصٌ واحدٌ، تكلَّم على لسانِ بقيّتِهم، وكانوا يقولون ذلك لبعضِهم الآخرِ، إنكارًا واسْتهزاءً: أيُّكم زادتْه هذه السّورةُ إيمانًا؟! لتثبيتِ قومِهم على النِّفاق، أو يقولونَها لقراباتِهم المؤمنين، يَسْتقيمونَ إليهم، ويَطمعونَ في ردِّهم إلى النِّفاق[2].

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/618، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/64.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/529.

دَلالةُ (أيٌّ) في سياق السّؤال:

قولُه تعالى: ﴿أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ﴾، اسْتفهامٌ على سبيلِ الاسْتهزاء، مُتضمِّنٌ معنَى إنكارِ أن يكونَ نزولُ سوَرِ القرآنِ يزيدُ سامِعيها إيمانًا، توهُّمًا منهم بأنَّ ما لا يَزيدُهم إيمانًا لا يزيدُ غيرَهم إيمانًا، وفي ذلك تشكيكٌ بأمرَيْن: الأوَّلُ: بنزولِ القرآنِ منَ الرَّحمن، والثّاني: بأثرِ القرآنِ على السّامِعين له، وهم بذلك يَقيسونَ على أحوالِ قلوبِهم[1].

الاسْتفهامُ يُخرِجُ ما في أضْغانِ المنافقين، وحقيقةَ موقفِهم من نزولِ القرآنِ المبين

نُكتةُ استعمالِ مُفردةِ الزِّيادةِ في الفعلِ ﴿زَادَتۡهُ﴾:

استعملَ لفظَ الزِّيادة دونَ مرادفاتِه ومقارَباتِه لبيانِ عمومِ زيادةِ الإيمان، بأنواعٍ متعدِّدةٍ، فالمقصودُ بزيادة الإيمانِ حدوثُ تصديقٍ خاصٍّ لم يكنْ قبلَ نزولِ السّورة من قصصٍ وتجديدِ حُكْمٍ منَ اللّٰه تعالى، أو عبارةٌ عن تنبيهٍ على دليلٍ تضمَّنَتْهُ السّورةُ، ويكونُ قد حصلتْ له معرفةُ اللّٰه بأدلَّةٍ، فنَبَّهَتْه هذه السّورةُ على دليلٍ رادٍّ في أدلَّتِه، أو عبارةٌ عن إزالةِ شكٍّ يسيرٍ، أوْ شُبهةٍ عارضةٍ غيرِ مُستحكِمةٍ، فيزولُ الشَّكُّ وترتفعُ الشُّبهةُ بتلك السّورة، وذلك كلُّه لا يَرْوي قلوبَ أولئك المنافقين؛ بل يجعلونَه دليلًا على عدمِ تأثيرِ السّورةِ النّازلةِ في إحداثِ زيادةٍ في إيمانِ السّامعين، ولكنْ هو كذلك فيمن أَبْطَنوا الكفرَ وأَظْهروا الإيمانَ كذِبًا وزورًا، ومَنْ كانَ على شاكلتِهم[2]، وهذه المعاني شَمِلَها لفظُ الزِّيادة.

اشتمالُ فعْلِ الزّيادةِ على أغراضٍ كثيرةٍ، تُسهِمُ في تقويةِ إيمانِ المؤمنين

نُكتةُ استعمالِ صيغةِ الماضي في الفعلِ ﴿زَادَتۡهُ﴾:

اسْتعمالُ صيغة الماضي في قولِه تعالى: ﴿زَادَتۡهُ﴾ بدخولِه على الضَّميرِ (الهاء) العائدِ إلى المنافق المفهوم من قوله تعالى: ﴿أَيُّكُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ ما صَبتْ إليه قلوبُهمُ المنافقةُ من

التّحقُّقُ بعدمِ ازْديادِ إيمانِ من نَزلَتْ عليهمُ السّورةُ، لانْطماسِ بصائرِهم المذكورة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/65.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/529.

أنَّ هذه السّورةَ لم تُحقّقْ ما يُرْجَى من نُزولِها وهو زيادةُ الإيمانِ في قلوبِ السّامعين، فهو خطابٌ يحملُ في طيّاتِه التَّهكُّمَ بالمؤمنينَ وبالقرآن، وذلك أنَّ القرآنَ قد صرَّحَ في بعضِ آياتِه بأنَّ القرآنَ يزيدُ المؤمنينَ إيمانًا، كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ [الأنفال: 2][1].

نُكتةُ اسْتعمالِ اسْمِ الإشارة:

بيانُ اسْتخفافِهم، بأن تكونَ السّورةُ سببًا في ازْديادِ الإيمان، عند المبلّغين

قولُه تعالى: ﴿أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ﴾، استعمالُ اسْمِ الإشارةِ يكونُ للمحسوساتِ المَرئيّةِ، وفي هذه الآية أُشيرَ إلى المعنويات المسموعةِ، فهو تشبيهُ المعقولِ بالمحسوس؛ لوضوحِ المُشارِ إليه وشدّةِ حضورِه في ذهن المخاطَبين، فهو تجسيدٌ للسّورةِ، وتشخيصٌ لها، ومقصودُ المنافقين بقيلِهم هذا التَّهكمُ بالنّازلِ، والاستهانةُ بمن نزلت عليه، سُخريةً واستهزاءً.

دَلالةُ إيثارِ لفظِ ﴿إِيمَٰنٗاۚ﴾:

سُؤالُ المنافقين عنِ الإيمانِ، باعتبارِه الأصلَ الّذي عليه مَدارُ القَبول

مُقتضى الظّاهرِ والحالِ أن يكونَ السُّؤالُ عنِ الإيمانِ لا الإسلام، وذلك أنَّ السّائلين منَ المنافقين إنّما يسألون عن حالِ أقرانِهم منَ المنافقين اطْمئنانًا في عدم التّأثُّرِ، وعن حال المؤمنين تهكُّمًا، فإنَّ نزولَ القرآنِ يؤثّرُ ابتداءً في إيمان المؤمن، وهو المُعتبَرُ عند النّزول، كما قالَ تعالى: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحُجرات: 14]، فالإيمانُ والزِّيادةُ فيه هي من سِمات المؤمنين، وأمّا إيرادُ الزِّيادةِ هنا في حقِّ المنافقينَ مع أنّه لا إيمانَ فيهم أصلًا إنّما هو باعْتبارِ اعْتقادِ المؤمنين[2] الّذي قالَ الله فيهم في الآية نفسِها: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ وباعْتبار أنَّ قولَ المنافق ﴿أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/65.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 4/113.

إِيمَٰنٗاۚ﴾ تشكيكٌ في كوْنِ السّورة تزيدُ منَ الإيمان، وتشكيكٌ كذلك في القرآنِ وأنَّه من عندِ اللّه.

بَلاغةُ النَّظْمِ في تركِ ذكْرِ الجوابِ، وتضْمينِ الكلامِ الإجابةَ:

قد يَطوي القرآنُ جوابَ سؤالٍ مذكورٍ، مُسارَعةً في بيانِ المقصودِ وتوضيحِ المطلوبِ

لَمّا كان سياقُ الآية عن سؤالِ بعض المنافقين عند إنزال سورةٍ منَ القرآن: أيُّكم زادته هذه إيمانًا؟! إمّا على قولِ بعضِ المنافقين لبعضٍ، ومقصودُهم تثبيتُ قومِهم على النِّفاق، وإمّا أنَّ ما يقولونَه هو لأقوامٍ منَ المسلمين، وغرضُهم صرفُهُم عنِ الإيمان، وإمّا أنَّ ما ذكروه هو على وَجْهِ الهُزءِ، والكلُّ مُحتَمَلٌ، والنَّظمُ لم يذكرْ جوابًا على ذاك السُّؤال؛ لأمرين: الأوَّلُ إعراضًا عنهم وتهوينًا لشَأنِهم وشأنِ سؤالِهم القائمِ على التَّشكيك والاسْتهزاء. والآخرُ: أنَّ الأهمَّ من جوابِهم على سؤالِهم، هو النّتيجةُ المُتوخّاةُ والخبرُ الفصلُ المفيدُ، ولذلك جاءَ الجوابُ منَ اللّه تعالى في تصويرِ أثرِ ما يحصُلُ من نُزولِ سورةٍ من سوَرِ القرآن، وهو ينتظمُ في وجهَيْن: الوجه الأول، وفيه أمران: الأوَّلُ: أنَّها تزيدُ المؤمنين إيمانًا؛ بقولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ إذْ لا بدَّ عند نُزولِها من أن يُقِرّوا بها ويعترِفوا بأنَّها حقٌّ من عندِ اللّه، والأمرُ الآخرُ: ما يحصُلُ لهم منَ الاستبشارِ بقوله: ﴿وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾، وهو إمّا اسْتبشارٌ بثوابِ الآخرة، أوِ اسْتبشارٌ بما يحصُلُ في الدُّنيا منَ النَّصرِ والظَّفَر، أو اسْتبشارٌ بزيادةِ الثَّواب بزيادةِ التَّكاليف. والوجهُ الثّاني: وفيه أمران: الأوَّلُ أنَّها تزيدُ المنافقين رِجْسًا إلى رِجْسهم، أي: كفرًا إلى كفرِهم، وسوءَ خُلُقٍ إلى سوءِ خُلقِهم، والأمرُ الآخرُ: أنَّهم يموتونَ على كفرِهم، وهذه الحالةُ أسوأُ الحالات، فهي عبارةٌ عن مُداومةِ الكفرِ وموتِهم عليه، وكلاهما مُضمَّنٌ في الخبر: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾[1].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/174.

معنى الفاءِ في لفظ ﴿فَأَمَّا﴾:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ للتَّفريعِ المفيدِ للتَّقسيمِ على استفهامِ المنافقين[1]، وفيه تفريعٌ لهؤلاء المنافقين المُستهزئين، بأنّ الأمرَ جدٌّ خطيرٍ، فإمّا قلبًا مؤمنًا يتلقّى القرآنَ عند نزولِه، فيزدادُ إيمانًا، وإمّا قلبًا مريضًا لا يؤمنُ بهذا القرآن، فيزدادُ رجْسًا إلى رجْسِه.

تفريعٌ عن استهزاء المنافقين، بكوْنِهم نوعين إمّا قلبًا صحيحًا مؤمنًا، وإمّا قلبًا مريضًا

بَلاغةُ أسلوبِ الحكيمِ في سياق الآيةِ الكريمِ:

قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وفيه حَمَلَ النَّظمُ اسْتفهامَ المنافقينَ على ظاهرِ حالِه وصَرَفَه عن مقصدِهم منه، وتلك طريقةُ الأسلوبِ الحكيمِ، وهو تَلَقِّي المُخاطَبِ بغيرِ ما يترقَّبُ بحملِ كلامِه على خلافِ مُرادِه لِنُكتةٍ، وهي إبْطالُ ما قصدوهُ من نفْيِ أنْ تكونَ السّورةُ تزيدُ أحدًا إيمانًا، قياسًا على أحوالِ قلوبِهم، فأُجيبَ اسْتفهامُهم بهذا التَّفصيلِ المتفرِّعِ عليه، فأثبتَ أنَّ للسّورةِ زيادةً في إيمانِ بعض النّاسِ، وأكثرَ منَ الزِّيادة، وهو حصولُ البُشْرَى لهم. وارْتَقَى في الجوابِ عن مقصدِهم منَ الإنكارِ بأنَّ السّورةَ ليست مَنفيًّا عنها زيادةٌ في إيمانِ بعضِ النّاسِ فقط؛ بل الأمرُ أشدُّ إذْ هي زائدةٌ في كُفرِهم، فالقسمُ الأوَّلُ المؤمنونَ زادتْهم إيمانًا، وأكْسَبَتْهم بُشرَى فحصلَ منَ السّورةِ لهم نفعانِ عظيمان، والقسمُ الثّاني الَّذين في قلوبهم مرضٌ زادتْهم رِجْسًا إلى رِجْسِهم وماتوا وهم كافرون[2].

الحوارُ الحكيمُ هو إبقاءُ كلامِ الخصمِ، وتلقينُه الحقَّ، بإلزامٍ قويمٍ

معنَى ﴿فَأَمَّا﴾ في سياق الآيةِ الكريمةِ:

قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، نجدُ ﴿فَأَمَّا﴾ حرفَ شرطٍ وتفصيلٍ وتوكيد، يتضمَّنُ معنى الجزاء، وتلزمُ الفاءُ في جوابِه،

الاعْتدادُ بكلامِ اللهِ تعالى، وما دونَه ممّا يُخالِفُه فمتروكٌ مَرذولٌ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/529، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/65.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/65.

كما في قولِه هنا: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾[1]، وكأنَّ الآيةَ تقولُ: دَعْ أيُّها القارئُ أوِ السّامعُ كلامَ المنافقين وسُخريتَهم بنزولِ سورِ القرآن، وأنَّها لا تزيدُ إيمانَ أحدٍ، وخُذِ الحقيقةَ النّاصعةَ الخالدةَ من جوابِ ربِّ العالمين: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾، ثم ذكرتِ الصِّنفَ الآخرَ منَ المنافقين، لبيانِ أنَّهم صنفان، تفصيلًا وتوكيدًا لحالِ الفريقين منَ الاختلافِ البيِّن.

نُكتةُ اسْتعمالِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

الاحـتراسُ من دخـولِ كـلِّ المـؤمـنين في الظّاهر، في حيِّز الثَّناءِ

جاءَ الجوابُ عن سؤالِ المنافقين: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ باسْتعمالِ الاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بدلَ أن يُقال: (المؤمنون)؛ لتعيينِ المؤمنين بأنَّهم الذين آمنوا بالله تعالى ورسخ إيمانُهم في قلوبهم، فهم معروفون بصفاتِهم وأحوالِهم وسُلوكيّاتهم، فلا يدخلُ في ذلك كلُّ من أطلق على نفسه مسمّى الإيمان؛ لأنَّ بعضَ مدّعي الإسلام يُظهرُ الإيمانَ ويُخفِي الكفرَ، فكان ذكرُ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون (المؤمنين)؛ للاحتراسِ من دخولِ جميعِ المؤمنين في الظّاهر، وللمفارقةِ بين الفريقَين، وهو "وصفٌ فيه تعيينٌ لحالهم عاجلًا وآجلًا"[2]، بما يَكشِفُ عن زيادةِ الإيمانِ في قلوبهم في الدُّنيا، واسْتبشارِهم بما فيه الخيرُ لهم في الآخرة، وبما انْطوى عليه ذلك منَ الثَّناءِ عليهم بإيمانهم.

فائِدةُ اسْتعمالِ صيغةِ الماضي، بدلًا منَ المضارعِ في السّياق:

الـزِّيـادةُ الإيـمانـيَّـةُ، لا تـكونُ إلّا بعْدَ تحقُّقِ الإيمانِ في القلوبِ

قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أفادَ اسْتعمالُ صيغةِ الماضي، في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، تحقُّقَ الإيمانِ في قلوبهم وثباتَهم عليه، وتحقيقًا للحقِّ الَّذي التزَموا به في حياتِهم[3]، وهو إيماءٌ إلى

(1) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (أمم)، وعبد الغني أبو العزم، المعجم الغني: (أمّا).
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/618.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/618.

أنَّ زيادةَ الإيمانِ لا تكون إلّا لمن كانت عنده قاعدتُه، وثبتتْ في قلبِه أصولُه.

معنَى الفاءِ في لفظ ﴿فَزَادَتۡهُمۡ﴾:

تلقِّي القرآنِ، كفيلٌ بزيادةِ الإيمانِ في قلوبِ المؤمنين

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ رابطةٌ لجوابِ الشَّرطِ، وهي تفيدُ الإثباتَ والتَّأكيدَ في زيادةِ الإيمانِ للمؤمنين بزيادةِ العلْمِ اليقينيِّ الحاصلِ من سماعِ سورِ القرآنِ والتَّدبُّرِ فيها والوقوفِ على ما فيها منَ الحقائقِ وانْضمامِ إيمانِهم بما فيها بإيمانِهمُ السّابق[1].

بَلاغةُ الجملةِ الحاليَّة، المُصدَّرةِ بواوِ الحال، في الإخبارِ عنهم:

بيانُ الإيقانِ بحصولِ البُشرى للمؤمنين، في الدُّنيا وفي يومِ الدّينِ

الجملةُ الحاليَّةُ ﴿وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾، جمعتْ مع الواوِ الحاليَّةِ الضَّميرَ المنفصلَ ﴿وَهُمۡ﴾، وهو مبتدأٌ، والفعلَ المضارع ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ الَّذي يُفيدُ التَّجددَ والاسْتمرارَ، وهو خبرُ المبتدأ، فكانت مُكوِّناتُ الجملةِ مع اسْميَّتِها تعبيرًا على تحقّقِ حصولِ البُشرى للمؤمنين في الدُّنيا والآخرة، بما زادتْهم منَ الخيرِ الباقي الَّذي لا يَعدِلُه شيءٌ[2].

تَقويةُ الحُكمِ الإسْناديِّ في الجُملة الاسميّة:

البُشْرَى بُنيث على زيادةِ الإيمان، واسْتحكمتْ بأصحابِها بإيقانٍ

أفادَ تقديمُ المسنَدِ إليه مع مجيءِ المُسندِ فعلًا تقويةً للحُكم، فلَما أثبتَتِ الآيةُ أنَّ للسّورةِ زيادةً في إيمانِ بعضِ النّاس، أضافَ ما هو أكثرُ منَ الزِّيادة، وهو حصولُ البُشرى لهم، فكانَ نفعانِ عظيمانِ أحدُهما مبنيٌّ على الآخر، فالبُشْرَى بُنيتْ على زيادةِ الإيمان، وهي ليست بُشرى مؤقّتةً؛ بل هي متجدِّدةٌ مستمرَّةٌ حتَّى إنَّها صَبغَتْ حالَهم فأصبحَ قائمًا على البُشْرَى والاسْتبشار[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾:

ذكْرُ الاستبشارِ لبيانِ فضلِ اللهِ تعالى على المؤمنين، من قَبولِ الإيمانِ بذكْرِ ثمرتِه

جاءَ التَّعبيرُ بالاسْتبشارِ في قولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾، دونَ الإيمانِ فلم يقلْ: (وهم مؤمنون)، كما جاء في فاصلةِ الآيةِ الَّتي

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/619، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/65.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/51، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/65.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/65.

تَليها ﴿وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾، فتقعُ المقابلةُ؛ لأنَّ زيادةَ الإيمانِ، حاصلةٌ عند سماعِ القرآنِ وتدبُّره، والأَرْجَى من مُجرَّدِ زيادةِ الإيمانِ، بيانُ حالٍ زائدةٍ على زيادةِ الإيمان، وهو الاسْتبشارُ الَّذي هو أثرٌ لزيادةِ الإيمان، محفِّزٌ لأخذِ الأسبابِ الموصلةِ إليه، بما تُحقِّقهُ منَ السَّكينةِ والطُّمأنينة، فأصبحَ في مقابَلةِ حالِ ﴿وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾، قولُه: ﴿وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾، فهو ارْتقاءٌ لأهلِ الإيمانِ ورفعٌ لحالِهم[1]، وهذا من فضلِ اللّه على المؤمنين، ولو قال: (وهم مؤمنون)، لمراعاة المقابلةِ لما أفاد هذه النّكتةَ البديعةَ، منَ الإفضالِ على المؤمنين، بذكْرِ الاستبشار بعْدَ الإيمان، فهو ذكْرٌ لثمرةِ الإيمانِ، لتكونَ دليلًا على قَبولِ الإيمانِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾:

الإيمـاءُ إلى أنَّ المؤمنين يَستبشِرون عند المماتِ، لِما وُعِدوا بهِ منَ النّعيمِ فيما هو آتٍ

ساقَتِ الآيةُ الحديثَ عنِ اسْتبشارِ المؤمنينَ بصيغةِ المضارع؛ لأنَّها تُفيدُ التَّجدُّدَ والاسْتمرارَ في اسْتبشارِهم بعدَ زيادةِ الإيمانِ بسماعِهم القرآنَ، فأصبحَ حالُهم على شاكلةِ الاسْتبشارِ الدّائمِ الَّذي لا ينقطعُ[2]، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ الاستبشارَ مستمرٌّ معهم بحيث يموتون وهم كذلك، فتَحسنُ المقابلةُ مع قولِه تعالى في الآيةِ اللّاحقةِ: ﴿وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾، فالمؤمنون يموتون وهم يَستبشرون، والمنافقون يموتون وهم كافرون.

دَلالةُ زيادةِ حرفَيِ السِّينِ والتّاءِ في لفظ ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾:

تأكيدُ حصولِ الاسْتبشارِ في نفوسِ المؤمنين، مَقصدٌ في الآيةِ، للبيانِ المُبينِ

الاسْتبشارُ: أَثَرُ البُشرَى في النَّفْس، فالسِّينُ والتّاءُ للتَّأكيدِ، أي: تأكيدُ حصولِ الاسْتبشارِ وتمكُّنِه منهم[3]، فهو استبشارٌ صادرٌ عن وعدِ اللّه تعالى بتحقُّقِه، ومقتضى التَّوكيدِ أن يثبتَ في نفوس

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/52.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/222.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/66.

المؤمنين ما وعدَهم الله تعالى صِدقًا وحقًّا، وتوكيدًا في الإخبارِ عن وقوعِه للمؤمنين.

فائدةُ حذْفِ مُتعلَّقِ الفعلِ ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾:

لم يُذكرْ مُتعلَّقُ فعلِ الاستبشارِ في قولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ إمّا ليُفيدَ العمومَ، أي: عمومَ الاسْتبشارِ ببشائرِ الدُّنيا والآخرةِ من ظهورِ الدِّين والنَّصرِ والتَّمكينِ وغيرِ ذلك منَ البشائرِ في الدُّنيا، ومن مغفرةِ الذُّنوبِ والرَّحمةِ الواسعةِ ودخولِ الجنّاتِ ونيْلِ النَّعيم والمكرُماتِ في الآخرة، وهي على الإجمالِ تنتظمُ بما تضمَّنتْهُ من رحمةِ اللّه ورِضوانه[1]، وإمّا لتنزيل الفعْلِ المُتعدّي منزلةَ الفعْلِ اللازمِ، أي: أنَّ أحوالَهم وسلوكَهم هو الاستبشارُ، وإمّا أن يُحملَ على تقديرٍ خاصٍّ وهو؛ وهُم يَستبشرون بجنّات النَّعيمِ ورضوانِ ربِّ العالمين، باعتبارِه غايةَ المؤمن في هذه الحياة.

الحذفُ أبلغُ منَ الذِّكرِ، لتضمُّنِه معانيَ مقصودةً، لا تتحقَّقُ إلّا بالحذْفِ

دَلالةُ العطفِ، في جُملةِ توطُّنِ المرضِ في قلوبِهم:

جاءَ العطفُ في قولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ على الجملةِ الأولى بعدَ فاءِ التَّفريعِ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾، تتمَّةً للتَّفريعِ السّابقِ، مُغايرًا لما عُطِفَ عليه، فهنا حديثٌ عنِ المنافقين، وهناك حديثٌ عنِ المؤمنين[2]، وبالمعطوفَين يتحقَّقُ الموقفُ من إنزال سورِ القرآن وآياته، فالمُتظاهِرون بالإسلام ليسوا جميعًا بمؤمنين على الحقيقة، فغرضُ العطفِ بيانُ أنَّ المجتمعَ المسلمَ ليس هو المجتمعُ المؤمنُ، وأنَّ على المجتمعِ المؤمنِ أن يحذرَ من مُكوِّنات المجتمعِ المسلم، حتى يتباين الرِّجالُ، وتَتَبَيَّنَ الأحوالُ.

لا يَظهرُ الحقُّ إلّا بعد تبايُنِ الرِّجالِ، واختبارِ الأحوالِ

نُكتةُ التَّعبيرِ بحرفِ الظَّرفيَّةِ (في):

قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾، وفيه عُبِّرَ بحرفِ

إذا تغلْغلَ النِّفاقُ في القلوبِ، طالَ العلاجُ، واستعصَى الشّفاءُ المطلوبُ

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/529، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/66.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/529.

الظَّرفيَّةِ ﴿فِى﴾ في قولِه تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ لبيانِ تَغَلْغُلِ النِّفاقِ في مَكْنونِ قلوبِ أصحابِه، حتَّى أصبحتْ قلوبُهم مَسْكنًا لتلك الآفةِ، فمنَعَهم ذلكَ منَ الإيمان، ومكَّنَ فيهم دعائمَ الكُفْران[1]، فبيَّن هذا الحرفُ أنَّ علاجَ الأمراض يحتاجُ إلى مُكنةٍ وطولِ زمانٍ.

فائِدةُ جمعِ ﴿قُلُوبِهِم﴾:

تمكُّنُ النِّفاقِ في قلوبِ المنافقين، لا يَعني إلّا أنّ قلوبَهم شتّى

قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، جاءَ التَّعبيرُ بجمعِ القلوب، في هذه الآيةِ الكريمةِ، وذلك للدّلالةِ على أنَّ المنافقين مُتبايِنون في درجة نفاقِهم، فهم ليسوا على درجةٍ واحدةٍ، وأنَّ النِّفاقَ وإن تغلْغلَ فيها إلّا أنَّه بنِسبٍ مُتبايِنةٍ، هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى، لبيانِ أنَّ مَرَضَ النِّفاقِ قدِ اسْتَشْرَى في قلبِ كُلِّ واحدٍ منهم، فهي دَلالةٌ تنتظمُ كل فَرْدٍ على جهةِ العُموم، أي: في قلوبِ الجميع، ولبيانِ أنَّهم مع اشْتراكِ قلوبِهم في هذا المرضِ، فهم ليسوا على قَلْبٍ واحدٍ؛ بل لكلِّ واحدٍ منهم أطماعُه ومصالحُه الخاصَّةُ به يُخالفُ فيها غيرَه من أهلِ مِلَّتِه، وهذا على شاكلةِ قولِ اللّه تعالى في اليهود: ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ﴾ [الحشر: 14][2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿مَّرَضٌ﴾:

لكلِّ مرضٍ علاجٌ، وقيمةُ الهدايةِ، في علاجِ النِّفاقِ، واضحةٌ جليّةٌ

قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، وردَ التَّعبيرُ بلفظِ ﴿مَّرَضٌ﴾ دونَ نفاقٍ، مع أنَّ المرادَ به النِّفاقُ؛ لأنَّ المرادَ بالمرضِ في هاته الآيةِ، هو معناه المجازيُّ لا محالةَ؛ لأنَّه هو الَّذي اتَّصفَ به المنافقون، وهو المقصودُ من مَذَمَّتِهم وبيانِ مَنْشأِ مَساوي أعمالِهم[3]، ولهذا التَّعبيرِ نكتةٌ وهو بيانُ أنَّ النِّفاق الموصوفَ بأنَّه مرضٌ يتطلّبُ العلاجَ، فما من مرضٍ إلّا وله علاجٌ، وبه تظهرُ القيمةُ الهدائيَّةُ في شأنِ علاجِ المنافقين.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/51.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/97، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/174.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/279.

غَرَضُ تنكيرِ لفظ ﴿مَّرَضُ﴾:

قلوبُ المنافقين مُصابةٌ بأمراضٍ كثيرةٍ، أبرزُها النِّفاقُ، الّذي هو من أبشعِ الأخلاقِ

قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، وفيه جاءتْ كلمةُ ﴿مَّرَضٌ﴾ نكرةً؛ لإفادةِ النَّوعِ، فهو مرضٌ ذو نوعٍ خاصٍّ لا يكونُ إلّا بأسبابٍ روحيَّةٍ، وعللٍ إيمانيَّةٍ، فالمرضُ الموجودُ في قلوبِهم نوعُ مرضٍ يكونُ نطفةً للأمراضِ الأُخَر، وبذرًا للآلامِ الكثيرةِ المترتِّبةِ عليه، الموجبةِ للزِّيادةِ والنُّموّ، أي: يدلُّ التَّنكيرُ على أنَّ جميعَ أجناسِ المرضِ في قلوبِهم، فهو تنكيرُ تنويعٍ أو تكثيرٍ[1].

ويُمكنُ أنْ تكونَ دَلالةُ النَّكرةِ في ﴿مَّرَضٌ﴾ على ما وُضعتْ له، أي: هي دَلالةٌ على طريقةِ البَدَل؛ لأنَّها دَلالةٌ تنتظمُ كلَّ فَرْدٍ فَرْدٍ على جهةِ العُموم[2].

دَلالةُ الاكْتفاءِ بالمفردِ في ﴿مَّرَضُ﴾:

مرضُ النِّفاقِ أصلٌ لتولُّدِ أمراضٍ أُخرَى، تعصفُ بالإنسانِ في كلِّ آنٍ

اكتفَى النَّظمُ بإيرادِ لفظِ ﴿مَّرَضٌ﴾ مُفردًا دون جمعِه؛ لأنَّ تَعْدادَ المُحالِ يَدُلُّ على تَعْدادِ الحالِ عَقْلًا[3]، وكذلكَ فإنَّ النّاشئَ عن مرضِ النِّفاقِ والزّائدَ فيه هو زيادةُ ذلك النّاشئِ؛ أي: تأصُّلُه وتمكُّنُه وتولُّدُ مَذمّاتٍ أُخرَى عنه[4]؛ فالآيةُ أشارت إلى مرضٍ خاصٍّ هو أصلُ كلِّ الأمراضِ الأُخرى.

نُكتةُ تَعديَةِ الزِّيادَةِ إِلَيهِم لا إِلَى القُلوبِ، في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

مرضُ القلبِ مرضٌ لسائرِ الجسدِ، الّذي يقبلُ بالمرضِ كلَّ خبيثٍ

قولُه تعالى: ﴿فَزَادَتۡهُمۡ﴾، يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أَحدُهما: أَنْ يَكونَ عَلى حَذفِ مُضافٍ، أَيْ فزادَتِ السّورةُ قُلوبَهُم رِجسًا، والثّاني: أنَّها زادَت ذَواتَهُم رِجسًا؛ لِأَنَّ مَرَضَ القَلْبِ مَرَضٌ لِسائِرِ الجَسَدِ، وقَبولُه - إِثْرَ ذلك - كلَّ خبيث، فَصَحَّ نِسبَةُ الزِّيادَةِ إِلَى الذَّواتِ، ويكونُ ذلك تَنْبيهًا عَلَى أَنَّ في ذَواتِهِم مَرَضًا ورِجسًا، وَإِنَّما أضافَ ذَلِكَ إِلَى قُلوبِهِم لِأَنَّها مَحلُّ الإِدْراكِ والعَقلِ[5].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/281.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/97.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/97.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/281.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/97.

نُكتةُ اخْتيارِ لفظِ (الرِّجْس)، في السّياق الحكيم:

الرِّجسُ خبيثٌ جسيمٌ، مآلُ صاحبِه العذابُ العظيمُ

قولُه تعالى: ﴿فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾، الرِّجْسُ هنا الكُفْرُ، وأَصْلُهُ الشَّيءُ الخَبيثُ، كما في قولِه تعالى: ﴿رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ [المائدة: 90]، وفيه بيانُ حقيقةِ ما انْطوتْ عليه قلوبُ المنافقينَ منَ الكُفر، والرِّجسُ يأتي بمعنَى العذاب، وكأنَّ الآيةَ تُشيرُ بهذا إلى ما سيؤدِّي إليه نفاقُهم منَ العذاب[1]، كما قالَ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥﴾ [الأنعام: 125]، فذكرَ الرِّجسَ إيماءً إلى العذاب الذي اكتسبوه بأفعالِهم ونفاقِهم وكفرِهم باللّه تعالى، فهي إشارةٌ إلى أنَّهم على عملٍ خبيثٍ، يستحقُّ العذابَ، فيكونُ ذِكْرُ الرِّجس بمعنى العذابِ من بابِ التَّنبيه على السّببِ وهو النِّفاقُ بلفظِ المآل وهو الرّجسُ، مع بيان أنَّهم خبثٌ يُحيطُ بهم، فاجتمع لهذه المُفردة تلك المعاني البديعةُ، بجلال الاستعمالِ، وكمال الاستخدامِ.

غرَضُ تنكيرِ لفظ ﴿رِجۡسًا﴾:

إرادةُ عمومِ كلِّ ما يقعُ تحت كلمةِ الرِّجْس، من معاني البيانِ في الآيةِ

قولُه تعالى: ﴿فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾، وفيه جاءَ لفظُ (الرِّجْسِ) نكرةً ﴿رِجۡسًا﴾؛ وذلك لإفادةِ العموم، فهي تعني كلَّ ما ينْطوي تحتها من معاني الكُفر، والقَذَر، والعذابِ، وكلَّ ما عَظُمَ اسْتنكارُه شرعًا وعقلًا[2]، فهمُ ازدادوا كفرًا وعذابًا وخبثًا، وبه استحقّوا الاستزادةَ منَ العذابِ يومَ القيامةِ.

بَلاغةُ ذكرِ قيْدِ ﴿إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾:

الأعمالُ الباطلةُ تزدادُ مع الوقت اسْتحكامًا، والحذَرُ منها ضروريٌّ

سيقَ قَيْدُ ﴿إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾، ولم يَرِدْ هذا في الحديثِ عنِ المؤمنين؛ فلم يقل: فزادتهم إيمانًا إلى إيمانِهم؛ لأنَّ المرادَ زادتْهم كُفرًا إلى كفرِهم؛ لأنَّهم كُلَّما جدَّدوا بتجديدِ اللّه الوحْيَ كُفْرًا ونفاقًا ازدادَ كُفرُهم واسْتحكمَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/529، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/66.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/529.

وتضاعفَ عقابُهم، وعذابُهم متجدِّدٌ عليهم في كلِّ وقتٍ في الدُّنيا والآخرة، فلمّا ازدادَ الكفّارُ رِجْسًا من أجلِ كفرِهم بالسّورةِ، كانت كأنَّها هي الَّتي زادتْهم، وفيها إشارةٌ إلى أنَّ الأعمال الباطلةَ تزداد مع الوقتِ استحكامًا؛ فإن لم ينتبهِ الإنسانُ لنفسِه، سقط في فكِّ نفسِه، وأمّا المؤمنون فإيمانُهم أصلٌ ثابتٌ راسخٌ مُستقِرٌّ في قلوبِهم[1]، فلا داعيَ لذكْرِه، ولا التَّنبيهِ عليه؛ فهو من فضلِ اللّٰه على عبادِه، بخلاف المنافقين فالتَّنبيهُ على وجود الرِّجسِ أصلًا تابعٌ لقاعدة العدلِ الإلهيّ؛ فإنَّ اللّٰه تعالى لا يُحاسِبُ عبادَه إلّا بما اقترفتْه أيْدِيهم.

نُكتةُ تعْدِيةِ ﴿فَزَادَتۡهُمۡ﴾، بحرفِ ﴿إِلَىٰ﴾:

التَّـهـكُّـمُ بمن يَستزيدُ عذابًا إلى عذابِه

في قولِه تعالى: ﴿فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾ تعدَّى الفعلُ ﴿فَزَادَتۡهُمۡ﴾ بـ ﴿إِلَىٰ﴾؛ وذلك لأنَّ الفعلَ (زادَ) قد ضُمِّنَ معنَى الضَّمّ، أي: فضمَّتْ كفرًا جديدًا إلى كفرِهم الأصليِّ[2]، ولم يقل: (فزادتهم رجْسًا مع رجْسِهم) وذلك لبيانِ أنَّ الرِّجس المُزادَ، أُضيف على الرِّجس السّابقِ، تنبيهًا أنَّ القومَ يجمَعون أرجاسَهم، ويَستزيدون من عذابِهم، ففيه معنى التَّهكُّم بهم، مُقابَلًا للتَّهكم الواردِ في ثنايا سؤالِهم: ﴿أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗا﴾؟ وهذا من لطيفِ الرَّدِّ الضِّمنيِّ على المنافقين.

فنُّ الازْدواجِ بين: ﴿وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ و ﴿وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾:

البِـشـارةُ لـلـمـؤمـنـين الـرّاسـخـين، مُقابِلَ الموتِ على الكُفرِ للمنافقين الضّالّين

قوبِل قولُه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾، في جانبِ المؤمنين، بقولِه تعالى: ﴿وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾، بجانبِ المنافقين تحسينًا بالازْدواج، بحيث كانت للسّورةِ فائدتانِ للمؤمنين، ومُصيبتانِ على المنافقين، فجُعِلَ موتُهم على الكُفرِ المُتَسبِّبِ على زيادةِ السّورةِ في كُفرِهم،

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/222، والبقاعي، نظم الدُّرر: 9/52، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/219.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/529، وابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 11/66.

بمَنزِلةِ مُصيبةٍ أُخرى غيرِ الأولى، وإنْ كانتْ في الحقيقةِ زيادةً في المصيبةِ الأولى، وهذا وجهُ نظمِ الآيةِ، على هذا النَّسْجِ المُحكَمِ، وفيه ما فيه من البلاغةِ والبديع(1).

بَلاغةُ الجملةِ الحاليَّةِ ﴿وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾:

بيانُ استصحابِ المنافقين، حالةَ الكفرِ والموتَ عليه

جاءتِ الجملةُ ﴿وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ حاليَّةً للدَّلالةِ على استحكامِ هذه الحالةِ الَّتي هم عليها وهي الكفرُ، فكانت مصاحبةً لهم متمكِّنةً منهم إلى أن ماتوا عليها(2)، وفيه أنَّ حالَ الكفرِ لم ينفكَّ عنهم في جميعِ أعمالِهم، ممّا يزيدُ التَّوبيخَ لهم والتَّعنيفَ عليهم، فهمُ ازدادوا رِجْسًا وماتوا وهم في حال الكفرِ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفؤادُ والقلبُ:

القلبُ اسمٌ للجارحةِ عمومًا، والفؤادُ اسمٌ لحالةِ التَّوقُّدِ خُصوصًا

الفؤادُ كالقلبِ، لكن يُقالُ له فؤادٌ إذا اعْتُبِرَ فيه معنَى التَّفؤُّد، أي: التَّوقُّد، يُقالُ: فَأَدْتُ اللَّحم: شويتُه، ولحمٌ فَئِيدٌ: مشويٌّ، قالَ تعالى: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠﴾ [القصص: 10]، وقال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١﴾ [النَّجم: 11]، وقال تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ٧﴾(3) [الهمزة: 6 - 7].

والقلبُ: اسْمٌ للجارحة، وسُمِّي به؛ لأنَّه وُضِعَ في موضعِه منَ الجَوْف مقلوبًا، وهو عُمدةُ البدن، والأفئدةُ توصَفُ بالرِّقَّة، والقلوبُ باللِّين؛ لأنَّ الفؤادَ غشاءُ القلب، إذا رقَّ نفذ القولُ فيه وخَلُصَ إلى ما وراءه، وإذا غَلُظَ تعذَّر وصولُه إلى داخله، وإذا صادفَ القلبُ شيئًا علقَ به إذا كان ليِّنًا(4).

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/66.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/52، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/619.

(3) الرّاغب، المفردات: (فأد)، والجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 189.

(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 433، والكفويّ، الكلِّيّات: 3/41، 4/5.

وقلبُ الإنسانِ سُمِّيَ به لكثرةِ تقلُّبِه، ويُعبَّرُ بالقلبِ عنِ المعاني الَّتي تختصُّ به منَ الرّوحِ والعلمِ والشَّجاعةِ وغيرِ ذلك، كما في قولِه تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: 10]، أي: الأرواح، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: 37] أي: علمٌ وفهمٌ، وقولِه تعالى: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال: 10]، أي تثبُتَ به شجاعتُكم ويَزولَ خوفُكم(1).

الرِّجْسُ والرِّجْزُ:

الرَّجْسُ كلُّ ما استقذَرَه الشَّرعُ أوِ العقلُ أوِ الطَّبعُ، والرّجزُ يكثرُ في العقوبةِ والكفر

الرِّجْسُ: الشَّيءُ القَذِر، قالَ تعالى: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، والرِّجْسُ يكونُ على أربعةِ أَوْجُه: إمّا من حيث الطَّبعُ، وإمّا من جهةِ العقلِ، وإمّا من جهة الشَّرعِ، وإمّا من كلِّ ذلك كالميّتةِ، فإنَّ الميتةَ تُعافُ طبعًا وعقلًا وشرعًا. ويُطلقُ الرِّجسُ على النَّتن، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التَّوبة: 28].وقيل: رِجْسٌ ورِجْزٌ للصَّوتِ الشَّديد(2).

وأمّا الرِّجزُ فأصلُه الاضْطرابُ، ومنه قيل: رَجَزَ البعيرُ رَجَزًا، فهو أرْجَزُ، وناقةٌ رَجْزاءُ: إذا تقاربَ خَطْوُها واضْطَرَبَ لضَعفٍ فيها. والرِّجزُ: الزَّلْزَلة، كما في قولِه تعالى: ﴿عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [سبأ: 5].

وقولُه تعالى: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدَّثر: 5]، يُقرأ بكسر الرّاء وضمّها. فمَن كسر أراد: الشرك، ومؤدّاه العذاب، ومن ضمّ الرّاء، فقيل: هو صَنَمٌ(3)، وقيل: هو كنايةٌ عنِ الذَّنب، فسمّاهُ بالمآل. وقولُه تعالى: ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [الأنفال: 11]. والشَّيطانُ عبارةٌ عنِ الشَّهوةِ، ويُمكنُ أنْ يُرادَ برِجْزِ الشَّيطان: ما يدعو إليه منَ الكُفرِ والبُهتانِ والفسادِ(4).

(1) الرّاغب، المفردات: (قلب)، والكفويّ، الكلّيّات: 3/41، 4/5.
(2) الرّاغب، المفردات، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (رجس).
(3) ابن خالويه، حجة القراءات، ص: 355.
(4) الرّاغب، المفردات، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (رجز).

﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦﴾ [التَّوبة: 126]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبطُ بين موقفِ المنافقين من إنزالِ القرآنِ، وفتنتِهم المتجدّدةِ، دون اعتبارٍ ولا ازدجارٍ

لَمّا ذَكرتِ الآيتان السّابقتان موقفَ المنافقين، من إنزال القرآنِ، وأنَّهم يزدادون عراقةً في النِّفاقِ بما يكتسبونَه منَ الرِّجْسِ وازْديادِهم منه، حسُنَ الانتقالُ من بيانِ واقعِهم القلبيِّ، في الازديادِ منَ الرِّجس وثباتِ القلبِ على النِّفاق، إلى بيانِ فتنتِهم التي يُفتَنون بها في كلِّ عامٍ، من حوادثِ الزّمان ونوازلِ الحَدَثان ممّا يضطرُّهم إلى بيانِ أخلاقِهم بإظهارِ سرائرِهم في نفاقِهم في كلِّ عامٍ مرَّةً أو مرَّتَيْن فيُفضَحون بذلك، وذلك موجبٌ لتوبتِهم، لكنَّهم لا يتوبون عمّا هم فيه منَ النِّفاق، بل لا يذّكّرون، وذلك بسبب رسوخِ النِّفاقِ، وثباتِ الرِّجس، فالمناسبةُ بين الآيات ظاهرةٌ في تحذير المنافقين ممّا هم عليه، بذكرِ عدمِ انتفاعِهم بالفتن بعد ذكرِ عدمِ انتفاعهم بإنزالِ القرآن، فموقفُ المنافقين واحدٌ لا يتفرَّق.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُفۡتَنُونَ﴾: فتن: الفاءُ والتّاءُ والنّونُ أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على ابْتلاءٍ واخْتبار، من ذلكَ الفِتْنَةُ، يُقال: فَتَنْتُ أَفْتِنُ فَتْنًا، وفَتَنْتُ الذَّهَبَ بالنّار، إذا امتحنتُه، وهو مَفْتونٌ وفَتين، والفتّان: الشَّيطانُ، ويُقال: فَتَنَهُ وأَفْتَنَهُ. واسْتُعمِلَ في إدخالِ الإنسانِ النّارَ، قالَ تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣﴾ [الذّاريات: 13]، وقالَ تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء: 35][1]. ومعنى قولِه تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (فتن).

﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ ما يتعرَّض له المنافقون منَ الفتنةِ الظّاهرةِ، التي تكشفُ حقيقتَهم لأنفسِهم وللآخرين، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: 155][1]، فالآيةُ خطابٌ لجميع المؤمنين ظاهرًا، المؤمنِ حقيقةً والمنافقِ، فهي غِرْبالٌ لأهل الطّاعةِ والإيمانِ من أهل النِّفاقِ.

2) ﴿مَّرَّةً﴾: المرورُ هو المُضيُّ والاجتيازُ بالشّيء دون توقُّف، ويُقال لِما هو خِلافُ الحلاوة والطّيب: المُرُّ؛ فمرارةُ الشّيء تمنعُ النّاسَ منَ المُكث فيه، وسُمّي الأمَرُّ لأنّه غيرُ طيّب، ثمّ سُمِّيت بعد ذلك كلُّ شدّة وشديدةٍ بهذا البناء، يقولون: أمررتُ الحبل: فتلتُه، وهو مُمَرّ، والمَرُّ: شدّةُ الفتْل، والمَرير: الحبلُ المفتول[2]. والمَرَّة: جُزءٌ منَ الزَّمان، وقولُهم: مرَّةً ومرَّتَيْن، كَفَعْلَة وفَعْلَتَيْن، قالَ تعالى: ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾ [الأنفال: 56]، ومنه قولُه تعالى: ﴿يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ دَلالةُ على الوقتِ والزَّمان[3]، أي: يُفتنون في كلِّ عامٍ زمانًا بنوعِ ابتلاءٍ.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

الآيةُ خطابٌ للمؤمنين وتعريضٌ بالمنافقين، بتَنبيهِهم على أنَّهم يعلمون أنَّهم يُفتنون ويُختبَرونَ بالسَّنةِ والجوعِ والمرضِ في كلِّ عامٍ مرَّةً أو مرَّتَيْن يكذِّبون فيهما ويضلّونَ ثمَّ لا يتوبونَ من ذنوبِهمُ السّالفةِ، ولا هم يذَّكّرونَ فيما يُستقبلُ من أحوالِهم[4]، فالآيةُ دعوةٌ للاعتبارِ، ليحذرِ المؤمنون من مشابهتِهم، والمنافقون منَ الاستمرارِ فيما هم فيه منَ النِّفاقِ، فهي آيةٌ داعيةٌ للهدايةِ والتَّوبةِ والإنابةِ عن طريقِ التَّحذيرِ والتَّنبيه.

عراقةُ النِّفاقِ، تَحجبُ صاحبَها عن رؤيةِ غاياتِ الفتن، والاعتبارِ بمقاصدِ المِحن

(1) مجاهد، تفسير مجاهد: 1/289، وابن جرير، جامع البيان: 11/73، والرّاغب، المفردات: (فتن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب: المفردات: (مرر).
(3) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصّحاح: (مرر).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/366.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

غَرَضُ الاسْتفهام، في سياق التّساؤلِ عن فتنة النّفاقِ:

الاسْـتـدلالُ عـلى ازْديـادِ كُفرِ المنافقين، وتمكُّنِه منهم في كلّ حينٍ

قولُه تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ﴾، الاسْتفهامُ فيه للإنكارِ والتّعجيب، لعدم رؤيتِهم فِتنتَهم الّتي لا تعقُبُها توبتُهم، ولا تُذكِّرهم أمرَ ربِّهم، والغرضُ من هذا الإنكارِ، هو الاسْتدلالُ على ما تقدَّمَ مِن ازْديادِ كُفرِ المنافقين، وتمكُّنِه كلَّما نزلَتْ سورةٌ مِنَ القرآنِ، بإيرادِ دليلٍ واضحٍ، ينزِلُ منزلةَ المحسوسِ المرئيِّ، حتَّى يتوجَّهَ الإنكارُ على مَنْ لا يراه[1].

معنَى الواوِ، وتقديرُ المعطوفِ عليه: ﴿أَوَلَا﴾:

التّـقـديـرُ من ثـراءِ الـلّـغـة، وتـنـوُّعِ معانيها ودَلالاتِ تراكيبها

قولُه تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ﴾، الواوُ الآتيةُ بعد همزة الاستفهام، في قوله تعالى: ﴿أَوَلَا﴾ للعَطْف، والمعطوف له وجهان في تعيينه، فإمّا أن يكون من باب عطفِ ما بعدَها على ما تقدَّمها من جملةِ: ﴿فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾، فهي من تمام التَّفصيل[2]، وإمّا من باب عطفِها على مقدَّرٍ محذوفٍ، أي: ألا يَنظُرونَ ولا يَرَوْنَ؟![3].

سِرُّ التَّعبيرِ بفعلِ ﴿يَرَوۡنَ﴾:

غرَضُ استعمال الرُّؤيةِ، تجسيدُ المعاني، إقامةً للحُجَّةِ، وإبرازًا للحقِّ

قولُه تعالى ﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ﴾، آثرَ النَّظمُ ذكرَ الرُّؤية دونَ العلم، فلم يقل: (أوَ لا يعلمون أنَّهم)؛ وذلك لأنَّ الآيةَ أرادت إيرادَ دليلٍ واضحٍ تُقامُ به الحُجَّةُ يُعلمُ يقينًا كالمشاهَدِ المحسوسِ، فكان أنْ أنزلَ دليلًا واضحًا، ينزِلُ مَنْزلةَ المحسوسِ المرئيِّ يفضحُهم بإظهارِ نفاقِهم، ويعلمون أنَّ ذلك من عندِ اللّه فيتوبون، ويذَّكرون وعْدَ اللّه ووعيدَه، وكان ذلكَ بكشفِ أسرارِهم وإفْشاءِ عقائدِهم، فهذا هو الاختبارُ الَّذي تقومُ عليه الحُجَّةُ، فيكونُ مرئيًّا محسوسًا معلومًا لمن حولَهم[4]، لكنَّهم لم يعتبروا بقوَّة الدَّليل، وظُهورِ الحُجَّةِ.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/67.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/67.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/619.

(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/99، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/67.

نُكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ ﴿يَرَوۡنَ﴾:

إقامةُ الحُجَّةِ ببيانِ تجدُّدِ الرُّؤيةِ، بغرَضِ الهدايةِ والازْعِواءِ عنِ النّفاقِ

قولُه تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ﴾، وفيه جاءَ التَّعبيرُ بالمضارعِ في الفعل ﴿يَرَوۡنَ﴾ للدَّلالةِ على تجدُّدِ هذه الرُّؤيةِ واسْتمرارِها منَ المنافقين حيث قال تعالى: ﴿فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ﴾، فهي في كلِّ عامٍ، وهذا كفيلٌ بأن يَزْدجِروا ويَتوبوا إلى اللّه، ويَرْعَووا عمّا هم عليه منَ النِّفاق[1]، فاختيارُ صيغة المضارع فيها إقامةٌ للحُجَّة بأنَّ الرُّؤية مستمرَّةٌ ومتجدِّدةٌ لكن دونَ استجابةٍ لما هم عليه منَ الباطل.

دَلالةُ توجيهِ القراءاتِ القرآنيَّةِ، في حرف المضارعةِ في الفعل:

تنوّعُ الفعلِ بالياء والتّاء، بين خطابِ المنافقين والمؤمنين

في قولِه تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ﴾ قراءتان متواترتان:

الأولى: ﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ﴾ بالياء على معنًى: أوَ لا يَرى المنافقون، والأخرى: (أَوَ لا تَرَوْن) بالتّاء على معنًى: أَوَ لا تَرَوْنَ أيُّها المؤمنون، وهذا تنبيهٌ لهم، فيكونُ من تنزيل الرّائي بمنزلةِ غيرِه حتَّى يُنكِرَ عليه عدمَ رؤيته[2]، والقراءتان متكاملتان، حيث أعطت كلُّ قراءةٍ معنًى يُساند الأخرى، فقراءةُ الغيبةِ فيها إقامةُ الحُجَّة على المنافقين، وقراءةُ الخطاب فيها التَّنبيهُ على الاعتبارِ من حال المنافقين التي هم عليها.

بَلاغةُ التَّأكيدِ وتقويةِ الحُكمِ الإسناديِّ في الجملةِ المؤكّدةِ:

الدَّعوةُ للهدايةِ، والتَّحذيرُ منَ الغوايةِ، مقصودُ الخطابِ

قولُه تعالى: ﴿أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ﴾، أفادَ حرفُ (أنَّ) مع ضمير الجمع (هم)، تأكيدَ حصولِ الفتنةِ للمنافقين، ورؤيتِهم لها من اضْطرابِ أمرِهم بما يصيبُهم منَ الأمراض المُنتشرةِ، والتَّقاتُلِ، واسْتمرارِ الخوف، والمصائبِ والمضارِّ الّتي تنالُ جماعتَهم، ممّا لا يُعتادُ تكرُّرُ أمثالِه في حياةِ الأُمم[3]، كما أنَّ تقديمَ المسنَدِ إليه، ومجيءَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/530.
(2) القراءة الأولى للجمهور، والثّانية لحمزة ويعقوب، ينظر: ابن مجاهد، السَّبعة، ص: 320، والعطّار، غاية الاختصار: 2/512، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/99.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/67.

المسنَد فعلًا فيه تقويةٌ للحُكم، وفي تعاضُد التَّأكيدِ وتقويةِ الحُكم الإسناديّ، تثبيتٌ لهذا المعنى، وأنَّ الفتنةَ مقصودةٌ لذاتِها، بغرَضِ إخراجِ المنافقين من رجْسِهم إلى طهارة القلوب، وهو ما يُؤكِّدُ مطالبَ الهداية والنَّجاةِ.

فائدةُ بناءِ الفعلِ ﴿يُفۡتَنُونَ﴾ للمفعولِ:

توجيهُ الاهتمامِ بالفتنةِ، بتحقيقِ مقاصدِ هداياتِها

قولُه تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ﴾، بُنيَ قولُه تعالى: ﴿يُفۡتَنُونَ﴾ للمفعول تعبيرًا عمّا ينزلُ بالمنافقين منَ الحوادثِ والنَّوازلِ بما يضطرُّهم إلى بيانِ أخلاقِهم بإظهارِ سرائرِهم في نفاقِهم[1]، وحُذفَ ذكْرُ الفاعل لتوجيه الاهتمامِ بالفتنةِ ومقاصدِها التي أراد اللّه تحقيقَها في نفوسِ المنافقين.

بَلاغةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ ﴿يُفۡتَنُونَ﴾:

تكرُّرُ وقوعِ الفتنةِ بالمنافقين، دليلُ رحمةِ الله تعالى بعبادِه، ولكنّهم لايذّكرون

دلَّتْ صيغةُ المضارعِ ﴿يُفۡتَنُونَ﴾، على تجدُّدِ واسْتمرارِ الفتنةِ بالمنافقين، ذلك أنَّ اللّه تعالى أكّدَ هذا المعنَى بقولِه: ﴿فِي كُلِّ عَامٖ﴾، فجاءَ ﴿يُفۡتَنُونَ﴾ تعبيرًا عن تكرُّرِ تلكَ الفتنةِ في حياتِهم وسقوطِهم فيها بحيث يَغْرَقونَ ولا يَخْرُجون، وهو مصداقُ قولِه تعالى: ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ﴾ [التَّوبة: 49][2]، ولا يتحقّقُ السُّقوطُ إلّا إذا كان هناك معاودةٌ تِلْو المعاودةِ، فلمّا تكرّرتِ الفتنةُ دونَ اعتبارٍ بها من قِبَلِ المنافقين، كان سقوطُهم حقيقًا بهم، ويستحقّونه عن جدارةٍ، وهذا يدلُّ على رحمة اللّه تعالى بعبادِه، فهو يُعطيهم المِحَنَ لتكون لهم مِنَحًا في الدّنيا والآخرة، لكنَّهم يأبَوْن إلّا السُّقوطَ.

دَلالةُ العمومِ في عبارة: ﴿فِي كُلِّ عَامٖ﴾:

سببُ توالي الابْتلاءِ المتتابعِ، هو إرخاءُ عِنادِ النِّفاقِ في نفوسِ أصحابِه

دلَّ قولُه تعالى: ﴿فِي كُلِّ عَامٖ﴾ وباسْتعمالِ ﴿كُلِّ﴾ المفيدةِ للعموم، على وقوعِ الابْتلاءِ، المطَّرِدِ بأفانينِ البَلِيّاتِ، منَ المرضِ والشِّدَّةِ وغيرِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/53.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/67.

ذلكَ، ممّا يُذكّرُ الذُّنوبَ والوقوفَ بين يدَيْ ربِّ العزَّة، فيؤدِّي إلى الإيمانِ به تعالى، أوِ المجاهدة في سبيله مع رسولِ اللّه ﷺ؛ فيُعاينون ما ينزلُ منَ الآياتِ، لاسيَّما القوارعِ الزّائدةِ للإيمانِ، النّاعيةِ عليهم ما فيهم منَ القبائحِ المُخزيةِ لهم[1]، فأفاد العمومُ ثباتَ توالي الفتنةِ في كلِّ عامٍ، من دون انقطاعٍ، فهو أمرٌ مطَّردٌ زمانيًّا، وأفاد أنَّ الّذين بقَوا على النِّفاقِ عاندوا بل بالغوا في العنادِ، والتَّسلّحِ بالعتادِ، في مواجهةِ ما يدعوهم للأَوْبةِ بعد النَّوبةِ، وهو ما يجعلُهم أعتى خلْقِ اللّه تعالى في الإصرارِ على الكُفر، وبه يُعرف سببُ أنَّهم في الدّرَكِ الأسفلِ منَ النّار.

سِرُّ اسْتعمالِ لفظِ ﴿عَامٍ﴾، دون لفظِ (سَنة):

آثرَ النَّظمُ اسْتعمالَ لفظِ ﴿عَامٍ﴾ دون (سَنة)؛ وذلك أنَّ لفظَ العام يدلُّ على الخِصْبِ والخيرِ ورِفعةِ العَيْش، أمّا لفظ (سَنَة) فيعني الجَدْبَ والقَحْطَ، وقلَّةَ الخيرِ والمُؤَنِ والزّادِ[2]، وسرُّ استعمال لفظِ العام دونَ السَّنة - مع أنَّ الظّاهرَ استعمالُ السَّنة الدّالةِ على الجدْبِ والقحْطِ - هو بيانُ أنَّ الفتنةَ الّتي وقعت للمنافقين هي لهم خاصَّةً، وأنَّهم مقصودون بها على وجه الخُصوص، فهي ليست عامَّةً للمجتمعِ كلِّه، فالمجتمعُ في مثل هذا الخيرِ الوفيرِ والعَيْشِ الرَّغيدِ، أي: وإن كان النّاسُ أخصبَ ما يكونون وأرفعَه عيْشًا، وإذا هم تنزلُ بهمُ المصائبُ وتحِلُّ بهمُ الفِتَنُ، فتظهرُ فضيحتُهم بذلك أكثَرَ من ذي قَبْلُ، مع اجْتهادِهم في إخفائِها، وحرصِهم على كِتمانِها، ولكنَّ الَّذي علِمَ سرائرَهم، وهو اللّه ﷻ، يُظهرُها ويفضحُهم بها، لَمّا أَعْرضوا عنِ الحقِّ، فأَظْهروا خلافَ ما يُبطِنونَ، يُخادعون اللّه ورسولَه والَّذين آمنوا[3].

شِـدَّةُ ظهور فتنتِهِم الخاصَّةِ، وسلامةُ المؤمنين منها كفيلٌ بإيقاظِهم من غفلتِهم

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/619.
(2) الرّاغب، المفردات: (سنه).
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/53.

فائدةُ استعمالِ لفظِ ﴿مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾:

الإشارةُ إلى أنَّ فتنةَ المنافقين مريرةٌ سريعةٌ، للتَّنبيهِ على شديدِ الغفْلةِ

ساقَ النَّظمُ لفظَ ﴿مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾، لا لبيانِ الوقوعِ حَسَبَ العدِّ المزْبورِ؛ بل للتَّكثير، أي: يُبتلَوْنَ بأفانينِ البَليّاتِ، منَ المرضِ والشِّدَّةِ وغيرِ ذلك، ممّا يذكِّرُهم بما هم عليه منَ النِّفاقِ، والبُعدِ عنِ اللّه لعلَّهم يذَّكّرونَ، فيهتدونَ ويَرشُدون[1]، وذكرَ المرّةَ والمرّتين، لبيانِ أنَّ فتنتَهم مريرةٌ وسريعةٌ، فالمقصودُ تنبيهُهم على نفاقِهم وكفرِهم وغفلتِهم، بغرَض هدايتِهم، لا بغرضِ تعذيبِهم، فاستعمالُ ﴿مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾، دون أن يقول: (فتنةً أو فتنتين)، لبيان هذه الفائدةِ.

معنَى حرفِ ﴿أَوْ﴾:

إفادةُ الحرفِ التَّنويعَ، من مقاصدِ البيانِ في القرآن

قولُه تعالى: ﴿مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾، وفيه ﴿أَوْ﴾ حرفُ عطفٍ، أفادتِ التَّخييرَ؛ بمعنَى: أوَ لا يرى المنافقونَ أنَّ اللّه تعالى يَختبرُهم في بعضِ الأعوامِ مرَّةً، وفي بعضِ الأعوامِ مرَّتين؟! وفي هذا التَّنويعِ زيادةٌ في إقامةِ الحُجَّةِ عليهم، لا مناصَ لهم منها[2]، وذلك التَّنويعُ بحسبِ حِكمةِ اللّه تعالى في إجراءِ أقدارِه على عبادِه.

سِرُّ التَّراخي بحرفِ العطفِ ﴿ثُمَّ﴾، ودلالتُه:

التَّعجيبُ من عدمِ توبةِ المنافقين، وعدمِ اتّعاظِهم بعْدَ نزولِ الفتنِ بهم

أفادَ حرفُ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ التَّرتيبَ الرُّتبيَّ؛ لأنَّ المعطوفَ في رُتبةِ التَّعجيبِ من شأنِه على المعطوف عليه، فإنَّ حصولَ الفتنةِ في ذاتِه عجيبٌ، وعدمَ اهْتدائِهم للتَّدارك بالتَّوبةِ والتَّذكُّرِ أعجبُ، ولو كانتْ ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي الحقيقيِّ لكانَ محلُّ التَّعجيبِ من حالِهم هو تأخُّرُ توبتِهم وتذكُّرِهم[3]، وهو غيرُ مرادٍ، بلِ المرادُ عدمُ توبتِهم مع ما يحصلُ لهم منَ الفتنةِ الدّاعيةِ للتَّوبةِ والهدايةِ!

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/619.

(2) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 3/99، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/530.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/68.

دَلالةُ النَّفْيِ ﴿لَا﴾، في دخولِه على الفعلِ ﴿يَتُوبُونَ﴾:

لَمّا كانَ تكرُّرُ الفتنِ على المنافقين في كلِّ عام، يقتضي منهم أنْ يستيقظوا من غفلتِهم، فيُصلِحوا ما فسدَ منهم، ويتوبوا إلى اللّه تعالى، ناسبَ ذلك أنْ يدخلَ النَّفْيُ على فعلِ التَّوبةِ الَّتي كانَ يُفترَضُ أنْ يقوموا به لكنَّهم لم يقوموا به، عنادًا ومُرودًا على النِّفاق، كما وصفَهم بقولِه تعالى: ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ [التَّوبة: 101][1]، ولم يأتِ التَّعبير بإثباتِ الكفر، كأن يُقال: (ثمّ يكفرون) أو (ثمّ يفسقون) ونحو ذلك، لأنَّ المقصودَ بالنَّفي، هو المقصودُ بالفتنةِ، فكان ذكرُه بالنَّفيِ، أولى من ذكرِ ما هم عليه بالإثباتِ.

المقصودُ بالنَّفي هو المقصودُ بالفتنة، فكان ذِكرُه تعجيبًا من حالِهم

نُكتةُ حذْفِ مُتعلَّقِ فعلِ التَّوبةِ:

لَمّا قالَ اللّه تعالى عن المنافقين: ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ بعدم ذكْرِ متعلَّق فعْلِ التَّوبةِ؛ فلم يقل: (ثم لا يتوبون إلى اللّه)، فجاءَ النَّظمُ بالحذفِ تعبيرًا دقيقًا عن عدمِ حُصولِ أيِّ توبةٍ منهم ولو كانت ناقصةً، فأدنَى درجاتِ التَّوبةِ غيرُ مُتحقِّقةٍ، فكيف يمكنُ تحقُّقُها كاملةً خاصَّةً ممَّن مَرَدَ على النِّفاق فلَمَ تردُّه الفتنُ والمصائب عنه[2]؟! فأفاد حذْفُ متعلَّق الفعلِ العُمومَ، فنفيُ التَّوبة، يشملُ كلَّ توبةٍ يتوقَّعُها المسلمُ، أو لا يتوقّعُها، ولتنزيل فعلِ التّوبةِ منزلةَ الفعل اللّازم، أي: هم قومٌ غيرُ تائبين، وغيرُ متَّصفين بالتَّوبةِ، وهذا أبلغُ في ذمِّهم، والتَّشنيعِ عليهم.

التَّشنيعُ على المنافقين في عدمِ حصولِ أدنى درجاتِ التَّوبةِ، أوِ الاتِّصافِ بها

نُكتةُ العطفِ ﴿وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾، أي: أَدْنَى تذكُّرٍ بما أشارَ إليه الإدغامُ، فلولا أنَّه حصلَتْ لهم زيادةٌ في الرِّجْسِ لَأَوْشكَ تَكرارُ الفتنةِ، أنْ يوهيَ رِجْسَهم إلى أن يُزيلَه، ولكنْ كلَّما أَوْهَى شيئًا خَلَفَه

دوامُ الغَفلةِ مع تَكرارِ الفِتْنة، أعدَمَ أيَّ تذكُّرٍ أو أَوْبةٍ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/68.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/619، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/67 - 68.

مثلُه أَوْ أكثرُ، بسببِ الزِّياداتِ المترتِّبةِ على وجودِ نجومِ القرآنِ، وتتابُعِ افتتانِهم مع عدَمِ التَّنبُّهِ لحكمةِ هذا الافْتنانِ، بسببِ الغفلةِ الضّاربةِ جذورَها في قلوبِهمُ الكافرةِ، فكانَ قولُه تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾، مع قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾، معطوفًا على قولِه: ﴿يُفۡتَنُونَ﴾[1]، أي: حصل لهم أمران بعد الفتنة، وكلاهما عجيبٌ، عدمُ التَّوبة، وعدمُ التَّذكُّر.

فائدةُ دخولِ النَّفيِ على المسنَدِ إليه، ومَجيءِ المُسنَد فعلًا:

اخـتـصـاصُ المنافقين بالغَفلةِ الرّاسخةِ، أمارةُ الخُسرانِ المبينِ، والضَّياعِ المهينِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾، أتى النَّظمُ بجملةِ: ﴿وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾، وهي مبتدَأةٌ باسْمٍ أُسْنِد إليه فعلٌ مع النَّفيِ المُتقدِّمِ عليهما ولم يقل: ولا يذَّكّرون، قصدًا إلى أنَّ انْتفاءَ تذكُّرِهم مُحقَّقٌ[2]، وأفاد هذا النَّظمُ بإيلاءِ النَّفيِ المُسنَدَ إليه، وتقديمِه على المسنَدِ الفعليِّ الاختصاصَ، أي: هم دونَ سِواهم لا يذَّكّرون، فهم اختصاصٌ إضافيٌّ قصدُه المبالغةُ، أي: إن كان هناك أحدٌ لا يتذكّر، فهم دون سواهم، وهذا زيادةٌ في التَّشنيع عليهم والتَّقبيحِ لأفعالِهم.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الفتنةُ والابْتلاءُ:

الفتنةُ الاخْتبارُ في الـخـيـرِ والشَّرّ، والابْتلاءُ الاخْتبارُ بالشَّرّ فقط

الفتنةُ: أشدُّ الاخْتبارِ وأَبْلغُه، وأصلُه عَرْضُ الذَّهبِ على النّارِ لتبيُّنِ صلاحِه من فسادِه، ومنه قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣﴾ [الذّاريات: 13] ويكونُ في الخيرِ والشَّرّ، كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [التَّغابن: 15] وقولِه تعالى: ﴿لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ [الجنّ: 16-17][3]، والابْتلاءُ لا يكونُ إلّا بتحميلِ المكارهِ والمشاقِّ، فلا يُقال: هو مُبتلَى بالنِّعمة، والابْتلاءُ يقتضي

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/53، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/619.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/68.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 396 - 397.

اسْتخراجَ ما عندَ المبتلَى منَ الطّاعةِ والمعصيةِ بتحميلِه المشقَّةَ، وهذا من أصل معنَى بَلَوْتُه، أي: اخْتبرتُه كأنِّي أَخْلقتُه من كثرةِ اخْتباري له، قالَ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ ٣٣﴾ [الدُّخان: 33][1].

العامُ والسَّنةُ:

العامُ يُستعمَلُ بما فيه الرَّخاءُ والخَصْبُ، والسَّنةُ تُستعملُ في الجَدْبِ والقَحْطِ

السَّنةُ تكونُ من أوَّلِ يومٍ عدَدْتَه إلى مثلِه، والعامُ لا يكونُ إلّا شتاءً وصَيْفًا، فالعامُ حَوْلٌ يأتي على شَتْوةٍ وصَيْفةٍ وصَيْفَةٍ وعلى هذا فالعامُ أخصُّ منَ السَّنة، وليس كلُّ سنةٍ عامًا، فإذا عَدَدْتَ من يومٍ إلى مثلِه فهو سنة، وقد يكونُ فيه نصفُ الصَّيفِ ونصفُ الشِّتاءِ، والعامُ لا يكونُ إلّا صيفًا أو شتاءً مُتواليَيْنِ[2]، والسَّنةُ: أكثرُ ما تُستعملُ في الحَوْلِ الَّذي فيه الجَدْبُ، قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الأعراف: 130]، أي: بالجَدْبِ[3]، والعامُ: يُستعملُ بما فيه الرَّخاءُ والخِصْبُ، قالَ تعالى: ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ٤٩﴾ [يوسف: 49][4].

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 10، 139، والرّاغب، المفردات: (بلى).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 348 - 349، والكفوي، الكلِّيّات: 3/12، والجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 127 - 128.

(3) الرّاغب، المفردات: (سنه).

(4) الرّاغب، المفردات: (عوم).

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ١٢٧﴾

[التَّوبة: 127]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا حدَّثتنا الآيةُ السّابقةُ عمّا يُصيبُ المنافقينَ في كلِّ عامٍ منَ الفتنِ الَّتي لا تؤثِّرُ فيهم بالعَوْدِ إلى اللهِ والإنابةِ إليه، ناسب أن يذكرَ نتيجةً من نتائجِ عنادِهم وإصرارِهم على كُفرِهم التّي تكشّفت عن سوءِ وجودِهم في مجتمعِ الأطهارِ، وهو أنَّه كلَّما نزلتْ سورةٌ مُشتملةٌ على ذكرِهم وبيانِ فضائحِهم، تأذَّوْا من سماعِها، ونظرَ بعضُهم إلى بعضٍ، نظرًا مخصوصًا دالًّا على الطَّعنِ في تلكَ السّورةِ، والاسْتهزاءِ بها، وتحقيرِ شأنِها، فالمناسبةُ بين هذه الآيةِ والّتي قبلها، بيانُ أنَّ المنافقين لا يكتفون بعدمِ الاستجابةِ الإيجابيَّةِ، بل يقومون بأفعالٍ سلبيَّةٍ، من شأنِها الاستزادةُ منَ الرِّجسِ والكُفرِ، ففيه زيادةُ تعجيبٍ من حالِهم، وتبشيعٍ لأقوالِهم، وتقبيحٍ لأفعالِهم.

الانتقالُ منَ الفتنةِ وعدمِ التَّوبةِ، إلى الاستهانةِ بالقرآنِ، بتراكُمِ في الرَّينِ، وتباعُدٍ في الأيْنِ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱنصَرَفُواْۚ﴾: الصّادُ والرّاءُ والفاءُ معظمُ بابه يدلُّ على رَجْعِ الشّيءِ، من ذلك صرفتُ القومَ صرفًا وانصرفوا، إذا رجعْتَهم فرَجَعوا، والصَّريفُ: اللبنُ ساعةَ يُحلبُ ويُنصرفُ به. والصَّرفُ في القرآن: التّوبةُ؛ لأنَّه يُرجَعُ به عن رتبةِ المذنِبين[1]، فالصَّرفُ: ردُّ الشَّيءِ من حالةٍ إلى حالة، أوْ إبدالُه بغيرِه، يُقالُ: صَرَفْتُه فانْصرف، قالَ تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ﴾ [آل عمران: 152]، وتصريفُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صرف).

الرِّياح: صرفُها من حالٍ إلى حال[1]، وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾، أي: خرجَ وانْتقلَ المنافقونَ عنِ المقامِ الَّذي ينزلُ فيه الوحيُ، في مجلسِ رسول الله ﷺ إلى منازلِهم، وقولُه تعالى: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ أي: صرفَها من حالِ قابليَّة الخيرِ والهداية إلى حالِ الإصرارِ على الشَّرِّ والضَّلالة[2].

2) ﴿يَفۡقَهُونَ﴾: فقه: الفاءُ والقافُ والهاءُ أصلٌ واحدٌ صحيحٌ، يدُلُّ على إدراكِ الشَّيءِ والعلم به، تقول: فقِهتُ الحديثَ أفقهُهُ[3]، والفِقْهُ: هو التَّوصُّلُ إلى علم غائبٍ بعلمٍ شاهد، فهو أخصُّ منَ العلمِ، قالَ تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ٧٨﴾ [النِّساء: 78].

والفِقْهُ: العلمُ بأحكام الشَّريعة، يقالُ: فَقُهَ الرَّجلُ فَقاهةً: إذا صارَ وفقِهَ وفَقَهَ، أي: علِمَ فَهِمَ فَقهًا، وفَقِهَهُ، أي: فَهِمَهُ، وتفقَّهَ: إذا طلبَه فتخصَّصَ به، قالَ تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التَّوبة: 122][4]، وقولُه تعالى: ﴿قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾، أي: لا يَفهمونَ خطابَ اللّه، ولا يُريدونه[5].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

مَنْ ينْصرفْ عن سماعِ القرآنِ نُـفـورًا، يـمـدّ لسماعِ الباطلِ جسورًا

تُبيِّنُ الآيةُ حالَ المنافقين، عند إنزال سورةٍ منَ القرآنِ، على رسولِ اللّه ﷺ، منَ الخوفِ والقلقِ، والاضطرابِ والرِّيبة، حيث ينظُرُ بعضُهم إلى بعضٍ، لعلْمِهم بآحادِ بعضٍ، مُتسائلين هل رآكم أحدٌ، رؤيةَ معرفةٍ وفهمٍ، أنَّكم غيرُ مؤمنين بالنّازلِ؟ لينسلّوا من مكان نزول الوحيِ، منصرفين عن سماعِ الخيرِ، منقلبين إلى دارِهم الفانيةِ، وجاريتِهم الغانيةِ؛ ليسمعوا ضربَ العود بدلَ بذْلِ الجود،

(1) الرّاغب، المفردات: (صرف).
(2) الشَّوكاني، فتح القدير: 2/590.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فقه).
(4) الرّاغب، المفردات: (فقه).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/366.

متآنسين بحالهم الخَرِبَة، وألسنتهم الذَّرِبةِ، غيرَ عالمين أنَّهم عنِ الفهم بعيدون، وبالفقهِ جاهلون، تاركين بذلك الخيرَ كلَّه، مُقبلين على الشَّرِّ كلِّه.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

دَلالة (الواو) في مطلَعِ السّياقِ الحكيم:

الجامعُ بين الجُملتَين الاستهزاءُ القوليُّ في الأولى، والاستهزاءُ الفعليُّ في الثّانية

قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ﴾، عُطف بالواو، على قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ﴾ والجامعُ بين الجُملتَين هو الاسْتهزاءُ، وهو الإيماءُ والتَّغامُزُ بالعيون إنكارًا للوَحْي[1]، والظّاهرُ أنَّ المقصودَ عطفُ جملةِ: ﴿نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ﴾، على جملةِ: ﴿فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ﴾[2]؛ فهو موضعُ الاستهزاءِ، في الجملة الأولى، كان قوليًّا، وفي الأخرى كان فعليًّا.

دَلالةُ تَكرارِ جُملةِ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ﴾:

تَكرارُ الجُملِ يأتي لفائدةٍ بلاغيَّةٍ، أو للتَّنبيهِ على مَلْحظٍ خفيٍّ

كرَّرَ النَّظمُ جملةَ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ﴾، تأكيدًا لزيادةِ كفرِ المنافقين، وتوضيحًا لتصويرِه ما يحدُثُ من فعلِهم وقولِهم، اسْتهزاءً منَ الإيمانِ والقرآن[3]، وللإشارة إلى اختلافِ الوقتِ بالنّسبة للنّزول الذي يقولون عنده: ﴿أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ﴾، وبالنّسبة للسّورة الّتي عند نزولها ينظُرُ بعضُهم إلى بعضٍ، أو لاختلافِ السّورتين، بأنَّ المرادَ هنا سورةٌ فيها شيءٌ خاصٌّ بهم[4].

غَرَضُ تنكيرِ لفظِ ﴿سُورَةٞ﴾:

نُكِّرت كلمةُ ﴿سُورَةٞ﴾ ولم تُقيَّد بكاشفٍ عن مضمونِها، لعدمِ إرادةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/68.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/54.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/54.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/68.

فضحُ ما انْطوتْ عليه قلوبُ المنافقينَ، منَ القُبحِ المُشينِ، والمُنكرِ المُهينِ

سورةٍ بعينِها، فالمنافقون بمجرَّد نزول سورةٍ منَ القرآن، يَنسَلّون تاركين ما في الوحيِ النّازلِ منَ الأوامرِ والنَّواهي والإرشاداتِ رغبةً عنها، فسماعُ القرآن أيًّا كان يُزعجُهم، فالتَّنكيرُ للإطلاق، ونكتةُ ذلك أنَّ المنافقين يفِرّون من سماع القرآن النّازلِ بقطعِ النَّظرِ عن مضمونِه، فكيف إذا ضُمِّن الكشفَ عن خَبيئِ نواياهم، ودفينِ صدورِهم.

سرُّ التَّعبيرِ بالفعل ﴿نَّظَرَ﴾:

نــظــراتُ المنافقين المومية بالانصرافِ عن مجلسِ الوحيِ، هــي كــالــقــول الّذي يُفهِمُ

التَّعبيرُ بالنَّظرِ، في قولِه تعالى: ﴿نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ﴾، يدلُّ على دأبِ المنافقين في إخفاء أمرهم، واجتماعِ قلوبهم المريضةِ على الفساد، وسوءِ أدبهم؛ وغفلتِهم عن مراقبة اللّه أفعالهَم وحركاتِهم؛ حيث إنَّهم كانوا حينئذٍ في مجلسِ النَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّ نَظرَ بعضِهم إلى بعضٍ تعلَّقَتْ به أداةُ الظَّرفيَّةُ، وهي ﴿وَإِذَا﴾، فتعيَّنَ أنْ يكونَ نظرُ بعضِهم إلى بعضٍ، حاصلًا وقتَ نزولِ السّورة، فالتَّعبيرُ بالنَّظر فيه تصويرٌ للغةِ الجسمِ، وأنَّهم يسترقون الأوقات، لينظرَ بعضُهم إلى بعضٍ غامزين لامزين، ليخرجوا من مكان نزولِ الوحي، فليس المرادُ أنَّهم قالوا ذلك بلسانِهم بل قالوه بإيماءاتِهم، وفيه دليلٌ على أنَّ الإيماءَ بالنَّظر، كلامٌ يُفهِمُ، وقصدٌ يدركُ، وفي هذا المعنى، يقول الأحنفُ بنُ قيسٍ:

وَلَمّا الْتَقَيْنا والدُّموعُ سَواجِمٌ *** خَرِسَتُ وَطَرْفي بِالهَوَى يَتَكَلَّمُ

حَواجِبُنا تَقْضِي الحَوائِجَ بَيْنَنا *** وَنَحْنُ سُكوتٌ والهَوَى يَتَكَلَّمُ(1)

دَلالةُ ﴿نَّظَرَ﴾ على التّعجّب والاستفهامِ:

أسرارُ المنافقين مكشوفةٌ، في كلماتِ النَّظْمِ المُبينِ

ويدلُّ كذلك على أنَّهم كاتمونَ تَعجُّبَهم، من ظُهورِ أحوالِهم، خَشيةَ الاعْترافِ بما نُسِبَ إليهم، ولذلك اجْتَزَوْا بالتَّناظُرِ دون

(1) البيت للأحنف بن قيس، ينظر ديوانه، ص: 294، بغير هذه الرّواية، وينظر شهاب الدّين البجائيّ، التّعليقة السّنيّة في حلّ ألفاظ الأجروميّة، ص: 64. وقد ورد البيت الثّاني وهو الأشهر، بهذه الرّواية:
تحدّث عنّا في الوجوه عيونُنا *** ونحنُ سكوتٌ والهوى يتكلّم

الكلام، فالنَّظرُ هنا دالٌّ على ما في ضميرِ النّاظرِ منَ التَّعجُّبِ والاسْتفهام، وفيه ما هو أدلُّ من ذلك وأَعْلَى شأنًا، وهو تجلِّي صفةِ البصَرِ - واسْمُها البصير - ، وصفةِ العلم - واسْمُها العليم - للّه الأحدِ ﷻ الَّذي أبْصَرَ نظرَ المنافقين بعضِهم إلى بعضٍ لا يراهم أحدٌ، وعلمَ ما تُكِنُّه خَلَجاتُ قلوبِهم من كلماتٍ، لم يَبوحوا بها ولم يُظهروها، لكنَّ اللّه تعالى علِمَها وأوحَى بها إلى نبيِّه ﷺ، قرآنًا يُتْلَى ويُسمَعُ إلى قيامِ السّاعة[1].

سِرُّ اسْتعمالِ لفظِ ﴿بَعۡضُهُمۡ﴾ تعريفًا، و﴿بَعۡضٍ﴾ تنكيرًا:

الإيجازُ مع دَلالةِ اسْتغراقِ نظَرِ الجميعِ للجميعِ

دلَّ اسْتعمالُ النَّظمِ الكريمِ للفظِ ﴿نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ﴾ على حُصولِ النَّظرِ منَ الجميعِ دون استثناء، أي: ينظُرُ الجميعُ إلى الجميعِ على طريقِ التَّعاكُسِ والمقابلةِ، فبعضُهم ينظُرُ إلى بعضٍ، فبعضُهم النّاظرُ الأوَّلُ يصبحُ منظورًا إليه من بعضِهمُ الثّاني فيتحقَّقُ النَّظرُ منَ الجميعِ، فيستغرقُ النَّظُرُ جميعَ الموجودين، فكلُّ واحدٍ منهم ناظرٌ ومنظورٌ إليه، وهذا يدلُّ على أنَّ النَّظرَ بينَهم كان نظرَ تفاهُمٍ فيما هو سرٌّ بينهم، ويدلُّ كذلك على مَدَى الشَّكِّ في قلوبِهم خَشيةَ أن يكونَ قدِ اطَّلَعَ عليهم من يَبوحُ بأسرارِهم، وهذا كلُّه يدلُّ دَلالةً بيِّنةً على براعةِ النَّظمِ في إيجازِ العبارةِ مع إيصالِ المتدبِّرِ التّالي أوِ السّامعِ لما يكتنِزُه الاخْتصارُ من وضوحٍ وجلالِ المُراد[2].

فائِدةُ المعوَّض عنه بالتّنوين في كلمة ﴿بَعۡضٍ﴾:

عوِّض بالتَّنوين عن ذكر اسْمِهم، كما عُبِّر بالنَّظر عن قولِهم

الفائدةُ هنا، أنّ أصلَ الكلام: (نظر بعض المنافقين إلى بعضهم)، فأضاف (بعض) الأوَّل إلى ضميرِهم اكتفاءً بالعلم بهم، وجاء لفظُ (بعض) الآخر مُنوّنًا عِوضًا عنِ الكلمة المحذوفةِ؛ إيماءً إلى حال هؤلاء منَ التَّخفّي في صفوف المؤمنين، ثمَّ التّخلّي عن مُؤازرتهم، والتّولّي عنهم.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/68.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/69.

فكأنَّ حذْفَ المضاف إليه، ومَجيءَ التّنوين عِوضًا عنه يَحكي حركاتِ النّاظرين بالصَّوت والصّورةِ.

نُكتةُ استعمالِ حرفِ الجرّ ﴿إِلَىٰ﴾:

انتهاءُ غايةِ النَّظرِ في الزَّمانِ والمكانِ، هو غرَضُ الحرف في البيانِ

قولُه تعالى: ﴿نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ﴾، اسْتعمالُ حرفِ ﴿إِلَىٰ﴾، أفادَ إيصالَ معنى الفعل ﴿نَّظَرَ﴾ إلى ما بعدَه، ولتحقُّق غايةِ هذا النَّظر، وهو هنا نظرُ خوفٍ وشكٍّ لأولئكَ المنافقينَ، في أنْ يرصدَ أحدٌ منَ المسلمين تلك النَّظراتِ السّاخرةَ من نزول القرآن، فهي تفيدُ انتهاءَ الغايةِ في المكان، أي: مكانِ نظرِهم وهو بعضُهم الآخرُ في قولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ بَعۡضٍ﴾[1].

علّةُ فصلِ جملةِ: ﴿هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ﴾:

جُملةُ الاستفهامِ بيانٌ للجملةِ السّابقةِ

جاءتْ جملةُ: ﴿هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ﴾ بيانًا لجملةِ ﴿نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ﴾؛ لأنَّ النَّظر تفاهموا به فيما هو سرٌّ بينهم، من خلال النَّظر، والجملةُ مقولُ قولٍ محذوفٍ تقديرُه: قائلين: ﴿هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ﴾.

غرَضُ الاسْتفهامِ بالحرف ﴿هَلۡ﴾:

اعْتقادُ المنافقين أنَّ الله لم يُطْلع نبيَّه والمؤمنينَ على أسرارِهم

قولُه تعالى: ﴿هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ﴾، وفيه نلاحظُ أنّه لَمّا كانَ النَّظرُ فيما بينَهم نظرَ تفاهُمٍ صحَّ بيانُ جملتِه بما يدلُّ على الاسْتفهام التَّعجُّبيّ، ففي هذا النَّظم إيجازُ حذفٍ بديعٌ دلَّتْ عليه القرينة، والتَّقديرُ: وإذا ما أُنزِلتْ سورةٌ فيها فضيحةُ أمرِهم نظرَ بعضُهم إلى بعضٍ بخائنةِ الأَعْيُنِ مُستفهمينَ مُتعجِّبينَ من اطِّلاع النَّبيِّ ﷺ على أسرارِهم، أي: هل يراكم من أحدٍ إذا خَلَوْتُم ودبَّرتُم أمورَكم؟ لأنَّهم بكفرِهم لا يعتقدونَ أنَّ اللّه أَطْلَعَ نبيَّه ﷺ على دَخيلةِ أمرِهم[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/68.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/69.

سِرُّ اسْتعمالِ مُفردةِ النَّظَرِ والرُّؤيةِ، في سياقٍ واحدٍ:

النَّظرُ تمحُّضٌ للبَصر، والرُّؤيةُ مُشرَبةٌ بالإدراك، وكلاهما توجُّسٌ من كشفِ نفاقِهم

لَمّا كانَ النَّظَرُ هو الإقبالُ بالبصرِ، وتوجيهُه نحو المَرئيِّ، كانَ نظرُ المنافقين بعضِهم لبعضٍ مقصودًا بهذا الإقبالِ، مع تحقُّقِ ما يُريدونه منه وهو السُّخريةُ والاسْتهزاءُ بالقرآن، وكان لا بدَّ أن يرافقَه مع هذا القصد، إدراكُ المَرئيِّ بالرُّؤية، أي: إدراكُ بعضِهم لبعضٍ بهذا النَّظرِ، ليتحقَّق مرادُهمُ الدَّنيءُ من ذَيْنك النَّظرِ والرُّؤية، ولهذا ساقَ بيانُ اللّه تلكُمُ المُفردَتَيْن، في سياقٍ واحد.

فالنَّظرُ كان نظرَ تفاهمٍ، فيما بينَ المنافقين، والرُّؤيةُ فيها معنَى العلمِ بالإدْراك، أي: هل يراكم أحدٌ منَ المسلمين، عالِمًا بحقيقةِ شأنِكم الَّذي أنتم فيه، أو مُتفرِّسًا لما يدورُ في نفوسِكم، في هذا الحالِ الَّذي أنتم عليه[1]؟

فائِدةُ دخولِ حرفِ ﴿مِّنۡ﴾، على لفظِ ﴿أَحَدٖ﴾:

إفادةُ (مِنْ) تأكيدَ العُمومِ في السّياقِ المفهومِ

أفادَ دخولُ حرفِ ﴿مِّنۡ﴾ على لفظِ ﴿أَحَدٖ﴾، في قولِه تعالى: ﴿هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ﴾ العمومَ؛ بل تأكيدَ العموم، أي: هل يراكم أيٌّ منَ المؤمنين إنِ انْصرفتُم، فإنَّه يشقُّ علينا سماعُ مثلِ هذا، ويشُقُّ علينا أنْ يطّلِعَ المؤمنونَ على هذا السِّرِّ منّا[2]، وهو ما يعكسُ جُبنَهم وشديدَ خوفِهم، من رؤيةِ أحدٍ أيًّا كان لهم.

نوعُ التَّراخي ودَلالتُه بالحرف﴿ثُمَّ﴾:

بيانُ التَّراخي الزَّمنيّ، في انْتهازِ الفُرصةِ للانصرافِ من مجلسِ الوحْيِ، دونَ علمِ أحدٍ

لَمّا كانَ انْصرافُ المنافقينَ عن مِثْلِ هذا المقام - وهو مقامُ نُزولِ الوحيِ بالقرآن - مُستهجَنًا، أشارَ النَّظمُ إلى شدَّةِ قُبْحِه بأداةِ التَّراخي الزَّمنيِّ، فقال: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ﴾، فالتَّراخي باعْتبارِ وِجدانِ الفُرصةِ والوقوفِ على عدمِ رؤيةِ أحدٍ منَ المؤمنين[3].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/531.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/54.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/54، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/620.

الانصرافُ مغادرةٌ دون انتفاعٍ، بخلافِ الذَّهابِ فيكونُ بعدَ الانْتفاعِ

دَلالةُ اخْتيارِ مُفردةِ ﴿ٱنصَرَفُواْ﴾:

دلَّ اخْتيارُ الفعلِ ﴿ٱنصَرَفُواْ﴾ على عدمِ انْتفاعِهم بما في تلكَ السّورةِ النّازلةِ منَ الإخبارِ بالمغيَّباتِ الدّالِّ على صدقِ رسولِ اللّه ﷺ، فجاءَ انْصرافُهم قصدًا منهم لعدم الانْتفاعِ من مجلسِ الوَحْي، لذا جاءَ التَّعبيرُ بالانصرافِ دونَ الذَّهابِ الّذي يكونُ بعدَ حصولِ المقصودِ منَ الانْتفاعِ وانْتهاءِ المجلس(1).

من ينصرفُ عن سماعِ الحقِّ بإرادتِه، يُصرفُ قلبُه عنِ الإيمانِ جَزاءً وِفاقًا

بَلاغةُ الاسْتئنافِ البيانيِّ، في ذكْرِ صرْفِ القلوب:

جملةُ: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾، مستأنفةٌ اسْتئنافًا بيانيًا؛ لأنَّ ما أفادَه قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ﴾ من عدمِ انْتفاعِهم بما في تلكَ السّورةِ النّازلةِ من أخبارٍ بمغيَّباتٍ وأحكامٍ، تدلُّ على صدقِ رسولِ اللّه ﷺ، يُثيرُ سؤالَ من يسألُ عن سببِ عدمِ انْتفاعِهم واهتدائِهم به، فيُجابُ بأنَّ اللّه صرفَ قلوبَهم عنِ الفَهْمِ بأمرٍ تكوينيٍّ، فحُرِموا الانْتفاعَ بأبلغِ واعظ(2).

انصرفَ المنافقونَ عنِ القرآنِ، فصرفَ اللّه قلوبَهم عنِ الهداية

فنُّ الجناسِ بين ﴿ٱنصَرَفُواْ﴾ و﴿صَرَفَ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ جِناسٌ(3)، يبيِّنُ بلاغةَ النَّصِّ القرآنيِّ، في سياقِ حديثِه عنِ المنافقينَ الَّذينَ انْصرفوا عن مجلسِ رسولِ اللّه ﷺ، أي: مجلسِ الوحيِ ونزولِ القرآنِ فيه، على رسولِ اللّه ﷺ، فلم يكتسبوا عِبرةً ولا إيمانًا، من نزولِ السّورةِ الَّتي أطْلعتِ المؤمنينَ على أسرارِهم، بل كانَ قُصارَى أمرِهم التَّعجُّبَ والشَّكَّ، في أن يكونَ قدِ اطَّلعَ عليهم من يبوحُ بأسرارِهم، فكانَ انصرافُهم بلا عِبرة، عند ذلك صرفَ اللّه قلوبَهم عنِ الفهمِ بأمرٍ تكوينيٍّ، فَحُرِموا الانْتفاعَ بأبلغِ واعظ، وكان

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/69.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/620، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/69.

(3) الجناسُ اصطلاحًا: هو أن يتشابه لفظان في النُّطقِ وأن يختلفا في المعنَى، ينظر: علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، ص: 263، وجامعة المدينة العالمية، البلاغة، البيان والبديع، ص: 509.

ذلك عقابًا لهم بسببِ أنَّهم لا يفهمونَ الدَّلائل؛ بمعنَى لا يتطلَّبونَ الهُدَى بالتَّدَبُّرِ فيفهموا[1]. فكان الجناسُ هنا مُتحقِّقًا بالانْصرافِ عنِ الذِّكرِ، بصرفِ القلبِ عنِ الخير، والأصلُ فيه واحد، وهو الذَّهابُ عنِ الشَّيء، أمّا المنافقونَ فذهبوا عنِ القرآن[2].

سِرُّ إسنادِ فعلِ ﴿صَرَفَ﴾، إلى لفظِ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾:

إيحاءٌ بالغضبِ الإلهيّ، ودعاءٌ منَ المؤمنين على المنافقين

قولُه تعالى: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾، أُسند فعلُ الصَّرفِ إلى لفظِ الجلالةِ، فلم يقل: (صُرفت قلوبُهم)، وذلك لزيادة تهويلِ الموقفِ بأنَّ الذي صرف قلوبهم هو الله تعالى، وهو يوحي بالغضبِ الشَّديد على المنافقين، لتعْيينِ اسمِ الصّارفِ للقلوبِ وهو الله تعالى، وفيه تعليمُ الدُّعاء عليهم ضمنًا، فهو إخبارٌ منَ الله تعالى، دعاءٌ عليهم منَ المؤمنين.

نُكتةُ اختيارِ لفظِ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾:

تربيةُ المهابةِ في القلوبِ، والتَّرهيبِ في النُّفوسِ، من مقاصد البيانِ القرآنيّ

في إيرادِ النَّظم القرآنيِّ في هذه الآية، للفظِ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾، في قولِه تعالى: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ دونَ سِواه من أسماء الله الحُسنى، زرعٌ للمهابةِ في القلوب، وزيادةُ تهويلِ الموقف، فإنَّ الَّذي فعلَه المنافقون من إعراضِهم وانصرافِهم عنِ القرآنِ، جِدُّ قبيح، ولذلك كان الَّذي صرفَ قلوبَهم عنِ الهداية، هو الله ﷻ لا أحدَ غيرُه[3].

غَرَضُ الخبرِ في سياقِ الآيةِ الكريمة:

تنبيهُ النّاسِ إلى خطرِ النِّفاقِ، وبيانُ مآله التّعيسِ، في الدُّنيا والآخرة

قولُه تعالى: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾، وفيه لَمّا انصرفَ المنافقون عن سماعِ القرآنِ والانْتفاعِ بما فيه من بيان قصدًا منهم وتكبُّرًا، صرف

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/69.

(2) وبهذين التَّوجيهين للمعنَى المراد من تقابُلِ كلِّ شطرٍ من شطريِّ الجناسِ يتَّضح أنَّ الجناس ليس هو مجرَّد تزيينٍ وتحسين واهْتمامٍ بجانب اللَّفظ، بل إنَّه يتعدَّى ذلك إلى البلاغة نَفْسِها والدّخولِ في صميمها بما له من قوَّة الأخذ والتَّأثير، وبما يحقِّقُ من أغراضٍ ومقاصد يفرِضُها السِّياقُ القرآنيّ من خلالِ الحدثِ والمشهد الَّذي توافَر عليه، وبما لَهُ كذلك من مدخلٍ في الإعجاز القرآنيّ. ينظر: الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 7.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/54، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/620.

اللّه بانصرافِهم ذاك قلوبَهم عنِ الفَهمِ فحُرِموا الهدايةَ، فكان ذلك عقابًا لهم بسببِ أنّهم قومٌ مُعرضونَ عنِ الفقه، لا يُريدون الهُدَى ولا يَحرصونَ على طَرْقِ بابِه بالسَّماعِ المتدبِّرِ لسوَرِ القرآن، وقولُه تعالى: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ دعاءٌ عليهم بسببِ كِبْرِهم ومُرودِهم على النِّفاقِ وتشبُّثِهم به[1]، واللّه تعالى يقولُ: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦﴾ [الأعراف: 146]. والأمرُ مُحتَملٌ بين المعنَيَيْن: أن يكونَ إخبارًا لما كان لهم ودعاءً عليهم، أمّا الإخبارُ فمنَ اللّه تعالى، وأمّا الدُّعاءُ فمنَ المؤمنين، أي: اسْتوجَبوا ذلك بأنَّهم قومٌ لا يفقهون، أي: لا يفهمونَ عنِ اللّه ولا عن رسولِه ﷺ[2]، فالمقصودُ حقيقةً بالإخبارِ الدُّعاءُ عليهم، وبيانُ شديد غضب اللّه عليهم، وأبى ابنُ عاشورٍ أن يكون دعاءً عليهم بسبب اللّحاقِ[3]، والصَّحيحُ أن لا تعارُضَ، فإنَّ اللّه سبحانه دعا عليهم بسبب رفضِهم الفقهَ، فإنّ عدمَ فقهِهم هو رفضُ الفقه لا جهلٌ طبيعيٌّ.

نُكتةُ توجيهِ تخصيصِ القلوبِ بالصّرف، في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

القـلـوبُ هي مـوضـعُ الفقهِ والتّدبُّرِ لكلامِ اللـه، وهـي علامةُ القَبولِ

وقعَ الفعلُ على القلوبِ لا الوجوهِ أوِ الأبدانِ، في قولِه تعالى: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾؛ فلم يقل: (صرفهم اللّه) أو (صرف اللّه وجوههم) ونحوَ ذلك؛ لأنَّ القلوبَ هي محلُّ الفهمِ والفِقهِ والتَّدبُّرِ والتَّفاعلِ مع كلامِ اللّه تعالى في قرآنه الكريم أو عدمِ ذلك كلِّه، وهي محلُّ الهدايةِ أوِ الغَوايةِ كذلك، فقد قالَ تعالى عنِ المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/176 - 177، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/69.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/100.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/69.

﴿زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ [الأنفال: 2]، وقال عنِ الكافرين: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179]، وقال تعالى: ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ [التَّوبة: 77].

معنَى الباء في: ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾:

عدمُ الفقهِ سببٌ في الانصرافِ عنِ الإيمانِ، والإيغالِ في عَمايةِ النّفاق

الباءُ للسَّببيَّة في قولِه تعالى: ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾، فهي تُنبئُ أنَّ ما بعدَها علَّةٌ أو سببٌ لما قبلَها، فقد علَّلَ النَّظمُ قولَه تعالى: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ بقولِه تعالى: ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾[1].

دَلالةُ المؤكِّدات، في سياق الآيةِ الكريمةِ:

الرَّدُّ على من ظنَّ أنَّ ذكاءَ المنافقين ولحْنَهم، فقهٌ وفهمٌ

جاءتِ المؤكِّداتُ في قولِه تعالى: ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾، للدّلالةِ على تحقيقِ وصْفِهم بتمامِه وكمالِه، أي: المنافقون حقيقةً وصِدْقًا، هم في غايةِ عدمِ الفقهِ وعدمِ الفهمِ، وغرضُ التَّوكيد بيانُ أنَّ ذكاءَهم وحيلتَهم ولحْنَ قولِهم لا علاقةَ له بالفقه، ففيه ردٌّ على من ظنَّ أنَّ المنافقين يمتلكون فقهًا، بما يُظهرونه منَ الذّكاء أو لحْنِ الكلامِ، وهذا أمرٌ واقعٌ فقد ينخدع النّاسُ بمن يمتلكُ أدواتِ الإقناعِ، بأنَّه صاحبُ فهمٍ وفقهٍ، والحقُّ أنَّ الفقهَ المطلوبَ هو فقهُ الدِّين، ومعرفةُ مرادِ اللهِ تعالى من إنزالِ كتابه.

سِرُّ ذكرِ لفظِ ﴿قَوۡمٞ﴾:

المنافقون يجتمعون على باطلِهم سِرًّا وجهرًا، ويقومون على كُفرِهم سِرًّا

قولُه تعالى: ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾، آثر النَّظمُ فيه ذكرَ ﴿قَوۡمٞ﴾ دون أن يقول: (بأنَّهم لا يفقهون)، وذلك أنَّ إظهارَ ما يمكنُ إضمارُه يدلُّ على أهميَّة مكانةِ هذا المُظْهَرِ؛ فحديثُ القرآنِ عنِ المنافقين وسوءِ أَدَبِهم في مجلسِ رسولِ اللهِ ﷺ، وسوَرُ القرآنِ تنزلُ بوحيٍ منَ اللهِ، وهم يُعرضونَ عنها ويَنكُصون عنِ التَّعرُّضِ لسماعِها، ويتسلَّلون مُنصرفِينَ عن مجلسِها، فذكرَهم القرآنُ في هذا المشهدِ، وتلك الحالةِ، باعتبارِهم قومًا قاموا على هذه الأخلاقِ وهذه السُّلوكيّات،

(1) البقاعيّ، نظمُ الدُّرر: 9/54، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/620.

ففيها إشارةٌ إلى أنَّ المنافقين لا يُمارسون خُبثهم ومكرَهم إلّا بتخطيط سابقٍ، واتِّفاقٍ فيما بينهم، وهو ما تُترجمُه الآيةُ مِن نظرِ بعضِهم إلى بعضٍ، واستجابتِهم لبعضهم من مجرَّد النّظرِ، وفيه تشنيعٌ عليهم، وفضحٌ لألاعيبِهم وشدَّةِ طَيْشهم، وسفاهةِ أحلامِهم، وعدمِ فهمِهم لحقائقِ الأمور؛ فقال: ﴿قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾.

بلاغةُ إيثارِ النَّفْي ﴿لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ على الإثبات:

النَّفيُ أبلغُ في إثباتِ عدمِ فِقْهِ المنافقين، لعمومِه بنفيِ كلِّ ملابساتِ الفقهِ المحتمَلةِ

نُفيَ الفقهُ عنِ المنافقين، في قولِه تعالى: ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾، والنَّفيُ أبلغُ منَ الإثْبات، فلو أنَّه قال: (يجهلون أو يفسُقون)؛ لاتَّجه الجهلُ أو الفسقُ إلى بعضِ أقوالِهم وأفعالهم، فيظنُّ السّامعُ عند ذلك أنَّهم في جوانبَ أُخرى ليسوا جاهلين ولا فاسقين، والحالُ أنَّهم هم في جميعِ أحوالِهم وتفكيرِهم وطرائقِ سلوكِهم، عَديمو الفقهِ والتَّدبُّرِ والفَهم، فهم لا يتدبَّرونَ حتَّى يَفْقَهوا ولا يَفْهمونَ عنِ اللّه ولا عن رسولِه شيئًا، ممّا فيه صلاحُهم واسْتقامةُ أحوالِهم[1]؛ فالنَّفيُ عمَّهم وطمَّهم وغمرَهم بأنَّهم قوم لا يفقهون.

نُكتةُ إيثارِ نَفْيِ (الفِقهِ) دونَ (العلمِ) أوِ (العقلِ):

نفيُ الفقهِ أبلغُ، لبيانِ أنَّ المنافقين يأبَوْنَ الاقتناعَ مع قدرتِهم على الإدراك

قولُه تعالى: ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾، وفيه أنّه لَمّا كان الفقهُ هو العلمُ بمقتضَى الكلامِ مع تأمُّلِه، والعلمُ هو الإدراك لمعنَى اللَّفظ، ويمكنُ أن يكونَ العلمُ في الكلامِ وغيرِه[2]، كان إدراجُ السِّياقِ للفعلِ ﴿يَفۡقَهُونَ﴾، أقومَ قيلًا من (يعلمون) أو (يعقلون)، فالمنافقونَ لا يريدون سماعَ كلامِ اللّه في سوَرِ القرآنِ الَّتي تنزِلُ على رسول اللّه ﷺ؛ بل ينصرفونَ عنها وعن مجلِسِها، ولو أنَّهم تأمَّلوا ما فيها بعد سماعِها لَفقُهوا وفهموا ما احْتوتْ عليه واسْتجابوا فآمنوا وخضعوا، لكنَّهم كانوا مُعرضينَ عنها تمامَ الإعراض، لاهينَ عنها تمامَ

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/100، والزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/223.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 412 - 214، والجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 160.

الالْتهاء، فالعلمُ بالشَّيءِ وعقلُه وإدراكُه دونَ تأمُّلِه وتدبُّرِه والعملِ به لا قيمةَ له ولا يُرْجَى منه نفعٌ لصاحبِه[1].

نُكتةُ حذفِ المفعولِ به:

إثباتُ عدمِ الفقهِ لسلوكِهم وأقوالِهم مُطلقًا، وهو أشدُّ ذمًّا، وأقبحُ وصْفًا

قولُه تعالى: ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾، وفيه لم يذكرِ النّظمُ مفعولَ ﴿يَفۡقَهُونَ﴾ لسببَيْن: الأوَّلُ لدلالة ما قبلَه عليه، أي: لا يفقهونَ ما احْتواه القرآنُ، ممّا يوجبُ إيمانَهم والوقوفَ عندَه، والآخرُ: لعدم الاهتمامِ بشأنهم، وذكرِ ما كان يمكنُ أنْ يفعلوه، ليحصلَ لهم الفقهُ والفهم، ذلكَ أنَّهم انْصرفوا وأعرَضوا، فصرفَهمُ اللّه عنِ الهداية، بقولِه: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾، فكانَ ذلك فصلًا وقطعًا لأيِّ احْتمالٍ، في أن يتسلَّلَ أيُّ فقهٍ أو فهمٍ أو هدايةٍ لقلوبهم[2]، ولإثبات نفْيِ الفقه عنهم، فهم متّصفون بعدمِ الفقه مطلقًا، وهذا أبلغُ في الذَّمِّ؛ لما فيه من إلباسِهم لباسَ الجهل الثّابتِ، والحُمقِ الدّائم.

الفروقُ المُعجَميَّةُ:

النَّظرُ والرُّؤيةُ:

النَّظرُ إقبالُ البصرِ نحوَ المَرئيِّ، والرُّؤيةُ إدراكُ المَرئيِّ

النَّظَرُ: طلبُ الهُدَى، والشّاهدُ قولُهم: نظرتُ فلم أرَ شيئًا، والنَّظرُ: طلبُ ظهورِ الشَّيء، ويكونُ النّاظرُ الطّالبُ لظهورِ الشَّيء بإدراكِه من جهةِ حاسَّةِ بصَرِه أو غيرِها من حواسِّه، والنَّظرُ بالقلب من جهةِ التَّفكُّر، ولذلك كان النَّظَرُ أيضًا هو الفكرُ والتَّأمُّلُ لأحوالِ الأشياء، والنَّظَرُ يشاهَدُ بالعَيْن، فالنَّظرُ تقليبُ العيْنِ حيالَ مكانِ المرئيِّ طلبًا لرؤيته.

وأمّا الرُّؤيةُ: فهي إدراكُ المرئيّ، ولَمّا كان اللّه تعالى، يرى الأشياءَ من حيث لا يطلبُ رؤيتَها، صحَّ أنْ لا يوصَفَ بالنَّظر، فالنَّظرُ: الإقبالُ بالبصرِ، نحوَ المرئيِّ، والرُّؤيةُ: إدراك المرئيِّ، ولذلك قد ينظرُ ولا يراه[3].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 5/531.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/69.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/531، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/69.

الفِقْهُ والعِلْمُ:

الفِقْهُ: هو العلمُ بمقتَضَى الكلامِ مع تأمُّله، ولهذا لا يُقالُ: إنَّ اللّه يفقَهُ؛ لأنَّه لا يوصَفُ بالتَّأمُّل، وتقولُ لمَنْ تخاطبُه: هل تفقهُ ما أقولُه؟، أي: تأمَّلْه لتعرفَه، ولا يُستعمَلُ إلّا على معنَى الكلام، ومنه قولُه تعالى: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ٩٣﴾ [الكهف: 93]، وسُمِّيَ علمُ الشَّرعِ فِقْهًا؛ لأنَّه مبنيٌّ على معرفةِ كلامِ اللّه تعالى. والعلمُ: هو الإدراكُ للمعنَى من لفظِ المخاطَبِ سواء كانَ خفيًّا أو جَليًّا، ويُستعمَلُ العلمُ في الكلامِ وغيرِه، فتقولُ: علمتُ كلامَه وعلمتُ ذهابَه ومجيئَه(1).

الفِقهُ العلمُ بموجبِ الكلامِ مع التَّأمُّل، والعلمُ الإدراكُ للكلامِ ولغيرِه

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 543 - 544، والكفويّ، الكلِّيّات: 2/38، والجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 297.

﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التَّوبة: 128]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبةُ بين انصراف المنافقين عنِ الهدى، وبيانِ مناقبِ الرّسول المُبلِّغِ للنّاسِ على المَدَى

لَمّا أمرَ اللّه تعالى رسولَه ﷺ أن يُبلِّغَ في هذه السّورةِ إلى الخلقِ، تكاليفَ شاقّةً شديدةً صعبةً، يَعسُر تحمُّلُها إلّا لمَنْ خصَّه اللّه تعالى بوجوهِ التَّوفيقِ والكرامة، ختمَ السّورةَ بما يوجبُ سهولةَ تحمُّلِ تلكَ التَّكاليف، وهو أنَّ هذا الرَّسولَ ﷺ منكم، فكلُّ ما يحصُلُ له من العزِّ والشَّرفِ في الدُّنيا، فهو عائدٌ إليكم، وأيضًا فهو بحالٍ يشقُّ عليه ضَررُكم، وتعظُمُ رغبتُه في إيصالِ خيرِ الدُّنيا والآخرةِ إليكم، فهو كالطَّبيبِ المُشفِقِ، والأبِ الرَّحيمِ في حقِّكم، فلمّا عرفتُم أنَّه رسولُ حقٍّ من عندِ اللّه، فاقْبلوا منه هذه التَّكاليفَ الشّاقّةَ، لتفوزوا بكلِّ خير[1]، فالمناسبة بين هذه الآية، وما قبلها، لاسيّما ما يتناول أحوالَ المنافقين، هو بيانُ أنَّ الرّسول ﷺ مشفقٌ على جميعِ أمَّته، رحيم بهم أن يُصيبهم مكروهٌ، أو يَلحقَ بهم عذابٌ أليم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَنِتُّمۡ﴾: عنت: العَيْنُ والنّونُ والتّاءُ أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على مشقَّةٍ وما أشبهَ ذلك، ولا يدلُّ على صحَّةٍ ولا سهولة[2]، والمعانتةُ كالمعانَدةِ لكنَّ المعانتةَ أبْلَغ؛ لأنَّها معاندةٌ فيها خَوْفٌ وهلاك، ولهذا يُقال: عَنِتَ فلان: إذا وقعَ في أمرٍ يخافُ منه التَّلَفَ، يُعْنُتُ عَنَتًا، قالَ تعالى: ﴿لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ﴾ [النِّساء: 25] وقالَ ﷻ: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ﴾ [آل عمران: 118][3]، و﴿لَأَعۡنَتَكُمۡۚ﴾ [البقرة: 220]: ضيَّقَ عليكم وشدَّد،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/177.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عنت).
(3) الرّاغب، المفردات: (عنت).

وأصلُ العَنَت: الضَّررُ والفَساد[1] والهلاك، يُقال: فلان يتعنَّت فلانًا، أي: يطلب ما يؤدّيه إلى الهلاك، وقد أعنت العظمُ؛ إذا هيضَ بعد الجبْرِ[2]، ومعنى قولِه تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ﴾، أي: عَنَتُكم، وهو دخولُ المضرَّةِ والمشقَّةِ عليكم[3].

2) ﴿حَرِيصٌ﴾: حرص: الحاءُ والرّاءُ والصّادُ أصلان: أحدُهما الشَّقّ، والآخَرُ الجَشَع، والثّاني هو المعنيُّ هنا في هذا السِّياق، فيُقال: حرَصَ إذا جَشَع، يحرِصُ حِرصًا فهو حَريص[4]، والحِرْصُ: فَرْطُ الشَّرَه، وفَرْطُ الإرادة، قالَ تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ﴾ [البقرة: 96]، وقالَ تعالى: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ﴾ [النَّحل: 37]، أي: إن تُفرِطْ إرادتكَ في هدايتِهم[5]. ومعنى قوله تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيۡكُم﴾، أي: حريصٌ على إيمانِكم، أو حريصٌ على ضُلّالِكم أنْ يهديَهمُ اللّه ﷻ[6]، أوِ الحريصُ الشَّحيحُ أن يَدخُلوا النّار[7]، وهذه المعاني كلُّها سائغةٌ في دخولِها في معنَى ﴿حَرِيصٌ﴾ في سياقِ الآية.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

يقولُ اللّه تعالى ممتنًّا على المؤمنين، بما أرسلَ إليهم رسولًا من أنفسهم، أي: من جِنْسِهم وعلى لغتِهم، كما قالَ تعالى عن إبراهيمَ ﵇: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾، وكما قالَ ﷻ: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [آل عمران: 164]، فهم يعرفون نسبَه وصفتَه ومدخلَه ومخرَجه وصدقَه وأمانتَه، وهو ﷺ

الرَّسولُ مِنَّةُ الله ورحمتُه بعبادِه، وهو رمزُ الحِرص على المؤمنين، والرّحمةِ والرّأفةِ بهم

(1) ابن قتيبة، غريب الحديث، ص: 124.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/361.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 11/77، والسِّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 324 - 325.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حرص).
(5) الرّاغب، المفردات: (حرص).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 11/77 عن قتادة.
(7) الفرّاء، معاني القرآن: 1/456، وقال القرطبيّ، في الجامع: 8/302: "والحرصُ على الشَّيء: الشُّحُّ أن يَضيعَ ويَتْلَف".

يعزُّ عليه الشَّيءُ الَّذي يُعنِتُ أُمَّتَه ويَشُقُّ عليها، وهو حريصٌ على هدايتِكم، ووصولِ النَّفعِ الدُّنيويِّ والأُخرويِّ إليكم، رؤوفٌ بكم يريدُ بكم كلَّ خيرٍ، رحيمٌ بكم كرحمةِ الأمِّ بطفلِها الرَّضيعِ؛ بل أشدّ(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاسْتئنافِ الابتدائي:

خِتامُ السّورة خلاصةٌ لما سبق، ودعوةٌ لحفظِ مكانةِ الرَّسولِ الأكرم وقدرِه

في هذا الاسْتئناف الابتدائيّ في قولِه تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، مسكُ الختامِ، حيث كانَ في وقوعِها آخرَ السّورةِ ما يُكسِبُها معنَى التَّذييلِ، والخلاصةِ المُحبَّرة، الَّتي انْفتحَ بها مع صاحبتِها الَّتي تَلَتْها بابُ حظيرةِ الإيمانِ والتَّوبةِ، ليدخُلَها مَنْ وفَقهُ اللّه إليها بعد سَعْيِه لها، والحرصِ على طلبِها والتَّمسُّك بها(2).

فائِدةُ التَّوكيدِ والتَّحقيقِ بلفظ ﴿لَقَدْ﴾:

الرَّدُّ على من يُنكرُ الرّسالةَ منَ المنافقين، وتثبيتُ إيمانِ المؤمنين وزيادتِه وزيادتُه

مع كونِ مضمونِ قولِه تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، ممّا لا يتطرَّقُ إليه الإنكارُ، لكنَّها افْتُتحتْ بحرفَي التَّأكيد، وهما اللّامُ و(قد)؛ لقصدِ الاهْتمامِ بهذه الجملةِ، لأهميَّةِ الغَرضِ الَّذي سيقتْ من أجلِه، ولأنَّ فيما تضمَّنتْه ما يُنكِرُه المنافقون، وهو كونُه رسولًا منَ اللّه، ولأنَّ في هذا التَّأكيدِ ما يجعلُ المخاطَبين به منزَّلينَ منزلةَ المُنكِرينَ لمجيئِه، من حيثُ إنَّهم لم يَنْفعوا أنفسَهم بهذا المجيءِ، ولأنَّ في هذا التَّأكيدِ تسجيلًا عليهم مُرادًا به الإيماءُ إلى اقْترابِ الرَّحيلِ؛ لأنَّه لَمّا أُعيدَ الإخبارُ بمجيئِه، وهو حاصلٌ منذُ أعوامٍ طويلة، كانَ ذلك كنايةً عنِ اقْترابِ انْتهائه، وهو تسجيلٌ منه على المؤمنين، وإيداعٌ للمنافقين، ومَنْ بقيَ منَ المشركين، فجاءتْ زيادةُ الجملةِ في هذه السّورةِ، مؤكِّدةً لغرضٍ أهمَّ من إزالةِ الإنكار(3).

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/366 - 367.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/70.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/71.

المجيءُ عبارةٌ عن تبليغ الرِّسالةِ، وأداءِ الأمانة، وإقامةِ الحُجَّة

بَلاغة الاسْتعارةِ التَّبعيَّة، واخْتيارِ الفعلِ ﴿جَآءَكُمۡ﴾:

قولُه تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾، المجيءُ هنا مُستعملٌ مجازًا في الخطابِ بالدَّعوةِ إلى الدِّين، على سبيلِ الاسْتعارةِ التَّصريحيَّة، حيث شبَّه توجُّهَهُ إليهم بالخطابِ الَّذي لم يكونوا يترقَّبونَه، بمجيءِ الوافدِ إلى النّاسِ من مكانٍ آخَر، فاشتقَّ منَ المجيءِ فعلَ ﴿جَآءَكُمۡ﴾، على سبيلِ الاسْتعارةِ التَّبعيَّة، وصرَّح بالمجيءِ على سبيلِ الاسْتعارةِ التَّصريحيَّة، وفي ذلكَ إقامةٌ للمباني مقامَ المعاني لبيانِ أهميَّةِ ذاك المجيءِ فهو ليس مجيئًا عاديًّا؛ بل هو مجيءُ رسولٍ بدعوةٍ ربّانيَّةٍ ورسالةٍ سماويَّةٍ، يُخرجُ النّاسَ بها من ظُلماتِ الكفرِ إلى نورِ الإيمان[1]، ولذلك عبَّر بالمجيءِ دون الإتيان، لتقويةِ معنى التَّبليغِ، وأنَّه واضحٌ كوضوح المحسوساتِ في أعيُن النُّظّار.

مجيءُ رسولِ الله المصطفى، شرفٌ مرامٌ، ورِفعةٌ لا تُرامُ

غَرَضُ تعْدِيَة فعلِ المجيءِ إلى الضَّميرِ ﴿جَآءَكُمۡ﴾:

جاءتْ تعديةُ فعلِ المجيءِ إلى الضَّمير، في قولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾، لإقامةِ الحُجَّةِ الظّاهرة، على مَن اخْتارَه اللّه رسولًا من أنفُسِهم، وبأنَّ اللّه شرَّفَهم بهذا المجيء، فالتَّشريفُ متحقِّقٌ لهم به، ومتحقّقٌ لهم بأنفُسِهم، فيما لوِ اتَّبعوه واهْتدَوْا بهَدْيه، وعزَّروهُ ونَصروه، وهذا المجيءُ كذلك امتنانٌ عليهم، بأنْ كانَ في البدايةِ لهم لا لغيرِهم[2]، وكفى بهذا التَّشريف رِفعةً ونُصرةً في الدُّنيا والآخرة، لمن آمن به واستجاب لدعوتِه.

تحقُّقُ إقامةِ الحُجَّة، في تبليغِ الرِّسالةِ والشَّهادةِ على الأمَّةِ

نُكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي ﴿جَآءَكُمۡ﴾:

قولُه تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾، ساقَ بيانُ اللّه تعالى التَّعبيرَ بمجيئه ﷺ، بصيغةِ الماضي ﴿جَآءَكُمۡ﴾؛ لإفادةِ تحقُّقِ المجيءِ، وتحقُّقِ غرضِه، وخاصَّة أنَّه جاءَ لهم بدايةً ومن

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/71.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/55 - 56. 55 - 56.

أنفُسِهم، فهي إشارةٌ إلى إقامة الحُجَّة في تبليغِ الرِّسالة، وأصبح الأمرُ تحصيلَ حاصلٍ، لا مهربَ منه ولا مفرَّ.

غرَضُ تنكيرِ ﴿رَسُولٌ﴾:

تعظيمُ الرَّسولِ الأكرمِ، ومحبَّتُه واتِّباعُه، من مقاصد الهَدي القرآنيِّ السّامي

جاءَ تنكيرُ ﴿رَسُولٌ﴾، في قولِه تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، لغرضَيْن اثنَيْن:

أوَّلهما: تعظيمُ هذا الرَّسولِ الكريمِ ﷺ، أي هو بحقٍّ رسولٌ، وأيُّ رسول.

ثانيهما: ضرورةُ توفُّرِ دواعيهم على محبَّتِه ﷺ، فهو رسولٌ عنِ اللّه الخالقِ لهم، المالكِ لأمرهم، ومحبَّةُ هذا الدّاعي لهم، تقتضي ملازمَتَه والبُعدَ عمّا يفعلونَه به، منَ الانْصرافِ عنه، وأنَّ ما يحصُلونَ به منَ الشَّرفِ، هو كونُه رسولَ اللّه[1].

سِرُّ إيثارِ عنوانِ الرِّسالةِ، دونَ النُّبوَّةِ، في لفظ ﴿رَسُولٌ﴾:

تنبيهُ النّاسِ أنَّهم مكلَّفون بحملِ الرِّسالةِ، وتأديةِ الأمانة

الرَّسولُ صاحبُ رسالةٍ جديدةٍ بشرعٍ جديدٍ منَ اللّه تعالى يبلِّغُه النّاسَ، والنَّبيُّ: مُبلِّغٌ عنِ اللّه شرْعَ من سَبقَه من رسول[2]، فالرَّسولُ صاحبُ مَهمَّةٍ أعظمَ من مَهمَّةِ النَّبيّ. وبهذا يتبيَّنُ أنَّ إيرادَ السِّياق لعنوانِ الرِّسالة بيانٌ لعظمةِ هذا الرَّسولِ الكريم، وعظمةِ مَهمَّته ورسالتِه، وفيه كذلك لفْتُ انْتباهِ القوم إلى أنَّ الَّذي جاءهم هو رسولٌ منَ اللّه، وهذا يستدعي ضرورةَ اهْتمامِهم بشأنِه ﷺ الَّذي كرَّمهمُ به، ويكونُ هذا الاهتمامُ بإكرامِه، واتِّباعِ رسالتِه، والاهْتداءِ بهَدْيه، وخاصَّةً أنَّه من أنفُسِهم[3]، وفيه تكليفٌ لهم بحملِ الرِّسالة التّي جاء بها رسولُهم ﷺ للنّاس جميعًا، فهم مكلَّفون بهذه الرّسالة، ومُضطلِعون بهذا العِبءِ العظيم.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/55 - 56.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 531، والكفويّ، الكلّيات: 1/108، 4/352، والجرجانيّ، والتَّعريفات، ص: 114، 258.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/56.

بَلاغةُ استعمالِ قَيْدِ ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾:

تحريكُ مشاعرِ الانـتـمـاءِ، للتَّحريضِ على الاتِّباعِ

الأَنْفُسُ: جمعُ نَفْسٍ، وهي الذّاتُ، وإضافةُ النَّفْس للضَّميرِ، أي: هو معدودٌ من ذوي نَسَبِهم، وليس عِدادُه فيهم بحِلْفٍ أو وَلاءٍ أو إلصاق، فهو قُرَيْشيٌّ من أنفُسِهم، فقوله تعالى: ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾، أي: هو من صَميم نَسَبِكم، فأنتُم تَرْجِعونَ معه إلى نَفْسٍ واحدةٍ، بأنَّكم لأبٍ قريب، وذلك أَقْرَبُ إلى الأُلْفةِ، وأَسْرَعُ إلى فَهْمِ الحُجَّةِ، وأَبعدُ عنِ الجدالِ واللَّجاجة. فتعيَّن أنَّ الخطابَ للعرب؛ وفيه امتنانٌ على العربِ، وتنبيهٌ على فضيلتِهم، وفيه أيضًا تعريضٌ بتحريضِهم على اتِّباعِه، وتَرْك مُناوَأته، وأنَّ الأَجْدَرَ بهمُ الافْتخارُ به والالْتفافُ حولَه، كما قالَ تعالى في ذكرِ القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزُّخرف: 44]، أي: يبقى منه لكم ذِكْرٌ حَسَنٌ[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الجمعِ ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾:

الخطابُ للعربِ على جهةِ المِنَّةِ عليهم، وبيانِ فضيلتِهم

التَّعبيرُ بصيغة الجمع ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ الخطابَ للعَربِ قاطبةً، وخاصَّةً من كانَ مِنْ نَسبِهم، وهذا على جهةِ تعديدِ النِّعمةِ عليهم في ذلك؛ إذْ جاءَ بلسانِهم وبما يفهمونَه منَ الأغراضِ والفَصاحةِ وشُرِّفوا به غابرَ الأيّام، وفيه كذلكَ مَدْحٌ لنَسَبِه ﷺ وأنَّه من صميم العربِ وشرفِها، وبيانٌ لفضيلةِ العربِ وامتنانٌ عليهم[2].

دَلالةُ توجيهِ قراءةِ: (من أنفَسِكُم) بفتح الفاء:

بيانُ عراقةِ أصلِ الرّسولِ الكريم، ونفاسةِ مَحْتِدِه، وشرفِ أرومَتِه

قراءةُ قوله تعالى: (مِنْ أَنفَسِكُم)[3] على صيغة أفعلِ تفضيلٍ، هي منَ النَّفاسة، والمرادُ الشّرفُ، فهو ﷺ من أشرفِ العربِ، ففي حديث المُطَّلِبِ بْنِ أَبِي وَداعَةَ، قال: قال العَبّاسُ: «بَلَغَهُ ﷺ بَعْضُ

---

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/100، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/56، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/71.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/100.

(3) هي قراءة شاذَة، نُسبت إلى ابن عبّاس وأبي العالية والضّحاك وابن محيصن ومحبوب والرّؤاسي عن أبي عمرو وعبد الله بن قسيط المكّي ورويس عن يعقوب والزّهري ورويت عن فاطمة وعائشة ﭫ. يُنظر: ابن جنيّ، المحتسب: 1/306، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/65.

ما يَقولُ النّاسُ، فصعِدَ المنبرَ، فحمد اللّه تعالى، وأثنى عليه، وقال: من أنا؟ قالوا: أنت رسولُ اللّه، قال: أنا محمّد بنُ عبد اللّه بنِ عبد المطلب، إنَّ اللّه تعالى خلقَ الخلْقَ، فجعلني في خيرِ خلْقِه، وجعلهم فرقتَين، فجعلني في خيرِ فرقةٍ، وجعلهم قبائلَ، فجعلني في خيرِهم قبيلةً، وجعلهم بيوتًا، فجعلني في خيرهم بيتًا، فأنا خيرُكم بيتًا وخيرُكم نفْسًا»(1). وأخرج البخاريُّ والبيهقيُّ في الدّلائلِ عن أبي هريرةَ، أنَّ رسولَ اللّه ﷺ قال: «بُعِثْتُ من خيرِ قرونِ بني آدم قرنًا فقرنًا، حتّى كنت منَ القرن الّذي كنت فيه»(2)، وأخرج مسلمٌ وغيرُه عن واثلةَ بنِ الأسقع قال: قال رسولُ اللّه ﷺ: «إنّ اللّه تعالى اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيلَ، واصطفى من ولد إسماعيلَ بني كنانةَ، واصطفى من بني كنانةَ قريشًا، واصطفى من قريشٍ بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»(3)، وروى البيهقيُّ عن أنسٍ: أنّ رسول اللّه ﷺ قال: «ما افترق النّاسُ فرقتين إلّا جعلنيَ اللّه تعالى في خيرهما، فأُخرجتُ من بين أبويّ، فلم يصبني شيءٌ من عَهْرِ الجاهليّة، وخرجت من نكاحٍ، ولم أخرج من سِفاحٍ، من لدنِ آدم حتّى انتهيت إلى أبي وأمّي، فأنا خيرُكم نفسًا وخيرُكم أبًا»(4).

سِرُّ الفَصْلِ بين الصِّفةِ، والموصوفِ ﴿عَزِيزٌ﴾ ﴿رَسُولٌ﴾:

قولُه تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ﴾، جاءَ فصلُ الصِّفةِ ﴿عَزِيزٌ﴾ عنِ الموصوفِ ﴿رَسُولٌ﴾، بقولِه تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ للتّنويهِ والإيماءِ إلى أنَّ هذا الرَّسولَ، لمّا كان من أنفُسِكم فلا بدَّ أنَّه يثقُلُ على نفسِه، إيقاعُكم في التَّعبِ والمشقَّة؛ فكانَ هذا الفاصلُ توطئةً لتمكُّنِ الصِّفةِ من موصوفِها؛ تمكُّنًا لا يحتملُ أيَّ شكٍّ في

شأنُ القرآنِ العنايةُ بالطّاقاتِ الموجودةِ لدَى النّاس، بدلًا من إهمالِها أو إغفالِها

(1) رواه أحمد، المسند، الحديث رقم: (1788)، والترمذي، السنن، الحديث رقم: (3532).
(2) أخرجه البخاريّ، كتاب المناقب، باب صفة النّبي ﷺ، الحديث رقم: (3557).
(3) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النّبيّ ﷺ: 4/1782.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/49.

تحقُّقه، وهذا أيضًا تحريضٌ لقومِه لاتِّباعِه ومُؤازرتِه ﷺ، فهو أَرْفَقُ بهم من أَنْفُسِهم بأنفُسِهم، فهذه صفتُه الملازمةُ له في سيرتِه ودعوتِه وحياتِه معهم[1]، فالفصلُ بين الصِّفة والموصوف، بقيدِ ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، فيه توضيحٌ وإبانةٌ في كونِ الرَّسولِ من أنفسِهم، قبْلَ بيانِ كونِه عزيزًا عليه هلاكُهم؛ لأنَّ هذه الإبانةَ، هي تحريضٌ على الإذعان والخضوع، وفيه إيماءٌ إلى قيمةِ أن يكون المرسَلُ من أَنْفَسِ العربِ، فهم قومٌ ما زالتِ الحميَّةُ قائمةً آثارُها في نفوسِهم، وهذا من توجيه القرآنِ للطّاقات، بدلًا من إهمالِها أو نبْذِها.

بَلاغةُ تَعْدِيةِ ﴿عَزِيزٌ﴾، بحرفِ الاستعلاءِ (على):

تصويرُ أسَفِه ﷺ، على هلاكِ القومِ، بما يُترجِمُ رأفتَه ورحمتَه

قولُه تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، الأصلُ في العزيز: الغالبُ، والعِزَّةُ: الغَلَبَة، يُقالُ: عَزَّهُ إذا غلَبَه، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ ٢٣﴾ [ص: 23]، فلمّا عُدِّي ﴿عَزِيزٌ﴾ بحرفِ (على) وهو حرفُ استعلاءٍ؛ دلَّ على معنَى الثِّقلِ والشِّدَّة على النَّفس[2]، أي: يعِزُّ على نفسِه أن يَهلِك قومُه، أو يُصيبَهم سوءٌ، أو يَلحقَهم عذابٌ، فكان لهذا الحرفِ وقعٌ عجيبٌ، حيث صوَّر تمكُّنَ عنَتِهم وهلاكِهم من تفكيرِه ﷺ، واهتمامِه وشعورِه بهم، وهو ما يُترجِمُ عظيمَ رأفتِه، وكبيرَ رحمتِه بهم، التّي اختصَّ بها المؤمنون فيما بعدُ.

بَلاغةُ استعمالِ لفظِ ﴿عَنِتُّمْ﴾، في هذا السِّياقِ:

موافقةُ خُلُقِ الرَّسولِ ﷺ لشريعتِه، في الرِّفقِ بالخلقِ

العَنَتُ: التَّعب، وقولُه تعالى: ﴿عَنِتُّمْ﴾ أي: تعبتُم، ومعناها في هذا السِّياقِ: شاقٌّ عليه حُزنُكم وشَقاؤكم، وهذا كقولِه تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ٣﴾ [الشُّعراء: 3]. وذكْرُ هذا في صفة الرَّسولِ ﷺ: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، يُفيدُ أنَّ هذا خُلُقٌ له فيكونُ أثَرُ ظُهورِه الرِّفقَ بالأُمَّةِ، والحذَرَ ممّا يُلقي بهم إلى العذابِ في الدُّنيا

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/56.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/72.

والآخرة، ومن آثارِ ذلكَ شفاعتُه للنّاسِ كلِّهم في الموقفِ، لتعجيلِ الحساب، ثمَّ إنَّ ذلكَ يومئُ، إلى أنَّ شرعَه جاءَ مناسبًا لخُلُقه، فانْتفَى عنه الحَرَجُ والعُسْرُ، قالَ تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: 185]، وقالَ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ [الحجّ: 78][1].

معنَى ﴿مَا﴾، ونكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الفعلِ الماضي ﴿عَنِتُّمۡ﴾:

الإيماءُ إلى ما عزَّ عليه ﷺ، ممّا وقعَ للعربِ من مشقَّةٍ ومكابَدَةٍ

قولُه تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ﴾، جاءَ التّعبيرُ فيه، بصيغةِ الماضي ﴿عَنِتُّمۡ﴾، مع ﴿مَا﴾ المصدريَّةِ[2] السّابكةِ للمصدرِ، دون الفعلِ الدّالِّ على المستقبلِ، فلم يقل: (ما يُعنتكم)، فيه نكتةٌ دقيقةٌ، وهي إفادةُ أنَّه قد عزَّ عليه عَنَتُهمُ الحاصلُ في الزَّمنِ الَّذي مضَى، وذلك بما لقوهُ من قَتْلِ قومِهم، ومن الأَسْرِ في الغَزَوات، ومن قوارعِ الوعيدِ والتَّهديدِ في القرآن، فلو أُتي بالفعل الدّالِّ على المستقبلِ، لم يكنْ مُشيرًا إلى عَنَتٍ مُعيَّنٍ، ولا إلى عَنَتٍ وقع؛ لأنَّ المصدرَ لا زمانَ له؛ بل كان مُحتملًا أنْ يعزَّ عليه بأنْ يجنِّبَهم إيّاه، ولكنَّ مجيءَ المصدرِ مُنسبِكًا منَ الفعلِ الماضي، يجعلُه مصدرًا مُقيَّدًا بالحصولِ في الماضي، فيكونُ تقديرُه عندَ ذلكَ: عزيزٌ عليه عَنَتُكُمُ الحاصلُ فيما مضَى؛ لتكونَ هذه الآيةُ تنبيهًا على أنَّ ما لَقوه منَ الشِّدَّةِ، إنَّما هو لاسْتصلاحِ حالِهم، لعلَّهم يُخفِضونَ بعدَها من غُلَوائِهم، ويَرْعَوونَ عن غيِّهم ويَشعرونَ بصلاحِ أمرِهم[3].

براعةُ اسْتعمالِ مُفردةِ ﴿حَرِيصٌ﴾، مع حرفِ الاسْتعلاءِ في السّياق:

تشبيهُ حِرصِه ﷺ على أمَّتِه، بحِرصِ النّاسِ على أموالِهم

قولُه تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيۡكُم﴾، الحِرْصُ: شدَّةُ الرَّغبةِ في الشَّيءِ والجَشعِ إليه والتَّمسُّكِ به، وغالبُ الاسْتعمالِ لهذه المُفردةِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/72.
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 1/456، والزَّجّاج، معاني القرآن: 2/477.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/72.

في البُخل، ولمّا تعدَّى هنا إلى ضميرِ المخاطَبين ﴿عَلَيۡكُم﴾ الدّالِّ على الذَّوات - وليستِ الذَّواتُ هي مُتعلَّقُ الحرصِ هنا - تعيَّنَ تقديرُ مُضافٍ، فُهِمَ من مقامِ التَّشريع، بتقدير: على إيمانِكم أو هَدْيِكم، فوصفُ رسولِ اللّه ﷺ في هذا المقام بهذه الكلمةِ للدَّلالةِ على حرصِهِ على أُمَّتِه، وشدَّةِ عنايتِه بهم، ورعايتِه لأحوالِهم، فأقيمتْ هنا مقامَ تشبيهِ الرَّسول ﷺ بمن يحرِصُ على أموالِه الثَّمينةِ، ويخافُ عليها منَ الهلاك، وفيها كذلك تعريضٌ بمن يَحرِصُ على أموالِه، حرصًا أشدَّ من حِرْصِه على دينِ اللّه وشَرْعِه، أو بمَنْ يُفوِّتُ ما يجبُ عليه تجاهَ رسالةِ ربِّه ودعوتِه، ولا يُفوِّت حرصَه على أموالِه وثَروتِه؛ بل حرصُه ﷺ قائمٌ على الحقيقةِ والجوهر، وحرصُ النّاس على أموالهم قائمٌ على الزّائلِ والعَرَضِ[1].

بَلاغةُ الالْتفاتِ منَ الخطابِ إلى الغَيْبَةِ:

رحمةُ اللهِ تُحيطُ بمن حَرِصَ عليها، وتتجاوزُ من تجاوزَها إهمالًا وإغفالًا

قولُه تعالى: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾، وفيه أنّه لَمّا خصَّ اللّه المؤمنينَ من بين سائرِ العربِ وغيرِهم بالرَّأفةِ والرَّحمة، وخاطبَ اللّه أولئك المَعنيِّينَ بمجيئه إليهم، وهو من نَسَبِهم، مع حرصِه على دَفْعِ ورَفْعِ أيِّ مشقَّةٍ عنهم، وذلك في مَعْرِضِ المِنَّة الرَّبّانيَّة العامَّةِ عليهم، بهذا الرَّسولِ الكريم ﷺ، انتقل إلى أسلوبِ الغَيْبة، بتخصيصِ فئةٍ منهم، وهم جماعةُ المؤمنين؛ لأنَّهم مَنْ يستحقّون هذا التَّخصيصَ بالرَّأفةِ والرَّحمة، فهو انتقالٌ منَ الرَّحمةِ العامَّة، إلى الرَّحمةِ الخاصَّة، بمن استحقَّها عن جدارةٍ واقتدارٍ.

معنَى حرفِ الباءِ: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

مَنْ صَحِبَتْه رأفتُه ﷺ، حظيَ بهديِه في الدُّنيا، وشفاعتِه في الآخرة

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، للإلصاقِ المجازيّ، أي: رأفتُه ورحمتُه ﷺ ملازمةٌ لهم لا تُفارقُهم، ويمكنُ أن تكونَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/72.

للمُصاحَبَةِ بمعنَى (مع)، أي: رأفتُه ورحمتُه ﷺ مُصاحبةٌ لهم في جميعِ أحوالِهم[1]. وفي كلا المعنَيَيْن مبالغةٌ في بيانِ شدَّةِ رأفتِه ورحمتِه ﷺ بالمؤمنين، وفي هذين المعنَيَيْن كذلك، بيانُ منَّةِ اللّه على عبادِه المؤمنين، أن أرسلَ إليهم هذا الرَّسولَ الكريمَ بهاتين الصِّفتيْنِ الملازمَتَيْنِ المصاحبَتَيْنِ لهم.

نُكتةُ تقديمِ المتُعلَّقِ على عاملَيْه:

معالمُ علاقةِ المؤمنين الوطيدةِ، بصاحبِ الشّمائلِ الحميدةِ

قولُه تعالى: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾، وفيه تقديمُ المتعلِّقِ ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على عاملَيْه ﴿رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ للدَّلالةِ عل عظيمِ الاهتمامِ بالمؤمنين في توجُّه صِفتَيْ رأفتِه ورحمتِه بهم[2]، وللإيماءِ إلى أنَّ هذه الرأفةَ والرّحمة قاربت أن تكونَ خاصَّةً بالمؤمنين دون غيرِهم، ففيه بيانُ عنايةِ النَّبيِّ ﷺ بالمؤمنين، ورعايتِهم في تربيتِهم على تلك الرأفةِ والرحمةِ.

بَلاغةُ الجمعِ بين صفتَي ﴿رَءُوفٞ﴾ و﴿رَّحِيمٞ﴾:

صفتا الرَّأفةِ والرَّحمةِ، بينَهما عُمومٌ وخصوصٌ مُطلَقٌ في الآيةِ الكريمةِ

الرَّؤوفُ: الشَّديدُ الرَّأفة، والرَّحيمُ: الشَّديدُ الرَّحمة؛ لأنَّهما صيغَتا مبالغة، وهما يتنازعان المجرورَ المتعلِّقَ بهما وهو ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، والرَّأفةُ: رِقَّةٌ تنشأُ عند حدوثِ ضُرٍّ بالمرؤوف به. والرَّحمَةُ: رِقَّةٌ تقْتضي الإحسانَ للمرحوم، فبينَهما عمومٌ وخصوصٌ مُطلَق، ولذلك جُمِعَ بينَهما مع اخْتلافِ لوازمِهما، والمبالغةُ في هاتين الصِّفتَيْنِ جاءتْ في حقِّ المؤمنين، وأمّا في غيرِ المؤمنين فيُقال: رائفٌ وراحمٌ، ولا يُقالُ: بهم رؤوفٌ رحيم. ولذلك كانتْ رحمتُه ﷺ العامَّةُ الثّابتةُ، بقولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: 107]، رحمةً مشوبةً بشدَّةٍ على غيرِ المؤمنين[3].

---

(1) أبو القاسم الزَّجاجيّ، شرح حروف المعاني والصِّفات، ص: 47 - 48، وابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظر، ص: 208 - 211.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/73.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/73.

بَلاغةُ تقديمِ صفةِ ﴿رَءُوفٌ﴾ على صفةِ ﴿رَّحِيمٌ﴾:

شدَّةُ الرَّحمةِ تقتضي مراعاةَ الأغراضِ النَّفسيَّةِ، لدَى المخاطَبين بالبلاغِ

لَمّا ذكرتِ الآيةُ الوصْفَ المقتضيَ للرُّسوخِ بقولِه: ﴿حَرِيصٌ﴾، قدَّم ما يقتضي العطفَ على مَنْ يتسبَّبُ له بما يقتضي الوَصْلة، فقال: ﴿رَءُوفٌ﴾، أي: شديدُ الرَّحمة لمن له منه عاطفةٌ وصِلَةٌ لما تبيَّنَ من وجودِ الرِّقةِ الفائقةِ الشَّديدة بالمؤمنين، ولَمّا كان المؤمنُ يُطلَقُ مجازًا على مَنْ يمكنُ منه الإيمانُ فوصلتُه الآنَ ليست بالفعلِ؛ بل بالإمكان، قالَ تَعْميمًا لرحمَتِه ﷺ، كما هو اللّائقُ بشريفِ منصبِه، وعظيمِ خُلُقِه: ﴿رَّحِيمٌ﴾، ولأجلِ مثلِ هذه الأغراضِ النَّفسيَّةِ رتَّبَ ﷻ هذيْنِ الوصفَيْنِ وقدَّمَ أحدَهما على الآخر(1)، فترتيبُ الصّفتين، هو على طريق التَّدَلّي، فبدأ بالرَّؤوفِ فالرَّحيم.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العَنَتُ والتَّعبُ:

التَّعبُ أعمُّ وأشملُ مِنَ العَنَت، الّذي هو أخصُّ وأشدُّ

المُعانَتةُ كالمعاندة كالمُعانَدةِ، لكنَّ المعانتةَ المُعانَتةَ أَبْلَغُ؛ لأنَّها مُعانَدَةٌ فيها خوفٌ وهلاك، ولهذا يُقالُ: عَنَتَ فلان: إذا وقعَ في أمرٍ يُخافُ منه التَّلَفُ، يَعنُتُ عَنَتًا، قالَ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ﴾ [النِّساء: 25](2)، وقولُه تعالى: ﴿۞وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ﴾ [طه: 111]، أي: ذلَّتْ وخَضَعت.

والتَّعبُ: الإعْياء، حتَّى يُقالَ: تَعِبَ تَعَبًا، وهو تَعِبٌ، ولا يُقالُ: مَتْعوب، وأَتْعبتُه أنا إتعابًا، ويُقالُ للعَظْمِ المجبورِ، إذا أصابَه ألَمٌ فَهاضَه: قد أَعْنَتَه، ولا يُقال: قد أُتعِبَ العَظْمُ(3)، فالتَّعب أشملُ وأعمُّ، والعنتُ يأتي على كسْرِ العظم وما يُشابهُه، فالعنت أشدُّ وأخصُّ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/56.

(2) الرّاغب، المفردات، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (عنت).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 1/348، والرّاغب، المفردات: (عنت).

الرّأفةُ والرَّحمةُ:

الرَّأفةُ: أشدُّ الرَّحمةِ وأبْلَغُ منها، وأقوى منها في الكيفيَّة؛ لأنَّها عبارة عن إيصالِ النِّعم صافيةً عنِ الألم، والرَّحمةُ: إيصالُ النِّعَم مُطلقًا، وقد يكونُ مع الكراهةِ والألمِ، للمصلحةِ كقطعِ العُضوِ المجذوم، وإطلاقُ الرَّأفةِ عليه تعالى كإطلاقِ الرَّحمة[1].

الرَّأفةُ أشدُّ مِنَ الرَّحمة، وهي إيصالُ النِّعَمِ من غيرِ ألَمٍ

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 246 - 247، والكفويّ، الكلّيّات: 2/378، والجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 115.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ١٢٩﴾ [التّوبة: 129]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبةُ بين مجيء الرّسول الرّحيم، وأمرِه حالة تولّي المُبَلَّغين، بالتّوكّلِ على ربّ العرش العظيم

أوردَ سُبحانَه هذه الآيةَ إيرادَ المخاطِبِ المتلطِّفِ المزيلِ لما عندَ القوم منَ الرَّيْبِ بالقَسَم، فكأنَّه قال: ما لكم تَنْصرِفونَ عن حَضْرتِه الشَّمّاءِ وشمائلِه العُلَى؟! واللّه لقد جاءكم هذا الرَّسولُ من أنفُسِكم، أقبلَ عليه هنا في هذه الآيةِ الكريمةِ مُسلِّيًا له مقابِلًا لإعراضِهم إنْ أعرَضوا بالإعراضِ عنهم والبَراءةِ منهم، مُلتفتًا إلى السّورةِ الآمرِ بالبراءةِ، من كلِّ مُخالفٍ، قائلًا مُسبِّبًا عنِ النَّصيحةِ بهذه الآيةِ الَّتي لا يشكُّ عاقلٌ في مضمونِها: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾، أي: اجْتهدوا في تكليفِ فِطَرِهم بعدَ النَّصيحةِ لهم بهذه الآية، ﴿فَقُلۡ﴾ مستعينًا باللّه مُفوِّضًا أمرَك إليه، ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُ﴾: أي: كافيَّ اللّهُ الأَعْلَى الَّذي لا كُفْءَ له، عليه وحدَه توكَّلت، وهو ربُّ ومالكُ العرشِ العظيم، المحيط بجميع الأجسام، الحاوي لسائرِ الأجرام، صاحبُ العَظَمة المطلقة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾: ولي: الواوُ واللّامُ والياءُ أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على قُرْب. من ذلك الوَلْيُ: القُرْب. يقالُ: تباعدَ بعد وَلْيٍ، أي: قُربٍ[2]، وتَوَلَّى يتعدَّى بنفسِه وبالحرف، فإذا عُدِّيَ بنَفْسِه اقْتضَى معنَى الوِلاية، وحصولَه في أقربِ المواضعِ منه، يقالُ: وَلَّيتُ سمعي كذا، ووَلَّيتُ عيني كذا، ووليّتُ وَجْهي كذا: أَقْبلتُ به عليه، قال تعالى: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ﴾ [البقرة: 144]، وإذا عُدِّيَ (تولَّى) بـ (عن) لفظًا أو تقديرًا،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/60 - 61.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).

اقْتضَى معنى الإعْراضِ وتركِ قُربه، فمِنَ الأوَّلِ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: 51]، ومنَ الثّاني قولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣﴾ [الغاشية: 23]، والتَّولّي قد يكونُ بالجسم، وقد يكونُ بتركِ الإصْغاءِ والائْتمار، قالَ اللّه ﷻ: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۝٢٠﴾ [الأنفال: 20]، ويُقالُ: ولّاهُ دُبُرَهُ: إذا انْهزَم، قالَ تعالى: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝١١١﴾ [آل عمران: 111][1]، ومعنى قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي: فإنْ أَعْرَضوا عنك، ولم يعملوا بما جئتَ به ولا قَبلوه[2].

2) ﴿حَسْبِىَ﴾: حسب: الحاءُ والسِّينُ والباءُ، أصولٌ أربعة: العدُّ، والحُسبانُ، والأَحسَبُ، والأصلُ الرّابعُ: الكفايةُ، تقول: شيءٌ حسابٌ، أي: كافٍ[3]، والمعنى المحوري: جمعُ ما هو منتشرٌ في حيّزٍ يضمُّه، حتّى يمتلئَ به[4]، والحَسْبُ يُستعمَلُ في معنَى الكفاية، قالَ تعالى: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 173] أي: كافينا هو، ومنه قولُه تعالى: ﴿عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦﴾ [النَّبأ: 26] أي: كافيًا، وتأتي بمعنَى الرَّقيب المُحاسِب، كما قالَ تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾ [النِّساء: 6][5]، فقوله: ﴿حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ يجمع له كلَّ ما يريده من سندٍ ومؤازرةٍ، ونصرٍ وتوفيقٍ، في واحدٍ، وهو اللّه تعالى وحدَه، ومعنى قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ أي: اللّه كافيكَ معرَّتَهم ولا يضرّونك، وهو ناصرُكَ عليهم[6].

3) ﴿ٱلْعَرْشِ﴾.عرش: العينُ والرّاءُ والشِّينُ أصلٌ صحيحٌ واحد، يدُلُّ على ارتفاعٍ في شيءٍ مبنيٍّ، ثمَّ يُستعارُ في غير ذلك، من ذلكَ: العَرْش[7]، والعَرْشُ في الأصل: شيءٌ مُسقَّفٌ، وجمعُه عُروش، قال تعالى: ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: 259]، ومنه قيل: عَرَشْتُ الكَرْمَ وعَرَّشْتُه: إذا جعلتُ له كهيئةِ سَقْف، وقد يُقالُ لذلك: المُعرَّشُ، قالَ تعالى: ﴿مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ [الأنعام: 141]، ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ۝١٣٧﴾ [الأعراف: 137]، أي: يَبْنون، والعَرْشُ: شِبهُ هَوْدَجٍ للمرأةِ شبيهًا في الهَيْئةِ بعَرشِ الكرمِ، وسمِّي مجلسُ السُّلطان عَرشًا اعتبارًا بعلوِّه،

(1) الرّاغب، المفردات: (ولي)، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (ولي).
(2) الشَّوكاني، فتح القدير: 2/591.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حسب).
(5) الرّاغب، المفردات، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (حسب).
(6) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/223، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/591.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرش).

قالَ تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [يوسف: 100]، وكُنِّيَ به عنِ العِزِّ والسُّلطانِ والمملكةِ[1]، وعَرْشُ اللّه: ما لا يعلمُه البشرُ على الحقيقةِ إلّا بالاسْم، وليس كما تذهبُ إليه أوهامُ العامَّة، فإنَّه لو كان كذلك لكانَ حاملًا له - تعالى عن ذلك - لا محمولًا، قالَ ﷻ: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ١٥﴾ [البروج: 15]، وقالَ ﷻ: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، والعرشُ لا يقدرُ أحدٌ قدرَه[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

المضيُّ في الدَّعوة إلى اللّه، والتّوكّلُ على اللّه، آمنَ مَنْ آمنَ، وكفرَ مَنْ كفر

يأمرُ اللّه تعالى رسولَه ﷺ أنّه إن توَلَّى عنه مَنْ أرسلَه اللّه إليهم، وامتنَّ عليهم به بأنْ أعرضوا عن الإيمانِ والعملِ بما جاءهم به من ربِّه، أنْ يمضيَ في دعوته للحقِّ، ويقولُ: اللّه يكفيني جميعَ ما أهمَّني لا معبودَ لي بحقٍّ سواه، اعتمدتُ ووثقتُ به في جلبِ ما ينفعُ، ودفعِ ما يضرُّ، وهو سبحانه ربُّ العرشِ العظيمِ الَّذي عرشُه أعظمُ المخلوقات[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنَى (الفاءِ) في: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾:

مَنْ تولَّى عن اتِّباعِ النَّبيِّ ﷺ، فاللّه حسيبُه، والهلاكُ مصيرُه

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ للتَّفريعِ على إرسالِ النَّبيِّ ﷺ صاحبِ هذه الصِّفاتِ إليهم، فإنَّ صفاتِه ﷺ المذكورةَ، تقتضي من كلِّ ذي عقلٍ سليمٍ منَ العربِ الإيمانَ به واتِّباعَه، فتفرَّعَ عليه أنَّهم مَحْقوقونَ بالإيمانِ به، فإنْ آمنوا فذاك، وإنْ لم يؤمنوا فإنَّ اللّه حسيبُه وكافيه[4]، وهذا التَّفريع باعتبارِ تفريعِ أحد القسمين، فإنَّ النّاس ما بين متَّبعٍ ومهتدٍ، فهذا التَّفريع توجيهٌ له ﷺ لمن يتولّى عنِ الاتِّباع.

---

(1) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/227، والرّاغب، المفردات: (عرش)، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز: 4/42.

(2) الرّاغب، المفردات: (عرش)، والزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/223.

(3) السَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 307.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/73.

نُكتةُ استعمالِ (إنْ) دون (إذا) في الآيةِ الكريمةِ:

استبعادُ تولّيهم عنِ الرّسول ﷺ بعد ما ذكرَ لهم صفاتِه وثمراتِ بعْثتِه

قولُه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾، وفيه دلَّ الشَّرطُ بـ (إنْ) على مقابلِه من مجيءِ الرَّسولِ ﷺ من أنفُسِهم المُحبِّ لجلبِ الخيرِ لهم ودَفْعِ الضُّرِّ عنهم، الرَّؤوفِ الرَّحيم بمن يتَّبعُه منهم، فاسْتعمالُ (إنْ) يفيدُ أنَّ تَولِّيَهم عنه مستبعَدٌ عقلًا؛ لِما في بعثتِه ﷺ من ثمراتٍ لهم، وفوائدَ جمّةٍ، "فكأنَّه قال: ما لكم تنصرفون عن حضرتِه الشّماءِ وشمائله العُلَى"[(1)]!

فهو على فرضِ وقوعِه، فعليك الاستغناءُ عنِ الخلْقِ المتّبعِ والمُتولّي، وهو إرشادٌ لمن بعدَه من أتباعِه ﷺ أن يَستغنوا عنِ الخلْقِ في جميعِ أحوالِهم وطريقِهم الموصلِ إليه سبحانه وتعالى.

سِرُّ العُدولِ عنِ التَّصريحِ بالعِنادِ والكِبْرِ والكفرِ، إلى التَّولّي:

المؤمنُ مطلوبٌ منه أن يَستغنيَ بالله تعالى عنِ الخلْقِ، في الأمورِ كلِّها

قولُه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾، التَّولّي: الإعراضُ والإدْبار، وهو مُستعارٌ هنا للمكابرةِ والعِنادِ والكفر، فالتَّولّي هو الأصلُ الَّذي يجمعُ هذه المعانيَ، وكلَّ ما يتفرَّعُ عنها، ولذلك دلَّ الشَّرطُ على مُقابِلِه، وهو تمامُ الإيمان؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾، يدلُّ على تقديرِ ضدِّه، وهو إنْ أَذْعنوا بالإيمان[(2)]، كما أنَّ التَّولّي يدخلُ فيه كبائرُ الأعمال وصغائرُها؛ فإن حصل تولٍّ منهم، بأدنى ملابسةٍ، فإنَّ اللّه تعالى يدلُّه على طريق الاستغناءِ والاكتفاء، بخلافِ ما لو ذكرَ الكفرَ والعنادَ؛ لكان ذلك التّوجيهُ والإرشادُ محصورًا في الكبائر دونَ الصَّغائرِ، وفيه دليلٌ على وجوب الاستغناءِ بالخالق عنِ الخلْق، في الأمورِ كلِّها.

سِرّ ورودِ (الفاءِ)، في الجملة المبدوءةِ بلفظ ﴿فَقُلۡ﴾:

من ترك نصرةَ دينِ الله وتولّى عنه، فإنّه تعالى كافٍ عبادَه، وناصرٌ دينَه

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ﴾، رابطةٌ لجوابِ الشَّرطِ المتقدِّمِ في قولِه: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾، مفيدةٌ لترتيبِ اللّاحقِ لها لما سبقَها،

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/60.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/73.

ترتيبَ اللُّزومِ النّاجعِ، فنتيجةُ تولّي المُتولّين، كفايةُ اللّه لرسولِه ﷺ، وهذه مكافأةٌ عظيمةٌ للنَّبيِّ ﷺ ومن معه منَ المؤمنين، أن يُعوّضَهمُ اللّه بكفايتِه عن نصرةِ النّاس له.

بَلاغةُ الالْتفاتِ منَ الغَيْبةِ إلى الخصوصِ:

التَّفويضُ قائمٌ على الأمرِ بالخطابِ المباشرِ، تحقيقًا للغاية، وتوخّيًا للمُرادِ

جاءَ الخطابُ في قولِه تعالى: ﴿فَقُلۡ﴾ بعد الغَيْبةِ، في قولِه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾، وما سبقَه في الآية السّابقة؛ لأنَّ الجوابَ هنا قائمٌ على الاسْتعانةِ باللّه، وتفويضِ أمرِهم إليه تفويضًا مباشرًا لرسولِ اللّه ﷺ، لا يحتملُ إلّا الأمرَ المباشرَ، ولذلك جاءَ بعدَه مضمونُ هذا الأمرِ، بقولِه: ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُ﴾[1].

غرَضُ الأمرِ ﴿فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ﴾، في السّياق:

وعدٌ بالنَّصرِ للمؤمنين، ووعيدٌ للمُتولّين المُعاندين

لَمّا كان معنَى الأمرِ بأنْ يقولَ: حسبيَ اللّه، وأن يكون قولًا ناشئًا عن عَقْدِ القلبِ عليه، أي: فاعْلَم أنَّ حَسْبَكَ اللّه، وقلْ: حَسْبيَ اللّه، كان الغرضُ من القولِ هنا تأكيدَ المعلومِ وترسيخَه في نَفْسِ العالمِ به، ذلك أنَّ في هذا القولِ إبلاغًا للمُعرضينَ عنه بأنَّ اللّه كافيهِ إيّاهم[2]، وفيه إشارةٌ إلى تعليم المؤمنين، وإسماعِ المُتولّين عنه، ففيه وعدٌ بالنَّصر للمؤمنين، ووعيدٌ للمُتولّين.

البَلاغةُ في: ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُ﴾:

غايةُ الكفايةِ منَ اللّه، والتَّوكُّلِ عليه في قتالِ المُعرضين عنِ الهُدى المبين

في قولِه تعالى: ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾، بيانٌ منَ اللّه تعالى أنَّ اللّه حَسْبُ رسولِه وكافيه، في نَصْرِه على أعدائه، وفي إيصالِه كذلكَ إلى مقاماتِ الآلاءِ والنَّعماءِ، بقولِه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾، وإذا كان لا إلَهَ إلّا هو، وجَبَ أن يكونَ لا مُبدئَ لشيءٍ منَ المُمكنات، ولا مُحدِثَ لشيءٍ منَ المُحدَثات، إلّا هو ﷻ، وإذا كانَ هو ﷻ الّذي أرسلني بهذه الرِّسالة، وأمرَني بهذا التَّبليغِ كانت النُّصرةُ والمعونةُ منه مُرْتَقَبةً،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/60.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/74.

وأنا لا أتوكَّلُ بذلك إلّا على اللّه القدير، فهو ربُّ العرشِ العظيمِ الَّذي هو أعظمُ المخلوقات، وهذا التَّفويضُ والتَّوكُّل عليه يدُلّانِ على أنَّ هذه الآيةَ، ليستْ آيةَ موادعةٍ للكفّار؛ بل فيها الحثُّ على الجِدِّ، في قتالِ الكفّارِ والمنافقين(1).

سِرُّ تقديم المُسنَدِ ﴿حَسۡبِيَ﴾ على المُسنَدِ إليه ﴿ٱللَّهُ﴾:

تأكيدُ مضمونِ التَّفويضِ إلى اللهِ، وتحقُّقُ الطَّمأنينةِ له

تقديمُ المسنَدِ على المسنَدِ إليه، في قولِه تعالى: ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُ﴾، دون أن يقول: (اللّه حسبي)، للدّلالةِ على قوَّةِ هذا التَّفويضِ والكفايةِ وتحقُّقِ مضمونِهما، فالكافي هو اللّه والمفوَّضُ إليه هو اللّه، وفي هذا الإسنادِ إبلاغٌ للمُتوَلّين المُعرضينَ عن رسولِ اللّه ﷺ، بأنَّ اللّه كافٍ رسولَه شرَّ إعراضِهم وناصرُه عليهم، فإنْ أَعْرضوا بعد هذا، فقد أعرضوا عن حَسَدٍ وحَنَقٍ، وتلك مَظِنَّةُ السَّعيِ في الكَيْدِ والأذى(2).

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ: ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُ﴾:

ذكرُ لفظِ الجلالة، زَرْعٌ للمهابةِ في القلوبِ، وتحذيرٌ من غضبِ الله وعقابِه

التَّعبيرُ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُ﴾، لزرعِ المهابةِ في القلوب، فإنَّ الَّذي يَكْفي رسولَه ﷺ، شرَّ أعدائه، هو اللّه لا أحدَ غيرُه، وفي إيرادِ هذا اللَّفظِ الجليلِ، ترسيخٌ في النّفوسِ لما يريدُه اللّه تعالى منَ العلم، بأمرين: أوَّلُهما: أنَّ اللّه ناصرُ رسولِه وأصحابِه وأوليائه والمؤمنينَ، وكافيهم شرَّ الكائدينَ والحاقدين، وثانيهما: إبلاغُ المُعرضينَ المُنصرفينَ عنِ الحقِّ وتحذيرُهم وإنذارهم عقابَ اللّه، وإهلاكَه إيّاهم(3).

علَّةُ الفَصْلِ في: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾:

اللهُ يَكْفي عبادَه، فلا إلهَ لهم سِواه

قولُه تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ للثّناءِ على وَحدانيَّةِ اللّه، مُقرِّرٌ ومُعلِّلٌ لمضمونِ ما قبْلَه، ويمكنُ أن يكونَ في موضعِ الحال،

(1) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 3/100، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/179.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/74.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/74.

وفيه كذلك ثناءٌ بالوَحدانيَّة[1]، كما أنَّ فيه تعليلًا كاشفًا عن مفهومِ الكفاية والنُّصرة، فكأنَّه قال: اللّه يكفيك لأنَّه لا إله لك سواه.

دلالةُ موقعِ: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ﴾:

التَّنويهُ ببركةِ الكلماتِ الرّوحيَّةِ، في الكفايةِ الإلهيَّةِ

التَّوكُّلُ: التَّفويض، وهو مبالغةٌ في: (وَكَلَ)، وفي هذه الجملةِ بعدَ ما سبقَها، تنويهٌ بهذه الكلمةِ المباركةِ وضرورةِ ذكرِها مع اليقين، بمفعولِها بعَينها، فرسولُ اللّه ﷺ لم يُؤمَرْ بمجرَّدِ التَّوكُّل، كما أُمِرَ في قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ٧٩﴾ [النَّمل: 79]، ومن توكَّلَ على اللّه كفاهُ شرَّ أعدائه، وأَحبطَ مكرَهم وكَيْدَهم[2].

سِرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيۡهِ﴾:

التَّوكُّلُ على الله دونَ سواه، من جوهرِ عقيدةِ التّوحيدِ السّمحةِ

قولُه تعالى: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ﴾، تقدُّمُ الجارِّ والمجرورِ للاخْتصاص، أي: لاخْتصاصِ التَّوكُّلِ عليه ﷻ دونَ غيرِه، أي: لا أتوكَّلُ إلّا عليه ﷻ، فالتَّوكُّلُ عبادةٌ بمعنَى التَّفويض، وهذه العبادَةُ لا تُصرَفُ إلّا للّه، فهو ﷻ المخصوصُ بها؛ لأنَّه هو الَّذي يملِكُ مقاليدَ كلِّ شيءٍ، والأمورُ كلُّها بتصريفِه ﷻ، ومَنْ مَلَكَ شيئًا فبتمليكِ اللّه له تمليكَ عاريَّةٍ لا تمليكَ أَصالة[3].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿تَوَكَّلۡتُۖ﴾:

التَّوكُّلُ منهجٌ روحيٌّ إيمانيٌّ، لا ظرفٌ طارئٌ في قلبِ المؤمنِ

اسْتعمالُ البيانِ الإلهيِّ للفعلِ الماضي ﴿تَوَكَّلۡتُۖ﴾، لإفادةِ التَّحقُّق، أي: فوَّضتُ أمري إليه لا لغيرِه، وتوكَّلتُ عليه، وأمضيتُ هذا التَّوكُّلَ، فقد حصَلَ وتمَّ القيامُ به، وقد كفاه اللّه شرَّهم ونَصَرهُ عليهم[4]، كما أنَّها تفيدُ بيانَ أنَّ المؤمن متوكِّلٌ في كلِّ أحوالِه على اللّه تعالى، السّابقةِ واللّاحقةِ؛ فليس التَّوكُّلُ أمرًا طارئًا، بل هو منهجٌ روحيٌّ إيمانيٌّ عقديٌّ، يقودُ صاحبَه إلى الرِّضا والطَّمأنينة.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/620، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/74.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/534، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/74.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/179.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/534.

ذكرُ الثَّناءِ على اللـه بعظيم قُدرته، تعليلٌ لعظيمِ إرادتِه

بَلاغةُ العطفِ ﴿وَهُوَ﴾:

عُطِفَتْ جملةُ: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، على ما تقدَّمها؛ للثَّناءِ بعظيمِ القدرةِ الرَّبّانيَّةِ، الخاصَّةِ باللّه وحدَه[1]، ولهذا العطفِ براعةٌ في التَّعريف باللّه تعالى، بأنَّه ربُّ العرش العظيم، فمن كان هذا حالُه فإنَّه ناصرٌ عبدَه الضَّعيفَ، ومن كانت هذه ربوبيّتَه، فهو كافٍ وَليَّه القريبَ؛ ففيه معنى التَّعليل لما مضى، كما أنَّ فيها إشارةً إلى أنَّ اللّه تعالى صاحبُ النّاموسِ الأعظم، والقانونِ الأفخم، بيده مقاليدُ الأمور، وهو صاحبُ الإرادة المطلقة، فإنَّه يُهيِّئُ لأوليائه نصرًا وكفايةً، بحسب علْمِه وحكمتِه، وجليلِ أمرِه.

من كـان ربًّـا لـلـعـرشِ، فهو ربُّ لمَن دونَـه، وما دونَه

دَلالةُ الإضافةِ: ﴿رَبُّ﴾:

أُضيفتْ كلمةُ ﴿رَبُّ﴾ إلى ﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾؛ لأنَّ من معاني الرُّبوبيَّةِ الخالقيَّةَ، فاللّه هو الرَّبُّ الخالقُ للعرش، فالعرشُ مخلوقٌ من مخلوقاتِ اللّه، لكنَّه أعظمُ المخلوقاتِ، فمَنْ كانَ ربًّا للعرش العظيمِ، ثبتَ أنَّه قديرٌ ﷻ[2]، فإذا كان ربًّا للعرشِ، ألا يكون ربًّا لمن تحت العرش؟ وفي ذلك إشارةٌ لطيفةٌ، إلى نيْلِ العبد المُتوكّل، أرفعَ المنازلِ وأسمَى المراتبِ؛ فأنّى لعبدٍ توكَّلَ على مولاه، ربِّ العرش العظيم، وقد تخلَّى عنه مَن سواه، إلّا أن يرفعَ ذكْرَه، ويُعْلي شأنَه، ويبلِّغَه مُناه!

تفخيمُ العرش باللَّفظِ، تأكيدٌ لتفخيمِه بالمعنى

نُكتةُ الوصْفِ بـ: ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾:

﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾ مع كونِه عظيمًا في ذاته، وُصِفَ بـ ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾، للدّلالة على أنَّ العظمةَ صفةٌ لازبةٌ له، فهذا تخصيصٌ له بالعظَمةِ، إذْ هو أعظمُ المخلوقات[3]، وهي تفخيمٌ وتعظيمٌ بالنَّصِّ، بعد التَّفخيم والتَّعظيم بالمعنى.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/74.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/620، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/74.

(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/100.

سِرُّ خَتْمِ السورةِ بـ ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾:

ردُّ آخرِ السّورة على أوّلها، بلاغةٌ عظيمةٌ، في تقرير المعاني، وتعليلِ الدّلالات

جاءَ خَتْمُ سورةِ التَّوبةِ المباركةِ، بهذا الوصفِ العظيم: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، لبيان عظمةِ الرَّبِّ بتقديسِه، وإظهارِ كمالِ علمِه وقُدرتِه، وتنزيهِه عن أنْ يتمثَّلَ في الأوْهام، أو تصلَ إليه الأَفْهامُ، وبيانِ عظمةِ عَرْشِه باتِّساعه وعَدَمِ قدرةِ أحدٍ على الإحاطة بعظيمِ قدرِه، وفي ذلك كلِّه إظهارُ شَرَفِ الإيمانِ باللّه، وتنبيهُ القومِ إلى المبادَرةِ باغْتنامِ وجودِ رسولِ اللّه ﷺ، بين أَظْهُرِهم لِيُسارِعوا إلى الإيمانِ به، والتَّشرُّفِ بالاقْتداءِ بهَدْيِه، فيحصُلَ لهم كمالُ الإيمانِ مع كمالِ الانْتفاعِ برسولِ اللّه ﷺ، وهم يُشاهدونَه ويَقْتبسونَ من أنوارِ سُنَّتِه وأخلاقِه وسيرتِه[1].

وقد عانق آخرُ السّورة أولّها، وصافح مُنتهاها مُبتدأها، وتأكّد ما فهمتَه من سرِّ الالتفات في ﴿فَسِيحُواْ﴾ [التوبة: 2]، وفي ﴿فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ﴾ [التوبة: 3][2].

وهذا الختمُ مناسبٌ للبدء بالبراءة منَ المشركين، فإنَّ اللّه ذو العرش العظيم، هو الّذي تبرّأ ممَّن أشرك به، وأعرض عنه، وحارب دينَه، ففيه تهويلٌ لأمر الشِّرك، ووعيدٌ للمشركين، فهي من ردِّ آخرِ السّورة على أوّلِها، فلمّا تبرّأ منهم في البداية، أثبت سببَ ذلك في الخاتمة، فكيف يكون لربّ العرش العظيم نِدٌّ من خلْقِه، وكيف يكون له مناوِئٌ من عبادِه؟!

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/534، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/74.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/61.

سُورَةُ يُونُسَ

سُورَةُ يُونُسَ

❁ التَّعريفُ العامُّ بالسّورة:

نقل ابنُ عطيَّةَ الأندلسيُّ قولَ الجمهور أنَّ سورةَ يونس مكيَّةٌ خلا بعضَ الأقوال الّتي استثنت قولَه تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ٤٠﴾ [يونس: 40]، وقولَه: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ٩٤ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ٩٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ٩٧﴾ [يونس: 94 - 97][(1)].

قال سيّد طنطاويّ: "والَّذي تطمئنُّ إليه النّفسُ، أنّ سورةَ يونس جميعَها مَكيّةٌ، كما قال المُحقّقون منَ العلماء؛ لأنّ الّذين قالوا بوجود آيةٍ أو آياتٍ مَدنيّةٍ فيها لم يأتوا بروايةٍ صحيحةٍ تَصلُح مُستنَدًا لهم، ولأنّ السّورةَ الكريمةَ من مطلَعِها إلى نهايتِها تُشاهَدُ فيها سِماتُ القرآن المكيِّ واضحةً جليّة"[(2)].

عددُ فواصلِها وترتيبُها:

مئةٌ وتسعُ آيات عند جُمهور أهل العَدَد، ومئةٌ وعشرُ آيات عند أهل العَدَد بالشّام[(3)].

وهي السّورةُ العاشرةُ في ترتيب المصحف الشّريفِ، تقعُ بين سورتَي التَّوبة وهود، حسبَ التَّرتيب التَّوقيفيِّ لسوَر القرآن الكريمِ، وذكر بعضُ المُفسِّرين أنَّ ترتيبها النُّزوليَّ هو الواحدُ والخمسون في عِداد نُزول سوَر القرآنِ بعد سورة بني إسرائيل وقبل سورة هود[(4)].

فضائلُ سورةِ يونس:

لم يَرِد نصٌّ من حديث صحيح يُخصِّصُ السّورة بذكر فضائلِها، خلا ما وردَ على

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/102.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/8.
(3) الدّانيّ، البيان في عدّ آيّ القرآن، ص: 168.
(4) الجَعْبَريّ، تقريب المأمول في ترتيب النُّزول، ص: 143، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/78.

وجه العُمومِ في فضل المِئين من سور القرآن، فعنْ واثِلَةَ بنِ الأسْقَعِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «أُعْطيتُ مَكانَ التَّوْراةِ السَّبْعَ، وأُعْطيتُ مَكانَ الزَّبورِ المِئينَ، وَأُعْطيتُ مَكانَ الإنْجيلِ المَثانيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ»(1).

وقد عدّها الطّبريُّ منَ السّبعِ الطِّوالِ مع البقرة وآل عمرانَ، والنِّساءِ، والمائدةِ، والأنعامِ، والأعرافِ(2)، والجمهورُ على أنّها منَ المِئين وفضلُها ظاهرٌ في الحديث الشَّريف على كِلا المَعْنَيَيْن على أنها تعدِلُ التّوراةَ أوِ الزَّبور.

۞ مناسبةُ اسمِ السّورةِ الكريمةِ:

اسمُ السّورة المُشتهرُ الّذي لم يَرِد غيرُه: سورَةُ يونس، يقول ابنُ عاشور: "سُمِّيَتْ في المَصاحفِ وفي كُتُبِ التَّفسيرِ والسُّنَّةِ (سورَة يونُسَ) لأنَّها انْفَرَدَتْ بِذِكْرِ خُصوصيَّةٍ لِقَوْمِ يونُسَ، أنَّهُم آمَنوا بَعْدَ أنْ تَوَعَّدَهُم رَسولُهُم بِنُزولِ العَذابِ فَعَفا اللّه عَنْهُم لَمّا آمَنوا. وتلك الخُصوصيَّةُ كَرامَةٌ ليونُسَ عليه السلام، ولَيْسَ فيها ذِكْرٌ ليونُسَ غَيْرَ ذلك. وقد ذُكِرَ يونُسُ في سورَةِ الصّافّاتِ بأوْسَعَ مِمّا في هذه السّورَةِ، ولكنَّ وجْهَ التَّسْميةِ لا يوجِبُها"(3).

وكلامُ ابن عاشور غايةٌ في الدّقّة فتَسميةُ السّورة باسم نبيّ اللّه يونسَ عليه السلام الّذي لم تتجاوز قصّتُه فيها إشارةً سريعةً في قوله: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: 98] أمرٌ يَدعو إلى التّفكير في سورة أخذت على عاتقها تقريرَ مسائلِ العقيدةِ الأساسِ، حيث ناقشت مُشركي قريشٍ في كلّ أسانيدِهم الباطلةِ، وعرضت لهم بعضَ المشاهدِ من قصّتيْ نوحٍ وموسى عليهما السلام وما جرى مع أقوامِهما منِ استعجالٍ وإهلاك، بينما وَردَ ذِكرُ قصّة يونس عليه السلام في سورة الصّافات بتفصيلٍ أكبرَ، وذلك في الآيات: [139 - 148] من سورة الصّافات، ولكنّ الإشارةَ لقصّة يونس عليه السلام في سورة حملتِ اسمَه إنّما جاءت؛ لأنّها المَثَلُ الوحيدُ البارزُ للقوم الّذين تدارَكوا أنفسَهم قبل مُباغتةِ العذاب لهم؛ فثابوا إلى ربّهم وفي الوقت سَعةٌ؛

(1) أحمد، المسند، الحديث رقم: (16982) واللّفظ له، والطّيالسيّ، المسند، الحديث رقم: (1105)، والطّحاويّ، شرح مُشكِل الآثار: (1389).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 1/101 - 102.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/77.

وهم وحدَهم في تاريخ الدَّعوات الّذين آمنوا جملةً بعد تكذيبٍ، فكشفَ عنهمُ العذابَ الَّذي أوعَدَهم به رسولُهم قبل وقوعِه بهم، كما هي سُنّةُ الله في المُكذّبين المُصرّين.

فقد حدّثتِ السّورةُ عن مصير قوم نوح، وذلك في الآيات [يونس: 73 - 74]، وعن مصير قوم موسى وذلك في الآيات [يونس: 90 - 91]، ثمّ عقَّبت السّورةُ بعدها وقبل الإشارةِ إلى قوم يونسَ بسُنَّةٍ اجتماعيّةٍ من سُنن الله في الظّالمين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٩٧﴾ [يونس: 96 - 97]، فكانتِ الإشارةُ إلى قصّة يونسَ عليه السلام على أنّهم أنموذجٌ للقوم الّذين انتفَعوا بدعوة نبيِّهم حتّى لو أصاب نبيَّهم اليأسُ منهم.

وهذا ما يُفسّرُ ظاهرةَ تكرار ذِكر النّفع والضُّرّ في السّورة الكريمةِ في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢﴾ [يونس: 12]، وكما في الآيات [يونس: 18، 49، 106].

وإذا كانت قصّةُ قوم يونسَ عليه السلام تمثّلُ حالةً مشهودةً في التّغيُّر الإيجابيّ؛ فقد حَفَلَتِ السّورةُ كذلك بمشاهدَ متنوّعةٍ لحالات التّغيُّر السّلبيِّ، أوِ التّغيُّرِ الإيجابيّ المُتأخّرِ عن وقتٍ ينتفعُ به أصحابُه، من مثْلِ ما وردَ في السّورة من تصوير حالةِ الّذين دعَوا الله تعالى في البحر أن يُنجّيَهم ممّا أحاط بهم من ريحٍ عاصف وموجٍ متلاطم؛ فأنجاهم فلم يَشكروا ولم يعتبِروا، وذلك في الآيات [يونس: 22 - 23]، وكذلك ما جاء في الآيات من تصريف قدرةِ الله تعالى على إرسال العذابِ أو رَفْعِه عن الأقوام، كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٠ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ٥١﴾ [يونس: 50 - 51]، ومنه ما جاء من إنعام الله تعالى على بني إسرائيلَ من تخليصِهم من شرور فرعونَ وقومِه، ومن وِراثةِ الأرض كما جاء في الآيات [يونس: 90 - 93].

وممّا يؤكّدُ ما تقدّم ذِكرُه أنّ هذه السّورة قدِ انفردت بذكر أسلوبِ الاستفهام في كلمة ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ﴾ مرّتين في السّورة، وذلك في سياق إنْكار التّأخير والتّوبيخ عليه[1]، وما فيها من دلالةٍ زمنيّةٍ تُحتِّمُ على الأقوام والأفرادِ أن يَستشعروا خطرَ العذاب قبل مجيئِه، وأن يمتثِلوا للآيات والرُّسل قبل أن يَحِلَّ عليهم الغضبُ، فلا غرْوَ إذن أن تُسمّى السّورةُ باسم

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/153.

نبيّ اللّه الكريمِ يونسَ عليه السلام الّذي خالفَ قومُه كلَّ مَن سبقَهم ولحقَهم منَ الأقوام، وانتفعوا بدعوة نبيِّهم ولو بعد حين.

موضوعاتُ السُّورةِ ومقاصدها ومحورها العام:

دَلالةُ التَّوقيتِ الزَّمنيِّ للسّورة:

الفترة الزّمنيّةُ الّتي نزلت فيها سورةُ يونس فترةٌ حافلةٌ بأحداثٍ جِسامٍ عاشها المسلمون الأوائلُ في مكّةَ المكرّمةِ، حيث نزلت بعد فترةٍ طويلةٍ من حياة المسلمين بها، وبعد معاناةٍ واضطهادٍ، فنزلت عقبَ حادثةِ الإسراء والمعراج، وبعد أن تقلَّبت عليهم فيها أحوالٌ منَ التّكذيب والتّشكيك، فجاءت لتُعالجَ مواقفَ المشركين من قضايا العقيدةِ الرَّئيسةِ، كالنّبوّة والوحْي، وموضوعِ البعث، وحقيقةِ الحياة، وخلالَ ذلك كلِّه عَرَضت بعضَ آياتِ اللّه في الكون، وبيّنت طبيعةَ هذا الإنسانِ، ذاكرةً بعضَ المشاهدِ القصصيّةِ لِمَن سَبَقهم منَ الأقوام على الكُفر، وخُتمتِ السّورة بتلقين الرّسول صلى الله عليه وسلم بأنّ الهدايةَ منَ اللّه، فمَنِ اهتدى فلنفسه، ومَن ضلّ فعليها، وأنّ اللّه سيحكمُ بينه وبين مُعانِديه، إذن نزلت السّورةُ في جوٍّ مشحونٍ يُمثّلُ ذُروة الصّراع بين الحقّ والباطلِ في مرحلةٍ ساخنةٍ من مراحل الدّعوةِ في مكّة.

المقاصدُ العامَّةُ للسّورةِ:

أوّلًا: إثباتُ رسالة النَّبي صلى الله عليه وسلم بدلالة عجْزِ المشركين عن مُعارضة القرآن، وبيانُ أنَّ القرآن من عند اللّه، وذكرُ موقفِ المشركين من حقيقة الرِّسالة والقرآن، وإبطالُ إنكارهم أن يُرسل اللّه رسولًا منَ البشر، وتذكيرُهم بما حلَّ بأهل القرون الماضيةِ؛ لَمّا أشركوا، وكذَّبوا الرُّسلَ.

ثانيًا: إثباتُ انفرادِ اللّه بالإلهيَّة بدلالة الرُّبوبيّة؛ إذ هو تعالى خالقُ العالم ومُدبِّرُه، فأفضَى ذلك إلى إبطالِ أن يكون للّه شركاءُ في إلهيَّته، وإبطالِ معاذير المشركين بأنَّ أصنامَهم شفعاءُ عند اللّه.

ثالثًا: إثباتُ البعث والجزاء، وبيانُ حِكمة الجزاءِ وصِفته، ووعيدُ مُنكرِي البعثِ المُعرضين عن آيات اللّه، وتوبيخُ المشركين على ما حرَّموه ممّا أحلَّ اللّه.

رابعًا: ذكرُ قِصص بعض الأنبياء مع أقوامهم، وذكرُ موقف أقوامِهم في تكذيبهم المُشابهِ لحال الكفّارِ مع النَّبي ﷺ ؛ حثًّا على الاعتبار بما حلَّ بهم جزاءَ تكذيبِهم، وتسليةً للقِلَّة المؤمنة بذِكْر عاقبة المؤمنين الّذين آمنوا بأنبيائهم.

خامسًا: الاستشهادُ على صدْق رسالة النَّبي بشهادة أهل الكتابِ.

موضوعاتُ السُّورة:

تناولت سورةُ يونس جملةً منَ الموضوعات، يجمعُها على تَفرُّقها، أنّها تقوم على ترسيخ الجانب العَقَديِّ لدى المسلمين في مكّة، وردِّ شُبهات المُكذّبين؛ فقد تناولتِ السّورةُ معانيَ عديدةً يمكن إجمالُها فيما يأتي:

ابتدأتِ السّورةُ بإثبات رسالة النّبيِّ ﷺ من خلال إثبات عجْزِ العرب عن معارضة القرآنِ بهذه الحروف المقطّعةِ الّتي ابتدأت فيها السّورةُ، بقوله: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾ [يونس: 1]، وصرّح بهذا التّحدّي في أثناء السّورة بقوله: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ [يونس: 38]، وأتْبَعَ ذلك بإثبات رسالة النّبيِّ ﷺ، وإبطالِ مزاعم المشركين بشفاعة أصنامِهم عند الله، وبيّن انفرادَ الله بالألوهيّة، وبأنّه خالقُ العالم ومُدبِّره، وإبطالِ أُلوهيّة غيرِ الله تعالى، وأنّها لا تُغني شيئًا من دون الله ﷻ، وبيّن دلائلَ وَحدانيّته تعالى في آيات الكون، والاعتبارِ بما خلق الله للنّاس من مواهبِ القدرة على السَّير في البرّ والبحر، وضربَ المثَلَ في أثناء ذلك بالحياة الدّنيا وبهجتِها وزوالِها، وأنَّ الآخرة هي دارُ القرار، وبيَّن حكمةَ وصفة الجزاء لِمُنْكري البعث، وتضمَّنتِ السّورة جانبًا من قصّتيَ نوحٍ وموسى عليهما السلام وما جرى بينهما وبين أقوامِهما، وبيانِ عاقبة أقوامهما بعد استعجالِهم العذابَ وتكذيبِهم الرّسلَ، وبيَّنتِ السّورة طبيعةَ هذا الإنسان، وما يَعْتريه من تبدُّل الأحوال في الشّدّة والرّخاء، وخُتمتِ السّورةُ بتقريرِ أنَّ هداية مَنِ اهتدى وضلالةَ مَن ضلّ إنّما يكون مآلُها على أصحابها، وليس على الرّسول ﷺ منها شيءٌ، وأنّ الله تعالى سيَحكمُ بينه وبين مُعانِديه(1).

المحورُ الّذي تدورُ حولَه موضوعاتُ السّورة:

أمّا من حيثُ الوَحدةُ الموضوعيّةُ لسورة يونس فإنّها لا تفترقُ عنِ السّور المكّيّةِ الأخرى

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/78 - 80.

في تقرير أصول العقيدةِ الصّحيحةِ، مع احتفاظ كلِّ سورة منها بخصوصيّةٍ موضوعيّةٍ وأسلوبيّةٍ تُميِّزها عن غيرها منَ السّور وإن شاركَتْها في بعض الأصول؛ فهي تُعالجُ الشّبهاتِ الَّتي يعرضُها منكرو الوحْي في كلّ زمانٍ ومكانٍ؛ فتناولتِ السّورةُ الكريمة هذه الشّبهاتِ بالعرْض والنّقد، مبيِّنةً دوافعَ إثارتها، ومجالاتِها، وآثارَها وأسبابَ علاجها، ونماذجَ من تاريخها القديم منَ المشكّكين السّابقين، فعرَضت مصيرَهم، وخصّت قوميْ نوحٍ وموسى عليهما السلام لاستفاضة مصائرِهم في تاريخ البشريّة، وذكرت أنموذجًا فريدًا لِمَن انتفع بالهداية منهم، وعادَ إلى الجادّة بقوّةٍ ويقينٍ، وهم قومُ يونس عليه السلام.

بدأتِ السّورة بذِكْر شُبهة الوحْي: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ [يونس: 2] ثمَّ عرضت لجانبٍ من شُبُهاتهم في إنكار البعث: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٨﴾ [يونس: 7 - 8] وشُبُهاتهم حول القرآن: كما في الآيات [يونس: 15 - 16]، والآيات: [يونس: 37 - 39]، وعرضت لكثيرٍ من شُبهاتهم حول وَحدانيّة الله، ونسبةِ الشُّركاء له، كما في الآيات: [يونس: 18 و 34 - 35 و 68].

وبيّنت لهم في أثناء الرَّدّ عليهم حقيقةَ الحياةِ الدّنيا، وذلك في الآية الرّابعة والعشرين منَ السّورة، وعرضت مظاهرَ آيات الله في الكون الّتي تُكذّبُ مزاعمَهم، كما في الآيات [يونس: 5 - 6، و31].

وبيّنت لهم السّورةُ في أثناء ردِّها على شُبهاتهم عاقبةَ مَن سبقَهم بكُفرهم وجُحودِهم كما في الآيات [يونس: 13 - 14].

وخُتمتِ السّورةُ الكريمةُ بوصيّةٍ للنّاس جميعًا في موضوع الهداية، وأنّ مآل الأمر ومناطَه موكولٌ إليهم، وتضمّنتِ الآيةُ الأخيرةُ وصيّةً للنّبيّ ﷺ في الصَّبر على أصحاب هذه الشُّبهات، وأن يَكِل أمرَ أصحابِها إلى الله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ۝١٠٨ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝١٠٩﴾ [يونس: 108 - 109].

المناسباتُ بين سورة يونسَ والسّورِ المجاورة:

مناسبةُ اتّصالِ سورة يونسَ بسورة التوبة:

جاءت سورةُ يونس في ترتيب المصحف الشَّريف بعد سورتَيْن مدنيّتَيْن هما الأنفالُ والتّوبة؛ اللّتان فصلتا بينها وبين سورتَي الأنعام والأعراف المكّيّتَيْن، وقد تناولتِ السّورتان المدنيّتان مجموعةً منَ التّحدّياتِ والأزماتِ والغزوات المشتركةِ بينهما، والّتي خاضها المجتمعُ المسلمُ في المدينةِ، حتّى عدّهما بعضُ العلماء سورةً واحدةً، كما عدّوا سورتَيِ الأنعام والأعراف من قبلِ ذلك سورةً واحدةً لما يجمعُهما منَ الأواصر والرّوابطِ.

وبيّن الآلوسيُّ بعضَ هذه الوشائجِ بين سورتَيِ التّوبة ويونس فقال: "ووجهُ مناسبتها لسورة براءةَ أنّ الأولى خُتمت بذِكر الرّسول ﷺ وهذه ابتدأت به، وأيضًا أنّ في الأولى بيانًا لما يقوله المنافقون عند نزول سورةٍ منَ القرآن، وفي هذه بيانٌ لما يقوله الكفّارُ في القرآن، حيث قال سبحانه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ [يونس: 38] الآية، وقال ﷻ: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ [يونس: 15]، وأيضًا في الأولى ذمُّ المنافقين بعدم التّوبة والتّذكُّر إذا أصابهم البلاءُ في قوله سُبحانه: ﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦﴾ [التوبة: 126] على أحد الأقوالِ، وفي هذه ذمٌّ لمَن يُصيبه البلاءُ فيَرْعوي ثم يعودُ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ﴾ [يونس: 12] وفي قوله سُبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [يونس: 22] إلى أن قال سبحانه: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾ [يونس: 23]، وأيضًا في الأولى براءةُ الرّسول ﷺ منَ المشركين مع الأمرِ بقتالِهم على أتمِّ وجهٍ، وفي هذه براءتُه ﷺ من عملِهم، لكنْ من دون أمرٍ بقتالٍ، بل أُمر عليه السلام أن يُظهرَ البراءةَ فيها على وجهٍ يُشعرُ بالإعراض وتخليةِ السَّبيل، كما قيل على ضدِّ ما في الأولى، وهذا نوعٌ منَ المناسبة أيضًا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٤١﴾ [يونس: 41] إلى غيرِ ذلك"(1).

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/55.

ويُضاف لرأي الآلوسيِّ السّابق على وجاهتِه أنَّ هذه السّورةَ الكريمةَ قد ربطت بين شُبهات المنافقين والمشركين مَصدرًا ومآلًا؛ فكلاهما ناشئٌ عن تكذيبِهم الوحْيَ، وكلاهما يُفضي إلى الكُفر والضّلال، فلَئِن بيّنت سورتا الأنفال والتّوبةِ حقيقةَ الصّراع بين الحقّ والباطل، فقد عَرَضت سورةُ يونس للأسانيدِ الفكريّةِ والتّاريخيّةِ لهذا الباطل وقوّضتْها بالحُجّة والبيان، كما قوّضت بنيانَه سورتا الأنفال والتّوبة بالسّيف والسِّنان، ولعلَّ أحدَ الرّوابط المهمّةِ بين السّورتَيْن أنَّ سورة التَّوبة قد حكمت على المنافقين الّذين أطنبتْ في فضحِهم بالكُفر في أكثرَ من موضعٍ من مثْلِ قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝٤٩﴾ [التوبة: 49] وقوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ۝٦٦﴾ [التّوبة: 66]، وغيرِهما.

فجاءت سورةُ يونس لتُبيّن أسانيدَ وشُبهاتِ أسيادِهم الّذين سبقوهم في الكفر على وجه التّفصيل.

وإذا كانت سورةُ التّوبة قد عابت على المنافقين اتّخاذَهم مسجدَ الضّرار الّذي لم يُبْنَ على التّقوى من أوّل يوم، كما جاء في الآيات [التوبة: 107 - 110] فإنّ سورة يونس قد بيّنت أصولَ هذا البناءِ على التّقوى والعقيدةِ الحقّة، وبيّنت عاقبةَ المتّقين: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٤﴾ [يونس: 62 - 64].

مناسبةُ اتّصالِ سورة يونسَ بسورة هودٍ:

أمّا وجهُ اتّصالها بسورة هود بعدَها، فقد تناسبت معها، ابتداءً بكونِها حملت اسمَ نبيٍّ كريم مثلِها، وكذلك اشتركتا في مطلعِهما في الأحرف المُقطّعةِ والحديثِ عنِ الكتاب، ووافقتا بذلك السّورَ الّتي تليهما: يوسفَ والرّعدَ وإبراهيمَ والحجر، وخُتمت سورةُ هود بما ختمت به سورةُ يونس وقبلها التَّوبةُ في الحديث عنِ النّبيّ ﷺ، بقوله: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٞ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝١٢٠ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ۝١٢١ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ۝١٢٢ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٢٣﴾ [هود: 120 - 123].

فضلًا عن تفصيل سورة هودٍ لما أُجمل من قصّة نوحٍ عليه السلام في يونس تفصيلًا لم يكن له مثيلٌ في سورةٍ أخرى، كما استعرضت سورةُ هود رحلةَ كوكبةٍ أخرى منَ الأنبياء عارضةً في أثناء السّورة المشكلاتِ الَّتي عالجها كلُّ نبيٍّ مع قومه، وذِكْرَ بعض شُبهات الكافرين حولَهم، واستعجالَ أقوامِهم العذابَ، وبيانَ ما أصابهم، فاللُّحمةُ بين هذه السّور المتجاورةِ ظاهرةٌ للعَيان، لا تحتاج لأدنى تكلُّفٍ.

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾ [يونس: 1]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مطلعُ السّورة إجابةٌ عن سؤالٍ، وتعقيبٌ على حُكْمٍ

منَ المعلوم أنَّ سورةَ التَّوبةِ الَّتي سَبَقَتْ سورةَ يونس قد خُتمت بقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ﴾ [التوبة: 128]، وفي هذا تنبيهٌ للعَرَب عامَّةً، ولقريشٍ خاصَّةً إلى الحقوق الإنسانيَّةِ الواجبةِ عليهم نحوَ رسولِ اللّه ﷺ المبعوثِ إليهم من بينِهم، ومن ذوي قرابتِهم.

وسورةُ يونس، جاء ابتداؤها مُنكِرًا على قريشٍ وعلى العَرب تَنكُّرَهم لهذا الرَّسول، ووقوفَهم منه مَوقفَ المشاقَّة والعِناد، مع ما بين يديه من آيات ربِّه، الَّتي تشهدُ بأنَّه رسولُ ربِّ العالمين.

فناسَب لذلك أن تجيءَ سورةُ يونس، بعد سورة التَّوبة، إذْ كانت خاتمةُ التَّوبة أشبَهَ بسؤال، وكان بَدْءُ يونس أشبَهَ بجوابٍ لهذا السُّؤال، أو كانت خاتمةُ التَّوبة تقريرًا لحُكمٍ، وكان بَدءُ يونس تعقيبًا على هذا الحُكم[1].

وإنّه جلَّ شأنُه لمّا أمرَ في آخِرِ التّوبة بقتال العادين من الكفّار بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾ الآيات [التّوبة: 123 - 124] بيّن في سورة يونس أسانيدَ أهلِ الكفر الّذين أمرَ اللّه بقتالهم، وبيّن شُبهاتِهم، ولا سيّما ما كان منها حول الوحي والقرآن، فبدأتِ السّورةُ الكريمة بالأحرف المُقطّعة والحديثِ عن آيات الكتاب: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾ [يونس: 1]، ولمّا ختم التّوبةَ بقوله عن النّبيّ ﷺ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/929.

رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: 128 - 129] نعَى على الكافرين استهجانَهم أن يأتيَهم رسولٌ من أنفسِهم يدعوهم لدين الله فقال تعالى في مطلع يونس: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ [يونس: 2].

وأيضًا فإنّه كما خُتمتِ التّوبةُ بوصيّة النّبيّ ﷺ بالتّوكُّل على ربّه، ناسب أن تُختم سورةُ يونس بوصيّة النّبيّ ﷺ بالاتّباع والصّبر بقوله: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس: 109] أكملتِ الوصيّةَ الأولى في آخر التّوبة.

❁ المَعنى الإجماليُّ:

آيـاتُ الكتابِ مبيَّنةٌ، مفصّلةٌ، مُحكَمةٌ، مُتقَنةٌ

يُريد هذه الآياتِ الَّتي أُنزلت على محمد ﷺ آياتِ الكتاب الحكيم، يعني: القرآنَ المُحكم منَ الباطل، الممنوعَ منَ الفساد، لا كذبَ فيه ولا اختلافَ، فهي آياتُ الكتاب الحكيم بيانًا، وتفصيلًا، وإحكامًا، وإتقانًا(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فنُّ الاتّساعِ، وبراعةُ الافتتاح بالحروف المُقَطَّعةِ:

اشتمالُ حروف فواتحِ السّوَرِ على العديدِ منَ المعاني بأوجزِ بيانٍ

﴿الٓرۚ﴾ هذه حُروفٌ مُرَكَّبَةٌ في الرَّسْمِ بِشَكْلِ كلمةٍ ذاتِ ثَلاثةِ أَحْرُفٍ، ولَكِنَّها تُقْرَأُ بِأسْماءِ هذه الأحْرُفِ ساكِنَةً هَكَذا: ألِفْ، لام، را؛ فهي بِمَنْزِلَةِ الأعْدادِ المَسرودَةِ، وفيها أوجزَ البيانُ القرآنيُّ العبارةَ للوصولِ إلى أكثرَ من معنًى مع مُراعاة حُسن جَرْس هذه المعاني لدَى السّامع، من خلال ارتباطِها في سياق واحدٍ؛ والقَصدُ إلى تَنْبيه الَّذينَ تُتْلَى عليهمُ السُّورَةُ لِما بعدَها لِأجْلِ العِنايَةِ بِفَهْمِه

(1) الواحديّ: التّفسير الوسيط: 2/538. (بتصرّف).

حَتَّى لا يَفوتَهُم مِنْ سَماعِهِ شَيْءٌ، فهي كأداةِ الافْتِتاحِ[1] (ألا)، و (هاءِ) في تَحْريرِ مقصد التَّنْبيهِ أوِ التّحدّي، بَلْ هي أقْوَى منهما في هذا التَّنْبيه.

علَّةُ إيثارِ اسْمِ الإشارة ﴿تِلۡكَ﴾:

في الإشارةِ حثٌّ على النَّظرِ في آياتِ القرآنِ وتدبُّرِها

آياتُ القرآنِ عاليةُ المنزلةِ فخامةً، ومكانةً، وثُقلَ ميزانٍ

عبّرَ باسمِ الإشارة ﴿تِلۡكَ﴾ الدّالِّ على معنى البُعدِ والارتفاعِ فقال تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ ؛ للتَّنبيه على بُعد منزلتها في الفخامةِ، وعُلوِّ مقامِه، وأيُّ مقامٍ يُقاربُ كتابَ اللّه تعالى؟! فهو عليٌّ في ذاته، ثقيلٌ في ميزانه، فاجتمع الاعتبارُ على أنَّ تلك الحُروف المُفْتَتَحَ بِها السُّوَرُ وإنْ قَرُبَتْ ألْفاظُها، فَمَعانيها بَعيدةُ المَنالِ، وقد شاعَ في الكلامِ البَليغِ تَمثيلُ الأمرِ الشَّريفِ بِالشَّيْءِ المرفوعِ في عِزَّةِ المَنالِ؛ لِأنَّ الشَّيْءَ النَّفيسَ عَزيزٌ على أهْلِه، فَمِنَ العادَةِ أنْ يَجْعَلوهُ في المرتَفَعات؛ صَوْنًا لَهُ عَنِ الدُّروسِ وتَناوُلِ كَثْرَةِ الأيْدي والابْتِذالِ[2].

آلَ البيانُ إلى أنَّ المَقْصودَ مِنَ الإشارَةِ إما الحَثُّ عَلَى النَّظَرِ في آياتِ القُرْآنِ؛ لِيَتَبَيَّنَ لَهُم أنَّهُ مِنْ عند اللّه ويَعْلَموا صِدْقَ مَنْ جاءَهُم بِهِ. وإما إقناعُهُم مِنَ الآياتِ الدالَّةِ على صِدْقِ النَّبي ﷺ بآياتِ الكِتابِ الحَكيم، فإنَّهُم يَسْألونَ النَّبيَّ آيَةً على صِدْقِه، فَقيلَ لَهُم: تِلْكَ آياتُ الكِتابِ الحَكيم، أيْ ما هو آيَةٌ واحِدَةٌ بَلْ آياتٌ كَثيرَةٌ؛ فَإنَّ الإعْجازَ حاصلٌ بِكُلِّ سورَةٍ مِنْهُ[3].

نُكتَةُ تعريفِ الآياتِ بالإضافةِ:

أظهرَ عجزَ المشركين عن الإتيان بمثلِ بعضش القرآنِ

إضافَةُ الآياتِ إلى الكِتابِ في قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ إضافَةٌ شَبيهَةٌ بِالبَيانيَّة، وإنْ كانَ الكِتابُ بِمَنْزِلَةِ الظَّرْفِ لِلْآياتِ بِاخْتِلافِ الاعْتِبارِ، وهو مَعْنَى الإضافةِ البَيانيَّةِ[4].

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/118.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/222، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/99.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/81.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/81.

والمَقْصودُ بِأنَّ آياتِ الكِتابِ الحَكيمِ كُلَّها بجميعِ تَراكيبِها مِنْ جِنْسِ حُروفِ كلامِ العربِ في أزمنةِ الخطابِ؛ تسجيلًا لعَجْزِهم عنْ مُعارَضَتِها بِمِثْلِها، فلَوْلا أنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ لَكانَ اخْتِصاصُهُ بهذا النَّظْمِ المُعْجِزِ دونَ كلامِهِم مُحالًا، إذْ هو مُرَكَّبٌ مِنْ حُروفِ كلامِهِم؛ فكانتِ الآياتُ مَسوقَةً مَساقَ التَّهَجِّي لإِظْهارِ عَجْزِ المُشْرِكينَ عنِ الإتْيانِ بِمِثْلِ بعضِ القُرْآنِ(1).

فائدةُ جَمعِ الآياتِ جمعَ مؤنّثٍ سالمًا:

كانتِ النّفوسُ مُتشوّفةً إلى إنزالِ آياتِ الكتابِ كلِّها

جُمعتِ الآياتُ - على هذا الوِزانِ، دون أن يقولَ: (آيٌ) - لمعانٍ مخصوصةٍ، يُفيدها السِّياقُ، ويقتضيها المقامُ، ومن ذلك:

أنَّ الخطابَ أحالَ على آياتِ الكتابِ كلِّها؛ وإن لم يُنَزَّلِ الكلُّ حينئذٍ؛ إذ كانت بصددِ الإنزالِ، تَشَوُّفًا إلى تحقيقِ وعْدِ اللّٰه تعالى بإنزالِها جميعًا يومَ الميثاقِ أنْ أوحيَ إليه ﷺ الكتابُ(2). والشّاهدُ في قولِه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل: 5].

مُناهضةُ عُمومِ الخصومِ بالآياتِ القواطعِ

تَسْجيلُ التَّحَدِّي بِمُعارَضةِ الخُصومِ لآياتِ الكتابِ الحَكيمِ كُلِّها؛ بدلالةِ إفادتِها العمومَ إضافةً وجمعًا(3).

نَوعُ (أل) في الكتاب:

المقصودُ القرآنُ، أوِ الكتابُ المكنونُ وهو اللّوحُ المحفوظُ، أوِ الكتبُ المتقدّمةُ

التَّعريفُ في الكتابِ في قولِه: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لِلْعَهْدِ، فالكتابُ يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ المُرادُ مِنْهُ هو القُرْآنُ؛ والقرينةُ أنَّ "الحَكيمِ" مِنْ نَعْتِ القُرْآنِ(4).

ويُحْتَمَلُ أنْ يكونَ المُرادُ مِنْهُ الكِتابَ المَكْنونَ عِنْدَ اللّٰه تعالَى، المَصونَ والمستورَ عن أعينِ الخَلْقِ، وهو اللوحُ المحفوظُ الَّذي مِنْهُ نُسِخَ كُلُّ كِتابٍ،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3507.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/102.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/82.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/82.

كَما قالَ تَعالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨﴾ [الواقِعة: 77-78] وقالَ تَعالَى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢﴾ [البُروج: 21-22] وقالَ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ٤﴾ [الزخرف: 4] وقالَ: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾ [الرعد: 39][1].

أو أنْ يُرادَ به الإشارَةَ إلى الكُتُبِ المتقدِّمةِ مِنَ التَّوراةِ والإنجيلِ، قالَهُ مُجاهِدٌ، وقَتادَةُ؛ فيكونُ المَعْنى: هذه الأقاصيصُ الَّتي تَسْمَعونَها، تلك الآياتُ الَّتي وُصِفَتْ في التَّوْراةِ والإنجيل[2]. والرأيُ الأوَّل أرجحُ بأَمارةِ الوصْفِ بالحكيم هنا وفي غيره منَ المواضع[3]، ثمَّ إنَّ التّوراة والإنجيل لم يَجْرِ لهما ذِكرٌ قريبٌ حتى يُشارَ إليهما[4].

الـقـرآنُ كـتـابٌ كاملٌ جامعٌ مُنزَّهٌ منَ النَّقص

أو قد يُساقُ التَّعْريفُ للدّلالةِ عَلَى معنى الكمالِ في الجِنْسِ، أي الجديرُ بأنْ يُسمَّى كتابًا؛ كَما تقولُ: أَنْتَ الرَّجُلُ؛ أي الكامِلُ في الرُّجوليَّةِ، الجامعُ لِما يكونُ في الرِّجالِ مِنْ مُرْضياتِ الخِصالِ[5].

سِرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

ناسَبَ المُفتَتَحُ معنى جمعِ الحروفِ والكلماتِ الأخرَى

الكتاب فِعالٌ بِمَعْنَى المَكْتوبِ، إما مَصدرُ كاتَبَ المَصوغُ لِلْمُبالَغَةِ في الكِتابَةِ، فَإِنَّ المَصْدَرَ يَجيءُ بِمَعْنَى المَفْعولِ كالخَلْقِ، وإما فِعالٌ بِمَعْنَى مَفْعولٍ كَلِباسٍ بِمَعْنَى مَلْبوسٍ وعِمادٍ بِمَعْنَى مَعْمودٍ بِهِ[6]. وقد سُمِّيَ القرآنُ العظيم بالكتاب؛ لأنه يجمع كلمةً إلى أخرى، ويجمعُ السّورَ والآياتِ بين دفّتَيْه، ومن هنا ناسبَ هذا المعنى مُفتتَحَ السّورة بالحروف المُقطّعة.

وفـي تَسْمِيَةِ القُرْآنِ بالكتابِ إشاراتٌ

منها: القَصْدُ إلى وُجوبِ كِتابَتِهِ لِحِفْظِهِ، ومنها أنَّ اشْتِقاقه مِنْ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/84.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير في علم التّفسير: 2/314 - 315.
(3) كما في: آل عمران: 58، ولقمان: 2، ويس: 2.
(4) الخازن، لُباب التّأويل: 3/172.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/82.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/221.

(كتب) بِمَعْنَى: جَمَعَ وضَمَّ؛ فَسُمِّيَ الكِتابُ كِتابًا، وكَتَبْتُ الشَّيْءَ إذا جَمَعْتَهُ[1] وسُمِّيَتِ الكَتِيبَةُ لِاجْتِماعِها أو لِأنَّه كالكَتِيبَةِ على عَساكِرِ الشُّبُهاتِ، أَوْ باعتبارِ ما اجْتَمَعَ فيهِ من جَميعِ العُلومِ، أَوْ لِأَنَّ اللّه تَعالَى أَلْزَمَ فيهِ التَّكاليفَ على الخَلْقِ[2]، فجَمعت معانيه وأحكامُه كلَّ خيرٍ لصلاحِ أمرِ الدّنيا والآخرةِ.

وجهُ إيثارِ الوصفِ بـ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾:

الحكيمُ مَظنّةُ الإتقانِ، والحكمةِ، والهيمنةِ على الكتُبِ الأخرى

سيق قيدُ الحكيم ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ في قوله: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾؛ للدّلالة على وفرةٍ في المعاني من حيث تقليبُ الصّيغ، ومن تلك المعاني:

الدَّلالةُ على الإتقان: فهو المُحْكَمُ بفتح الكاف، على "مُفْعَل"، أي: متقَنٌ لا خللَ فيه.

والدَّلالةُ على الهيمنة، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ [المائدة: 48] و(المُحَكِمُ): الحاكمُ على الكتب كلِّها، والحاكمُ بالحلال والحرام.

والدَّلالةُ على الحِكمة: فهو المُشْتَمِلُ على الحِكَم - بكسر الحاء وفتحِ الكاف - والمُتَعَلِّقُ بِها في جميع التّكليفات والشّرائع. وفي أصله قيل هو مَأْخوذٌ مِن الإحْكامِ والإلْزام، أو هو مَأْخوذٌ مِنْ حكمَةِ اللِّجامِ، لِأنَّها تَضْبِطُ الدابَّةَ، والحِكْمَةُ تَمنَعُ مِنَ السَّفَهِ[3].

والحكمةُ: وضعُ الأشياء في مواضعِها اللائقةِ، أو علم الأشياءِ على ما هي عليه، وقيل: إصابة الحقِّ بالعلم والعمل[4].

الحكيمُ بمعنى ذو الحكمةِ، والمُحْكَمُ، والحاكمُ، والمحكومُ فيه

ومعنى (الحكيم)، في هذا الموضع: (ذو الحكمة)؛ فهو على

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/221.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 2/260.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 2/261.
(4) القطّان، تيسير التَّفسير: 1/161.

النَّسب، وكذلك: (المُحْكَم). والعَرَبُ قد تَضَعُ فَعيلًا في مَعْنى مُفْعِلٍ؛ قالَ اللّه تَعالى: ﴿مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ١٨﴾ [ق: 18] أيْ: مُعَدٌّ.

فالحكيمُ: المُحْكَمُ بالحَلالِ والحَرام والحُدودِ والأَحْكام، قاله أبو عُبَيْدَة وغَيْرُهُ. والحَكيمُ بِمَعْنى الحاكِم، أيْ إنَّهُ حاكِمٌ بالحَلالِ والحَرام، وحاكِمٌ بَيْنَ النّاسِ بالحَقِّ، فَعيلٌ بِمَعْنَى فاعِلٍ، دَليلُهُ قوله: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: 213][1]. والحكيمُ بمعنى المحكوم فيه، أي حكم اللّه فيه بالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذي القُربى، وحكم فيهِ بالنّهي عنِ الفحشاءِ والمُنكرِ، وبالجنّةِ لمن أطاعهُ وبالنّارِ لمن عصاهُ، فهو فعيل بمعنى المفعولِ، قالهُ الحسنُ وغيرُهُ. وقال مُقاتِل: الحكيمُ بمعنى المُحكم من الباطِلِ لا كذب فيهِ ولا اختلاف، فعيل بِمعنى مُفعل، كقولِ الأعشى يذكُرُ قصيدتهُ الّتي قالها:

وغَريبَةٍ تَأْتي المُلوكَ حَكيمَةٍ *** قد قُلْتُها لِيُقالَ مَنْ ذا قالها[2]

الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

القرآنُ والكتابُ:

تنحصرُ دلالةُ القرآنِ في مُسمَّى الجمعِ والضَّمِّ والتِّلاوةِ

مِن أسماءِ القُرآنِ: الكِتابُ، وهو مصدر كالقيامِ والصِّيام، وقيل: فِعال بمعنى مفعول كاللِّباسِ بمعنى الملبوسِ باعتبار ما اجتمع فيهِ من جميع العُلوم، واتّفقوا على أنّ المُراد من الكتاب: القرآنُ[3] وفي اشتقاق لفظِ (قرآن) عدّةُ أقوالٍ، أشهرُها اثنان:

أحدُهما: أنّ القُرآن والقراءة واحِد، كالخُسرانِ والخسارة واحد، والدّليلُ عليهِ، قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: 18]، أي: تِلاوتهُ، أي: إذا تلوناهُ عليك فاتّبِع تِلاوتهُ[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/82.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/305.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 2/260.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 2/261.

الثاني: أنّهُ مصدر بمعنى الجمع، مِن قولِ القائِل: قرأتُ الماء في الحوضِ إذا جمعتُهُ، وسُمِّي القُرآنُ قُرآنًا؛ لِأنّ الحُروف جُمِعت فصارت كلِماتٍ، والكلِماتُ جُمِعت فصارت آياتٍ، والآياتُ جُمِعت فصارت سورًا، والسُّورُ جُمِعت فصارت قُرآنًا، ثُمّ جُمِع فيهِ عُلومُ الأوّلين والآخِرين. فالحاصِلُ أنّ اشتِقاق لفظِ (القُرآنِ) إما مِن التِّلاوةِ أو مِن الجمع[1].

القرآنُ والذِّكرُ:

الاشـــــتراكُ في تـذكـير العِـبـادِ بمُقتَضى ما أَمَرَ الله ونَهَى

من أسماء القرآن: الذِّكرُ، ومن معانيه: التَّذكرةُ، والذِّكرى؛ أمّا الذِّكرُ فقوله: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ﴾ [الأنبياء: 50]، ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾ [الحِجر: 9]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزُّخرُف: 44]. وفيهِ وجهانِ:

أحدُهما: أنّهُ ذِكر من اللّه تعالى ذكّر بِهِ عِبادهُ فعرّفهُم تكاليفهُ وأوامره.

والثّاني: أنّهُ ذِكر وشرف وفخر لِمن آمن بِهِ، وأنّهُ شرف لمحمّدٍ ﷺ، وأُمّتِهِ. وأمّا التّذكِرةُ فقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٨﴾ [الحاقّة: 48]. وأما الذِّكرَى - على قول قَتادة السَّدوسيِّ - فقوله تَعالَى: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٥﴾ [الذّاريات: 55][2].

القرآنُ والتَّنزيلُ:

تَسميةُ القرآنِ بالتَّنْزيلِ باعتبارِ النُّزولِ

وسُمِّي القرآن تنْزيلًا؛ لأنّه مُنزَّلٌ من عند اللّه تعالى على لسان جبريل عليه السلام، ولأنَّ اللّه تعالى أسمعَ جبريلَ كلامَه وفهَّمه إياه، كما شاء من غير وصْفٍ ولا كيفيةٍ، نزل به على نبيِّه ﷺ، فأدّاه هو كما فهمه وعَلِمه؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣﴾ [الشُّعراء: 192 - 193].

والهاء في قوله ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ كنايةٌ عنِ الذِّكر الَّذي في قوله تعالى:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 2/261.
(2) الماورديّ، النُّكت والعيون: 5/374، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 2/261.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الشُّعراء: 5]، والمعنَى: وإنَّ القُرْآنَ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العالَمِينَ نَزَلَ بِهِ جِبْرِيلُ إِلَيْكَ(1).

القرآنُ والحَديثُ:

وصـفُ القـرآنِ بالحديثِ باعتبارِ ما تَـقـدَّمَـهُ مِنَ الكتبِ المُنَزّلَةِ أو بما يُـحـدَّثُ به منه

ومن أوصاف القرآن: الحَديثُ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا﴾ [الزُّمَر: 23] سَماهُ حَديثًا؛ لأنَّ وُصولَهُ إلَيْكَ حَديثٌ، أي: حَديثُ التَّنْزيلِ بَعْدَما تَقدَّمَهُ منَ الكُتبِ المُنَزَّلَةِ على مَن تَقدَّمَ منَ الأنْبياءِ، ولأنَّهُ تَعالَى شَبَّهَهُ بما يُتَحدَّثُ به، فَإنَّ اللهَ خاطَبَ به المُكلَّفينَ(2)؛ إذِ الحَديثُ ما يُحَدِّثُ بِهِ المُحَدِّثُ، وسُمّيَ القُرْآنُ حَديثًا؛ لِأنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ كان يُحدِّث به أَصْحابَهُ وقَوْمَهُ، وهو كَقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾ [المُرسَلات: 50]، وقوله: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩﴾ [النجم 59]، وقوله: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ [القلم: 44](3).

قالَ القُشَيْريُّ: وتَوَهَّمَ قَوْمٌ أنَّ الحَديثَ منَ الحُدوثِ، فَيَدُلَّ على أنَّ كلامَهُ مُحْدَثٌ وهو وهْمٌ، لِأنَّهُ لا يُريدُ لفظَ الحَديثِ عَلَى ما في قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: 2]، وقد قالوا: إنَّ الحُدوثَ يَرجِعُ إلى التِّلاوَةِ لا إلى المَتْلوِّ، وهو كالذِّكْرِ مع المَذكورِ إذا ذَكَرْنا أَسْماءَ الرَّبِّ تَعالى(4).

القرآنُ والموعظةُ:

وصـفُ القـرآنِ بالموعظةِ باعتبارِ مـا فـيـه مـنَ المواعظِ والحِكَمِ

ومن أوصاف القرآن الموعظةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس: 57]، وإنَّما يعني بذلك جلَّ ثناؤه: القرآنَ، وهو في الحَقيقَةِ مَوْعِظَةٌ من اللهِ، والآخِذُ جبْريلُ، والمُسْتَملي مُحَمَّدٌ ﷺ، فكيف لا تَقَعُ به الموعظةُ؟(5) ووُصِفَ القرآن كذلك باعتبار ما فيه من المَواعظِ والحِكَم.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/395.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 2/261.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/248 - 249.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/248 - 249.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 2/261.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ٢﴾ [يونس: 2]

تعجّبوا من إنزالِ الكتابِ الحكيمِ على مُحمَّد ﷺ

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

"لمّا كان كونُ الكتاب مِن عند الله - مع كونِه حكيمًا - موجبًا لقَبوله باديَ بَدْءٍ، والسُّرورِ به؛ لِما تقرَّر في العُقول وجُبلَتْ عليه الفِطَرُ مِن أنَّه تعالى الخالِقُ الرّازقُ كاشفُ الضُّرِّ ومُدبِّرُ الأمرِ؛ كان ذلك مَوضِعَ أن يُقالَ: ما كان حالُ مَن تُلِيَ عليهم؟ فقيل: لم يُؤمنوا، فقيل: ما شُبْهَتُهم؟ هل قدَروا على معارضتِه والطَّعنِ في حِكْمَتِه؟ فقيل: لا! بل تعجَّبوا مِن إنزاله على محمَّد ﷺ وليس هو بأكثرهم مالًا، ولا بأقدَمِهم سنًّا، فرجَع حاصلُ تعجُّبهم إلى ما قاله تعالى إنكارًا عليهم؛ فإنَّه لو أرسَل ذا سِنٍّ قالوا مثلَ ذلك، وهل مثلُ ذلك مَحَلُّ العَجَبِ؟!"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَجَبًا﴾: أصلُ (عجب) يَدُلُّ عَلَى كِبْرٍ واسْتِكْبارٍ لِلشَّيْءِ، ومنه العُجْبُ، وهو أنْ يَتَكَبَّرَ الإِنْسانُ في نفسِه. تَقولُ: هو مُعْجَبٌ بِنَفْسِه[2]. والمُعجَب: الإنسان المُعجَب بنَفسِه، أو بالشَّيْءِ، تَقول: عجَّبت فلانًا بِشَيءٍ تعجيبًا فعجِب مِنْهُ[3]. والعجبُ النَّظرُ إلى شيءٍ غيرِ مألُوفٍ ولا مُعتادٍ[4]، والاستعجاب: شدَّة التَّعجُّب، وهو مُسْتَعْجِبٌ ومُتَعَجِّبٌ ممّا يرى. وشيء مُعْجِبٌ، أي: حَسَن، وأعجبني

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/65 - 66.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عجب).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عجب).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (عجب).

وأُعْجِبْتُ به[1]. والمقصود بالعَجَبِ في الآية: حالَةٌ تعتري الإنْسانَ من رُؤْيَة شَيْء على خلاف العادة[2].

2) ﴿أَنذِرِ﴾: أصْلُ (نذر): يَدُلُّ على تَخْويفٍ أو تَخَوُّفٍ، ومنه الإنْذارُ: الإبلاغُ؛ ولا يَكادُ يَكونُ إلّا في التَّخويف[3]. والنُّذُرُ: جَماعةُ النَّذيرِ (الرُّسُل)، وهو الاسْم من الإنْذار. والتَّناذُرُ: إنْذارُ بَعْضِهم بَعْضًا[4]. ومِنْهُ: النَّذْرُ، وهوَ أنَّهُ يَخافُ إذا أخْلَفَ. والنَّذْرُ أيْضًا: ما يَجِبُ، كَأنَّهُ نُذِرَ، أيْ: أوجب[5]. والمُراد بـ﴿أَنذِرِ﴾ في الآية: أعْلِمهُم مع التَّخْويفِ، والمُنذِرُ مَن يُخبِر غيرَه بأمرٍ مُخوِّفٍ حتَّى يحذَره[6].

3) ﴿قَدَمَ﴾: أصْلُ (قدم): يَدُلُّ على سَبْقٍ ورَعْفٍ (تقدُّم)[7]. فالقَدَمُ مِن لَدُن الرُّسْغ: ما يَطَأ عليه الإنسان[8]، وجمعُه: أقْدامٌ، وبه اعتبر التَّقدُّم والتَّأخُّر[9]، يُقال: ورَجُلٌ قَدَمٌ، وامرأةٌ قَدَمٌ: إذا كانا جَريئَين[10]، والقُدْمَة والقَدَمُ: السّابقةُ في الأمر[11]، والقَدَم أيضًا: كلُّ ما قدَّمتَ مِن خيرٍ[12]، يُقال: لِفُلانٍ قَدَمُ صِدْقٍ، أيْ: شَيءٌ مُتَقَدِّمٌ مِنْ أثَرٍ حَسَنٍ[13] أو سابقةِ فضيلةٍ[14]، وهذا هو المقصود في الآية.

4) ﴿صِدۡقٍ﴾: أصْلُ الكَلِمَةِ يَدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيْءِ قَوْلًا وغَيْرَهُ، ومنه: الصِّدْقُ، سُمِّي به؛ لِقوَّتِه في نَفْسِه، ولأنَّ الكَذِبَ لا قوَّة له. ومعناه: اعْتِبارُ الكلام صحيحًا لا كَذِبَ فيه، وهو نِسْبَةُ الصِّدقِ إلى المُخْبِرِ بالاخْتيارِ، أي: بالقَلْبِ واللِّسانِ، وضِدُّه: التَّكذيبُ. والصِّدِّيقُ:

(1) الخليل، العين: (عجب).
(2) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 2/364.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (نذر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).
(6) البَغَويّ، معالم التّنزيل: 4/120، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/137.
(7) الخليل، العين: (قدم).
(8) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (قدم).
(9) الرّاغب، المفردات: (قدم).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قدم).
(11) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (قدم).
(12) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قدم).
(13) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قدم).
(14) الرّاغب، المفردات: (قدم).

المُلازِمُ لِلصِّدقِ. والصَّداقُ: صَداقُ المَرْأةِ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِقوَّتِهِ وأنَّهُ حَقٌّ يَلْزَمُ[1]. والمرادُ بالصِّدق في الآية: كلُّ فِعْلٍ فاضِلٍ ظاهرًا وباطنًا.

المَعنى الإجْماليُّ:

موقفُ المُشركين مِنَ الرِّسالةِ النَّبويَّةِ الكريمةِ والرَّدُّ عليهم

عجبت قريشٌ من إرسال اللّه محمَّدًا ﷺ إلى العباد، وقالوا: أما وجدَ اللّه مَن يرسلُه إلينا إلا يتيمَ أبي طالب؟ فأنزل اللّه تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ توبيخًا وإنكارًا[2]، أكان هذا باعثًا للنّاس على التَّعجُّب أن أنزلنا الوحيَ على رَجلٍ من جنسهم، آمرين إيّاه أن يُحذِّرهم من عذاب اللّه؟! وأخبِرْ - أيُّها الرَّسول - الّذين آمنوا باللّه بما يَسرُّهم، أنَّ لهم منزلةً عاليةً جزاءً على ما قدَّموه من عملٍ صالحٍ عند ربِّهم سبحانه، يَستوجبون بها منه الثَّوابَ، ومن فَرْطِ حماقتِهم وقصورِ نَظَرِهم على الأمور العاجلةِ وجهْلِهم بحقيقة الوحْيِ والنُّبوَّة[3] قالوا: إنَّ هذا الرَّجلَ الَّذي جاء بهذه الآياتِ لساحرٌ ظاهرُ السِّحر، فخسِروا البشارة، واستحقّوا النِّذارةَ.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغةُ الاستفهامِ في المَطْلَعِ:

تعجّبُ المشركين مُستَنكَرٌ لا وَجْهَ له

الهَمزَةُ اسْتِفهامٌ لِلتَّعجُّبِ، معناهُ التَّقريرُ والتَّوبيخُ لإنْكارِ التَّعجُّبِ ولأجلِ التَّعْجيبِ مِن هذا التَّعَجُّبِ، أيْ: كَيْفَ يَتَعَجَّبونَ مِن ذلك تَعَجُّبَ إحالَةٍ[4]، وعليه: فإنَّ تعجُّبَ هؤلاء المشركينَ ليس في محلِّه، ولا وجْهَ له عقلًا[5].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدق)، وينظر: الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (صدق).

(2) الواحديّ، التَّفسير الوسيط: 2/538.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/111، والبيضاويّ: أنوار التّنزيل: 3/104، وجماعة من العلماء، المُختَصر في تفسير القرآن، ص: 208.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/186.

(5) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/34.

نُكتةُ التّعبيرِ بفِعْل الكوْنِ الماضي:

اللَّطيفةُ البلاغيَّةُ المُتشوَّفُ إليها بفعل الكوْن الماضي: أنّ التَّعَجُّبَ أُحدِث، وتقَرَّرَ فيهم مِن وحْينا؛ لأنَّ فِعْلَ الكوْنِ يُشْعِرُ بالاسْتِقْرارِ والتَّمكُّنِ، فإذا عُبِّرَ به أشْعَرَ بأنَّ هذا غيرُ مُتوَقَّعٍ حُصولُه[1].

تقرُّرُ التّعجُّبِ واستِحكامُه فيهم

فائدةُ إدخالِ الاستفهامِ المُستعمَلِ في الإنكارِ على (كان):

فائدةُ إدْخالِ الاسْتِفْهامِ الإنْكاريِّ عَلى (كانَ)، دونَ أنْ يُقالَ: (أعَجِبَ النّاسُ)، هي الدَّلالةُ على التَّعْجيبِ مِن تَعَجُّبِهم المُرادِ به إحالَةُ الوَحْيِ إلى بَشَرٍ[2]. فالمُراد بالهمزة المعنَى التَّعجُّبيّ[3]، أي: إنْكارُ التّعجُّبِ، والتّعْجيبُ منهُ[4]. و"التّوبيخ على أنّهم اتَّخذوا إرسالَ رَجُلٍ منهم موضعًا للعَجَب، فالرَّسول لا يمكن أن يكون إلّا رجلًا منهم، فلا يصحّ أن يكون ملَكًا منَ الملائكة"[5].

المُرادُ التَّعجُّبُ من تعجُّبِهم وتوبيخُهم بأنَّ المألوفَ ليس موضعَ العجَب

دَلالةُ اللّامِ في ﴿لِلنَّاسِ﴾:

قوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بكانَ لِزيادةِ الدَّلالةِ على اسْتِقْرارِ هَذا التَّعَجُّبِ فيهم؛ لِأنَّ أصلَ اللّامِ أنْ تُفيدَ المِلْكَ، ويُسْتَعارُ ذلِكَ لِلتَّمَكُّنِ، أيْ: لِتَمَكُّنِ الكَوْنِ عَجَبًا مِن نُفوسِهم[6]، ويجوزُ أن تكون اللّام في ﴿لِلنَّاسِ﴾ للبيان كما في ﴿هَيْتَ لَكَۚ﴾ [يوسف: 23]، فهو متعلّق بمَحْذوف دلَّ عليه ﴿عَجَبًا﴾[7].

تمكّنُ العَجَب منهم واستقرارُه في نفوسِهم، وبيانُ حالِهم

إيثارُ (اللّام) على (عند):

قال ﷻ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ ولَم يَقُلْ: (أكانَ عِندَ النّاسِ عَجَبًا)، والفَرْقُ أنَّ قوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ مَعْناهُ: أنَّهم

جَعلوا الوحْيَ أُعْجوبَةً، وعيَّنوه مقصِدًا للاستهزاءِ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/83.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/83.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/382.

(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 2/5.

(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3508.

(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/83.

(7) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 9/382.

جَعَلوهُ لِأَنْفُسِهِم أُعْجوبَةً يَتَعَجَّبونَ مِنها، ومقصدًا يوجِّهون نحوه استهزاءَهم وإنكارَهم، ونَصَّبوهُ وعَيَّنوهُ لِتَوْجيهِ الطِّيَرَةِ والاِسْتِهْزاءِ والتَّعَجُّبِ إليه، ولَيْسَ في قولِ: أكانَ عند النّاسِ عَجَبًا، هذا المعنى[1].

إيثارُ لفظِ (النّاس):

تحقيقُ الشِّركةِ بين الرَّسولِ ﷺ وبينَهم

المُرادُ بِالنّاسِ: كُفّارُ العربِ، والتَّعبيرُ عنهم باسْمِ الجِنْسِ مِن غَيْرِ تَعَرُّضٍ لِكُفْرِهِمُ الَّذي هو المَدارُ لِتَعَجُّبِهِم كَما تَعَرَّضَ له فيما بعدُ[2]، يُحقِّقُ جملةً منَ النّكتِ البلاغيَّة.

فقد أُطلِقَ هذا اللَّفظُ، والمرادُ به بعضُ أفرادِهِ لِتَحْقيقِ ما فيه مِنَ الشّرِكَةِ بَيْنَ رسولِ اللّه صَلّى اللّه تَعالى عَلَيْهِ وسَلَّمَ وبَيْنَهم، وتَعْيينِ مدارِ التَّعْجيبِ في زَعْمِهِم ثُمَّ تَبْيينِ خَطَئِهِم وإظْهارِ بُطلانِ زَعمِهم بِإيرادِ الإنْكارِ[3].

تَنْزيهُ الرّسولِ ﷺ ودفعُ توهّمِ أن يكون منهم

وفي إيثار لفظِ (الناس) التّوصّلُ إلى نسبة (رَجُل) وهو محمّد ﷺ إليهم هكذا ﴿رَجُلٍ مِّنۡهُمۡ﴾، ولو قيل: (الذين كفروا) لما صحَّت تلك النِّسبة، ففيه تنْزيهٌ للرَّسول ﷺ، ودفعٌ لتوهّم أن يظنَّ مُبطلٌ أنّه - صلوات ربّي وسلامُه عليه - واحدٌ من (الذين كفروا) - حاشاه -[4].

سِرُّ التّعبيرِ بالمصدرِ المُنَكَّرِ ﴿عَجَبًا﴾:

بالغَ في إظهارِ عَجَبِهم منَ الاصطفاءِ

عبّر بالمصدر الصّريحِ للتَّعبير عنِ المبالغة في إظهارِ عَجَبهم من اصطفاء رجلٍ منهم للرِّسالة؛ لما يُفيده المصدرُ الصّريحُ، منَ القطع بحصول الفعلِ، والمبالغةِ في تحقيقه. فعندما تصفُ بالمصدر، أو تخبرُ به كأنما تُحوّل الشَّيءَ إلى مصدر، فقولُك: هذا رجلُ خيرٍ؛ كأنّما تَحوَّل كلُّه إلى خيرٍ.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/186.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/58.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/116.
(4) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/35.

بَلاغةُ الكنايةِ في لفظِ (العَجَب):

لفظُ العَجَب هاهنا كِنايَةٌ عن إحالَةِ الوُقوعِ، كما في قوله تَعالى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٞ ٧٢ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۖ﴾ [هود: 72 - 73]، وقوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٞ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: 63][1]، وكانَتْ حِكايَةُ تَعَجُّبِهِم بِإِدْماجِ ما يُفيدُ الرَّدَّ عليهم بأنَّ الوَحْيَ كانَ إلى رَجُلٍ منَ النّاسِ، وذلك شَأْنُ الرِّسالاتِ كُلِّها، كما قالَ تَعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم﴾ [يوسف: 109]، وقالَ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلٗا﴾ [الأنعام: 9]، وقالَ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ٩٥﴾ [الإسراء: 95][2].

عبّرَ عن استحالةِ الوقوعِ بلفظِ العَجَب

وكذلك تُعجِّبُهم الحكايةُ بإدماجِ ما يدلُّ باللُّزوم على إنْكارِ التَّكْذيبِ بلَهَ الإنْكارِ على تَعَجُّبِهِم منَ الإيحاءِ إلى رجُلٍ منَ البَشَرِ[3].

تقديمُ خبرِ كان على اسمها:

قدّم الخبرَ وهو قوله: ﴿عَجَبًا﴾، على اسم كان: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾، والتَّقديرُ: كانَ إيحاؤُنا عَجَبًا للنّاسِ؛ لِأَنَّهم يُقَدِّمونَ الأَهَمَّ[4] لِيُهْتَمَّ بشأنِه لكوْنِه مَدارَ الإنْكارِ والتَّعْجيب، وتَشْويقًا إلى المُؤَخَّرِ؛ ولِأَنَّ في الاسْمِ ضَرْبَ تَفْصيلٍ، فَفي مُراعاةِ الأصلِ نَوْعُ إخلالٍ بِتَجاوُبِ أطرافِ الكلامِ، والحاصلُ: أنَّ في تقديم خبرِ كان دلالةً على أنّه مَصَبُّ الإنكار[5] ومحلُّه؛ فكان أهمَّ، وبالتَّقديم أتمَّ[6].

قُدّمَ محطُّ العنايةِ، ومَدارُ التَّعْجيبِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/84.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/84.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/84.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/186.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/116.
(6) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/382.

تحقّقُّ حدوثِ الوحيِ المُتيقَّنِ وتجدُّدِه يزيدُ المُنكرين كَمَدًا

إيثارُ المصدرِ المؤوَّلِ، ووجهُ صَوْغِ فعلِ الوحيِ ماضيًا:

قولُه تعالى: ﴿أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ﴾ اسْمُ كانَ، وجيءَ فيهِ بِـ (أنْ) و(الفِعْلِ) دونَ المَصدرِ الصَّريحِ وهو (وحْيُنا)؛ ليُتَوَسَّلَ إلى ما يُفيدُهُ الفعلُ من التَّجَدُّدِ، وصيغَةِ المُضِيِّ منَ الاستقرارِ تَحْقيقًا لوقوعِ الوحْيِ المُتعجَّبِ منهُ وتَجَدُّدِهِ، وذَلِكَ ما يَزيدُهم كَمَدًا[1]. وفيه تخصيصُ الحديث عن حَدَثِ الوحيِ دون الالتفات إلى هيئتِه، وماهيّتِه؛ فالمُتعجَّبُ منه الحدثُ نفسُه هو معنى اختُصّ به المصدرُ المُنْسبِك دونَ الصَّريح.

مَنْ أرسلَه الله مُبجَّلٌ، كاملُ الرُّجولةِ

التَّعبيرُ عنِ الشّخصِ بالتَّنكيرِ دونَ العَلَميَّةِ:

جاء اختيارُ لفظةِ ﴿رَجُلٍ﴾ بصيغة التَّنكير؛ لتدلَّ على أنَّ هذا الَّذي أرسله اللّه إلى النّاس، قد بلغَ الغايةَ في الرُّجولةِ، بدلالة هذا التَّنوين المأتيِّ به للتَّبجيل، وأنَّه منهم لا يخفاهُم أمرُه، وكلُّ ذلك لينسجمَ المعنى مع غرَضِ الآية، ولأنَّ في هذه اللّفظة ردًّا على القوم الّذين تعجّبوا من إرسالِ رسولِ اللّه ﷺ[2].

حالُ الأقوامِ السّابقةِ مع رُسُلهم الإنكارُ جهلًا، وخفّةُ العقلِ

بَلاغةُ المَجَازِ المُرسَلِ في لفظ ﴿رَجُلٍ﴾:

تكمُن بلاغةُ المجازِ المرسلِ في لفظ (الرَّجل)، أنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ هذا الإنكار، وذلك التَّعجبُ هو حالُ الأقوام جميعًا مع رُسُلهم الّذين أُرسلوا إليهم، فكأنَّ أولئك الأقوامَ تواصَوا فيما بينَهم على هذه الشُّبَه[3].

كما أنَّ في هذا دلالةً منهم على شدّةِ جهلِهم، وقلّةِ تأمّلِهم وتدبّرِهم، حين ظنّوا أنّ كوْنَ الرَّسول رجلًا سببٌ لرفض دعوته، ومحاربتِه؛ وكأنَّ مشاركتَهم له في البشريَّة يمنعُ اختصاصَ اللّه إيّاه بما شاء منَ العِلم[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/83.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/66.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/118.
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 357.

نُكتةُ إيرادِ الجارِّ والمجرور ﴿مِّنۡهُمۡ﴾:

النَّعيُ عليهم ومعرفتُهم بكونِه منهم تنقضُ اتّهامَهم له

النّكتةُ أنّه ﷺ في غايَةِ الرُّجوليَّة[1]، وهو مع ذلك ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ بحَيْثُ إنَّهم يَعْرِفونَ جَميعَ أمرِه، وكانَتْ حِكايَةُ تَعَجُّبِهِم بِإدْماجِ ما يُفيدُ الرَّدَّ عَلَيْهِم بِأنَّ الوَحْيَ كانَ إلى رَجُلٍ مِنَ النّاس، وذلك شأْنُ الرِّسالاتِ كُلِّها[2]. فوجهُ نِسْبة النبّي ﷺ إليهم معرفتُهُم اليقينيّةُ به لكونِه منهم تنقضُ اتّهامَهم له، وتُعرِّضُ بهم لجهلِهم، وانعدام تفكيرهم، وتغْييبِ عقولِهم. ونكتةُ هذه النّسبة النَّعيُ عليهم لأنّهم يعرفون محمَّدًا معرفةً جيّدةً، ولم يُجرّبوا عليه كذبًا قطُّ، فكيف يتّهمونه بادِّعاء الرّسالة؟ ولو قيل إلى (مُحمَّدٍ)، لَفات هذا المعنى[3].

إيثارُ المصدرِ المؤوّل: ﴿أَنۡ أَنذِرِ﴾:

الشَّأنُ إنذارُ النّاس على معهودِ الخطابِ

وُضِعَ المصدرُ المُؤَوَّلُ موضعَ الصَّريحِ للدّلالة على وفْرةِ المعاني مع إيجازٍ في المباني؛ وذلك بتقديرِ الاحتمالاتِ الموافقَةِ للمُراد الشَّرعيِّ.

فعلى تحريرِ ﴿أَنۡ﴾ التَّفسيريَّة أوِ المَصدَريَّة المُخفَّفَةِ منَ الثَّقيلَةِ، فأصْلُ البيان أنَّهُ أنْذَرَ النّاسَ على مَعْنى أنَّ الشَّأْنَ قولُنا: أنْذِرِ النّاسَ على معهود خطابِ الله تعالى.

خصّصَ الخطابَ بحدثِ إنذارِ النّاسِ دون كيفيّاتِه

وعلى تقرير ﴿أَنۡ﴾ المَصْدَريَّةِ الثُّنائيَّةِ الوَضْعِ، لا المُخَفَّفَةِ مِنَ الثَّقيلَةِ، فهي توصَلُ بالماضي والمُضارِعِ والأمرِ، فَوُصِلَتْ هُنا بالأمرِ، ويَنْسَبِكُ منها معه مَصْدَرٌ، تَقْديرُهُ: بِإنْذارِ النّاسِ[4]، وفيه أنَّ المَصدرَ المؤوَّل ولا سيما مع ﴿أَنۡ﴾ يدلُّ على مجرّد معنى الحدثِ دونَ احتمالٍ زائدٍ عليه، ففي ﴿أَنۡ﴾ تحصينٌ منَ الإشكال، وتخليصٌ له من شوائب الإجمال: هيئةً، وكيفيَّةً، وحالًا. فالكلامُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/66.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/84.

(3) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/35.

(4) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 1/435.

مُخصَّص على حدثِ إنذارِ النّاس فحسبُ، دون كيفيّاتِه، وأحوالِه، وتفصيلاتِه، وكُنْهِه.

الأمرُ بالإنذارِ رَدعٌ عن فعلِ ما لا يَنبغي

دلالة الأمرِ في فعل الإنذارِ:

الإنذارُ إخبارٌ معه تخويفٌ في مدَّة تتَّسع التَّحفُّظَ من المُخوَّف منه(1). ومعنى الأمر أنَّ الشَّأن قولنا: أنذر النّاس ليَرْتَدِعوا بِسَبَبِ ذَلِكَ الإنْذارِ عَنْ فِعْلِ ما لا يَنْبَغي(2).

بَعدَ إجمالِ الوحي بيَّن الله تَفْصيلَه

تفصيل الإجمال في جملة ﴿أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾:

والمُراد: أَخْبِرْهم بعواقب فِعْلِ ما لا يَنْبَغي تَخْويفًا لَهم بمّا يَتَرَتَّبُ. وتحريرُ ذلك: أَنَّهُ تعالى لَمّا بَيَّنَ أنَّهُ أَوْحى إلى رَسولِه، بَيَّنَ بَعْدَه تَفْصيلَ ما أَوْحَى إليه وهو الإنْذارُ والتَّبْشيرُ تَخليةً وتحليةً(3).

الحذفُ لِلتَّهْويلِ والتَّخويفِ بكثرةِ احتمالاتِ المُنْذَرِ به

بلاغةُ حذْفِ المُنْذَرِ به:

ولم يُذكرِ المُنْذَرُ به وذُكرَ المُبَشَّرُ به؛ لأَنَّ المقامَ يقتضِي ذلك، فحُذِفَ المُنْذَرُ بِهِ لِلتَّهْويلِ والتَّخويف بكثرةِ احتمالاتِه، ولِأنَّهُ يُعلَمُ حاصِلُهُ من مُقابلَته بقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ﴾(4).

رسالةُ النَّبيِّ ﷺ لجميعِ النّاسِ الّذينَ يُمكِنُهُ تَبليغُهم

وَجهُ تَكرارِ لفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

لفظُ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الثّاني يَعُمُّ جميعَ البَشَرِ الّذينَ يُمكِنُ إنْذارُهم، فَهو عُمومٌ عُرْفيٌّ(5)، والمُرادُ بِهِ جَميعُ النّاسِ الّذينَ يُمكِنُهُ ﷺ تَبْليغُهم ذلك لا ما أُريدَ بِالنّاسِ أوَّلًا(6).

تَواردُ كثرة المعاني على اللَّفظِ الواحدِ تجوّزًا

بَلاغةُ المَجازِ المُرْسَلِ في لفظِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

المُرادُ بِـ﴿ٱلنَّاسَ﴾ ثانيًا غَيْرُ المُرادِ بِهِ أوَّلَ ذِكْرٍ بِلَفْظِهِ الظّاهر دون

---

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/16.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/186.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/186.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/85.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/84.

(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/60.

أَنْ يُقالَ: أَنْ أَنْذِرْهم[1]، وهو النُّكْتةُ في إيثارِ الإظْهارِ على الإضْمارِ وكوْنُ الثّاني عَيْنَ الأوَّلِ عند إعادةِ المعرِفَةِ لَيْسَ على الإطْلاقِ[2].

ولَمّا عُطِفَ على الأمرِ بالإنْذارِ الأمرُ بالتَّبْشيرِ لِلَّذينَ آمَنوا؛ بَقيَ النّاسُ المُتَعَلِّقُ بِهِمُ الإنْذارُ مَخْصوصًا بِغَيْرِ المُؤْمِنينَ[3]، ولَمّا كان الإنْذارُ عامًّا كانَ مُتَعَلَّقُهُ وهو ﴿ٱلنَّاسَ﴾ عامًّا[4].

دَلالةُ واوِ العطفِ:

عطفُ البِشارةِ على النِّذارةِ لمُطلَقِ الجمعِ مع اقتضائِها الخلافَ

الواو عاطفةٌ، ﴿وَبَشِّرِ﴾ معطوفٌ على ﴿أَنذِرِ﴾؛ والقصدُ إلى إزالة ما لا ينبغي تخليةً، ثمّ التَّثنيّةِ بما يَنبغي تحليةً، وقد يكون من عطف تبشيرِ أهلِ الطّاعات على إنذارِ أهلِ الكفر والمنكراتِ، أو عُطفت البِشارةُ على الإنذار ليُناسبَ مقامَ التّعجُّب من وحْيِ اللّه إلى النّبي ﷺ[5].

سِرُّ تغايُرِ مفعولَي الإنذارِ والتَّبشيرِ:

الإنـذارُ قرينُ التَّخويفِ والبِشارةُ قرينةُ السُّرورِ

الإنذارُ إخبارٌ مع تخويفٍ كما أنّ البِشارةَ إخبارٌ مع سُرورٍ، وإنَّما عمَّم الإنذارَ وخصَّ التَّبشيرَ بالّذين آمنوا؛ لأنّه لا يَخلو مُكلَّفٌ عن شيءٍ يُنذرُ فيه، وليس لدى الكفّار فعلٌ يُبشَّرون به، وحالُ إنكارهم يُناسبُ الإنذارَ؛ لذلك خصّ التّبشيرَ بالمؤمنين، وأعمَّ الإنذارَ[6].

عِلّةُ التَّعبيرِ عن مفعولِ التَّبشيرِ بالاسمِ الموصولِ:

الإشـارةُ إلى سببِ التَّبشيرِ وهو الإيمانُ

في العُدولِ إلى التَّعبيرِ عن مفعولِ التّبشيرِ بالاسم الموصولِ ﴿الَّذِينَ﴾ إشارةٌ إلى سببِ التّبشيرِ؛ لأنّ التَّعبيرَ بالاسم الموصولِ دليلٌ على أنَّ الصِّلةَ سببُ الحكمِ، فالإيمانُ سببٌ في البِشارة[7].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/84.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/60.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/84.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/9.
(5) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/35.
(6) الخازن، لباب التَّأويل في معاني التّنزيل: 2/427.
(7) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/168.

نُكتةُ تخصيصِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بالتّبشير:

لیس للكُفّارِ ما يُبشَّرون به مِنَ الخيراتِ

خُصَّ الَّذينَ آمَنوا بِالبِشارَةِ بِقَبولِ حسناتِهم وتكْفيرِ سيّئاتِهم والتَّجاوُزِ عن هفواتِهم وتَرَفُّعِ درجاتِهم، كما هو مُقْتَضى العَدلِ في إثابَةِ الطّائعِ وعِتابِ العاصي غُنْمًا وغُرْمًا[1]، ونُكتَةُ التَّخصيصِ أيضًا أنّ الكُفّارَ ليس لهم ما يصحُّ أن يُبشَّروا به حقيقةً[2]، فلا عَملَ خيرٍ يُبادِرون إليه، ولا فِعْلَ معروفٍ يُثابون عليه.

نُكتَةُ إيصالِ فعْلِ البِشارة إلى المبشّرِ به دون حرفِ جرٍّ:

المسارعةُ إلى الفعْلِ بدون واسطةٍ تعجيلًا بالتَّبشيرِ

وفِعْلُ التَّبْشيرِ يَتَعَدّى بالباءِ، فالتَّقْديرُ: وبَشِّرِ الَّذينَ آمَنوا بأَنَّ لَهم قَدَمَ صِدْقٍ، فحُذِفَ حرفُ الجرِّ مع (أنَّ) جَرْيًا عَلى الغالبِ[3]، ونُكتَةُ إضافَةِ القَدَمِ - الَّذي هو السّابقَةُ بالطّاعَةِ - إلى الصِّدقِ موَصِّلًا لِفعلِ البِشارَةِ إلى المُبَشَّرِ بِهِ دونَ حرفِ جَرٍّ: حيث خصَّهم بـ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾، أيْ: أعْمالًا حَقَّةً ثابتَةً قَدَّموها لِأَنْفُسِهِم صَدَقوا فيها وأخْلَصوا فيما يُسِّروا لَهُ؛ لِأَنَّهم خُلِقوا له وكانَ مِمّا يُسْعَى إليه بِالأَقْدامِ[4]، ولمّا كان خبرُ التّبشيرِ مَظنّةَ الفرحةِ الكبيرةِ، والمنّةِ العظيمةِ سارعَ إلى الفعلِ بدونِ واسطةٍ تعجيلًا بالتَّبشيرِ.

وجْهُ تقديمِ الإنذارِ على التَّبشيرِ:

الحديث موجَّهٌ إلى مُنكري النُّبوّةِ فهُم المُخاطَبون ابتداءً، والتَّخليةُ مُقدَّمةٌ على التَّحليةِ

لَمّا بَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّهُ أوْحى إلى رَسولِه ﷺ، بَيَّنَ بَعْدَهُ تَفْصيلَ ما أَوْحَى إليه وهو الإنْذارُ والتَّبْشيرُ، أمّا الإنْذارُ فلِلْكُفّارِ والفُسّاقِ ليَرْتَدِعوا بسببِ ذلك الإنْذارِ عن فعلِ ما لا يَنبغي، وأمّا التَّبْشيرُ فَلِأَهْلِ الطّاعَةِ لِتَقْوى رغبتُهم فيها؛ إذْ لَيسَ لِلْكُفّارِ ما يَصِحُّ أَنْ يُبَشَّروا به حَقيقَةً وإنّما قَدَّمَ الإنْذارَ على التَّبْشيرِ؛ لِأَنَّ التَّخْلِيَةَ مُقَدَّمَةٌ عَلى التَّحْلِيَةِ، وإزالَةَ ما لا ينبَغي مُقدَّمٌ في الرُّتْبَةِ عَلى فِعْلِ ما ينبَغي[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/67.
(2) البيضاويّ: أنوار التّنزيل: 3/104.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/85.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/67.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/186 - 187.

براعةُ طِباقِ الإيجابِ بين (الإنذارِ، والتّبشيرِ):

والجمعُ بين النِّذارَةِ والبِشارَةِ طِباقُ إيجابٍ اقتضاه المقامُ[1]؛ لبيان عميم أثرِهما، في مبدأ الثّواب، والعقاب، وفي ذلك ردعٌ للمُعانِد، ودعوةٌ إلى التّفكّر، وتعزيزٌ للمُقبِل، وحثٌّ على المبادرة، والاجتهادِ.

الإنـذارُ رادعٌ للمُعانِد، والتّبشيرُ دافعٌ لازديادِ المُطيع

دَلالةُ التَّوكيدِ بـ﴿أَنَّ﴾:

أكّدَ عِظمَ المثوبة مكانةً، وقُربًا، وعُلوَّ الجزاء تشريفًا وفضلًا، بقوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾، وهذا يَستدْعي التّأكيدَ المُتحقّقَ بـ﴿أَنَّ﴾، وتقديم شبْهِ الجملة ﴿لَهُمۡ﴾، فضلًا عنِ اسميّةِ الجملة[2].

عِظَمُ المثوبةِ يَستدْعي التَّوكيدَ

تقديمُ الخبرِ شبْهِ الجملةِ ﴿لَهُمۡ﴾:

قدّم خبرَ ﴿أَنَّ﴾ وهو شبْهُ الجملة ﴿لَهُمۡ﴾ على اسمها ﴿قَدَمَ﴾؛ لتخصيص مثوبةِ قدم الصِّدق بالّذين آمنوا؛ مزيدَ عنايةٍ، وتشريفٍ، وعُلوِّ مكانةٍ، وإحالةَ تخصيصٍ[3].

خصَّهم بالمثوبة مزيدَ عِنايةٍ وتشريفٍ

فائدةُ إضافةِ (القَدم) إلى (الصِّدق):

وإضافَةُ القَدَمِ إلى الصِّدْقِ مِن إضافَةِ المَوْصوفِ إلى الصِّفَةِ، وفيها دلالاتٌ:

الصِّدقُ مَناطُ كلِّ مَكْرُمةٍ ومنزلةٍ رفيعةٍ

الأوّل: إنَّما عُبِّرَ عنها بها إذْ بها يحصُلُ السَّبقُ والوُصولُ إلى المَنازِلِ الرَّفيعَةِ، كَما يُعَبَّرُ عنِ النِّعْمَةِ باليَدِ؛ لأنَّها تُعْطَى بِها، وقيل: مَقامُ صِدْقٍ، والوَجْهُ أنَّ الوُصولَ إلى المَقامِ إنَّما يَحْصُلُ بِالقَدَمِ[4].

الثّاني: الدَّلالَةُ عَلى تَحَقُّقِها وثَباتِها، والتَّنْبيهُ عَلى أنَّ مَدارَ نَيْلِ ما ناله المؤمنون منَ المَراتِبِ العَلِيَّةِ هو صِدقُهُم ظاهرًا وباطنًا، فَإنَّ التَّصديقَ لا يَنْفَكُّ عنِ الصِّدْقِ[5].

---

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/35.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 2/83.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/67.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/117.
(5) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/5.

الثالث: التّنبيهُ على أنَّهُ يَجِبُ أنْ يُخْلصَ لله الطّاعةَ كإخْلاصِ الصِّدقِ مِن شوائِبِ الكذبِ[1].

﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ بين الاستعارةِ، والكنايةِ:

لفظةُ (القَدَم) أمارةُ الثَّباتِ والتّمكُّنِ، وسعْيُ المرء يكونُ بقَدَمِه

قوله: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ استعارةٌ؛ لأنّ المُرادَ بالقَدَم هاهنا: السّابقةُ فى الإيمان، والتّقدّمُ في الإخلاص، والعبارةُ عن ذلك بلفْظِ القَدَم غايةٌ في البلاغة؛ لأنّ بالقَدَم يكونُ السّبقُ والتّقدُّم؛ فسُمِّيت قَدَمًا لذلك، وإنْ كان التأخُّر أيضًا يكونُ بها، على نحوِ ما ذكر اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النحل: 94]، في تشبيه مَنِ اتَّخذ حَلِف اليمينِ خديعةً لمن حَلَف له، كمن زَلِقت قدمُه بعد ثبوتها، كما أنَّ القدمَ يكون التَّقدُّم بخَطْوِها، كما قال سبحانه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ٣٧﴾ [المدثر: 37]، فالتّقدُّم إلى فعل الطّاعات، أوِ التأخُّرُ عن فعل المعاصي يكونُ في غالبه بها، لذا سُمّيتْ هنا بأشرف حالاتِها وأنبَهِ مُتصرّفاتها. وقال بعضهم: إيمانُهم في الدّنيا هو قدمُهم في الآخرة؛ لأنَّ معنى القدم في العربية: الشّيءُ تُقدّمُه أمامك ليكون عُدّةً لك، حتى تَقْدُمَ عليه[2].

أو أنَّ القدمَ كنايةٌ عنِ العمل الَّذي يتقدَّم فيه، ولا يقع فيه تأخيرٌ ولا إبطاءٌ. والسَّبب في إطلاق لفْظِ القدم على هذه المعاني، أنَّ السَّعيَ لا يحصل إلّا بالقدم، فسُمِّي المسبَّبُ باسم السَّبب، كما سُمّيت النِّعمة يدًا، لأنَّها تُعطَى باليد[3].

لفظُ القدمِ يدلُّ على الثَّباتِ والتَّقدُّمِ

استُعير في قوله: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ لفظُ القَدم للدَّلالَةِ على الثَّباتِ والتّمكُّن؛ لأنّ أصلَ الثَّبات يكونُ بالقدم، بحيث عُبّر عنه بالثُّبوتِ الحِسّيّ على طريقة الاستعارةِ التَّصريحيّةِ[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/67.
(2) الشّريف الرّضيّ، تلخيص البيان فى مجازات القرآن: 2/152 - 153.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/187.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 15/372.

بَلاغةُ المجازِ في لفظِ (القدم):

(القَدَمُ) مجازٌ أُطلقَ فيه الجزءُ وأُريد الكلُّ، وهو بمعنى السَّبْقِ مَجازًا، لكَوْنِه سَببَهُ وآلَتَهُ، كما تُطلَقُ (اليَدُ) عَلى النِّعْمَةِ، و(العَيْنُ) عَلى الجاسوسِ، و(الرَّأْسُ) عَلى الرَّئيسِ، ثُمَّ إنَّ السَّبْقَ مَجازٌ عَنِ الفَضْلِ والتَّقَدُّمِ المَعْنَويِّ إلى المَنازِلِ الرَّفيعَةِ، فَهو مَجازٌ بمرتبتَيْنِ[1].

القَدَمُ آلةُ الفضلِ، والسَّبقِ إلى المنازلِ الرَّفيعةِ

أمّا (القَدَمُ) بِمَعْنى المَقام كـ: ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ [القمر: 55] بإطْلاقِ الحالِّ وإرادَةِ المَحَلِّ، وإضافَتُهُ إلى الصِّدْقِ من إضافَةِ المَوْصوفِ إلى الصِّفَةِ. وأصلُهُ (قَدَمٌ صِدْقٌ) أيْ مُحَقَّقَةٌ مُقَرَّرَةٌ، وفيه مُبالَغَةٌ لجعْلِها عَيْنَ الصِّدْقِ، وتَنْبيهٌ عَلى أنَّهم إنَّما نالوا ما نالوا بِصِدقِهِم، ظاهرًا وباطنًا[2].

إيثارُ لفظِ الصِّدق:

أوثِرَ لفظُ الصِّدقِ؛ لأنَّه وَعْدٌ، ووعْدُ اللّه صدقٌ دائمًا وأنَّ المؤمنين أيضًا قدموا بالصِّدقِ وهو الإيمانُ بالحقِّ، فصدّقوا الرَّسول وصدَقوا ما عاهدوا اللّه عليه، وإضافةُ القدم إلى ﴿صِدْقٍ﴾؛ دلالةٌ على زيادة فضلٍ، وأنَّه منَ السَّوابق العظيمة[3].

وعْدُ الله صِدقٌ لا يتخلَّفُ

بَراعةُ التّشريفِ بالعِنديّة:

العِنديّةُ تقتضي التّشريفَ، والاستقرارَ، والتَّبهيجَ، والتَّفريجَ، وتحقُّقَ الحصول[4]؛ لما فيه من معنى القُرب منه تعالى المُقتضي للتَّفضيل، والزُّلفَى إليه مكانةً ومكانًا؛ لإيمانهم بمَن أُرْسِلَ، وبما أُرْسِلَ، وطاعته، وابتغاءِ مرضاته.

مُنتَهى الغاياتِ القُربُ منه تعالى

إيثارُ اسْمِ الرُّبوبيَّةِ، ونسبتُها إليهم:

وصفَ تعالى نفسَه بالرُّبوبيةِ والألوهيّةِ تنْزيهًا، ونسبَها إليهم

مِن عاداتِ القرآنِ رَبطُ الهدايةِ بالرُّبوبيّةِ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/5.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/5.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3510.
(4) التَّفسير البلاغيّ للقرآن، المطعنيّ: 2/35.

تشوُّفًا إلى تربية أسرارِ العارفين وتقديسِ قلوبِ الموحِّدين، وجريًا على عوائدِ القرآن؛ من حيث ربْطُ الهداية بوصْفِ الرّبوبيَّة، لا إلى غيرها من أسمائه تعالى وصفاته؛ لما في الإشعار بلفظة (الرَّبّ) منَ النَّظر في مصلحة عبيدِه[1].

تَوجيهُ الفصْلِ في جملةِ: ﴿قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾:

الجملةُ بيانٌ لتعجُّبِهم، وجوابٌ عن سؤالٍ سابقٍ

فُصلتْ هذه الجملةُ عن سابقتِها؛ لتكونَ جملةً تفسيريّةً لعَجَب الكافرين من بعثةِ محمّدٍ ﷺ رسولًا[2]، وإيرادُهم ههنا بعُنوانِ الكُفرِ ممّا لا حاجةَ إلى ذِكْرِ سببِه، وتَرْكُ العاطِفِ لِجَرَيانِه مَجْرَى البَيانِ لِلْجُملَةِ الَّتي دَخلَتْ عَلَيْها هَمزَةُ الإنْكارِ[3]، فهو كالتَّفسير لتعجُّبهم، وهو من بديعِ الكلام لشدَّةِ ارتباطِه بما قبلَه ووقوعِه منه موقعَ التَّفسير حتى كأنَّه هو[4].

أو لتكونَ الجملةُ مستأنَفةً جوابًا عن سؤالٍ سابقٍ مُقتضاه: ماذا صَنَعوا بَعْدَ التَّعَجُّبِ؟ هَلْ بَقوا عَلى التَّرَدُّدِ والاستِبْعادِ أوْ قَطَعوا فيه بِشَيْءٍ؟ فَقيلَ: ﴿قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ عَلى طَريقَةِ التَّأْكيدِ[5].

دَلالةُ أل في ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾:

ناداهم بالصِّفة القبيحةِ المُلازمةِ لهم جزاءَ جُحودِهم وتمالُئِهم على الإنكارِ

اللّام هذه الأصحُّ أنّها على بابها، وأنَّ المرادَ بها الصِّلةُ، فالألفُ واللّام في قوله: ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ بمعنى (الّذي)، وعليه يكون المعنى: قال: (الّذين كفروا). وناداهم بالصِّفة القبيحةِ المُلازمةِ لهم: ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ ولم يُنادِهم بـ(الّذين كفروا)؛ لقُبح رأيِهم وفكرتِهم، وتوغّلِهم في الكُفرِ والفُسوقِ، وانهماكِهم في الغيِّ؛ لتجاسُرِهم على النَّبيِّ المُرسَلِ بنسبةِ مَن جاءَهم بِالهُدى والتَّوْحيدِ إلى السِّحَر

(1) ابو حيّان، البحر المحيط: 3/31.
(2) المطّعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/35.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/117.
(4) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/211.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/117.

والكذبِ، وهي الصِّفَةُ الَّتي أَوْجَبَتْ لَهُمُ العَجَبَ[1]. وفي جمعِه جمعَ سلامةٍ دليلُ كثرتِهم، وتمالُئهم على كُفرِهم.

التَّوكيدُ بـ ﴿إِنَّ﴾:

بيانُ إصرارِ الكافرين على وصْفِ رسولِهم المُرسَلِ إليهم بالسِّحرِ

سِيقت ﴿إِنَّ﴾ في جملةِ الفاصلةِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾؛ لتأكيدِ زعْمِ الكافرين على ما وصَفوا به رسولَ اللّه ﷺ، وإصرارِهم على جُحودِهم بما يوحَى إليه، وكُفرِهم بما أُنزلَ عليه.

وجهُ التّعبيرِ باسْمِ الإشارةِ القريبِ ﴿هَٰذَا﴾:

القصدُ إلى التّحقيرِ بالإشاراتِ القريبةِ

سَوْقُ اسْمِ الإشارةِ للقريبِ لقصد التَّحقيرِ في زعْمِهم؛ كما هو معهودُ الكافرين في مواضعَ كثيرةٍ منَ القرآن[2]. فـ﴿هَٰذَا﴾ يجوزُ أن يكونَ إشارةً للقرآن، وأن يكونَ إشارةً للرَّسول على قراءة ﴿لَسِحْرٌ﴾، ولكنْ لا بدَّ من تأويلٍ على قولنا: هو إشارةٌ للرّسول، أي: ذو سِحْرٍ أو جعلوه إيّاه مبالغةً، وعلى قراءة ﴿لَسَٰحِرٌ﴾ فالإشارةُ للرَّسول ﷺ فقط[3].

دَلالةُ اللّامِ في ﴿لَسَٰحِرٌ﴾:

تأكيدُ مزاعمِ خصومِ الدّعوةِ بما يدلُّ على الإصرارِ

سيقتِ اللّامُ في ﴿لَسَٰحِرٌ﴾ لتأكيد زعمِهم بأنَّه ﷺ كذلك، مُسترسِلين في التّأكيد بالجملةِ الاسميّةِ، وبـ﴿إِنَّ﴾ المؤكِّدةِ؛ رغبةً في تكذيب الدَّعوةِ بما يُفيدُ في اعتقادهمُ القَطْعَ[4].

نُكتةُ تنكيرِ السّاحرِ، وتنوينه:

ما اعتقَدوه من سِحْرٍ مُحقَّرٌ، ودليلُ عجْزٍ

قولُهم في الإنْذارِ والبِشارَةِ ﴿لَسَٰحِرٌ﴾؛ إنَّما هو بِسَببِ زعْمِهم أنَّهُ فَرَّقَ كلِمَتَهم، وحالَ بَيْنَ القريبِ وقريبِه، فَأَشْبَهَ ذلك ما يفعلُهُ السّاحرُ، وظَنّوهُ من ذلك البابِ[5]، وقال الزَّمَخْشَرِيُّ: "وهذا دَليلُ عجْزِهم واعتِرافِهم بِهِ وإنْ كانوا كاذبينَ في تَسْمِيَتِهِ سِحرًا"[6]، ولَمّا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/138، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/214.
(2) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 36.
(3) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 10/257.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3511.
(5) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/103.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/328.

كانَ قولُهم فيما لا يُمكِنُ أنْ يَكونَ سِحْرًا ظاهِرَ الفَسادِ، لم يَحْتَجْ قولُهم إلى جَوابٍ[1]، والشّاهدُ في هذا القِيلِ، تنكيرُ لفظةِ ﴿لَسَٰحِرٌ﴾ تحقيرًا لما اعتقَدوه سِحرًا.

تَوجيهُ القراءتَيْن في: ﴿لَسَٰحِرٌ﴾:

وصْفُهم الرّسولَ ﷺ بالسّاحر دليلُ عجْزِهم واعترافِهم به

قرأ الكوفيّون حمزةُ والكسائيُّ وعاصمٌ وخَلَفٌ، ووافقهم ابنُ كثيرٍ: ﴿لَسَٰحِرٌ﴾ بألف بعد السِّين وكسر الحاء، نعتًا لرسولِ اللّه ﷺ - على زعمهم - ، وقرأ الباقون بكسر السِّين، وإسكان الحاء من غير ألف ﴿لَسِحْرٌ﴾ نعتًا للقرآن[2] - على زعمهم - ، ويجوزُ أن تكونَ هذه القراءةُ إشارةً للرّسول ﷺ أيضًا[3] - على افترائهم - فمَن قرأ: ﴿لَسَٰحِرٌ﴾: فهذا إشارةٌ إلى رسول اللّه ﷺ - على زعمهم - ، وهو دليلُ عجْزِهم واعترافِهم به، وإن كانوا كاذبين في تسميتِه ساحرًا[4].

سُمّيَ سِحرًا بسببِ أنّه فرّقَ بذلك كلمَتَهم

وعلى قراءة الباقين يكونُ قولُهم في الإنذار بالقرآن والبشارة: ﴿لَسِحْرٌ﴾، إنَّما هو بسببِ زعْمِهم أنّه فرّق بذلك كلمتَهم، وحال بين القريبِ وقريبِه فأشبهَ ذلك ما يفعلُه السّاحر فظنّوه من ذلك البابِ[5].

وصَفَ الكفّارُ القرآنَ بالسّحر لعجْزِهم الإتيانَ بمثلِه

ووصْفُ الكُفّارِ القُرْآنَ بِكَوْنِهِ سِحْرًا يَدُلُّ عَلى عِظَم مَحلِّ القُرْآنِ عندهم وكونِهِ مُعجِزًا، وأنَّهُ تَعَذَّرَ عَلَيْهِم فيه المُعارَضَةُ، فاحْتاجوا إلى هذا الكلامِ[6].

ويُحْتَمَلُ أنْ يكونوا ذكَروهُ في مَعرِضِ الذَّمِّ، ويُحْتَمَلُ أنَّهم ذَكَروهُ في مَعرِضِ المَدْحِ، فَلِهَذا السَّبَبِ اخْتَلَفَ المُفَسِّرونَ فيه. فَقال بَعْضُهم:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/11.
(2) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/256.
(3) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 10/257.
(4) النَّسَفيّ، مدارك التّنزيل: 2/6.
(5) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/103.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/187.

أرادوا به أنَّهُ كلامٌ مُزَخْرَفٌ حَسَنُ الظّاهِرِ، ولَكِنَّهُ باطِلٌ في الحقيقَةِ، ولا حاصلَ له، وقال آخرونَ: أرادوا به أنَّهُ لِكمالِ فصاحَتِهِ وتَعَذُّرِ مثْلِه، جارٍ مَجْرَى السِّحْرِ[1].

عِلَّةُ تَرْكِ الرَّدِّ على وصْفِهِمُ القرآنَ بالسّحر:

حَملُهم القُرآنَ على السِّحرِ كلامٌ فاسدٌ لا يَستحقُّ الرَّدَّ

واعْلَم أنَّ هذا الكلامَ لَمّا كان في غايَةِ الفَسادِ لم يُذْكَرْ جوابُهُ، وإنَّما قُلْنا: إنَّهُ في غايَةِ الفَسادِ؛ لِأنَّهُ ﷺ كانَ مِنهم، ونَشَأَ بَيْنَهم، وما غابَ عَنْهم، وما خالَطَ أحَدًا سِواهم، وما كانت مَكَّةُ بَلْدَةَ العُلَماءِ والأذْكياءِ، حَتّى يُقالَ: إنَّهُ تَعَلَّمَ السِّحْرَ، أوْ تَعَلَّمَ العُلومَ الكَثيرَةَ مِنهم، فقدرَ عَلى الإتْيانِ بِمِثْلِ هذا القُرْآنِ. وإذا كانَ الأمرُ كذلك كان حَملُ القُرْآنِ عَلى السِّحْرِ كلامًا في غايَةِ الفَسادِ، فلهذا السَّبَبِ تُرِكَ جَوابُهُ[2].

سِرُّ وصْفِ السّاحِرِ أوِ السِّحْرِ بـ﴿مُّبِينٌ﴾:

بيانُ تُناقُضِهم وحَيْرَتِهم فيما جاءَهم به الرَّسولُ

قولُه تعالى: ﴿مُّبِينٌ﴾ أيْ سِحْرُهُ ظاهِرٌ في نَفْسِهِ، وهو مِن شِدَّةِ ظُهورِهِ مُظْهِرٌ لِكُلِّ شَيْءٍ أنَّهُ كذلك، فَجاؤوا بِما هو في غايَةِ البُعْدِ عَنْ وصْفِهِ، فَإنَّ السِّحْرَ قد تَقَرَّرَ لِكُلِّ ذي لُبٍّ أنَّهُ - مع كونِهِ تَمويهًا لا حَقيقَةَ لَهُ - شَرٌّ مَحْضٌ لَيْسَ فيهِ شَيْءٌ مِنَ الحِكْمَةِ، فَضْلًا عَنْ أنْ يَمتَطيَ الذُّرْوَةَ منهُ مع أنَّ في ذلك ادِّعاءَهم أمرًا مُتَناقِضًا، وهو أنَّهُ مِن قوْلِ البَشَرِ كما هي العادَةُ في السِّحْرِ، وأنَّهم عاجِزونَ عَنْهُ، لأنَّ السِّحْرَ فِعْلٌ تُخْفى الحيلَةُ فيهِ حتّى يُتَوَهَّمَ الإعْجازُ به، فقدِ اعْتَرَفوا بِالعَجْزِ عَنْهُ وكَذَّبوا في ادِّعاءِ أنَّهُ لَسِحْرٌ؛ لِأنَّ الآتيَ به مِنهم لم يُفارِقْهم قَطُّ، وما خالَطَ عالِمًا لا بِسِحْرٍ ولا غَيْرِهِ حَتّى يُخالِطَهم فيهِ شُبْهَةٌ، فَهم يَعْلَمونَ أنَّ قولَهم في غايَةِ الفَسادِ[3].

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/187.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/187 - 188.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/68.

فائدةُ إيرادِ الصِّفة على صيغةِ (فُعيل):

أرادوا المبالغة في إبانتِه للسِّحر ليُكذِّبوه

وردَت الصِّفَةُ على صيغَةِ (فعيل)؛ للدّلالةِ على المبالغةِ في إبانتِه للسِّحر رغبةً في التَّكذيبِ والتّمادي، تَماديًا في العِنادِ كما هو طبع المُكابِرِ اللَّجوحِ، ودأب المُفْحَمِ المَحْجوجِ[1]، فضلًا عن إرادتِهم أنّه ذو سحرٍ - حاشاه صلواتُ ربي وسلامُه عليه - ظاهرٌ فيه ذلك، مُتفنِّن فيه.

إيرادُهم الجُملَةَ الاسميَّةَ مع التَّأْكيدِ:

أكّدوا مَقالتَهم لـلإيـهـامِ بأنَّها ثابتٌ مُحقّقٌ

وعبّرَ عن قولِهم بالجملةِ الاسميّةِ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ﴾؛ للإشعار بأنّهم إنَّما قالوه عن عقيدةٍ تامَّةٍ، ويقينٍ راسخٍ في التَّكذيب، وللإيهام بأنَّ ما قالوه ثابتٌ مُحقَّق.

تَوكيدُ الخبر بـ (إنّ، والجملةِ الاسميّةِ، واللّام):

التّعبيرُ عن رغبتِهم الشّديدةِ في تكذيبِ الدَّعوة

قال الكافِرونَ عَلى طريقةِ التَّأْكيدِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ﴾، فهو مَقول قولِهم، سواء على وَصْفِهم الرَّسولَ بالسّاحر المُنبِئَ بأنَّهم كذَّبوا بكوْنِ ما جاءهم به من عند الله، أو على نَعتِهم الوحيَ المُنزَّلَ بأنَّ هذا الكلامَ كلامُ السِّحر وأصحابِه، أيْ أنَّه كلامٌ يُسْحَرُ به، وقد أكَّد الخبرَ بـ (إنّ، والجملة الاسميّة، واللّام)؛ لرغبتِهم الشّديدةِ في تكذيب الدّعوةِ، وإظهارِها في معرضِ الدّعاوَى الموغلةِ في البُطلان.

بَلاغةُ الفَصْلِ في جُمَلِ الآيةِ:

اختلافُ الخبرِ والطَّلبِ على سبيلِ التَّعدادِ

وإنَّما فُصلتِ الجُملُ لاختلافها خبرًا وطلبًا على سبيل التَّعدادِ، نحوَ قولِهم: "واعبد ربّك، العبادةُ حقٌّ له"، على تعويل التَّرتيبِ إلى الذِّهن دونَ اللَّفظ[2].

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

(أنْذرَ) و(حذّرَ) و(بلّغ):

الإنْذارُ تخويفٌ مع إعْلام موضِع المخافةِ من قولِك: نذرتُ

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/62.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/416.

الإنذار تخويف بذِكْر مَوْضِعه

بالشَّيْء؛ إذا عَلمتَه فاستعددتَّ لَهُ، فإذا خوَّف الإنْسانُ غيرَه وأعلَمه حالَ ما يُخوّفه به فقد أنذَرَه، وإن لم يُعلِمهُ ذلك لم يَقُل أنذَرَه، والنَّذرُ ما يَجعلُه الإنسانُ على نَفسه إذا سلمَ ما يخافُه، والإنذارُ إحْسانٌ منَ المُنْذر، وكلّما كانتِ المخافةُ أشدَّ كانتِ النِّعْمَةُ بالإنذار أعظمَ، ولهذا كان النَّبيُّ أعظمَ الناس بإنذاره لَهم عِقابَ اللّه تعالى[1].

الإعلامُ والإخبارُ:

الإعـلامُ بنصْبِ الدّلالةِ والإخبارُ إظهارٌ وإنْ غُيِّبتِ العلامةُ

إنَّ الإعْلامَ: التَّعريضُ لأنْ يعلمَ الشَّيْءُ، وقد يكونُ ذلك بوضْع العِلْم في القلب؛ لِأنَّ اللّه تعالى قد علَّمنا ما اضطُررنا إليه، ويكونُ الإعلامُ بنصْبِ الدّلالة، والإخبارُ الإظْهار للْخَبَر عَلِم به أو لم يعلم[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 242.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 96.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [يونس: 3]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الإلهُ الحقُّ الَّذي خلَقَ الكونَ ليس بعاجزٍ أن يَبعثَ بشرًا رسولًا

لمّا حكى الحقُّ ﷻ عنِ الكُفّار أنَّهم تعجَّبوا منَ الوَحْيِ والبعثةِ والرِّسالة، ثمَّ إنَّه تعالى أزال ذلك التَّعجُّبَ بأنَّه لا يبعدُ ألبتَّة في أن يبعثَ خالِقُ الخَلْقِ إليهم رسولًا يُبشِّرُهم ويُنذِرُهم، كان هذا الجوابُ إنَّما يَتِمُّ بإثبات أمرَيْن: أحدُهما: إثباتُ أنَّ لهذا العالم إلهًا قاهرًا قادرًا، نافِذَ الحُكم بالأمر والنَّهي. والثّاني: إثباتُ الحشرِ والنَّشرِ والبَعث والقيامة، حتَّى يحصلَ الثَّوابُ والعقابُ اللَّذان أخبرَ الأنبياءُ عن حصولِهما؛ فلا جَرَمَ أنَّه سبحانه ذكرَ في هذا الموضِعِ ما يدلُّ على تحقيق هذين المطلوبَيْن. أمّا الأوَّلُ: وهو إثباتُ الألوهيّةِ فبقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وأمّا الثّاني: فهو إثباتُ المعادِ والحشرِ والنَّشرِ بقوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ﴾ [يونس: 4][(1)].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾: أصلُ الاستواء يَدلُّ على استِقامَةٍ واعتِدالٍ بَيْنَ شَيْئَيْن، أو يَدُلُّ على اعتدالِ الشَّيءِ في ذاته[(2)]، وهو على أوجه: انتصابٌ، وضدّ الاعوجاج، والاعتدال، ومنه سمّيَ (اسْتَوَى اللَّيلُ والنَّهار)، وتَمامُ الشَّباب، وانتهاؤه، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص: 14]، والقَصْدُ في الشَّيْء، والإقبالُ عليه، حكى الفرّاء: كان مُقبلًا عَليَّ فلانٌ ثمَّ اسْتَوَى إليّ يُشاتمني، والاستيلاءُ على الأمر، والتَّفرّدُ به، ومنها العُلوُّ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/188، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/20.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سوا).

والارتفاع، كقول القائل: استوى فلانٌ على سريره، يعني به عُلوَّه عليه[1]، فإذا عُدّي بعَلَى فهو بمعنى العُلوِّ والارتفاع، كقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: 5]، وهذا المعنى هو المقصودُ في الآية[2]، وحملُه على معنى الاستيلاء هو قولُ المعتزلة وغيرهم، كما يقولُ ثعلبٌ[3].

2) ﴿ٱلۡعَرۡشِۖ﴾: أصلُ (عرش): يَدُلُّ على ارْتِفاعٍ في شَيْءٍ مَبْنِيٍّ، يُقال: عَرَشْتُ الشَّيْءَ وعَرَّشْتُه، أعْرُشُه، تَعْرِيشًا، أيْ: رَفَعْتُه، ومِنْهُ العَرِيشُ، وهو: بِناءٌ يُرْفَعُ يُسْتَظَلُّ بِه[4]؛ وسُمّي مجلسُ السّلطان عَرْشًا اعتبارًا بعُلُوِّه[5]. والعَرْشُ: سَريرُ المَلِك، يُقال: جلسَ المَلِكُ على عَرْشِه، أيْ: سَريرِه[6]، ويأتي بِمعنى سَقْفِ البَيْتِ[7]، والعَرْشُ حَقيقَتُه: الكُرسيُّ المُرْتَفِعُ الَّذي يَجْلِسُ عليه المَلِكُ، قالَ تَعالَى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [يوسف: 100]. والمقصودُ بالعرش في الآية: هو أعْظَمُ وأعْلَى المَخْلوقاتِ، خَلَقَهُ اللّه ثمَّ اسْتَوَى وعَلا عليه، وأمَرَ المَلائكَةَ بِحَملِهِ وتَعْظيمِه، واللّه فوقَهُ وفوْقَ جَميعِ خَلْقِه. ومِن صِفاتِ العَرْش: أنَّ اللّه تعالى خَلَقَهُ على الماءِ، وجعلَ له قوائِمَ يُرفَعُ منها، وأنَّه سَقْفُ الجنَّة، وكالقُبَّة على العالَم، وأنَّه فَوْقَ السّماوات السَّبْع، وفَوْقَ جميع المَخْلوقات[8].

3) ﴿يُدَبِّرُ﴾: أصْلُ (دبر): هو آخِرُ الشَّيءِ وخَلْفُهُ خِلافُ قُبُلِه، والتَّدبير: النَّظَرُ في عاقِبَةِ الأمرِ، وتَقْويمُه على ما يكون فيه صَلاحُ عاقِبَتِه، وأدْبارُ الأمورِ: عَواقِبُها[9]. يُقال: دَبَّرَ الأمرَ: إذا ساسَهُ ونَظَرَ في عاقِبَتِه؛ ليقَعَ على الوجْهِ الأكْمَلِ[10]، والتَّدَبُّرُ: التَّفكُّرُ، أي: تَحْصيلُ المَعْرِفَتَيْنِ لتَحْصيل مَعْرِفةٍ ثالِثَةٍ[11]. والمقصود بالتَّدبير في الآية: النَّظرُ في عواقِبِ المُقدَّراتِ وعَوائِقِها لِقَصْدِ إيقاعِها تامَّةً فيما تُقْصَدُ له محمودةَ العاقِبَةِ[12].

---

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 1/25، وابن جرير، جامع البيان: 1/456، والسِّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 114.
(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/15، وابن جرير، جامع البيان: 1/456، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سوي).
(3) ثعلب، مجالس ثعلب، ص: 58.
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عرش).
(5) الرّاغب، المفردات: (عرش).
(6) السِّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 335، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (عرش).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عرش).
(8) ابن أبي شيبة، العرش وما روي فيه، ص: 281، وابن تيمية، الرسالة العرشيّة، ص: 4، والذّهبيّ، كتاب العرش: 1/271.
(9) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (دبر).
(10) إبراهيم مصطفى وزملاؤه، المعجم الوسيط: (دبر).
(11) الزَّبيديّ، تاج العروس: (دبر).
(12) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/87.

4) ﴿شَفِيعٍ﴾: أصْلُ الكلِمَة منَ الشَّفْعِ، وهو: ضَمُّ الشَّيءِ إلى مِثْلِه[1]. ومنه الشَّفاعَةُ: وهي السَّعْيُ والوَساطَةُ في حُصولِ نَفْعٍ أو دَفْعِ ضُرٍّ سَواءٌ كانتِ الوساطَةُ بِطَلَبٍ مِنَ المُنْتَفِعِ بها، أم كانتْ بِمُجَرَّدِ سَعْيِ المُتَوَسِّطِ، ويُقالُ لِطالِبِ الشَّفاعَةِ مُسْتَشْفِعٌ. وهيَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الشَّفْعِ - كما ذكرنا - ؛ لِأنَّ الطّالبَ أوِ التّائِبَ يأتي وحْدَهُ، فإذا لم يَجِدْ قَبولًا ذَهَبَ فأتَى بِمَنْ يَتَوسَّلُ به، فَصارَ ذلكَ الثّاني شافِعًا للأوَّلِ، أي مَصيرُهُ شَفْعًا. فالشَّفيع: الوَسيطُ في قَضاءِ الحَوائِجِ مِنْ دَفْعِ ضُرٍّ أو جَلْبِ نَفْعٍ[2]. وتأتي الشَّفاعة بِمعنى الزِّيادةِ، يُقال: شَفَعَ شَفاعةً حَسنَةً، أي: زادَ إلى عَملِهِ عَمَلًا[3]. ومِن مَعانيها أيضًا: المُشارَكَةُ، والدُّعاءُ[4]. والمقصود بالشَّفيع في الآية: السّائلُ في غَيرِه بِتَبليغ مَنزلَتِهِ من عفوٍ أو زيادَةِ مَنزلَةٍ.

5) ﴿إِذْنِهِۦ﴾: منَ الجَذْرِ اللُّغويِّ (أذن)، والإذْنُ: مَصْدَرُ: أذِنَ يَأْذَنُ، ويدورُ أصْلُهُ حَولَ العِلمِ بالشَّيءِ والإعلام به، ومِنهُ الأُذُن؛ فَبِها يَقَعُ عِلْمُ كُلِّ مَسْموعٍ، ومنه الأذان: وهو الإعْلامُ بِدخولِ الوقتِ[5]، وأذِنْتُ بِالشَّيْءِ: عَلِمتُ بِه[6]، ومنه: الإذْنُ بمعنى الإباحة والقَبول والتَّمكين[7]، ورفْعُ المَنْعِ وإطلاقُ الفعْلِ، يُقالُ: أذِنْتُ لَهُ في شَيْءٍ، أيْ: أطْلَقْتُ له فِعْلَهُ[8]. والمقصود بالإذْنِ في الآية: الأمرُ بِفِعْلٍ يَتوقَّفُ على رِضى الآمِرِ به، وهو أمرُ اللّه تَعالى[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبرُ تعالى: إنَّ رَبَّكم - أيُّها النّاسُ - هو اللّه الَّذي خلقَ السَّماواتِ والأرضَ في سِتَّةِ أيّام، ثمَّ علا وارتفَعَ على عَرْشِه استواءً يليقُ بجلاله وعظَمتِه، يُدَبِّرُ أمورَ جميعِ الخَلائقِ، لا يَشفَعُ

(1) الرّاغب، المفردات: (شفع).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/486، و21/211.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (شفع).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (شفع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذن).
(6) الفيوميّ، المصباح المنير: (أذن).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أذن).
(8) الزبيديّ، تاج العروس: (أذن).
(9) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/181.

عندَه أيُّ شافعٍ يومَ القيامةِ إلّا مِن بَعدِ أن يأذَنَ له بذلك، ذلكم هو اللّه ربُّكم الَّذي هذا شأنُه، وهذه صفتُه، وفعَلَ تلك الأشياءَ العظيمةَ، هو المستَحِقُّ لإفرادِ العبادةِ له دونَ مَن سِواه، وهو مالِكُكم وخالِقُكم ومُدَبِّرُ أمورِكم - أيُّها النّاسُ - فاعبُدوه وحدَه، وأخلِصوا له العبادةَ، أفلا تتَّعِظونَ بتلك الآياتِ والبَراهين، وتتذكَّرون أنَّ اللّه هو المتفَرِّدُ بالخَلقِ، فتَعبُدونَه وحدَه، وتَترُكونَ عبادةَ غَيرِه مِن مَخلوقاتِه(1).

إقامةُ الدَّليلِ على إبطالِ الشُّركاءِ لله في رُبوبيَّتِه وألوهيَّتِه

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغةُ الفَصْلِ بالاستئنافِ في الآيةِ:

هذا ابْتِداءُ دُعاءٍ إلى عبادةِ اللّه ﷻ وإعلامٍ بصفاتِه؛ ففي الآية اسْتِئنافٌ ابتدائيٌّ لِلاستِدلالِ على تَفَرُّدِ اللّه تَعالى بالإلَهيَّةِ(2)، وإنَّما أوقِعَ هُنا؛ لِأنَّ أقْوى شَيْءٍ بَعَثَ المُشْرِكينَ على ادِّعاءِ أنَّ ما جاءَ بِه النَّبيُّ سِحْرٌ هو أنَّهُ أبْطَلَ الشُّركاءَ للّه في الإلَهيَّةِ ونَفاها عَنْ آلِهتِهِمُ الَّتي أشْرَكوا بِها فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ [ص: 5](3)، فَلا جَرَمَ أنْ أُعْقِبَ إنْكارُ إحالَتِهِم ذلك بإقامَةِ الدَّليلِ عَلى ثُبوتِه؛ فَشَرَعَ سُبْحانَهُ يُقيمُ الدَّليلَ على بُطْلانِ قولِهم مِن أنَّهُ - مع ما تَضَمَّنَهُ مِنَ البَعْثِ - سِحْرٌ، وعلى حقيقَةِ أنَّهُ مِن عِنْدِهِ مِن غَيْرِ شُبْهَةٍ، وعَلى أنَّ الرِّسالَةَ لا عَجَبَ فيها؛ لِأنَّهُ سبحانَهُ خَلَقَ الوُجودَ كُلَّهُ، وهو نافِذُ الأمرِ فيه(4).

اللـه تـعالى مُتفرِّدٌ بالأُلوهيّةِ

بَراعةُ الالتفاتِ مِنَ الغيبةِ إلى الخطابِ:

النّكتةُ البلاغيّةُ للعُدولِ بالكلامِ من أسلوب الغَيبةِ فيما تقدَّمَ

المواجَهةُ بالدَّلائلِ لَفتٌ للانتباهِ وحثٌّ على التَّدبُّرِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/114، وابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/104، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/308، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/247، والسَّعديّ، تفسير الكريم الرّحمن، ص: 357.

(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/104.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/87.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/68.

إلى الخطاب هنا مواجهةُ المُخاطَب بهذه الدَّلائل العظيمة تنشيطًا لسَمعه، ولفتَ انتباهِه واستجلابَ صفائه، والتَّشوّفَ إلى اتساعِ مجاري الكلام[1] والحثَّ على التَّفكُّر والتَّدبُّر في خالق هذا الكون.

سِرُّ الافتتاح بالتَّوكيدِ بـ ﴿إِنَّ﴾:

مواطنُ الإنكارِ تَستدعي التَّوكيدَ

كانَ لِلتَّأْكيدِ بِحرفِ ﴿إِنَّ﴾ مَوْقِعُهُ لِرَدِّ إنكارِ المُشرِكينَ انْفِرادَ اللّه بالرُّبوبيَّة، وإذْ كانَ ما اشْتَمَلَتْ عليه هذه الآيَةُ يَزيدُ المُسلمينَ بَصيرَةً بِعِظَم مَجْدِ اللّه وسِعَةِ مُلْكِه، ويَزيدُهم ذِكْرى بِدَلائِلِ قُدْرَتِه، كانَ الخِطابُ صالِحًا لِتَناوُلِ المُسلِمينَ، لِصَلاحيَةِ ضميرِ الخِطابِ لذلك، ولا يكونُ حرفُ (إِنَّ) بِالنِّسْبَةِ إليهم سُدًى، لِأَنَّهُ يُفيدُ الاهْتِمامَ بِالخَبَرِ، لِأَنَّ فيهِ حَظًّا لِلْفَريقَيْنِ[2].

والقَصدُ إلى تَنْزيلِ المُشرِكينَ مِنَ المُخاطَبينَ مَنزلَةَ مَن يَتَرَدَّدُ في كَوْنِ اللّه رَبًّا لَهم لِكَثْرَةِ إعْراضِهِم عنه في عِباداتِهِم وتَوَجُّهاتِهِم، ويزيدُ المُسلِمينَ إيمانًا إلى إيمانهم[3].

دَلالةُ توكيدِ الخبرِ بـ ﴿إِنَّ﴾ واسميّةِ الجُملة:

مضمونُ حَدَثِ الخَلْقِ محطُّ العِنايةِ

تأكيدُ الخبرِ بـ﴿إِنَّ﴾ واسميّةِ الجُملة، لِمَزيدِ الاعْتِناءِ بِمَضْمونِ الجُملةِ على ما هو الظّاهِرُ، والدّوامِ على ذلك؛ أيْ إنَّ رَبَّكم ومالكَ أمرِكُمُ الَّذي تَعْجَبونَ من أنْ يُرْسِلَ إليكم رَجُلًا مِنكم بالإنْذارِ والتَّبْشيرِ، وتَعُدّونَ ما أَوْحَى إليه مِنَ الكِتابِ سِحْرًا[4]، والخبرُ من الحقائق العظيمةِ الَّتي يُناسبُها فخامةُ البيان عنها[5].

سِرُّ تَكْرار التَّعبيرِ بلفظِ الرّبوبيّةِ:

مُنتهى الجُحودِ الانصرافُ عن خالقِ الكونِ ومُصرِّفِ الأمورِ

وتكرار توحيدِ الرّبوبيّة - وهو انفرادُه تعالى بالخَلْق والتَّقدير

(1) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/37.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/159.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/159.
(4) الآلوسيّ، روح المعانيّ: 6/62.
(5) المطعنيّ، التَّفسير البلاغي للاستفهام: 2/37.

والتَّدبير - ليس لإقناع المشركين بربوبيَّته تعالى فقط، بل أكثره لإقامة الحُجَّةِ على بُطلان شِرك العبادة، والمعنى أنَّ الَّذي يُرَبّيكم ويُصلحُ شأنَكم ويوصِّلُ إِلَيْكُمُ الخيْراتِ ويَدْفَعُ عَنْكُمُ المَكْروهاتِ، هو الَّذي بلغَ كمالَ قُدْرَتِه وعلمِه وحِكمتِه ورحْمتِه إلى حَيْثُ خلقَ هذه الأَشْياءَ العظيمَةَ، وأَوْدعَ فيها أصْنافَ المَنافِعِ وأَنْواعَ الخَيْراتِ، ومَن كانَ لَهُ مُرَبٍّ مَوْصوفٌ بهذه الحِكمَةِ والقُدرَةِ والرَّحمَةِ، فَكَيْفَ يَليقُ أَنْ يَرْجِعَ إلى غَيْرِهِ في طَلَبِ الخَيْراتِ، أَوْ يُعَوِّلَ على غَيْرِهِ في تَحْصيلِ السَّعاداتِ؟[1].

وجْهُ إضافةِ الرّبوبيّةِ:

لا يليقُ بالعبادِ الاشتغالُ بغيرِ عبادةِ موجِدِهم والمُتفضِّلِ عليهم

في الإِضافَةِ دَقيقَةٌ لطيفَةٌ؛ وذلك لأَنَّهُ لم يَقُلْ: أَنْتُم عَبيدُهُ، بَلْ قالَ: هو رَبُّكم، ودَقيقَةٌ أُخْرى وهي أَنَّهُ تَعالى لَمّا نَسَبَ نفسَهُ إِلَيْنا سَمّى نفسَهُ في هذه الحالَةِ بالرَّبِّ، وهو مُشْعِرٌ بالتَّرْبِيَةِ وكَثْرَةِ الفَضْلِ والإِحْسانِ، فَكَأَنَّهُ يَقولُ مَن كانَ لَهُ مُرَبٍّ مع كَثْرَةِ هذه الرَّحَماتِ والأَفْضالِ، فَكَيْفَ يَليقُ بِهِ أَنْ يَشْتَغِلَ بِعِبادَةِ غَيْرِهِ؟[2].

نُكتةُ تأخيرِ لفْظِ الجلالةِ على المُتضايفيْن:

ربُّ النّاسِ معلومٌ عندَهم مُتجلٍّ بعظمةِ ما أبدعَ مِن خَلْقٍ

"جُعِلَ المُخْبَرُ عنه الرَّبَّ، والخَبَرُ اسْمَ الجَلالَةِ؛ لأَنَّ المعنى أَنَّ الرَّبَّ لَكُمُ المَعْلومُ عِندكم هو الَّذي اسْمُهُ الدّالُّ عَلى ذاتِه: اللّٰه، لا غَيْرُهُ مِمَّنْ لَيْسَ له هذا الاسْمُ، على ما هو الشَّأْنُ، فَهي تَعْريفُ المُسْنَدِ في نَحْوِ: أنا أخوكَ. يُقالُ لِمَن يَعْرِفُ المُتَكَلِّمَ ويَعْرِفُ أَنَّ لَهُ أخًا ولا يَعْرِفُ أَنَّ المُتَكَلِّمَ هو أخوهُ، فالمَقْصودُ مِن تَعْريفِ المُسْنَدِ إفادَةُ ما يُسَمّى في المَنطِقِ بِحَملِ المواطَأَة، وهو حَملُ (هو هو)، ولذلك يُخَيَّرُ المتكلِّمُ في جَعْلِ أَحَدِ الجُزْأَيْنِ مُسْنَدًا إليه، وجَعْلِ الآخَرِ مُسْنَدًا؛ لأَنَّ كِلَيْهما مَعْروفٌ عِنْدَ المُخاطَبِ، وإنَّما الشَّأْنُ أَنْ يَجْعَلَ أَقْواهُما مَعْرِفَةً عِنْدَ المُخاطَبِ هو المُسْنَدُ إليه، لِيَكونَ الحَملُ أَجْدى إِفادَةً"[3].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/258.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/258.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/160.

عِلّةُ وصْفِ لفظِ الجلالةِ بالاسمِ الموصول:

أفادَ المَوْصولُ ﴿ٱلَّذِي﴾ مع صِلَتِهِ بالإيماءِ، التَّذْكيرَ بِعَظيمِ صِفَةِ الخَلْقِ الَّذي عَمَّ السَّماواتِ والأرْضَ، وذلك أوْجَزُ لَفْظٍ في استِحضارِ عَظَمةِ قدرَةِ الله تعالى، وبديعِ تصرُّفه، وقوّةِ تمكّنه، وانفرادِهِ بالإلَهيَّة[1].

انـفـرادُه تعالى بالألوهيّةِ مَدعاةٌ لاسْـتِـحْـضـارِ عَظَمةِ قُدْرَتِه

وَجْهُ التَّعبيرِ عنِ الخَلْقِ بالماضي:

والقَصدُ من سَوقِ الخَلْقِ بصيغةِ الماضي، إفادةُ اليقينِ بوقوعِه، ورسوخ تحقّقه، وصدْقِ الوعد به حتَّى كأنَّه قد وقع ومضى.

إفـادةُ اليـقـيـنِ بـوقــوعِـه، ورسوخِ تحقُّقه، وصدْقِ الوعد به

وجهُ جمعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بصيغةِ المؤَّنث:

إيثارُ جَمعِ السَّماواتِ لِما هو المَشْهورُ مِنَ الإيذانِ بِأنَّها أجْرامٌ مُخْتَلِفَةُ الطِّباعِ، مُتَبايِنَةُ الآثارِ والأحْكامِ[2] متنوعةُ الأشكال، والأحجام، والهيئاتِ.

تنوّعُ الأجرامِ من بديعِ الخلْقِ

سِرُّ تقديمِ السَّماواتِ على الأرض:

وتَقْديمُ السَّماواتِ عَلى الأرْضِ لكونها أعْظَمَ مِنها خَلْقًا، ولحملها من غير عَمَد، أوْ لِأنَّها جارِيَةٌ مَجْرَى الفاعِلِ والأرْضَ جارِيَةٌ مَجْرَى القابِلِ[3].

الـسَّـمـاواتُ أعظمُ خَلقًا من الأرض وأعجبُ

سِرُّ تحديدِ العددِ ﴿سِتَّةِ﴾:

إنَّ المُرادَ مِنَ اليَوْمِ مَعْناهُ اللُّغَويُّ؛ وهو مُطْلَقُ الوقتِ. وقيلَ: هي مِقْدارُ سِتَّةِ أيّامٍ من أيّامِ الدُّنْيا وهو الأنْسَبُ بِالمَقامِ[4]، وفي تَرْكِ تَعْجيلِ خَلْقِها في أقَلِّ الزَّمانِ مع قُدرَتِه عَلى ذلك أوْجُهٌ[5]، منها: الدَّلالَةُ عَلى القُدْرَةِ الباهِرَةِ بِخَلْقِ هذه الأجْرامِ العَظيمَةِ في مِثْلِ تلك المُدَّةِ اليَسيرَةِ[6]، ومنها: الإحالةُ على معهودٍ يَعرفه المُكَلَّفُ.

الإحـالـةُ على معهودٍ يعرفُه المكلَّفُ والتَّلميحُ إلى أقلّ الزَّمانِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/126.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/62.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/62.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/62.
(5) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/229.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/62.

ومنها: ما قالَهُ سَعيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: "كانَ اللَّه ﷻ قادِرًا على خلق السَّماواتِ والأرْضِ في لَمحَةٍ ولَحْظَةٍ، فَخلَقَهُنَّ في سِتَّةِ أيّام تَعْليمًا لِخَلْقِه التَّثَبُّتَ والتَّأنّي في الأُمورِ"(1)، وقد جاءَ في الحديثِ: «التَّأنّي مِنَ اللّه والعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطانِ»(2).

ومنها: أنَّ إنْشاءَها شَيئًا بَعْدَ شَيْءٍ وحالًا بَعْدَ حالٍ أبْلَغُ في الحِكْمَةِ وأدَلُّ على صِحَّةِ التَّدْبير لِيَتَوالى مع الأوْقاتِ بِما يُنْشِئُهُ من المَخْلوقاتِ تَكْرارُ المَعْلوم بِأنَّهُ عالِمٌ قادِرٌ يُصَرِّفُ الأُمورَ عَلى اخْتِيارِهِ ويُجْريها عَلى مَشيئَتِهِ، وأنَّ ذلك لاعْتِبارِ المَلائِكة، خَلَقَ شَيْئًا بعدَ شَيْءٍ، وأنَّ ذلك تَرَتَّبَ على الأيّامِ: الأحدِ والاثْنَيْنِ والثُّلاثاءِ والأربعاءِ والخميسِ والجمعَةِ، وهي سِتَّةُ أيّامٍ فَأخْرَجَ الخَلْقَ فيها، قاله مُجاهِدٌ، أو لِيُعَلِّمَنا بذلك الحِسابَ كُلَّهُ مِن سِتَّةٍ ومِنهُ يَتَفَرَّعُ سائِرُ العَدِدِ، قالَهُ ابْنُ بَحْرٍ(3).

بَلاغةُ الكِنايةِ في لفظِ العددِ ﴿سِتَّةِ﴾:

والحكمةُ من أنَّهُ ﷻ خَلَقَ السَّماواتِ والأرْضَ في مُدَّةٍ مُتَراخيَةٍ، وقيّدها وضَبَطَها بِالأيّامِ السِّتَّةِ؛ لأنَّهُ تعالى يَفْعَلُ ما يَشاءُ ويَحكُمُ ما يُريدُ، ولا اعْتِراضَ عليه في أمرٍ مِنَ الأُمورِ، وكُلُّ شَيْءٍ صُنْعُهُ ولا عِلَّةَ لِصُنْعِهِ(4).

هذه المُدَّةُ أقَلُّ زَمَنٍ يَحْصُلُ فيهِ المُرادُ مِنَ التَّوَلُّدِ بِعَظيمِ القُدْرَةِ

والمَقْصود من كونه ﷻ قادِرًا عَلى إيجادِ جَميعِ الأشْياءِ دُفْعَةً واحِدَةً، لَكِنَّهُ جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ حَدًّا مَحْدودًا ووَقْتًا مُقَدَّرًا، فَلا يُدْخِلُهُ في الوُجودِ إلّا على ذلك الوَجْهِ(5).

(1) البَغَويّ، معالم التّنزيل: 2/197.
(2) أبو يَعلى، المُسنَد: الحديث رقم: (4256)، والخرائطيّ، مكارم الأخلاق، الحديث رقم: (686)، والبَيْهقي، السُّنن الكبرى: الحديث رقم: (20270)، والألبانيّ، صحيح الجامع: (3011)، وقال: حسن.
(3) الماورديّ، النُّكت والعيون: 2/229.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/257.
(5) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 9/142.

وليَكونَ هذا الخَلْقُ مَظْهَرًا لِصِفَتَيْ عِلْم اللّه تعالى وقُدْرَتِه، فالقُدْرَةُ صالِحَةٌ لِخَلْقها دُفْعَةً، لَكِنَّ العِلمَ والحِكمَةَ اقتضيا هذا التَّدرُّجَ، وكانَتْ تلك المُدَّةُ أقلَّ زَمَنٍ يَحْصُلُ فيهِ المُرادُ مِنَ التَّوَلُّدِ بِعَظِيم القُدْرَةِ، ولَعَلَّ تَكَرُّرَ ذِكرِ هذه الأيّام في عددٍ منَ السّوَرِ؛ لِقَصْدِ التَّنْبيهِ على هذه النُّكتَةِ البَديعةِ، مِن كَوْنِها مَظْهَرَ سَعَةِ العِلْمِ وسَعَةِ القُدْرَةِ[1].

فائدةُ تخصيصِ المعدودِ بالأيّام:

أشارَ بالأيّامِ إلى المقاديرِ المعلومةِ عندَ النّاسِ فيما يَـعـدّونَـه من حِسابِ الأعوامِ

"ظاهِرُ الآياتِ أنَّ الأيّامَ هي المعروفَةُ لِلنّاسِ، الَّتي هي جَمعُ اليَوْمِ الَّذي هو مُدَّةٌ تُقَدَّرُ من مَبْدَأ ظُهورِ الشَّمس في المَشْرِقِ إلى ظُهورها في ذلك المَكانِ ثانيَةً، وعلى هذا التَّفْسيرِ فالتَّقديرُ فيما يُماثِلُ تلك المُدَّةَ سِتَّ مَرّاتٍ؛ لأنَّ حقيقَةَ اليوم بهذا المعنى لم تَتَحَقَّقْ إلّا بعدَ تَمامِ خَلْقِ السَّماءِ والأرْضِ؛ لِيُمكِنَ ظُهورُ نورِ الشَّمس على نِصْفِ الكُرَةِ الأرْضيَّةِ وظُهورُ الظُّلْمَةِ على ذلك النِّصْفِ إلى ظُهورِ الشَّمس مَرَّةً ثانيَةً، ونُقِلَ عنْ زَيْدِ بنِ أرْقَمَ واخْتارَهُ النَّقّاشُ: أنَّ الأيّامَ هُنا جَمعُ اليَوْمِ من أيّامِ اللّه تعالى الَّذي هو مُدَّةُ ألْفِ سَنَةٍ، فَسِتَّةُ أيّام عِبارَةٌ عَنْ سِتَّةِ آلافٍ مِنَ السِّنينَ فيما يَعدُّه النّاسُ من حساب الأعوام؛ نَظَرًا إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ٤٧﴾ [الحج: 47] وقولِه: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ٥﴾ [السجدة: 5]، وما هو ببَعيدٍ، وإنْ كانَ مُخالِفًا لِما في التَّوْراةِ. وقيلَ المُرادُ: في سِتَّةِ أوْقاتٍ، فَإنَّ اليَوْمَ يُطْلَقُ عَلى الوَقْتِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ﴾ [الأنفال: 16]، أيْ: حينَ إذْ يَلْقاهم زَحْفًا، ومَقْصودُ هذا القائِلِ أنَّ السَّماواتِ والأرْضَ خُلِقَتْ عالَمًا بَعْدَ عالَم، ولَم يَشْتَرِكْ جميعُها في أوْقاتِ تَكْوينِها، وأيًّا ما كانَ فالأيّامُ مُرادٌ بِها مَقاديرُ لا الأيّامُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/161.

التَّي واحِدُها يَوْمٌ الَّذي هو مِن طُلوعِ الشَّمس إلى غُروبِها؛ إذْ لم تَكُنْ شَمسٌ في بَعْضِ تلك المُدَّةِ، والتَّعمُّقُ في البَحْثِ في هذا خُروجٌ عن غَرَضِ القُرْآنِ"(1).

دَلالةُ العطْفِ بـ﴿ثُمَّ﴾:

بيانُ ما هو أعْظَمُ مِن خَلْقِ السَّماواتِ والأرْضِ، وإبْطالُ مقالةِ أنَّ الله استَراحَ في اليَوْمِ السّابِعِ

دَلَّتْ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ عَلى التَّراخي الرُّتَبيِّ(2) في عَطفِ المفرَدِ على المفرَدِ، والجُملَةِ عَلى الجُملَةِ، وهي مُهْلَةٌ تَخْييليَّةٌ في الأصْلِ، تُشيرُ إلى أنَّ المَعْطوفَ بِثُمَّ أعْرَقُ في المعنى الَّذي تَتضمَّنُهُ الجُملَةُ المَعْطوفُ عليها حتّى كَأنَّ العَقْلَ يَتمَهَّلُ في الوُصولِ إليه بَعْدَ الكلامِ الأوَّلِ فَيَنْتَبِهُ السّامِعُ لذلك كَيْ لا يَغْفُلَ عَنْهُ بِما سمعَ مِنَ الكلامِ السّابِقِ، وشاعَ هذا الاسْتِعْمالُ حَتّى صارَ كالحقيقَةِ(3)، والمُرادُ بيانُ ما هو أعْظَمُ مِن خَلْقِ السَّماواتِ والأرْضِ من حيث عظَمَةُ استوائه عَلى العَرْشِ؛ تَنْبيهًا عَلى أنَّ خَلْقَ السَّماواتِ والأرْضِ لم يُحْدِثْ تَغْييرًا في تَصَرُّفاتِ اللّه بزيادةٍ ولا نقصانٍ، ولذلك ذُكِرَ الاسْتِواءُ على العَرْشِ عَقِبَ ذِكْرِ خَلْقِ السَّماواتِ والأرْضِ في آياتٍ كَثيرَةٍ، ولَعَلَّ المَقْصِدَ مِن ذَلِكَ إبْطالُ ما يَقولُه اليَهودُ: إنَّ اللّه اسْتَراحَ في اليومِ السّابِعِ؛ فهو كالمَقْصِدِ مِن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨﴾ [ق: 37](4).

التَّعبيرُ عنِ الاستواءِ بصيغةِ الماضي:

تحقّقَ الخلْقُ تامًّا كامِلًا مُتقَنًا

ولمّا كان خلقُهُ السّماواتِ والأرضَ مع استوائه، أمرًا قضاه ﷻ بِحَسَبِ ظاهِرِ الحسِّ، سيقَ معنى الاستواء والخلْقِ بصيغة الماضي الدّالِّ على التّحقُّقِ على وجه التّمام، والكمالِ، والإتقانِ.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/162.
(2) ويُسَمّى ذَلِكَ بِالتَّرتيبِ الرُّتَبيِّ وبِتَرْتيبِ الإخْبارِ.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/382.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/166.

إيثارُ حرفِ العلّيّة:

يكونُ استواؤُه تعالى بعُلوِّه، وغلبته، وعظمتِه وتأكيدِ أنّه هو المالكُ المُتصرِّفُ في كلِّ شيءٍ

سيقتِ العليّةُ للدّلالة على العلوّ وبيانِ حِكْمَةِ اسْتِوائِهِ ﷻ على العَرْشِ وتَقْريرِ عَظَمتِه. واخْتِصارُ القَوْلِ في الآيةِ ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ أنْ يَكونَ اسْتَوى بِقَهْرِهِ وغَلَبَتِه[1] وصفةُ الاستواء الَّتي ثبتت للّه تعالى في القرآن الكريم في سبع آيات، صفةٌ فِعليَّةٌ تدلُّ على عُلوِّ اللّه وسُموِّه وقهرِه وسلطانِه على خلْقه. والحكمةُ في هذه الآيات هي إظهارُ تميُّزِ اللّه عن مخلوقاته، وتنْزيهُه عنِ الشُّبهات والأوهام، وتأكيدُ أنَّه هو المالك المُتصرِّف في كلِّ شيء، وأن لا شيءَ يُعجزُه أو يحولُ بينه وبين مشيئته.

دَلالةُ تعريفِ العَرْش، ونوعُ (أل):

العرشُ أعظمُ خلْقِ اللهِ، وأكبرُها حجمًا، وأشرفُها مَكانةً

القولُ المشهورُ لجمهورِ المُفَسِّرينَ: أنَّ المُرادَ مِنَ العَرْشِ المَذكورِ في هذه الآيَةِ: الجِسْمُ العَظيمُ الَّذي في السَّماءِ؛ فـ(ألْ) في العَرشِ عهديّةٌ[2] تُشير إلى ذاك الجسم الَّذي وصفَه تعالى بالعَظَمة في قوله: ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ١٢٩﴾ [التوبة: 129].

والعرش هو أعظمُ خلْقِ اللّه، وأكبرُها حجمًا، وأشرفُها مكانةً، فإذا أخبرَ اللّه عنِ استوائه على العرش، فدلَّ ذلك على أنَّ كلَّ شيء دونَ العرش أدنَى منه، وأنَّ كلَّ شيءٍ خاضعٌ لأمر اللّه، ومُسخَّرٌ لحكمته.

تَوجيهُ الاستواءِ على العرشِ بين الحقيقةِ والمجاز:

وجْهُ الحقيقةِ المعنى الأصليُّ، ووجْهُ المجازِ الملكُ والسُّلطانُ

الاستواءُ على العرش فيه تأويلان:

الأول: الحَملُ على المُرادِ الحقيقيِّ؛ وهو إجراؤه على مُقتَضَى ما ورَدَ على أصلِ المَعْنى الَّذي أرادَهُ سُبْحانَهُ؛ والوَجْهِ الَّذي عَناهُ مُنَزَّهًا عنِ الاسْتِقْرارِ والتَّمَكُّنِ، دون تَأويلٍ أو صرْفٍ عنِ الظّاهرِ؛ على

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/104.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/192.

معنى أنَّ كفَّ الكيْفِ مَشْلولَةٌ، وفي هذا ورد قولُ غيرِ واحدٍ من أئمةِ أهلِ السُّنَّة في جهالة الكيفيَّة، كقولِ الإمام مالك: الاستِواءُ معلومٌ، والكيفيَّةُ مجهولةٌ، والسُّؤالُ عنه بدعةٌ، والإيمانُ به واجبٌ[1].

الثّاني: الاسْتِواءُ عَلى العَرْشِ مجازٌ عنِ المُلْكِ والسُّلْطانِ مُتفرِّعٌ عنِ الكِنايَةِ فيمَن يَجوزُ عليه القُعودُ على السَّريرِ، يُقالُ: اسْتَوى فُلانٌ على سريرِ المُلْكِ ويُرادُ مِنهُ مَلَكَ وإنْ لم يَقْعُدْ عَلى السَّريرِ أصْلًا[2].

تَوجيهُ البَلاغيّيّن بأنّه: كنايةٌ، أوِ استعارةٌ تمثيليّةٌ:

مذهبُ جمهورِ البلاغيِّين أنَّ الاستواء على العرش إمّا كنايةٌ عن بسطِ نفوذِه ﷻ على جميع الكائنات، ولا يقدحُ في هذا أنَّ الكنايةَ يَصِحُّ معها إرادةُ المعنى الحقيقيِّ للَّفظِ، وهي الجلوسُ الحِسيّ؛ لأنَّهم يقولون: إنَّ إرادةَ المعنى الحقيقيّ مع المعنى الكنائيّ جائزةٌ لا واجبةٌ، فإذا ترتَّب على تلك الإرادة محظورٌ عقلًا أو شرعًا أو هما معنًى، امتنعت تلكَ الإرادةُ كما في هذه الكناية (استوى على العرش)[3]، والاستواءُ على العرش لا يعني التمكُّنَ منه، أوِ الحاجةَ إليه، بل يعني التَّقديرَ والإرادةَ والسَّيطرةَ، بلا كيفيَّة أو تشبيهٍ. قال الإمامُ أبو حنيفةَ رحمه اللّه: "نُقِرُّ بأنَّ اللّه تعالى على العَرْشِ استوى، من غيرِ أن يكونَ له حاجةٌ"[4].

اللـــه تـعـالى بـاسـطٌ نـفـوذَه عـــلى جـمـيـعِ الكائناتِ

فهي استعارةٌ تمثيليَّةٌ شُبِّهت فيها الهيئةُ المعنويَّةُ الحاصلةُ من خُضوعِ الكائنات لقضاء اللّه وقَدَرِهِ ونُفوذِ أمرِه حسبما أراد بالهيئةِ الحِسِّيَّة الحاصلةِ من تمكُّنِ السَّلاطين منَ الجلوس على كراسي الحُكم وطاعةِ النّاس لهم[5].

(1) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/37.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/62.
(3) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/38.
(4) البابرتيّ، شرح وصية الإمام أبي حنيفة، ص: 87.
(5) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/38.

بَلاغةُ الاستئنافِ الابتدائيِّ في: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ﴾:

اللهُ تعالى القاضي والمُدبِّرُ الَّذي يُلجأُ ويُفرُّ إليه في كُلِّ وقتٍ

قولُه ﷻ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ للتَّرقّي في كمال الرُّتبِ الإلهيةِ، يعني يَقضي القضاءَ وينظرُ في تَدبير الخلق، فالمؤمِنُ إذا تحقَّق عُلوَّه تعالى المُطلَق على كُلِّ شَيءٍ بذاته، وأنَّه ليس فوقَه شيءٌ البتَّةَ، وأنَّه ظاهِرٌ فوق عِبادِه يدَبِّرُ الأمرَ مِنَ السَّماءِ إلى الأرض، ثمَّ توجَّه إليه، فقد جمع قَلْبَه على المعبودِ، فيلجأُ إليه ويفِرُّ في كُلِّ وقتٍ إليه[1].

وجهُ التَّعبيرِ عنِ التَّدبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

حاجةُ المخلوقِ للتَّدبيرِ عِلّةُ دوامِهِ

إيثارُ صيغةِ المُضارِعِ في قوله ﷻ لِلدَّلالَةِ على تَجَدُّدِ التَّدبيرِ واستِمرارِه[2]؛ لأنَّ التّدبيرَ أمرٌ يحتاجُ إليه المخلوقُ على الدَّوام، سُنّةَ اللّه فيمَنْ خلقَ.

دَلالة لفظِ ﴿ٱلۡأَمۡرَۖ﴾:

الأمرُ التّقديريُّ شاملٌ بمقتَضى الحكمةِ

المُرادُ بالأمرِ أمرُ الكائِناتِ كلِّها عُلويِّها وسُفليِّها[3]، و(أل) في (الأمر) الَّتي تُفيد الاستغراقَ الشّامِلَ[4]، وليس المرادُ بالأمر في الآية ما يُقابلُ النَّهيَ؛ بلِ الشَّأنُ الَّذي يُرادُ به أحوالُ الخلْقِ وأحوالُ مَلَكوتِ السَّماواتِ والأرضِ والعرشِ. والمعنى: أنَّه يَقْضي ويُقدِّرُ بمُقتضَى الحكمةِ، ويفعلُ ما يفعله المصيبُ في أفعاله النّاظرُ في أدبار الأُمورِ وعواقبِها لئلا يدخلَ في الوجود ما لا ينبغي، ولا يشغلُه شأنٌ عن شأنٍ[5]، فهي صفةٌ للّه ﷻ، كما قال في مُحكَم تنزيلِه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: 54]. قال ابنُ تيميةَ رحمه اللّه: "أمّا ما كان صِفةً لا تقومُ بنَفسِها ولم يُذكَرْ لها مَحلٌّ غيرُ اللّه، كان صِفةً له، فكالقول

(1) ابن القيِّم، طريق الهجرتين، ص: 20.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/63.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/63.

(4) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/38.

(5) الصاويّ، حاشيته على تفسير الجلالين: 2/85.

والعِلم، و(الأمرُ) إذا أُريد به المصدرُ، كان المصدرُ مِن هذا البابِ، كقَولِه تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: 54]"[1].

إيثار لفظِ الأمرِ على غيرِه كالشَّأنِ:

الأمرُ لفظٌ يدلُّ على العُموم

تدلُّ لفظةُ الأمر على العمومِ، لاحتمالها أكثرَ من معنًى كالفعل، والنَّماءِ والبركةِ، والعلامةِ، ووردت في القرآن الكريم دالّةً على الدّين، والحسابِ، والذَّنب، والوَعد وغيرها، في حين تدلُّ لفظةُ الشَّأنِ على الحال والأمرِ الَّذي يتَّفق ويَصلُحُ، ولا يُقال إلّا فيما يَعظُم منَ الأحوال والأمور[2].

بَلاغةُ الاستعارةِ التَّبعيّةِ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾:

التَّدبيرُ أوفى الألفاظِ اللُّغويّةِ بِتَقريبِ إتْقانِ الخَلْقِ، فالله تعالى مُحيطٌ علمًا بمبادئِ الأُمورِ وعواقِبِها

في جُملَةِ ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ استعارةٌ تبعيةٌ للتَّرقّي في كمال الرُّتبِ الإلهيَّةِ؛ لأنَّ التَّدبيرَ هو النَّظرُ في عواقب الأمور فاستُعيرَ للعِلم بها، أي أنَّ اللّه تعالى مُحيطٌ علمًا بمبادئ الأُمورِ وعواقِبِها[3]، ويَجوزُ أن يكونَ استعارةُ التَّدبير للإتقان والإحكام، بل هذا أَوْلى لاشتماله على العلْم بها، وفيه إيماءٌ بأنَّه سُبحانه يُراعي المصالحَ تفضُّلًا وإحسانًا[4].

والحاصِلُ: تدبيرُ اللّه الأُمورَ عبارةٌ عنْ تمام العِلم بِما يَخْلُقُها عليه؛ لِأنَّ لفظَ التَّدْبيرِ هو أوْفى الألْفاظِ اللُّغويَّةِ بِتقريبِ إتْقانِ الخَلْقِ[5].

تَوجيهُ النَّفيِ بـ﴿مَا﴾:

استغراقُ نفْيِ الشَّفاعةِ، فلا تحصلُ لأحدٍ مهما بلغَ إلّا بإذن الله

تحريرُ سَوْقِ النَّفْيِ بـ﴿مَا﴾ بَعْدَ أنْ وُصِفَ الإلَهُ الحَقُّ بِما هو مُنْتَفٍ عَنْ آلِهَتِهِم، نُفيَ عَنْ آلِهَتِهم وصفُ الشَّفاعَةِ عند اللّه وحماية

(1) ابن تيمية، شرح العقيدة الأصفهانيّة، ص: 114.
(2) الرّاغب، المفردات: (شأن).
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/38.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/220.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/87.

المَغْضوبِ عليهم منه[1]. والنَّفيُ بالحرف الدّالِّ على الإبهام والعموم استغراقٌ لنفْيِ الشّفاعة عن أيِّ أحدٍ مهما بلغ شأوُه إلا بإذنه.

فائدةُ توسيطِ ﴿مِن﴾:

نفت (مِن) الشَّفاعةَ على أتَمِّ الوُجوهِ، وأبلغِها

دخلت ﴿مِن﴾ على ﴿شَفِيعٍ﴾ لاستغراق النَّفْيِ؛ بَيانًا لتفرّده ﷻ في التَّدْبيرِ والتَّقْديرِ، ونَفْيًا لِلشَّفاعةِ على أبْلَغِ وجْهٍ؛ فإنَّ نَفْيَ جميع أفرادِ الشَّفيعِ بِـ﴿مِن﴾ الاسْتِغْراقيَّةِ يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ الشَّفاعةِ على أتَمِّ الوُجوهِ[2]، فلا حاجةَ إلى أنْ يُقالَ: التَّقْديرُ ما من شَفاعَةٍ لِشَفيعٍ؛ وفي ذلك أيضًا تَقْريرٌ لِعَظَمَتِه، وتفرّدِه سُبْحانَهُ إثْرَ تَقْريرٍ[3].

بَراعةُ تنكيرِ ﴿شَفِيعٍ﴾، وتنوينِه:

استغرقَ النَّفْيُ كلَّ شفيعٍ

نُكّر لفظُ (الشّفيع)؛ للدّلالةِ على استغراق النَّفْيِ كلَّ مَنْ يُظنُّ فيه إمكانُ الشَّفاعة من ملك، أو رسولٍ، أو نبيٍّ، أو غيرِهم إلا مَن يُحْبى بهذا الفضل، وهذه المنزلةِ.

فائدةُ التَّعبيرِ عنِ الشَّفاعة بصيغة (فَعيل):

نفيُ الموصوفِ بهذه الصِّفةِ على وجْهِ الثُّبوتِ والمبالغةِ

تدلّ صيغة (فَعيل) على الاتِّصاف بالصِّفة على وجْهِ الثُّبوت، ورسوخِها في صاحبها، والتصاقِها به بدون فِكاكٍ، وليس في ظرفٍ مُعيَّنٍ، ومن هنا فنفيُها نفيٌ للصِّفة والموصوف على وجْهِ المبالغةِ.

بَلاغةُ الكنايةِ في نفْيِ الشَّفيعِ:

تفرُّدُ الله سُبحانَه في التَّصرُّفِ كما يُريدُ

نَفيُ (الشَّفيع) بصيغةِ "فَعيل" كنايةٌ عن نفْيِ الشَّفاعة، حيث توُصِّل بنفْيِ السَّببِ إلى نَفْيِ المُسبَّب[4]، وهو كنايةٌ عن تفرُّدِه في التَّصرُّفِ كما يُريدُ، ونَفْيِ أن يكونَ لشفيعٍ شيءٌ إلّا إذا أذنَ اللّه ﷻ.

بَلاغةُ الاستثناءِ المُفرّغِ:

الاسْتِثْناءُ في قوله ﷻ: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ مُفرَّغٌ مِن أعَمِّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/88.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/119.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/63.
(4) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/39.

الأوْقاتِ، أيْ: ما مِن شَفيعٍ يَشْفَعُ لأحَدٍ في وقْتٍ مِنَ الأوْقاتِ، إلّا بَعْدَ إذْنِه تَعالى المَبْنيِّ على الحِكْمَةِ الباهِرَةِ، وذلك عند كوْنِ الشَّفيعِ مِنَ المُصْطَفَيْنَ الأخْيارِ، والمَشْفوعِ لَهُ مِمَّنْ يَليقُ بِالشَّفاعةِ[1].

لا شفاعةَ لأحدٍ في كلّ وقتٍ وحينٍ من دونِ إذنِه سُبحانه

دَلالةُ لفظِ الإذْنِ:

يَدُلُّ لفظُ "الإذنِ" على تَقْريرِ لِعَظَمتِهِ سُبحانَه تعالى وعِزِّ جَلالِه، وردٌّ على مَن زَعَمَ أنَّ آلِهَتَهم تَشْفَعُ لَهم عند اللّه[2]، وإشارةٍ إلى أنّ الكونَ محكومٌ بسُلطانه تعالى[3].

هذا الكونُ محكومٌ بسُلطانِه سُبحانَه

بَلاغةُ الكِنايةِ في جملةِ ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ﴾:

في قوله تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ﴾ كنايةٌ عن تفرُّدِه في التَّصرُّفِ كما يُريدُ، ونَفيٌ أن يكونَ لشفيعٍ رأيٌ، أو تصرّفٌ، أو مبادرةٌ إلّا إذا أذنَ اللّه ﷻ[4].

تفرّدُ اللهِ سُبحانَه بالتَّصرُّفِ المُطلقِ يومَ القيامةِ

بَلاغةُ الفَصْلِ في: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾:

وجُملةُ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ ابتِدائيَّةٌ، فَذَلَكَةٌ لِلجُمَلِ الَّتي قبلَها ونَتيجَةٌ لها، وهي مُعتَرِضَةٌ بَيْنَ تلك الجمَلِ وبَيْنَ الجُملَةِ المُفَرَّعَةِ عليها، وهي جُملَةُ ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾، وتأكيدٌ لِمَضمونِ الجُملَةِ الأصْليَّةِ وهي جُملَةُ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾[5].

تأكيدُ مطلعِ الآيةِ بجُملةِ الاعتراضِ

سِرُّ اصْطفاءِ اسمِ الاشارةِ الدّالِّ على البعيدِ مجموعًا:

والمتتبِّعُ لآياتِ اللّه تعالى يُلاحظُ أنَّ الإشارةَ تَقترنُ بحرفِ الكافِ، ويكونُ الخطابُ للنَّبيِّ ﷺ ولأُمَّته بالتَّبعِ، وضميرُ الجمعِ كما في هذا النَّصِ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾، يكونُ إمّا للنّاسِ أجمعين، وإمّا للنَّبيِّ ﷺ وأمَّتِه ابتداءً. وهذا الخطابُ للنّاسِ أجمعين[6].

الإشارةُ إلى المعلومِ بالعَظَمةِ، المُميَّزِ بعالي المراتبِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/63.
(2) القاسميّ، محاسن التأويل: 6/6.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3512.
(4) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/39.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/88.
(6) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3513.

إيقاظُ الوَسْنانِ بما يُشيرُ إلى عظمةِ الرَّحمان

كما أنَّ الإتْيانَ في صَدْرِ الآية ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ باسْمِ الإشارَةِ للبعيد، لِتَمييزِه أكْمَلَ تَمييزٍ؛ لأنَّهُمُ امتَرَوْا في صِفَةِ الإلَهيَّةِ وضَلّوا فيها ضلالًا مُبينًا، فكانوا أحْرياءَ بالإيقاظِ بطَريقِ اسْمِ الإشارَةِ(1). ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إشارَةٌ إلى المعلوم بتلك العَظَمةِ، أيْ: العَظيمُ الشَّأْنِ العالي المَراتِبِ(2).

الإشارةُ إلى خالِقِ العَوالِمِ بِغايَةِ الإتْقانِ والمَقْدِرَةِ ومالِكِ أمرِها

ولِلتَّنْبيهِ على أنَّ المُشارَ إليه حَقيقٌ بما سَيُذْكَرُ بعْدَ اسْمِ الإشارَةِ مِن حيثُ إنَّهُ اتَّصَفَ بتلك الأوْصافِ الَّتي أُشيرَ إليه مِن أجْلِها، فَإنَّ خالِقَ العوالِمِ بِغايَةِ الإتْقانِ والمَقْدِرَةِ ومالِكَ أمرِها ومُدَبِّرَ شُئونِها والـمُتَصَرِّفَ المُطْلَقَ مُسْتَحِقٌّ لِلْعِبادَةِ(3).

إظهارُ لفظِ الجلالةِ:

أعلَمَ برفعةِ شأنِه سُبحانَه وفخامةِ قدرِه

إظهارُ لفظِ الجَلالة للإعلام برِفعةِ شأنه، وعُلوِّ مقامه، وفخامةِ قدرِه ﷻ، والتَّمهيدِ للأمرِ بالعبادةِ في قوله: ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾(4).

تَكرارُ لفظِ الرّبوبيّةِ:

بالغَ في التَّذكيرِ وزادَ في التَّقريرِ بتَكرارِ لفظِ الرُّبوبيّةِ

في تَكْرارِ لَفظِ الرُّبوبيّة لِزيادةِ التَّقْريرِ والمبالغةِ في التَّذْكير، ولتفريعِ الأمرِ بِالعِبادَةِ عليه بقوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾(5)، ولِلتَّنْبيهِ على أنَّ المُشارَ إليه حَقيقٌ بما سيُذْكَرُ بعد اسْمِ الإشارَةِ من حيثُ إنَّهُ اتَّصَفَ بتلك الأوْصافِ الَّتي أُشيرَ إليه مِن أجْلِها، فَإنَّ خالِقَ العوالمِ بغايَةِ الإتْقانِ والمَقْدِرَةِ ومالِكَ أمرِها ومُدَبِّرَ شُئونِها والمُتَصَرِّفَ المُطْلَقَ مُسْتَحِقٌّ لِلْعِبادَةِ(6).

تخصيصُ الرُّبوبيّةِ بالنّاسِ:

الإشارةُ إلى أنّه النّاظرُ في مَصالِحِكم، وهو الّذي ربّاكُم، ونمّاكُم، ونشّأكُم

تعليقُ الرُّبوبيّة بالنّاسِ؛ للدّلالَةِ على أنّه ﷻ رَبُّكُمْ ولا ربَّ لكم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/88.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/70.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/12.
(4) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/39.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/119.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/88 - 89.

سواه، النّاظِرُ في مَصالِحِكم، وهو الَّذي ربّاكم، ونمّاكم، ونشّأكم، وخلقكم لتعبدوه[1].

بَلاغةُ الفَذْلكة: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾:

القَصدُ إلى العبوديّةِ بلوازمِ كوْنِه ربَّهم

وفُرِّعَ على كوْنِهِ رَبَّهم أنْ أُمِروا بِعِبادَتِهِ، والمُفَرَّعُ هو المَقْصودُ مِنَ الجُملَةِ وما قَبْلَهُ مُؤَكِّدٌ لجُملَةِ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ تَأْكيدًا بِفَذْلَكَةٍ وتَحْصيلٍ، والتَّقْديرُ: إنَّ رَبَّكُمُ اللهُ إلى قولِه: ﴿فَٱعْبُدُوهُۚ﴾[2].

دَلالةُ الفاء:

طاعةُ الله فوريّةُ السّعيِ، والإقبالُ عليه انقيادٌ

الفاء لترتيب ما بعدَها على ما قَبلها؛ فَهيَ للإيحاءِ بوجوبِ فوريّةِ الطّاعَةِ والانقيادِ لله ﷻ، أي أنَّه يُعبدُ لأنَّه اللهُ المُنْشِئُ ﷻ؛ ولأنَّه ربُّ الوجود ولا يُعبدُ إلّا وحدَه؛ على معنى: فاعبدوه عبادةً تقتضي بُطلانَ الشَّريك[3].

بَراعةُ التّعبيرِ عنِ العبوديّة بصيغة الأمرِ:

لا شريكَ لأحدٍ مع الله في العبادةِ والطّاعةِ

وإذا فُرِّعَ الأمرُ المَذكورُ على لفظةِ ﴿رَبَّكُمُ﴾، أفادَ الأمرَ بعبادته سُبحانه وحدَه، أيْ: فاعْبُدوهُ سُبحانه من غَيرِ أنْ تُشرِكوا بِهِ شيئًا مِن مَلَكٍ أوْ نَبيٍّ فَضْلًا عَنْ جمادٍ لا يُبْصِرُ، ولا يَسْمَعُ، ولا يَضُرُّ، ولا يَنْفَعُ، ولَيْسَ الدّاعي لهذا الحَملِ أنَّ أصْلَ العِبادَةِ ثابِتٌ لَهم فَيُحْمَلُ الأمرُ بها على ذلك ليُفيدَ لِما قيلَ من أنَّ الخِطابَ لِلْمُشْرِكينَ ولا عبادةَ مع الشِّرْكِ[4].

إسنادُ الأمرِ إلى الضَّميرِ دونَ الظّاهرِ:

المُسارعةُ إلى التَّعبُّد بدلالةِ المُضْمَراتِ وتأكيدِ المعهوداتِ

أُسند الأمرُ إلى الضَّمير دونَ الظّاهر جريًا على معهود الكلام العربيِّ المُقتضِي أنَّ الاسمَ إذا ذُكر أولًا، فلا يُعادُ ثانيةً، وإنَّما يُذكرُ مُضْمَرًا؛ استغناءً بما سبق.

(1) المقدّم، تفسير القرآن الكريم: 4/81.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/88 - 89.
(3) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/39.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/63.

والشّاهد أنّه قد تقدَّم اسمُ الجلالة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾، ولوَّحت جُملُ العطف بمعلوميّةِ الضَّمير في جملةِ ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾، والقصدُ إلى المسارعة إلى إفرادِه بالعبوديَّة وتعظيمِه[1] ظاهرًا وباطنًا.

بَلاغةُ الاستفهامِ الاستنكاريِّ في جُملة الفاصلةِ:

أنكرَ عليهم انتفاءَ تذكُّرِهم تفرُّدَهُ بالألوهيّةِ

جملةُ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ابتدائيَّةٌ سِيقَت لِلتَّقْريع؛ فالاستفهامُ إنْكارٌ لانْتِفاءِ تذكُّرِهم؛ إذْ أشْرَكوا معه غيرَهُ ولَم يَتَذَكَّروا أنَّهُ المُنْفَرِدُ بخَلْقِ العَوالِمِ وبِمُلْكِها وبِتَدْبيرِ أحْوالِها[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ (التّفعُّل):

دَلالةُ التّفعُّلِ على التّكلُّفِ في إيقاعِ الفعلِ، وإنفاذِه

التَّذَكُّرُ: التَّأمُّلُ. وهو بهذه الصِّيغَةِ لا يُطْلَقُ إلّا على ذِكْرِ العَقْلِ لِمَعْقولاتِه، أيْ حركَتِه في معلوماتِه[3] على معنى: أنَّ التَّذَكُّرَ لَمّا كانَ مُشْتَقًّا من مادَّةِ الذِّكْرِ الَّتي هي في الأَصْلِ جَرَيانُ اللَّفْظِ عَلى اللِّسانِ، والَّتي يُعَبَّرُ بها أيْضًا عَنْ خُطورِ المعلوم في الذِّهْنِ بَعْدَ سَهْوِه وغَيْبَتِه عَنْهُ، كانَ مُشْعِرًا بِأنَّهُ حَرَكَةُ الذِّهْنِ في مَعْلوماتٍ مُتَقَرِّرَةٍ في النُّفوسِ مِن قَبْلُ فِطْرَةً[4]. والتّعبيرُ بصيغة التّفعّل في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ للدّلالةِ على التّكلّفِ في إيقاع الفعل، وإنفاذِه لما في الاتّعاظِ والدَّوام عليه من مشقّة، وكدٍّ يتأتّى بالتّكلّف بالقيام بالفعل.

إيثارُ لفْظِ التّذكُّر على التّفكّرِ:

الاتّعاظُ فعلٌ لاحقٌ للتّفكّرِ في آيات الله

وإيثارُ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ على تَتَفَكَّرونَ لِلْإِيذانِ[5] بِظُهورِ الأمرِ وجَلاءِ ما ذُكِرَ مِنَ الدَّلائل الباهرةِ من آلاء الله وبَراهينه السّاطعة على جَلالِه، وحُججِ كمالِه وحكمَتِه، وآياتِ قدرته المعلومةِ الَّتي تحتاج إلى

(1) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/39.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/89.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/89.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/89.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/63.

الاتّعاظ بها، والاعتبارِ بعد تدبُّر حكمتِه منها والتّفكّرِ فيها. فالتّذكّر هنا مرحلةٌ لاحقةٌ للتّفكّر في الآيات، والبراهين والحُجَجِ؛ فلا اتّعاظَ إلا بعد تدبّرٍ وتفكّرٍ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التّذكّرُ، والتّفكّرُ، والتّدبّرُ:

تردُّدُ القلبِ على الدّليلِ تفكُّرا، والعواقبِ تدبُّرًا، والاعتبارِ تذكُّرًا

التَّدبُّر: النَّظرُ في عواقب الأمور، وهو قريبٌ منَ التَّفكُّر؛ إلّا أنَّ التَّفكُّرَ تصرُّفُ القلب بالنَّظر في الدَّليل، والتَّدبُّر تصرّفُه بالنّظر في العواقب[1].

التَّذكُّر هو مَقْصود التَّفكُّر وثمرتُه، فإذا تذكَّر عاد بتذكُّره على تفكُّره فاستخرج ما لم يكن حاصِلًا عِنْده، فهو لا يزال يُكَرّرُ بتفكُّره على تذكُّره وبتذكُّره على تفكُّره ما دامَ عاقِلًا؛ لأنَّ العلم والإرادةَ لا يقفان على حدٍّ، بل هو دائِمًا سائِرٌ بين العلم والإرادة[2].

قال الحسن: "ما زال أهل العلم يعودون بالتَّذكُّر على التَّفكُّر، وبالتَّفكُّر على التَّذكُّر ويناطقون القلوبَ حتى نطقت، فإذا لها أسماعٌ وأبصارٌ"[3].

(1) الجُرجانيّ، التّعريفات، ص: 54.
(2) ابن القيّم، مفتاح دار السّعادة: 1/214.
(3) ابن القيّم، مفتاح دار السّعادة: 1/213.

﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٤﴾ [يونس: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

بعد الحُكم القَدَريّ، والدِّينيّ ذكَرَ الحكمَ الجزائيَّ

لَمّا ذكَرَ الحقُّ تباركَ وتعالى حُكْمَهُ القَدَريَّ وهو التَّدبيرُ العامُّ، وحُكْمَهُ الدّينيَّ وهو شَرْعُه، الَّذي مَضمونُه ومقصودُه عبادتُه وحدَه لا شريكَ له، ذكر الحُكْمَ الجزائيَّ، وهو مُجازاتُه على الأعمالِ بعد الموت، فقال: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ﴾(1).

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾: أصلُ الرُّجوعِ: "العَوْدُ إلى مكانٍ منه البَدْء، وسواء كان مكانًا أو قولًا أو فعلًا. وسواء كان العَودُ بذاته أو بجزءٍ من أجزائه أو بفعلٍ من أفعاله"(2). تقولُ: رَجَعَ يَرْجِعُ رُجوعًا، إذا عادَ(3)، والمَرْجِعُ: مَصدَرٌ ميميٌّ بمعنَى الرُّجوعِ وهو العَودُ إلى الشَّيءِ، ومعْنَى الرُّجوعِ إلى اللّه: الرُّجوعُ إلى وقْتِ نَفاذِ حُكْمِهِ المُباشِرِ فيهم، ويجوزُ أن يكونَ المَرجِعُ كنايةً عنِ المَوتِ(4). والمقصودُ في الآية: معادُكم إلى اللّه تعالى.

2) ﴿يَبۡدَؤُاْ﴾: أصلُ (بدأ) يدلُّ على افْتِتاحِ الشَّيءِ، يُقالُ: بَدأتُ بالأمرِ وابْتَدَأْتُ، مِنَ الابْتِداءِ، واللّه تعالى المُبْدِئُ والبادِئُ(5)، وهو

(1) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 357.
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ، والزَّبيدي، تاج العروس: (رجع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رجع).
(4) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 11/257، والتَّحرير والتّنوير: 11/223.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدأ).

الَّذي أنْشأ الأشْياءَ واخْتَرعها ابْتِداءً مِنْ غير سابِقِ مثالٍ[1]، ويُقالُ "للسَّيِّدِ البَدْءُ"؛ لأنَّهُ يُبْدَأُ بذِكْرِه. وبدا الشَّيءُ يَبْدو بَدْوًا وبُدوًّا: ظَهَرَ. وأبْدَيْتُه أنا: أظهرتُه[2].

والمرادُ بالبَدْء في الآية: الفِعلُ الَّذي لم يَسْبِقْ مُماثِله، فاللّه يبدأُ إيجادَ الخَلْق.

3) ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾: الخَلْقُ أصلُه: تَقْديرُ الشَّيءِ[3]، والخَلْقُ في كلام العَرَبِ على وجهين: ابتداءُ الشَّيء على مثالٍ لم يُسبقْ إليه[4]، والآخَرُ: التَّقدير، تقولُ: خَلق اللّه الشَّيءَ يَخلُقه خَلْقًا: أحدثَه بَعْدَ أن لم يَكُنْ، والخَلْقُ يَكونُ المَصْدَرَ ويَكونُ المَخْلوقَ[5]. ومن صِفات اللّه: الخالِقُ والخلّاقُ، ولا تجوزُ هذه الصِّفة بالألف واللّام لغير اللّه ﷻ[6]. وتقولُ العَرَبُ: خَلَقْتُ الأديمَ: إذا قَدَّرته وقِسته لتقطع منه مزادَةً، أو قربةً، أو خُفًّا[7]. والمقصودُ بالخَلْقِ في الآية: التَّقديرُ، أي: إيجادُ الأشياء بتقديرٍ ونظامٍ لا جُزافًا.

4) ﴿بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾: أصلُ (قسط): يَدُلُّ على مَعْنَيَيْنِ مُتَضادَّيْنِ والبِناءُ واحِدٌ، فالقِسْطُ: العَدْلُ، يُقالُ: أقْسَطَ الرَّجُلُ يُقْسِطُ فهو مُقسِطٌ، أي: عَدَلَ[8]. وأما القَسْطُ - بِفَتْحِ القافِ - فهو: الجَوْرُ والظُّلْمُ، وقَسَطَ إذا جارَ وظَلَمَ فهو قاسِطٌ، والقُسوطُ: العُدولُ عنِ الحَقِّ. يُقالُ: قَسَطَ؛ إذا جارَ، يَقْسِطُ قَسْطًا[9]، ويأتي القِسْطُ بمعْنَى الحِصَّةِ والنَّصيبِ، وجَمعُهُ: أقْساطٌ، تَقولُ: تَقَسَّطوا الشَّيْءَ بَيْنَهُم، أي: تَقاسَموهُ[10]. والقِسْطاسُ: الميزانُ[11]، والقُسوطُ: المَيْلُ عن الحَقِّ[12]. والمقصودُ بالقِسْط في الآية: العَدْلُ، وهو التَّسْوِيَةُ بين شَيئَيْنِ في صِفَةٍ والجَزاءُ بما يُساوي المُجْزَى عليه[13].

---

(1) ابن الأثير، النّهاية: (بدأ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (بدأ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عُمدة الحُفّاظ: (خلق).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (خلق).
(6) الخليل، العين: (خلق).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خلق).
(8) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(9) ابن الأنباريّ، الأضداد، ص: 58، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(10) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(11) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(12) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(13) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/92.

5) ﴿حَمِيمٍ﴾: أصلُ (حمّ): يَدلُّ على الحرارةِ، وعلى معانٍ أُخرى مُتفاوِتَةٍ، فالحَميمُ الماءُ الحارُّ. والاسْتِحمامُ: الاغتِسالُ به. والحَميمُ: العَرَقُ[1]؛ وسُمّيَ الحمّامَ حمّامًا، إمّا لأنَّه يُعرِّق، وإمّا لما فيه منَ الماء الحارّ[2]، والحَميمُ إن شِئْتَ كان ماءً حارًّا، وإن شِئْتَ كانَ جَمرًا تَتبخَّرُ به[3]. والحَميمُ: القَيْظُ[4]، وهو أيضًا الماءُ البارِدُ؛ قال الأزهريُّ: فالحَميم عند ابنِ الأعرابيِّ مِنَ الأضداد، يكونُ الماءَ البارِدَ ويكونُ الماءَ الحارَّ[5]. والحَميمَةُ: الماءُ يُسَخَّنُ على النّارِ[6]، والمُرادُ بالحَميمِ في الآية: الذّائب الشَّديد الحَرِّ مِنَ النّار.

المَعنى الإجْماليُّ:

تقريرُ عقيدةِ البعْثِ والجزاءِ في الدّارِ الآخرةِ

يُخبر اللّه تعالى أنَّ إليه وحْدَه مرجعَ الخلائق جميعًا، يومَ تَخرُجونَ من قُبورِكم أحياءً يومَ القيامةِ، وعَدكم اللّه وعدًا حَقًّا لا يُخلَفُ، إنَّ اللّه يبدأُ إنشاءَ الخَلْقِ، وإيجادَه مِنَ العَدَمِ، ثمَّ يعيدُه بعدَ مَوتِه، ويُحييه يومَ القيامةِ كما بدأه أوَّلَ مرَّةٍ؛ ليُثيبَ المُؤمنينَ الَّذين عَمِلوا ما أمَرَهم اللّه به، وترَكوا ما نهاهُم عنه، بالعَدلِ، وهو مجازاتُهم على الحَسَنِ مِن أعمالِهم، الحَسَنَ مِن الثَّواب في الآخرةِ، وللكُفّار في الآخرةِ ماءٌ قد أُغليَ، وبلَغَت حرارتُه الغايةَ، يَشْوي الوجوهَ ويُقطِّع الأمعاءَ، ولهم أيضًا عذابٌ موجِعٌ؛ وذلك كلُّه بسبَبِ كُفرِهم في الدُّنيا[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حمّ).
(2) الرّاغب، المفردات: (حم).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (حم).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (حم).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حم - حمم).
(6) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حم - حمم).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 12/117، 118، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/309، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/248، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 358.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغةُ الفصْلِ في الآيةِ:

بين الجُملتَين شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، يشيرُ إلى أنَّ بَدْء الخَلْقِ هو ما سَبَقَ ذِكْرُهُ، وإعادَتُهُ هي ما أفادَهُ قوله: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ﴾، ولذلك فُصِلَتْ عَنِ الَّتي قَبْلَها لِما بَيْنَهُما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ، على أنَّها يَجوزُ كَوْنُها خَبَرًا آخَرَ عَنْ قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾، أَوْ عن قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾، وقد تَضَمَّنَتْ هذه الجُملَةُ إثْباتَ الحَشْرِ الَّذي أنْكَروهُ وكَذَّبوا النَّبيَّ ﷺ لِأجْلِه[1].

دَلالةُ حرفِ (إلى):

مرجعُكُم إلى حَيثُ المُجازاة، فلا حاكِمَ سِوَى الله

إنَّ كَلِمَةَ (إلى) لِانْتِهاءِ الغايَةِ[2]، والمُرادُ مِنْها: أنَّ مَرْجِعَهُم إلى حَيْثُ لا حاكِمَ سِواهُ، أو أنْ يَكونَ المُرادُ: أنَّ مَرْجِعَهُم إلى حَيْثُ حَصَلَ الوَعْدُ فيهِ بِالمُجازاةِ. و﴿إِلَيۡهِ﴾ لا إلى أحدٍ سواهُ استقلالًا أوِ اشتراكًا[3].

بَلاغةُ تقديمِ الخبرِ شبهِ الجملةِ:

المرجعُ إلى الله يومَ القيامةِ لا إلى أحدٍ سِواه

تَقْديمُ المَجْرورِ في قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾؛ لإفادة القصْرِ، لكونِه المختصَّ بهذا الحدثِ دونَ غيرِه، أي: إليه وحدَه المرجعُ والمآبُ كما أنَّه وحده الخالقُ المُنشئُ؛ فالمرجعُ إليه وحدَه، قَطْعًا لِمطامِعِ بعضِهم القائلِينَ في آلِهَتِهم ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: 18]، يُريدونَ أنَّهُم شُفعاءُ على تَسْليمِ وقوعِ البعثِ لِلْجَزاءِ، فإذا كان الرُّجوعُ إليه لا إلى غَيْرِه كان حَقيقًا بِالعِبادَةِ وكانَتْ عِبادَةُ غَيْرِه باطِلًا[4].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/90.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/204.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/119.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/90.

إيثارُ صيغةِ المصدَرِ الميميِّ (مَفْعِل):

ناسبَ بقوّةِ التَّعبيرِ وزيادةِ مبناه عِظَمَ حدَثِ الرُّجوعِ إلى الله

صيغة المصدرِ الميميِّ يُؤتَى بها في الكلام لأنَّها تفوقُ صيغة المصدر الأصليِّ في "قوة الدِّلالَة وتأكيدِها"[1]، فإنِ استدعى السِّياق مزيدًا مِنَ التَّأكيد لجأ المتكَلِّمُ إلى المصدرِ الميميِّ لتحقيق هذه الغايةِ[2]، ومن هنا فالتَّعبيرُ بـ(المرجع) في الآية قصدٌ إلى التَّذكير بأنَّ مرجعَ الجميع إليه سُبحانه[3]، وذلكم مَظنّةُ شدّةِ التَّعبير؛ ليُناسبَ عِظَمَ حدثِ الرُّجوع الى اللّه تعالى يوم البعث، والمصيرِ إليه في ذلك اليوم الَّذي يتجلّى فيه كمالُ القدرة، وتمامُ التّصرُّف بالإحياء بعد الإماتة، والرُّجوعِ إليه فعبَّر بقوة الرُّجوع؛ لأنَّ المصدرَ الميميَّ أبلغُ من جهة زيادة المبنى.

ويُرادُ بالمرجعِ نهايةُ الرّجوعِ

والمرجعُ: محلُّ الرّجوع، ومكانُه، أي: المكان الَّذي يعود إليه الخارجُ منه بعد أن يُفارقَه[4]، فهو بمعنى نهاية الرّجوعِ، وانتهاءِ أمرهم بالمصيرِ إليه سُبحانه يومَ القيامة.

إضافةُ المرجعِ إلى الضميرِ:

الخطابُ بصيغةِ الإضافةِ إلى ضمائرِهم تذكيرٌ لهم بحدَثِ الرُّجوعِ إليه

القصدُ مِنَ الإضافة إلى ضمير الجمعِ هاهنا وفي جميع مواضع ورودِ لفظ (المرجع) أنّه إلى اللّه وحْدَه مَرجِعُكم أنتم جميعًا - أيُّها النّاسُ - يومَ تَخرُجونَ مِن قُبورِكم أحياءً يومَ القيامةِ. فتوجيهُ الخطاب إليهم بصيغةِ الإضافةِ إلى ضمائرِهم تذكيرٌ لهم بهذا اليومِ، وذلكمُ الحدَثِ وهو ما لا يؤدّيه لفظُ المرجع مُستقلًّا عنِ الإضافة.

بَلاغةُ التَّوكيدِ بـ﴿جَمِيعًاۖ﴾:

قولُه تعالى: ﴿جَمِيعًاۖ﴾ حالٌ مِنْ ضَميرِ المُخاطَبينَ المُضافِ إليه

(1) عباس حسن، النحو الوافي: 3/236.

(2) إيهاب سلامة، قرينة السِّياق ودورها في التقعيد النحويّ والتوجيه الإعرابيّ في كتاب سيبويه، ص: 339.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/12، ويُنظر: 1/214.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/126.

المَصْدَرُ العامِلُ فيهِ[1] فإنّه حالٌ مِنَ الضَّميرِ المجرورِ لكونه فاعلًا في المعنى؛ أي: إليه رجوعُكم مُجتمِعين، والجملةُ كالتَّعليل لوجوب العبادةِ[2]، وقد ذُكرت ﴿جَمِيعًا﴾ لبيان عموم مَنْ يُعيدُهم سُبحانه، فسيعود إليه البَرُّ والفاجرُ والمطيعُ والعاصي والمُفسِدُ والمصلحُ[3] وفيه توكيدٌ لمدلول القصْر، واختصاصِ الرُّجوع إليه لا إلى غيره.

اخـتـصـاصُ الـرُّجـوعِ إلى الـلـه، فلا يُستثنَى أحدٌ منَ العودة إليه

فائدةُ التَّعبيرِ بالمفعولِ المُطلَق ﴿وَعۡدَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ مَنْصوبٌ على مَعْنَى: وعَدَكُمُ اللّه وعْدًا؛ لِأنَّ قوله: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ معناه: الوعْدُ بِالرُّجوعِ، فعلى هذا التَّقْديرِ يكونُ قوله: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ مَصْدَرًا مُؤَكِّدًا لقوله: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾، وقوله: ﴿حَقًّا﴾ مَصْدَرًا مُؤَكِّدًا لقوله: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾؛ فهذه التَّأْكيداتُ قدِ اجْتَمَعَتْ في هذا الحُكْمِ، إذْ لَمَا أخْبَرَ ﷻ عنْ وُقوعِ الحَشْرِ والنَّشْرِ، ذكرَ بعده ما يدُلُّ على كونِهِ في نَفْسِهِ مُمكِنَ الوُجودِ ثُمَّ ذكرَ بعده ما يدُلُّ على وُقوعِهِ[4].

توكيدُ الرُّجوعِ إلى الله، وهو مضمونُ الجملةِ المساويةِ للوَعْدِ

وانْتَصَبَ ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ على المَفْعوليَّةِ المُطْلَقَةِ تَوْكيدًا لِمَضْمونِ الجُمْلَةِ المُساويَةِ له ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعًا﴾، ويُسمَّى موكّدًا لِنفسِهِ في اصْطِلاحِ النُّحاةِ؛ لِأنَّ مَضْمونَ ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ الوَعْدُ بِإرْجاعِهِم إليه، وهو مُفادُ وعْدِ اللّه، ويُقَدَّرُ له عامِلٌ مَحْذوفٌ؛ لِأنَّ الجُمْلَةَ المُؤَكِّدَةَ لا تَصلُحُ لِلْعَمَلِ فيهِ[5]، وحاصلُ التَّقْديرُ: وعَدَكُمُ اللّه وعْدًا حَقًّا.

عِلّةُ تعريفِ الوعْدِ بالإضافةِ إلى لفظِ الجلالة:

لمّا ذكرَ ما يَقتَضي التَّذكيرَ، وهو كونُ مَرجِعِ الجميعِ إليه ﷻ، أكَّد

البعثُ وعْدٌ منه تعالى لا مِرْيَةَ فيه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/90.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/119.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3514.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/204.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/90 - 91.

هذا الإخبارَ بالإضافة إلى اسمه الأعظم؛ للدَّلالةِ بأنَّ البعثَ وعْدٌ مِنهُ تَعالى لا مِريةَ فيه، ولا شكَّ في صِدقِه[1]، فالوعدُ منه صادقٌ، عظيمُ الشّأن، بالغُ الأهميَّة؛ فناسبَ الإضافةَ والإظهارَ.

فائدةُ التَّوكيدِ بالمصدرِ الصَّريحِ ﴿حَقًّا﴾:

عِظَمُ يومِ البعثِ، والقولُ بإنكارِه مَظنّةُ حشْدِ التَّوكيداتِ

وانْتُصِبَ ﴿حَقًّا﴾ على المَفعوليَّةِ المُطْلَقةِ المُؤكِّدةِ لِمَضمونِ جُملةِ ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾؛ باعْتِبارِ الفِعلِ المَحذوفِ. ويُسمَّى في اصْطِلاحِ النُّحاةِ مُؤكِّدًا لِغيرِه، أيْ: مُؤكِّدًا لِأحَدِ مَعْنَيَيْنِ تَحتَمِلُهما الجُملةُ المُؤكَّدةُ[2]، فهو مصدرٌ آخرُ مؤكِّدٌ لما دلَّ عليه الأوّل[3]، أيْ: وعَدَ اللّه ذلك وعْدًا وحَقَّقَهُ حَقًّا صِدقًا لا خُلْفَ فيهِ، ولا مِرْيةَ، ولا شكَّ[4].

دَلالةُ جملةِ الاستئنافِ ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾:

التَّعليلُ بالاستئنافِ في بدْءِ الخلْقِ وإعادتِه غايةٌ لجزاءِ المكلَّفين على أعمالِهم

واستأنَفَ الإخبارَ بقَولِه جلَّ في علاه: ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾، وهو استئنافٌ مَعناه التَّعليلُ بابتِداءِ الخَلْقِ وإعادَتِه، أي: كالتَّعليلِ لِما أفادَه ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ وأنَّ الغرَضَ ومُقتَضى الحِكمةِ بذلك هو جَزاءُ المكلَّفينَ على أعمالِهم[5]، فإنَّ غايةَ البَدْءِ والإعادةِ هو الجزاءُ بما يليقُ[6].

تَوجيهُ التَّوكيدِ بـ(إنَّ):

ناسبَ التّوكيدَ شدّةُ إنكارِهمُ البعثَ

ومَوْقِعُ (إنَّ) تَأكيدُ الخَبَرِ نَظَرًا إلى إنْكارِهِمُ البَعْثَ، فَحَصَلَ التَّأْكيدُ مِنْ قولِه: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾. أما كونُهُ بَدَأَ الخَلْقَ فلا يُنْكِرونَهُ[7].

عِلةُ التَّعبيرِ عنِ البَدْءِ والإعادةِ بالمضارعِ:

التَّصويرُ بالمضارعِ شأنُ البَدءِ والإعادةِ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بَيانٌ لِمُتَعَلِّقِ الوعْدِ

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/64.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/91.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/119.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/308.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/12.
(6) الكشّاف، الزّمخشريّ: 2/328، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/64.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/91.

المُؤكَّدِ مَرَّتَيْنِ بِدَليلِه، أيْ: إنَّ شأْنَهُ تعالى أنْ يَبْدَأ الخلْقَ ويُنْشِئَهُ عند التَّكْوينِ، ثُمَّ يُعيدَهُ في نَشْأةٍ أُخْرى بعد انْحِلالِهِ وفنائِه، فالتَّعْبيرُ بِفِعْلِ المُسْتَقبَلِ ﴿يَبۡدَؤُاْ﴾ لِتَصْويرِ الشَّأْنِ، وهو يشْمَلُ الماضيَ والمُسْتَقبَلَ[1].

وقولُه: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ استئنافٌ عُلِّلَ به وجوبُ المرجعِ إليه ﷻ؛ فإنّ غايةَ البدءِ والإعادةِ هو جزاءُ المكلّفين بأعمالِهم حسنةً كانت أو سيئةً[2].

دَلالةُ تعريفِ الخلْقِ:

إفـادةُ مُقتضَى العُمومِ إذِ استغرقَ لفظُ الخلْقِ المخلوقاتِ كافَّةً

سيقَ لفظُ ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾ على مُقتضَى العُمومِ؛ عمومِ الأنواعِ: تقديرًا وإيجادًا، وعمومِ آحادٍ، فيستغرقُ المخلوقاتِ المعلوماتِ في الأزلِ كافّةً، والموجوداتِ في الشَّهادة.

إيثارُ لفظِ الخَلْقِ:

لَفظُ الخَلْقِ عامٌّ يُرادُ بِهِ الخاصُّ وهو مَن يَحيا بعْدَ موتِه

أُطلقَ المصدرُ هنا بمعنى: اسم المفعول؛ لأنَّ الخَلْقَ هنا بمعنى: المخلوق؛ إذِ اللهُ هو الَّذي يبدأُ إيجادَ الخلقِ ثم يعيدُه بعد الموت، فيوجدُه حيًّا كهيئتِه الأولى[3]، والخَلْقُ أصلُه مصدرٌ، فلم يُجمَع، ومعناه: الجمعُ، فلذلك وحَّدَ الضَّمير بعدَه[4].

ولفظُ الخَلْقِ عامٌّ يُرادُ بِهِ الخاصُّ أوَّلًا وبالذات، بِدليلِ ما قَبْلَهُ وما بَعْدَهُ مِنَ السِّياقِ، وقد أجمعَ عُلَماءُ الكوْنِ المادِّيُّونَ مِنْهُم والرُّوحيُّونَ على أنَّ الأرْضَ وجَميعَ الأجْرامِ السَّماويَّةِ، ما يُرَى مِنْها بِالأبْصارِ والآلاتِ المُقَرِّبَةِ لِلْأبْعادِ وما لا يُرَى، كُلُّها قد وُجِدَتْ بَعْدَ أنْ لم تَكُنْ. وإنْ كانوا لا يَزالونَ يَبْحَثونَ في نَشْأةِ تَكْوينِها والقوَّةِ الأزَليَّةِ المُتَصَرِّفَةِ في أصْلِ مادَّتِها، كما أنَّهُم مُتَّفِقونَ على تَوَقُّعِ خَرابِ هذه الأرْضِ والكواكِبِ المُرْتَبِطَةِ معها في هذا النِّظامِ الشَّمسيِّ الجامِعِ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/244.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/119.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/163.
(4) النّسفيّ، التّيسير في التَّفسير: 8/16.

لَها، على أنَّ أقْرَبَ الأَسْبابِ الموافِقَةِ لِأُصولِ العِلْمِ الثابِتَةِ أنْ تُصيبَ الأرْضَ قارِعَةٌ مِنَ الأجْرامِ السَّماوِيَّةِ فَتَبُسُّها بَسًّا، حَتَّى تَكونَ هَباءً مُنْبَثًّا، كَما تُشيرُ إليه سورَةُ القارِعَةِ والواقِعَةِ وغَيْرُهُما[1].

استُغنيَ بالمذْكورِ اقْتِصادًا، وللدّلالةِ عليه

بَلاغةُ الإضمارِ في: ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾:

في هذه الآيَةِ إضْمارٌ، كأنَّهُ قيلَ: إنَّهُ يَبْدَأُ الخَلْقَ لِيَأْمُرَهُم بالعِبادَةِ، ثُمَّ يُميتُهُم ثُمَّ يُعيدُهُم، كما قال في سورَةِ البَقَرَةِ: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾ [البَقَرَة: 28] إلا أنَّه تعالى حَذَفَ ذِكْرَ الأمرِ بالعِبادَةِ هاهُنا، لِأجْلِ أنَّهُ تَعالى قال قَبْلَ هذه الآيَةِ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾؛ فحَذَفَ ذِكْرَ الإماتَةِ؛ لِأنَّ ذِكْرَ الإعادَةِ يَدُلُّ عَلَيْها[2].

مناسبةُ الدّلالةِ على التَّراخي الزَّمنيِّ في إعادةِ الخلْقِ بعد إفنائِه

وجهُ العطْفِ بـ﴿ثُمَّ﴾:

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، أي: يوجِدُه حيًّا كهيئتِه يومَ ابتدأه، بعد فنائه وبَلائه[3]، فالإعادةُ ليست بدءَ الخلق فقط بل بعد بدئِه، وإهلاكِه؛ إذ معنى الإعادة وجودٌ ثانٍ لما وُجدَ أوّلًا بعد فنائه، فتدلُّ الإعادةُ على الإفناء، والإهلاكِ اقتضاءً؛ إذ هو اللّازمُ المُتقدّمُ لها[4]، فناسبَ ذلك اصطفاءَ الحرف الدّالِّ على التّراخي الزّمنيّ، لا الفورِ والآنِ.

في استدعاءِ الطِّباقِ ردٌّ على المُنْكِرين البعثَ

بَلاغةُ الطِّباقِ بين البدْءِ والإعادةِ:

إنَّ بين البَّدءِ والإعادةِ طِباقَ إيجابٍ؛ فيكونُ البدءُ، وتكونُ الإعادة؛ بل هي الأهونُ عليه زيادةً في كمال الفعل والتَّباعدِ في أصله، كما ورد في سياقٍ آخرَ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧﴾ [الرّوم: 27][5]. وفي الطِّباقِ ردٌّ على المُشرِكينَ الّذين

---

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/244.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/205.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/20.
(4) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 9/391.
(5) السَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 357.

أنكَروا البَعثَ، حيث احتجَّ اللّه عليهم بالنَّشأةِ الأولَى؛ بأنَّ القادِرَ على ابتداءِ الخَلقِ قادِرٌ على إعادتِه، والّذي يرى ابتداءَه بالخَلقِ، ثمَّ يُنكِرُ إعادتَه للخَلق، فهو فاقِدُ العَقلِ مُنكِرٌ لأحَدِ المِثْلَين، مع إثباتِ ما هو أَوْلى منه، فهذا دليلٌ عَقليٌّ واضحٌ على المَعادِ[1].

دَلالةُ اللّامِ في ﴿لِيَجۡزِيَ﴾:

تعليلُ الرُّجوعِ إلى الله المَلِكِ فوعدُه ثابتٌ لا يَتبدَّلُ

أفادتِ اللّامُ في ﴿لِيَجۡزِيَ﴾ التَّعليلَ، أي: تعليلَ الرُّجوعِ إلى اللّه المَلِكِ الحقِّ والإعادةِ بعد البدءِ، وفي التَّعليلِ بيانُ الغايةِ والمآبِ، وتحقيقُ وعدِ اللّه تعالى الحقِّ الثّابت الّذي لا يتغيَّر ولا يتبدَّل، وقد ذكرَ الإيمانَ والأعمالَ الصّالحةَ، كشأن بيانِ اللّه تعالى عند ذِكر الثَّوابِ، ولم يذكرْ ﷻ الجنَّةَ والنَّعيمَ المقيم، ولكنْ ذَكَر ما يتضمَّنها وزيادةً؛ فقال اللّه تعالى: ﴿بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ أي: الجزاء بالقسط، فهو عدلٌ منَ اللّه تعالى، وعدلُه وفضلُه يوجِبان الجنّةَ وما فيها[2]، وهذا تَعْليلٌ لِلْإعادَةِ، أيْ يُعيدُهُ لِأجلِ جَزائِهِم[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الإشـــارةُ إلى عُمومِ المؤمنين

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صيغةُ عموم، فيدخلُ تحتَها جميعُ المؤمنين، أي: كلُّ مؤمنٍ منَ المؤمنين الّذين يعملون الصّالحاتِ[4] وكلُّ مَنِ اتَّصف بالإيمان بعد الكُفر على الإطلاق من أيِّ طائفةٍ كان، وفي أيِّ وقتٍ كان[5].

بَلاغةُ التَّعبيرِ بالماضي: ﴿ءَامَنُواْ﴾ عنِ المؤمنين:

تحقيقُ وقوعِ جزائِهم، وتعجيلُ البِشارةِ لهم

جاء التَّعبير بصيغة الماضي لتحقيقِ الوقوع، وتعجيلِ البِشارة[6]، أي: لجعْلِ المتوقَّعِ الّذي لابدّ من وقوعه بمنزلةِ الواقعِ[7].

(1) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 11/122.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3514.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/245.
(4) المقدّم، تفسير القرآن الكريم: 4/112.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/190.
(6) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/548.
(7) القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 2/96.

نُكتةُ تقديمِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

قُدِّمَ أهلُ الإيمان لتأنيسِهم وإكرامِهم بأنَّ جَزاءَهم قدِ استحَقّوه بما عَمِلوا، وليتبيَّنَ ما يقعُ بالكافرينَ مِنَ العذابِ الأليم، ففَصَلَهم منَ المُؤمنينَ؛ ليُبَيِّنَ ما يَجزيهم به ممّا هو عدلٌ غيرُ جَورٍ[1]، فالإيمانُ سبيلُ عملِ الصّالحات، وعلّةٌ أصيلةٌ في تحقّقِها، والحاصلُ: أنَّ تقديمَ الإيمانِ على الأعمالِ وإفرادَه تشريفٌ[2]، وتبجيلٌ، وتوقيرٌ.

ويشيرُ أيضًا إلى أنَّ جَزاءَهُم قَدِ اسْتَحَقُّوهُ بِما عَمِلوا، كقوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢﴾ [النَّحل: 32]. ومِنْ أعظمِ الكَرَمِ أنْ يوهِمَ الكَريمُ أنَّ ما تفضَّلَ بِهِ على المُكَرَّمِ هو حَقُّهُ وأنْ لا فَضْلَ له فيه[3].

التَّشريفُ لهم، فالإيمانُ سبيلُ عملِ الصّالحات، وعِلَّةٌ أصيلةٌ في تحقُّقِها

أعْظَمُ الكَرَمِ أنْ يوهِمَ الكَريمُ أنَّ ما تَفَضَّلَ بِهِ على المُكَرَّمِ هوَ حَقُّهُ وأنْ لا فَضْلَ له فيهِ

وَجهُ تخصيصِ المؤمنين بـ﴿بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾:

يمكنُ تفسيرُ وجهِ تخصيصِ المؤمنين بالقسط:

بأنَّ القِسْطَ إذا كان مُفَسَّرًا بالعَدْلِ، فالعَدْلُ هو الَّذي يكونُ لا زائدًا ولا ناقصًا، وذلك يَقْتَضي أنَّهُ تَعالى لا يَزيدُهُم على ما يَسْتحِقُّونَهُ بأعْمالِهِم، ولا يُعْطيهِم شَيْئًا على سَبيلِ التَّفَضُّلِ ابْتِداءً، والجَوابُ على هذا أنَّ الثَّوابَ أيْضًا مَحْضُ التَّفَضُّلِ. وأيْضًا فَبِتَقْديرِ أنْ يُساعِدَ على حُصولِ الاسْتِحْقاقِ، إلا أنَّ لَفْظَ القِسْطِ يَدُلُّ على تَوْفِيَةِ الأجْرِ، فَأما المَنْعُ مِنَ الزِّيادَةِ فَلَفْظُ (القِسْطَ) لا يَدُلُّ عَلَيْهِ[4]. أمّا تَخْصيصُ المُؤْمِنينَ بذلك فيَدُلُّ على مَزيدِ العِنايَةِ في حَقِّهِم، وعلى كونِهِم مَخْصوصينَ بِمَزيدِ هذا الاحْتياطِ[5].

أفْرِدَ المؤمنين بالقِسْطِ لمَزيدِ العِنايةِ في حَقِّهم، وليُبيِّنَ ما يقعُ للكافرِ مِنَ العذابِ

فإنْ قيل: لِمَ أفرَدَ المؤمنين بالقِسْطِ دونَ غيرهم وهو يَجزي

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/92.
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 1/65.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/92.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/206.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/206.

الكافرَ أيضًا بالقسط؟ قال ابنُ الأنباريِّ: لو جمع اللَّه الصِّنفين بالقسط لم يتبيّنْ ما يقعُ بالكافرين منَ العذاب الأليم، ففصلَهم من المؤمنين ليُبيِّنَ ما يَجزيهم به مما هو عدلٌ غيرُ جَورٍ، فلهذا خَصَّ المؤمنين بالقسط، وأفردَ الكافرين بخبرٍ يرجعُ إلى تأويلِه بزيادةٍ في الإبانةِ والفائدةِ[1].

إيثارُ لفظِ القِسطِ دونَ العَدْلِ:

تعظيمُ جَزاءِ المؤمنين أصحابِ الصّالحاتِ الباقياتِ، وأنَّه مُماثِلٌ لِصَلاحِ أعمالِهم

القسطُ تَسْوِيَةٌ بَيْنَ شَيْئَيْنِ في صِفَةٍ، ويكونُ الجَزاءُ بما يُساوي المُجْزَى عليه، فَتُفيدُ الباءُ أنَّهُم يُجْزَوْنَ بما يُعادِلُ أعمالَهُمُ الصالِحَةَ، فيكونُ جَزاؤُهُم صَلاحًا هنالك وهو غايَةُ النَّعيم، وأنَّ ذلك الجَزاءَ مُكافَأَةٌ على قِسْطِهِم في أعمالِهِم في عَدْلِهِم فيها؛ بِأَنْ عَمِلوا ما يُساوي الصَّلاحَ المَقْصودَ مِنْ نِظامِ هذا العالَمِ[2].

والإجْمالُ هُنا بَيْنَ مَعْنَيَيِ الباءِ مُفيدٌ لِتَعْظيمِ شَأْنِ جَزاءِ الَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصالِحاتِ مع الإشارَةِ إلى أنَّهُ جَزاءٌ مُماثِلٌ لِصَلاحِ أعْمالِهِم[3].

دَلالةُ الواوِ في ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

استئنافٌ لبيانِ جزاءِ الكافرين محلِّ تشوُّفِ السّامعِ

الواو: استئنافيةٌ؛ فجُملَةُ: والَّذين كَفَروا إلى آخِرِها اسْتِئْنافٌ بَيانيٌّ؛ لِأنَّهُ لَما ورَدَ ذِكْرُ جَزاءِ المُؤْمِنينَ على أنَّهُ العِلَّةُ لِرُجوعِ الجَميعِ إليه، ولَم يُذْكَرْ في العِلَّةِ ما هو جَزاءُ الجَميعِ، لا جَرَمَ يَتَشَوَّفُ السامِعُ إلى مَعْرِفَةِ جَزاءِ الكافِرينَ، فَجاءَ الاسْتِئْنافُ لِلْإعْلامِ بذلك[4].

دَلالةُ الاستئنافِ الابتدائيِّ بالجملةِ الاسميّةِ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

جزاءُ المؤمنين محلُّ عِنايةٍ، وجزاءُ الكافرين محلُّ إعراضٍ

نُكْتَةُ تَغْييرِ الأُسْلوبِ حَيْثُ لم يُعْطَفْ جَزاءُ الكافِرينَ على جزاءِ المُؤْمِنينَ، فَيُقالُ: (وَيَجْزِيَ الَّذينَ كَفَروا بِعَذابٍ.. إلَخْ) كما في قوله:

---

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/8.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/92.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/92.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/93.

﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الكهف: 2]، هو الإشارَةُ إلى الاهْتِمامِ بِجَزاءِ المُؤْمِنينَ الصالِحينَ وأنَّهُ الَّذي يُبادِرُ بالإعْلامِ به، وأنَّ جَزاءَ الكافِرينَ جَديرٌ بالإعْراضِ عَنْ ذِكْرِهِ لَوْلا سُؤالُ السّامعين[1].

تأكيدُ شدّةِ العقابِ بالجملة الاسميّةِ المؤكّدةِ للحميمِ:

لازَموا صفةَ الكفرِ حتى أذاقتْهُمُ المصيرَ المُهلِكَ بالشَّرابِ الحميمِ

عبَّر بالجملة الاسميّةِ المؤكّدة: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لدلالتِها على الثُّبوت، والاستمرار؛ لأنَّ الجملةَ الاسميّةَ تدلُّ على أنها صفةٌ ملازمةٌ للمُتَّصِفِ بها[2]، وجاءت مؤكِّدةً لشدَّة العقابِ الحميم، وذمِّهم بملازمتِهم لهذه الصّفةِ، وعدمِ فكاكِهم عنها، حتى أوردتْهُمُ المهالكَ، وأذاقتْهُم الشّرابَ الحميمَ.

عِلّةُ التّعبيرِ بالموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

وُصِفوا بالكُفرِ لأنّهم لازَموا الكُفرَ فعلًا

التَّعبيرُ بالموصول يُشعرُ بأنَّ الصّلةَ سببُ الحكم، فهؤلاء حُكمَ عليهم بالعذاب، لأنَّهم كفروا، ومتى تحقّقَ السَّببُ، تحقّقَ الحكمُ بلا فرقٍ بين قبيلٍ وقبيلٍ، وأنَّ عذابَ الكفّار دائمٌ، وآلامَه مستمِرَّةٌ[3]، وإنَّ اللّه ﷻ إذْ قد حكم بذلك، وهو أنَّ الّذين كفروا لهم شرابٌ من حميم وعذابٌ أليمٌ، فقد أشارَ إلى أنَّ السببَ في ذلك كُفرُهم؛ لأنَّ التَّعبيرَ بالموصول يُشيرُ إلى أنَّ سببَ هذا الحُكم هو الكفرُ[4].

تَوجيهُ الرَّفعِ بالابتداءِ، والنَّصبِ على العطفِ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

يومَ البعثِ يَجزي تعالى كلَّ فريقٍ بما عمِلَ

ابتدأ جلّ ثناؤه الخبرَ بما أعدَّ للّذين كفروا منَ العذاب، وفيه معنى العطفِ على الأوّل؛ لأنَّه تعالى ذِكْرُه عمَّ بالخبر عن مَعادِ جميعِهم - كُفّارِهم ومُؤمنيهم - إليه، ثم أخبر أنَّ إعادتَهم ليجزيَ كلَّ فريق بما عمل المحسنَ منهم بالإحسانِ، والمسيءَ بالإساءة، ولكنْ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/93.

(2) ابن العُثيمين، تفسير العُثيمين، الفاتحة والبقرة: 2/282.

(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1719.

(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1373.

لمّا كان قد تقدَّم الخبرُ المُستأنفُ عمّا أُعدّ للّذين كفروا منَ العذاب، ما يدلُّ سامعَ ذلك على المرادِ، ابتدأ الخبرَ، والمَعنِيُّ العطفُ، فقال: والّذين جحدوا اللّه ورسولَه وكذَّبوا بآيات اللّه ﴿لَهُمۡ شَرَابٞ﴾ في جهنم ﴿مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ وذلك شراب قد أُغلي واشتدّ حرُّه[1].

اللّامُ في: ﴿لَهُمۡ شَرَابٞ﴾:

تفيدُ اللّامُ في قوله جلّ في عُلاه: ﴿لَهُمۡ شَرَابٞ﴾، أنه أمرٌ مختصٌّ بهم، وليس لهم غيرُه[2] جزاء ملازمتِهم الكُفرَ، واتّصافِهم به، فاستحَقّوه بفِعلهم كما استحقّ المؤمنون أنواعَ النَّعيم المقيمِ في الجنّة بفعْلِهم.

نوعُ العذابِ هذا مختصٌّ بهم

التَّعبيرُ عنِ الحميم بصيغةِ (فَعيل):

الحميمُ: شرابٌ قد أُغليَ واشتدَّ حرُّه، حتى إنّه فيما ذُكرَ عنِ النّبيّ ﷺ لَيَتساقطُ من أحدهم حين يُدنيه منه فروةُ رأسه، وكما وصفَه جلّ ثناؤه: ﴿كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ﴾، وأصلُه مفعولٌ صُرِف إلى (فَعيل) بقصد المُبالغة[3]، والوصفُ به دليل كوْنِ الحميم صار صفةً ثابتةً لهذا العذابِ ملازمةً له حتى وُسِمَ به.

الوصفُ به للمبالغة ودليلٌ على كَوْنِ الحميمِ صفةً ثابتةً لهذا العذابِ

وَجهُ تخصيصِ كوْنِ الشَّراب منَ الحميم:

خُصَّ الشَّرابُ مِنَ الحَميم بِالذِّكْرِ مِنْ بَيْنِ أَنْواعِ العذابِ الأليم لِأنَّهُ أَكْرَهُ أَنْواعِ العذابِ في مَألوفِ النُّفوس[4]، فالنّفسُ تتأبّى الشّرابَ الحارَّ، وتألفُ الباردَ العذبَ؛ فكيف بالشّديدِ الحرارةِ، أوِ الذّائبِ الشَّديدِ الحَرِّ مِنَ النّار؟!

الحميمُ أكرهُ أنواعِ العذابِ للنُّفوس

بَلاغةُ عطْفِ العامّ على الخاصّ: ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

وقولُه: ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ من باب عطف العام على الخاصِّ، وكان بعضُهم يقول: إنّما أتى به كذلك؛ لأنَّ الشَّرابَ أمرٌ وجوديٌ

وردَ العمومُ بعد الخصوص إمعانًا في الذَّمِّ للكفّارِ ودفعًا لتوهُّمِ إرادةِ نوعِ عذابٍ واحدٍ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/22.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3515.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/22.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/93.

محسوسٌ، والعذابَ أمرٌ معنويٌ، والوجوديُّ لا يدخل تحت المعنويِّ، فهما مختلفان[1]، وأعمَّ العذابَ بعد تخصيصه، إمعانًا في الذّمّ، ودفعًا لتوهُّم الاقتصارِ على العذاب الأوَّل دونَ غيره.

بَراعةُ المقابلةِ بين جزاءِ الكافرين وجزاءِ المؤمنين:

اقتضتْ عدالةُ الله وتفضُّلُه أن يكونَ جزاءُ كلِّ امرئٍ بما عملَ

ذَكَر القِسطَ في جزاء الّذين آمنوا على أنَّه مقابلةٌ بين عملٍ صالحٍ قويمٍ مستقيمٍ وجزاءٍ عدلٍ قويمٍ، وذَكَر ما يستحقُّه المنحرفون من غير أن يذكر ما يدلّ على أنَّه جزاءٌ، وذلك للدّلالة على أنّ الجزاءَ مع عدله تفضلٌ منَ اللّه، وأنَّ الكافرين حُرموا هذا الفضلَ ونالهم ما يستحقّون، ولبيان أنَّ الرُّجوعَ إلى اللّه تعالى يقترنُ بالجزاء الَّذي هو عدلٌ، وأنَّ النّاس خُلقوا ليقوموا بالإصلاح، وأنَّ الإعادة ليُجازوا على هذا الإصلاح، أمّا المنحرفون المفسدون فإنَّهم ينالون ما يستحِقّون؛ بسبب انحرافِهم عنِ الفطرة الَّتي فُطِرَ عليها النّاسُ[2].

دَلالةُ الباءِ في: ﴿بِمَا﴾:

إفادةُ تعظيمِ جزاءِ الّذين كفروا

الباءُ سَبَبيّة، أي بِسَبَبِ كُفْرِهم، وقال أبو البقاء: "إنَّ الباء تتعلَّقُ بمحذوفٍ، أي: جوزوا بما كانوا"[3]، ومعناها هنا مفيدٌ لتعظيم جزاءِ الّذين كفروا مع الإشارةِ إلى أنّه جزاءٌ مماثلٌ لفسادِ أعمالِهم.

دَلالةُ (ما):

سببُ الجزاءِ الكُفرُ

(ما) مصدَريَّة؛ ومعناه: ويَجْزِيَ الَّذينَ كَفَروا بِسَبَبِ كُفْرِهم، وتَكْريرُ الإسْنادِ يَجْعَلُ الجُملَةَ الظَّرفيَّةَ خَبَرًا لِلْمَوْصولِ لِتَقْوِيَةِ الحُكْم[4].

عِلّةُ مجيءِ فعْلِ الكَوْن ماضيًا مجموعًا:

الدَّلالةُ على أنَّهم واظَبوا على الكُفْر بجَمعِهم وتَواصَوْا بالثَّباتِ عليه

عبَّر بفعل الكونِ الماضي المجموع؛ لِلدَّلالةِ على مواظَبَتِهم على الكُفْرِ جميعًا، وثباتِهم عليه، وتواصيهم على عدم التَّفصّي منه،

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/335.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3515.
(3) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 10/270.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/119.

وممارسةِ أنواع الاستهزاء والتهكُّم والسُّخرية بالمؤمنين، ولربطِ العقوبة بموجبها وجودًا وعدمًا؛ تفضُّلًا منه ﷻ.

سِرُّ الجمعِ بين الماضي، والمضارع في ﴿كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾:

المبالغةُ في استحقاقِهمُ العذابَ وأنَّه حقٌّ مقرَّرٌ لهم

الجمعُ بين صيغتَيِ الماضي والمضارع؛ للدّلالة على مُثابرتِهم على الكُفر، ومواصلتِهم على أدائه، وتغييرِ النّظم الكريمِ للمبالغةِ في استحْقاقِهمُ العقابَ بجعله حقًّا مُقرّرًا لهم[1].

إيثارُ لفظِ الكُفرِ على غيرِه:

الكفرُ يحجِبُ إبْصارَ الآياتِ

آثر البَيانُ القرآنيُّ الكُفرَ على غيره منَ المُصطلحات المقاربةِ له؛ لتمام تأديتِه المُسمَّى المقصودَ؛ على اعتبار أنّ الكُفرَ يحجبُ الفطرةَ، ويطمِسُ البصيرةَ عن آيات التَّقوَى والنّظرِ.

وَجهُ الإتيانِ بفعلِ الكُفرِ مضارعًا في فاصلةِ الآيةِ:

استمرَؤوا الكُفرَ واعْتادوه

جيء بفعل الكُفر مضارعًا دلالةً على استمرار ذلك في كلِّ زمان[2] ودوامِهم على الكفر، ومواظبتِهم عليه، واستمرائِهم إيّاه؛ جُحودًا، وإنكارًا، وعِنادًا.

سِرُّ تَكْرارِ فعلِ الكُفْر:

دوامُهم على الكُفرِ عِلّةُ تعذيبِهم

تكريرُ إسنادِ فعلِ الكُفْر لهم في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وفي قوله: ﴿يَكۡفُرُونَ﴾ يجعلُ الجملةَ الظَّرفيَّةَ خبرًا للموصولِ لتقويةِ الحُكم، وللجمعِ بين صيغتَيِ الكُفر ماضيًا ومستقبلًا؛ للدَّلالة على مواظبتِهم عليه، وإصرارِهم على رفض الاعتقادِ الحقّ، وكونِ دوامِهم على الكُفر عِلّةَ تعذيبِهم، واستحقاقِهم ذلك[3].

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

القِسْطُ والعدلُ:

القِسْطُ هو العدْل البيِّنُ الظاهِر، ومِنْه سُمِّي المِكْيالُ قسطًا والميزانُ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/64.
(2) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 10/270.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/120.

القِسْطُ والعدلُ لفظان يَتعاوَرانِ

قِسْطًا؛ لِأَنَّهُ يصوِّر لَك العدْل في الكَيل والوَزْن حَتَّى تراهُ ظاهِرًا، وقد يكونُ منَ العدْل ما يخفَى، ولِهَذا قُلْنا إِنَّ القِسْط هو النَّصيبُ الَّذي بُيّنت وجوهُه، وتَقَسَّطَ القَوْم الشَّيْءَ تقاسَموا بِالقِسْطِ[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 234.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٥﴾ [يونس: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بـعـدَ إقـرارِ الرُّبوبيَّةِ سردَ أدلَّتها العقليَّة

لَمّا قَرَّرَ اللّه تعالى ربوبيَّتَه وإلهيَّته؛ ذكَرَ الأدلَّةَ العقليَّةَ الأفقيَّةَ الدّالَّةَ على ذلك، وعلى كمالِه في أسمائِه وصِفاتِه؛ مِنَ الشَّمسِ والقمَرِ، والسَّماواتِ والأرضِ، وجميعِ ما خلَقَ فيهما من سائِرِ أصنافِ المَخلوقاتِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾: أصلُ القدرِ والتَّقديرِ: تَبْيينُ كمِّيَّةِ الشَّيءِ، يُقالُ: قَدَرْتُه وقدَّرْتُه، وقدَّرَه بالتَّشديدِ: أعطاهُ القُدْرَةَ، وقَدَرَ الشَّيءَ، أي: دَبَّرَه، وكلُّ ما يُدَبِّرُهُ اللّه ويحكُمُ به مِنَ الأُمورِ فهو قَدَرٌ[2]، والقَدَرُ: القضاءُ والحُكْمُ، يُقالُ: قَدَرَ اللّه الأمرَ، يَقْدُرُهُ، قدرًا، أي: قَضَى به وحكَمَ[3]. والمقصودُ بالتَّقديرِ في الآية: جعلُ الأشياء على مقاديرَ مخصوصةٍ[4].

2) ﴿مَنَازِلَ﴾: أصلُ (نَزَلَ): تَدُلُّ على هُبوطِ شَيْءٍ ووُقوعِه. يُقالُ: نَزَلَ عَنْ دابَّتِهِ نُزولًا، ونَزَلَ المَطَرُ مِنَ السَّماءِ نُزولًا. ومَكانٌ نَزِلٌ: يُنْزَلُ فيه كثيرًا، ووَجَدْتُ القَومَ على نَزَلاتِهِم، أي: مَنازِلِهِم[5]، والمنازِلُ: جَمعُ مَنْزِلٍ، وهي أماكنُ النُّزولِ[6]، والنُّزُلُ: ما يُهَيَّأُ لِلنَّزيلِ،

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 358، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/207، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/14.
(2) الرّاغب، المفردات: (قدر).
(3) الخليل، العين: (قدر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/94، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 11/109.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نزل).
(6) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/26.

ويُعَبِّرونَ عنِ الحَجِّ بالنُّزولِ، ونَزَلَ، إذا حَجَّ. والتَّنْزيلُ: تَرتيبُ الشَّيءِ ووَضعُهُ مَنْزِلَهُ. والمقصودُ بالمنازل في الآية: أماكنُ النُّزول، والمرادُ بها هنا المواقِعُ الَّتي يَظهَرُ القَمَرُ في جهتِها كُلَّ ليلةٍ مِنَ الشَّهرِ، وهي ثمانٌ وعِشرونَ منزلةً على عددِ ليالي الشَّهرِ القَمَريِّ[1].

3) ﴿وَٱلۡحِسَابَۚ﴾: أصلُ الحِساب: العَدُّ والإحْصاءُ، مَصدَرُ الفِعْلِ حَسَبَ، يُقال: حَسَبَ الشَّيءَ، يَحْسُبُه، حَسْبًا وحُسْبانًا وحِسابًا وحِسْبَةً وحِسابَةً، أي: عَدَّهُ[2]، والحَسَبُ: العدَدُ المَعْدودُ. والحَسَبُ والحَسْبُ: قدرُ الشَّيْءِ[3]، ويأتي الحِسابُ بمعنى المُناقَشَة، فيُقال: حاسَبَهُ مُحاسَبَةً، وحِسابًا: إذا ناقَشَهُ الحِسابَ وجازاه[4]. والمقصودُ بالحِساب في الآية: مصدَرُ حَسَبَ بمعنى عَدَّ، والمُرادُ به حِسابُ الأيّام والأشْهُرِ[5].

المَعنى الإجْماليُّ:

أدلَّةُ قُدرَة الله وعَظَمةِ صِفاتِه، والحكمةُ في خلْقِ الشَّمسِ والقمرِ وتقديرِ منازلِهما

يُخبر الحقُّ تعالى أنَّه هو الَّذي صيَّرَ الشَّمسَ مُضيئةً في النَّهارِ، وصيَّرَ القَمَرَ مُنيرًا في اللَّيلِ، وقدَّر وقضى مَسيرَ القَمَرِ في منازِلَ، يَنْزِلُ في كلِّ يوم وليلةٍ مَنزِلًا منها في مسافةٍ يقطعُها، وهيَّأ ذلك في كلِّ شَهرٍ؛ لِتَعرِفوا - أيُّها النّاسُ - عدَدَ السَّنواتِ، وتَعرِفوا حسابَ اللَّيالي والشُّهورِ، فتَنتَفِعوا بذلك في أمورِ دينِكم ودُنياكم، لم يخلُقِ اللهُ الشَّمسَ ولا القَمَرَ ومَنازِلَه، إلّا لحكمةٍ عظيمةٍ تدلُّ على وَحدانيَّته وعظمةِ صِفاتِه، فلم يخلُقْ ذلك عَبَثًا وباطِلًا، يُبيِّنُ اللهُ الحُجَجَ والأدلَّةَ الباهِرةَ لقومٍ يَعلَمونَ - إذا تدبَّروها - وَحدانيَّةَ اللهِ تعالى وقُدرَتَه، وآثارَ إحسانِه، ويستدِلّونَ بها على شُؤونِ مُبدِعِها سُبحانه وصِفاتِه[6].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/95.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسب).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حسب).
(4) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط: 1/171.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/96.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 12/119، والواحديّ، التَّفسير البسيط: 11/126، وابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/106، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/310، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/248.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الفصْلِ بالاستئنافِ الابتدائيِّ:

الاســـتـــدلالُ بانْفِرادِهِ تعالى بِـالـتَّـصَـرُّفِ في الخَـلْـقِ، ومِنَّتِه عليهم

يَحدُّ الجُملةَ اسْتِئْنافٌ ابْتِدائيٌّ، فضَميرُ (هو) عائِدٌ إلى اسْمِ الجلالَةِ في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ [يونس: 3]. وهذا اسْتِدْلالٌ آخَرُ على انْفِرادِهِ تعالى بِالتَّصَرُّفِ في المَخْلوقاتِ، وهذا لَوْنٌ آخَرُ مِنَ الاسْتِدْلالِ على الإلَهيَّةِ مَمزوجٌ بالامتِنانِ على المَحْجوجينَ بهِ؛ لأنَّ الدَّليلَ السابِقَ كان مُتَضَمِّنًا لِعَظيمِ أمرِ الخَلْقِ وسَعَةِ العِلْمِ والقُدْرَةِ بِذِكْرِ أشْياءَ لَيْسَ لِلْمُخاطَبينَ حَظٌّ في التَّمَتُّعِ بِها. وهذا الدَّليلُ قد تَضَمَّنَ أشْياءَ يَأْخُذُ المُخاطَبونَ بِحَظٍّ عَظيمٍ مِنَ التَّمَتُّعِ بها، وهو خَلْقُ الشَّمسِ والقَمَرِ على صورَتِهما، وتَقْديرُ تَنَقُّلاتِهما تَقْديرًا مضبوطًا، ألْهَمَ اللهُ البَشَرَ لِلانْتِفاعِ به في شُؤونٍ كثيرةٍ مِنْ شُؤونِ حَياتِهم(1).

عِلّةُ إيثارِ الضَّميرِ ﴿هُوَ﴾ مُقدّمًا:

اخـتِـصـاصُـه تـعـالى بـتـدبـيرِ الـخـلْـقِ الـدّالِّ على رُبوبيّتِه

ضَميرُ الغَيْبَةِ الواقِعُ في أوَّلِ الجُملَةِ ﴿هُوَ﴾ عائِدٌ إلى اسْمِ الجلالَةِ في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ للدَّلالةِ على انْفِرادِهِ تَعالى بِالتَّصَرُّفِ في المَخْلوقاتِ، واخْتِصاصِه بذلك، وهذا لَوْنٌ آخرُ مِنَ الاسْتِدْلالِ على الإلَهيَّةِ مَمزوجٌ بِالامتِنانِ على المَحْجوجينَ بِهِ(2).

نُكتةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾:

الإيـمـاءُ إلى أنَّ القرآنَ كلامُ الله المُنَزَّلُ منه

التَّعْبيرُ عنِ الذاتِ العَلِيَّةِ بِطريقِ الموصولِ دونَ الاسْمِ العَلَمِ؛ لِلتَّنْبيهِ على ما تُفيدُهُ صِلَةُ المَوْصولِ مِنَ الإيماءِ(3) إلى أنّ القرآنَ الكريم كلامُ اللهِ، وأنّه صادرٌ عن خالقِ الكونِ بما فيه الشَّمسُ والقمرُ على سبيلِ القطعِ، بَلْهَ التَّنْبيهِ على الاسْتِدْلالِ على وُجودِهِ تعالى ووَحْدَتِهِ وعِلْمِهِ وقُدْرتِه وحِكْمَتِهِ بِآثارِ صُنْعِهِ في النَّيِّرَيْنِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/93 - 94.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/93.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/10.

بَعْدَ التَّنْبيهِ على الاسْتِدْلالِ بِما مَرَّ مِن إبْداعِ السَّماواتِ والأرْضِ والاسْتِواءِ على العَرْشِ وغَيْرِ ذلك[1].

تَوجيهُ إيثارِ لفظِ الجَعْلِ دونَ غيرِه:

الجَعْلُ لفظٌ عامٌّ في الأفعالِ يُقدَّر عندَه كلُّ معنى من معاني الصُّنعِ

آثَرَ لفظَ ﴿جَعَلَ﴾ على اعتبارِ مُسمَّى الخلْقِ والإبداعِ، ولكونِه لفظًا عامًّا في الأفعال يُقدَّر عنده كلُّ معنى من معاني الصُّنعِ، وإيجادِ الشَّيءِ من الشَّيءِ، والتَّبديلِ، والاعتقادِ، والظَّنِّ، والشُّروعِ في الشَّيء.

وحيثما اجتمعَ الخَلْقُ والجَعْل، تقدَّم الأوّلُ على الثّاني؛ لأنَّ الخلق إيجادٌ، والجَعلَ شيءٌ من شيء؛ فهو منَ الخلْق، لذلك بدأ بقوله سبحانه ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، وجاء بعدها ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ على تقْديرِ مُضاف: أيْ: جَعَلَ الشَّمسَ ذاتَ ضياءٍ والقمَرَ ذا نورٍ إلّا أنْ يُحمَلَ على المُبالَغَة، وكأنَّهُما جُعِلا نَفْسَ الضّياءِ والنّور؛ على معنى: بعد خلْقِ الشَّمس والقمر، جعلَهما المولى ﷻ ضياءً ونورًا، أو كأنَّهُما جُعِلا نَفْسَ الضِّياءِ والنُّور[2].

دَلالةُ الحالَيْن: ﴿ضِيَآءٗ﴾، و﴿نُورٗا﴾:

الإشـارةُ إلى حكمة الله وإبداعِه فيما خَلَقَ وقدَّرَ

الضِّياءُ، والنّورُ حالانِ مُشيرانِ إلى الحِكْمَةِ، والنِّعْمَةِ في خَلْقِهما[3]، وكلٌّ منهما سِيق لوصْفِ أفعالِ اللّه، وقُدرَتِه، وحكمتِه فيما خلَقَ وأبدعَ.

سِرُّ نسبة الضِّياء إلى الشَّمس، والنّور إلى القمر:

الضّياءُ المُختَصُّ بالشَّمسِ أكملُ وأقوى منَ النّورِ المُختَصِّ بالقمرِ فناسبتِ الحاجةُ إلى الانتفاعِ بكلٍّ منهما

جَعْلُ الشَّمس ضياءً لانْتِفاعِ الناسِ بِضيائِها في مُشاهَدةِ ما تهمُّهُم مُشاهَدتُهُ بما به قِوامُ أعْمالِ حياتِهِم في أوْقاتِ أشْغالِهِم. وجَعْلُ القَمَرِ نورًا لِلانْتِفاعِ بنورِهِ انْتِفاعًا مُناسِبًا لِلحاجَةِ الَّتي قد تَعرِضُ إلى طَلَبِ رُؤْيَةِ الأشْياءِ في وقْتِ الظُّلْمَةِ وهو اللَّيْلُ. ولذلك

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/120.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/483.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/94.

جُعِلَ نورُه أضْعَفَ ليُنْتَفعَ بِهِ بِقدرِ ضَرورَةِ المُنْتَفِعِ، فَمَنْ لم يُضْطَرَّ إلى الانْتِفاعِ به لا يَشْعُرُ بنورِه ولا يَصْرِفُهُ ذلك عَنْ سُكونِهِ الَّذي جُعِلَ ظَلامُ اللَّيْلِ لِحُصولِه، ولَوْ جُعِلَتِ الشَّمسُ دائِمَةَ الظُّهورِ للناسِ لاسْتَوَوْا في اسْتِدامَةِ الانْتِفاعِ بِضيائِها، فَيَشْغَلُهُم ذلك عنِ السُّكونِ الَّذي يَسْتَجِدونَ به ما فَتَرَ مِنْ قواهُمُ العَصَبيَّةِ الَّتي بها نَشاطُهُم وكمالُ حياتِهِم[1].

وعليه: فقد خُصَّتِ الشَّمسُ بالضِّياء لأنّها أقوى وأكملُ منَ النّور، وخُصَّ القمرُ بالنّور، لأنّه أضعفُ منَ الضّياء، ولأنَّهما إذا تساويا لم يُعرفِ اللّيلُ منَ النَّهار، فدلَّ ذلك على أنَّ الضّياء المُختصَّ بالشَّمس أكملُ وأقوَى منَ النّور المُختَصِّ بالقمر[2].

وَجْهُ مُبايَنةِ الضِّياءِ، عنِ النّورِ:

ضياءُ الشَّمسِ نورٌ، ونورُ القَمَرِ لَيْسَ بِضياءٍ

الضِّياءُ: النُّورُ الساطِعُ القَوِيُّ، لِأَنَّهُ يُضيءُ لِلرائي، وهو اسْمٌ مُشْتَقٌّ مِنَ الضَّوْءِ، وهو النُّورُ الَّذي يوضِّحُ الأشْياءَ، فالضِّياءُ أقْوى مِنَ الضَّوْءِ، أمّا النّور فهو الشُّعاعُ، وهو مُشْتَقٌّ مِن اسْمِ النارِ، وهو أعَمُّ مِنَ الضِّياءِ، يَصْدُقُ على الشُّعاعِ الضَّعيفِ والشُّعاعِ القَوِيِّ، فَضياءُ الشَّمس نورٌ، ونورُ القَمَرِ لَيْسَ بِضياءٍ. هذا هو الأصْلُ في إطْلاقِ هذه الأسْماءِ، ولَكِنْ يَكْثُرُ في كلامِ العَرَبِ إطْلاقُ بعضِ هذه الكلماتِ في مَوْضِعِ بَعْضٍ آخَرَ بِحَيْثُ يَعْسُرُ انْضِباطُهُ. ولَما جُعِلَ النُّورُ في مُقابَلَةِ الضِّياءِ تَعَيَّنَ أنَّ المُرادَ بِهِ نورٌ ما[3].

التَّعبيرُ عنِ التَّقديرِ بالماضي المُضَعَّفِ:

التَّقديرُ مُستقرٌّ ثابتٌ دونَ تخلُّفٍ

قولُه تعالى: ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾، أيْ: قَدَّرَ له، يعني: هَيَّأ له مَنازِلَ لا يُجاوِزُها ولا يَقْصُرُ دونَها[4]، وفي سَوْقِ الماضي والتَّضعيف دَلالةٌ على

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/94.

(2) الجمل، حاشية على الجلالين: 2/334.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/94.

(4) البَغويّ، معالم التّنزيل: 4/121.

الاستقرار والثَّباتِ دون تخلُّفٍ؛ لأنَّ ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ ظَرْفٌ مُسْتَقِرٌّ، أيْ: تَقْدِيرًا على حَسَبِ المَنازِلِ، فالنّورُ في كُلِّ مَنزِلَةٍ له قدرٌ غَيْرُ قدرِهِ الَّذي في مَنزِلَةٍ أُخْرى. وإمّا عائِدٌ إلى القَمَرِ عَلى تَقْديرِ مُضافٍ، أيْ: وقَدَّرَ سَيْرَهُ، فَتَكونُ ﴿مَنَازِلَ﴾ مَنصوبةً على الظَّرْفيَّةِ[1].

إيثارُ الضَّميرِ على الاسْمِ الظّاهرِ في ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾:

الاكتفاءُ بالضَّميرِ إيجازًا ولصَلاحِ تعدُّدِ التَّقديرِ فيه

آثر البيانُ القرآنيُّ الضَّميرَ على الاسم الظّاهر؛ للإيجاز ولصلاحية التَّقديرِ المُتعدد. وتَقْديرُ المَنازِلِ يَنْصَرِفُ إليهما غَيْرَ أنَّهُ اكْتَفَى بِذِكْرِ أحدِهما، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: 62]. وقيلَ: هو يَنْصَرِفُ إلى القمر بخاصّة؛ لأنَّ بالقمر يُعرفُ انْقِضاءُ الشُّهورِ والسِّنينَ لا بِالشَّمس[2].

نكتة حذف الجارّ في ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾:

الحذفُ لإضفاءِ معنَى التّهيئةِ والتّيسيرِ

قولُه ﷻ: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾، أي: قدّر له، فحذف الجارَّ، والمعنى: هيَّأ ويسّر له منازلَ[3] لا يُجاوِزُها ولا يَقْصُرُ دونَها، ولم يَقُلْ: قَدَّرَهُما ليَنْصَرِفَ إليهما.

وَجْهُ إعادةِ الضّميرِ على النّورِ، أوِ القمرِ دونَ الشَّمسِ:

منازلُ القمرِ تُعلمُ بالفصول ويُدركُها كلُّ أحدٍ ببصَرِه

الضَّميرُ المَنْصوبُ في ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾: إما عائِدٌ إلى النُّورِ فَتَكونُ المَنازِلُ بمعنى المَراتِب، وهي مَراتِبُ نورِ القَمَرِ في القوَّةِ والضَّعْفِ، التابعةُ لِما يَظْهَرُ لِلناسِ نَيِّرًا مِنْ كُرَةِ القَمَرِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩﴾ [يس: 39]، أيْ: حَتَّى نَقُصَ نورُهُ لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ، فَعادَ كالعُرْجونِ البالي. ويكونُ ﴿مَنَازِلَ﴾ في مَوْضِعِ الحالِ مِنَ الضَّميرِ المَنْصوبِ في ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ فهو ظَرْفٌ مُسْتَقِرٌّ، أيْ تَقْديرًا على حَسَبِ المَنازِلِ، فالنُّورُ في كُلِّ مَنْزِلَةٍ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/95.

(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/410.

(3) الواحديّ، التَّفسير الوسيط: 2/539.

له قدرٌ غَيْرُ قدرِهِ الَّذي في مَنْزِلَةٍ أُخْرَى. وإما أن يكون الضَّميرُ المَنْصوبُ في ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ عائِدًا إلى (القمَرِ) عَلَى تَقْدير مُضافٍ، أيْ: وقدَّرَ سَيْرَهُ، فَتكونُ ﴿مَنَازِلَ﴾ مَنْصوبةً على الظَّرْفيَّة[1].

فإعادةُ الضَّمير على القمر وحدَه من إطلاق المفردِ على الاثنين. وعادتُهم يقولون: إنَّما خُصَّ التَّقديرُ بالقمر دونَ الشَّمس؛ فإنَّ منازلها تُعلمُ بالفصول علمًا ضروريًّا ظاهرًا، لأنَّ سيرَه في المنازل ظاهرٌ معلومٌ يدركُه كلُّ أحد ببصرِه[2] ويُلمحُ في وجود الضَّمير الإيجازُ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التَّوبة: 62][3].

بيانُ التَّعبيرِ بالمنازل لفظًا، وهيئةً:

إيثـارُ المـنـازل اعْتِبارًا بحُلول القَمَرِ كُلَّ لَيْلَةٍ في سَمتِ مَنْزِلَةٍ

هذه المَنازِلُ أماراتُها أَنْجُمٌ مُجْتَمِعَةٌ على شَكْلٍ لا يَخْتَلِفُ، فوَضَعَ العُلَماءُ السابِقونَ لَها أسْماءً، والعَربُ يَبْتَدِئونَ ذِكْرَها بِالشَّرَطانِ وهكذا، وذلك بِاعْتِبارِ حُلولِ القمَرِ كُلَّ لَيْلَةٍ في سَمتِ مَنْزِلَةٍ مِنْ هذه المَنازِلِ، فَأَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ لَيالي الهِلالِ لَلشَّرَطانِ وهكذا.

وهذه أَسْماؤُها في العَرَبيَّةِ على تَرْتيبِها في الطُّلوعِ عند الفَجْرِ مُرتَّبةً على حَسَبِ تَقْسيمِها على فُصولِ السَّنَةِ الشَّمسيَّةِ، وهي: العَواءُ، السِّماكُ الأَعْزَلُ، الغَفْرُ، الزُّبانَى، الإِكْليلُ، القَلْبُ، الشَّوْلَةُ، النَّعائِمُ، البَلْدَةُ، سَعْدُ الذابِحِ، سَعْدُ بُلَعٍ، سَعْدُ السُّعودِ، سَعْدُ الأَخْبِيَةِ، الفَرْغُ الأَعْلَى، الفَرْغُ الأَسْفَلُ، الحوتُ، الشَّرَطانُ، البُطَيْنُ، الثُّرَيا، الدَّبَرانُ، الهَقْعَةُ، الهَنْعَةُ، ذِراعُ الأسد، النَّشرة، الطَّرْفُ، الجَبْهَةُ، الزُّبْرَةُ، الصَّرْفَةُ[4].

وهذه المنازل مُنقسمةٌ على البُروجِ الاثْنَيْ عَشَرَ الَّتي تَحلُّ فيها الشَّمسُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/95.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/336.
(3) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/26.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/95.

في فُصولِ السَّنَةِ، فَلِكُلِّ بُرْجٍ مِنَ الاثْنَيْ عَشَرَ بُرْجًا مَنْزِلَتانِ وثُلُثٌ، وهذا ضابِطٌ لِمَعْرِفَةِ نُجومِها ولا عَلاقَةَ له بِاعْتِبارِها منازِلَ لِلْقَمَرِ(1).

بَلاغةُ المَجازِ في لفظِ (المنازل):

وَجْهُ المَجازِ فيها مشابهةُ المنازلِ كأنَّ القمرَ ينزلُ بها

إطْلاقُ اسْمِ المَنازِلِ عليها مَجازٌ بِالمُشابَهَةِ، وإنَّما هي سُموتٌ يَلوحُ لِلناسِ القَمَرُ كُلَّ لَيْلَةٍ في سَمتٍ مِنْها، كَأنَّهُ يَنْزِلُ بها.

وقد رَصَدَها البَشَرُ فَوَجَدوها لا تَخْتَلِفُ، وعَلِمَ المُهْتَدونَ مِنْهُم أنَّها ما وُجِدَتْ على ذلك النِّظامِ إلا بِصُنْعِ الخالِقِ الحَكيمِ(2).

دَلالةُ اللّامِ في ﴿لِتَعۡلَمُواْ﴾:

قَدَّرَ المنازلَ لنعلمَ دخولَ الأوقاتِ وانْقضاءَها

معنى اللّامِ في قوله ﷻ: ﴿لِتَعۡلَمُواْ﴾ التَّعليلُ، أيْ: قَدَّرَ تعالى في علاه المَنازِلَ؛ لِنَعْلَمَ عددَ السِّنينَ: دُخولَها، وانْقِضاءَها(3).

بَلاغةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ عنِ العلمِ:

الحثُّ على التَّعلُّمِ على الدَّوامِ واستفراغُ الجُهدِ فيه

العِلْمُ في كلامِ العَرَبِ إدْراكُ الأَشْياءِ على ما هي عليه. والَّذينَ يَعْلَمونَ هُمُ الَّذينَ انْتَفَعوا بِدَلائِلِ الآياتِ، وهُمُ الَّذينَ آمَنوا بِاللَّه وحْدَهُ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٩٩﴾ [الأنعام: 99](4)، والتّعبيرُ بالمضارعِ المُقدَّمِ بلامِ التّعليلِ حثٌّ على استمرارِ التّعلُّمِ، واستفراغِ الجُهدِ في الإفادةِ من هذا الجَعْلِ على الدّوامِ، من خلالِ العلْمِ بتقديراتِه.

دَلالةُ فاعلِ العلْمِ (واو) الجماعةِ:

حثَّ تعالى على أنْ يتعلَّمَ الجميعُ

ضَميرُ ﴿لِتَعۡلَمُواْ﴾ عائِدٌ إلى المَفْعولِ المَحْذوفِ المُقَدَّرِ؛ لِأنَّ المُقَدَّرَ كالمَذْكورِ(5) ودلالةُ ضميرِ الرَّفعِ ههنا الحثُّ على تعلُّمِ الجميعِ، فالعلْمُ تحصينٌ ومجنَبَةٌ للوقوعِ في الخطأ.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/95.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/95.
(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/411.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/395.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/288.

تأكيدُ مدلولِ السِّنين وتَكثيرُ عددِها

إضافةُ العددِ إلى السِّنين:

ذِكْرُ لَفْظِ العَدَدِ مع السِّنين تَأْكيدٌ لِبَعْضِ مَدْلولِها[1]، والعددُ: مُسْتَعْمَلٌ في الكَثْرَةِ، أيْ: سِنينَ ذاتَ عددٍ كَثيرٍ، ونَظيرُهُ ما في حَديث بَدْءِ الوَحيِ مِن قَوْلِ عائِشَةَ: «فكانَ يَخْرُجُ إلى غارِ حِراءَ فَيَتَحَنَّثُ فيهِ اللَّيالِيَ ذَواتِ العَدَدِ»[2]، تُريدُ الكَثيرَةَ، وقد أُجْمِلَ العَدَدُ هُنا تَبَعًا لِإجْمالِ القِصَّةِ[3].

قـدّمَ الـعـددَ؛ لأنّـه مبنَى الحسابِ

سِرُّ تقديمِ العددِ:

قدَّم العددَ؛ لأنَّه هو المتقدِّمُ في الوضعِ؛ فوضعُ العددِ هو الأوّلُ، والأساسُ الَّذي يقعُ عليه الحسابُ، ويُبنى عليه الاحتسابُ بعد ذلك[4].

اشتمالُ السِّنينَ على كلِّ ما دونَها مِنَ الظُّروفِ الزَّمنيَّةِ

إيثارُ لفظِ السِّنين على غيرِه من ظروفِ الزَّمانِ:

يريد السِّنينَ والشّهورَ والأسابيعَ والأيّامَ، فاقتصر على ذكر السِّنينَ لاشتمالها عليها كلِّها[5]، أيْ: مِن غَيْرِ حاجَةٍ إلى حِسابٍ؛ لِأنَّ النَّيِّرَيْنِ يَدُلّانِ على تَحَوُّلِ الحَوْلِ بِمُجَرَّدِ تَنَقُّلِهِما[6].

التَّنبيهُ على الحكمةِ مِنَ الجَعْلِ ليُستدلَّ على أنّ الخالقَ فاعلٌ مختارٌ حكيمٌ

دَلالةُ الاستئنافِ في جملةِ ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾:

جُمْلَةُ ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ مُسْتَأْنَفَةٌ كالنَّتيجَةِ لِلْجُمْلَةِ السابِقَةِ كُلِّها؛ لِأنَّهُ لَمّا أخْبَرَ تعالى بِأنَّهُ هو الَّذي جَعَلَ الشَّمس ضياءً والقَمَرَ نورًا، وذَكَرَ حِكْمَةَ بَعْضِ ذلك، أفْضَى إلى الغَرَضِ مِنْ ذِكْرِهِ؛ وهو التَّنْبيهُ إلى ما فيها مِنَ الحِكْمَةِ لِيَسْتَدِلَّ بذلك على أنَّ خالِقَهُما فاعِلٌ مُخْتارٌ حَكيمٌ لِيَسْتَفيقَ المُشْرِكونَ مِنْ غَفْلَتِهِم عنْ تلك الحِكَم، كما قال تعالى في هذه السُّورَةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾[7].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/131.
(2) البخاريّ، الجامع الصّحيح، الحديث رقم: (3) واللّفظ له، ومسلم، الجامع الصّحيح، الحديث رقم: (160).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/268.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/336.
(5) الكِرمانيّ، غرائب التَّفسير وعجائب التّأويل: 1/474.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/385.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/96.

تَوجيهُ الفَصْل بـ ﴿مَا﴾ النّافيةِ:

النَّفْيُ بـ (ما) آكَدُ وهو يدلُّ على استمرارِ النَّفْي

بيانُ وجْهِ الفصْلِ في أنَّهُ تعالى لَمّا قَرَّرَ هذه الدَّلائلَ خَتَمَها بقوله: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾، معناهُ أنَّهُ تعالى خَلَقَ ذلك الخلْقَ والتّقديرَ على وَفْقِ الحِكْمَةِ ومُطابَقَةِ المَصْلَحَة.

والنَّفْيُ بـ(ما) آكدُ من (لم)، وهي في الغالب لنفْيِ الماضي القريبِ منَ الحال، وقد تفيدُ استمرار النَّفي كما في الآية هنا، فخلقُ اللّه الشّمسَ، والقمرَ وتقديرَه منازلَ حقٌّ على الدّوام، لا يُقيّده زمنٌ أو حين، فضلًا عنِ الدِّلالة على أنَّ دخول (ما) على الماضي يدلّ على أنَّ الأمر قدِ انقضى، وتمّ، وتحقّق، وهذا المعنى مُرادٌ في الآية.

وَجْهُ التّعبيرِ عن فعلِ الخلْقِ بصيغةِ الماضي:

الخلْقُ بموجوداتِه السّماويةِ والأرضيّةِ مُتحقِّقُ الوقوعِ

وعبّر عن فعل الخلْقِ ماضيًا؛ للدّلالةِ على وقوع الخلْقِ بموجوداته وأجرامِه السّماويةِ شمسًا، وقمرًا وسماءً، ومخلوقاتِه الأرضيَّةِ أرضًا، وجبالًا وسهولًا وبحارًا وأنهارًا وتحقُّقه.

إظهارُ الفاعلِ (لفظِ الجلالة):

الاسمُ الكريمُ يَتَضَمَّنُ جميعَ صِفاتِ الكمالِ واللهُ تعالى لا يُسألُ عمّا يفْعلُ

ووَقَعَ إظهارُ اسْمِ الجَلالَةِ في مَقامِ الإضْمارِ؛ لِأَنَّ اسْمَ الجَلالَة يومِئ إلى مَقامِ الإطْلاقِ؛ وهوَ مقامُ ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ﴾ [الأنبياء: 23]، ويومِئ إلى أَنَّ ذَلِكَ جَرَى على حَسَبِ الحِكْمَةِ؛ لأَنَّ اسْمَ الجَلالَةِ يَتَضَمَّنُ جَميعَ صِفاتِ الكَمالِ[1].

وَجهُ التَّعبيرِ باسْمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

ردَّ الله تعالى ما ذَكرَ إلى الخَلْقِ والتَّقديرِ

اسمُ الإشارة في قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾، يعود إلى المذكور من جعْلِ الشَّمسِ ضياءً والقمرِ نورًا وتقديره: ﴿مَنَازِلَ﴾[2]، ورَدَّ اللّه تعالى كلَّ ما ذَكرَ إلى الخَلْقِ والتَّقدير، ولَوْ رَدَّهُ إلى الأَعْيانِ المَذْكورَةِ لَقال: (تلك)[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8 - أ/7.
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/27.
(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 4/122.

دَلالةُ الباءِ في ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾:

تدلُّ الباء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ على الملابسة، أي: ما خلق اللّه ذلك الَّذي ذكره لكم إلّا خَلقًا مُلتبسًا بالحقِّ، ومُقترنًا بالحكمة البالغةِ الَّتي تقتضيها مصالحُكم[1].

الخلْقُ مقترنٌ بالحكمةِ، مُلتَبِسٌ بالحقّ

سِرُّ تعريفِ ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾:

الحقُّ هو الشّيءُ الثّابتُ الّذي لا يتغيّرُ، وتعريفُه ها هنا يدلُّ على التَّخصيص والتَّعيين لمسألة تناولَتْها هذه الآيةُ القرآنيَّة، والحقُّ هُنا مُقابِلٌ لِلْباطِلِ. فهو بمعنى الحِكْمَةِ والفائدَةِ؛ لِأنَّ الباطِل من إطلاقاتِها أنْ يُطلَقَ على العَبَثِ وانْتِفاءِ الحِكْمَةِ، فكذلك الحَقُّ يُطْلَقُ على مُقابِلِ ذلك. وفي هذا رَدٌّ على المُشْرِكِينَ الَّذينَ لم يَهْتَدوا لما في ذلك مِنَ الحِكْمَةِ الدالَّةِ على الوَحْدانيَّةِ وأنَّ الخالِقَ لَها لَيْسَ آلِهَتَهُم[2]؛ فالمرادُ بالحقّ هنا خلافُ الباطلِ والعبثِ[3].

تخصيصُ الحقِّ يُرادُ بهِ خلافُ الباطلِ والعَبثِ

بَلاغةُ الاستثناءِ المفرّغ:

قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾، أي: ما ذُكرَ مِنَ الشَّمس والقمر على ما حكى سُبحانه منَ الأحوال إلا بِالحَقِّ، استثناءً من أعمِّ أحوالِ الفاعلِ والمفعول، أي: ما خلق ذلك مُلتبسًا بشيءٍ مِنَ الأشياء إلا ملتبِسًا بالحقِّ مُراعيًا فيه الحكمة والمصلحة[4]، والقصرُ بـ(النّفي والاستثناء)؛ لغاية تمكينِ الكلامِ وتقريرِه في الذّهن، والمبالغةِ في المعنى[5].

القَصْرُ لتمكينِ الكلامِ وتقريرِه في الذّهن

بَلاغةُ الجملةِ الاستئنافيّةِ الابتدائيّةِ ﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ؛ لبيان

بيانُ خلْقِ اللهِ في الآياتِ التّكوينيّةِ أوِ التّنزيليّةِ المنبّهةِ على الحكمةِ في إبداعِ الكائناتِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/96.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/96.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/68.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/68.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/209.

خلْقِ اللّه تعالى، على معنى: يُفَصِّلُ اللّه الآياتِ: أي: الآياتِ التَّكوينيّةَ المذكورةَ، أو الأعمَّ منها، ويدخل المذكورُ دخولًا أوليًّا، أو نفصّلُ الآياتِ التَّنزيليّةَ المنبّهةَ على الحكمة في إبداع الكائناتِ؛ فيستدلّون بذلك على شؤون مُبدعِها ﷻ، أو يعلمون ما في تضاعيفِ الآياتِ المُنزَّلة؛ فيؤمنون بها(1).

وَجهُ التَّعبيرِ عنِ التّفصيلِ بالمضارعِ المشدَّدِ:

الاستمرارُ في إحداثِ الآياتِ بعضِها عَقيبَ بعضٍ

عبّرَ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يُفَصِّلُ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾؛ لإفادَةِ التَّكْرارِ(2) والاستمرارِ على تفصيل الآيات وبيانِها بإحداثِ بعضِها عَقيبَ بعضٍ على سبيل التَّمييزِ والتَّفصيلِ(3).

بَلاغةُ الالتفاتِ في قراءةِ ﴿نُفَصِّلُ﴾:

العُدولُ إلى صيغةِ التَّعظيمِ في الالتفاتِ لِيُناسِبَ سياقَ عِظَمِ الحَدَثِ

في قوله تعالى: ﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ على قِراءَةِ غيرِ ابن كثير، والبصريّين وحفصٍ عن عاصم ﴿نُفَصِّلُ﴾ بنون العظمة، في ضَميرِ صاحبِ الحالِ التِفاتٌ(4) من حيث الانتقالُ من حالٍ إلى حالٍ، وقراءةِ ابن كثير، والبصريّين وحفص" ﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ بالياء فهو إخبارٌ عن فعل اللّه، ومَنْ قرَأ بالنّون فهو فعلُه ﷻ"(5)، فلمّا كان الكلامُ على مظاهر قدرته، وبديعِ صَنعته في جَعْلِ الشَّمس والقمر، واتّباعِ الآيات الدّالّةِ على ذلك عَدَلَ إلى صيغة التَّعظيم بنون العظمة: ﴿نُفَصِّلُ﴾ المناسبِ لسياق عِظَمِ الحَدَث.

دَلالةُ تعريفِ الآيات، وجمعِها جمعَ مؤنّثٍ سالمًا:

استغراقُ جميعِ الآياتِ المنزَّلة وتعدُّدها وتنوُّعها

التَّعْريفُ في الآياتِ تَعْريفُ الجِنْسِ وجاء لِلاسْتِغْراقِ، والمُرادُ بِالآياتِ القُرْآنُ فَإنَّ ما يَقَعُ فيهِ إجْمالٌ مِنْها يُبَيَّنُ بِآياتٍ أُخْرى(6)،

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3518.
(2) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/282، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/96.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 18/527.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/97.
(5) الأزهريّ، معاني القراءات: 2/39.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/97.

وجَمعُ الآياتِ هُنا مُراعًى فيهِ تَعَدُّدُها وتَعَدُّدُ أنْواعِها، وفي بَلاغَةِ نَظْمِها وفَصاحَتِها مِنَ الإعْجازِ ما هو دَليلٌ على أنَّ هذا الكلامَ مِنْ صُنْعِ اللّه ألْقاهُ إلى رَسولِهِ ﷺ مُعْجِزَةً له على قَوْمِهِ أهْلِ الفَصاحَةِ والبَلاغَةِ[1].

معنَى اللّامِ في لفظةِ ﴿لِقَوۡمِ﴾:

خصّصَ الآياتِ بالقومِ الّذين يعلمون

اللامُ في قوله ﴿لِقَوۡمِ يَعۡلَمُونَ﴾ معناه شِبْهُ التَّمليك؛ وهو معنى أثْبَتَهُ صاحِبُ (مُغْني اللَّبيبِ)، ويَظْهَرُ أنَّهُ واسِطَةٌ بَيْنَ معنَى التَّمليكِ ومعنَى التَّعْليلِ. ومَثَّلَهُ في (المُغْني) [2] بقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ [النَّحْل: 72] وذُكِرَ في المعنَى العِشْرينَ من مَعاني اللام أنَّ ابْنَ مالِكٍ في كافيَتِه سمّاهُ لامَ التَّعْديَةِ؛ ولَعَلَّهُ يُريدُ تَعْديَةً خاصَّةً، ومَثَّلَهُ بقوله تعالى: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥﴾ [مريم: 5][3]. فالآياتُ مخصّصةٌ لقومٍ يستدلّون بالأَمارات على قدرتِه[4].

دَلالةُ تنكيرِ القومِ، وتنوينِها:

تَعظيمُ الله العِلمَ وأهلَه والاتِّصافَ به

تنكيرُ ﴿لِقَوۡمِ﴾ إمّا تعظيمًا لوصفِ العِلْم، أو ليفيدَ عمومَ تعلُّقِ العلمِ بكلِّ منِ اتصف بصفاتهم؛ لأنَّ تعليق الحُكم على الوصفِ المناسبِ في النَّكرة يفيدُ قوّةَ الشّعور بما به ذلك الوصْفُ للحكم أكثرَ من إفادته له في المعرفة[5]، والنّون عِوضٌ من تنوين المُفرد.

إيثارُ لفظِ القوم على غيرِه:

الإيماءُ إلى أنَّ وصْفَ العلمِ سَجيَّةٌ في هؤلاء القومِ

ذُكر لفظُ ﴿لِقَوۡمِ يَعۡلَمُونَ﴾ دونَ أنْ يُقالَ: (لِلّذين يَعلَمون أوْ لِلْعالَمينَ)؛ لأنَّ إجْراءَ الوصْفِ على لَفْظِ ﴿لِقَوۡمِ﴾ يومِئُ إلى أنَّ ذلك الوصْفَ سَجيَّةٌ فيهم، ومِنْ مُكَمِّلاتِ قَوْميَّتِهم، فَإنَّ لِلْقَبائِلِ والأُمَمِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/218 - 219.
(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 375.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/72.
(4) ابن الجوزيّ، زاد المَسير: 2/318.
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/69.

خَصائِصَ تُمَيِّزُها وتَشْتَهِرُ بها كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ۝٥٦﴾ [التّوبة: 56]، وقد تَكَرَّرَ هذا في مواضِعَ كثيرةٍ مِنَ القُرْآنِ ومِنْ كلامِ العَرَبِ، فالمعنَى أنَّ في ذلك آياتٍ لِلَّذين سَجِيَّتُهُمُ العِلْمُ(1).

سِرُّ الختامِ بلفظِ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

العــلـمـاءُ هـمُ المـنـتـفـعـون بالأدِلَّةِ والبَراهين

وَجُعِلَ التَّفْصِيلُ لِأَجْلِ ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾؛ لأَنَّ العُلَماءَ أَهْلَ العُقولِ الراجِحَةِ هُم أَهْلُ الانْتِفاعِ بِالأَدِلَّةِ والبَراهينِ(2) المُستنبَطون منها الأحكامَ والقوانينَ.

دَلالةُ صيغةِ المضارعيّةِ في ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

رُسوخُ العلْمِ في تجدُّدِه، وتَكرارِه

الإتيانُ بالفِعلِ المُضارِعِ لإفادةِ التّكرارِ وتجدُّدِ العِلمِ؛ وإنّما يتجدّدُ لِمَن هو ديدنُهُ ودأبُهُ، فأورد هذا الوصفُ لأهله على سبيلِ التّجدُّدِ والاستِمرارِ؛ ولمّا كانت لهُمُ المعرِفةُ التّامّةُ والنّظرُ الثّاقِبُ في منازِلِ القمرِ عُدّت مِن الجليِّ(3).

بلاغةُ التّعريضِ في جملةِ الفاصلةِ:

غـيرُ المنتفِعين بِتفصيلِ الآياتِ ليسوا مِن الّذين يعلمون

إنّ ذِكر لفظِ (قوم) إيماء إلى أنّهُم رسخ فيهم وصفُ العِلمِ، فكان مِن مُقوِّماتِ قوميّتِهِم. وفي هذا تعريض بِأنّ الذين لم ينتفعوا بِتفصيلِ الآياتِ ليسوا مِن الذين يعلمون، ولا مِمّن رسخ فيهِمُ العلمُ(4).

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الضِّياءُ والنّورُ:

يـتردَّد الـضِّـيـاءُ والــنّــورُ، مع وجــودِ الـقـدرِ المـــشــتَرَك، باعتبارِ الذّاتيَّة واللُّزوميَّة

إنَّ الضّياءَ ما يتخلَّلُ الهواءَ من أجزاءِ النّورِ فيبْيَضُّ بذلك، والشّاهدُ أنّهم يقولون: ضياءُ النَّهار، ولا يقولون: نورُ النَّهارِ إلا أن

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/89.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/97.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/76، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/97.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/97.

يَعنوا الشَّمسَ؛ فالنّورُ الجملةُ الَّتي يَتشعَّبُ منها، والضَّوءُ مصدرُ ضاء يَضوء ضوءٌ. يُقال: ضاء وأضاء، أي: ضاء هو وأضاءَ غَيرَهُ[1].

وقد يُفرَّقُ بينهما بأنَّ الضَّوءَ: ما كان من ذاتِ الشَّيءِ المُضيء، والنّورُ: ما كان مُستَفادًا من غيره[2] وعليه جرى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾، ويذكرُ الرّاغبُ بأنَّ النّورَ هو الضَّوءُ المنتشرُ الَّذي يُعينُ على الإبصار[3].

ويرى الزمخشريُّ أنَّ النّور ضوءُ النَّهار وضوء كلِّ شيء، وهو نقيض الظُّلمة، والضّياءُ إفراطُ الإنارة، فالنّورُ عنده زيادةٌ في الضّياء. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ ويُقدّرُ بأنّ الضّياء هنا مُثبَتٌ، وأنّ النّورَ مَنفيٌّ[4].

كما أنَّ الضَّوء يُستعملُ في مجال التَّأثير في الغَيْر، في حين أنّ النّور عامٌّ؛ سواء كان نورُ الشَّيء ذاتيًّا أو عَرَضيًّا منَ الغير، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾، وفيه إشارةٌ للفرقِ بين الضّياء والنّور (الشَّمسُ مضيئةٌ، والقمرُ اكتسب نورَه منَ الشَّمس)، وكذلك يؤيّدُ هذا قولُه سُبحانه: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: 17]، يعني: أثرَ تلك النّار بواسطةٍ وبدون واسطةٍ أذهبتْها الرّيح، ولم يبقَ منهم أثرٌ[5].

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 332.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 332.

(3) الراغب، المفردات: (نور).

(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/157.

(5) التّهانويّ، كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 2/1110.

﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ٦﴾ [يونس: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الاسْتِدلالُ على توحيدِ اللهِ بالمنافعِ الحاصلةِ مِنِ اختلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ

لَمّا أشارَ ﷻ إلى الاستدلالِ على فناء العالَم بتغيُّرِه، وإلى القُدْرة على البعثِ بإيجادِ كلٍّ من المَلَوَيْن (اللَّيلِ والنَّهارِ) بعد إعدامِه، وفيما خَلَقَ اللّه من أحوال السَّحاب والأمطارِ، وما يحدثُ مِنَ الخسْفِ والزَّلازلِ والمعادن والنَّبات والحيواناتِ وغيرِ ذلك من أحوالٍ لا يحيطُ البشرُ بإحصائها؛ قال: ﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[1]، وقال الرّازيّ: "اعلم أنَّه تعالى استدلَّ على التَّوحيد والإلهيّات أوَّلًا: بتخليق السَّماوات والأرض، وثانيًا: بأحوال الشَّمس والقمرِ، وثالثًا: في هذه الآيةِ بالمنافع الحاصلةِ من اختلافِ اللَّيل والنَّهارِ"[2].

المَعنى الإجماليُّ:

مِن دلائلِ قُدرةِ اللهِ الخالقِ المُبدِعِ وعظَمَتِه

إنَّ في تعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وخَلْفِ أحدِهما الآخَرَ، وفي كلِّ ما خلقَ اللّه في السَّماواتِ والأرضِ لَأدلَّةً واضحةً على خالِقها، وعلى ثُبوتِ المَعادِ إليه يومَ القيامةِ، لقوم يتَّقونَ غَضَبَ اللّه وعِقابَه، فيَصرِفونَ العبادَةَ له وحْدَه لا شَريكَ له، ويَمتَثِلونَ أوامِرَه، ويَجتَنِبونَ نواهيَه، لا يحمِلُهم هواهُم على خِلافِ ما وضَحَ لهم من الحَقِّ.

وتشيرُ الآيةُ إلى أنَّ التَّقوى لا تقومُ في كيان إنسانٍ إلّا ومعها العِلْمُ؛ ذلك أنَّه إذا نظر النّاظرُ إلى هذا الوجود بعَين العالم، وبأجهزة العِلْم، رأى في اختلاف اللَّيل والنَّهار، وفي تعاقبهما لمحةً مُشرقةً من لمحاتِ حكمةِ اللّه، وقُدرتِه وعِلمِه[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/76.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/210.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/120، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/484، والقاسميّ، محاسن التّنزيل: 6/7، والخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/961.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الفَصْلِ في الآيةِ:

شمِلتِ الآيةُ ما هو أعمُّ ممّا خُلقَ في السَّماواتِ والأرضِ

الآيَةُ، آيَةُ اعْتِبارٍ وتَنْبيهٍ؛ ففيها اسْتِدلالٌ بأحْوالِ الضَّوْءِ والظُّلْمَةِ وتَعاقُبِ اللَّيْلِ والنَّهارِ على انْفِرادِ اللّه تَعالى بِالخَلْقِ والتَّقْديرِ، واستشهادٌ بما هو أعَمُّ مِنَ الدَّليلِ الأوَّلِ من عَطْفِ قولِه: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لِشُمولِه ما هو أكْثَرُ مِن خَلْقِ الشَّمس والقَمَر، ومِن خَلْقِ اللَّيلِ والنَّهارِ، ومِن كُلِّ ما في الأرْضِ والسَّماءِ مِمّا تَبْلُغُ إليه مَعْرِفَةُ النّاس في مُخْتَلَفِ العُصورِ وعلى تفاوُتِ مقاديرِ الاسْتِدْلالِ مِن عُقولهم، وفي ذلك عِبرةٌ عظيمةٌ[1].

بَلاغةُ التَّوكيدِ بـ ﴿إِنَّ﴾ في المطلَعِ:

إنكارُ الآياتِ مَظنَّةِ التَّوكيدِ

تَأْكيدُ هذا الاسْتِدْلالِ بِحَرْفِ ﴿إِنَّ﴾ لِأجْلِ تَنْزيلِ المُخاطَبينَ به الَّذينَ لم يَهْتَدوا بتلك الدَّلائِلِ إلى التَّوحيدِ مَنزلَةَ مَن يُنْكِرُ أنَّ في ذلك آياتٍ على الوَحْدانيَّةِ بِعَدَمِ جَرْيِهِم على موجَبِ العِلْمِ[2].

دَلالةُ صيغةِ الافتعالِ: ﴿ٱخۡتِلَٰفِ﴾:

الاخْتِلافُ ذَهابُ كُلٍّ مِنَ اللّيلِ والنَّهارِ في غَيْرِ جِهَةِ الآخَرِ

لَفْظَةُ (الاخْتِلافِ) (افتعال) تَعُمُّ تعاقُبَ اللَيْلِ والنَّهارِ وكَوْنَهُما خَلْفَهُ وما يَتَعاوَرانِهِ مِنَ الزّيادَةِ والنَّقْصِ، وغَيْرِ ذلك مِن لَواحِقِ سَيْرِ الشَّمس وبِحَسَبِ أقْطارِ الأرْضِ[3]، ففيها المبالغةُ والاجتهادُ في طلب الفعل، والمشاركةِ فيه؛ فالاخْتِلافُ: ذَهابُ كُلٍّ مِنَ الشَّيْئَيْنِ في غَيْرِ جِهَةِ الآخَرِ، فاخْتِلافُ المَلَوَيْنِ: ذَهابُ هذا في جِهَةِ الضِّياءِ وذاك في جِهَةِ الظَّلامِ[4].

الاخْتِلافُ التَّفاوتُ في الطّولِ والقِصَرِ

ولِلاخْتِلافِ مَعْنًى آخَرُ هو مُرادٌ أيْضًا وهو تَفاوُتُهُما في الطّولِ والقِصَرِ، فَمَرَّةً يَعْتَدِلانِ ومَرَّةً يَزيدُ أحَدُهُما على الآخَرِ، وذلك

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/97.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/97.
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/106.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/77.

بِحَسَبِ أَزْمِنَةِ الفُصولِ، وبِحَسَبِ أمكِنَةِ الأَرْضِ في أَطْوالِ البِلادِ وأعْراضِها كما هو مُقَرَّرٌ في عِلْمِ الهَيْئَةِ، وهذا أَيْضًا مِن مَواضِعِ العِبْرَةِ؛ لأنَّهُ آثارُ الصُّنْعِ البَديعِ في شَكْلِ الأرْضِ ومِساحَتِها لِلشَّمسِ قُرْبًا وبُعْدًا، ففي اخْتيارِ التَّعْبيرِ بِالاخْتلافِ هُنا سِرٌّ بَديعٌ لِتَكونَ العِبارَةُ صالِحَةً لِلْعِبْرَتَيْنِ[1].

سِرُّ تأخيرِ الآياتِ وتقديمِ جُملتَي الاختلاف والخلْقِ:

بعدَ ذكْرِ الدَّلائلِ نبّهَ إلى الحذرِ منَ العواقبِ

سيقَتِ الجُمَلُ السّابقةُ سَوقَ الدَّلائِلِ[2]، فاسْتَدَلَّت على التَّوحيدِ والإلَهيّاتِ: بتَخْليقِ السَّماواتِ والأرْضِ، وبِأَحْوالِ الشَّمس والقَمَرِ، وبِالمَنافِعِ الحاصِلَةِ مِنِ اخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ، وبِكُلِّ ما خَلَقَ اللهُ في السَّماواتِ والأرْضِ، وهي أَقْسامُ الحَوادِثِ الحادِثَةِ في هذا العالَمِ، وهي مَحْصورَةٌ في الأحْوالِ الحادِثَة في العَناصِرِ الأَرْبَعَةِ، ويَدْخُلُ فيها أَحْوالُ الرَّعْدِ والبَرْقِ والسَّحابِ والأمطارِ والثُّلوجِ، ويَدْخُلُ فيها أَيْضًا أَحْوالُ البِحار، وأَحْوالُ المَدِّ والجَزْرِ، وأَحْوالُ الصَّواعِقِ والزَّلازِلِ والخَسْفِ، وفي أَحْوالِ المَعادِنِ، وهي عَجيبَةٌ كثيرَةٌ، وفي اخْتِلافِ أَحْوالِ النَّباتِ، وفي اخْتِلافِ أَحْوالِ الحَيَوانات.

ثُمَّ إنَّهُ تعالى بَعْد ذِكْرِ هذه الدَّلائِلِ و(الآياتِ) نبَّهَ وأَحالَ العقلاءَ على مَقامِ الحَذَرِ منَ العَواقِب ليدَّبَّروا ويعتبِروا[3]، قال القفّال: "مَن تَدَبَّرَ في هذه الأَحْوالِ عَلِمَ أنَّ الدُّنْيا مَخْلوقَةٌ لِبَقاءِ النّاس فيها، وأنَّ خالِقَها وخالِقَهم ما أَهْمَلَهم بَلْ جَعَلَها لَهم دارَ عَمَلٍ، وإذا كانَ كذلك فَلا بُدَّ مِن أمرٍ ونَهْيٍ"[4].

وَجْهُ الطِّباقِ بين اللّيلِ والنّهارِ:

اللَّيلُ والنَّهارُ مُتلازمانِ، ولا يُعرَفُ الواحدُ منهما إلّا بدَلالةِ الآخَرِ

اجتماعُ الضِّدَّيْن في الكلامِ، منَ الحُليّ البديعيَّةِ؛ لأنَّ الخِطابَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/79.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/210.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/210.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 2/484.

طابَق الضِّدَّين في نسقٍ جلاليٍّ بالقدْر المشتركِ بين اللَّيلِ والنَّهارِ من تَعاقُبِهما، وكَوْنِ كُلٍّ مِنهُما خِلفَةً لِلآخَرِ؛ إذا جاءَ هذا ذَهَبَ هذا، وإذا ذَهَبَ هذا جاءَ هذا، لا يَتَأخَّرُ عَنْهُ شَيْئًا[1]، والحاصلُ: أنَّ اللَّيلَ والنَّهارَ ظاهِرَتان مُتلازِمتان، ولا يُعرَفُ الواحدُ منهما إلّا بدَلالةِ الآخَر.

نُكتةُ تقديمِ اللّيلِ على النّهارِ:

الظّلامُ أصلٌ في الوجودِ، والضّياءُ حادِثٌ عليه

النُّكتةُ في تقديم اللَّيل على النَّهارِ في سياقِ التَّعبير القُرآنيِّ الاعتبارُ بالظَّلامِ الَّذي كانَ أصْلًا في هذا الوُجودِ؛ وأمّا الضياءُ فحادِثٌ، بدليل قولِه تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧﴾ [يس: 37]؛ إذ: "يَرْمي بِالنَّهارِ على اللَّيْلِ فَيَأْتي بِالظُّلْمَةِ، وذلك أنَّ الأصْلَ هي الظُّلْمَةُ والنَّهارُ داخِلٌ عليه، فَإذا غَرَبَتِ الشَّمسُ سُلِخَ النَّهارُ مِنَ اللَّيْلِ أيْ: كُشِطَ وأُزيلَ، فَتَظْهَرُ الظُّلْمَةُ"[2]. فـ" الأصْلُ في هذا الوُجودِ الظَّلامُ؛ والضّياءُ حادِثٌ؛ وكانَ ضياؤُهُ لَيْسَ خالِصًا"[3].

والتَّقديمُ باعتبارِ الأسبقيَّةِ على عوائد القرآن الكريم؛ فحيثما وردَ اللَّيلُ والنَّهارُ، قُدِّمَ اللَّيلُ على النَّهارِ؛ لأسبقيَّته في الوجودِ، وكذلك تَقديمُ الشَّمسِ على القمرِ.

دَلالةُ الواوِ في: ﴿وَمَا﴾:

الجمعُ بين الاستدلالِ الأعَمِّ مِنَ الدَّليلِ الأوَّلِ

يُساقُ حرفُ العَطفِ (الواو)؛ ليفيدَ الجمعَ والمشاركةَ بينَ المَعطوفِ والمعطوفِ عليه في حُكمٍ واحدٍ. وعليه: فإنَّ واوَ العطفِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للجمع بين الاستدلالِ الأعمّ مِنَ الدَّليلِ الأوَّلِ لِشُمولِه ما هو أكْثَرُ من خَلْقِ الشَّمس والقَمَرِ، ومِن خَلْقِ اللَّيْلِ والنَّهارِ، ومِن كُلِّ ما في الأرْضِ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/249.

(2) الشوكاني، فتح القدير: 4/423، وعزاه إلى الفرّاء، وهو مذكور بمعناه في معاني القرآن: 2/378.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/128.

والسَّماءِ مِمّا تَبْلُغُ إليه مَعْرِفَةُ النّاس في مُخْتَلفِ العُصورِ وعلى تَفاوُتِ مَقاديرِ الاِسْتِدْلالِ مِن عُقولهم[1].

إيثارُ الموصولِ (ما):

المُـرادُ جميعُ المخلوقاتِ فلا يفوتُ شيءٌ ممّا خَلَقَ

أوثرَ الاسمُ الموصولُ المُبهمُ؛ لتحقيقِ عُمومِ الإحالةِ على جميعِ المَخْلوقاتِ تقريرًا لمقصد انْفرادِ اللّه تَعالى بِالخَلْقِ والتَّقْديرِ، فهو سُبحانه خلقَ كلَّ شيءٍ في السَّماواتِ والأرض، من عاقلٍ وغيرِ عاقلٍ، من حيٍّ وجمادٍ، من ظاهرٍ وباطنٍ، من كبيرٍ وصغيرٍ، فلا يفوتُ شيءٌ ممّا خَلَقَ.

عِلةُ التَّعبيرِ عن خلْقِ الله بالماضي:

القصدُ تيقُّنُ وُقوعِ الخلْقِ

والقَصدُ من سَوْقِ الخَلْقِ بصيغة الماضي، إفادةُ اليقينِ بوقوعه، ودليلُه حاضرٌ يُشاهدُ، وماثلٌ يُرى، وذلكم محطُّ الاعتبار والتَّفكُّرِ لا الإنكارِ والتَّحيُّر.

وَجْهُ إظهارِ فاعلِ الخَلْقِ:

قصرُ خاصيَّةِ الخَلْقِ على مَنْ لـه الإحاطَـةُ الكامِلَةُ والقُدرةُ المُطْلَقَةُ

إظهارُ فاعلِ الخَلْقِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ لقصْرِ خاصيّةِ الخَلقِ على مَنْ له الإحاطَةُ الكامِلَةُ[2]، فضلًا عن كوْنِ الخَلْقِ من مواضعِ الكمالاتِ، والعَظَمةِ الَّتي لا يقدرُ عليها إلا مَنْ له القُدرةُ المُطْلَقةُ، والتَّمكينُ، والسُّلطانُ.

دَلالةُ (في):

الاحتواءُ واستيعابُ الظَّرفيّةِ الزّمانيّةِ والمكانيّةِ

للحرف (في) دلالاتُ الاحتواءِ والاستيعاب، وهو بما قد يحملُه من معاني الظَّرفيَّةِ الزّمانيّةِ والمكانيّة، سيق للاسْتِدْلالِ بأحْوالِ الضَّوءِ والظُّلْمَةِ، وتَعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وفي ذلك عِبْرَةٌ عَظيمَةٌ.

نُكتةُ تقديمِ السَّماواتِ على الأرض:

وتقديمُ السّماء على الأرض، فيه معنى أنَّ السَّماواتِ والأرضَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/97.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/194.

آياتُ السَّماواتِ أعظمُ منها في الأرضِ

تُذكر غالبًا في سياقِ آياتِ الرَّبِ الدّالَّةِ على وَحدانيَّتِه، ورُبوبيَّته؛ ومعلومٌ أنَّ الآياتِ في السَّماواتِ أعظمُ منها في الأرضِ؛ لسَعَتِها، وعِظَمِها، وما فيها من كَواكِبِها، وشَمسِها، وقمَرِها، وبُروجِها، وعُلوِّها، واستغنائِها عن عَمَدٍ تُقِلُّها، أو عِلاقَةٍ ترفَعُها، إلى غيرِ ذلك من عَجائِبِها، وما فيها كقطرةٍ في سَعَتِها؛ ولهذا أمرَ سُبْحانَه بأنْ يُرجِعَ النّاظِرُ فيها البَصَرَ كَرَّةً بعد كَرَّةٍ، ويتأمّلَ استواءَها، واتّساقَها، وبراءَتها منَ الخلل، والفُطورِ، فالآيةُ في السَّماواتِ أعظمُ منَ الأرض، وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ سُبحانَه وبحمدِه[1].

بيانُ معنَى اللّامِ في ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾:

التَّوكيدُ بأنَّ آياتِ الله دليلُ كمالِ قُدرتِه

دخلتِ اللّامُ على اسْمِ إنَّ وهو قولُه: ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾؛ لِحَيلولَةِ الخبَرِ بَيْنَهُ وبَيْنَها، إذْ لَوْ كانَ يَليها، ما جازَ دُخولُها، وهي لامُ التَّوْكيد، فصارَ في الجُملَةِ حَرْفا تأْكيدٍ: إنَّ واللّام[2].

والآياتُ جمع آية، وهي الأمرُ الكونيُّ الدّالُّ على وَحدانيّة اللّه وكمالِ قُدرتِه، وإبداعِ الكَوْنِ على غيرِ مثالٍ سابقٍ، وأنَّه سُبحانه مُنْشئُ الكون بإرادتِه[3]، وهذا المعنى مَظنّةُ التَّوكيدِ.

وَجْهُ جمعِ الآياتِ جمعَ تأنيثٍ:

تعدُّدُ الآياتِ وتنوُّعُها سبيلُ التَّفكُّرِ والاتِّعاظِ

وتَحريرُ القولِ في جَمعِ الآياتِ؛ أنَّ في كُلِّ ما ذُكِرَ من خَلْقِ السَّماواتِ والأرْضِ وما عُطِفَ عليه آياتٍ؛ ليكونَ الكَونُ دالّا على أنَّ له خالقًا مُدبِّرًا مُختارًا، مُتعدّدَ الآيات، مُتنوّعَ الدّلالات؛ ليتّعظَ الغافلُ، ويهتديَ بالأَمارات الضّالُّ.

سِرُّ تنكيرِ الآياتِ:

تفخيمُ آياتِ اللهِ العظيمةِ الكثيرةِ

التَّنْكيرُ في الآياتِ لِلتَّفْخيم كَمًّا وكَيْفًا؛ على معنى: أنَّها آياتٌ

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/130.
(2) الحيميد، الإعراب المحيط من تفسير البحر المحيط: 1/345.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3519.

عَظيمَةٌ وكَثيرَةٌ، وهي على كثرتِها دالَّةٌ على القُدْرَةِ والحِكْمَةِ الباهِرَةِ، والرَّحْمَةِ الواسِعَةِ المُقْتَضيةِ لاخْتِصاصِ الأُلوهيَّةِ بِهِ سُبحانَه[1].

دَلالةُ اللّامِ في ﴿لِّقَوۡمٖ﴾:

تخصيصُ الآياتِ للمُتَّقين تعريضٌ بالمشركين

اللّامُ لِلتَّعْليلِ، والمُعَلَّلُ هو ما في مَدْلولِ الآياتِ مِن مُضَمَّنِ معنى الدَّلالَةِ والنَّفْعِ. وقد صَرَّحَ في هذا بأنَّ الآياتِ إنَّما تَنْفَعُ القَومَ المُتَّقين تَصْريحًا بأنَّهُمُ المَقْصودُ في الآيَتَيْنِ الأُخْرَيَيْنِ بقولِه، وإتْمامًا لِلتَّعْريضِ بالمُشْرِكينَ[2] بأنَّهم لم يَنْتَفِعوا بهذه الآياتِ ولم يهتَدوا بها؛ فلَيْسَتْ عُقولُهم براسِخَةٍ ولا هي مَلَكاتٌ لَهم، ولا يَخافون العواقِبَ[3]، ولْيَعلَموا أنَّ بُعْدَهم عنِ التَّقوى هو سببُ حِرمانِهم مِنَ الانتِفاعِ بالآياتِ، وأنَّ نَفْعَها حاصِلٌ لِلَّذين يتَّقون، أي: يَحذَرون الضَّلالَ[4].

الآياتُ دَلائِلُ لِقَومٍ يَقومونَ في الأمرِ حَقَّ القيامِ

ويَجوزُ أنْ يَكونَ الجارُّ والمَجْرورُ ظَرْفًا مُسْتَقِرًّا في مَوْضِعِ الحالِ مِنَ الآياتِ، أيْ حالَ كَوْنِها دَلائِلَ لِقَوْمٍ يَقومونَ في الأمرِ حَقَّ القيامِ؛ إذ فيه إشْعارٌ بأنَّ ذلك لا يَنالُهُ مَن هو في سِنِّ النّاسِ حَتّى يَتَنامى طَبْعُهُ وفَضيلَةُ عَقْلِهِ إلى أنْ يَكونَ مِن قَوْمٍ يَقومونَ في الاعْتِبارِ قيامَ المُنْتَهِضينَ في أُمورِ الدُّنْيا؛ لِأنَّ العَرَبَ عَرَفَتِ اسْتِعْمالَها في القَوْمِ إنَّما هو لِأجْلِ النَّجْدَةِ والقوَّةِ حَتّى يَقولونَ: قَوْمٌ أوْ نِساءٌ. تقابُلًا بَيْنَ المَعْنَيَيْنِ[5].

وَجْهُ تَكرارِ لفظةِ ﴿لِّقَوۡمٖ﴾ في الآيَتَيْن:

مِن مُقوِّماتِ القوميّةِ رسوخُ وصْفِ العِلْمِ والتَّقْوَى في أهليهِم

ذِكْرُ لَفْظِ (قَوْم) في الآيتين إيماءٌ إلى أنَّهم رَسَخَ فيهم وصْفُ العِلْمِ والتَّقوَى، فكَانا مِن مُقوِّماتِ قَوْميَّتِهم، وأنَّ ذلك الوصْفَ سَجيَّةٌ فيهم، ومِن مُكمِّلاتِ قَوْميَّتِهم، فَإنَّ لِلْقَبائِلِ والأُمَمِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/185.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/404.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/82.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/98.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 2/298.

خَصائِصَ تُمَيِّزُها وتشْتَهِرُ بِها كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [التّوبة: 56]، وقد تَكَرَّرَ هذا في مواضِعَ كَثيرَةٍ مِنَ القُرْآنِ ومِن كلامِ العَرَبِ، فالمعنى: أنَّ في ذلك آياتٍ لِلَّذينَ سَجِيَّتُهُمُ العَقْلُ والتَّقوَى[1].

بيانُ التَّشابُهِ بين ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، و﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾:

انتِفاعُ الّذينَ يعلَمون بالتَّفصيلِ أكثَرُ وأكملُ

خُصَّ مَن يَعلَمُ بتَفصيلِ الآياتِ لهم، مع أنَّه تعالى فَصَّل الآياتِ للجُهَلاءِ أيضًا؛ لأنَّ انتِفاعَهم بالتَّفصيلِ أكثرُ[2]؛ فهُمُ الَّذين يَنتَفِعون بتَفصيلِ الآياتِ، ويتَدبَّرون بها في الاستِدْلالِ، والنَّظرِ الصَّحيحِ[3].

المتّقونَ يَخشَونَ الوقوعَ في شأنِ مخافةِ الله ويَحذَرون ذلك

وخَصَّ المتَّقينَ؛ لأنَّهم الَّذين يحذَرون مِنَ الوُقوعِ في شَيءٍ ممّا يخالِفُ مُرادَ اللّه سُبحانه، ويَخافون العَواقِبَ، فيَحمِلُهُمُ الخوفُ على التّدَبُّرِ والنَّظَرِ[4].

نُكتةُ التَّعبيرِ عنِ التّقوى بالمضارعِ:

تجدُّدُ التَّقوَى سجيّتُهم ودَيدَنُهم ودأْبُهم

والإتْيانُ بالفِعْلِ المُضارِعِ لإفادَةِ التَّكْرارِ والتَّجدُّدِ على وجهِ السَّجيَّةِ[5]، فهمُ الدّائمون على التّقوَى، الدّائبون على تحصُّلِ أسبابِها.

سِرُّ تخصيصِ المتّقين بالذِّكْر:

إعلاءُ مقامِ المتّقين عندَ الله ثمَّ النّاسِ

خَصَّ ﷻ المُتَّقينَ بالتَّذكيرِ تَشْريفًا لَهم؛ إذِ الاعْتِبارُ فيهم يَقَعُ[6]؛ ولأنَّهم يَحْذَرونَ العاقِبَةَ فَيَدْعوهُمُ الحَذَرُ إلى التَّدَبُّرِ والتَّأمُّلِ؛ لأنَّ التَّقْوَى هي الدّاعيَةُ لِلنَّظَرِ[7]؛ فالمُتَّقون همُ المتَّصِفون باتِّقاءِ ما يوقِعُ في الخُسْرانِ، فيَبعَثُهم على تَطلُّبِ أسبابِ النَّجاحِ، فيتَوجَّهُ الفِكْرُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 2/82.
(2) الأنصاريّ، فتح الرّحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: 1/243.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/15.
(4) المقدّم، تفسير القرآن الكريم: 7/81.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 11/97.
(6) الزّحيليّ، التّفسير الوسيط: 2/944.
(7) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/210.

إلى النَّظرِ والاستِدْلالِ بالدَّلائلِ[1]، لذلك عُدّتْ ميزانَ التَّفاضُلِ في الإسلام، وسببَ تحصُّلِ الإكرام، والقُربِ منَ العلّام.

تَنْزيلُ الفعْلِ المُتَعَدّي منزلةَ اللّازمِ:

تـنـزّلُ الفعْلِ المُتَعَدّي منزلةَ اللّازمِ يجعلُ التّقوَى وصْفًا مُلازِمًا لأهلها تحريضًا على التّأسّي

قَصَدَ بتنزيل الفعْلِ المُتعدّي مَنزِلةَ الفعلِ اللّازمِ في قوله: ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾، وقوله: ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ﴾ إلى إثبات معنى الفعلِ لفاعلِه، أي: أنّهم ذَوو علْم وذَوو تقوَى، وأنّهم متّصفون بتلك الصِّفة، ويلزمُ بعد ذلك تقوَى اللّه؛ وفي ذلك دلالةٌ على السَّجيَّةِ وملازمةِ الأوصاف لذَويها[2].

تناوبُ التّعبيرِ بالفاصلةِ بألفاظِ العلم والإيمان واليقين والتقوى:

دَلالاتُ الآياتِ يُدركُها مَن يتّصفُ بالإيمانِ، والعِلْمِ، واليقينِ، والتّقوَى

ذَكَرَ سُبحانَه أوصافَ من يُدرِكونَ الدّلالاتِ البيِّنَة، وأحالَ على الّذين ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ [مثلاً: يونس: 5]، ومرّةً على الّذين ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ [مثلاً: الأنعام: 99]، وأخرى على الّذينَ ﴿يُوقِنُونَ﴾ [مثلاً: البقرة: 118]، ومرّةً رابعةً على الّذين ﴿يَتَّقُونَ﴾ [مثلاً: البقرة: 187]، وهُمُ الّذين يُدرِكون ما تَدلُّ عليه الآياتُ، ومَن لا يُدرِكُها ليس عنده علمٌ ولا إيمانٌ ولا يقينٌ ولا تَقوَى، وعَدمُ إدراكِهم ناشئٌ عن ظَنِّهم أنَّ الحياةَ الدُّنيا هي كلُّ شيءٍ فلا يَتَدبَّرون ما بعدَها ويُنكِرون البَعثَ[3].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/98.

(2) عفيف، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/3.

(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3519 - 3520.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨﴾ [يونس: 7 - 8]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

بيانُ الأدِلَّةِ يَعقُبُهُ حالُ النّاسِ منها إعراضًا وإقبالًا

لَمّا بيّنَ الحقّ ﷻ الآياتِ والدّلائلَ الواضحةَ على وجودِهِ تعالى وأنّهُ الخالقُ الحكيمُ، وعلى القولِ بالحشرِ والنّشرِ والبعثِ والجزاءِ على الأعمالِ؛ ذكرَ عَقِبَ ذلك بيانَ أحوالِ الكافرينَ بها، وبهم بدأ قبل بيان أحوالِ المؤمنينَ الموقنينَ بها، ثمّ بيّنَ جزاءَ كلّ من الفريقينِ[1]، فالمناسبة بين الآيات هيَ بيانُ حال النّاس من الأدلّة الظّاهرة الباهرة، وما يَسْلكونَهُ مِن مسالكِ الإيمانِ والكُفران، وجزاءِ ذلك في الآخِرَة، بيانًا للحقِّ والعَدْل.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَرۡجُونَ﴾: فعلٌ مضارعٌ مسندٌ للجماعةِ، والجذرُ اللّغويّ منهُ الرّاء والجيم والحرف المعتلّ، ومنهُ الرّجاءُ، وهوَ الأملُ ونقيضُ اليأسِ، وربّما عبّرَ عن الخوفِ بالرّجاءِ اتّساعًا، ومنْ معانيهِ الظنّ الّذي يستلزمُ نيلَ ما فيهِ المسرّة، وللرّاجي حالانِ؛ هما: الأملُ لما يرجوهُ، والخوفُ منْ فواتِه، والرّجاءُ في أصلِه: إشرافُ الجسم على مهواةٍ، كَبِئْرٍ ونحوِه، ومنهُ أُخذَ الإشرافُ على كلِّ خيرٍ كما يشعرُ الرّاجي أنّهُ مشرفٌ على خيرٍ وطامعٌ فيهِ ومتوقّعٌ الحصولَ على ما يرجوهُ[2]، ومعنى ﴿يَرۡجُونَ﴾ في الآيةِ: يظنّونَ وقوعَ الشّيءِ غيرَ مقيّدٍ بكونِهِ محبوبًا فـ﴿لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أيْ: لا يظنّونهُ أوْ يتوقّعونهُ[3].

---

(1) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 12/128.

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رجو).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/99.

2) ﴿لِقَآءَنَا﴾: مصدرٌ للفعلِ لقيَ يلقى لقاءً، الجذرُ اللّغويّ منهُ: اللّام والقافُ والياءُ، وإذا صادفَ شيءٌ شيئًا آخرَ أو استقبلَهُ أو واجههُ فقدْ لقيهُ، واللّقاءُ قدْ يكونُ بالحسِّ والإدراكِ، وقدْ يكونُ بالبصرِ والبصيرةِ، والمرادُ بملاقاةِ اللّه ﷻ: المصيرُ إليه في الآخرةِ، وأنْ يلاقيَ المرءُ ثوابَهُ وعقابَهُ، واللّقاءُ في الآيَة الكريمَةِ بمعنى يومِ القيامةِ يوم الجزاءِ والعقابِ[1].

3) ﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ﴾: فعلٌ ماضٍ مسندٌ للجماعةِ، والجذرُ اللّغويّ منهُ: الطّاءُ والميمُ والنّون، واطمئنانُ النّفسِ: سكونُها واستئناسُها، وهوَ الأصلُ في الطّاءِ والميم والنّونِ، والسّكونُ يحصلُ بعدَ التّهيّجِ والانزعاجِ، والنّفسُ المطمئنّةُ هيَ المؤمنةُ الّتي أخبتَتْ لربّها، وكلّ ما جاءَ في القرآنِ من الاطمئنانِ والطّمأنينةِ يأتي على معنى السّكونِ النّفسيّ والقلبيّ ونبذِ القلقِ والوَجلِ والحذرِ[2]، ومعنى ﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ﴾ في الآيةِ: أنّهم سَكَنوا إليْها سكونَ الواجدِ إلى محبوبِه، وهذهِ غايةُ الانكبابِ والانغماسِ في المتَعِ الجسديّةِ[3].

4) ﴿غَٰفِلُونَ﴾: جمعُ سلامةٍ، مفردهُ غافلٌ، والجذرُ اللّغويّ منهُ الغَيْنُ والفاءُ واللّامُ، وهو يدلُّ على التّركِ سهوًا أوْ عمدًا، والغفلُ فَقْدُ الفِطنةِ، ورجل غُفْلٌ: الّذي لم يختبرِ الأمورَ، والغفلةُ "سَهْوٌ يَعْتري الإنسانَ منْ قلّةِ التّحفُّظِ والتَّيقّظِ"، والغفلةُ في الدّنيا: تركُ النّظرِ والاعتبارِ بسببِ حبِّ الشّهواتِ، وعامّةُ ما وردَ في القرآنِ الكريم منْ مادَّة غفلَ وما اشتُقَّ مِنْها هوَ في عدمِ التّنبُّه[4]، ومعنى ﴿غَٰفِلُونَ﴾ في الآيةِ أيْ: جاحدونَ تاركونَ آياتِنا الّتي أنزلناها عَليْهم وفيها هدايتُهم.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُبيّنُ تعالى حالَ الّذينَ لا يَعتقدونَ لِقاءَهُ يومَ البعثِ لِلحسابِ والجَزاءِ، بِسَببِ ما يَعْتريهم من الاطْمِئنانِ للحياةِ الدُّنيا، وغَفْلتِهم عَن عَظيمِ الأدِلَّةِ والبَراهين والآياتِ، بأنَّ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (لقى)، والخازن، لباب التّأويل: 3/175.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والزّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (طمن).
(3) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/562.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (غفل).

جَزاءَهم النّارُ بما كانوا يَكْسِبونَهُ في الدُّنيا بِسَببِ عَظيمِ الغَفْلَة، وكَبيرِ الشَّهوةِ، وأنَّ الاعتقادَ الباطِلَ لا يتوقَّف على الأفْكارِ الباطِلَة، بَل على المشاعِرِ والأحاسيسِ واليَقَظةِ لِأمرِ اللّه تعالى.

الاطمئنانُ للدُّنيا والغفلةُ عن آياتِ الله مَسْلكُ الفُجّار

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاسْتِئنافِ في الآيَةِ:

جمعَ الاسْتِئنافُ بَين وعيدِ المكذِّبينَ واسْتِدلالٍ لِلمؤمنينَ أهلِ العُقولِ الرّاجِحَة

قولُه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ اسْتِئنافُ وعيدٍ لِمَن يكفرُ بِالبعثِ ولم يُرِدِ الحياةَ الآخرةَ ولَم يتفكّرْ في الآياتِ، وهوَ استئنافٌ ناشئٌ عن الاستدلالِ على كُفرِهم بكلِّ ذلكَ، جمعَ فيهِ بينَ الاستدلالِ والوعيدِ؛ فهوَ استدلالٌ لأهلِ الحِجا، ووعيدٌ لِمَنْ أعرضَ عن الحقِّ، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى عدمِ انتفاعِ هؤلاءِ بما أُقيمَ لهم مِنَ الأدِلّة؛ لأنّهم سادِرونَ في غيِّهم، وإنّما ينتفعُ بها المتّقونَ العالِمونَ[1].

فائدَةُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ الجَمعيّ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الجزاءُ مَبنيٌّ على الاعتِقادِ فهوَ الأصلُ في الأعمالِ القَلْبيّةِ والسُّلوكيّةِ

أفادَ التّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ الإيماءَ إلى أنّ الصّلةَ المشيرةَ إلى نَفْي الرّجاءِ في لِقاءِ اللّه تعالى هيَ علّةُ وقوعِ الخبرِ[2]، وما يَكونُ لَهُم مِن العذابِ الشَّديد، فَفيهِ بَيانُ أَثرِ الاعْتقادِ في الجزاءِ، وأنّهُ الأصْلُ الّذي تُبنى عَلَيهِ الأعمالُ، وجيءَ بِالاسْمِ الموصولِ جَمعًا؛ لبيانِ اجتماعِ الضّالّينَ على مُعتقدٍ واحدٍ، وإنْ تَفرَّقوا فيما سواهُ، وأنَّ حالَهُم في كلِّ زمانٍ ومكانٍ يَتكرَّر بِذلِكَ الاجْتماعِ على مائدَةِ الكُفْرِ والبُهتانِ.

فائدةُ العُدولِ إلى الاسْمِ الظّاهِرِ في: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾:

الجَمعُ بَين وَعدِ المؤمنينَ بِثَباتِهم على الحقِّ ووعيدِ الكافرينَ بِعِنادِهم على الباطِلِ

عدلَ النَّظْمُ القرآنيُّ عَنِ التّعبيرِ بالخِطابِ في الآياتِ السّابقة في قولِه: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ﴾ إلى التّعبيرِ بالاسمِ الظّاهِرِ في هذهِ الآيَةِ؛ لِوقوعِ هذهِ الجملةِ الدّالّةِ على الوَعيدِ مَوقعًا صالحًا لأنْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/98.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/99.

يعلمَهُ جميعُ النّاسِ؛ المؤمنونَ والكافِرونَ على حدٍّ سَواءٍ[1]، فيَكون ذلكَ لِلمؤمنين مزيدَ إيقانٍ بالحقِّ الّذي يؤمنونَ بِهِ، فهيَ لَهم وَعدٌ، ولِلكافرينَ مَزيدُ وَعيدٍ لِلباطِلِ الّذي يَلِجّون فيه، والضّلالِ الّذي يخوضونَ فيهِ.

غَرَضُ التَقديمِ في: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾:

مَجيءُ الخَبَرِ مُتَراخيًا يُفيدُ تَشويقَ السّامعِ لِتَحريكِ عَقْلِهِ وقَلْبِه

المُسنَدُ إليهِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ - وهو الاسمُ الموصولُ - قُدِّم على المسندِ وهو ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ لِغَرَضِ التّشويقِ، فإنَّ السّامعَ يَترقّبُ مَعرفَةَ ما لِأولئكَ الّذينَ لا يَرْجونَ لِقاءَ اللّه تَعالى، فَجاءَ المُسْنَدُ مُتأخّرًا ومُركَّبًا؛ لِيَقعَ الخَبَرُ في نَفْسِ المُتلقّي قَويًّا، فَيوقِظ سُباتَ العُقول، ويحيي بذْرةَ الإيمانِ.

وإنّ ممّا يزيدُ منْ عنصرِ التّشويقِ ويُقوّيهِ طولَ جملةِ الصّلةِ منْ نفيٍ وفعلٍ وفاعلٍ ومفعولٍ ومضافٍ إليهِ، ثمَّ ما عطفَ عليها منْ جملةِ الرّضا بالحياةِ الدّنيا والاطمئنانِ بها والغفلةِ عن الآياتِ، وهيَ كما تَرى تُعدّ فاصِلًا بينَ المُسندِ إلَيهِ والمُسندِ وهو ممّا يزيدُ من عاملِ التّشويقِ.

سِرُّ التّعبيرِ عَن إنْكارِ البَعثِ بِـ: ﴿لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾:

تَكْرارُ (الّذينَ لا يَرْجونَ لِقاءَنا) لِيَكونَ عَلامةً فارِقةً عليْهِم في القرآنِ

جاءَ التَّعبيرُ عَن إنْكارِ البَعْثِ بِقَولِه تعالى: ﴿لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ في سورةِ يونُس ثَلاثَ مرّاتٍ، في هذهِ الآيَةِ، وفي قولِه: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١﴾ [يونس: 11]، وقوله: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ [يونس: 15]، وفي سورةِ الفُرقان ﴿۞وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾ [الفرقان: 21]، ولم يعبّرْ بتعبيرٍ آخر مرادفٍ لهُ في المعْنى منْ نحوِ قوله: (إنَّ الّذينَ يكذّبونَ بلقائنا)؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/99.

لأنّهُ رامَ أنْ يكونَ نفيُ رجائِهم علامةً فارقةً على أمثالِ هؤلاءِ[1] ثمّ الحكمَ عليهم بأنّهم أصحابُ النّارِ هُم فيها خالدونَ، فإذا ذُكِر الّذين لا يَرجونَ لقاءَ اللّه تعالى؛ انْصرَف الذِّهْنُ إليْهم، وهذا في غايَةِ التَّقْبيحِ لهُم.

نُكْتَةُ اسْتِعمالِ صيغَةِ المضارِعِ ﴿يَرۡجُونَ﴾:

العِنادُ عَلى إنْكارِ البَعْثِ سُلوكٌ قَلْبيٌّ واعْتِقادٌ عَقْليٌّ

عُبِّر عَن نَفْيِ الرّجاءِ بصيغةِ المضارِعِ: ﴿لَا يَرۡجُونَ﴾ لِلدّلالةِ على اسْتمرارِهم في ذلكَ، بِسَببِ غَفلتِهم المُسْتوليةِ عَليهم وإنْكارِهمُ البَعثَ والجزاءَ، وهذا يَدلُّ على سوءِ اعْتقادِهم وظنِّهم باللّه تَعالى، فمَشاعِرُهم واعْتِقاداتُهم وأفْكارُهُم مُتجدِّدَةٌ في إنْكارِ البَعْثِ.

بَلاغةُ اسْتِعمالِ: ﴿لِقَآءَنَا﴾:

تَفخيمُ العَذابِ والثّوابِ عائدٌ إلى عَظَمةِ الفاعِلِ الحَقيقيِّ لَهُما

استعمالُ مُفْرَدَةِ اللّقاءِ في قولِه تعالى: ﴿لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾؛ لِكَونِ اللِّقاءِ دالًّا على المُعاينَةِ والرُّؤيَةِ في الأصلِ بإجْماعِ أَهْلِ العَرَبيَّةِ[2] - إلّا إذا منعَ مِنْ ذلكَ مانعٌ عَقْليٌّ أَوْ شَرعيٌّ - ، فَفي اختيارِ لَفْظِ اللّقاءِ إيماءٌ إلى شناعَةِ ما يعتقِدُهُ هؤلاءِ، وما سيُحْرَمونَه مِنْ لذَّةِ النَّظرِ إلى وجهِ اللّه سُبحانَهُ، وجُملَةُ ﴿لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ كنايَةٌ عَنِ الجَزاءِ والحِسابِ، مع صحَّةِ إرادَةِ المعْنى الأصليِّ لِلتَّركيب، كَما هو الشَّأْنُ في الكِنايةِ.

نُكْتَةُ الإضافَةِ: ﴿لِقَآءَنَا﴾:

الِتِفاتٌ مِنَ الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ لِلإشْعارِ بِعظيمِ الأَمرِ وتَرْبِيَةِ المهَابَةِ في النُّفوسِ

أُضيفَ لفظُ اللّقاءِ إلى ضميرِ العَظَمةِ في قولِه تَعالى: ﴿لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لا إلى الاسْمِ الأحْسَنِ (اللّه) على طريقةِ الالتفاتِ مِنَ الغَيبةِ في قوله تَعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: 6] إلى التَّكلّم؛ وفي ذلك من تهويلِ الأمرِ وتربيةِ المهابةِ في قلوبِ العبادِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/98.

(2) ابن القيّم، حادي الأرواح، ص: 288.

ما هوَ بيّنٌ لا يَخفى[1]، وفيهِ إشعارٌ بِغَضَبِ اللّه تعالى علَى المنكرينَ، فَلِقاءُ الحقِّ ﷻ وحِسابُهُ لا يُدانيهِ أيُّ لِقاءٍ، وفيهِ بَيانُ عَظيمِ ما اقْتَرفَهُ أولئِكَ مِن إنْكارٍ وتَكْذيبِ لِقاءِ العَظيمِ تَعالى الذي تَنخلِعُ منه القلوبُ خشْيَةً ورَهْبةً.

مَعْنى الواوِ في: ﴿وَرَضُواْ﴾ و ﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ﴾:

الرِّضا بِالحياةِ الدُّنيا دونَ الآخِرةِ مَذْمومٌ، وهوَ أشَدُّ ذَمًّا عِنْدَ الطُّمَأنينَةِ

الواوُ في قَولِه: ﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ وقولِه: ﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ في الموضعَينِ تحتملُ العطفَ وهو الأوجهُ والأنسبُ على أنّها صفاتٌ لِلمذكورينَ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾، فيكونُ منْ عطفِ الصّفةِ على الصّفةِ؛ فصفةُ غيرِ الرّاجينَ هي الرّضا بالحياةِ الدُّنيا، والاطمئنانُ بها، أمّا الواوُ في ﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ﴾ فتحتملُ الحاليَّةَ على تقديرِ: رَضوا بها وقدِ اطمأنّوا[2]، أي: رَضوا بالحياةِ الدُّنيا حالَ كونِهم مُطمئنّينَ بها، لا مُكرَهين عليها، فَفيه إيماءٌ إلى عَدلِ اللّه، فَتَأمَّل!

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿وَرَضُواْ﴾:

الرِّضا بِالقَليلِ الحَقيرِ دونَ الكَثيرِ الشَّريفِ بُرهانٌ على وَضاعَةِ النُّفوسِ وتَفاهَةِ العُقولِ

التَّعْبيرُ بالرّضا في قولِه تَعالى: ﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ تَعريضٌ بهم؛ لأنّهم لم يُعمِلوا النّظرَ في الحياةِ الأُخرى الباقيَةِ، واقْتَنعوا بهذهِ الفانيَةِ وعَملوا لَها عَملَ المُقيم، معَ ما نصبَ لهم منَ الأدلّة على حَقارتِها وفَضلِ الباقيَةِ على الفانيَةِ؛ فَلِذا جعلَ الرّضا بها مذمّةً وإضاعَةً وخُسرانًا[3]، كمَنْ يَرْضى بِالقَليلِ الحَقيرِ، وهو يُشاهِدُ الكَثيرَ الشَّريفَ، فالرِّضا بالحياةِ الدُّنيا تَعبيرٌ عَن وَضاعَةِ النُّفوسِ، وتَفاهَةِ العُقول.

بَلاغَةُ التّعبيرِ بالماضي:

الرِّضا بِالحياةِ الدُّنيا والاطْمِئنانُ بِها أَصْلٌ في تَجدُّدِ إنْكارِ البَعْثِ

عبّرَ بصيغةِ الماضي في قولِه: ﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ وقولِه: ﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ في كلٍّ مِنَ الفِعْلَينِ عقبَ التّعبيرِ بالفعلِ المضارِعِ ﴿لَا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/122.
(2) الشّهاب، حاشية على البيضاويّ: 5/7، وأبو حيّان: البحر المحيط: 6/16.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/99.

﴿يَرۡجُونَ﴾، فالتّعبيرُ بِصيغةِ الماضي لِلدّلالةِ على تَحقّقِ فِعْلَي الرّضا والاطْمِئنانِ وتَقرّرهما، فيما يدلُّ الفعلُ المضارعُ على الاسْتمرارِ والتّجدّدِ[1]، وذلكَ أنَّ ثباتَ الرِّضا بالحَياةِ الدُّنيا ومِن ثُمَّ الاطْمئنانِ بِها، قادَ إلى تجدُّدِ الإنكارِ كلَّما طَرقَ بابَ القلبِ طارقُ الفِطرَةِ.

مَعْنى الباءِ في ﴿بِٱلۡحَيَوٰةِ﴾ و﴿بِهَا﴾:

الباءُ لِلمُلابَسَةِ أوِ العِوَضِ أوِ الظَّرفيَّةِ أوِ السَّبَبيَّة

الباءُ في قولِه: ﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ وقولِه: ﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ مؤذنةٌ بكمالِ المُلابَسةِ وتمامِ المصاحَبةِ والمؤانسةِ والمرافقةِ والمخالطةِ[2]؛ لِما تَبثُّه الباءُ مِن مَعْنى المصاحَبةِ والمُلاصقةِ[3] فهم قدْ رَضوا بِالحياةِ ومالوا إلَيها ولابَسوا أحوالَها، وآنسَتْهُم شهواتُها ومَلَذّاتُها فَصاروا إلى ما تَرى.

وتَحتملُ الباءُ في الآيَةِ أنْ تَكونَ بِمَعنى البَدَلِ والعِوضِ؛ فَغَفلتُهم سَببٌ في شِدّةِ تَعلّقِهم بِالدّنيا وحِرصِهم عَلَيها؛ حتّى جَعلوها عوضًا مِنَ الآخِرةِ الباقيَةِ فَعملوا لَها وسَكنوا إلَيْها[4].

وتَحْتملُ أنْ تَكونَ لِلظَّرفيَّةِ، أيْ: في الحياةِ الدُّنيا، أوِ لِلسَّببيَّةِ، أيْ: بِسَبَبِ رِضاهُم واطْمِئْنانِهِم[5].

نُكْتَةُ وَصْفِ الحَياةِ بِالدُّنيا:

الدُّنيا الفانِيَةُ تُشيرُ إلى الأُخْرى الباقِيَةِ وإيثارُها دَليلُ كُفْرِ روّادِها

وُصِفتِ الحَياةُ بِـ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾؛ لِأنّها مِنَ الدنوِّ والقُربِ؛ لِذلكَ شَنَّع عليهم إيثارَهُمُ الأَدْنى الخَسيسَ عَلى الأَعْلى النّفيسِ، والتّخلّي عَنِ الأَعْلى لِصالحِ الأَدْنى[6]، وهذا الوَصْفُ يَقْتضي التَّمييزَ عَنِ الحَياةِ الآخِرَةِ، فَهُما حَياتانِ: دُنيا وأُخْرى، فَقاصِرو النَّظرِ يُقبِلونَ عَلى

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/122.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/122.
(3) ابن السّرّاج، الأصول في النّحو: 1/210.
(4) مكّي القيسيّ، الهداية الى بلوغ النّهاية: 5/3222، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/312.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/70.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/69.

القَريبِ الدّاني، والمؤمنونَ عَلى الحَقيقةِ يَرْتَقبونَ الآخِرَة الباقيَةَ؛ ولِذلكَ يَصفُ المَهْدِيّونَ مِن الأمّةِ الحياةَ الدّنيا بالنُّقصانِ ويَتطلّبونَ حياةً أَرْقى وأَصْفى ممّا بِها منْ كَدرٍ، فَلا يَلْبثونَ أنْ يَروا أدلّةَ وجودِها شاخِصَةً، فَضلًا عنْ إخْبارِ الصّادقِ المصدوقِ عَنها[1].

بَلاغةُ المقابَلَةِ: ﴿لِقَآءَنَا﴾ و ﴿بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾:

تَشْخيصُ عَقلِ المُنْكِرِ في انْطِماسِهِ عَن فَهْمِ الحَياةِ عَلى حَقيقَتِها

بَيْنَ قولِه: ﴿لِقَآءَنَا﴾ وقولِه: ﴿بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ مقابلةٌ بينَ الآخرةِ والدّنيا، لكنْ لا على طَريقةِ المقابلةِ التّقليديَّةِ، إنّما جاءَ بِالآخرةِ بِتَعبيرٍ يفهمُ منهُ ما بعدَ اللّقاءِ وهوَ الجزاءُ منهُ تعالى؛ لِأنّهم عَملوا لِلآخِرَةِ، وقِسمٌ مِنهم عملَ للدّنيا، وأَنْكرَ لقاءَ اللّه سُبحانَهُ، فذِكْرُ اللّقاءِ منْ بابِ التّرهيبِ، فهوَ قاصرٌ، فيقفُ عندَ الحياةِ الدّنيا بما فيها منْ نقصٍ ودنوٍّ وهبوطٍ، وتظهرُ بلاغةُ المقابَلَةِ في تَشْخيصِ عَقْلِ المُنكرِ المُكَذِّبِ الَّذي يُؤْثرُ ما في الدُّنيا مِن فناءٍ زائلٍ، على البَقاءِ الخالِدِ، ويُبرهِن على أنَّ العِبرةَ بالإيمانِ الّذي يقودُ صاحبَه إلى النَّجاةِ عندَ اللِّقاءِ.

بَلاغةُ تَقديمِ الرِّضا على الطّمَأْنينةِ:

الرِّضا بِالحياةِ الدُّنيا سَبَبُ الاطْمئنانِ لَها

تَقديمُ قولِه: ﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ على قولِه: ﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ مِن بابِ تقديمِ النَّتيجةِ على العلَّةِ؛ فإنَّ مَن يَطمئنّ بِالحياةِ الدُّنيا وزينَتِها وزَخارِفِها يرضَى بها، فَهُم رَضوا بالحياةِ الدُّنيا لِأنَّهم قَد سَكَنوا إلَيها بعدَ انْزعاجٍ، واطْمَأنّوا بَعد حراكٍ.

ولَوْ جُعلتِ الواوُ حاليّةً - وهي تحتملُ ذلكَ - ؛ فإنَّ التّقديمَ مِنْ بابِ الطّبعِ، على تقديرِ: رَضوا بِها في الحالِ الّتي يَكونونَ مُطمئنّينَ لَها[2]، فالحالُ تَتأخّرُ عنْ صاحبِها، والمَعْنى: أنَّ رضاهُم وهُم يُشاهَدونَ على تلكَ الحالِ مِن الطّمَأْنينة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/99.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/337.

مَعْنى الواوِ في ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

الـغَـفْـلـةُ عَـن آيـاتِ الله هـيَ حَبلُ الشَّيطانِ الَّذي يُمسِّكُ بِهِ المُكذِّبين بِالبَعْثِ

الواوُ في قولِه تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ لِلعَطفِ، وهي إمّا مِن بابِ عطفِ الشَّيءِ على نَفْسِه؛ فَتَكونُ الفِرقةُ الّتي غَفلَتْ عَن آياتِ الله هي الفِرقةَ الأولى المَوصوفةَ بِقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ فيكونُ مِن عَطفِ الصِّفةِ عَلى الصّفةِ، وإمّا أنْ تكونَ غيرَها[1]؛ فتكونُ مِنْ بابِ عطفِ صنفٍ على آخرَ، وكلاهُما مذمومٌ لا يؤوبُ إلى سبيلِ الهدايةِ وإنْ ذُكّروا بأنواعِ القَوارعِ لانْهِماكِهم وغَفْلَتِهم.

والغرضُ مِنْ عطفِ صفةِ الغفلةِ عنِ الآياتِ على صفةِ نَفيِ الرَّجاءِ وما تَبِعها: التّنبيهُ على أنَّ الوعيدَ إنّما أَورَدَهُ جَمعًا بينَ الغفلةِ عنِ الآياتِ حالًا، والانْغماسِ في الشّهواتِ والمَلذّاتِ، فَلا تَخطُرُ على بالِهِمُ الآخرةُ والحسابُ أصْلًا[2].

سِرُّ إعادَةِ المْوصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

الاهْتِمامُ بِالصِّلةِ والإيماءُ إلى أنَّها وَحْدَها كافيةٌ في اسْتِحْقاقِ ما بَعدها مِنَ الخَبَرِ

أُعيدَ الاسْمُ الموصولُ في قولِه تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ بعدَ قولِه أوّلَ الآيَةِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ اهْتمامًا بِالصِّلةِ، ولِلإشارَةِ إلى اسْتِحْقاقِها وَحدَها فيما سَيذكرهُ بعدَها مِنَ الخَبرِ[3]، وهوَ غَفلتُهم عَنِ الآياتِ، وهذا عَلى القَولِ بِأنَّهُمُ المَذكورونَ أوّلَ الآيَةِ، أمّا إنْ جُعِلَ الموصوفونَ بِالغَفلةِ صنفًا آخرَ فلَيسَ مِنَ الإعادةِ في شَيءٍ.

نُكْتَةُ الإتْيانِ بِالجُملةِ الاسْميّةِ: ﴿هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾:

غَفْلةُ المعانِدينَ ثـابِـتَـةٌ كَـثُـبـوتِ انْـهِـمـاكِـهـم في الشَّهَواتِ

آثَرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بِالجملةِ الاسميّةِ في قولِه تَعالى: ﴿هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ فَلم يَقُلْ مثلًا: (والّذين غَفلوا عَن آياتِنا) بالجُملةِ الفعليّةِ؛ لِمَجموعةٍ مِنَ النِّكاتِ:

(1) ابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/353.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/123.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/100.

أوَّلُها: أنّهُ أرادَ مِن مَعنى الغَفلةِ إهمالَ النّظرِ في الآياتِ أصلًا، والإعراضَ عَنها، أيْ: إنّهم غافلونَ عنْ آياتِنا عَلى الدّوام، ولَيسَ المرادُ مَنْ تكونُ الغفلةُ عَليهِ ظَرفًا طارئًا فيَغفلُ عنْ بعضِ الآياتِ في بعضِ الأوقاتِ[1]، بلْ أرادَ دَوامَ الغَفلةِ بِما تَدلُّ عَليهِ الجُملةُ الاسْميّةُ مِنْ مَعنى الثّبوتِ والدّوام[2].

ثانيها: تَحقيقُ التّغايرِ بينَ هذهِ الجملةِ وما سَبقَها مِنْ جملٍ فعليّةٍ؛ فيُنَزَّلُ التّغايرُ الوصفيّ منزلةَ التّغايرِ الذّاتيّ الحقيقيّ؛ ليؤذِنَ بالاختلافِ بينَ هذا الوصفِ الاسْميّ وما سبقَ مِنَ الأوصافِ الفعليّةِ الأوّلِ، وأنّ الموصوفينَ بالغفلةِ يَستحقّونَ العذابَ على جهَةِ الاستقلالِ.

ثالثُها: في التّعبيرِ بالجملةِ الاسْميّةِ الدّالّةِ على غَفلتِهم توكيدٌ مِنَ الحقِّ سبحانَهُ عَلى تلكَ الغَفلةِ بموجِبِ انْغماسِهم في الأهواءِ والشّهواتِ والملذّاتِ وإسرافِهم فيها[3].

نُكْتَةُ تَقديمِ المسْنَدِ إلَيْهِ: ﴿هُمۡ﴾ ومَجيءِ المسْنَدِ اسْمَ فاعِلٍ ﴿غَٰفِلُونَ﴾:

غَفْلَةُ المُنْكِرينَ لا يُرْجى انْتِباهُهم مِنها

قُدِّمَ المسندُ إليْهِ ﴿هُمۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾، وجيءَ بالمسندِ ﴿غَٰفِلُونَ﴾ اسمَ فاعلٍ للإشارةِ إلى أنّهُم "غافِلونَ ذاهلونَ معَ غايةِ وضوحِها وظهورِها غَفلةً لا يُرجى انْتِباهُهم مِنْها أصلًا"[4]، ولا يَقَظتُهم مِن سُباتِها السَّرمديِّ؛ لانْطِماسِ العُقولِ، وغيابِ القُلوبِ.

فائدَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿عَنۡ ءَايَٰتِنَا﴾:

انْحِصارُ الغَفْلَةِ في آياتِ اللّه خاصّةً تَمامُ التّعاسَةِ في الدّارَينِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَنۡ ءَايَٰتِنَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ على المسْندِ ﴿غَٰفِلُونَ﴾، وفائدةُ تقديمِه: القصْرُ للمبالغةِ، وهو "كونُ غفلتِهم غفلةً عنْ آياتِ اللّه خاصّةً دونَ غيرِها مِن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/100، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/123.
(2) القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 1/76.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3521.
(4) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة والمفاتح الغيبيّة: 1/326.

الأشْياءِ"[1]، فكأنّه جعلَ الغفلةَ مَقصورةً عَلى غَفْلتِهم عَنْ آياتِ اللّه عَلى سبيلِ المبالغةِ لا الحقيقةِ؛ لأنّ غَفَلاتِهم كثيرةٌ لا يَحدّها حصرٌ.

نُكْتةُ الإضافةِ في ﴿ءَايَٰتِنَا﴾:

تَعظيمُ الآياتِ وإدْخالُ المهابَةِ في نفوسِ المخاطَبينَ

أُضيفتِ الآياتُ إلى ضميرِ العظَمةِ في قولِه تعالى: ﴿عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾ أيْ: "عَن آياتِنا التَّنزيليَّةِ والكونيّةِ الدّالّةِ على وَحدانيّتِنا وقُدرتِنا"[2]، تَعظيمًا وتَشريفًا لِتلكَ الآياتِ والحجَجِ، ولإدْخالِ المهابَةِ في نفوسِ المخاطَبينَ.

بَلاغَةُ تَرتيبِ الجُملِ في الآيَةِ الكَريمَةِ:

قامَ التّرتيبُ على ذِكرِ النّتيجَةِ قَبْلَ سَبَبِها، وعَطفِ العِلّةِ عَلى نَتيجَتِها

جاءَ ترتيبُ الجُمَلِ في قولِه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ بِعطفِ الواحدةِ عَلى الأُخْرى بالواوِ، فعَطَفَ جُملةَ الرّضا بالحياةِ الدُّنيا على جُملةِ نَفيِ الرّجاءِ، وعَطفَ جملةَ الاطْمئنانِ على جُملةِ الرّضا، وعَطفَ جُملةَ الغَفلةِ عَنِ الآياتِ على جُملةِ الاطْمئنانِ، وذلكَ على جَعلِ الموصولِ الثّاني عَيْنَ الأوّلِ، من بابِ ذِكْرِ النَّتيجةِ قَبلَ سَبَبِها، فَهؤلاءِ لا يَرجونَ لقاءَ اللّه؛ لأنّهم رضوا بالحياةِ الدُّنيا، ثمَّ إنَّهم رَضوا بها لأنّهم اطمَأنّوا، واطْمَأنّوا بعدَ أنْ غَفلوا، فالغَفلةُ أصلُ البلاءِ الّذي أَتى بالطّمَأنينة، والطّمأْنينَةُ والرُّكونُ إلى الدُّنيا ورَّثَ الرِّضا بِها، فكانتِ الطّامَّةُ الكُبْرى، وهي إنكارُ البَعْثِ.

سِرُّ التَّعبيرِ باسْمِ الإشارَةِ لِلبَعيدِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

المنْكِرونَ لِلبَعْثِ جَديرونَ بِصِفاتِ الخَسارَةِ مُسْتَحقّونَ لِمآلِهِم

عبّرَ باسْمِ الإشارَةِ للبعيدِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ ولَوْ قالَ مباشرةً: (مأواهُمُ النّارُ)؛ لَأفادَ الخَبرُ المَقصودَ، لَكِنّهُ جاءَ باسْمِ الإشارةِ عقبَ الأوصافِ الّتي وُصِفوا بها زيادةً في إحصاءِ صِفاتِهمُ المذْمومةِ في أذهانِ السّامعينَ، وإيذانًا بأنَّ المشارَ إليهم جديرونَ بالخبَرِ، وهوَ استقرارُهُم في نارِ جهنّمَ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/100.

(2) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 7/28.

مِنْ أجلِ تلكَ الأوصافِ[1] مِن نَفْيِ الرّجاءِ، والرّضا بالحياةِ، والغفلةِ عَنِ الآياتِ، فكأنّهُ يقولُ: أَرأيتَ مَصيرَ هؤلاءِ الّذينَ هذهِ صفتُهم؟ مأواهُم النّارُ وبِئسَ المِهادُ[2]، فاسْمُ الإشارَةِ جمَعَ تلكَ الأَوْصافَ وصبَّها عَليهِم؛ لِتَكونَ سَببًا في دُخولِ النّارِ.

فائدَةُ الإخْبارِ بالجُملةِ الاسْميّةِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾:

قولُه تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ وقعَتْ خبرًا لقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾، وفائدةُ الإخبارِ بها أنّهم لَمّا لم يتوقّعوا لقاءَ الحقِّ ﷻ؛ انْكبّوا عَلى المَلَذّاتِ والشّهواتِ، وركَنوا إلى الدُّنيا، وغَفلوا عَنْ آياتِه تَعالى الكونيّةِ والتّكليفيّةِ، فكانَ ذلكَ تأكيدًا لِمدعاةِ الحُكم عَليهم وهوَ أنْ يكونَ مأواهُم النّارَ[3].

الغَفْلَةُ عَن آياتِ اللهِ سُبحانَهُ تورِثُ الانْكِبابَ عَلى الشَّهواتِ

سِرُّ التَّعبيرِ بالنّارِ دونَ جهنّمَ:

عبّرَ بالنّارِ في قولِه تعالى: ﴿مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ دونَ اسْمِ جهنّمَ؛ لأنّهُ أرادَ الإشارَةَ إلى أنَّ هذهِ الأرواحَ كانتْ مُنغمسةً مُستغرقةً في حبِّ الشّهواتِ الجسمانيّةِ والمَلَذّاتِ المادّيّةِ مع غَفلتِها عنِ الفيوضاتِ الرّوْحانيّةِ، فحينَ يموتُ الإنسانُ وتقعُ الفُرقةُ بينهُ وبينَ ما كانَ يحبُّ منَ تلكَ المُلهياتِ؛ فإنّهُ بمنزلَةِ مَنْ يَحترقُ بنارٍ ويَتألّمُ[4]، فالآيَةُ ذَكرتِ النّارَ باعْتبارِ إيقاعِ الألَم على المُنكرينَ بمَعناهُ الحسّيِّ، وبِمَعْناهُ المَعْنويِّ، فَهُم يَحترقونَ مَرَّتين، مرّةً بِنارٍ مَحْسوسَةٍ، ومرّةً بِنارِ مُفارقَةِ مَلَذّاتِ الحياةِ الدُّنيا.

الاحْتِراقُ يَكونُ بالنّارِ المَحْسوسَةِ وبِنارِ مُفارَقَةِ مَلَذّاتِ الحَياةِ الدُّنيا

مَعْنى الباءِ في: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾:

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ تُفيدُ مَعنى السّببيّةِ[5]،

البـاءُ دالّةٌ على السَّببيَّةِ فَعَذابُهم بِسَبَبِ أعْمالِهِم

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/100.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/25.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3521.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 8/229.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/100.

ومعْنى الآيةِ يَشِي بأنّ أعمالَهُمُ السّالفةَ هيَ السّببُ في حدوثِ هذا العذابِ لَهم[1]، كقولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٠﴾ [الحج: 10].

نُكْتَةُ الإِتْيانِ بِالاسْمِ الموْصولِ:

الإيماءُ إلى عِلّةِ الحُكمِ لِتأكيدِ السّببيّةِ

الإتيانُ بالاسمِ الموصولِ (ما) في قولِه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ يومئُ إلى علّةِ الحكمِ، والمعْنى: أنَّ مكسوبَهم علّةٌ في أنْ كانَ مصيرُهم إلى النّارِ؛ فالاسمُ الموصولُ أفادَ تأكيدَ السّببيّةِ الحاصلةِ بموجَبِ الباءِ[2]، وجيءَ بـ (ما) دون (الّذي) للدّلالةِ على العمومِ، دونَ قَصْدِ الإشارةِ إلى شيءٍ مَخصوصٍ بذاتِه.

فائدَةُ ذِكْرِ ﴿كَانُواْ﴾:

الدّلالةُ عَلى أنَّ هـذا المَكْسـوبَ دَيْدَنُهُمْ

أفادَ ذكرُ الفعلِ النّاقصِ ﴿كَانُواْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أنّ كسبَهم كان طبعًا غالبًا عليهم[3]، وللدّلالةِ على أنّ الّذي اكْتَسَبوهُ إنّما هو دَيْدَنُهم[4] وخصْلَتُهُم الّتي لا يَستطيعونَ عَنْها فِكاكًا، فَلَم يَكُن ما صَدَر عَنْهم مِن إنْكارِ البَعْثِ والرّضا بالحياةِ الدُّنيا والاطْمِئنانِ بِها أمرًا عابِرًا، بَل هوَ حَياةٌ وسُلوكٌ دائمٌ لا يَفتُرُ، ولا يفترُ صاحبُهُ عَنْهُ.

غَرَضُ التّعبيرِ بالمضارِعِ: ﴿يَكۡسِبُونَ﴾:

تَـأكـيـدُ تَـكـرارِ الكَسْبِ الصّادِرِ عَنِ المعانِدينَ

عبّرَ بصيغةِ المضارِعِ ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ في الآيَةِ للدّلالةِ عَلى تَكريرِ فِعلِ الكَسْبِ السَّيِّئِ مِنهُم؛ فقدْ كانَ هذا دأبَهم، وما زالوا مُستمرّين على ذلكَ في ماضي زَمانِهم ومُسْتَقْبلِه[5]، وهو الّذي أوردَهُم نارَ جَهنّمَ لِقُبْحِهِ وشَناعَتِه، فَقامَ التّعبيرُ بالمضارعِ مَقامَ التّأكيدِ لما

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/212.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/100.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/78.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/100.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/16.

أفادَهُ ذِكْرُ الفعلِ ﴿كَانُواْ﴾، وهذا مِن بَديعِ الائْتِلافِ بينَ مُفْرَداتِ النَّظمِ القُرآنيِّ.

فائِدَةُ حَذْفِ مُتَعَلّقِ: ﴿يَكۡسِبُونَ﴾:

اشْتِمالُ الكَسْبِ عَلى جَميعِ الأَعْمالِ الباطِلَةِ، أوْ تَنْزيلُ الفِعْلِ مَنْزِلَةَ اللّازِمِ قَصْدَ التَّلَبّسِ بِهِ

حُذِفَ متعلّقُ فعلِ الكسْبِ في قولِه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، وذلكَ يُفيدُ عُمومَ ما كَسبَتْهُ أَيْديهم مِنَ الأعْمالِ، أيْ: يَكْسبونَ مِنَ المعاصِي والذّنوبِ والكُفْرِ والتّكذيبِ[1]، أوْ تَنْزيلَ الفعلِ مَنْزِلَةَ اللّازم قَصْدَ التّلَبّسِ بِه كأنّهُ جعلَ الفعلَ مُتلبّسًا بِفاعِلِه كَأَفْعالِ السّجايا اللّازمَةِ للفعلِ القائِمَةِ بِهِ، بمَعْنى: أيّ كَسبٍ يَكسبونَهُ صَغيرًا كانَ أوْ كَبيرًا، فإنّهم مَجْزيّونَ مُحاسَبونَ على جَميعِ ما يَكْسِبونَ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرِّضا والطَّمَأْنينَةُ:

الرِّضا قَبولٌ وَتَشَبُّعٌ بِالمَرْضِيِّ بِهِ، والطَّمَأْنينَةُ سُكونٌ بَعْدَ انْزِعاجٍ

الرّضا ضِدُّ السّخطِ؛ وهوَ القبولُ والقناعةُ، وهوَ التّشبُّعُ والامتلاءُ للنّفسِ رقّةً ولَطافةً[2]، أمّا الطّمأنينةُ فهي السّكونُ بعدَ الانزعاجِ[3]، والفَرقُ بينهُما واضحٌ، وقدْ عبّرَ بالمُفْرَدَتينِ في قولِه تعالى: ﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾؛ لتكامُلهِما معنًى، بادئًا بالرّضا، فقدْ تشبّعوا بالحياةِ الدّنيا ومَلذّاتها وشَهَواتِها، فإذا تشبّعوا سَكَنَتْ نفوسُهم إلَيها وآثَروها ورَكَنوا إلَيها؛ فعابَ عَلَيْهِمُ المَوْلى تَعالى فِعلَهم ذاكَ في هذهِ الآيةِ[4].

المأْوى والمثْوى:

المأْوى مَكانُ إِيواءِ النّاسِ بِسَعيٍ وعَمَلٍ، والمثْوى مَكانُ الإِقامَةِ مُطْلَقًا

المَأْوى: اسمُ المكانِ الّذي يَأْوي إلَيْهِ النّاسُ فيَرْجعونَ إلى مَصيرِهم ومَرْجِعِهم[5]، ويكونُ بعدَ سَعْيٍ وتَحصيلٍ لِلوصولِ إليْهِ، أمّا

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/312.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (رضو - رضى).
(3) الراغب، المفردات: (طمن).
(4) أبو عبيد، غريب الحديث: 2/203.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/100.

المَثْوى: فهوَ المكانُ الَّذي يُقامُ فيه[1] فَيَبْلُغهُ المرءُ بعدَ عناءٍ ومُكابدةٍ، ويَصلُ إليهِ منْ غيرِ تخطيطٍ ولا تدبيرٍ سابقٍ، سواءٌ أكانَ مَثوى سوءٍ، أوْ مَثوى راحَةٍ وكرامَة، وقدْ أطْلقَ المَأْوى عَلى النّارِ في هذهِ الآيَةِ، وفي القُرآنِ الكَريمِ أُكْثَرَ منْ إطلاقهِ على الجنّةِ، وفي إطلاقِه على دارِ العَذابِ مَغزًى دقيقٌ في البلاغةِ؛ إذْ فيهِ إشعارٌ بأنَّ من اطْمأنَّتْ نفسُهُ بالشّهواتِ وغفلتْ عنِ الآياتِ لا مصيرَ لهُ ولا ملجأَ بعدَ أهوالِ القيامةِ إلّا جَهَنّم دار العَذابِ، فهيَ مَأواهُ ومَلجَؤهُ، وكأنّهُ بشهواتهِ ومَلذّاتهِ قدْ سَعى وخطَّطَ لِلوصولِ إليها[2].

الكَسْب والعَمَل:

الكَسْبُ: هوَ الفعلُ الّذي يعودُ على فاعلهِ بنفعٍ أوْ ضرٍّ، والكسبُ ما يقعُ بمراسٍ وعلاجٍ، وهوَ ما فُعِلَ بجارِحَةٍ[3]، والكسبُ يحصلُ بالابتغاءِ والطّلبِ ويقترنُ كثيرًا بأفعالِ السّوءِ؛ ولذلكَ وردَتْ مفردةُ ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ سببًا وعلّةً لِمَن يكونُ مصيرُ أصحابها النّارَ كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٦﴾ [الأعراف: 96]، ومِثْلها ما وردَ في هذهِ الآيةِ تمامًا؛ فإنَّ كَسبَهُم السّيئاتِ أَوْرَدَهُمُ النّارَ، وفي ذلكَ مَغْزًى دقيقٌ وهوَ أنَّ التّعبيرَ بالفِعلِ ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ فيهِ تبشيعٌ لحالهِم، فكأنَّ ابتغاءَهم وتحصيلَهم وطلبَهم قدْ أَوْرَدَهُمُ المَهالِكَ، وهُم يَظنّونَ أنّ فيهِ فَلاحَهُم، أمّا العَمَلُ فَهوَ عامٌّ في كلِّ ما يمارَسُ منْ عملٍ[4].

الكَسْبُ ابْتغاءٌ وتَحصيلٌ، والعملُ عامٌّ في كُلّ ما يُمارَسُ مِن فِعْلٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثوي).
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/252.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 453.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كسب).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩﴾ [يونس: 9]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

المُقابَلَةُ بَيْنَ الأضْدادِ بُرْهانٌ ناصِعٌ ودَليلٌ ناطِقٌ

لَمّا بيّنَ جزاءَ الفريقِ الأوّلِ مِنَ المكلّفينَ ممّنْ لم يَرجُ لقاءَهُ ورضيَ بالدّنيا واطمأنَّ بها وغفلَ عنْ آياتِه؛ وأنَّ مصيرهُ النّارُ؛ ناسَبَ أنْ يُبيِّن حالَ الفريقِ الآخَرِ ممَّن آمَنَ وعَملَ الصّالحاتِ، فإنَّ السّامعَ تَستشرفُ نفسُهُ معرفةَ جَزاءِ الفريقِ الآخرِ ومَصيرِه[1]، فالمناسَبَةُ بَين الآياتِ مُناسبةٌ في المقابَلاتِ، الّتي سَمّاها بَعضُ المُفَسِّرينَ بالمَثاني[2].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿يَهۡدِيهِمۡ﴾: فِعلٌ دالٌّ على الحالِ والاستقبالِ، الجذرُ اللّغويّ منهُ: الهاءُ والدّالُ والياءُ، ومنهُ: الهُدى؛ وهوَنقيضُ الضّلالةِ وخلافُها، ومنْ معانيهِ: البيانُ، ومنها: إخراجُ شيءٍ إلى شيءٍ، ومنها: الدّلالَةُ إلى الطّريقِ، ومعناهُ يقومُ على أصْلينِ؛ أحدُهما: التّقدّمُ لِلإرشادِ، والآخرُ: إرسالُ هديّة، وهما مُتقارِبانِ في مَعْناهُما، فالمتقدّمُ هادٍ، وذَكرَ الرّاغبُ في معنى الهُدى أنّهُ التّلطّفُ في الدّلالةِ، ومنهُ الهدايةُ في الآخرةِ إلى الجنّة، وتَبيُّنُ الوجهةِ بالتّقدُّمِ أوِ الكشفِ[3]، ومَعنى ﴿يَهۡدِيهِمۡ﴾ في الآيَةِ: يُرْشِدُهُم بإيمانِهم إلى جَنَّتِه تَعالى[4].

2) ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾: اسْمٌ مفتوحُ النّونِ، جذرهُ اللّغويّ: النّون والعَين

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/252.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/82.
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (هدي).
(4) مكّي القيسيّ، الهداية الى بلوغ النّهاية: 5/3223.

والميمُ، ومَعنى النّعمةِ: الخفضُ والدّعةُ والمسرّةُ، ولها معانٍ كثيرةٌ في لغةِ العربِ، وهيَ على "كثرتِها راجعةٌ إلى أصلٍ واحدٍ، يدلّ على ترفّهٍ وطيبِ عيْشٍ وصلاحٍ، ومنهُ النّعمةُ: ما يُنْعِمُ اللّه تعالى بِهِ على عَبْدِهِ مِنْ مالٍ وعَيْشٍ، يُقالُ: للّه تَعالى عَلَيْهِ نِعْمَةٌ، والنّعمةُ: المنّةُ، وكَذا النّعماءُ، والنَّعْمَةُ: التّنعّمُ وطيبُ العَيْشِ"، وكونُ المرءِ في حالةٍ حَسَنةٍ فهوَ في نِعْمَةٍ، والنَّعيمُ حَيْثُما وَرَدَ في القُرآنِ فهوَ دالٌّ عَلى الكَثْرَةِ والعَطيَّةِ الوافِرَةِ، والمعْنى المجرّدُ لِلنّعمَةِ: الرّقّةُ واللّيونةُ والخلوُّ مِنَ الغِلْظَةِ والشِّدَّةِ[1]، والنَّعيمُ في الآيَةِ بِمَعْنى الجنّاتِ التّي لَيْسَ لَهُم فيها إلّا أنْ يَتَنَعَّموا بها تَنَعُّمًا خالِصًا لا يَشوبُهُ تَنْغيصٌ أوْ نَقْصٌ[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإيمانُ سَبَبُ الهِدايَةِ في بُلوغِ جَنّاتِ النَّعيمِ

أَخبرَ الحقُّ ﷻ عَلى مُقْتَضى سُنَّتِهِ مِنْ تَعقيبِ الوَعيدِ بالوَعْدِ عَنْ طائفةٍ مِنْ عِبادِهِ المؤمنينَ الموَحّدينَ الّذينَ يَعملونَ الصّالحاتِ الّتي أَمرَ بها لإِصْلاحِ أَحْوالِهم[3]، أنّهُ تَعالى يُرشِدُهم بنورِ إيمانِهم يَسيرونَ فيهِ إلى ما فيهِ الخيرُ والسّدادُ بما لهم مِنَ اليقينِ؛ حتّى يَصِلوا إلى مَرْغوبِهم في جنّاتِ النّعيمِ التّي لا يَشوبُها تَنْغيصٌ ولا لَغوٌ ولا تأثيمٌ.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغَةُ الاسْتِئْنافِ البَيانيّ في الآيَةِ:

مُقابَلَةُ حالِ المؤمنينَ بِحالِ الكافِرينَ تَنْويهٌ بِشَأْنِهِم وإغاظَةٌ للكافرينَ

قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ جملةٌ مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لتكونَ أحوالُ المؤمنينَ مستقلّةً غيرَ تابعةٍ لأحوالِ ذلكَ الفريقِ اهتمامًا بهم؛ فإنَّ النَّفْسَ - بعدَ ذكرِ أحوالِ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نعم).

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/611.

(3) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 1/327.

الكافرينَ - تتشوّقُ لمعرفةِ أحوالِ الفريقِ الآخرِ؛ فينشأُ سؤالٌ عنْ ذلكَ ببيانِ صفتِهم واستحقاقِهم جنّاتِ النّعيمِ المقيم، وهوَ منْ بابِ التّنويهِ بالمؤمنينَ وإغاظةِ الكافرينَ[1].

غَرَضُ تَقْديمِ المسْنَدِ إلَيْهِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

تَشْويقُ السّامِعِ لِمَعْرِفَةِ ما يَتَوَقَّعُهُ نَصًّا أكيدًا

قدّمَ المسْنَدَ إليهِ وهوَ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، والتَّقديمُ وإنْ كانَ على أصْلِه إلّا أنَّهُ يولّدُ التَّشويقَ لَدى السّامعِ مُنْتَظِرًا مَعرِفةَ الحُكمِ، ومُترقّبًا الخبرَ، لا سيَّما بَعْدَ ذِكْرِ حالِ الكافرينَ، ومَع وجودِ تَوقُّعِ الجَزاءِ؛ فإنَّ النَّفسَ تَطْمَحُ في مَعْرِفَةِ النَّصِّ على ذلكَ؛ وهوَ الهدايةُ واسْتِحْقاقُهُم جَنّاتِ النّعيمِ؛ فَفي ذلكَ تَهْيِئَةٌ وتَوْطِئَةٌ لِتَلَقّي نَوعِ الجزاءِ لَدى السّامعِ.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموْصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الإيماءُ إلى عِلّةِ بِناءِ الخبرِ

التّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ الجَمْعِي ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لِلإيماءِ إلى العِلّةِ الّتي بُنِيَ من أجْلِها الخبرُ، فالإيمانُ المقترَنُ بالعمَلِ الصّالحِ عِلّةٌ في حُصولِ الخبرِ الدّالِّ على هِدايَتِهِم وجَدارَتِهم لجنّاتِ النّعيمِ[2].

غَرَضُ اقْتِرانِ الإيمانِ بِعَمَلِ الصّالحاتِ:

الإيمانُ شَرْطُ الأعْمالِ الصّالحَةِ، والصّالحاتُ بُرْهانُ صِدْقِ الإيمانِ

اقترانُ الإيمانِ بعملِ الصّالحاتِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ كاقْترانِ القوّةِ النّظريّةِ بالقوّةِ العَمليّةِ؛ فالتّعبيرُ بالإيمانِ إشارةٌ إلى القوّةِ النّظريَّةِ بمعرفةِ الحقِّ ﷻ - وإنْ كانَ الإيمانُ شرْعًا يَعمُّ القوْلَ والعملَ والاعتقادَ - ، والتّعبيرُ بعملِ الصّالحاتِ إشارةٌ إلى القوّةِ العَمليّةِ بخِدْمَتِه تَعالى[3]، فَلا اسْتِغناءَ لِأَحدِهما عَنِ الآخَرِ؛ لِأَنَّ الإيمانَ المُنْبَتَّ عَنِ العملِ الصّالحِ لا توفيقَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/101.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/101.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/213.

لهُ ولا نورَ[1]، والإيمانُ المضمومُ إليهِ العملُ الصّالحُ ورَدَ كثيرًا في القرآنِ الكريمِ بما يَرْبو على خَمسينَ مَوضعًا.

بَراعَةُ الإطْنابِ بِعَطْفِ العَمَلِ الصّالِحِ عَلى الإيمانِ:

العَمَلُ الصّالِحُ مِنَ الإيمانِ، وهوَ مِن أَفْرادِهِ المُهِمَّة

في قولِ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عَطْفُ العملِ الصّالحِ على الإيمانِ، وهو مِن بابِ الإطْنابِ بعَطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لأنَّ حقيقةَ الإيمانِ شرعًا: أنَّه قولٌ وعمَلٌ واعتقادٌ، والنُّكْتَةُ في هذا العَطْفِ: التّنبيهُ على فَضيلةِ العَملِ الصّالحِ بذِكْرِهِ مرَّتينِ، إحْداهُما: مُنْدَرِجًا تحتَ لَفْظِ الإيمانِ، والأُخْرى: مُنْفَرِدًا.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بِصيغةِ الماضي:

الإيمانُ حَقيقَةٌ ثـابِتَـةٌ تَـقـومُ بِالقَلْبِ والعَمَلُ الصّالِحُ مُقْتَرِنٌ بِهِ

عبّرَ عَنِ الإيمانِ وعَملِ الصّالحاتِ بِصيغَةِ الماضي في قولِ اللّه سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأنَّ الإيمانَ حقيقةٌ ثابتةٌ تَقومُ بالقَلْبِ، والعَمَلُ الصّالحُ مُقْتَرَنٌ بها، فكِلاهُما دالٌّ على الثّبوتِ والدّوامِ وأنَّهُ أمرٌ ثَبتَ واسْتقرَّ، كَما هوَ شَأنُ الفِعلِ الماضي، ولِذا أوْرَدَهُ بهذهِ الصّيغَةِ.

دلالَةُ تَقْديمِ الإيمانِ عَلى العَمَلِ الصّالِحِ:

الإيمانُ مَعْرِفَةٌ رَبّانِيَّةٌ والعَمَلُ قُوَّةٌ سُلوكيَّةٌ

قدّمَ ذِكْرَ الإيمانِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على العَملِ الصّالحِ ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأنَّ الأولى: قوّةٌ نَظريّةٌ، وكَمالُها يَتحقّقُ في المَعرفةِ الرَّبّانيةِ، والثّانيَةَ: قوّةٌ عمليَّةٌ، وكمالُها يتحقّقُ في الأفعالِ الخيريّةِ، فلمّا كانتْ معرفةُ اللّه تعالى مقدّمةً على تنفيذِ أوامرِهِ العَمليَّةِ بالشّرفِ والرّتبةِ والفضلِ وجبَ تقديمُها[2].

كما أنَّ تقديمَ الإيمانِ على العملِ الصّالحِ هو منْ بابِ تقديمِ السّببِ على النَّتيجةِ؛ فإنَّ العملَ الصّالحَ ثمرةٌ منْ ثمارِ الإيمانِ[3]؛

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/331.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/213.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3523.

فلا يُقبلُ إيمانٌ منْ غيرِ عملٍ صالحٍ إلّا منْ رجلٍ آمنَ ثمَّ بادرهُ أجلُهُ قبلَ أنْ يعملَ عملًا صالحًا.

بَلاغَةُ الإخْبارِ بِالجُملَةِ الفِعْليَّةِ المُضارِعيَّةِ:

هِدايَةُ المؤمنينَ مُتَجَدِّدَةٌ، وهيَ بِمَعْنى الثَّباتِ والدَّوامِ الموصِلِ إلى الجنّاتِ

قولُه تعالى: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم﴾ جملةٌ خبريّةٌ عمّا سَبَقَتْها منْ جملةِ الإيمانِ والعملِ الصّالحِ[1]، والإتيانُ بها بِصيغَةِ المضارِعِ إيذانٌ بأنَّ هذهِ الهدايَةَ على وجهِ التَّكرارِ والتّجدّدِ والاستمرارِ حتّى تصلَ نفوسُهم إلى مراتبِ الكمالِ[2].

ولّما ابتدأَ بالمسْندِ إليَهِ جاءَ به اسْمًا موصولًا ﴿ٱلَّذِينَ﴾ لِدلالَتِهِ على الثّباتِ، ثمّ جاءَ بِصِلَتِه وما عُطفَ عَليها بِصيغةِ الماضي ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ وتماشيًا معَ السّياقِ الظّاهرِ فَما يَقْتَضيهِ الظّاهرُ أنْ تكونَ الهدايةُ قدْ تحقَّقتْ فيهم، فيكونُ التّعبيرُ بِها بالماضي أيضًا، لكنّهُ عدلَ إلى المضارعِ بِقولِه: ﴿يَهۡدِيهِمۡ﴾ الدالُّ على التّجدّدِ والاسْتمرارِ، وسِرُّ ذلكَ أنّهُ شاءَ مقابَلَةَ هذا الوصْفِ بما مرَّ منْ وصفِ الفرقةِ الهالكةِ وهمُ الكافرونَ؛ فإنّهُ وصفَهم بالرّضا بالحَياةِ الدُّنيا والاطْمئنانِ بها بالماضي لِلدّلالةِ عَلى تَحَقُّقِهما، ثمَّ أَعْقَبَهُ بِفعلِ الكَسْبِ مُضارِعًا مُتَجدّدًا مُسْتمرًّا[3]؛ فجاءَ بفعلِ الفرقةِ النّاجيةِ بالإيمانِ والعملِ ماضيَيْنِ لِلدّلالةِ على وقوعِهما وتَحَقّقِهما، وأعقبَهما بفعلِ الهدايةِ مُضارِعًا دالًّا على التّجدّدِ والاستمرارِ[4] فتَطابَقَتِ الفِرقتانِ في التّعبيرِ بهذهِ الصّيَغِ.

ولا يَتعيَّنُ أنْ يكونَ مَعنى ﴿يَهۡدِيهِمۡ﴾ يُرْشِدهُم إلى الإيمانِ؛ لأنَّ الإيمانَ قدْ تَقرَّرَ وتَحقّقَ بقولِه: ﴿ءَامَنُواْ﴾ بِصيغةِ الماضي، وإنّما

(1) المنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 3/350.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/102، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/79.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/122.

(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/252.

المَعْنى: أنْ يُديمَهم ويُثَبِّتهم على الإيمانِ، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ [النساء: 136] والمعْنى: اثْبُتوا عَلى إيمانِكُم(1).

سِرُّ الإتْيانِ بِعُنوانِ الرّبوبيّةِ: ﴿رَبُّهُم﴾:

الرّبوبيَّةُ عُنوانُ الإحْسانِ والعِنايَةِ بما يُرْشِدُ المؤمِنينَ لِلخَيرِ

جاءَ قولُه تعالى: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم﴾ بِعُنوانِ الرّبوبيَّةِ لإظْهارِ مَزيدِ اللّطفِ والعِنايةِ وأنّهُ المحسنُ إليَهِم(2)، وأورَدَهُ بعدَ فعلِ الهدايَةِ؛ لأنَّ الرّبَّ ناظِرٌ في مَصالِحِ العبادِ ومدبّرُ أحْوالِهم، وهوَ يربّي النّفوسَ المؤمنةَ بما يُرْشِدُها ويَجعلُها مؤهَّلَةً لِقَبولِ الخَيرِ(3).

غَرَضُ الإضافَةِ ﴿رَبُّهُم﴾:

التَّنْويه بِشَأْنِ المؤمِنينَ وشَأْنِ هِدايَتِهِم الّتي جَعَلَها عَطيَّةً كامِلَةً لِأَوْليائِهِ

آثَرَ النَّظْمُ القُرآنيُّ التَّعبيرَ بِعنوانِ الرّبوبيَّة بَدلًا من الاسم الأحْسَن (اللّه) مُضافًا إلى ضَميرِ المؤمنينَ فَقال سُبحانَهُ: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم﴾ تَنْويهًا بِشَأنِهم وشَأنِ هِدايتِهمُ الّتي جَعَلَها عَطيّةً كامِلَةً مَشوبَةً بالرّحمَةِ والكَرامةِ لِأوليائِه(4)، فَصُدورُها مِنَ الرّبِّ المُحْسِنِ اللّطيفِ بِعبادِهِ أنْسَبُ وأليَقُ منْ أنْ يعبّرَ باسْمٍ ثانٍ غيرِ الرّبِّ.

معْنى الباءِ في: ﴿بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾:

الإيمانُ سَبَبُ الهِدايَةِ ووَصْفِ العَمَلِ بالصّالِحِ

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾ تُفيدُ التّعليلَ لِيَحصلَ معهُ التّحقيقُ، ويؤذِنَ بأنّ هذا الإيمانَ لَهُ أثرٌ عظيمٌ في تَحصيلِ البُغيَةِ(5)، فلَولا الإيمانُ لَما وُصِف العملُ بالصّالح، ولو كانَ في نَظَرِ النّاس صالحًا.

كَما أنَّ الإيمانَ في قولِه تعالى: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾ سببٌ في مضمونِ الخبرِ ﴿يَهۡدِيهِمۡ﴾؛ فيَتَحصّلُ من ذلكَ كونُ الباءِ مؤكّدةً لِلسّببِ المستفادِ مِنَ التّعريفِ بالاسمِ الموصولِ، فيجعلُ اللّهُ للإيمانِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/107.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/79.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3522.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/102.
(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/428 - 429.

نورًا يوضعُ في قلبِ المؤمنِ فيكونُ دافعًا لتحريكِ النّفسِ بالنّزوعِ إلى الصّلاحِ والكمالِ[1].

بَلاغَةُ الاكْتِفاءِ بِذِكْرِ الإيمانِ:

الاكْتِفاءُ بِذِكْرِ الإيمانِ تَنْبيهٌ عَلى مَكانَتِهِ الجَلِيَّةِ ومَنْزِلَتِهِ العَلِيَّةِ

ذُكِر في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الإيمانُ والعملُ الصّالحُ، لكنْ لمّا قالَ: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾ اكْتفى بذِكرِ الإيمانِ دونَ التَّصريحِ بالعملِ الصّالحِ؛ فيُسألُ عنْ هذا الاكْتفاءِ؟ والجَوابُ عنْ ذلكَ: أنَّ العملَ الصّالحَ هوَ ثمرةٌ منْ ثمارِ الإيمانِ الّذي هوَ النّورُ الهادي والسّراجُ المنيرُ لِبَني الإنسانِ؛ فذِكرُ الإيمانِ يسْتَتبعُ ذِكرَ العملِ الصّالحِ لُزومًا، إذْ لا يُتصوَّرُ الإيمانُ بدونِ العَملِ الصّالِح، ولمّا كانَ الإيمانُ سَببَ العَمَلِ الصّالحِ اكْتُفي بِذِكرِه تنبيهًا عَلى مَكانَتِهِ الجَليّةِ، ومَنزلَتِهِ العَليَّة.

أوْ يُقال: إنَّهُ اكْتفى بالتَّصريحِ بالإيمانِ؛ إيماءً إلى أنَّ العمَلَ الصّالحَ مُنْدَرِجٌ فيهِ؛ إذْ إنَّ حقيقةَ الإيمانِ شَرعًا أنَّها قوْلٌ وعَملٌ واعْتقادٌ، فالعَملُ الصّالحُ منْ أفرادِ الإيمانِ.

مَوقِعُ: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

الإيمانُ يورثُ النَّعيمَ في الجَنَّةِ

قولُ اللّه تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ إمّا أنْ تكونَ مُسْتأنفةً اسْتِئنافًا بيانيًّا، فإنّهُ لمّا ذكَرَ مصيرَ الفِرقةِ الهالِكةِ وهو النّارُ؛ ذَكَرَ مَصيرَ الفرقةِ النّاجيَةِ في مَعْرِض سؤالِ سائلٍ: فَماذا يَرثونَ من هِدايتِهم تِلكَ؟ فَجاءَ الجَوابُ: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾[2].

وإمّا أنْ تكونَ الجُملةُ خَبرًا ثانيًا للمُسْنَدِ إليهِ المَوصوليّ المَذكورِ أوّلَ الآيَةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وهوَ خبرٌ دالٌّ على نَعيمِهمُ الحاصِلِ بِسببِ هِدايَتِهمُ المَذكورةِ ثَمّ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/101.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/79.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/102.

ويَجوزُ أنْ تَكونَ حالًا مِنَ الضَّميرِ المتّصلِ في ﴿يَهۡدِيهِمۡ﴾، أيْ: يَهديهِم إلى مُرادِهم في هذهِ الحالِ[1].

غَرَضُ التَّعبيرِ بالمضارِعِ ﴿تَجۡرِي﴾:

جَرَيانُ الماءِ دالٌّ عَلى حُسْنِهِ وجَوْدَتِهِ

عبَّرَ عنْ جَريانِ الأنْهارِ في الجِنانِ بالفعلِ المضارعِ: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ في تَصويرٍ بَديعٍ لِذلكَ المشْهَدِ تَشْويقًا وتَرْغيبًا لِما يَنْتظرُ عِبادَ اللهِ المؤمنينَ؛ فَجَرَيانُ الماءِ في تلكَ الجِنانِ مِن أكْمَلِ المحاسِنِ وأنْفسِ المَناظِرِ لَدى البَشَرِ؛ فَفي الماءِ طَبيعةُ الحَياةِ، وفيهِ مُتْعةُ النَّظرِ ولَذّةُ الرّؤْيَةِ[2].

والجَرَيانُ فيهِ تَعْبيرٌ عَنِ الجَودَةِ والإحْسانِ؛ لأنَّ الماءَ الحَسَنَ "ما كانَ جاريًا غيرَ قارٍّ؛ لِأنّهُ يَكونُ بِذلكَ جَديدًا كُلّما اغْتَرفَ منهُ شارِبٌ أوِ اغْتَسلَ مُغْتَسلٌ"[3].

نُكْتَةُ استِعْمالِ حَرْفِ الجَرِّ ﴿مِن﴾:

تَنْبُعُ أَنْهارُ الجَنَّةِ ابْتِداءً مِنْ تَحْتِ المؤمِنينَ وهَذا في غايَةِ الإكْرامِ لَهُم

ذَهَبَ بَعضُ المُفسِّرينَ إلى أنَّ حَرفَ الجرِّ ﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ مَحمولٌ على مَعْنى: مِن دونِهم وبينَ أيْديهم، ولَيسَ المَعْنى أنّها تَجْري مِن تَحتِهم حَقيقَةً مِن أرْضٍ ونَحوِه، لَكنْ كَما يُقالُ: بَلَدُ كذا تَحتَ بَلَدِ كَذا، أيْ: بِجِوارِها أوْ بينَ أيْديها[4].

والأصْلُ أنْ يَكونَ حَملُ الكَلامِ عَلى حَقيقَتِهِ، لا سيَّما في أمورِ الآخِرَةِ الغَيْبيَّةِ، فإنَّ الوقوفَ عَلى ظاهِرِ النَّصِّ وحَقيقَتِه هو عَينُ البلاغَةِ، واسْتِعمالُ حَرْفِ الجرِّ هُنا يُرادُ بِهِ: أنَّ الأنهارَ تَجْري ابْتداءً مِن تَحْتِهم، عَلى مَعْنى: تَنْبُعُ مِن تَحْتِهم، وهَذا في غايَةِ الإكرامِ لأَهْلِ الجنَّةِ، ولا مانِعَ مِن ذلكَ في الجنَّةِ، ومَن يُشاهِدُ بَعْضَ المواقِعِ في الدُّنيا؛ يَجِدُ لِهذا المعْنى حُضورًا، فإنَّ كَثيرًا مِنَ المواقِعِ تَنْبعُ الأنْهارُ

---

(1) العكبريّ، التّبيان: 2/666.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/345.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/345.

(4) مكّي القيسيّ، الهداية: 5/3224.

أوِ اليَنابيعُ فيها ويَجْلِسُ النّاسُ فَوقَها في أَبْنيَةٍ مُرتفعةٍ، ويَتلذَّذون بِتلكَ المشاهِدِ الخلّابَةِ، فكَيفَ بِجِنانِ الآخِرةِ؟!

فائدَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمجْرورِ: ﴿مِن تَحۡتِهِمُ﴾:

الاهْتِمامُ بإظْهارِ نِعَمِ اللهِ عَلى أَهْلِ الجنَّةِ

ثَمّةَ تَقْديمٌ وتَأْخيرٌ في قولِ اللّه تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، فقَد قدّمَ الجارّ والمَجْرور ﴿مِن تَحۡتِهِمُ﴾ عَلى المسْنَد إليهِ ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ لأنّ الأصْلَ في المتعلّق أنْ يكونَ مؤخّرًا، لَكنّهُ قَدّمهُ هُنا اهْتِمامًا لِأجلِ التّخْصيص، ونُكْتَتُهُ: إظْهارُ نِعْمَتِهِ تَعالى عَلَيهِم، فَجَعلَ الأَنْهارَ تَجري مِن تَحْتِهِم لا مِن تَحْتِ غَيرِهِم، وجَعلَها تَجري تَحتَ أَمرِهِم[1]، ومَعْنى ذلكَ أنَّها خادِمَةٌ لَهم، رِواءً وسِقايةً وبُرودةً ولذَّةً ومَنْظرًا.

بَلاغَةُ المجازِ في: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

جَرَيانُ الأَنْهارِ واقِعٌ مِنْ تَحْتِ مُسْتَقَرِّ أَهْلِ الجَنَّةِ

في قولِه: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ مجازٌ بالحَذْفِ عَلى تقدير: تَجري مِنْ تَحتِ مُسْتَقرِّهم، فالأنْهارُ لا تَجري مِنْ تَحتِهم مُباشَرةً، إنّما جَرَيانُها يَكونُ مِنْ تَحتِ المُستقرِّ الّذي يَسْتَقرّونَ عَليهِ، وفي ذلكَ مَنْظَرٌ يَسُرّ النّاظرينَ، وتَنْعمُ بِهِ النّفسُ، ويَرتاحُ لَهُ القَلبُ والعينُ، وفيه الرّاحةُ الأَبَديَّةُ[2].

وفي إسنادِ الفعلِ ﴿تَجۡرِي﴾ إلى الأنْهارِ مجازٌ عَقليٌّ عَلاقَتُهُ المكانيَّةُ، فالأَصْلُ: يَجري الماءُ في النّهرِ[3]، والغَرَضُ: تَصويرُ الأنْهارِ أنّها هي الجاريَةُ، وهذا بِقياسِ أنْهارِ الجنَّةِ على أنْهارِ الدُّنيا، والصَّحيحُ أنَّ أَنْهارَ الجنَّةِ غَيبٌ مَحضٌ، ثمَّ إنَّ أنهارَ الجنَّةِ بِلا أخاديدَ، فالجاري عَلى هذا ماءُ الأنْهارِ.

(1) الثّعلبيّ، الكشف والبيان عن تفسير القرآن: 14/172.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3523.
(3) القزوينيّ، الإيضاح: 2/198.

دلالةُ اللّامِ في: ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

التّعريفُ لِلعَهدِ، وهوَ عَهدٌ خاصٌّ؛ إذِ الأنهارُ هَهُنا لَها مَعنًى غَيبيٌّ

أَورَدَ النظمُ القرانيُّ لَفظَ ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ مُعَرَّفًا باللّامِ، ولَم يَأتِ بها مُعرّفةً بِالإضافَةِ، إذْ لم يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (تجري مِن تحتها أنهارُها)، تَحاشيًا منْ ثِقلِ الإضافَةِ، وتَنبيهًا على كَونِ الأنهارِ مِنَ النّعمِ الّتي هَيَّأها الحقُّ ﷻ للمؤمنينَ، وهيَ نِعمٌ مُستقلَّةٌ جديرَةٌ بِأنْ يَكونَ التَّنَعُّمُ بها لَيسَ تابِعًا لِلتّنَعّم بِالجَنّاتِ[1]، وهذا مَزيدٌ مِن إنْعامِهِ تَعالى وإفْضالِه على عِبادِهِ، واللّام لِلعَهدِ، فإنَّ الّذي يَنْقَدِحُ في الذّهْنِ مَعنًى غَيبيٌّ لِلأنهارِ، غَرَضُه تَرْغيبُ النّاسِ بِالجنَّةِ، دونَ بَحثٍ عَن تَفْصيلاتِه.

فائدَةُ الجَمعِ في: ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

أنهارُ الجَنَّةِ مُتَنَوِّعَةٌ في مَضمونِها وهَيئاتِها

جُمِعَتِ الأنْهارُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ لِبَيانِ تَنَوُّعِها، واخْتِلافِ مَضْمونِها، كَما قالَ اللّه تَعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ﴾ [محمد ﷺ: 15]، ويُثيرُ ذلكَ الجَمعُ في الذِّهنِ اخْتِلافَ دَرَجاتِها، بِحسبِ اخْتِلافِ دَرَجاتِ أَهلِ الجنَّةِ، لَكِنَّ ذلكَ يُفهَمُ من طَريقِ الإشارَةِ لا العِبارَةِ.

عِلّةُ تَقديمِ جَرَيانِ الأنهارِ:

النُّفوسُ مَجبولَةٌ عَلى حُبِّ الماءِ الّذي هوَ مادَّةُ الحَياةِ

قُدِّمَ ذِكرُ جريانِ الأنهارِ على الظّرفِ الكائنَةِ فيهِ وهوَ (جَنّاتِ النّعيمِ) في قولِه تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، مِن بابِ تَقديمِ ما يورِثُ في النَّفسِ مُتعةً عَظيمةً، فإنَّ النُّفوسَ جُبلَتْ على حُبِّ المياهِ، ولا عَجبَ، فاللّه خَلقَ مِنَ الماءِ كلَّ شَيءٍ حَيٍّ، وحَياةُ النُّفوسِ في مُشاهَدَةِ الماءِ والانتفاعِ بِه، ثُمّ بَيّنَ بَعدَها أنّ ذلكَ كائنٌ في جنّاتِ النّعيمِ، أيْ: في الجنّاتِ الّتي خُصِّصَتْ لِلنّعيمِ[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/355.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3523.

بَلاغَةُ اسْتِعْمالِ حَرْفِ الظَّرْفيَّةِ: ﴿فِي﴾:

الأنهارُ تَجري فَوقَ الأرْضِ لا تَحْتَها وفي ثَنايا الجِنانِ

وردَ حرفُ الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ لِبَيانِ أنَّ الأنْهارَ الّتي تَجري مِن تَحتِ أَهْلِ الجنَّةِ ظَرفُها ومَكانُها واسْتِقرارُها ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، وتَظْهَرُ بَلاغَةُ اسْتِعمالِ هذا الحَرْفِ: أنَّه توكيدٌ لجُملةِ ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، فالأنْهارُ تَجْري مِن تَحتِ أَهْلِ الجنَّةِ، في جنّاتِ النَّعيم، فَفيهِ تَصويرٌ لِلأنهارِ والمؤمِنينَ في داخِلِ جَنّاتِ النَّعيم، فالظَّرفيَّةُ لِهذِه الصّورَةِ المُتَكامِلة، وفيهِ إيماءٌ صَريحٌ إلى أنَّ الأنهارَ فوقَ الأرْضِ، فَهي في الجنّاتِ لا تَحْتَها، وفي ذلكَ إيذانٌ بِعَظيمِ تلك الجنّاتِ الّتي تورِثُ النَّعيمَ الخالدَ، رَزَقَنا اللّه تلكَ الجنّاتِ، وجَعَلَنا مِن أَهْلِ الفِرْدَوسِ الأعْلى.

بَلاغَةُ التَّعْريفِ بِالإضافَةِ في: ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾:

جَنّاتٌ مِنَ النَّعيمِ التّامِّ والسُّرورِ والحُبورِ

أُضيفَ لَفْظُ ﴿جَنَّٰتِ﴾ إلى ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ لِبَيانِ أنَّها جَنّاتٌ مِنَ النَّعيم، فالإضافَةُ بمَعْنى (مِن)، فالنَّعيمُ هو أصلُها ومآلُها، فَهيَ مُشْتَمِلَةٌ عَلى النّعيمِ المُقيمِ بالسّعادةِ والحُبورِ، والنّظرِ إلى وجْهِهِ الكَريمِ، والانْبِساطِ بِقُرْبِه، ولِقاءِ الأحِبَّةِ والأشِقّاءِ، ونَعيمِ البَدَنِ بالمأكولِ والمشْروبِ، وغيرِ ذلكَ ممّا لا يخطُرُ على قلبِ بشرٍ، وممّا عجزَ عنْ وصفِهِ الواصفونَ[1].

سِرُّ اسْتِعْمالِ مُفْرَدَةِ ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾:

الإيماءُ إلى النِّعَمِ الكَثيرَةِ الدّائِمَةِ الّتي لا تَزولُ

آثَرَ النَّظْمُ الكريمُ اسْتِعْمالَ مُفْرَدَةِ ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ دونَ مُرادفاتِها مِنَ الخُلدِ ونَحوِها؛ لِأنَّ النَّعيمَ هوَ المتَّسِقُ مَع سياقِ الآيَة، فإنَّ الآيَةَ جاءَتْ في مُقابَلَةِ ما يُصيبُ الكافِرينَ مِنْ عَذابِ النّارِ، فَأَثْبَتَتْ لَهم مَأْوى النَّعيمِ في مُقابَلَةِ مَأْوى النّارِ، وهذا مِن حُسنِ التَّقابُلِ بَينَ المعاني، فإنَّ النّارَ سَتورِثُ أَهْلَها الشَّقاءَ المُبينَ، بِخِلافِ الجنّاتِ الّتي سَتورِثُ أَهْلَها النَّعيمَ الدّائمَ.

---

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 359.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العَمَلُ والفِعْلُ:

العَمَلُ: إيجادُ الأَثَرِ في الشَّيءِ، لِذلكَ يُقال: إنَّ فلانًا يَعْمَلُ الطِّينَ خَزَفًا، ولا يُقال: يَفْعلُ ذلكَ، فالعَمَلُ يَكونُ بمَعْنى الإِحْداثِ[1]، والأَصْلُ في العَمَلِ في اللُّغَةِ: الدُّؤوبُ، وهوَ أَخصُّ مِنَ الفِعْلِ؛ لِأَنَّ الفِعْلَ يَكونُ بِقَصْدٍ وبِغَيرِ قَصْدٍ، فَهوَ أَعَمُّ.

العَـمَـلُ هـوَ الإِحْداثُ مُطْلَقًا والـفِـعْـلُ هـوَ الـتَّأْثيرُ حَسَنًا كانَ أوْ غَيْرَهُ وهوَ أَعَمّ

ومَعْنى الفِعلِ: تَأْثيرٌ بمُؤَثّرٍ إنْ كانَ بإجادَةٍ أَوْ بغَيْرِها فهوَ عامٌّ، ولِما كانَ عنْ عِلمٍ ومَعْرفةٍ أَوْ بغَيرِ عِلمٍ، ولِما كان بِقَصْدٍ أَوْ مِنْ دونِ قصْدٍ، وقدْ يَكونُ مِنَ الإنسانِ أَوْ مِنْ غَيرِه[2]؛ فهوَ بذلكَ يَدلُّ على العُمومِ، فالتَّعْبيرُ بـ﴿وَعَمِلُواْ﴾ أَخَصُّ بالآيَةِ، وأَنْسَبُ لِمَضمونِها وسياقِها ممّا لَو عُبِّرَ بِصيغَةِ (يفعلون)؛ لأنّهُ آنَئذٍ يَبْتَعدُ عَنِ المَعْنى المُرادِ.

الصّالحات والخَيرات:

يُعرفُ الصّلاحُ: بِأنّهُ الاسْتِقامَةُ بِما تَرْمي إِلَيهِ الحِكْمَةُ سواءٌ أَكانَ ذلكَ في الضّرِّ أم في النَّفْعِ، ويَكونُ في الضّرِّ كالمَرَضِ، فإنّهُ صَلاحٌ لِلإنسانِ في وقتٍ دونَ الصِّحَّةِ، والصّلاحُ يَكونُ كذلكَ في الدّينِ؛ لِذلكَ وُصِفَ المؤمِنونَ بأنّهم يَعملونَ الصّالحاتِ، وقدْ يَكون في تِلكَ الأَعْمالِ ما يَبْدو أَنَّ فيهِ ضَرَرًا عَلى الإنسانِ، أَمّا الخَيرُ فهوَ السَّعدُ والحسنُ والسُّرورُ، فالشّيْءُ إنْ لم يكنْ حَسَنًا لم يَكنْ خَيرًا؛ ولِذلكَ لم تَكُنِ المَعاصي خَيرًا قَطُّ وإنْ كانَتْ لَذَّةً وسُرورًا، ولا يُقالُ لِلمَرَضِ: خَيرٌ، كَما يُقالُ لَهُ: صَلاح؛ لِأَنّهُ قدْ يكونُ ذا فائدَةٍ في الدّينِ[3]، عَلى أَنّه وَرَدَ التَّعبيرُ عمّا كانَ ضَررًا في الظّاهِرِ أَنَّهُ خَيرٌ، في قولِ النَّبيِّ ﷺ: «عَجَبًا لِأَمرِ المُؤْمِنِ، إِنَّ أَمرَهُ كُلَّهُ خَيرٌ، وَلَيْسَ ذاكَ لِأَحَدٍ إِلّا

الصّلاحُ اسْتقامةٌ بِموجَبِ الحِكْمَةِ في الـضّـرِّ والـنَّـفْـعِ معَ تَعلّقِهِ بالدّينِ، والخيرُ مُقْتَصِرٌ عَـلى الـسّـرورُ والحسن

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 135.
(2) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 320.

لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصابَتْهُ سَرّاءُ شَكَرَ، فَكانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصابَتْهُ ضَرّاءُ، صَبَرَ فَكانَ خَيْرًا لَهُ»[1]، ولَكِنَّ شأْنَ الفروقِ أَنْ تَكونَ أغلبيَّةً لا مُطَّردةً.

وعَلى ذلكَ فإنَّ التّعبيرَ بالصّالحاتِ أَلْيَقُ مِنَ الخَيراتِ؛ لِما في هذهِ الأخيرَةِ مِنْ مُطلقِ السّعادةِ والحسنِ، ولَيسَ ذلكَ معَ عملِ الصّالحاتِ الّتي قدْ يَكونُ فيها ضَررٌ في ظاهِرِها لَكنَّها أوجِدَتْ لِصَلاحِ الإنسانِ ونفعِهِ.

(1) رواه مسلم في صحيحه (برقم: 2999).

﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾ [يونس: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بَعْدَ الحُلولِ في الجَنّاتِ ذُكِرَتِ الأحْوالُ والمَقالاتُ

الآيَةُ امتدادٌ لِمَراتِبِ سَعاداتِ أَهْلِ الجَنَّةِ ودَرَجاتِ كَمالاتِهم، فبَعْدَ أنْ هَداهُم إلى جَنّاتِهِ وأَجْرى الأَنْهارَ مِنْ تَحتِهم وما أَفاضَ عليهم مِنَ المُتَعِ واللَّذّاتِ في جَنّاتِ النّعيم؛ شَرَعَ بِذِكْرِ أحوالِهم ومَقالِهم في مَقامِهِمُ الكَريمِ مِنْ جَنَّتِه الّتي وَعَدَها إيّاهم مِنْ تَسْبيحٍ وتَنْزيهٍ وتَحيَّةِ سَلامٍ وحَمدٍ عَلى ما امتَنّ وأَنْعَمَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ﴾: الدّعْوى اسْمٌ مِن (دعا يدعو)، وهوَ اسْمٌ لِما تَدّعيه، ويُمكن أنْ تَكونَ دُعاءً[1]، جِذْرُهُ اللّغويُّ الدّالُ والعَينُ والواوُ، ومَعْناهُ قَريبٌ مِنَ الطَّلَبِ، وهذهِ المادَّةُ تَدلُّ في أَصْلِها عَلى أَنْ تَجعلَ الشَّيْءَ يَميلُ إِلَيْكَ بِصَوتٍ أَوْ قَوْلٍ مِنكَ، ومِن مَعانيهِ: النّداءُ، إلّا أنّ النّداءَ يكونُ بالحَرفِ، وقدْ يكونُ بِمَعْنى الحَثِّ عَلى الشّيْءِ، ومِن مَعاني الدَّعوى: التَّضَرُّعُ والدّعاءُ، وكَثيرٌ مِنَ المُفَسّرينَ يَرى بأنّ دَعْواهُم في الآيَةِ بِمَعْنى الدُّعاءِ[2]، وجَعَلَها قِسْمٌ مِنْهم بِمَعْنى القَولِ[3]، وبَيْنَ التَّفسيرَيْنِ تَشابُهٌ عِندَ آخَرينَ.

2) ﴿وَتَحِيَّتُهُمۡ﴾: تَحيَّةٌ: اسمٌ على زِنَةِ (تَفعِلَة)، مُشْتَقّةٌ مِن (حَيَّ) بمعْنى بَقِيَ، واسْتُعمِلَتْ بِمَعْنى السّلامِ، وجَذرُهُ اللُّغويُّ: الحاءُ والياءُ والحرفُ المعتلُّ، والأَصْلُ في مَعناهُ أَنَّهُ ضِدّ المَوتِ في أَحَدِ مَعْنَيَيه،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (دعو).

(2) الفرّاء، معاني القرآن: 3/267، وابن جرير، جامع البيان: 15/30.

(3) ابن سلّام، التّصاريف لتفسير القرآن، ص: 325، والسّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/105.

وهيَ أيْضًا "امتدادٌ واتِّصالٌ مَع رِقّةِ الحياةِ والحَرَكةِ"، ثُمّ جُعِل لَفْظُ التَّحيّةِ دُعاءً[1].

ومعْنى ﴿وَتَحِيَّتُهُمۡ﴾ في الآيَةِ: ما يُحَيّي بِهِ بَعْضُهم بَعضًا أوِ السّلامُ من ربِّ العالَمينَ[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

حالُ السُّعَداءِ في جَنّتِهِ أوّلُهُ التّسْبيحُ وأوْسَطُهُ السّلامُ وآخِرُهُ التّحْميدُ

ذَكَرَ مِن حالِ السُّعَداءِ في الجَنَّةِ أنّ قَوْلَهم وكَلامَهم أنْ يُنَزّهوا اللّه تعالى بِقولِهم: سُبْحانَكَ اللهمَّ، وأنْ يُحيّي بَعْضُهم بَعْضًا بالسّلامِ، وأنْ تكونَ خاتِمَةُ دُعائِهم أنْ يَقولوا: الحَمْدُ للّه ثَناءً علَيه، ومُقْتَرِنًا بربِّ العالَمينَ لِلدّلالةِ عَلى كَمالِ قُدرَتِه وحُسنِ تدبيرِه.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغَةُ القَصْرِ في تَعْريفِ طَرَفَي الإسْنادِ:

إذا اشْتاقَ أَهْلُ الجَنّةِ لِقُرْبِ رَبِّهِم بِالدّعاءِ؛ أَثْنَوا عَلى رَبِّهِم تَسْبيحًا

قولُ اللّه تعالى: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ جُملةٌ اسْميَّةٌ، قُصِرَ فيها ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ﴾ على قولِه: ﴿سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ بِطَريقِ تَعريفِ جُزْأي الإسْنادِ، وذلكَ لِأنَّ لَفْظَةَ ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ﴾ معرَّفَةٌ بالإضافةِ إلى الضَّميرِ، و﴿سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ قُصِدَ لَفْظُهُ، فصارَ بِمنزِلَةِ العَلَمِ، ونُكْتَةُ القَصْرِ: الإيذانُ بأنّهُ لا دَعْوى لَهُم في الجنَّةِ سِوى تَسبيحِهِ تَعالى الدّالِّ على التّنزيهِ والتّعظيمِ[3].

ووَجْهُ ذِكرِ حالِهِم هذا هوَ الإشارَةُ إلى ما هُم فيهِ مِنَ النَّعيمِ المقيمِ، وهوَ طلبَةُ الرّاغِبينَ وغايَتُهم، فإذا اشْتاقوا لِقُرْبِه تَعالى ومُناجاتِه بالدُّعاءِ كَما كانوا في الدُّنيا، افْتَقَدوا ما يَسْألونَهُ، فَقَد غَمَرَهُم بِنِعَمِهِ، فَعوّضوا سُؤالَهُ بالثّناءِ عَلى ربِّهم تَسْبيحًا، أوْ أَخْرَجوا

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حيي).

(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/8.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/103.

السُّؤالَ بِلَفظِ التّسبيحِ[1]؛ فهوَ أدلُّ على التّنزيهِ والتّعظيمِ والتّمجيدِ وهو جامعٌ لِمَعاني الكَمالاتِ[2].

نُكْتَةُ إيثارِ لَفْظِ الدَّعْوى:

دَعْواهُم تَغني الثَّناءَ لأجلِ الثَّناءِ لا تَوْطِئةً لِلطَّلَب

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ التّعبيرَ بمُفْردةِ: ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ على أنْ يقولَ (دعاؤهُم)؛ لأنَّ معْنى دَعواهُم: الدّعاءُ الغامرُ الثّابتُ الكَثيرُ الّذي يُلْهَمونَهُ ولا يَقولونَهُ على وَجْهِ التَّكليفِ، إذْ لا تَكْليفَ في الآخرةِ[3].

ولفْظُ الدَّعوى وردَ على تَفسيرِ "قولهم: سُبحانكَ اللهمّ"[4]، فمَفهومُ الدَّعوى هوَ القولُ الّذي مَعْناهُ الثَّناءُ الحَسَنُ المُطلَقُ عَن أيِّ طَلبٍ، فهوَ قولُ الثَّناءِ لأجْلِ الثّناءِ، لا تَوْطِئَة لِلطَّلب.

دلالَةُ الإضافَةِ في: ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ و﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾:

الدَّعْوى صادِرَةٌ عَنْ أَهْلِ الجَنَّةِ نَصًّا والتَّحِيَّةُ احْتِمالًا

أُضيفتِ الدّعوى إلى ضميرِ الجمعِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ العائدِ على الدّاعينَ المُنادينَ؛ لأنّهم يَدعونَ مُجْتَمِعينَ كما يُشعرُ سياقُ الكلامِ[5]، فهيَ دَعْوى صادرَةٌ عَن أهْلِ الجنَّةِ.

أمّا قولُه: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾؛ فقد أضافَ التَّحيّةَ فيه إلى ضَميرِ الجَمعِ؛ فهوَ إمّا أنْ "يَكونَ مَصْدرًا مُضافًا لِلمَجموعِ لا عَلى سَبيلِ العَمَلِ، بَل يَكون كَقولِه: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ٧٨﴾ [الأنبياء: 78]، فَتَحيَّتُهم بَيْنَهم سَلامٌ، أيْ: تَحيَّة بَعْضِهم لِبعضٍ.

وإمّا أنْ يَكونَ مُضافًا إلى المَفْعولِ، والفاعلُ: اللّه تعالى، أو الملائكَةُ، أيْ: تَحيَّةُ اللّهِ إيّاهم، أَوْ تَحيَّةُ الملائكةِ إيّاهُم"[6].

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/313.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/103.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/79 - 80.
(4) العكبريّ، التّبيان: 2/666.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/105.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/18.

وظيفةُ القَصْرِ الادّعائيِّ المُبالَغةُ في تنزيهِ الله تَعالى وتَعظيمِه

غَرَضُ تَقْديمِ الجارِّ والمجْرورِ ﴿فِيهَا﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمَجْرورُ ﴿فِيهَا﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ لِلاهْتِمامِ والاخْتِصاصِ، فكَأنَّهُ قالَ: دَعْواهُم التَّسْبيحُ فيها لا في غَيْرِها، وهوَ مِنْ بابِ القصْرِ الادِّعائيِّ لِلمُبالغةِ في إظْهارِ التّنزيهِ والتَّعظيمِ، وإلّا فإنَّ التَّنزيهَ والتَّعْظيمَ يَكونُ في جَميعِ الأَمكِنَةِ، فَصَوَّرَها هُنا مُخْتَصَّةً بِجَنّاتِ النَّعيمِ؛ فالمُبالَغَةُ في القَصْرِ لِإرادَةِ الاهْتِمامِ بِشَأنِ التَّسْبيحِ في الجنَّةِ.

تَصْريحٌ بِتَكْليمِ الله، وإيماءٌ إلى رُؤْيَتِهِ تَعالى

سِرُّ إضافَةِ التَّسْبيحِ إلى ضَميرِ الخِطابِ:

جاءَ التَّعبيرُ في قولِه تَعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ دونَ أنْ يَقولَ: (دَعواهُم فيها سُبحان اللّه)، وذلكَ لِبيانِ أنَّ أهلَ الجنَّةِ يُخاطِبونَ اللّه تَعالى بِالتَّنزيهِ والثَّناءِ كِفاحًا، ولا يُثْنونَ عَليهِ غَيْبَةً قائلينَ: سُبحانَ اللّه، وفي ذلكَ إكرامٌ لَهُم، وفيهِ إيماءٌ إلى رُؤيَةِ اللّه تَعالى، وتَصْريحٌ بِتَكْليمِه.

نِداءُ أهْلِ الجنَّةِ يَصْدُرُ عَنْهُم مُجْتَمِعين؛ لِتَعْظيمِ ما يُشاهِدونَهُ مِنَ الإكْرامِ الإلهيِّ

بَلاغَةُ اسْتِعْمالِ تَرْكيبِ النِّداءِ ﴿ٱللَّهُمَّ﴾:

استُعمِلَ تركيبُ النّداءِ ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ المشْتَمِلُ عَلى الاسْمِ الأحسَنِ (اللّه) والميمِ المشدَّدَةِ عِوضًا عَن ياءِ النِّداءِ، ومعناهُ: نُسَبِّحكَ يا اللّه، كالقُنوتِ بِلَفْظِ: اللهمّ إيّاكَ نعبدُ ولَكَ نُصَلّي ونَسْجُدُ[1]؛ لِبَيانِ أنَّ تَسْبيحَهُم يَصْدُر عَنْهُم مُجْتَمعينَ، وهذا الاجْتِماعُ لا مِن بابِ الاتِّفاقِ النِّظاميِّ، بَل مِن بابِ الاتِّفاقِ لِما يَرونَهُ من إقْبالِ اللّه عَلَيهِم، فَيَصْدرُ عَنهم ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ مُجْتَمِعينَ، وهذا يَدلُّ عَلى شَديدِ فَرَحِهم بِما يَرونَهُ ويَسْمَعونَهُ من قِبَلِ اللّه تعالى.

بَلاغَةُ العَطْفِ: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾:

عُطِفَ قولُه تَعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ عَلى ما سَبَقَهُ مِن

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/331.

التَّسبيحِ الّذي يُرادُ منهُ التَّنزيهُ؛ لأنَّ أهلَ الجنَّةِ إذا شَرَعوا في الدّعاءِ تَسْبيحًا قوبلوا بالسّلام، وهوَ دُعاءٌ بالسَّلامَةِ صادِرٌ عَنِ اللهِ تعالى، أوْ عَنِ الملائكَةِ، أوْ عنْ بَعْضِهم يُحيِّي بَعْضَهمُ الآخَرَ، فإذا قُلْنا: إنَّ التَّحيَّةَ صادِرَةٌ عَنِ اللهِ تَعالى؛ فَتِلْكَ مُتَّسِقَة مَعَ خِطابِهِم ﴿سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾.

مُكافأةُ أهْلِ الجِنانِ بالتَّحِيَّةِ الّتي هيَ الدُّعاءُ بِالسَّلامَةِ مِنْ كُلِّ آفَةٍ

وإذا قُلْنا بِصدورِ التَّحيَّةِ عَنِ الملائكَةِ؛ فذلكَ مِنْ إكْرامِ اللهِ لَهُم، وإذا قُلْنا إنَّهُ يَصْدُرُ عَن بَعْضِهم تُجاهَ بَعْضِهمُ الآخَرِ، فذلكَ أمرٌ يَعمُّ أَحْوالَهم، ولا مانِعَ أنْ تَصْدرَ التَّحيَّةُ عَنِ اللهِ سُبحانَهُ ومَلائكَتِهِ وأهْلِ الجنَّةِ، فالقَولُ بِالعُمومِ الّذي يَقْتَضيهِ السِّياقُ أَوْلى مِنَ التَّخْصيصِ الّذي لا دَليلَ عَلَيهِ.

نُكْتَةُ اسْتِعْمالِ لَفْظِ التّحيَّةِ:

اختيرَ لَفْظُ التَّحيَّةِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞ﴾ مع أنّ أصلَ التّحيَّةِ اجْتُلِبَتْ من تَمنّي الحَياةِ لِلمَرءِ والدُّعاءِ بها[1]، والجنّةُ حَياةٌ خالِدَةٌ؛ لِلإيماءِ بأنَّ السُّعداءَ مِن خَلْقِ اللهِ سُبحانَهُ في أُنْسٍ وسُرورٍ، وذلكَ مِنْ أكْبرِ مُتَعِ النَّفْسِ ولَذّاتِها[2].

الإشارَةُ إلى أنَّهُم في أُنْسٍ وحُبورٍ، وذلكَ مِنْ أَعْظَمِ لَذّاتِ النَّفْسِ

غَرَضُ تَقْديمِ الجارِّ والمجْرورِ ﴿فِيهَا﴾:

قدّمَ الجارّ والمَجْرور ﴿فِيهَا﴾ عَلى الخَبَرِ ﴿سَلَٰمٞ﴾ في قولِه تَعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞ﴾؛ لإفادَةِ الاهْتِمامِ والتَّخصيصِ، فإنَّ السَّلامَةَ مِنَ الآفاتِ والنَّقائصِ، كَأَنَّها حاصِلَةٌ في جَنّاتِهِ تعالى لا في غَيرِها، وكُلُّ سَلامٍ دونَ سَلامِهم في تِلكَ الجِنانِ مُشْتَمِلٌ عَلى العَيْبِ والنَّقْصِ.

كُلُّ سَلامٍ دونَ سَلامِ أَهْلِ الجَنَّةِ مُشْتَمِلٌ عَلى شَوائِبِ النَّقْصِ

غَرَضُ تَنْكيرِ لَفْظِ السَّلامِ:

في تَنْكيرِ لَفْظَةِ ﴿سَلَٰمٞ﴾ في قولِه: ﴿وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞ﴾ غَرَضٌ دالٌّ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/107.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/101.

اشْتِمالُ السَّلامِ في الجَنَّةِ عَلى أنْواعِهِ كُلِّها

على إيجازٍ بَديعٍ بَليغٍ؛ فَإنَّ تَحِيَّتَهُم هذهِ تَشْمَلُ جَميعَ أَنْواعِ السَّلامِ[1]، فَقدْ تَكونُ التّحيَّةُ مِنَ اللهِ تعالى، كَقولِه سُبحانَه: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ﴾ [الأحزاب: 44]، وقدْ تَكونُ مِنَ المَلائكَةِ عِندَ دُخولِ الجَنَّةِ بِقولِهم: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾ [الزمر: 73]، وقدْ تَكونُ مِنْ بَعْضِهم لِبعضٍ كَقولِه: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ﴾ [مريم: 62]، فلفظة ﴿سَلَٰمٞۚ﴾ المُنَكّرةِ تَشْمَلُ أَنْواعَ السّلامِ كُلَّها.

الإخبار عن الجِنْسِ بِفَرْدٍ مِن أَفْرادِهِ

ووُرودُ لَفظِ سَلامٍ مُنَكَّرًا فيهِ أيْضًا إخْبارٌ عَنِ الجِنْسِ بِفَرْدٍ مِن أَفْرادِه، فاللّه تَعالى جَعَلَ لَهمُ التَّحيَّةَ بهذا اللَّفْظِ، والظّاهِرُ أنَّ التّحيَّةَ بَيْنَهُم هيَ بِهذا اللَّفْظِ النَّكِرةِ ﴿سَلَٰمٞۚ﴾، فَحُكِيَتْ هُنا بِلَفْظِها دونَ تَعْريفِها؛ مِن نَحوِ: السَّلامُ عَلَيْكُم، أَوْ: وتَحيَّتُهُم فيها السَّلامُ[2].

غَرَضُ حَذْفِ مُتَعَلّقِ ﴿سَلَٰمٞۚ﴾:

سَلامُ أَهْلِ الجَنَّةِ إيناسٌ وتَكْرِمَةٌ فهوَ أَشْبَهُ بِالخَبَرِ منه بِالدُّعاءِ

حُذِف مُتَعَلّقُ ﴿سَلَٰمٞۚ﴾ فَلَم يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (سلامٌ عَليكم)؛ وذلكَ لِأنَّ التّحيَّةَ هيَ مُجَرّدُ مؤانَسةٍ وإكْرامٍ بَيْنَهم، فهيَ أشْبَهُ ما تكونُ بِالخَبرِ والشُّكرِ مِنها بِالدُّعاءِ والأَمانِ، فَفيها اغْتِباطُهُم بِالسَّلامَةِ الكامِلَةِ مِنَ العَطَبِ والآفاتِ، بِخِلافِ تَحيَّةِ أَهْلِ الدُّنيا الدّالَّةِ عَلى الدُّعاءِ بِالأَمانِ وتَسْكينِ رَوْعِ المُخاطَبِ، وأنَّهُ لا يُضْمِرُ شَرًّا لِمُلاقيهِ[3].

بَلاغَةُ التَّرْتيبِ بَيْنَ الجُمَلِ المُتَعاطِفَةِ:

تَنْزيهُ الله تَعالى يوجِبُ السَّلامَةَ لِلمؤمِنينَ

في الآيَةِ جُملٌ مُتَعاطفةٌ بدْءًا بِقولِه: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾، ثُمَّ ﴿وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ﴾، ثمَّ ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وجاءَ التَّرتيبُ عَلى نَسَقٍ مَقْصودٍ؛ فالتَّسْبيحُ هوَ تَنْزيهُهُ تَعالى عَن كُلِّ ما لا يَليقُ بِهِ، وكانَ ذلكَ التَّنزيهُ إيجادًا لَهم بِسَلامَتِهم مِنْ كُلِّ عَيبٍ ونَقْصٍ حتّى حَصَّلوا القُرْبَ مِنَ اللّه تَعالى؛ فَحَمِدوهُ عَلى

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/253.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/103.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/104.

نِعْمةِ الإيجادِ إرشادًا إلى قُدْرَتِه سُبحانَهُ بقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ولا يَنْفَكُّ الإنسانُ عَنِ الحاجَةِ والنُّقصانِ[1].

وتَرْتيبُ الجُمَلِ المُتَعاطِفةِ في الآيَةِ مُشْعِرٌ أيضًا بأنَّ دَعْوتَهم كانَتْ في سياقٍ جَمعِيٍّ؛ ولِذلكَ اقْتَرنَ دُعاؤهم بِذِكْرِ تَحيَّتِهم؛ فإذا رَأى بَعضُهم بَعضًا ابْتَدروا الدُّعاءَ بـ: سُبْحانَكَ اللهمَّ، فإذا تقارَبوا سَلَّمَ بَعضُهم على بَعْضٍ، فإذا راموا التَّفارُقَ خَتَموا الدُّعاءَ بالحَمدِ[2].

ولَمّا سَعِدَ أَهْلُ الجنّةِ بِذِكرِ (سُبحانَكَ اللهمَّ)، وشاهَدوا السَّلامَةَ عَنِ الآفاتِ والمَخافاتِ الّتي هُم فيها؛ أَيْقَنوا أَنّ هذهِ الأَحْوالَ الجَليلَةَ والرُّتَبَ القُدْسيَّةَ، إنَّما تهيَّأَتْ بِإِحْسانِ اللّه سُبحانَهُ وإفْضالهِ وإنْعامِه، فاشْتَغَلوا بِحمدِ اللّه والثّناءِ عليه[3].

سِرُّ ذِكْرِ لَفْظِ: ﴿وَءَاخِرُ﴾:

بَـراعَـةُ حَـذْفِ التَّـقـابُلِ عِـنْدَ وجـودِ القَرينَةِ الدّالَّةِ

ذُكِرَ لَفْظُ الآخِرِ في قولِه تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ إشارَةً إلى أنَّهُم يَبْتَدِرونَ كَلامَهُم بالتَّسْبيحِ، فإذا أَرادوا خُتْمَهُ حَمِدوا اللّه تعالى، فَفيهِ شِبْهُ الاحْتِباكِ؛ حيثُ دَلَّ أَوَّلُ الجُملةِ الثّانيةِ المَذْكورُ ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ عَلى أوَّلِ الجُملَةِ الأولى المَحْذوفِ ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾، فكَأَنَّهُ قالَ: (أَوَّلُ دَعْواهُم فيها سُبْحانَكَ اللهم).

التَّسْبيحُ دَعْوى المُؤْمنينَ المُسْتَمِرَّةُ، فَإذا انْتَقَلوا إلى مَقامٍ آخَرَ خَتَموا دَعْواهُم بِالحَمدِ

ويَجوزُ أَنْ يُحْمَلَ عَلى حَقيقَتِهِ دونَ تَقْديرِ مَحْذوفٍ، فيَكونُ: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ عُنوانَ كَلامِهِم على الدَّوام، أيْ: أنَّ غالِبَ أَحْوالِ دَعْواهُم هيَ: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾، فإذا أَرادوا خَتْمَهُ أو التَّحَوُّلَ إلى مَوْقِفٍ آخَرَ مِن مَواقِفِ النَّعيمِ وأَحْوالِهِ؛ خَتَموا دُعاءَهُم بِجُملَةِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/80.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/105.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/217.

نُكْتَةُ إعادَةِ لَفْظِ ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ﴾:

لَــذَّةُ المؤمنينَ في الجَنَّةِ هي دَعْواهُم ذِكْرًا وثَناءً عَلى الله تَعالى

أُعيدَ لَفْظُ ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ﴾ في الآيةِ مَرَّتين، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ لِلدّلالَةِ عَلى أنَّ قيلَ أهْلِ الجَنَّةِ في جَميعِ الأحْوالِ ابْتِداءً وانْتِهاءً هوَ الدُّعاءُ، وأنَّ ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ﴾ هيَ حالُهم المُسْتَمِرَّةُ الثّابِتَةُ، وفيهِ أنَّ أهْلَ الجنَّةِ يَتَلَذَّذونَ بِالدُّعاءِ في ذِكْرِ اللّه تَعالى والثَّناءِ عَلَيهِ، كَما كانوا في الدُّنيا، فإنَّ الَّذي يَغلِبُ على الطَّبْعِ؛ يَلْزَمُهُ صاحِبُهُ عَلى الدَّوامِ، فَكانَ إعادَةُ ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ﴾ لِلتَّنبيهِ عَلى هذهِ الحالِ، ولِبَيانِ عَظيمِ أَثَرِ الدُّعاءِ والذِّكرِ في الدُّنْيا الموصِلِ إلى جنَّةِ الرِّضْوانِ في الآخِرَةِ.

دلالَةُ ﴿أَنِ﴾:

تَفْسيرُ دَعْوى المؤمنينَ في الجَنَّةِ وتَوْكيدُها

﴿أَنِ﴾ في قولِه تَعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تَفْسيريَّةٌ لـ﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ﴾، "وهيَ مؤْذِنَةٌ بِأنَّ آخِرَ الدُّعاءِ هوَ نَفْسُ الكلمةِ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾"(1).

وتَحْتَمِلُ ﴿أَنِ﴾ في الآيَةِ أنْ تَكونَ لِلتَّوكيدِ مُخَفَّفَةً من (أنّ) المُشَبَّهةِ بِالفِعلِ، واسمُها ضَميرُ الشَّأنِ على تَقْديرِ: وأنَّهُ، وخَبَرُها: الحمدُ للّه(2).

سِرُّ العُدولِ عَنِ الخِطابِ إلى الغَيْبَةِ:

تَسْبيحُ الله خِطابًا عِنْدَ رُؤْيَتِه، وحَمدُهُ في الخِتامِ غَيْبَةً

خُتِمتِ الآيَةُ بجملةِ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فعُدِلَ عَنِ الخِطابِ في قولِه: ﴿سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ إلى الغَيْبةِ، فَلَم يَأتِ الدُّعاءُ بالحَمدِ عَلى طَريقِ الخِطابِ، وسِرُّ ذلكَ أنَّ الخِطابَ فيهِ إشارَةٌ إلى رؤْيَةِ اللّه تَعالى؛ إذِ الأَصلُ في الخِطابِ أنْ يكونَ لِمُعيَّنٍ مُشاهَدٍ، أمّا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/105.

(2) شيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 4/545.

الحَمدُ فهوَ الخِتامُ بَعدَ الرُّؤيَةِ، فَعِندَ رؤيَةِ اللَّه يُسَبِّحونَهُ خِطابًا، وعِندَ الخِتامِ يَحمدونَهُ غَيْبَةً، أَوْ أنْ يَكونَ مِن بابِ رِعايَةِ الفاصِلَةِ، والاهْتِمامِ بالحَمدِ وما يَقْتَرِنُ بِهِ مِن نُعوتِهِ الجَليلَةِ ﷻ وتَذكيرًا بِمُسَمّاها[1]، والأوَّلُ هوَ الأَوْلى بِالقَبول.

بَراعَةُ الخَتْمِ في الآيَةِ:

الاشْتِغالُ بِشُكرِ النِّعْمَةِ مُتَأَخِّرٌ عَنْ رُؤْيَتِها

خُتمتِ الآيَةُ بِجُملةِ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بِمدْعاةِ أنَّ اشْتِغالَهُم بالتَّسْبيحِ والتَّمجيدِ نِعْمَةٌ عَظيمةٌ مِن أَجَلِّ نِعَمِه ﷻ، والاشْتِغالُ بِشُكرِ النِّعْمةِ مُتَأخِّرٌ طَبيعَةً عَن رؤيَةِ تِلْكَ النِّعْمَةِ، فَكانَ أنْ خُتِمَ بِهذِهِ الجُملةِ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحَمدُ والشُّكرُ:

الحَمدُ يَكونُ ابْتِداءً وفي مُقابِلِ النِّعْمَةِ، والشُّكْرُ لا يَكونُ إلّا عَنْ يَدٍ ونِعْمَةٍ

ثَمّةَ فَرقٌ بَينَ الحَمدِ والشُّكرِ، إلّا أنَّ بَعْضَ أهْلِ العِلْمِ لَم يُفَرِّقْ بَينَهما كالأَخْفَشِ، وذَكَرَ أنَّ بَيْنَهُما عُمومًا وخُصوصًا؛ ذلكَ أنَّ الحَمدَ نَوعٌ والشُّكرَ جِنسٌ، ولَيْسَ العَكْسُ بِصَحيحٍ، وثَمّةَ فَرقٌ جَوْهَريٌّ بَيْنَهما وهوَ أنَّ الحَمدَ يَكونُ علَى النِّعْمةِ والصُّنْعِ، ويَكونُ ابْتِداءً مِنْ غَيرِ عِلَّةٍ[3]، أمّا الشُّكْرُ فَلا يَكونُ إلّا في مُقابِلِ النِّعْمةِ؛ وهوَ عِرفانُ الإحْسانِ ويَكونُ عَنْ يَدٍ وفَضْلٍ[4]، فالخُلاصَةُ: أنَّ الحَمدَ أَعَمّ مِنَ الشُّكرِ مِنْ جِهَةِ التَّعلّقِ، أمّا مِنْ جِهَةِ الآلَةِ فَإنَّ آلَةَ الحَمدِ اللِّسانُ والقَلْبُ، أمّا الشُّكرُ فيَكونُ بالقَلْبِ واللِّسانِ والجَوارِحِ، فَقد قالَ اللّه ﷻ: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ: 13]، فالشُّكرُ أَعَمُّ مِنْ هذهِ الجِهةِ، فالحَمدُ عُمومُهُ بِالتَّعلّقِ، وخُصوصُهُ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/9.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/217.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حمد).
(4) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (شكر).

بالآلَةِ، والشُّكرُ بِعَكْسِ ذلكَ[1]، والتَّعبيرُ بالحَمدِ في الآيَةِ ممّا يُناسِبُ المَقامَ؛ لِأنّهُ الأَعَمُّ الأَشْمَلُ بِالمُتَعَلّقِ؛ ولأَنَّ الشُّكرَ يَكونُ بالأَعْمالِ والأَفْعالِ، ولا عَمَلَ لِأَهْلِ الجِنانِ؛ لأَنَّهُم تَحَوَّلوا مِنْ دارِ العَمَلِ والابْتِلاءِ إلى دارِ الرّاحَةِ والنَّعيمِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 202.

﴿۞وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١﴾

[يونس: 11]

بَعدَ التَّرغيبِ بِالجَنّاتِ والتَّرهيبِ مِنَ النِّيرانِ نَبَّهَ إلى عَظيمِ لُطْفِهِ وكَبيرِ رِعايَتِهِ

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

في مُناسَبَةِ هذهِ الآيَةِ لِما قَبْلَها وَجْهانِ:

أَحَدُهما: أنَّ اللهَ سُبحانَهُ لَمّا وَصَفَ الكافرينَ بِأنَّهُم لا يَرجُونَ لِقاءَ اللهِ، راضينَ بِالحياةِ الدُّنيا مُطْمَئِنّينَ بها، غافِلينَ عَنْ آياتِهِ؛ عَقَّبَ بِغفلةٍ أُخرى، وهيَ اسْتِعْجالُهُمُ العَذابَ كاسْتِعْجالِهِمُ الخَيرَ جَهْلًا مِنهم وسَفهًا مَتى أَنْذَرَهُمُ الرَّسولُ ﷺ[1].

والآخَرُ: أنَّ الآيَةَ السّابِقَةَ لَمّا أُشيرَ فيها إلى تنزّهِهِ وتفرّدِهِ بنعوتِ الكمالِ والجلالِ وتمامِ قدرتِهِ وكمالِ إحاطتِهِ وحسنِ تدبيرِهِ أتبعهُ بما يدلّ على تلطّفِهِ بِعبادِهِ وفي مُعامَلَتِهِ مِنْ أنّهُ لا يَفعلُ شيئًا قبلَ أوانِهِ؛ لأنَّ الاسْتِعْجالَ مِنْ سِماتِ الاحْتِياجِ[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُعَجِّلُ﴾: فِعلٌ دالٌّ على الحالِ والاسْتِقبالِ، والجَذْرُ اللّغَويّ مِنهُ: العينُ والجيمُ واللّامُ، وهو دالٌّ على السّبقِ والإسْراعِ، ومِنْهُ: العَجَلُ؛ وهوَ نَقيضُ البُطْءِ، والعاجلُ: ضِدّ الآجلِ، والعَجَلةُ مَذْمومةٌ في القُرآنِ غالبًا؛ لأنّها طَلَبُ الشَّيءِ وتَحرّيهِ قَبلَ أَوانِهِ، فهوَ مِنْ مُقْتَضى النَّزْعةِ النّفسيّةِ، والعَجَلةُ مِنَ الشّيطانِ، ووُصِفتِ الدُّنيا بالعاجِلَةِ مُقابلِ الآخرةِ[3]، كَقولِهِ تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/218.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/81.

(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عجل).

عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا﴾ [الإسراء: 18]، ومَعنى ﴿يُعَجِّلُ﴾ في الآيَةِ: أنَّ اللّه تَعالى لَوْ أَرادَ أنْ يُعجّل لَهم مِنَ الشّرِّ ما يَسْتَعْجلونه بِدُعائِهم مِثْل ما يَسْتَعجِلونَهُ مِنَ الخَيرِ لَهَلَكوا[1].

2) ﴿ٱلشَّرَّ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ، الجَذْرَ اللّغويّ منهُ الشّينُ والرّاءُ، ومِنْهُ الشَّرُّ؛ وهو السّوءُ والخُبْثُ ونَقيضُ الخيرِ، والشّرُّ أيضًا: الشّيءُ الّذي يَرغَبُ عنهُ الجميعُ ويَنْحازُ، فهوَ الأمرُ المَكْروهُ، ومِنْ معانيهِ: المعابَةُ والضّرُّ وعَدمُ مُلاءَمَةِ الشّيءِ لِلطّبْعِ[2]، ومَعنى ﴿ٱلشَّرَّ﴾ في الآيَةِ ما فيهِ مَضَرّةٌ على النَّفْسِ أوِ الوَلَدِ أوِ المالِ مِنْ دُعائِهم عَلى أَنْفسِهم[3].

3) ﴿فَنَذَرُ﴾: (نَذَرُ) فِعلٌ مُضارِعٌ دالٌّ على الحالِ والاسْتِقبالِ، والجَذْرُ اللّغويّ منهُ: الواوُ والذّال والرّاءُ، والماضي منهُ أماتَتْهُ العربُ وأبقتِ الحاضرَ والأمرَ، ومَعناهُ: التّركُ؛ فيُعبّرونَ بالفعلِ (تركَ) ماضيًا عنِ الفِعلِ (وَذَرَ)، ويُقالُ: فُلانٌ يَذرُ الشَّيءَ، أيْ: يَقْذِفُهُ لِقلّةِ اعْتدادِهِ بِه، وقدْ فُسّرَ قوله: ﴿ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٩١﴾ [الأنعام: 91] بمَعْنى القَذْفِ والإلْقاءِ والتَّرْكِ، فَلا يعْتدّ بِهم ولا يُبالى لهُم[4]، ومعْنى ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾: نَتْركُهم فَلا نَعْتَدّ بِهِم[5].

4) ﴿يَعۡمَهُونَ﴾: فعْلٌ مُسْنَدٌ لِلجَماعَةِ، والجذْرُ اللُّغَويُّ مِنْهُ: العَينُ والميمُ والهاءُ، والعمَهُ هوَ التّردّي في الضّلالةِ والتّحيرُ الّذي لا يُهْتَدى مَعَهُ لِطَريقٍ أو مَذْهبٍ، ومِنْهُ أيضًا: فَقْدُ التّبَصّرِ والتّنبّه[6]، و﴿يَعۡمَهُونَ﴾ في الآيَةِ بِمَعنى: التَّردّدِ والتَّحيّرِ في الكُفرِ، فَرَجلٌ عَمِهٌ وعامِهٌ: حائِرٌ مُتَرَدّدٌ[7].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

لَوْ يُعجّلُ اللّه إجابَةَ دُعاءِ الّذينَ يَدعونَ بِالشّرِّ على أَنْفسِهم عندَ غَيْظِهم وضَجَرِهم كَما يُعَجّلُ لَهُمُ الإجابَةَ بِالخَيْرِ لَأَهْلَكَهم، أوْ أَصابَهُم بِالسّوءِ، وما أُمهِلوا طَرْفَةَ عَيْنٍ، ولَكِنْ

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/319، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (عجل).
(2) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (شرر).
(3) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 12/149.
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وذر).
(5) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 2/230.
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عمه).
(7) الهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث: (عمه).

مِنْ رَحْمَتِهِ أنّهُ لَم يَسْتَجِبْ لَهم؛ لأنّهُ رَؤوفٌ رَحيمٌ، فاللّه سُبْحانَهُ بِحُكمِه وحِكْمَتِه يُقرِّرُ ما يَشاءُ، ثُمَّ يَتْركُ الّذينَ يُنْكرونَ البَعْثَ في طُغْيانِهِم يَتَحيَّرونَ عُميًا صُمًّا عَنْ رُؤْيَةِ الآياتِ وسَماعِ البَيّناتِ.

اللهُ يَحْفَظُ النّاسَ مِن اختيارِهِمُ المُهْلِكِ ويَتَلَطَّفُ بِهِم مِنْ جَهْلِهِمُ المُطْبِقِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالَةُ العَطْفِ: ﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ﴾:

العالَمُ قائِمٌ عَلى الرِّفْقِ والرَّأْفَةِ لِتَحْقيقِ غايَةِ الوُجودِ في الوُصولِ إلى المَعْبودِ

الواوُ في قولِه تَعالى: ﴿۞وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ﴾ عاطفةٌ؛ حيثُ عطفَتْ هذهِ الآيَةَ على سابِقَتِها، وفي ذلكَ خصوصيَّةُ عَطفٍ ومَزيدُ اتّصالٍ بما قبلَها؛ فإنَّ غُرورَ المشركينَ جَعلَهُم يَظنّونَ أنّ أفْعالَ اللّه سبحانَهُ كتَصرّفاتِ البَشرِ من الانْدِفاعِ انْتِقامًا عِندَ الغَضبِ ونحوِه، ويَحسَبونَ أنَّ الرّسلَ مَبعوثّون لإظْهارِ الخَوارقِ، وأنَّ تَصرّفاتِهم رُدودُ أفْعالٍ، فإذا ما آذَوْهُم ولم تُصِبْهُم إثْرَ ذلكَ مَصائبُ أوْ موتٌ؛ ازْدادوا غُرورًا بباطِلِهم، والآياتُ في ذلكَ كَثيرةٌ، وربّما اسْتبطأَ المؤمنونَ نُزولَ العَذابِ لما يَرَوْنَ من تَجاوزِ أولئكَ، وربّما عَجِبوا منْ أنّهُ تعالى يرزقُ أولئكَ الجاحِدينَ ويَزيدهُم، فَجاءَتْ هذهِ الآيَةُ لِتُزيلَ هذهِ الشُّبهَةَ وتُطَمئِنَ المؤمنينَ، ولِتقرّرَ أنَّ المَولى سبحانَهُ جَعلَ نِظامَ هذا العالَمِ عَلى الرّفقِ بالمَخْلوقاتِ واسْتِبقائِها إلى أجَلٍ مُعيّنٍ، وهيّأَ وَسائلَ هذا البَقاءِ بإمدادِها بالنّعمِ لتَدومَ الحياةُ؛ فَهذهِ الجملةُ مَعطوفةٌ على قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾، وآيَةُ اتّصالِ هذه الآيَةِ بما قَبلَها أنّه خَتمَها بقولِه: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾[1].

عَدَمُ اسْتِعْجالِ الشَّرِّ لِمُسْتَحِقّيهِ دَليلُ الحِكْمَةِ وبُرْهانُ المِنَّةِ

وفي الآيَةِ بَيانُ أنَّ الرِّفقَ قدْ جَعلهُ اللّه سُبحانَهُ مُستمرًّا دائمًا عَلى عِبادِه، فهوَ قدْ أُقيمَ عليهِ نِظامُ العالَمِ لأنّهُ أرادَ ثباتَهُ، ولَيسَ المرادُ تَوازيَ الشَّرِّ مَعَ الخَيرِ؛ تَلطّفًا منهُ تَعالى ورِفقًا بالمَخْلوقينَ؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/105 - 106.

فَفيه مِنّةٌ عَظيمةٌ ومِنحةٌ جَسيمةٌ، ولَوْ عجّلَ الشَّرّ لِمُستَحقّيهِ؛ لَبَطلَ نِظامُ العالَمِ وبُنيانُهُ الَّذي قُدِّرَ لَهُ[1].

فائِدَةُ اسْتِعْمالِ أَداةِ الشَّرْطِ ﴿وَلَوۡ﴾:

تَحْريكُ الْقُرْآنِ الكَريمِ الأَذْهانَ في تَصَوُّرِ وُقوعِ الخُسْرانِ

اسْتِعمالُ أَداةِ الشّرْطِ ﴿وَلَوۡ﴾[2] في قولِه تعالى: ﴿۞وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ﴾؛ لِإرادةِ مَعْنى نَفيِ التَّعْجيلِ، عَلى تَقديرِ أَنّنا لا نُعَجّلُ لَهمُ الشَّرَّ ولا نُطاوِعهُم فيما يَبْتَغونَ فَنَقْضيَ أَجَلَهم، بلْ نُبْقيهم ونَتْركهُم في طُغْيانِهم وتَعَسُّفِهم إِمهالًا مِنّا، ونُغْدِقُ عَلَيهم مِنَ النِّعمةِ على ما هُم فيهِ مِن الظُّلم والجُحودِ كَيْ نُلزِمهُمُ الحُجّةَ[3]؛ فَإذا أُخذوا لَم يُفْلِتوا، فَنَكبُّهُم عَلى وُجوهِهِم في جَهَنَّمَ داخِرينَ، ومَعْنى النَّفْيِ مُنْتَزعٌ مِن السِّياقِ، وآثَر أَداةَ (لَو) على أَداةِ النَّفْي الصَّريح؛ لِقَصْدِ تَحْريكِ الأَذْهانِ فيما لَو عَجَّلَ اللّه لِلنّاسِ الشَّرَّ الّذي يَسْتَعْجِلونَهُ، وفي ذلك دَعْوةٌ أَكيدَةٌ لِلإقْبالِ عَلى الاسْتِغْفارِ بَعدَ الشِّرك.

غَرَضُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المضارِعِ ﴿يُعَجِّلُ﴾:

تَحْذيرٌ ضِمنيٌّ بِأَنَّ التَّعْجيلَ قد يَقَع؛ فَعَلى العِبادِ أَنْ يَحْذَروا مِن الاسْتِهانَةِ بِهِ

التَّعْبيرُ بِالفِعْلِ المُضارِع: ﴿يُعَجِّلُ﴾ مِنْ بابِ الإيجازِ البَديع؛ فإنّهُ ذَكَرَ هذا الفِعلَ مَعَ جانِبِ الشَّرِّ ولم يَذْكرهُ مَعَ جانِبِ الخَيرِ في إشارةٍ دالَّةٍ على أَصْلِ الجِنْسِ في التَّعْجيلِ بِالشَّرّ بِأَقَلِّ ما يُحقّقُ مَعناهُ[4]، ولِلدّلالَةِ عَلى دَوامِ هذا المعْنى وتَجدُّدِهِ واسْتِمرارِهِ لِإمكانِ تَجَدُّدِ هذا المعْنى وجَرَيانِه في كلِّ زَمانٍ، فَفيهِ تَحذيرٌ ضِمنيٌّ أَنَّ التَّعْجيلَ قَدْ يَقَع؛ فَعَلى العِبادِ أَنْ يَحْذَروا مِنهُ.

والتَّعبيرُ بِصيغَةِ المضارِعِ ﴿يُعَجِّلُ﴾ الدّالِّ عَلى الاسْتِقبالِ - وإنْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/106.

(2) حرف يرد لمعانٍ متعدّدة، أشهرها: أن تكون حرف امتناع لامتناع، ويشمل النّفي أيضًا. ينظر: المالقيّ، رصف المباني، ص: 289.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/332، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/219.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/107.

كانَ مَعناهُ ماضيًا - يَدلُّ على أنَّ نَفْيَ قَضاءِ الأَجَلِ لاسْتِمرارِ نَفْيِ التَّعْجيلِ؛ لأنَّ الفِعْلَ المضارِعَ إذا كانَ مَنْفيًّا ووقَعَ مَوقِعَ الماضي، فإنَّهُ لا يُفيدُ نَصًّا في انْتِفاءِ اسْتِمرارِ الفِعْلِ[1].

فائِدَةُ التَّصْريحِ بِالاسْمِ الأَحْسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

التَّصْريحُ بِالاسْمِ الأَحْسَنِ (الله) لِإحاطَتِهِ بِصِفاتِ الكَمالِ والجَلالِ والعَظَمَةِ

آثرَ النَّظْمُ القُرآنيُّ ذِكْرَ الاسْمِ الأحسنِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ﴾ للنَّصِّ على أنَّ التَّعْجيلَ واقِعٌ منهُ تعالى[2]، والاسْتِعجالَ واقِعٌ مِنْهم، بدلالَةِ إضافَتِهِ إلى الضَّميرِ العائِدِ عَلَيهم.

والإتْيانُ بالاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعِلًا لفِعْلِ ﴿يُعَجِّلُ﴾؛ لإحاطَةِ الاسْمِ الجَليلِ بِصِفاتِ الكمالِ والجلالِ والعظمةِ[3] بخلافِ ما لَوْ عُلِّقَ فِعْلُ التَّعجيلِ بِغَيرِهِ مِنَ الأَسْماءِ، فقد يَتوهَّمُ اخْتِصاصُ التَّعْجيلِ بِصِفةٍ دونَ أُخرى مِن صِفاتِه تَعالى، كالعَظيمِ أوِ الرَّحيمِ أوْ نَحوِها.

دلالَةُ التَّعْريفِ في: ﴿لِلنَّاسِ﴾:

تَنْبيهٌ وتَحْذيرٌ لِعُمومِ النّاسِ، وبَيانُ أنَّ سُنَّةَ اللهِ سُبْحانَهُ رَحْمَةُ النّاسِ ورَأْفَتُهُ بِهِم فيما يَصْنَعون

كلمةُ ﴿لِلنَّاسِ﴾ معرَّفةٌ باللّامِ، والمرادُ منها المشْرِكون الّذين لا يَرجونَ لِقاءَ اللّه تعالى لإنكارِهمُ البَعْثَ وما يترتَّبُ عَليه[4]، فلَفظُ (النّاس) لَفظٌ عامٌّ يُرادُ منهُ الخُصوصُ، وإيثارُ لَفظِ النّاسِ على المشْرِكين أوِ المُنْكِرين أوِ المكَذِّبين؛ للدّلالَةِ على أمرٍ عَظيمِ الشَّأنِ، وهوَ أنَّ كَثيرًا مِنَ النّاس مِنْ غَيرِ المشْرِكينَ قَد يَقَعون فيما يقَعُ فيهِ المشْرِكون، فَفيهِ تَنْبيهٌ وتَحْذيرٌ لِعُمومِ النّاسِ، وأنَّ سُنَّتَهُ سُبحانَهُ في ذلك رَحمةُ النّاسِ ورَأْفتهُ بِهِم فيما يَصْنعونَ.

نُكْتَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمجْرورِ: ﴿لِلنَّاسِ﴾:

الرَّدُّ عَلى المُشْرِكينَ باسْتِعْجالِهِمُ الشَّرَّ عَلى سَبيلِ التَّهَكُّمِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجْرورُ﴿لِلنَّاسِ﴾ في قولِه تَعالى: ﴿۞وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ﴾ على المَفعولِ ﴿ٱلشَّرَّ﴾ مِنْ بابِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/125.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/19.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/81.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/124.

الاهْتمامِ والاخْتِصاصِ بِغَرضِ الرَّدِّ عَلى صَنيعِهم؛ فَإنّهم كانوا يَسْتعجلونَ الشّرَّ رَغْبةً بوقوعِهِ لا على سَبيلِ الحَقيقَةِ، بَلْ عَلى سَبيلِ التَّهَكُّمِ والاسْتِهزاءِ(1)، فَقدَّم ذِكرَهم جَزاءً وِفاقًا، من بابِ التَّهكُّم رَدًّا عَلى تهكُّمِهم.

بَيانُ المُرادِ بِالشَّرِّ الّذي اسْتَعْجَلَهُ أَهْلُ مَكَّةَ

دلالَةُ التَّعْريفِ في: ﴿ٱلشَّرَّ﴾:

التَّعْريفُ في كَلِمَةِ ﴿ٱلشَّرَّ﴾ لِلعَهْدِ العِلْمِيِّ؛ فَإنَّ المُرادَ مِنهُ الشَّرُّ الّذي اسْتَعْجَلهُ أَهْلُ مَكّةَ بِقولِهم: اللهمَّ إنْ كانَ محمّدٌ صادِقًا في دَعْوَتِهِ فَأَمْطِرْ علينا حِجارَةً أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَليمٍ ونَحوِ ذلِك(2)، فالشَّرُّ هو ما يَعْرِفه المُخاطَبونَ ممّا كانَ يَدْعو بِهِ المُشْرِكون.

الشَّرُّ يَشْمَلُ العُقوبَةَ والعَذابَ وكُلَّ ما يَكْرَهُهُ النّاسُ ممّا يُقابِلُ الخَيْرَ

سِرُّ ذِكْرِ: ﴿ٱلشَّرَّ﴾:

ذُكِرَتْ مُفْرَدَةُ ﴿ٱلشَّرَّ﴾ دونَ غَيْرِها مِنَ المُفْرَداتِ المُرادِفةِ أَوِ القَريبةِ المَعْنى، كالعَذابِ أَوِ العُقوبَةِ أَوْ نَحوِها؛ لأَنَّ الشّرَّ أَذًى في حقِّ مَنْ تَلْحقهُ هذهِ العُقوبةُ ومَكْروهٌ يُصيبُه(3)، وهو لَفظٌ عامٌّ يَعمُّ العَذابَ والعُقوبَةَ والمُصيبةَ، وكلَّ ما يَكرهُهُ النّاسُ ممّا يُقابلُ الخَيرَ.

رَحْمَةُ اللهِ سَبَقَتْ غَضَبَهُ، وفَضْلُهُ سابِقٌ لِعَدْلِهِ

دلالَةُ المُقابَلَةِ: ﴿يُعَجِّلُ﴾ و﴿ٱسْتِعْجَالَهُم﴾:

وبَيْنَ قولِه: ﴿يُعَجِّلُ﴾ و﴿ٱسْتِعْجَالَهُم﴾ مُقابَلَةٌ لَطيفَةٌ، بَيْنَ نَفْي تَعْجيلِ الشَّرِّ، وإِثْباتِ مَجيءِ الخَيرِ، ففيهِ بَيانُ رَحْمَةِ اللّٰه تعالى بِعِبادِهِ، وأنّهُ يُعامِلُهم بِلُطْفِهِ ورَأْفَتِهِ فَهو اللّطيفُ الرَّؤوفُ، وفيهِ تَقْديمُ الرَّحمةِ على الغَضَبِ، ولا غَرْو في ذلكَ؛ إذْ كانَتْ رَحْمَتهُ قَد وَسِعَتْ كلَّ شَيْءٍ، كَما أَنَّ فيهِ تَقْديمَ الفَضْلِ على العَدْلِ والإِحْسانِ عَلى الميزانِ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/19.
(2) شيخ زاده، حاشية على البيضاوي: 4/546.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/219.

فَنُّ الجِناسِ الاشْتِقاقيِّ: ﴿يُعَجِّلُ﴾، و﴿ٱسۡتِعۡجَالَهُم﴾:

بَيْنَ ﴿يُعَجِّلُ﴾ و﴿ٱسۡتِعۡجَالَهُم﴾ جناسٌ[1]، والمَعْنى: "ولَو اسْتَعْجَلَ اللهُ لِلنّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُم بِالخَيرِ، إلّا أنّهُ تَعالى وَصَفَ نَفْسَهُ بِتَكْوينِ العَجَلةِ ووَصَفَهُم بِطلَبِها؛ لِأنَّ اللّائِقَ بِهِ تَعالى هوَ التَّكْوينُ، واللّائِقَ بِهِم هوَ الطَّلَبُ"[2] فَبَيْنَ اللَّفْظَتَيْنِ جِناسٌ لَكِنّهُ لَيسَ تامًّا لِاخْتِلافِ الكَلِمتَينِ زِيادَةً ونَقْصًا، وهوَ المُسَمّى جِناسَ الاشْتِقاقِ.

التَّعْجيلُ تَكْوينُ العَجَلَةِ، والاسْتِعْجالُ طَلَبُ إيقاعِها، فَأَوْقَعَ اللّائِقَ بِهِ سُبْحانَهُ لا بِهِم

بَلاغَةُ التَّشْبيهِ: ﴿ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ﴾:

في قَولِه: ﴿۞وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ﴾ تَشْبيهٌ مُؤَكّدٌ مُجملٌ، أيْ: مِثلَ اسْتِعْجالِهِم، عَلى نَعْتِ مَصْدَرٍ مَحْذوفٍ، والتَّقْديرُ: ولَو يُعجِّلُ اللهُ تَعالى لِلنّاسِ الشَّرَّ تعجيلًا مِثْلَ اسْتِعْجالِهِمُ الخَيْرَ[3]، وأَحلَّ الاسْتِعْجالَ مَحلَّ التَّعجيلِ لَهم بِالخَيرِ إيذانًا بِسُرْعَةِ اسْتِجابَتِهِ لَهم في الخَيرِ[4]، فاللهُ سُبحانَهُ لا يُعَجّلُ الشَّرّ الّذي يَسْتَعْجِلُهُ النّاسُ كَما يُعَجّلُ لَهُمُ الخَيرَ.

الحَقُّ سُبْحانَهُ لا يُعَجِّلُ الشَّرَّ الَّذي يَسْتَعْجِلُهُ النّاسُ كَما يُعَجِّلُ لَهُمُ الخَيْرَ

نُكْتَةُ الاحْتِباكِ: ﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ﴾:

في قَولِه: ﴿۞وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ﴾ احْتِباكٌ[5]، وهوَ مِن وَسائِلِ الإيجازِ بِالحَذْفِ عَلى جِهَةِ التَّقابُلِ؛ فيُحْذَفُ مِنَ الأوّلِ لِدلالَةِ الثّاني عَلَيه، ويُحْذفُ مِنَ الثّاني لِدلالَةِ الأوّلِ عَلَيهِ، والتَّقْديرُ في الآيَةِ: ولَوْ يُعَجّلُ اللهُ لِلنّاسِ الشَّرَّ عِندَ اسْتِعْجالِهِم بِهِ، كما يُعَجّلُ لَهمُ الخَيرَ عِندَ اسْتِعْجالِهِم بِهِ؛ لَقُضيَ إلَيهِم أَجَلُهُم،

إظْهارُ مُسارَعَةِ الخَيْرِ وإِبْطاءُ الشَّرِّ عَنِ النّاسِ

(1) ويسمّى: التّجنيس أو المجانسة، وهو من المحسّنات البديعيّة، وهو تشابه الكلمتين في اللّفظ مع اختلافهما في المعنى، وقد يكون تامًّا وغيرَ تامٍّ، وأنواعه كثيرة، يُنظر: الإسفرايينيّ، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: 1/115.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/219، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/9.

(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 11/133.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/331، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 11/119.

(5) الاحتباك: أن يحذف من الأوّل ما أثبت نظيره في الثّاني، ومن الثّاني ما أثبت نظيره في الأوّل. ينظر: السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 3/204.

فَأُضْمِرَ الاسْتِعْجالُ في الشّرِّ والتَّعْجيلُ في الخَيرِ، ونُكْتَةُ ذلِكَ إِظْهارُ مُسارَعةِ الخَيْرِ، وإِبْطاءِ الشَّرِّ عنِ العِبادِ.

دلالَةُ السّينِ والتّاءِ في لَفْظِ الاسْتِعْجالِ:

المُبالَغةُ في التَّعْجيلِ والتّكْثيرِ بما تُفيدُهُ السّينُ والتّاءُ، لا الطَّلَب

السّينُ والتّاءُ في صيغةِ الاسْتفعالِ في قولِه تعالى: ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ تَدلُّ عَلى المُبالغَة، بِما تُفيدُهُ حُروفُ الزّيادةِ المُلْحَقةُ بها، وهيَ لِغيرِ الطّلَبِ، فَإنّ المُشْركين لَم يَسْألوا تَعْجيلَ الخيرِ، بَل المَعْنى دالٌّ عَلى التَّعجيلِ الكَثيرِ[1] المَوْصوفِ بِالمُبالغَة، وقَد ذَهَب فَريقٌ مِنَ المفَسِّرين إلى أنَّها تَدلُّ عَلى الطّلَبِ والسّؤالِ[2].

دلالَةُ الباءِ في ﴿بِٱلْخَيْرِ﴾:

حِرْصُ النّاسِ عَلى الالْتِصاقِ بِالخَيْرِ

الباءُ في قولِه تَعالى: ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ لِتأكيدِ الإِلْصاقِ[3] كقولِه تعالى: ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة: 6]، وهو على المَجازِ لا الحَقيقَة، فَفيهِ حِرصُ النّاسِ على الالتِصاقِ بالخيرِ، والأَصْلُ فيهِ اسْتعجالُهُم الخيرَ - مُتعدّيًا بِنَفسِه - ، فالاسْتِعجالُ دالٌّ على المُبالغَة، والباءُ على التّأكيد، وفي ذَيْنك المَعْنيَين إيذانٌ بالامتِنانِ بأنَّ الخيرَ مِنهُ تَعالى وَفيرٌ مَكينٌ[4].

بَراعَةُ الطّباقِ بَيْنَ الشَّرِّ والخَيْرِ:

بَيانٌ لِقُبْحِ الشَّرِّ وجَمالِ الخَيْرِ جَلاءً لِلمَغْزى ومزيدًا للبلاغة

في قَولِه: ﴿۞وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ طِباقُ إيجابٍ بَيْنَ كَلِمَتَي الشَّرِّ والخَيْرِ، فَهُما ضِدّانِ، واللَّفْظَتانِ وإِنْ كانَتا مُتَضادَّتينِ، إلّا أنّ وجودَ إِحْداهما بِجانِبِ الأُخرى في التَّرْكيبِ اللُّغويِّ ممّا يَخْلعُ عَلَيهِ نَصاعةً بَلاغيَّةً واضِحةً، وفائدَتُه تَكْمنُ في بَيانِ قُبحِ الشَّرِّ وحَرَجِه في جانِبِ جَمالِ الخَيرِ وانْفِساحِه، وبيانُ شدَّةِ تَعاسَةِ أَهلِ الشّرِّ وخَسارتِهِم وسَعادةِ أَهلِ الخَيرِ وغَنيمتِهِم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/107.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/19.
(3) هذا شأنها في حروف المعاني، والإلصاق أصل معاني الباء، حتّى قيل: إنه لا يفارقها، وقد يكون الإلصاقُ حقيقيًّا كقولهم: أمسكت الحبل بيدي، وقد يكون مجازيًّا، كالواردِ في الآية، المراديّ، يُنظر: المرادي، الجنى الدّاني، ص: 36.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/107.

بَلاغَةُ جَوابِ ﴿وَلَوۡ﴾:

جاءَ جَوابُ ﴿وَلَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ﴾ مُتَضمّنًا بَيانَ رحمةِ اللّه بِالعبادِ ورَأْفتِه، وبيانَ حِكْمتِه تعالى في إتْيانِ قَضائه في الأَجَلِ المُحدَّد، فإنَّه تَعالى لا يُعاجِلُ هؤلاءِ بما يَطلبون، بل بِحَسَبِ سُنَنِه الكَوْنيّةِ الماضيةِ، حتّى يَذرَ المُنْكِرينَ للمعادِ المارقينَ عنْ رِبْقةِ الدّينِ يَتَحيّرونَ في طُغيانِهم تَحيّرًا شديدًا[1]، ولَوْ أنَّ السُّنَّةَ الإلهيّةَ جَرتْ عَلى مُعاجَلةِ الإنسانِ بالشَّرِّ لَهَلَكَ الإنْسانُ وبادَتِ الحَياةُ، لَكن سُنَّتُهُ مَبْنيَّةٌ على العِلمِ والحِكْمةِ بما يُحَقّقُ مَصالحَ الخَلْقِ أَجْمَعينَ.

رَحْمَةُ اللهِ وحِكْمَتُهُ في قَضائِهِ مَبْنِيَّةٌ عَلى عِلْمِهِ وسُنَنِهِ الإلَهيّةِ

بَلاغَةُ التَّضْمين: ﴿لَقُضِيَ﴾:

الأَجَلُ في قولِه تعالى: ﴿لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ﴾ هوَ المدَّةُ المَعْلومةُ المحدّدَةُ لِبَقائهم، والقَضاءُ: تَقديرُهُ تعالى، والمَعْنى: لَقُضيَ إليهم حُلولُ أَجَلِهمُ المقدَّرِ لَهم، غيرَ أنَّهُ لَمّا ضُمّنَ الفِعْلُ (قُضيَ) معْنى الفعلِ (بلَغ) و(وصل) عُدّيَ بالحرفِ (إلى) المناسِبِ لِهذَينِ الفِعلَين[2]، فكانَ في الجُملَةِ إيجازٌ؛ إذْ فِعْلُ القَضاءِ مُصَرَّحٌ بهِ، وفِعْلُ البُلوغِ والوصولِ مُشارٌ إليهِ بالحرفِ المعَدَّى به الفِعْلُ.

ضمِّنَ (قُضِيَ) مَعْنى (بلَغَ) و(وصَلَ)، ولِذلِكَ عُدِّيَ بِـ (إلى)

تَوْجيهُ القِراءاتِ في قولِه تَعالى: ﴿لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ﴾:

قَرأَ الجُمهورُ ﴿لَقُضِيَ﴾ بِالبِناءِ لِلمَفْعولِ و﴿أَجَلُهُمۡۖ﴾ مَرفوعٌ عَلى أنّه نائِبٌ عنِ الفاعِلِ، وقَرأَ ابنُ عامرٍ ويَعقوبُ مِنَ العَشَرةِ بِالبِناءِ لِلفاعِلِ (لقَضَى إليهم أجلَهم)[3]، عَلى جَعْلِ ضَميرٍ في (قَضى) يَعودُ عَلى الاسْمِ الأَحْسَنِ (اللّه) المَذْكورِ آنِفًا، وحَسّنَ ابنُ خالويه القِراءَتَين[4]، إلّا أنَّ قِراءَةَ الجمهورِ مُؤْذِنةٌ بِأنَّ قَضاءَ أَجَلِهم مِنَ الأُمورِ المُيَسَّرةِ عَلينا غَيرِ المَحْوجَةِ لِإظهارِ الفاعِلِ، - وهو مَعلومٌ - جَريًا على سَنَنِ

اتَّفَقَتِ القِراءَتانِ عَلى عَدَمِ النَّصِ عَلى ذِكْرِ الفاعِلِ إِضْمارًا وبِناءً لِلمَفْعولِ

(1) الطّباطبائيّ، الميزان: 10/22.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/108.

(3) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/282.

(4) ابن خالويه، إعراب القراءات السّبع وعللها، ص: 155.

الكِبرياءِ[1]، والقِراءتانِ لَم تَنصّا على الفاعِلِ تَصريحًا بِهِ على وَجْهِ الإظْهارِ، فَإحْداهما جاءَتْ عَلى سَبيلِ البِناءِ لِلمَفْعول، والأُخرى عَلى سَبيلِ الإضْمارِ، فَبَيْنَ القِراءَتَين تَشابهٌ وتَماثلٌ وتَكامُلٌ.

نُكْتَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾:

تَقْديمُ الجارِّ والمَجْرورِ مِنْ بابِ الاخْتِصاصِ تَبْكيتًا لَهُم

قُدِّم الجارُّ والمَجْرورُ في قوله تعالى: ﴿لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ﴾ لِأَجْلِ الاخْتِصاص، أيْ: إلى النّاسِ خاصّةً[2]، فإنّهم سَألوا اللهُ تَعالى ذلك حَقيقةً أوْ عِنادًا وتَكبّرًا، فَأجابَهُم إلى سؤالِهم عَلى وَجْهِ التَّخْصيص؛ تَبْكيتًا لَهُم.

دلالَةُ الإضافَةِ في: ﴿أَجَلُهُمۡۖ﴾:

مَزيدُ تَهْديدٍ ووَعيدٍ لِلأَجَلِ الّذي يَعْرِفونَهُ تَفْصيلًا

دَلَّتْ إضافَةُ الأَجَلِ إلى الضّميرِ العائدِ على النّاسِ في قولِه: ﴿أَجَلُهُمۡۖ﴾ على التّخْصيصِ وشِبْهِ المِلْك؛ فهوَ الأَجَلُ الّذي عَيّنَهُ اللّه سُبحانَهُ لِعذابِهِم فيَموتوا ويَهلَكوا وما يُهْمَلوا طَرفَةَ عَينٍ[3]؛ وفي ذِكْرِ ذلك الأَجَلِ المُضافِ إلى الضَّميرِ العائدِ على النّاسِ مَزيدُ تَهديدٍ، فهو أَجَلُهم المَعْهودُ المَحْتومُ، فكَأنَّهم يَعْرِفونَهُ مَعرفةً تَفْصيليَّةً.

دلالَةُ الفاءِ في: ﴿فَنَذَرُ﴾:

انْتِفاءُ التَّعْجيلِ يَعْني تَرْكَ المُنْكِرينَ في طُغْيانِهِم مُتَحَيِّرينَ

الفاءُ في قوله تَعالى: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لِلتَّفْريع[4]، فَهذِهِ الجملَةُ مُفرَّعَةٌ على جُملةِ ﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ﴾ وجَوابِها، ومَعْناها: نَفْيُ أنْ يجْعلَ الشَّرّ لِلنّاسِ لِانْتِفاءِ لازِمِهِ وهو بُلوغُ أَجَلِهِم، فإذا انْتَفى التَّعْجيلُ تَرَكْنا هؤلاءِ الّذين لا يَرْجونَ لِقاءَنا مُتَلبّسينَ في طُغيانِهم يَتَحَيّرونَ مِن فَرطِ تَكَبّرِهِم[5].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/125.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/81.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/125.

(4) هي الفاء الّتي تربط جملتين فيكون ما قبلها علة لما بعدها وما بعدها فرع عنه، يُنظر: الصبّان، حاشية على الأشمونيّ: 3/142.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/108.

بَلاغَةُ الالْتِفاتِ في: ﴿فَنَذَرُ﴾:

في التَّعْبيرِ بِالفِعلِ ﴿فَنَذَرُ﴾ الْتِفاتٌ بَعدَ ما مرَّ من جملٍ في الآيَةِ؛ حيْثُ الْتُفِتَ فيهِ منَ الغيبةِ إلى التَّكلُّم، والبَلاغةُ في هذا الالتِفاتِ الإشارَةُ إلى تَوسيطِ الأسْبابِ في ذلك، ففي الآيَةِ وما بَعدَها من أفعالِه تعالى، كَتَرْكِهم في أعْمالِهم، والتَّزيينِ، والإهْلاك، أُمورٌ يُتوسَّلُ إليها بتَوْسيطِ الأَسْبابِ، والعُظَماءُ إذا أرادوا الإشارَةَ إلى دَخْلِ أعْوانِهم وخَدَمِهم في بَعْضِ الأُمورِ اسْتَعْمَلوا صيغَةَ المُتَكلِّم[1].

إشـــارَة إلى تَـوْسـيـطِ الأَسْبابِ، وهيَ طَريقَةُ العُظَماءِ في الإشـارَةِ إلى خَـدَمِـهِـم في بَعْضِ أُمورِهِم

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ ﴿فَنَذَرُ﴾:

النّونُ في قوله: ﴿فَنَذَرُ﴾ هيَ نونُ العَظَمَةِ، والتَّعْبيرُ بها في هذا المَوْضِعِ يُرادُ بِهِ التَّحْذيرُ والتَّخْويفُ وإدْخالُ المَهابَةِ في نُفوسِ المخاطَبينَ[2]؛ فإنّ كُلَّ مَنْ لا يَرْجو لِقاءَهُ مَتْروكٌ مُهْمَلٌ يُلاقي مَصيرَهُ المَحْتومَ.

التَّعْبيرُ بِنونِ العَظَمَةِ يَسْتَدْعي التَّحْذيرَ والتَّخْويفَ

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ (نَذَرُ):

جاءَ التَّعْبيرُ بِالفِعْلِ ﴿فَنَذَرُ﴾ دونَ أنْ يَرِدَ النَّظْمُ القُرْآنيُّ (فَنترك)؛ لِلإشارَةِ إلى أَصْلِ هذه الكَلِمَةِ الحِسِّيِّ؛ وهو قِطعَةُ اللَّحْمِ الّتي لا يُعْبأُ بها، فكَأنَّه قالَ: نَتْرُكُهُم كقِطْعَةِ لحْمٍ غيرِ مَعْبوءٍ بها، إذِ العَرَبُ تَسْتَعْمِل هذه الكَلِمَةَ في القَذْفِ في الأَعْراضِ، وحالُ هؤلاءِ الّذين لا يَرْجونَ لِقاءَ اللّه تَعالى كَحالِ مَن يُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِأَلْسُنِ النّاسِ، وهو في غايَةِ الحَيْرَةِ والاضْطِرابِ والضَّلالِ.

الكِنايَةُ عَنْ تَعْريضِ الّذينَ لا يَرْجونَ لِقاءَ الله لِكَلامِ النّاسِ

دلالَةُ إظْهارِ الاسْمِ المَوْصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

عُبِّرَ عَنِ الكافرينَ بالاسْمِ المَوْصولِ في قَولِه تَعالى: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾، والقِياسُ التَّعْبيرُ عَنْهُ بالضَّميرِ؛ لِلدّلالَةِ عَلى أَشَدِّ الطُّغيانِ وأَعْتاهُ، وهو أنَّهم قَد أَنْكَروا البَعْثَ والنُّشورَ، فَقد صارَ هذا

الْتِصاقُ الاسْمِ المَوْصولِ بِالمُنْكِرينَ كالعَلامَةِ المُمَيِّزَةِ

(1) الطّباطبائيّ، الميزان: 10/22.

(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/407.

التَّركيبُ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ كالعَلامَةِ المَيِّزَة لَهُم[1]، وهوَ تَبْيينٌ لِنَوعِ الطُّغيانِ الكائِنِ بِما في حَيِّزِ الصِّلَةِ، وإيذانٌ بِعلِّيَّتِه تَرْكًا واسْتِدْراجًا[2].

دلالَةُ حَرْفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي﴾:

تَشْبيهُ الطُّغيانِ بِـالماءِ الَّـذي يُغرَقُ فيهِ مُؤْذِنٌ بانْغِماسِهِم في المَهالِكِ

التَّعبيرُ بِالظَّرفيَّةِ في قولِه: ﴿فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ يُؤْذِنُ بِأنَّهُم مُتَلَبِّسونَ بِذلِكَ الطُّغيانِ[3]، مُنْغَمِسونَ في غَمَراتِهِ؛ فَقد تَجاوَزوا فيهِ الحُدودَ تَجاوزًا لا يَفْعَلُهُ مَن لَه أَدْنى عَقْلٍ ورَوِيَّة[4]، وفيهِ تَشْبيهُ الطُّغيانِ بِالماءِ الَّذي يُغْرَقُ فيهِ.

دلالَةُ اسْتِعْمالِ لَفْظِ الطُّغْيانِ:

الطُّغيانُ دالٌّ عَلى المُبالَغَةِ في الشَّرِّ والكِبْرِ وهوَ مُلْتَصِقٌ بِأَصْحابِهِ

الطُّغيانُ مَصْدَرُ (طغى) يَدلُّ على المبالغَةِ والإفْراطِ في الشَّرِّ والكِبرِ، واسْتِعمالُهُ في قولِه: ﴿فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ فيهِ بَيانُ أنَّ التَّكْذيبَ بِالبَعْثِ واليومِ الآخرِ، والطّمأْنينَة بالحَياةِ الدُّنيا والرِّضا بِها هوَ طُغْيانٌ مِلْتَصِقٌ بِأَصْحابِه، وأَصْحابُهُ مَخْذولونَ عَن بلوغِ أَسْبابِ الهِدايةِ مَحْرومونَ مِنْها؛ لِأنّهم آثَروا الحياةَ الفانِيَةَ عَلى الآخِرةِ الباقيَة، فَكانَ إيثارًا دالًّا عَلى التّيهِ والضّلالِ والعَمَه.

فائدَةُ الإضافَةِ في ﴿طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾:

الإشـارَةُ إلى تَفْظيعِ شَأْنِ هذا الطُّغيانِ وغَرابَتِهِ، فَباتَ يُعْرَفُ بِإضافَتِهِ إِلَيْهِم

أُضيفَ الطّغيانُ إلى الضّميرِ الرّاجِعِ عَليهِم في قولِه: ﴿طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾، ولَم يَأْتِ بِالطُّغْيانِ مُعَرّفًا تَعْريفَ جِنْسٍ؛ وذلِكَ لِقَصْدِ الإشارَةِ إلى فَظاعَةِ شَأْنِ هذا الوَصْفِ وغَرابتِهِ في بابِه، وأنّهُ باتَ خِصّيصَةً لازِمَةً بِهِم، حتّى صارَ يُعرفُ عِندَ إضافَتِهِ إِلَيْهِم[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/109.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/126.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/108.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/83.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/297.

نُكْتَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾:

العَمَهُ مَقْصورٌ عَلى التَّركِ في الطُّغيانِ تَقْبيحًا وتَبْشيعًا

قُدِّمَ الجارُّ والمجْرورُ: ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ عَلى الفِعْلِ ﴿يَعْمَهُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾؛ لإفادَةِ القَصْرِ، فكأنّهُ جُعِلَ العَمَهُ مَقْصورًا عَلى التَّركِ في الطُّغْيانِ؛ لِبَيانِ شَديدِ قُبْحِه وشَرّه.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العَمَهُ والحَيْرَةُ:

العَـمَـهُ أَبْـلَـغُ وأَقْوى وَقْعًا مِنَ الحَيْرَةِ، فالعَمَهُ مُشْتَمِلٌ عَلى الحَيْرَةِ وزيادَةٍ

العَمَهُ بِمَعْنى التَّحَيُّرِ، والجَورِ عَنِ الحقِّ، ومِن مَعانيه: العَمَهُ في الرَّأيِ، كما أنَّ العَمى في البَصَرِ[1]، والتَّحَيّرُ هو التَّردّدُ في الشّيءِ[2]، ووَرَدَ مَعْنى العَمَهِ عِندَ كَثيرينَ عَلى أنّهُ التّردُّدُ والتَّحَيّرُ مُجْتَمِعَيْنِ[3]، فَبَيْنَ المفْرَدَتَين وَشائِجُ وعَلائِقُ، إلّا أنَّ العَمَهَ أَبْلَغُ وأَقْوى وَقْعًا مِنَ الحَيْرَةِ، فالعمَهُ مُشْتملٌ على الحيْرةِ وزيادَةٍ.

(1) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (عمه).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حير).
(3) بطّال الرّكبيّ، النّظم المستعذب في تفسير غريب ألفاظ المهذّب: 2/199، والزَّبيدي، تاج العروس: (عمه).

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١٢﴾ [يونس: 12]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانْتِقالُ مِنَ ادِّعاءِ المُنْكِرينَ الكاذِبِ إلى فِعْلِهِمُ الصّادِقِ

وَجْهُ اتِّصالِ هذهِ الآيَةِ بما قَبلَها مِنْ وَجْهَينِ[1]:

أَحَدُهما: أنَّ اللّه سُبحانَهُ لَمّا ذَكرَ في الآيَةِ السّابقَةِ أنّهُ لَوْ أَنْزلَ العَذابَ عَلى الإنْسانِ في الدُّنيا لَقُضيَ عَلَيه؛ بَيَّنَ هُنا ما يَدلُّ عَلى غايةِ ضَعْفِهِ ونِهايَةِ عَجْزِه؛ لِيَكونَ ذلكَ مُؤَكِّدًا لِما ذَكرهُ قَبلُ.

والآخَرُ: أنَّ اسْتِعجالَهُمُ العَذابَ - المَذْكورَ في الآيَةِ السّابِقَةِ - لَيسَ عَلى وَجهِ الحَقيقَةِ، وأنَّهم كاذِبونَ في الطّلَبِ والاسْتِعجالِ، وآيَةُ ذلِكَ تَضرُّعهُم ودُعاؤهُم اللّه تَعالى عِنْدَما يَنزلُ بِهِم أَدْنى شَيْءٍ مِمّا يَكْرَهونَهُ مِنْ ضرٍّ أَوْ نَحوهِ مِمّا ذَكرَه اللّه في هذهِ الآيَةِ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَسَّ﴾: فِعلٌ ماضٍ، والجذرُ اللُّغويّ مِنهُ: الميم والسّينُ، وتَدورُ اشْتِقاقاتُهُ عَلى جَسّكَ الشّيءَ بِيَدِكَ عَلى سَبيلِ المُباشَرَةِ، ومِنْهُ: المَسُّ؛ وهوَ أَنْ تَمسكَ الشّيءَ بِيَدِك، والمسُّ يَكونُ مَعهُ إِدْراكٌ بالحاسّةِ كاليَدِ ونَحوِها، والأذى والشّرُّ الّذي يَنالهُ الإنْسانُ يُسمّى مَسًّا، وفي المسِّ مَعْنى المُخالَطةِ، ويَرِدُ المسُّ بِمَعنى إيقاعِ العَذابِ والسّوءِ والشّرِّ وغيرِها[2]، وقَريبٌ مِنْهُ اللَّفظُ الوارِدُ في الآيَةِ، فَهو بِمَعنى إصابَةِ الإنْسانِ الضُّرُّ[3].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/220.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (مس).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/36.

2) ﴿ٱلضُّرُّ﴾: اسمٌ ثُلاثيٌّ، والجذرُ اللُّغويّ مِنْهُ: الضّادُ والرّاءُ، وهذِهِ المادَّةُ تدورُ تَصْريفاتُها على ضِدِّ النَّفْعِ، ويَرِدُ بِمَعْنى النُّقْصانِ الدّاخِلِ عَلى الشّيْءِ، تقولُ: دَخَلَ عَليهِ ضَرَرٌ في مالِهِ، أيْ: نَقْصٌ، ويُحْمَلُ عَليهِ كُلّ ما قارَبَهُ مِنَ المَعاني، ويَكونُ بِمَعنى سوءِ الحالِ في النَّفْسِ كَقِلّةِ العِلْمِ أو في البَدَنِ أَوْ حالَةً ظاهِرَةً كَقِلّةِ المالِ والجاهِ، ومِنْهُ إلْحاقُ الأَذى والمَكْروهِ بالمُقابلِ، وهو يَعُمُّ المادّيَّ والمَعْنَويَّ، وأكْثَرُ الوارِدِ في القُرآنِ الكَريمِ بِمَعْنى الضّيقِ وما يَتَفرَّعُ عَنْهُ[1]، ومَعْنى الضّرِّ في الآيَةِ الكَريمَةِ: الشِّدَّةُ أوِ المَرَضُ أَوْ نَحْوهما[2].

3) ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾: الجَنْبُ اسْمٌ ثُلاثيٌّ، وجذْرُهُ اللُّغويّ: الجيمُ والنّون والباءُ، وهو دالٌّ على النّاحيَةِ، وجَنْبُ الإنْسانِ ناحيَتُه، وهوَ أيضًا مُعظمُ الشَّيْءِ وأكْثرُه، وقالَ الرّاغبُ: إنَّ الأصلَ فيهِ الجارِحَةُ، ثمَّ يُسْتَعارُ مِنَ النّاحيَةِ، وجَنبُ الإنسانِ شِقَّهُ الّذي يُكَمّلُ بَدَنَهُ[3]، وقوله: ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ في الآيَةِ، أيْ: وهوَ مُضْطَجِعٌ مُسْتَلْقٍ على جَنبِهِ[4]، وقدْ يكونُ كِنايةً عنِ الأحْوالِ كُلِّها.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الضُّرُّ الّذي يَقودُ الإنْسانَ لِلدُّعاءِ والالْتِجاءِ خَيْرٌ مِنَ العافيَةِ الّتي تورِثُ الإسْرافَ والبَلادَةَ

الآيَةُ الكَريمَةُ تُخْبِرُ أنَّ الإنْسانَ قَليلُ الصَّبرِ عِندَ نُزولِ البَلاءِ، قَليلُ الشُّكرِ عِندَ حُصولِ النَّعماءِ والرَّخاءِ، فإذا أصابَهُ الضّرُّ فَذو دُعاءٍ عَريضٍ في جَميعِ حالاتِهِ[5] إلى أنْ يَرومَ التَّخلُّصَ ممّا حَلَّ بِهِ مِنَ البلاءِ؛ فَتحملهُ الضَّرورةُ على الالْتِجاءِ إلى اللّه، فإذا كشفَ عَنْهُ؛ أعْرضَ عَنِ الشُّكرِ وعادَ إلى ما كانَ عَليهِ مِن قَبلُ كَأن لم يَكنْ

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ضر).
(2) الفيروزاباديّ، تنوير المقباس، ص: 170.
(3) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جنب).
(4) ابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز: 2/247.
(5) الخازن، لباب التّأويل: 2/431.

بِهِ بَلاءٌ قطّ، كَذلك زُيِّنَ لِلمُسرفينَ المُتَجاوِزينَ سوءُ أَعْمالِهِم مِنَ الإِعْراضِ عَنِ الذِّكرِ ومُتابَعةِ الشَّهواتِ وعِصيانِ ربِّ السَّماوات.

والإخبارُ بِهذهِ الآيَةِ فيهِ لَومٌ على سوءِ خُلقِ بَعْضِ النّاسِ، وإيحاءٌ إلى الانْتِهاءِ عَنْ مِثلِ هذهِ الأمورِ، معَ التَّسْليمِ إلى اللّه سُبحانَهُ، والتَّضرُّعِ إليهِ في الأَحْوالِ جَميعًا في المَكْرهِ والمَنْشَطِ؛ لأَنَّ الخيرَ والشّرَّ مِنهُ لا مِن غَيرِهِ تَعالى في مَلَكوتِه(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ الواوِ في: ﴿وَإِذَا﴾:

الاعْتِبارُ بِذَميمِ أَحْوالِ المُشْرِكينَ تَفْظيعًا لَهُم وتَحْذيرًا مِنْهُم

افْتُتِحتِ الآيَةُ الكَريمَةُ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ بالواوِ العاطِفَةِ؛ إذْ إنّها عَطَفتْ هذِهِ الآيَةِ عَلى ما سَبَقَها مِنْ قولِه: ﴿۞وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾؛ رَوْمًا إلى الاعْتِبارِ بأَحْوالِ المُشْرِكينَ المَذْمومَةِ، فَإنّ حالَهُمُ الفَظيعَةَ يَقْتَضي الحَذَرَ مِنَ الوقوعِ في مِثلِ مَواقِعِهم، وَمَئِنّةُ ذلك أَنّهُ خَتَمَ الآيَةَ بِجُملة ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، فَبَيْنَ الآيتَينِ وَشائِجُ وعَلائِقُ لا تَخفى، فالعَطْفُ في مَوْقِعِهِ المُناسِب(2).

مَعْنى ﴿وَإِذَا﴾ ودلالَةُ اسْتِعْمالِها:

(إذا) لِمُطْلَقِ الظَّرْفيَّةِ، فَهيَ تُفيدُ دَوامَ تِلْكَ الحالِ مِنَ الالْتِجاءِ عِنْدَ الابْتِلاءِ

تُسْتَعْمَلُ (إذا) لما يُسْتَقْبَلُ مِنَ الزَّمانِ في غالِبِ اسْتِعْمالِها في لِسانِ العَرَبِ(3)، إلّا أَنَّها في قولِه تَعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ دالّةٌ عَلى مُجرّدِ الظّرْفيّة، ولَيْستْ خاصَّةً بما يُسْتَقْبل؛ فقدْ حَكى اللّه سُبحانَهُ حالَ المُشْرِكينَ ودُعاءَهم عِندَ الاضْطِرارِ، وجاءَ بالفِعلِ الماضي ﴿كَانُواْ﴾ الدّالِّ عَلى مُضيّ أَعْمالِهم، ثمَّ أَوْرَدَ جوابَها وما عطفَ عَلَيهِ بالماضي، فهذا هوَ حالُهم وهوَ أَلْيَقُ وأَدْخلُ في تَسْجيلِه

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/109.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/109.
(3) سيبويه، الكتاب: 3/60 - 61.

عَلَيهم ممّا لَوْ فَرَضَهُ اللّه عَلَيهم في حالِ الاسْتِقبالِ، فلَعَلَّ فيهم مَنْ يَتّعِظُ ويَتوبُ عَنْ سوءِ عَمَلِهِ وعَمى بَصيرَتِهِ[1].

والتَّعْبيرُ بـ(إذا) يَحْتَمِلُ الدّوامَ والاسْتِمرارَ في الفِعْلِ؛ فإنَّ تَضَرُّعَهم إلَيهِ تَعالى مُسْتَمِرٌّ عِندَ وقوعِ الضّرِّ عَلَيهم، وهذهِ هيَ حالُ الإنْسانِ عَلى وَجْهِ الدَّوامِ والاسْتِمرارِ[2].

بَلاغَةُ اسْتِعْمالِ مُفْرَدَةِ ﴿مَسَّ﴾:

المَسُّ أَدْنى دَرَجاتِ الإِصابَةِ، واسْتِعْمالُهُ دَليلٌ عَلى ضَعْفِ الإِنْسانِ وهَوانِهِ عَلى نَفْسِهِ

التَّعْبيرُ بِالمَسِّ في قوله تَعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ دونَ اسْتِعْمالِ فِعْلِ (أصابَ) يَدُلُّ على أنَّ حالَ الإنْسانِ في أَدْنى بَلاءٍ يَمَسُّه هو الالْتِجاءُ إلى اللّه تعالى داعيًا رَفْعَهُ، والمَسُّ هو أَدْنى دَرَجاتِ الإِصابَةِ، فَكَيْفَ إذا كانَ الضُّرُّ الواقِعُ مُصيبَةً عَظيمةً؟! وفي ذلك دلالَةٌ على ضَعْفِ الإنْسانِ، فَلا يَحْسُنُ بِهِ أَنْ يَدعوَ عَلى نَفْسِهِ؛ لأَنّهُ لا يُطيقُ مِن العَذابِ أَقَلّهُ.

دلالَةُ التَّعْريفِ في: ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾:

التَّعْريفُ بِاللّامِ يَحْتَمِلُ الكافِرَ وجِنْسَ الإِنْسانِ

التَّعْريفُ في لَفظِ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ مُرادٌ بِهِ الجِنْسُ، والتَّعْريفُ بِاللّامِ يُفيدُ الاسْتِغْراقَ العُرْفيَّ، أَيِ: الإِنْسانَ الكافِرَ؛ لِأَنَّ أكثرَ النّاسِ حينَئِذٍ كافِرونَ، إِذْ كانَ المُسْلِمونَ قَبْلَ الهِجْرَةِ لا يُعَدّونَ بِضْعَةً وَسَبْعينَ رَجُلًا مَعَ نِسائِهِم وَأَبْنائِهِمُ الَّذينَ هُم تَبَعٌ لَهُم، وَبِهَذا الاعْتِبارِ يَكونُ المَنْظورُ إِلَيْهِم في هَذا الحُكْمِ هُمُ الكافِرينَ، كَما في قوله تَعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝٦٦﴾ [مريم: 66][3].

ويَحْتَمِلُ أَنْ يَكونَ تَعْريفُ لَفظِ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ هُنا لِلاسْتِغْراقِ، خِلافًا لِمَنْ نَصَّ عَلى أَنّهُ الكافِرُ أَيْنَما ورَدَ في كتابِ اللّه تعالى، فأيُّ لَفظٍ حُلّيَ بِاللّام؛ فإنَّ حُكْمَهُ الاستِغْراقُ والجِنْسيّةُ إنْ لم يُذكَرْ أمرٌ سابقٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/111.
(2) فاضل السّامرّائيّ، معاني النّحو: 2/206 - 207.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/109.

يَنْصرِفُ الذِّهنُ إليه؛ صيانةً لَهُ مِنَ الإجْمالِ والتَّعْطيلِ، وإنْ كانَ اسْتِعمالُ لَفظِ الإنْسانِ المذْكورِ هُنا ووَصْفُهُ وما يُباشِرُ مِنْ عَملٍ لا يَليقُ بالإنْسانِ المسْلِم(1).

حالُ الإنْسانِ عُمومًا - الكافِرِ والمُسْلِم - هوَ الإنابَةُ عِنْدَ مَسِّ الضُّرِّ

ويُحتَملُ أنْ يَكونَ لَفظُ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ شامِلًا المسْلمَ والكافِرَ، ولا يَخْتَصّ بأَهْلِ الكُفرِ؛ فإنَّ كثيرًا مِنَ المُسْلمينَ تَلْهجُ أَلْسِنَتُهم بالدُّعاءِ لِتَفْريجِ الكَرْبِ حتّى إذا ما كَشَفهُ اللّه عنهُم غَفلوا عَنِ الدُّعاءِ، وذَهلوا عمّا يَجِبُ مِنْ شُكرِ نِعْمتهِ بما رَفعهُ عَنهُم مِنَ الضّرِّ وما مَنعَ مِنَ الشّرِّ(2).

وَمِنْ أَهْلِ العِلْمِ مَنْ جَعلَ اللّامَ في الإنْسانِ للعَهْدِ، وَجعَلَ المُرادَ بهِ أَبا حُذَيْفةَ بْنَ المُغيرةِ المَخْزوميَّ، واسْمُهُ: مُهَشِّمٌ، وَكانَ مُشْرِكًا، وَكانَ أَصابَهُ مَرَضٌ(3)، إلّا أنَّ ما تقدَّم أَقْوى؛ لِعُمومِ اللَّفْظِ.

دلالَةُ اسْتِعْمالِ: ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

وقـوعُ الضُّرِّ لا يَـخْـتَـلِـفُ عَـنِ الأَفْـرادِ والمَجْموعِ؛ فإنَّ الحالَ سَواءٌ في التَّضَرُّعِ والالْتِجاءِ

اسْتعملَ لفظُ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ دونَ النّاسِ أوِ البَشرِ أَوْ نَحوه؛ لأنّهُ أرادَ في ذِكرِ لفظِ الإنسانِ التّذكيرَ بِنعمةِ اللّه تعالى إذْ خَلقهُم ورَزَقهُم وجعَلهُم مِن أَشْرفِ الأَنْواعِ التي بَرَأَها على الأَرْضِ(4)، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿۞وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠﴾ [الإسراء: 70]، ولِلإشارَةِ إلى أنَّ مَسَّ الضُّرِّ لا يَخْتَلِف عَن مَسِّ إنسانٍ بِمُفْرَدِه، أَوْ مَسّ مَجْموعِ النّاسِ؛ فإنَّ الحالَ سَواءٌ في التَّضرُّعِ والالْتِجاءِ.

نُكْتَةُ تَقْديمِ المَفْعولِ بِهِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

قَصْرُ إيقاعِ الضُّرِّ عَلى الإنْسانِ مُبالَغَةٌ لإرادَةِ التَّخْويفِ والتَّحْذيرِ

قُصِرَ إيقاعُ الضّرِّ على الإنْسانِ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ بِتَقْديمِ المَفْعولِ على الفاعِلِ، وهوَ قَصْرٌ لإرادَةِ المبالَغَةِ، فكَأنّهُ

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/221.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/488.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/109.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/109.

جَعل وقوعَ الضّرِّ كائنًا على الإنْسانِ فحَسْب، وغرَضُهُ: التَّخويفُ والرَّدعُ والتَّحذيرُ والتَّنبيهُ، وإلّا فإنَّ ضرّهُ وعذابَهُ تعالى مُحتَملُ الوقوعِ على المَخْلوقاتِ جَميعًا.

مَعْنى التَّعْريفِ في: ﴿ٱلضُّرُّ﴾، ودلالةُ الاستعمال:

الإنْسانُ ضَعيفٌ في احْتِمالِ الضُّرِّ العارِضِ فَكَيْفَ بِالشَّرِّ العَريضِ

التَّعْريفُ في كَلِمَةِ ﴿ٱلضُّرُّ﴾ فيهِ إشارَةٌ إلى ما تَقَدَّمَ مِنْ لَفْظَةِ الشَّرِّ[1] في قوله: ﴿۞وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾؛ فإنَّهُ لّما كانَ مسُّ الضّرِّ عَلى جِهةٍ مُعيّنةٍ وهيَ اسْتِعْجالُهم الشّرَّ؛ ناسَبَ أنْ يأتيَ الضّرُّ مُعرَّفًا، ولّما كانَ تعريفُ الشّرِّ ثَمَّ لِلعهدِ - وهو الشَّرّ المَعْهود لأهْلِ مكّةَ- ؛ تعيّنَ أنْ يكونَ هُنا كذلِك.

ويَجوزُ أنْ يَكونَ التَّعريفُ لِلجِنْسِ، أيْ: أَصابَ الإنسانَ جِنسُ الضّرِّ، كالمَرَضِ والفقرِ[2] وأيِّ علّةٍ أُخرى مِنَ الشَّدائدِ والمصائبِ الّتي كَتبَها اللّه على الإنْسانِ.

والسِّياقُ يَدلُّ عَلى أنَّ المرادَ بالضُّرِّ عُمومُ الضُّرِّ مِنَ الأمراضِ الّتي تُصيبُ الإنْسانَ، فإذا كانَ الإنسانُ على مَرَضٍ عارِضٍ غيْرَ قادرٍ، فَكَيفَ بالشَّرِّ العَريضِ.

واسْتُعْمِلَ لَفظُ ﴿ٱلضُّرُّ﴾ في قوله تَعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ بدَلاً مِنْ لَفظِ الشَّرِّ المَذْكورِ قَبْلُ؛ لِكَونِ الضّرِ المَقْصودِ هُنا هوَ ضرَّ المَرَضِ والوَجعِ والعِلَّةِ[3]، وهوَ مِنَ الأمثِلَةِ اليَسيرَةِ عَلى الشّرِّ، فما الحالُ إذا حاقَ بالإنْسانِ الشّرُّ بِتَمامِهِ؟!

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ المَكْنيَّةِ في لَفْظِ ﴿ٱلضُّرُّ﴾:

تَصْويرُ الضُّرِّ وَتَشْخيصُهُ أَدْعى في الاعْتِبارِ وأَقْرَبُ إلى الانْكِسارِ

شُبِّهَ الضُّرُّ في قوله تَعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ بِشَخصٍ يَمَسُّ آخَرَ، فَذُكِرَ المشبَّهُ، وَحُذِفَ المشبَّهُ بِهِ، مَعَ ذِكْرِ لازمٍ من لوازِمِهِ؛

(1) الكرمانيّ، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 139، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 1/240.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/126.

(3) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 3/469.

وهوَ المَسّ، عَلى سَبيلِ الاسْتِعارَةِ المكنيَّةِ الأصْليَّةِ، وغرَضُ الاسْتِعارَةِ تَشْخيصُ الضُّرِّ وتَصويرُهُ، فإنَّ ذلِك أَدْعى إلى اسْتِحْضارِ المرادِ، والتَّرهيبِ مِنَ المَقْصودِ.

بَلاغَةُ جَوابِ ﴿وَإِذَا﴾:

تَصْويرُ مَشْهَدِ الإنْسانِ في الدُّعاءِ عِنْدَ مَسِّهِ أَدْنى ضرٍّ دَليلٌ عَلى كَذِبِهِ في اسْتِعْجالِ الشَّرِّ

ورَدَ قوله تَعالى: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا﴾ جوابًا لِقوله تَعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾؛ للإيماءِ إلى الضَّعفِ الإنْسانيِّ الكامِنِ فيه؛ فَما إنْ يَمسّ الإنسانَ الضُّرُّ حتّى تَتَكَشَّفَ حَقائقُ ذلِكَ الضّعْفِ، فيَلْتَجِئُ إلى خالِقِه طالبًا منهُ المعونَةَ والأَيْدَ مُتَضرّعًا في كَشْفِ ما بِه مِن ضرٍّ ومرَضٍ، أيْ: بِمجَرَّد مسِّ الضّرِّ يَصْرخُ الإنْسانُ داعيًا، وهو مَشْهدٌ يَدلُّ على الحالَةِ العَجيبَةِ الّتي يَمرُّ بِها الإنْسانُ في مَرَضِه وعَجْزِه.

فائدَةُ الإسْنادِ في: ﴿دَعَانَا﴾:

بَيانُ رَحْمَةِ الله بِعِبادِهِ ورَأْفَتِهِ بِحالِهِم، فَفي تِلْكَ الحالِ المَدْعوُّ هوَ الله دونَ غَيْرِه

أُسنِدَ فِعلُ الدُّعاءِ إلى ضَميرِ العَظمَةِ في قوله: ﴿دَعَانَا﴾ ولَم يُسندْهُ إلى صَريحِ الاسْمِ الأحْسَنِ (اللّه)، فلَم يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (دَعا اللّه) أَوْ نَحوُهُ؛ لأنَّ اللّه ﷻ أرادَ بَيانَ رَحْمَتِه بِعِبادِه بِقَولِه: ﴿دَعَانَا﴾، عَلى سَبيلِ التَّكلُّمِ لا الغَيْبَةِ، أيْ: دَعانا نَحنُ دونَ غَيْرِنا، وهو تَعبيرٌ دالٌّ على رَأْفَةِ اللّه بِعبادِه وإرادَتِه الخيرَ لَهُم، والدّاعي يَدْعو اللّه تعالى، لَكنَّ العِبْرَةَ بِالنَّظْمِ الَّذي دَلَّ على أمرين: أَحدهما: الإخْبار بِدُعاءِ الإنْسانِ رَبَّهُ. والآخَر: بَيان رَحْمَة اللّه ورَأْفَتِه بِعبادِهِ الفُقَراءِ.

بَلاغَةُ التَّدَلّي في أَحْوالِ الدُّعاءِ:

التَّرْتيبُ عَلى طَريقِ التَّدَلّي مِنَ الأَكْثَرِ ضَرَرًا إلى الأَخَفِّ

رَتَّبَ النَّظمُ القُرآنيُّ أَحوالَ الدُّعاءِ بادِئًا بالمُضْطَجعِ عَلى جَنْبِه فالقاعِدِ، ثُمّ خَتَمَ بالقائم، فقالَ اللّه تعالى: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا﴾، و"إنَّما بَدَأَ بالمُضْطَجعِ؛ لأنّهُ بالضّرِّ أَشَدُّ في غالِبِ الأَمرِ،

فهوَ يَدْعو أَكْثَر، واجْتِهادُهُ أشَدُّ، ثُمَّ القاعِدِ ثُمَّ القائم"[1]، فجاءَ التّرْتيبُ عَلى طريقِ التَّدَلّي مِن الأكْثَر إلى الأقلِّ ضَرَرًا.

ويَجوزُ في هذا التّرْتيبِ أنْ يكونَ وَفْقًا لحالِ الدّاعي عندَ دُعائِه، فَبَدَأ بِأَنْدرِ الأحْوالِ مُلابَسَةً لِلدُّعاءِ وهيَ حالَةُ الجَنْبِ، فهيَ تَتَطلَّبُ الرّاحَةَ والسُّكونَ والهُدوءَ، ثمَّ زادَ عَليها الدُّعاءَ عِندَ القُعودِ وعندَ الجُلوسِ تَتْميمًا لِلأَحْوالِ جَميعِها وإِطْنابًا في الكَلامِ[2].

تَوْجيهُ المتَشابِهِ اللَّفْظيِّ في تَرْتيبِ أَحْوالِ الدّاعينَ في الصِّحَّةِ والمرَضِ:

الآيَتانِ جاءَتا عَلى سَبيلِ التَّدَلّي وإنْ كانَتا مُتَعاكِسَتَي الأَحْوالِ

جاءَ تَرْتيبُ حالِ الذّاكرينَ اللهِ في قوله تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: 191]، فكانَ على عَكْسِ التَّرْتيبِ في قوله تعالى: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا﴾، فبدأ في آلِ عِمران بالقائمِ فالقاعِدِ فالمضْطَجعِ عَلى جَنْبِه؛ لأنَّ الذِّكرَ - ومنهُ الصّلاةُ - في غالِبِ أحوالِهِ يَكونُ على وَجْهِ القيام، ثمَّ القُعودِ، فالاضْطِجاعِ عَلى جَنْبِه، أمّا في سورَةِ يونُس فقدَ عَكَسَ التّرْتيبَ؛ لأنّهُ في سِياقِ الحَديثِ عَن وقوعِ الضُّرِّ، فالمريضُ في أشَدِّ أحوالِهِ يَكونُ مضْطَجعًا، فأَوْسَطها القُعود، فأَخَفّها القيام، وبِناءً عَلى شِدَّة الضُّرِّ والمَرض تَكونُ كَثْرةُ الدُّعاءِ.

واسْتُعْمِل حَرْفُ الواوِ في آيةِ آلِ عِمران؛ لِبَيان أحوالِ الذّاكرينَ اللهِ تعالى، فَهُم يَذْكرونَهُ في هذهِ الأَحْوالِ مُجْتَمعَةً ومُتفرِّقَةً، فَبَدأ بِالأَغْلَب، فالأقلِّ، على سَبيلِ التَّدَلّي في ذِكْر غالِبِ أَحْوالِ الذّاكِرينَ، واسْتَعْمل حَرفَ (أو) في آيةِ يونُسَ؛ لأنَّ الضّرَّ قائمٌ على هذهِ الأقْسام كما تُفيدُهُ (أو) وهيَ لِلتّقسيم[3]، فالمريضُ يَشْتَدُّ دُعاؤهُ وهو في حالِ الاضْطِجاعِ، فيَكونُ الدُّعاءُ بِرَفْعِ الضُّرِّ في أَعْلى درجاتِ الالْتِجاءِ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/317، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/256.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/110.

(3) ابن أبي الأصبع، تحرير التّحبير، ص: 175.

والضَّراعَةِ، فهوَ كذلك على سَبيلِ التَّدلّي، فالآيَتانِ جاءَتا على سَبيلِ التَّدلّي، وإنْ كانَتا مُخْتَلِفَتَي التَّرْتيبِ، وذلك بِاعْتِبارِ التَّعاكُسِ في الأَحْوالِ، فآيَةُ آلِ عِمران في الصِّحَّةِ، وآيَةُ يونُسَ في المَرَضِ.

دلالَةُ اللّامِ في ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾:

لاسْتِعْمالِ اللّامِ دونَ (على) مَزيدُ اخْتِصاصٍ، وهوَ أنَّ الدّاعيَ يَدْعو لِأَجْلِ رَفْعِ الضُّرِّ عَنْ جَنْبِهِ

اللّامُ في قوله: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ بِمَعنى (على)، أيْ: دَعانا عَلى جَنْبِهِ، كقوله تعالَى: ﴿يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ﴾ [الإسراء: 109] أي: على الأَذْقانِ، وقوله: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾ [الصافات: 103] أيْ: عَلى الجَبينِ، ووَرَدَ بِلَفْظِ (على) نَصًّا في قوله: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ﴾ [النّساء: 103]، وهذا المَعْنى ناشِئٌ من مَعْنى الاخْتِصاصِ، وهوَ أَعَمّ مَعاني اللّامِ في كَلامِ العَرَبِ[1]، ووَجْهُ مُناسَبَتِه لِهذِهِ الهَيْئَةِ أنَّ الجَنْبَ لَصيقٌ بالدُّعاءِ عِندَ الضّرِّ ومُخْتَصٌّ بِهِ[2]، واللّامُ تَحْتَمِلُ أنْ تَكونَ عَلى بابِها عَلى تَقديرِ: ملْقيًا لِجَنْبِهِ[3]، وفي ذلِكَ إشارَةٌ إلى قوَّةِ الضّرِّ واسْتِحْكامِهِ؛ فلا يَسْتَطيعُ جلوسًا، كما يوصَفُ العاجِزُ بِقولِهم: فلانٌ لِما بِهِ[4]، فاخْتِيارُ اللّامِ في هذا السِّياقِ لَهُ وَجْهُهُ البَيانيُّ وهوَ أنَّ اللّامَ دالَّةٌ على أنَّ الدّاعيَ إنَّما يَدْعو لِأَجْلِ الضُّرِّ الواقِعِ عَلَيهِ، فهوَ يَدْعو لِأَجْلِ ضرِّ جَنْبِهِ، أوْ لِأَجْلِ رَفْعِ الضُّرِّ عَنْ جَنْبِهِ، فلِهذا حَسُنَ اسْتِعْمالُ اللّامِ دونَ (على) في هذا السِّياقِ.

سِرُّ التَّغايُرِ في التَّعبيرِ جرًّا ونَصْبًا: ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا﴾:

اسْتُعْمِلَتِ اللّامُ لِبَيانِ شِدَّةِ المَرَضِ الَّذي يُصيبُ الإنْسانَ

في قوله: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا﴾ غوِيرَ في التَّعْبيرِ بَيْنَ اسْتِعْمالِ الجرِّ بِاللّامِ فَجَعلَهُ لِلجَنْبِ، وبَيْنَ النَّصبِ فجَعَلَهُ لِلقاعِدِ والقائِمِ، ولَم يعْكِسْ مَثَلًا بِأنْ يَرِدَ النَّظْمُ القُرآنيُّ: (دَعانا مُضْطجعًا أو لِقعودِهِ أو لِقيامِهِ)، وسِرُّ ذلكَ: إظْهارُ التَّمَكُّنِ من حالِ الرّاحَةِ

(1) الرّمانيّ، منازل الحروف: 50 - 51.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/110.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/20.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/84.

والاسْتِرخاءِ، فيَذكرُ جانِبَ جَسَدِهِ، فهو أَقْوى وأظْهرُ في التَّمَكّنِ[1] فالقَريبُ مِنَ الأرْضِ أَمكَنُ مِنَ القاعِدِ والقائمِ، وهي دالَّةٌ على تَمَكُّنِ الضُّرِّ والمَرَض.

دلالَةُ الحَرْفِ ﴿أَوْ﴾:

العَطْفُ يَقْتَضي تَقْسيمَ أَحْوالِ المَرْضى أَوْ أَصْنافِ مَضارِّهِم

عَطَفَ الحَرفُ ﴿أَوْ﴾ في قوله: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا﴾ حالَي القُعودِ والقِيامِ عَلى حالِ الاضْطِجاعِ[2]، ومِن مَعاني (أو) الدّائرَةِ في لِسانِ العَرَبِ التَّقْسيمُ[3]، وهيَ هُنا كذلكَ؛ فإنَّ فائدَتَها تَقْسيمُ الدُّعاءِ لِلأَحوالِ جميعًا[4]، فمُقْتَضى هذا العَطْفِ تَقْسيمُ أَحْوالِ المَرْضى ما بَيْنَ شَديدِ المَرَضِ الّذي يُمثِّلُه الاضْطِجاعُ، ومُتَوسّطِهِ الّذي يُمثِّلُهُ القُعودُ، وأَخفّه الّذي يُمَثِّلُهُ القِيامُ، أَوْ لأَصْنافِ الضَّررِ الواقِعِ على الجَنْبِ أَوْ قُعودًا أَوْ قيامًا.

دلالَةُ الفاءِ في ﴿فَلَمَّا﴾:

امتِنانُ اللهِ على عِبادِهِ في سُرْعَةِ رَفْعِ الضُّرِّ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ﴾ دالَّةٌ على سُرعةِ إجابَةِ المُضطَرِّ الدّاعي، وقُربِ زمانِ الكَشْفِ والنّجاةِ[5]؛ لِدلالَتِها على التَّعْقيبِ مِن غَيرِ مُهلَةٍ في حروفِ المَعاني[6]، وفي ذلكَ إظْهارٌ لِلامتِنانِ مِنهُ تَعالى عَلى عِبادِهِ المُتَضرِّعينَ.

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ التّصْريحيَّةِ: ﴿كَشَفۡنَا﴾:

تَـشْبيـهُ الـضُّـرِّ بِـغِـطـاءٍ يَـكْـتُـمُ أَنْفاسَ الإنْسانِ

حَقيقَةُ الكَشْفِ أَنْ تُظهِرَ شَيئًا عَليهِ حاجِبٌ أَوْ سِتارٌ، ثُمّ أَصْبحَ يُطلَقُ عَلى كلِّ إزالَةٍ[7]، والتَّعْبيرُ بِهِ في قوله تَعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ﴾ عَلى طَريقَةِ الاسْتِعارَةِ التَّصْريحيَّةِ التَّبَعِيَّةِ، فقد شُبّهَ الرَّفْعُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/110.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/332.
(3) ابن الصّائغ، اللّمحة في شرح الملحة: 2/694.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/455.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/84.
(6) ابن جنّي، اللّمع في العربيّة، ص: 91.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/111.

بالكَشْفِ، وحُذِفَ المشبَّهُ، كأنَّ الضّرَّ غِطاءٌ على الإنْسانِ كانَ ساترًا لَهُ ومُغَطِّيًا[1].

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ المَكْنيَّةِ: ﴿ضُرَّهُۥ﴾:

تَشْبيهُ الضُّرِّ بِحِجابٍ صَفيقٍ يَلُفُّ الإنْسانَ فيَعوقُهُ عَنِ التَّحَرُّكِ

في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ﴾ اسْتِعارةٌ مَكْنيَّةٌ؛ فالضُّرُّ يُرْفَعُ ولا يُكْشفُ، وفي هذا التَّعْبيرِ تَشْبيهُ الضّرِّ بِغِطاءٍ كَثيفٍ يُغَطّي الإنْسانَ فيمنَعُهُ مِنَ الحرَكةِ، فحُذِفَ المشبَّهُ بِهِ وذُكِرَ لازِمٌ مِنْ لوازِمِهِ وهوَ الكَشْفُ.

والاسْتعارَةُ في ﴿ضُرَّهُۥ﴾ والاسْتعارَةُ في ﴿كَشَفۡنَا﴾ مُتَكامِلَتانِ، تقوّي إحداهما الأخرى في بَيانِ اسْتِحْكامِ الضُّرِّ بِصاحِبِه، إلّا أنَّهُما لا تجْريانِ دفْعَةً واحِدَةً؛ لِانْشِغالِ إحْداهُما بِكونِها قَرينَةً لِلأُخْرى، ولَكِنْ يجْريانِ باعْتِبارَيْنِ مُختلِفَيْنِ.

بَلاغَةُ إيجازِ القَصْرِ في: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ﴾:

مُقابَلَةُ سُرْعَةِ اسْتِجابَةِ الله تَعالى بِسُرْعَةِ النِّسْيانِ دَليلُ الغَفْلَةِ وأَمارَةُ الحَسْرَةِ

قوله تَعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ﴾ فيهِ إيجازٌ بِالقَصْرِ؛ والأَصْلُ: فلَمّا دَعانا رَحمناهُ واسْتَجَبنا لَهُ وكَشَفْنا عَنهُ ضرَّهُ، لَكِنَّهُ طَوى تِلْكَ المعاني وذَكَرَ النَّتيجَةَ والمآلَ؛ وهيَ كَشْفُ الضّرِّ؛ تَنْبيهًا عَلى سُرعةِ الاسْتِجابةِ بِكَشْفِهِ؛ لِبَيانِ مَوْقفِ هذا الإنْسانِ في مُقابَلَةِ نِعمَةِ اللّهِ في كَشْفِ الضُّرِّ، وهوَ المُرور كأنَّهُ لَم يَدْعُ اللّه بِشيءٍ، فقابَلَ سُرْعةَ الاسْتِجابَةِ بِسُرْعةِ النِّسيانِ والتَّغافُلِ.

نُكْتَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمجْرورِ ﴿عَنۡهُ﴾:

بَيانُ عِنايَةِ الله تَعالى بِعِبادِهِ لِيَشْكُروهُ عَلى نِعَمِهِ وعَطائِهِ

تَقْديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَنۡهُ﴾ عَلى المَفْعولِ ﴿ضُرَّهُۥ﴾ في قوله تَعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ﴾؛ لِلأَهَمِّيَّةِ والعِنايَةِ، ففيهِ بَيانُ رِعايَةِ اللّه لِعِبادِهِ؛ لِيَشْكروهُ على ما أَوْلاهُم بِهِ مِن نِعْمَةِ العافيَةِ بَعْدَ البَلاءِ، والصِّحَّةِ بَعْدَ المرَضِ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/21.

فائِدَةُ التَّعْريفِ بِالإضافَةِ في ﴿ضُرَّهُۥ﴾:

إذا تَطاوَلَ زَمانُ الْتِصاقِ الضُّرِّ بِالإنْسانِ أَصْبَحَ مَعْروفًا بِهِ

مُقْتَضى الظّاهِرِ أَنْ يَكونَ ذِكْرُ الضُّرِّ مُعَرَّفًا باللّامِ لا بِالإضافَةِ إلى هاءِ الضَّميرِ؛ وذلكَ لِتقدُّمِ ذِكْرِ لَفْظِ الضُّرِّ، فيَكونُ ذِكْرُ الضُّرِّ لِلعَهْدِ الذِّكريِّ، لَكِنَّ النَّظمَ القُرآنيَّ جاءَ مخالفًا لِمُقْتضى الظاهِرِ لِيوافِقَ مُقْتَضى الحالِ، فالضُّرُّ الواقِعُ عَلى الإنْسانِ أَصْبحَ لَصيقًا بِهِ، مَعْروفًا لَديْهِ، مُصاحِبًا لِحالِ صاحِبِهِ اضْطِجاعًا أَوْ قُعودًا أَوْ قيامًا، فهوَ ضرٌّ خاصٌّ بِصاحِبِهِ؛ لِذلكَ آثَر النَّظْمُ المَجيءَ بالإضافَةِ إلى ضَميرِ الغَيْبَةِ العائِدِ عَلى الإنْسانِ؛ لِبَيانِ أَنَّ الضُّرَّ المَكْشوفَ هوَ ضرُّهُ اللَّصيقُ بِهِ على الدَّوامِ، وفي ذلكَ مَزيدُ امتِنانٍ عَلى الإنْسانِ.

بَراعَةُ التّعْبيرِ بِالفِعْلِ ﴿مَرَّ﴾ جوابًا لـ﴿فَلَمَّا﴾:

الإنْسانُ الجاحِدُ سَريعُ الكُفْرانِ شَديدُ النُّكْرانِ

اخْتيرَ التّعْبيرُ بـ﴿مَرَّ﴾ جوابًا لـ﴿فَلَمَّا﴾ في قوله تَعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ﴾ أي: اسْتَمرَّ عَلى ما كانَ عَلَيهِ مِنْ طَريقٍ، ولم يَأبَهْ لِفِعْلِنا ونَسيَ ما كانَ فيهِ مِنَ الضّرِّ[1]، كأنّهُ عاجَلَ كَشْفَنا بِالمُرورِ والمُروقِ في آنٍ، وفيهِ تَصْويرٌ لِسُرعةِ جُحودِ الإنْسانِ ومَرارَةِ النُّكْرانِ.

والمرورُ هُنا تعبيرٌ عنِ المُضيِّ عَلى عَهْدِهِ الأوّلِ، ونِسْيانِ ما كانَ فيهِ مِنْ حالِ الجهْدِ والبَلاءِ، وفيهِ إعراضٌ عنْ موقِفِ الابْتِهالِ والدُّعاءِ والضَّراعَةِ كأنّهُ لَم يَكنْ منهُ ذلكَ قطُّ، وهوَ غايَةُ الجُحودِ والكُفْرانِ[2].

بَلاغَةُ المَجازِ في التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ ﴿مَرَّ﴾:

جُحودُ الإنْسانِ نِسْيانٌ ماحِقٌ وتَغافُلٌ مارِقٌ

التّعْبيرُ بالمرورِ في قولِه تعالى: ﴿مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ﴾ مَجازيٌّ، بِمَعْنى اسْتِبْدالِ حالٍ بِغَيْرِها، فشُبِّهَ الاسْتِبْدالُ بالانْتِقالِ مِنْ مَكانٍ إلى آخَرَ؛ لِأَنَّ الانْتِقالَ اسْتِبْدالٌ، أَيْ: انْتَقَلَ إلى حالٍ كَحالِ مَنْ لَم يَسْبِقْ لَهُ دُعاؤُنا، أَيْ: نَسِيَ حالَ الاضْطِرارِ واحْتِياجِهِ إِلَيْنا، فَصارَ

(1) النّحّاس، معاني القرآن: 3/281، ومكيّ القيسيّ، الهداية: 5/3231.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/21.

كَأَنَّهُ لَم يَقَعْ في ذَلِكَ الاحْتِياجِ[1]، وهذا يَدُلُّ على شَديدِ النُّكرانِ والجُحودِ في مقابَلَةِ نِعَمِ اللّه تَعالى.

بَلاغَةُ التَّشْبيهِ في الآيةِ:

تَصْويرُ حالِ الإنْسانِ الّذي يَدْعو الله عِنْدَ البَلاءِ ويَنْساهُ عِنْدَ الرَّخاءِ

في قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ﴾ تَشْبيهٌ، إذْ قد جاءَ مُصدّرًا بـ(كأنَّ) المفيدَةِ التَّشْبيهَ، واسْمُها ضَميرُ الشّأنِ مَحْذوفٌ، وقدْ شُبِّهَ حالُ مَن يَدعو اللّه عندَ كَرْبِهِ وبَلائِهِ بِحالِ مَن لَم يَكنْ مِنْهُ دُعاءٌ قطّ، "أيْ: كَأنْ لَم يَكنْ لَهُ بِنا مَعْرِفةٌ أصْلًا، فَضلًا عن أنْ يَعْتَرِفَ بِأنّا نَحنُ كَشَفْنا عَنهُ ضرَّهُ"[2]، وفيهِ تَصْويرٌ لِما عَليهِ المَرْءُ الّذي يَدْعو اللّه تعالى ويَبْتَهِلُ إليهِ عِندَ حُلولِ البَلاءِ في الأَحْوالِ كلِّها، فإذا انْفَرَجَتْ حالُهُ؛ انْحازَ وانْدَفَعَ في خِضَمِّ الحياةِ ناسيًا ما كانَ بهِ عندَ الرَّخاءِ[3].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِحَرْفِ الجَرِّ ﴿إِلَىٰ﴾:

شَبَّهَ الضُّرّ بِالعَدوِّ المُفاجِئِ الّذي يُسْتَنْصَرُ إلى دَفْعِهِ

جاءَ التَّعْبيرُ بِحَرفِ الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ دونَ اللامِ في قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ﴾ على طَريقَةِ الاسْتِعارَةِ التَّبعيَّةِ، فقد شُبّهَ الضّرُّ بِالعَدوِّ المُفاجِئِ الّذي يَدْعو إلَى مَنْ فاجَأَهُ ناصِرًا إلَى دَفْعِهِ[4]، أيْ: أنَّ الإنْسانَ دَعا اللّه تَعالى إلى رَفْعِ الضُّرِّ عَنْهُ، كمَن يَدْعو مَن يَنْصُرهُ إلى دَفعِ عَدوٍّ عَنهُ باغَتَهُ عَلى حينِ غرَّةٍ.

بَلاغَةُ المَجازِ بِالحَذْفِ في الآيَةِ:

ذِكْرُ الضّرِّ دونَ ذِكْرِ كَشْفِهِ؛ لِبَيانِ شَديدِ وَقْعِهِ عَلى الإنْسانِ

التَّعبيرُ في قوله تَعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ﴾ مَجازٌ بالحذْفِ؛ فإنَّ الدّعاءَ ليسَ لأجْلِ الضّرِّ نَفْسِهِ إنّما هوَ لِكَشْفِ الضّرِّ، والتَّقْديرُ: كأنّهُ لَم يَدْعُنا طالِبًا إلى كشْفِ الضرِّ الّذي

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/111.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/84.

(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/347.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/111.

مَسّهُ[1]، فآثَر ذِكْرَ الضُّرِّ دونَ كَشْفِهِ، لِبَيانِ المَقْصودِ بالدُّعاءِ، وشَديدِ وقْعِهِ عَلى الإنْسانِ.

غَرَضُ التَّنْكيرِ في ﴿ضُرٍّ﴾:

الإنْكارُ والتَّقْليلُ سُلوكانِ يَتَعاوَرانِ النّاسَ في مَوْقِفِهِم مِنَ الضُّرِّ بَعْدَ كَشْفِهِ

غَرضُ تَنْكيرِ الضّرِّ في قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ﴾ الإيماءُ إلى الإنْكارِ، أيْ: إنْكار أنْ يَكونَ اللّه سبحانهُ قدْ كَشَفَ عَنِ الإنْسانِ ضرَّهُ، وفي ذلكَ بَيانُ سوءِ سُلوكِ الإنْسانِ وجُحودِهِ وعَظيمِ نُكْرانِهِ، كَما أنَّ التَّنْكيرَ يُفيدُ التَّقليلَ، أيْ: تَقْليلَ الضُّرِّ في نَظَرِ الإنسانِ بَعْدَ أنْ كُشِفَ عنهُ، والإنْكارُ والتَّقْليلُ غَرَضانِ يتَعاوَرانِ بَيْنَ الجاحِدينَ، فَمِنَ النّاسِ مَن يُنْكِرُ كَشْفَ الضُّرِّ جُملةً، ومِنْهُم مَن يُقَلِّلُ مِنْ شَأْنِ رَفْعِهِ وكَشْفِهِ.

فائدَةُ وَصْفِ الضُّرِّ بِالجُملَةِ الفِعْلِيَّةِ:

تَذْكيرُ الإنْسانِ بما نَسِيَهُ مِنْ مَسيسِ الضُّرِّ والآلامِ

آثَرَ النَّظْمُ التَّعْبيرَ بالجُملةِ الفِعْلِيّةِ بِصيغَةِ الماضي ﴿مَّسَّهُۥۚ﴾ وَصْفًا لِقَولِه: ﴿ضُرّٖ﴾، وذلكَ لإثْباتِ وقوعِ الضُّرِّ وأنَّهُ قدْ مسَّ الإنْسانَ، وتَحقَّقَ ضَررُهُ، ولَولا أنْ كَشَفَ اللّه تَعالى الضُّرَّ عَنْهُ؛ لَبَقيَ في مَسيسِهِ متوجِّعًا مُتألِّمًا إلى أنْ يَموتَ، وفائدَةُ ذلكَ تَذْكيرُ الإنْسانِ بِما مَسَّهُ مِنَ الضُّرِّ، بَعْدَ أنْ سُجِّلَ عَلَيْهِ جُحودُهُ ونُكْرانُهُ.

بَلاغَةُ الاسْتِئْنافِ البَيانيِّ:

الكَشْفُ عَنْ سَبَبِ جُحودِ الإنْسانِ بَعْدَ كَشْفِ الضّرِّ

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ اسْتِئْنافٌ بَيانيٌّ؛ إذْ إنَّ جُحودَ العَبْدِ ونُكْرانَهُ جميلَ صُنْعِ اللّه تعالى مَعَهُ بِرَفْعِ الضُّرِّ عَنْهُ مِن أعجَبِ العجَبِ، كَأنَّهُ قيلَ: لِمَ يَفْعلُ ذلكَ؟ فقيلَ: لِما يُزَيّنُ لَهُ مِنَ الأمورِ الّتي يَقَعُ بِها الاسْتِدْراجُ لإسْرافِهِ، وهذا دَأْبُنا أَبَدًا[2]، فتَزْيينُ الأعْمالِ المُنْكَرةِ مِن قِبَلِ الشَّيْطانِ هيَ سَبَبُ الهُبوطِ في ذلكَ الجُحودِ، والغَرَقِ في مُسْتَنْقَعِ النُّكْرانِ.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/126، والعكبريّ، التّبيان: 2/668.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/84.

تـهـديـدُ أَهْـلِ الـضَّـلالِ ووَعـيـدُهُـم، وتَـنـبـيـهُ أَهْـلِ الـعُـقـولِ مِـنْ تَـزْيـينِ أَعْـمـالِ السّوءِ

بَلاغَةُ التَّذييلِ في الآيَةِ:

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ تَذْييلٌ يَعُمُّ ما تَقدَّمَ وغَيْرَهُ، أَيْ: هَكذا التَّزْيينُ الشَّيْطانيُّ زَيَّنَ لَهُم ما كانوا يَعْمَلون مِنْ أَعْمالِهِم في ماضي أَزْمانِهِم في الدُّعاءِ وَغَيْرِهِ مِنْ ضَلالاتِهِم[1]، وهذه الجملةُ خبرٌ مُتَضمّن التّهديدَ والوعيدَ لأهلِ الكفرِ والضّلالِ، الّذينَ لا يَنْتهونَ عَن ضَلالِهِم وكُفرِهم، ولا يَسْتَمعونَ لِداعي الخَيرِ، ولا يَسْتَجيبونَ لِدَليلِ الرَّشادِ، ولا يَعْتَبرونَ بما أَصابَ غَيْرَهم، وما سُلِبوهُ مِنْ نِعمٍ؛ فاسْتَحقّوا ما يَقَعُ عَليهم من سَخَطٍ وعَذابٍ[2].

تَشْبيهُ تَزْيينِ نُكْرانِ الجَميلِ بِعُمومِ تَزْيينِ أَعْمالِ الضّالّينَ

بَلاغَةُ التَّشْبيهِ في: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ﴾:

شُبِّهَ تَزْيينُ إِعْراضِهم عَن دُعاءِ اللّه تَعالى وَحْدَهُ في حالِ الرَّخاءِ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ بالتَّزيينِ المَعْروفِ لَدى المخاطَبينَ، وهوَ الّذي يوقِعُ صاحِبَهُ في الضَّلالَةِ، ويحرِفُهُ عَنِ الجادَّةِ، فكَأَنَّ الآيَةَ تَقولُ: مثْلَ ذلكَ التَّزْيينِ الّذي تَعْرفونَهُ مِنْ إيقاعِ النّاسِ في الضّلالِ المُبينِ، زُيِّنَ لِهذا الإنْسانِ بَعْدَ أَنْ كُشِفَ ضُرُّهُ الّذي مَسَّهُ، فَمَرَّ دونَ شُكْرِ مَن رَفَعَ عَنهُ ضرَّهُ، وفائِدَةُ هذا الأُسْلوبِ اسْتِحْضارُ مَعْهودِ المخاطَبينَ مِنَ العِلمِ؛ لِفَهْمِ مُرادِ اللّه تَعالى مِن سُنَنِه، فإنَّ سُنَّةَ التَّزْيينِ ثابِتَةٌ لا تَبديلَ لَها، فهذِهِ الآيَةُ من بابِ إلْحاقِ الفَرْعِ بِأَصْلِه، أيْ: تَشْبيهُ تَزْيينِ نُكْرانِ الجَميلِ، بِتَزْيينِ عُمومِ أَعْمالِ الضّلالِ.

ويُحْتَمَلُ أَنْ يَكونَ المَعْنى: مِثْلَما يهدِرُ الّذي يُنفِقُ مالَهُ، ويتَجاوزُ فيهِ حُدودَهُ، ما كانوا يَصْنعونَ مِنَ المُجافاةِ عَنِ اللّه ومِنِ اتّباعِ الشَّهواتِ وتَعاطي المَلَذّاتِ، وهوَ صَنيعُ المُسْرِفينَ الكاذِبينَ بِتَضْييعِهِمُ السَّعادَةَ الخالِدَةَ بِالشَّهْوَةِ النّافِقَةِ[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/112.

(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/969.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/21.

تَعْظِيمُ المُشارِ إِلَيهِ وبَداعَتُهُ

دلالَةُ اسْتِعْمالِ اسْمِ الإشارَةِ لِلبَعيدِ (ذَلِكَ):

في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أُلْحِقتِ اللّامُ الدّالَّةُ على البُعْدِ في لِسانِ العَرَبِ[1]، ومَعْناها تَعْظيمُ المشارِ إليه، وسِرُّ التَّعْظيم هُنا عَجيبُ ما كانَ مِنْ شَأنِهم وبَداعَتُهُ؛ فعَجيبٌ أنْ يدعوَ الإنسانُ في شِدّتِهِ ثمَّ إنْ كُشِفَ عنه عاد مُتَنَكِّبًا عَنْ صِراطِ مَولاهُ جاحِدًا ما أَنْعمَ اللّه عليهِ من نِعَمِهِ وآلائِهِ!

العِبْرَةُ بِوقوعِ التَّزْيينِ في تَصَوُّراتِ المُسْرِفينَ بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنِ الفاعِلِ

نُكْتَةُ بِناءِ فِعْلِ التَّزْيينِ ﴿زُيِّنَ﴾ لِلمَفْعولِ:

في بِناءِ فِعلِ التّزيينِ لِلمَفْعولِ في قولِه تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ نُكْتَتانِ:

إحْداهُما: أنَّ فِعْلَ التَّزْيينِ بُني لِلمَفْعولِ لِلعِلْم بفاعله، فإنَّ المُسْلمينَ يَعْلَمونَ يَقينًا أنَّ خَواطِرَهُمُ الشّيْطانيَّةَ هيَ الّتي تُزَيّنُ لَهُم أعمالَهُم؛ لأنَّ إسْنادَ فعْلِ التَّزْيينِ لِلشَّيْطانِ واردٌ ومَعْهودٌ في كِتابِهِ العَزيزِ[2] كَقولِه تَعالى: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام: 43].

الآخَرُ: أنْ يَكونَ الإسْنادُ إلى المَفعولِ لِلتَّنْبيهِ علَى التَّزْيينِ والعِبْرَةِ مِنهُ؛ فإنَّ مَعرفةَ المزيِّنِ هُنا غيرُ ذاتِ أَهَمِّيَّةٍ، وإنَّما المهمُّ أنْ يَعْتَبرَ الإنْسانُ ويَتَّعِظَ، وأنْ يَعْلَمَ أنَّ الأفعالَ القَبيحَةَ بِكَثْرَةِ التَّرْدادِ تُصْبِحُ حَسَنَةً عِندَ أصْحابِها فَلا يَشْعُرونَ بِقُبْحِها[3].

بَيانُ المُبالَغَةِ في جُحودِ الإنْسانِ لِأَقْرَبِ فَضْلٍ عَلَيْهِ، وذلِكَ إسْرافٌ في الجُحودِ والنُّكْرانِ

سِرُّ التَّعْبيرِ بِـ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾:

وُصِفَ الجاحِدونَ بالمسْرِفينَ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ دونَ الطّاغينَ أوِ الجاحِدينَ أوِ الكافِرينَ أوْ مُقارِباتِها؛ ذلكَ أنَّ الإسْرافَ هوَ الإفْراطُ، وهوَ أمرٌ غيرُ مَحْمودٍ

(1) المراديّ، توضيح المقاصد: 3/1548.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/112.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/112، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/257.

الْبَتَّة، واختيارُ لَفظِ ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾؛ لِكَونِه دالًّا على المبالَغةِ في الكُفرِ؛ فتَعْريفُ المسْرفينَ لِلاستِغراقِ لِيَشْمَلَ الجَميعَ[1].

وجَعَلَ الرّازيُّ لِغَرَضِ التَّعْبيرِ بِـ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ دونَ غَيْرِها مِنَ المفرَداتِ ثَلاثَةَ أَوْجُهٍ[2]:

أَوَّلُها: أنَّ الكافِرَ مَوْصوفٌ بِلَفْظِ الإسْرافِ؛ لِكَوْنِه مُفرّطًا في نَفْسِه بِجَعلِها عَبدًا لِلوَثنِ، وفي مالِه بِتَضْييعِه في البَحيرةِ والسّائبةِ ونحوِها.

ثانيها: أنَّ مَنْ كانَتْ عادَتُهُ عِندَ نُزولِ البَلاءِ أنْ يَكونَ مُتَضَرِّعًا داعيًا، ثمَّ يُعرِضُ عنْ ذكرِ اللّٰه عندَ زَوالِ البَلاءِ ونُزولِ الآلاءِ وحُلولِ الرَّخاءِ فلا يَشْكرُهُ؛ إنَّما هوَ المُسْرِفُ في شَأْنِ دينِه، فكما يكونُ السَّرَفُ في الإنْفاقِ يَكونُ مُسْرِفًا فيما يتْرُكُ منْ واجبٍ أوْ يُباشِرُ منْ قَبيحٍ.

ثالِثُها: أنَّ المسْرِفَ في أَصْلِه هوَ الّذي يُنفِقُ المالَ الكثيرَ لأَجْلِ العَرَضِ الدُّنْيويِّ الزّائفِ، ومَعْلومٌ أنَّ لَذّاتِ الدُّنيا رَخيصَةٌ في مُقابِلِ سَعاداتِ الآخِرَةِ الّتي يَكْتَسِبُها بالعَقْلِ والقَلْبِ والفَهمِ، فمَنْ بَذلَ هذهِ الآلاتِ الشَّريفةَ لأجْلِ الفَوزِ بالسّعاداتِ الخَسيسَةِ؛ أَنْفَقَ كذلك الشّيءَ النَّفيسَ مقابِلَ الحُصولِ على الشّيءِ الخَسيسِ.

وحاصِلُ ذلِك: أنَّ التَّعبيرَ بالإسْرافِ فيه بَيانُ أنَّ الإنْسانَ لَم يَكنْ جاحِدًا فَحَسبُ، بَلْ كانَ مُسْرِفًا في جُحودِهِ ونُكْرانِه وفِسْقِهِ ومَعْصيَتِه.

فائدَةُ مَجيءِ نائِبِ الفاعِلِ اسْمًا مَوْصولًا ﴿مَا﴾:

مَجيءُ نائبِ الفاعِلِ اسْمًا موصولًا ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، دونَ أنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (كذلِكَ زُيِّنَ لِلمسرفين أعمالُهم)؛ لِأمرَيْنِ:

الإشْعارُ بِعِلَّةِ وَصْفِهِم بالمُسْرِفينَ وتَحْقيقُ عُنْصُرِ التَّشْويقِ

أَحَدُهما: الإِشْعارُ بِعِلّةِ بِناءِ الخَبرِ على الصّلَةِ، والمعْنى: أنَّ عَمَلَهُم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/112.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/222.

السَّيِّئَ القَبيحَ علَّةٌ، وسَببٌ لِوَصْفِهم بالمسْرِفين ومِن ثمّ استِحْقاقِهِمُ العَذابَ المُهينَ.

الآخَر: إِحْداثُ عُنصرِ التّشْويقِ في التّعريفِ بِهؤلاءِ المسْرِفينَ، فهوَ - أي: التَّشْويقُ - يكونُ على مَرْحَلَتينِ؛ الإبهامِ ثمَّ التَّعيينِ والبَيانِ، فلَمّا ذُكِرَ الاسْمُ الموْصولُ ﴿مَا﴾ وهوَ ممّا لا يُفهمُ منهُ شيءٌ؛ كان هذا إبْهامًا، ثمَّ عُرِّفَ بجملَةِ الصّلةِ، وهذا هوَ البَيانُ، وفي هذا الأسْلوبِ تَشْويقٌ لِجُملةِ الصّلةِ الدّالّةِ على ما كانَ مِنْهم مِنْ عَملٍ تَجاوَزوا فيهِ الحُدودَ، فَصاروا بِهِ في زُمرةِ المسْرِفينَ الضّالّينَ.

دلالَةُ فِعْلِ الكَوْنِ ﴿كَانُواْ﴾:

دَيْدَنُ الجاحِدينَ مُقابَلَةُ كَرَمِ اللهِ ونِعَمِهِ بِالنُّكْرانِ والبُهْتانِ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ اسْتُعْمِلَ الفعلُ النّاقصُ ﴿كَانُواْ﴾ للدّلالَةِ على ما اعْتادوا عَلَيهِ مِنَ الأَعْمالِ الّتي تَجاوَزوا فيها الحُدودَ، فجَعَلَتْهُم مِنَ المسْرِفينَ، وفيهِ بَيانُ أَنَّ هذا دَيْدَنُهم مَع نِعَمِ اللّه تعالى، وهذا ما يُلاقونَ بِهِ كَرَمَهُ سُبحانه.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِمُفْرَدَةِ العَمَلِ فِعْلًا مُضارِعًا:

الاسْتِمرارُ في المَعاصي والكُفْرِ سَبَبُ البَقاءِ فيها

جاءَ التّعبيرُ بِصيغَةِ المضارِعِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ لإفادةِ تَجَدُّدِ مَعاصي القَوْمِ، واسْتِمرارِهِم في كُفْرِهم مَع ظُهورِ الفَسادِ ووُضوحِ الضَّرَرِ[1].

غَرَضُ حَذْفِ مَفْعولِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

الحَمْلُ على العُمومِ تَرْهيبٌ نافِعٌ وتَحْذيرٌ مانِعٌ

حُذِفَ مفعولُ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ مِنْ قولِ اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ لِحَملِهِ على عُمومِ الأَعْمالِ الّتي كانوا يَقْتَرِفونها، وعَدَمِ قَصْرِهِ على عَملٍ واحِدٍ؛ قَصْدًا إلى إِحْداثِ التَّرْهيبِ النّافِعِ والتّحْذيرِ الرّادِعِ، لا سيّما وقد اقْتَرَنَ بِهِ (ما) الدّالَّةُ على الإِبْهامِ والعُمومِ، فيدْخلُ فيهِ أَصْنافٌ كَثيرَةٌ مِنَ الأَعْمالِ الفاسِدَةِ القَبيحَةِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/85.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المَسّ واللّمس:

المَـسُّ اتِّـصـالُ جِـسْـمٍ بـآخَـرَ، والـلَّـمْـسُ قد يُطْلَقُ على طَلَبِ الـشَّيْءِ وإنْ لَـم يوجَدْ

المسُّ هوَ اتّصالُ الأجْسامِ بَعْضِها بِبَعْضٍ، وقدْ يكونُ مجازًا بِمَعنى الإصابَةِ بِالعَذابِ، أوْ مَسِّ الشّيْطانِ[1]، وبَيْنَهُ وبَيْنَ اللَّمسِ فارِقٌ، وهوَ: "أنَّ المسَّ يكونُ مِنَ الحِجارَةِ، وما بِسَبيلِ ذلكَ، تَقولُ: مَسَّ الحَجَرُ الحَجَرَ، واللَّمسُ لا يَكونُ إلّا لِطَلَبِ مَعْرِفَةِ اللّينِ أوِ الخُشونَةِ، والحَرارَةِ أو البُرودَةِ؛ فهوَ مُسْتَعملٌ في الإنْسانِ"[2] فالمُرادُ مِنَ اللَّمسِ: الطَّلَبُ؛ لِذلِكَ يُقالُ: أَلْمَسُهُ فَلا أَجِدُ أَثَرَهُ[3]، أمّا المسُّ فهوَ المُباشَرَةُ ابْتِداءً، فالتَّعْبيرُ بالمسِّ في الآيَةِ الكريمَةِ أَبْلَغُ وأَوْقَعُ وأَلْيَقُ بالمَعْنى المرادِ؛ وهوَ إيقاعُ العَذابِ، فإنّهُ لا يَكونُ على نِيَّةِ الطّلَبِ مِنهُ تَعالى، بَلْ على نِيّةِ الوقوعِ إنْ أرادَ اللّه سبحانَهُ ذلِكَ.

القُعود والجُلوس:

القـعـودُ يكون فيما فيه لُبْثٌ وإقامَةٌ، بخلاف الـجـلـوس فيُستعمل لما قلَّ زَمَنُهُ

ذهَبَ جَماعَةٌ مِن عُلماءِ العَربيَّةِ إلى أنَّ القُعودَ والجلوسَ بمعنًى واحِدٍ[4]، ومالَ آخَرونَ إلى التَّفْريقِ بينَهُما؛ فمِن أَشْهَرِ الفروقِ المَذكورَةِ: أنَّ الجلوسَ يكونُ مِن اضْطِجاعٍ، والقُعودَ يكونُ من قيامٍ[5]، ولِذا وَرَدَ في حَديثِ أبي بَكْرَةَ ﷺ أنَّه قالَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ: «وكانَ مُتَّكِئًا فجَلَسَ، فقالَ: "أَلا وَقَوْلُ الزّورِ ..."»[6]، ويُقالُ: قامَ فقعَدَ.

وهذا التَّفْريقُ عَلى شُهرتِهِ فيهِ نَظَرٌ بَيِّنٌ[7]؛ فإنَّ النَّبيّ ﷺ قالَ: «إذا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المَسْجِدَ؛ فَلا يَجْلِسْ حَتَّى يَرْكَعَ رَكْعَتَيْنِ»[8]، وفي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/316.
(2) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 297.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 468.
(4) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (جلس).
(5) ابن فارس، الصّاحبي في فقه اللّغة، ص: 60، والفيّوميّ، المصباح المنير: (جلس)، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (قعد).
(6) رواه البخاريّ، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (5976).
(7) عبد الفتّاح لاشين، صفاء الكلمة، ص: 72 - 73.
(8) رواه مسلم في صحيحه، الحديث رقم: (714).

حَديثِ جِبْريلَ المشْهورِ عَن عُمرَ بنِ الخطّابِ ﵁ أنَّهُ قالَ: «بَيْنَما نَحْنُ عِنْدَ رَسولِ اللهِ ﷺ ذاتَ يَوْمٍ؛ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنا رَجُلٌ شَديدُ بَياضِ الثِّيابِ، شَديدُ سَوادِ الشَّعَرِ، لا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلا يَعْرِفُهُ مِنّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ...»[1]؛ فإنَّ الجلوسَ هَهُنا ليسَ عَنِ اضْطِجاعٍ قَطعًا، ووَرَدَ في حديثِ القَبْرِ قولُ النَّبيِّ ﷺ: «يَأْتِيهِ مَلَكانِ فَيُقْعِدانِهِ»[2]، وهذا لَيْسَ عنْ قيامٍ جَزْمًا.

وثَمَّةَ أقوالٌ أُخْرَى لا حاجَةَ إلى سَرْدِها في وجْهِ التَّفْرقَةِ بَيْنَ الكَلِمَتَيْنِ، أَظْهَرُها: أنَّ القُعودَ يكونُ لِما فيهِ لُبْثٌ وإقامةٌ ما، بِخِلافِ الجُلوسِ؛ فيَقِلُّ زَمَنُهُ بالنِّسْبَةِ لِلْقُعودِ، ومِنْهُ قيلَ: قَواعِدُ البَيْتِ، ولا يقالُ: جَوالِسُهُ[3]، وسُمِّيَتِ الجنَّةُ: مَقْعَدَ صِدقٍ، دونَ مَجْلِسِ صدْقٍ؛ لأنَّ أَهْلَها خالِدونَ فيها[4].

أمّا الْجُلوسُ؛ فتَصْريفاتُهُ دالَّةٌ على عَدَمِ اللُّبْثِ طَويلًا، ومِنْهُ قولُ اللهِ تَعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المجادلة: 11].

(1) رواه مسلم في صحيحه، الحديث رقم: (8).
(2) رواه مسلم في صحيحه، الحديث رقم: (2870).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (قعد). ومحمد خضر ياس الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ، ص: 136 - 137.
(4) الشّايع، الفروق اللُّغويّة وأثرها في تفسير القرآن، ص: 288 - 289.

﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٣﴾ [يونس: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إمهالُ اللهِ لِعبادِهِ لَيسَ إهْمالًا، بَلْ تَدَرُّجٌ لِهدايَتِهم، لِيَعْتَبِروا مِنْ حالِ الأُمَمِ السّابِقَةِ

لَمّا كانَ مَحطُّ نَظرِ المشركينَ الدُّنيا والإعْراضَ عَنِ الآخِرَةِ، وكانَ ما سَبَقَ صَريحًا في أنّهُ تَعالى قدْ أمهَلَ الظّالمينَ، وأَحْسَنَ إلى المجْرمينَ؛ أَتْبَعهُ بِهذِهِ الآيَةِ على سَبيلِ التَّهْديدِ الرّادِعِ والتَّخْويفِ المانِعِ عمّا هُم عَليهِ مِنْ عِصْيانهِ تَعالى بالتَّزْيينِ الخادِعِ[1]، وأنّهُ قدْ يُهْلكهُم ويَسْتَأصلهُم، وآيَةُ ذلكَ وقوعُهُ مِرارًا على الأمَمِ السّابقة مِنَ اليَهودِ والنَّصارى ممّا وصَلَ إلى سمعِهم، فالمناسَبَةُ انْتِقالٌ مِنْ بَيانِ إمهالِ اللّه تَعالى لِعبادِهِ، وأنَّهُ لَيْسَ على سَبيلِ الإهْمالِ، بَل على سَبيلِ التَّدرُّجِ وإرْخاءِ أسْبابِ الهِدايَةِ إطْماعًا في الإقْبالِ، وتَرْهيبًا مِنَ الإغْفالِ؛ لِيَعْتَبِروا مِن حالِ الأمَمِ المتَقَدِّمَةِ، وأنَّ الجَزاءَ في الدُّنيا قَد يَقعُ في أيِّ وقْتٍ وحينٍ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾: فِعلٌ ماضٍ مُسْنَدٌ لِنونِ العَظَمةِ، والجذْرُ اللُّغويّ مِنهُ: الهاءُ واللّامُ والكافُ، وهذا الجذْرُ تَدورُ اشْتقاقاتُهُ على السُّقوطِ والانْكِسارِ، ومِنْهُ الهَلاكُ؛ وهوَ قَرينُ المَوتِ والفَناءِ والأَذى، وهوَ إلى المَوْتِ أَقْرَبُ، فكُلُّ ما كانَتْ عاقِبَتُهُ كَذلِكَ فهوَ الهَلاكُ، وذَكَرَ الرّاغِبُ: أنَّ للهلاكِ أَرْبَعةَ أَوْجُهٍ؛ الأَوَّلُ: الفَقْدُ عِنْدَكَ لِلموجودِ عِنْدَ غيرِكَ، والثّاني: هَلاكُ الشّيءِ بالاسْتِحالةِ والفَسادِ، والثّالِثُ: المَوْتُ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/85.

والرّابعُ: انْعِدامُ الشّيءِ مِنْ أصْلِه؛ وهوَ الفَناءُ، وهيَ مَعانٍ مُتقاربةٌ عِندَ التَّحْقيقِ، وعُمومُ مَعْناهُ: هوَ فَراغُ الشّيْءِ مِنْ جَوْهَرِه وحَقيقَتِه، وأَكْثرُ مَواضِعِ الهَلاكِ في القُرآنِ الكَريمِ تَرِدُ بِمَعنى الإِفْناءِ[1]، ومِنْهُ ما جاءَ في الآيَةِ فَإنَّ ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾ بِمَعْنى: اسْتَأْصَلنا وأَفْنَيْنا[2].

2) ﴿ٱلۡقُرُونَ﴾: جَمعٌ مُكسّرٌ، مُفْرَدُهُ قَرْنٌ، وجذْرُهُ اللُّغويّ: القافُ والرّاءُ والنّون، وأصْلُ هذهِ المادَّةِ يَدلُّ على الجَمعِ والنُّتوءِ، ويَجوزُ حَملُهُ على اجْتِماعِ النّاسِ واقْتِرانِهِم في زَمَنٍ واحِدٍ؛ فَهوَ الأُمَّةُ الّتي تَلي الأُخْرى، والجيلُ الّذي يَلي الجيلَ، والقَرْنُ: المُدَّةُ مِنَ الزَّمَنِ، وهوَ الأُمَّةُ كذلِكَ، والقَرْنُ مِنَ النّاسِ: أَهْلُ الزَّمانِ الواحِدِ، واخْتلفَ في مُدَّتِهِ بَيْنَ عَشْرِ سِنينَ إِلى مِئَةٍ[3]، ومَعْنى ﴿ٱلۡقُرُونَ﴾ في الآيَةِ: الأُمَمُ الماضِيَةُ[4].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

سُنَّةُ اللهِ الإِهْلاكُ بَعْدَ الإِمْهالِ، والجَزاءُ بَعْدَ تَمامِ البَيانِ

تُبَيِّنُ الآيَةُ حالَ الأُمَمِ المكَذِّبَةِ بَعد نزولِ العَذابِ عَلَيها، خِطابًا لِلمُعاصِرينَ لِنُزولِ القُرآنِ؛ لِيَعْتَبِروا ويَتَّعِظوا، فمِثْلَما أَفْنى اللّٰه هذهِ الأُمَمَ الّتي خَلَت مِنْ قَبْلِكم بِشِرْكِهِم وكُفرِهِم وتَجَرُّئِهم على الرّسلِ وتَطاوُلِهِم في المَعاصي حينَما جاءَتْهُم الرُّسلُ بالمُعْجِزاتِ الواضِحاتِ والدَّلائِلِ الكاشِفاتِ، فَلَم يؤْمِنوا؛ كذلكَ يَجْزي - أَيْ: مِثْلَ ذلكَ الجَزاءِ؛ وهوَ الإِهْلاكُ - كُلَّ مُجْرمٍ عاتٍ لا يؤْمِنُ بِيومِ الحِسابِ، فالآيَةُ جَمَعَتْ بَيْنَ وَعيدِ الكُفّارِ وضَرْبِ الأَمْثالِ لَهُم.

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (هلك).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/113.

(3) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قرن).

(4) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 14/178.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالَةُ الواوِ في صَدْرِ الآيَةِ:

الإنْذارُ بالعَذابِ قَبلَ نُزولِهِ رَحْمَةٌ والإبانَةُ قَبلَ الإنْذارِ عَدالَةٌ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ﴾ عَطَفَت هذه الجُملةَ عَلى جُملةِ ﴿۞وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾، وقَد تَضَمَّنَتْ إنْذارًا بِنُزولِ الشَّرِّ بهِم، ولَكنَّ اللّه حَليمٌ لا يُعاجِلُ بِالعَذابِ، وقَد ضَربَ لَهمُ المثَلَ بما حَلَّ بالأُمَمِ الّتي قَبلَهُم مِنَ العَذابِ[1]، بما جاءَهم مِنَ البيِّناتِ والأدِلَّةِ، وبما جاءَهُم مِنَ الإنْذارِ والوَعيدِ؛ لِتَتَحَقَّقَ المَوْعِظةُ فيهِم.

غَرَضُ التّأْكيدِ: ﴿وَلَقَدۡ﴾:

تَوْكيدُ الوَعيدِ بِغَرَضِ التَّخويفِ رَحْمَةٌ بالنّاسِ ورَأْفَةٌ بالعِبادِ

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ﴾ يَشْتَمِلُ على لامِ القَسَمِ المَحْذوفِ، و(قَدْ) تُفيدُ التَّحقيقَ[2]، وكِلاهُما دالٌّ عَلى التَّوكيدِ؛ فَتَكونُ هذِهِ الأَلْفاظُ مؤَكِّدةً لِما اشْتَملَتْ عَلَيهِ الآيَةُ مِنَ التَّهْديدِ والوَعيدِ[3]، وفي ذلِكَ تَخْويفٌ بَليغٌ وتَحْذيرٌ شَديدٌ بِأَنْ يُصيبَهُمُ الإهْلاكُ مِثْلَما أَصابَ مَن كانَ قَبلَهُم[4].

وأوردَ التّوكيدُ بالقَسَمِ و(قَدْ) المحَقِّقةِ؛ لِكَوْنِهم كانوا يُنْكِرون أنّ ما يُصيبُهُم مِن هَلاكٍ وفَناءٍ ومَوْتٍ إنّما سَبَبُهُ ظُلْمُهم وكُفْرُهُم[5].

بَلاغَةُ اسْتِعْمالِ فِعْلِ: ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾:

الإهْلاكُ يَعْني الاسْتِئْصالَ التّامَّ لِلقُرونِ السّابِقَةِ، فَلَم تَبْقَ لَهُم آثارٌ ظاهِرَةٌ ولا بَقايا دالَّةٌ

اسْتُعْمِلَ فِعْلُ الإهْلاكِ الدّالُّ على الاسْتِئْصالِ والإفْناءِ[6] مع لَفظِ القُرونِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ﴾، فَلَم يَرِدِ النَّظْمُ القُرآنيُّ: (أخذنا القرونَ)، أو (دمّرْنا القرونَ)؛ وذلكَ لِبيانِ شُمولِ الإهْلاكِ لِلقَرْنِ بِاعْتِبارِهِ الزَّمانيِّ وما يَلْحَقُهُ مِن آثارٍ فيمَنْ بَعْدَهُ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/113.
(2) الدّعّاس، إعراب القرآن: 2/18.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/113.
(4) مكيّ القيسيّ، الهداية: 5/3232.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/85.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/113.

وذلكَ في غايَةِ التَّهْديدِ والوَعيدِ؛ لِأَنَّهُ يَدلُّ على الاسْتِئْصالِ التّامِّ، واسْتِعْمالُهُ بِمَعْنى الموْتِ في القُرْآنِ الكَريمِ في أَكْثرِ مَواضِعهِ مِن بابِ الذّمِّ[1] والتَّقْبيحِ على الأُممِ الّتي جَرى إِهْلاكُها، فَلَم يَبْقَ لِتلْك الأمَمِ آثارٌ تَدلُّ عَلَيهم، ولا عَلى ثَقافَتِهم وفِكْرِهم ومَعارِفِهم وتَطوُّرِهم؛ لأنَّ ذلك كُلَّه لا قيمَةَ لَهُ؛ إذْ كانَ على الكُفرِ والتَّكْذيبِ والجُحودِ، فَأَهْلَكَهُمُ اللّه عِقابًا اسْتِئْصاليًا، وهذا حالُ كُلِّ أُمَّةٍ تُكَذِّبُ بالحَقِّ وتُعاديه.

فائدَةُ الإِسْنادِ في: ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾:

الإِهْـلاكُ هـوَ مُـقْـتَـضى الأمْـرِ الـرَّبّـانيِّ القائِمِ عَـلى الـعَـدالَـةِ والرَّحْمَةِ

أُسْنِدَ فِعْلُ الإِهْلاكِ لِضَميرِ العَظَمَةِ في قولِه: ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾؛ لإظْهارِ كَمالِ عَظَمَةِ اللّه وجَبَروتِه تعالى، تَناسُبًا مَعَ ما لِهذِهِ القُرونِ والأمَمِ مِنَ الشِّدَّةِ والقوَّةِ[2]، فإنَّ المُهلِكَ هوَ اللّه سُبْحانَهُ، وهوَ الّذي تَولَّى ذلِك، وهوَ الّذي عرَّفَ النّاسَ بأنَّهُ هوَ الّذي أَهْلَكَهم، ولِذلك لَم يَرِدِ النَّظْمُ القُرآنيُّ: (فَأُهْلِكوا)، أو (فأَهْلَكَهُمُ اللّه) عَلى سَبيلِ الغَيْبَةِ، بلْ جاءَ بِأُسلوبِ التَّكَلُّمِ؛ للنَّصِّ على أنَّ الإِهلاكَ هو مُقْتَضى الأمرِ الرَّبّاني القائم على العَدالةِ والرَّحمةِ؛ ولَو تَركَهم لَعَمَّ الفَسادُ، وانْتَشَر الكُفْرُ.

دلالَةُ التَّعْريفِ والجَمعِ في: ﴿ٱلۡقُرُونَ﴾:

التَّـعْـريـفُ وارِدٌ لِيَشْمَلَ القُرونَ الـظّـالِمَةَ كُـلَّـها، والجَمعُ لِلدّلالَةِ عَـلى أَنْـواعِـهـا المُخْتَلِفَةِ

عُرِّفَتِ القُرونُ وجُمعَتْ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ﴾؛ لِدَفْعِ تَوهُّمِ أنّهُ سبحانَهُ لا يَعمّ بالإِهْلاكِ والإِفْناءِ والعَذابِ، فجاءَ التَّعريفُ لِيَشْمَلَ القُرونَ الّتي ظَلَمَتْ وكَفَرَت كُلَّها، وجاءَ الجَمعُ لبيانِ أَنْواعِ القُرونِ: الغَنيَّةِ، والقَويّةِ، والفَقيرَةِ، والّتي كانَ سَبَبُ كُفْرِها ماليًّا، أوْ أَخْلاقيًّا، أوْ فِكريًّا، أوْ كِبرًا وتجبُّرًا.

نُكْتَةُ اسْتِعْمالِ لَفْظِ ﴿ٱلۡقُرُونَ﴾:

استُعْمِلَ لَفظُ القُرونِ دونَ مُفْرَدةِ الأُممِ أوِ القُرى، في قَوْلِ اللّه

(1) الرّاغب، المفردات: (هلك).

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/85.

مَهما تَطاوَلَتِ القُرونُ بالقوَّةِ والزَّمنِ والمُكْنَةِ؛ فإنَّ أمرَ الله تعالى غالِبٌ علَيْها

تَعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ﴾؛ لِأنَّ الأَصْلَ في القَرنِ الزَّمَنُ المُمتَدُّ الطَّويل، وشاعَ إِطْلاقُهُ عَلى الأُمَمِ الّتي دامَتْ وعُمِّرَتْ في الأَرْضِ أَزْمانًا مُتَطاوِلةً[1]، ولا تُعَمَّرُ الأُممُ إلّا بِقوَّتِها وسَيْطَرَتِها، ولَمّا كانَ سياقُ الجُملَةِ في إظْهارِ قوتِهِ وعَظَمَتِهِ وجَبَروتِهِ تَعالى؛ كان لفظُ القُرونِ أَنْسَبَ لِيُعلمَ أنَّ هذهِ القُرونَ عَلى ما كانَ لَها مِن القوَّةِ والمَنْعَةِ؛ فإنّا مُهلِكوها ومُزيلوها بِسُنَنِنا الكَوْنيّةِ وشَرائِعِنا الرَّبّانيَّة.

بَلاغَةُ المَجازِ بِالحَذْفِ في: ﴿ٱلۡقُرُونَ﴾:

إِهْلاكُ القُرونِ إذا جاءَ؛ فإنَّهُ لا يُبْقي ولا يَذَرُ مِنْ بَشَرٍ أَوْ شَجَرٍ أَوْ حَجَرٍ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ﴾ مَجازٌ بِالحَذْفِ، فالقُرونُ: جَمعُ قَرنٍ؛ وهوَ الزّمنُ الطَّويلُ، والمرادُ هُنا: أَهْلَكْنا أَهْلَ القُرونِ[2]، ووَرَدَ الحَذْفُ لِيُدْخِلَ جَميعَ مُتَعلّقاتِ تلكَ القُرونِ ممّا لَحِقهُ الإهْلاكُ ممّا يُؤذِنُ بالمبالَغةِ؛ فإهْلاكُهُ تعالى إذا جاءَ فإنّهُ لا يُبْقي ولا يَذَرُ مِنْ بشرٍ أَوْ شجَرٍ أَوْ حَجرٍ.

دلالَةُ حَرْفِ الجرِّ ﴿مِن﴾:

ذِكْرُ المَبْدَأِ إشارَةٌ إلى المُنْتَهى، وإِهْلاكُ الأَوَّلينَ تَلْويحٌ لِلمُتَأَخِّرين

حَرفُ الجرِّ ﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ دالٌّ على الابْتِداءِ، أيْ: ابْتَدَأَ الإهْلاكُ مِنَ الزَّمَنِ الّذي هوَ قَبلَ زَمَنِ الخِطابِ، فكلُّ ما يَدْخلُ في دلالَةِ الظَّرْفِ ﴿قَبۡلِكُمۡ﴾؛ فإنَّ الإهْلاكَ واقِعٌ عليه، لأنَّ مَنْ تَقدَّمهُم مِنَ الأُمم أُهلِكوا بِذلكَ العَذابِ المُسْتَأصِلِ وشَملَ آخِرَهُم وأَوَّلَهُم، كأنَّهُم نَسَمةٌ واحِدةٌ[3]، وما دامَ الإهْلاكُ مُبْتَدئًا مِن الأُممِ قَبْلَهم فهوَ مُنْتَهٍ إلى المخاطَبينَ، وفي ذِكْرِ المَبْدَأ إشارَةٌ إلى المُنْتَهى، فَفيهِ مَزيدُ إنْذارٍ ووَعيدٍ.

ولَمّا أُكِّدَتِ الجملةُ بالقَسَم و(قَدْ) في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ﴾؛ أُدْخلَتْ ﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ تَوكيدًا لِذَيْنِكَ المؤكِّدَين.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/137.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/113.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/85.

سِرُّ الإضافَةِ إلى ضمير المخاطبين: ﴿قَبۡلِكُمۡ﴾:

هَمزُ الأذْهانِ بِعَصا التَّهْديدِ تَحْريكٌ لِلأَبْدانِ بِصَوْتِ الوَعيدِ

قولُ اللّه تَعالى: ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ أُضيفَ الظّرْفُ (قَبْل) إلى ضَميرِ المخاطَبينَ؛ تَلويحًا بِعَصا التّأديبِ والتَّخويفِ، والمعنى: إنّكم لَستُم بَعيدينَ عَنهم، فَهُم قبلَكُم وأنتم إِثْرَهُم، فيَقَع عَليكم ما وَقَعَ عَليهم مِنَ الإهْلاكِ والإفْناءِ.

بَلاغَةُ الالْتِفاتِ: ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾:

المباغَتَةُ في الخِطابِ تَنْخَلِعُ مَعَها القُلوبُ، وتَنْفَطِرُ لَها الأَفْئِدَةُ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ الْتِفاتٌ بالخِطابِ، فقدْ وجّه اللّه سُبحانهُ خِطابَهُ المباشِرَ إليهم لقَصْدِ المبالَغَةِ في التَّشْديدِ والتّهديدِ والوَعيدِ، لا سيَّما بعدَ تَوْكيدِهِ بالقَسَمِ و(قدْ)؛ فإنَّ الإنْذارَ والتَّخْويفَ بالمُشافَهَةِ أَوْقَعُ أثرًا وأَبْلَغُ خبرًا مِنْ غَيرِهِ مِنَ الأَساليبِ[1]، وفيهِ من مُباغَتَةِ المخاطَبينَ بِمَضْمونِ الخِطابِ ما تَنْخَلِع معَهُ القُلوبُ، وتَنْفَطرُ لَهُ الأَفْئِدَةُ.

بَراعَةُ الإيجازِ في اسْتِعْمالِ ﴿لَمَّا﴾:

(لَمّا) دالَّةٌ عَلى مَعْنَيَيْنِ؛ فإهْلاكُهُمْ اقْتَرَنَ بِوَقْتِ ظُلْمِهِم، ومَعْنى العِلَّةِ حاضِرٌ فيها

في اسْتِعْمالِ ﴿لَمَّا﴾ في قوله: ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ إيجازٌ بَديعٌ؛ فَهيَ اسْمُ زَمانٍ دالٌّ على الحينِ، وقدْ أُشرِبتْ مَعنى الشَّرطِ، ويكونُ شَرْطُها ماضيًا غالِبًا[2]، والمعْنى: أنَّ إهْلاكَهُمُ اقْتَرنَ بِوَقْتِ ظُلْمِهم، أيْ: حينَما ظَلموا بِإشْراكِهم[3]، فالظُّلمُ شَرطُ الإهْلاكِ ووَقْتُه، وهذا مِنْ إيجازِ التَّعْبيرِ بِأداةٍ واحِدةٍ عَنْ مَعْنَيَينِ في سِياقٍ واحِدٍ.

ويَجوزُ في ﴿لَمَّا﴾ أنْ تَكونَ مُشْعِرَةً بالعِلِّيَّةِ والسَّبَبِ، ويَكونُ جَوابُها أَوْ ما يَقومُ مَقامَهُ مُتَسَبِّبًا عمّا بَعدَها[4] فإنّ ظُلْمَهُم وكُفْرَهُم سَبَبٌ لإِهْلاكِ اللّه إيّاهُم.

(1) الطّباطبائيّ، الميزان: 11/24، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/127.
(2) ابن هشام، أوضح المسالك: 3/106.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/113.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/21 - 22.

فائدَةُ التَّعبيرِ بالظُّلْمِ: ﴿ظَلَمُواْ﴾:

اسْتُعملَ الظّلمُ تَعْبيرًا عَنِ الشّركِ في قوله: ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾، لأنّ الظّلمَ لَيسَ مُنْحصرًا في تَكذيبِ الرّسلِ المرسلينَ مِنَ اللّه تعالى، بَل هو مَحمولٌ على سائرِ الظّلم والتّكذيب[1]، ولأنَّ الشّركَ ظلمٌ عظيمٌ، وأعْلى دَرجاتِ الظُّلم وأوْسَعُها الاعْتداءُ عَلى حقِّ اللّه تعالى في تَوْحيد الألوهيَّة، وأنْ ينقلَ ذلكَ لِغيره؛ فذلِكَ هوَ مُنْتَهى الظُّلمِ[2]؛ لِذلك قالَ سُبْحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: 13]، فالشّركُ مُصيبَةٌ عَظيمَةٌ، وتَعْظُمُ حينَ اقْترانِها بالظُّلم، وتَزْدادُ جُرمًا عِندما يَكونُ الشِّرك سَببًا في الظلم، فجاءَ التَّعبيرُ بالظُّلم لِبيانِ خُطورَتِه حينَ يَقْترنُ بالشِّرْك؛ إذْ يَكونُ صاحبُهُ جامِعًا بينَ أصْنافٍ مُتبايِنَةٍ مِنْهُ.

أعْظَمُ أنْواعِ الظُّلْمِ الاعْتِداءُ عَلى حَقِّ اللّه تَعالى في تَوْحيدِهِ

دلالَةُ الواوِ في: ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ﴾:

الواوُ في قوله تَعالى: ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ يَجوزُ أنْ تُفيدَ العَطْفَ عَلى جُملَةِ ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾[3]، والأَظْهرُ أنْ تَكونَ حاليّةً، "أيْ: ظَلَموا بالتَّكْذيبِ وقَد جاءَتْهُم رُسُلُهم بالحُجَجِ والشَّواهدِ على صِدْقِهم وهيَ المُعْجِزات"[4]، وفي الحاليّةِ دَرْءُ إشْكالِ عَطْفِ السّابِقِ على اللّاحِقِ؛ بأنْ يَعْطفَ ظُلْمَهُم على مَجيءِ الرّسُلِ بالبيِّناتِ، وإنْ كانَ التَّرْتيبُ الذِّكريُّ لا يَجبُ أنْ يكونَ حَسبَ تَرْتيبِ الوقوعِ والحُدوثِ[5].

أعْظَمُ أنْواعِ التَّكْذيبِ، التَّكْذيبُ بِالحَقِّ بَعْدَ تَبَيُّنِ أدِلَّتِهِ وبَراهينِهِ

سِرُّ جَمعِ لَفْظِ الرُّسُلِ، وإضافَتِهِ: ﴿رُسُلُهُم﴾:

جُمِعتِ (الرُّسُل) وأُضيفَتْ إلى الضَّميرِ العائدِ على القُرونِ في قَولِ اللّه تَعالى: ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، والمَقْصودُ بالقُرون: أهلُها، وغرضُ الجَمعِ: بَيانُ أنَّ الرُّسُلَ قد جاءَتِ الأقوامَ بِرِسالَةِ

رُسُلُ اللّه تعالى جاؤوا بِالرِّسالَةِ مِنْ عِنْدِ اللّه سُبْحانَهُ مِنْ غَيْرِ تَقْصيرٍ مِنْهُم في البَلاغِ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/127.
(2) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 9/5785.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/113.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/333.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/77.

اللّه تعالى بِميزانِ صِدقٍ وعَدلٍ، وأنَّ الرُّسُلَ جاؤوا أَقْوامَهم وأقاموا عَلَيهِمُ الحُجَّةَ، دونَ تَقْصيرٍ أَوْ تفاوتٍ فيما بَيْنهم، كما أنَّ غَرضَ الإضافَةِ بيانُ أنَّ لِكلِّ قَرنٍ رَسولَهُ الّذي أُرْسِلَ إليهِ، وفي ذلِك توبيخٌ لأَهْلِ القُرون السّابِقَة يُرادُ منْهُ إِسْماعُ المعاصِرينَ، لِيَلحَقهُم تَوبيخٌ في تَكْذيبِهِم وإِنْكارِهِم وكُفْرِهم.

دلالَةُ الباءِ في: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾:

دَعْـوَةُ الـرُّسُـلِ أَقْـوامَـهُـم مَقْرونَةٌ بِالبَيِّناتِ والبَراهين

الباءُ في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بِمَعْنى الاسْتِعانَةِ، وهوَ مِن أَشْهَرِ مَعانيها[1]، أيْ: أنّ رُسُلَهُم جاءَتهُم مُسْتَعينةً في أَداءِ رِسالَتِها بِالبَيِّناتِ[2]، وتَحْتَمِلُ الباءُ أَنْ تكونَ لِلتَّعْدِيَةِ، إذا تَعَلَّقت ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بقوله: ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ﴾[3].

ويَجوزُ أَنْ تَكونَ لِلمصاحَبَةِ، أيْ: أَنَّ الرُّسُلَ جاؤوا أقوامَهُم مقارِنينَ لِلبيِّناتِ الدّالَّةِ على صِحَّةِ إِرْسالِهِم.

دلالَةُ جَمعِ البَيِّنَةِ جَمعَ قِلَّةٍ:

قَليلُ البَيِّناتِ كافٍ عَنْ كَثيرِها، وبَعْضُها يؤَدّي وَظيفَةَ الحُجَجِ المُتَعَدِّدَةِ

قَولُ اللّه تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ جمعٌ بالألفِ والتّاء، وهو مِنْ جموعِ القِلّةِ[4]، وذلك مُشْعِرٌ بأنَّها بيِّناتٌ واضِحةُ البُرهانِ ناصِعةُ البَيانِ لا تَخْتَلِطُ على ذي عَقْلٍ، قَليلُها كافٍ عَنْ كَثيرِها، وبعضُها يُؤَدّي وظيفَةَ الحُجَجِ العديدَةِ، ولَيْسَ المَقْصودُ بالقِلَّةِ التَّقْليلَ مِنْ عَدَدِها أَوْ شَأنِها، بَل القِلَّةُ هُنا دَليلُ العَظَمة، فإنَّ البيِّناتِ عَظيمةُ الشَّأنِ، كَبيرةُ التَّأْثيرِ، وهذا دَليلُ الكِفايَةِ بِالقَليلِ عنِ الكَثيرِ، وكَم من كَثيرٍ قَليلٌ، وقَليلٍ كَثيرٌ.

دلالَةُ اسْتِعْمالِ: ﴿كَانُواْ﴾:

في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ﴾ التَّعبيرُ بالفِعلِ النّاقِصِ، وفي

---

(1) المبرّد، المقتضب: 1/39.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/85.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/127.

(4) فاضل السّامرّائيّ، التّعبير القرآنيّ، ص: 13.

ذلكَ إيماءٌ إلى أنّ نفيَ الإيمانِ عَنهُم كانَ بِسَببِ ما اعْتادوا مِنَ الأَعْمالِ التّي أَصْبحَتْ مَنْهجَ حياةٍ لا يَنْفكّون عنها، وأنّ اللّه سبحانهُ جازاهُم بِأنْ طَبَعَ عَلى قُلوبِهم[1] فأُدْخلوا في زُمرةِ المجْرمينَ، والتَّعبيرُ بـ ﴿كَانُواْ﴾ فيهِ إيماءٌ إلى اسْتِحالةِ إيمانِهم، وعسارَةِ رُجوعِهم، لِتمَكُّنِ الظُّلمِ مِنهُم.

نَفْيُ الإيمانِ بِسَبَبِ ما داوَموا عَلى اقْتِرافِهِ مِنَ الأَعْمالِ

دلالَةُ الواوِ في: ﴿وَمَا﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾ لِلعَطفِ، فقَد عَطفَتْ هذهِ الجملَةَ على جُملةِ: ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾، أيْ: أنّهم لَمّا ظلَموا وأَصرّوا على الكُفرِ وجمعوا إلى ذلكَ أَنَّهم لن يؤمِنوا، ولَم يَبْقَ لِلإمهالِ مَنْزعٌ أَهْلَكْناهُم، فَإهْلاكُهُم مُتَسَبّبٌ عَنْ هذَينِ الأَمرَينِ، فإنَّ ظُلْمَهم في إحْداثِ التّكْذيبِ وفي إِصْرارِهِم، فَلا فائدَةَ مُرْتَجاةٌ مِنْ إمهالِهِم[2].

اجْتِماعُ الظُّلْمِ والإِصْرارِ عَلى عَدَمِ الإيمانِ عِلَّةُ الاسْتِئْصالِ

دلالَةُ اللّامِ في: ﴿لِيُؤْمِنُواْ﴾:

اللّامُ في قوله تَعالى: ﴿لِيُؤْمِنُواْ﴾ لامُ الجُحودِ، وقَد أَفادَتْ تَوكيدَ النَّفيِ، والمعْنى: أنّهُم لَم يَكونوا مؤمنِينَ، وأنَّ اللّه سبحانَهُ يَعلمُ إصرارَهم عَلى كُفرِهم[3]، وأنّهُ عَلِمَ أَزلًا أنّهم لَنْ يَختاروا الإيمانَ، وفيها دلالَةٌ على انتِفاءِ الإيمانِ مِنْهُم على سَبيلِ المبالغَةِ، وأَنَّ إيمانَهم أمرٌ مَيئوسٌ منهُ[4].

التَّأكيدُ عَلى نَفْيِ إيمانِهم، وكَوْنُ اللّه تَعالى عالِمًا بِإِصْرارِهِم عَلى الكُفْرِ

غَرَضُ حَذْفِ مُتَعَلّقِ فِعْلِ الإيمانِ:

حُذِفَ مُتعلّقُ الفِعلِ ﴿لِيُؤْمِنُواْ﴾، وتَقْديرُهُ: وما كانوا لِيؤمِنوا بِأيِّ أَمرٍ ممّا يَجِبُ الإيمانُ بِهِ، ولَوْ أُنْزلَتْ عَليهِم كلُّ آيةٍ، وفي هذا الحَذْفِ تَنْبيهٌ وتَحذيرٌ لِمَن يَسأَلُ اللّه سُبحانهُ أنْ يُريَهُم مُقدّماتِ العَذابِ أَوْ ما اقْتَرحوهُ، فَبَيَّنَ أنَّ ذلكَ لَنْ يَكونَ سَببًا لإيمانِهم، فهوَ قدْ قَضى بِكُفْرِهم اخْتيارًا لا لُزومًا[5].

عَذابُ الاسْتِئْصالِ لا يَكونُ إلّا لِمَنْ جَفَّ ماءُ رَجاءِ إيمانِهِ

---

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/318.
(2) شيخ زاده، حاشية على البيضاوي: 4/549.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/333.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/114.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/85.

بَلاغَةُ التّشْبيهِ في الآية:

في قولِ اللّه تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ تَشْبيهُ جَزاءِ المَجْرِمين بالجَزاءِ المَذْكورِ قبْلُ مِنْ حِرمانِ الإيمانِ، وفي ذلك تَحذيرٌ شَديدٌ من مواقعَةِ الإجْرامِ؛ لِئلّا يكونَ سببًا في حِرمانِ الإيمانِ بالكُلّيَّة، فكأنَّ الآيةَ تقول: مِثْلَ ذلك الجزاءِ الّذي تَعرفونَهُ، مِن مُعاقبةِ المَجْرمين، سَيُجازى المَجْرِمون في كلِّ حين، وفائدَةُ هذا الأسْلوبِ اسْتِحْضارُ مَعْهودِ المخاطَبين مِنَ العِلمِ؛ لِفَهمِ مُرادِ اللّه تَعالى مِن سُنَنِه، فإنَّ سنَّةَ اللّه جَرَت بِمعاقبَةِ المجرمين الظّالِمين، ففيه تَهديدٌ صَريحٌ لِلمُكَذِّبينَ في عَهْدِ النَّبيِّ ﷺ.

مَضَتْ سُنَّةُ اللهِ بِمُعاقَبَةِ المُجْرِمينَ الظّالِمينَ الّذينَ اسْتَحالَ إيمانُهُم

فائدَةُ اسْتِعْمالِ اسْمِ الإشارَةِ لِلبَعيدِ (ذلك):

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مِن قولِ اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ مركَّبَةٌ مِنْ كافِ التَّشبيه، واسْمِ الإشارَةِ (ذا)، ولامِ البُعد[1]، وأمّا الكافُ فهيَ لِلخِطاب، وفي التَّعبيرِ بلامِ البُعدِ مَعَ اسْمِ الإشارَةِ إيماءٌ إلى تَعظيمِ المُشارِ إلَيه تَخويفًا وتَهديدًا مِنْ جزائه تعالى، وهوَ الإهْلاكُ والاسْتِئْصالُ والإفْناءُ التّامُّ.

تَعظيمُ المُشارِ إلَيهِ تَخويفًا وتَهديدًا مِن وقوعِ جَزائِهِ تَعالى

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿نَجۡزِي﴾:

التَّعْبيرُ بِالفِعْلِ المضارِعِ ﴿نَجۡزِي﴾ في قولِه تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ باعْتِبارِ أنَّ الآيَةَ "وَعيدٌ شَديدٌ لِمَنْ كانَ في عصْرِهِ مِنَ الكفّارِ أو لِكُفّارِ مكّةَ على الخُصوصِ"[2]، فالآيَةُ خِطابٌ لِمُعاصِريهِ ممّا يَقْتَضي التَّعْبيرَ بالمضارِعِ الدّالِّ على الاسْتِمرارِ والتَّجَدُّدِ وإمكانِ جَرَيانِ الحُكمِ في الزَّمَنِ الحاضِرِ وفي كلِّ زَمانٍ.

التَّلويحُ بِالعِقابِ، وبَيانُ أنَّ بِالإمْكانِ وقوعَ الجَزاءِ في كُلِّ زَمانٍ

سِرُّ ذِكْرِ المَوْصوفِ: ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾:

إيثارُ ذِكْرِ لَفْظِ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾ دونَ الاكْتِفاءِ بِوَصفِ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾،

(1) ابن فرحون، العدّة في إعراب العمدة: 2/202.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/489.

فَلَم يَرِدِ النَّظْمُ القُرآنِيُّ: (وكذلك نجْزي المجرمين)، لِبَيانِ أنَّ الّذين اسْتَحقّوا العَذابَ هُم قَومٌ اجْتَمَعوا على الإجْرام، لا مُجرَّدُ أفْرادٍ أَجْرَموا، وأنَّ الإجْرامَ الّذي يَسْتَدعي العَذابَ الماحِقَ هوَ إجْرامُ قَوم قاموا على حَضارةٍ وثَقافةٍ وفِكْرٍ وقوَّةٍ، واغْتَرّوا بذلِكَ، كَحالِ كُلِّ حَضارَةٍ خَرَجت عَن مَنْهَج اللّه تعالى، واغْتَرَّتْ بِصَنيعِها، وبوجودِها.

العَذابُ الماحِقُ بِسَبَبِ قَومٍ اجْتَمَعوا عَلى الإجْرامِ لا بِسَبَبِ أَفْرادٍ أَجْرَموا

دلالَةُ التَّعْريفِ في ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾:

اللّامُ في ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾ مِنْ قولِ اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ لِلاسْتِغْراقِ؛ لِيَعمَّ في المَعْنى القُرونَ الماضيَةَ والمخاطَبينَ؛ فهيَ على تَقْديرِ (كلّ) أيْ: كُلَّ قَوْم، وفي هذا التّعْميمِ إنْذارٌ وتَخْويفٌ لِكُلِّ مُجْرِمٍ مِنْ أنْ يُصيبَهُ ما أَصابَ أولَئِكَ[1].

التَّعْريفُ والجَمْعُ لِلاسْتِغْراقِ ولِيَعُمَّ القُرونَ الماضِيَةَ والمخاطَبينَ إنْذارًا لَهُم وتَحْذيرًا

نُكْتَةُ ذِكْرِ وَصْفِ الإجْرامِ: ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾:

ذِكْرُ وَصفِ الإجرامِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ دونَ الشِّرْكِ أوِ الظّلمِ أوِ ما قارَبَهما مِنَ المعاني؛ لأنَّ أَقْصى الإجْرامِ هوَ الإشْراكُ باللّه[2]، والتَّعْبيرُ بِوَصفِ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ فيهِ دَلالَةٌ على عَراقَتِهم في الإجْرامِ، وهو قَطْع ما يَنْبغي أنْ يوصَلَ[3].

التَّعْبيرُ بالإجْرامِ بَيانٌ لِعَراقَةِ أولَئِكَ المُشْرِكينَ فيهِ

دلالَةُ وَضْعِ الظّاهِرِ مَوْضِعَ المُضْمَرِ: ﴿نَجۡزِي﴾:

في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ إيقاعٌ لِلظّاهِرِ موقِعَ المضمَرِ؛ إذْ قد عُدِلَ عَنْ (نجزيهم) أوْ (نجزيكُم يا أهلَ مكّة بِما كَذَّبتُمُ الرّسولَ ﷺ، وفي هذا العُدولِ دلالَةٌ على كمالِ الجُرمِ الصّادرِ مِنهُم، وأنَّهم أَعْلامٌ عَريقونَ فيهِ[4].

الدّلالَةُ عَلى كَمالِ جُرْمِهِم وأَنَّهُم أَعْلامٌ فيهِ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/114، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/127.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/114.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/86.

(4) الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/9.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّة:

القُرونُ والأُمَمُ:

القُرونُ: جمعُ قرنٍ؛ وهوَ الاسمُ الّذي يقعُ على المَجموعةِ مِنَ النّاسِ في مُدّةِ سَبعينَ سَنةً[1]، وقيلَ: مِئةُ سَنةٍ، والمرادُ في الآيَة: أَهْلُ القُرونِ، والجامعُ بَيْنَهم: أنّهم مُقْترنونَ في هذهِ المدَّةِ الزَّمنيَّة، وأنَّ طولَ اللُّبثِ والاقْترانِ وبَقاءِ الجَمعِ مِنَ النّاسِ مؤذِنٌ بِقوّتهم وصَلابتِهم وعَدَمِ انْدِثارِهم على يَدِ سواهُم، بَل بِفِعلِ حَوادثَ خارِقَةٍ لِلعادَةِ يَدلُّ حالُها عَلى أنَّها مُسلَّطَةٌ عَلَيهِم مِنَ اللّه تَعالى عِقابًا لَهُم[2]؛ ولِذلِكَ وَرَدَ إِهْلاكُ القُرونِ في القُرآنِ الكَريم - ومِنْهُ هذهِ الآيَةُ - لِلدّلالَةِ على قُدْرتِه تَعالى وعَظَمَتِه، أمّا الأمَمُ؛ فَلَفظٌ يَقعُ على العاقِلِ وغَيْرِه، كَأُمم الطَّيْرِ ونَحوِه، ويُطْلَقُ على الجنِّ أَيْضًا، ولَم يَرِدِ الإِهْلاكُ والعَذابُ مُقترنًا بِلَفظِ الأُمَمِ اقْترانَهُ بِلَفظِ القُرونِ؛ لِما تَقدَّمَ مِن أنَّ لَفظَ القُرونِ يُشْعِرُ بِمَعنى الشِّدَّةِ والقوّةِ والبَقاءِ.

في القُرونِ طولُ لُبثٍ واقْتِرانٍ وبَقاءٍ، وهوَ مؤْذِنٌ بِقوَّتِهِم وصَلابَتِهِم وعَدَمِ انْدِثارِهِم

البَيِّنَةُ والبُرْهان:

البُرهانُ هوَ كلامٌ يَشهدُ بِصحّةِ الأمرِ، وفيهِ مَعنًى آخَرُ: وهو ما يَقطعُ حُجّةَ الخَصمِ[3]، ولا يَختصُّ البُرهانُ بكونِه كَلامًا، ويَدلُّ لِذلِك قولُ اللّه تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: 24]، فإنَّ هذا البُرْهانَ لَيسَ كلامًا قَطْعًا؛ إذِ الكَلامُ يُسْمَعُ ولا يُرى.

أمّا البَيِّنَةُ: فهيَ ما يُبَيِّنُ الحَقَّ ويوضِّحُهُ، فَفي قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ "أيْ: بالمُعجِزاتِ الواضِحَةِ الدّالَّةِ عَلى الرِّسالةِ الإلَهيّةِ الّتي حَمَلوها، فما طَغى المجرمونَ عَن غيرِ بَيِّنَةٍ"[4]، وعَلى هذا التَّقريرِ يَكونُ البُرْهانُ أَخصَّ مِنَ البيِّنَةِ، فكُلُّ بُرهانٍ بَيِّنَةٌ مِنْ غَيرِ عَكسٍ.

البَيِّنَةُ ما يَأْتي بِها الرُّسُلُ ابْتِداءً، والبُرْهانُ كَلامٌ يَشْهَدُ بِصِحَّةِ الأَمْرِ ويَقْطَعُ حُجَّةَ الخَصْمِ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 427.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/136.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 97.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3529.

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٤﴾ [يونس: 14]

مُناسبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانْتِقالُ مِنْ سَبْرِ أَحْوالِ السّابِقينَ إلى خِطابِ الحاضِرينَ لِلاعْتِبارِ والاتِّعاظِ

بَعدَ أنْ بَيَّنتِ الآياتُ السّابِقةُ إِهلاكَ الأمم السّابقةِ بِسَببِ ظُلْمِهم وكُفْرِهم وتَكْذيبِهِمُ الرُّسلَ، وبعدَ أنْ أَعْلَمَ اللّه تعالى المخاطَبينَ بما جرى لَهُم، وما اعْتراهُم بِسَببِ ذُنوبِهِم[1]؛ أَخْبَرتِ الآيَةُ بما آلَ إليه حالُ المخاطَبينَ، وما كلِّفوا بِهِ مِن الخِلافةِ في الأَرْضِ امتحانًا لَهُم، فالمناسَبَةُ بَيْنَ الآيَتَينِ: الانْتِقالُ مِن سَبْرِ أَحْوالِ السّابقينَ، إلى خِطابِ الحاضِرينَ؛ لاعْتِبارِ الحاضِرِ بالماضي، ولِلحذَرِ مِنِ اقْتِرافِ ما اقْتَرَفوهُ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾: جَمعٌ مُكسَّرٌ، وجذْرُه اللُّغويّ: الخاءُ واللّامُ والفاءُ، وهو دالٌّ على ثَلاثَةِ مَعانٍ كُلِّيَّةٍ؛ أَحَدُها: أَنْ يَليَ شَيءٌ شَيئًا فيَكونَ مَكانَهُ، والثّاني: نَقيضُ قُدّام، والثّالثُ: التَّغيّرُ والتَّبَدُّلُ، وهذهِ المعاني مُتَناسِبَةٌ مُتَقارِبةٌ مَعَ لَفظةِ ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ في الآيةِ، فإنَّهُم قَد قاموا مَقامَ مَن سَبَقهم مَعَ تَأَخُّرِهم، وفي كلِّ ذلِك تغييرٌ وتَبديلٌ.

ولا يُشْترطُ للتَّأخّرِ أَنْ يَكونَ لِقصورٍ في مَكانَتِهِ، بَلْ قَدْ يَخْلفُهُ لِغَيْبَتِهِ، أَوْ فَقْدِهِ أَوْ عَجْزِهِ، أَوْ لِتَشْريفِهِ، والخَلَفُ: مَن بَقيَ بَعدَ مَوتِ سابِقِهِ، ومِنهُ الخَليفَةُ - مفْرَدُ: خُلَفاء - ؛ وهو مَن جاءَ بَعْدَكَ[2]، ومعْنى ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ﴾ في الآيَةِ: كُلَّما مَضَتْ طائِفَةٌ؛ خَلَفَتها أُخْرى[3].

---

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/84.

(2) الخليل، العين، وابن دريد، الجمهرة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خلف).

(3) الهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث: (خلف).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

يُشيرُ الله ﷻ إلى امتِنانِه على خَلْقِه بِأنْ جعل لَهُمُ التَّمكينَ في الأَرْضِ حتّى اسْتُخْلفوا فيها، بَعد تِلكَ الأُمم الّتي أُهْلِكتْ بِكُفْرِها؛ لِيَنظرَ: أَيَتَّعِظونَ بِمَن كانَ قَبْلَهم فتَصلحُ أَعْمالُهُم أم يَتَنَكَّبونَ عَن طَريقِ الهُدى فيُلاقوا مَصيرَهُم، فَما اسْتِخلافُكم إلّا ابْتلاءٌ واخْتِبارٌ جَريًا على سُنَّتِه تَعالى في امتِحانِ عِبادِه.

تَصْييرُ اللّاحِقينَ خَلائِفَ السّابِقينَ سُنَّةُ الله تَعالى الجارِيَةُ في البَشَرِيَّةِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ حَرْفِ العَطْفِ ﴿ثُمَّ﴾:

﴿ثُمَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ﴾ حَرفٌ دالٌّ عَلى العَطفِ، حيثُ عَطَفَ هذهِ الجملَةَ على جُملةِ الإهْلاك ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾، و﴿ثُمَّ﴾ مؤذِنةٌ بالبُعدِ، وهيَ دالَّةٌ على التَّرتيبِ والتَّراخي[1]؛ فإنّ جَعلَ الله تعالى إيّاهُم خلائفَ أَهَمُّ من إفناءِ القُرونِ السّابِقةِ وإهلاكِها؛ لِما فيهِ منَ المِنّةِ عليهِم وأنّهُ عَوَّضَهُم بِهِم[2].

جَعْلُ اللّاحِقينَ خَلائِفَ لِلسّابِقينَ أَهَمُّ مِنْ إهْلاكِ القُرونِ

وفي ﴿ثُمَّ﴾ أيضًا إشارَةٌ إلى "تَعَدُّدِ الأَجْيالِ وكَثْرتِها، وما تَرَكَتْهُ مِن عِبَرٍ وآثارٍ تَدلُّ على عاقِبَةِ أمرِهِم، وهُم عَلى مَقْرَبَةٍ مِنهُم يَسيرونَ في أَرْضِهِم"[3].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِفِعْلِ الجَعْلِ:

عُبِّرَ بالفِعْلِ ﴿جَعَلۡنَٰكُمۡ﴾ دونَ غَيْرِه منَ الأفعالِ المقارِبَةِ لَهُ في الدّلالَةِ؛ لِكَونِهِ أَلْيَقَ وأنسبَ لِمَكانِه في الآيَةِ، ولِما فيهِ من مَعْنى الامتِنانِ، وفي الجَعْلِ مَعْنى التَّضمين، كَتَصْييرِ شَيءٍ شَيئًا[4].

الجَعْلُ لا يَقَعُ دَفْعَةً واحِدَةً، بَلْ بِتَدَرُّجٍ سُنَنِيٍّ ومَراحِلَ مَقْصودَةٍ

والجَعْلُ في الآيَةِ بِمَعْنى التَّصْييرِ؛ بأنْ صَيَّرهم خلائِفَ، فأَهْلَكَ مَنْ

---

(1) المراديّ، الجنى الداني، ص: 430.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/114.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3530.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/320.

كانَ قَبْلَهم منَ القُرونِ والأُممِ الخاليَةِ، واسْتَخْلَفَهُم فيها، فَفيها إشارَةٌ إلى أنَّ الجعْلَ لا يَقعُ دفْعَةً واحدةً، بَل علَى مَراحِل؛ لأنَّ هذا هوَ شَأْنُ التَّصْييرِ، فالأُممُ تَنْدَثِر وتَأْتي مَكانَها أُممٌ أُخْرى، بِسُنَّةٍ كَوْنِيَّةٍ أَرادَها اللّه ﷻ.

نُكْتَةُ الخِطابِ في ﴿جَعَلۡنَٰكُمۡ﴾:

الخِطابُ في قولِه تَعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ﴾ عامٌّ لِجَميعِ مَنْ أُرْسِلَ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ، ومعْناهُ: قَدِ اسْتَخْلَفَكُم في الأرْضِ بَعدَ الأُمم الّتي أَهْلَكَها بِكُفْرِهِم[1]، بِأنْ يَخْلُفَ بَعضُكم بَعضًا في الأَرْضِ؛ فإِنَّ مِنْ حِكْمَتِه تَعالى أَنْ يَتَعاقَبَ الإِنْسانُ في الأَرْضِ لِعِمارَتِها؛ فَيَذْهَبُ جيلٌ ويَخْلُفُهُ جيلٌ آخَرُ حتّى مَوْعِدِ الفَناءِ وحُلولِ الزَّوالِ، ونُكْتَةُ الخِطابِ: الامْتِنانُ عَلَيْهِم بِأنْ جَعَلَهم خَلائِفَ بَعدَ الهالِكينَ، فَفيهِ إِشارَةٌ إلى اصْطِفائِهم لِيَحْمِلوا رِسالَةَ اللّهِ تَعالى الّتي قَعَدَتْ عَنْ حَمْلِها القُرونُ السّابِقَةُ.

الامْتِنانُ في جَعْلِ المُخاطَبينَ خَلائِفَ في اصْطِفائِهِم لِحَمْلِ رِسالَةِ الإِسْلامِ

غَرَضُ اسْتِعْمالِ صيغَةِ الجَمعِ ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾:

التَّعْبيرُ بـ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ دونَ (خُلَفاء) في قولِ اللّه تَعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ﴾ مَع أنَّ كِلا اللَّفْظَتَيْن جَمعُ تَكْسيرٍ، وكِلاهُما مِنْ جُموعِ الكَثْرةِ؛ لأَنَّ الخَلائفَ يُسْتَعْمَل غالِبًا في الأُمَمِ الّتي تَخْلُفُ غيرَها، كَقولِه تَعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ [الأنعام: 165]، بَيْنَما لَفْظُ الخُلَفاءِ يُسْتَعْمَل في الأُمّةِ الواحِدَةِ، أَيْ: يَخْلُفُ النّاسُ بَعْضُهم بَعْضًا في الأُمَّةِ الواحِدَةِ، كَما قالَ تَعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ [الأعراف: 69]، فَهذا خِطابٌ لِعادٍ، وهُم خُلفاءُ يَخْلُفُ بَعْضُهم بَعْضًا، وعَلى ذلِكَ فإِنَّ التَّعْبيرَ بالخَلائِفِ يومِئُ إلى أَنَّ الاسْتِخلافَ هُنا شامِلٌ لِلأُمّةِ المُحَمَّدِيَّة، فَتَكونُ أمّةُ مُحمَّدٍ ﷺ خَلائِفَ كُلِّ الأُمَمِ، وهوَ مِنْ إِنْعامِ اللّه تَعالى عَليهِم.

(خَلائِف) يُسْتَعْمَلُ في الأُمَمِ الّتي تَخْلُفُ غَيْرَها، ولَفْظُ الخُلَفاءِ يُسْتَعْمَلُ في الأُمَّةِ الواحِدَةِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/330.

دلالَةُ التَّعْريفِ في: ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

اللّامُ تَحْتَمِلُ أنْ تَكونَ عَهْدِيَّةً أوْ اسْتِغْراقيَّةً

اللّامُ في قوله: ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ إمّا أنْ تُحمَلَ عَلى العَهْدِ[1]، فالمخاطَبونَ هُمُ العَربُ الّذين خَلَفوا عادًا وثَمودَ ونَحوَهم؛ فيُرادُ بالأَرْضِ: ما هُم عَليهِ من جَزيرةِ العَربِ[2]، ويُحتَملُ أنْ يكونَ الخِطابُ شامِلًا للأُمّةِ الإسْلاميَّة، والمَقْصودُ بالأَرْضِ: أيُّ أَرْضٍ، فاللّامُ اسْتِغْراقيَّةٌ؛ وفي الكَلامِ بِشارَةٌ لِأُمَّةِ الإسْلامِ أنّها آخِرُ الأُمَمِ الّتي جَعَلَها اللّه سُبحانَهُ لِتكونَ سَبَبًا في عِمارةِ الأرْضِ.

فائدَةُ اسْتِعْمالِ: ﴿فِي﴾:

الإشـــارَةُ إلى انْتِشارِ دينِ الله تَعالى في الأَرْضِ كُلِّها

اسْتُعْمِلَ حرفُ الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لِيَدلَّ عَلى اسْتِخْلافِهم في جَزيرَةِ العَربِ الّتي يَسْكنونَ فيها، وهذا هوَ المَعْنى الظّاهِرُ، وفيهِ بِشارَةٌ لَهُم في انْتِشارِ دينِهم في الأرْضِ، وسيادَةِ سُلْطانِهم على أَهْلِها في ذلِكَ الوَقْتِ وما بَعدهُ، فاسْتِعْمالُ حَرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي﴾ دالٌّ عَلى أنَّ الاسْتِخلافَ سَيَكونُ فيها كُلِّها، كَما قالَ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٢٨﴾ [الفتح: 28].

تَوْجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفْظِيِّ: ﴿خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ﴾:

في قولِ اللّه تعالى: ﴿خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ ذُكِرَتِ الخلائفُ مُنَكَّرَةً، وجاءَ ذِكْرُ الخلائفِ مُعَرّفًا في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: 165]، والفَرْقُ بَيْنَ المَوْضعَين: أنّ سياقَ الخِطابَ في سورَةِ الأَنْعامِ جارٍ عَلى المعارفِ بِتَكرارِ ذِكْرِ المخاطَبينَ عَلى التَّعْريفِ قبْلَهُ فعَرّفَهُم، أمّا في آيةِ يونُسَ فقَد جاءَت على الأَصْلِ[3].

(1) اللّام العهديّة الدّاخلة على الأسماء النّكرة: الّتي تشير إلى معهود معروف بعينه، وهو أن يكون بينك وبين المخاطب معرفة وعهد سابق. ينظر: ابن السّرّاج، الأصول في النّحو: 1/150.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/114.

(3) الكرمانيّ، فتح الرّحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: 1/183.

دلالَةُ الحَرْفِ ﴿مِنْ﴾:

اسْتِخْلافُ أُمَّةِ الإِسْلامِ بَعْدَ الأُمَمِ المُهْلَكَةِ مِنْ غَيْرِ فاصِلٍ

اسْتَعْمَلَ النَّظْمُ القُرآنِيُّ حَرْفَ الجَرِّ ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ وأَدْخلهُ عَلى الظَّرفِ؛ لِبيانِ أنَّ الجَعْلَ ابْتدأَ مِن بَعْدِ اسْتِئْصالِهم مُباشَرَةً، فليس بَيْنَ المخاطَبينَ والأُمَمِ السّابِقَةِ المهْلَكةِ أُمَمٌ خَلَفوهم ووُجِدوا في الأَرْضِ، ففيهِ إشارَةٌ إلى اسْتِخلافِ أُمَّةِ الإِسْلامِ بَعد الأُمَمِ المُهْلَكَةِ مُباشَرةً مِنْ غيرِ فاصِلٍ.

دلالَةُ اللّامِ في ﴿لِنَنظُرَ﴾:

الاسْتِخْلافُ في الأَرْضِ عِلَّةٌ لِإِثْباتِ الأَعْمالِ الصّالِحَةِ لِلأُمَّةِ الصّالِحَةِ

اللّامُ في قوله: ﴿لِنَنظُرَ﴾ لِلعِلَّةِ والسَّبَبِ؛ فإنّهُ لَمّا اسْتَخْلَفَهم جَعَلَ هذا الاسْتِخلافَ عِلّةً لِعِلْمِهِ تَعالى المعبَّرِ عَنْهُ بالنَّظرِ، أيْ: لِيَرى اللّٰه تَعالى ويُشاهِدَ الأَعْمالَ الّتي تَعْملونَها في خِلافَتِكم، عندَها يُجازيكُم بِمُقْتَضى سُنَّتِهِ الجارِيَةِ، إنْ خَيْرًا فَخيرٌ وإنْ شَرًّا فَشَرٌّ؛ لأنَّ الخلافةَ إنّما جُعلتْ لإقامَةِ العَدلِ والحَقِّ في الأَرْضِ[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالنَّظَرِ: ﴿لِنَنظُرَ﴾:

النَّظَرُ مُسْتَعارٌ لِلعِلْمِ المُحَقَّقِ الَّذي هوَ العِلْمُ بِالشَّيْءِ المَوْجودِ

اسْتُعيرَ التَّعْبيرُ بِالنَّظرِ في قَوْلِه تَعالى: ﴿لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ لِلعِلمِ المُتَحَقّقِ الثّابتِ، وهو عِلمٌ بالشَّيءِ الموجودِ حَقيقةً؛ فَقَد شَبَّهَهُ بِنَظرِ النّاظرِ ومعايَنةِ الرّائي في ثُبوتِه وتحقُّقِه[2]، ولأنّ النّظرَ هو أقوى الطُّرقِ الموصلة إلى العِلمِ والمعْرفة وأدقُّها جاءَ التَّعبيرُ بِهِ، فمَعْنى ﴿لِنَنظُرَ﴾: لِنَعْلَمَ ما يَتَعلَّقُ بأعْمالِكم، والمرادُ بالعِلمِ: تَعَلُّقهُ التَّنْجيزيُّ، أيْ: سَيَظْهرُ لَكم ما عَلِمَهُ من أَعْمالِكم[3].

ومِنَ المفَسِّرين مَن حَمَلَهُ على المجازِ بالحَذْفِ؛ إذْ هو على حَذْفِ مُضافٍ، والتَّقْديرُ: لِيَنْظُرَ رُسُلُنا وأَوْلياؤنا[4] أَعْمالَكُم فَنُجازيكُم

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/259، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/115.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/334.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/115.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/22.

عَلَيها حسنًا أَوْ غيرَ ذلك، ولا يَفْتَقِرُ تَوْجيهُ النَّصِّ القُرآنيِّ إلى هذا التَّقْديرِ، مَعَ مُخالَفَتِهِ لِلظّاهِرِ.

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في: ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾:

طَلَبُ إِنْجازِ الأَعْمالِ الصّالِحَةِ دونَ السَّيِّئَةِ

في قوله تعالى: ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ اسْتِعارةٌ تَمثيليَّةٌ بِسؤالِهِم عنِ الحالِ الّتي يَعْمَلونَ عليها الأَعْمالَ الحسَنَةَ المناسِبةَ لاسْتِخْلافِهِم؛ لأنَّ المرادَ منهُ ظُهورُ الأعْمالِ الحَسَنَةِ الصّالِحَةِ، أمّا الأَعْمالُ السَّيِّئَةُ فهيَ لا تَصْدرُ عَنهم بَعدَ ما سَمِعوا مِنْ أخْبارِ القُرونِ الّتي أَهْلَكْناها[1].

بَلاغَةُ التَّوْشيحِ: ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾:

الوقوفُ عَلى فِعْلِ النَّظَرِ مَعَ ما تَقَدَّمَ؛ يُعْلَمُ مِنْهُ أنَّ ما بَعْدَهُ فاصِلَةُ الآيَةِ (تَعْمَلونَ)؛ لأنَّ المَعْنى يَقْتَضيهِ

في خاتِمَةِ الآيَةِ تَوْشيحٌ[2] - وهو المسَمَّى: الإِرْصاد - وهوَ نوعٌ مِنَ التَّبيينِ، وفيهِ يَعْرِفُ السّامِعُ ما يَلي مِنَ الكلامِ بما تَقَدَّمَ منهُ ويَتَوَقَّعُهُ، فَفي قولِه تَعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، إذا وَقَفْتَ عَلى قوله: ﴿لِنَنظُرَ﴾ مَعَ ما تَقَدَّمَ مِنَ الآيَةِ؛ عَلِمتَ أنَّ ما بَعْدَهُ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ لأَنّ المَعْنى يَقْتَضيه ويَطْلُبُهُ[3].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الاسْتِفْهامِ ﴿كَيْفَ﴾:

المُعْتَبَرُ في الجَزاءِ جِهاتُ الأَفْعالِ وكَيْفيّاتُها لا ذَواتُها، فَيَحْسُنُ الفِعْلُ تارَةً ويَقْبُحُ أُخْرى

في اسْتِعمالِ ﴿كَيْفَ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ نُكْتَةٌ، وهيَ أَنْ يَكونَ المُعْتَبَرُ في الجَزاءِ جِهاتِ الأَعْمالِ وكَيْفيّاتِها لا ذَواتِها[4] فمَعْناها عَلى ذلِكَ: أَيِّ شَيءٍ، فَيَنظُرُ هَل تَحْتَذونَ مِثالَ سابِقيكُم ويَقْبُحُ فِعْلُكم فَيُصيبكُمُ العَذابُ، أَمْ تُخالِفونَهُم ويَحْسُنُ فِعْلُكم فَيَجْزيكُمُ الثَّوابُ.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/127.

(2) وهو أن يكون في صدر الكلام ما يدلّ على القافية، يُنظر: السّبكي، عروس الأفراح: 2/315.

(3) العسكريّ، الصّناعتين، ص: 382.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/128، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/107.

المُضارِعُ أقرَبُ إلى ذِهْنِ السّامعِ وأمكَنُ أداءً لِتَصْويرِ العَمَلِ

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

في التَّعبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ في قوله تَعالى: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ دلالَةٌ عَلى التَّجَدُّدِ والحُدوثِ؛ فَهوَ قَريبٌ مِنْ ذِهْنِ السّامعِ وأمكَنُ في تَصْويرِ مَشْهَدِ العَمَلِ المتَكرِّرِ منْهُم، المراقَبِ المُراقَبِ مِنَ اللهِ تَعالى نَظَرًا وعِلْمًا، وهذِهِ الصّورَةُ يؤَدّيها الفِعْلُ المضارِعُ خَيْرَ أَداءٍ ويُصوِّرُها أفْضَلَ تَصويرٍ.

الزَّجْرُ عَنِ المَرْذولِ وطَلَبُ المَقْبولِ

غَرَضُ حَذْفِ مُتَعلّقاتِ الفِعْلِ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ حُذِفَتْ مُتَعلّقاتُ الفِعْلِ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾؛ مُبالَغَةً في الزَّجرِ عَنِ الأَعْمالِ السَّيِّئَةِ[1]، فَإنَّها لَيْسَتْ لائقَةً بالاسْتِخْلافِ، ولِطَلَبِ الإتْيانِ بِعُمومِ الأَعْمالِ الصّالِحَةِ المطْلوبَةِ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العَمَلُ والفِعْلُ:

العَمَلُ إيجادُ الأثَرِ خَيْرًا أَوْ شَرًّا، والفِعْلُ هوَ التَّأْثيرُ حَسَنًا كانَ أَوْ غَيْرَهُ وهوَ أَعَمُّ مِنَ العَمَلِ

العَمَلُ: إيجادُ الأَثَرِ في الشَّيْءِ، ويَكونُ بِمَعنى الإحْداثِ[2]، أيْ: أَنْ يُحْدِثَ شَيئًا ويوجِدَهُ، وهوَ أَخَصُّ مِنَ الفِعْلِ، والواقِعُ في الآيَةِ: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ أَخَصُّ مِنَ الفِعْلِ؛ فعَمَلُهم إمّا أَنْ يَكونَ خَيْرًا أَوْ شَرًّا، أَوْ هوَ عَمَلُهم الصّالِحُ فَقط بِمَدْعاةِ الاسْتِخْلافِ، ومَعْنى الفِعْلِ: تَأْثيرٌ بِمُؤَثِّرٍ إِنْ كانَ بإجادَةٍ أَوْ بِغَيرِها، فهوَ عامٌّ، عَنْ علمٍ ومَعْرِفَةٍ كانَ أَوْ عن غيرِ ذلِكَ، وأَنْ يَكونَ بِقَصْدٍ أَوْ مِنْ دونِ قَصْدٍ، وقَدْ يَكونُ مِنَ الإنْسانِ أَوْ مِنْ غَيْرِه[3] كالحَيَواناتِ الّتي يَقَعُ مِنْها الفِعْلُ مِنْ غَيرِ قَصْدٍ؛ فهوَ بِذلِكَ يَدُلُّ عَلى العُمومِ، وعَلى عَدَمِ الإتْقانِ.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/78.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 134 - 135.
(3) الرّاغب، المفردات: (عمل).

المحتويات
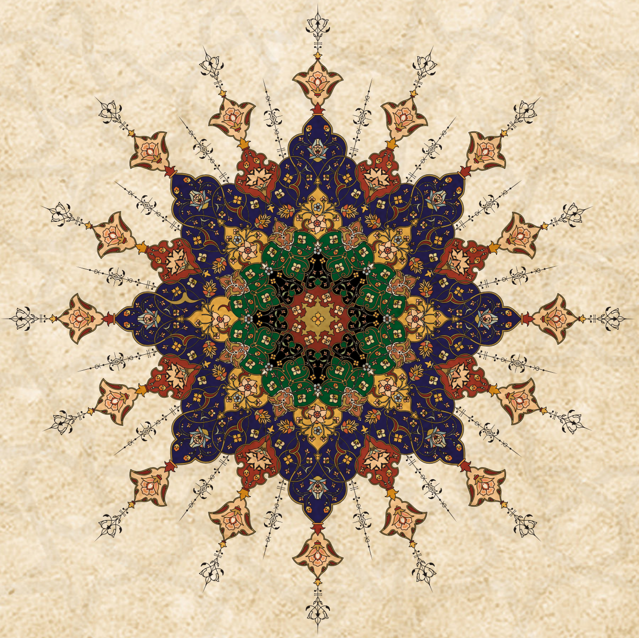
الجزء العاشر	**7**
سورة التَّوبة	**9**
- [التَّوبة: 87]	10
- [التَّوبة: 88]	22
- [التَّوبة: 89]	34
- [التَّوبة: 90]	42
- [التَّوبة: 91]	57
- [التَّوبة: 92]	74
الجزء الحادي عشر	**87**
- [التَّوبة: 93]	88
- [التَّوبة: 94]	97
- [التَّوبة: 95 - 96]	121
- [التَّوبة: 97]	144
- [التَّوبة: 98]	155
- [التَّوبة: 99]	168
- [التَّوبة: 100]	181
- [التَّوبة: 101 - 102]	204
- [التَّوبة: 103 - 104]	233
- [التَّوبة: 105]	269
- [التَّوبة: 10]	290
- [التَّوبة: 107 - 108]	300
- [التَّوبة: 109 - 110]	327
- [التَّوبة: 111]	350
- [التَّوبة: 112]	371
- [التَّوبة: 113]	390
- [التَّوبة: 114]	403
- [التَّوبة: 115]	414
- [التَّوبة: 116]	427
- [التَّوبة: 117]	438
- [التَّوبة: 118]	454
- [التَّوبة: 119]	474
- [التَّوبة: 120]	481
- [التَّوبة: 121]	502
- [التَّوبة: 122]	512
- [التَّوبة: 123]	522
- [التَّوبة: 124 - 125]	542
- [التَّوبة: 126]	563
- [التَّوبة: 127]	573
- [التَّوبة: 128]	587
- [التَّوبة: 129]	600
سورة يونس	**610**
- [يونس: 1]	619
- [يونس: 2]	628
- [يونس: 3]	648
- [يونس: 4]	668
- [يونس: 5]	685
- [يونس: 6]	700
- [يونس: 7 - 8]	709
- [يونس: 9]	724
- [يونس: 10]	737
- [يونس: 11]	747
- [يونس: 12]	760
- [يونس: 13]	780
- [يونس: 14]	792